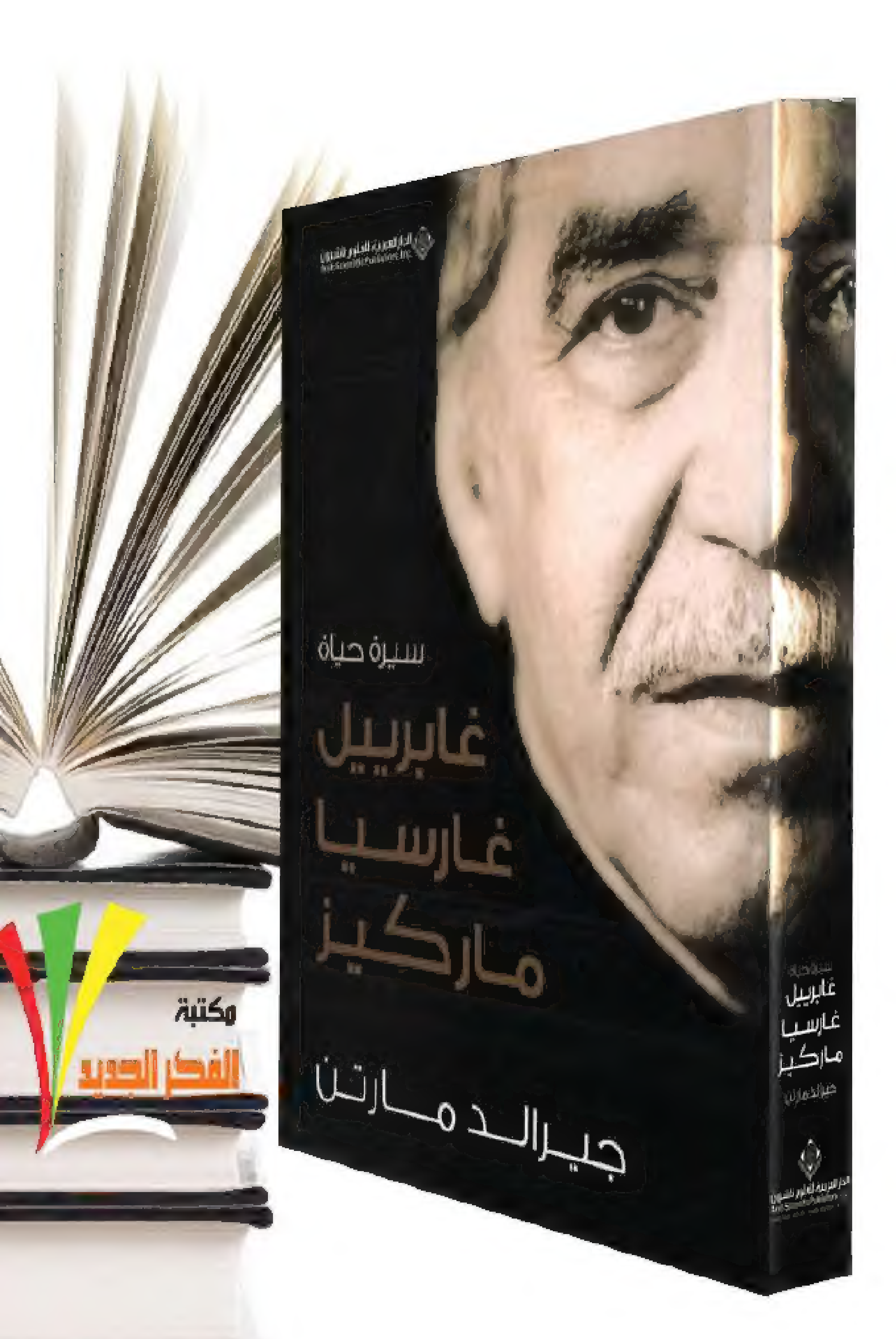


الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
سيرة حياة
غابرييل
غارسيا
ماركيز
جيرالد مارتن
مكتبة
الفكر الجديد



سيرة حياة

غابرييل غارسيا ماركيز



جيرالد مارتن


mohamed khatab



سيرة حياة

غابرييل غارسيا ماركيز

Gabriel García Márquez

A Life

تأليف

جيرالد مارتن

Gerald Martin

ترجمة

د. محمد درويش

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة







بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
Gabriel Garcia Márquez
حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر
Bloomsbury Publishing Plc
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى
1431 هـ – 2010 م

ردمك 978-9953-87-892-8



tarjem@mbrfoundation.ae
www.mbrfoundation.ae

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت – هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت – هاتف 786233 (9611+)



إحياءً لذكرى:

جورج إدوارد مارتن وشيلا أوكيف،

دينيس شاتون ودوروثي ماي أون.

وإلى حفيدتيهما

كاميلا جين وليوني ياسمين





المحتويات

مقدمة المترجم: غابرييل غارسيا ماركيز... من سلطة التاريخ إلى سلطة الرواية.........9

مقدمة المؤلف...19

تمهيد: من أصول مغمورة 1800–1899...25

القسم الأول

الوطن: كولومبيا

1955-1899

1. عقداء وقضايا خاسرة 1899–1927...37

2. بيت في آراكاتاكا 1927–1928...58

3. رفقة جدّه 1929–1937...76

4. أيام المدرسة: بارانكيا وسوكري وثيباكيرا 1938–1946..............................98

5. الطالب الجامعي والعنف في بوغوتا 1947–1948....................................135

6. العودة إلى الساحل: صحافي متمرن في كارثاخينا 1948–1959.......................153

7. بارانكيا وبائع كتب وجماعة بوهيمية 1950–1953.................................173

8. العودة إلى بوغوتا: مراسل صحافي من الطراز الأول 1954–1955.....................212

القسم الثاني

خارج الوطن: أوروبا وأميركا اللاتينية

1967-1955

9. اكتشاف أوروبا: روما 1955..235

10. جائع في باريس: البوهيمية 1956–1957..249

11. ما وراء الستار الحديدي: أوروبا الشرقية إبّان الحرب الباردة 1957...............276



12. فنزويلا وكولومبيا: ولادة الأم الكبيرة 1958-1959 293
13. الثورة الكوبية والولايات المتحدة الأميركية 1959-1961 323
14. هروب إلى المكسيك 1961-1964 338
15. ميلكيادس الغجري: مئة عام من العزلة 1965-1966 368
16. الشهرة أخيراً 1966-1967 388

القسم الثالث

رجل العالم: الشهرة والسياسة

1967-2005

17. برشلونة والانتعاش في أميركا اللاتينية: بين الأدب والسياسة
1967-1970 405
18. الأديب المستوحد يكتب ببطء: خريف البطريرك والعالم الأرحب
1971-1975 429
19. تشيلي وكوبا: غارسيا ماركيز يختار الثورة 1973-1979 460
20. عودة إلى الأدب: قصة موت معلن وجائزة نوبل 1980-1982 495
21. نوبة الشهرة وعطر الغوافة: الحب في زمن الكوليرا 1982-1985 536
22. خلافاً للتاريخ الرسمي: بوليفار غارسيا ماركيز (الجنرال في متاهته)
1986-1989 563
23. عودة إلى ماكوندو خبر كارثة تاريخية 1990-1996 596
24. غارسيا ماركيز في سنّ السبعين وما بعدها مذكرات وغانيات حزينات
1996-2005 636

خاتمة: الخلود؛ ثيربانتس الجديد 2006-2007 675
ملاحظات 693
حقوق الصور ونصوصها 771



مقدمة المترجم

غابرييل غارسيا ماركيز...
من سلطة التاريخ إلى سلطة الرواية

في شهر تموز سنة 1966، نشر غابرييل غارسيا ماركيز تأملات ذاتية يسترجع فيها محنته في الكتابة بعنوان **مصائب مؤلف كتاب**، وفيها يؤكد:

"إن تأليف الكتب مهنة انتحارية، إذ ما من مهنة غيرها تتطلب قدراً كبيراً من الوقت، وقدراً كبيراً من العمل، وقدراً كبيراً من التفاني مقارنة بفوائدها الآنية. إنني لا أعتقد أن عدداً كبيراً من القراء يسألون أنفسهم بعد الانتهاء من قراءة كتاب ما عن عدد الساعات المؤلمة والبلايا المنزلية التي مرت على المؤلف في أثناء تأليفه مئتي صفحة، أو ما هو المبلغ الذي حصل عليه لقاء عمله... وبعد هذا التقويم المحزن للبلايا، يبدو من الأساسي أن نسأل عن السبب الذي يدفعنا إلى الكتابة. والإجابة، في آخر الأمر، هي ميلودرامية بقدر ما هي مخلصة. فالمرء بكل بساطة يكون كاتباً مثلما يكون أسود البشرة أو يكون أي شيء آخر. النجاح يحفّز المرء، والحظوة عند القراء مشجعة. ولكن ليست هذه الأشياء سوى مكاسب إضافية لأن الكاتب الجيد سيظل، على كل حال، يكتب باستمرار، حتى إذا كان حذاؤه بحاجة إلى إصلاح، وحتى إذا كانت كتبه لا تلقى رواجاً".

ثم ينتقل غارسيا ماركيز، في موضع آخر، من العام إلى الخاص ليكشف لقرائه، ربما للمرة الأولى، ما يدور في ذهنه من أفكار، فيقول:

"اسمي، أيها السادة، هو غابرييل غارسيا ماركيز. آسف. فأنا شخصياً لا يروقني هذا الاسم لأنه سلسلة من كلمات عادية لم أستطع قط أن أربطها بنفسي. ولدت في بلدة آراكاتاكا في كولومبيا... ولا أزال غير آسف على ذلك. برجي هو



برج الحوت، وروجتي هي مرثيديس. هذان هما أهم حدثين في حياتي لأنني بفضلهما تمكنت حتى الآن، على الأقل، من البقاء على قيد الحياة بالكتابة. إنني كاتب هيّاب. مهنتي الحقيقية هي مهنة ساحر، لكني أرتبك ارتباكاً شديداً وأنا أحاول القيام ببعض الحيل التي أضطر إلى أن ألوذ بها من جراء عزلة الأدب. على كل حال، إن كلا النشاطين يقودان إلى الشيء الوحيد الذي أثار اهتمامي منذ أن كنت صغيراً: أن يحبني أصدقائي أكثر... إن كوني كاتباً من الكتّاب ليس سوى إنجاز استثنائي لأنني رديء جداً في الكتابة، وعليّ أن أخضع نفسي لانضباط شنيع كي أنجز كتابة صفحة واحدة بعد ثماني ساعات من العمل. إنني أناضل نضالاً جسدياً مع كل كلمة، لكن الكلمة هي التي تفوز على الغالب. لكنني عنيد جداً، حتى إنني تمكنت من نشر أربعة كتب خلال عشرين سنة. أما الكتاب الخامس الذي أكتبه الآن، فكتابته أبطأ من كتابة بقية الكتب لأنني لا أملك إلا النزر اليسير من الوقت بين كثرة الدائنين وحالات الصداع".

هكذا يتحدث غابرييل غارسيا ماركيز إلى قرائه في هذه السيرة التي يقول مؤلفها جيرالد مارتن إنه أمضى سبعة عشر عاماً في إعدادها وتأليفها، سبعة عشر عاماً أمضاها في قراءة أعمال ماركيز ومحاولاته الإبداعية في القصة القصيرة والرواية والمقالات الصحافية والنصوص السينمائية والسفر إلى عدد كبير من بلدان العالم لمقابلة أصدقاء ماركيز من صحافيين وأدباء وروائيين وسياسيين وزعماء أحزاب ورؤساء دول، من ضمنهم الزعيم الكوبي فيدل كاسترو، والرئيس الفرنسي الراحل فرانسوا ميتران، ورئيس وزراء إسبانيا السابق فيليب غونثاليث، وغيرهم من الشخصيات التي نهجت نهجاً اشتراكياً في سياستها، بهدف الإطلاع على تفاصيل علاقاتهم مع الروائي الكولومبي الفذ الذي عرفه قراء الأدب في عالمنا العربي وبقية أرجاء العالم رائداً للواقعية السحرية التي يفضّل هو عليها مصطلح الواقعية المأساوية.

غير أن جيرالد مارتن، كما نقرأ في هذا الكتاب القيّم، لا يقدم إلينا قراءة في سيرة غارسيا ماركيز ما نقله إليه المقربون من غارسيا ماركيز على اختلاف مواقعهم السياسية والفكرية والعقائدية وصلاتهم العائلية به وحسب، بل يقدم أيضاً دراسة



نقدية معمقة عن رواياته ومعظم قصصه القصيرة ومقالاته الأدبية والسياسية، المبكرة والمتأخرة، مشفوعة بإضاءات لا غنىً عنها في أي محاولة لفهم عوالم غارسيا ماركيز، فضلاً عن نشاطات ماركيز في كتابة النصوص السينمائية.

لقد طرح جورج لوكاتش في مجمل كتاباته النظرية حول أسس الروائي قصة البطل الإشكالي، وأظهر من خلال هذا المفهوم أن البطل الروائي كفرد إنما هو شخصية نموذجية تشير إلى وعي كلّي بالوجود، وهو وجود يحدد الوعي عند مجموعة بشرية تخضع لبيئة اقتصادية واجتماعية متجانسة. ويعبّر عن رؤية للعالم، ترتبط بنوع العلاقة التي تجسّد وضعه الاجتماعي، وبالتالي التاريخي. وقد نحا غارسيا ماركيز هذا المنحى، كما نرى، في مؤلفاته الروائية والقصصية حيث خلّد شخصيات كبرى، أكثرها حقيقية، مستمدة من قرى وبلدات كولومبيا بدءاً بمسقط رأسه آراكاتاكا، مروراً بسوكري وبارانكا وكارتاخينا وثيناكيرا ومغانغي وبوغوتا، وحكى لنا عن فقرها وعزلتها، وعن وجودها خارج التاريخ، وعن اضمحلالها، وعن علاقات أبنائها الاجتماعية، وظروفها السياسية والاقتصادية، وما تنطوي عليه تلك العلاقات من حب وعداء، (**مئة عام من العزلة**، و**قصة موت معلن** على وجه الخصوص) وحروب وانتقام (**خريف البطريرك**، و**ليس للعقيد من يكاتبه**، و**الجنرال في متاهته** و**في ساعة نحس**). في هذا كله، سعى غارسيا ماركيز لتوكيد مكانته الإبداعية وخطابه الأدبي الروائي، سرداً وصنعة، بالرغم من ظروف الفاقة والحرمان التي دفعته يوماً ما إلى أن يفتش في كومة نفايات عن بقايا طعام تسد رمقه، وإلى أن يعتذر من طفله الرضيع ليلاً لعدم امتلاكه المال اللازم لشراء الحليب لتناوله قبل النوم، وإلى أن يرسل نصف مخطوطة **مئة عام من العزلة** عبر البريد إلى الناشر الأرجنتيني لأنه لم يكن يملك ما يكفي من المال لإرسالها كلها. أما النصف الثاني من المخطوطة فقد أرسله بعد أن رهنت زوجته المدفأة الكهربائية ومجفف الشعر والمفرمة الكهربائية، وهي آخر ما تبقى لهما في البيت من حاجات منزلية بعد أن باعا أو رهنا كل ما يملكان.

حاول غارسيا ماركيز أن يوثّق الصلة بين التاريخ الاجتماعي - تاريخ البلدات والمدن الأميركية اللاتينية والتاريخ الفردي ممثلاً بتواريخ شخصيات



عسكرية - جدّه العقيد نيكولاس وبوليفار وغيرهما - فحسّن بذلك قدراته في التماهي بالتاريخ وبالجماعة (**مئة عام من العزلة** على وجه الخصوص)، فأسس بذلك عوالم منفصلة خارج الزمان وخارج المكان، تشابكت فيها وقائع الصدام التاريخي - ازدهار وانتعاش واضمحلال مجريات الواقع الاجتماعي/الفردي عزلة الفرد/البطل وسلطته وسقوطه بكل ما يمثله من دوغمائية/جدلية مدلوله الطقسي يمتد في فضاءات سياسية واقتصادية واجتماعية وعسابية. هكذا كان بوليفار وايبدي ونيرودا وفوينتس وعمر توريخوس وكورتاثار وكاسترو من الذين احتمى بهم، وعزز بهم مواقفه السياسية التقدمية ومقارعة الاستعمار والإمبريالية، ونادى بالاشتراكية الديمقراطية، وإن راوده قلق شديد وهو يرى في أثناء زيارته الاتحاد السوفياتي الاشتراكية وقد أسيء تطبيقها، فابتعدت عن أفكار مؤسسيه الأوائل وفلسفة منظريها الذين جاؤوا بها لإنقاذ الفقراء من براثن الاستغلال الرأسمالي.

لعل غارسيا ماركيز توجب عليه أن يعتقد، وهو ما توضحه كتاباته، أن التاريخ العلمي أسطورة، وأن التفسيرات أحادية الجانب غير مجدية، فلجأ إلى نماذج بشرية جماعية لدراسة النسبية لتركيبه المكونة لهذه الجماعات (مجتمع ماكوندو في **مئة عام من العزلة**، ومجتمع الأم الكبيرة في **جنازة الأم الكبيرة**، ومجتمع المتواريات الأفقية في الجنرال في متاهته) ليحلل بدقة دلالاتها الثقافية في نظام سوسيولوجي عام يستند إلى تجربة تاريخية ومنظومات ذات معانٍ متعددة. من هنا جاءت شعبوية غارسيا ماركيز وهو يكشف عن مَيْز أبطاله، الحقيقيين والمتخيلين، من التاريخ البعيد والتاريخ القريب، حتى إن بعض انتقاد قارئوه، بالرغم من التباين الواضح، بالروائي همنغواي[1]، وهو الروائي الذي أعجب به غارسيا ماركيز قدر إعجابه بروائي آخر هو وليم فوكنر[2] الذي حدثت رواياته الجنوب الأمريكي في حقبة عصيبة من تاريخ الولايات المتحدة.

انسجاماً مع تماهي غارسيا ماركيز بالتاريخ والشخصيات، نجده يكتب أيضاً في موضوعات أخرى ذات صلة مباشرة بها ألا وهي الحب والسلطة والانتصار والأمل، انطلاقاً من قناعته أن الناس في بلده، كولومبيا، كما في بلدان العالم الثالث،



لهوى السلطة وأصحاب السلطة، وتحيا متطرة و لأمل يحدوها في حدوث تغيير قد يأتي، وإن أتى فإنه في معظم الأحيان قد لا يكون تغييراً إيجابياً مناسباً. لقد أشار في مقابلة صحافية إلى أنه لو لم يكن كاتباً، لرغب في أن يكون عازفاً على البيانو لأنه يريد العزف في المشارب فيسهم بدوره في جعل العشاق يشعرون بحب أكبر تجاه أحبائهم. ويؤكد أنه لو أمكنه أن يجعل الآخرين يحب أحدهم لآخر من خلال كتبه، فذلك هو المعنى الذي أراده لحياته. من هنا كانت الكتابة عنده شعوراً باطنياً، ودافعاً لا يقاوم، وطموحاً، بل كانت في أحيان كثيرة عذاباً شديداً وسعادة لا توازيها سعادة.

إصراره على الكتابة لا يضاهيه إصرار آخر. فمن جهة أولى، قال له والده يوماً ما: "ستنتهي بك المطاف إلى أن تأكل الورق"، وذلك عندما قرر في العام 1949 أن يتخلى عن دراسة الحقوق بسبب رسوبه في السنة الثالثة من دراسته. وعندما حاول أحد أصدقائه أن يدافع عنه أمام أبيه، موضحاً له أن غارسيا ماركيز بات اليوم واحداً من أفضل كتّاب القصة القصيرة في كولومبيا، انفجر الأب صائحاً: "إنه قصّاص، حسبُ، طالما كان كذّاباً منذ طفولته!". من جهة أخرى، نجده يتلقى في العام 1952 رسالة مدمرة من دار نشر لوسادا في بوينس آيرس، التي أرسل إليها مخطوطة روايته الأولى **عاصفة الأوراق** بغية نشرها، فيها يخبره مدير الدار غييرمو دي توري، وهو أحد أبرز نقاد الأدب الإسبان في المنفى وأحد أقرباء الأديب الأرجنتيني المعروف خورخه لويس بورخس، إنه ليس لديه أي مستقبل في كتابة الرواية، واقترح عليه أن يبحث عن مهنة أخرى. لكن أصدقاء غارسيا ماركيز تجمهروا حوله. وقال له أحدهم: "يعلم الجميع أن الإسبان أغبياء!"

روايات غارسيا ماركيز وقصصه، وهو ما يؤكده في أكثر من مناسبة، ليست سوى صور من حياته الصاخبة، العاصفة، المدوية، أو هي انعكاسات لحياة من عرفهم وعاش معهم، وهي مزيج من السيرة الذاتية والخيال الجامح، يتداخلان ويتشابكان في أبعاد مختلفة. إن مرجعية منجزه الروائي والقصصي هي أماكن وأزمنة متباينة، من الماضي البعيد والقريب، تنحو في كثير من الأحيان، على ما فيها من تعقيدات، منحى فنتاسياً تزيده تعقيداً، من دون ارتباك أو اضطراب،

معالجته الروائية وهو ما يتضح بكل جلاء في **مئة عام من العزلة**، **والجنرال في متاهته**، **وخريف البطريرك**، **والحب في زمن الكوليرا**، **وقصة موت معلن**، وفي روايته شبه الوثائقية **خبر اختطاف**. بهذا تكون السيرة قد شكّلت أفق الرواية الماركيزية في تمثيل شكّل ارتباطها بالواقع والتاريخ، وهما الأمران اللذان سبق للوكاش أن أوضح أنهما يختزلان أبعاد الواقع والتجربة الحياتية وذلك لكون "الكلية المنفصلة للواقع تلتحم وتتماسك في الرواية، عبر السيرورة، ومن خلال ارتباطها بالشخصية الأساسية".

إننا نرى أن غارسيا ماركيز أعاد بمنجزه الاعتبار للرواية الجادة، بل أعاد الاعتبار إلى المؤلف بعد أن بشّر رولان بارت[3] بموته منذ سنوات طويلة بمنهجه البنيوي. لقد ثبت غارسيا ماركيز بهذا العدد الهائل من القراء الذين يقرأون رواياته بمختلف اللغات في جميع أرجاء العالم، واستمرار صدور طبعات جديدة من أعماله. وفي ظننا أن هذه السيرة متقنة الصنع تكشف للقراء عن جوانب وتفاصيل دقيقة من حياة الأديب الكولومبي مما قد يحفزهم على العودة من جديد إلى قراءة مؤلفاته مرات ومرات من دون أن يصيبهم الملل، وخصوصاً إذا ما أخذنا في الحسبان أن مؤلف السيرة جيرالد مارتن، هو الأستاذ الأقدم في جامعة متروبولتان لندن، وأستاذ اللغات الحديثة في جامعة بيتسبرغ والمعروف بكتاباته عن السرد الأميركي اللاتيني خصوصاً في كتابه ذائع الصيت **رحلات في المتاهة: الرواية الأميركية اللاتينية في القرن العشرين** الصادر سنة 1989. كما أنه يُعدُّ حجة في أدب إستورياس[4]، وكان رئيساً للمعهد العالمي للأدب الإيبري - الأميركي ومقره الولايات المتحدة، وهو عضو في هيئة تحرير مجلة دراسات في الثقافة الأميركية اللاتينية التي تصدر في لندن. ومن المؤمّل أن تُصدِر له جامعة كيمبردج كتاباً بعنوان **مدخل إلى غارسيا ماركيز**.

أخيراً، لا بد من الإشارة في ختام هذه المقدمة إلى أن مؤلف الكتاب قرر إدخال بعض التعديلات والإضافات والتصويبات على هذه السيرة بعد صدورها مباشرة في 28 تشرين الثاني 2008. وقد وصلتنا هذه التعديلات عن طريق الدار العربية للعلوم - ناشرون في شهر أيار 2009 وكنا قد أنجزنا ترجمة أكثر من نصف



الكتاب، فما كان منا إلا الالتزام برأي المؤلف والناشر. وبدأنا إعادة ترجمة الكثير من الفقرات والعبارات بحسب ما تقتضيه الأمانة العلمية والأكاديمية لتكون الترجمة في صيغتها النهائية مطابقة لرغبة المؤلف. وبهذا تتفرد الدار العربية للعلوم - ناشرون بتقديم ترجمة عربية كاملة ومنقّحة خدمة للقارئ العربي الجاد.

الدكتور محمد درويش

بغداد/آب 2009



كولومبيا

البحر الكاريبي

فنزويلا

باناما

محيط الهادي

كولومبيا

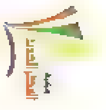
البرازيل

الاكوادور

البيرو

بوغوتا





الشاطئ الأطلسي لكولومبيا الكاريبية

0 10 20 30 40 50 ميل

0 20 40 60 80 كم

البحر الكاريبي

فنزويلا

كوجيرا

خليج فنزويلا

بحيرة ماراكيبو

اتلانتيكو

ماجدلينا

سيزار

سوكر

كوردوبا

بوليفار

سانتا ماريا

كارتاخينا

ريوهاتشا

ميكاو

فاليدوبار

مومبوكس

تولو

الكاريبي وخليج المكسيك

0 100 200 300 400 500 ميل

0 200 400 600 800 كلم

أميركا

خليج مكسيكو

المكسيك

باهاماس

كوبا

هافانا

المحيط الأطلسي

جمهورية الدومينيكان

هايتي

جامايكا

كينغستون

بورتو ريكو

سان جوان

دومينيك

سان فنسانت

ترينيداد وتوباغو

البحر الكاريبي

بيليز

هندوراس

غواتيملا

السلفادور

نيكاراغوا

ماناغوا

كوستا ريكا

سان خوسيه

بانما

قناة باناما

المحيط الهادي

كولومبيا

بوغوتا

فنزويلا

كاراكاس

غوايانا

البرازيل



مقدمة المؤلف

غابرييل غارسيا ماركيز المولود في كولومبيا سنة 1927 هو أشهر أديب يظهر في *العالم الثالث*، وأشهر ممثل لأسلوب *الواقعية السحرية* الأدبي الذي ثبت على نحو مدهش أنه أسلوب انتشر في أقطار نامية أخرى وبين روائيين يكتبون عن تلك الأقطار. لعل غارسيا ماركيز هو الروائي الأميركي اللاتيني الأكثر إثارة للإعجاب والأشد تمثيلاً لكل العصور داخل أميركا اللاتينية نفسها. كما أن شهرته في *العالم الأول* في أوروبا والولايات المتحدة، وفي حقبة بات يصعب فيها العثور على أدباء عظام يتفق الجميع بشأنهم، لا تعلو عليها شهرة خلال العقود الأربعة المنصرمة.

لو ألقينا نظرة على روائيي القرن العشرين، لاكتشفنا أن معظم *الأسماء الكبيرة* التي يتفق النقاد اليوم بشأنها تعود إلى السنوات الأربعين الأولى من ذلك القرن (جويس[1]، وبروست[2]، وكافكا[3]، وفوكنر، وولف[4])، أما في النصف الثاني من القرن، فربما كان غارسيا ماركيز وحده الذي حظي بإجماع حقيقي. ولعل رائعته **مئة عام من العزلة**، التي صدرت سنة 1967، وكان ظهورها عند ذروة التحول بين الرواية *الحداثوية* والرواية *ما بعد الحداثوية*، هي الرواية الوحيدة التي وجدت بين عامي 1950 و2000 عدداً هائلاً من القراء المتحمسين في كل قطر وفي كل ثقافة في هذا العالم. وبهذا المعنى، وفي ضوء موضوعها – وهو عموماً الصراع بين التقليد والحداثة – والاستقبال الذي حظيت به، فإنه ليس من قبيل المبالغة الادعاء أنها كانت الرواية العالمية الأولى حقاً في العالم.

من جهة أخرى، فإن غارسيا ماركيز ظاهرة فريدة أيضاً. فهو كاتب جاد لكنه شعبوي أيضاً – مثله مثل ديكنز[5] أو هوغو[6] أو همنغواي – تُباع كتبه



بالملايين. ويقترب شهرته من شهرة نجوم الرياضة أو المؤلفين الموسيقيين أو نجوم السينما. في العام 1982 كان ماركيز هو الفائز الأكثر شعبية لجائزة نوبل للأدب خلال السنوات الأخيرة. وفي أمريكا اللاتينية، وهي القارة التي لم تعد مثلما كانت عليه أحوالها منذ أن ابتكر غارسيا ماركيز مجتمع ماكوندو الصغير، فإنه يُعرف في كل مكان بكنيته غابو شأنه شأن بطل السينما الصامتة تشارلي أو لاعب الكرة بيليه. وبالرغم من أنه واحد من أربع أو خمس أكبر شخصيات القرن العشرين في قارته، إلا أنه ولد في وسط لا مكاني بات مضرب الأمثال، في بلدة لا يتجاوز عدد سكانها، الأمين عاماً، عشرة آلاف نسمة، ولا تتوفر فيها شوارع مبلطة أو مجارير الصرف الصحي. يثير اسمها آراكاتاكا ماكوندو ضحك الأهالي عندما يسمعون به للوهلة الأولى (بالرغم من أن تشابه الاسم مع الكلمة أبراكادابرا/التعويذة يسعى أن يجعلهم حذرين). إن عدداً قليلاً جداً من الأدباء المشهورين في أي بلد من بلدان العالم انحدر من مثل هذه البلدة الصغيرة، بل إن عدداً أقل بكثير عاش حصته الزمنية ثقافياً وسياسياً مثل عيشة هذا الأديب الحميمية الكاملة.

غارسيا ماركيز رجل ثري اليوم، فهو يملك سبعة منازل في أماكن مدهشة في خمس دول مختلفة. وفي العقود الأخيرة كان يستطيع المطالبة بمبلغ خمسين ألف دولار (بل ويرفضه، وهو المألوف أكثر) لقاء مقابلة لا تتجاوز نصف ساعة. وفي وسعه أن ينشر مقالاته في أي جريدة تقريباً. وكما هو شأن مؤلفات شكسبير، فإن عناوين مؤلفاته تظهر بأسلوب شبحي في العناوين الرئيسية للصحف في جميع أرجاء المعمورة (**مئة ساعة من العزلة**، **يوميات كارثة معلنة**، **خريف الدكتاتور**، **الحب في زمن المال**). ولقد أُجبر على مواجهة مستوى مدهش من الشهرة وتحمله على مدى نصف سني عمره. وسعى الأثرياء والمشاهير وأصحاب السلطة - مثل فرانسوا ميتران، وفيليب غونثاليث، وبيل كلنتون، ومعظم رؤساء جمهوريتي كولومبيا والمكسيك، وغيرهم من المشاهير - لنيل حظوته وكسب صداقته. ولكن بالرغم من نجاحه الأدبي والمالي المذهل، فقد ظل طوال حياته رجلاً من رجالات اليسار التقدمي، ومدافعاً عن القضايا العادلة، ومؤسساً لمشاريع إيجابية من ضمنها تأسيس معاهد مؤثرة في الصحافة والسينما. وفي الوقت نفسه، فإن صداقته الوثيقة العرى

بالزعيم السياسي فيدل كاسترو كنت دوماً مثار جدال وبقد إبان السنوات الثلاثين المنصرمة.

لقد اشتغلت لإنجاز هذه السيرة سبعة عشر عاماً(*). وبخلاف ما ذكره لي كل من كلمته في الأيام الأولى ("لن تتمكن من لقائه، وإذا ما التقيته، فسن يتحاور وإياك") فقد بدأت ألتقي الرجل بعد بضعة أشهر من بداية العمل، وبالرغم من أنني لا أستطيع القول إنه كان يفيض حماسة ("لماذا تريد أن نكتب سيرة؟ كتابة السيرة تعني الموت")، إلا أنه كان ودوداً حسن الوفادة ومتسامحاً. في الحقيقة، إنني كلما سُئلت إن كانت هذه السيرة مرخصاً لها، فإن ردي كان دائماً هو: "لا، إنها ليست سيرة مرخصاً لها، بل هي سيرة مسموح بها" لكنني دُهشت وشعرت بالامتنان عندما أعلن غارسيا ماركيز أمام الصحافة العامة في العام 2006 إنني كاتب سيرته *الرسمي*. لعل ذلك يجعلني كاتب سيرته الوحيد المسموح به رسمياً! كان ذلك امتيازاً استثنائياً.

كما هو معروف تماماً، فإن العلاقة بين كاتب السيرة وصاحب السيرة علاقة صعبة دائماً، لكنني كنت محظوظاً إلى حدٍّ بعيد. فقد كان غارسيا ماركيز يتميز بالصبر، وهو أقل ما يقال في هذا الصدد، وهو الصحافي المحترف والأديب الذي يلجأ إلى حياة أولئك الذين عرفهم في الإسهاب في رواياته. وعندما التقيته أول مرة في هافانا في كانون الأول من العام 1990 أخبرني أنه سيمضي وإياي في اقتراحي بشرط واحد: "لا تجعلني أُعِر كتابك". وأظنه يوافقني على أنني لم أجعله يجر عملي وأنه استجاب لمدّ يد العون لي عندما كنت حقاً بحاجة إلى مساعدته. قد أجريت زهاء ثلاثمئة مقابلة كي أنجز هذه السيرة، لعديد منها مع شخصيات مهمة لم يعودوا بين ظهرانينا، لكنني أدرك أن فيدل كاسترو وفيليب غونثاليث ربما لم يكونا ليندرجا ضمن اللائحة لو لم *يُبدِ غابو* إشارةً ما يعني بها إنني *طيب*. إنّ الأمل ليحدوني في أنه لا يزال يعتقد أنني طيب بعد أن بات الآن في وضع يمكّنه من قراءة الكتاب. فقد امتنع دائماً عن إعطائي ذلك النوع من الحديث *الصريح* الذي يحلم به كتّاب السِّير على أساس أن مثل هذا التفاعل ينم عن عدم كياسة. إلا أننا لا بد من أننا قد أمضينا ما مجموعه شهر كامل معاً في أوقات متباينة وفي أماكن مختلفة إبان السنوات



السبع عشرة الماضية، خاصة وعامة، وإني لأجزم أن عدداً قليلاً جداً من الناس سمع بعض الأشياء التي قالها لي. ولكنه بالرغم من ذلك كله، لم يسع قط إلى التأثير في بأي حال من الأحوال، وإنه قال دوماً تمريح من الأخلاقيات والسحرية التي يتصف بها الصحافي المطري: "اكتب ما تراه وحسب؛ فكل ما تكتبه هو ما سأكون أن عليه".

لقد أجز البحث في هذه السيرة باللغة الإسبانية، وقرئت كلّ المؤلفات باللغة الإسبانية، وأجريت معظم المقابلات باللغة الإسبانية، إلا أنها كتبت كلها، وها هي تنشر الآن، بالإنكليزية (بالرغم من أن الترجمة الإسبانية ستصدر في العام 2009). علاوة على ذلك، فمن نافلة القول، إن الإجراء الاعتيادي الأصح هو أن يكتب السيرة، وبخاصة السيرة الأولى الكاملة، مواطنٌ يعرف البلد ابتداً والموضوع نفسه وبفهم دقائق الأمور في كل انصات، وهذه ليست حالتي يضاف إلى ذلك أن غارسيا ماركيز شخصية عالمية وليس إنساناً كولومبياً مشهوراً وحسب بل، وكما تنهد الرجل ذات مرة، وإن لم تكن تنهيدته خالصة تماماً ربما، عندما ذُكر اسمي في أثناء الحديث: "آه، حسناً. أعتقد أن كل أديب يحترم نفسه لا بد له من كاتب سيرة إنكليزي". وإني لا أظن أن عصبيتي الوحيدة أمام عينيه تتمثل في حبي الدائم والواضح وارتباطي بالقارة التي وُلد فيها.

لم يكن من السهل عليّ تلمس طريقي وسط التفسيرات المتعددة التي قدّمها غارسيا ماركيز لكل اللحظات المهمة تقريباً في حياته. فهو، شأنه شأن مارك توين الذي يمكن أن يُقارن به مقارنة مفيدة، يعشق الحكاية الجيدة، فضلاً عن القصة الطويلة، ويروقه أن تكون القصة مصقولة، ليس في الأقل الأحداث ذات الأثر الفعال في تكوين قصة حياته؛ وفي الوقت عينه، هو مرح، ومناهض لـ هو أكاديمي، ومؤثر إيثاراً تاماً المواربة والمشاغبة عندما يخص الأمر تصليل الأثر بين الصحافيين والأساتذة وحتى عندما تكون متأكداً من أن أي حكاية تستند إلى شيء ما حدث حتماً، فإنك لا تزال غير قادر على اختزاله إلى شكل واحد لأنك ستجد أنه ذكر معظم القصص المشهورة عن حياته بأنماط متعددة ومتباينة، يحوي كل نمط منها جانباً من الحقيقة. ولقد مررت شخصياً بتجربة مثل هذا النزوع الأسطوري

المفـــرط إلى المبالغة وقد أصابني عدواه إصابة بهيجة أيضاً (في حياتي وليس في هذا الكتاب كما أرجو). كما حلّف عنادي واستعدادي للانغماس في كل الأبحاث التي لا تـــهملك فـــيها إلاّ الكلاب المسعورة والإكليروس أثراً قوياً في نفوس أسرة غارسيا ماركيز. وهكذا وجدت أنه من المستحيل القضاء على الأسطورة التي نشرها غابرييل ماركيـــز بنفســـه ويعتمد بها كما يبدو، حتى إنني - وهذا من مزايا هوسي المفرط - أمـــضيت لـــيلة هطلت فيها الأمطار مدراراً وأنا جالس على مصطبة في الميدان في أراكاتاكا كي أتشبع من البلدة التي وُلد فيها موضوعي كما يفترض.

إنني بعد كل هذه السنوات الطويلة أكاد لا أصدق أن الكتاب بات حاضراً في نهايـــة المطـــاف، وإنـــي أكـــتب هذه مقدمته. لقد خلُص العديد من كتاب السير المستهلكين والأكثر شهرة مني في آن واحد إلى أن الوقت والجهد المبذولين في مثل هذا العمل لا يستحقان الشمعة، وأن الحمقى والواهمين هم وحدهم الذين يُقدمون على مثل هذه المهمة التي ربما يدفعهم إليها احتمال التحدث إلى العظام والطيبين أو المشهورين والتماهي معهم. ربما قد يغويني مثل هذا الاستنتاج، لكن إن كان هناك موضـــوع واحـــد يـــستحق أن تخصص له المرء ربع حياته، فإنه بلا ريب سيكون موضوع حياة غابرييل غارسيا ماركيز وسيرته العجيبة.

جيرالد مارتن

تموز 2008





تمهيد

من أصول مغمورة

1899-1800

في صباح يوم قائظ وخانق في مطلع ثلاثينيات القرن العشرين، جلست في الإقليم المداري الساحلي شمالي كولومبيا امرأة شابة وهي تحدق من نافذة قطار شركة الفاكهة المتحدة إلى مزارع الموز التي تمرّ بها، فتتراءى صماً صماً تحت أشعة الشمس. كانت قد استقلت ليلاً سفينة تجارية يطوقها البعوض من مرفأ بارانكيا على ساحل البحر الكاريبي لعبور مستنقع ثياناغا، وهي الآن في طريقها إلى الجنوب، وسط مزارع الموز، نحو مدينة آراكاتاكا الصغيرة والبعيدة عن الساحل حيث كانت قد تركت قبل بضعة أعوام أول مولود لها، وهو غابرييل، مع أبويها الكهلين، وكان آنذاك لا يزال طفلاً صغيراً. ومنذ ذلك الزمان، كانت لويسا سانتياغا ماركيز إغواران دي غارسيا قد أنجبت ثلاثة أطفال آخرين، وهذه هي عودتها الأولى إلى آراكاتاكا منذ أن أخذها زوجها غابرييل إليخيو غارسيا بعيداً عنها كي تقطن في بارانكيا تاركة غابيتو الصغير برعاية جدّيه لأمه وهما ترانكيلينا إغواران كوتيس دي ماركيز والعقيد نيكولاس ماركيز ميخيّا. كان العقيد ماركيز محارباً قديماً شارك في حرب الألف يوم المريرة التي اندلعت عند مطلع القرن، ونصيراً طوال حياته للحزب الليبرالي الكولومبي، وعدّ في ما بعد مدير خزينة بلدية آراكاتاكا.

استهجن العقيد ماركيز ودونيا ترانكيلينا بعض المودّة بين لويسا سانتياغا وغارسيا الوسيم. فهو لم يكن رجلاً فقيراً وغريباً وحسب، بل كان غير شرعي أيضاً وهجيناً، وربما، وهذا أسوأ ما في الأمر، مؤيداً قوياً للحزب المحافظ البغيض.



ولم يكن قد مضى على عمله في مكتب تلغراف آراكاتاكا سوى بضعة أيام عندما وقعت أنظاره على لويسا، أجمل النساء الشابات الصالحات للزواج في البلدة. فأرسلها والداها كي تعيش مع أقرباء لها لما تبقى من السنة كي تبعد عن ذهنها ذلك الهيام الجامح بالقادم الجديد المغوي، لكن بلا طائل. أما بخصوص غارسيا نفسه، فقد أصيب بخيبة أمل إذ كان يأمل جمع ثروة من زواجه بابنة العقيد، لكنّ والدي العروس رفضا حضور حفل الزفاف الذي تمكن أخيراً من تنظيمه في العاصمة الإقليمية سانتا مارتا، وفقد وظيفته في آراكاتاكا.

فيمَ كانت لويسا تفكّر وهي تحدّق خارج نافذة القطار؟ لعلها نسيت أن الرحلة ستكون غير مريحة. أكانت تفكّر في البيت الذي أمضت فيه طفولتها وشبابها؟ ما ردُّ فعل كل فرد إزاء زيارتها؟ والداها عماها؟ الطفلان اللذان لم تشاهدهما منذ زمن بعيد: غابيتو، الأكبر سناً، ومارغريتا شقيقته الأصغر سناً منه، وهما يعيشان حالياً مع جدّيهما. صفّر القطار وهو يمر بمزرعة الموز الصغيرة ماكوندو التي تذكرها منذ أيام طفولتها. وبعد مرور بضع دقائق بانت آراكاتاكا للعيان، ولاح والدها العقيد وهو ينتظرها تحت الظلال... كيف سيُحيِّيها؟

لا أحد يعرف ماذا قال، لكننا نعرف ما الذي حدث بعد ذلك[1]. في بيت العقيد القديم، الرحب، انهمكت النساء في إعداد غابيتو الصغير لذلك اليوم الذي لن ينساه: "ها قد وصلت. لقد وصلت والدتك يا غابيتو. إنها هنا. أمك. ألا يمكنك سماع صوت القطار؟"، وهنا ندّ صفير آخر من المحطة القريبة.

بعد مرور الأيام يذكر غابيتو أنه لا يملك ذكريات عن أمه، فقد تركته قبل أن يتمكن من الاحتفاظ بأي ذكريات. وإذا كان لوجودها الآن أي معنىً، فإنه أشبه بخيال مفاجئ لم يشرحه له جدّاه، فلق كأن هناك خطأ، ربما من جانبه. أين الجد؟ كان الجد يوضّح كل شيء دوماً. لكن جدّه توارى عن الأنظار.

ثم سمعهم غابيتو وقد وصلوا عند الطرف الآخر من المنزل. جاءت إحدى خالاته، وأمسكت يده. كل شيء أشبه بحلم. قالت الخالة "ها قد دخلت أمك". بعد لحظة شاهد امرأة لم يعرفها في الطرف القصي من الغرفة وقد جلست مولية ظهرها نافذة مغلقة. كانت امرأة جميلة تعتمر قبعة من قش مجدول، وترتدي ثوباً



طويلاً فضفاضاً يصل كماه إلى رسغيه. كانت تتنفس بصعوبة بسبب حرارة منتصف الظهيرة، فلازمه اضطراب غريب لأنها كانت سيدة يحلو له النظر إليها. إلاّ أنه سرعان ما أدرك أنه لا يحبها على النحو الذي طلبوا منه أن يحب فيه أمه، وهو حب لا يشبه حبه لجده وجدته ولا حتى حبه لخالاته.

قالت السيدة: "ألن تعانق أمك؟". ثم جذبته نحوها وحضنته. كانت تفوح منها رائحة زكية لن ينساها. كان عمره أقل من سنة عندما تركته أمه. أما الآن فقد بات في السابعة من عمره تقريباً. ولأنها عادت أدراجها، فإنه لم يدرك إلاّ الآن أن أمه قد تركته. ولم يتمكن غابيتو من تجاوز ذلك التفكير، ليس على الأقل لأنه لا يستطيع أن يحمل نفسه على مواجهة ما كان يشعر به. لكنها سرعان ما تركته مرة أخرى.

* * *

لويسا سانتياغا، ابنة العقيد المتمردة ووالدة غابيتو الصغير، ولدت في الخامس والعشرين من شهر تموز عام 1905 في بلدة بارانكاس الصغيرة الواقعة بين براري غواخيرا وإقليم بديًا الجبلي شرقي سييرا نيفادا[2] عندما وُلدت لويسا، كان والدها أحد أفراد الجيش المهزوم، جيش الحزب الليبرالي الذي هزمه المحافظون في الحرب الأهلية الكولومبية العظمى: حرب الألف يوم (1899-1902).

أما نيكولاس ريكاردو ماركيز ميخيّا، وهو جد غابرييل غارسيا ماركيز، فقد ولد في السابع من شهر شباط عام 1864 في ريوهاتشا، غواخيرا، وهي مدينة مغبرة لادغة أحرقتها الشمس على ساحل كولومبيا الشمالي المطل على محيط الأطلسي والعاصمة الصغيرة لإقليمها الأكثر فقراً، وموطن هنود غواخيرا وملاذ المهربين المروعين منذ الحقبة الاستعمارية وحتى يومنا هذا. ولا يُعرف القدر الكبير عن حياة ماركيز المبكرة سوى أنه تلقى تعليماً أولياً استفاد منه، وأُرسل بعد ذلك إلى جهة الغرب، لبعض الوقت، ليعيش مع قريبته فرانسيسكا سيمودوسيا ميخيّا في بلدة إل كارمن دي بولفار الواقعة جنوبي مدينة كارتاخينا الاستعمارية المهيبة. وهناك تربى الاثنان على يدي جدّته لأمه نيكولاس خوسيفا فرانسيسكا فيدال. وانضمت فرانسيسكا بعد ذلك، إثر تمضية نيكولاس بضعة أعوام متجولاً في جميع أنحاء الإقليم

الساحلي، إلى أسرته لتعيش تحت سقفه عانساً للبقية الباقية من حياتها. سكن نيكولاس بعض الوقت في كامارونيس وهي بلدة قريبة من الشريط الساحلي لإقليم غواخيرا على بعد خمسة عشر ميلاً تقريباً من ريوهاتشا. وتفيد الأسطورة أنه كان مشاركاً قبل الأوان في إحدى الحروب الأهلية التي كانت تقطع بانتظام الحياة في كولومبيا إبان القرن التاسع عشر. ولما قفل راجعاً إلى ريوهاتشا وهو في السابعة عشرة من عمره، اشتغل صائغاً تحت إرشاد أبيه نيكولاس دل كارمن ماركيز هيرنانديز. تلك هي مهنة الأسرة التقليدية. وإذا كان نيكولاس قد أكمل دراسته الابتدائية، فإن أسرته الميّالة إلى الفقر لن تقدر على الإنفاق عليه كي يمضي شوطاً أبعد في تعليمه.

غير أن نيكولاس ماركيز كان متحمساً وافر الإنتاج في أوجه أخرى: فبعد عامين من رجوعه من غواخيرا، بات هذا الرحّالة المراهق الطائش أباً لولدين غير شرعيين - تُطلقُ في كولومبيا صفة الأبناء الطبيعيين على الأبناء غير الشرعيين - وهما خوسيه ماريا المولود في العام 1882 وكارلوس ألبيرتو المولود في العام 1884 [3]، وكانت أمهما عانساً غريبة الأطوار من بلدة ريوهاتشا تدعى التاغراثيا بالديبلانكيث على صلة بأسرة محافظة وذات نفوذ، وأكبر سناً من نيكولاس نفسه. ولا نعلم السبب الذي حال بين نيكولاس والزواج بها. وقد مُنح الصبيان كنية أمهما ونشآ نشأة كاثوليكية محافظة بالرغم من ليبرالية نيكولاس الجيَّاشة؛ ولما كان العرف السائد في كولومبيا حتى وقت قريب هو أن يعتنق الأولاد الولاء السياسي لأبويهما، فإن الصبيين لم ينشآ في كنف نيكولاس بل في كنف أسرة أمهما، وقاتل الاثنان في ما بعد ضد الليبراليين، وبالتالي ضد والدهما، في حرب الألف يوم.

بعد سنة واحدة من ولادة كارلوس ألبيرتو، تزوج نيكولاس وهو في الحادية والعشرين من عمره من فتاة في مثل سنه تدعى ترانكيلينا إغواران كوتيس، وكانت قد ولدت بدورها في ريوهاتشا في الخامس من شهر تموز عام 1863. وبالرغم من أن ترانكيلينا كانت ابنة غير شرعية، إلا أن كنيتها تعود إلى أسرتين بارزتين في حزب المحافظين في تلك المنطقة. كان من الواضح أن نيكولاس وترانكيلينا ينحدران



من أسرتين أوروبيتين من البيض، وأن نيكولاس – وهو كازانوفا فاسد لا سبيل لإصلاحه – كان يغازل النساء من كل عرق ولون.

هكذا بدأ بتلمّس طريق العودة إلى متاهات النسب السري والغامض التي عرفها معرفة جيدة قراء مئة عام من العزلة، وهي أشهر رواية كتبها غابرييل غارسيا ماركيز. ففي تلك الرواية يحيد عن طريقه في عدم مساعدة قرائه بذكريات عن تفاصيل العلاقات الأسرية: فلا يقدم سوى الأسماء الأولى فتكرر هذه الأسماء نفسها تكراراً كثيراً خلال الأجيال، فيغدو هذا جزءاً من تحدي الكتاب الخفي للقارئ. إلا أنه بلا ريب يعيد إنتاج الارتباك والقلق اللذين مرّ بهما المؤلف عندما حاول، وهو طفل، أن يفهم الشبكات التاريخية المعقدة لإرث أسرته.

لنأخذ نيكولاس الذي ولد ولادة شرعية لكنه تربى في كنف جدته لا في كنف والديه. صحيح أنه لا يوجد ما يثير الاستغراب في هذا الشأن في مجتمع متاخم للحدود يدعمه مفهوم الأسرة الكبيرة طلباً للأمن. وكما رأينا، فقد بات لديه ولدان غير شرعيين قبل أن يبلغ العشرين من عمره. وليس هناك ما يثير الاستغراب في هذا الشأن أيضاً. لكنه تزوج إثر ذلك مباشرة بترانكيلينا، وهي، شأنها شأن الناغراتي، تنتمي إلى طبقة أعلى من طبقته بالرغم من أننا نبيّن، كي نوازن الأمور، أنها كانت غير شرعية. يضاف إلى ذلك، فقد كانت قريبته من الدرجة الأولى، وهذا شائع في كولومبيا، بل هو في أميركا اللاتينية أكثر شيوعاً من أي مكان آخر في العالم بالرغم من أنه، شأنه شأن اللاشرعية، لا يزال موسوماً بسمة خاصة. فقد كان للزوجين الجدة نفسها وهي خوانيتا هيرنانديز التي سافرت من إسبانيا إلى كولومبيا في عشرينيات القرن التاسع عشر وكان نيكولاس ثمرة زواجها الشرعي الأول، في حين أن ترانكيليا ولدت من علاقتها غير الشرعية الثانية، إثر ترملها، بأحد الكريوليين[4] وكان قد ولد في ريوهاتشا ويدعى بلاس إغواران الذي يصغرها بعشرة أعوام. وهكذا يتبيّن بعد جيلين لا أكثر أن اثنين من أحفاد خوانيتا، وهما نيكولاس ماركيز ميخيا وترانكيلينا إغواران كوتس، تزوجا في ريوهاتشا. وبالرغم من أن كنيتيهما لا تتفقان، فالحقيقة هي أن والده ووالدتها كانا طفلين، أخ غير شقيق وأخت غير شقيقة لخوانيتا المولعة بالمغامرة. لا يمكن للمرء أن يتأكد من الشخص الذي يتزوج



به. وقد تسترسل مثل هذه الخطيئة اللعنة، أو - وهذا هو الأسوأ كما خشي أفراد أسرة بويندا على امتداد صفحات مئة عام من العزلة - تنتهي بطفل ذي ضمير، يضع حداً لسلالة الأسرة.

من الطبيعي أن يصبح شبح السفاح، الذي يظهر طيفه حتماً مثل ذلك الزواج بين نيكولاس وترانكيلينا، بعداً آخر أشد غموضاً لمفهوم اللاشرعية. بعد ذلك الزواج، ربما أنجب نيكولاس عشرات الأطفال غير الشرعيين، لكنه ظل يعيش في مجتمع كاثوليكي صرف بكل ما فيه من أنساق هرمية تقليدية وازدراء للطبقة الاجتماعية التي يقبع في أسفلها السود أو الهنود (الذين لا ترغب طبعاً أي أسرة محترمة في الانتساب إليهم بأي شكل من الأشكال بالرغم من أن معظم الأسر في كولومبيا، من ضمنها أكثر الأسر مدعاة للاحترام، لها مثل ذلك الانتساب). إنّ هذا الخليط الفوضوي من العرق والطبقة الذي ينطوي على أساليب كثيرة لظهور اللاشرعية وعلى طريق واحد مستقيم ومحدود نحو الاحترام الحقيقي، هو العالم نفسه الذي سينشأ فيه بعد سنوات كثيرة لاحقة الطفل الرضيع غارسيا ماركيز ويشاطره تعقيداته ونفاقه.

ما إن تزوج نيكولاس ماركيز بترانكيلينا إغواران حتى تركها وهي حامل - وهذه أفضل طريقة لترك المرأة من وجهة النظر الأبوية - وأمضى بضعة أشهر في بنما، التي كانت لا تزال يومذاك جزءاً من كولومبيا، للعمل مع أحد أخواله وهو خوسيه ماريا ميخيّا فيدال حيث أنجب فيها طفلةً أخرى غير شرعية، وهي ماريا غريغوريا رويث، من إيزابيل رويث، تلك المرأة التي يمكن أن تكون حب حياته الحقيقي، قبل أن يعود إلى غواخيرا بعد مرور وقت قصير على ولادة ابنه غير الشرعي الأول خوان دي ديوس في العام 1886[5]. ثم أنجب نيكولاس وترانكيليا طفلتين أخريين غير شرعيتين وهما مارغريتا، المولودة في سنة 1889، ولويسا سانتياغا، التي ولدت في بارانكاس في شهر تموز عام 1905 بالرغم من إصرارها حتى نهاية حياتها تقريباً على أنها هي الأخرى ولدت في ريوهاتشا لأنها شعرت أن لديها ما تريد إخفاءه كما سنرى في ما بعد. ثم تتزوج بدورها بزوج غير شرعي، وستنجب منه في نهاية المطاف ابناً غير شرعي اسمه غابرييل خوسيه غارسيا ماركيز. وهذا فإنه



مما لا يبعث على الدهشة أن تحفل أعمال غابرييل القصصية بهجس اللاشرعية بصرف النظر عن الأسلوب الفكه الذي يطرحه به.

لم يمت أطفال نيكولاس غير الشرعيين ميتة مريعة إبان الحرب الأهلية كما يحلو لحفيده المقيد المفضل أن يتخيل في روايته (التي يأتي فيها على ذكر سبعة عشر طفلاً)[6]. فعلى سبيل المثال، كانت سارا نوريغا ابنة طبيعية لنيكولاس ويدتها نوريغا وأصبحت هي الأخرى معروفة باسمها لاباتشا نوريغا وتزوجت بغريغوريو بوتا ورحلت لتسكن في فونداثيون وهي المحطة التالية على امتداد خط السكة الحديدية من مدينة آراكاتاكا. في العام 1993، كانت حفيدتها إلدا نوريغا التي التقيتها في بارانكاس وحدها التي تحتفظ في تلك البلدة بواحدة من تلك الأسماك ذهبية اللون صغيرة الحجم التي صنعها نيكولاس ماركيز. وقالت أماريوس دي ساري، وهي ابنة ارسيب كاريو التي تزوجت في العام 1917 بابن أخت نيكولاس وصديقه الودود أوجينيو ريوس (الذي يرتبط برباط القرابة بفرانسيسك سيمودوسيا ميخيا التي عاشت مع نيكولاس) إن سارا كانت تشبه لويسا إلى حدٍّ كبير، "وذات بشرة تشبه الزيتونة وعانس في العذوبة"[7]. وقد توفيت في حدود العام 1988. أما استيبان كاريو والفيرا كاريو فكانا توأمين غير شرعيين لأمهما سارا مانويلا كاريو. وبعد أن سكنت ألفيرا، خالة غابيتو المحبوبة بان، مع نيكولاس في آركاتاكا، انتقلت في نهاية المطاف إلى كارتاخينا في أواخر سني حياتها حيث آوتها أختها غير الشقيقة الأصغر سناً منها وغير الشرعية لويسا سانتياغا وساعدتها وهي تحتضر، بحسب ما أفادت به آنا ريوس. أما نيكولاس غومث فكان ابن إميليا غومث وبحسب ما قاله شخص آخر، ويدعى أوربانو سولانو، فقد ذهب الابن ليعيش في فونداثيون شأنه شأن سارا نوريغا.

أما نجل نيكولاس الأكبر، غير الشرعي، وهو خوسيه ماريا بالديبلانكيث، فبات أكثر أولاده نجاحاً، إذ أصبح بطلاً من أبطال الحرب وسياسياً ومؤرخاً، وتزوج غابرييلا مورو وهو في ريعان الصبا، وأنجب منها ابناً وخمس بنات. وكان ابن إحدى هذه البنات وهي مارغوت، قد أصبح أديباً آخر هو خوسيه لويس ديات غرانادوس[8].



انتقل نيكولاس ماركيز من العاصمة الساحلية القاحلة ريوهاتشا إلى بارانكاس قبل أن يغدو عقيداً بزمن طويل لأنه كان يطمح إلى أن يصبح من ملاّك الأراضي، وكانت الأرض آنذاك أرخص ثمناً وأكثر خصوبة في التلال المحيطة بارانكاس، (يقول غارسيا ماركيز، بالرغم من أنه لا يُعتمد عليه في مثل هذه القضايا، إن والد نيكولاس ترك له قطعة أرض في تلك المنطقة). وسرعان ما اشترى مزرعة من أحد الأصدقاء في منطقة تدعى إل بوتريرو على سفوح جبال سييرا. كانت المزرعة تدعى مزرعة إل غواسيمو، وقد سميت على اسم شجرة تفاح محلية. وانطلق ماركيز لزراعة قصب السكر الذي صنع منه شراباً بالتقطير المنزلي. ويعتقد أنه تاجر بالمشروب سراً شأنه شأن معظم زملائه من ملاّك الأراضي واشترى بعد ذلك مزرعة أخرى قريبة من البلدة وبجانب نهر رانتشيريا أطلق عليها اسم إل إيسمو (البرزخ) لأنك لا بد من أن تعبر المياه حيثما أردت الوصول إليها. وزرع فيها التبغ والذرة وقصب السكر والفاصولياء والكاكاو والبن والموز. ويمكن اليوم زيارة المزرعة، لكنها شبه مهجورة، مبانيها خربة، وقد تلاشى بعضها من الوجود، لكن لا تزال ثمة شجرة مانجا عتيقة شامخة كأنها بيرق أسرة مهلهل، وتطغى على المشهد المداري كله مسحة من الحزن والحنين. ربما كانت هذه الصورة الحافلة بالذكريات خيال زائر محض لأن مثل هذا الزائر يعلم أن العقيد ماركيز رحل عن باراناكاس بعد أن فقد الحظوة التي لا تزال تبدو مخيمة على المنطقة بأسرها، لكن حتى قبل حدوث ذلك الشيء، فإن وجود العقيد المقيم هناك ظللته ظلال الخراب.

* * *

ولا يُعرف أيضاً إلا النذر اليسير عن والد غابرييل غارسيا ماركيز، بل أقل مما هو معروف عن جده. فقد ولد غابرييل إليخيو غارسيا في سينثي، في بوليفار، في الأول من شهر كانون الأول عام 1901 بعيداً وراء المستنقع الكبير، بل حتى وراء نهر مجدلينا وذلك إبان الحرب الأهلية العظمى التي أبلى فيها نيكولاس ماركيز بلاءً حسناً وبرع اسمه فيها. يبدو أن والد جد غارسيا كان يدعى بيدرو غارسيا غوردون ويقال إنه ولد في مدريد في مطلع القرن التاسع عشر. ولا نعلم كيف انتهى المطاف



غارسيا غوردون في نيو غرانادا ولا حتى سبب ذلك ولا المرأة التي تزوج بها، لكنه كان لديه ابن يدعى أميناداب غارسيا في كايميتو، في بوليفار (هي منطقة سوكري الآن). وحسب ليخيا غارسيا ماركيز، فإن أميناداب تزوج ثلاث نساء أنجبن له ثلاثة أطفال. وبعد أن ترمل، التقى ماريا دي لوس أنخيليس باتريسيا بوستامانتي المولودة في سينسيليخو عام 1855 وهي أصغر منه بإحدى وعشرين سنة، وأنجبا ثلاثة أطفال آخرين وهم ألبنار وخايمي وآرخيميرا. وبالرغم من أن الاثنين لم يتزوجا، فإن أميناداب اعترف بأبوته لهؤلاء الأطفال ومنحهم اسمه. وقد ولدت الطفلة آرخيميرا غارسيا باتريت في أيلول عام 1887 في بلدة كايميتو، وهي مسقط رأس أبيها، وهي التي ستصبح في ما بعد والدة غابرييل إليخيو غارسيا وهي في سن الرابعة عشرة وجدّة أديبنا غابرييل غارسيا ماركيز لأبيه[10].

أمضت آرخيميرا معظم حياتها في بلدة الماشية سينثي، وكان يطلق عليها في الثقافة الإسبانية *امرأة الشعب*. كانت فارعة الطول، كالتمثال في روعتها، مليحة المشرق، ولم تتزوج البتة، لكنها عاشرت عدداً لا يحصى من الرجال وأنجبت سبعة أطفال غير شرعيين من ثلاثة من هؤلاء الرجال وخاصة من أحدهم واسمه بيخارانو[11]، (وقد حمل الأولاد جميعهم اسمها غارسيا). غير أن أول عشاقها كان غابرييل مارتينيث غاريدو الذي كان معلماً يومذاك ووريث أسرة من ملاك الأراضي المحافظين، وكان يتميز بغرابة الأطوار التي تصل في بعض الأحيان إلى درجة الهذيان حتى إنه بدّد معظم ميراثه[12]. وقد أغوى آرخيميرا وهي في الثالثة عشرة من عمرها فيما كان هو في السابعة والعشرين؛ ولسوء الحظ كان غابرييل مارتينيث غاريدو متزوجاً آنذاك بروسامينا المولودة في سينثي أسوة بزوجها، وأنجبا خمسة أطفال غير شرعيين لا يحمل أيٌّ منهم اسم غابرييل.

هكذا بات والد غابرييل غارسيا ماركيز معروفاً طوال حياته بالاسم غابرييل إليخيو غارسيا وليس غابرييل إليخيو مارتينيث غارسيا[13]. إن من يهتم بكل هذه الأشياء لا بد من أنه سيدرك على الفور تقريباً أنه ولد غير شرعي. وعلى كل حال، ففي أواخر عقد العشرينيات من القرن الماضي، نرى غابرييل إليخيو يعوض عن هذه العيوب. وكما اكتسب نيكولاس ماركيز رتبة عسكرية مرموقة إبان

الحـــرب وأصـــبح عقيداً، فإن غابرييل إليخيو، ذلك العصامي الذي تعلم المعالجة بالطـــب التجانسي، بدأ يضيف لقب دكتور إلى اسمه. العقيد ماركيز والدكتور غارسيا.

* * *



القسم الأول

الوطن: كولومبيا

1955-1899



-1-

عقداء وقضايا خاسرة

1927 1899

غالباً ما تبدو قارة أميركا اللاتينية خيبة أمل لسكانها بعد خمسمئة سنة من اجتياح الأوروبيين لها. ويبدو أن تاريخها قد رسمه كولومبوس، ذلك *القبطان العظيم* الذي اكتشف القارة الجديدة خطأً وأخطأ في إطلاق اسم *الهند* عليها، ثم مات بعد أن شعر بالمرارة والخيبة في بواكير القرن السادس عشر، أو رسمه *المحرر الكبير* سيمون بوليفار الذي وضع حداً للحكم الاستعماري الإسباني في مطلع القرن التاسع عشر، لكنه توفي هو الآخر وهو جزع لتفكك القارة التي تحررت حديثاً وللفكرة التي مفادها أن من يصنع ثورة يحرث البحر. وفي الحقبة الحديثة نسبياً بدا مصير أرنستو تشي غيفارا، وهو أكثر الرموز الثورية رومانسية في القرن العشرين والذي توفي شهيداً في بوليفيا في العام 1967، ليؤكد فكرة أن أميركا اللاتينية، التي لا تزال قارة مجهولة وبلاد المستقبل في آن واحد، هي موئل الأحلام العظيمة والإخفاقات الكارثية[1].

قبل أن يشيع اسم غيفارا في أنحاء الأرض بزمن طويل، كان ثمة صبي صغير في بلدة كولومبية صغيرة لم يلمع تاريخها إلا إبان تلك السنوات التي اختارت فيها شركة الفاكهة المتحدة ومقرها مدينة بوسطن أن تزرع الموز فيها في بواكير القرن العشرين، يصغي إلى جده وهو يقص عليه حكايات الحرب التي دامت ألف يوم والتي شعر في غمارها بمرارة الوحدة التي يشعر فيها المهزومون، وحكايات عن الأفعال العظيمة التي حدثت في الأيام الخوالي وعن الأبطال والأوغاد الأشباح، وهي كلها قصص علّمت الطفل أن العدالة ليست مبنية في نسيج الحياة بناءً اعتيادياً، وأن



الحق لا ينتصر دوماً في هذا العالم، وأن المُثل التي تملأ قلوب وعقول العديد من النساء والرجال يمكن أن تسحق بها الهزيمة، بل حتى تزول عن وجه الأرض، اللهم إلا إذا بقيت محفورة في ذاكرة أولئك الذين يقفون على قيد الحياة ويعيشون ليرووها.

* * *

في أواخر القرن التاسع عشر، أي بعد سبعين سنة من استقلال جمهورية كولومبيا عن إسبانيا، كانت كولومبيا دولة لا يتجاوز عدد سكانها الخمسة ملايين نسمة تسيطر عليه نخبة أقلية من ثلاثة آلاف رجل من مالكي المزارع الكبيرة ومعظمهم من السياسيين ورجال الأعمال وعدد كبير من المحامين والكتاب أو النحويين؛ وهذا هو السبب الذي جعل العاصمة بوغوتا تُعرف بأنها *أثينا أمريكا الجنوبية*. لقد كانت حرب الألف يوم هي الحرب الأخيرة والأكثر دماراً من سلسلة من الحروب تزيد على عشرين حرباً وطنية وأهلية مزّقت كولومبيا إبان القرن التاسع عشر، دارت رحاها بين الليبراليين والمحافظين، الوسطيين والفيدراليين، البرجوازيين وملاك الأراضي، العاصمة والأقاليم. أما معظم الأقطار فقد شهدت في القرن التاسع عشر، وعلى نحو تدريجي، انتصار الليبراليين أو من يوازيهم في المعركة التاريخية، في حين ظل المحافظون يهيمنون على كولومبيا حتى العام 1930، وبعد فترة حكم ليبرالي امتد من العام 1930 وحتى العام 1946، عاد المحافظون مرة أخرى إلى مقاليد الحكم حتى أواسط عقد الخمسينيات، وظلوا قوة مؤثرة حتى يومنا هذا. من المؤكد أن كولومبيا هي الدولة الوحيدة التي كانت فيها الانتخابات العامة محور صراع حتى أواخر القرن العشرين بين الحزب الليبرالي التقليدي وحزب المحافظين التقليدي من دون أن يتمكن أي حزب آخر من الحصول على موطئ قدم[2]، لكن الوضع تبدل في السنوات العشر الأخيرة.

بالرغم من أن الصراع أطلق عليه تعبير *حرب الألف يوم*، إلا أنه انتهى حتى قبل أن يبدأ. فقد كانت حكومة المحافظين تملك موارد أعظم شأناً، وكان الليبراليون تحت رحمة زعيمهم رافاييل أوريبي أوريبي الملهم على نحو غريب والمفتقر إلى الكفاءة في آن واحد. على كل حال، استمرت الحرب زهاء ثلاثة أعوام، وازدادت بمرور الأيام قسوتها ومرارتها وعشقتها. ومن شهر تشرين الأول من العام 1900 لم

يستمكن أي من الطرفين من أسر أحد، إذ أعلن الطرفان أن الحرب ستكون حرباً حتى الموت مما يعني أن كولومبيا تحيا في ظل الصمت. وعندما انتهى كل شيء في شهر تشرين الثاني عام 902 كانت البلاد في حالة خراب وفقر، وكان إقليم باناما يوشك أن ينفصل ويضيع إلى الأبد، وربما لقي مئة ألف كولومبي مصرعهم. غير أن أعمال الثأر والانتقام الناجمة عن الأسلوب الذي دارت به الحرب استمرت لعدة عقود من الزمان، مما جعل كولومبيا بلداً عجيباً حيث إن الحزبين الرئيسيين بقيا عدوين لدودين طوال قرنين. لكنهما اتفقا ضمناً على ألا يحظى السكان بتمثيل حقيقي. ولم يشهد أي بلد في أميركا اللاتينية انقلابات أو ديكتاتوريات أقل مما شهدته كولومبيا في القرن العشرين. لكن الشعب الكولومبي دفع ثمناً عالياً لقاء هذا الاستقرار المؤسساتي الظاهري.

لقد دارت رحى حرب الألف يوم في شتى أرجاء الدولة، لكن مركز الجذب تحول تدريجياً شمالاً إلى الأقاليم الواقعة على ساحل الأطلسي. فمن جهة، لم يتعرض مركز الحكومة في بوغوتا إلى تهديد خطير من المتمردين الليبراليين. ومن جهة أخرى، تراجع الليبراليون في نهاية المطاف صوب الدروب الساحلية التي غالباً ما كان يلجأ إليها زعماؤهم بحثاً عن ملاذ آمن في دول مجاورة متعاطفة أو في الولايات المتحدة، حيث يحاولون هناك جمع الأموال وشراء الأسلحة استعداداً للجولة التالية من الحرب. في هذا الوقت، كان الثلث الشمالي من البلاد المعروف باسم *الساحل*، ويطلق على سكانه اسم سكان *الساحل*، يتألف من مديريتين رئيسيتين: بوليفار إلى جهة الغرب وعاصمتها مرفأ كارثخينا، وماجدلينا إلى جهة الشرق وعاصمتها مرفأ سانتا مارتا، المكتنفة تحت جبال سييرا نيفادا العظيمة. وكانت المدينتان الرئيسيتان تقعان على حافتي سييرا نيفادا - سانتا مارتا إلى جهة الغرب وريوهاتشا إلى جهة الشرق - أما بقية المدن الأخرى الواقعة بينهما إذ ما التف المرء حول سييرا - وهي ثيناغا، وآراكاتاكا، وفاليدوبار، وفيلانويفا، وسان خوان، وفونسيكا، وبارانكاس فقد انتقلت من طرف إلى آخر إبان الحرب وهي التي ورثت سياريز غدتم نيكولاس ماركيز وولديه غير الشرعيين الأكبر سناً وهما خوسيه ماريا بالديبلانكت وكارلوس ألبرتو بالديبلانكيت.



في وقت ما من أوائل تسعينيات القرن التاسع عشر نقل نيكولاس ماركيز وترانكيلينا إغواران طفليهما خوان دي ديوس ومارغريتا إلى بلدة بارانكاس الصغيرة في غواخيرا الكولومبية، واستأجرا منزلاً في كاي دل توتومو على بعد خطوات قليلة من الميدان. ولا يزال البيت قائماً حتى يومنا هذا. واشتغل السيور ماركيز جوهرياً، يصنع ويبيع مصنوعاته من القلائد والخواتم والأساور والسلاسل علاوة على تخصصه في الأسماك الذهبية الصغيرة، ويبدو أنه أسس لتجارة رائجة حولته إلى عضو محترم في المجتمع. وكان تلميذه، وبالتالي شريكه رجلاً شاباً يدعى أوخينيو ريوس وأصبح كاس تكفّل بتربيته، وكان قد اشتغل وإياه في ريوهاتشا بعد أن اشتراه من ال كارمن دي بوليفار. كان ريوس أخاً غير شقيق لقريبة نيكولاس فرانسيسك سيمودوسيا ميجيًا التي كان نيكولاس قد تربى وإياها عند ال كارمن ثم أخذها معه في وقت لاحق إلى آراكاتاكا. عندما اندلعت حرب الألف يوم، بعد مرور سنوات من الإحباط لليبرالي، كان نيكولاس ماركيز، وهو ابن الخامسة والثلاثين، قد تجاوز سن المغامرات. أضف إلى ذلك، أنه أسس حياة مريحة ومنتجة ومستساغة في بارانكاس، وكان يطمح إلى تعزيز رفاهيته المتنامية. مع هذا، فقد انضم إلى جيش أوريبي أوريبي وحارب في أقاليم غواخيرا وباديًا وبجدليما، وثمة دلائل تشير إلى أنه حارب على نحو أشد وأطول من غيره. من المؤكد أنه كان مشاركاً منذ البداية عندما كان آمراً وجرحاً من الجيش الليبرالي الذي احتل مسقط رأسه ريوهاتشا وظل على تلك الحال حتى انتهى النزاع في تشرين الأول 1902

نحو غاية شهر آب سنة 1902 تقدم الجيش الليبرالي الذي تلقى تعزيزات حديثة وبات تحت إمرة أوريبي أوريبي الذي ظهر مرة أخرى على نحو غير متوقع، صوب الحرب، وشق طريقه من حول سييرا بدءاً من ريوهاشتا حتى قرية آراكاتاكا الصغيرة التي كانت معروفة بصفتها معقلاً من معاقل الحزب الليبرالي، موصلها في الخامس من أيلول وهناك عقد أوريبي أوريبي محادثات لمدة يومين مع الجنرالين كلود روميرو كاسيلو وخوسيه روساريو دوران وغيرهما من الضباط ومن فيهم نيكولاس ماركيز نفسه. وفي آراكاتاكا اتخذ قراراً مصيرياً يقضي بخوض معركة أخرى أدت في نهاية المطاف إلى هزيمتهم هزيمة نكراء في معركة تيناغا.



تقدم أوريبي أوريبي نحو ثياغا في باكورة صباح الرابع عشر من تشرين الأول عام 1902. وكانت المعركة قاسية على الليبراليين منذ اللحظة التي بدأت فيها إحدى السفن الحربية الحكومية بقصف مواقعهم من البحر. وقد أطلقت بعض الإطلاقات على أوريبي أوريبي واخترق بعضها سرته لكنها لم تُصِب جسده بأعجوبة (ولم تكن تلك هي المرة الأولى). فصاح مندهشاً، وهو أمر مألوف من عقيد عارسيا ماركيز المعروف أوريليانو بوينديا: "كم مرة يعتقد هؤلاء القوطيون أني أمتلك؟" (تعبير القوطيون يطلقه الليبراليون على المحافظين). ومات ابن نيكولاس ماركيز كارلوس ألبيرتو ميتة الأبطال، أما الأخ الأكبر خوسيه ماريا الذي كان تسلسله في قيادة فرقة جيش المحافظين المعروفة باسم فرقة كاربرول، يأتي في المرتبة الرابعة، فقد نجا.

بعد مضيّ يومين خرج خوسيه ماريا من ثياغا محطم الفؤاد إثر وفاة كارلوس ألبيرتو، وقصد مخيم لليبراليين المهزومين حيث كان أبوه يعالج جروحه شأنه شأن آخرين غيره. كان خوسيه ماريا يحمل عرضاً للسلام من محافظين وفيما يحله يتقدم من خيام الليبراليين المهزومين، اعترضت طريقه مجموعة معقدة، وسيق معصوب العينين ليطرح شروط المحافظين على أوريبي أوريبي. إننا لن نعرف أبداً ما جرى بين الابن غير الشرعي البالغ من العمر تسعة عشر عاماً وأبيه المتمرد في مناسبة تاريخية خيم فيها ظل موت الابن الصغير عليهم. وناقش أوريبي أوريبي شروط الخصمين مع كبار ضباطه، وقرروا في نهاية المطاف القبول بها. فعاد المبعوث الشاب إلى ثياغا وفي وقت متأخر من الليل وصل محطة السكة الحديدية حيث حيّاه حشد من المهلوسين، ورفعوه عالياً ليُبلغ النبأ السار بعد مرور عشرة أيام، أي في الرابع والعشرين من شهر كانون الأول عام 1902. التقى قادة المحافظين وأوريبي وأوريبي مع رؤساء أركانهم في إحدى مزارع الموز وتدعى مزرعة نيرلانديا، وهي غير بعيدة عن ثياغا، لتوقيع معاهدة السلام. ولم تكن إلا أكثر قليلاً من ورقة تين تخفي تحتها حقيقة مرّة وهي أن الليبراليين هزموا هزيمة نكراء.



في وقت متأخر من العام 1902، رجع نيكولاس ماركيز إلى بارانكاس وإلى زوجته ترانكيلينا، وبدأ ينهض بأعباء حياته. وفي العام 1905 ولدت طفلتهما الثالثة لويسا سانتياغا، وبدت الأمور وكأنها عادت إلى مجراها الطبيعي[3]، لكن نيكولاس تورط في العام 1908 في مواجهة عنيفة تغير جرّاءها قدر أسرته إلى الأبد، واضطر إلى الرحيل عن بارانكاس. وعندما مررتُ ببلدة بارانكس بعد مرور خمس وثمانين عاماً على الحادثة، أي أواخر العام 1993، كان الجميع يتذكرون ما جرى، لكن لسوء الحظ روى لي كل شخص حكاية مختلفة، ومع هذا فلم تُنكر إحدى الحقائق التالية: عند الساعة الخامسة من عصر يوم الاثنين الماطر في التاسع عشر من تشرين الأول عام 1908، وهو اليوم الأخير من أسبوع مهرجان عذراء بيلار، وفيما كان الموكب الذي يحمل صورة العذراء يشق طريقه صوب الكنيسة الواقعة على بعد بضعة شوارع لا أكثر، أطلق العقيد نيكولاس ماركيز، وكان آنذاك سياسياً محلياً محترماً، ومالك أرض، وصائغاً، وصاحب أسرة في الأربعين من عمره، النار على شاب يدعى ميداردو وهو ابن أخت صديقه ورفيقه في السلاح الجنرال فرنسيسكو روميرو، وأرداه قتيلاً. ومن الحقائق التي لم ينكرها أحد هي أن نيكولاس كان زير نساء. تبدو هذه الصفة لدى بعض القراء في أماكن أخرى من العالم مغايرة لصورته كرجل محترم له مكانة مرموقة بين جيرانه. لكنّ هناك على الأقل نمطين من الشهرة يحصل عليهما امرؤ في مثل هذا المجتمع: الأول هو سمعته *الطيبة*، وهي سمعة تقليدية تقترن دوماً بالمهابة التي يعلم كيف يفرضها على غيره. أما الآخر فهو سمعته بوصفه *زير نساء* أو فحلاً فيشرها عنه الآخرون بدماثة. ويكمن الهدف في ضمان تعزيز هذين النمطين من الشهرة أحدهما للآخر.

كان التفسير الأول الذي سمعته مقنعاً مثل أي تفسير آخر سمعته. فقد ولد فيلمبون إيسنر في السنة نفسها التي وقعت فيها الأحداث. وقد فقد بصره الآن تماماً، وقد أكسبته تلك القصة الموغلة في القدم حيوية افتقدتها بقية الشهادات. فقد ذكر فيليمون أن نيكولاس كان لديه عدد من الأطفال غير الشرعيين وأنه أغوى ميداردا روميرو، وهي شقيقة صديقه لعديم الجنرال روميرو، ثم تبجح بذلك مخموراً في الميدان. ودار الكثير من القيل والقال معظمه يخص ميداردو لكن بعضه يخص

ترانكيليا. وقالت ميداردا لابنها: "لا بد من غسل هذا الافتراء على السمعة بالدم يا ولدي وليست هناك وسيلة أخرى، وإذا كنت لا تريد رؤيته فلا بد لي من أن ألبس بنطالك وأن تلبس أنت تنورتي!". كان ميداردو رامياً بارعاً خاص مع نيكولاس عمار الحرب ويعيش اليوم في بابايال القريبة، فتحدى مراراً وعلانية قائده السابق. وشتمه فأخذ هذا تلك التحديات على محمل الجد، وفي وقت لاحق كمن للشاب الأصغر سناً منه. امتطى ميداردو صهوة جواده، وذهب إلى المدينة في يوم الاحتفال مرتدياً معطفاً مطرياً من قماش القَبْردين الأبيض ومضى في زقاق - لم يعد له اليوم وجود - ليختصر الطريق. وفيما هو يترجل عن صهوة جواده حاملاً حزمة من الحشائش في يد وشمعة متقدة في اليد الأخرى قال له نيكولاس: "أأنت مسلح يا ميداردو؟" فردّ ميداردو: "لا"، فما كان من نيكولاس إلا أن أضاف قائلاً: "لا بأس أتذكر ما قلته لك؟"، ثم أطلق عليه إطلاقة واحدة فيما قال آخرون إطلاقتين. فخرجت امرأة تسكن في ذلك الزقاق وقالت: "إذاً، لقد قتله أخيراً". فأجاب نيكولاس: "إن رصاصة الحق تعلو على رصاصة القوة". وقال فيلميون: "وبعد ذلك انطلق نيكولاس ماركيز العجوز على امتداد الطريق وهو يقفز فوق البرك المائية وفي إحدى يديه بندقيته وفي الثانية مظلته وبحث عن إشبينه لوريشو سولانو غوميث، الذي رافقه ليسلم نفسه. ثم أودع السجن إلا أن ابنه خوسيه ماريا بالديبلانكيث، الذي كان محامياً ذكياً، أخرجه من السجن. وبما أن ميداردو كان ابناً غير شرعي، فإنه ليس واضحاً إن كانت كنيته هي باتشيكو أو روميرو، لهذا قال بالديبلانكيث إن هوية المقتول ليست واضحة تماماً. القصة فنية كما ترون" وهكذا ساعده بالديبلانكيث على النجاة.

لم يكن هناك أحد غير آنا ريوس، ابنة أخينيو شريك نيكولاس، تعرف أفضل من الآخرين، فأخبرتني أن ترانكيليا كانت متورطة تماماً في محمل تلك المأساة[4]. وذكرت أن ترانكيليا كانت تشتعل غيرة، ولها ما يبرر ذلك، لأن نيكولاس كان يخونها دائماً. كانت ميداردا أرملة والحديث عن الأرامل لا يتوقف في البلدات الصغيرة، وانتشرت شائعات أنها كانت عشيقة نيكولاس المتظمة. فباتت ترانكيليا مسكونة بهاجس هذا الاحتمال ربما لأن ميداردا كانت تنتمي إلى طبقة أعلى شأناً.

وهـــذا فهي أكثر خطراً من أي من مغامراته الأخرى. وقيل إن ترانكيليا لجأت إلى المستعبودات طلبـــاً للمشورة، وأتت بالماء من النهر لتنظيف عتبتها، ورشت عصير الليمون في أرجـــاء المنـــزل. وفي يوم ما – هكذا قيل – خرجت إلى الشارع وهتفت: "ثمة حريق في منـــزل الأرملة ميداردا، حريق، حريق!". وشرع صبي أعطته بعض المال ليتسلق برج كنيسة سان خوسيه بقرع نواقيس الإنذار، وسرعان ما شوهد نيكولاس وهو يتسلل خارجاً من منـــزل ميداردا في ضوء النهار (في حين يفترض بصديقه الجنرال أن يكون خارجاً).

عـــندما قدّم نيكولاس إفادته أمام السلطات سُئل إن كان يُقر بقتله ميداردو رومـــيرو باتـــشيكو فقال: "نعم، وإذا ما بُعث مرة أخرى إلى الحياة، فسأقتله مرة أخـــرى". فقـــرر العمدة، وهو من حزب المحافظين، أن يحمي نيكولاس، وأرسل مبعوثين لإحضار جثة ميداردو الذي كان مطروحاً ووجهه على الأرض تحت المطر مقـــيّد اليدين وراء ظهره قبل أن ينقلوه من ذلك المكان. يتفق معظم الناس على أن مـــيداردو كـــان يسعى لمواجهة وأنه كان يتطلع إلى ما حدث. ربما هكذا كانت الأمـــور بالرغم من أن الحقائق المجردة تبدو مشيرة إلى أن نيكولاس هو الذي اختار زمـــان المـــبارزة الأخـــيرة ومكانها وأسلوبها. ولا تتوفر أي معلومات كافية لتقدير مبررات فعله أو شجبه. إلاّ أنه وضح تمام الوضوح أن الحدث يخلو من أي بطولة، فـــنيكولاس لـــيس بذلك الفلاح المقيم، بل كان محارباً قديماً ومتمرساً، وأن الرجل الذي أرداه قتيلاً خسة كان أقل منه في الرتبة العسكرية وأصغر سناً.

رأى الكـــثيرون في بارانكـــاس أن مـــا حدث كان مقدراً، وكانت الكلمة الإســـبانية التي توصف بها مثل تلك الحادثة توافق *الحظ السيئ* أكثر مما توافق كلمة *عار*، ويقال إن العديد من أفراد أسرة ميداردو تعاطفوا مع العقيد في محنته. لكن ثمة حديثاً يدور حول إعدام من غير محاكمة قانونية وعن خشية من اندلاع تظاهرات. ولهـــذا الســـبب، وبعد أن بات تحريره أمراً سهلاً، أرسلوه تحت حماية مسلحة إلى مسقط رأسه ريوهاتشا، لكن حتى في تلك البلدة ساد الاعتقاد أنه ليس بمأمن، فنُقل إلى سجن آخر في سانتا مارتا على الجانب الآخر من جبال سييرا نيفادا[9]. ويبدو أن قريباً مؤثراً من أقرباء ترانكيليا تمكن من الحصول على تخفيض للحكم إلى سنة

واحدة في السجن في سانتا مارتا على أن تكون البلدة نفسها سجنه لسنة ثانية وخففت به ترانكيلينا والأولاد وعدد آخر من أفراد الأسرة بعد مرور بضعة أشهر. يقول البعض إنه تمكن من شراء إطلاق سراحه مما يحصل عليه من حرفته، إذ كان يشتغل في صياغة الحلي والمجوهرات والسمك الذهبي والمرآشات والكؤوس داخل السجن ويبيعها حتى دفع رشوة لقاء إطلاق سراحه. لكن لم يعثر أحد على أي وثيقة تخص هذه القصة.

لم تواجه أسرة غارسيا ماركيز ما تنطوي عليه من احتمالات تلك الحادثة، ولهذا لجأت إلى تبني تفسير مصحح للرواية. واستناداً إلى هذا التفسير، راجت شائعة لبعض الوقت تفيد أن ميداردو، الذي لم يكن شخصاً ساذجاً، كان يحسن صنعاً إلى أحد السكان بحبس مرة أخرى. وقد لاحظ أحد أصدقاء نيكولاس بخصوص هذه الأقاويل وهما يحتسيان الشراب في الميدان العام إذ قال نيكولاس: "أفكر إن كانت الأقاويل صحيحة"، وسمعت ميداردا الرواية على نحو يشير إلى أن نيكولاس كان يروج لتلك الشائعة فطلبت من ابنها أن يدافع عن شرفها. وفي سنوات لاحقة تذكر عالماً لويسا ذلك بالقول إن ترانكيلينا تقول عند السماع إلى هذه الحادثة على أنه يخص قصبه بسيطة. وبهذا التفسير، فإن القتل كان مبارزة وإن الرجل الميت يلقى ما يستحقه ويصبح القاتل ضحية حقيقية للجريمة"[6].

في العام 967، وفي أعقاب نجاح مئة عام من العزلة (الذي يطرح فيه غارسيا ماركيز تفسيراً للجريمة أقل مثالية من بقية أفراد أسرته) سأل ماريو فرغاس يوسا المؤلف عن الشخصية الأساسية في طفولته. فرد غارسيا ماركيز: "إنه جدي. وإني اكتشفت في ما بعد في مؤلفاتي أنه رجل نبيل، فقد اضطر إلى قتل إنسان عندما كان في ريعان الشباب، وكان يحيا في بلده ويبدو أن فيها رجلاً يغضبه دائماً ويتحداه، لكنه لم يعره أي اهتمام حتى بلغ السيل الزبى، فأرداه قتيلاً. ويبدو أن البلدة كانت متفقة مع ما فعله إلى الحد الذي دفع أحد أخوة الرجل الميت إلى النوم في تلك الليلة أمام باب البيت، أمام حجرة جدي وذلك كي لا تأتي أسرة القتيل وتنتقم. وهكذا ذهب جدي إلى مكان آخر بعد أن صعب عليه تحمل التهديد في تلك البلدة، أي أنه لم يذهب إلى بلدة أخرى وحسب، بل ذهب بعيداً برفقة أسرته وأسس بلدة جديدة.

نعـــم، لقد مضى وأسس بلدة، لكن أكثر ما أتذكره عن جدي قوله لي: *إنك لا تعلم وزن إنسان ميت*"[7]. بعد مرور سنوات طويلة على ذلك، يقول غارسيا ماركيز لي: "لا أدري مـــا الذي جعل جدي يتورط في كل ذلك، ولماذا حدث ما حدث، لكن الأوقات كانت عصيبة بعد الحرب. لا أزال أعتقد أنه اضطر إلى فعل ذلك"[8].

ربمـــا هـــي مصادفة محضة، لكن شهر تشرين الأول هو أكثر الشهور مدعاة للاكتئاب دائماً، وهو وقت الكهانة في روايات غابرييل غارسيا ماركيز.

* * *

يلـــف الغمـــوض تحـــركات نـــيكولاس ماركـــز بعد رحيله المحزن عن بارانكاس[9]. غير أن لويسا والدة غارسيا ماركيز أعطت تفسيرات متباينة لمختلف المحاورين[10]. فقد أخبرتني أنها أبحرت برفقة ترانكيلينا من ريوهاتشا إلى سانتا مارتا بعـــد مـــرور بضعة أشهر على نقل نيكولاس إلى سجن تلك البلدة (كانت لويسا آنذاك في الرابعة من عمرها)، وأن نيكولاس أطلق سراحه بعد مرور عام واحد، وأن الأسرة انتقلت إثر ذلك إلى بلدة ثيناغا القريبة، وعاشت فيها عاماً آخر ثم ذهبت إلى أراكاتاكا في العام 1910. لقد باتت هذه الرواية رواية رسمية، لكن الأهالي في ثيناغا يـــصرون علـــى أن نيكولاس وأفراد أسرته أمضوا ثلاث سنوات هناك بعد إطلاق سراحه من السجن وذلك في الفترة بين 1910-1913 ولم ينتقلوا إلى أراكاتاكا إلا في العـــام 1913[11]. ربما استخدم نيكولاس ثيناغا قاعدة ينطلق منها لاستكشاف الإقلـــيم بحـــثاً عـــن فرص جديدة. وإذا كان الأمر كذلك، فربما يكون قد طوّر اهـــتماماته السياسية والتجارية بأراكاتاكا التي تعد عموماً بلدة منصورية تحت لواء الليبراليين، وذلك قبل أن ينقل أسرته إليها. يبدو مرجحاً أيضاً أن أحد الأسباب التي دفعـــته إلى الإقامة في ثيناغا، سواء أكانت الإقامة لمدة عام أو ثلاثة أعوام، يتمثل في أن ثيـــناغا باتت آنذاك موطن إيزابيل رويث التي التقاها نيكولاس في باناما في العام 1885، وهـــي سنة زواجه بترانكيلينا، والتي أنجبت له ابنته ماريا غريغوريا رويز في العام 1886.

علـــى العكـــس من بلدة سانتا مارتا المستعمرة، فإن بلدة ثيناغا كانت بلدة حديثة، وتجارية، وعفوية وحشية، وكانت أيضاً محور النقل الإقليمي بحكم موقعها



على شواطئ الكاريبي وكانت ترتبط بثيناغا غراندي، أي المستنقع الكبير الذي تمخر عبابه المراكب التجارية وهي في طريقها للوصول إلى الطرقات البرية المتجهة إما إلى نهر مجدلينا وبوغوتا أو إلى مدينة بارانكيا الآخذة بالنمو نمواً تجارياً سريعاً وكان أول خط للسكة الحديدية في الإقليم يمتد من سانتا مارتا إلى ثيناغا قد بدأ بعد العام 1887 وتم مدّه بين عامي 1906 و1908 وسط العمود الفقري لمنطقة الموز إلى آراكاتاكا وفوندانيون.

تقع منطقة الموز جنوب بلدة سانتا مارتا بين ثيناغا غراندي ونهر مجدلينا غرباً، والبحر الكاريبي أو المحيط الأطلسي شمالاً، وجبال سييرا نيفادا التي تدعى قممها كولومبوس وبوليفار شرقاً[12]. وتقع في السهل المنبسط بين الجانب الغربي للجبال والمستنقع الكبير مستوطنة صغيرة تُدعى آراكاتاكا مسقط رأس غابرييل غارسيا ماركيز. وتشمخ من فوقها جبال سييرا نيفادا موطن هنود الكوجي المحبين للسلام الذين يعيشون في عزلة. كان مؤسسو آراكاتاكا الأوائل قوماً مختلفين تماماً يُعرفون باسم تشيميلا، وكانوا مولعين بالحرب ومن قبائل اراواك الهندية. كان يطلق على القبيلة وزعيمها اسم كاتاكا ويعني الماء الصافي. وهكذا أطلقوا على النهر اسم كاتاكا أيضاً، وأطلقوا على قريتهم اسم آراكاتاكا (ويعني المقطع أرا النهر بلغة هنود تشيميلا) أي المنطقة ذات المياه الصافية[13].

في العام 1887 قام المزارعون من سانتا مارتا بزراعة الموز في الإقليم، وفي العام 1905 جاءت إلى المنطقة شركة الفاكهة المتحدة ومقرها مدينة بوسطن. وهاجر العمال من جميع أرجاء منطقة الكاريبي ومن بينهم الكاتشاكو (وهو الاسم الساخر الذي يطلقه سكان الداخل ولا سيما بوغوتا، على سكان الساحل)[14]، وكذلك آخرون من فنزويلا وأوروبا وحتى من الشرقين الأوسط والأقصى. وهم الذين أسماهم أبطال رواية غارسيا ماركيز الأول عاصفة الأوراق باسم ساخر هو ورق النبات المتعفن. وفي غضون بضع سنوات تحولت آراكاتاكا من مستعمرة صغيرة إلى بلدة مزدهرة، إلى *بلدة مزدهرة في الغرب الموحش* حسب تعبير غارسيا ماركيز. وأصبحت في العام 1915 ذات مجلس بلدي، وهو جزء لا يتجزأ من النظام السياسي الوطني في كولومبيا.



لم يكن الزعيم الفعلي في البلدة هو العقيد ماركيز، وهو ما يزعمه حفيده في غالب الأحيان، بل الجنرال خوسيه روساريو دوران[15] الذي كان يملك عدداً من المزارع الكبيرة في أنحاء آراكاتاكا، وقاد القوات الليبرالية في عدد من الحروب الإقليمية على مدى عقدين من الزمان، وكان القائد المؤثر لليبراليين في آراكاتاكا زهاء نصف قرن. كان نيكولاس ماركيز أحد مرؤوسيه العسكريين المقربين، ولعله أصبح أكثر الحلفاء السياسيين مدعاة للثقة في آراكاتاكا خلال الفترة الواقعة بين عامي 1910 و1913. كان دوران نفسه هو الذي ساعد ماركيز على تقلد منصب في البلدة، وعلى شراء أرض في منطقة أريغواني ومُلكيّات أخرى في البلدة نفسها، وعلى الاستحواذ على وظيفتي جابي الضريبة وبالتالي المسؤول عن الخزانة في المديرية[16]. ومما لا ريب فيه أن هذه المسؤوليات، إضافة إلى السمعة العسكرية، جعلت من العقيد ماركيز واحداً من أكثر أبناء المنطقة قوة ومدعاة للاحترام بالرغم من أنه كان دائم الاعتماد على حسن نية دوران ومعرضاً للضغوط من الموظفين السياسيين التابعين لحكومة المحافظين ومن مديري شركة الفاكهة المتحدة.

أخبرتني لويسا، أم غارسيا ماركيز، أن نيكولاس بات "جابي الضريبة في المديرية" في آراكاتاكا في مطلع القرن[17]، ربما في العام 1909، إلا أنه لم يصطحب أسرته إلى هناك على الفور بسبب ظروف الصرف الصحي البائسة في البلدة المدارية والتي بدأت تزدهر حديثاً، وكانت آنذاك قرية عدد سكانها لا يربو على ألفي نسمة ومع هذا، فلتحتفل أفراد لأسرة العقيد ماركيز ودونا ترانكيلينا وأطفالهم الشرعيون الثلاثة خوان دي ديوس، ومارغريتا، ولويسا، وابنته غير الشرعية ألفيرا ريوس، وشقيقه ويلفريدا ماركيز، وقريبه فرانسيسكا سيمودوسيا ميخيّا، وخدمه الهنود الثلاثة أليريو وأوليار وميمي الذين كان اشترى كل واحد منهم بمئة بيزو في غواخيرا - وقد وصلوا كلهم بقطار شركة المور المصبوغ باللون الأصفر. كان العقيد مفعماً بالأمل وهو يقوم بزيارة استكشافية في آب 1910. لكن لسوء الحظ كانت المنطقة المحيطة بآراكاتاكا لا تزال غير صحيّة وموبوءة بالأمراض، كما أن المأساة حلت بالوافدين الجدد على الفور عندما توفيت مارغريتا، وهي ابنة الحادية والعشرين، بمرض التيفوئيد. لقد كانت مارغريتا بشحوبها الدائم وشعرها الأشقر



المعمور ضعيرتين مبعث فخر العقيد ومحنته، وربما فسّر هو وأسرته التي تعتقد بالخرافات موتها على أنه نوع من عقاب آخر بسبب خطاياه في بارانكاس. ولم تعد قادرة الآن على رواج كذلك الذي كان يحلم به الوالدان وأصبحت كل آمالهما معقودة بلويسا الصغيرة. وتفيد أعراف الأسرة أن مارغريتا جلست في سريرها قبيل وفاتها تنظر إلى أبيها وتقول: "إن عيون بيتت تصعق"[18]. وقد ظل وجودها الشاحب حياً في الذاكرة الجمعية وبخاصة، وهذه مفارقة، في صور التقطت عندما كانت في العاشرة من عمرها، ولم يعد أحد يحتفل بذكرى مولدها المصادف في الحادي والثلاثين من شهر كانون الأول في البيت الرحب المريح الذي بدأ العقيد يشيده قرب ميدان بوليفار.

بات نيكولاس ماركيز، وإن لم يكن فاحش الثراء البتة وبأمل دومٍ وبلا طائل بالمرتب التقاعدي الذي وُعد به كل المحاربين القدامى في الحرب الأهلية، واحداً من وجهاء المجتمع المحلي مؤقتاً، وسمكه كبيرة في بركة صغيرة، إذ أصبح المالك الفعلي لمسكن خشبي واسع الأرجاء بأرضية إسمنتية، وهو ما يعد في أراكاتاكا - وبعدّه حفيده غابرييل أيضاً - بيتاً حقيقياً مفروشاً بالأكواخ والزرائب التي سكنها معظم زملائهم من أبناء البلدة.

* * *

كانت بنة العقيد لويسا في نحو التاسعة عشرة من عمرها حين بلغ والدها عمر الستين عندما وصل في شهر تموز من عام 1924 عامل تلغراف جديد اسمه غابرييل إليخيو غارسيا إلى البلدة قادماً من موطنه سينثي[19] كانت أراكاتاكا آنذاك تستمتع بالترف والبذخ منذ بضعة أعوام، وأُرسلت لويسا إلى كلية دي لا بريسنتاثيون، وهي أكثر مدارس الراهبات مدعاة للاحترام في سانتا مارتا المكفهرة، بالرغم من أنها رحلت عنها حين بلغت السابعة عشرة من عمرها بسبب اعتلال صحتها. وتتذكر منها ليجيا قائلة: "إنها لم تعد إلى ذلك المكان لأن جدّيـنا قالا إنها بدت هزيلة جداً ومرهقة، وكانا يخشيان أن تقضي نحبها مثل أختها مارغريتا"[20].
كانت لويسا تخيط الثياب، وتعزف على آلة البيانو، وسقت عودها كي تجسد التطور الحاصل في المنزلة الاجتماعية التي كان نيكولاس وترانكيلينا يتشداها

ستكون عــراءً لهما عندما انتقلا من عواخيرا إلى منطقة الموز. هكذا صعق العقيد نيكـــولاس أنّ ابنته امرأة تربية لائقة قد تُغرم بحسن تلغراف أسود البشرة عديم الأهمية من مكان آخر! برجل بلا أب بإمكانيات قليلة. لم يكن هناك ما يجمع بين نيكولاس ماركيز وخطيب ابنته غابرييل إليخيو غارسيا عندما التقيا سوى مجموعة من الأطفال غير الشرعيين، وهي مفارقة كافية وقصية يردد موضوعها في أعمال غابرييل غارسيا ماركيـــز. وبالـــرغم من أن نيكولاس كان قد ولد في نطاق الزوجية وأن غابرييل إليخيو ولد خارج نطاق الزوجية (غير شرعي)، فإن كليهما تركا وراءهما أكثر من طفل غير شرعي عندما تزوجا وهم في بواكير العقد الثاني من عمريهما.

كان غابرييل إليخيو قد عاش سنوات طفولته وشبابه فقيراً بالرغم من عدم معـــرفة أي شيء عن المراحل الأولى من حياته سوى بعض التفاصيل القليلة، في الحقـــيقة إن التفاصـــيل القليلة كان قد طلبها منه أولاده، وبدا دائماً أن جانب ماركيـــز هـــو الأهم، وكذلك صلته بعواخيرا[21]. إننا نعلم تماماً أنه كان لديه أنـــصاف أشقاء وأنصاف شقيقات وهم: لويس إنريكي، وبستا، وخولنو، وربما ماركسيتا، وادان ريناندو، وأبيسار. كما أننا نعلم أيضاً، وبمساعدة الأقارب، أنه أكمـــل دراســـته الثانوية، وهو إنجاز مهم في أي بقعة من بقاع العالم آنذاك وسمع أنه أفلح في بواكير عشرينيات القرن العشرين في الالتحاق ببعض الدروس في كلـــية الطـــب في جامعـــة كارتاخينا، إلا أنه اضطر إلى تركها. وبعد ذلك بسنوات، تخبر نساءه بأن والده، وكان معلماً، أخذ على عاتقه مهمة دفع نفقات تعليمه إلا أنه مرّ بضائقة مالية واضطر إلى عدم الوفاء بعهده. ولما وجد نفسه بلا معين يساعده على إكمال دراسته قرر الرحيل عن البيت، وبدأ يبحث عن عمل في الإقلـــيمين الواقعين على البحر الكاريبـــي وهما قرطبة وبوليفار، حيث اشتغل عمـــوماً عامـــل تلغـــراف في بلدة صغيرة، وطنساً ومسافراً على امتداد الأقاليم الحدودية ذات الأنهار والمستنقعات والغابات. ولعله أصبح أول عامل تلغراف في ماغانغي، بعد ذلك اشتغل في تولو وشينتيخو وغيرهما من البلدات. لقد كسب مـــرنه عامل تلغراف في تلك الأيام ذات سمعة طيبة بلا أدنى ريب وسط الطبقات الأدنى، معـــتمدة على ما يبدو على التكنولوجيا الحديثة في المكنة ومعرفة العالم

القراءة والكتابة. كان العمل شاقاً وكثير المتطلبات أيضاً. وفي آتشي، وهي بلدة صغيرة على ضفاف نهر كاوكا جنوبي سوكري، ولد له أول ابن من أبنائه الأربعة غير الشرعيين وهو أبيلاردو، وكان غابرييل إليخيو في التاسعة عشرة من عمره وحسب. وفي العام 1924 تورط في متاعب أخرى في آيابيل الواقعة على حدود إقليم قرطبة، والتي تعرف اليوم باسم إقليم سوكري على ضفة مستنقع واسع. وفي آب من العام 1924 طلب من حبيبته الحقيقية الأولى كارميليا هيرموسيلو أن تتزوجه بعد أن أنجبت طفلة أخرى هي كرمن روسا. وفي أثناء رحلة إلى ماراتكيا لإعداد الترتيبات، يبدو أن قريبه كرلوس هيربك بارينا عمل في ثنيه عن اتخاذ مثل هذا القرار السيئ[22]، فهرب إلى مدينة المزارع في آراكاتاكا حيث تمكن من العثور على عمل بصفة عامل تلغراف. في ذلك الوقت، كان قد أصبح معوزاً متمرساً على الغواية، متعطشاً إلى معاشرة النساء، معلقاً ذلك كله بالشعر وأغاني الحب، أو، كما أوضح بعد زمن ابنه المشهور بأنه كان فتى كاريبياً نموذجياً من فتيان المرحلة. وهذا يعني من بين ما يعنيه أنه ثرثار واستعراضي ويتسم بالغلو، وذو بشرة سمراء أو سمراء جداً.

وصل منزل العقيد نيكولاس ماركيز في آراكاتاكا ومعه رسالة توصية من قسّ في جامعة كارتاخينا وكان يعرف العقيد ماركيز منذ أيام سابقة. لهذا السبب، واستناداً إلى تفسير غابرييل إليخيو نفسه، فإن العقيد، المعروف بحسن ضيافته، حيّاه تحية حارة ودعاه لتناول الطعام، وفي اليوم التالي رافقه إلى سانتا مارتا حيث كانت زوجته ترانكيلينا وابنتهما الوحيدة لويسا تمضيان فصل الصيف على شاطئ البحر. وفي محطة قطار سانتا مارتا اشترى العقيد قبّرة داخل قفص وأعطاها لغابرييل إليخيو ليعطيها بدوره للويسا كهدية. كان هذا التصرف الذي يبدو تصرفاً لا يبعث على الرضا أول أخطاء العقيد. لكنه بالرغم من ذلك، وحسب غابرييل إليخيو أيضاً، لم يُغرم بلويسا من أول نظرة. ويتذكر "لم أكن صريعاً، فأنا لم ترقني لويسا فقط، بالرغم من أنها كانت جد جميلة"[23].

لم تعد لويسا معجبة بغابرييل إليخيو مثلما لم يعد هو معجباً بها. وقد أصرّت على أنهما لم يلتقيا أول مرة في سانتا مارتا بل في آراكاتاكا في أعقاب السهر على

جثة طفل توفي في البلدة، وأنها كانت هي وسواها من النساء الشابات يشدن للعمل المتوفى كي يرحل إلى مكان أفضل عندما انضم صوت رجل إلى الجوقة، ولما التفتن جميعهن لرؤية صاحب الصوت، شاهدن شاباً بهي الطلة يرتدي سترة سوداء مزررة بأربعة أزرار. وهتفت الفتيات الأربع: "سنتزوجه"، غير أن لويسا قالت إنه يبدو لها "شخصاً غريباً وحسب"[24]. لقد كانت لويسا التي لم تكن خصماً يسهل التغلب عليه، بالرغم من افتقارها إلى التجربة، حذرة وظلت زمناً طويلاً تصدّ كل محاولة من محاولاته للتقرب منها.

كانت دائرة التلغراف قبالة الكنيسة وخلف الميدان العام في آراكاتاكا وعلى مقربة من المقبرة وعلى بعد شارعين من منزل العقيد[25]. كان الوافد الجديد يحمل رسالة توصية ثابتة موجهة إلى قسّ الأبرشية. لكن، إذا كان الأب الطيب قد لاحظ أن الوافد الجديد استقبل زائرات في أغلب الأحيان في ساعات متقدمة من الليل، فهذا ما لا نعرفه، لكن يقال إن غابرييل إليخيو لم تكن لديه أرجوحة نوم لوحده بل كان يملك سريراً مريحاً تزيينياً جيداً لعشيقاته في الحجرة الخلفية من دائرة التلغراف. لقد كان عازف كمان ناجحاً وموهوباً، وكانت معزوفة حملته هي *بعد الحفل* وهي مقطوعة فالس حلوة ومرة من العصر الذهبي لأمريكا الذي كان ينصح الشبان بعدم إضاعة فرصهم، ودعاه القس للعزف على الكمان مع الجوقة الموسيقية لما يعرف بفتيات العذراء. كان الأمر يشبه إطلاق الثعلب للعب مع الدجاج. وكانت إحدى مغازلاته مع معلمة مدرسة ابتدائية محلية تخرجت حديثاً وتدعى روسا إلينا فيرغسون قيل إنها تزوجت، وإنه مازح في أثناء حفلة أقيمت في منزل لويسا ابنة العقيد قائلاً إنها ستكون عرابته أو عشيقته الأولى. إن هذه المزحة التي أطلقت بلا شك لإثارة غيرة لويسا، إن كانت مستحدثة بأي حال من الأحوال إلى غابرييل إليخيو، سمحت للاثنين بأن يطلق كل منهما على الآخر لقب *عرابة وابن المعمودية* لإخفاء المودة المتنامية بينهما تحت ستار علاقة رسمية متخيلة لم يأخذها أي منهما على محمل الجد.

كان غابرييل إليخيو رجلاً يعرف كيف ينال النساء فضلاً عن أنه كان وسيماً بهي الطلة. بالرغم من أنه لم يكن إنساناً ساحراً، إلا أنه كان وقحاً قليل الحياء، واثقاً



أكثر من أي شخص آخر، له جذوره ومؤهلاته ومواهبه التي له الحق في الوثوق بها وقد كان الناس القاطنون في ذلك الجزء الذي يقطن فيه هو أيضاً، وهي منطقة السافانا من إقليم بوليفار، معروفين بأنهم ودودون، غير متحفظين وصاخبون، على العكس من التوجس والاستعلاء والشك الواضح الذي يتصف به أولئك القادمون من الأراضي الحدودية لبلدة غواخيرا، شأن نيكولاس ماركيز وترانكيلينا، التي لا تزال يُنظر إليها على أنها أرضٌ همجية في مطلع القرن العشرين. كانت علوية معشر العقيد العلنية تخفي وراءها نزعة عشائرية غواخيرية عميقة الجذور، وترتبط بالأماكن والأزمنة القديمة وحذراً من الغرباء. زد على ذلك، فإن آخر ما كان يحتاج إليه هو صهر غير مؤهل يغدو عبئاً إضافياً، في حين كان يبحث عن الارتباط بأسرة أفضل ذات مكانة محترمة كأسرته.

كانت لويسا رقيقة الجانب، مدللة إلى حدٍّ ما، ومتعة حياة أبيها. صورتها الأساطير، ربما على نحو مبالغ فيه، على أنها حسناء *آراكاتاكا*[26].

في الحقيقة، لم تكن ذات جمال تقليدي، لكنها كانت جذابة، مفعمة بالحيوية ومهذبة، بالرغم من أنها كانت غريبة الأطوار إلى حدٍّ ما، ولكنها امرأة حالمة مؤكداً. كانت أسرة بيتها وطبقتها الاجتماعية على أيدي أبيها وأمها اللذين أحبتهم واحترمتهما، لكن انشغالها بأمها الاجتماعي والعاطفي عززه على نحو غريب تاريخ والدها الشخصي[27]، علاوة على ذلك، يشير غابتو لاحقاً إلى أن الأسرة كانت قد بدأت منذ زمن بعيد تغذي موروثاً *سحابياً* متناقصاً يتلخص برفض كل الخاطبين الغرباء ما جعل الرجال يتحولون إلى *صيادي شوارع* ماكرين والنساء إلى عانسات في أغلب الأحيان. على كل حال، كانت لويسا أقل خبرة من الرجل الذي ركّز بعد ثمانية أشهر من وصوله إلى آراكاتاكا جل اهتمامه عليها وعزم على أن تكون زوجته.

بدأ الاثنان يتبادلان نظرات متقدة في قداس يوم الأحد، وفي آذار سنة 1925 سعى غابرييل إليخيو للعثور على وسيلة لنقل مشاعره إليها ومفاتحتها بالزواج. فكان يمر تحت أشجار اللوز أمام البيت، حيث كانت لويسا وعمتها فرانسيسكا سيمودوسيا ميخيا تجلسان وتخيطان وقت القيلولة أو بداية المساء. وكان يخطو في

بعض الأحيان بحديث تحت شجرة كستناء عظيمة داخل الحديقة في حين تحوم من حولهما العمة فرانسيسكا، معصبة العديد من الخاطبين الذين تقدموا لخطبة لويسا، كأنها وصيفة مصاحبة تشبه العمة إيسكولاستيكا في رواية الحب في زمن الكوليرا[28]. وفي آخر الأمر، ومن تحت تلك الشجرة العملاقة، أطلق واحده من أقل العبارات بسالة المدونة في الفلكلور الرومانسي "أصغي يا سينيوريتا ماركيز، كنت ساهراً طوال الليل أفكر في أنني بحاجة إلى الزواج، وأن المرأة التي سكنت فؤادي هي أنت، ولا أحب أي امرأة أخرى، فأخبريني إن كانت لديك أي مشاعر روحية تجاهي، لكن لا تظني أنك مضطرة إلى الموافقة لأنني على وجه التأكيد لا أموت حباً فيك، وسأمنحك أربعاً وعشرين ساعة للتفكير في الأمر"[29]. وقد قاطعته العمة فرانسيسكا المهيبة. غير أن لويسا أرسلت في غضون الأربع والعشرين ساعة ملاحظة مع أحد خدمها الهنود تقترح فيها عقد لقاء سري، وقالت إنها ترتاب في مدى جديته، وإنه يبدو لها عابثاً ومعارلاً مسرفاً. فأخبرها بأنه لا يريد الانتظار، فهناك أسماك أخرى في البركة. فطلبت منه أن يُطمئنها بجدية، فأقسم لها إنها إذا قبلت به، فلن يحب امرأة أخرى. فوافق الاثنان على أن يتزوج أحدهما الآخر وليس أي شخص آخر، وأن الموت وحده هو الذي سيحول دونهما.

سرعان ما رأى العقيد إشارات مقلقة تنم عن هوى مشترك، فقرر أن يقضي على العلاقة في مهدها من دون أن يدرك أن تلك العلاقة باتت متفتحة الآن. فأوصد الباب أمام عامل التلغراف، ورفض أن يكلمه مجدداً. لقد كان تودّد غارسيا لابنتهما كأس المر والعلقم الذي لم يكن نيكولاس ولا ترانكيلينا على استعداد لتجرعه. في إحدى المرات، عندما كان العقيد يحيي حفلة اجتماعية لم يستطع فيها استثناء غابرييل إليخيو، كان هو الشخص الوحيد في الحجرة الذي لم يُطلب منه الجلوس. فشعر الشاب بإهانة شديدة حتى إنه اشترى بندقية، لكنه لم يكن عازماً على الرحيل عن البلدة. وأخبر والدا لويسا أنها لا تزال صغيرة السن بالرغم من أنها بلغت العشرين آنذاك وكان غابرييل إليخيو في الرابعة والعشرين. مما لا ريب فيه أنهما أشارا إلى أنه داكن البشرة وأنه غير شرعي، وأنه موظف حكومي مرتبط بنظام حزب المحافظين المقيت الذي حارب العقيد ضده في الحرب، وأنه عضو في *الورقة*

المتعصبة، وأنه اسفانة البشرية التي طوّحت بها الريح من خارج البلدة. لكن العلاقة استمرت سراً بالرغم من ذلك: خارج الكنيسة بعد القدس، أو في الطريق إلى السينما، أو عند نافذة بيت العقيد عندما يكون الشاطئ خالياً.

أخبرت العمة فرانسيسكا قريبها العقيد عن هذه المبادرات الجديدة، فما كان منه إلا أن اتخذ إجراءات صارمة، فأرسل لويسا برفقة ترانكيلينا وأحد الخدم في رحلة طويلة إلى غواخيرا حيث بقيتا مع الخادم عند بعض الأصدقاء والأقرباء الذين يقطنون في بيوت على امتداد الطريق. ويمثل هذا السفر حتى في يومنا هذا سفراً طويلاً في أرض وعرة ويفتقر إلى الراحة لعدم وجود طريق حديث مكتمل. ففي تلك الأيام كان الطريق ينطوي على ممرات ضيقة تطل على أطراف هاوية تمتد على السفوح السفلى لجبال سييرا نيفادا، كما أن لويسا لم تركب على ظهر بغل من قبل.

لكن خطة العقيد مُنيت بفشل ذريع، إذ تفوقت لويسا على ترانكيلينا في دهائها. فالمحارب القديم الذي خاض غمار عديد المعارك لم يحسب حساب غابرييل إليخيو وهو يخطط استراتيجية حملته. وما كان يبغي به أن يقلل من شأن مصادر عامل التلغراف. إن رواية **الحب في زمن الكوليرا** تروي لنا بجمل قصة الرسائل المستمرة التي مررها عمال تلغراف متعاطفون في كل بلدة مرت بها الأم وابنتها. وتستذكر آنا ريوس كيف أنها سمعت أن الاتصال التلغرافي كان بالغ التأثير، حتى إن لويسا، عندما دُعيت إلى الرقص في ماناوري طلبت من روح المستقبل السماح لها بالذهاب، وقد جاء الجواب بالإيجاب في اليوم نفسه، وظلت ترقص حتى الساعة السابعة صباحاً[30]. ويعود الفضل إلى نظام زملائه عمال التلغراف، إذ لدى وصول الأم وابنتها إلى شاطئ سانتا مارتا في مطلع العام 1926 كان غابرييل إليخيو في الانتظار ليرحب بحبيبته وهي تنزل من المركب مرتديه ثوباً وردياً رومانسياً.

من الواضح أن لويسا رفضت العودة إلى أراكاتاكا، ومكثت في سانتا مارتا برفقة أخيها خوان دي ديوس وزوجته ديليا في شارع دل بورو. وربما يمكن تخيل ثمن هذا التحدي في ضوء الأحداث الدرامية التي ألمت بالأسرة. فقد مرّت ديليا نفسها بالأهوال نتيجة العداء الذي تكنه أسرة ماركيز لغواران للغرباء، وكانت فرحة جداً لمساعدة أخت زوجها بالرغم من أن خوان دي ديوس تلقى عنه



مفتوحين على كلتا المرأتين بالإنابة عن أبيه. وكان غابرييل إليخيو يزور لويسا في أثناء عطلات نهاية الأسبوع في ظل ظروف من الحرية النسبية إلى أن انتقل في الوقت الملائم إلى ريوهاتشا التي كانت بعيدة جداً ما جعل الزيارات في أثناء عطلات نهاية الأسبوع غاية في الصعوبة. تكلمت لويسا مع راعي الأبرشية في سانتا مارتا المونسنيور بيدرو إسبيخو، وكان في ما مضى في آراكاتاكا وصديقاً حميماً للعقيد ماركيز. فكتب القس رسالة إلى العقيد في الرابع عشر من أيار سنة 1926 يقنعه بأن الاثنين مغرمان ببعضهما بعضاً، وأن الزواج من شأنه أن يجنّب حدوث ما اسماه باكمهراو *مصائب اسوأ*[31]. فرقّ قلب العقيد - لا بد من أنه كان يدرك أن لويسا لم يبقَ لها سوى بضعة أسابيع وتبلغ الحادية والعشرين من عمرها - وتزوج الاثنان في كاتدرائية سانتا ماريا وذلك عند الساعة السابعة من صباح يوم الحادي عشر من شهر حزيران سنة 1926. وكان ذلك اليوم هو يوم القلب المبارك، شعار المدينة.

يقول غابرييل إليخيو إنه رفض دعوة حمويه الجديدين لحضور حفل الزفاف بسبب خلم راوده، غير أن السبب الأرجح هو أنهما رفضا الحضور. ويقول ماريو فارغاس يوسا، الذي تلقى معظم معلوماته من غارسيا ماركيز مباشرة بحدود عامي 1969 و1970، إن العقيد نفسه أصرّ على أن يحيا الزوجان بعيداً عن آراكاتاكا[32]. وعندما ذُكر هذا الموضوع، أفاد غابرييل إليخيو أنه كان يسعده الحضور، واعترف أمام عروسه، وهما يبحران ويُصابان بدوار البحر إلى ريوهاتشا، أنه أغوى خمس عذراوات في سنواته الأولى بوصفه كازانوفا البلاد، وأنه ترك وراءه طفلين غير شرعيين. أما إذا كان قد أخبرها بأي شيء عن سجن والدته الخاص بحياتها العاطفية فهذا ما ينبغي لنا أن نرتاب فيه، لكن لا بد من أن هذا الاعتراف من زوجها الجديد بأفعاله السيئة كان مفاجأة غير سارة تماماً. على كل حال، تتذكر لويسا طوال أيامها الأشهر التي أمضتها مع غابرييل إليخيو في المنزل الذي استأجراه في ريوهاتشا بوصفها أجمل أوقات عمرها[33].

ربما حملت لويسا في الليلة الثانية التي أعقبت الزفاف - إن لم تكن قد حملت قبل الزفاف نفسه - وتفيد قصص الأسرة أن أنباء هذه الحالة بشّرت بذوبان جليد العلاقة بين غابرييل إليخيو والعقيد. ويقال إن الهدايا أرسلت إليهما مع خوسيه ماريا



بالديبلانكـيت. ومع هذه، فإن قلب غابرييل إليخيو لم يرقّ إلى أن وصل ذات يوم خـوان دي ديوس قادماً من سانتا مارتا ليخبره أن ترانكيليا تعلق الآمال على حمل ابنتها، فسمح غابرييل إليخيو لها بالسفر والعودة إلى آراكتاكا للولادة فيها[34]

* * *

وصـلت لويسا ذات الحادية والعشرين من عمرها عائدة إلى مسقط رأسها، آراكاتاكا صباح أحد أيام شهر شباط من دون مرافقة زوجها بعد أن مضت حوالي ثمانيه عشر شهراً بعيدة عنها. كانت في الشهر الثامن من حملها، مصابة بدوار البحر إثر رحلة بحرية عاصفة أخرى إلى سانتا مارتا على متن مركب من ريوهاتشا. وبعد مـضي أسـابيع قليلة، أي يوم الأحد السادس من آذار سنة 1927، وعند الساعة التاسـعة صـباحاً، ووسط عاصفة مطيرة في غير أوانها، ولد الابن غابرييل غارسيا ماركـيز. وقـد أخبرتني لويسا إن أباها كان في طريقه إلى المداس عندما سارت الأمور إلى الأسوأ، لكن عندما قفل راجعاً إلى منـزله كان كل شيء قد انتهى.

ولـد الطفل، وكان حبل السرة ملتفاً حول عنقه - ويعزو بعد ذلك نزعته إلى الخـوف المرضي من الأماكن المغلقة إلى هذا الحدث - ووزنه، كما قيل، ثلاثة كيلوغـرامات ومئة وخمسين غراماً. واقترحت العمة فرانسيسكا سيمودوسيا مبخيًّا أن يرشّوا عليه الشراب وماء التعميد خشية حدوث مضاعفات أخرى. في الحقيقة، الطفل لم يعمّد رسمياً إلا بعد ثلاث سنوات ونصف السنة تقريباً مع أخته مارغوت (مارغـريتا) التي عُزلت مع الحدثين (يتذكر غابيتو التعميد بكل وضوح، إذ أجراه الأب فرانسيسكو أنغاريتا في كنيسة سان خوسيه في آراكاتاكا في السابع والعشرين من شهر تموز سنة 1930، وكان العرابان هما الشاهدين اللذين شهدا في حفل زفاف والديه: خاله خوان دي ديوس وعمة أمه فرانسيسكا سيمودوسيا).

احتفل العقيد ماركيز بيوم الميلاد، وأصبحت ابنته لحبيبة قضية خاسرة أخرى، إلاّ أنه عزم على أن ينظر إلى تلك الكنيسة على أنها معركة لا أكثر، وعزم على ربح الحـرب، فالحـياة ستستمر، وسيوظف كل طاقاته التي لا تزال عظيمة في طفلها الأول، حفيده المولود حديثاً: "نابوليون الصغير".

* * *



-2-

بيت في آراكاتاكا

1927-1928

"ليست الذكرى الأكثر ديمومة وحيوية عندي هي ذكرى أناس، بل هي ذكرى البيت الحقيقي في آراكاتاكا الذي عشت فيه مع الجدّين. إنه حلم لا يزال يراودني حتى الآن. فضلاً عن ذلك، فإنني في كل يوم من أيام حياتي، أستيقظ فيه وثمة شعور يلازمني، حقيقياً كان أم خيالياً، بأني حلمت بأني في ذلك البيت الكبير العتيق. أنا لم أذهب إليه، بل أنا موجود فيه في سن غير محددة، ولسبب غير محدد، وكأنني لم أغادره قط. ولا يزال ينتابني حتى الآن في أحلامي ذلك الإحساس المنذر بالشر ليلاً الذي خيم على مجمل طفولتي. إنه إحساس لا سبيل إلى السيطرة عليه، يبدأ في وقت مبكر من كل مساء، وظل يؤرقني في منامي حتى أرى الفجر يبزغ من خلال الباب المتصدع"(1).

هكذا، وبعد مرور نصف قرن من الزمان، يتذكر غابرييل غارسيا ماركيز، وهو يتحدث إلى صديقه بلنيو أبوليو مندوثا في باريس، الصورة المهيمنة بطفولته المدهشة في بلدة آراكاتاكا الكولومبية الصغيرة. ولم يمضِ غابيتو السنوات العشر من عمره برفقة أمه وأبيه وعدد كبير من إخوانه وأخواته الذين تعاقبوا من بعده إلى هذا العالم بل أمضاها في البيت الكبير لجدّيه لأمه العقيد نيكولاس ماركيز ميخيّا وترانكيلينا إغواران كوتيس.

كان بيتاً محتشداً بالناس من أجداد وخالات وضيوف وقتيين وخدم وهنود – لكنه كان أيضاً مملوءاً بالأشباح (ربما قبل كل شيء شبح أمه الغائبة)(2). وبعد مرور سنوات طويلة ظل الشبح هاجسه عندما كان بعيداً جداً زماناً ومكاناً، وكانت



محاولة استعادته وخلقه من جديد والسيطرة على ذكرياته الخاصة به جزءاً كبيراً من ذلك الشيء الذي سيصنع منه أديباً في المستقبل. كان ذلك كتاباً حمله في أعماقه منذ طفولته. يتذكر الأصدقاء أن غابيتو كان يكتب، وهو لم يبلغ العشرين من عمره بعد، رواية لا تتخطى عتبة حد أسماها **البيت**. ظل ذلك البيت القديم المفقود في آراكاتاكا بيت الأسرة حتى أواخر الخمسينيات من القرن العشرين على الرغم من أن أسرة أخرى استأجرته بعد أن صحب غابرييل إيليخيو زوجته وأولاده بعيداً عن آراكاتاكا مرة أخرى في سنة 1937. وعاد للظهور أخيراً على حالته الأصلية وإن كان متسماً بالهلوسة في رواية غارسيا ماركيز الأولى **عاصفة الأوراق**، التي كتبها عام 1950 لكن الهوس لم يكن قوياً ولم يستنفد نفسه إلا في ما بعد في رواية **مئة عام من العزلة** (1967) وعلى نحو أصبحت معه طفولة غابيتو المفعمة بالنشاط، وإن كانت تنطوي على معاناة وفي أغلب الأحيان على جرح، بادية بجسد العالم كله في صورة عالم ماكوندو. وفي تلك المرحلة بات المشهد في منزل العقيد ماركيز لا يحيط بلدة آراكاتاكا الصغيرة وحدها، بل يحيط أيضاً عموم منطقة كولومبيا، بل وكل أميركا اللاتينية وما وراءها.

وبعد ولادة غابيتو، انتظر غابرييل إيليخيو بضعة أشهر ليقوم برحلته الأولى إلى آراكاتاكا. فاستقال من وظيفته في ريوهاتشا وتخلى عن دائرة التلغراف هناك، وراوده الأمل في أن يكسب قوته من الطب التجانسي في آراكاتاكا. لكن بما أنه لم تكن لديه مؤهلات، ولم يكن لديه إلا القليل من المال، وعلى حين بدا أنه غير مرحب به في بيت العقيد، خلاف رؤية الأسرة الأسطورية، فقد قرر أخيراً الانتقال بلويسا إلى بارانكيا، وبعد مفاوضات غامضة تمت الموافقة على بقاء غابيتو مع جدّيه[3].

كانت مثل هذه الترتيبات أمراً شائعاً بعد موافقة الزوجين في المجتمعات التقليدية ذات الأسر الكبيرة. لكن لا يزال عصيّاً على الفهم ترك لويسا طفلها الأول وراءها وهو لا يزال في مرحلة من عمره يعتمد فيها على الرضاعة الطبيعية لأشهر أخرى. لكن الأمر الذي يبدو مؤكداً هو أن التزامها بزوجها كان التزاماً شديداً. وبالرغم من كل النقد الذي وجّهه والداها إليها، وبالرغم من كل أخطاء غابرييل

إليخيو وغرابة أطواره، لا بد من أنها أحبت رجلها وتركت نفسها، من دون تردد على ما يبدو، في حمايته. وفوق هذا كله، فضّلته على ابنها الأول.

إننا لن نعرف ما الذي كانت تفكر فيه لويسا وغابرييل إليخيو، أو ما أبدى قاله كل واحد منهما للآخر وهما يستقلان القطار الصاعد من آراكاتاكا إلى بارانكيا تاركين طفلهما الأول وراءهما. لكننا نعلم أن أول هجمة على الشابين جاءت متمثلة بالفشل المالي، لكن بعد مرور أشهر قليلة، كانت ولويسا قد عادت حاملاً مرة أخرى، وعادت إلى آراكاتاكا كي تلد طفلها الثاني لويس إنريكي في الثامن من أيلول سنة 1928، وهذا يعني أنها هي والطفل الذي كانا في آراكاتاكا في أثناء الفترة الزمنية التي أدت إلى مذبحة عمال الموز في ثييناغا في شهر كانون الأول من ذلك العام وأعمال القتل العديدة التي ارتكبت في آراكاتاكا ومن حولها بعد ذلك. وكانت إحدى ذكريات غابيتو الأولى عن جنود يمرون أمام بيت العقيد. وعندما جاء غابرييل إليخيو ليأخذ الأم وابنها الجديد إلى بارانكيا في كانون الثاني من سنة 1929، فإن ما يدعو إلى الغرابة هو تعميد الطفل بعجالة قبل الرحيل في حين أن غابيتو لم يعمّد إلا في شهر تموز سنة 1930[4].

سننظر إلى صورة غابيتو وتحديداً إلى وجه الطفل الصغير وعمره سنة واحدة وهي مطبوعة على غلاف مذكرات غارسيا ماركيز عشت لأروي. لقد تركته أمه في رعاية جدّيه قبل التقاط الصورة بضعة شهور، وعادت الآن بعد مرور بضعة أشهر على التقاطها لتجدها وقد وقعت في شرك أحداث الإضراب وما أعقبها من مذبحة. لم تكن تلك المذبحة حدثاً مهماً وحاسماً وهائلاً وحسب، فقد كان من شأنه أن يغير تاريخ كولومبيا إذ أدى إلى عودة حكومة الليبراليين في آب 1930 بعد مرور نصف قرن من الحرب الأهلية والتهميش. فتوحّدَ الصبي الصغير بتاريخ بلاده. بل كانت أيضاً متزامنة مع اللحظة التي كان في وسع أم الصبي أن تعيده إلى بارانكيا برفقتها. لكنها عوضاً عن ذلك، رافقت طفلها الجديد لويس إنريكي الذي عُمِّد حديثاً، وتركت غابيتو وراءها في البيت الكبير برفقة جدّيه، فصممت بذلك قدرته على استيعاب غربته والعيش في ظل هذا الغياب وتوضيح هذه السلسلة من الأحداث التي يتعذر تفسيرها لنفسه، وبذلك يتمكن من خلال تطور مثل هذه

القصة أن يشكل هوية ترتبط، شأنها شأن كل الهويات، بين ظروفه الشخصية، بكل ما تنطوي عليه من قسوة وبهجة، وقسوة العالم الخارجي وبهجته.

* * *

على الرغم من ذكريات غابيتو عن العزلة، فإنه لم يكن الطفل الوحيد في البيت، لكنه كان الصبي الوحيد فيه. فقد كانت أخته مارغريتا تسكن في البيت منذ أن كان عمره ثلاث سنوات ونصف السنة، وكذلك المراهقة سارا إميليا ماركيز - وهي ابنة خاله خوان دي ديوس غير الشرعية التي رفضتها زوجته ديلية (يقول البعض إن ديبيا أوضحت أن الفتاة كانت ابنة خوسيه ماريا بالديبلانكيث وليست ابنة زوجها) - التي نشأت أيضاً في ذلك البيت برفقتهما. ولم يكن البيت هو ذلك المنزل الذي زعم غارسيا ماركيز أنه هو البيت المقصود[5]. الحق أن البيت لم يكن في آذار سنة 1927 بيتاً واحداً، بل ثلاثة مبان منفصلة مشيدة بوجه عام بالخشب وبالقليل من اللَّبِن (الطوب) فضلاً عن المباني الإضافية الخارجية (كالمرافق الصحية). وفي الوقت الذي وُلد فيه غابيتو، كانت هذه المباني الثلاثة الرئيسة ذات أرضيات إسمنتية على الطريقة الأمريكية ونوافذ فولاذية ذات واقيات من نسيج شفاف ورقيق لتحول دون دخول البعوض، وسطوح مسقفة مطلية بالزنك الأحمر على الرغم من أن بعض المباني الخارجية لا تزال تحتفظ بالسقوف الكولومبية التقليدية المصنوعة من سعف النخيل. وثمة أشجار لوز خارج هذا المبنى تظلل المدخل. وبحسب ذكريات غارسيا ماركيز المبكرة جداً، فقد كان هنالك مبنيان إلى يسار المدخل، يضم أولهما مكتبَ العقيد، وحجرة استقبال صغيرةً مرتبطة به، وفناء جميلاً، وحديقة فيها شجرة ياسمين - كانت هذه الحديقة التي تحتشد بورد الياسمين، والناردين، ورقيب الشمس، وإبرة الراعي، تعج أيضاً بالفراشات صفراء اللون - وجناحاً آخر يتألف من ثلاث حجرات.

كانت أول هذه الحجرات الثلاث الخاصة هي حجرة نوم الجدين، التي اكتمل بناؤها في وقت لاحق يصل إلى العام 1925 حيث ولد غابيتو بعد ذلك بسنتين[6]. وإلى جنب تلك الحجرة، ثمة ما يُطلق عليه اسم **غرفة القديسين** التي أصبح ينام فيها غابيتو عادةً - على أرجوحة شبكية بعد أن ضاق عليه المهد - في أثناء السنوات

العشر مع جدِّه، وفي بعض الأحيان، وعلى نحو متغير أو في آن واحد، برفقة أخته الأصغر سناً مارغريتا وعمة أمه فرانسيسكا سيمودوسيا وابنة خالته سارا ماركيز ومعهم مجموعة لا تنتهي من القديسين تضاء ليلاً ونهاراً بمصابيح تستخدم زيت النخيل، وكل واحد منها في عهدة أحد أفراد الأسرة لحمايتها وذلك "للاعتناء بالحد ومراقبة الأحفاد وحماية البيت كي لا يداهم أحد المرضى وهكذا؛ وتلك عادة موروثة عن جدته جدتنا لأمنا"[7]. أمضت عمة أمه فرانسيسكا العديد من الساعات من حياتها وهي جاثية على ركبتيها تصلي هناك. أما الحجرة الأخيرة فهي "حجرة الحقائب" وهي حجرة سقط المتاع الممتلئة بممتلكات الأسلاف وتذكارات الأسرة جُلبت عند الخروج من غواخيرا[8].

وعلى الجهة اليمنى من المبنى، وإلى ما وراء الممر، ثمة جناح من ست حجرات أمامها شرفة وضعت فيها أصص الزهور الكبيرة وكانت الأسرة تدعوها "شرفة التبغونية" لوجود هذه العشبة الأسترالية فيها. وإذا عدنا القهقرى إلى المدخل، فإن الحجرات الثلاث الأولى من المبنى الواقع إلى جهة اليمين تشكل هي والمكتب وحجرة الاستقبال المقابلة ما يمكن تسميته بالجانب الرسمي من البيت، إذ كانت الحجرة الأولى خاصة بالضيوف حيث يمكث زوار مهمون من ضمنهم، على سبيل المثال، مونسنيور إسبيخو نفسه. أما رفاق الأسرة ورفاق الحرب من جميع أرجاء غواخيرا وباديًا ومجدليا فكانوا يقيمون هناك، ومن ضمنهم بطلا حرب الليبراليان رفائيل أوريبي أوريبي والجنرال بنجامين هيريرا[9]. وتقع بعد هذه الحجرة ورشة صياغة العقيد حيث ظل يواصل ممارسة حرفته حتى وقت قصير قبيل وفاته، على الرغم من أن مهامه في البداية اضطرته إلى جعل مهنته الأولى هواية[10]. وإلى الخلف حجرة الطعام الرحبة وهي المركز المؤثر في البيت، والأهم عند نيكولاس من الورشة الكائنة على امتدادها. كانت حجرة الطعام المفتوحة على الهواء تتسع لعشرة أشخاص يتحلقون حول مائدة الطعام وفيها بضعة كراسي هزازة من الخيزران لتناول المشروبات قبل الطعام أو بعده متى ما تستدعي الضرورة.

تأتي بعدها حجرة النوم الثالثة المعروفة باسم "حجرة المرأة العمياء" التي توفيت فيها قبل بضع سنوات أكثر أشباح المنزل شهرة ألا وهي العمة بيترا كوتس



شقيقة ترانكيليينا[11]، تماماً مثلما كان قد توفي فيها العم لازارو، وباتت اليوم مثوى وحـــدة من العمات. ثم هناك حجرة حفظ أدوات الطعام التي يمكن أن يأوي اليها ضيوف أقل شأناً عند الاضطرار. وأخيراً، مطبخ ترانكيلينا الكبير الذي يحتوي على الفرن الكبير والمفتوح أمام مختلف العناصر شأنه شأن حجرة الطعام. وكانت الجدة والعمات تخبزن الخبز ويعددن قوالب الحلوى والحلويات من كل نوع لضيوفهن كي يستمتعوا بها، ولخدم المنزل لبيعها في الشارع فيتعزز بذلك دخل الأسرة[12].

ثمة فناء آخر وراء حجرتي القديسين والحقائب وفيه حمام وخزان ماء كبير حيث حمت ترانكيلينا غابيتو بقسم من ماء البراميل الخمسة التي يأتي بها كل يوم المعهد خوسيه كوسيريس. وفي إحدى المناسبات التي لا يمكن أن تُنسى، كان غابيتو الصغير يتسلق نحو السطح عندما شاهد عبره إحدى عماته وهي تستحم عارية. وبدلاً من أن تصرخ أو تغطي جسدها، وهو ما توقعه، لوحت له بيدها، أو هذا هو ما تذكره لاحقاً مؤلف **مئة عام من العزلة**. كان الفناء المجاور للحمام يطل على الخارج: من جهة الشمس قطعة أرض فيها شجرة مانجا، وكوخ كبير في ركن مـــن الأركان يستعمل ورشة نجارة، وهي القاعدة التي يقوم فيها العقيد بتحديدات استراتيجية للبيت.

وفي الجـــزء الخلفـــي من المبنى، إلى ما وراء الحمام وشجرة المانجا، تقع بلدة أراكاتاكا الحديثة وسريعة النمو والتي يمثلها على نحو واضح ثراء هذا البيت الواسع وطمـــوحه، فتبـــدو البلدة كأنها تتجه نحو الريف في فضاء واسع شبه بري يدعى لاروراك أي فـــسحة الأرض[13] وفي هـــذه البقعة تنمو أشجار العوافة التي تلجأ ترانكيلينا إلى استخدام ثمارها في صنع الحلويات في دلو معدني كبير، فتجعل رائحتها الـــزكية غابيتـــو يربط بينها وبين طفولته الكاريبية إلى الأبد. كما تخيم هنا شجرة الكستناء الأسطورية التي يُربط بها خوسيه اركاديو بوينديا في ما بعد في رواية **مئة عـــام مـــن العزلة**. وتحت شجرة الكستناء ابوارهه كان عبريل إليجيو غارسيا قد طلب من لويسا يدها في حين صرخ "كلب الحراسة"، العمة فرنسيسكا، في وجهه مـــن بـــين الظلال. كانت على هذه الأشجار الببغاوات وطيور الأقطروس، وأحد الحيوانات الكسولة المعلقة بين أغصان شجرة الحور. وتقع على أحد جانبـــي البوابة



الخلفية الإسطبلات حيث كان العقيد يحتفظ فيها بجواده وبغاله وحيث يربط زوار جيادهم المعدة للركوب لدى وصولهم إلى هذا المكان، لا لتناول طعام الغداء وحسب، وذلك عندما يتركونها في الشارع، بل للمكوث مدة أطول

وكان يجاور البيت مبنى ظل الأطفال يظنون أنه بيت الأهوال، وأسموه "بيت الرجل الميت". وانهمكت البلدة كلها في سرد روايات عنه تقشعر لها الأبدان لأن رجلاً فنزويلياً يدعى أنطونيو مورا عاش فيه بعد أن شنق نفسه، وكانت تُسمع أصوات سعال وصفير تنبعث من داخله"(14).

وفي الوقت الذي ترسخت فيه ذكريات غارسيا ماركيز الأولى، كانت أراكاتاكا لا تزال بلدة حدودية عنيفة زاخرة بالأحداث. فقد كان كل شخص تقريباً يحمل مدية وكانت البنادق كثيرة. وكانت إحدى ذكريات الصبي الصغير المرتبكة متمثلة باللعب في الفناء الخارجي عند مرور سيدة من أمام البيت ورأس زوجها في قطعة قماش وبقية الجسد محمول في الخلف. ويتذكر الصبي أنه شعر بخيبة أمل لأن الجسد كان مغطى بثياب مهلهلة"(15).

كان النهار يأتي بعالم مفعم بالحيوية، متغير، كثير التحولات، ويصبح في بعض الأحيان عالماً سحرياً عجيباً. أما الليل فيبقى على حاله، وكان مثيراً للفزع. ويتذكر: "كان البيت تعمه الأسرار، جدتي متوترة جداً، أشياء كثيرة تظهر لها فتخبرني بها ليلاً...".

كانت الحياة اليومية تهيمن في ترانكيلينا أو "مينا"، كما كان يدعوها زوجها أو بعض النساء الأخريات، فهي امرأة نحيلة ذات عينين رماديتين قلقتين وشعر فضي مفروق من الوسط، فيشكل وجهاً إنسانياً لا سبيل إلى الخطأ فيه، وينتهي بعقدة على شكل كعكة فوق مؤخر العنق"(16). ويتذكر غارسيا ماركيز: "لو أقدمت على تحليل شكل الأشياء، فإن سيد البيت الحقيقي هو جدتي، ولم تكن هي وحدها، بل كانت معها القوى الماورائية التي كانت دائمة الاتصال بها والتي كانت تقرر ما الذي يمكن وما الذي لا يمكن عمله في ذلك اليوم. لأنها كانت تفسر أحلامها وتنظم البيت بحسب ما يمكن وما لا يمكن تناوله من الطعام. كان البيت أشبه بالإمبراطورية الرومانية تحكمها الطيور وقصف الرعد وغيرها من العلامات الخاصة

بالطقس، مما يُفسر أي تغيير في الجو والمزاج. لقد كنا في أيدي قوى غير مرئية على الرغم من أن الجميع كانوا من الكاثوليك الملتزمين[17].

كانت ترانكيليا تطوف في أرجاء البيت منذ الفجر وحتى الغروب مرتدية ثياب حداد أو شبه حداد وتوشك أن تصل إلى حالة من الهستيريا، تغني وتحاول أن تنشر جواً من الهدوء والسكينة. متنبهة باستمرار إلى ضرورة حماية مسؤولياتها من المخاطر المحدقة بها على الدوام: أرواح معذبة (أسرعوا، شخص يموت) جارات (أيقظوا الأطفال وإلا سيموتون أيضاً). كانت تذكر الأطفال بهذه المخاطر وهو آخر ما تفعله ليلاً.

تذكرت روسا فيرغسون، وهي معلمة غارسيا ماركيز الأولى، أن ترانكيليا كانت تعتقد اعتقاداً شديداً بالخرافات. فقد كانت روسا وشقيقاتها يأتين في وقت مبكر من المساء فتقول السيدة: "أتعلمن أنني سمعت ساحرة في الليلة الفائتة... لقد سقطت على سطح ذلك المنزل"[18] وكان من دأبها أن تروي أحلامها مرات ومرات، شأنها شأن عديد لشخصيات في روايات غارسيا ماركيز. وفي يوم ما، أخبرت الجميع عندها بأنها حلمت بوجود حشد من البراغيث، لهذا قطعت رأسها ووضعته بين ساقيها وبدأت تفتش البراغيث واحداً واحداً"[19].

وكانت العمة فرانسيسكا سيمودوسيا ميخيا، المعروفة باسم العمة ماما، أكثر مهابة من بقية النساء اللواتي كن حاضرات في أثناء طفولة غابيتو، وكانت، خلافاً لترانكيليا، معروفة بعدم خشيتها من أي شيء طبيعياً كان أم خرافياً، وكانت أختاً غير شقيقة لأوخينيو ريوس شريك العقيد في باراكاس، ونشأت مع قريبها العقيد في باراكاس إلى كارمن دي بوليفار وانتقلت من باراكاس إلى آراكاتاكا برفقته بعد مقتل ميداردو. كانت داكنة البشرة، متينة البنيان، سوداء الشعر شأنها شأن هنود غواخيرو، بضفائر تربطها إلى الخلف عندما تسير في الشوارع. كانت ترتدي ثياباً سوداء اللون، وتنتعل جزمة مربوطة بإحكام وتدخن سجائر قوية، نشيطة باستمرار، توجه الأسئلة بصوت عالٍ، وتُصدر الأوامر بصوتها القوي الصادح، وتنظم أيام الأعمال. كانت تعتني بالجميع، من أفراد الأسرة والمتشرّدين واللقطاء. كانت تعد أنواعاً خاصة من الحلوى والكعك للضيوف، وكانت تأخذ الأطفال إلى النهر

للاستحمام بصابون يحتوي على مادة الكاربوليك إذا كان لديهم قمل، وترافقهم إلى المدرسة وإلى الكنيسة، وتأويهم إلى أسرتهم وتجعلهم يتلون صلواتهم قبل أن تتركهم لترانكيلينا التي تتلو عليهم ملاحظاتها الختامية. وكانت تودع لديها مفاتيح الكنيسة والمقبرة وتزين المذبح في الأيام المقدسة. وكانت تصنع حلوى الكنيسة أيضاً وكان القس زائراً منتظماً من زوار البيت - وكان الأطفال يتطلعون بحماسة إلى تناول ما يتبقى من اطعام المبارك. عاشت العمة ماما وماتت وهي عانس. وعندما فكرت في أنها ستموت، بدأت تخيط كفنها الخاص بها، كما فعلت أمارنتا في مئة عام من العزلة.

أما المرأة الثانية من حيث الأهمية فكنيتها الخالة با، واسمها ألفيرا كاريو التي ولدت في بارانكاس في نهاية القرن التاسع عشر، وكانت إحدى بنات العقيد الطبيعيات والأخت التوأم لإستيبان كاريو. ثم انتقلت إلى آراكاتاكا وهي في العشرين من عمرها. وعلى الرغم من التوتر المحتوم في أول الأمر، فقد عاملتها ترانكيلينا كأنها إحدى بناتها، اهتمت هي بدورها بترانكيلينا حتى وفاتها في سوكري بعد مرور سنوات طويلة. كانت رائقة المزاج، دمثة الأخلاق، مدمنة على العمل الشاق، تقوم دائماً بأعمال التنظيف والخياطة وتصنع الحلوى لتبيع بالرغم من أنها كانت تفضل عدم البيع في الشارع.

وهناك العمة ويفريدا التي تطلق عليها العمة نانا، وهي أخت نيكولاس الشرعية الوحيدة، كانت دائمة الحضور، بالرغم من أنها كانت تسكن بيتاً خاصاً بها. وكانت قد انتقلت إلى آراكاتاكا برفقة زوجها رافائيل كيتيرو لتموت بعد ذلك في منزل نيكولاس - بعد أن أمضت أيامها الأخيرة في مكتبه - قبل وفاة العقيد نفسه بوقت قصير.

وهناك أيضاً عدد لا يحصى من الخدم، أغلبهم يعملون من دون تفرغ تام، ينظفون حول البيت ويغسلون الثياب والأواني. والحق أن البيت كان يحتشد بالنساء، وتلك حقيقة أدت بغابيتو من ناحية إلى إقامة علاقة وثيقة وحاسمة مع الذكر الوحيد الآخر في البيت وهو جده، ومن ناحية أخرى إلى الاطمئنان إلى النساء وإلى الاعتماد عليهن اعتماداً يستمر طوال حياته. كان الرجال في نظر غابيتو



إمـــا رجلاً يبغي محاكماتهم، مثل جده، أو الخوف منهم مثل أبيه. كانت علاقاته المبكرة بالنساء أكثر تنوعاً وأشد تعقيداً. (ثمة عدد كبير من الخادمات الهنديات في البـــيت وكنّ في حقيقة الأمر من العبيد. أما الصبـــي أبوسيار، فلا يمكن عدّه ذكراً لأنه لم يكن رجلاً متكاملاً).

عندما قرأ غارسيا ماركيز قصص الحياة، لا بد من أنه صعق لحقيقة مفادها أن العديد من تلك القصص يتضمن فتىً وفتاة وأجداداً – أجداداً دائماً، كحاله تماماً: هو ومارغوت ونيكولاس وترانكيليه. لقد كان العالم معقداً من الناحية العصابية وهو ما أوضحه في ما بعد لصديقه بلينيو ميندوثا: "الأمر الغريب هو أنني أردت أن أكون مثل جدي – واقعياً وشجاعاً وآمناً – لكنني لم أستطع مقاومة الإغراء الدائم في التلصص علـــى مقاطعه جدتي"[20]. لقد كان "بابا ليلو" أسداً عظيماً في ذاكرة أحفاده، يفرض النظام والانضباط على كبرياء الإناث، على بيت يحتشد بنساء أتى بهن إلى آراكاتاكا في أثنـــاء بحثه عن الاحترام المتجدد والأمن. كان مخادعاً وصريحاً، حاسماً ومباشراً في آرائه. ويبدو أن غابيتو شعر أنه خلفه المباشر وأنه وريثه أيضاً.

واصطحب العقيد حفيده الصغير إلى كل مكان، وشرح له كل شيء، وإذا ما راوده الشك، يأخذه إلى البـــيت ويمسك بمعجم الأسرة ويؤثر سلطته بحسب التعريف الذي يجده فيه[21]. كان في الثالثة والستين من عمره عندما ولد غابيتو، له ملامـــح الأوروبيين، يشبه زوجته من حيث قامته متوسطة الطول وجسمه الممتلئ. وكـــان عـــريض الجبين، مائلاً إلى الصلع، كث الشاربين، يضع نظارة ذات إطار ذهبـــي، وكانـــت عينـــه اليمنى قد أصيبت بالعمى في ذلك الوقت بسبب الماء الأزرق[22]. وكـــان يـــرتدي في معظم الأيام بدلة مدارية بيضاء نظيفة، لا تشوبها شائبة، ويعتمر قبعة حقيقية من قش ملون ويضع حمّالتي بنطال زاهيتي الألوان. كان رجـــلاً صريحاً، طيب القلب، سلطته واثقة وسمحة يُضفي عليها بريق عينيه شيئاً من الحـــيوية فتنـــمّ عن فهم لهذا المجتمع الذي يعيش فيه، وبذل قصارى جهده في كل الظروف التي مرّ بها، لكن من جهة أخرى، لم يكن مفرطاً في الاحتشام.

وبعد مرور سنوات عدّة، عندما أفلح غارسيا ماركيز في إعادة تشكيل هاتين الطـــريقتين في تفسير الواقع وسرده، وتنطوي كلتا الطريقتين على لهجة واثقة تمام

الثقة - تكثيف جده الدنيوي والعقلاني في حكمه ومواعظه وحماسة جدته الخطابية الأخروية الغيبيّة - تشوبها مسحة من روح دعابة هي نسيج وحدها، وبذلك تمكّن من تطوير نظرة عالمية وأسلوب سردي موازٍ ها سرعان ما يدركه القراء مع كل كتاب جديد له.

* * *

بالرغم من أن العقيد ماركيز هُزم في حرب الألف يوم، إلاّ أنّ التوفيق حالفه في وقت السلم أيضاً. فبعد انتهاء الحرب، فتحت حكومة المحافظين أبواب الجمهورية أمام الاستثمار الأجنبي وازداد الاقتصاد الوطني حجماً بنسبة غير مسبوقة، لا في أثناء الحرب ولا بعدها. واستثمر رجال المال الأميركيين استثماراً واسعاً في التنقيب عن النفط والتعدين والموز، ودفعت حكومة الولايات المتحدة في نهاية المطاف للحكومة الكولومبية خمسة وعشرين مليون دولار للتعويض عن خسارتها باناما. واستثمرت هذه الأموال في مختلف الأشغال العامة التي كان يراد منها تحديث البلاد. وازدادت القروض من بعد ذلك، ودارت كل تلك الدولارات والبيروسات هنا وهناك، فخلفت هستيريا مالية أطلق عليها المؤرخون الكولومبيون تعبير "رقصة الملايين". ويتذكر الكثيرون في ما بعد تلك السنوات القصيرة التي شهدت أموالاً متيسرة بفائدة ضئيلة على أنها سنوات ازدهار لا تُضاهى وفرصة سانحة على شاطئ الكاريبي.

الموز فاكهة مدارية يستغرق نموها ما بين سبعة إلى ثمانية شهور، ويمكن جني الثمار وتسويقها تجارياً في أي وقت من أوقات السنة. ونظراً إلى حداثة وسائل الزراعة والنقل، فقد ساعد الموز على تحويل العادات الغذائية والاقتصادية لكبريات مدن العالم الرأسمالية. وقد وجد ملاك الأراضي المحليون أنفسهم، وهم الذين فتحوا الأقاليم الساحلية الشمالية من كولومبيا في وقت متأخر أمام الاستثمار، أن الأحداث قد سبقتهم. ففي أواسط سبعينيات القرن التاسع عشر، بدأ رجل الأعمال الأميركي ماينور كيث بشراء الأراضي المحيطة بسانتا مارتا، وكان قبل ذلك يملك مناطق واسعة من أميركا الوسطى ومن جامايكا. وفي سنة 1899 أسس شركة الفواكه المتحدة التي تقع مكاتبها في مدينة بوسطن ومباؤها الرئيس في

نيوأورليانـــز. وفي الوقت نفسه الذي اشترى فيه الأرض، اشترى أيضاً أسهماً في شـــركة سكة حديد سانتا مارتا، وفي نهاية المطاف لم تعد شركة الفواكه تدير خط ســـكة الحديد وحسب، بل امتلكت أيضاً 25.500 سهم من مجموع أسهمها البالغ عددها 60.000 سهم[23].

وأشـــار أحد النقاد إلى أن أسهم ماينور كيث في كولومبيا ترقى إلى "لائحة فرصـــان"[24]. ففي أواسط عشرينيات القرن العشرين، أصبحت المنطقة ثالث أكبر منـــطقة لتـــصدير الموز في العالم، إذ كان أكثر من عشرة ملايين عنقود موز يغادر ســـنوياً أرصفة الموانئ في سانتا مارتا. وكان خط سكة الحديد فيها يمتد ستين ميلاً مـــن سانتا مارتا إلى فونداثيون، وتقع على امتداد هذه المسافة اثنتان وثلاثون محطة. وكانت تحتكر تقريباً مجمل الأرض، وأنظمة الري، والتصدير بحراً، والنقل إلى خارج سانتا مارتا وإلى ما وراء ثياناغا غرانديه، ونظام التلغراف، وإنتاج الإسمنت واللحوم وغيرهـــا من المواد الغذائية، والهاتف والثلج[25]. لقد كانت شركة الفواكه المتحدة بامـــتلاكها المـــزارع وخط سكة الحديد تسيطر سيطرة فعلية على بلدات المنطقة التـــسع. كمـــا أنهـــا سيطرت سيطرة غير مباشرة على الشرطة المحلية والسياسيين والصحافة المحلية[26]. وكانت إحدى أكبر المزارع المملوكة لشركة الفواكه المتحدة تدعى ماكوندو، وتمتد على مساحة قدرها 135 إيكر على جانبـــي نهر إشبيلية في غواكامايال المستصلحة.

كانـــت للطـــبقات العليا من الأسر الحاكمة في سانتا مارتا صلات بنيويورك ولـــندن وبـــاريس، وكانـــت ذات مستوى ثقافي رفيع على الرغم من أنها محافظة سياسياً. غير أن الأسطول العظيم الأبيض لشركة الفواكه المتحدة، قد ساعد الجميع على إجراء اتصالات بالولايات المتحدة وأوروبا وبقية دول البحر الكاريبـــي. وفي الوقت نفسه، اندفع المهاجرون من بقية أنحاء كولومبيا، بما فيها شبه جزيرة غواخيرا ومـــناطق أخرى من العالم، للعمل في مزارع الموز أو لإقامة مشاريع تجارية صغيرة لخدمـــة المـــزارع والأهالي العاملين فيها. فظهر بذلك الصانعون والتجار والمراكبيون وبنات الهوى والغسالات والموسيقيون وسقاة الحانات. كما حلّ الغجر فيه ورحلوا عنها، لكن إن شئنا الحقيقة، فإن جميع سكان منطقة الموز كانوا من الغجر في تلك

الأيام. وأصبحت هذه الجماعات المتنامية متصلة بسوق البضائع العالمية وبدور السينما التي تغير أفلامها مرتين أو ثلاث مرات أسبوعياً، وتوفر العديد من الأشياء التي نجدها في نيويورك أو لندن، مثل كاتالوغات مونتغمري وارد، والشوفان علامة كويكر، وميكس هابو رت، وأملاح إينو، ومعجون كولجيت للأسنان.

كان عدد سكان آراكاتاكا بضع مئات سنة 900 يسيرون حول الريف ويتركزون على ضفتي النهر. وبحلول عام 1913 ارتفع العدد إلى ثلاثة آلاف ليزداد بعد ذلك أيضاً إلى ما يقارب العشرة آلاف نسمة في أواخر عشرينيات القرن العشرين. ولما كانت البلدة الأشد حرارة ورطوبة في المنطقة كلها، فقد كانت تنتج أكبر أنواع الموز حجماً، وكان إنتاج الموز يتطلب صراعاً محمياً يومياً بين العمال من دائم جلوس معظم الناس أو حتى استلقاؤهم على الأرض تحت أشعة شمس آراكاتاكا أمراً مهلكاً. وبحلول سنة 1910، عندما كان العقيد قد بدأ بنقل أسرته إلى تلك البلدة، كان خط سكة الحديد يمتد نزولاً من سانتا مارتا مروراً بثيناغا وآراكاتاكا حتى يصل إلى فونداثيون، وهي آخر مدن المنطقة، وكانت مزارع الموز تنتشر على جانبي خط سكة الحديد على مسافة ستين ميلاً تقريباً

كانت آراكاتاكا بلدة مزدهرة وتتصف بحماسة البلدات المزدهرة. فقد كان اليانصيب يقام في أيام الآحاد في أثناء عزف فرقة موسيقية في الميدان العام. أما مهرجان آراكاتاكا، الذي أقيم أول مرة عام 1915، فقد كانت له جاذبية خاصة حيث تنتشر سوياً على الميدان الحوانيت التي تقام احتفاء بالمناسبة وتقام معها أيضاً الأكشاك وباحات الرقص، والتجار والمحالون والعشابون والنساء اللواتي يرتدين أزياء غريبة وأقنعة، ويجال رجال البلدة وهم يرتدون بنطلونات من الخاكي وقمصاناً زرقاء، وتلفهم سحب دخان السيجار فيما تعم رائحة الرُّم والعرق في جميع أرجاء المكان بفعل نسمة لاذعة قادمة من ثيناغا عبر الوادي. وقد قيل إن كل شيء كان يباع في تلك السنوات الذهبية: لا السلع الاستهلاكية القادمة من جميع أنحاء العالم وحسب، بل حتى شركاء الرقص والأصوات الانتخابية والأحلاف العربية[27].

لكن المدينة، حتى في أوج أيامها، لم يكن فيها سوى عشرة شوارع ذات اتجاه واحد. ولولا حرارة الشمس اللاهبة، فإن في وسع أي فرد اعتيادي أن يقطعها سيراً



علـــى قدمـــيه من جهة إلى أخرى في غضون عشرين دقيقة. ولم تكن هناك سوى مجموعة من السيارات. وكانت مكاتب شركة الفواكه المتحدة قبالة منزل المفيد نـيكولاس ماركيـز تماماً، وعلى مقربة من صيدلية صديقه الفنزويلي الدكتور ألفريدو باربوسا. وإلى الجهة الأخرى من خط سكة الحديد، ثمة جماعة أخرى قوامها مخـيم إداريي الشركة الأميركية، على امتداد بادٍ ريفي يحتوي على أرض مزروعة بالحـشيش، وملاعـب للتنس، وبركة سباحة حيث يمكن مشاهدة نساء جميلات مـسترخيات يـرتدين ثياباً من الموسلين ويعتمرن قبعات عريضة من نسيج رقيق وشفاف يقطفن الأزهار في حدائقهن بمقاصٍ ذهبية[28].

في أثناء حقبة الموز كانت بلدة آراكاتاكا لا تحترم الدين أو القانون إلا قليلاً. واستجابة لطلب قدّمه مواطنو البلدة، أرسلت مطرانية سانتا ماريا أول أسقف إلى البلدة وهو بيدرو إسبخو من بلدة ريوهاتشا يعمل فيها موقتاً. وكان هو صاحب فكـرة بناء كنيسة أبرشية استغرق بناؤها أكثر من عشرين عاماً[29]. كما أنه هو الذي أصبح صديق أسرة ماركيز إعواز ن الوثيق. وكان يقيم عندها كلما جاء إلى آراكاتاكـا. واليوم، بعد مرور العديد من السنين، فإن الشارع الذي كان فيه ذلك البيت مشيداً يطلق عليه اسم "شارع المونسنيور إسبخو".

* * *

وفي أواخـر سـنة 1928، انتهى عصر آراكاتاكا الذهـبي نهاية عنيفة. فقد احـتاجت شـركة الفواكه المتحدة إلى العمالة لبناء خطوط سكة الحديد وقنوات الـري، ولاستصلاح الأرض وغرس الأشجار وجني الفاكهة، ولتحميل القطارات والـسفن بالموز لتصديرها. وقد أفلحت في بداية الأمر في اتباع سياسة "فرّق تَسُد" بـين العمال بكل يسر وسهولة، إلا أن هؤلاء العمال سرعان ما انتظموا في نقابات في أثـناء عقد العشرينيات، وفي تشرين الثاني من عام 1928 قدموا مطالب مسوغة تـضمن زيادة في الأجر وخفضاً لساعات العمل اليومي وتحسين ظروفهم. غير أن الإدارة رفـضت تلك المطالب، فأعلن ثلاثون ألف عامل الإضراب في منطقة الموز وذلـك في الـيوم الثاني عشر من شهر تشرين الثاني 1928، وكان الطفل غارسيا ماركيز قد بلغ عشرين شهراً من عمره.



انتفض المتظاهرون لاحتلال المزارع في اليوم نفسه، فردت حكومة الرئيس ميغيل آباديا ميديث المحافظة بإرسال الجنرال كارلوس كورتيس فارغاس إلى المنطقة في اليوم التالي بوصفه القائد المدني والعسكري برفقة 1800 عنصر من الأراضي المرتفعة. ولدى وصول كورتيس فارغاس إلى بلدة سانتا مرتا كرمته إدارة شركة الفواكه المتحدة، وأسكنت الجنود في ثكنات الشركة ومخازنها المنتشرة على امتداد المنطقة. وقيل آنذاك إن مسؤولي الشركة أقاموا للضباط حفلات ماجنة انتهكت فيها حرمات سيدات المنطقة وتعرضن فيها للإهانة، كما امتطت بنات أخرى وهن عاريات الجياد العسكرية واستحممن عاريات أيضاً في قنوات ري الشركة[30].

وفي فجر الخامس من كانون الأول سنة 1928 وصل ثلاثة آلاف عامل إلى ثيناغا لاحتلال الميدان، وإذا ما تمكنوا من احتلال ثيناغا، فإنهم يسيطرون على طرقات مواصلات سكة الحديد في جميع أرجاء الإقليم. إضافة إلى ثيناغا، فإن آراكاتاكا كانت بدورها إحدى المناطق التي تدعم الإضراب أشد الدعم. وكما هو شأن تجار ثيناغا، فقد قدّم أصحاب متاجر الحليون وملاّك الأراضي دعماً مادياً حيوياً إلى المضربين حتى يوم المواجهة[31]. وكان المعروف عن الجنرال خوسيه روساريو ديوران أنه موظف محترم حاول أن يكون له صلات طيبة بالنقابة. والحق أن العديد من محافظين شعروا أنهم ودودون "بالاشتراكيين" أكثر مما ينبغي[32] وعند منتصف ظهيرة الخامس من كانون الأول، أرسل الجنرال ديوران الذي وصفته اللافتات العسكرية يومذاك بأنه "الزعيم الليبرالي لجميع أرجاء الإقليم"[33]، برقية إلى سانتا مرتا يطلب فيها قطاراً لنقله هو ورجاله إليها حيث كان يأمل في التوسط بين العمال والشركة بمساعدة الحاكم نونيث روكا. فوافق كورتيس فارغاس، على مضض بلا ريب، وأرسل القطار في طلبه[34]. وأخيراً، وصل ديوران ووفده، ومن ضمنه العقيد نيكولاس ماركير، إلى ثيناغا عند الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم، فحيّاه العمال بكل حماسة، وواصلوا طريقهم إلى سانتا مارتا للتفاوض من أجل التوصل إلى تسوية. لكنهم وجدوا أنفسهم رهن الاعتقال حال وصولهم. يبدو أن أفراد الإدارة المحافظة وشركة الفواكه المتحدة والجيش الكولومبي كانوا جميعاً عازمين على سفك الدماء لتلقين العمال درساً.



وفي ثياغا، واجه حشد قوامه أكثر من ثلاثة آلاف شخص الجيش[35]. وكان كل جندي مزوداً ببندقية وحربة ونُصبت ثلاثة مدافع رشاشة أمام المحطة ودوّى صوت بوق وتقدّم النقيب غارافيتو إلى الأمام وقرأ بصوت عالٍ: "المرسوم رقم ( )". وبدأ فرض الحصار وأعلن عن حالة منع التجوال على الفور وحظر تجمع أربعة أشخاص أو أكثر، وإذا لم يتفرق الجمع الحاشد في غضون خمس دقائق فسوف تطلق النيران. وهنا بدأ الحشد بإطلاق الشتائم وصيحات الاستنكار على الجيش بعد أن كان يحييه في البداية وينشد الشعارات الوطنية. وبعد مرور بعض الوقت، تقدّم كورتيس فارغاس بنفسه إلى الأمام وناشد الأهالي بالانصراف، وإلا ستطلق النار عليهم، ومنحهم دقيقة إضافية واحدة. وفي تلك اللحظة صاح صوت من بين الأهالي مجيباً تلك الإجابة التي لا تنسى والتي سجلت في مئة عام من العزلة: "تلك الدقيقة هدية منا لكم!" فصاح كورتيس فارغاس: "أطلقوا النار!" فانطلق هدير مدفعين رشاشين (إذ تعطل المدفع الرشاش الثالث) ومعهما مئتا أو ثلاثمئة بندقية من جميع أنحاء الميدان. وسقط عدد كبير من الناس على الأرض وهرب من أفلح في الهرب[36]. أما سلفادور ديوران، وهو ابن الجنرال نفسه، وكان آنذاك في بيته القريب من الميدان، فقال إن إطلاق الرصاص استمر خمس دقائق كاملة، وبعدها ساد هدوء حتى كان في الوسع سماع صوت البعوض في غرفته[37]. وقيل إن الجيش أجهز على الجرحى باستخدام الحراب[38]. كما قيل أيضاً إن كورتيس فارغاس هدد الجنود بإعدامات صورية إذا لم ينفذوا الأوامر في تلك الليلة[39] ولم تبدأ السلطات إلاّ عند الساعة السادسة صباحاً بالتخلص من الجثث موضحة رسمياً أن عدد القتلى تسعة والجرحى ثلاثة.

كم عدد الذين ماتوا؟ بعد مرور أربعين سنة على تلك الحادثة، يخترع غارسيا ماركيز في روايته مئة عام من العزلة رقماً هو ثلاثة آلاف، وهي حصيلة نهائية يأخذها العديد من قرائه تماماً لظاهري. وفي التاسع عشر من أيار سنة 1929 ورد في صحيفة الاسبكتادور الصادرة في بوغوتا أن عدد القتلى تجاوز الألف. كما أن ممثل الولايات المتحدة في بوغوتا جيفرسون كافيري قال في رسالة مؤرخة في الخامس عشر من كانون الثاني سنة 1929، ولكنها لم تنشر إلاّ بعد مرور سنوات

طويلة. إنّ هناك "أكثر من ألف قتيل" بحسب توماس برادشو المدير الإداري لشركة الفواكه المتحدة. (ويقول نائب رئيس شركة الفواكه المتحدة آنذاك لأحد الباحثين في سنة 1955، إن 410 أشخاص قتلوا في المذبحة وإن أكثر من ألف تُوفوا في الأسابيع اللاحقة)[40]. ولا تزال هذه الأرقام موضع نقاش وخلاف حتى هذا اليوم

كان غابرييل إليخيو غارسيا منهمكاً في عمله بعيداً عن أسرته في بلدة بارانكيا، بالرغم من أن عامل التلغراف في أراكاتاكا أبرق إليه مشيراً إلى أن الجميع بخير وأمان. كانت لويسا قد أنجبت مؤخراً لويس إنريكي، وكان غابرييل إيخيو ليعود بالأسرة إلى بارانكيا. وكان يترنم دائماً بتقديرات الحكومة، بل اعتذر عن كورتيس فارغاس قائلاً إن روح عمة غابيتو في ثيناغا أخبره أن عدد الضحايا لا يزيد عن بضعة أفراد ما دام "لا يوجد أي مفقود".

وأعدم السجناء إعداماً صورياً في الأيام التي تلت المذبحة. فقد ذهبت إحدى كتائب الجيش بمعونة موظفي شركة الفواكه المتحدة الذين عملوا مرشدين لها، إلى أراكاتاكا "وأطلقت النار في كل مكان وعلى الجميع"[41]. وفي ليلة واحدة اختفى مئة وعشرون عاملاً في أراكاتاكا، وأيقظ الجنود أسقف الأبرشية الأب أنغاريت وأخذوا منه مفاتيح المقبرة[42]. وظل الأب أنغاريت يقظاً طوال الليلة التالية كي يتأكد من عدم إعدام تسعة وسبعين سجيناً آخرين[43]. وفي غضون الأشهر الثلاثة التي أعقبت المذبحة، اقتنعت السلطات وكبار المقيمين في أراكاتاكا، ومن ضمنهم مدير الحرية نيكولاس أ. ماركيز وصديقاه الصيدلاني ألفريدو باربوسا والجنرال المعفي ماركو فيتيس، إضافة إلى جميع أعضاء المجلس البلدي، بإرسال رسائل يُعلن فيها أن العسكر تصرفوا تصرفاً لا يشوبه أي عيب في أثناء حالة الحصار، وأنهم عملوا من أجل مصلحة الجماعة[44]. لا بد من أن هذا الأمر انطوى على انقلاب أخلاقي مؤلم وإحساس لا يحتمل إلى حدٍّ ما بالمهانة. واستغرقت حالة الحصار ثلاثة أشهر.

ترك الإضراب والمرارة التي أعقبته ندبة على الإقليم، ويظل اليوم واحداً من أكثر الأحداث المثيرة للجدل في تاريخ كولومبيا. وفي العام 1929، أصبح خورخه إليسير غايتان، السياسي الذي أدى مصرعه إلى إشعال شرارة تمرد مدني قصير الأمد،



ولكنه كان ملهماً وعرف باسم "العنف"، زعيماً شاباً وهو في السادسة والعشرين من عمره، وذلك من خلال الحملة البرلمانية الكبيرة التي أطلقها ضد الحكومة والعسكر وشركة الفواكه المتحدة. وبعد زيارة موقع المذبحة والحديث إلى عشرات الأهالي، قدم تقريراً إلى مجلس النواب في بوغوتا، وتكلم لمدة أربعة أيام في أيلول سنة 1929 وكانت أشد الدلائل إثارة تلك الخاصة بجمجمة طفل ورسالة تشير بأصابع الاتهام موجهة من الأب أنغاريتا، ذلك الرجل الذي سعمّد غابرييل غارسيا ماركيز بعد مرور بضعة أشهر(45) ونتيجة لشهادة غايتان المثيرة ألغيت أحكام السجن التي صدرت ضد العمال في سياغا. أما الليبراليون، فبالرغم من ضعفهم وسوء تنظيمهم على المستوى القومي، فقد اندفعوا إلى العمل وأصبحت لهم اليد الطولى في السياسة، وشرعوا في ارتقاء سلم السلطة حتى وصلوا الحكم في سنة 930 . إلا أن تلك المرحلة انتهت بمصرع غايتان في نيسان سنة 1948، وهو الحدث الأهم والأبعد مدىً في تاريخ كولومبيا في القرن العشرين.

في الكساد العظيم تدهور العلاقات بين شركة الفواكه المتحدة وعمالها، وأثر المذبحة في منطقة الموز، وهو الكساد الذي سيعم الإقليم ويحمل نظام التجارة العالمي. وقد أدى ذلك الكساد المدمر بالشركة إلى تقليص عملياتها إلى حدٍّ كبير، ورحل المديرون التنفيذيون والإداريون، وبدأت أراكاتاكا بانهيار كبير يتعذر وقفه، وتلك حقبة تتزامن بداياتها مع طفولة غابرييل ماركيز والسنوات الأخيرة من حياة جديه.



-3-

رفقة جدّه

1937-1929

بالرغم من أن بذور انهيار آراكاتاكا كانت قد زُرعت، إلاّ أنها استغرقت سنوات قبل أن تصبح مصائبها الكاملة، فيما سارت الحياة على حالها كما في السابق في منزل العقيد. وفي ما وراء المستنقع الكبير، في بارانكيا، كان غابرييل إليخيو يعمل مساراً في مخزن أدوات معدنية تديره شركة سمر، لكنه فتح الآن صيدليته المتواضعة الأولى التي كان يحضر إليها مساءً وفي عطلات نهاية الأسبوع وتساعده فيها لويسا. لقد تحمل الشابان فقراً طاحناً، ولا بد من أن لويسا المدللة التي ألفت اهتمام الأم والعمات والخدم وجدت الحياة بالغة الصعوبة.

اصطحب العقيد وترانكيلينا غابيتو إلى بارانكيا في تشرين الثاني عام 1929، بعد ولادة لويسا وهي ثالث أطفال مارغريتا في التاسع من ذلك الشهر. كانت ذاكرة الطفل الذي لم يتجاوز عمره السنتين ونصف السنة تنحصر أساساً في رؤية إشارات لمرور الصورة أول مرة. ثم عاد جداه إلى بارانكيا مرة أخرى في شهر كانون الأول عام 1930 بسبب ولادة عايدا روسا، وشاهد أول طائرة في مدينة كانت رائدة في الرحلات الجوية في كولومبيا[1]. كما أنه سمع كلمة بوليفار للمرة الأولى لأن عايدا روسا قد ولدت في السابع عشر من كانون الأول، أي بعد مئة سنة تماماً من اليوم الذي توفي فيه المحرر الكبير. وكانت بارانكيا، شأنها شأن أميركا اللاتينية كلها، تحتفي بذكرى وفاته. ولم يحتفظ غابيتو بأي ذكريات كاملة عن أمه أو أبيه، إلاّ أن تلك الزيارات لا بد من أنها كانت مقلقة لطفل يحاول أن يفهم معنى العالم ومكانه فيه[2]. وفي هذه المناسبة الأخيرة أصرّت ترانكيلينا، وهي ترى مارغريتا



الــــصغيرة طفلة رقيقة الصحة منطوية على نفسها، حتى إعادتها إلى آراكاتاكا كي تنشأ برفقة غابيتو"[3].

هكـــذا امتدت فترة تكوين غابيتو ونشأته منذ سن الثانية، عندما خرجت أمه للمـــرة الثانية، سبع سنوات، بعد أن عاد والداه وأطفالهما إلى آراكاتاكا. تلك هي السنوات الخمس التي تشكل ذكرياتها أساس ماكوندو الميثولوجي التي عرفها القراء في مـــا بعد في جميع أنحاء العالم. وبالرغم من عدم صحة وجود صلة له بأبويه، فإن الصحيح على وجه التأكيد هو أنه لم تكن له صلة مستدامة بأي منهما ولا بأي من أخـــواته وإخوانه الجدد بعد العام 1928، لهذا ليس ثمة سبب لتكون لديه ذكريات دائمـــة عـــنهم. لقد كان أبواه الوحيدان هما جدّه وجدته وأما أخته الوحيدة فهي مارغـــريتا التي تدعى الآن مارغوت، والتي لم تعدُ رفيقاً يبعث على الرضا إلاّ بعد بلـــوغها سن الثالثة أو الرابعة، وفي تلك السن كانت بقية أفراد الأسرة قد حدث بالعـــودة إلى آراكاتاكا بحلول أواخر العام 1933. ويبدو من الواضح أن نيكولاس وتـــرانكيلينا قررا أن يوضحا لغابيتو أن والديه قد سافرا (لكن، ما سبب سفرهما؟ وإذا كانـــا قد سافرا، فمتى سيعودان؟) أو يلتزما الصمت تجاه جذوره. إن التفسير الأخـــير هو الأقل مدعاة للألم على المدى البعيد. لا بد من أن هناك أطفالاً آخرين طـــرحوا الأسئلة، ومن غير المحتمل أن يكون غارسيا ماركيز جاهلاً كما ظل يزعم دائمـــاً. في الحقيقة من الصعب أن نتصور أنه لم يتذكر لويسا في أثناء أدعية ما قبل النـــوم على سبيل المثال. لكن من الواضح أن قضية أمه وأبيه كانت منطقة محظورة تعلّم كيف يقترب منها بأقل ما يمكن.

جـــرى العرف في إسبانيا وأميركا اللاتينية أن يكون مكان النساء هو البيت ومكـــان الرجال هو الشارع. ولكن جده العقيد هو الذي أمده تدريجياً من عالم النساء الزاخر بالخرافات وهواجس الداخلية وتلك الحكايات التي كانت تبدو نابعة من ظلمة الطبيعة نفسها، ووضعه في عالم الرجال الخاص بالسياسة والتاريخ، أي أنه أخـــرجه إلى ضوء النهار، إن جاز التعبير (أود القول إن العلاقة بجدي كانت علاقة الحبل السري الذي أبقاني متصلاً بالواقع حتى بلغت الثامنة من عمري)"[4]. وفي فترة لاحقة من حياته يتذكر بسذاجة مؤثرة جده على أنه "بطريرك البلدة الطبيعي"[5].



في الحقيقة، إن الرجال الذين كانوا يتمتعون بالسطوة فعلياً، مثل كبار ملاك الأراضي، لم يحتلوا إلا نادراً مواقع سياسية إقليمية، مثل مدير الخزينة أو جابي الضريبة، إذ كانوا يفضلون تركها لأقرباء لهم أقل أهمية أو لممثلين سياسيين من الطبقة الوسطى يجهلون القانون عادة[6]. لقد كان من يُعيّن أي عمدة بلدية حكام يرشحهم المحافظون في بوغوتا بحسب مقتضيات المصالح المحلية، وكان يتعين على الليبراليين من أمثال نيكولاس ماركيز، أن يتعاملوا، بأساليب مذلة عادة، مع حزب المحافظين وغيره من القوى المحلية مثل شركة الفاكهة المتحدة. لقد كان مجمل النظام السياسي فاسداً جداً ويعتمد على العلاقات الشخصية وعلى مختلف أشكال الوصاية. وقد حصلت شخصيات محلية مهمة، مثل ماركيز، على امتيازات جانبية كاللحوم الطازجة وغيرها من الكماليات المرغوب فيها من مخزن شركة الفاكهة المتحدة لقاء الاعتماد عليه في المحافظة على النظام. وكانت أكثر ذكريات غابيتو ومارغوت الحيوية تتمثل بحملات جده صوب المخزن الذي كان يقع على الجهة المقابلة من بيتهم. لقد كان ذلك المخزن أشبه بكهف علاء الدين الذي يعود منه العقيد وغابيتو منتصرين ليفاجئا مارغوت ويحملان لها الموادّ السحرية المصنوعة محلياً والمستوردة من الولايات المتحدة[7].

تنحصر مهمة مدير خزينة البلدية وجابي الضرائب بالحصول على الدخل البلدي - وفي بعض الأحيان الدخل الشخصي - من الأنماط المهمة للضريبة السائدة آنذاك، وبخاصة استهلاك الكحول، بمعنى أن دخل العقيد نفسه اعتمد اعتماداً كبيراً على الرفاهية المادية والنشوة الجسدية وما ينجم عنهما من تعدد الزوجات. ولا نعرف كيف كان نيكولاس يقوم بمهامه، غير أن النظام لم يكن ليسمح بحرية كبيرة في الاستقامة الشخصية[8]. وبعد عام 1930، ومجيء الحزب الليبرالي إلى السلطة للمرة الأولى في خلال خمسين سنة، لا بد من أن الأمور تحسنت بالنسبة إلى نيكولاس الذي انهمك بكل نشاط في الحملة لانتخاب المرشح الليبرالي إنريكي هيريرا، لكن كل المعلومات المتوفرة لدينا تشير إلى أن أموره ازدادت سوءاً.

يتذكر غارسيا ماركيز: "لقد كان الشخص الوحيد في البيت الذي لم أكن أخشاه، وكنت أشعر دوماً أنه يفهمني وأنه يهتم بوظيفتي مستقبلاً"[9]. لقد كان



العقيد معجباً بالحفيد الصغير أيما إعجاب، وكان يحتفل بذكرى مولد نابوليون الصغير كل شهر، ملبياً له كل طلب من طلباته، لكن غابيتو لم يرغب في أن يكون محارباً، ولا حتى رياضياً، وكانت تسيطر عليه طوال حياته أشياء مرعبة كالأشباح والحشرات والظلام والعنف والرفض[10]. وكانت هذه كلها عميقة الجذور في آراكاتاكا أيام طفولته المضطربة والمؤلمة وبالرغم من ذلك، فإن ذكاءه ورهافة أحاسيسه، بل حتى نوبات غضبه بين حين وآخر، أثبتت كلها لجده المنهمك أن الطفل جدير به وربما كان من المقدّر له أن يصبح رجلاً عظيماً[11].

من المؤكد أن الطفل كان يستحق التعليم، فهو الذي سيرث ذكريات الرجل العجوز وفلسفته في الحياة والأخلاقيات السياسية ووجهة نظره عن العالم. أما العقيد نفسه، فسيحيا حياته من خلاله. فهو نفسه الذي أخبره عن حرب الألف يوم، وعن أفعاله وأعمال أصدقائه، وكانوا كلهم أبطالاً ليبراليين. كما أن العقيد هو الذي أخبره عن وجود مزارع الموز، وشركة الفاكهة المتحدة، وبيوت الشركة ومخازنها، وملاعب التنس، وأحواض السباحة، وأهوال إضراب عام 1928: معارك، نكوب، مشاجرات، عنف وموت. وحتى في ظل الأمن النسبي لبلدة آراكاتاكا، كان الرجل العجوز ينام دوماً ومسدسه تحت وسادته بالرغم من أنه توقف عن حمله في أثناء خروجه إلى الشارع إثر مقتل ميداردو[12].

عندما بلغ غابيتو السادسة أو السابعة من عمره، بات كولومبياً بكل ما للكلمة من معنى. وفكّر في أن جده كان بطلاً، لكن حتى هذا البطل نفسه كان معرضاً لنزوات المديرين الأمريكيين والسياسيين المحافظين. لقد خسر الحرب ولم يكسبها، ولا بد من أن الصبي الصغير اعتقد، وإن على نحو بسيط، أن النضال ليس عملاً بطولياً كما كان الآخرون يريدون منه أن يظن. فبعد مرور سنوات عديدة، كانت إحدى القصص الأثيرة التي تتداولها الأسرة تدور عن غابيتو وهو جالس يصغي إلى جده، فترمش عيناه باستمرار وينسى أين كان[13]. وتتذكر مارغوت: "كان غابيتو يقف دائماً إلى جانب جدي، يصغي إلى جميع حكاياته وفي يوم ما أتى أحد الأصدقاء من ثيناغا، وكان رجلاً عجوزاً ممن شاركوا في حرب الألف يوم مع الجد. ووقف غابيتو والدموع تنهمر من عينيه بجانب الجسد النسر،



وتبين أن الكرسي التي أعطوها للرجل ليجلس عليها قد انغرست في حذاء غابيتو كل ما فعله هو أنه التزم الصمت وتحمل الألم ووقف ساكناً إلى أن انتهت الزيارة، لأنه فكّر في سره: لو قلت شيئاً ما، فسينتبهان إليّ ويطردانني خارجاً"[14].

تحكي والدته بعد أن تقدّم بها العمر: "كان غابيتو كبيراً دائماً، فعندما كان طفلاً كان يعرف أشياء كثيرة حتى بدا وكأنه رجل عجوز صغير. لقد أسميناه الرجل العجوز الصغير". كان معظم أصدقائه، طوال حياته، أكبر سناً وأكثر تجربة منه، وبالرغم من أفكاره السياسية الليبرالية التي انتهت أخيراً بالاشتراكية، فإنه كان يبحث دوماً، واعياً أو غير واعٍ، إلى مزيج من الحكمة والقوة والسلطة بين زملائه. وليس من قبيل التخيل الاستنتاج بأن أحد أقوى الدوافع في حياة غارسيا ماركيز المتأخرة هي الرغبة في إعادة نفسه إلى عالم جدّه.

غير أن أكثر الأشياء دواماً وحسماً هي أن العقيد وفّر عدداً من المغامرات الرمزية والحوادث المطبعة في الذاكرة التي ستظل مستقرة في خيال الحفيد حتى يصهرها كلها، بعد مرور سنوات طويلة، في صورة محددة الملامح في السطر الأول من أكثر رواياته شهرةً. وفي يوم ما، وكان الطفل لا يزال صغير السن، اصطحبه الرجل العجوز إلى مخزن الشركة ليشاهد السمك المتجمد في الثلج وبعد سنوات طويلة يتذكر غارسيا ماركيز "لمست السمكة، وشعرت وكأنها تحرقني. لقد احتجت إلى الثلج في أول جملة من رواية **مئة عام من العزلة** لأن الثلج سحري في أشد مدن العالم حرارة، ولو لم يكن الجو حاراً لما نجح الكتاب، ولما كانت قد أصبحت بذلك حارة جداً. فإنه لم يعد ضرورياً، أن أذكره مرة أخرى. فهو في قلب الطقس"[15]. كذلك: "فإن الصورة الأولى في **مئة عام من العزلة** موجودة أساساً في رواية **البيت** وهي محاولة غارسيا ماركيز الأولى في كتابة الرواية، ثم في **عاصفة الأوراق** كان كل يوم يُعدّ اكتشافاً من خلال زياراته لشركة الموز وزياراته لمحطة سكة الحديد. أدخلت شركة الموز السينما والمذياع وغيرهما. ووصل السيرك مع جمل عربي، والأسواق الخيرية، ودولاب الحظ، وسكة حديد مدينة الملاهي، وحفلات المحون. وكان جدي يمسك بيدي دائماً ويأخذني لمشاهدة العروض: أخذني إلى دار السينما، وبالرغم من أنني لا أتذكر الأفلام، إلا أنني أتذكر المقطات.



لم يكـــن لجدي أي فكرة عن الرقابة، ولهذا شاهدت كل أنواع الصور. لكن أكثر الـــصور الحـــية والـــتي ظلت تتكرر في مخيلتي هي صورة رجل عجوز يقود طفلاً بـــيده"[16]. في آخر الأمر، وفي ذلك السطر الأول من أشهر رواياته – بعد سنوات طويلة، وأمام فصيل الإعدام، تذكر العقيد أوريليانو بوينديا عصر ذلك اليوم البعيد الـــذي اصطحبه فيه أبوه كي يرى الثلج – وقد حوّل المؤلف مختلف الصور الخاصة بحملاتـــه برفقة جده إلى تجربة تحدد هوية الذات، تجربة يملكها ابن متخيل مع أبيه، وهذا يؤكد بسموّ، أن نيكولاس لم يكن جده وحسب، بل كان أيضاً الأب الذي شعر أنه لم يحظَ به البتة.

هكذا عاش الصبيّ زهاء عقد من الزمان مع الرجل العجوز، وكان في معظم الأيام يخرج ليتجوّل معه في أرجاء البلدة. وكان أحد الأماكن المفضلة لديَ يذهبان إليها سيراً على الأقدام في أي يوم ثلاثاء هو دائرة البريد للتأكد من وجود أي أخبار عـــن تقاعد العقيد من الحرب التي دارت رحاها قبل خمس وعشرين سنة، لكن لم تكن هناك أي أخبار، وتلك حقيقة ولّدت انطباعاً كبيراً لدى الصبي"[17]. أما المكان المفضل الآخر فهو الذهاب إلى محطة القطار لتسلّم الرسالة اليومية من الخال خوانيتو خوان دي ديوس ابن العقيد لأن الرجلين كانا يتراسلان يومياً؛ عموماً عن الأعمال الـــتجارية وحركة الأقرباء والمعارف المشتركين[18]. كانا ينطلقان من المحطة ليعودا أدراجهما سيراً على الأقدام صوب شارع قصير سمي باسم اليوم الوطني للبلاد وهو كامبون 20 تموز حيث تقع فيه مدرسة مونتيسوري (وكان الجنرال خوسيه ديوران صديق نيكولاس الطيب هو الذي تبرع بقطعة الأرض لبنائها عليها)[19] ثم يسيران صوب شارع الأتراك ويمران بالأركان الأربعة وبصيدلية ألفريدو باربوسا ليعودا بعد ذلـــك إلى المنـــزل في الـــدوار السادس بين الشارعين السادس والسابع، أو قد يواصلان سيرهما من أمام المنـــزل ومقر الحزب الليبرالي نحو أبرشية سان خيمو، التي لا تزال قيد الإنشاء، ذات الصحون الثلاثة والمقاعد الخشبية الثمانية والثلاثين. (كان غابيـــتو صبـــي المذبح يومئذ، يذهب إلى القداس دائماً ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بأمور الكنيسة طوال سني طفولته)[20]. وكانا يسيران أيضاً على الجهة الأخرى من ميدان بولـــيفر حـــيث تحط العقبان على المباني المحيطة، ويتوجهان صوب دائرة التلغراف

حيث كان غابرييل إليخيو يعمل، بالرغم من أننا لا ندري إن كانت هذه الحقيقة سبق أن ذُكرت أم لا. وعلى مسافة غير بعيدة تقع المزرعة على امتداد شارع تحفّ به أشجار النخيل حيث دفن فيها الجنرال ديوران والرجل المحلي خوسيه فيدال داكونتي، والعمة وينفريدا - كما أصبح ذلك الريف المفتوح يوماً مار بغاباته، ثم بمراعي الماشية، ريفاً مغلقاً بسبب انتشار مزارع الموز اللامتناهية وهندسية الشكل تماماً.

لقد ساعدت سيدة فنزويلية غابيتو على دخول العالم، وتدعى هذه السيدة خوانا دي فريتيس وهي زوجة الجنرال المنفي ماركوس فريتيس الذي اصطدم بالدكتاتور فاينست غوميث، فأصبح مدير مخازن شركة الفاكهة المتحدة وكان منزله جزءاً من مجمع مكتب الشركة. ولم تكن السيدة فريتيس حاضرة حضوراً لا يقدر بثمن عند ولادة غابيتو وحسب، وإنما قصت في ما بعد أيضاً عليه وعلى أصدقائه حكايات كلاسيكية عن الجنيات - وكلها تقع في كاراكاس! - مما أسهم في حبه لمدينة لم يكنه طوال حياته للعاصمة الفنزويلية[21]. وثمة فنزويلي آخر يقطن في الجهة الأخرى من الشارع الطيني الذي يقع فيه بيت غابيتو، وهو الصيدلاني ألفريدو باربوسا، وكان ضحية من ضحايا غوميث وكان يشتغل بصفة طبيب البلدة إثر وصوله قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى وتزوج بامرأة من أهالي المنطقة تدعى أدريانا بيردوغو. وكانت صيدليته هي الصيدلية الرئيسية في البلدة إبان ازدهار زراعة الموز. لكنه تعرض في أواخر العقد الثاني من القرن العشرين لنوبات من الكآبة، وأمضى أياماً طويلة متكاسلاً يتأرجح في أرجوحته[22].

هناك أيضاً حضور أكثر بعداً وبرودة يتمثل بالأجانب العاملين في شركة الفاكهة المتحدة والذين يسكنون في المكان الذي سيصطلح على تسميته غارسيا ماركيز في ما بعد اسم بيت *الدجاج المكهرب* التابع لمجمع الشركة التي تنتشر فيه بيوت مكيفة الهواء، وأحواض السباحة، وملاعب التنس، والحشائش الجميلة. لقد عبرت هذه المخلوقات القادمة من العالم الآخر مجرى النهر وأشعلت شرارة إضراب عام 1928 وما أعقبه من مذبحة. كما أن هؤلاء الناس هم الذين شقوا قناة بين نهرين تسببت في أثناء العوصف المطيرة التي هبت في تشرين الأول عام 1913 بفيضانات



مدمـرة حـدّق إليها غابيتو، بين السنوات الخمس، وهو مسمّر في مكانه من فوق شرفة بيت جده[23].

كـان أنطونيو دكونتي فاما، الإيطالي، قد وصل المنطقة عقب الحرب العالمية الأولى، وأحضر معه الأفلام الصامتة وعرضها في دار عرض أوسمبا السينمائية التابعة له. كما أحضر أيضاً الغرامافون والمذياع وحتى الدراجات الهوائية التي كان يؤجرها للسكان المذهلين لمرآها. لقد عاش أنطونيو داكونتي بالساوب مع شقيقتين اثنتين، لم تـنجب أولاهما له إلا الأبناء ولم تنجب الأخرى سوى البنات[24]. ولا يزال يعيش في آراكاتاكا العديد من آل داكونتي حتى هذا اليوم.

كانـت بعض ذكريات غابيتو العالقة في ذهنه أكثر من سواها هي تلك التي تخص *الرجل الفرنسي*، لكنه بلجيكي حقاً يعرف باسم دون إميليو، حطّ رحاله بدوره عقب الحرب العالمية الأولى معتمداً على عكازين، وكان مصاباً بطلق ناري لا يـزال أثره واضحاً على ساقه. كان دون إميليو جوهرياً موهوباً وصانع حرائن، وبـدأ يلعـب الـشطرنج والورق مع العقيد دون مساء إلى أن حلّ يوم توجه فيه لمشاهدة الشريط السينمائي، "كل شيء هادئ على الجبهة الغربية"، وبعد عودته إلى بيته انتحر باستعمال مادّة السيانيد[25]. ورتب العقيد الجنازة وانتهت كتب **بعاصفة الأوراق** (حيث يمثله الطبـب المتماثل جزئياً مع الصيدلي الفـنزويلي المثير للاكتئاب ألفـريدو بربوسا) **وبالحب في زمن الكوليرا** (حيث يمثله إرميا دي سانت آمور). ويـستذكر غارسيا ماركيز، "أبلغ جدي بأ انتحاره يوم أحد من شهر آب حينما كـنا خارجين من حضور قداس الساعة الثامنة. وجذبني إلى بيت البلجيكي حيث كان العمدة وشرطيان ينتظرون. وكان أول شيء أثار انتباهي في الحجرة المهملة غير المرتبة هي الرائحة الـحادة للوز المر المنبعث من السيانيد الذي تنشقه كي يقتل نفسه. كانت الجثة فوق سرير يُطوى مغطاة ببطانية. وإلى جانب السرير كرسي خشبـي وضعـت فوقه صينية كان قد تبخر عنها السُم، وقصاصة ورق خُطّت عليها بعناية رسـالة جاء فيها: "لا أحد يتحمل اللوم. فقد انتحرت لأنني غير نافع". إني أتذكر الـواقعة وكأنها حـدثت بالأمس عندما رفع جدي البطانية. كان الجسد عارياً، متخشباً وملوياً، بشرته شاحبة، وثمة ضمّادة صفراء اللون. أما عيناه العائمتان فكانت

تنظران إليَّ كأنه لا يزال على قيد الحياة. عندما شاهدت جدتي الملامح التي كانت مرتسمة على وجهي إثر عودتي إلى البيت توقعت قائلة: "لن يتمكن هذا الطفل المسكين من أن ينام نوماً هانئاً طوال حياته"(26).

ليس ثمة سبب يدفع للاعتقاد أن جثة دون إميليو سكنت خيال الصبي الحساس في أثناء طفولته، والتحمت مع جثث أخرى شاهدها أو تخيلها لا أكثر. صحيح أنها حاضرة في أول قصة منشورة له عندما كتب عن تأملات في حالة وهو جثة قوية (أو ربما جثة سابقة). وحتى بعد صدور **عاصفة الأوراق** التي يُشكل فيها موضوع الدفن المثير للخلاف جوهر العنصر الدرامي في الرواية، فتظهر مرات ومرات من تحت سطح وعيه المصدوم. ربما كان ذلك الحجاب الذي يستر جثة العقيد نفسه التي لن يراها غابيتو.

كان العقيد يصطحب أحياناً غابيتو في جولة أخيرة قبيل موعد نومه "كانت جدتي تحقق معي كثيراً عندما أعود إلى البيت إثر السير مع جدي مساءً. كانت تسألني عن المكان الذي ذهبنا إليه وعن العمل الذي قمنا به. أتذكر أنني مررت بأحد المنازل مع أناس آخرين وشاهدت جدي يجلس في الردهة. شاهدته عن بعد مسافة جالساً وكأنه في منزله. ولسبب ما، لم أذكر لجدتي شيئاً عن الأمر. لكنني أعلم الآن أن المنزل كان منزل إحدى عشيقاته وهي امرأة كانت تريد رؤيته عندما توفي غير أن جدتي حالت دون دخولها البيت قائلة إن الجثث مخصصة للزوجات الشرعيات وحسب"(27). المؤكد تقريباً أن المرأة التي لم تسمح لها بالدخول لرؤية جثة نيكولاس هي إيزابيل روبث التي يبدو أنها انتقلت إلى آراكاتاكا في عشرينيات القرن العشرين(28). وكانت ثمة فتاة في صفه في المدرسة قالت له تراكيبيا إن عليه أن يقطع صلته بها: "لا ينبغي لكما الزواج أبداً" غير أن الصبي لم يفهم هذا التحذير حتى وقت متأخر من حياته(29).

في حين كان غابيتو والعقيد يمضيان سيراً على الأقدام ويسلمان على رفاق العقيد ومعارفه، كانت النساء في البيت منهمكات في ترتيب الصداقة التي يخص بعضها وصول الوجهاء ورفاق العقيد منذ أيام الحرب أو رفاق حربه الليبرالي. كان الشيء الكثير يتعلق بكيفية التعامل مع ثمار أعماله السيئة الماضية، في حين كان



القادمون يفدون على البغال، ثم يترجلون عنها ويربطونها خارج البيت في الجهة الخلفية، وينامون فوق أرجوحات في *المسحة*[30]. غير أن الكثيرين من الضيوف كانوا يأتون بالقطار: "كان القطار يصل عند الساعة الحادية عشرة من صباح كل يوم، وكانت جدتي تقول دائماً: *يجب أن نعد السمك واللحم لأنك لن تعرف إن كان القادمون يفضلون اللحم أم السمك*، وهكذا كنا متحمسين دائماً لمشاهدة هؤلاء الوافدين"[31].

لكن مع بداية عقد الثلاثينيات من القرن العشرين بدأ كل شيء يتغير، فإضراب عمال مزارع الموز والمذبحة والكساد العظيم في العام 1929 كبها قلبت موازين الأمور، وانحسرت تلك الفترة القصيرة من الازدهار التي شهدتها آراكاتاكا لتحل محلها بدايات الانهيار. وبالرغم من المذبحة والامتعاض الذي شعر به الجميع إزاء الغطرسة العامة لشركة الموز، فإن وجود الشركة في آراكاتاكا ظل الناس يتذكرونه بحنين طوال نصف قرن. وكانت هناك أحاديث كثيرة يتدولها الناس عن احتمالات عودتها مُعيدة معها الأيام الخوالي الطيبة التي كان يسهل فيها الحصول على المال وعلى الحماسة الدائمة[32]. وانخفض دخل نيكولاس من المشروبات وغيرها من المصادر انخفاضاً كارثياً، ولم يمض وقت طويل حتى تحول مصدر الدخل إلى قطرات ضئيلة بعد أن كان نهراً سيالاً. أما بخصوص أسرة ماركيز إغواران، فإن الإحساس الدائم أن أفضل أيام آراكاتاكا هي الأيام الماضية. وبدأ العوز والفاقة يلوحان على وجهي نيكولاس وترانكيلينا، اللذين لم يكن لهما أي مرتب تقاعدي، وهما يدخلان مرحلة الشيخوخة القلقة والمحيمة.

* * *

في مطلع العام 1924، عادت لويسا إلى آراكاتاكا لرؤية ابنها البكر وابنتها ولتتحدث إلى والديها. لم يكن لقاؤها بهما لقاءً سهلاً في كل الأحوال، إذ لم يغفر لها والداها قط عصيانها إياهما ولتطيخ سمعتيهما وإحضار صهر غير مقبول إلى الأسرة. وفي العام 1933 أصبحت الأمور لا تبعث على أي أمل في بارانكيا، ولعلها أقنعت غابرييل إليجيو بالسماح لها بالتفاوض من أجل الرجوع إلى آراكاتاكا. فوصلت في وقت متأخر من صباح أحد الأيام مستقلة القطار القادم من سياغا.



كانت مرعوبت جرعة بسبب أمها المجهولة، وخافت أن تأخذها بعيداً[33] فاختبأت بين ملابس جدتها. أما غابيتو الذي بلغ السادسة من عمره، وشعر بالحرج عندما رأى خمس أو ست نساء في الحجرة ولم تكن لديه فكرة عمن تكون أمه إلى أن أشارت إليه أن يتقدم نحوها[34].

في الوقت الذي تعرف فيه غابيتو إلى لويسا، كان قد بدأ تعليمه في المدرسة الجديدة التي سميت باسم ماريا مونتيسوري وتستند إلى مناهجها - على مقربة من محطة سكة الحديد في شارع كاميون 20 تموز. لم يكن نظام مونتيسوري، المعد أصلاً لنشاطات أطفال الروضة، مؤدياً إلا قليلاً ما دام التعليم الكاثوليكي الجيد يبدأ من المستوى الابتدائي. وتؤكد المناهج على قدرات الطفل الإبداعية ولرغبة الفطرية في النمو والتعلّم وعلى التفرد. كانت تعلّم الأطفال المبادرة ولتوجيه الديني من خلال وسط يخص مشاعر الطفل نفسه. ويقول غرسيا ماركيز في وقت لاحق إن الأمر كان "يشبه اللعب على حيوية الفرد"[35].

كما حدث، كانت معلمة غابيتو الأولى روسا إلينا فيرغسون هي عشيقة والده الأولى في أراكاتاكا (أو هكذا زعم غابرييل إليخيو) ولعل غابيتو لم يعرف هذا الأمر أيضاً. ويقال إن روسا إلينا المولودة في ريوهاتشا كانت سليلة أول قنصل بريطاني في المدينة. وإنها تتصل بصلة قربى بالعقيد وليم فيرغسون أحد موظفي بوليفار. وكانت قد تلقت تعليمها في كلية المعلمين في سانتا مارتا ولحقت بأسرتها إلى أراكاتاكا حيث اشتغل والدها وجدها في شركة الفاكهة المتحدة وأصبح أحد أقربائها عمدة[36]. هناك افتتحت مدرسة مونتيسوري في العام 1933 واضطر غابيتو إلى إعادة الدراسة في السنة الأولى لأن المدرسة أُغلقت لأسباب عملياتية في منتصف السنة. لذلك لم يتعلم القراءة والكتابة حتى بلغ الثامنة من عمره في العام 1935.

تُوّجت روسا إلينا، وهي الفتاة الرشيقة والرقيقة والجميلة، مرتين ملكة جمال المهرجان في أراكاتاكا. كانت متيمة بالشعر الإسباني في العصر الذهبي وهو الشعر الذي أصبح فيه تلميذها المبكر النضوج شغوفاً به طوال حياته[37]. وكانت حبه الطفولي الأول - وكان يشعر بالنشوة والحرج في آن واحد عندما يكون قريباً



منه حسيباً وشجعته على حب اللغة والشعر. بعد ستين سنة تستذكر روسا إلينا بكل حيوية تلميذها السابق المشهور: "كان غابيتو أشبه بدمية، شعره سوى السكر البني المحروق، بشرته ناصعة ووردية في آن واحد، وهو لون غريب في أراكاتاكا، وكان نظيفاً ومرتباً دائماً"[38]. أما غارسيا ماركيز فقال من جهته إن الآنسة فيرغسون "زرعت فيَّ متعة الذهاب إلى المدرسة برؤيتها وحسب"[39]. وعندما كانت تطوقه بذراعيها لتمسك بيده وتساعده على الكتابة كانت تنتابه أحاسيس مضحكة "لا سبيل إلى تفسيرها"[40]. وتتذكر الآنسة فيرغسون: "كان هادئاً، نادر الكلام، خجولاً جداً جداً. وكان زملاؤه في الصف يحترمونه لانكبابه على الدرس ولباقته وذكائه، لكنه لم يعشق الرياضة قط. وافتخر كثيراً كونه أول من يعد العمليات"[41]. هذا وقد علّمت غابيتو عادتين مهمتين: الدقة في المواعيد، وتقديم أوراق مكتوبة بلا أي خطأ، وهما هاجسان لازماه طوال حياته.

لم يظهر غابيتو سابقاً قدراً كبيراً من النشاط في القراءة والكتابة وأخفق في التعلم في البدء[42] لكن قبل أن يبدأ تعلم القراءة والكتابة بزمن طويل، علّم نفسه الرسم وظل هذا النشاط أثيراً إلى نفسه حتى بلغ الثالثة عشرة من عمره. وعندما كان لا يزال طفلاً صغيراً جداً، سمح له الرجل العجوز بالرسم على جدران المنزل والأهم من هذا كله، أنه أحب رسم المصوّرات الهزلية - والقصص القصيرة نقلاً عن صحف جده[43]. كما أنه أعاد سرد موضوعات الأشرطة السينمائية التي كان العقيد يصطحبه لمشاهدتها "كان يصطحبني لمشاهدة كل أنواع الأشرطة السينمائية، وأتذكر على وجه الخصوص دراكولا. وفي اليوم التالي يطلب مني أن أروي له قصة الشريط ليتأكد إن كنت فهمته أم لا. لهذا، فإنني لم أرسخ الأشرطة في ذهني وحسب، بل اهتممت أيضاً بمعرفة الطريقة التي أرويها بها لأنني كنت أعلم أنه سيضطرني إلى أن أحكيها له حدثاً حدثاً ليتأكد من فهمي"[44].

وهكذا أحدث النشوء الطفل الصغير وهو يشاهد الأشرطة السينمائية، وكان أحد أفراد الجيل الأول في التاريخ الذي كانت السينما، بما فيها الأشرطة السينمائية الناطقة، تمثل له تجربة تسبق الأدب المكتوب. ثم علّمه العقيد بعد ذلك احترام الكلمات والمعجم الذي كان يعرف كل شيء وكان أكثر عصمة عن الخطأ من

الباب في روما[45]. ولا بد من أن الشعور الدائم بالاستكشاف والتقصي الذي عزّزه نظام مدرسة مونتيسوري كان مكملاً تماماً لشعور نيكولاس الأشد تقليدية باليقين والمرتكز في السلطة والقوة الشخصية.

لكن حدث الآن تحول غير متوقع في حياة غابيتو ومارغريتا، إذ لم يكن غابرييل إليخيو، بولع الحيوية دائماً والمسرع أبداً والمفتقر إلى الموهبة في الشؤون المالية، قادراً على السد من الصمود في مدينة حيوية مثل بارانكيا وهي تحم بأول موجة من الازدهار عندما انتقل للعيش فيها. لهذا، فمن المرجح أكثر أن تسير الأمور نحو الحضيض عندما يؤثر الكساد في كولومبيا. لقد أفلح في الحصول على رخصة صيدلي، وترك عمله في مخزن الأدوات المعدنية ليؤسس له متجرين وليس متجراً واحداً لبيع الأدوية في وسط المدينة أسماهما باستور الأول وباستور الثاني[46]. لكن هذا المشروع أخفق، فعادت الأسرة إلى اراكاتاكا مشتتة. فقد وصلت لويسا أول الأمر برفقة لويس إنريكي وعايدة روسا وسكنوا في بيت العقيد. وبالرغم من أن ثلاث سنوات كانت قد مرّت على لويسا كاستراحة بين حملها الأخير حيث كانت قد أنجبت أربعة أطفال في أقل من أربعة أعوام وبين حملها بعايدة روسا في كانون الأول سنة 1930، فإنها الآن حامل مرة أخرى. وكان غابرييل إليخيو، الذي كان مشغلاً دوماً بأعمال أخرى، بعيداً عن البلدة لأشهر طويلة حتى عاد آخر الأمر لحضور ذكرى ميلاده في الأول من كانون الأول سنة 1934، بعد ولادة الطفلة الثالثة ليجيا في شهر آب[47].

شكّل وصوله واحداً من التواريخ القليلة لتلك السنوات المبكرة التي يمكن تحديدها تحديداً صحيحاً لأن غارسيا ماركيز يتذكر جيداً وصول رجل غريب: "رجل رشيق واسمر اللون ومهذار ويبعث على السرور ببدلة بيضاء، وقبعة من القش تدل كل بوصة فيه على أنه كاريبي من ثلاثينيات القرن العشرين"[48]. كان ذلك الغريب والده. ويرجع السبب في قدرة غارسيا ماركيز على تحديد التاريخ تحديداً تاماً إلى أن شخصاً ما تمنى لغابرييل إليخيو ذكرى ميلاد سعيدة، وسأله عن عمره فأجابه غابرييل إليخيو المولود في الأول من كانون الأول 1901 "عمري بعمر المسيح". وبعد مرور بضعة أيام كانت أول رحلة للصبي مع أبيه الجديد لشراء



هدايا ميلاد من بسوق لجميع الأطفال. وبما اختار غابيتو أن يشعر أنه يتمتع بامتياز لهذه التجربة، إلا أن الشيء الذي يتذكره على نحو جيد عوضاً عن ذلك هو إحساسه بالخيبة لإدراكه أن من يأتي بالهدايا في الميلاد ليس سانتا وإنما الوالدان[49]. هذا وسيحتّب لأب ظل ابنه مواراً في السنوات والعقود التالية، ولن تكون علاقتهما علاقة سهلة ولا حق وثيقة.

افتتح غابرييل إليخيو صيدليته الجديدة بالاسم "غ. خ" (غابرييل غارسيا) في مطلع العام 1935، وأفلح في إقناع السلطات الطبية بمنحه رخصة محددة لممارسة الطب التجانسي الذي كان يسمح له بتشخيص المرضى ومعالجتهم ووصف علاجاته المشعوذة وبيعها بوصفها العلاج الشافي الوحيد للآلام التي يشخصها. وكان ينقب في المجلات والجرائد الطبية، ويجري تجاربه التي يقشعر لها البدن. وسرعان ما ابتكر ما أسماه المزيج الطمثي تحت عنوان "غ. غ." وهي نكتة مبتذلة جديرة بخوسيه أركاديو بوينديا في مئة عام من العزلة ذلك الحالم العاجز الذي يحمل، على نحو لا يقبل الخطأ، العديد من آثار جد غارسيا ماركيز المميزة وغير العملية التي بالرغم من ذلك لا يمكن كبحها. لم يكن سوى بناء قلق محفوف بالمخاطر، وكانت الإعانات المتواصلة من العقيد ماركيز، الذي ازداد عوزه، مهينة ولكنها ضرورية. وقبل رجوع غابرييل إليخيو، كانت لويسا قد انتقلت إلى هذا المكان لتقيم بصورة مؤقتة مع أبويها في ظل غياب زوجها صعب المراس وغريب الأطوار[50]. وتذكرت روسا إلينا فيرغسون أن نيكولاس بدأ يوسع البيت كي يكفي القادمين الجدد؛ ربما مؤملاً ألّا يرجع صهره غير المرغوب فيه[51]. لكن بعد عودة غابرييل إليخيو، استأجر وزوجته منزلاً يفصله عن منزل العقيد شارعان وفي ذلك المنزل ولد الطفل السادس غوستافو في السابع والعشرين من شهر أيلول سنة 1935.

في بيت الوالدين الشابين الكادحين نشأ لويس إنريكي وعايدة روسا نشأة الأطفال الطبيعيين الموفوري الصحة الذين لا يصاعون إلى نظام، وكانا حيويين خاليين من العقد. أما غابيتو ومارغوت فنشآ في ظل أناس كبار السن، واكتسبا وجهات نظر عتيقة، خرافية، قدرية، مفزعة ومتسلطة على العقل والتحكم ولكنها

فعّالة أيضاً. وسلك الاثنان سلوكاً حسناً وإن كانا وجلين، هيابين، يقضيان وقتهما في البيت أكثر مما يقضيانه في الشارع بخلاف لويس وعايده اللذين كانا يمضيان أكثر الوقت في فناء البيت والشوارع[52]. ولا بد من أن غابيتو ومارغريتا شعرا على الفور أن والديهما تركاهما على نحو يتعذر تفسيره - لِمَ أنا؟ لِمَ نحن؟ لكنهما كانا محاطان برعاية داخل بيت الجدين المحبوبين والمحترمين كثيراً. إن هذين الغريبين، ماركيوت وغابيتو، هما اللذان سيتمكنان من تدبير أمور أسرة غارسيا وماركيز من دون اللجوء إلى الاستدانة.

كان التكيف مع الوضع الجيد بالغ الصعوبة[53]. وتتذكر عايدة أن غابيتو كان غيوراً جداً من مودة جدّيه وكان يراقب كل شيء وكل فرد عندما تزوره درجته في البيت محاولاً الاطمئنان إلى أنهم سيمكثون أقل مدة ممكنة. ما من أحد سيحول بينه وبين جده. ويتذكره أنطونيو باربوسا، ابن الصيدلي الذي يقطن في الجهة المقابلة، ويكبر غابيتو بعشر سنوات، ولكنه صديق الأسرة الطيب، عندما كان صبياً وجِلاً يلعب مع المتفوقين بالطائرات الورقية، ولكنه لم يلعب قط لعبة كرة القدم مع أطفال الشارع[54].

عندما لم يبق غابيتو التشجيع ليصبح مغامراً انهمك في دنيا الخيال؛ من خلال الرسم والقراءة والذهاب إلى دور السينما وصلاته بالكبار. ويبدو أنه أصبح مختالاً من نمط ما، يحاول دائماً أن يثير إعجاب الزوار بأفكاره الخيالية وحكاياته المسلية، تلك الحكايات التي من شأنها أن تغدو حكايات طويلة كي تحقق الأثر المقصود. وكانت ترانكيليا مقتنعة كلّ لاقتناع أنه مشعوذ. وقد فسَّر بعض البالغين شغفه بسرد الحكايات وافانتاريا على أنه ميل إلى الخداع وعدم الأمانة. ولهذا السبب ظلت تلازم غارسيا ماركيز طوال حياته مشكلة استفسار الناس الآخرين عن صحة أقواله[55]. وربما ما من أديب معاصر تطرح مؤلفاته مثل هذا الطرح القوي والغامض العلاقة بين الحقيقة والخيال، والاحتمال واليقين، التي اتصفت بها أعماله.

ظل الطفلان الأكبر سناً ملكاً لجديهما، وهو ما توضحه حكاية بليغة من مارغوت: "لم يسمح الجد لأي شخص أن يطلب منا الخروج. وأتذكر أننا في يوم من الأيام، وكنت أكبر سناً، أنه سمح لنا بالذهاب إلى منزل أمنا وحدنا. وعندما



انطلقنا عند الساعة العاشرة تقريباً من صباح ذلك اليوم، كانت جدتي تقطع الجبن وتطعمنا منها قطعة. ووصلنا البيت ولاحظنا أن لويس إنريكي وعايدة ممتنعين عن الطعام لأنهما تناولا دواء مضاداً للطفيليات ولا يمكنهما تناول أي طعام لبضع ساعات. من الطبيعي أنهما كانا يتضوران جوعاً، وعندما شاهدا قطعة الجبن طلبا قليلاً منها. ولما اكتشف والدي الأمر ثارت ثائرته وبدأ يشتمنا، وقال غابيتو: *اهربي يا مارغوت سيضربنا*، ثم أمسك بيدي، وأطلقنا سيقاننا للريح. وصلت المنزل مرعوبين وكنت أنا أبكي. ولما أخبرنا جدّي بما حدث ذهب ليسأل أبي عن سبب صراخه في وجهينا، ولماذا هددنا[56]

في العام 1935، بدأ العالم القديم يصل إلى نهاية مطافه حقاً. ففي يوم ما، وكانت الساعة السادسة صباحاً، تسلق نيكولاس، وكان قد تجاوز السبعين من عمره، سلماً على أحد جوانب البيت ليعيد بعاء الأسرة الذي انحشر بين الأكياس الموضوعة فوق خزانات الماء الكبيرة التي وضعت كي تحول دون سقوط أوراق شجر المانجا داخل الخزانات. لكنه أخطأ في وضع قدمه، فزلّت وسقط على الأرض بكاد لا يُسمع له نفس. وتتذكر مارغوت أن الجميع بدأوا يصرخون قائلين: *لقد سقط! لقد سقط!*[57] ومنذ تلك اللحظة بدأت صحة الرجل العجوز الجسدية تتراجع بالرغم من أنه كان حتى ذلك الوقت موفور الصحة والعافية إلى درجة معقولة. وهناك شاهد غابيتو، وهو تحسس عند زيارة الطبيب، أثر رصاصة في منطقة ما بين الفخذين، دليلاً لا سبيل إلى نكرانه على أنه كان محارباً. لكن المحارب القديم لم يعد كما كان منذ تلك السقطة، إذ بدا يسير متكئاً على عصا، وبدأ يعاني سلسلة من الأمراض التي ستؤدي في نهاية المطاف إلى وفاته. وبعد تلك الحادثة، توقفت حالات المشي في أرجاء البلدة فجأة، وبدأ سحر تلك العلاقة التي تربط الصبيّ بجده – المستندة قبل كل شيء إلى الشعور بالأمان – يفقد بريقه. ووصل الأمر بالعقيد إلى أن يطلب من غابرييل إليخيو ولويسا جباية الضرائب وغيرها من المبالغ واجبة الدفع بالإنابة عنه، فكان ذلك ضربة مُذلة لكبريائه.

في مطلع العام 1936 انتقل غابيتو إلى المدرسة الرسمية في آراكاتاكا[58]، وكان قد بات فجأة قارئاً نهماً. يذكر أن جدّه والآنسة فرغسون فتحا عينيه على المعرفة،

وبدأ المعجم يرسم القانون له، إلا أن أكثر كتاب حفز خياله كان كتاب ألف ليلة وليلة الذي عثر عليه في أحد صناديق جده القديمة. ويبدو أن ذلك الكتاب وضع تفسيره لأشياء كثيرة مرّ بها في آراكاتاكا في تلك الأيام التي كانت مزيجاً من سوق فارسية وغرب قفر. ولم يعرف عنوان الكتاب لمدة طويلة لأن غلافه كان مفقوداً، ولما اكتشف العنوان، لا بد من أنه وجد الصلة بين كتاب ألف ليلة وليلة لطريف والميثولوجي وحرب الألف يوم ذات المسحة المحلية والتاريخية الكبرى[59].

وبعد أن أضحى العقيد مريضاً فعلاً، شعر غابرييل إليخيو أنه قادر على أن يرسخ حقوقه لطفليه. وهكذا، ما إن تعلّم غابيتو القراءة والكتابة، بما تنطويان عليه من أعاجيب، حتى قرر والده المغامر الذي لا يعرف الراحة أن ينتقل بالأسرة بعيداً صوب سينثي، البلدة التي ولد فيها. وسيتمثل في هذه المرة أيضاً غابيتو، فينفصل عن بيته مع جدّيه وأخته مارغوت حيث سيصطحبهما هذا الرجل الذي نادراً ما عرفاه والذي قرر أن منحيه ابنه الوحيدة هي أنه وُلد كذّاباً، وُلد "ليذهب إلى مكان ما ويشاهد شيئاً ما ليعود بعد ذلك إلى البيت فيحكي قصة مختلفة تماماً. لقد بالغ في قول كل شيء"[60]. وفي شهر كانون الأول من العام 1936، أخذ هذا الأب المثير للهلع غابيتو ولويس إنريكي في رحلة استكشافية إلى سينثي ليرى إن كانت الآفاق فيها أرحب من واقع آراكاتاكا الموغل في الكآبة[61].

أعدّ غابرييل إليخيو الولدين للدراسة عند أحد معلمي البلدة بالرغم من أن السلطات لا تعترف بذلك التعليم، وبذلك ضاعت سنة أخرى من غابيتو. وليس هناك ما يبعث على الدهشة إذ قرر في نهاية الأمر أن يغير عمره لكون أصغر سناً كي يعوض عن كل سنوات المدرسة التي ضاعت منه! وبدأ الصبيان الآن يتعرفان تعرفاً أعمق إلى جدّتهما لأبيهما آرخيميرا غارسيا باتريسا الناضحة بالحيوية والتي لا تزال غير متزوجة بالرغم من أنها كانت في العقد الرابع من عمرها. وكانت قد أنجبت غابرييل إليخيو وهي في الرابعة عشرة من عمرها. ومنذ تلك الولادة أنجبت على الأقل ستة أطفال من ثلاثة رجال آخرين. يقول غارسيا ماركيز بعد ستين سنة من ذلك "أدرك الآن أنها كانت امرأة مذهلة، وكانت من أكثر الناس الذين عرفتهم تحرراً. وكان لديها سرير إضافي على أهبة الاستعداد دوماً لكل من يريد معاشرة من يرغب. كان

لديها قانونها الأخلاقي الخاص بها، ولم تكن تعير أي اهتمام لكل من يرى غير ما تراه. كنا نظن أن الأمر طبيعي آنذاك. لقد كان بعض أولادها، أي أعمامي، أصغر سناً مني، وكنت ألعب وإياهم، إذ كنا نخرج لاصطياد العصافير وما أشبه. لم أفكر البتة تفكيراً ملياً في ذلك العالم الاجتماعي الذي عشنا فيه. ومن الطبيعي أن يغوي ملاّك الأراضي فتيات في الثالثة عشرة من أعمارهن أو يغتصبوهن في تلك الأيام ثم يتبدونهن لقد رجع أبي لرؤيتها رجلاً بالغاً برفقة أسرته، وكانت في العقد الرابع من عمرها. وثارت ثائرته عندما وجدها حاملاً مرة أخرى. لكنها لم تفعل شيئاً سوى أن ضحكت وقالت: "ما يعني ذلك لك؟ كيف تظن أنك أتيت إلى هذا العالم؟"[62]

ذكريات غابيتو عن بقائه هناك مجتزأة، بل مؤلمة بلا ريب، بالرغم من مكانته في سنوات عمره اللاحقة. إذ ليس من الصعب أن نتخيل عذابه وهو يترك جده مريضاً والصدمة الحضارية التي صدم بها عندما التقى أفراداً من أسرته لا يحظون إلا باحترام قليل. كانت سينثي، شأنها شأن آراكاتاكا، مدينة صغيرة مترابطة ذات ميدان مركزي أكثر رحابة، وكنيسة مألوفة، وتمثال بوليفار المألوف أيضاً، وعدد من السكان لا يتجاوز ربما التسعة آلاف نسمة. وكان اقتصادها يعتمد أساساً على الماشية والأرز والذرة، وكان الخط السياسي السائد فيها هو أساساً خط حزب المحافظين شأنها في ذلك شأن معظم المناطق التي تكثر فيها الماشية. عاشت الجدة أرخيميرا، المعروفة بالكنية *ماما جيمي*، في مساحة صغيرة من الأرض على مسافة بعيدة عن الميدان العام، في منزل خشبي صغير يحتوي على حجرتين، دُهن بلون أبيض وجُعل سقفه من النخيل. وكان جل أولادها في ذلك المنزل[63]. لا بد من أن تلك التجربة كشفت لغابيتو عن عالم مختلف. ولم يعد بعد الآن طفل العقيد ماركيز الذي كان يوفر له الحماية، ولا بد من أنه اضطر إلى أن يكيّف نفسه مع أساليب أعمامه غير الشرعيين وأولادهم فضلاً عن أخيه لويس إنريكي الأصغر سناً منه، المتمرد والطائش على نحو متزايد.

في غضون ذلك أضحت الحياة أصعب فأصعب في البيت الكائن في آراكاتاكا. وازدادت الأمور سوءاً في مطلع شهر آذار من العام 1937 عندما توفي العقيد ماركيز، بعد سنتين من الحادثة التي ألمت به، في بلدة سانتا مارتا إثر إصابته

عرض ذات الرئة ولم يكن قد شفي من آثار سقطته عن السلم في العام 1935، وكان الرجل العجوز قد تحطم عاطفياً بسبب وفاة أخته وينمريلدا في سريره في الحادي والعشرين من كانون الثاني سنة 1937 ولا يمكن إلا أن نتخيل ما أحدثه رحيل *نابوليون الصغير* المحبوب في معنويات الجندي المقدم. ويذكر أن لاس خوان دي ديوس نقل والده العقيد إلى سانتا مارتا في مطلع العام 1937 لإجراء عملية جراحية له في الحنجرة، وفي شهر آذار أصيب بمرض ذات الرئة وتوفي في الرابع من ذلك الشهر وقد بلغ الثالثة والسبعين من عمره في المدينة التي كان قد توفي فيها محارب آخر هو سيمون بوليفار ودفن في كاتدرائيتها.

دُفن العقيد ماركيز في اليوم نفسه في مقبرة مدينة سانتا مارتا، ونشرت جريدة إل إيستادو خبر وفاته في نعي مقتضب. وتتذكر مارغوت جيداً الجنازة في سانتا مرتا: "بكيت ثم بكيت طوال النهار، لكن غابيتو كان برفقة أبي ولويس إنريكي حيث ذهبوا إلى مغامرة أخرى في بلدة سينثي. ولم يرجع غابيتو حيث أمضى هناك أشهراً، لذا لا أتذكر رد فعله، وهو ردّ فعل لا بد من أن يكون مفعماً بالأسى العميق لأنهما كانا يحبان أحدهما الآخر، كانا لا يفترقان"[64].

علم غابيتو وهو في سينثي خبر الوفاة بصورة غير مباشرة وهو يسترق السمع إلى محادثة بين أبيه وجدته. ويقول بعد سنوات طويلة إنه لم يستطع البكاء لدى سماعه الخبر، ولم يدرك أهمية الرجل العجوز له إلا بعد أن بلغ سن الرشد. كما أنه قلل من أهمية اللحظة. "كانت لدي مشاغل أخرى. أتذكر أني كنت أعاني يومذاك من القمل الذي كان يثير حفيظتي جداً. كانوا يقولون إن القمل لا يرحل عن امرء إلا بعد وفاته. أتذكر أن قلقاً شديداً عصف بي: "لو أنني متُّ الآن، فسيعرف الجميع بوجود القمل! لهذا، فإني لم أتأثر كثيراً في ذلك الوقت لوفاة جدي. لقد كان قلقي العظيم سببه القمل. لكنني لم أبدأ بافتقاد جدي إلاّ في فترة لاحقة عندما أصبحت فتىً بالغاً ولم أتمكن من العثور على من يحل محله لأن أبي لم يكن قط مناسباً ليعوّض عنه"[65].

تُخفي هذه الذكريات المواربة والمغالاة الاستفرارية وهذا الإبلاغ غير المباشر عن العواطف الشخصية والنكران المفرط حقيقة أكثر بساطة وأشد قسوة: فالصبي

لم يستطع قط أن يحزن من أجل المخلوق الذي أحبه أكثر من أي شخص آخر في أثناء طفولته المؤلمة والتي كانت متعذرة على الفهم غالباً: المخلوق الذي كان معين المحكمة كلها وأساساً لكل الأمان. لقد مضى غابيتو الصغير الآن مفجوعاً بفقدان جده وهو محاط بأفراد من أسرته الصغيرة، أسرته الحقيقية، الأسرة التي هجرته وهو طفل صغير. وفي شهر نيسان من العام 1971 ردَّ غارسيا ماركيز على سؤال وجهه إليه صحفي عن وفاة جدِّه أمام أبيه، فقال بمغالاة مميزة ولكنها قاسية في هذا الشأن: "كنت في الثامنة عندما توفي، ولم يحدث لي أي شيء له أهمية تذكر منذ ذلك اليوم. كان كل شيء عديم النكهة"[66].

اصطحب غابرييل إليخيو الصبيين وعاد بهما إلى أراكاتاكا لتمضية بعض الوقت لإقناع لويسا بالانضمام إليهم في سينثي، غير أن لويسا لم تكن متحمسة للرحلة قط. وفي العام 1993 قالت لي: "لم أرغب في الذهاب. تخيل لا أكثر، أسرة صغيرة وكل حاجياتها: من قطار إلى ثياغا، ومركب إلى كارثخينا، إلى طريق بري نحو سينثي. لكنني كنت دائماً أنفذ ما يريد، وكان رحالة ومغامراً عظيماً. استأجرنا شاحنتين، استقل لويس إنريكي وغابيتو الشاحنة الأولى، واستقل والدهما الشاحنة الثانية خلفهما فانقلبت حالما انطلقت"[67]. ولم يبق أحد في البيت القديم في آراكاتاكا مع ترانكيلينا والعمة فرانسيسكا سوى قريبتهما سارا ماركيز التي تزوجت مؤخراً.

كان رد فعل ماركيز إزاء كل هذه المتغيرات في مصائر الأسرة مريراً: "عشنا في منزل جدتي إلى أن بدأت النقود تشح واضطرت إلى العيش على ما كان يرسله إليها العم خوانيتو، وعندئذ تقرر أن أنتقل أنا وغابيتو إلى بيت أبي في سينثي... كان ذلك فظيعاً: أن تنتقل من مكان هادئ كي تعيش مع هؤلاء، إخوتي وأخواتي، إضافة إلى شخصية أبينا الذي كان فظ الطباع صاخباً. لم يكن يصرف أي شيء من ذهنه. وكان يضرب عايدة ضرباً مبرحاً بكنها لم تكن تهتم. أما أنا فقد فكرت في أنه إذا لمسني، فسألقي نفسي في النهر. ولم أكن أنا أو غابيتو نقوى على مواجهته، هكذا نفعل ما يطلبه منا"[68].

غير أن الأحوال ساءت في سينثي. فقد استثمر غابرييل إليخيو ماله في المواشي، وبخاصة في قطيع من الماعز، غير أن المشروع مثل فشلاً كارثياً، وعادت



الأسرة إلى آراكاتاكا في غضون بضعة أشهر. ولم يرافق غابرييل إليخيو زوجته وأطفاله طوال الرحلة، بل توقف في بارانكيا، وهناك بدأ يحاول إيجاد وسيلة ما لفتح صيدلية أخرى. وفي آراكاتاكا، أحرق بقية أفراد الأسرة ملابس العقيد في باحة المنزل وتراءى الرجل العجوز حياً لغابيتو على نحو ما وسط اللهب. حاول غابيتو الانسجام والتكيف مع حال فقدانه جدَّه وتدهور صحة جدته التي بدأت تفقد بصرها، وأصبح من المتعذر مواساتها برحيل زوجها بعد ما يزيد عن لخمسين عاماً من الحياة معاً، وكذلك الانهيار الذي حلَّ بالعمة فرانسيسكا المهيبة والتي عاشت مع نيكولاس أطول مما عاشت معه زوجته. أما غابيتو، فقد مثّل كل ذلك نهاية العالم بالنسبة إليه. وفي غمرة غرقه في هذا الحزن الذي لم يكن يقوى حتى على فهمه، ووجوده الآن بين يدي الأسرة التي أهملته من قبل لسنوات طويلة، بات متردداً في الاندماج في حياة الأولاد الآخرين في آراكاتاكا.

أما لويس إنريكي، الأقل تأملاً والذي ليس له ما يحمله من متاعب أخيه العصابية، فقد رمى بنفسه في أحضان حياة مسقط رأسهم في تلك البلدة الكاريبية، تلك الحياة التي لم يتمكن غابيتو مفرط الحساسية من إعطائها حق قدرها إلا بعد مرور سنوات طويلة وهو يتطلع بحنين وأسىً لا إلى العالم الذي فقده وحسب، بل إلى اللهو الذي يشتاق إليه. والتحق الصبيان بمدرسة رسمية للبنين. ويتذكر لويس إنريكي أن الغجر ولاعبي السيرك توقفوا عن المرور بالبلدة وأخذ العديد من الأهالي، شأنهم شأن غارسيا ماركيز، يعدون العدة للرحيل: "حتى بنات الهوى رحلن، أولئك اللواتي مارسن مهنتهن في *الأكاديمية*، كنية بيت المتعة... والحق أنني لم أذهب إليه، لكن أصدقائي أخبروني بكل شيء عنه"[(٤٥)].

ظل غابيتو سنوات طويلة ينظر إلى آراكاتاكا نظرة أشد سوداوية من نظرة أخيه الأصغر سناً المعروف بطيشه وصخبه، وهذا ما توضحه صورته الأدبية الأولى في **عاصفة الأوراق**. وبالرغم من أنه سيتحدث بعد مدة طويلة بحرارة عن تلك البلدة، إلا أنه ظل يخشى العودة إليها. ولم يقطع المسافة إليها إلا بعد أن بلغ الأربعين من عمره ليراها من خلال منظور غريب كان لويس إنريكي قد طوره وهو صبي.



لقـــد حلت النهاية بالنسبة إليهم جميعاً، وأوشك غابيتو وهو في الحادية عشرة من عمره على الرحيل عن "تلك البلدة الحارة المغبرة التي أكد لي والداي أنني ولدت فيها ولتي أحلم فيها وأنا بريء ومجهول وسعيد في كل ليلة. وفي هذه الحالة، فإنني لـــن أكون الشخص نفسه الذي هو أنا الآن، لكن ربما كان يمكن أن أكون أفضل: مجرد شخصية في إحدى الروايات التي لم أكتبها قط"(71).

* * *



-4-

أيام المدرسة:
بارانكيا وسوكري وثيباكيرا
1946-1938

أخذ غابرييل إليخيو ولده غابيتو وحده معه إلى بارانكيا لفتح الصيدلية والبدء بحياة جديدة. استغرق ذلك شهرين. وهناك وجد غابيتو أن والده يعدّه معاملة أفضل عندما لا يكون هناك أحد سواهما، لكنه تُرك وحيداً وقتاً طويلاً، وفي أغلب الأحيان أهمل غابرييل إليخيو إطعامه وفي يوم من الأيام وجد الصبي نفسه يسير نائماً على امتداد شارع في وسط البلدة مما يشير إلى اضطراب عاطفي خطير[1].

تقع بارانكيا على ضفة نهر مجدلينا في المنطقة التي يبدأ فيها النهر بالانفتاح على البحر الكاريبي وفي غضون نصف قرن من الزمن تحولت من قرية صغيرة تقع بين الميناءين التاريخيين من حقبة الاستعمار كارتاخينا وسانتا مارتا لتغدو ربما أكثر مدن البلاد حيوية. فقد كانت أهم كولومبيا في صناعة السفن والمكان الذي بدأ منه غزوها. وكانت البلدة الوحيدة التي يأتي إليها المهاجرون من الخارج بأعداد مهمة، مما جعلها أشبه بعاصمة ذات إحساس عالٍ بحداثتها المؤقتة مقارنة بالطابع التقليدي الأنديري الكئيب الذي صبغ العاصمة بوغوتا، والطابع المحافظ الذي طبع جارتها كارتاخينا الأكثر أرستقراطية. كانت البلدة تعجّ بأعمال التصدير والاستيراد التجارية الأجنبية والوطنية والمعامل والورش، وفيها خطوط جوية ألمانية وأصحاب مصانع هولنديون ومنتجو مواد غذائية إيطاليون ومتاجر عربية ومستثمرون أميركيون، وعدد كبير من المصارف والمؤسسات التجارية والمدارس وكان العديد من الشركات قد أسسها يهود هاجروا من جزر الأنتيل الهولندية. كانت بارانكيا



نقطــة دخول المسافرين القادمين من خارج البلاد ونقطة خروج المسافرين الذاهبين إلى بوغوتا سواء عن طريق الجو أو عن طريق النهر. وكان مهرجانها هو الأشهر في الــبلاد، ولا يزال عديد الأهالي من المدينة يعيشون السنة كلها وهم ينتظرون بنفاد صبر ذلك الأسبوع من شهر شباط الذي يُزاح فيه الستار عن صخبهم.

في بلدة سينثي، وفي أثناء العودة القصيرة إلى آراكاتاكا، تحسّنت العلاقات إلى حدٍّ ما بوجود أعداد لا تحصى من أفراد الأسرة الكبيرة. لكن عند وصول أفراد أسرة غارسـيا ماركيــز الــصغيرة إلى بارانكيا في العام 1938 بعد أن تركوا ترانكيلينا ولعمـــات وراءهم في آراكاتاكا، وجدوا أنفسهم وحيدين للمرة الأولى في حياتهم. ووجد غابيتو ولويسا اللذان حزنا حزناً صامتاً على جدهما وعلى غياب جدتهما المريـــضة صعوبة في التأقلم لا يقدران عليها. لكن لا بد لهما من تحمل ذلك. وكان كل واحد منهما يعرف أن الآخر يعذب بسبب ذلك، لكنهما لم يتكلما عنه قط. إضافة إلى ذلك، كانت والدتهما تعاني هموماً مشابهة، وعادت إلى بارانكيا وقد بدا عليها التردد الشديد والاستياء الواضح. كانت الصيدلية في مركز المدينة والبيت في باريـــو اباجو أو الحي الأدنى، وهو أشهر الأحياء الشعبية في بارانكيا. كان البيت صـــغيراً لكنه ينطوي على ساحة مدهشة. وأدرك غابرييل إليخيو أن لويسا، التي كانت تنتظر إنجاب طفل آخر، لا تتمتع بصحية الرزانة. وبالرغم من أن البيت كان فيه حجرتا نوم لا غير، فإن حجرة المعيشة الرئيسة كانت تحتوي على أربعة أعمدة دورية(*)، وعلى السطح برج صغير مطلي باللونين الأحمر والأبيض. وكان الأهالي يطلقون عليه اسم القلعة.

بدا واضحاً منذ البداية أن الصيدلية الجديدة ستحقق إخفاقاً كارثياً آخر. وبعد أن قهرت المصائب غابرييل إليخيو، قرر الانطلاق مرة أخرى صوب الحقول اليانعة الخضراء تاركاً زوجته الحامل بلا أي معين لمساعدتها هي وأطفالها. وهنا حلّت أسوأ الأيـــام على الأسرة. إذ بدأ غابرييل إليخيو يسافر على امتداد نهر مجدلينا والأطراف المحيطة به يعالج المرضى معالجة عشوائية، ويشتغل في أعمال وقتية ويبحث عن أفكار جديدة. ولا بد من أن لويسا تساءلت مراراً إن كان سيعود، فطفلتها السابعة، ريتا، ســتولد في تموز من العام 1939، وسافرت الخالة ما إلى بارانكيا لمساعدة لويسا في



أثناء غياب غابرييل إليخيو. ويدوّن غارسيا ماركيز في ملاحظاته أن الطفلة سُمّيت ريتا تيمناً باسم ريتا قديسة كاسيا التي كانت شهرتها الأخلاقية متمثلة بالصبر الذي واجهت به لسلوك السيئ لزوجها صعب المراس[2] هنا وستنجب لويسا بعد ذلك أربعة أطفال آخرين وكلهم من البنين.

اضطرت إلى الاعتماد على كرم أخيها خوان دي ديوس وكان محاسباً في سانتا مارتا ويساعد تر نكيليا والخالات في آراكاتاكا[3]. وتبيّن أن للويسا ما يساعدها على التحمل مثل الواقعية والمصرة، وهما صفتان لم يفلح غابرييل إليخيو في تطويرهما. كانت امرأة هادئة ورقيقة وتبدو سلبية، بل حتى طفولية، لكنها بالرغم من ذلك وجدت طريقاً لتربية أطفالها الأحد عشر وحمايتهم من دون أن تملك ما يكفي من المال لإطعامهم وإكسائهم وتعليمهم على نحو مريح. وفي حين كان حسُّ غابرييل إليخيو الفكاهي لا يعرف حداً وقيداً ويتصف بالغرابة دائماً، فإن لويسا كانت تتمتع بحسّ السخرية واضح المعالم - لكنها أبقته تحت سيطرتها المحكمة - وبحس الفكاهة يتراوح بين السخرية نفسها والبهجة الواضحة وهو ما خلّده الابن في عدد من الشخصيات الأنثوية، لا سيما شخصية أورسولا إغواران تلك الشخصية الأكثر شهرة والتي يتعذر نسيانها في مئة عام من العزلة. لقد أسست مرحلة ماراكيبا، التي كافح فيها غابيتو وأمه معاً ضد الفقر الحقيقي، صلة جديدة بينهما لا تنفصم عراها يؤكد غارسيا ماركيز أهميتها له، ولكنه يحمي له سمعه فيقول إن صلته بها كانت صلة جادة، بل لعلها أكثر جدية من أي صلة أخرى[4].

بالرغم من الصعوبات، قررت لويسا أن تُلحق غابيتو بالمدرسة كي يكمل تعليمه الابتدائي. كان أكبر إخوانه، وكان أذكاهم من الناحية المدرسية، وبهذا، فقد مثّل أفضل أمل لمستقبل الأسرة. وعمدَ خوان فينتورا كساليس مدير مدرسة كارتاخينا دي إندياس إلى حماية هذا التلميذ الجديد، ولا شكّ في أن تشجيع هذا المدير المتعاطف وإياه كان مناسبة سعيدة. وبالرغم من ذلك، فإن ذكريات غارسيا ماركيز عن أيام المدرسة لا تتجاوز الوحدة والتعب على البلايا والمحن. فأغرق نفسه في قراءة الكتب مثل جزيرة الكنز والكونت دي مونت كريستو.



اضطر أيضاً إلى البحث عن عمل حقيقي وحصل على صنعة بيزوست لقاء رسم لوحات لمتجر إل توكيو الذي كان ولا يزال مجاور لبيت القسم. كما خطّ الصبي ملاحظات لصاحب المتجر مثل *إذا لم تجد الشيء، فاسأل عنه* أو *الرجل الذي يمنح الثقة يخرج للبحث عن نقوده*. وفي إحدى المناسبات التي لا تُنسى، دفعوا له خمسة وعشرين بيزوس لقاء رسم لوحة على الحفلة المحلية (الحفلات الكولومبية هي الأكثر بهرجة وترويجاً في أميركا اللاتينية). وفي مناسبة أخرى، شارك في مسابقة إذاعية خاصة بالكشف عن المواهب يتذكر إنه غنى فيها أغنية *البجعة* وهي رقصة فالس مشهورة، لكن لسوء الحظ جاء ترتيبه الثاني، ويتذكر أيضاً أن أمه التي عبّرت من كل أصدقائها وأقربائها وكانت تأمل بجائزة البيزوسات الخمسة، وجدت صعوبة في إخفاء خيبة أملها. كما حصل على مهنة في مصنعة محلية تخصص بتوزيع عينات في الشوارع، إلا أنه ترك العمل بعد أن التقى والدة أحد أصدقائه من أراكاتاكا وهي تصيح وراءه بصوت عالٍ: "أخبر لويسا ماركيز عما قد يقوله والداها إذا ما شاهدا حفيدهما المحبوب وهو يوزع المشورات على المستهلكين في السوق"[5].

كان غابيتو طفلاً معتلّ الصحة في تلك السن، شاحب الوجه، سيئ التغذية، ناقص النمو جسدياً، حاولت لويسا حمايته من مرض السل بإعطائه زيت كبد الحوت في حين كان زوجها بعيداً، ولما عاد غابرييل إليخيو إلى البيت قال إن غابيتو تفوح منه رائحة السمك. وكانت إحدى ذكريات طفولة الصبي المأثرة عن عاملة في معمل ألبان كانت غالباً ما تزور البيت وقالت بحزم ذات يوم للويسا سانتياغا أمام الطفل نفسه: "إني أكره ما سأقوله يا سيدتي لكني لا أظن أن ابنك سيكبر"[6].

في أثناء إحدى الاتصالات الهاتفية الأسرية بالأب المفقود منذ زمن بعيد، قالت لويسا إن لهجته لم ترقها، وفي المكالمة التالية حثّته على الرجوع إلى البيت. كانت الحرب العالمية الثانية قد اندلعت تواً وربما شعرت بالافتقار إلى الأمان، فأرسل غابرييل إليخيو برقية يقول فيها بكل بساطة: "متردد". وهنا خامرها الشك، فطرحت عليه خياراً قطاً: إما أن يعود إلى البيت على الفور أو ستمضي إليه حيثما

يكـــون مـــع كل الأطفال أدعى غابرييل إليخيو، وعاد إلى باراكيا في حر أسبوع واحـــد. وفي غمضة عين بدأ يفكر في مشاريع جديدة. وتذكر شين بلدة تقع على نهر صغير تدعى سوكري زارها وهو في ريعان الصبا. مما لا ريب فيه أن هناك امرأة تداعب خياله. وهكذا حصل مرة أخرى على قرض من مستودع أدوية كان يزوده بالأدوية. وفي غضون أسبوعين كانت الأسرة تشق طريقها من أحدث مدن كولومبيا إلى منطقة ريفية نائية وصغيرة.

ذهـــب غابرييل إليخيو في بادئ الأمر كدأبه إلى المكان الجديد وحده تارك لويـــسا وهي حامل مرة أخرى، كي ينقل ممتلكات الأسرة أو يبيعها - لكن لويـــسا باعـــت معظمهـــا هذه المرة - ويأتي بالأطفال السبعة. ووجد غابيتو نفسه في دور معـــزز بوصفه مسؤولاً عن الأسرة بعد أن أنيط به مهام تفوق سنه عندما صحبه والده إلى بارنكيا قبل عام ونصف العام. وهناك، أنجز كل الترتيبات تقريباً بما فيها توضيب الحقائب، وحجز الشاحنة، وشراء تذاكر السفينة التجارية لنقل الأسرة عن طـــريق النهـــر صعوداً إلى سوكري. لكن بائع التذاكر غيَّر لسوء الحظ القوانين في منتصف عملية الشراء لتجد لويسا أن ما لديها من مال لا يكفي، لأن شركة النقل أوضـــحت أن على الأطفال دفع ثمن التذاكر كاملة. وفي غمرة يأسها نفذت لويسا اعتـــصاماً وحدها وحصلت على بغيتها. وبعد مرور سنوات طويلة تذكرت لويسا تلـــك الأوديسه في أثناء حديثها معي في باراكيا عندما بلغت الثامنة والثمانين من عمرها: "اضطر غابيتو في سن الثانية عشرة إلى تنظيم الرحلة لأنه كان الأكبر سناً لا يـــزال في وسعي أن أراه واقفاً على سطح السفينة التجارية يعد الأطفال ثم ينتابه الرعب ويصيح: هناك واحد ناقص. وكان المقصود هو، إذ لم يعد نفسه!" [7].

رحلـــت هـــم السفينة التجارية جنوباً صوب مغانجي، أكبر بلدات المسم الشمي من مجدلينا. ومن هنا تعين عليهم الانتقال إلى زورق جاري ينقلهم صعوداً نحـــو نهر سان خورخيه الأصغر ومن هناك على امتداد نهر موخانا الضيق الذي تحفه المـــستنقعات والأدغـــال مـــن كلا جانبيه، وهي مغامرة وسعت كثيراً من خيال الأطفـــال. كـــان غوستافو الابن الأصغر في الرابعة من عمره، وكان الوصول إلى سوكري في تشرين الثاني عام 1939 يمثل واحدة من أكثر الذكريات المبكرة حيوية:



"ذهبنا إلى سوكري بزورق بخاري وترجلنا عن الزورق ومشينا على امتداد لوح خشبي. لا يزال المشهد مطبوعاً في ذهني: ترجلت أمي، وسارت فوق اللوح الخشبي مرتدية ثوباً أسود اللون بأزرار لؤلؤية. لا بد أنها كانت في الرابعة والثلاثين من عمرها. لقد تذكرت تلك المرحلة بعد مرور سنوات طويلة عندما كنت شخصياً في الثلاثين من عمري. كنت كمن ينظر إلى لوحة، وأدركت ملامح استسلام ارتسمت على وجهها. من السهل جداً فهم ذلك لأن أمي تلقت علومها في مدرسة الدير، وكانت طفلة مدللة لواحدة من أهم أسر البلدة، طفلة صغيرة لم تنخرط على نفسها في التمتع بشيء، تتلقى دروساً في الرسم وفي العزف على البيانو لتجد نفسها مضطرة فجأة إلى العيش في بلدة حيث الأفاعي تدخل البيوت ولا تتوفر فيها الكهرباء، بلدة تكتسحها الفيضانات شتاءً فتختفي الأرض تحت سطح الماء، وتظهر سحب البعوض"[8].

كانت سوكري بلدة صغيرة يسكنها زهاء ثلاثة آلاف نسمة لا تربطها أي طريق أو خطوط سكة حديد بأي مكان آخر. إنها أشبه جزيرة عائمة تهت في شبكة الأنهار والجداول وسط منطقة كانت يوماً ما غابة مداريه كثيفة الأشجار لكنها أصبحت الآن أخف مما كانت عليه بسبب مساعي البشر المتواصلة وإن لا تزال مغطاة بالأشجار والأدغال النامية تحتها، وفيها مساحات واسعة لرعي الماشية وزراعة الأرز وقصب السكر والذرة. ومن المحاصيل الأخرى الموز والكاكاو والبُنّ والبطاطا الحلوة والقطن. وكان المشهد العام دائم التغيّر، يتحول من شجيرات قصيرة وكثيفة إلى سفانا، معتمداً على موسم الأمطار وارتفاع مد الأنهار. وجاءها المهاجرون من مصر وسوريا ولبنان وإيطاليا وألمانيا بين عام 1900 وحتى أواسط عشرينيات القرن العشرين. وسكن الأهالي الميسورون أكثر من غيرهم حول الميدان الكبير الذي لم يكن ساحة اعتيادية بل مساحة من الأرض طولها أكثر من مئة وخمسين ياردة وعرضها ربما يبلغ الثلاثين ياردة، يحدها النهر من طرف والكنيسة من الطرف الآخر، فيما انتشر على كلا الجانبين صف من بيوت ذات طابقين مطلية طلاءً براقاً. في هذا المكان استأجر غابرييل إليخيو منزله الجديد وفتح له صيدلية في الطابق الأرضي.



بعد وصول الأسرة مباشرة، أصرّت لويسا على طرح سؤال يخص دراسة غابيتو في المدرسة الثانوية، وأقنعت زوجها المتردد بضرورة إرساله إلى مدرسة سان خوسيه في بارنكيا التي استفسرت عنها قبيل رحيلها، وقالت: "إنها مدرسة تصنع الحكّام"[9]. لعل غابيتو نفسه شعر أنه منبوذ مرة أخرى لكنه قرر أن يواجه الأمور: "فكّرت في المدرسة كأنها سجن، وانتابني الهلع من فكرة العيش تحت رحمة الناقوس، لكنها كانت أيضاً أملي الوحيد في الاستمتاع بحياة متحررة منذ سن الثالثة عشرة، والبقاء على علاقة جيدة مع أسرتي ولكن بعيداً عن سيطرتها"[10].

وصف أحد الأصدقاء ظهوره في تلك الأيام: "كان رأسه ضخماً، أشعث الشعر يشبه السلك شكلاً ومرونة، غليظ الأنف طويله كأنه زعنفة سمكة قرش. كانت لديه شامة أحدث تنمو إلى يمين أنفه، وبدا شكله نصف هندي ونصف عجري. كان فتىً نحيلاً، قليل الكلام، التحق بالمدرسة لأنه كان مضطراً إلى ذلك"[11]. كان في نحو الثالثة عشرة من عمره وكان تعليمه قد بدأ متأخراً. وفي الأشهر الخمسة عشر الأولى في المدينة الساحلية، مكث غابيتو مع ابن عمه خوسيه ماريا بالديبلانكيث وزوجته هورتينسيا وطفلتهما الصغيرة، وكان ينام على أريكة في الصالة.

بالرغم من شكوكه الذاتية ومنافسة غيره من الصبيان الموهوبين، فإن أداءه في المدرسة كان ممتازاً باستمرار، وبات ذائع الصيت بسبب نشر أنه الأدبية **أوهامي الحمقاء** وهي مجموعة قصائد هجائية ساخرة عن زملائه في المدرسة وعن قوانين المدرسة القاسية أو السخيفة التي ما إن جذبت انتباه معلميه حتى طلبوا منه باستمرار أن يلقيها عليهم[12]. كما نشر أيضاً عدداً من النصوص القصيرة والقصائد الأخرى في مجلة المدرسة **الشبيبة**. وفي غضون السنوات الثلاث من وجوده في المدرسة مُنح سلسلة من مواقع الثقة والمسؤولية فعلى سبيل المثال، يتولى التلميذ الذي يحصل على أفضل الدرجات خلال أسبوع رفع العلم الوطني أمام الصفوف صباحاً، وتلك مهمة أُلقيت على عاتق غابيتو لمدة طويلة من السنة الدراسية. وثمة صورة له في مجلة المدرسة مع أوسمته، ينظر إلى الجانب قليلاً وقد بدا عليه الخجل إلى حدٍّ ما كأن لديه سبباً ما للارتياب في عدالة نجاحه. وكان ذلك شعوراً سيظل يلازمه على مدى السنين.

في نهاية السنة الأولى، عاد المراهق غارسيا ماركيز إلى بيته لتمضية العطلة السنوية وأمدها شهران هما كانون الأول وكانون الثاني. وكما هو محتوم، فقد ولد طفل آخر، خديج، في الشهر السابع من عمره وهو أخوه خيمي الذي قُدِّر له أن يعيش معتل الصحة لبضع سنوات. وأصبح غابيتو غراب أسرته وبعد عمر طويل يصبح خيمي أقرب الأخوة إلى غابيتو. باتت الأسرة الآن مستقرة في البيئة الجديدة وكان أمام غابيتو، كعهده دائماً، الكثير من الأمور التي سعى له إنجازها. وبدا إخوته من بنات وصبيان ينظرون إليه نظرة الأخ المؤقت الذي يزورهم غالباً وهو هادئ وخجول ومستوحد؛ الأكبر سناً والأبعد. كان هذا الغياب المنتظم منذ مطلع المراهقة قد عمّق الهوة التي تفصل الابن عن أبيه الذي لم يفهمه ولم يحاول أن يفهمه البتة. إلا أنه لم يمسّ أخته مارغوت التي كانت مثله تخشى والدها، في حين لم تكن الأم متفرغة لها قط. فافتقدته كثيراً كما تشبه بتوأمين. وبسبب إدراك غابيتو عزلتها فقد كان يرسل إليها الرسائل في كل أسبوع وهو بعيد عنها[11].

كان غابيتو يفزع من الذهاب إلى البيت. وإذا أردنا أن نعرف عن سوكري فالاضطرار إلى الاعتماد على الملاحظات التي أبداها غارسيا ماركيز بين سنة 1967 وسيرته الذاتية الصادرة سنة 2002، فإننا لن نعرف شيئاً سوى تلك الإشارة غير المباشرة الواردة في رواياته مثل **في ساعة نحس**، و**ليس للعقيد من يكاتبه** اللتين كتبهما في خمسينيات القرن العشرين، و**قصة موت معلن** التي كتبها في مطلع ثمانينيات القرن العشرين. إن تلك الملاحظات المنطوية على صفية تؤكد الانطباع الكئيب والسوداوي الذي خلفته تلك الروايات. كانت سوكري بلدة مجهولة، تؤلم ماكوندو الشريرة والعنيفة. ولم يشر إليها باسمها عندما كان يذكرها لوالده في بعض الأحيان حين كانت تبدو واضحة تماماً في ذهنه. (كان العنوان الأصلي لرواية **في ساعة نحس** هو *كومة براز هذه البلدة*). وبالرغم من ذلك، فقد كانت البلدة في نظر الأطفال الأصغر سناً منه، لا سيما ريتا والأربعة الذين ولدوا فيها فردوساً مدارية قوامها النهر، والأدغال، والحيوانات المبهرجة، والحرية.

كانت تلك المرحلة الأكثر نجاحاً بالنسبة إلى غابرييل إليخيو بوصفه صيدلانياً وممارساً للطب التجانسي، ولم يعمل بمفرده وحسب، بل ارتبط بالمستوصف المحلي.



وإزاء مثل هذه الامتيازات، يفيد المرء أن يكون محافظاً لأن سوكري، بخلاف أراكاتاكا، كانت بلدة محافظة إلى حدٍّ كبير. وفي الوقت نفسه، لم يكن العنف بعيداً عن السطح. ففي اليوم الذي عُمِّد فيه جيمي، حُزّت رقبة عازف على البوق من أهل المنطقة في اللحظة نفسها التي كان يجهد نفسه فيها لينفخ أعلى نغمة وأقواها. وقال بعض الناس إن الدم ارتفع إلى علو ثلاثة أمتار. وسمع لويس إنريكي بالحادثة على الفور، فهرع لمشاهدة ما حدث لكن الرجل البائس كان قد نفد دمه عند وصوله بالرغم من أن قلبه كان لا يزال ينبض[14]. ولم يحدث ما يوازي ذلك الحدث الدرامي مرة أخرى إلى أن أعتيل صديق الأسرة وجارها كايتانو جنتيلي أمام أنظار أهل البلدة كلهم في كانون الثاني عام 1951، فتغيرت لذلك حياتهم جميعاً تغيراً لا سبيل إلى معالجته.

في نظر غابيتو كان التغير المفاجئ في ترتيبات الأسرة سببه والده المولع بالرحلات. وعندما خرج من القارب لدى رجوعه إلى سوكري في أواخر العام 1940 طوقته شابة بذراعيها وأخبرته أنها أخته كارمن روسا. وفي مساء ذلك اليوم نفسه، اكتشف غابيتو أيضاً أن لديه أخاً غير شقيق، هو أبيلاردو، الأمر كان له وقع الصدمة عليه لأن عزاءه الوحيد في وجوده وسط هذه الأسرة المعمورة تقريباً كان يتمثل في أنه الولد الأكبر سناً، وإذا بهذا العزاء يُنتزع منه: فهو ليس أكبر أبناء أبيه، بل هو أكبر أبناء أمه.

تفسر لنا احباطات غابرييل إليخيو في حياته وإحساسه بالدونية من ناحية المهنة جزءاً من المشكلة بينه وبين غابيتو الذي كان ينظر إليه دوماً بعين غريبة. كان معظم أطفال غابرييل إليخيو لا يأخذون قصصه عن مشروعه وابتكاراته الطبية على محمل الجد[15]. كان غابيتو الذي تعرف إلى العالم المحيط به على نحو أوسع أكثر ارتياباً من إخوانه وأخواته. من الواضح أن غابرييل إليخيو قرأ الكثير وعرف الكثير أيضاً، تماماً مثلما كان لديه الكثير من الوقاحة والثبات والجلد ليسير وراء حدسه وبصيرته الفطرية على حين يتحمل مرضاه المخاطرة. فحصل على إجازة بوصفه طبيباً متمرساً في الطب التجانسي في بارانكيا، وفي حين كان يشتغل صيدلانياً كافح من أجل الحصول على مؤهل من جامعة كارثاخينا ليؤمن لنفسه الاعتراف الكامل



بأنــه طبيب. وفي نهاية المطاف، وبعد مماوصات مطولة مُنح لقب دكتور في *العلوم الطبيعيــة*، إلا إنـــه أطلق على نفسه لقب دكتور قبل ذلك بزمن طويل[16]. لكن غابيــتو، على ما يبدو، لم يأخذ اللقب الذي اقترضه والذه لنفسه على محمل الجد. يضاف إلى ذلك، فإن لقب *العقيد* كان مفصلاً عنده كثيراً بلا أدنى ريب. وغالباً ما كان غابريل إليخيو يتباهى بأن وسائله تختلف الاختلاف كله عن الوسائل التقليدية والمألـــوفة. "عـــندما كنت أذهب لعيادة مريض، كانت دقات قلبه هي التي تجعلني أعـــرف ما يعانيه، فكنت أصغي إلى الدّقات بحرصٍ متناه. وكأنّ القلب كان يقول لي: هـــذه مـــشكلة في الكبد. هذا الرجل سيموت من كثرة الكلام. فكنت أقول لأقربائه: هذا الرجل سيموت من كثرة الكلام. وهكذا، سيموت الرجل من كثرة الكلام، لكني فقدت حيبي في نهاية الأمر"[17].

لـــيس مما يدعو للدهشة أن كل أطباء الطب المجانسي معروفون بتهتكهم في كولومـــبيا في تلك الأيام، فهم خبراء متنقلون لا تربطهم رابطة بمعظم الأماكن التي يمرون بها، ولهم قدرة لا تُضاهى في الوصول إلى الجنس الآخر مع الاستعداد الكامل للإجابـــة عـــن أي سلوك مريب سلكوه. وقد وكّلت إحدى النساء في مستوطنة قـــريبة محامـــياً اتهم غابريل إليخيو باغتصابها وهي تحت تأثير المخدر، وبالرغم من تنكـــره تهمة الاغتصاب شديدة الخطورة، إلاّ أنه اعترف بأبوّته لطفل[18]. كانت العلاقـــة الجنسية بالمريض جنحة جنائية، إلاّ أنه تمكن من تخليص نفسه مما قد تكون أخطـــر لحظـــة في حياته المهنية. وربما أدى ذلك إلى فقدانه كل شيء. وفي وقت لاحق، حضرت امرأة أخرى لتقول إن حفيدتها حملت من الدكتور غارسيا وإنها لا تـــستطيع العناية بها. وبعد مشاجرات وتأنيب، فعلت لويسا ما فعلته أمها من قبل ووافقـــت على أن تكون ذرية زوجها ذريتها أيضاً. وكما يقول غارسيا ماركيز: "كانـــت غاضبة، لكنها أوت الأطفال عندها وسمعتها تردد: *إنني لا أريد أن يطوف دم الأسرة في جميع أنحاء العالم*"[19].

في أثنـــاء العطلة السنوية الأولى، لم يضطر غابيتو إلى استيعاب ظهور أبيلاردو وكـــارمن روسا والأخبار التي يُهمس بها همساً غير واضح عن أخ غير شقيق آخر وغـــير شرعي وحسب، بل أخذ رسالة من أبيه ليوصلها إلى ما يعرف باسم *الساحة*



وهو المبغى العام في المنطقة. قبّل فيه المرأة التي فتحت له الباب الطر وقالت: "آه، نعم. تعال من هنا". ثم قادته إلى حجرة معتمة، ونــزعت عنه ثيابه واغتصبته على حدّ تعبيره علانية للمرة الأولى. ويتذكر الحادثة في ما بعد فيقول: "كان ذلك أفظع شــيء يحــدث لي لأنــني لم أكــن أعرف ما كان يحدث. كنت متأكداً من أنني سأموت"[20]. ولزيادة الطين بلة، أخبرت الساقطة غابيتو بمضاضة أن يطلب من أخيه الأصغر سناً أن يلقنه دروساً. من الواضح أن الأخ الأصغر كان زبوناً منتظماً. لا بد مــن أنه لام أباه على هذه التجربة القذرة والمرعبة والمهينة. لكن يبدو أن غابرييل إليجــيو أعد العدّة لكل ما حدث، وهو ما يتلاءم مع الموروث المتوغل في القدم في أميركــا اللاتيــنية والذي يصطلح البرازيليون على تسميته بإرسال الصبــي لشراء الحلوى.

بدأت السنة الثانية في سان خوسيه كسابقتها، وظل غارسيا ماركيز نجماً أدبياً في المدرسة، وتمتع بشعبية هادئة، وكتب تقريراً مسلياً عن رحلة مدرسية إلى شاطئ البحر في آذار سنة 1914 وهو تقرير بعث على السرور عند قراءته لما فيه من فكاهة وحماســة وحــيوية: "طلب منا الأب ثالدبار في الحافلة أن ننشد للعذراء، فأنشدنا بالــرغم من أن بعض الصبيان اقترحوا أن نغني بدلاً منها أغنية من أغاني بورو[21] الأفــريقية الكولومبية مثل البقرة العجوز أو الدجاجة الملساء. وينتهي التقرير بجملة: عــلى من يرغب في معرفة كانت هذه الحبالات السادجة، عليه إرسال رسالة إلى غابيتو". كان واحداً من التلاميذ الحذرين، لا ترفه الرياضة ولا تشجار، بل يروق له الجلوس والقراءة تحت الظل في أثناء الاستراحة في حين ينشغل الآخرون بلعبة كرة القدم. لكنه تعلم شأنه شأن العديد من التلاميذ المجتهدين غير المولعين بالرياضة، أن يكون مرحاً وأن يدافع عن نفسه بلسانه.

لكــن هــناك ما هو أكثر مما يلوح على هذا المراهق الغامض. فقد انقطعت دراســة غابيتو في العام 1914 بسبب غيابه الطويل عن سان خوسيه إذ فاته النصف الثاني من العام الدراسي إثر اضطراب نفسيّ وصل ذروته في شهر أيار. وقد تحدث غابــرييل إليجيو الطائش أبداً عن ذلك في مقابلة العام 1969 بعد أن ذاعت شهرة ابنه: "لقد أصيب بما يشبه انفصام الشخصية وصاحبته نوبات غضب فظيعة وغيرها.



وفي يوم ما، قذف دواة حبر في وجه أحد القسيسين، وكان يسوعياً معروفاً، فكتب إلى لإبلاغي أن أخرجه من المدرسة، فأخرجته"[22]. وقد راجت شائعات بين أفراد الأسرة تفيد أن غابرييل إليخيو عزم على أن يثقب رأس ابنه في *المكان الذي يقع فيه الوعي والذاكرة*، لكن تهديد لويسا بالكشف عن مسعاه وحده الذي حال دون ذلك[23]. وليس صعباً التأثير القطيع مثل هذه الخطة في صبي لا يعتقد هذا الطبيب العائلي في كل الأحوال، والذي يبدو أنه ذهل عندما فكّر في أن أباه يريد أن يخرق رأسه.

عندما وصل غابيتو البائس إلى سوكري، قال له أخوه نصف الشقيق أبيلاردو، بحدة، أن ما يحتاج إليه هو معاشرة امرأة، ووفر له عدداً من الشابات الراغبات في المعاشرة اللواتي مثّلن تجربته الجنسية الأولى في حين كان بقية الصبيان في سان خوسيه مشغولين بالتضرع إلى مريم العذراء. لقد منحت تلك المغامرات المبكرة غارسيا ماركيز، الذي كان يشعر أنه أقل فحولة من بقية الذكور في مجتمع ذكوري تماماً، الشعور بأنه مطّلع على القضايا الجنسية، وظل ذلك الشعور مصاحباً له بغض النظر عن بقية التعقيدات، ولازمه عدد لا يحصى من الشواغل المسبب والنكسات[24].

في هذه اللحظة، يظهر لنا في المشهد شخص يدعى خوسيه بالنثيا، وهو ابن أحد ملاك الأراضي في المنطقة. كان خوسيه يشبه لويس إنريكي شقيق غابيتو؛ كان عازفاً موسيقياً موهوباً وكان أيضاً مغنياً وسكيراً ومغوياً، احتفظ بصداقة طيبة مع غابيتو طوال مدة إقامته في بوغوتا. كان محبي العطلة وراقصاً بارعاً، وهو ما لم يكن يتقنه غابيتو بعد بالرغم من أنه كان مغنياً ممتازاً. ويبقى بالنثيا بطل العديد من الحكايات الميلودرامية وقصص الصعلكة طوال سنوات قبل أن يحطمه الموت فجأة. لقد كان وجود مثل هذا الصديق عوناً كبيراً لمراهق يتقدم في السن.

عند رجوع الشاب غارسيا ماركيز إلى المدرسة في شهر شباط سنة 1942 حيّاه التلاميذ والمعلمون تحية حارة. وبالرغم من أن ماركيز لا يتطرق كثيراً في مذكراته إلى هذه التجربة، إلا أنه لا بد من أن يكون قد شعر بالحرج والإذلال بسبب غيابه، وبسبب الإيضاحات التي اضطر إلى اختراعها. وقد منح الأب لقدر

الكبير من سنته لمعالجته. ولم يمضِ بعد ذلك برفقة خوسيه ماريا وهورتينسيا بالديبلاكيث التي أصبح لديها طفلان حينها، بل بقي مع شقيق جدته لأبيه إليسيو غارسيا باترينا، ذلك الموظف المصرفي المعروف باستقامته وأمانته وعشقه الكبير للغة الإنكليزية. وكانت فالنتينا، ابنة إليسيو، قارئة ممتازة مثل غابيتو، لذلك صطحبته لحضور اجتماعات جماعة من الشعراء تدعى *رمل وسماء*[25].

في يوم ما، وفي حين كان ينتظر في بيت أحد الشعراء، جاءت امرأة بيضاء لزيارة الشاعر، اسمها مارتينا فونسيكا وكانت متزوجة بقبطان سفينة أسود يناهز طوله الست أقدام. كان غابيتو في الخامسة عشرة، نحيل الجسم بالنسبة إلى سنه، وتحدث وإياها على مدى ساعتين في أثناء انتظار الشاعر، ويقول إنه رآها مرة أخرى تنتظره وهي جالسة فوق مصطبة في حديقة عامة بعد أن ذهبا معاً إلى الكنيسة في أربعاء الرماد. فدعته إلى منزلها حيث انهمكا في المعاشرة التي كانت "حباً سرياً تأجج مثل نار مجنونة" تواصل حتى نهاية السنة الدراسية. كان الفصل يمضي اثني عشر يوماً بعيداً عن المنزل، وكان غابيتو يتظاهر أيام السبت، التي يضطر فيها إلى العودة إلى منزل إليسيو عند الساعة الثامنة، بأنه كان يحضر عروضاً سينمائية بعد ظهر تلك الأيام في دار سينما ريكس. لكن مارتينا قالت بعد بضعة أشهر إن من الأفضل لو ذهب إلى مكان آخر للدراسة "لأنك ستدرك عندئذ أن علاقتنا لن تكون أكثر مما هي عليه قبل الآن"[26]. فرحل باكياً، وعندما رجع إلى سوكري قال إنه لن يعود إلى سان خوسيه ولا إلى بارانكيا لأن أمه قالت له طبقاً لهذه الرواية "عليك أن تذهب إلى بوغوتا". لكن والده قال إنه لا يملك المال للذهاب، فأدرك غابيتو فجأة أنه يريد مواصلة تعليمه في كل الأحوال فهتف: *ثمة بعثات دراسية*. وبعد بضعة أيام قال له غابرييل إليخيو: "جهّز نفسك، فستذهب إلى بوغوتا"[27].

* * *

انطلق غابيتو إلى العاصمة في كانون الثاني سنة 1943 محاولاً أن يجرّب حظه، لكن ذهابه كان مغامرة بالنسبة إلى الأسرة لأن الرحلة إلى بوغوتا كانت استثماراً باهظ الثمن لفتى قد يخفق بسهولة في امتحان القبول. كانت بوغوتا في الواقع بلداً

آخر وكانت الرحلة إليها طويلة ومرعبة. وهيَّأت له أمه بذلة سوداء قطعة من بدلات أبيه وودَّعه أفراد الأسرة عند الممشى الخشبي. ولما لم يكن غابرييل إيخيو من الذين يفوتون فرصة مثل هذه، فإنه، لذلك بدأ الرحلة مع غابيتو في قارب صغير نقلهما على امتداد نهري موخانا وسان خورخيه وبعد ذلك إلى نهر مجدلينا الكبير فمدينة ماغانغي حيث ودَّع غابيتو فيها والده واستقل السفينة البخارية دافيد آرانغو باتجاه الجنوب نحو مرفأ بويرتو سالغار، وكانت رحلة نهرية تستغرق أسبوعاً واحداً عادةً وفي بعض الأحيان ثلاثة أسابيع إذا كان ماء النهر منخفضاً فتعلق السفينة في الشاطئ الرملي. بالرغم من أن غابيتو ذرف الدموع في الليلة الأولى، إلا أن ما كان يثبط الهمة بات مفاجأة[28]. فقد كانت السفينة تحتشد بعدد كبير من سكان الساحل الشبان وكان يبدو عليهم أنهم منه يبحثون عن منح دراسية أو ربما كانوا تلاميذ مدرسة وطلاب جامعة محظوظين وهم الآن يعودون بعد تمضية عطلة طويلة. ويتذكر غارسيا ماركيز تلك الرحلات على أنها حفلات عائمة غنّى فيها بقية الشبان مختلف الأغاني لتتهيج نفوسهم وليحصلوا على نصفه بيزوسات غنى"تلك السفينة الخشبية المدولبة التي واصلت سيرها تاركة وراءها أثراً من آثار الفانوس التي يعزفها عازف بيانو وسط عطر فواح من زهور الغاردينيا والسمندر النتن في الروافد المدارية"[29].

بعد مرور بضعة أيام، وفي الوقت الذي كان غابيتو يترجل من السفينة النهرية إثر انتهاء الرحلة، قام زملاؤه الأكثر خبرة منه بانتزاع صُرَّة مدارية أجبرته أمه على أن يأخذها معه وتحتوي على حصيرة للنوم مصنوعة من سعف النخيل، وأرجوحة من الألياف، وبطانية صوفية خشنة، ومبولة طوارئ وقذفوا بها في النهر وهم يضحكون دليلاً على أن هذا القادم من الساحل قد سلق سلم الحضارة، مما يعني أنهم كانوا كلهم من ذوي الطبع الفظ، جاهلين وغير قادرين على معرفة السلوك الحسن من السلوك السيئ[30]. بدا ذلك وكأن ما من شيء يعرفه أو يملكه يمكن أن يفيده في بوغوتا وسط أهالي الهضبة المعروفين باسم الكاتشاكو المخادعين والمتشائمين. وفي بويرتو سالغار الواقعة عند سفوح جبال الإنديز الشرقية، استقل الركاب القطار ليقلهم إلى بوغوتا. وفي حين بدأ القطار يصعد الإنديز تغير طبع

سكان الساحل، فمع كل منعطف من منعطفات سكة الحديد ازداد الجو برودة وعتمة حتى بات الشمس شاحباً[31]. وأخذ الجميع يرتعشون وأصيبوا بالصداع. وعلى ارتفاع ثمانية آلاف قدم وصلوا إلى ميسيا، وبدأ القطار يزيد من سرعته صوب العاصمة فوق سهل بوغوتا الذي يبلغ طوله ثلاثمئة ميل، وعرضه خمسين ميلاً. كان سهلاً مكفهراً، يميل لونه إلى الأخضر الداكن، ويمتد تحت أمطار تهطل على مدار السنة، لكنه يتحول إلى اللون الأخضر الزمردي البراق عندما تشرق عليه شمس الإنديز من سمائها القصية. وكان السهل مزداناً بقرى هادئة صغيرة تتألف من أكواخ رمادية مشيدة باللبن وذات سقوف معقودة صنعت من شجر الصفصاف والبوكالبتوس. وكانت الأزهار تزين حتى أكثر الأكواخ تواضعاً.

وصل القطار العاصمة عند الساعة الرابعة عصراً. وغالباً ما كان غارسيا ماركيز يقول إن تلك اللحظة كانت أسوأ لحظة في حياته. لقد كان ينتمي إلى عالم الشمس والبحر والحيوية المتاربة والعادات الاجتماعية المرسلة على سجيتها والغياب النسبي للثياب والتعصب. وكان كل فرد في السهل يلتف بما يشبه العباءة الكولومبية. بدت له بوغوتا المكفهرة تحت المطر، المتكئة على جبال الإنديز على ارتفاع ثمانية آلاف وستمئة وسبعين قدماً أشد برودة من السهل نفسه. وكانت الشوارع تحتشد برجال يرتدون بدلات وصديريات ومعاطف داكنة اللون مثل الإنكليز في حي المال في لندن. ولا تُشاهد أي نساء في أي مكان. تنهد الصبي تنهيدة من القلب واعتمر بتردد قبعة من الجوخ الناعم الأسود قيل له إن كل فرد في بوغوتا يعتمرها، وترجل من العربة ووضع صندوقه لمعدي الثقيل على الرصيف[32].

لم يكن هناك من ينتظره، وأدرك أنه يتنفس بصعوبة، إذ كانت تنبعث رائحة السخام غير المألوفة من كل مكان حوله. وعندما بدأت المحطة والشارع يخلوان من المارة، بكى غابيتو من أجل العالم الذي تركه وراءه. كان وحيداً: بلا أسرة، بلا أشعة شمس، لا يدري ما يفعل. أخيراً وصل أحد أقربائه البعيدين، ومضى به في سيارة أجرة إلى بيت قريب من مركز المدينة. إذا كان جميع الناس في الشارع يرتدون الثياب السوداء، فإنهم يرتدون داخل بيوتهم العباءات وأثواب النوم. عندما أوى غابيتو ماركيز إلى سريره في تلك الليلة الأولى، وثب عنه، وصرخ قائلاً إن



شخصاً من قد بلل فرشه، لكنهم قالوا له: "لا. هكذا هي بوغوتا ولا بد من أن تعتاد عليها". لكنه ظل يقظاً طوال الليل يبكي من أجل العالم الذي فقده.

بعد مرور أربعة أيام، وفي وقت مبكر من الصباح، كان يقف في صف المنتظرين خارج مبنى وزارة التربية في شارع خيمينث دي كسادا، ذلك الشارع العظيم الذي سُمي باسم فاتح كولومبيا الإسباني ومؤسس العاصمة بوغوتا[33] وبدا الصف طويلاً لا متناهياً. بداية الطابق الثالث من مبنى الوزارة يمتد على طول صفين من البيوت والمحال التجارية في شارع خيمينيث. كان غارسيا ماركيز في نهاية الصف تقريباً، وازداد يأسه بمرور ساعات الصباح. وبعد منتصف النهار بقليل شعر بتربيتة خفيفة على كتفه. عندما كان على ظهر السفينة البحارية القادمة من بلدة ماغانغي تعرف إلى محامي الساحل واسمه أدولفو غوميث تامارا الذي كان يقرأ الكتب بنهم طوال الرحلة، ومن بين تلك الكتب **البديل** لدوستويفسكي و**المولن الكبير** لفورنييه. كان غوميث تامارا قد أُعجب بغناء غارسيا ماركيز فطلب منه أن يكتب له كلمات إحدى أغاني البوليرو كي يغنيها لحبيبته في بوغوتا. وأهداه نسخة من كتاب **البديل** لقاء ذلك. وهنا أعلن الشاب، وهو يرتعش، عن هدفه اليائس قائلاً: "أريد الحصول على منحة دراسية". وتبين على نحو لا يصدق أن ذلك المحامي الأنيق لم يكن سوى المدير الوطني للمنح الدراسية، وقاد المتقدم الذاهل إلى مقدمة الصف ومنه إلى مكتب كبير، حيث سجلوا طلب تقديم غارسيا ماركيز، وشارك في الامتحان الذي جرى في مدرسة سان بارتولومي الكائنة في الجزء القديم من بوغوتا، وهي المدرسة التي درس فيها الكولومبيون من أبناء الطبقة الراقية منذ أيام الاستعمار. نجح غارسيا ماركيز في الامتحان، وحصل على مقعد في المدرسة الجديدة وهي المدرسة الوطنية للبنين في بلدة ثيباكيرا القريبة الواقعة على بعد ثلاثين ميلاً، غير أن غارسيا ماركيز كان يفضل الدراسة في مدرسة سان بارتولومي في بوغوتا، لكنه كافح لإرضاء حبيبه أمه.

لم يكن يملك ما يكفي من المال للعودة إلى البيت والاحتفال برفقة عائلته المتشوقة والمتهيجة. ولم يكن قد سمع من قبل باسم بلدة ثيباكيرا، ولكنه بالرغم من ذلك سافر إليها بالقطار مباشرة، ووصلها في الثامن من آذار عام 1943، أي بعد

ذكـــرى ميلاده السادسة عشرة بيومين. كانت ثيباكيرا بلدة صغيرة تعود إلى حقبة الاســـتعمار، وهـــي نموذج لبلدات جبال الإنديز، وطقسها شبيه بطقس بوغوتا. وكانـــت المركز التجاري لإمبراطورية هنود الشيبكا وفيه مناجم الملح التي لا تزال حتى اليوم تجذب السيّاح إليها. وكانت الساحة الرئيسية فيها محاطة ببيوت ضخمة تعـــود إلى حقبة الاستعمار وفيها شرفات مطلية باللون الأزرق وسطوح مشبكة من القـــرميد الأحمـــر المعلقة وكاتدرائية ضخمة باهتة اللون، بيرجين، تبدو معها غير مناسبة للبلدة التي لم تكن في تلك الأيام أكثر من قرية صغيرة. كانت ثيباكيرا تحتشد بالورش والمداخن السوداء التي تعامل الملح بالتحجير، بعدها يباع للحكومة. وكانت ذرات الملـــح تشاهد في كل مكان متطايرة فوق البلدة كأنها رماد. وشعر الصبـــي القادم من الساحل أن الطقس والبيئة يتصفان بالبرودة والكآبة والوحشة.

كانـــت المدرســـة حديثـــة التأسيس، لكنها تقع في مبنى قديم يعود إلى أيام الاستعمار. وكانت في ما مضى من الزمان مدرسة سان لويس غونثاغا، وهي مبنى تتألف من طابقين يرجع تاريخه إلى القرن السابع عشر وفيه فناء داخلي تحفّه أقواس مـــن العهـــد الاســـتعماري[34]. كان المبنى يضم مكتب المدير، ومساكن خاصة، ومكـــتب الســـكرتارية، ومكتبـــة ممتازة، وستة صفوف دراسية، ومختبراً، ومخزناً، ومطـــبخاً، وحجـــرة طعام، ودورات مياه، وحمامات، وقاعة نوم كبيرة في الطابق الأول تتسع لثمانين أو نحو ذلك من الطلاب الذين كانوا ينامون في المدرسة. ويقول غارسيا ماركيز بعد سنين، ملاحظاً عند حصوله على منحه دراسية في ثيباكيرا، إن الأمر يشبه "ربح نمر في يانصيب". لقد كانت المدرسة عقاباً وكانت "تلك البلدة المتجمدة ظلماً"[35].

بالرغم من أن غارسيا ماركيز لم ترقه البلدة آنذاك، إلا أنه استفاد من ظرفين نـــادرين في تاريخ كولومبيا. فالمحافظون تخلوا عن التعليم الثانوي الحكومي في العام 1927 وســـلموه إلى القطـــاع الخـــاص، وبخاصة إلى الكنيسة، لكن عندما انتخب ألفونسو لوبيث بومارخو رئيساً للبلاد في العام 1934 أعلن عن *ثورة زاحفة*. وللمرة الأولى والوحيدة في مجمل تاريخ الأمة، انطلقت الحكومة بهدي من الثورة المكسيكية من جهة وإصلاحات الاشتراكيين غير المستقرة في جمهورية إسبانيا من جهة أخرى

من أجل توحيد البلاد ودمقرطتها وإنتاج نموذج جديد للمواطن. وكانت إحدى الأدوات الأساسية في عملية التحول هي أن يكون هناك نظام تعليمي وطني حقاً، وهكذا أسست أول مدرسة وطنية وهي مدرسة ثيباكيرا الوطنية. ولم يكن آنذاك سوى أربعين ألف طالب ثانوي في عموم كولومبيا، ولم يتخرج في ذلك العام سوى ستمئة طالب منهم (لم يكن من بينهم سوى تسع عشرة فتاة). في الحقيقة، إن معظم الكولومبيين كانوا لا يملكون إلاّ فكرة بسيطة عن التعقيد الإقليمي الذي يكتنف بلادهم، لكن الأولاد في ثيباكيرا كانوا قد وفدوا من كل حدب وصوب[36].

كان المعلمون في ثيباكيرا بارزين، كان العديد منهم قد رفضتهم مدارس أخرى بسبب توجهاتهم التقدمية. وكانوا يميلون إلى أن يكونوا مثاليين محبّين من الليبراليين الراديكاليين أو حتى الماركسيين، وأرسلوا إلى ثيباكيرا لمنعهم من تلويث عقول صبيان الطبقة العليا في بوغوتا. وكانوا جميعاً متخصصين في الموضوعات التي يدرسونها، واجتاز معظمهم دار المعلمين العليا التي كان يديرها خوسيه فرنسيسكو سوكاراس، وهو عالم نفس ساحلي وقريب أحد رفاق العقيد ماركيز منذ أيام الحرب القديمة وقريب ترانكيليا زوجة العقيد[37]. كان سوكاراس يعتقد بضرورة أن يطلع الكولومبيون الشباب على كل الأفكار بما فيها التيارات الاشتراكية. وكان العديد من المعلمين قد تخرجوا حديثاً من الدار، فأقاموا علاقات غير رسمية وبلا تكلف مع الطلاب

كانت الأيام المدرسية شاقة بمتطلباتها. فكان الجرس يرن عند الساعة السادسة صباحاً كي يستيقظ التلاميذ، وعند الساعة السادسة والنصف يكون غارسيا ماركيز قد أكمل استحمامه بماء بارد ولبس ثيابه ولمّع حذاءه ونظف أظافره ورتب سريره. ولم يكن الطلاب يرتدون زياً موحداً، بل كان معظمهم يرتدون سترات فضفاضة زرقاء اللون وبناطيل رمادية وينتعلون أحذية سوداء اللون. واضطر غارسيا ماركيز إلى أن يبذل قصارى جهده وهو يعيش على ما يرسله إليه أبوه، وانتابه الإحساس بالحرج في السنوات التالية بسبب تمزّق حافات سترته ذات الكمين الطويلين التي بالرغم من ذلك ساعدته على الأقل على تدفئة نفسه في مدرسة تفتقر إلى وسائل التدفئة. وعند الساعة التاسعة ليلاً، وبعد أن يكون الأولاد قد تركوا وراءهم يوماً وفروضاً مدرسية، يتجهون صوب قاعات النوم حيث بدأ بوصول

غارسيا ماركيز تقليد مدرسي لا يُنسى. ففي قاعة النوم، ثمة مقصورة صغيرة يجلس فيها المعلمون وهم يغالبون النعاس، وقبل أن تُطفأ الأنوار يبدأ أحد المعلمين بالقراءة بصوت عالٍ أمام الأولاد حتى يستسلموا للنوم. وكانت القراءة في كتاب **الرجل ذو القناع الحديدي** الكلاسيكي المشهور عادة، وفي كتب جادة أيضاً مثل **الجبل السحري**[38]. وبحسب غارسيا ماركيز، كان أول المؤلفين هو مارك توين. وكانت ذكرياته عنه ذكريات ملائمة لرجل قُدِّر له أن يكون - من بين صفات أخرى - مارك توين كولومبيا نفسها: فهو رمز البلاد، وهو الذي حدّد لها حسًّا وطنياً بالمكاهة وهو موثق العلاقة بين الأقاليم والعاصمة. كانت قاعة النوم تضم أسرّةً معدنية مزودة بألواح. وكانت تلك الألواح مادة يسرقها الأولاد أحدهم من الآخر. واشتهر غارسيا ماركيز بالكوابيس المزعجة التي تراوده في منتصف الليل فتدفعه إلى أن يوقظ بصرخاته كل النائمين في القاعة. لقد ورث هذا الميل من أمه لويسا. "ولم تحدث أسوأ كوابيسه هيئة رؤى مفزعة بل بفترات زمنية بهيجة وأشخاص اعتياديين أو أماكن تكشف له عن معلومات رهيبة بلمحة بصر بريئة"[39]. المؤكد أن قراءته لرواية **البديل** لدوستويفسكي لم تكن مفيدة له.

كانت الدراسة أيام السبت تستمر حتى الظهيرة وبعدها يتمتع الأولاد باستراحة حرة حتى الساعة السادسة مساءً يذهبون خلال هذه الفترة إلى البلدة أو يشاهدون شريطاً سينمائياً في دار السينما أو يطلبون رقصات - هذا إن كانوا محظوظين - في بيوت طالبات المنطقة. وكان في وسعهم أن يمارسوا لعبة كرة القدم أيام السبت بالرغم من أن الساحليين كانوا يفضلون لعبة البيسبول. أما يوم الأحد فكان يوم إجازة تماماً حتى الساعة السادسة مساءً. وبالرغم من أن المدرسة كانت تعلم الأولاد الفروض الدينية على يد أحد القساوسة، إلا أنه لم تكن هناك صلاة يومية ولم يكن الحضور إلى الكنيسة إلزامياً حتى أيام الأحد بالرغم من أن غارسيا ماركيز كان يتوجه إلى الكنيسة، وربما كان سبب حضوره إلى الكنيسة كي لا يضطر إلى أن يكذب على أمه في الرسائل التي يرسلها إلى أهله. كانت هذه الحرية أمراً استثنائياً غريباً في كولومبيا في عقد الأربعينيات من القرن العشرين. وكما يتذكر غارسيا ماركيز في وقت لاحق، فإن هناك الشيء الكثير الذي يمكن قوله عن

الحياة في ثيباكيرا عدا وجبات الطعام اليومية الثلاث والحرية، التي هي نمط من أنماط *الاستقلال الذاتي وإن تحت المراقبة*، والتي تفوق حدود الحرية في سنه.

وسيبطل غارسيا ماركيز يشعر بالامتنان للمدرسة لما قدمته إليه من معلومات عن تاريخ كولومبيا وأميركا اللاتينية، إلاّ أن الأدب كان حتماً موضوعه الأثير، فقد انكبّ على دراسة كل شيء منذ الإغريق والرومان وحتى النصوص الكولومبية الحديثة. لكن إملاءه كان غريباً جداً منذ تلك الأيام وحتى اليوم، وإن لم يكن ضعفاً ضعف مهاراته في الرياضيات. وعزّى نفسه بفكرة مفادها أن سيمون بوليفر أُشيع عنه أنه كان كثير الأخطاء في الإملاء. ويقول غارسيا ماركيز بعد ذلك إن أمه كانت أفضل معلم له في الإملاء، إذ كانت تعيد إليه الرسائل التي كان يرسلها إليها وقد أجرت عليها تصحيحات إملائية.

في عطلات نهاية الأسبوع كان غارسيا ماركيز يمارس بعض الألعاب. فكان يلعب كرة القدم مع أصدقائه إلى حدٍّ ما في فناء المدرسة، أو يذهب إلى دار السينما، أو يطوف في الشوارع أو المروج المرتفعة في ثيباكيرا وتحت أشجار اليوكاليبتوس. وفي بعض الأحيان كان يسافر في يوم من أيام الآحاد بالقطار إلى بوغوتا التي تبعد ثلاثين ميلاً لزيارة أقربائه الساحليين. وفي إحدى تلك الزيارات عرّفه أحد الأصدقاء في الشارع إلى قريب بعيد هو غونثالو غونثاليث وكان يشتغل في صحيفة الإسبكتادور. وقد ترك لنا غونثاليث المولود أيضاً في مدينة اراكاتاكا صورة نادرة عن الشاب غارسيا ماركيز آنذاك: "لا بد من أنه كان في سن السابعة عشرة ولم يكن وزنه يزيد على خمسين كيلوغراماً. لم يقترب مني. ولم يقل شيئاً قبل أن أبادر بالكلام. وعلى الفور أدركت أن هذا الغلام منهجي ومنضبط وكثير التأمل. ولم ينتقل من المكان الذي كان فيه، وكان يسير بحذاء قديم، ولكن نظيف، على الرصيف تارة وعلى امتداد إسفلت الشارع السابع تارة أخرى. لعله كان شخصاً خجولاً لم يُرد أن يُظهر جرحه. كان حذراً، تلوح عليه مسحة حزن، مستوحداً ومغموراً. ولكن ما إن يتغلب على تحفظه المبدئي حتى يبدأ بالتواصل وتظهر عليه انفعالات منضبطة حتى إنني سمعته يقول في ما بعد عن ذلك المظهر إنه "مظهر الرجل اللطيف". وبعد دقيقة أو دقيقتين يبدأ بالحديث عن الكتب..."[40]



القراءة هي النشاط الرئيسي لهذا الشاب الغامض في ثيباكيرا. في بارانكيا قرأ كل رواية رخيصة حصل عليها من روايات جول فيرن وأميليو سالغاري وما يكفي من الشعر الرديء وكلاسيكيات العصر الذهبي الإسباني. وكان يحفظ عن ظهر قلب تلك القصائد والآن، شرع المراهق المستوحد بقراءة كل كتاب يستطيع وضع يده عليه، فعكف على قراءة مكتبة الأدب، ثم تحول عنها إلى كتب التاريخ وعلم النفس والماركسية وخاصة مؤلفات إنغلز - وحتى مؤلفات فرويد وتوقعات نوستر داموس. وفي الوقت عينه، شعر بالملل من متطلبات تعليمه الرسمي الصارمة، وأمضى الوقت وهو يحلم أحلام يقظة حتى كاد الأمر أن يصل به إلى إضاعة منحته الدراسية. لكنه بعد أسبوع واحد أو أسبوعين من الدراسة أثار دهشة زملائه في الصف ومعلميه عندما أصبح الأول في صفّه.

في أواخر العام 1943 عاد غابيتو إلى سوكري مرة أخرى. كان عليه أن يعود أدراجه إلى هذه البلدة النهرية النائية من المدرسة في بارانكيا وثيباكيرا، ومن الجامعة في بوغوتا، ومن أعماله في كارتاخينا وبارانكيا إلى أن انتقلت الأسرة إلى كارتاخينا في العام 1951. في هذه البلدة، وفي غيرها من البلدات القريبة، يلتقي بنماذج لعدد من أشهر شخصياته بمن فيها إيرنديرا البريئة النحية التي سيطلق عليها اسم ماريا أليخاندرينا ثيرفانتس في **قصّة موت معلن**. في حين كان بعيداً في ثيباكيرا في تلك السنة الأولى، كان الطفل التاسع هيرناندو (يانتشي) قد ولد في أواخر شهر آذار. وفي حين كانت الزوجة حاملاً، كان انهماك غابرييل إيليخيو في المغازلة قد أوقعه في شر أعماله مرة أخرى إذ ولد له طفل آخر غير شرعي. في هذه المرة ثارت ثائرة لويسا وابنتها الكبرى مارغوت، وخيِّل لغابرييل إليخيو أنه ربما تجاوز حدوده، لكنه، كعادته، أفلح في استمالتهما إلى رأيه[41].

مرّ غارسيا ماركيز في أثناء تلك العطلة بتجربة عاطفية متقدة أخرى، وكانت هذه المرة مع شابة سوداء شهوانية اسمها نيغروماتا (وهو الاسم الذي سيمنحه لامرأة سوداء فاسقة تظهر في الفصل ما قبل الأخير من رواية **مئة عام من العزلة**) يعمل زوجها شرطياً. ويروي لويس إنريكي جزءاً من الحكاية فيقول: "في منتصف إحدى الليالي الفي غابيتو شرطياً على جسر الفارين ببلدة سوكري، وكان



الشرطي في طريقه إلى بيته فيما كان غابيتو عائداً من بيت زوجة الشرطي. حيَّ أحدهما الآخر. واستفسر الشرطي عن أحوال أسرة غابيتو في حين استفسر غابيتو عن أحوال زوجة الشرطي. فإذا كانت تلك القصة ترويها أمي، فيمكنك أن تتخيل القصة التي تعرفها ولا تروي شيئاً عنها. كما أنها لا تروي تلك القصة كاملة أيضاً لأنها انتهت عندما طلب الشرطي من غابيتو أن يشعل له سيجارة وعندما اقترب بكمهر وجهه وقال: *اللعنة عليك يا غابيتو. لا بد من أنك كنت في المعبى لأن رائحة عاهرة سعت منك لا طاقة حتى لتذكر اماعر لها"*(42). وبعد مرور أسابيع – وبحسب رواية غارسيا ماركيز – ضبطه الشرطي متلبساً في الفراش مع زوجته (وكان قد استسلم للنوم لسوء الحظ) وهدده أن يلعب معه الروليت الروسية وأنه سيكون اللاعب الوحيد. لكن رجل القانون رقَّ له، لا لأن لديه نفس الرغبات السياسية التي لدى والد غارسيا ماركيز وحسب، بل لأنه تذكر أيضاً، وبكل العرفان، مسبة مرت عندما عالجه غابرييل إليخيو وشفاه من نوبة مرض اسيلان التي لم يستطع أي طبيب آخر أن يشفيه منها(43).

كبر غابيتو وبدا مناسباً لسنه. ويتذكره رفاقه في ثيباكيرا أنه كان نحيفاً، مهتاجاً، يرتجف ويشكو دوماً من شدة برودة الجو. وتحول شعره الذي كان يمشطه ويفرقه من منتصف رأسه إلى أسلاك حديدية لم يتمكن من السيطرة عليها بعدئذ(44). ولم يعد يحاول الظهور بمظهر الكاتشاكو؛ رجل بثياب أنيقة وشعر مدهون ومرتب في كل الأوقات، وبدأ يظهر حميمه نفسه وماهيتها. فظهر شارب ساخبي فوق شفته المراهقة وتركه ينمو كيفما شاء. واستبدل المدير السابق بشاعر شاب يدعى كارلوس مارتن. لم يتجاوز سن الثلاثين، بدا وسيماً مثل نجوم حفلات ما بعد الظهيرة السينمائية والمسرحية. وكان عضواً في حركة *رمل وسماء* الشعرية العصرية والتي كانت ذائعة الصيت في بوغوتا. لم يكن يُنظر إلى هؤلاء الشعراء على أنهم ثوريون في معظم جمهوريات أمريكا اللاتينية في ذلك الوقت. وكانوا قد استمدوا اسم الحركة من ديوان شعر الشاعر الإسباني خوان رامون خيمينيث. لكن كولومبيا كانت دوماً موطن الشعر أكثر مما هي موطن النثر؛ باستثناء الخطب التي كانت سمة من سمات البلاد الوطنية وكانت أيضاً بلد التيارات المحافظة في الأدب.

كـان موروثها الشعري ثرياً، بل كان الموروث الأقوى في قارة اشتهرت بشعرائها العظام لكنه كان موروثاً يعمل في نطاق ضيق وكانت الواقعية الاجتماعية والتاريخية للبلاد غائبة تقريباً عن أدب البلاد في تلك الأيام. كان شعراء كولومبيا الجدد مثل إدوارد دو كارانـثا، وآرتور كامات راميرث، وجورجه روخاس، وكارلوس مارتن، يعكسون أعمال خيمينيث وجيل الشعراء الإسبان المتأخرين في العام 1927 وشعراء أميركا اللاتينية لصلبيين مثل بابلو نيرودا الذي زار بوغوتا واتصل بالحركة في أيلول من العام 1943.

في الأشـهر الستة التاليـة، حلّ الشاعر مارتن محل المعلم المدمث كارلوس كالديـرون هيرمـيدا بصفته معلم غارسيا ماركيز في مادة الأدب الإسباني. كان غارسـيا ماركيـز قد شرع بكتابة الشعر بالاسم المستعار خافيير غارثيس، وكان كارلـوس مارتن قد ركّز، وبخاصة في مؤلفات روبن داريو شاعر نيكاراغوا الكبير الـذي أحـدث وحـده تقريباً تغييرات ثورية في اللغة الشعرية في كل من إسبانيا وأميركا اللاتينية بين عام 1888، الذي صدر له فيه كتاب أزرق، وعام 1916 الذي تـوفي فيه. وقد بات داريو الذي كانت طفولته تشبه طفولة غارسيا ماركيز شبهاً خفـياً واحداً من النجوم الأساسيين في أوليمب الشعر الكولومبـي[45]. وبدأ ينظم قـصائده علـى غرار الآثار الفنية لكبار الإسبان مثل غارثيلاثو دي لابيغا وكيفيدو ولـوركا والأميركيين اللاتينيين مثل داريو ونيرودا. وينظم سونيتات بناء على طلب فتـيان يـقدمونها إلى صـديقاتهم. وفي يـوم ما، قرأت إحداهن واحدة من تلك السونيتات أمامه وهي لا تدري أن غارسيا ماركيز هو نفسه الذي كتبها[46]. وينظم أيـضاً قصائد حب أهمتها علاقاته بفتيات المنطقة. وقد ظل غارسيا ماركيز يشعر بالحرج بعد أن تقدم به العمر لتلك المحاولات البدائية حتى كاد الأمر أن يصل به إلى حدّ إنكار كتابته العديد منها.

نظّـم الطلاب السـاحليون حفلات الرقص في البلدة كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. فالتقى عبر هذا الطريق وعبر غيره بعدد من الشابات وكانت إحداهن وهي بيرـسيس مارتينيـث شريكته في قصة حب رومانسية قصيرة، لكنها عفيفة على ما يبدو، وذلك في الأيام الأخيرة من إقامته في ثيباكيرا.



كانت قد ولدت في الشهر نفسه الذي ولد فيه غارسيا ماركيز. تتذكر في العام، 2002 وهي أرملة ولها ستة أطفال وتعيش في الولايات المتحدة، أن غارسيا ماركيز أُغرم بها من النظرة الأولى وأن الحماسة القوية التي جمعت بينهما تمثّلت في أغاني البوليرو الشائعة يومئذ، فكانا أحدهما يغني للآخر مقاطع منها في أثناء قصة حبهما الرومانسية"[47]. ومن الفتيات اللواتي تعرّف عليهن سيسيليا غونساليث بيثارو "التي لم تكن حبيبة أحد، وإنما عروسة لكل مدمني الشعر، وكانت ذكية، بل شديدة الذكاء، ذات شخصية فاتنة وروح متحررة، وتنتمي إلى أسرة قديمة موالية لحزب المحافظين فضلاً عن ذاكرة خارقة في حفظ الشعر"[48]. كانت سيسيليا تُدعى *ذات الذراع الوحيدة الصغيرة* لأنها كانت فتاة شقراء جميلة مفعمة بالحيوية والنشاط، يتبادل غابيتو وإياها الحديث عن الشعر باستمرار. وظن معظم الفتيان أنها صديقته.

ثمة مغامرات أخرى كالهروب ليلاً إلى المسرح والتسلل تحت جنح الظلام للقاءات غير مشروعة، ولم يبدُ بوّاب المدرسة قادراً على أن يضبط أياً من الفارين سراً، فاستنتج الفتيان أنه متواطئ معهم ضمناً. ثم أقام غارسيا ماركيز علاقة مع امرأة مسنة متزوجة بطبيب، وكان في أثناء غياب زوجها يتسلل ليلاً إلى مخدعها في نهاية متاهة من الحجرات والممرات في أحد بيوت ثيباكيرا التي ترقى إلى عهد الاستعمار. ويدوّن غارسيا ماركيز هذه التجربة التي تستحق أن تكون رواية من تأليف بوكاشيو، في مشهد لا ينسى في مطلع رواية **مئة عام من العزلة** حيث يمارس خوسيه آركاديو الشاب تجربته العاطفية للمرة الأولى بعد أن يتحسس طريقه في الظلمة في بيت يعج بأجساد غلبها النوم على أراجيح شبكية[49].

كان كارلوس مارتن يعرف جميع الشعراء الكبار من أبناء جيله. وبعد مرور بضعة أشهر على وصوله دعا اثنين من أكثر أولئك الشعراء تأثيراً، وهما إدواردو كارانثا وخورخه روخاس لإلقاء محاضرة في ثيباكيرا، وتشرّف غارسيا ماركيز وأحد أصدقائه بإجراء مقابلة معهما في الصالة الكبرى في ذلك البيت العائد إلى الحقبة الاستعمارية والذي استأجره مارتن في الميدان العام في البلدة. كانت تلك المقابلة هي أول اتصال يجريه مع الأدب الحي بأعلى مستوياته. وخامره شعور بالبهجة والحرج

عندما عرّفه مارتن إلى الزائرين المشهورين على أنه شاعر عظيم[50]. لكن لسوء الحظ أصبحت الجريدة الأدبية التي أسسها الفتيان ضحية غير محتملة للتصورات السياسية الوطنية وكذلك تجربة غارسيا ماركيز الأولى في العنف الذي أخذ يهدد كولومبيا الجديدة والذي كان الرئيس لوبيث بومارينو يحاول نشره. وفي العاشر من شهر تموز عام 1944 أختطف لوبيث بومارينو، وكانت قد مضت سنتان على فترة رئاسته الثانية، في بلدة باستو في محاولة انقلابية دعمها السياسي المحافظ المتطرف لوريانو غوميث الذي اشتهر في أوساط الليبراليين باسم *المسخ*. واضطر لوبيث بومارينو إلى الاستقالة تحت ضغط متزايد في الحادي والثلاثين من شهر تموز عام 1945 وحلّ محله ليبرالي آخر هو ألبيرتو ييراس كامارغو الذي أنهى السنة الأخيرة من الحكم في جو يسوده توتر متزايد. وأرسل كارلوس مارتن بصفته مدير المدرسة برقية تأييد إلى القصر الحكومي بعد مرور بضعة أيام على المحاولة الانقلابية. بعد ذلك بمدة قصيرة، وصل إلى المدرسة عمدة ثيباكيرا المحافظ برفقة كتيبة من رجال الشرطة، وصادروا نسخة العدد الأول كلها من الجريدة الأدبية التي طُبعت خصيصاً في ورشة طباعة في بوغوتا. وبعد مرور بضعة أيام اتصل وزير التربية هاتفياً بالمدير الجديد، واستدعاه إلى مكتبه، وطلب منه الاستقالة.

عاد غارسيا ماركيز إلى صفوف السيور كالديرون هيرميدا، واستأنف قراءاته. وأشار إلى أنه وجد مؤلفات فرويد تشبه مؤلفات جول فيرن من ناحية بأملائها وخيالاتها[51]، فألهمته في تقديم مقالة بعنوان الذهان المفرط كتبها، وفيا للمفارقة، وهو رهن المدرسة[52]. وكانت عن فتاة، تحولت إلى فراشة، وطارت بعيداً ومرت بسلسلة من المغامرات العجيبة. عندما سخر زملاء غارسيا ماركيز في الصف من مثل هذه التبجحات، أسرع المعلم لمساندته وتشجيعه وقدم إليه نصيحة عملية بشأن تنظيم أدواته النثرية والبلاغية التي يمكن له أن يلجأ إليها. طاف القصة في جميع أرجاء المدرسة حتى وصلت إلى سكرتير المدرسة الذي قال إن القصة ذكرته بقصة كافكا المسخ.

كانت التفاصيل مذهلة لأن غارسيا ماركيز ظل يردد أنه سمع عن كافكا أول مرة في بوغوتا عام 1947، وأن تأثره به دفعه مباشرة لنشر أول مجموعة قصصية له[53]. لكن بالرغم من ذلك، يبدو أنه ربما قرأ أعمال كافكا في المدرسة. ولما يثير



الانتباه أن رواية البديل التي قدّمها إليه غوميث تامارا لا تعدّ واحدة من أغرب مؤلفات دوستويفسكي وحسب. كما أشار إلى ذلك غوميث نفسه في ذلك الوقت، بل تُعدّ أيضاً واحدة من أكثر مؤلفات الروائي غير المشهورة أهمية. على كل حال، كان أحد قرّاء الرواية هو فرانز كافكا. ولا بد من أن الفكرة المتمثلة بأنه لدينا أكثر من شخصية واحدة وأكثر من هوية واحدة، هي فكرة مريحة من مختلف أوجه العلاج النفساني لشاب مثل غارسيا ماركيز الذي كان مضطرباً أكثر مما كان يبدو عليه، ومرّ بمشكلات عاطفية جد خطيرة في مدرسته السابقة، وها هو الآن لا يواجه تحدياً أكبر وحسب لثقته وإحساسه بالذات على وجه العموم، بل حاجته إلى الاستجابة لأعراف بوغوتا الثقافية في ما يخص السلطة والذوق والمدنية. ورغم اعتبار كالديرون في ما بعد أنه أخيَر تلميذه النجيب، الذي ظن معظم المراقبين في ذلك الوقت أنه فنان تصويري أكثر مما هو كاتب، أن في إمكانه أن يغدو "أفضل روائي في كولومبيا"[54]. مما لا ريب فيه أن مثل ذلك الدعم المعنوي ما كان ليقدر بثمن.

بالرغم من نشاط غارسيا ماركيز خارج الصف المدرسي وهنماته المتقطع بالتزاماته المدرسية، فإن امتيازه في المدرسة استمر في النمو. ففي اليوم الأخير من العام 1944 وفي نهاية السنة الثانية من دراسته، نُشرت في صحيفة اليتمبو، وهي أهم صحيفة في كولومبيا، إحدى قصائده في ملحقها الأدبي بالاسم المستعار خافيير غارثيس. وكان ذلك مصدر حرج شديد لمؤلفها على مدى ستين سنة. لكنها كانت حينها اعترافاً مدهشاً بالفتى ذي السبعة عشر عاماً والذي لا تزال أمامه سنتان قبل أن ينهي دراسته في المدرسة الثانوية[55]. كانت قصيدة أغنية مهداة لصديقة اسمها لوليتا بوراس ماتت ميتة مأساوية قبل مدة غير طويلة، وكان مطلع القصيدة بيتاً للشاعر إدواردو كارانثا زعيم جماعة *حجر وسماء*، وكانت تبدأ على هذا النحو:

أغنية

"السماء ماطرة في هذه القصيدة"

إ. ك.

* * *



السماء ماطرة. العصر تصل سحابة

مطر.

العصر مشبع

بحزنك

أحياناً، تأتي الريح

بأغنيتهم، وأحياناً..

أشعر بروحي ملتصقة

بصوتك الغائب.

* * *

مطر

وأنا أفكر فيك وأحلم

لا أحد يأتي عصر اليوم

إلى أحزاني،

المغلقة بقوة.

لا أحد. غيابك وحده

هو الذي يعذبني ساعة فساعة

وغداً، يأتي حضورك

بمجيء الأزهار

* * *

أفكر - والمطر ينهمر -

في نظرتك الرقيقة.

فتاة مثل فاكهة طازجة،

بهيجة كحفل،

اليوم يبزغ اسمك

هنا في قصيدتي[56].

يحكم غارسيا ماركيز على أشعاره التي نظمها أيام مدرسته قائلاً: "كانت تمارين في الأسلوب وحسب، تفتقر إلى الإلهام أو الطموح، ولم أعوّل على قيمتها الشعرية لأنها لم تصدر عن أعماق نفسي"[57]. في الحقيقة، إن أول قراءة للقصيدة



ناهيك عن موضوعها – تشير بلا أدنى ريب إلى أن شحنتها الوجدانية قوية إلى حدٍّ ما. أما الجانب التقني فهو اشتقاقي – وهو أثر من آثار نيرودا في عشرينيات القرن الماضي وليس سيئاً – لكنه جانب ثانوي. يبدو الحقيقة أن غارسيا ماركيز يشعر بالحرج، في أكثر جمهوريات أميركا اللاتينية تضماً للشعر، لا بسبب عيوبها اللغة غير المفهومة في بداياته الشعرية المبكرة وحسب، بل بسبب العواطف التي لم يعبر عنها ولكنه شعر بها عندما كان مراهقاً. لا بد له من أن يفسر لنا تموّقه الأدبي المتنامي الذي يُعدّ استمراراً لبراعته الفنية في بارانكيا، والسبب الذي جعل غارسيا ماركيز يلقي كلمة التخرج الاحتفالية في السابع عشر من تشرين الثاني عام 1944 التي ودّع فيها الطلاب الذين كانوا يسبقونه بمرحلتين دراسيتين. وكان موضوع الكلمة هو الصداقة، وهي إحدى الأفكار المهمة والمتكررة في حياته المستقبلية.

* * *

في العام 1944 لم تأخذه رحلة العودة إلى البيت إلا إلى ماغانغي. لقد كانت أسرة غارسيا ماركيز سعيدة – كما ظنت – واستقرت في سوكري، غير أن السعادة كانت دائماً تجربة مؤقتة وزائلة لغابرييل إليخيو الذي قرر فجأة أن ينقل أفراد أسرته على مصص إلى ماغانغي، تلك المدينة الواقعة على امتداد النهر، الحارة والممتدة بغير انتظام، والمنبسطة التي تحيط بها المستنقعات، على نتوء صخري يطل على نهر مجدلينا، وهي أهم بلدة نهرية بين مجدلينا وغرب البلاد. ثمة سبب يدفع للاعتقاد أن غابرييل إليخيو كان يهرب من موقع تجاربه وإحراجاته الحسية، لكن هذا الهروب لم يمنعه من اتخاذ موقف تأديبي من أفعال ابنه الثاني لويس إنريكي الذي أُرسل بعيداً إلى مدرسة إصلاحية في ميدلين تمضية ثمانية عشر شهراً فيها.

في ماغانغي تذكرت أخوات غابيتو لقاء ميرثيديس بارتشا التي ستغدو زوجته مستقبلاً. وقد زعم غارسيا ماركيز مراراً أنها كانت في سن التاسعة عندما التقاها، مما يجعل لقاءهما الأول بين تشرين الثاني 1941 وتشرين الثاني 1942– حتى قبل سفره إلى ثيباكيرا – وأنه كان يعلم حتى في ذلك الوقت (وهو في سن الرابعة عشرة) أنه سيتزوج بها[58]، أما ميرثيديس التي تزعم أنها "لا تتذكر شيئاً تقريباً عن الماضي"، فأكدت أنها التقت أول مرة الرجل الذي سيغدو زوجها مستقبلاً عندما

كانت صغيرة جداً»[59]. والآن، وفي مطلع العام 1945 يكتب قصيدة بعنوان **سوناتا الصباح إلى تلميذة مدرسة روحية**. وثمة سبب قوي للزعم أن تلميذة المدرسة المشار إليها لم تكن سوى ميرثيديس بارتشا. وكانت قد أنهت تواً السنة الأخيرة من دراستها في المدرسة الابتدائية. وانتشرت القصيدة في مختلف أنحاء ثيباكيرا وماغانغي وكانت أثراً حماسياً آخر من شعر نيرودا، وكانت النسخة المطولة بعنوان **فتاة** وحسب، وبتوقيع غابرييل غارثيس:

فتاة

تُسلّم علي وهي تمر، وكانت
أنفاسها المبحة مع صوتها
في باكورة ذلك الصباح، تلقي بالغشاوة،
لا على جوانب الضوء الأربعة في حجرتي وحسب، بل على أنفاسي
وروحي.

* * *

هي مبكرة كالصباح،
لا تصدق مثل أي رواية،
وفيما هي تقطع الطريق وسط اللحظات
يبقي الصباح قطرات من دم أبيض نقي.

* * *

إن ارتدت الأزرق فهي ذاهبة إلى المدرسة،
لا أحد يعرف إن كانت تسير أو تطير،
خطواتها وئيدة، أشبه بنسمة.

* * *

في زرقة الصباح لا أحد يقول
مَن مِن الثلاثة هو الصباح،
من هي النسمة، ومن هي الفتاة[60].

* * *

إن كانت السوناتا من أجل ميرثيديس حقاً، فإنها واحدة من الأشياء القليلة جداً التي تفوه بها غارسيا ماركيز علانية عنها من دون أي لمسة فكاهة أو مفارقة.

لا بد من أنه رجع إلى المدرسة تخامره مختلف المشاعر في شباط من العام 1945 فقد بدأ يدخن زهاء أربعين أو خمسين سيجارة يومياً، وهي عادة سيحتفظ بها على مدى العقود الثلاثة التالية[61] وكان يجد في أثناء الدروس سبباً كافياً للجوء إلى دورة المياه وكان ينتظر بلهفة فترة الاستراحة. تصرف إلى حدٍّ ما تصرف متمرد خذله النظام، أو مثل شاعر لا يصبر به أي نظام. وبدأ يشعر بالضجر من جميع الدروس باستثناء درس الأدب، ووجد صعوبة في دراسة موضوعات لا تثير اهتمامه. وطالما عبّر عن دهشته إزاء نجاحه المدرسي وتوقع أن يقيّمه معلّموه استناداً إلى ذكائه المفترض لا إلى منجزاته الحقيقية.

بالرغم من شعوره بالاغتراب، فإن سلوكه وسجله يفيدان أنه اختير واحداً من ثلاثة صبيان يرافقون مدير المدرسة عند سفره إلى المصرف الوطني في بوغوتا لطلب مساعدة مالية من الرئيس ييراس كامارغو الذي حلَّ محل لوبيث بومارينو في فترة الطوارئ، وذلك للقيام بزيارة دراسية إلى الساحل. ولم يوافق ييراس وحسب، بل حضر أيضاً حفل التخرج في نهاية السنة. وبدأ غارسيا ماركيز يتعرف عن كثب إلى هذا السياسي الليبرالي البارع في السنوات التالية، ويقيم معه واحدة من تلك العلاقات المتكافئة تكافؤاً غريباً وهو رجل بوغوتا القوي. مما لا ريب فيه أن سن الثامنة عشرة هي سن نضوج مبكر إذ يلتقي فيها المرء أول ما يلتقي مع رئيس الجمهورية، ويتصل فيها أول ما يتصل بكرسي الحكومة. وفي تلك السنة ألقى غارسيا ماركيز أعظم كلماته نجاحاً، وهي الكلمة المرتجلة الوحيدة. وعندما وضعت الحرب العالمية أوزارها ساد شعور من الحيوية والنشاط في المدرسة، وطُلب منه أن يقول شيئاً ما. فأعلن أن فرانكلين دي. روزفلت تمكن، شأنه شأن البطل الإسباني العظيم السيد، من أن "يحرز الانتصارات حتى بعد وفاته". وأصبحت تلك العبارة موضع حفاوة واحتفال لا في المدرسة وحدها، بل حتى في جميع أرجاء البلاد. فتعززت بذلك شهرة غارسيا ماركيز الخطابية[62].

في أواخر العام 1945 عاد إلى سوكري. وكان والده قد أغلق الصيدلية في ماغانغي، وعاد إلى أساليبه القديمة في التجوال، تاركاً لويسا وهي حامل مرة أخرى (إذا لم تكن حاملاً، فإنها قلما سُمح لها بالخروج من البيت) لترعى شؤون العائلة

الكبيرة في بيت متنقل. ولدى رجوعه، عاد بالأسرة مجدداً إلى سوكري ليسكنوا بيتاً غير ذلك البيت الأولي على بعد مسافة من الميدان، وعند الصيدلة. ووهب نفسه للصب التجانسي. وولد الطفل العاشر ألفريدو (كوكي) في شهر شباط، وتولت مرغوت تربيته تربية فعلية.

سمح غابيتو لنفسه الآن أن تنقاد تماماً وراء طبع أخيه الأصغر سناً، ذي القلب الطيّب الذي لا سبيل إلى تقويمه في الوقت عينه. فالتحق على الفور بفرقة لويس إنريكي الموسيقية، وبدأ يسهر طوال الليل خارج البيت، ويرتاد المواخير المحببة، وينفق الجزء الأعظم من نصيبه من المال الذي تحصل عليه الفرقة في العربدة للمرة الأولى في حياته. وفي أيام الميلاد، وبدلاً من أن يساهم بنصيبه في المال المخصص لاحتفالات هاته السنة، فإنه كان يتوارى عن الأنظار في بلدة ماجاغوال القريبة ليمضي عشرة أيام في ملهى. "يرجع الخطأ كله إلى ماري أليخاندرينا ثيرفانتس، تلك المرأة الاستثنائية التي التقيتها في أول ليلة وعقدت بسببها عقبي في أطول حفلات السمر والأنس وأشدها صخباً وعربدة في حياتي"[63].

بعد حسرات كثيرة وفترات صمت طويلة سألت لويسا ابنها البكر عما يجري، فردّ عليها بالقول: "لم أعد أتحمل أي شيء. هذا هو الذي يجري". "ماذا؟ بسبب ماذا؟". "بسبب كل شيء" أخبرها أنه برم بالحياة، برم بالمدرسة، وبرم بالآمال التي تعلق عليه. لكن لم يكن ذلك هو الرد الذي يمكن لأمه أن تنقله إلى أبيه غابرييل إليخيو، لهذا واصلت الكلام برهة من الزمن، وأخيراً اقترحت أن الحل بالنسبة إلى غابيتو هو أن يدرس الحقوق، شأنه في ذلك شأن كل الشبان الطموحين تقريباً في أميركا اللاتينية في تلك الأيام. وقالت له بدهاء: "على كل حال، إن دراسة الحقوق مفيدة لتعلم الكتابة، وقد ذكر الناس أن بوسعك أن تصبح كاتباً جيداً". وبحسب ما أوضح غابيتو في مذكراته، فإن رده الأول على أمه بخصوص الموضوع كان رداً سلبياً: "إذا كان على المرء أن يصير كاتباً، فلا بد له من أن يكون كاتباً كبيراً، لكن صناعة مثل هؤلاء الكتاب توقفت". إن القارئ يواجه إدراكاً مدهشاً وهو أن الشاب، وإن لم يكن قد قرأ بعد مؤلفات جويس أو فوكنر، إلا أنه لم يكن مهتماً بأن يكون كاتباً، كأولئك الكتاب البائسين الذين قد يمثلون القرن العشرين. لقد

كـــان يعـــي من أعماق قلبه أن يكون دابني أو ثيرباتس! و لم تستسلم لويسا أمام استحبائه، لذلك ألحت في الأيام القبلة المقبلة في عقد مفاوضات ممتازة حتى من دون أن يـنقش الأب والابـن الموضوع وجهاً لوجه: لقد وافق غابرييل إيليخيو، بالـرغم من مأساوية التصرف، على ألاّ يسير الابن في مهنة أبيه في الطب، ووافق غابيتو على ألاّ ينهي دراسته ويحصل على شهادة البكالوريا، وإنما يلتحق بالجامعة الوطنية لدراسة الحقوق. وبهذا تم تفادي تمرد مراهق وأزمة أسرة كارثية[64].

لا بد من أن غارسيا ماركيز، الذي أصبح الآن أشبه بالفاسد الأخلاقي، قد انتابته الدهـشة عندما وجد مع اقتراب الميلاد أن تلميذة المدرسة الروحية القادمة من ماغانغي قد انتقلت إلى سوكري. وكان اسمها الكامل هو ميرثيديس راكيل بارتشا باردو، وهي ابـنة صـيدلي سبق لغابرييل إيليخيو أن تعرف إليه على مدى سنين طويلة مذ كان شاباً يقطع الأنهار والأدغال في حوض مجدليا في مطلع عشرينيات القرن العشرين. وولدت في الـسادس مـن تشرين الثاني عام 1932 وكانت، شأنها شأن غابيتو، الابنة البكر، جميلة على نحو غامض، ذات وجنتين بارزتين وعينين سوداوين منحرفتين، ورقبة طويلة نحيفة وجـسد رشـيق. كانت تقطن في الميدان العام قبالة كايتانو جنتيلي الذي كان بدوره يسكن بجانب البيت الذي سكن فيه آل غارسيا ماركيز قبل انتقالهم إلى ماغانغي.

تحدرت راكيل باردو لوبيث، والدة ميرثيديس، من أسرة صاحبة مزرعة لتربية الماشـية، مثل أبيها تماماً، غير أن أرومة الأب ديميترو بارتشا فيليا كانت من المنطقة الـشرقية الوسـطى بالرغم من أنه ولد في كوروثال، وأنه كان كاثوليكياً، وكان إلياس بارتشا فاخوري والد ديميتريو قد جاء من مدينة الإسكندرية وربما من لبنان. ومـن هـنا جاء جمال ميرثيديس "السري الشبيه بجمال أفعى النيل"[65]. واكتسب إلـياس الجنسية الكولومبية في الثالث والعشرين من شهر أيار عام 1932، أي قبل ولادة ميرثـيديس بستة أشهر، وعاش زهاء مئة عام، وقرأ نجوم الأهالي في حيثيات القهـوة. وقالت لي: "كان جدي مصرياً فحّاً، وكان معتاداً على أن يُرقّصني على ركبتيه، ويغني بي باللغة العربية. وكان يرتدي دائماً بدلة من الكتان الأبيض ويضع ربطـة عـنق سوداء اللون، وساعة ذهبية في معصمه، ويعتمر قبعة من القش مثل موريس شيفالييه. لقد توفي وأنا في سن الرابعة تقريباً"[66].



كانت مرثيديس راكيل، التي سميت باسم أمها وجدتها، أكبر أولاد دميتريو وراكيل الستة. انتقلت أسرتها إلى ماجانغوال بعد ولادتها، لتعود بعد ذلك إلى ماغانغي وفي نهاية المطاف إلى سوكري. كان دميتريو يشتغل في مهن متعددة بما فيها التموينات العامة، لكنه كان، شأنه شأن غابرييل إليخيو غارسيا، متخصصاً في الصيدلة. وكانت مرثيديس قد أنهت سنها الأولى في مدرسة القلب الأقدس لدير الراهبات الفرانسيسكانيات في بلدة مومبكس الواقعة على الجهة الأخرى من النهر القادم من ماغانغي. كانت على بعد شارع واحد من البرج المثمن المشهور لكنيسة سانتا باربارا في الميدان العام لما يعرف بأكثر المدن الكولومبية الصغيرة احتفاظاً بمعالمها التي ترقى إلى حقبة الاستعمار[67].

في بلدة ماغانغي، أخبرتني إحدى صديقات الطفولة قائلة: "لقد كانت مرثيديس موضع اهتمام شديد، ممشوقة القوام، فارعة الطول، ورشيقة بالرغم من أن شقيقتها ماريا روسا أكثر جمالاً منها"[68]. وكانت تساعد في صيدلية الأسرة في تلك الأيام، وكان أولاد غارسيا ماركيز[*] يشاهدونها في أغلب الأحيان عندما كانوا يخرجون لقضاء حاجات أبيهم. وكانوا كلهم يدركون، آنذاك وبعد فترة لاحقة، أن مرثيديس تتمتع بإحساس قوي بشخصيتها وبسلطتها. وكان غابيتو الذي قلما حرج من أجل أي شيء على نحو مباشر، يتلكأ ويتجاذب أطراف الحديث مع والد مرثيديس دميتريو بارتشا: كان غابيتو يفضل دون كار السن وكانت فصيلة دميتريو الكبرى أنه كان ليبرالياً بالرغم من صداقته بغابرييل إليخيو. وكانت مرثيديس تصر دائماً على أنها لم تكن تدرك نيات معجبها المرهف. وكانت عادةً لا تقر بوجود غابيتو، فكان والدها ينظر من فوق نظارته وهي تمر من أمامهما ببطء وتشامخ فيوبخها برقة: "قولي مرحباً". وأخبرت غابيتو أن والدها كان يقول لها دائماً "إن الأمير الذي سيتزوجك لم يولد بعد". وقال لي إنه ظلت تفكر طيلة سنوات في أن غابيتو كان مُغرماً بوالدها!

على امتداد عطلة الميلاد 1945/1946، واتته الفرصة للاقتراب أكثر من هذه الفتاة الهادئة والباردة عند لقائهما في أثناء الحفلات ويتذكر الراوي في قصة موت معلن: "عرف عديد من الناس أنني طلبت في غمرة إحدى الحفلات من



ميرثيديس أن تتزوجني بمجرد أن أكملت تعليمها الابتدائي وهو ما ذكّرتني به عندما تزوجنا بعد أربع عشرة سنة"[69]. وربما بعد مرور بضعة أيام على الجملة في الشارع تمشي مع طفلين صغيرين وقالت ضاحكة: "نعم، إنهما طفلاي". فتلقى هذه النكتة الواضحة من هذه الشابة الغامضة على أنها علامة سرية تفيد أنهما متفقان في الميول والمشارب، فجعلته يتواصل معها على امتداد سنوات.

قفل غارسيا ماركيز راجعاً إلى ثيباكيرا لإكمال تعلمه في السنة الأخيرة، وبدأت عودته بملاحظة جذابة، إذ أخذ على عاتقه أن يساعد صديقه الطائش خوسيه بالنثيا على الالتحاق بالمدرسة الوطنية بعد أن أخفق بالنيا في المرحلة الأولى من دراسته في مدرسته في كارتاخينا. ولقاء ذلك اشترى له بالنثيا تذكرة سفر بالطائرة وسافرا جواً إلى بوغوتا بطائرة دي سي، ثري غير مكيفة، واستغرقت الرحلة أربع ساعات بدلاً من ثمانية عشر يوماً[70]. استأجر بالنثيا غرفة فسيحة في أفضل نزل في الميدان تطل نافذتها على الكاتدرائية. وقد وفرت هذه الأرضية لغارسيا ماركيز مأوىً نافعاً يستمتع فيه بمكانته المتقدمة في المدرسة كطالب في الصف الثاني عشر. واشترى له بالنثيا بدلة سوداء تعبيراً عن امتنانه. وبذلك انتهى حرج غارسيا ماركيز الذي كان يشعر به بسبب ثيابه غير المرتبة التي لازمته طوال سني المدرسة.

في وقت مبكر من هذه السنة الأخيرة، بلغ غارسيا ماركيز التاسعة عشرة من عمره، وكان أصبح شاعراً له قصائد منشورة، ويحظى باحترام كبير وسط زملاء صفه الذين كان يسليهم بانتظام بقصائد هزلية أو هجائية، أو برسومات كاريكاتورية يرسمها عن زملاء صفه ومعلميه. وكان ينظم قصائد خاصة لصديقاتهم. لكنه ظل حتى وهو في هذه السن ضحية الكوابيس التي أرعبت زملاءه ومعلميه في قاعة النوم بالقدر نفسه تقريباً الذي أرعبته وفي هذه السنة الأخيرة جرى نقله إلى قاعة نوم صغيرة حيث الذين يضطربون من صرخاته أقل عدداً.

باتت كولومبيا الآن في حالة من التوتر. فقد هزم حزب المحافظين، كما كان متوقعاً، الحزب الليبرالي في الانتخابات الوطنية، وفي الوقت الذي تخرج فيه غارسيا ماركيز من المدرسة في تشرين الثاني عام 1946، بدأ المحافظون يشنون حملة انتقام



مطبعة ضد أعدائهم السياسيين ومن كان يؤيدهم، وخاصة في المناطق الريفية حيث منح الفلاحون بعض الأسباب للأمل في أن إصلاح الأراضي قد يكون على جدول الأعمال السياسي. لكن هذا الشيء لم يحصل. وازدادت هيستيرية رد المحافظين بسبب تنامي شعبية خورخه إليسير غايتان صاحب الصوت الأعلى الذي بات الآن زعيم الليبراليين بلا جدال، ومرشحهم المعلن لانتخابات العام 1950. وتؤرخ موجة العنف الرهيبة التي أودت بحياة ربع مليون كولومبي من الأربعينيات وحتى الستينيات في شهر نيسان عام 1948، لكنها كانت قد بدأت فعلاً عندما كان غارسيا ماركيز في السنة الأخيرة من دراسته في زباكيرا.

انتاب القلق غارسيا ماركيز بسبب امتحاناته، وكان يحترق من أجل تنفيذ وعده لأمه، فحقق في نهاية المطاف نتيجة باهرة في الامتحان النهائي؛ نتيجة كانت تستحقها موهبته. غير أنه كان محظوظاً، ففي أثناء فترة المراجعة التي تسبق الامتحان سهر مع بالنتي طوال الليل، وشرب حتى الثمالة، وتعرضا إلى خطر الطرد من المدرسة، وحرما من أداء الامتحانات مما يعني أنهما لن يتخرجا بدرجة "البكالوريا" حتى العام المقبل. لكن المدير أدرك أن مثل ذلك القرار سيكون مُحرجاً وباعثاً على الأسف إذا ما انتهت حياة أفضل تلاميذه المدرسية مثل هذه النهاية، فنقض القرار. ورافق بنفسه المقصّرَين ليؤديا الامتحانات في بوغوتا بعد فوات موعدها[71]. ويقر غارسيا ماركيز بعد ذلك: "إن أي شيء تعلمته هو الشكر لشهادة البكالوريا التي نلتها في زباكيرا"[72].

هكذا عاد غابيتو إلى البيت وهو لا يزال مقتنعاً بأن إنجازاته تمثل خيبة واسعة تنطوي على الثقة، وبعد فهو يفتقر إلى الثقة لذلك السبب نفسه. لكنه أدرك إدراكاً واهناً ناقصاً أن ذرّ الرماد في عيني أي شخص، وهو ما شعر أنه أقدم عليه فعلاً، ربما كان يعني أنه أكثر موهبة مما كانوا يظنون. فقد وطد العزم أخيراً، بالرغم من كل مشاعر الذنب التي خامرته، على أن يضلل الأسرة وأن يتظاهر بالولاء والاحترام لمشروع الحصول على شهادة في القانون، في حين أنه كان في حقيقة الأمر يسير في الطريق الذي رسمه بنفسه لحياته.

بعد مدة قصيرة جداً من رجوعه إلى سوكري قادماً من ماغانغي، شرع غابرييل إليخيو، وهو الذي استأجر بيتاً آخر على مسافة قريبة من ميدان البلدة،

بـناء بيت خاص به، بيت مثالي من طابق واحد وسط أشجار المانجا وعلى مسافة خمسين ياردة من موخانا وعلى الضفة الشمالية. أيمكن أن يكون قد قرر أن يستقر في غايـة الأمر؟ أطلقت الأسرة اسم البيت الربعي على ذلك البيت، بيد أن غابيتو الذي كان لا يرى في العالم كله سوى بيت واحد أطلق عليه اسم "المستشفى"، لأن أبـاه فتح له في ذلك البيت عيادة استشارية ومختبراً، ولأن البيت كان مطلياً بطلاء أبيض اللون، ولأنه صبَّ على الرجل في أصغر إنجازاته.

لكن مما بعث على الدهشة أن البيت الجديد كان واسعاً قياساً إلى معايير بلدة سـوكري، بالـرغم من أنه لم يكن من المناسب مقارنته بالبيوت الفخمة نسبياً في ميدان البلدة. وبحسب ذكريات خيمي غارسيا ماركيز، كان البيت جميلاً بالرغم من عدم توفر الكهرباء فيه وتوفرها في آراكاتاكا، ولم يكن هناك ماء صالح للشرب ولا مجـاري صـرف صحي (فيما كانت هناك مجاري صرف صحي تعمل بانتظام في آراكاتاكا). ولجأت الأسـرة إلى استعمال المصابيح الزيتية التي كانت تعج من حولها الحشرات الطائرة. وكان من الممكن مشاهدة الأفاعي غالباً وقد التفت على عتبات النوافذ ليلاً. وكانت ثمة خادمة، وهي فتاة تدعى الأسنة جوانا، تطبخ وتنظف وتلعب مع الأطفال وتقصّ عليهم قصصاً مرعبة مصدرها الأساطير المحلية.

ثم حـدث تحـول كبير آخر في ظروف الأسرة حسبما تتذكر ليخيّا: "جاءت الجدة ترانكيلينا والخالة با، وهي أخت أمي غير الشقيقة، لتقيما معنا في البيت الجديد. وكـان في وسع الخالة با أن تتوقع حدوث الجفاف، وسقوط المطر لأنها كانت مطلعة على كل أسرار الطبيعة التي تعلمتها من هنود غواخيرا. وكنا جميعاً نحبها لأنها ساعدت علـى تربيتنا، وكانت هي التي قصّت عليّ كل القصص عن أسلاف الأسرة... ولما توفيت جدتنا، أنشأت أمنا حديقة جميلة، وزرعت الورود والأقحوان كي تأخذها إلى قـبرها"[73]. ويـستذكر غارسـيا ماركيز أن ترانكيلينا كانت قد أصيبت بالعمى والخـرف، وكانت ترفض خلع ثيابها إذا كان المذياع مُشَغَّلاً لأنها كانت تتخيل أن الناس الذين يتكلمون من خلاله وتسمعهم قد يراقبونها[74].

مما لا ريب فيه أن ثمة رواية مثيرة للحزن والألم تخص البيت الجديد. وقد شعر غابيتو بالحرج الشديد بسبب الاحتفاء بعودته إلى سوكري أواخر العام 1946. فها



هـــا والـــده الـــذي كانت علاقته به علاقة صعبة وكان قد عقد العزم على غشه وخداعـــه وتثـــبيط همته في المستقبل القريب، وعلى المدى البعيد في لحظة انتصار مشترك وكبير: لقد أصبح غابيتو يحمل شهادة، وذلك انجاز نادر في تلك الأيام حتى في أوساط الطبقات الوسطى. وشيد غابرييل إليخيو منـــزلاً جديداً جميلاً وكان قد عقـــد العزم على أن يُذكِّر كل فرد بذلك الإنجاز في الوقت نفسه الذي كان يحتفل فيه بنجاح ابنه في دراسته. وتتذكر عايدة روسا: "لن أنسى الحفلة التي أقامها أبـــي في ســـوكري عندما تخرج غابيتو من المدرسة الثانوية. فقد ذهب من دون غابرييل إليخيو إلى المدينة ودعا جميع أبناء سوكري، وذبح ذبيحة، وحظي الجميع بالشراب، وظللنا نرقص طوال الليل"[75].

أمـــضى غارســـيا ماركيـــز أكثر وقته بعيداً عن الأسرة في أثناء تلك العطلة الاحتفالـــية، وأنهاها بأسوأ ما يستطيع. لقد أنهى دراســـته الثانوية وجمع، من دون أن يقـــدر على التخمين، أكبر قدر من التعليم الرسمي الذي سيحتاج إليه في حياته. إلاّ أنه كان لا يزال غير متأكد مما سيفعله. لكنه كان يرى أنه سيعود إلى مدينة بوغوتا المثيرة للكآبة على جبال الإنديز، وسيدرس لسنوات من أجل الحصول على شهادة جامعية ووظيفةٍ شعَر مقدماً أنه غريب عنها غربة تامة، وكان يتمنى لو أنه لن يزاولها أبداً.



-5-

الطالب الجامعي والعنف في بوغوتا

1948-1947

التحق غابرييل غارسيا ماركيز بجامعة كولومبيا الوطنية في الخامس والعشرين من شهر شباط عام 1947، مما يعني تمضية أربع أو خمس سنوات في بوغوتا، سنوات تنطوي على أيام كئيبة حقاً للشاب الذي عُرف من قبل أنه يكره المدينة. لم تكن الرحلة الملحمية من سوكري إلى العاصمة المرتفعة عن سطح الأرض بالسفينة البخارية وبالقطار احتفالاً ملؤه الأمل الذي كان يتوقعه في مناسبات سابقة. فقد كانت كولومبيا نفسها في حالة من التوجس الرهيب حيث حكومة أقلية من المحافظين انتخبت حديثاً وعقدت العزم على التشبث بالسلطة فيما كان الحزب الليبرالي، وهو حزب الأغلبية، في نوبة إحباط شديدة بسبب خطأ تقدير الحزب في السماح لمرشحين هما غيربيه وغايتان بالتنافس ضد المرشح المحافظ أوسبينا بيريث.

أراد غابرييل إيليخيو أن يتخرج ابنه طبيباً، وإذا لم يتمكن من أن يصبح طبيباً فلا بأس من أن يغدو قسيساً أو محامياً. لقد أرسله للدراسة في العاصمة من أجل التفوق الاجتماعي والكسب المادي. ومن المؤكد جمع ثروة مالية بوجود المحافظين في الحكم. أما الأدب فليس سوى مشهد جانبي محفوف بالمخاطرة. لقد أفلح غابيتو في تفادي المواجهة في الوقت الراهن، لكن شهادة الحقوق، التي كثر الجدل حولها، غدت الآن ذريعة، وسيُرغم غابيتو في نهاية المطاف على أن يصبح ذلك الكذاب الذي طالما تحدث عنه والده.

شيد المستكشف الأندلسي غونثالو خيمينيث دي كيسادا مدينة بوغوتا في السادس من آب عام 1538 فوق منطقة جبلية عامرة بالملح والذهب والزمرد



فأصبحت موطناً أسطورياً للباحثين عن الذهب، وقد أسماها دي كيسادا باسم سانتا في، إذ عُرفت في بادئ الأمر باسم سانتا في دي باكاتا، ثم أصبحت سانتا في دي بوغوتا. وظلت على مدى عقود زمنية طويلة مدينة مبودة إلاّ أنها استعادت شأنها في أواخر القرن العشرين وكأن الصفة الذهبية لاسمها قد تخلص المدينة وترفعها مرة أخرى فوق مستوى البلد المتوحش الذي تطل عليه من عرشها الأخضر الزمردي كانت بوغوتا على امتداد التاريخ على صواب، أما بقية البلد فعلى خطأ. وبالرغم من ذلك، وعلى ارتفاع ثمانية آلاف قدم عن مستوى سطح البحر، غدت هذه المدينة الباردة عالياً والماطرة عادةً عاصمة غريبة لمثل هذا البلد المتنوع والمداري أصلاً. وفي العام 1947، بلغ عدد سكانها سبعمئة ألف نسمة من الكاتشاكو (وهي كلمة يمكن أن تترجم إلى غندور أو مخادع)[1].

عدَّت بوغوتا نفسها على مرّ التاريخ مدينة اللغة الإسبانية الأفصح نطقاً في جميع أنحاء العالم بما فيه إسبانيا نفسها[2]. ففي أربعينيات القرن العشرين كان معظم السياسيين في كولومبيا محامين، درّس الكثيرون منهم، لا سيما المحامين الليبراليين، في الجامعة الوطنية. وتقع المدينة الجامعية الجديدة، التي تعد معلماً من معالم العمارة، وشيدت في العام 1940 ولم تكتمل إلا في العام 1946، في ضواحي بوغوتا التي تحيط بها السافانا من الجهة الخلفية. وفي زمن غارسيا ماركيز كان عدد طلابها يربو على الأربعة آلاف، نصفهم من الأقاليم. وقد نظر اليمين السياسي إلى الجامعة على أنها مرتع الشيوعية.

عثر الطالب الجديد على نُزل في شارع فلوريان سابقاً، الدوّر الثامن الآن قرب منعطف شارع خيمينيث دي كيسادا، وهو نُزل سكن فيه عدد كبير من الطلاب الساحليين. كان شارع فلوريان واحداً من أقدم الشوارع في المدينة وأفضلها، ويوازي أشهر الشوارع قاطبة "سيبتيما" أو الشارع السابع. ربما كان نُزل غارسيا ماركيز يبعد ثلاثمئة ياردة عن تقاطع الشارع السابع وشارع خيمينيث دي كيسادا وهي منطقة تعد عموماً مركز المدينة الاستراتيجي، ووصل الأمر ببعض الوصفيين إلى أن يصفوها بأنها "أفضل منعطف شارع في العالم".

شارك غارسيا ماركيز إحدى غرف الطابق الثاني من النُزل مع عدد من الطلاب الساحليين من بينهم خوسيه بالنسيا. كانت الغرف مريحة بالرغم من أنها لم



تكن بادخة ووجد غرسيا ماركيز صعوبة في تدبير أموره بالرغم من كلفة السكن الاقتصادية. فكان بحاجة إلى النقود دائماً "كان الإحساس يخامرني دوماً بأن آخر خمسة سنتافو تنقصني". ولم يتذمر كثيراً قط بسبب المظاهر المؤلمة هذا الأمر، لكن بالرغم من جهود غابرييل إليخيو، التي كانت تعني أن الأسرة دائماً فوق مستوى الفلاحين والبروليتاريا، فإن الفقر المذلّ كان ملمحاً متصلاً من ملامح طفولة غابيتو وشبابه. وما بعد ذلك أيضاً.

تعيد ذكرياته المؤلمة عن تلك الفترة إلى الأذهان إحدى ملاحظات كافكا ألا وهي: "إن دراسة الحقوق كانت أشبه بالعيش على نشارة الخشب، بالمعنى العملي، نشارة خشب سبق أن لاكتها في أفواه الآلاف من الناس"[3]. وكان من ضمن المعلمين ابن الرئيس السابق ألفونسو لوبيث ميتشيلسين الذي سيغدو بدوره رئيساً مستقبلاً. في تلك السنة الأولى يخفق غرسيا ماركيز في الإحصاء، والديموغرافيا ولا ينجح في القانون الدستوري الذي درسه على يد لوبيث ميتشيلسين الذي قال لي بعد خمسة وأربعين عاماً: "لا، لم يكن طالباً جيداً، لكن بسبب انحداري من أسرة ساحلية، فإن كل الطلاب القادمين من ناديًا ويحدلنا أرادوا أن يدرسوا المنهج الذي كنت أدرسه لأنهم كانوا يعلمون أنني سأجعلهم يجتازون الامتحان على وجه التأكيد"[4].

ويستذكر أحد زملاء الصف وهو لويس بيّار بوردا: "التقيت غابو في الأيام الأولى. ربما كان هناك مئة طالب جديد في قسم الحقوق ولم يكن من بينهم سوى ثلاث فتيات. كان الطلاب قد انتظموا في مجموعتين بحسب الحروف الهجائية. فكان غابو في المجموعة الأولى وكنت في المجموعة الثانية، وكنت حقّاً مولعاً بالمادة الدراسية، على حين لم يولع بها غابو قط. فبدأت تفوته الكثير من الحصص الدراسية منذ البداية، وكنا نتجاذب أطراف الحديث في موضوع الأدب. دوس باسوس، وهمنغواي، وفوكنر، وهسّه، ومان، والأدباء الروس. وقلما تحدثنا عن الأدب الكولومبي باستثناء حديثنا عن بعض الشعراء، مثل باربا جاكوب ودي غريف، وليس كاربوس لوبيث. وكنا عند منتصف الظهيرة نعود القهقرى إلى مركز المدينة لنجلس في المقاهي التي كنا كلانا ندرس فيها، لأنك إذا ما عشت في نُزل، فلن تتوفر

لـك المكان للدراسة. وكان أصحاب المقاهي يسمحون للطلاب بالجلوس في أحد الأركان كأنهم زبائن منتظمون"[5].

كان غارسيا ماركيز وأصدقاؤه الساحليون ينظّمون في بعض الأحيان حفلات راقصة مرتجلة في أمسيات السبت. في التاسعة من صباح يوم الأحد التالي كان الشباب الساحليون يمشون صوب الشارع السابع ولشارع الرابع عشر حيث دار الإذاعة التي تذيع *الساعة الساحلية* فيبدأون بالرقص في الشارع. في تلك الأثناء بات غارسيا ماركيز ممثلاً يتباهى بثقافته وعوّض عن فقره بارتداء ثياب صارخة الألوان أكثر من تلك التي ارتداها عندما كان في مدرسة سان خوسيه. كانت الحقبة هي أول حقبة عظيمة للموسيقى *اللاتينية*، وكان غارسيا ماركيز يعيشها في أعماقه[6].

عقد صداقات أيضاً مع لكاتشاكو المتوترين دوماً ممن سيؤدي بعضهم دوراً مهماً في حياته. وكان أحدهم غونثالو مالاريبو الذي ستربت والدته مكاناً مريحاً في ما بعد لهذا الساحلي الصغير الحزين الشبيه بشابس[7]. ومن الساحليين الآخرين بيثر بوردا، وكاميو توريس الذي سيحقق في ما بعد شهرة في جميع أرجاء القارة بصفته قسيس العصابات الشهيد[8]، وبلينيو أبوليو ميندوثا أحد رفاق حياته العظام وبين الزعيم السياسي من بوياكو بلينيو ميندوثا نيرا - الذي ربما كان يومذاك أقرب حلفاء غيتان السياسيين - والذي يصغر غارسيا ماركيز ببضع سنوات.

يبدو أن بعض معاصري غارسيا ماركيز نظروا إليه نظرة إشفاق. ويقول بلينيو ميندوثا إن الكثيرين احتقروه لأنه "قصة خاسرة". ويتذكّر اليوم الذي عرّفه فيه بيثر بوردا في مقهى إستورياس إلى ساحلي شاب "شق طريقه وسط الموائد المكتظة والقبعات السوداء ليدهلنا بريق بدلته المدارية البيضاء التي تخطف الأبصار". لكنه فوجئ أيضاً بتصرف الوافد الجديد وسلوكه العام. وعندما اقتربت النادلة من المنضدة حدجها الساحلي بنظرة شاملة وهمس مقترحاً: "الليلة؟"، ثم وضع يده على مؤخرتها، غير أنها دفعته جانباً وانصرفت بامتعاض مسرحي"[9].

كان غارسيا ماركيز الساحلي[10] يخفي وراء ثيابه المبهرجة وتكبره المراهق شاباً مستوحداً جداً ذا مشاعر متناقضة جداً عن جدارته الذاتية. فحياته بالرغم من صداقاته، هي حياة توحّد واغتراب وتسعى تفتقر إلى الإحساس بأداء واجب ما.

لكنها كانت حياة نخبة أيضاً فمن أجل حياته نفسه أدى دور الساحلي الثائر. وبسبب شعوره بالعزلة في أيام الآحاد، تراه يستقل قطارات إلى ما لانهاية، متأخذه وسط المدينة الكئيبة الرتيبة وهو يقرأ ويتأمل[11] في بعض الأحيان يقبل دعوة من غونثالو مالاريو وهو صديق كل من كاميلو توريس وبيّار بوردا. كان مالاريو قد ولد بعد غارسيا ماركيز بأربعة أيام لأسرة معروفة قال لي. "يمكن أن تكون عطلات نهاية الأسبوع في بوغوتا طويلة جداً في نظر الغريب، وكان غابو يكثر من زيارتي في البيت أيام الاحاد، ويفضل شرب الكاكاو، وسائر كعكة الذرة. وشعرت أمي الأرملة منذ كنت في التاسعة من عمري بالشفقة عليه، إذ بدا لها مستوحداً، فكانت تحنُّ عليه دائماً لأنها انحدرت من الأقاليم، مثله تماماً، وكان يعرفان بالفطرة كيف يتحدث أحدهما إلى الآخر"[12].

كما خمّن مالاريو وبيّار بوردا، فإن غارسيا ماركيز كان منذ بدء دراسته في الجامعة يطور بسبب شخصيته الساحلية الحمائية، موهبته الأدبية حتى لو كان متردداً في الاعتراف بمثل هذا الطموح خشية الإخفاق. مما لا ريب فيه أن لا مجال للمنافسة بين الأدب والحقوق. فهو في بيئة لم تخلق لها بشعره الطويل وبنطاله المهلهل وقمصانه ذات المربعات الغريبة وتمرده الواعي بذاته عند كل خطوة خرقاء يخطوها.

حرّر بيّار بوردا وكاميلو توريس صفحة أدبية عنوانها الحياة الجامعية، وهي ملحق أسبوعي لصحيفة لاراثون التي نشرت قصيدتين لغرسيا ماركيز تنتهجان نهج حركة حجر وسماء الشعرية[13]. فقد نُشرت قصيدة من قوقعة بحر في الثاني والعشرين من حزيران قبل بضعة أسابيع من اتخاذ توريس قراره المصيري بترك الجامعة ليصبح قسيساً[14]. ومن تلك القصيدة نقرأ هذين المقطعين:

8

بسبب بحري البحر خالد،
عن الطفولة، الذي لا يُنسى،
المعلق من أحلامنا
مثل غمامة في الهواء .



12

إنه بحر حبنا الأول
في تلك العيون الخريفية ..
يوماً ما أحببت رؤية ذلك البحر
– بحر الطفولة – لكنني كنت متأخراً[15].

هي قصيدة نظمها صبي يعي وعياً عميقاً أنه لم يفقد طفولته وحسب، وإنما فقد وطنه الآخر، الساحل الكاريبي، بلاد الحر والشمس.

لقد كان غارسيا ماركيز ينشد شيئاً ما شبيهاً بكافكا في تلك المدينة، مدينة الأشباح المرتفعة، في الحقيقة، إن ما عثر عليه في نهاية الأمر هو كافكا نفسه. في عصر يوم من الأيام، أعاره أحد الأصدقاء نسخة من قصة **المسخ** ترجمها أديب أرجنتيني يدعى خورخه لويس بورخس[16]. عاد غارسيا ماركيز إلى النزل، وصعد إلى غرفته، وخلع حذاءه، واستلقى على سريره. وقرأ السطر الأول: "حين استيقظ غريغور سامسا في صباح يوم من الأيام إثر أحلام مضطربة، وجد نفسه وقد تحول في سريره إلى حشرة هائلة". يتذكر غارسيا ماركيز وهو ذاهل أنه قال في نفسه: "اللعنة، إنه نفسه الأسلوب الذي كانت تتحدث به جدتي!"[17].

مما لا ريب فيه أن كافكا وسّع من مخيلته (بما في ذلك قدرته على تخيل نفسه وقد بات أديباً) وأظهر له على المدى البعيد أن في الإمكان رواية أشد القصص فانتازية بأسلوب واقعي. لكن الشيء الأول الذي تعلمه غارسيا ماركيز من كافكا، كما يبدو، يختلف عمّا ذكره في استبطانه. أولاً، الواضح أن كافكا كان يعالج موضوع الاغتراب في الوجود الحضري، لكنه كان يعالج على نحو مؤرب، وفي كل ما كتب، رعبه من سلطة أخرى تمثلت بأبيه: امتعاضه وتقديره في الوقت نفسه لأبيه الطاغية.

كان غارسيا ماركيز قد قرأ رواية **البليل** لدوستويفسكي التي تدور أحداثها في سان بطرسبرغ التي تتصف بقمع أكبر، وذلك قبل أربعة أعوام على وصوله إلى بوغوتا. كانت رؤية كافكا تنهل مباشرة من تلك الرواية، وليس ثمة شك في تأثيرها الكبير في الأديب الشاب. لقد اكتشف غارسيا ماركيز الحداثة الأوروبية، والأكثر من ذلك اكتشف أن مبتكرات الحداثة، بالرغم من تعقيداتها وتمحيصها، ولدت من

روح العصر، من بنية الواقع كما هو مُدرك حالياً، ويمكن أن تكون ملائمة له؛ حتى في عاصمته النائية في أمريكا اللاتينية.

إن بطليّ الدخيل والمسخ صحيان لانفصام الشخصية، وهما شخصيتان مفرطتان في حساسيتهما، ترهبهما السلطة. ومن خلال التماهي بالتشوهات الحادثة في العالم الخارجي، يستنتجان أنهما مريضان ومشوهان ومنحرفان وفي غير بيئتهم. هناك العديد من الأشخاص الذين يتصرفون وفق الدوافع المتناقضة والتصورات التداعية؛ الاعتباطية عن قدراتهم وعلاقاتهم بالآخرين. بيد أن الفجوة بين ثقة غارسيا ماركيز بنفسه التي تبلغ حدَّ اللامألوف، وفي بعض الأحيان تصل إلى حدِّ الغطرسة (فهو حفيد العقيد وملائم لها)، وشعوره نفسه بانعدام الأمن والدونية (فهو ابن الطبيب الدجال الذي أهمله ولكنه ربما حذا حذوه)، هي فجوة غريبة بلا أدنى ريب، وأنتجت قوة مؤثرة سمحت له أن يطور طموحاً جماً سرعان ما تأجج في أعماقه مثل لهب عنيف لا ينطفئ.

بعد يوم واحد على قراءته المسخ، جلس غارسيا ماركيز ليكتب قصة اختار لها عنوان الاستسلام الثالث، فكتب بذلك أول عمل أدبي له بصفته شخصاً مُهيّأً لينتصر إلى نفسه على أنه مؤلف لديه ما يطرحه من كتابة جادة. وأصبحت القصة على الفور تردد صدى غارسيا ماركيز نفسه، إذ كانت مدهشة بآفاقها، عميقة بذاتيتها، يشيع فيها العبث والعزلة والموت. وكانت تدشن بذلك ما أصبح ملازماً لغارسيا ماركيز: حَبكَ قصة حول فكرة رئيسية أولية عن جثة غير مدفونة[18]. ويكتشف قراء غارسيا ماركيز في نهاية الأمر أنه مرَّ بثلاثة أهوال مرتبطة ارتباطاً عضوياً لكنها بالرغم من ذلك، متناقضة تناقضاً أولياً: هول الموت والدفن (أو الأسوأ من هذا، الدفن حياً)، وهول دفن الآخرين، وهول بقاء أي فرد بلا دفن "يمكن للإنسان الميت أن يحيا حياة سعيدة في ظل وضعه الذي يتعذر علاجه". وهكذا يتحدث راوي هذه القصة الأولى، وهو شخص غير متأكد إن كان حيَّاً أو ميتاً، إن كان في كلتا الحالتين في الوقت نفسه أو بالتناوب. (غير أن الشخص الحي لا يستطيع أن يستسلم للدفن وهو على قيد الحياة. لكن أطرافه لن تستجيب ندائه بالرغم من ذلك. فهو لا يقدر على التعبير عن نفسه، وهذا هو الأمر الذي شر منعه. إنه أعظم الأهوال في حياته وفي مماته: أن يُدفن حيّاً"[19].



تبدو قصة غارسيا ماركيز، وهي تنشر عن طريق التعويض إلى ما يشبه الأرضية الأميركية الجديدة، أي علم أنساب تاريخي أسس على مفهوم شجرة العائلة:

قُطع متلم تُقطع شجرة عمرها خمس وعشرون سنة ربما سيشعر في ما بعد بحنين طفيف، حس ليس لأنه حنة شكلية تشريحية، بل جثة متحيلة ومجردة لا تعيش إلاّ في ذاكرة أقربائه الضبابية .. عندئذ سيعرف أنه سينهض من خلال الأوعية الدموية لتفاحة ما ويجد نفسه وقد ألهمه جوع طفل في صباح يوم خريفي وسيعرف عندئذٍ – وهذه فكرة تثير حزنه أنه فقد وحدته[20]

من الواضح أن الضع من الاخلاص في بيت ما، بين الحياة والموت، كما هي الحال في التابوت (وربما كما في الذاكرة)، تسهّله فكرة انصهار فردانية المرء الضائعة في شجرة بوصفها رمز الطبيعة والتاريخ (شجرة العائلة التوليدية). إن عنوان مثل هذا الدافع الاسياسي أو السلالي عند شاب فُصل بُعيد ولادته مباشرة عن أمه وأبيه وأخوته وإخوانه الطبيعيين الذين سيلحقون به لا يتطلب أي إيضاح. كما لا ضرورة لامتلاك مؤهل في التحليل النفساني للاستفسار عمّا إذا كان هذا الأديب الشاب لم يشعر على نحو غير و ع، وهو ينظر متأملاً حياته الماضية، بأن أبويه دفناه حيّاً في البيت في آراكاتاكا، وأن ذاته الحقيقية دفنت في ذات ثانية، هوية ثانية يسعى له أن يبنيها مثل هاملت ليحمي نفسه من مشاعره الحقيقية تجاه أمه وربما مشاعره القاتلة تجاه المغتصب غابرييل إليخيو الذي ادعى في وقت متأخر أنه والده؛ على حين كان غابيتو يعرف تمام المعرفة أن أباه الحقيقي هو العقيد نيكولاس ماركيز الرجل الذي كان يحظى بإعجاب واحترام كل الذين عرفوه، والذي أشرف إشرافاً عدبأ عليه في سنوات عمره المبكرة ثم اختفى. وتلا ذلك ما قد يكون إما عاصفة أدبية (وهي نمط من أنماط تحقيق الرغبة) و إحساساً أصيلاً أن الأديب وصل الحكمة ("والاستسلام"؟): "كل ذلك لواقع لم يُثر قلقه، بل على العكس، كان سعيداً، ووحيداً في عزلته"

وبالرغم من أن القصة كانت مُربكة، إلا أنها ذات أثر يشبه أثر التنويم المغناطيسي، تُروى بثقة لا جدال فيها وليس بمجرد ثقة أدبية، وفيها ثبات يثير الدهشة في أديب ناشئ. أما نهايتها، فهي نموذج لنهايات قصص غارسيا ماركيز:



> سيستمع مستسلماً إلى الأدعيه الأخيرة، وإلى العبارات الأخيرة وهي تُتلى باللاتينية ويردّدها صبيان المذبح ترديداً أخرق ستخترق برودة تراب المقبرة والعظام عظامه، وربما تنتشر تلك *الرائحة*. من يدري؟! ستخرجه آنية تلك اللحظة من ذلك السبات عندما يشعر أنه يسبح في عرقه، في سائل كثيف لزج، مثلما سبح قبل أن يولد في رحم أمه ربما سيكون حيّاً في تلك اللحظة لكنه بحلول ذلك الوقت سيستسلم للموت حتى يبدو ميتاً من شدة استسلامه[21].

سيتعرف قراء مئة عام من العزلة، وخريف البطريرك، والجنرال في متاهته المكتوبة بعد ذلك بعشرين وخمسة وعشرين وأربعين عاماً إلى النعمة والموضوعات والصياغات الأدبيه. إنها محاولة للحصول على السلطة على نحو واضح ومتناقض (في ضوء طبيعة الصوت السردي المتهافت).

في الثاني والعشرين من شهر آب، بعد أسبوع أو أسبوعين من مناجته هذه القصة، قرأ في العمود اليومي لإدواردو ثالاميا بوردا مقالة المدينة والعالم في صحيفه الإسكتادور إن ثالاميا بوردا، كان "متلهفاً لأن يسمع من الشعراء والقصصيين الجدد المجهولين أو المهملين سيحة الافتقار إلى تطبيق أعمالهم تطبيقاً دقيقاً وعادلاً"[22]. لقد كان ثالاميا بوردا المتعاطف مع اليسار واحداً من أكثر كُتّاب الأعمدة الصحفية مدعاة للاحترام. أرسل غارسيا ماركيز القصة إلى الصحيفة، وبعد أسبوعين كان يجلس في مقهى موليمو، ولدهشته وفرحته شاهد عنوان قصته يغطي صفحة كاملة من ملحق *عطلة نهاية الأسبوع*، فانتشى حماسةً، وخرج يشتري نسخة ليكتشف، كعهده، أنه "لا يملك الخمسة سينتافو"، فعاد أدراجه إلى النُزل، واستنجد بأحد أصدقائه فخرجا معاً لشراء الصحيفة، صحيفة الإسكتادور ليوم السبت الثالث عشر من أيلول عام 1947. فوجد على الصفحة الثانية عشرة قصة الاستسلام الثالث لغابرييل غارسيا ماركيز مع رسم توضيحي للفنان هيرنان ميرينو

كان في حالة سرور ونشوة، جدلاً. وبعد ستة أسابيع، أي في الخامس والعشرين من شهر تشرين الأول، نشرت صحيفة الإسكتادور قصة أخرى له بعنوان إيفا تتقمص قطتها وموضوعها الموت مرة أخرى وما يعقبه من تجسّد، وهي عن امرأة تدعى إيفا يسيطر عليها هاجس تناول برتقالة، لا تفاحة، لتجد نفسها بعد

ثلاثة آلاف سنة داخل شَرَك – مدفونة – في عالم جديد ومُربك. إنها امرأة حميلة، تعمل ما في وسعها للنأي بنفسها عن اهتمام الرجال بها، امرأة بدأت فتنتها الجسدية تعدها مثل ورم سرطاني. وأصبحت تدرك أن شرايينها تحتشد بحشرات صغيرة.

> كانت تعلم أنها تأتي من هناك، من الخلف، وأن كلّ من يحمل كنيتها لا بد من أن يحملــه، وأن يعانيها مثلما عانت الأرق الذي لا يُقهر حتى الفجر. كانت تلك الحشرات هي التي رسمت ذلك التعبير المرير، ذلك الحزن الذي لا سبيل إلى مواســاته على وجوه أسلافها. لقد شاهدتهم وهم يتطلعون من خلف وجــودهم المنطفــئ، مــن وراء لوحاتهم الموغلة في القدم، ضحايا العذاب نفســه...[23].

يمكــن أن تُؤطــر في الفقرة المدهشة السابقة كل من هتة عام من العزلة التي تُظهــر الهــوس بالأنســاب، وسحنته البدائية البيت التي ستولد عما قريب (أو التي وُلدت تواً).

بعد ثلاثة أيام فقط من نشر هذه القصة الثانية أعلن راعيه الأدبــي غير المتوقع في عموده اليومي عن ظهور موهبة أدبية جديدة على المشهد الوطني، تتمثل بشخص لم يبــلغ الحادية والعشرين من عمره ولكنه طالب في سنته الدراسية الأولى. وأعلن ثالاميا بكل وضوح: "إننا نشهد ولادة أديب مدهش في غارسيا ماركيز"[24]. وكان أحد الآثار الجانبية لهذه الثقة التي أوكلت إلى غارسيا ماركيز هو أنه شعر أن هناك مــا يبرّر إهماله لدراساته ألا وهو حبه المجنون للقراءة والكتابة. وبعد مرور أكثر من نــصف قــرن على ذلك، يلاحظ الأديــب الذي اجتازت شهرته حدود العالم أن قصصه الأولى كانت "غير منطقية ومجردة، وأن بعضها عبثية، ولا تستند أي واحدة منــها إلى مشاعر حقيقية"[25]. مرة أخرى، ثمة تفسير مغاير يكشف عن نفسه وهو أنــه كرِهَ قصائده وقصصه المبكرة لأنها كانت تستند حقاً إلى مشاعر حقيقية، وأنه تعلم في فترة لاحقة كيف يخفي - وإن لم يكبح كلياً - النرجسية والنزعة العاطفية المفتقرة إلى الحبكة التي تركته مكشوفاً بكل ضعفه وربما تخلى عنه بعد ذلك. وربما كانت الحالة متمثلة بأنه غير راغــب في منح بوغوتا الامتياز إذ أصبح أديباً"[26].

مكــث غارسيا ماركيز في بوغوتا لتمضية إجازة الميلاد في العام 1947. لقد كــان بقاؤه في النزل يكلفه الكثير من المال، لكن أجرة العودة إلى سوكري تكلف



أكثر من ذلك. وظلت مرثيديس غير مدركة لعروضه. رد على ذلك، أنّ جدته قد توفيت وأمه توشك أن تنجب حملاً آخر. لكن بالرغم من هذا كله، ومع أنه اجتاز الامتحانات بصعوبة بالغة، ولم يحقق إلاّ في الإحصاء والديموغرافيا، فإنه علم الآن أنه لن يهب نفسه للحقوق وأنه متردد في مواجهة غابرييل إليخيو في هذا الموضوع. لقد أشّر نجاح قصتيه الأولَيَين أن ثمة طريقاً آخر للحياة أمامه، وأنه ربما آثر الاستفادة إلى أقصى حدّ ممكن من استقلاله المؤقت.

لعلــه بدأ في أثناء هذه العطلة بقصته الثالثة "الجانب الآخر من الموت" وإذ كانت القصة الأولى تصور تأمل الإنسان في موته، فإن هذه القصة كانت تأملاً في موت الآخرين (أو ربما في موت الشخص الآخر للإنسان، لبديله، وهو الأخ في هذه المــرة). لهذا، كان الصوت السردي تناوب الأسلوب الحداثوي بين ضمير الغائب المفــرد المذكر وضمير المتكلم المفرد تناوباً ملائماً. مرة أخرى نجد أنفسنا ضمناً في مدينة، لكن موضوعات الهوية التوأم، والبديل، والمرآة (بما في ذلك المرآة الداخلية، والوعــي) هــي المهيمنة. لقد تحوّل هذا الأخ الذي توفي بمرض السرطان، والذي يرعب الراوي رعباً لا حد له، إلى جسد آخر:

> **إنه قادم من وراء جسده، وسبق له أن غار معه في الظلمة السائلة لرحم الأم، وتــسلق معــه أغصان السلالة العريقة، معه في دماء أربعة أزواج من أجداد الأجــداد والــتي جاءت من بعيد، من بداية العالم، وقد استدامت مع ثقلها وحــضورها الغامض كلّ التوازن الكوني... إنه أخوه الآخر الذي وُلد وكُبِّلَ بعقبيه، والذي جاء مترنحاً جيلاً إثر جيل، ليلة إثر ليلة، من قبلة إلى قبلة، من هوى إلى هوى، وهو يسير وسط الشرايين والخصيتين إلى أن وصل إلى رحم أمه الأخيرة كأنه كان في رحلة ليلية[27].**

هذا الهوس بالسلالة والنسب والاستعوار الموازي لمجمل الكون (الزمان والمكان والمادة والروح والفكرة؛ الحياة والموت والدفن والتعفن والتحول) يمثل بنية الأفكار والمشاعر التي ما إن تستكشف وتوضّح علانية، حتى تختفي على ما يبدو من أعمال غارســيا ماركيــز. لكــنها تغدو في الواقع ضمنية، وتستخدم تمظهراتها استخداماً استراتيجياً وشحيحاً لتحقيق أبلغ الأثر. إن غارسيا ماركيز في مرحلته الأولى هذه، بصفته شخصية أدبية، معذّباً، ومفرطاً في حساسيته، ومصاباً بوساوس المرض – على

غرار كافكا - بعيد عن هويته السردية اللاحقة التي أنشأها إنشاءً متأنياً، والتي ستكون قريبة من هوية ثيرفانتس على سبيل المثال. ونحن قليل عني ما يبدو من أدباء كولومبيا أو أمريكا اللاتينية الذين لا يظهر على ماركيز أنه قرأ مؤلفات أعظمهم شأناً، نلاحظ أن غارسيا ماركيز يهاجم موضوعات أمريكا اللاتينية الأساسية والخاصة بالأسباب (الوجود والتاريخ) والهوية (الجوهر والأسطورة). بلا أدنى ريب تمثل إشكاليات أمريكا اللاتينية الجوهرية في تلك الحقبة: الأسباب قصة مهمة جداً في قارة لا وجود فيها لأسطورة مرضية أصيلة حيث كل شيء يوجد عنوة. لم يكن غارسيا ماركيز قد وصل في هذه المرحلة بعد إلى قصبة الشرعية (التي كانت تقص مضجعه حقاً وهي صعبة ها على وجه التأكيد). ومع هذا، فإن هذا الروي يمثل مشكلة لنفسه على ما يبدو.

أخيراً، انتهت العطلة الطويلة، وأخذت الأمور تتحسن. ففي مطلع السنة الجامعية الجديدة في العام 1948 وصل لويس إنريكي إلى بوغوتا لإكمال تعليمه الثانوي نظرياً، لكنه من الناحية العملية جاء لتسلم وظيفته في شركة كولغيت - بالموليف التي حصل له عليها غابيتو وكرّس نفسه بعد ذلك للإثارة المعتادة في أوقات فراغه. في تلك الأثناء انتقل خالهما خوانيتو (خوان دي ديوس) إلى بوغوتا بُعيد وفاة أمه ترانكيلينا للعمل في الإدارة الحكومية. وأحضر لويس إنريكي معه هدية سرية يفترض أنه احتفظ بها ليعطيها لغابيتو في ذكرى ميلاده الحادية والعشرين في السادس من آذار، لكن عندما أخبره أخوه وأصدقاؤه في المطار أنهم لا يملكون المال ليحتفلوا به، كشف لويس إنريكي حقيبة أن المفاجأة داخل الطرد هي آلة كاتبة جديدة. "كانت الخطوة التالية هي زيارة إلى مكتب الرهونات في وسط بوغوتا حيث فتح المسؤول فيه الصندوق وأخذ قطعة من الورق. لا زلت أذكر أنه نظر إليها وقال بصوت عال: "مبروك. نحن فخورون بك. المستقبل أمامك غابرييل رويسا. سوكري، السادس من آذار 1948". ثم وجه مساعد المكتب سؤالاً: "كم تحتاج؟"، فردّ صاحب الآلة الكاتبة "قدر ما يمكنك أن تعطيني"[28].

تحسن مستوى المعيشة تحسناً كبيراً في الأسابيع التالية بوجود دخل لويس إنريكي الجديد وبعض المال الإضافي الذي كان غابيتو يوفره من خلال تزويد

الصحيفة بالرسومات التوضيحية بمساعدة أحد الأصدقاء؛ وكانت المغامرات تشمل الشراب والنساء والغناء، فحدّد لويس إريكي بذلك عالمه التشردي مع حومبه بالنيا الصاتش في عصور دلك بوقف عابيتو، بعد أن بات الآن أكثر طلاب الجامعة متسارعاً وتظاهراً بالمكانة الأدبية، عن حضور دروس أخرى إذ وهب جل وقته وحماسته أكبر لقراءة الأدب والكتابة فيه بما في دلك قراءة رائعة جيمس جويس الحداثوية "يولسيس".

في تلك اللحظة، بدأت تجمع سحب الزوبعة السياسية على جناح السرعة فوق كولومبيا، واتجهت مباشرة صوب بوغوتا. وأصبح المحمي البارز خورخه إليسير غايتان، الذي كان قد شرب شراب الكوكتيل السياسي القوي الذي منحه إياه الثورة المكسيكية والماركسية وموسوليني، أقوى الشخصيات السياسية في تاريخ كولومبيا في القرن العشرين وفي حقبة سادت فيها السياسة الشعبوية. فقد كان بطل الطبقات العمالية الصاعدة وبطل العديد من أبناء الطبقتين الوسطى والدنيا في المدن النامية نمواً سريعاً. كان غارسيا ماركيز يعتز أنه حظي باهتمام وطني للمرة الأولى في العام 1929 عندما تبنى قضية عمال الموز الذين قُتلوا في سياغا في كانون الأول عام 1928. ولم يعلم غارسيا ماركيز أن من بين مخبريه الأساسيين الأب فرانسيسكو أنغاريتا الرجل الذي عمّده في آراكاتاكا، وربما أيضاً العقيد نيكولاس ماركيز. ازداد غايتان قوة بالرغم من النكسة الانتخابية التي تسبب بها شقه شخصاً للحزب الليبرالي، وسرعان ما تبوأ قيادته، وبدأ يطبق أسلوباً سياسياً لم يُعرف من قبل في إحدى أكثر الجمهوريات المحافظة في أميركا اللاتينية. وسماه البعض *اللسان* ونعته الآخرون *بالحنجرة*، لما كان يتمتع به من قدرة خطابية وصوت. لم يكتب غارسيا ماركيز عن غايتان في مقالات عينية حتى وقت حديث، وكان ذلك بسبب كون سياساته تنحو نحو اليسار منذ مطلع عقد الخمسينيات في القرن العشرين من جهة، وإلى أن وعيه السياسي كان لا يزال متخلفاً إلى حدٍّ كبير في نيسان عام 1948 بالرغم من ارتباطه ارتباطاً فطرياً بالليبراليين.

في نيسان عام 1948 عقد المؤتمر التاسع لعموم أقطار أميركا اللاتينية في بوغوتا وكانت منظمة الدول الأميركية في طور التأسيس بمبادرة من الولايات المتحدة. يوم



الجمعة التاسع من نيسان، عند الواحدة من بعد الظهر، كان غابرييل ماركيز يجلس لتناول طعام الغداء في النُزل في شارع فلوريان برفقة لويس إبريكي وعدد من أصدقائه الساحليين. كان خورخيه إليسير غايتان في تلك اللحظة يغادر مكتبه القانوني ليتمشى على امتداد الشارع السابع لتناول طعام الغداء مع زميله في الحزب الليبرالي بليبيو ميندوثا نييرا وعدد آخر من الرجال. وعند وصوله الرقم 14-٥٥، بين جادة خيمينيث والشارع الرابع عشر، عبر عامل عاطل عن العمل يدعى خوان رواسييرا من مقهى *القط الأسود* وأطلق عليه ثلاث أو أربع رصاصات من مسافة قريبة جداً. سقط غايتان على الرصيف على مقربة من أفضل *ناصية شارع في العالم*. حدث هذا عند الواحدة والدقيقة الخامسة. وقيل أن يرفعوه عن الأرض انحنى بليبيو ميندوثا البالغ من العمر ستة عشر عاماً، وكان قد جاء برؤية أبيه، فوق الجثة، وحدّق وهو في حالة رعب شديد إلى وجه الزعيم المحتضر. نُقل غايتان على جناح السرعة إلى المستشفى المركزي بسيارة خصوصية، ولدى وصوله أُعلن عن وفاته مباشرة أمام حشد كبير من الناس الجزعين الذين تجمعوا خارج المستشفى.

ذلك هو الاغتيال والآن يأتي دور العنف[29]، إذ اكتسحت المدينة موجة عنف وهستيريا على الفور. كانت بوغوتا في حالة غليان، وشهد عصر ذلك اليوم تظاهرات أعقبتها أعمال سلب ونهب وقتل. وأدركت حشود الليبراليين أن المحافظين كانوا وراء الاغتيال: وفي غضون دقائق، اغتيل روا، وسُحلت جثته الممزقة عارية وسط الشوارع باتجاه القصر الحكومي. وبدأ مركز مدينة بوغوتا، رمز النظام السياسي الرجعي الكولومبي، يحترق[30].

خرج غارسيا ماركيز مسرعاً إلى مكان الجريمة، لكن غايتان المحتضر نقل على الفور إلى المستشفى - وكان الرجال والنساء يجهشون بالبكاء ويبللون مناديلهم بدم الزعيم - وكانت جثة روا قد نُقلت بعيداً. ويتذكر لويس بيّار بوردا أنه التقى غارسيا ماركيز بين الساعة الثانية والثالثة عصر ذلك اليوم على بعد خطوات قليلة من المكان الذي شهد مصرع غايتان: "دهشت مما رأيته. وقلت له: *أنت لست من محبي غايتان*. فقال: *لا، لكنهم أحرقوا منزلي تماماً وفقدت بذلك كل قصصي*"[31]. (هذه الحكاية المبالغ فيها كثيراً ستكتسب مستقبلاً شحنة ميثولوجية).



في أثناء تلك الجولة، التقى غارسيا ماركيز أستاذ مادة القانون كارلوس هيريك باريخا في الشارع الثاني عشر خلال استعجاله للعودة وإكمال وجبة غدائه في النزل الذي لم يكن قد لحق به ضرر بعد. أوقف باريخا الشاب غارسيا ماركيز في الشارع، وحثّه على الإسراع إلى الجامعة وتنظيم الطلاب بالإنابة عن انتفاضة الليبراليين. انطلق غارسيا ماركيز متردداً، لكنه غيّر رأيه حالما توارى باريخا عن الأنظار، وعاد أدراجه وسط الفوضى إلى النزل في شارع فلوريان وكانت بوغوتا قد باتت الآن مكاناً خطراً جداً.

كان لويس إنريكي وعدد من الطلاب الساحليين يقيمون احتمالاً غامضاً. وتمكنوا، بالرغم من صخبهم، من سماع صوت العم كارلوس عبر المذياع مع الأديب خورخيه ثالاميا (الذي قُدِّر له أن يصبح شخصية مهمة أخرى في حياة غارسيا ماركيز شأنه شأن قريبه إدواردو ثالاميا بوردا)، وكان الاثنان يحضان الشعب الكولومبي على الانتفاضة ضد المحافظين الأنذال الذين اغتالوا زعيم البلاد السياسي الأعظم وأملها الوحيد في مستقبلها. وهدر باريخا الذي كانت مكتبة الراديكالية ضحية ألسنة اللهب قائلاً إن "المحافظين سيدفعون ثمن حياة غايتان غالياً"[32]. وسمع غابيتو ولويس إنريكي وأصدقاؤهم دعوته لحمل السلاح عبر مذياع النزل، إلا أنهم لم يلبوا دعوته.

على مسافة قريبة، ثمة شاب آخر من أميركا اللاتينية في الحادية والعشرين من عمره لم يتمالك نفسه من شدة الفرح والاغتباط. كان فيدل كاسترو زعيماً طلابياً كوبياً سافر إلى بوغوتا مع وفد للمشاركة في مؤتمر طلابي عقد لمعارضة مؤتمر عموم أميركا. ونسي كاسترو كل شيء عن مؤتمر طلاب أميركا اللاتينية وتظاهر في الشوارع في محاولة لفرض نوع من المنطق الثوري على أعمال العنف الطائشة التي اتسمت بها الانتفاضة الشعبية. وكان كاسترو قبل يومين لا أكثر، قد أجرى مقابلة مع الزعيم الشهيد في مكتبه في الدوّار السابع، ويبدو أنه حظي بإعجاب السياسي الكولومبي. ومما يدعو للدهشة أنهما اتفقا على اللقاء مرة أخرى عند الساعة الثانية من بعد ظهر يوم التاسع من نيسان: وقد عثر على اسم فيدل كاسترو مكتوباً بقلم الرصاص في دفتر مواعيد غايتان في ذلك اليوم. لكن مما لا يبعث على الدهشة

أن حكـــومة كولومبيا المحافظة والصحافة اليمينية أسرعتا بالادعاء أن كاسترو كان متــورطاً، إما في مؤامرة لاغتيال غايتان، أو في مؤامرة لتخريب مؤتمر عموم أميركا وإثـــارة الانتفاضة، أو في كليهما. لا بد من أن كاسترو كان أحياناً لا يبعد سوى مـئتي ياردة عن صديق المستقبل غارسيا ماركيز[33]. وبعد الاستذكار، فإن أعمال العـنف في بوغوتا ستكون ذات أهمية قصوى في فهم غابيتو السياسة الثورية، تماماً مثلما ستكون عليه الحال في أحداث عام 1954 في غواتيمالا بالنسبة إلى رفيق المستقبل تشي غيفارا[34].

في الـوقت الـذي بدأ فيه كاسترو يعد العدة لثورة لم تندلع، حس غارسيا ماركيـز حزيناً على ضياع آلته الكاتبة - فقد نُهب مكتب الرهونات - ويردّد في نفسه الإيضاح الذي سيقدمه إلى والديه. على كل حال، عندما بدأ الدخان يُغلّف جدران النُزل قادماً من مبنى حكومي يقع خلف النُزل، نظّم أخوة غارسيا ماركيز أصدقاءهم من سوكري وانطلقوا إلى بيت خالهم خوانيتو الجديد الذي لا يبعد سوى مسافة أربعة شوارع عن النُزل. وانضم فريق الأصدقاء والأخوة حملة السلب والنهب العامة وفرّ لويس إنريكي بعد أن أخذ بدلة زرقاء سماوية لبسها والده طوال سنوات في المناسبات الخاصة. ووجد غابيتو محفظة أوراق أنيقة من جلد البقر أصبحت في ما بعد أحسن غنيمة حصل عليها. لكن أفضل غنيمة كانت إبريق شراب كبير يتسع لخمسة عشر ليتراً صبّ فيه لويس إنريكي بالتتابع أكبر عدد عثر عليه من مختلف المشروبات قبل نقله إلى بيت الخال خوانيتو.

تتذكـر مارغريتا ماركيز كاباييرو، وكان عمرها آنذاك اثني عشر عاماً وهي اليـوم سكرتيرة غارسيا ماركيز الشخصية في بوغوتا، وصول قريبها المفضل وأخيه وأصـدقائهما كان البيت يحتشد باللاجئين من الساحل. وفي المساء انضم الشبان بعـدما شربوا حتى الثمالة من شراب محظور قانونياً إلى الخال خوانيتو على سطح المبنى، وحدقوا بذهول إلى مركز المدينة المحترق[35]. في غضون ذلك، كانت الأسرة في سـوكري تخـشى حدوث ما هو أسوأ. تقول ريتا متذكرةً: "المرة الوحيدة التي شـاهدت فيها أمي وهي تذرف الدموع عندما كنت صغيرةً في التاسع من نيسان كان يمكنني أن أعلم أنها كانت قلقة جداً لأن غابيتو ولويس إنريكي كانا في بوغوتا



عندما اغتيل غايتان. أتذكر أنها ارتدت ثيابها فجأة عند الساعة الثالثة من عصر اليوم التالي، وذهبت إلى الكنيسة إذ قررت أن تشكر الله لأن حجراً وضعها بأن بنيها في أمان. دُهشتُ حينها لأنني لم أرها تخرج من قبل كانت تلازم البيت لرعايتنا"[36]

في بوغوتا بقي الطالبون ثلاثة أيام في البيت ولم يخرجوا منه، إذ فرضت الحكومة حالة حصار. وظل القناصون يطلقون النار على كلِّ من يتجرأ على الخروج. بقي مركز المدينة يحترق، وأغلقت الجامعة أبوابها وأصبحت معظم مناطق بوغوتا في حالة من الخراب، لكن حكومة المحافظين تمكنت من البقاء. وتوصل الساسة الليبراليون إلى اتفاق غير مرضٍ مع الرئيس الشجاع أوسبينا بيريث أخذ بعضهم بموجبه إلى مجلس الوزراء، لكن الحزب نفسه ظل بلا سلطة على فترة من الزمن. وحالما شعر الأخوان بالأمان بعودة إلى الشارع حتى راحا يتراكضان من أجل الحصول على تذاكر سفر للعودة إلى الساحل بعد أن حضهما والدهما على السفر جواً إلى سوكري. قرر لويس إنريكي أن يجرّب حظه في بارانكيا حيث كانت في انتظاره حبيبة حياته الأخيرة، في حين قرر غابيتو متابعة دراسته الحقوق في جامعة كارتاخينا، أو على الأقل قرر أن يتظاهر أنه يريد ذلك. بعد مرور أكثر من أسبوع بقليل على أحداث التاسع من نيسان الكارثية، انطلق غارسيا ماركيز وأخوه لويس إنريكي والمحرض الشاب فيدل كاسترو روز من بوغوتا في طائرات مختلفة باتجاه مصائرهم التاريخية المتباينة.

أما كولومبيا، فقد اتضح أن مصرع غايتان وما أعقبه من عنف قسم تاريخ البلاد في القرن العشرين إلى قسمين. إن ما كان يمكن أن يحققه غايتان أو ما لا يحققه يكمن في عداد التوقعات. إذ لم يستطع أي سياسي من بعده أن يثير حماسة الجماهير مثلما كان يثيرها هو. وابتعدت كولومبيا أكثر عن حل مشكلاتها السياسية الحقيقية مع مرور كل سنة على وفاته. وكانت الأزمة التي أعقبت وفاته هي التي أدت إلى ظهور حركات حرب العصابات التي استمرت في تعريض الحياة السياسية للخطر في البلاد حتى هذا اليوم. وإذا كان يمكن القول إن حرب الألف يوم أظهرت للطبقات العليا ضرورة الوحدة ضد الفلاحين، فإن أحداث العنف أظهرت على نحو مشابه الخطر الذي تمثله جماهير الطبقات العاملة في المدينة. ومع هذا، فإن المناطق

الـــريفية هي التي ستشهد العنف في أوج صوره ليبدأ خمسة وعشرون عاماً من كثر الحروب الأهلية وحشية وكلفة: إنه العنف.

أما بخصوص غارسيا ماركيز، فيمكن القول إن ما حدث من عنف في بوغوتا كـــان في مـــصلحته تمامـــاً بخلاف العديد من الناس الذين سقطوا بين فكي تلك الأحداث العنيفة. فقد أدت الأحداث إلى قطع دراسته الحقوق في أفضل جامعة في البلاد، ووفرت له مبرراً آخر للتخلي عن دراسته، ووفرت له ذريعة لا يمكن دحضها لهجر المكان الذي كرهه والعودة إلى الساحل الذي يهواه. لكن ليس قبل أن يألف العاصمة التي ستكون على درجة بالغة الأهمية في إيقاظ وعيه لوطني الأوسع. فهو، كمـــا سنرى، لن يأخذ الحزبين الحاكمين على محمل الجد مستقبلاً. وإذا كان وعيه السياسي الناضج يتطور تطوراً بطيئاً، فإن ثمة دروساً مهمة استوعبها غارسيا ماركيز الآن بشأن صيغة بلاده. وبما أنه فقد أو ترك معظم ممتلكاته المادية، فإن هذه الدروس الجديـــدة ربمـــا كانت أهم الأشياء التي أخذها الشاب معه وهو في الطائرة باتجاه بارانكيا وكارتاخينا.

* * *



-6-

العودة إلى الساحل:
صحافي متمرن في كارثاخينا
1948-1959

حطّ غارسيا ماركيز رحاله في بارانكيا بطائرة دي سي ثري في التاسع والعشرين من شهر نيسان عام 1948 وذلك بعد يومين من وصول أخيه لويس إنريكي. بقي لويس إنريكي في بارانكيا، وبدأ يبحث له عن عمل، وسرعان ما حصل على عمل في شركة الخطوط الجوية لانسا التي ظل يعمل فيها طوال الثمانية عشر شهراً التالية. في غضون ذلك، كانت كل أنظمة النقل في البلاد لا تزال في حالة من الفوضى في أعقاب أحداث العنف، ووجد غابيتو نفسه مع حقيبة ثياب ثقيلة وبدلة سوداء ثقيلة أيضاً وقد تربع فوق شاحنة بريد تحت أشعة الشمس الحارقة لساحل الكاريبي في طريقه إلى كارثاخينا[1].

كانت كارثاخينا ظلاً من شكلها الأولي لا أكثر ولا أقل. عندما وطأها الإسبان في العام 1533 غدت معقلاً حيوياً للنظام الاستعماري الذي يربط إسبانيا بالكاريبي وبأميركا اللاتينية، وكانت قبل ذلك واحدة من أهم المدن في تسمم العبيد وبيعهم في مجمل العالم الجديد. وبالرغم من هذه البداية المكئبة، فإنها أصبحت أيضاً (ولا تزال) واحدة من أجمل مدن أميركا اللاتينية وألطفها[2].

لكن بارانكيا توسعت بعد الاستقلال في القرن التاسع عشر لتصبح مدينة تجارية كبرى كانت كولومبيا بحاجة إليها، فما ركدت كارثاخينا مُداريه جراحها وأحزانها معزية نفسها عن كل ذلك بماضيها المجيد وجمالها الذي ألمّت به عاديات الدهر. أصبحت هذه المدينة المدهورة موطن غارسيا ماركيز الجديد. لقد عاد مرة أخرى إلى



الكاريبي، إلى عالم يوحّد فيه المرء على علّاته بما فيه من جمال وقبح وهشاشة، إلى عالم الأحاسيس. لم يرَ من قبل تلك المدينة التاريخية وأخذ منه العجب كل مأخذ لروعتها ووحشتها في آن واحد. لم تكن قد نأت بنفسها تماماً عن أحداث العنف. لكنها، شأنها شأن الساحل كله، عادت على وجه السرعة إلى وضعها القلق نوعاً ما، بالرغم من حالة الحصار ومنع التجوال والرقابة. وتوجه الشاب مباشرة إلى فندق سويسرا في شارع دمشق الذي انقلب إلى نُزل للطلبة، ليجد أن صديقه الثري خوسيه بالنثيا لم يصل بعد، فلم يرضَ صاحب الفندق أن يعطيه غرفة بالدفع الآجل، ما اضطرّه إلى أن يهيم على وجهه في المدينة القديمة المسوَّرة، جائعاً، ظامئاً، يستلقي في نهاية المطاف على مصطبة في الميدان العام مؤملاً النفس بوصول بالنثيا قريباً. لكن بالنثيا لم يصل. استسلم غارسيا ماركيز للنوم على المصطبة، لكن شرطيين اعتقلاه بتهمة خرق حظر التجوال أو ربما لأنه لم يملك السجائر لتقديمها إليهما، فأمضى ليلته على الأرض في زنزانة مخفر الشرطة. هكذا تعرّف إلى كارثاخينا، ولم يكن فألاً حسناً، وأخيراً وصل بالنثيا في اليوم التالي وسُمح للشابين بدخول النُزل(3).

ذهب غارسيا ماركيز إلى الجامعة التي تقع على بعد شارعين اثنين، وتمكن من إقناع السلطات التي أجرت له اختباراً أمام زملاء صفه مستقبلاً بقبوله لإكمال السنة الثانية من دراسة الحقوق بما في ذلك تجاوز الدروس التي سبق له أن رسب فيها في السنة الأولى. وهكذا عاد طالباً مرة أخرى، وابتدأ هو وبالنثيا من حيث انتهيا عندما كانا في بوغوتا، فخرجا للشرب والحفلات بالرغم من حظر التجوال، وتصرفا كأنهما طالبان من أبناء الطبقة العليا، فكان ذلك التصرف سهلاً على بالنثيا وصعباً على غارسيا ماركيز. غير أن هذه الحال سرعان ما وصلت إلى نهايتها بعد مرور بضعة أسابيع عندما قرر بالنثيا، الذي لا يستقر على حال، أن ينتقل إلى مكان آخر، فاضطر غارسيا ماركيز إلى الانتقال إلى السكن الجماعي مع الطلاب فكلفه ذلك خمسين بيزوس شهرياً بما في ذلك المبيت وغسيل الملابس.

ثم لعب القدر لعبته. ففي حين كان يتجول في *شارع السيرة السيئة* في حيّ العبيد القديم في غيتساماني المجاور للمدينة المسورة التقى مانويل ثاباتا أوليفيا، الطبيب الأسود الذي سبق له أن تعرف إليه في بوغوتا قبل عام. وفي اليوم التالي، صحب

ثاباتا - وهــو محسنٌ معروف لأصدقائه العديدين أصبح في ما بعد واحداً من أبرز الصحافيين والأدباء في كولومبيا - الشاب إلى مكاتب جريدة الأونيفرسال في شارع سان خوان دي ديوس عند ناصية الشارع الذي يقع فيه نُزل الطلبة، وعرَّفه إلى مدير التحريــر كليمنـــتي مانويل ثابالا. ويشاء الحظ أن يكون ثابالا، وهو صديق إدواردو ثالامــيا بوردا، قد قرأ قصص غارسيا ماركيز القصيرة في الاسبكتادور وأعجب بها. وبالـــرغم من حياء الشاب، فإنه قرر أن يجعله كاتب عمود وقال من دون أن يناقش الشروط إنه يتطلع إلى لقائه في اليوم التالي لطباعة مقالته الأولى في اليوم الذي يليه.

يبدو أن غارسيا ماركيز آنذاك كان ينظر إلى الصحافة كونها وسيلة لغاية وأنها نمـــط أدنى مـــن أنمـــاط الكتابة. لكنه بالرغم من ذلك عُيِّن صحافياً بسبب امتيازه الأدبـــي السابق وهو لم يتجاوز سن الحادية والعشرين إلا بقليل. اتصل بوالديه على الفور ليخبرهما أنه سيصبح من الآن قادراً على إعالة نفسه خلال مدة دراسته وفي ضوء عزمه على التخلي عن تلك الدراسات بأسرع وقت ممكن، وعلى عدم ممارسة المحاماة حتى لو حصل على شهادة، فقد استراح ضميره كثيراً بعد ذلك الاتصال.

كانـــت جريدة الأونيفرسال جريدة حديثة أسسها قبل عشرة أسابيع لا غير دكتور دومينغو لوبيث إسكاوريانا، وهو سياسي ليبرالي ذو أصل عريق سبق له أن كـــان حاكم ولاية ودبلوماسياً، ولكنه قرر، في ضوء العنف المتزايد الذي يتسم به المحافظون، أن يفتح جبهة جديدة في الحرب الدعائية على الساحل. وحدث هذا قبل شهر واحد من اندلاع أعمال العنف. ولا توجد أي صحيفة ليبرالية أخرى في تلك المدينة الموغلة في خطها المحافظ.

يتفق الجميع على أن ثابالا كان ورقة الصحيفة الرابحة. فقد كان تفاني مدير التحريـــر وبعد نظره قد جعلا جريدة الأونيفرسال تظهر، على افتقار مكاتبها إلى الجاذبية، نموذجاً للرابط السياسي والكتابة الجيدة وفق معايير ذلك الزمان. وكانت الكتابة الجيـدة أشبه بالعناية الإلهية للمجند الجديد. كان ثابالا رجلاً نحيلاً، متوتراً، في أواســـط العقد الخامس من عمره، ولد في سان خاثينتو وله ملامح الهنود وشعرهم، أسمر البشرة، له كرش صغيرة ويضع نظارة على عينيه. ونادراً ما شوهد بلا سيجارة في يـــده. وكان أيضاً، حسب ما تردد من شائعات، مثلي الجنس على نحو متكتم،



يصبغ شعره باللون الأسود متحدياً بذلك زحف السنين، ويقطن وحده في غرفة صغيرة في أحد الفنادق. وكان مساعداً سياسياً لغايتان، وميل إنه اشتغل في صحيفة الجنرال إلى دياريو ناسيونال. وفي أربعينيات القرن العشرين، عمل في وزارة التربية، وبعدها في مجلة بيبيو ميندوث بيرا أكثيون ليبرال.

قدّم ثابالا غارسيا ماركيز إلى محد حديث آخر هو ميكتور روخاس هيرانو وهو شاعر ورسام شاب كان له من العمر سبعة وعشرون عاماً وينحدر من مرفأ تولو على البحر الكاريبي. ولم يتعرف إلى غارسيا ماركيز، ولكنه كان معلمه في مادة الفنون قبل ثمانيه أعوام في مدرسة سان خوسيه في باراكيا. وكان ذلك التعارف واحداً من المصادفات العرضية التي أخذت تؤشر حياة غارسيا ماركيز فقد قُدر لروخاس هيرانو أن يكون واحداً من كبار الشعراء والروائيين في البلاد علاوة على شهرته الواسعة في الرسم[4]. وكان خشن المظهر، أسوأ، أعلى صوتاً وأضخم حجماً وأشد دوغمائية وأكثر حماسةً على ما يبدو من صديقه الجديد، منشرح الصدر، وحساساً في الوقت نفسه.

بعد منتصف الليل، عندما فرغ ثابالا من تدقيق وتصحيح كل مقالة من المقالات المنشورة على صفحات الجريدة التمالي، دعا الشابين لتناول الطعام خارج مكتب الصحيفة. كان الصحافيون غير خاضعين لنظام فرض حظر التجوال. فبدأ غارسيا ماركيز الآن حياة جديدة استمرت عدة سنوات عمل خلالها مدة طويلة من الليل ونام طوال النهار إن كان في وسعه النوم. ولم يكن هذا بالأمر الهيّن في كارتاخينا حيث تبدأ دراسة الحقوق عند الساعة السابعة صباحاً في حين كان غارسيا ماركيز يصل إلى البيت عند الساعة السادسة. وكان المكان الوحيد الذي يمضي فيه الناس ساهرين حتى وقت متأخر من الليل هو مطعم ومشرب الكهف المطل على البحر ووراء السوق العامة، ويديره شاب أسود وسيم يدعى خوسيه دي لابيبيس، *حوز الثلجي*[5]. حيث كان هنالك ثمة صحافيون وغيرهم من بوم الليل الذين يأكلون شرائح لحم البقر والكرش والأرز مع سمك الروبان أو السرطان.

بعد أن قفل ثابالا راجعاً إلى غرفته المنفردة، بدأ غارسيا ماركيز وروخاس هيرانو يتجولان في منطقة المرفأ من شارع الشهداء حيث تخلد تسعة تماثيل نصفية



ذكرى موت أول الثوار الذين ثاروا ضد الإمبراطورية الإسبانية في العام 1816[6] ثم عاد غارسيا ماركيز إلى البيت ليشتغل. وبعد بضع ساعات نلمة ولكنها موغلة ببلاغته، أسرع إلى رئيسه ليريه عموده الأول. أخبره ثابالا أن المقالة مكتوبة كتابة جيدة لكنها لا تصلح للنشر.. فهي، أولاً، مغرقة في الذاتية وأدبية أكثر مما ينبغي. ثانياً، "ألا نلاحظ أننا نشتغل في ظل نظام رقابي؟". ثمة قلم أحمر على مكتب ثابالا، فالتقطه، وعلى الفور أدى الجمع بين موهبة غارسيا ماركيز المطربة وحماسة ثابالا المهنية إلى إنتاج مقالات مقروءة، ممتعة جداً وأصلية كما يتضح منذ البداية[7]. وقد نشرت جميع أعمدة غارسيا ماركيز في صحيفة الأونيفرسال بعنوان فقرة جديدة. كان العمود الأول الذي حظي باهتمام كبير من رئيس التحرير مقالة سياسية عن حظر التجوال وحالة الحصار تحت ستار ذكي بوصفها تأملات في المدينة وتساءل الأديب الشاب موقعاً: كيف يمكن أن نتوقع من جيله في حقبة العنف السياسي والخطّ من قدر الإنسان أن يصبحوا "رجالاً أصحاب نيات حسنة". من الواضح أن الصحافي الجديد حولته الأحداث التي جرت في التاسع من نيسان إلى إنسان متطرف. أما المقالة الثانية فكانت مساوية للأولى من حيث روعتها[8]. وإذ كانت المقالة الأولى سياسية ضمناً بالمعنى التقليدي، فإن المقالة الثانية كانت أشبه بيان عن السياسة الثقافية: لقد كانت دفاعاً عن الأكورديون المتواضع الذي يعد آلة موسيقية متشردة بين الآلات الموسيقية لكنه يشكل عنصراً مهماً في ضرب من الموسيقى يدعى *بالينو* طوّره في الساحل موسيقيون مجهولون عادةً، وكان برأي غارسيا ماركيز رمز أهالي الإقليم وثقافتهم فضلاً عن رغبته في تحدي أفكار الطبقة الحاكمة المتسقة. لقد أكد غارسيا ماركيز أن الأكورديون ليس آلة متشردة وحسب، بل آلة عمالية أيضاً. كانت المقالة الأولى رفضاً لنمط سياسي آت من بوغوتا. أما المقالة الثانية فاحتضنت جذور الأديب الثقافية التي استعادها مؤخراً[9].

للمرة الأولى أصبح مستقبل غابرييل غارسيا ماركيز مضموناً إلى حدٍّ ما. فقد كان يعمل، وأدرك الناس أنه عمل بإتقان. إنه صحافي، وسيواصل دراسة الحقوق على نحو متقطع بلا أي حماسة، لكنه خرج من مهنة المحاماة ودخل عالم الصحافة والأدب، ولن ينظر إلى الوراء.

في الأشهر العشرين التالية. كتب غارسيا ماركيز ثلاثة وأربعين نصاً وأضعافاً مضاعفة من هذا الرقم بلا اسم لصحيفة الأونيفرسال. لكن تلك النصوص كانت في معظمها لا تـراك صحافة تعليقات وإبداعات أدبية عفا عليها الزمان على نحو ملحـوظ، هدفها الإمتاع أكثر مما هي معلومات سياسية، تقترب حماً من نوع اليوميات الموثقة يومياً أو أسبوعياً التي لم يكن قد أكل الدهر عليها وشرب في صحيفة أميركية لاتينية في عقد العشرينيات من القرن العشرين. من جهة أخرى، كانت إحدى مهم غارسيا ماركيز تتمثل بمراجعة الأخبار الواردة في جهاز استلام البرقيات السلكية لاختيار قسم منها واقتراح لموضوعات لمقالات الرأي والاستطالات الأدبية ذات الأهمية الفائقة في صحافة تلك الأيام. لا بد من أن تلك الممارسة اليومية منحته تجربة في الأسلوب الذي تُحوَّل فيه أحداث الحياة اليومية إلى *أخبار* وإلى *قصص* تضفي الغموض على الواقع الاعتيادي وتوفر ترياقاً مضاداً وقوياً لجـولاته الأخـيرة في مؤلفات كافكا. لقد كان الصحافيون حينها، في كل مكان تقريباً، مضطرين إلى تبني مدخل التجربة الصحافية الأميركية المتمثل بالصحافي الذي يشمر عن ساعديه وهو يعمل، وكرّس غارسيا ماركيز نفسه لها، وولع بها ولع البط بالماء. وبهذا سيصبح أديباً مختلفاً الاختلاف كله عن معظم معاصريه من أدباء أميركا اللاتينية الذين كانت فرنسا والأساليب الفرنسية في صنع الأشياء لا تزال نماذج يحتذى بها في عصر بانت فرنسا نفسها تفقد فيه من قبضتها على الحداثة.

مع أن هناك أشياء كثيرة أمامه ينبغي له أن يتعلمها، فإن أصالة كاتب العمود الجديد كانت واضحة من البداية، ولا بد من أنها كانت تُبهج رئيس التحرير الذي منحه الوظيفة. وبعد ثلاثة أشهر لا أكثر، دعا صنماً في مقالته عن أديب كارتاخينا الأفرو - كولومبـي خورخه آرتل إلى أدب علني وقاري في آن واحد يمثل عرقنا؛ وكـان ذلـك منظوراً مثيراً للدهشة من حفيد العقيد ماركيز إذ يتبناه وهو في سن الحادية والعشرين؛ ولمح الساحل الأطلسي هويته *الخاصة به*[10].

في منتصف شهر تموز من تلك السنة؛ أقدمت شرطة المحافظين على مجزرة ضد أسـر الليبراليين في إل كارمن دي بوليفار، البلدة التي نشأ فيها جد غارسيا ماركيز مع العمة فرانسيسكا. كانت إل كارمن بلدة ذات موروث سياسي ليبرالي طويل



وحـيد وكانت أيضاً أقرب بلدة من سان خوانيتو مسقط رأس ثابالا، ولهذا اهتم الـرجلان اهتماماً خاصاً بالأحداث التي وقعت هناك، وثمّة جملة تستند إلى شعار *ماذا جرى في كارمن دي بوليفار؟* وهي النكتة السوداء التي كان يطلقها ثابالا كلما جدّد الحملة أمام إنكار الحكومة وسياساتها، وكان ينهيها بعبارة *ما من شك في ذلك. لم يحدث أي شيء في كارمن دي بوليفار*[11]. وهذه هي العبارة نفسها تقريباً التي سيستخدمها غارسيا ماركيز في ما بعد عند ابتكار بلدة ماكوندو في فصل رائع من فصول **مئة عام من العزلة** بعد حادثة مذبحة عمال الموز.

من ناحية ما، لم يكن هناك ما هو أسوأ من ذلك الزمان كي يصبح فيه امرؤ صحافياً في كولومبيا. فالرقابة فُرضت بُعيد أحداث نيسان 1948 مباشرة بالرغم من أنها لم تكن في منطقة الساحل بتلك الشدة التي عرفتها الأجزاء الداخلية من البلاد. بدأ غارسيا ماركيز يكتب في الصحافة بسبب أحداث العنف، لكن أحداث العنف هـي التي قيدت تماماً ما يمكن للصحافي أن يفعله. في السنوات السبع التالية، وتحت حكـم أوسـبينا بيريث ولوريانو غوميث وأوداينا آربيلايث وروخاس بينِّيا، ظلت الرقابة الحكومية نشطة باستمرار على تفاوت حدتها. والأهم من هذا كله أن مقالة غارسـيا ماركيـز الأولى المؤرخة في الحادي والعشرين من أيار عام 1948 أشارت ضـمناً إلى منظور سياسي واضح يتمثل بيسار الوسط، وهو المنظور الذي ما من شأنه أن يحيد عنه، كما أنه المنظور الذي لن يقيد قصصه أو يشوّهها في نهاية الأمر (على حدّ قول الماركسيين).

بعد مرور أسبوعين على بدء عمله في الأونيفرسال، طلب غارسيا ماركيز إجازة لمـدّة أسـبوعين، وتجوّل في أنحاء بارانكيا ثمّ قصد ماغانغي، وعاد إلى سوكري لرؤية أسرته. لكننا لا ندري إن كان قد توقف في مومبوكس لإلقاء نظرة على ميرثيديس. ولا بـد من أنه أدرك عند انطلاقه في رحلته أن مرتبه الجديد لم يكن هو المرتب الذي أخبر والديه به، لكن من الواضح أنه لم يكن ينوي على إزالة الغشاوة عن عيونهما. لم يكن تلك أول زيارة منذ أحداث العنف في بوغوتا وحسب، بل كانت أيضاً أول مرة يعـود فـيها إلى البيت منذ أن سافر إلى بوغوتا للبدء بدراسته الجامعية في شباط عام 1947، أي قـبل مضي أكثر من عام. لهذا كانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها

والدته منذ وفاة أمها، وللمرة الأولى التي يرى فيها آخر أخواته وهو إليحيو غابرييل الذي سمي على اسم الأب، كما هي حال غابرييل غارسيا ماركيز نفسه. في فترة لاحقة يروي غارسيا ماركيز، وهو يكبر أخاه إليحيو غابرييل بعشرين عاماً، مازحاً قصة مفادها أن الطفل الجديد سمي بذلك الاسم لأن "أمي افتقدتني، وأرادت أن تتأكد من وجود أحد اسمه غابرييل في البيت دائماً". عندما سعد غابرييل إليحيو شخصياً في ولادة إليحيو غابرييل الذي ستكتفي الأسرة في ما بعد بمناداته بالاسم يويو، في تشرين الثاني عام 1947، قال: "هذا الطفل يشبهني. إن غابيتو لا يشبهني أبداً. لهذا سنسمي هذا الطفل باسمي، لكن على نحو معكوس: إليحيو غابرييل!"[24].

رجع غابيتو إلى كارتاخينا ولم يسجل رسمياً في الجامعة إلا في هذا اليوم المصادف في السابع عشر من حزيران بالرغم من اجتيازه المقابلة قبل ذلك بأسابيع. كانت الأمور تسير على خير ما يرام من الناحية المهنية، لكنها كانت كارثة من الناحية الاقتصادية في وجه الشاب. فبالرغم من أن غارسيا ماركيز كان ضمن ملاك الصحيفة، إلا أن أجره كان يدفع له لقاء ما يكتبه. وبالرغم من أنه لم يكن متخصصاً في الرياضيات، وبالرغم من أنه لم يكن بالي إلى حدٍّ ما بقضايا الميزانية، فقد أجرى صديقه روميرو دي لا إسبرييا عملية حسابية وقال إنهم دفعوا له اثنين وثلاثين سنتافو، أي ثلث بيزوس، عن كل نص كتبه سواء أكان موقعاً باسمه أم من دون توقيع، ولكنهم لم يدفعوا له شيئاً لقاء واجباته الأخرى. كان ذلك المبلغ من المال أقل من أي أجر يمكن تخيله. وبحلول نهاية شهر حزيران، كان قد طرد من النزل، وبدأ ينام فوق مصاطب الحدائق مرة أخرى وفي حجرات طلاب آخرين أو - وهذا ما اشتهر به - على ورق طبع الجرائد في مكتب جريدة الأونيفرسال، وهو المكان الذي لا يغلق أبداً. في مساء يوم ما، وبينما هو يسير مع زملائه في الحديقة المستوية، حيث جلسوا على درجات نصب بولي مي تنغمري، واحتسوا الشراب، ودخنوا وتجاذبوا أطراف الحديث، سأل أحد الصحافيين، وهو خورخه فرانكو موبيرا، عن أحوال سكن غارسيا ماركيز، فاعترف الأخير بالحقيقة. في تلك الليلة نفسها صحبه فرانكو موبيرا إلى بيت أسرته في شارع إستانكو ديل إغوارديانتي عند ناصية كوارتيل ديل فيخو وعلى مقربة من مسرح هيريديا في المدة

القديمة. عانقت الأسرة الطالب الجائع الذي لا مأوى له، وبخاصة كارمن موبيرا والدة خورخيه[13]. كما مالت إليه أمهات أشخاص آخرين، وكان يقيم عند والدة خورخيه بين الفينة والفينة محاولاً استرضاء ضميره بتناول أقل ما يمكن من الطعام طوال مدة بقائه في كرتاخينا.

هكذا عاش غارسيا ماركيز في ذلك الوقت حياة باعثة على اليأس أكثر مما كانت عليه حاله في بوغوتا، وروّض نفسه على عدم الاكتراث فعلياً لمتطلبات بدنه. كان حتى وهو في هذا المكان الساحلي، مشهوراً بقمصانه ذات الألوان المتعددة كان يلبس قميصاً واحداً حتى يبلى وسترته ذات المربعات وبنطاله الصوفي الأسود الرث وهو ما تبقى له من بدلة قديمة وجوربه ذي اللون الأصفر الفاتح المتدلي حول كاحليه، وحذائه المغبر الذي لم ينظفه قط. كان شاربه كتلة مؤقتة من الشعر، في حين كان شعره الأسود أشعث كثير التلافيف قلما لمسه المشط. حتى بعد أن حصل على حجرة في بيت فرانكو موبيرا، كان ينام حيثما هدّه التعب وأينما صادفه طلوع الفجر. كان نحيفاً جداً، وكان أصدقاؤه الذين يتأثرون دوماً بمرحه وعدم إحساسه بالشفقة على نفسه ولم يناشدهم مدّ يد العون له، يتشاركون لشراء وجبات الطعام له نهاراً ويأخذونه معهم في سهراتهم ليلاً.

تختلف آراء أصدقائه ومعارفه. فقد خيّل لعديد من الناس، خاصة المحافظين اجتماعياً، أنه غريب الأطوار إلى حدّ الجنون أو إنه شاذ[14]. ويقول أصدقاء آخرون مثل روخاس هيراثو إنه مخنّث ("يا له من صبي طيب")[15]. ويتذكر روخاس وصديق آخر يدعى كارلوس أليمان عدم نضج غارسيا ماركيز، ومشيته الوثابة - التي لم يفقدها قط - وميله إلى الرقص مبتهجاً عندما يقدم إليه أحدهم فكرة جديدة أو يتحمس لواحدة من أفكاره التي تصلح لأن تكون قصة[16]. ويتذكر معارفه أنه كان ينقر دائماً بأصابعه على المنضدة أو على أي شيء يتوفر تحت يده عند انتظار طعام الغداء، يغني بهدوء، أو يصفر، فيما تتردّد الموسيقى دائماً بين جنباته[17].

تعلم غارسيا ماركيز كل شيء اضطر أصدقاؤه وزملاؤه إلى تعليمه إياه. كما أنه فكّر في بعض الأفكار الأساسية عن مهنته في مرحلة مبكرة جداً من حياته، مما يدعو للدهشة. فعلى سبيل المثال، اطّلع على إعلان جورج برنارد شو بأنه سيهجر

نفسه من الآن قصاعداً للترويج لشعارات وذلك للحصول على المال. وعلّق غارسيا ماركيز قائلاً إن ذلك كان عداءً مكرياً له ولأولئك الذين "قرروا ألاّ يكتبوا لأسباب تجارية، ومع هذا وجدنا أنفسنا نمارس تلك الكتابة تماهياً ليس إلاّ"[18].

استقرت الحياة على وتيرة واحدة في كارتاخينا، وفاتت غارسيا ماركيز معظم دروسه، لكن لم يكن جميع الأساتذة يسجلون أسماء الطلاب الحاضرين. فيما تعاطف المدرسون الليبراليون مع مناوشات الشاب الصحافية ضد الرقابة والسلطات على وجه العموم التي أرسلت أكثر من مرة مجاميع عسكرية إلى مبنى الجريدة لإرهاب العاملين فيها. كان من بين أهم علاقاته هي العلاقة التي نشأت مع غوستافو إيبارا ميرلانو، وهو طالب الأدب الكلاسيكي الذي سبق له أن تخرج من دار المعلمين الابتدائية في بوغوتا، وأصبح الآن يدرّس في إحدى المدارس المحلية على بعد بضع ياردات من مكتب جريدة الأونيفرسال. كان إيبارا ميرلانو صديقاً حميماً لروخاس هيرازو. ولم يكلف سير غارسيا ماركيز مع هذين الصديقين أي مال – ولم يكلفه أيضاً تلقي أي صدقة - لأنهم لم يحتسوا شراباً ولم يحضروا حفلات، بل كانوا يناقشون قضايا رفيعة الشأن تخص الشعر أو الفلسفة الدينية"[19].

كان لدى غارسيا ماركيز أصدقاء آخرون، أهواؤهم أقل تقشفاً، وفي المقدمة منهم الأخوان دي لا إسبريّا، راميرو وأوسكار اللذان كان يلتقي بهما من وقت إلى آخر في العام 1948، ولكن لقاءه بهما ازداد في العام 1949. ولم تكن اهتماماتهما ذات طابع سياسي فحسب – ميدان الليبرالية المتشددة وحتى الماركسية – بل كانت شديدة الصلة بالدوافع الدنيوية. لقد أمضى غارسيا ماركيز وقته معهما ومع غيرهما من الأصدقاء في معاقرة الشراب وارتياد الأماكن حيث بنات الهوى. ثمة ثلاث مقالات استثنائية على نحو مدهش طبعت في تموز عام 1948 تشير إلى أن غارسيا ماركيز ربما أغرم بنت من تلك البنات، وربما كان قد بدأ في ذلك الوقت تماماً يميل إلى الغرام والهوى اللذين سينعكسان على أعماله التالية. وفي المقالة الأولى، يصف بكل وضوح جسد أنثى شابة متأملاً: "ويفكر في أن هذا كله سيسكنه الموت يوماً ما"، ثم ينهي الفقرة الأولى بعبارة: "نفكّر في أن هذا الألم الكامن في داخلك والبعيد جداً عن جسدي سيجد يوماً ما علاجه الأخير"[20].



في الوقت الذي نشرت فيه المقالة الثالثة، اكتشف الأديب الشاب واحدة من أفكاره الرئيسية التي تجلت بشكل كلاسيكي في روايته **الحب في زمن الكوليرا**: يمكن للحب أن يستمر إلى الأبد، لكن من الأرجح أن يزهر ويموت في أقصر وقت شأنه شأن المرض[21]. لن ينسى إلّا القليل من الزوار الذكور رؤيتهم أول مرة للنساء المراهقات الكاريبية مثل كارثاخينا أو هفانا، المثيرات للشهوة بشبابهن الداخلية، وعاش غارسيا ماركيز في شبابه الدعارة الكاريبية وهي في أوجها. لكن راميرو دي لا إسبريّا يتذكر أن غارسيا ماركيز لم يذكر من الفتيات المحترمات لرصيفات سوى فتاة واحدة هي ميرثيديس التي كانت يومئذ تلميذة مدرسة في السادسة عشرة من عمرها: "لكنني لا أتخيل ما الذي رآته فيه، فقد كان مجرد طفل، عديم الشأن، تعلو وجهه البثرات الصغيرة، يعاني الملاريا، ويبدو سقيماً، ويفتقر إلى أي علة بدنية .. ولو رأيته في الشارع حسبته شاعباً"[22].

كان أفراد أسرة ميرثيديس ومعظم أفراد أسرة غارسيا ماركيز لا يزالون في بلدة سوكري، غير أن لويس إنريكي كان يعيش في بارانكيا وكان يكثر من السفر إلى كارثاخينا في عطلات نهاية الأسبوع وفي أثناء العطلات الأخرى. "كان غابيتو يفعل في كارثاخينا ما كان يفعله في بوغوتا وهو التظاهر أنه يدرس الحقوق لكنه كان منهمكاً في الكتابة في حقيقة الأمر"[23]. كان ذلك العصر هو عصر أغاني البوليرو الأمريكية اللاتينية العظيمة التي يؤديها ثلاثة مغنين، وكان لويس إنريكي يحلم بإنشاء فرقته الثلاثية؛ "وكان مثل هذا الأمر يثير هم أبي أكثر مما تثيره الكتابة التي يمارسها غابيتو"[24].

في هذا الوقت تقريباً تلقى ثابالا رسالة من ثالاميا بوردا الموجود في بوغوتا يسأل فيها عما حدث لنشاطات الشاب غارسيا الأدبية. في الحقيقة، تخلى غارسيا ماركيز عن كتابة القصص في هذه المرحلة، لكن لم يكن يرفض طلباً لثالاميا، لهذا أسرع بتنقيح قصة أخرى بعنوان **الوجه الآخر للموت** فنشرت في الاسكتادور في الخامس والعشرين من تموز عام 1948. لا بد من أن غارسيا ماركيز أشبع غروره، وشعر بارتياح عميق وهو يرى شخصاً مؤثراً وفائق الأهمية لا يزال يفكّر فيه، ويعزز من اهتماماته ببوغوتا.



في السادس عشر من شهر أيلول عام 1948، سافر غارسيا ماركيز إلى باررانكيا في مهمة أوكلته الصحيفة بها، ولكنه بدلاً من أن يستقل الحافلة للعودة مباشرة إلى كارثخينا، قرر أن يزور بعض الزملاء الصحافيين الذين أوصى بهم أصدقاؤه في كارثخينا، فكان ذلك القرار قراراً تاريخياً آخر، إذ انطلق صوب مكاتب صحيفة الناسيونال حيث كان يعمل كل من خيرمان فارغاس وألفارو سيبيدا اللذين كانا عضوين في جمعية بوهيمية محلية أصبحت تعرف لاحقاً باسم *جماعة باررانكيا*[25]. في تلك الأمسية الأولى خطبت مساهمة غارسيا ماركيز المتحمسة والحكيمة في المناقشات الأدبية بإعجاب العضو الثالث في الجمعية ألفونسو فوينمايور الذي كان يعمل مساعداً لرئيس تحرير صحيفة الهيرالدو الليبرالية فطلب الأخير من غارسيا ماركيز أن يزوره قبل أن يعود أدراجه إلى كارثاخينا.

ابتهج غارسيا ماركيز عندما وجد أن هؤلاء الصحافيين الصارمين، على ما يبدو، يعرفونه بفضل شهرته، فعاملوه كأخ عاق من فقد أخاً منذ زمن طويل، وعاد ليجده أمامه، وعرّفوه إلى المرشد الأدبي المحلي الأديب الكاتالوني رامون بينيس، وصحبوه إلى مشرب وبيت لبنات الهوى شبيها بأسطورة أوفيميا السوداء التي خلّدها في رواية مئة عام من العزلة. هناك ختم غارسيا ماركيز انتصاره الشخصي وارتباطه بالجماعة عندما غنّى أغاني المامبو والبوليرو لأكثر من ساعة. أمضى ليلته في منزل ألفارو سيبيدا الذي كان، خلاف الآخرين، في مثل سنه وله ذوق غارسيا ماركيز في لبس القمصان المزركشة والملابس الفضفاضة، وكان أيضاً طويل الشعر، ويصعب صدلاً بحيث يبدو وكأنه من رواد الهيبز. كان سيبيدا يتميز بصوته العالي المدوي بالدوغمائية، وأخذ غارسيا ماركيز إلى جدار صُفّت عليه كتب أكثرها أميركية شمالية وإنكليزية: "هذه هي أفضل الكتب الرائجة، وهي الوحيدة الجديرة بأن يقرأها الذين يعرفون كيف يكتبون. وفي وسعك استعارتها كلها إن شئت".

حسب المذكرات، أرسلت في صباح اليوم التالي روايه إلى غارسيا ماركيز عنوانها أورلاندو لأديبة لم يسمع بها من قبل وهي فرجينيا وولف التي يبدو أن سيبيدا كان يعرفها معرفة شخصية إذ كان ينعتها دوماً بوولف العجوز، تماماً مثلما كان جميع أفراد الجماعة على علاقة حميمة مع أديبهم المفضل وليم فوكنر الذي

كانــوا يعتــونه بالرجل العجوز[26]. بعد كل هذه السنوات، تظل الحماسة التي أظهرها هؤلاء الرجال الأشداء لأعمال السيدة وولف الروائية موضع دهشة. ويتذكر الأصدقاء أن غارسيا ماركيز تولاه العجب في ذلك الوقت بسبب سطر غير جدير بسيدة على ما يظهر بالرغم من أنه قرأه في إحدى رواياتها: "الحب هو أن تخلعي سروالك"، وهــو تــرجمة حــرة لعــبارة الحب ينسل من سترة المرء الواردة في أورلانــدو[27]. ربما كان هذا الاقتباس أكثر من وجهة نظر عن العالم أبلغ بكثير مما قد يبدو لأول وهلة. على كل حال، قال غارسيا ماركيز للجميع إن فرجينيا كانت "عجوزاً فطة"[28].

اقتــرب وقت امتحانات السنة الثانية فانتاب اليأس غارسيا ماركيز، إذ كان حضوره غير منتظم - خمسة عشر غياباً مسجلاً رسمياً - ولم يستوعب إلا القليل مما كــان يسمعه. ويتذكر أحد زملاء صفه قائلاً إن غارسيا ماركيز "كان يعمل حتى الساعة الثالثة صباحاً في الصحيفة لينام بعدها فوق ورق الجرائد المخصص للطباعة حتى الساعة السابعة، وهو الوقت الذي تبدأ فيه الدراسة. وكان يكثر من القول إنه كــان يــضطر إلى الاستحمام في وقت لاحق لأنه لا يملك الوقت للاغتسال قبل الحــضور إلى الجامعــة"[29]. اجتاز السنة الدراسية عموماً، لكن الإخفاق في مادة القانــون الروماني عاد ليقض مضجعه سنوات طويلة، ولعله كان حاسماً في التأكيد على أنه لن يغدو محامياً أبداً.

في غضون ذلك، ألهمته صلته بجماعة بارانكيا - ومنحته الثقة بالنفس - للبدء بكــتابة روايــته الأولى التي وضع لها عنوان البيت، وقد كانت رواية عن ماضيه الشخــصي؛ ربمــا كانت رواية يفكّر فيها منذ عهد بعيد. لقد بدأ كتابة الرواية في النــصف الثاني من العام 1948، وانكب عليها انكباباً في مطلع العام 1949. كان صــديقه راميرو دي لا إسبرييا وشقيقه أوسكار يقطنان في مــنزل والديهما الذي يعــود إلى القــرن التاســع عشر في شارع باديو الثاني، وهو إحدى مناطق المدينة المــسورة القديمــة. كان غارسيا ماركيز كثير التردّد عليهما، وغالباً ما يأكل هناك ويمضي ليلته عند اقتضاء الحاجة. كان البيت يضم مجموعة كبيرة من الكتب، وغالباً ما كان غارسيا ماركيز يُشاهَد وهو يقرأ عن التاريخ الكولومبــي في المكتبة. يتذكر

أوسكار، وهو أكبر الشقيقين سناً "سمّاه أبي "الحقوقي الشجاع" لأنه قال إن ارتداء الثياب التي يرتديها يتطلب شجاعة فائقة... أما أمي فأحبته حبها لابنها.. كان يأتي حاملاً رزمة كبيرة من الأوراق مربوطة بربطة عنق، فيها ما كان يكتبه، فيجلس، ويفك ربطة العنق، ويقرأ أمامنا"[30].

من خلال المقتطفات التي بقيت طويلاً، ونشرت في ما بعد في صحيفة الهيرالدو في بارانكيا، يمكننا أن نلاحظ أن أحداث الرواية تجري في بيت يشبه إلى حدٍّ ما بيت جدّي غارسيا ماركيز، كما أنها تذكرنا بفوكنر موضوعاً لا أسلوباً. كانت رواية مثيرة للاهتمام، وتنطوي على جهد، لكنها عديمة النكهة، لا توحي أي من فقراتها بالتأثر بفوكنر أو جويس أو حتى فرجينيا وولف، شخصياتها تشبه جده وجدته وأسلافهم. أما المكان فيشبه أراكاتاكا، والحرب مشابهة لحرب الألف يوم، إلا أنه لم يتمكن في هذا الوقت من تجاوز السرد الذي ينحو منحى العرض ذي البعد الواحد الذي تعوزه الحيوية أو الروح. يبدو أن غارسيا ماركيز لم يتمكن من الهروب من البيت، أو بعبارة أخرى، لم يستطع فصل رواية **البيت** عن البيت، الرواية عن مصدر إلهامها. بالرغم من هذا، يستحيل أن نشك في أن جذور **مئة عام من العزلة** موجودة هنا بما فيها من موضوعات عن العزلة والحنين إلى الماضي والمجتمع الأبوي والعنف التي تنتظر كلها النبرة والمنظور الواضحين اللذين لم يظهرا إلا بعد أكثر من عقد من الزمان. يتمثل جزء من الحقيقة بأن غارسيا ماركيز لم يتمكن تماماً بعد من السخرية من ثقافته. إذ كان يتعذر في ذلك الزمان أن يكون أي شيء مرتبط بنيكولاس ماركيز مضحكاً أو ساذجاً، لكن المفارقة هي أنه لم يفطن بعد إلى ربط عالم كافكا الفانتازي بعالم ذكرياته الحقيقي[31].

في آذار من العام 1949 داهمه مرض شديد فجأة. وبحسب شهادته، كانت المواجهة السياسية مع ثابالا هي التي أشعلت شرارة الأزمة. ففي ليلة ما من أواخر شهر آذار، كان غارسيا ماركيز يجلس في مطعم الكهف برفقة ثابالا الذي كان يتناول العشاء في وقت متأخر من الليل. كان غارسيا ماركيز قد بدأ يتصرف تصرفاً سيئاً على نحو متزايد منذ رحلاته إلى بارانكيا، فيعمل بغير انتظام في جريدة الأونيفرسال ويظهر ما يشير إلى تمرد مراهق يفتقر إلى التركيز بسبب صلته بالفارو



ميبيدا" توقف ثابالا عن تناول حسائه ونظر من تحت نظارته وقال بحدّة: "قل لي يا غارسيا: هل لاحظت وسط كل تصرفاته الغبية أن هذه البلاد تسير نحو الدمار؟"(32). أصيب غارسيا ماركيز بالذهول. فاستمر في الشراب حتى انتهى به الأمر إلى أن يستغرق في النوم على مصطبة في شارع الشهداء. استيقظ في صباح اليوم التالي بعد أن توقف هطول المطر المداري مبلل الثياب يعاني التهاباً رئوياً. عندما شُخّص الالتهاب الرئوي قرر العودة إلى سوكري والبقاء فيها أطول مدة ممكنة ليتماثل للشفاء في بيت والديه، وإن لم تكن الوجهة مثالية لمريض يعاني التهاب الشعب الهوائية لأن مستوى المياه المحيطة بسوكري ارتفع أكثر من أي وقت مضى، وطغى على البلدة التي غالباً ما كانت تتعرض للفيضان كما في ساعة نحس وقصة موت معلن.

سيتبين أن تلك العودة إلى البيت كانت مهمة. فقد قال غارسيا ماركيز إنه توقع إلى حدٍّ ما أن تستمر إقامته هناك ستة أشهر بالرغم من أنه في النهاية لم يمكث أكثر من ستة أسابيع. ولم تكن تلك الإقامة هي الأطول التي يمضيها مع الأسرة منذ سنين وحسب، بل كانت أيضاً زيارة كان يعلم مسبقاً أنها ستجعله أسير البيت لوقت طويل. ولم يدرك ذلك في حينه، غير أن ثورة هادئة لا واعية بدأت تعمل عملها في أعماقه بعد أن كبر عدد من أخوانه وأخواته. ثورة بطيئة لا تُحدث أثرها مباشرة، لكنها حاسمة على المدى البعيد بالنسبة إلى حياته وتفكيره الأدبي والتاريخي. في وسع المرء أن يقول إنه سيبدأ بإضافة الأحياء إلى الأموات الذين كانوا يستحوذون على مخيلته.

بعد أن بات غارسيا ماركيز صحافياً بدأ أيضاً ينسب إلى سوكري. كانت إحدى الأساطير المحلية إثارة للاهتمام بالمنطقة تتمثل في أن ماركيزيتا دي لا سيربي، وهي امرأة إسبانية شقراء يُفترض أنها عاشت في مستوطنة لا سيربي (سيربي تعني أفعى) النائية ولم تتزوج أو تعاشر أي ذكر، كانت لديها قدرات هائلة، ومزرعة مترامية الأطراف بمساحة عدة بلديات، وعاشت أكثر من مئتي عام. كانت في كل عام تطوف في الإقليم تعالج المرضى، وتمنح الإحسان لأولئك الذين تحميهم. وقبل أن تموت أحضرت قطعانها من الماشية لتستعرض أمام المسرب



فاستغرق ذلك تسعة أيام إلى أن تشكل بفعل ذلك مستنقع (ثيغا) لا سربي. جنوب عربي سوكري بين مجري ساو خورخه وكاوكا. ثم دفنت ما تبقى عدد من أعلى المقتنيات والكنوز في استنقع مع سر الحياة الأبدية، ووزعت بقية ثروتها بين الأسر الست التي كانت تسهر على خدمتها"[33].

إن هذه الأسطورة التي رواها لغارسيا ماركيز صديقه آنخل كسيخ بالتيا، بن عم خوسيه بالتيا، وغيرها من الأساطير التي يشاء أن يجمعها بنفسه، لم تساعد على بناء أساس سلسلة من المقالات الرائعة التي بدأ بكتابتها بعد ثلاث أو أربع سنوات وحسب، بل ألهمت أيضاً إبداعه الأدبي الذي يفوق الوصف للأم الكبيرة الذي سيغدو العلاقة الأولى التي لا تدع مجالاً للشك في أسلوب غارسيا ماركيز الناضج في أواخر خمسينيات القرن العشرين. أما المكوّن الآخر، فكان يتمثل بسيدة ثرية تقيم في سوكري، وتسكن بجوار أسرة خيتلي خيمينو التي كانت ترتبط بصداقة مع أسرة غارسيا ماركيز. كانت السيدة تدعى ماريا أماليا ساما بودي ألفارير، وكانت تكثر من ازدراء التعلم والثقافة، وتتباهى بلا حدود بثروتها. وعندما توفيت في العام 1957 جرى لها تشييع مبالغ فيه على نحو يدعو للغرابة[34]. وثمة قصة أخرى موازية في غرابتها عن فتاة في الحادية عشرة من عمرها اضطرت إلى احتراف البغاء بتشجيع من جدتها. وبعد سنوات عديدة تتجسد في شخصية عدد من بطلاته لا سيما *إيرنديرا*[35].

بدأت الآن قصة تطوره روائياً تطرح الأسئلة في أجلى صورها الدرامية. لقد لمّح غارسيا ماركيز في رسالة بعث بها إلى أصدقائه في بارانكيا أن إرسال شحنة من الكتب ستلقى الترحيب في مواجهة قفر سوكري وفظاظة بيت والديه[36]. ووصلت الكتب في حينه، وكانت تتضمن مؤلفات فوكنر: **الصخب والعنف**، **والقرية الصغيرة**، **وبينما أرقد محتضرة**، **والنخلات المتوحشات**، ورواية **السيدة دالاوي** لفرجينيا وولف، **ومم مانهاتن** لدوس باسوس، **وفئران ورجال وعناقيد الغضب** لشتاينبيك، **وصورة جيني** لناثان، **ونقطة مقابل نقطة** لهاكسلي. لكن لسوء الحظ كانت نتيجة قراءة هذه الكتب المتألقة من الأدب الحداثوي قد جعلت كتابة رواية **البيت** تتوقف تقريباً[37]. يضاف إلى ذلك، وفيما كان غارسيا ماركيز يتماثل

للشفاء، بدأ يعود إلى نشاطاته التي كان يزاولها في أثناء وقت الفراغ - لم تقتصر على لا سييرب - ولكنه عاد إلى علاقته مع بيرومانتا الشهوانية (التي أصبحت الآن بلا زوج) مما أثار كثيراً من استياء لويسا سانتياغا - كما اتخذ له بعض الأصدقاء الجدد، ومنهم كارلوس أليمان من مومبوكس، والذي يتذكر وصوله إلى بلدة سوكري في أيار من العام 1949. "وقف وسط الحشد الذي تجمع لتحيتنا عند وصولنا من الأكواخ رجل يرتدي زياً غريباً: بنطالاً أسود وقميصاً أصفر، وينتعل صندلاً ريفياً. فقلت لراميرو: من ذلك الشاب الصغير الهزيل؟ فردّ: *ذلك هو غابيتو*... كان يقف مرتدياً تلك الثياب، في حين كان الجميع يلبسون الكاكي"[38].

هكذا انضم غارسيا ماركيز الذي كان يفترض به أن يمضي فترة النقاهة من مرضه إلى تلك الجماعة مع صديقه جاكوبو كاسيج، وهو ليبرالي متشدد آخر، وانطلقوا في رحلة في جميع أرجاء موخانا مستقلين ثلاثة زوارق يرفع كل واحد منها رايات الليبراليين، ويحمل براميل الشراب وفرقة موسيقية. كان أنصار الليبراليين يخرجون على ضفتي النهر على حين غرة وحياء الناخبين، وهم الملاك الليبراليون عادةً، مآدب الطعام واللقاءات حيثما حلّوا. ويستذكر أوسكار دي لا إسبرييا بعد سنتين: "لقد كنا ماركسيين في تلك الأيام، ننتظر الثورة، لكن كارلوس ييراس لم يصدر الأوامر قط"[39].

بحلول منتصف شهر أيار، شعر غارسيا ماركيز أن في وسعه العودة إلى ممارسة نشاطاته في كارثاخينا بعد أن تحسنت صحته. لكن بما أن صديقه كارلوس أليمان أصبح حديثاً عضواً في مجلس المديرية، فإنه لم يكن مدركاً أكثر مما مضى أهميته الذاتية، لذلك استغل مكانته الجديدة وميزانيته المالية لتنظيم حملات سمر بين حين وآخر منحت صديقه المفتقر ما يكفيه من الطعام لمدة أسبوع، وكان ينتهي به المطاف أيضاً إلى المبغى[40].

عندما رجع غارسيا ماركيز من سوكري وكتب مقالته المطلوبة التالية - وكانت آنذاك ظاهرة نادرة جداً - حول انتخابات ملكة جمال الطالبات، فإنه لم يوقعها باسمه غابرييل غارسيا ماركيز وإنما وقعها باسم سيبتيموس الذي استوحاه من شخصية بذلك الاسم في رواية **السيدة دالاوي** لفرجينيا وولف[41]. تتميز تلك



المقالة الأولى في سلسلة مقالات موقعة بذلك الاسم يبرزها الوثقة المؤالة إلى العطرسة وتتصمن عبارة التحدي التالية: "نحن الطلاب اكتشفنا صيغة لحالة مُثلى: التوافق بين مختلف الطبقات الاجتماعية، والمرتبات العادلة، وتوزيع القيمة الفائضة توزيعاً عادلاً، وحل البرلمانات مدفوعة الأجر، والامتناع الشامل والجماعي عن الانتخابات"

لقد أهمل غارسيا ماركيز إهمالاً خطيراً دراسة الحقوق قبل أن يداهمه المرض، وأهملها إهمالاً متعمداً أكثر في ما بعد. لقد بات ذائع الصيت في إعلانه عن مقته الحقوق وتنظيم مباريات كرة القدم تنظيماً مرتجلاً في أروقة الجامعة رفيعة الشأن. ويكمن الخطر في أنه لو حاز على شهادة المحاماة فقد تجبره - أو تجبره أسرته أو ضميره - على ممارستها. لقد كانت دراسة الحقوق في كارثخينا مملة ورتيبة أكثر مما هي عليه في بوغوتا. في نهاية الأمر أخفق في القانون الطبي (في نظر غابرييل إليخيو؟) وفي الحلقة الدراسية حول القانون المدني، ولكنه نجح بصعوبة في القانون المدني نفسه، واجتاز خمس مواد أخرى. إلا أن هذا يُعد إنجازاً في ضوء غياباته الكثيرة. ومع هذا، فهو لم ينجح في مادة القانون الروماني، وهكذا انتقل إلى السنة الرابعة محمّلاً بثلاث مواد[42].

كانت السنتان 1948 و1949 سنتين عجيبتين على المستوى العالمي، إذ كانتا من أكثر السنين توتراً وحسماً في القرن العشرين برمته. كان غارسيا ماركيز في بوغوتا عندما بدأ النظام الأميركي الداخلي في القارة؛ وهو نظام يخدم إلى حدّ كبير مصالح الولايات المتحدة التي هيمنت على المناقشات في أوروبا بشأن تأسيس الأمم المتحدة. ورتبت ترتيباً رمزياً كافياً نقل اجتماعات المنظمة الجديدة من لندن إلى نيويورك. كما أعلن الرئيس ترومان الذي كان قد اتخذ قراراً لم يمض عليه زمن طويل، بقصف اليابان بقنبلتين ذريتين، ألا وهما حملة صليبية عالمية ضد الشيوعية - وكانت السي آي أيه قد شُكّلت في العام 1947 لتكون جزءاً من المعركة ضد الشيوعية، ودعم انتا ضمناً الحصر الأميركي. لقد أفلح ترومان في إعادة انتخابه استناداً إلى هذا الوضع. كما أُسست دولة إسرائيل بدعم كامل من الدول الغربية، وظهر حلف الناتو إلى الوجود، وفرضت جمهوريات الاتحاد السوفياتي الاشتراكية حصاراً على برلين فردّت الولايات المتحدة الأميركية على ذلك بجسر جوي،

فأجـرى الاتحاد السوفياتي تجربة على قنبلته الذرية. في الأول من تشرين الأول عام 1949 أعلـن عن تأسيس جمهورية الصين الشعبية. وفي حين اتخذ غارسيا ماركيز قـراره أخيـراً بأن يتولى زمام أموره بنفسه والانتقال إلى كارتاخينا، أصبح النظام الدولي الجديد الذي سيدير دفة العالم في أثناء حقبة الحرب الباردة التي أعلنت مؤخراً راسخ الجذور. هذا هو سياق حياة الفتى البالغ وزمانه.

في هـذه اللحظـة، ظهر في طريق غارسيا ماركيز مرة أخرى مانويل ثاباتا أوليفـيا، ذلـك المتـشدد الأسود والأديب والثوري والطبيب، وسيتكرر ظهوره مستقبلاً أكثر من مرة. فصحبه مانويل معه ليشاهد ولأول مرة مقاطعة باديا القديمة، المـستنقع المفصل والمألوف للعقيد ماركيز في أثناء حرب الألف يوم. كان ثاباتا قد تخرج مؤخراً من الجامعة الوطنية في بوغوتا. وبالرغم من أنه من مواليد كارتاخينا، فقـد كان يسافر لممارسة مهنته الجديدة في بلدة لاباث الصغيرة الواقعة عند سفح سـييرا نيفادا على بعد اثني عشر ميلاً تقريباً من بايدوبار. دعا ثاباتا صديقه غارسيا ماركيـز ليذهب وإياه إلى محل إقامته الجديد فما كان من الفتى الشاب إلا أن بادر باستـغلال الفرصة وقبول الدعوة. فالتقى هناك في لاباث وبايدوبار بمغنين في بيئتهم الطبيعية - لا سيما عازف الأكورديون الأفرو - كولومبـي المؤثر أبيليتو أنطونيو بيّا وهو أول من سجل موسيقى الفاليناتو[43].

بحلول الوقت الذي عاد فيه غارسيا ماركيز إلى كارتاخينا، كان قد استقر رأيه أخيـراً: حان الوقت للرحيل. فمدينة كارتاخينا ستكون ملائمة أكثر له إذ يستطيع أن يـأنس فيها تراثه الثقافي. كان آخر ظهور له في كارتاخينا في حفلة أقيمت في الـثاني والعشرين من شهر كانون الأول احتفالاً بنشر رواية ضباب أزرق لصديقه خورخه لي بيسوين كورتيـس البالغ من العمر سبعة عشر عاماً، فأثنى عليها ثناءً قليلاً في مراجعة انتقصت من قدرها في جريدة الأونيفرسال.

يتذكـر أوسكار دي لا إسبرييّا غارسيا ماركيز وهو يغني "أول أغنية فاليناتو سمعهـا". على حدّ تعبيره وكان مطلعها الأول هو: "سأقدم إليك باقة من زهور لا تـذبل وسـتعطيني ما يحبك به قلبها"[44]. لقد استخدم هذا المقطع من الأغنية استـخداماً ضمنياً عدد من الأدباء في كارتاخينا للإشارة إلى أن غارسيا ماركيز لم



بس – ولم يسكر حقاً – ظلم المدينة وحدها، بما فيها من قيم الطبقة العليا الرجعية والمتشائمة وحسب، بل أصدقاءه أيضاً الذين مدّوا له يد العون، وزملاءه الذين أطعموه، وفوق هذا كله رئيس التحرير الذي أحبّه وعلّمه كليمنتي مانويل ثابالا الذي لم يذكر غارسيا ماركيز اسمه علانية إلا في مقدمة **الحب وشياطين أخرى** في العام 1994[45].

في الحقيقة، سيذكر الفتى الشاب بوضوح جميل عدد معين من الأفراد في فترة لاحقة من حياته، كما أنه سيظل يُغمض دور كارثاخينا في تطوره. ولكن من الواضح أيضاً هو أن أدباء كارثاخينا يبالغون في مزاعمهم عن تأثير المدينة ومثقفيها في الروائي الناشئ، ويقللون من شأن مدى معاناته طوال مدة علاجه فيها. لقد كان غارسيا ماركيز صبياً فقيراً طوال السنوات السبع التي أمضاها في المدرسة، وكان يعتمد على عطاءات الآخرين وإحسانهم. وفي بوغوتا، كان دوماً بحاجة إلى المال. وفي كارثاخينا – وفي بارانكيا في ما بعد – وصل به الفقر حدّ العوز. لكنه تمكن على نحو ما من أن يرسم على شفتيه ابتسامة وأن يكون إيجابياً دائماً في تلك السنين. يؤكد الشهود، سواء أكانوا أصدقاء أم غير أصدقاء، على حدّ سواء، أنه لم يعبّر قط عن شعوره بالأسى على نفسه ولم يطلب إحساناً. أما كيف حافظ على رباطة جأشه، وكيف استمر واثقاً من نفسه، وكيف بنى عزمه وتصميمه وتمكن من ابتكار مهنة وتطويرها في تلك الظروف القاسية مع أسرة مؤلفة من عشرة أطفال أصغر منه سناً، ويحيون حياة فقر إلى حدّ ما، فهو أمر لا يمكن أن يفسر فقط بكلمات مثل الشجاعة وقوة الشخصية والإصرار الذي لا يتزعزع





-7-

بارانكيا وبائع كتب وجماعة بوهيمية

1953-1950

"أعتقد أنه ذهب إلى بارانكيا بحثاً عن هواء نقي وحرية أكبر وأجر أفضل"[1]

بهذه العبارة يوضح راميرو دي لا إسبرييًا، بعد أكثر من أربعين عاماً، قرار صديقه بالانتقال من مدينة كارتاخينا التاريخية إلى ميناء بارانكيا الحيوي على بعد ثمانين ميلاً إلى الشرق. عندما رحل غارسيا ماركيز عن كارتاخينا بنهاية شهر كانون الأول عام 1949، كان خطر التجوال قد فُرض مرة أخرى ولم يكن سهلاً الوصول إلى بارانكيا في وقت متأخر من العصر قبل أن يسري مفعول الحظر. كان معه مئتا بيزوس وضعتهما أمه لويسا في جيبه بعد أن استحوذت عليها سراً، بالإضافة إلى مبلغ آخر غير محدد من المال أعطاه إياه ماريو الاريد دي فيليبو أحد أساتذته في الجامعة. كان يحمل معه مسودة رواية البيت في محفظة جلدية سبق أن سطا عليها في بوغوتا وكان، كعهده، قلقاً من أن تضيع منه أكثر من قلقه على احتمال فقدانه نقوده. كان مكتئباً بالرغم من أنه سيمضي عطلة ميلاد أخرى وحيداً. على كل حال، وكما يعرف في ما بعد حتى أحد المعجبين بكارتاخينا "كان الوصول إلى بارانكيا في تلك الأيام أشبه بالرجوع إلى العالم، إلى المكان الذي تحدث فيه الأشياء حقاً"[2]. كان ألفونسو فوينمايور قد وعد غارسيا ماركيز بأنه سيقيم الدنيا ويقعدها حتى يجد له وظيفة في صحيفة الهيرالدو.

كانت بارانكيا مدينة بلا تاريخ تقريباً، بلا أي مبانٍ مميزة، لكنها كانت حديثة وتجارية وحيوية، تحتمي بالوافدين، بعيدة النقد كله عن العنف الذي كان يحرق داخل البلاد. سكانها يُقدَّرون بحوالى نصف مليون نسمة. وقد أخبرني غارسيا ماركيز في



العام 1993. "لقد ساعدتني بارانكيا كي أصبح أديباً، ففيها أعلى نسبة من السكان المهاجرين إلى كولومبيا من عرب وصينيين وغيرهم. كانت أشبه بقرطبة في العصور الوسطى: مدينة مفتوحة تحتشد بالمثقفين الذين لا يبالون أبداً بكونهم مثقفين"[3].

كان المؤسس الروحي ما أصبح يعرف في ما بعد باسم جماعة بارانكيا هو رامون بينيس الكاتالوني الذي قُدِّر له أن يصبح بائع كتاب مئة عام من العزلة الحكيم[4]. كان رامون قد ولد في قرية بيرغا الجبلية في العام 1882، ونشأ في برشلونة، واكتسب شهرة قليلة في إسبانيا قبل رحيله إلى ثيافا في العام 1913. ولا تزال الشائعات تروج حتى يومنا هذا في بارانكيا عن أنه كان مثلي الجنس شاذ، ويبدو أن هناك من الدلائل ما يجعلها صحيحة. وهكذا تبيّن أن كلاًّ من معلّمي غارسيا ماركيز الأساسيين في أثناء فترته الكاريبية، ثابالا وبينيس، ربما كانا مثليي الجنس. وعندما بدأ غارسيا ماركيز يتعرف إلى بينيس وهي معرفة قصيرة - كان الأخير في أواخر العقد السادس من عمره. كان يميل إلى البدانة، ذا كتلة من شعر أبيض وخصلة على جبينه لا سبيل إلى السيطرة عليها تشبه جناح ذا عرف. وتمكن من أن يبدو مهيباً وكريماً. وبالرغم من أنه لم يكن مدمناً على الشراب، فإنه كان متحدثاً رائعاً، وكان حسه الفكاهي دقيقاً وإن كان لاذعاً، وفي بعض الأحيان قد تبدو صراحته قاسية[5] كان يحظى بامتياز هائل وسط الجماعة، وكان يدرك أنه ليس كاتباً عظيماً، لكنه كان قارئاً نهماً، ويمتزج فكره عن الأدب بالكاثوليكية والفطنة. لم يكن يملك يوماً الكثير من المال، ولكن لم ينقصه المال أبداً. وهو الذي منح الجماعة تماسكها وثقتها بأن المرء يمكنه أن يصبح متعلماً حتى لو كان في مدينة مغمورة، تبدو مفتقرة إلى الثقافة، وبلا تاريخ وبلا جامعة وبلا طبقة حاكمة مثقفة. كان من السهل عليه أن يبدو معاصراً ومن أقواله التي لم ينسها غارسيا ماركيز: "لو عاش فوكنر في بارانكيا، لجلس وراء هذه المنضدة"[6]. ربما كان ذلك صحيحاً. من موضوعاته الأساسية، أن العالم بدأ يصبح قرية عالمية وذلك قبل سنوات عديدة من مجيء مارشال ماك لوهن بهذه الفكرة.

كان ألفونسو فوينمايور المولود عام 1917 وابن الأديب المحترم خوسيه فيليكس فوينمار أكثر الأعضاء الشبان هدوءاً وربما أكثرهم اتزاناً، لكنه كان أيضاً



أكثـــرهم أهمية ويرجع سبب ذلك إلى، أولاً: ارتباطه المباشر بالجيل الأقدم، وثانياً: لأنـــه هو الذي جمع كل الآخرين معاً من خلال علاقاته السابقة. وثالثاً: لأنه من اقتـــرح على غارسيا ماركيز الانتقال إلى صحيفة الهيرالدو التي عمل فيها فوينمايور نفـــسه علـــى مدى ستة وعشرين عاماً. ولما كان واسع القراءة باللغات الإسبانية والإنكليـــزية والفرنسية، فقد بدا على محياه أنه يعاني من ضعف البصر، وأنه هادئ وحكيم لكنه كان مثلهم أيضاً معتاداً على الشراب. كان يعاني من الفأفأة، وإن بدا الشراب علاجاً لها. كما كان مولعاً بالأدب الكلاسيكي وبالمعاجم، وكان بلا أدنى ريب أكثر أعضاء الجماعة اطّلاعاً وقراءة.

كـــان جيرمان فارغاس صديق فوينمايور وزميله الحميم. ولد في بارنكيا في العام 1919، بدا طويل القامة، ذا عينين خضراوين ثاقبتين، لا يشبع من القراءة، إلا أنه كان بطيئاً ومتأنياً في كل شيء يقوم به وله لأقاصيه عليه. وإذا كان فوينمايور متلعثماً عـــلى نحو يتعذر تجنبه ومُهملاً ومضحكاً بالرغم من جدّيته ورزانته، فإن فارغـــاس كان دائماً أنيقاً، يرتدي قميصاً أبيض اللون، وكان فظاً في أحكامه[7]، وإن بـــدا قاســـياً في بعض الأحيان، ويُعتَمَدُ عليه. (وهو الذي أرسل إليه غارسيا ماركيـــز في مـــا بعد مخطوطاته لتطبعها الطبعة الأولى، وهو الذي سيكتب غارسيا ماركيـــز طالباً إليه أن يسعفه بالكتب أو بالمال). كان مسرفاً في التدخين، وكلما كان التبغ أشد اسوداداً كان أفضل، وكان هو وفوينمايور أكثر أفراد الجماعة حباً للحلوى والشراب، وبخاصة ذلك المزيج من الشراب والليمون[8].

أمـــا ألفارو سيبيدا ساموديو فكان المحرك النشط في الجماعة، هي الطبعة، أنيق المظهـــر، تعلو وجهه أوسع ابتسامة في العالم، يصعب على النساء مقاومته – ارتبط بعلاقـــات ذائعة الصيت مع فنانات مشهورات في كولومبيا – لكنه أصبح أسطورة بارانكيا إثر وفاته المبكرة في العام 1972[9] وولد في المدينة في الثلاثين من شهر آذار عام 1926 بالرغم من زعمه الدائم أنه ولد في ثيناغا حيث وقعت مجزرة الموز، لأنه أراد أن يـــرتبط مـــولده بذلك الحدث التاريخي الذي قتل فيه السكان الكانشاكو المعقوتـــون الأهالي الساحليين الأبرياء. كان والده سياسياً في حزب المحافظين، جُرِّ جـــوبه، وتوفي عندما كان ألفارو طفلاً صغيراً تاركاً وراءه مسحة من المأساة على

لصـــي تناقض شخصية البشوشة منشرحة الصدر التي يتعذر سياقها بعد أن أصبح راشـــداً. كـــان سيبيدا كتلة من التناقضات يبددها بجمجمة هادرة. مظهره مظهر متسرد، لكنه أصاب ثروة عندما كان في أميركا عامي 1949 و1950، وكان يتمتع بعلاقات وثيقة مع أرستقراطيي بارانكيا بمن فيهم جل لأعمال جوليو ماريو سانتو دومينغو الذي كان عضواً لمدة قصيرة من أعضاء الجماعة، وأضحى في ما بعد أغنى أغنياء كولومبيا وواحداً من أكبر أثرياء أميركا اللاتينية.

هـــناك أليخاندرو أبريغون المتمرد تمرداً يصل حدّ الانتحار، وكان بعيداً عن بارانكيا عندما جاء إليها غارسيا ماركيز. في الحقيقة، كان أبريغون في أوروبا طوال الوقت الذي كان فيه غارسيا ماركيز في بارانكيا. وبالرغم من ذلك، فقد كان يأتي لـــزيارتها بين حين وآخر، وكان عضواً مهماً من أعضاء الجماعة قبل إقامة غارسيا ماركـــيز القـــصيرة فيها وبعدها. كان أبريغون رساماً ولد في برشلونة عام 1920، وكانـــت أســـرته تملك معمل نسيج أبريغون في بارانكيا وفندق برادو الفخم فيها. تـــزوج وطلق مرات عديدة وكان قتلة النساء شأنه شأن سبيدا. كان نموذجاً أعلى للرسام مشبوب العاطفة، بحلول أواسط أربعينات القرن العشرين. كانت شهرته في "رديادة"[1]. في النصف الثاني من القرن، أمسى أشهر رسام في كولومبيا قبل أن يعلو شـــأن فرناندو بوتيرو، وأكثرهم حرارة بالحب والإعجاب. ثيابه المألوفة عبارة عن بـــنطالين اثنين قصيرين الشورت ولا شيء غير ذلك. كانت مآثره الجريئة أسطورية في بارانكيا: فقيل تحدي عدد من جنود المارينـــز الأميركيين بعد أن ساوروا معاملة إحدى بنات الهوى، ولهم بلقمة واحدة جدجداً مدرباً كبير الحجم يعود إلى أحد زملائـــه على موائد الشراب، وحطم باب مشربه المفضل بفيل استأجره من سيرك محلي، وأدى دور وليم تل مع أصدقائه مستخدماً القدح عوضاً عن السهم، وأطلق الـــنار علـــى كلبه الأثير وأصابه في رأسه عندما أصيب بالشلل إثر حادثة مؤسفة، وعـــشرات أخرى غيرها.

هـــؤلاء هـــم اللاعبون الأساسيون لمّا أصبح يُعرف في ما بعد باسم جماعة بارانكـــيا، ومطلـــو الحفل الدائم الذي دُعي غارسيا ماركيز إلى حضوره في مطلع العـــام 1950. هناك الحروب كثر غيرهم، كلهم يضجّون بالحياة ومتمرّدون. في العام

1956، كتب جيرمان فارغاس مشيراً إلى أهواء الجماعة المتنوعة ومتحدثاً عن أصدقائه في ضوء ما بعد الحداثة: "يمكن عدّهم من دون اختيار وبالاهتمام نفسه ظاهرة مختلفة اختلاف رواية يوليسيس لجيمس جويس، وموسيقى كول بورتر، ومهارة ألفريدو دي ستفانو، أو تغنية ويلي مايس، ورسوم إيريكي غراو، وشعر ميغيل هيرنانديز، وحصافة رينيه كلير، وتشجيع رافائيل إيسكالونا، وتصوير غابرييل فيغورولا، أو حيوية أوجينيا السوداء"[11]. كانوا ينظرون إلى الصداقة على أنها أهم من السياسة، وكانوا من الناحية السببية ليبراليين بالرغم من أن سيبيدا كان يميل إلى اتخاذ موقف فوضوية، فيما كان غارسيا ماركيز ينحو منحى التيار الاشتراكي. يوضح غارسيا ماركيز في فترة لاحقة أن في وسع المرء أن يجد بين أيدي هؤلاء الأصدقاء أي كتاب يتمناه. ما كانوا يذكرون كتاباً ما أمامه في وقت متأخر من الليل في المقهى حتى يقدموه إليه في صباح اليوم التالي فيقرأه وهو لا يزال ثملاً[12].

كانت الجماعة مناهضة للبورجوازية على ما يبدو لكن أفرادها كانوا مناهضين أكثر للأرستقراطية. كان سبعة وأربعون مرتبطين بقسم من أكثر المصالح السياسية والاقتصادية والاجتماعية أهمية في المدينة. وكان موقفهم الأكثر إثارة للدهشة - وهو موقف نادر في أمريكا اللاتينية في ذلك الوقت - يتمثل بتعاطفهم مع كثير من الأمور الأمريكية الشمالية. ففي حين كانت بوغوتا، ومعظم أجزاء أمريكا اللاتينية لا تزال أسيرة لثقافة الأوروبية، كانت جماعة باراتكيا تنظر إلى أوروبا على أنها ذات ماضٍ وذات تقاليد، وكانت تفضل عليها نموذج الثقافة الحديثة واضحة المعالم التي تمثلها الولايات المتحدة. لكن هذا الإيثار لا ينطبق بطبيعة الحال على القضايا السياسية لأن الجماعة لم تمتنع عن النقد، وهكذا سبقت بخمس وعشرين عاماً معظم الحركات الأدبية أو الثقافية المهمة في أمريكا اللاتينية.

كان موقف الجماعة قد وضعها في موضع مناهضة الكاتشاكو. وكان أشد المناهضين سيبيدا الذي كان يعتقد اعتقاداً عميقاً بالثقافة الشعبية الكاريبية تجاه ثقافة الإنديز - علاوة على كونه من كبار دعاة التحديث، في وقت لاحق نراه يدعو لتأسيس جمهورية كاريبية. وفي مقابلة أجريت مع الصحافي دانيال سامبر من بوغوتا في العام 1966 نجده يؤكد أن الساحليين ليسوا متسامين ولا يخترعون

الأسرار، أما نحن فلسنا كذابين أو منافقين مثل الكاتشاكو"[13] ولا يملك سامبر، وهو من الكاتشاكو، أي فكرة عن أي من زملائه الكولومبيين يمكن أن يتصمم بسلك الصحاب، وكان يهمه أن تكون شخصيته أكبر من حجمها الحقيقي. وكان سبييدا واحداً من المتحمسين لأدباء أميركا الشمالية من أمثال فوكنر وهمنواي، والمؤيد الأول هوية الجماعة المفضلة.

كان متجمع الجماعة المفضل يقع على بعد بضعة شوارع في وسط بارانكيا. ويقول غارسيا ماركيز في ما بعد "إن العالم بدأ في شارع سان بلاس أو في الشارع الخامس والثلاثين بحسب التسمية الأخيرة"[14]. في الحقيقة، كانت مكتبة موندو على بعد شارع واحد من سان بلاس، بين بروغريسو (الشارع 41) و20 دي خوليو (الشارع 43). وعلى بعد شارع إلى جهة الشرق مقهى روما في شارع سيمون بوليفار. وفي ما وراء ذلك تقع حديقة كولون حيث كان يقطن بينيس على مقربة من شارع السوق الشعبية حيث تشاهد كنيسة سان نيكولاس المعروفة باسم *كاتدرائية الفقراء* على بعد بضع خطوات من مكاتب صحيفة الهيرالدو[15].

كان يمتلك مكتبة موندو شيوعي سابق يدعى خورخه روندون هيديريتش، وكان يُنظر إليها على أنها الخيمة الروحي لمكتبة بينيس التي دمرها حريق في العشرينيات[16]. كانت المكتبة هي المكان الذي يهرع إليه غارسيا ماركيز كما جاء إلى المدينة والمكان الذي وجدته فيه أمه عندما جاءت تبحث عنه بعد مرور بضعة أسابيع على وصوله[17]. إذا كان الشراب يستمر حتى منتصف الليل أو حتى ما بعد منتصف الليل، فالجماعة كانت تنتقل عادة إلى أحد مواخير بارانكيا الكثيرة، وفي أغلب الأحيان في الحي الصيني بالرغم من أن المكان المفضل كان عند "ويفيمي السوداء في أطراف المدينة وعلى بعد ثلاثين شارعاً"[18].

كان غابرييل ماركيز أصغر أفراد الجماعة كلها سناً وأكثرهم سذاجة وافتقاراً إلى الخبرة؛ بحسب ريبارا ميرلانو. غابرييل ماركيز لم يشتم أحداً في كارتاخينا ولم يرقه أن يُشتَم الآخرون أيضاً. لم يكن مسرفاً في الشراب ولا ميالاً إلى الشجار على وجه التأكيد، بالرغم من وجود ما يدل على أنه كان يمارس الزنى سراً وبانتظام.



يقول خيرمان فارغاس: "كان هادئاً وخجولاً مثلي ومثل ألفونسو، وهو أمر مفهوم لأنه كان ينحدر من بلدة أصغر من بلداتنا كلنا... وكان أكثرنا انضباطاً"[19]. لقد كان وظل لسنوات طويلة بلا مأوى خاص به، بلا مال، بلا زوجة، أو حتى بلا صديقة ملائمة في معظم تلك السنوات. (وقد أعفته علاقته شبه المتخيلة بمرثيديس من ضرورة إيجاد صديقة حقيقية وثابتة). كان أشبه بطالب لا نهاية لدراسته، أو فنان بوهيمي. ويقول في وقت لاحق إنه عرف سعادته في ذلك الوقت إلا إنه لم يتوقع أن تستمر[20].

لم يكن قادراً على دفع إيجار منتظم، وانتهى به المطاف إلى أن يحيا زهاء سنة تقريباً في ماخور يدعى مقرات نيويورك، في بناية أسماها ألفونسو فوينمايور ناطحة السحاب لأنها كانت تتكون من أربعة طوابق، وهو أمر غير مألوف في بارنكيا في ذلك الوقت، وفي شارع عرف شعبياً باسم شارع الجريمة قبالة مكتب صحيفة الهيرالدو وعلى مقربة من مسكن بينيس في ميدان كولون. كان الطابق الأرضي مخصصاً للكتاب العدول وبعض المكاتب الأخرى، ويليه طابق بنات الهوى الذي تديره بكل حزم امرأة تدعى كاتالينا الكبرى[21]. استأجر غارسيا ماركيز إحدى غرف القسم العلوي من المبنى بمبلغ بيزوس ونصف في الليلة الواحدة. كانت مساحة الغرفة ثلاثة أمتار مربعة تشبه مهاجع المستشفيات. وكانت إحدى بنات الهوى، واسمها ماريا إينكرناثيون، تكوي بنطاليه الاثنين وقمصانه الثلاثة مرة في الأسبوع. في بعض الأحيان لم يكن لديه المال ليدفع إيجار الغرفة، فيعطي بواب المبنى دلموس رودريغيث نسخة من آخر مخطوطاته لتكون عربوناً"[22].

عاش ما يقارب السنة في تلك الظروف، في ظل ضجيج الشارع والأصوات الأخرى والمناقشات بشأن العمل وعراك قطط الماخور.

صادق غارسيا ماركيز بنات الهوى، ووصل به الأمر أن كتب لرسائل عوضاً عنهن. وكن يعرنه صابونهن ويشاركنه فطورهن، وبين الحين والحين يرد على مجاملاتهن أن يغني لهن أغاني البوليرو والفالساتو العرنية. كان يشعر بعظيم الامتنان عندما أعلن وليم فوكنر ذات يوم أن أفضل مكان يكتب فيه الأديب هو الماخور. "في أوقات الصباح يسود الهدوء والسلام وفي أوقات المساء تقام الحفلات



وبُدار الشراب برفقة أناس يطيب الكلام وإياهم"[23] جمع غارسيا ماركيز عدداً كبيراً من الأحاديث الملهمة على الجانب الآخر من جداره اللواحي ليستفيد منها استفادة كبيرة في كتابة نصوص أدبية لاحقة. وفي أوقات أخرى، كان يقوم بجولات ليلية على غير هدىً برفقة صديقه سائق سيارة الأجرة غويرا (القرد). ومنذ ذلك الوقت صار غارسيا ماركيز ينظر إلى سائقي سيارات الأجرة على أنهم مادح للمطر.

واصل الكتابة بالاسم المستعار سيبتيموس الذي ابتكره في كارتاخينا، وأطلق على عموده اليومي اسم *الزرافة*، تيمناً سرياً بملهمته المراهقة ميرثيديس بسبب رقبتها الطويلة الرشيقة. ومنذ البداية بدت تلك الأعمدة مفعمة بوهج جديد - وإن كان نظام الرقابة لا يزال ساري المفعول - على خفة محتواها.

ظل غارسيا ماركيز محتفظاً بفكره السياسي وتماديه في غيّه - إلى أبعد حدّ ممكن. ففي مطلع حياته المهنية في صحيفة الهيرالدو أظهر أنه لم يتأثر بشعبوية بيرون التي كانت تجر إليها غيرها من اليساريين في أمريكا اللاتينية، وكتب عن زيارة إيفا بيرون إلى القارة العجوز: "المشهد الثاني هو عروة إيفا لأوروبا. ففي عمل ديماغوجي دولي لافت للأنظار بدَّرت على الطبقة العاملة الإيطالية في حركة مسرحية أكثر منها عملاً من أعمال الخير والإحسان - ما يوازي تقريباً مجمل أموال وزارة المالية. وفي إسبانيا رحبت بها الصحف الهزلية ترحيباً حاراً شأن الصحف الأخرى"[24]. وفي السادس عشر من آذار عام 1950 نشر مقالة كشفت عن الفرصة الذهبية التي أتيحت للحلاق الذي يحلق ذقن رئيس الجمهورية يومياً بشفرة مفتوحة[25]، وفي التاسع والعشرين من شهر تموز عام 1950 كتب غير مكترث، وكأنه أحد المعارف الشخصيين، عن زيارة قام بها إلى لندن إيليا أهرنبورغ، أكثر دعاة الاتحاد السوفياتي تأثيراً[26]، وفي التاسع من شهر شباط عام 1951 أعلن بكل جرأة: "ما من مذهب سياسي يثير كراهيتي أكثر من مذهب الكتائبيين"[27]. (في وقت كانت فيه كولومبيا تحت نظام لوريانو غوميث الذي كان أول نظام في أمريكا اللاتينية يعيد العلاقات كاملة مع إسبانيا في ظل حكم فرانكو بالرغم من أنه يرغب في إقامة نظام شبيه بنظام فرانكو).



"إذا كانت إحدى المشكلات الأساسية تتمثل بالرقابة، فإن أحد موضوعاته الرئيسية كان البحث عن موضوع. وقد عالج غارسيا ماركيز كلا الموضوعين معالجة فكاهية في مقالة له بعنوان: رحلة الزرافة التي تصور متاعبه اليومية:

الزرافة حيوان حساس إزاء أدنى حركة يبديها رئيس تحرير. فمن اللحظة التي تنشأ فيها الكلمة الأولى في العمود اليومي؛ في ظل الشجيرات النامية تحت الأشجار الكبيرة... حتى الساعة السادسة من صباح اليوم التالي، تغدو الزرافة حيواناً حزيناً، ضعيفاً، يمكنها أن تكسر ضلعاً من أضلاعها وهي تنعطف في أي منعطف. في البدء، لا بد للمرء من أن يضع نصب عينيه أن قضية أربعة عشر سنتيمتراً من الحماقة يومياً ليست نكتة، بغض النظر عما يبدو عليه الكاتب من حمق مؤقت. ثم هناك قضية رقيبين ثنين: لأول الجالس إلى جانبي قرب المروحة، يحمرّ خجلاً وعلى استعداد لوقف الزرافة من التلون بأي لون سوى اللون المسموح ها به علناً وطبيعياً. ثم هناك الرقيب الثاني الذي لا يمكن قول أي شيء بحقه من دون أن تختزل رقبة الزرافة الطويلة إلى أصغر حدّ ممكن. أخيراً، يصل هذا الحيوان الثديي الضعيف إلى حجرة الطباعة على الليونيب المظلمة حيث يكدح أولئك الزملاء الذين يُفترى عليهم أي افتراء من شروق الشمس حتى غروبها، وهم يحولون ما كُتب أصلاً على أوراق رقيقة رائلة إلى رصاص"[28]

في عدد كبير من هذه المقالات لا نشعر بمرحة الحياة وحدها بل بمرحة الكتابة أيضاً، ففي هذه الأسابيع الأولى من العام 1950 سعر غارسيا ماركيز هذه البدة بعد مدة طويلة من الزمان.

كما بدأ غارسيا ماركيز يألف حياته الجديدة، فقد استقبل زائراً غير متوقع ففي وقت الغداء من يوم السبت الثامن عشر من شهر شباط وعشية المهرجان، وجدته أمه لويسا سانتياغا في مكتبة موندو بعد أن سافرت إليه عبر النهر من بلدة سوكري. وبلغت الكيسة بأصدقائه حداً كافياً جعلهم لا يشيرون إليها بالذهاب إلى *ناطحة السحاب*. هذه هي اللحظة التي اختارها غارسيا ماركيز ليبدأ بها سرده الذاتي في مذكراته **عشت لأروي**. كانت الأسرة تفتقر إلى النقود مرة أخرى، وكانت لويسا سانتياغا في طريقها إلى آراكاتاكا لتبدأ عملية بيع بيت والدها القديم. وكانت الرحلة التي توشك الأم وابنها أن يقطعاها هي الرحلة نفسها التي قطعتها

لويسا وحيدة قبل أكثر من خمسة عشر عاماً عندما رجعت إلى آراكاتاكا للقاء الصبي الصغير الذي تركته قبل بضع سنوات قسيّها. الآن، ها هي تعود مرة أخرى، قبل أسبوعين من ذكرى ميلاد غابيتو الثالثة والعشرين[29].

أنهى كتابة مقالته لصحيفة اليوم التالي، ثم سافر برفقة لويسا على ظهر مركب الساعة السابعة لاجتياز المستنقع الكبير وصولاً إلى ثيناغا، وهي رحلة يستعيد فيها ذكرياته على نحو لا يمكن نسيانه في مذكراته. وانطلقا من ثيناغا إلى آراكاتاكا بالقطار الأصفر نفسه الذي ظل يطلق بين هاتين البلدتين طوال تلك السنين الماضية. وصلا آراكاتاكا، وسارا وسط الشوارع الخالية محاولين أن يستريحا تحت ظلال أشجار اللوز[30]. ينظر غارسيا ماركيز إلى هذه الزيارة بوصفها أهم تجربة في حياته برمتها، فيعزو إليها التأكيد الحازم على مهنته الأدبية والنواة لما يُعدُّه أول كتاباته الجادة وهي رواية **عاصفة الأوراق**. هذا هو السبب الذي يجعل هذه اللحظة، وليست لحظة مولده، هي استهلال **عشت لأروي**. ومما لا شك فيه أنه سرد يدل على البراعة والألمعية، ويبعث الحياة في مجمل المذكرات.

إن أثر هذه العودة إلى الماضي مذهل. فكل شارع يبدو وقد بدأ يعيده إلى الوراء، إلى البيت الذي ولد فيه. أهذه هي آراكاتاكا التي عاش فيها طفولته، هذه البيوت المهلهلة وهذه الشوارع المغبرة وهذه الكنيسة الصغيرة المتداعية؟ كانت الشوارع الخضراء المفعمة بالحياة كما يتذكرها قد باتت مهجورة، ولا أمل في إعادة الحياة إليها على ما يبدو. بدا له كل شيء وكل شخص وقد لفه الغبار، وتملكت به الحسرة على نحو لا يستطيع تحمله. البالغون لاح على وجوههم المرض والتعب والهزيمة، والذين في مثل سنه يبدون أكبر سناً، وأولادهم فاترو الهمة، كروشهم كبيرة، والكلاب السائبة والعقبان تدور وقد سيطرت على البلدة[31]، كأن الجميع موتى، هو وأمه هما من بقيا حيين. أو، كما في قصص الخيال، إنه كان هو الميت ولم يبعث إلى الحياة إلاّ الآن.

عندما وصل المسافران الناحية المقابلة لدرب الحنين الكبير في شارع المونسنيور إيسبيخو، توقفا أمام عيادة الطبيب الفنزويلي القديمة ألفريدو بربوسا، وكانت زوجته تجلس وراء ماكنة خياطتها، فصاحت لها لويسا: "كيف حالك أيتها



الـرفيقة؟"، نظـرت المرأة حولها بذهول، وحاولت أن تجيب لكنها لم تتمكن من الإجابـة، إذ عانقت المرأتان إحداهما الأخرى من دون أن تنبسا بكلمة، وذرفتا الدموع لبضع دقائق. رمقها غارسيا ماركيز بنظرة، وتولاه العجب لأن الزمن نفسه وليست المسافة وحدها هما اللذان كانا يفصلانهما عن أراكاتاكا. يوماً ما كان يخشى الصيدلاني العجوز الذي بات مظهره الآن يدعو إلى الرثاء، هزيلاً مثل عصا يابسة ذابلة، خفيف الشعر، بلا أسنان تقريباً. ولما سألا عن صحة الرجل المحرور تلعثم مما يسببه الانهيار قائلاً: "لا يمكنكما تخيُّل ما حلَّ بهذه البلدة"[32].

بعد مرور سنوات يقول غارسيا ماركيز: "إن ما حدث لي في تلك الرحلة إلى أراكاتاكا هو أني أدركت أن كل ما حدث في طفولتي كان ذا قيمة أدبية لم أقدرها حق قدرها إلا الآن. منذ اللحظة التي كتبت فيها عاصفة الأوراق فهمت أنني كنت أريـد أن أصبح أديباً وأن ما من أحد يمكنه أن يمنعني من ذلك، وأن الشيء الوحيد الذي بقي لي كي أفعله هو أن أكون أفضل أديب في العالم"[33]. وإذا ما أضفنا كل المفارقـات الـتي حدثت مقابل هذا كله، فإن الزيارة كانت فشلاً ذريعاً: فأمه لم تتمكن من التوصل إلى اتفاق مع المستأجرين. في الحقيقة، كانت الرحلة برمتها قد نُظِّمت على أساس سوء فهم، لكن على كل حال، فقد كانت لويسا نفسها مترددة بـشأن بيع المنـزل. أما هو، وحتى كتابة مذكراته التي يصف فيها جولته مع أمه لويسا حول المبنى الكبير الآيل للسقوط بتفاصيل دقيقة، فقد أكدَّ مراراً وتكراراً أنه لم يتمكن من دخول المنـزل في ذلك الوقت وأنه لم يدخله منذئذ. وقال في يوم من الأيام: "لو دخلت، فلن أكون أديباً. المفتاح في الداخل"[34]. أما في مذكراته فيقول غارسيا ماركيز إنه دخل المنـزل.

يقـول إنه قرر على الفور أن يتخلى عن رواية البيت وأن يتجه اتجاهاً آخر. وللوهلة الأولى يبدو الأمر مفاجئاً: ربما يفكر المرء في أن العودة إلى البيت ستشجعه على البدء بالاشتغال مرة أخرى بالرواية التي تستمد أحداثها من البيت بدلاً من وهذا هو واقع الأمر – توسيع مدى تركيزه كي يشمل البلدة برمتها التي كان يقع فيها. غير أن الحقيقة تكمن في أن البيت الذي يستحضره في رواية البيت لم يكن البيت الحقيقي فعلاً، بل كان بناءً متخيلاً أراد أن يتحدث عنه. والآن، تراه يُعدّ



العـــدة أخيراً ليواجه مهابة المبنى الذي كان يستحوذ على خياله على مدى سنوات طويلة، ليعيد بناء للبلدة القديمة، التي لا يزال يحتفظ بها في مخيلته، حول ذلك البيت.

يستحيل عدم التفكير في بروست، ما خلا أن غارسيا ماركيز يجد أن أراكاتاكا بالرغم من كونها بلدة ميتة من أوجه عديدة إلاّ أنها حية في كل الأحوال. كما أنه استعاد أمه على نحو يشبه الإعجاز. لم تكن لديه أي ذكريات عن حياته في البيت معها، لكنهما الآن يزوران البيت معاً. وهذه هي المرة الأولى، في كل حياته، التي يقوم فيها برحلة معها لوحده[35]. في الحقيقة، إنه لا يتكلم عن ذلك – ولا يقول أي شيء عن كل هذا. لكن لقاءهما في مكتبة موندو في اليوم السابق أعاد تمثيل القصة لقائهما الأول (اللقاء الأول الذي يذكره) عندما كان في سن السادسة أو السابعة؛ لأننا في ذلك المشهد المتأخر نصاً نرى الراوي غارسيا ماركيز يدفعه للقول: "إنني والدتك"، تماماً مثل شخصية من شخصيات مسرحية أوديب ملك.

لم تطلق تلك الزيارة ذاكرته وتغير من موقعه تجاه ماضيه وحسب، بل أظهرت أيضاً كيف يكتب الرواية الجديدة. لقد بدأ ينظر الآن إلى مسقط رأسه من خلال عدسات قدّمها إليه فوكنر وغيره من حداثوي عقد العشرينيات: جويس وبروست وفرجينيا وولف. لقد كانت رواية **البيت** من روايات القرن التاسع عشر، أساسها نمط من الكتب تلائم إطار بلدة كاراتاكيا، مثل بيت ذي سبعة أوجه. وسيكتبها الآن على أنها نص سردي يستند إلى وعي أبعاد الزمان المتعددة. لم يعد مدفوناً في ذلك البيت المتجمد مع جده. لقد هرب منه.

من الواضح أن شيئاً كبيراً كان يحدث لفهمه العلاقة بين الأدب والحياة عندما كتب بعد بضعة أسابيع مقالة بعنوان **مشكلات الرواية** يصب فيها جامّ غضبه على معظم الروايات المكتوبة في كولومبيا في ذلك الوقت، ويوضح:

> **لم تكتب رواية بعد في كولومبيا متأثرة تأثراً واضحاً وجيداً بجويس أو فوكنر أو فرجينيا وولف. إنني أقول تأثراً جيداً لأنني لا أظن أن في إمكاننا نحن الكولومبيين أن نكون استثناءً في هذه المرحلة من تلك التأثيرات. إن فرجينيا وولف تعترف في مقدمتها لرواية أورلاندو بمؤثراتها، ولم يستطع فوكنر نفسه أن ينكر تلك المؤثرات التي فرض عليها جويس فرضاً قوياً. ثمة شيء ما – وبخاصة في موضوع الزمان – يشترك فيه هاكسلي وفرجينيا وولف. فرانز**



كافكا وبروست حاضران في كل مكان في أدب العالم الحديث، وإذا ما أردنا نحن الكولومبيون سلوك الدرب الصحيح علينا أن نضع أنفسنا في خضم هذا الاتجاه. إن الحقيقة التي تدعو للأسى هي أن ذلك الشيء لم يحدث حتى الآن ولا توجد أي علاقة تدل على أنه سيحدث[36].

مما لا ريب فيه أن غارسيا ماركيز كان في طريقه لأن يصبح رجلاً جديداً. فهو لم يعد منفياً من حياته الشخصية. كما أنه استعاد طفولته، واكتشف - أو على نحو أدق أزاح الغطاء عن - هويته الجديدة. لقد أعاد ابتكار نفسه، وذلك كله بأن أدرك فجأة، كأنما في ومضة برق خاطفة، كيف تعلم أدباء الطليعة في عقد العشرينيات من القرن العشرين النظر إلى العالم من خلال وعيهم الفني.

القليل من أصدقائه، سواء في كارتاخينا أو في بارانكيا، كانوا يعلمون الشيء الكثير عن جذوره. وأصبح "الصبي القادم من سوكري" الآن "الصبي القادم من آراكاتاكا". لن يبدّل جذوره مرة أخرى. وإذا كان هناك سبب وجيه للاعتقاد أن رواية البيت كانت في تلك المرحلة رواية من سوكري، فإنها ستتطور إلى رواية من آراكاتاكا بالرغم من الاسم المستعار ماكوندو. قبل أن يمضي زمن طويل، يتوارى الكتاب الأول ليفسح المجال أمام الكتاب الثاني، ويكتب غارسيا ماركيز شيئاً من السيرة الذاتية المباشرة. تبدو النكات التي يرويها الآن لأصدقائه وزملائه ذات منحىً آخر. فعلى سبيل المثال، عاد أدراجه إلى مسقط رأسه للحصول على شهادة ميلاده ولم يكن لدى العمدة أي ختم رسمي، فطلب أن يأتوه بثمرة موز كبيرة الحجم. وعندما أتوا بها إليه قسمها إلى نصفين وختم الوثيقة بها[37]. لقد أكّد غارسيا ماركيز لأصدقائه أن الرواية صحيحة، لكنه لا يستطيع إثباتها الآن لأنه ترك الشهادة في ناطحة السحاب... فضحك الجميع ضحكة مدوية لكنهم صدقوه إلى حدٍّ ما. سواء أكانت هناك شهادة يراد إثباتها أم لا، فإن القاصّ القادم من آراكاتاكا قد ولد، وسيصبح في زمرة أهالي ساحر ماكوندو. أخيراً، عرف من هو كما عرف ماذا يريد أن يكون.

بعد رجوعه مباشرة إلى آراكاتاكا مع لويسا سانتياغا في شباط عام 1950 كتب في عموده الزرافة مقالة بعنوان **أبيليتو بيّا وإيسكالونا وشركاؤهما**[38].
كانت هذه المقالة توضح أن الرحلة التي قام بها مع أمه ذكّرته بالرحلات التي سبق له



أن فـــام بها وتواريها في الأهمية، كما أنها أمهمته برحلات أخرى عقد العزم على أن يقوم بها مستقبلاً. استذكر في مقالته رحلته في تشرين الثاني من العام 949 مع ثابات أوليفيا وتجد فيها حياة الجوالين من التروبادور ومغامراتهم في منطقتيَ محدليا وباديًا، وأثنى على وجه الخصوص على أعمال شاب آخر قُدِّر له أن يؤدي دوراً رئيسياً لا في فهـــم موســـيقى الفاليناتو وحسب، بل ومشاركته الفعلية أيضاً في ثقافة منطقة الـــساحل المطلـــة على الأطلسي. كان هذا الشاب يدعى رافائيل إيسكالونا، وهو مؤلف موسيقى الفاليناتو، وكان قد تحدث سابقاً إلى ثابات أوليفيا بخصوص غارسيا ماركيـــز وقـــرر الآن أن يلتقيـــه بعد أن قرأ مقالة أثنى فيها غارسيا ماركيز على موسيقاه[39]. كان لقاؤهما الأول في مقهى روما في بارانكيا في الثاني والعشرين من آذار عام 1950 (ربما كان ذلك اللقاء قبل عام من هذا التاريخ) وذلك قبل أقل من أسبوعين، إثر نشر مقالة عن رحلة عام 1949 وأقل من شهر بعد الرحلة التي غيرت حـــياته مع لويس سانتياغا. أراد غارسيا ماركيز أن يعطي انطباعاً جيداً عن نفسه للتـــروبادوري الـــشاب، فجاء إلى مقهى روما للقائه وهو يغني مقطوعته الإنشائية جـــوع في *المدرســـة*. ثمة صورة نادرة ترقى إلى تلك الأيام حيث يمكننا أن نشاهد غارســـيا ماركيـــز يغني إحدى أغنيات إسكالونا لإسكالونا نفسه وهو ينقر على طاولـــة، ويزُمّ شفتيه كعهده دائماً، لا في أثناء الغناء وحسب، بل في أثناء التدخين أيضاً سواء أكان برفقة نساء أو رجال تروق له صحبتهم[40].

في الخـــامس عشر من نيسان عام 1950، ترك بينيس مريديه، وعاد من حيث أتى. وقبل رحيله أقيمت له مأدبة عشاء كانت الأخيرة. وفي الصورة التي التقطت في ذلـــك المساء كان بينيس في نشوة غامرة وقد وضع ذراعه حول ألفونسو فوينمايور الذي بدا منقبض النفس، وإلى جانبهم الرجل الوحيد من بينهم بلا سترة وبلا ربطة عـــنق بل يرتدي قميصاً مدارياً بألوان صارخة وهو أصغر الحاضرين سناً: غابرييل غارســـيا ماركيز *النحيف مثل حسك السمك*، على حدّ تعبير نادلة في قاعة مطاود أميركا مؤخراً التي أكدت أن عينيه كانتا نومصان، وإنه كان مبتهجاً لوجوده هناك. كانت ملامحه تنم عن براءة وتهكم في الوقت نفسه، لكنه كان قبل كل شيء يتدفق حيوية ونشاطاً



بعد هذا مباشرة أقنعه ألفونسو فوينمايور بالكتابة في مجلة أسبوعية جديدة مستقلة تطبع بنصف حجم الصحيفة الاعتيادية (التابلويد) في مطبعة الهيرالدو تحمل اسم **كورنيكا** حيث صدرت في التاسع والعشرين من نيسان عام 1950 وحتى شهر حزيران من العام 1951[41]. أصبح غارسيا ماركيز في هذه المجلة صاحب الصنائع السبع ومديرها وكتب بعض إسهاماته فيها تنهل من الحياة الواقعية على نحو مفرط. فكانت قصته **المرأة التي حضرت عند الساعة السادسة** تستند إلى تحدي فوينمايور الذي أبلغه أنه لا يستطيع كتابة قصص من قصة التحري. يتذكر غارسيا ماركيز حكاية عن مساعي أربيعون الأولى في بارانكيا الكاثوليكية في العثور على عارضة عارية. فانطلق أصدقاؤه للبحث عن عاهرة مستعدة لذلك حتى وجدوا مرشحة تبشر بالخير. فطلبت من أربيعون أول الأمر أن يكتب رسالة لها لترسلها إلى بحّار في مدينة بريستول ووافقت على الحضور في اليوم التالي في مدرسة الفنون الجميلة، لكنها... اختفت[42]. تدور أحداث قصة **المرأة التي حضرت عند الساعة السادسة** عن عاهرة يبدو أنها اغتالت أحد الزبائن، وجاءت إلى المشرب لتثبت أنها كانت في مكان آخر عند وقوع الجريمة. في هذه القصة يتضح تأثير غارسيا ماركيز بأحد الأدباء الذين تحمس لهم ألا وهو همنغواي (ربما قصة **القتلة**)[43]. كما إن هذه القصة تعد نموذجاً نادراً من كتابات غارسيا ماركيز حيث تدور أحداثها مباشرة على نحو شديد الوضوح في بلدة بارانكيا في الأيام التي عرفها فيها.

أما قصة **ليلة الكراوين** فهي أكثر نجاحاً، وأعجب بها خبراء معروفون مثل موتيس وثالاميا بوردا في بوغوتا وتستقي القصة أحداثها من إحدى زياراته لمقهى أوفيميا السوداء في لاس ديليثياس حيث اعتاد أفراد المجموعة الذهاب إليها كل ليلة. يؤكد فوينمايور في ما بعد، كأنه لم تخامره الفكرة قط، أنهم لم يذهبوا إلى ذلك المكان سعياً وراء النساء "وراء تلك الفتيات الصغيرات اللواتي يستدعين العطف والشفقة واللواتي كن يعاشرن بسبب الجوع"، بل لشراء زجاجة شراب لقاء ثلاثة عشر بيزوس وليشاهدوا البحارة الأمريكيين وهم يرعون حول الأرضية وسط الكراوين المقيمة، كأنهم يغدرون شركاءهم من بني البشر ويتطلعون إلى الرقص مع ذوات الريش الأحمر. وفي إحدى الليالي، كان غارسيا ماركيز يغالب النعاس في

ذلك المكان فهزّه نويمايور ليوقظه وقال له: "انتبه وإلا فقأت الكربوين عينيك!". (يعتقد في كولومبيا أن الطيور تصيب الأطفال بالعمى لأنها ترى الأسماك تتحرك في عيونهم) وهكذا عاد غارسيا ماركيز مباشرة إلى المكتب ليكتب قصة لأصدقاء الثلاثة في المقهى والذين أصابتهم الطيور بالعمى، وذلك كي يملأ فراغاً في مجلة كرونيكا. يقول المؤلف في ما بعد إن ذلك النص كان أول نص أدبي يكتبه ولا يدفعه لينشر بعد نصف قرن من كتابته.

كان مفتوناً بالمغامرات الأدبية للحداثويين الأوروبيين والأميركيين في عقدي العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين. وكان مفتوناً بالدرجة نفسها بشهرتهم وبمجدهم والفائدة التي جناها بعض الأدباء جرّاء ذلك وبخاصة فوكنر وقبله همنغواي، في نسج الأساطير من حولهم ومن حول كتاباتهم. لقد تُركت جائزة نوبل للآداب عام 1949 من دون أن تُعطى لأحد لأن فوكنر لم يحصل على الإجماع بل حصل على الأغلبية في التصويت في الأكاديمية السويدية. وفي الثامن من نيسان كان غارسيا ماركيز قد كتب مقالة بعنوان جائزة نوبل مرة أخرى توقع فيها عدم فوز فوكنر الذي كان ينعته بالمايسترو فوكنر لأنه كان "أديباً جيداً أكثر مما ينبغي". ولما مُنح فوكنر جائزة نوبل عام 1949 على نحو استعدي في العام 1950، صرّح غارسيا ماركيز أن الجائزة كان ينبغي أن تمنح لفوكنر منذ زمن طويل لأنه "أعظم أدباء العالم المعاصر وواحد من أعظم الأدباء على مرّ العصور". وهو أديب من شأنه أن يفضل الآن اختيار تحوله إلى أديب عصري وإن كان ذلك الاختيار لا يبعث على الراحة"[44]. وبعد ذلك بزمن طويل، يحل غارسيا ماركيز المشكلة العويصة – فوكنر أم همنغواي؟– بالإشارة إلى أن فوكنر غذّى روحه الأدبية وأن همنغواي علّمه حرفة الأدب[45].

بعد أن ذاعت شهرة غارسيا ماركيز وجد نفسه مراراً وتكراراً منجذباً إلى مناقشة مدى التأثير الذي تركه فوكنر فيه. وكان وراء هذا التساؤل سؤال آخر محسوس: أتراه سرق فوكنر؟ باختصار، إن كان يفتقر إلى الأصالة الحقيقية، في ضوء المتوريات العريقة بين جدورهما، فإن المدهش هو أن غارسيا ماركيز لم يتأثر تأثراً أكبر بفوكنر طالما أن فوكنر كان بلا جدال الأديب المفضل وسط أفراد جماعة



بارانكيا كما أن تأثير فرجينيا وولف الحاسم في غارسيا ماركيز لم يشر إليه كثيراً أما جيمس جويس فقلما ذكر يومئذ. وما دامت إشاراته كثيرة وأصالته لا تقبل النقاش، فممّا لا يبعث على الدهشة أن غارسيا ماركيز تعب من محاولات اختزاله إلى مرتبة فوكنر كولومبي على تحمسه العابر لسكان المسيسيبي والأشياء الكثيرة التي يشتركون فيها. إننا لا نملك تقريباً أي وثائق خاصة كتبها غارسيا ماركيز في تلك الفترة، ولم تحفظ حتى مخطوطات قصصه ورواياته. لكن بين أواسط العام 1950 وتشرين الأول من ذلك العام، كتب غارسيا ماركيز، ربما تحت تأثير غير أدبي - قد يكون الشراب - رسالة من صفحتين إلى صديقه كارلوس أليمان في بوغوتا. ومما يثير العجب أن الرسالة ظلت باقية وفي ما يلي هذا المقطع عنها(*):

> ليس لديّ عنوان خوان بي أس وأنا أرسل إليك هذه الرسالة لتوصلها إليه. إنني أكتب إليك يا أليمان رداً على الرسالة اللامعقولة التي أرسلتها إليّ لأنني حد مشغول وليس لدي الوقت لأضع النقاط أو الفواصل والفواصل المنقوطة وغيرها من علامات التنقيط في هذه الرسالة قلما لديّ الوقت لكتابة الرسائل مما يدعو للأسى أن التخاطر غير موجود لنرد عبر البريد التخاطري الذي لا بد من أن يكون هو الأفضل لأنه ليس معرضاً للرقابة كما تعلم إننا ندوّن أسبوعيا لم لا يبقي أمامنا وقتاً للرحلات بحثا عن العشب المذهل لهذا ففي الوقت الحالي عليك أن ترضى بوخزة تمساح اعتيادية إلى أن تملس كرونيكا وعندئذ يمكننا العودة إلى مرتعنا عند ابن الليل أورليانو بويندا يرسل تحياته في نهاية الأمر مع البائع المغني ابن توبيا أصبح شرطياً فقتلا ولم يبق إلا الفتاة بلا اسم ولن تحظى أبدا بأحد وهم يقولون عنها إنها الفتاة الجالسة طوال اليوم على كرسيّها الهزاز تصغي إلى جهاز الحاكي الذي شأنه شأن كل شيء في هذا العالم تعطل وبات مشكلة في البيت لأن الشخص الوحيد في البلدة الذي يعرف تصليح الأجهزة هو اسكاف إيطالي لم يسبق له أن رأى طوال حياته حاكياً مرقعا ويذهب إلى المنزل ويحاول إصلاحه بالمطرقة عبثاً في حين يتكلم الأولاد ويسكبون الماء ويصفرون وينتهي الأمر بقطع جهاز الحاكي في كل بيت وهي تقول إن جهاز حاكي العقيد أورليانو أصيب بضرر لم دفع الناس في عصر ذلك اليوم نفسه لارتداء ثيابهم ووضع أحذيتهم وتمشيط شعرهم للذهاب إلى بيت العقيد الذي لم يكن يتوقع بدوره أن يزوره أحد خاصة أن أحداً من أهالي البلدة لم يزره طوال خمسة عشر عاماً منذ أن رفضوا



دفـن جثة غريغوري تحت حماية رجال الشرطة فشتم العقيد القساوسة فانسحب الـنـاس مـن المجلس فحبس نفسه في البيت ولم يعد إليه الناس إلا بعد خمسة عـشر عاماً لم تعطل جهاز الحاكي وانكسر التمثال الصيني فأخذوا بذلك العقـيد وزوجـته دونا سوليداد على حين غرة تمضي المرأة الليل كله في ركـن لا تُحـدّث أحداً وعندما تشعر دونا سوليداد بالخروج للذهاب فجراً والناس يغادرون والناس يمسي شرطياً عندما تأتي الشرطة بجنازته العقيد يجلس عـند الـباب كعهده دوماً و د يرى الجنازة تتقدم يغلق الباب كأن لا شيء حدث في موموس في وسعك أن تلاحظ كيف وصل الأمر بالكتاب أستطيع أن أخـبرك أن خيرمـان وألفونـسـو وأنا نمضي وقتنا نتحدث نكتب نفكر ونـشتغل في كـرونيكا ولا نشرب وندخن السجائر لأن الحياة لا يمكنها أن تكون كذلك وإذا لم تحب فرجينيا فاذهب إلى الجحيم فراميرو يهواها ويعرف عن الروايات أكثر مما تعرفه أنت فاذهب إلى الجحيم وقل لراميرو إنني مدين له برسالة وأن يكتب إليّ في كل الأحوال في كانون الأول سأطلب إجازة من كـرونيكا وسـأكون في الـشقة لقد رحل دون رامون وكتب حسناً تيتو بونكويت إدو رد بوتيت فويتمايور المجرور تبيّن أنه رجل عظيم نحييك ونتمنى لك ميلاداً مجيداً وسنة سعيدة المخلص لك غابيتو"[46].

هـذه الرسـالة مفاجئة، إذ علاوة على التأثير الواضح الذي قلما يذكر عن جويس – وعن فرجينيا وولف أيضاً – والإحساس المفعم بالحياة الذي توضحه عن حياة غارسيا ماركيز في بارانكيا ومشاعره بالحبور والبهجة فيها، فإنها تظهر لنا أيضاً رجـلاً شـاباً لا يزال يفكر كأنه مراهق قابل للتأثير، رجلاً مهووساً هوساً كاملاً بمساره الإبداعي ومستغرقاً في قصصه. ولمن أدرك تطوره، فإنها تظهره أديباً جاداً ومتـرماً يـركب موجة تحول من مشروع طويل الأمد البيت إلى مشروع آخر عاصـفة الأوراق إضافة إلى كتابة العديد من القصص الأخرى تظهر في ما بعد في مجموعات قصصية وفي كتابة عموده اليومي. من المؤكد أن العقيد أورليانو بوينديا أشـهر شخصية يبتدعها غارسيا ماركيز، لكنه سرعان ما يتخلى عنه ولا يعود اسمه سـوى أسـطورة تذكر في كتاب تلو الكتاب إلى أن تأتي لحظته في منتصف عقد سـتينات القرن العشرين. ليس هذا تماماً. فالواضح أن غارسيا ماركيز لم ينبذ في هـذه المـرحلة رواية البيت بالرغم مما يؤكد لاحقاً في مذكراته. إذ كان لا يزال منهمكاً في تفاصيل منقحة ومعقدة تشكل في ما بعد جزءاً من مئة عام من العزلة.



هكـــذا. لعـــل أكثـــر التفاصيل إثارة للاهتمام بتلك الرسالة هو الإيضاح عن مـــشكلات العقيد مع أهالي بلدته والسبب الذي أدى به إلى أن يعلق اسمه. أي إنهم بـسبب غـير واضح لم يتركوه يدفن عبده غريغوريو، هذا، دفنه بنفسه تحت شجرة اللوز في الفناء[47]. هنا تكمن على نحو لا يقبل الجدال واحدة من بذور رواية عاصفة الأوراق، تلك الرواية التي يجد فيها العقيد نفسه محاصراً لأن لديه واجباً يتمثل بترتيب دفـن رجل كرهته البلدة التي يعيش فيها، ورواية **مئة عام من العزلة** أيضاً التي توثق فيها إحدى الشخصيات الرئيسية إلى شجرة في الفناء وأخرى تموت تحتها.

في وســـع القـــارئ الحصيف أن يلاحظ تأثيراً آخر في هذا الوقت. فقد نشر غارسيا ماركيز قصصاً لكاتب الأرجنتيني اللامع خورخه لويس بورخس في بضعة أعـــداد من مجلة كرونيكا. وفي شهر آب من سنة 1950 تحديداً، وهو الشهر الذي نُـصِّب فيه الرئيس الرجعي لوريانو غوميث، يبدو أن قراءة غارسيا ماركيز لأعمال الممـــثل الكبـــير لأدب الفانتازيا أتت أُكلها. لقد كان بورخس مدهشاً في استلهام مؤثراته من كل زمان ومكان، وبدأ يعبر عن هذا التأثير في مقالات أشار فيها إلى أن مفهوم *المؤثرات* مضلل لأن "جميع الأدباء يبتكرون أسلافهم". لم يكن هذا الموقف مُحرراً لأديب من أميركا اللاتينية وحسب، بل كان عدم احترام بورخس للمصادر التي استفاد منها مدهشاً جداً أيضاً كان يطلق عليه في بعض الأحيان *كافكا أميركا اللاتيـــنية*، إلا أنـــنا لا نجد في أي من كتابات كافكا مفارقته المكافية لهذا، فمن الـــصحيح أن نُبين أن غارسيا ماركيز تبنى العديد من أفكار بورخس (بالرغم من عدم ذكره هذا التأثير) في الوقت نفسه تماماً الذي تعين عليه أن يختار كتابة قصة هجائية عـــن اسحار عنوانها كاريكاتور كافكا[48]. في هذه المرحلة يمكننا القول إن غارسيا ماركـــيز راح يبتعد عنه كافكا (وتأثيره فيه)، من هنا سيبطر إلى موضوعات كافكا مـــن خلال عدسات بورخس غريبة الأطوار. ويمكن للمرء أن يقول إن جزءاً من المشكلة التي تنطوي عليها رواية **البيت** يكمن في إنها تحمل جرعة كبيرة من كافكا. وعندما ظهرت رواية **مئة عام من العزلة** اتضح أنها رواية بورخسية.

أمـــا رواية **البيت** فهي عن مفاهيم متباينة عن الترف والواجب، ولعار فقد وعـــد أحـــد العقـــداء، من أرستقراطيي بلدة ماكوندو المعروفين، على أن يتحمل



مسؤولية دفن صديقه *الطبيب* البلجيكي (الذي تستند شخصيته كما يبدو إلى شخصية دون إميليو في آراكاتاكا أيام طفولة غارسيا ماركيز) ويعقد العزم على تنفيذ وعده خلافاً لرغبات زوجته وبنته بالرغم من أن الطبيب خان آداب الضيافة عندما عاشر خادمته وبالرغم من أن أبناء البلدة فضلوا مشاهدته الطبيب وهو يتفسخ لأنه كان قد رفض قبل سنوات طويلة معالجة جرحى البلدة في أعقاب صراع سياسي. والآن، تراه وقد ارتكب جريمة شنيعة بانتحاره حسبما رأى الكاثوليك ولم يعد أمام العقيد من أمل سوى دفن الرجل في بقعة أرض غير موقوفة بعرض نبيل.

بالرغم من هذه الحبكة الأخلاقية، فإن رواية عاصفة الأوراق، التي يمكن عدُّها تنويعاً على موضوعة إسيعونا لسوفوكليس، هي أكثر روايات غارسيا ماركيز التي تنحو منحى السيرة الذاتية بالمعنى الواقعي الصرف. فالشخصيات المركزية ثالوث تشكل قصة رومانسية بثلاثة أبعاد تستند إلى غابيتو ولويسا ونيكولاس. لكن إذا كان يراد للصبيّ وأمه وحده أن يستندوا إلى شخصيات حقيقية، فإن مثل هذا الخيار تطلب حجب أناس حقيقيين آخرين لا سيما ترانكيليا (إذ تكون الجدة قد وافتها المنية في الرواية وحلت محلها زوجة ثانية) وأخوة غابيتو وأخواته (فالصبيّ في الرواية هو الابن الوحيد) والأهم من هؤلاء جميعاً غابرييل إليخيو غارسيا والد غابيتو الحقيقي. في حالة الأب، فإن حجبه ليس سوى إزاحة، إذ إن هناك شخصية ترتكز ارتكازاً وثيقاً إلى شخصية غابرييل إليخيو وهو والد الطفل الحقيقي في الرواية، إلا أن اسمه مرتين – وهو لقب غابرييل إليخيو الثاني الذي لولا كونه طفلاً غير شرعي لكان هو لقبه الأول وهو مارتينيث وكانت دوافعه للزواج مجردة من المبادئ الخلقية، وأنانية. يضاف إلى ذلك أنه يهمل زوجته بعد وقت قصير (وتبدو مشاعرها تجاهه فترة دوماً) ويرحل عن ماكوندو ولا يفكر فيه الصبيّ مرة أخرى على امتداد صفحات الرواية كلها. من الواضح أن هذا الأمر فسح المجال أمام غارسيا ماركيز بالإغراق في التخيّل عندما كتب بأن والدته لم تحب قط غابرييل إليخيو، وأن الأب غابرييل إليخيو هو الذي أضحى منفصلاً عنها لا عن نفسه، غابيتو الابن[49].

في الرواية زمنان يُذكّران بأسلوب فوكنر. الشخصيات الثلاث تمضي نصف ساعة بين الثانية والنصف والثالثة من بعد الظهر يوم الثاني عشر من أيلول عام 1928



وهي جالسة في الحجرة التي توفي فيها الطبيب منتظرة وضعه في التابوت ليحمل في جنازة بعد ذلك. فالشخصيات الثلاث في حالة توتر شديد لأنها كانت تخشى من سكان البلدة، الذين يكرهون الطبيب، أن يحولوا دون إتمام مراسم الدفن. لكن تلك الشخصيات الثلاث كانت في غضون تلك النصف ساعة أيضاً تستذكر مجمل حياة أسرتها - أسرة العقيد المنحدرة أصلاً من غواخيرا - من خلال ومضات مجتزأة في وعي كل واحد منها. الرواية نسخة أشد تعقيداً، وإن جاءت أكثر جموداً وآلية من رواية فوكنر وأنا أرقد محتضرة، بوصفها قصة من قصص التحري، متاهة أو أحجية يتعين على القارئ فك رموزها. ولدينا هنا نموذج كلاسيكي لأديب شاب ذهل وهو يرى أمامه عباقرة من مثل فوكنر، وولف، وربما بورخس ويريد أن يكشف عن ذلك ويخفيه في آن واحد.

إذاً إنّ ما بين أيدينا هو العودة والابتعاد في وقت واحد؛ وتلك تجربة قوية ومحددة على نحو استثنائي، امتزج فيها الوجداني بالعقلي والماضي بالحاضر. وإذا كان مفهوم الواقع الكولومبي لا ينطوي على سرعة هجائية قاسية حتى الآن، فسبب ذلك يعود إلى أن غارسيا ماركيز لا يرغب في أن يشمل ذاته الحد أو أن يجعل ماضيه بهذه الدرجة من المرارة (أو التضليل!). حتى هذه اللحظة، يبدو العقيد شخصية متناقضة وإن ظل مثيراً للإعجاب، لا يُعامل إلاّ بأقل ما يمكن من السخرية. لكن غارسيا ماركيز أدرك بعودته إلى مسقط رأسه أن ماكوندو دُمرت بقوة يرى السكان أنها قوة القدر، في حين لا يرى هو في ذلك الآن سوى تاريخ.

بعد مرور أعوام، وتحديداً في العام 1977، يقول غارسيا ماركيز: "إنني أكنّ حباً كبيراً لرواية عاصفة الأوراق، وأتعاطف تعاطفاً شديداً مع الرجل الذي ألّفها. إنني أراه واضحاً وضوح النهار: إنه شاب في الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين يعتقد أنه لن يكتب أي شيء آخر في حياته، وأن هذه هي فرصته الوحيدة، وهذا يبذل قصارى جهده كي يضع فيها كل شيء، كل شيء يتذكره، وكل شيء تعلمه عن التقنية وصنعة الأدب من المؤلفين الذين قرأ مؤلفاتهم"[50]. تستمر الكتابة في رواية عاصفة الأوراق على نحو متقطع، لسنوات أخرى، لكن يمكن القول إنها قد انطلقت انطلاقة جيدة وحقيقية. لكن بالرغم من أن هذا الشاب لن يشعر بالرضا



أبداً. إلا أن مستقبله الأدبي سيتأكد بلا ريب بالحظ وبالعمل المثابر الطويل. لكنه لم يكن رجلاً في وسع أحد أن يكتب عنه العبارة المبتذلة بأنه لن يخطر وراءه أبداً.

* * *

مما لا شك فيه أن غارسيا ماركيز كان لا يزال مضطراً إلى كسب رزقه، لذلك واصل كتابة عموده الزرافة في صحيفة الهيرالدو يومياً من جهة، والعمل بكل جهد ونشاط في مجلة كرونيكا من جهة أخرى. وكانت كل كتاباته في ذلك الوقت تتمتع بالابتكار والإبداع مهما كانت عديمة الشأن أو مكتوبة على عجالة. وإذا ما نظرنا إلى تلك المقالات من حيث ترتيبها، فإن أكثرها إثارة للانتباه هي تلك المنشورة بتاريخ السادس عشر من كانون الأول سنة 1950، وكانت بعنوان لا أميغا. ويمكن لكلمة أميغا أن تعني بالإسبانية أي صديقة من الإناث أو يمكن أن تعني *فتاة صديقة*. كانت المقالة رد فعل علنيّاً إزاء حماسته عندما التقى ميرثيديس بارتشا مرة أخرى في مقالة ذات نبرة هادئة قلما توحي بلدة الحدث. وتوصف هذه الصديقة على ما كانت عليه ميرثيديس بالأمس واليوم، "بسحنتها الشرقية ونظرة عينيها الخاصة" و"عظام وجنتيها البارزة" و"بشرتها السمراء" و"أسنوها الساخر الخامل". كانت ميرثيديس في البلدة لأن أسرتها هربت من منزلها قبل بضعة أشهر في أثناء مواجهة أحداث العنف التي حلّت ببلدة سوكري وما رافقها من انتقام.

كانت المودة بين غابرييل غارسيا ماركيز وميرثيديس بارتشا لغزاً من البداية وحتى النهاية[51]. ومرجّ الاثنان بشأن إصرار غارسيا ماركيز على أنه قرر أن يتزوجها عندما كانت في سن التاسعة، وبشأن إصرارها هي على أنها لم تنتبه إليه إلا قبل سفره إلى أوروبا بوقت قصير في العام 1955. غير أن مقالة شهر كانون الأول سنة 1950 التي لا يمكن النظر إليها نظرة حرفية تشير بالرغم من ذلك إلى أن ثلاث سنوات مرّت على لقاء البطلين. الحق أن العام 947. كان هو العام الذي تخرّج فيه غارسيا ماركيز من ثيباكيرا وعاد إلى البيت لتمضية فصل الصيف، وبعدها توجه إلى الجامعة في بوغوتا. ولم يرجع إلى البيت إلا مرات قليلة جداً، كانت فيها ميرثيديس خارج سوكري تدرس في مدرسة دير للراهبات في ميديلين ولم تعد إلى البيت إلا في عطلة نهاية كل سنة. ثمة حكايات تتردد عن أن غابيتو كان يتسكع في مومبوكس



قبل عام 1947 عندما كانت مرثيدس تدرس هناك ويتذكر راميرو دي لا إسبرييًا أنه كان يتحدث عنها في كارتاخينا في العام 1949، لكن يبدو أن الصلة بينهما كانت ضعيفة جداً في الأعوام الستة التي مرّت بين لقائهما الأول ولقائهما في نهاية ما يصفه بالسنة الحاسمة جداً في حياة غارسيا ماركيز.

تشير الأمور كلها إلى أنه كان يتوقع عودتها من المدرسة إلى بارانكيا لتمضية عطلة الميلاد قبل أن يلتقيا. أولاً، لقد انتقل من *ناطحة السحاب* إلى نُزل محترم تديره الأخوات أبيلا اللواتي كان يعرفهن من خلال صلاته بسوكري، وكان يعش في المنطقة المرتفعة من البلدة على بعد بضعة شوارع من فندق برادو وعلى مقربة من المنطقة التي كان يقطن فيها صديقه الشاعر ميرا ديلمار[52]. وتبين أنه على مقربة أيضاً من الصيدلية الجديدة التي أسسها ديميتريو بارتشا عند ناصية الشارع 65 وشارع 20 تموز. كما غيّر غارسيا ماركيز من صورته، إذ قصّ شعره أكثر، وشذّب شاربيه، وارتدى البدلة، ووضع ربطة العنق، وانتعل حذاءً أنيقاً ليحل محل الصندل المداري. وكان رد فعل أصدقائه على هذا التغيير قاسياً، وتوقع بعضهم أنه لن يتمكن من كتابة كلمة واحدة حالما غادر *ناطحة السحاب*. والواضح أن انتقاله ترامن مع إدراكه أن روايته الجديدة – وهي رواية تدور أحداثها عنه وعن زوجته باتت أمراً واقعاً الآن، ومع عزمه على أن يقابل مرثيديس. لقد أمسى من نواحٍ عديدة إنساناً جديداً لديه الآن ما يمنحه لامرأة أكثر من السابق.

بيد أن خجله ضمن مشكلة استمرت الأسرة تمرح بشأنه اليوم. تستذكر لحنا غابرييل ماركيز: "عندما انتقلت مرثيديس إلى بارانكيا، أمضى غابيتو ساعات يتحدث إلى ديميتريو بارتشا في الصيدلية الملاصقة لبيتهم. وقال الناس لمرثيديس مرة أخرى: *لا يزال غابيتو يهواك*، فردّت قائلة: *لا، إنه يهوى أبي لأنه يتحدث وإياه طوال الوقت، ولا يلقي عليّ حتى بتحية المساء*"[53]. وقد اعترف غارسيا ماركيز نفسه أنه أمضى عشرة أعوام وراء منعطف الشارع ينتظر أن يحظى بنظرة من مرثيديس الساحرة والمتشامخة، يعاني عذاب الإحباط، بل والهوان أحياناً على يدي فتاة يبدو أنها وجدت صعوبة منذ أمد بعيد في أن تنظر إليه على محمل الجد ولم تظهر اهتماماً يذكر به[54]. ويستذكر أفراد جماعة بارانكيا في ما بعد أنهم كانوا

يطوفون بسيارة سيبيدا من نوع جيب، فطلب غارسيا ماركيز من سيبيدا أن يقترب ويمر أمام الصيدلية حيث كانت ميرثيديس أحياناً تساعد في أثناء العطلات، وبعد أن تركت المدرسة، بمجرد أن يختلس نظرة إليها، من دون أن يعير أي اهتمام لصيحات أصدقائه الذين كان لهم موقف آخر تجاه النساء.

أما ميرثيديس نفسها التي لم تتحدث إلاّ في مقابلتين للصحف (إحداهما مع أخت زوجها بعنوان "انتظرني غابيتو كي أكبر") فقد أخبرتني في العام 1991 قائلة: "لم أخرج مع غابيتو إلا برفقة جماعة. لكن، لي قريبة فلسطينية كانت توفر لنا غطاءً دائماً، وكانت تحاول أن تجمعنا معاً، وكانت دائماً تبدأ جملها الكلامية بعبارة: عندما تتزوجين غابيتو...".

في فترة الميلاد سنة 1950، أقنع غابيتو أخيراً ميرثيديس أن تمنحه فرصة، ورافقها للرقص في فندق برادو بضع مرات، ولم تكن منزعجة مما يبعث على النكد، لكنها لم ترفض صراحة تودّد الشاب، واختار بدوره أن يصدق أن هناك ضرباً من الاتفاق الضمني وأن الفرصة سانحة، فكان هذا وضعاً جديداً تماماً.

إن الإنسانة التي تعرف في الأقل قدراً من تلك اللقاءات المبكرة هي عايدة غارسيا ماركيز التي نفاها والداها إلى بارانكيا لإبعادها عن خطيبها رافائيل بيريث. وقالت لي: "لم تكن ميرثيديس صديقتي المفضلة لكنني كنت أنا صديقتها المفضلة. كنا نذهب للرقص معاً في فندق برادو وكنت أرقص مع والدها كي يظل غابيتو معها"(55).

وهكذا بدا غارسيا ماركيز عام 1951 في أقصى حالات التفاؤل التي يمكن تخيلها، لا يعلم إلا القليل عن الدمار القاسي الذي سيحيق بخيانه الجديدة التي كان يخطط لها، سيتزوده ويكسبها بعرق الجبين. ففي الثالث والعشرين من شهر كانون الثاني تلقى رسالة مقتضبة من ميرثيديس تنعى فيها أن صديقه كايتانو خنتيلي العيل في سوكري - كانت الأسرتان متقاربتين - إذ كانت خولينا وهي والدة كايتانو عرّابة نانتشي - ويكتشف غارسيا ماركيز في ما بعد أن عدداً من إخوانه وأخواته كانوا شهوداً على ما حدث. ولم يكن لغابيتو عن سوكري في ذلك الوقت سوى عايدة وغابرييل إيخيو، الذي كان في بلدة كرتاخينا لحضور مؤتمر الحزب المحافظ، وغابيتو نفسه



قتل أخوة مارغريتا كايتانو جنتيلي، وكانت مارغريتا فتاة شاركت ميرثيديس في السكن في مومبوكس. وفي ليلة زفافها كشفت لزوجها أنها ليست عذراء فما كان منه إلا أن أعادها إلى أهلها بوصفها بضعة فاسدة وتشير إحدى الشائعات في مومبوكس إلى أن شرطياً اغتصبها في أثناء حوادث العنف وأنها لم تستطع البوح بذلك خشية الانتقام. لهذا قالت إن كايتانو جنتيلي، صديقها السابق، هو الذي افتض بكارتها[56]. لن تعرف الحقيقة أبداً وعلى الفور انطلق أخوتها لاستعادة شرف الأسرة بقتل الجاني المتهم في ميدان سوكري العام وعلى مرأى من أهل البلدة جميعاً. هذه هي القصة التي سيحوها غارسيا ماركيز إلى روايته **قصة موت معلن** بعد ثلاثين سنة على الحدث، أي عام 1981 كان القتل بشعاً وعملاً سيظل يؤرق غارسيا ماركيز وجميع أفراد أسرته على مدى عقود.

بعد مرور أسبوع واحد، وقبل أن يتوفر لغارسيا ماركيز الوقت الكافي لمعرفة تفاصيل هذا الحدث المروّع، تلقى رسالة تفيد أن غابرييل إليخيو وصل بلدة بارانكيا بدلاً من أن يعود إلى سوكري بعد انقضاء مؤتمره فما كان من غابيتو إلاّ أن استقل حافلة وقصد مركز البلدة والتقى أباه المذعور في مقهى روما: كان قد سمع بدوره بنبأ الاغتيال، وخشي هو ولويسا سانتياغا على مستقبل لأسرة بسبب تزايد العنف السياسي الذي كان فيه هذا الحدث القتل التي قصمت ظهر البعير. (الحق أن غابرييل إليخيو واجه ظروفاً مالية صعبة في سوكري منذ اللحظة التي انتقل فيها بسبب حقيقي إلى المنطقة التي يسكنها من البلدة). كان غابرييل إليخيو في كارثاخينا بصحبة غوستافو الذي بات حينها ذراعه اليمنى وقام بسلسلة من التحريات وسط أصدقائه وأقرانه المحافظين في المدينة ورتب الأمور للانتقال بأسرته إليها وأراد أن يساعدهم غابيتو حتى يستقروا ثم يعود أدراجه إلى كارثاخينا ليساعدهم على الأمور المالية في وضع بات صعباً إن لم يكن يئساً. يقول غابرييل إليخيو إن الفائدة الأخرى من وراء ذلك تتمثل بأنّ غابيتو قد يتمكن من العودة إلى دراسة الحقوق[57].

كانت مخاوف غابرييل إليخيو مثيرة للدهشة للوهلة الأولى لأن سوكري منطقة من مناطق حزب المحافظين أساساً، وكان هو نفسه منهمكاً في الشؤون



السياسية الحية، وكان يتحتم عليه أن يكون قادراً على الاعتماد على الحماية. وكان يتوقع أن يهرب الليبراليون مثل ديميتريو مارتشا - الذي هرب حقاً - في حين بقيت أسرة غارسيا ماركيز على ما يرام. إضافة إلى ذلك، لم يكن قتل كايتانو ذا دوافع سياسية، لكن أحدث تظهر في ذلك الوقت ملصقات تنطوي على الافتراء وتعدّ علامة مستفزة من علامات تفكك المجتمع وانحلاله، ولم تكن مكرّسة للقضايا السياسية وبخاصة الفساد وحسب، بل كانت قبل كل شيء تنطوي على الفامات جنسية القصد منها تحطيم سمعة الناس. وانتشرت حوادث الانتقام، وكان لدى غابرييل إليخيو ما يكفي من الفضائح الجنسية خاصة به كي يتملكه القلق.

وافق غابيتو بحزن وتردد على مطالب أبيه، فعاد غابرييل إليخيو إلى سوكري لترتيب الخروج. كانت لويسا منكسرة الفؤاد. وتتذكر لخيا: "بكت أمي عندما رحلت عن سوكري تماماً مثلما بكت عندما وصلت إليها"[58]. لقد عاشت الأسرة في سوكري لأكثر من أحد عشر عاماً، وكان قد ولد فيها جيمي وهيرناندو وألفريدو وإليخيو غابرييل، كما وقت المنية تركيبيا فيها أيضاً. وحقق فيها غابرييل إليخيو مرة واحدة وفي وقت واحد، قدراً من الامتياز والسلطة في البلدة التي تحيط بها المياه من جميع جهاتها. بل إنه شيّد بيته الأول فيها. غير أن جميع أفراد أسرة غارسيا ماركيز، ومن قبلهم أفراد أسرة بارتشا، وكذلك غابيتو ولويس إنريكي عام 1948، أصبحوا الآن لاجئين هرباً من أعمال العنف.

أما غابيتو نفسه، فقد كان الحدث كارثياً بالنسبة إليه، وفي وسعنا أن نتخيل العذاب الذي سمح فيه لنفسه أن ينقاد عائداً إلى حضن أسرة لم يعش وإياها أي فترة مهمة. وتفاوض مع إدارة صحيفة الهيرالدو للاستمرار في إرسال مقالاته: *زرافة* من كارتاخينا فوافقوا ومنحوه ستمئة بيزوس مقدماً للأشهر الستة من عموده وسبع افتتاحيات أسبوعياً على أن تكون معتدلة سياسياً. فأصبحت حياته كابوساً لكنها سهلة بالنسبة إلى مويسابور.

كانت السنة الأولى مفعمة بالفوضى، ولم يرسل أي من الأولاد للدراسة خارج البلدة كما أن الأطفال الأصغر سناً لم يبدأوا مرحلة تعليمهم أيضاً. ولا بد من أن غابرييل إليخيو أدرك بعد كل إخفاقاته السابقة أنه لن ينجح في كارتاخينا إذا



مـــا أسس له صيدلية بالرغم من أنه حاول ذلك لبعض الوقت. كما أنه بذل محاولة مـــن غير تحمس لمواصلة عمله في الطب، لكن كارثاخيا لم تكن ميداناً يبشر بالخير لـــدجّال. وقبل أن يمضي عامٌ واحد تعلق مرة أخرى في رحلاته وأخذ يطوف في أنحـــاء ســـوكري بصحبة طبيباً جوّالاً تماماً مثلما طاف قبل أربعة عشر عاماً عندما انتقلوا إلى بارانكيا. لقد أصبح غابرييل إليخيو غير قادر بعد اليوم على إعالة زوجته وأطفالـــه. وستمضي عشرة أعوام قبل أن تتمكن الأسرة من القول إنها بدأت تقف على قدميها، ويرجع سبب ذلك إلى أن معظم الأولاد تركوا البيت، كانت مارغوت تتحمل العبء الأكبر.

يبدو مرجحاً أن غابيتو رجع إلى كارثاخيا لا على أمل البقاء فيها مدة طويلة بـــل لـــشعوره بضرورة إظهار الرغبة في احتواء أسرته في هذه البيئة الجديدة باهظة الثمن وإن لم تكن موضع ترحيب. عاد مرة أخرى إلى صحيفة الأونيبرسال مطأطئاً رأســـه خجلاً وتولته الدهشة، وعبّر عن امتنانه عندما استقبله بحرارة ثابالا ولوبيث إســـكاوريازا وبقية زملائه القدامى، وازداد عجباً عندما عرضوا عليه مرتباً شهرياً أعلى من المرتب الذي كان يتقاضاه في بارانكيا[59].

أمـــا الشيء الذي لم يفعله فهو العودة إلى دراسته. ولم يدرك إلا عندما ذهب متردداً للتسجيل أنه كان قد أخفق في ثلاث مواد، وليس مادتين، في نهاية عام 1949، مما يعني أنه سيعيد السنة الثالثة برمتها بدلاً من الترفع إلى السنة الرابعة[60]. لذلك تخلـــى عن الفكرة فوراً، لكن نما إلى علم أبيه ذلك القرار ففقد أعصابه بسبب ابنه الأكـــبر المـــراوغ. يتذكر غوستافو المواجهة بين غابرييل إليخيو وغابيتو بخصوص القـــضية عند شارع الشهداء خارج البلدة القديمة. وعندما سمع غابرييل إليخيو ابنه يعترف أنه قرر التخلي عن دراسة الحقوق والتركيز بدلاً من ذلك على الكتابة، تفوه بعبـــارة أصـــبحت أســـطورة بـــين أفراد الأسرة: "سينتهي بك المطاف بأن تأكل الورق!"[61]

لا بد من أن وصول تلك الأسرة الكبيرة الفقيرة التي لا تنصاع لنظام إلى عالمه المـــتمدن أحرج كثيراً، إن لم نقل أهان، ذلك الشاب الذي دأب على إخفاء فقره وعقده الخاصة وراء زي مهرج وأداء مهرج. يتذكر غارسيا ماركيز في السنة الأولى

التي أمضاها في بيته الجديد أنه تعثر بكيس يحتوي على عظام جدته أتت بها تويست سانتياغا لإعادة دفنها في مقر إقامتهم في المدينة الجديدة[62]. وتتلخص فكاهة راميرو دي لا إسبريّا المُرة من ورطة الأسرة في الاسم الذي نحته للإشارة إلى غابرييل إليخيو في تلك الأيام وهو جواد الاستبلاد[63]. ولم تكن مشاعر غابرييل إليخيو إزاء ولده خافية عن أنظار الآخرين. ففي إحدى المرات عندما التقى كارلوس أليمان وغابرييل إليخيو وسأله عن أحوال غابيتو شكا الأب بصوت عالٍ من أن ابنه يعيش دائماً عالة عليه بعيداً عنه، ويجر: "قل لذلك الجيمس الذكري المتنقل أن يأتي لرؤية أمه"[64] وعندما حاول دي لا إسبريّا أن يدافع عن غابيتو ضد حالة أخرى من حالات النقد الموجهة إليه وقال "إنه أصبح الآن واحداً من أفضل كتّاب القصة القصيرة في البلاد" انفجر الأب صائحاً. *إنه قصّاص. حسناً. طالما كان كذاباً منذ طفولته*[65]

في مطلع شهر تموز توقف غارسيا ماركيز عن إرسال مقالاته؛ رزمة، إلى صحيفة الهيرالدو بعد أن وفّى بدينه، ولم يعد ينشر شيئاً منها حتى شباط سنة 1952. في غضون ذلك واصل كتاباته الخاصة به وسط فوضى الأسرة على أفضل ما يستطيع. ثمة حادثة يتذكرها غوستافو تكشف لنا عن مدى طموحه: "إن غابيتو لا يتذكر... لكنه قال لي ذات يوم: *أصغ إليّ. ساعدني على هذا الأمر*. ثم أتى بمخطوطة رواية **عاصفة الأوراق** الأصلية لمراجعتها. بلغنا منتصف الرواية في قراءتنا عندما نهض واقفاً وقال: هذه *لا أساس لها. لكنني سأكتب رواية تكون مقروءة أكثر من رواية دون كيخوته*"[66]. وفي شهر آذار، نشر غارسيا ماركيز قصة أخرى من قصصه في بوغوتا بعنوان: **نابو الزنجي الذي جعل الملائكة تنتظر**[67]. هذه هي القصة الأولى التي تستحضر شيئاً له سمة غابو غارسيا ماركيز وتتميز بأسلوب أعماله اللاحقة[68].

في تلك الفترة من الزمان، كان خوليو سيسر بيلعاس المعمر والسياسي المنفي من بيرو ممثلاً عن دار نشر لوسادا التي مقرها بوينس آيرس في بوغوتا وكانت واسعة الانتشار وفي مستطاعها يومذاك أن تصنع شهرة أي أديب في أمريكا اللاتينية، يجوب أنحاء البلاد بما فيها منطقة الساحل باحثاً عن مادة تبشر بالخير. وأخبر غارسيا

ماركيز بأنه إذا ما فرغ من كتابة روايته التي كان يشتغل عليها وأرسلها إليه إلى لوساد، فسيظفر بنشرها في بوينس آيرس على أنها تمثل الرواية الكولومبية المعاصرة. انتابت غارسيا ماركيز حالة من الحماسة الشديدة، وشرع في مواصلة كتابة مخطوطته. وفي منتصف شهر أيلول كانت النسخة الأولى من **عاصفة الأوراق** جاهزة كي يرسلها.

في هذه الأثناء صادف أن وصل شاب إلى كارتاخينا، وقدّر له أن يصبح في ما بعد واحداً من أصدقاء غارسيا ماركيز طوال حياته. إنه الشاعر والرحالة ومدير الأعمال التنفيذي ألفارو موتيس الذي ربما كان الأديب الكولومبي الوحيد خلال نصف القرن الماضي الذي يمكنه أن يكون صنو غارسيا ماركيز في حديثه[69]. ويصفه غارسيا ماركيز في فترة لاحقة بأنه "ذو أنف دقيق، وحاجبين يشبهان حواجب الأتراك، وجسد هائل وحذاء صغير"[70]. ربي لفترة ما في أوروبا حيث توفي والده وهو في سن التاسعة، وكان من أقرباء عالم النبات الإسباني - الكولومبي المشهور خوسيه سيليستينو موتيس. وكانت أولى قصائده الرقم 204 قد نشرت في الاسكندور قبل ظهور قصة غارسيا ماركيز الأولى والثانية **لعنات ماكرول المقسرج** بأسبوعين. ومثلما ابتكر غارسيا ماركيز أورليانو بوينديا، فقد ابتكر موتيس ماكرول وهو شخص قدّر له أن تطبق شهرته الآفاق. كان موتيس يعمل في ذلك الوقت في شركة التأمين الكولومبية، وأمضى أربعة أعوام بصفته مدير الدعاية في شركة شراب الشعير البافارية، وأمضى سنتين بالعمل مذيعاً في دار الإذاعة، وبات اليوم مدير الدعاية لشركة لانسا، وهي شركة الخطوط الجوية التي كان قد عمل فيها لويس إنريكي؛ وهذا هو الأساس في قدرة موتيس المفبركة على تحديد الرحلات من دون إعطاء مهلة للاستعداد. وكان موتيس قد التقى صديق غارسيا ماركيز منذ أيام الدراسة غونثالو مالاريبو في بوغوتا. فما كان من موتيس إلا أن أخذ الصديق الجديد لرؤية البحر في اليوم نفسه الذي اكتشف فيه أن مالارينو لم يره من قبل[71].

في عطلة نهاية الأسبوع بحثوا عن غاييتو في مبنى صحيفة الأونيفرسال ثم انطلقوا إلى بوكا غراندي لتناول الشراب على شرفة فندقهم الصغير. وفيما هم



جالسون يحتسون الشراب هبّت عاصفة قوية قادمة من البحر الكاريبي المتشح باللون الأبيض المائل إلى الرصاصي. وفي ذروة العاصفة، وبينما أحدث تمار جوز الهند تتكسر من حولهم، جاء غارسيا ماركيز مترنحاً من شدة الفوضى، هزيلاً شاحباً، معقد العينين كعهده. شاربه الرفيع كقلم الرصاص بدأ ينمو ليغدو بحجم قدم الحبر، مرتدياً القميص المداري ذا العلامة الفارقة[72] وهو ما سيدأب عليه في السنوات الخمسين المقبلة[73]. أمضى الأصدقاء الثلاثة بضع ساعات في مناقشة مختلف الشؤون والقضايا ومنها شؤون الحياة والأدب والحب. قلما يمكن تخيل شخصيتين أكثر اختلافاً من موتيس وغارسيا ماركيز، لكن صداقتهما استمرت بالرغم من ذلك نصف قرن. وكانت حماستهما التي يشتركان فيها حقاً هي لجوزيف كونراد، وكانا يتكلمان بشأنه ولم يتوقفا منذ اللحظة التي التقيا فيها. وقد أخبرني موتيس عام 1992: "كان يحاول أن يمثل دور الساحلي، لكنني أدركت بعد خمس دقائق أنه رجل جادّ كل الجد. كان رجلاً مغروراً بجسد شاب". كانت الزيارة قد جاءت في الوقت المناسب لأن موتيس الذي كانت شبكة أعماله مثار دهشة أصدقائه دوماً، يعرف وكيل دار نشر لوسادا جوليو سيزر فيبعاس وحث غارسيا ماركيز على القبول بالوظيفة وبإرسال مخطوطته بأسرع وقت ممكن. فشرع غارسيا ماركيز في إعداد نسخة خالية من العيوب نقلاً عن النسخة المشوشة المطبوعة على الآلة الكاتبة. وبعد بضعة أسابيع عاد موتيس إلى كارتاخينا وحمل معه النسخة الكاملة ورجع إلى بوغوتا وأرسلها عبر البريد الجوي إلى بوينس آيرس. كان ذلك التصرف رائعاً فبعد سنوات طويلة يحمل ألفارو موتيس نفسه نسخة مصورة عن رواية مئة عام من العزلة إلى بوينس أيرس للنظر في طباعتها في دار نشر أرجنتينية كبرى أخرى هي سوداميريكانا.

في مطلع شهر كانون الأول من العام 1951 توجه غارسيا ماركيز إلى مبنى صحيفة الهيرالدو في بارانكيا، وعندما سأله ألفونسو فوينمايور عن سبب مجيئه قال: "لقد بلغ السيل الزبى يا حضرة الأسد"[74] بعد أن أكمل الرواية، لم يعد يطيق عذاب العيش مع الأسرة في كارتاخينا وتحيص غابرييل إليخيو الجاحد من مسؤولياته. ربما كان لتوقيت عودته صلة ببدء عطلة نهاية السنة وعودة ميرثيديس



بارنـــشا إلى بارانكـــيا بعد إكمالها المرحلة الخامسة من دراستها الثانوية في مدرسة الراهبات في ميديلين حيث يتعين على الفتيات أن يستحممن وفق نوبات مخطط لها تخطـــيطاً خاصاً (أخبرتني قائلة: كي لا تتمكن أي واحدة منا من رؤية أي جزء من جـــسم فـــتاة أخرى). عاد غارسيا ماركيز ليسكن مع الأخوات ابيلا بالرغم من النفقات المتزايدة بدلاً من السكن في *ناطحة السحاب*.

في مطلع شهر شباط تلقى رسالة من دار نشر لوسادا بوساطة مكتب صحيفة الهيرالدو. ربما كانت تلك الرسالة أشد الخيبات في حياته. لقد كان غارسيا ماركيز متأكداً إلى حدٍّ بعيد أن رواية **عاصفة الأوراق** ستنشر، لكنه أصيب بخيبة أمل عندما علـــم أن هيأة التحرير في بيونس إيرس رفضت الرواية مما يعني على سبيل المجاز أنها رفـــضته، إذ أرســـلت الهيأة في بيونس ايرس رسالة مدمرة من مديرها غييرمو دي توري أحد أبرز نقاد الأدب الإسبان في المنفى وأحد أقرباء خورخه لويس بورخس الـــذي كان غارسيا ماركيز معجباً به أشدّ الإعجاب. وقد أُشير في الرسالة إلى تمتع الأديـــب الشاب بموهبة شعرية، إلا أنه قد أُوضح من خلالها أنه ليس لديه أي مستقبل في كـــتابه الـــروايه واقتُرح عليه صراحة أن يبحث له عن مهنة أخرى. تجمع كل أصـــدقاء غارسيا ماركيز حوله، حيرتهم توري حيرته تقريباً وساعدوه على أن يلمّ أطـــراف شـــجاعته؛ إذ كان يُخشى عليه أن ينهار بسبب الصدمه والجزع وقال ألفارو سيبيدا: "نعلم الجميع أن الإسبان أغبياء". وأيدوا كلهم رأيهم المخالف لرأي دي توري[75].

اســـتمر غارســـيا ماركيز طوال العام 1952 يكسب رزقه من خلال صحيفة الهيرالـــدو وعموده **الزرافة** الذي ظلت الصحيفة تنشره على مدى العام لكن تلك الأعمدة لم تعد جديدة وحماسيّة خلاف ما كانت عليه في العام الأول[76]. ولم يمض وقت طويل حتى توافي سيتموس المنية ويتوقف غارسيا ماركيز عن كتابة *زرافته*؛ بالـــرغم مـــن أنه لم يقدم، لا هو ولا أحد غيره من أفراد الجماعة، تفسيراً مناسباً للـــسبب الـــذي أسهمت إليه العلاقة بصحيفة الهيرالدو لكن بالرغم من تظاهره بالشجاعة، إلاّ أن الحقيقة هي أن رفض رواية **عاصفة الأوراق** كان ضربة قاصية، مدمرة ومقرفة. فثقته بنفسه أصيبت إصابة بليغة وارتأى أن لا فائدة من الاستمرار



في كتابة عموده اليومي. ما الذي تعلوه به؟ إلى أين وصل به كل عمله الجاد؟ مما لا شك فيه أن رؤيته لفشله، علانية في الأقل، جعلته يشعر أنه مضطراً معنوياً إلى إبداء نيته مرة أخرى لدراسة الحقوق كي يصبح محامياً وينقذ أسرته. وعندما أدرك ثانية أنه لن ينجح في ذلك أيضاً شعر بالضياع تماماً.

* * *

مما يوحي بالمفارقة أن وكيل أوسادا خولبو سيسر بمعاش جاء لينتقم له وعرض عليه وسيلة للخروج من تلك الورطة فقبل بها. كان بيغاس قد بدأ تجارته الخاصة ببيع الكتب. وفي يوم ما، زار غارسيا ماركيز الذي جاء إلى بارانكيا ورافقه إلى فندق برادو وقدم إليه الشراب حتى ارتوى وفارقه بعد أن وعده بوظيفة وحقيبة كتب. بعد أن أخذ غارسيا ماركيز على عاتقه أن يكتب ما يضاهي رواية دون كيخوته، بات الآن بائعاً متجولاً يبيع الموسوعات والنشرات الطبية والعلمية في القرى والبلدات الصغيرة في الجزء الشمالي الشرقي من كولومبيا. لا بد من أن يكون قد خطر له أنه أصبح مثل أبيه.

لحسن الحظ أن غارسيا ماركيز كان لا يفتقر إلى روح الدعابة والحس الساخر الذي عُرف به ثيربانتس. ربما في وسعه تحمل ذلك إلى حدٍّ ما. لكن من نافلة القول إن عمله تمثل بأنّ في وسعه الآن أن يتعلم شيئاً أكثر عن تاريخ أسرته وذلك باقتفاء آثار جدّيه من جديد على امتداد السنوات الماضية، في أثناء سلوكه تلك الدروب المغبرة في وادي أوبار الممتد بين جبال سييرا نيفادا ونهر سيسر. ليس هذا العالم بعالم خيرمو دي توري، بل عالمه الشخصي. وفيما هو ينطلق في رحلته الأولى، التقى بأخيه لويس إنريكي في سانتا مارتا. رأى لويس إنريكي المتزوج حديثاً أن الزواج قيود تحدُّ من حريته وأنه سيفعل أي شيء من أجل تخفيف تلك القيود. فاشتغل في عدد من الأعمال الحقيقية والكاذبة، في ثياغا في بادئ الأمر ثم في سانتا مارتا. ها هو ينتهز الفرصة الآن لمرافقة أخيه في رحلة قصيرة. فذهب الاثنان إلى ثياغا وبدأ غابيتو عمله الجديد فيها، وهي تلك البلدة التي عاش فيها جدّاه مدة قصيرة قبل الانتقال إلى آراكاتاكا. ثم رافقه لويس إنريكي إلى غواكامايال وإشيلية وآراكاتاكا وفوندثيون وكوبي وصولاً إلى بايدوبار ولاباث وماناوري. بعضهم الأولى هي الأطباء والمحامون والقضاة وكتاب العدول والعُمَد.



بعد أن قفل لويس إنريكي راجعاً إلى ثيناغا، زار غابيتو صديقه رفائيل إيسكالونا الذي رافقه على مدى أسبوع كامل في جولاته في بلدات إقليم غواخيرا؛ أوروميتا، فيانوفا، المولينو، سان خوان دل سيسر وربما فونسيكا وفي طريقهم صحبا ثاباتا أوليفيا ونظّموا في ما بينهم نوعاً من الغناء والمباريات يشارك فيها عدد من الأشخاص ويتخللها الشراب، وكان من بين الحاضرين أصدقاء وأقرباء مثل لويس كارميلو كوريَّ من آراكاتاكا وبوشو كوتيس وهو أحد أقرباء غارسيا ماركيز وصديق حميم لرافائيل إيسكالونا[77]. ويخبرني ثاباتا بعد خمس وأربعين سنة قائلاً: "كنا نقوم بسهرات احتفالية. في ليلة ما، تصل سيارة ما، لتجد نفسك وقد استيقظت في صباح اليوم التالي وأنت تعاني من آثار الشراب في غواخيرا أو في سيير نيفادا. هكذا كانت حياتي يومئذ. كنا نذهب إلى مزرعة أحدنا فنتناول الطعام ثم نمضي إلى سييرا دي بيريجا ومنها إلى ماناوري. لكن المطاف كان ينتهي بنا دوماً إلى تناول الشراب مع أفضل عازفي الأكورديون في ذلك الوقت مثل إيميليانو ثوليتا، وكارلوس هويبعا، ولورنثو مورالس[78]. وهكذا صحب إيسكالونا صديقه المتمدن ليلتقي بالتروبادور الذين يرعون البقر، وبالشخصيات الأسطورية في الإقليم.

تعد مدينة بايدوبار، عاصمة منطقة السيسر الواقعة في وادي أوبار المركز التاريخي للنشاط الغنائي المعروف بالاسم فاليناتو (تعني كلمة فاليناتو "المولود في الوادي"). يمكن تمييز أغاني الفاليناتو حال سماعها، فهي ذات إيقاع راقص وقوي يحدثه المزيج الغريب لصوت الأكورديون الأوروبي والطبل الأفريقي والمكشخة الهندية بمصاحبة صوت المغني القوي الذي يكون عادة عازف الأكورديون نفسه[79]. ثمة أغنية لألفونسو فرنانديث أوناتي تلخص إيديولوجية الفاليناتو تلخيصاً وجيزاً:

أنا من مواليد الوادي فعلاً
صافي السريرة، نقي محتد،
الدم الهندي في عروقي
مع قدر من الدم الإسباني والأسود
لدي مباهج الوادي
ولدي الماء والموسيقى والأكورديون



وكل هذه الأشياء التي أحب
تخرج في صوت أغنياتي[80].

لم يحظ العديد من أدباء أميركا اللاتينية بصلة وثيقة مع ما يمكن أن يطلق عليه الثقافة الشعبية الأصيلة كتلك التي حظي بها غارسيا ماركيز في أسلوب الخمسين اللاحقة. ويذهب به القول إلى أن يعرفه إلى أغاني الفاليناتو والموسيقيين الذين ابتكروها منحه فكرة السرد في رواية **مئة عام من العزلة**[81]. المقارنة جديرة بالاهتمام إذا ما أخذنا في الاعتبار أن أحداثاً سُردت في كل صفحة من تلك الرواية أكثر بكثير من أي رواية أخرى قد تخطر على بال. غير أن غارسيا ماركيز طوّر الشكل إلى ما هو أبعد من ذلك، مؤسساً توازناً بين واقعية الفاليناتو والصلة المباشرة بين رواياته وحياته: "لا يوجد أي سطر في أي من مؤلفاتي لا يمكنني أن أربطه بتجربة حقيقية. هناك دوماً إشارة إلى واقع حقيقي". وهذا هو السبب الذي جعله يؤكد دائماً أنه ليس "واقعياً سحرياً" ولكنه مجرد "كاتب فقير" ينسخ ما موجود على طاولته[82]. لعل المظهر المدهش الوحيد لهذا كله هو أن غارسيا ماركيز، الذي أصبح موضع إعجاب بسبب تعاطفه مع النساء، يتعين عليه أن يتماهى عاطفياً تماماً مع حركة تثني ثناءً حاراً على قيم الرجولة.

ويواجه غارسيا ماركيز برفقة إيسكالونا واحداً من أعظم اللقاءات الخرافية في حياته. فقد كانا يحتسيان الشراب في إحدى الحانات في بلدة لابات عندما دلف شاب مرتدياً ثياب رعاة البقر، ويعتمر قبعة عريضة، ويلبس بنطالاً جلدياً معلقاً مسدساً في حزام خصره. قال إيسكالونا، وكان يعرفه معرفة جيدة: "دعني أعرفك إلى غابرييل غارسيا ماركيز". فسأل الرجل غارسيا ماركيز وهو يصافحه:

– هل لك علاقة بالعقيد نيكولاس ماركيز؟

– إنني حفيده.

– إذاً جدك هو الذي قتل جدي[83]

كان اسم الشاب هو ألخاندرو باتشيكو، بالرغم من أن غارسيا ماركيز في مذكراته يطلق على الشاب اسم خوسيه برودينثيو أغيلار، مثل الشخصية التي تسند إليه في رواية **مئة عام من العزلة**. وهنا أسرع إيسكالونا وهو الآخر يحمل مسدساً:



وقـــال غارسيا ماركيز لا يعرف شيئاً عن القصية واقترح أن يقوم هو وأليخاندرو محاولـــة لإطلاق النار، وكان يهدف من وراء ذلك إفراغ مسدسه من الطلقات. أمـــضى الرجال الثلاثة ثلاثة أيام بلياليها وهم يحتسون الشراب ويسهرون بشحنة باتـــشيكو لـــتي كانت تستخدم عادة للتهريب في أرجاء المنطقة. وقد عرّف باتشيكو غارسيا ماركيز إلى عدد من أطفال العقيد غير الشرعيين منذ زمن الحرب

عـــندما كـــان الأصـــدقاء ورفـــاق السمر منهمكين في عمل ما، كان بائع الموسوعات المتذبذب يبقى نـــزيل فنادق صغيرة رخيصة وهو يتصبّب عرقاً. وكان أحـــد هذه الفنادق الأفضل من غيره هو فندق ويلكوم في بايـيدوبار. وفي أثناء تلك الفـــترة قرأ رواية **الشيخ والبحر** لهمنغواي التي صدرت بالطبعة الإسبانية منها عن مجلـــة لايف أواخر شهر آذار، وكان قد أرسلها إليه أصدقاؤه في بارنكيا. كانت "مثل إصبع ديناميت"[84]، وقد تبدل موقف غارسيا ماركيز المستهجن من همنغواي الروائي.

ويـــتذكر غارسيا ماركيز أنه إضافة إلى قراءة رواية **الشيخ والبحر** قرأ أيضاً روايـــة فرجينيا وولف **السيدة دالاوي** في فندق - منفى آخر في أثناء هذه الرحلة وسط أسراب البعوض والحرارة الخانقة، وهو جو ليس من شأن فرجينيا وولف أن تستمتع به كثيراً. وبالرغم من أنه استخدم اسماً مستعاراً اقتبسه من روايتها، إلا أنه لم يكـــن متأثـــراً بها من قبل تأثره في هذا الوقت، تحديداً تلك الفقرة الخاصة بملك إنكلتـــرا وهو يمر بسيارة ليموزين، مما سيؤثر لاحقاً تأثيراً شديداً في رواية **خريف البطريرك**[85].

عندما رجع غارسيا ماركيز إلى بارنكيا بعد هذه الرحلة القصيرة، فإنه يكون قد وصل حقاً إلى نهاية رحلة طويلة وسط ثقافته الشعبية الإقليمية ووسط ماضيه وما قـــبل تاريخه[86]. وهو الآن على استعداد لأن يسكن في ماكوندو، في الوقت نفسه تمامـــاً، ويـــا للمفارقة، الذي سيبدأ نموذج همنغواي بجذبه بعيداً عن عوالم الذاكرة والخـــيال. والـــيوم يقترن اسم الكاتب الكبير غارسيا ماركيز اقتراناً صميمياً بتلك القـــرية الأميركـــية اللاتينية التي هي في الوقت نفسه حالة ذهنية: ماكوندو. لكن ماكـــوندو التي نعرفها لا تشكل سوى نصف قصة غارسيا ماركيز، بالرغم من أنها

النصف الذي سيمنحه هويته وامتيازه العالميين. إن الإقليم الحقيقي الذي يمتد حول بلده ماكوندو الأدبية هو الجزء الشمالي من مديرية مجدلينا القديمة من سانتا مارتا إلى نواحيها عبر آراكاتاكا وبايدوبار. إنها إقليم أمه وجديه لأمه الذي وفد إليه والده متطفلاً غير مرغوب فيه، واحداً من نفايات الورق. أما النصف الآخر من القصة، فهو منطقة ذلك الأب نفسه وهي مدينة كارثاخينا وبلدتا سينثي وسوكري في مديريتي بوليفار وسوكري، أرض رجل ذي أحلام مزهوه عن الشرعية ماضياً ومستقبلاً. وهكذا، فهي أرض مرفوضة بسبب روعتها النزّاعة نحو الكبت منذ أيام الاستعمار والإذلال الذي لا يزال يمارسه ضدها أبناؤها الذين يتفرون إلى المجد؛ إنها أرض تعدو وقد اختزلت إلى قربه مجهولة الاسم لا تستحق عنواناً أدبياً، لكنها تمثل بالدرجة نفسها أميركا اللاتينية أميركا اللاتينية الحقيقية والتاريخية، وهو ما يريد المرء أن يقوله[87].

بعد أن انتهت رحلة غارسيا ماركيز، أصبح في وسعه العودة إلى باراكيا في زيارة قصيرة، وإجراء مسح شامل للفضاء الذي غزاه أخيراً بنفسه؛ من وسطه الكائن في قمة الأرض التي تبدو متحمسة كلها، ولكنه وسطٌ ليس من تلك الأرض. لم تكن باراكيا بوابة وحسب، بل كانت أيضاً بلدة حديثة تنتمي إلى القرن العشرين لا تباهي بماضيها الذي يرقى إلى حقبة الاستعمار ولا بذنوبها؛ البلدة التي يمكن للمرء أن يلوذ إليها هرباً من وطأة الماضي وأجيالها الشبحية ويتجدد فيها. يبدو أنها أدت واجبها الآن.

كانت حقبة الضياع توشك أن تنتهي في وقت كان يخيم فيه شبح التحول السياسي على نحو مخيف. كان غارسيا ماركيز مستقلاً حافلة في طريق عودته إلى باراكيا في الثالث عشر من حزيران عام 1953 عندما علم أن القائد العام لقوات المسلحة الجنرال روخاس بينّا استولى على الحكم بحركة انقلابية ضد نظام لوريانو غوميث الذي تماثل للشفاء من مرض أَلـمَّ به واضطره إلى تسليم مقاليد السلطة إلى نائبه قبل الحركة الانقلابية، فحاول الآن العودة إلى السلطة، لكن العسكر قرروا أن عودته ليست في مصلحة الوطن وأنهم سيواصلون الحكم حتى نهاية فترته الرئاسية، وسيكون روخاس بينّا على رأس النظام. حظي الانقلاب بتأييد واسع النطاق في



جميع أنحاء البلاد، بل إن محرري بعض الصحف القومية رحبوا بارغيم الجديد.
يتذكر غارسيا ماركيز حدوث مشادة سياسية قوية بينه وبين راميرو دي لا إسبرييا في مكتبة بيبعاس - الذي سرعان ما سيرح به في السجن بتهمة التزوير - في اليوم الذي تلا تحرك روخاس بينيا ضد غوميث. وسمح غارسيا ماركيز لنفسه أن يستفز صديقه بالقول: "أشعر حقاً أنني أنسجم وحكومة جنرالي عوسنافو روخاس بينيا"[88]. وكان موقفه أساساً يتمثل بأن أي شيء هو أفضل من نظام غوميث الكتائبي، في حين أراد دي لا إسبرييا ثورة شاملة، وكان يخشى من أن تثبت الدكتاتورية العسكرية أنها أسوأ من الدكتاتورية الرجعية، وقال إن العسكر لا يمكن الوثوق بهم. الحق أن لكل رجل موقفه الجدير بالاعتبار. لقد كان ذلك الخلاف بالغ الأهمية ويبشر بأشياء أخرى، إذ سيردد غارسيا ماركيز مراراً في ما بعد أن الدكتاتورية التقدمية أفضل من حكومة فاشية تمارس التفرقة والشقاق تحت ستار ديمقراطية زائفة.

بالرغم من تردد غارسيا ماركيز في العودة إلى صحيفة الهيرالدو، فإنه لم يتمكن من الابتعاد عنها إلا باللجوء إلى صحيفة أخرى. فمنذ زمن بعيد فكّر ألفارو سيبيدا ساموديو، وهو يعمل في تجارة السيارات، في منافسة صحيفة الهيرالدو وتأسيس صحيفة أفضل تهيمن على منطقة الساحل كلها. وفي شهر تشرين الأول مُنح فرصة لإدارة صحيفة الناسيونال مؤملاً أن يحولها إلى نمط الصحافة الحديثة الذي تعلمه في الولايات المتحدة. فوظّف صديقه العاطل عن العمل منذ وقت قريب ليكون مساعده. ويتذكر غارسيا ماركيز لاحقاً أن تلك الفترة كانت من أسوأ فترات حياته. فقد أمضى الرجلان أياماً وليالي بكاملها في مبنى الصحيفة من دون أن تصدر سوى بضعة أعداد منها وبغير انتظام. لسوء الحظ، لا تتوفر أي مجموعة منها، لهذا يستحيل الحكم على جهودها. لكن كل ما نعرفه حقاً هو أن سيبيدا تولى إدارة الصنعة الصحافية التي كان يرسلها إلى داخل البلاد، في حين تولى غارسيا ماركيز إدارة الطبعة المسائية التي كانت تُباع في بارانكيا. وقد خلصا إلى نتيجة مفادها أن جزءاً من المشكلة يكمن في الأقل في العمال القدامى الذين كانوا يسعون إلى تخريب صحيفة متجددة[89]. لكن الحقيقة لسوء الحظ تبدو كامنة في أن سيبيدا أثبت عجزه

في ذلك الوقت عن ممارسة الانضباط والمهارة المطلوبين لإدارة مثل هذه العملية ويتذكر غارسيا ماركيز على استحياء أن "ألفارو غادر المكتب وصفق الباب خلفه"[90].

لكن لا يزال لدى غارسيا ماركيز عمل مع الصحيفة. لذلك واصل عمله فيها بعض الوقت محاولاً بكل ما أوتي من جهد أن تظل الصحيفة على قيد الحياة ولو باستخدام مواد عتيقة، لكن هناك ما حفزه لكتابة قصة جديدة بعنوان **يوم آخر بعد يوم السبت** وهي قصة أخرى من القصص القليلة المبكرة التي كتبها واعترف في ما بعد أنه يحبها. والقصة مثيرة للاهتمام إلى حدٍّ بعيد لأنها تدور في منطقة تدعى ماكوندو بالرغم من أنها لا تزال تذكرنا برواية **البيت**. ثم هناك نقطة أخرى. ففي وسع كل من كان يعيش في آراكاتاكا أن ينتبه إلى أن ماكوندو هي آراكاتاكا مع قدر من شفافية لتركيز، وإن شابها شيء من الغموض واكتست بأجواء مفترحة بخلاف الظلمة المكفهرة التي يبدو أنها تميز رواية **البيت** ورواية البلدة التي تعكس لـ بلدة سوكري. لماذا؟ هناك محطة قطار أيضاً! في الوقت نفسه، لم تقتصر القصة الأصح أنها رواية قصيرة مكثفة تكثيفاً شديداً – على البيت، شأن معظم القصص والنصوص المبكرة المنشورة. كما كانت سياسية بكل وضوح تصب اهتمامها على العمدة وأسقف البلدة. إضافة إلى ذلك، استخدم غارسيا ماركيز أسماء العقيد أورليانو بوينديا وخوسيه أركاديو بوينديا وقرينتهما *الأرملة المعذبة*. وثمة صبي فقير من خارج البلدة يعامل معاملة رقيقة جديدة تماماً ذات لمسة انتقادية اجتماعية وسياسية. في الوقت نفسه، كشفت القصة عن مجموعة كاملة مما يعد مستقبلاً موضوعات مفضلة لدى غارسيا ماركيز بدءاً بموضوع الأوبئة (في هذه الحالة قصة وباء الطيور النافقة) ومفهوم عزلة الإنسان[91].

عاد ألفارو موتيس بعد أن أصبح الآن مدير العلاقات العامة في شركة إيسو إلى بارانكيا أواخر السنة، ولدى رؤيته مأزق صديقه حاول مرة أخرى إقناعه بالرحيل إلى بوغوتا وقال له إنه "يتآكل في الأرياف"[92]، كان لدى موتيس سبب وجيه في الاعتقاد أن غارسيا ماركيز سيتمكن من الحصول على وظيفة في صحيفة الاسبكتادور. غير أن ما من شيء في أعماق هذا الساحلي يرغب في الرحيل، لذلك



رفض الفكرة رفضاً مطلقاً. فقال له موتيس: "حسناً سأرسل إليك تذكرة مفتوحة ويمكن الحصول عندما تكون مستعداً"[93]. أخيراً فكّر غارسيا ماركيز في الموضوع مـرة أخرى لكنه أدرك أنه لا يستطيع السفر إلى بوغوتا حتى لو شاء ذلك لأنه لا يملك ثياباً جمع بيزوساته الأخيرة واشترى بذلة أنيقة كالتي يلبسها رجال الأعمال وقميصين وربطة عنق. ثم أمسك بتذكرة السفر من الدرج ونظر إليها، ثم وضعها في جيب بدلته الجديدة. لقد بذل قصارى جهده. لكن لا مجال لشابّ فقير بلا شهادة أن يكـسب عيشه لرغيد في الساحل. ربما سيتمكن يوماً ما من الزواج بمرثيديس التي ألزم نفسه بها الآن ذهنياً على الأقل. وقال أصدقاؤه: "حسناً، لكن لا ترجع إلينا واحـداً من الكاتشاكو". ثم رافقوه للاحتفال بسفره في حانة الرجل الثالث، وهي إحدى حانات السوق المفضلة لديهم. وإلى هنا انتهى الموضوع.

* * *

-8-

العودة إلى بوغوتا:
مراسل صحافي من الطراز الأول
1955-1954

عاد غارسيا ماركيز إلى بوغوتا في مطلع شهر كانون الثاني عام 954 ، وكان قـد وصلها بالطائرة بالرغم من هلعه المرضي من الطيران، وهو الهلع الذي سيزداد عـرور الأعوام. واستقبله في المطار ألفارو موتيس الذي كانت حياته مفعمة بالسفر بالطائـرات والسـيارات وحتى السفن أيضاً. كان القادم الجديد يحمل حقيبة سفر وورقـتين سلمها لصديقه ليضعها في صندوق السيارة. كانت الورقتان تحتويان على مخطـوطتي البيت وعاصفة الأوراق اللتين لم تنشرا حتى الآن. أخذه موتيس بسيارته صوب مكتبه مباشرة في مركز المدينة. ها قد عاد ثانية إلى الجو البارد والماطر وعاد إلى عـالم التوترات والاغتراب الذي ظن أنه خلّفه وراءه إلى الأبد عندما رحل عن المدينة قبل نحو ستة أعوام[1].

كـان مقر شركة إيسو آنذاك في المبنى نفسه الكائن في شارع خيمينيث دي كيسـادا حـيث تقع مكاتب صحيفة الاسبكتادور، التي انتقلت إليها من موقعها السـابق على بعد بضعة شوارع. كان مكتب موتيس في العلاقات العامة يقع فوق مكتـب رئيس تحرير الصحيفة غييرمو بأربعة طوابق. بدا موتيس عازماً يعتمز إلى الوصـوح في كيفية تدبير أمور غارسيا ماركيز في الأيام الأولى من إقامته - بل إن موضـوع العمـل في صحيفة الاسبكتادور غاز في عالم النسيان. فازدادت قلقاً واكتئاباً حالة غارسيا ماركيز القلقة والمكتئبة أصلاً. كان يفتقر دائماً إلى الثقة عندما يكون في مواجهة مواقف جديدة أو مع رجال ونساء لا يعرفهم. وقلما ترك انطباعاً



حسناً لدى الناس الذين يرونه للوهلة الأولى ولا يكتسب الثقة إلا بالألفة والحميمية أو بإظهار ما يمكنه عمله. ومع هذا، فإن موتيس ليس هو من يرفض الرد وهو الذي تجمع شخصيته بين ما هو عملي وما هو جمالي على نحو لم يشهده أو يتخيله إلا القليلون. لقد كان بائعاً ممتازاً حتى عندما لا يكون متأكداً من جودة بضاعته. وعندما تكون لديه سلعة ثمينة مثل هذا الأديب المجهول فإنه لا يقاوم عادةً. كان ألفارو موتيس يهتم اهتماماً شديداً بالأدب وكان كريماً كرماً غير مألوف.

أما من الناحية البدنية، فلا يمكن للرجلين أن يكونا أكثر اختلافاً؛ فموتيس طويل القامة، رشيق، ذو دهاء، في حين كان غارسيا ماركيز قصير القامة، هزيلاً ورثّ الثياب. وظل يكتب القصص والروايات منذ سن الثامنة عشرة على حين كان موتيس شاعراً تحديداً ولم يبدأ بكتابة الروايات إلا وهو في منتصف الستينيات من عمره، وذلك بعد تقاعده من سلسلة من الوظائف في شركات عالمية مقرها الولايات المتحدة. وحتى اليوم، وبعد أن أصبح الاثنان روائيين مشهورين عالمياً، فإن هذين الكولومبيين منفصل أحدهما عن الآخر بمجمل تاريخ أدب أميركا اللاتينية، بل إنهما وقفا على طرفي نقيض في المنظور السياسي، إذ يكاد يكون موتيس رجعياً متكلماً وملكياً في بلد جمهوري منذ قرابة مئتي عام. وكان بحسب تعبيره "يفتقر افتقاراً تاماً إلى الاهتمام بكل المظاهر السياسية التي أعقبت سقوط بيزنطة"، أي بعد العام 1453[2]. أما نزعات غارسيا ماركيز في حقبة ما بعد عام 1917 فقد باتت واضحة ومعروفة؛ بالرغم من أنه لم يكن شيوعياً قط، إذ أصبح قريباً من ذلك الفكر العالمي بمعناه الواسع أكثر من قربه من أي إيديولوجيا أخرى في حياته الطويلة ذات الالتزامات العميقة. لقد كانت علاقتهما طويلة ووثيقة، لكنها لم تكن مذهبية.

في الأسبوعين الأولين لم يجلس غارسيا ماركيز في مكتب صحيفة الاسبكتادور بل جلس في مكتب موتيس يدخن ويرتعش كدأبه في بوغوتا ويتحدث إلى مساعد موتيس الذي عُيّن مؤخراً – ولم يكن سوى صديقه القديم غونثالو مالاريو الذي عرفهما إلى بعضهما بعضاً أول مرة في تلك الليلة العاصفة في كارثاخينا – أو تراه يعبث بأصابعه. في بعض الأحيان، كل ما عليك عمله هو انتظار حدوث شيء ما، وبخاصة إذا كنت في أميركا اللاتينية أو أجزاء أخرى من العالم الثالث حيث معظم

الناس لا حول لهم ولا قوة وهذا هو السبب في أن العديد من روايات غارسيا ماركيز وقصصه تدور حول الانتظار والأمل. وبحلول أواخر شهر كانون الثاني منحته صحيفة الاسبكتادور فجأة وظيفة ثابتة ومرتباً شهرياً مذهلاً مقداره تسعمئة بيزوس. لقد كان حصوله على مثل هذا المبلغ في بارانكيا يتطلب كتابة ثلاثمئة عمود من أعمدته المعروفة بالزرافة، أي عشرة أعمدة في اليوم! ولأول مرة، أصبح لديه فائض من المال مما يعني أنه يستطيع مدَّ يد العون لأسرته في كارتاخينا بإرسال ما يكفي من المال لتسديد مبلغ الإيجار والمنافع الأخرى.

وسكن مؤقتاً في منزل والدة موتيس في أوساكوت وانتقل بعد ذلك إلى نُزل بلا اسم قرب الحديقة الوطنية. وكان ذلك النُزل لامرأة فرنسية آوت يوماً ما إيفا بيرون في أيامها الرخصة. أصبح لديه جناح خاص به، وهي رفاهية لم تحلم بها يوماً بالرغم من قلة الوقت الذي كان يمضيه فيه، إذ سيجد من حين إلى آخر إبان الشهور التالية الوقت والطاقة الكافيين لتهريب إحدى الإناث إلى شقته[3]. لكنه سيمضي أساساً العام ونصف العام بين الصحيفة والنُزل ومكتب موتيس ودور السينما القومية في بوغوتا، ينفذ واجباته الصحفية في الكتابة والنقد السينمائي، وأخيراً بصفته صحفياً من الطراز الأول.

ومن العجب أن حرب الصحافة في بوغوتا لم تكن سوى منافسة بين الصحيفتين الليبراليتين الكبريين. فقد أسست صحيفة الاسبكتادور عام 1887 على أيدي أسرة *كانو* في ميديلين (وانتقلت إلى بوغوتا في العام 1915) وكانت أقدم من صحيفتها المنافسة التيمبو التي أسست عام 1911 واشتراها إدواردو سانتوس في العام 1913، ولا تزال أسرة سانتوس تملك الصحيفة وتديرها حتى عام 2007 عندما اشترت دار النشر الإسبانية بلانيتا قسماً كبيراً منه. عندما وصل غارسيا ماركيز في شهر كانون الثاني كان مدير الاسبكتادور هو غييرمو كانو، حفيد مؤسسها المتواضع وقصير النظر، ولم يتبوأ موقعه فيها إلا لأنه كان في مقتبل العقد الثاني من عمره. هذا وسيبقى هو وغارسيا ماركيز على صلة طوال أكثر من ثلاثين عاماً

كان لدى غارسيا ماركيز عقدان متينان مع الأديبين البارزين إدواردو ثالاميا بوردا الذي اكتشفه قبل ستة أعوام، وقرينه غونثالو غونثاليث (غوغ) الذي بدأ



العمل في الصحيفة وهو لا يزال طالباً في الحقوق في العام 1946. وكان ثالاميا بوردا هـو الذي عمَّده بالاسم *غابو* الذي سيعرفه به في ما بعد سكان الكوكب جميعاً. وتظهـر إحـدى الصور المشهورة من تلك الأيام غارسيا ماركيز بمظهر جديد غير مألـوف. إذ ظهـر رشيقاً وأنيقاً، دقيق الملامح، ذا عينين مفعمتين بالشك لكنهما عارفـتان أيـضاً، وابتسامة صغيرة تحت شاربه اللاتيني. اليدان وحدهما هما اللتان تفضحان حالة التوتر الدائمة التي كان يعيش فيها هذا الإنسان.

كان محرر الأخبار في صحيفة الاسبكتادور هو خوسيه *الفرد* ("الأشقر" وكنيته "فرد") سالغار وهو الإداري كثير المتطلبات الذي لا يطبق السلوك الوقح الذي يرفع دائمـاً شـعار "أخبار، أخبار، أخبار". وقد وصف غارسيا ماركيز العمل معه بأنه "استغلال فرد لإنسان"[4]. وكان قد حصل على عمله في الصحيفة منذ صباه وتعلم في مدرسة الصحافة والحياة، وبات مؤسسة عن جدارة واستحقاق. ومنذ البداية لم يتأثـر بـشهرة غارسيا ماركيز وارتاب ارتياباً شديداً في صنعته الأدبية التي لا تدع مجالاً للشك، وفي "غنائيته" المتأصلة فيه[5].

لكـن غارسيا ماركيز أظهر بعد أسبوعين جدارته بمقالتين عن السلطة الملكية والعزلة، والخرافة والواقع. كانت المقالة الأولى بعنوان **كليوباترا** مسلية جداً، أوضح فـيها أن تمـثالاً جديداً للملكة المصرية لن يغير من الصورة الرومانسية التي رسمها الـرجال عنها طوال ألفي سنة. أما المقالة الثانية فكانت بعنوان **الملكة وحيدة وهي** عـن الملكة الأم إليزابيث ملكة إنكلترا الأرملة. لعل صياغة غارسيا ماركيز الأكثر إثـارة من أي صيغة أخرى في تلك الفترة لموضوعات بعينها - وبخاصة الربط بين السلطة والشهرة والعزلة – هي التي ستصل أوجها بعد عشرين سنة في رواية **خريف البطريرك**.

> **الملكة الأم التي أمست الآن حقاً وحيدة حقاً للمرة الأولى في حياتها. ولا بد مـن أنها تتذكر في أثناء تجوالها برفقة عزلتها على امتداد ممرات قصر بكنغهام العظيمة وبحنين جارف ذلك العصر السعيد الذي لم تحلم فيه ولم تتمنَّ أن تحلم في أن تكون ملكة وأن تعيش مع زوجها وابنتيها في بيت تغمره الألفة... ولم تعـرف إلا القلـيل عن أن ضربة غامضة من ضربات القدر ستحول ابنتها وأولاد ابنتيها إلى ملوك وملكات وتحولها هي إلى ملكة وحيدة.**



> سيِّئة بيت مهجورة لا ينفعها عزاء، بيتها يتلاشى في متاهة قصر بكنفهم الهائلة وعمراله التي لا تنتهي وذلك الفناء الخلفي الذي يمتد حتى حدود أفريقيا[6].

هذه المقالة نفسها هي التي أقنعت ثالامبا بوردا، الذي كان ميّالاً إلى الملكة إليزابيث الثانية الشابة، أن غارسيا ماركيز كان على استعداد للتحول إلى موضوعات أعمق[7]. وقال غييرمو كانو إن غارسيا ماركيز اضطر لدى وصوله إلى أن يكيف نفسه مع أسلوب الصحيفة الحذر المتسم بالغموض. لكن بعد برهة وجيزة شرع الكتاب الآخرون بالتكيف مع ارتجالات القادم الجديد الذكية والبدء بتقليده[8].

يتذكر غارسيا ماركيز أنه كان يجلس إلى مكتبه يكتب مقالة لعمود الصحيفة يومًا فيومًا فيخبره خوسيه سالغار أو غييرمو كانو وسط ضوضاء الغرفة بإشارة من إبهامه وسبابته مساحة الكتابة المطلوبة لملء الفراغ. لقد تبخر شيء من الروعة عن صحافته. والأسوأ من هذا أن بوغوتا لم توفر له الحافز الحيوي الذي كان يجده في كل مكان على امتداد الساحل. وفي أواخر شهر شباط وصل به السأم حدّ البكاء، فتمكن من إقناع الإدارة في أن يجرب كتابة النقد السينمائي وينشر مراجعاته في أيام السبت. لا بد من أنه ارتاح ارتياحاً مدهشاً وهو يهرب عدة مرات أسبوعياً من توترات الحياة في ظل دكتاتورية تحكم في "أكثر مدن العالم إثارة للكآبة"، وتحت فترة تدريب مرهقة وغير ضرورية في مكتب الصحيفة، وأن يلوذ إلى عالم الخيال الذي توفره الأشرطة السينمائية. الحق أنه كان رائداً في مجاله، فما من صحفي آخر كتب عموداً منتظماً عن السينما في أي صحيفة كولومبية قبل هذا الوقت. فقد كان هؤلاء الصحفيون يقتصرون على توفير ملخصات للحبكة وذكر أسماء النجوم.

كان ينظر إلى السينما منذ البداية نظرة أدبية وإنسانية بدلاً من أن ينظر إليها نظرة سينمائية مجردة[9]. ولا بد من أن إيديولوجية غارسيا ماركيز السياسية التي كانت تتطور تطوراً سريعاً في ذلك الوقت، قد عززت من إحساسه بأنه يملك فرصة "لتعليم الجماهير"، وربما إنقاذهم من الوعي الكاذب الذي جعلهم يفضلون منتجات هوليوود السينمائية المعلبة مسبقاً على الأعمال السينمائية الفرنسية المصنوعة صنعة جمالية وللأعمال السينمائية الإيطالية المرسومة والمنفذة على نحو أصيل والتي كان



يمقـصدها على وجه الخصوص. لكن رواد السينما في العاصمة إبان الخمسينيات من القـرن العشرين لم يكونوا على الأرجح ميالين إلى تقدير التقويم الطبيعي للأشرطة السـينمائية التي كانوا يذهبون لمشاهدتها على حين كان غارسيا ماركيز منذ البداية مهووسـاً بفكـرة النظر إلى الواقع من وجهة نظر "الجماهير" والعمل على تعديل النظـرة لتـصب في اتجاهات تقدمية. ومما لا ريب فيه أن مراجعاته لتلك الأشرطة الـسينمائية تـسمت مواقف "فطرية" مثير أسئلة جمالية وإيديولوجية. غير أن إحدى سـجاياها غارسيا ماركيز الملازمة له دائماً في تصديره "للفطرة" هي أن هذه "الفطرة سليمة" وأنها ليست "سيئة" أبداً[10].

منذ البداية كان غارسيا ماركيز معادياً لما يعتقده قيم نظام هوليوود التجارية الـضحلة والمعمقـة إيديولوجـيّاً - وكـان يعد أورسون ويلز وتشارلي تشابلن استـثنائيين - ودافـع مراراً وتكراراً عن السينما الأوروبية التي كان يشد إنتاجها وقـيمها الأخلاقـية من أجل تطوير سينما وطنية في كولومبيا. وسيظل هذا الأمر علاوة على البعد الأميركي اللاتيني هوساً دائماً على مدى السنين. ومن العجب أنه انشغل بالقضايا التقنية - كالنص والحوار والإخراج والتصوير والصوت والموسيقى والتقطـيع والتمثيل - مما يدفع إلى التبصر في حرفة الأعمال الأدبية المماثلة لحرفيه الـنجار؛ "سر المهنة" الحرفي الذي لم يرغب قط في أن يشاركه فيه أحد، في الأقل ليس في ضوء الرواية[11].

كـان يـصر على أن يكون النص اقتصادياً ومتسقاً ومتماسكاً، وأن يعطى القطعـات القريبة والبعيدة بالاهتمام نفسه. كان منذ بدايته منشغلاً بمفهوم القصة جـيدة الـصنعة. فكـان ذلك هوساً لازمه طوال حياته، وهو ما يفسر لنا تحيته المتواصـل لألـف ليلة وليلة، ودراكولا، والكونت دي مونت كريستو، وجزيرة الكنـز؛ وكلها أعمال من الأدب الشعبـي ذات السرد الذكي. وهو الشيء ذاته الذي كان ينشده في السينما أيضاً: أن يسود الواقع الموضوعي فوق كل شيء، لكن لا ينبغي إهمال العالم الداخلي ولا حتى العالم الخيالي. وأشار إلى أن الملمح الأسس في شريط **لصوص الدراجة الهوائية** للمخرج فيتوريو دي سيكا يكمن في "صدقيته الإنسانية" وفي "منهجه الحياتي".



ستظل هذه الأفكار الأساسية مهيمنة في ما بعد على فكره على مدى سنوات طويلة، وهي ليست بعيدة عن العقائد الأساسية لكل من البورجوازية والواقعية الاشتراكية لتي وجدت وحدة كلاسيكية في الواقعية الجديدة الإيطالية لكنها لم تكن طليعية، إذ لم يُظهر غارسيا ماركيز إلا قدراً قليلاً من الانتباه إلى نظريات الموجة الجديدة الفرنسية الآخذة في النمو والتطور والتي وجدت طريقها وسط أعمال السينمائيين البرازيليين والأرجنتيين والكوبيين في ذلك الوقت. وتوضح، من دون لبس اختياراته لأفضل الأشرطة السينمائية للعام في الحادي والثلاثين من شهر كانون الأول أنه كان يرى في الواقعية الجديدة الإيطالية لعام 1954 منهجاً في صنع الأشرطة السينمائية. لكن من المفارقة التفكير في أنه ليس من شأن دي سيكا، صانع الأفلام المفضل لدى غارسيا ماركيز، وسيزار زافاتيني، كاتب النصوص السينمائية الذي لا يضاهيه أحد، أن يخوضا في تصوير شريط سينمائي ذي حبكة مماثلة لحبكة رواية **عاصفة الأوراق**. وهذا هو السبب الذي جعله لا يُقدم على تأليف أي روايات أخرى مثل رواية **عاصفة الأوراق**.

كان العمل في أيام الأسبوع يثير التوتر فكان في غايته يشارك في أيام "الجمع الثقافية" التي يقيمها الصحفيون بانتظام. وكان هذا المصطلح كناية عن الإسراف في الشراب في فندق كونتيننتال، الكائن على الجانب الآخر من الشارع، حيث يمكن لكتّاب الاسكتادور والتيمبو أن يلتقوا ويتبادلوا الشراب والشتائم. وكانوا في بعض الأحيان يواصلون الشراب حتى الفجر[12]. كما اشترك غارسيا ماركيز في نادي بوغوتا السينمائي الذي نظمه واحدٌ آخر من المنفيين الكاتالونيين المفعمين بالحيوية والنشاط والذي سيتعرف إليه الأديب الشاب بمرور السنين. كان اسمه لويس بيثينس، وكان قد عمل مع الناقد الكبير جورج سادول في الشاشة الفرنسية وأخذ يكسب رزقه الآن في كولومبيا من خلال بيع الكتب علاوة على إدارة النادي السينمائي مع كولومبيَّين آخرَين هما الناقد السينمائي هيرناندو سالثيدو والرسام إنريكي غراو. وكان بعد انتهاء جلسات النادي السينمائي يذهب إلى الحفلة التي لا مفر منها في منزل لويس بيثينس وزوجته الكولومبية نانسي على مقربة من مبنى الصحيفة[13].



لكن بالرغم من ذلك، فإن هذا الأسلوب الجديد في الحياة، الذي هو أسلوب حياة الطبقة الوسطى لسكان بوغوتا، قلما تمكن من أن يحلّ محل المرح والصخب، ناهيك عن الاهتمام، الذي كان يرافق الحياة على الساحل لقد كتب غارسيا ماركيز في وقت مبكر من إقامته في بوغوتا رسالة إلى ألفونسو فوينمايور

ستخف مشاغلك الأبوية النبيلة إذا ما أخبرتك أن وضعي هنا لا يزال جيداً بالرغم من أن القصبة في الوقت الراهن تتمثل بتعزيز هذا الوضع. ثمة جو رائع في الصحيفة وقد سمحوا لي حتى الآن بأن أحظى بالامتيازات نفسها التي يتمتع بها العاملون على المدى البعيد. لكن الجانب الحزين من القضية هو أنني لا زلت أشعر بالغربة في بوغوتا بالرغم من أن الأمور إذا ما استمرت على ما هي عليه، فلن يكون أمامي خيار آخر سوى التأقلم معها وبما أني لا أحيا حياة "ثقافية" هنا، فإنني لا أعرف شيئاً عن التطورات في الرواية لأن بوليسيس (ثالاميا بوردا)، وهو العبقري الوحيد الذي أشاهده هنا، يدفن نفسه تحت روايات إنكليزية ضخمة عسيرة الهضم انصحني ببعض الترجمات. لقد تلقيت نسخة من رواية سارتوريوس بالإسبانية، لكنها تمزقت قاعدتها[14]

سمحت له رفاهيته الجديدة بالذهاب من حين إلى آخر إلى بارانكيا وزيارة أصدقائه ومراقبة مرثيديس والإبقاء على صلته بجذوره؛ ومشاهدة الشمس أيضاً، علاوة على الابتعاد عن بوغوتا نفسها. ومما لا شك فيه أن ظهوره اللاحق في لاكيفا الذي يتوجب هم الشكر في شريط سينمائي تجريبي قصير، يخرجه ألفارو سيبيدا بعنوان **الجرادة الزرقاء**، يشير إلى أن زياراته إلى الساحل كانت متواترة إلى حدٍّ معقول[15].

أصبح لدى أصدقائه الآن مكان جديد يؤثرون اللقاء فيه وغدت جماعة بارانكيا مرادفة لمجموعة من الأفراد أقل تظاهراً بالأهمية أورد غارسيا ماركيز ذكرهم بعد خمس سنوات في قصته القصيرة **جنازة الأم الكبيرة**. ولم يمضِ وقت طويل على رحيله عن بارانكيا حتى أعادت الجماعة تنظيم صفوفها ونقلت مركز نشاطاتها بعيداً عن مركز المدينة القديم إلى باريو بوسطن على مقربة من المصفة التي تقطنها مرثيديس بارشا. فقد أُسس إدواردو فيلا فوينمايور، وهو أحد أقرباء ألفونسو فوينمايور، وكان طبيب أسنان متذبذباً (مرثيديس واحدة من مرضاه)، حانة أسماها في بادئ الأمر



(من وإلى) وهو اسم المحرك الذي كانت تحمله يوماً ما، لكن الجماعة حولته إلى اسم آخر هو الكهف (مثل حانة رصيف الميناء في كارتاخينا). سيغدو هذا المكان من الأماكن التي لا تنسى في ميثولوجيا غارسيا ماركيز بالرغم من أن ارتحاله لن يتمكن من ارتياده بانتظام. وكانت شدة صخب المكان وكثرة الشجار والإسراف في الشراب سبباً دفع فيلا في نهاية المطاف إلى وضع ملاحظة مفادها: لربون هو ليس على حق أبداً.

شهد غارسيا ماركيز إثر رجوعه إلى بوغوتا واحدة من أشد المعارك الضارية للنظام العسكري الجديد في التاسع من حزيران عام 1954، إذ فيما كان يسير وقت الضحى في شارع خيمينث كاسيدا إثر زيارة قام بها إلى رئيسه السابق خوليو سيسر بيينغس، الذي كان يمضي عقوبة في السجن النموذجي، سمع فجأة صوت إطلاق رصاص من بندقية رشاشة: كانت قوات الجيش الحكومية تطلق النار على مظاهرة طلابية ما أدى إلى وقوع خسائر كبيرة بما فيها بعض القتلى أمام عيني الأديب المرتعتين. وقد أنهت تلك الحادثة الهدنة القلقة بين الحكومة الجديدة والصحافة الليبرالية. لقد كانت أفكار غارسيا ماركيز الراديكالية واضحة تماماً منذ أيامه الأولى في الأونيفرسال، أي بعد بضعة أسابيع على أحداث العنف في بوغوتا. لكن هذه التجربة الثالثة في العيش في بوغوتا، أو على مقربة منها، جعلته يلزم نفسه لا بإيديولوجيةٍ سياسيّة معينة – وهي الاشتراكية – وحسب، بل بمنهج محدد، وعلى امتداد بضع سنوات على الأقل، في النظر إلى الواقع وتفسيره وبمنهج محدد في التعبير عنه وإيصاله من الناحية التقنية. وكانت نتيجة ذلك ظهور تحقيقاته السياسية، وتأليف روايتي **ليس للعقيد من يكاتبه** و**في ساعة نحس** ومجموعة قصص **جنازة الأم الكبيرة**. لقد مضت عدة سنوات حتى الآن وهو يتطلع إلى الفرصة التي يصبح فيها مراسلاً. لكن صحيفتي الأونيفرسال والهيرالدو عاشتا حقبة الاتصالات العالمية، ونظراً إلى مواردهما القليلة وإلى تطبيق نظام الرقابة، لم تنشرا أي تقارير جادة إلا في ما ندر. كان هدفهما بتحديد ينشر شيء ما، أي شيء، يخالف الدعاية المألوفة لحزب المحافظين. أما مالكو صحيفة الاسبكتادور فكانوا من طينة أصلب، ولديهم الآن تحت تصرفهم أديب شاب مفتون بأبناء بلده على اختلاف مشاربهم، وبما يفعلونه



وبما جرى لهم من أحداث: إنه رجل أحب القصص، رجل حوّل حياته الخاصة إلى قصة كما كان ذلك ميسوراً، وها هو الآن ينتهز الفرصة لتحويل حياة الآخرين إلى سرديات تأسر الخيال.

كانت الأنباء في تلك الأيام في كولومبيا فظيعة. فقد كانت البلاد في ذروة أحداث العنف، واستمر ذبح الليبراليين في المناطق الريفية وكانت تنفذها ميليشيات عسكرية همجية تابعة للأقلية الحاكمة ستعرف عادة بالاسم تشولاتيتاس أو باخاروس. واشتبكت صفوف المقاتلين الليبراليين الأخيرة مع العدو في مختلف مناطق البلاد. وشاع الاغتصاب والتعذيب والتنكيل الوحشي بالجثث. وكان روخاس بينيّا قد فرض الرقابة على الصحافة في السادس من آذار وشدّدها بعد مقتل الطلاب في بوغوتا. واقترح رئيس الجمهورية السابق لوبيث بوماريخو اتفاقاً يعقد بين الحزبين لإدارة البلاد في الخامس والعشرين من آذار. وهي فكرة أثمرت نتائجها بعد ثلاثة أعوام بظهور الجبهة الوطنية، لكنها لم تلقَ قبولاً إيجابياً آنذاك.

كان هذا كله انعكاساً جزئياً في بلد هامشي أيام الحرب الباردة في تلك الحقبة. فقد كانت المكارثية في أوجها في الولايات المتحدة، بل وصل الأمر بآيزنهاور إلى حظر الحزب الشيوعي في آب 1954. لكن مجلس الشيوخ صوّت أخيراً بتوجيه التوبيخ إلى مكارثي في كانون الأول من ذلك العام. في غضون ذلك، كانت الكتلة الشيوعية تعد العدة لحلف وارسو الذي تم التوقيع عليه أخيراً في أيار سنة 1955. وفي بارانكيا، كان غارسيا ماركيز قد استمع بتعاطف إلى خطابات الشيوعي خورخيه روندون الطنته بفوق تعاطف معظم أصدقائه وزملائه. وفي أثناء فترة وجوده الأخيرة في بارانكيا، وذلك بعد بضعة أشهر على وفاة ستالين في موسكو وبعد بضعة أسابيع على انقلاب روخاس بينيّا في كولومبيا، زار شخص غارسيا ماركيز وكان مظهره يشير إلى أنه بائع ساعات لكنه في حقيقة الأمر كان شيوعياً يجند الأفراد للانضمام إلى الحزب، وخاصة إذا كانوا من الوسط الصحافي لقاء ما يقدمه إليهم من ساعات. لم يمضِ وقت طويل على وصول غارسيا ماركيز إلى بوغوتا، حيث كان يعمل منذ البداية برفقة زملاء تقدميين، حتى جاء بائع ساعات آخر لزيارته، ولم يمضِ وقت طويل حتى وجد غارسيا ماركيز نفسه يتصل بغيلبيرتو فييرا

السكرتير العام للحزب الشيوعي الكولومبي الذي كان يعيش سراً على مقربة من مركز المدينة[16]. اتضح لغارسيا ماركيز أن الحزب كان يراقبه منذ أن عمل مع سيبيدا في صحيفة الناسيونال ورأى فيه مادة تبشر بالخير. ولكن، وحسب رأيه هو، فقد تم الاتفاق على أن أفضل استفادة يجنيها الحزب منه إنما تتمثل بالكتابة الصحفية الملتزمة، ولكن يبدو أنها لم تكن مرضية للحزب الذي ظل، بالرغم من ذلك، يتبنى هذا الموقف من نشاطات غارسيا ماركيز على امتداد سنوات ويدعم مواقفه.

اقترح سالغار على غارسيا ماركيز أواخر شهر تموز الذهاب إلى أنتيوكيا لمعرفة ما حدث جراء الانهيار الأرضي الذي وقع في الثاني عشر من تموز، فوجد نفسه على متن طائرة إلى ميدلين حيث حدث الانهيار في منطقة ميديا لونا الواقعة شرقي المدينة قبل أسبوعين ونجمت عنه خسائر كبيرة في الأرواح. حامت الشكوك حول الفساد الحكومي والبناء الذي تعوزه المتانة. كانت مهمة غارسيا ماركيز تتحدّد بإعادة بناء الحقيقة على الأرض. ويعترف المراسل الحسور في ما بعد أنه كان شديد التوتر بشأن السفر جواً حتى إن ألفارو موتيس سافر وإياه لتهدئة أعصابه وأنزله في فندق نوتيبارا القريب من السوق. ولما بقي غارسيا ماركيز وحده، ازداد قلقه وشعر بالخوف جراء التحدي البدني والمسؤولية الأخلاقية وكاد أن يستقيل من العمل في الصحيفة في أول يوم أمضاه في ميدلين. لكنه بعد أن طمأن نفسه اكتشف أن لا أحد في منطقة ميديا لونا، ولهذا السبب لا يوجد ما يضيفه إلى تقارير الصحافيين الذين زاروا المنطقة قبله بزمن طويل. لم تكن لديه أي فكرة عما ينبغي له أن يفعله. ثم هبت عاصفة مطرية عنيفة، أخذت من عذابه، وفكّر في الهروب مجدداً إلى بوغوتا. غير أن اليأس من الفعل وتوفر فرصة له للتحدث إلى سائق سيارة أجرة حفزاه على المثابرة. فبدأ يفكر، يفكر فعلاً، في شأن الحدث الذي جاء لتقصيه: ما الذي يمكن أن يكون قد حدث؟ إلى أين ينبغي له الذهاب؟ ما الذي يتعين عليه عمله؟ ورويداً رويداً، وبحماسة متزايدة، اكتشف اللذة الكامنة وراء العمل بصفة صحافي - تحرٍ والإبداع في اكتشاف الحقيقة، وإلى حدّ ما فبركتها، والقدرة على صياغة الواقع وحتى تغييره لعشرات الآلاف من الناس. وأدرك أن



هكـــذا أنـاس يسافرون لملاقاة الموت الذي لا يتوقعونه، إنما هي حجر الزاوية في موضـــوعه. فأسرع بستقل سيارة أجرة لنقله إلى لاس إستانشاس، وهي المنطقة التي ســـافر منها معظم الناس الذين لقوا مصرعهم في الكارثة. وعلى الفور اكتشف ما ســيشير إلى التقـــصير الحكومي على المدى القصير والبعيد (إذ تبين أن الانهيار كان يختمـــر على مدى ستين سنة) كما تكشف عن جانب غير متوقع وأكثر تأثيراً في تلـــك المأســـاة، جانـــب من شأن معظم القراء أن يفضلوا عدم معرفته: إن سبب الوفيات الكثيرة التي حدثت هو أن أناساً من مناطق أخرى من المدينة كانوا يحاولون مـــدَّ يد العون من دون إرشاد أو مساعدة حكومية تسببوا في حدوث انهيار أرضي آخـــر. والتقـــى غارسيا ماركيز عدداً من الناجين والشهود كما التقى ممثلين عن الســـلطات بمن فيهم سياسيون ورجال أطفاء ومساوسة محليون، وأجرى مقابلات معهم[17].

ثم بدأ يكتب. الأرجح كثيراً أن الكتابة كانت أشبه بكتابات همنغواي، ولكن عندما فرغ منها كانت ذات لمسات خاصة به حيث أوضح فيها أن الحياة مسرحية مفعمة بالأهوال وبممارسات القدر، وأن قدر الإنسان هو أن يعيش في عالم لا يعرف له سنناً ويتحكم به برهان:

> هـــرع طالب الاقتصاد خوان إغناسيو آغثل الواقف على الحافة إلى الأسفل تـــبقه فـــتاة في ســـن الرابعة عشرة وفتى في العاشرة. أما رفيقاه كارلوس غابـــرييل أبريغون وفرناندو كايي فقد ركضا في الاتجاه المعاكس. نوفي الأول بعـــد أن دفن نصف جسده بسبب الاختناق. أما الثاني، وكان مصاباً بالربو، فـــتوقف مـــتقطع الأنفاس وقال: "لا يمكنني الاستمرار في الركض" لكن لم يـــسمع أحـــد عنه بعد ذلك أبداً. قال خوان إغناسيو "عندما ركضت إلى الأســـفل مع الفتى والفتاة وصلنا إلى حفرة هائلة، فرميا عن الثلاثة بأنفسنا علـــى الأرض" لكـــن الفتى لم ينهض ثانية. أما الفتاة، التي لم يستطع آغثل التعـــرف إلـــيها وسط الجثث، فقد نهضت للحظة واحدة لكنها انهارت مرة أخـــرى وهـــي تصرخ يائسة عندما شاهدت الأرض ترتفع من فوق الحفرة وســـقط علـــيهم جـــبل من الطين. حاول آغثل أن يركض ثانية إلا أن ساقيه أصـــيبتا بشلل، فقد ارتفع الطين حتى صدره في ثانية واحدة، لكنه تمكن من تحريـــر يـــده اليمنى مكث هكذا حتى توقف هدير الأصوات الشبيه بالرعد



وشعر بيد الفتاة تمسك به من ساقيه تحت ذلك البحر الكثيف من الطين الذي يتعذر اختراقه. كانت الفتاة تمسك به أول الأمر بقوة ثم تشبثت به، وأخيراً ارتخت قبضتها من حول كاحله[18].

من المؤكد أن العناوين الفرعية للمقالة قد اختارها غارسيا ماركيز بنفسه وهي: المأساة بدأت قبل سنين عاماً؛ ميدليين ضحية تضامنها؛ وهل تسبب منجم ذهب قديم في الكارثة؟[19]، لقد تعلم غارسيا ماركيز كيف يحول وجهة نظره العالمية إلى مجموعة من "الزوايا" الصحافية. إن غابو أفضل صديق لأصدقائه لم يولد إلا مؤخراً. أما القصاص الكبير غابرييل غارسيا ماركيز فقد ظهر أخيراً في المشهد. تجدر الإشارة إلى أنه بالرغم من ابتهاجه بتوجيه اللوم إلى السلطات لدورها في الكارثة، كان قلقاً من ذكر الحقيقة كلها بما فيها الإسهام الطوعي لعدد كبير من الذين جاؤوا لتقديم المساعدة، عن حسن نية، في تلك المأساة.

كانت المقالة التالية الرائدة في أسلوبها الكتابي سلسلة عن إحدى المناطق الكولومبية المنسية وهي مديرية تشوكو الواقعة على المحيط الهادئ. ففي الثامن من كانون الأول سنة 1954 قررت الحكومة أن تلغي مديرية تشوكو المتأخرة والتي تكسوها الغابات وتضم أجزاءها إلى مديريات أنتيوكيا وكالداس وفالي. وخرجت تظاهرات صاخبة بسبب ذلك. أرسل غارسيا ماركيز مع المصور غييرمو سانتشيث لكتابة تحقيق عن الصراع. كانت الرحلة بالغة السوء، بطائرة قديمة جداً، حتى إن غارسيا ماركيز يتذكر أن المطر كان يتسرب إلى داخلها وأن ربّاني الطائرة أنقذهم استناداً إلى الهلع. كانت مديرية تشوكو يسكنها عموماً كولومبيون من أصل أفريقي ذكّروا غارسيا ماركيز على الفور بآراكاتاكا ومناطقها الداخلية. وكان يرى أن تقطيع أوصال مديرية تشوكو سمة من سمات عقلية بوغوتا الباردة والقاسية بالرغم من أن آخرين وجهوا اللوم إلى سكان أنتيوكيا الطموحين. ولدى وصوله اكتشف أن التظاهرات التي ذهب للكتابة عنها قد تبخرت؛ لهذا، طلب من أحد أصدقائه أن ينظّم له مظاهرة أخرى! وهذا ما أدى إلى نجاح مهمته. فبعد بضعة أيام، وبازدياد حجم الأنباء الواردة عن المنطقة وذهاب مراسلين آخرين جواً لتغطية الأحداث، ألغت الحكومة قرارها بإعادة هيكلة المديريات الأربع[20].



في أواخر شهر تشرين الأول أعلن عن أن أرنست همنواي نموذج غارثيا ماركيز الذي يحتذي به سيمنح جائزة نوبل للأدب، تماماً مثلما مُنح فوكنر الجائزة عندما كان غارثيا ماركيز يعيش مرحلة إعجابه به. فكتب ملاحظة تحت زاويته يوماً فيوماً يكرر فيها ما سبق أن كتبه عن ظاهرة جائزة نوبل، لكنه في هذه المرة قلل من الأهمية المحتملة لجائزة مُنحت مرات عديدة لأدباء "لا يستحقونها"، ورأى أن الجائزة بمنحها لهمنواي لا بد من أن تكون على وجه التأكيد واحدة من المدمسات الأقل إثارة في "حياة مفعمة بلحظات الإثارة"[21].

شهد عام 1955 نشر أشهر قصة من قصص غارثيا ماركيز في الصحف. وكانت مستمدة من مقابلة طويلة جداً على مدى أربع عشرة جلسة فترة كل واحدة منها أربع ساعات، مع ملاّح في البحرية الكولومبية يدعى لويس أليخاندرو بيلاسكو وهو الناجي الوحيد من بين طاقم مؤلف من ثمانية أشخاص سقطوا عن ظهر المدمرة كالداس عندما فقدت زمام السيطرة أواخر شهر شباط - في أثناء هبوب عاصفة على ما يفترض - وهي في طريق عودتها إلى مرفأ كارتاخينا لإعادة تعميرها وتجهيزها في مرفأ موبيل في ولاية ألاباما. نجا بيلاسكو بعد أن ظل على متن طوف عشرة أيام من دون طعام وقليل من الشرب. وبات بطلاً قومياً ومنحه رئيس الجمهورية وساماً، فيما احتفت به الصحافة ومحطة التلفزة الجديدة. هذا كله حدث حتى اللحظة التي قرر فيها غارثيا ماركيز أن يجري مقابلة معه. كانت المقابلات من بنات أفكار غييرمو كانو. ورأى غارثيا ماركيز أن الاهتمام قد بالقصة كلها، لكنه أجراها في مقهى صغير في شارع خمينيث[22]. كان بيلاسكو يتمتع بذاكرة مدهشة وكان هو شخصياً راوياً ممتازاً، غير أن غارثيا ماركيز كان آنذاك قد تعلم كيف يوجه أسئلة مهمة ومن ثم يبرز جوهر الأجوبة، أو يركز في أكثر الجوانب الإنسانية من القصة. وبدأ بيلاسكو يؤكد الجانب البطولي فيها: المعركة ضد الأمواج ومشكلة السيطرة على الطوف والمعركة ضد أسماك القرش والصراع الذي خاض غماره إلى أن قاطعه غارثيا ماركيز قائلاً: "ألا تدرك أن أربعة أيام مرت ولا زالت لم تقض حاجتك بعد؟"[23]. كان غارثيا ماركيز يعود إلى المكتب إثر كل مقابلة وقت الأصيل فيكتب الفصل المطلوب إلى أن يتقدم به الليل. وكان خوسيه

سالغار بأحد الفصول منه، من دون تصحيح في بعض الأحيان، ويرسلها إلى المطبعة. وقد ذكر غييرمو كانو لغارسيا ماركيز أنه يرغب في أن تكون القصة من خمسين فصلاً. وبعد أن انتهت الفصول الأربعة عشر، أصدرت الاسبكتادور ملحقاً خاصاً في السادس والعشرين من شهر نيسان أعادت فيه طبع القصة كاملة زاعمة أنها أكبر قصة تنشر في الصحافة الكولومبية على الإطلاق!

كشف غارسيا ماركيز على نحو غير مقصود من خلال أسئلته المثيرة والشاملة وبحثه عن زوايا جديدة أن السفينة لم تمِل ولم تواجه عاصفة عنيفة، بل غرقت لأنها كانت تحمل شحنة من مواد غير قانونية لم ترتَّب ترتيباً جيداً، وكانت إجراءات السلامة غير دقيقة تماماً. لقد وضعت القصة صحيفة الاسبكتادور في مواجهة مباشرة مع الحكومة العسكرية، ومما لا ريب فيه أنها جعلت غارسيا ماركيز شخصاً غير مرغوب فيه، بل مشاغباً وعدواً للنظام. ولا بد لمن يداخله الشك في شجاعة غارسيا ماركيز والتزامه من أن يفكِّر في هذه المرحلة من حياته. كان غارسيا ماركيز على وجه التأكيد رجلاً بارزاً ومشهوراً، بالرغم من أنه قلل من شأن مخاطر الزمان على نحو مميز، إلا أنه يسهل تخيل مشاعره كلما قفل راجعاً إلى البيت في وقت متأخر من الليل، ماشياً وسط مدينة متجهمة ومكفهرة تغوص على نحو مقلق في خضم توترات دكتاتورية عسكرية. ومن العجب أنه "نفد بجلده" من دون أن يمسّه أذى[24].

بعد مرور سنوات أعيد نشر القصة، وذلك بعد أن أصبح غارسيا ماركيز مشهوراً على نطاق عالمي، وكان عنوانها هذه المرة **قصّة الملاّح الناجي من الغرق**. المثير للدهشة هو أن القصة أصبحت واحدة من أنجح مؤلفات غارسيا ماركيز إذ بيع منها عشرة ملايين نسخة في السنوات الخمس والعشرين التالية. إن غارسيا ماركيز لم يتحدَّ الحكومة الرجعية تحدياً مباشراً في العامين 1954 و1955 فقط، لكنه تبنى في تحقيقاته، الواحد تلو الآخر، وجهة نظر تدمّر ضمناً وجهة النظر الرسمية. وهذا، كانت تشكل تحدياً للنظام الحاكم أشد فعالية من أي من زملائه اليساريين الموهّبين، لأنه كان يقاد دوماً بالتقصي الدؤوب والتأمل ونقل وقائع البلاد على وجه العموم، لكن ذلك كشف مستداماً وذكياً لقوة فن راوي القصة ولسطوة خياله المهمة جداً حتى في التعبير عن الحقائق الملموسة



بعد هذه النصوص الملتزمة والمحرّضة ضمناً، ظهرت أخيراً رواية **عاصفة الأوراق** في بوغوتا أواخر شهر أيار بطبعة متواضعة يملكها الناشر ليسمان باوم عن دار نشر سيبا بسعر خمسة بيزوسات للنسخة الواحدة. وكان غلاف الرواية من تصميم الرسام سيسيليا بوراس صديق غارسيا ماركيز، ويمثل صبياً صغيراً يجلس على كرسي وقد تدلت ساقاه في انتظار شيء ما. إنه الفتى الصغير غارسيا ماركيز عندما كان يحلم قبل وفاة جده وانتقل الآن إلى أولى رواياته المنشورة.

لقد زعم صاحب المطبعة أنه طبع أربعة آلاف نسخة لم يبع منها إلا نسخ قليلة[25]. غير أن نشرها كان يمثل نقطة مصدره غريبة إزاء مكانته الحالية وهو يمارس عمله الصحافي المثير المميز لأنها لم تكن منسية إلى عهد وحسب، بل إلى أسلوب سردي تخلى عنه غارسيا ماركيز: أسلوب جامد، أرهقه الزمن، قدري وخرافي.

لكنه كتاب مطبوع على كل حال. بالرغم من أنه لم يُنه بأي شكل من الأشكال أو يخفف من غلواء هواجسه، إلا أنه من جهة أخرى اشتد مباشرة إلى طفولته الشخصية، الطفولة التي أنهت نشأة رواية **البيت** بعد عودته المدهشة إلى آراكاتاكا مع لويسا سانتياغا التي مرَّ عليها خمسة أعوام الآن. كان عنوان الرواية مرتحلاً في العام 1951 كي يتمكن من إرسال الرواية إلى بيونس آيرس، وفي الأشهر المقبلة التي سبقت نشرها كتب غارسيا ماركيز ما يشبه المقدمة أو التقفية الموسيقية مؤرخة بالتاريخ 1909 مما يضفي على العنوان قدراً أكبر من المعقولية، ومنح الرواية منظوراً تاريخياً وميثولوجياً في الوقت نفسه، موضحاً مغزاها الاجتماعي ومضيفاً إحساساً أشد وضوحاً بالانحطاط والضياع والحنين الجارف إلى الماضي. فيجري هذا كله بصوت سردي يشبه صوت العقيد في الرواية. وهو صوت يتأسى على وصول نفايات الأوراق والعمال المهاجرين - بدلاً من أن يتأسى على ظهور الرأسمالية والإمبريالية - ثم يغفل عن قصص ما حدث في البلدة على أنه جزء من الحالة *الطبيعية* للأشياء وتقلبات الأيام وأهوال الدهر المتأصلة في الحياة نفسها. نحن أمامنا الآن رجل في منتصف العقد الثاني من عمره يكتب بصوت عجوز في سن السبعين، لكنه ينظر إليه بقدر من المفارقة. كان الكتاب مهدىً إلى جيرمان فارغاس وحظي

بإعجـاب النقد الكولومبيين بالرغم من أن عديد المراجعات التي كتبت عنه كانت بأقلام أصدقاء غارسيا ماركيز والمقربين إليه.

كـان مهـماً، ساعماً من بوغوتا، استنفدته جهوده المتراكمة في إعداد البحوث لتقاريـره ومسؤولية الإيفاء بمتطلبات الآمال المتزايدة المعقودة عليه ولمخاوف التي لها ما يبررها من أن الحكومة قد تعمد إلى اتخاذ إجراءات انتقامية ضده بسبب مواقفه العدائية الواضـحة وحين عندما واتته الفرصة للسفر - إلى أوروبا - انتهزها بسرعة بالرغم من تأكـيدات كـثيرة لاحقـة لخلاف ذلك وكما هو مألوف، فإن أسباب رحلته غير واضـحة، ويقال إنه احتاج إلى الخروج من البلاد لينأى بنفسه عن تهديدات الحكومة، ويقـال أيـضاً إن هذا التفسير يُعدّ واحداً من الأمثلة الكثيرة عن ميل غارسيا ماركيز المزعوم إلى تهويل الأمور. إلاّ أنه ليس من السهل غض النظر عن التفسير السياسي.

فقد قام برحلات متعددة نحو الساحل ليحتجب عن الأنظار بعد أن نشر عدداً من أشد قصصه التحريضية، كما تلقى عدد من صحفيي الاسبكتادور تهديدات أو تعرضـوا للضرب على أيدي مهاجرين مجهولين. ربما تكون الرحلة أيضاً نفياً ذاتياً قـصير الأمـد تحت ستار مهمة صحافية أو سفره إلى أوروبا ظاهرها النفي الذاتي لـدوافع سياسـية. أو ربما كان القصد منه على حدّ تعبير الصحيفة: مهمة قصيرة خـارج البلاد تبدأ بلقاء "القوى الأربع العظمى" وهي الولايات المتحدة لأميركية، واتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية، والمملكة المتحدة، وفرنسا في جنيف.

غـادر شقته في بوغوتا متخلياً عن معظم مقتنياته الشخصية. وكان قد وفّر مـبلغاً لا بأس به من المال، بالرغم من ظروف الأسرة التي لا تزال تقاسي شظف العـيش في كارتاخينا، فأخذه معه[26]. من الواضح أنه توقع أن يكون غيابه لأربعة أيـام فقـط؛ لكنه كان يفكّر في أنه قد يضطر إلى البقاء مدة أطول[27] من جهة أخـرى، لا يمكن أن يكون قد توقع أن بقاءه بعيداً سيطول سنتين ونصف السنة. ويبقـى التفسير الأرجح والأرق في هذه القضية هو أنه لم يستطع الاعتراف لأفراد أسرته الفقراء أو لزوجة المستقبل أنه قرر التخلي عنهم طوعاً لمدة طويلة من الزمان بعـد أن أمضى ثمانية عشر شهراً بعيداً عنهم في بوغوتا. لقد كان حسّه بالمسؤولية عظيماً، غير أن جمال أوروبا والمجهول كانا أعظم.



في المساء الأخير الذي أمضاه في بوغوتا من اليوم الثالث عشر من تموز، أقيمت حفلة توديع صاخبة في سرب غيرمو كانو جعلت غارسيا ماركيز يتأخر عن اللحاق بطائرته إلى بارانكيا، لكنه تمكن من السفر إليها بطائرة أخرى عند الظهيرة. قيل إن الأسرة وافقت على مضض أن تتدبّر أمور حياتها من دون مساعدته لبعض الوقت، لكنها لم تكن لديها أي فكرة عن المدة التي سيستغرقها غيابه حقاً. لا بد من أنه كان منهكاً ومرتبكاً إلى أقصى حد، لكن هناك ميرثيديس التي بلغت الآن سن الثانية والعشرين ومع هذا، فما الذي يقوله لها؟ – والتي يتعين عليه أن يلتقي بها، وهناك حفلات أخرى مع أصدقائه وزملائه السابقين في ذلك الحي. لقد ظلت ميرثيديس طوال أكثر من عقد من الزمان خطيبته في ذهنه، لكن يتعين عليه الآن أن يقرر إن كانت ستغدو حقاً خطيبته، أي إن كان بمقدوره سيصبح خطيبها. لقد مرت عشرة أعوام منذ أن طلب منها أن تتزوج به عندما كان في سوكري ولم يسألها أحد إن كان هناك عشاق آخرون في حياتها – أخبرتني صراحة أنها لم يكن لديها أي عشيق البتة – أو ما السبب الذي جعل غارسيا ماركيز يشعر أنه يطيق أن يترك إخلاصها أو قدرها بالأحرى للظروف لعله عمل على تسوية هذه الإيماءات الخاصة بمخاوفه من الرفض وافتقاره إلى ما يملكه مادياً كي يقدمه إليها، بالتفكير في أن اليوم سيأتي، كما حدث لفلورنتينو أرثيا في رواية **الحب في زمن الكوليرا** عندما يجتمعان معاً وتصبح ممكناً له بغض النظر عن المدة التي سيستغرقها في الحصول عليها وبغض النظر عن أي شيء سمعته في غضون ذلك. ثمة تفسيرات متشابهة لهذا الرحيل، يكتنفها الغموض جميعاً.

قد لا يشير تقدمه لخطوبة ميرثيديس، إن كان الأمر هكذا، إلى خوف رهيب من ضياع المرأة التي أحبها بالرغم من أنه يمارس لعبة طويلة طويلة جداً – وحسب، بل إلى خوف غير واعٍ أيضاً من ضياع كولومبيا وبالتالي وسيلة ضمان ارتباطه مستقبلاً بالبلاد. فقد كانت ميرثيديس تنحدر من الإقليم الذي جاء منه، وجذورها هي جذوره، وبذلك يأمن وجود شخص ما إلى جواره يفهم أصوله طوال حياته. باختصار، لم تكن ضرباً من المثال الأفلاطوني المؤسس على غرار نموذج ذاتي وحسب – ولم يجد أنها رشيقة القوام إلى حدٍّ بعيد بل وجد أنها تمثل خياراً

استراتيجياً واقعياً تماماً واتخاذاً مثالياً ولكنه، بالرغم من كونه لا يشبه دانتي، سيترو ج "السيدة التي شملت دمه" والتي يتعذر الوصول إليها، المرأة التي اختارها وهي في عمر التاسعة[28]. إذاً، يبدو مؤكداً أنه طلب يدها الآن لأنه كان قد عزم على السفر بعيداً عنها مدة طويلة. لعله شعر أنه قادر بشكل أفضل على مواجهة رفضها الآن بعد أن أضحى صحافياً مشهوراً يسافر إلى أوروبا في مهمة مثيرة، أو ستكون مستعدة أكثر للموافقة للسبب نفسه. بيد أن الحقيقة هي أن ميرثيديس لم تظهر في مذكراته؛ كما أن تفاصيل هذه العلاقة الغريبة لم تملأ مراعيها أي من الطرفين. فقبل أن يرحل عن برانكيا متوجهاً إلى بوغوتا عام 1954 نادراً ما تحدث الاثنان بأي طريقة واقعية، لكنه شعر أن ضرباً من التفاهم يجمع بينهما[29].

إن المرأة التي سيعطيها غارسيا ماركيز أهمية خاصة في علاقاته الرومانسية كما أوضحها في مذكراته الصادرة عام 2002، ليست حبيبة حياته ميرثيديس بل هي امرأة أخرى تدعى مارتينا فونسيكا، حبه الأول، التي كانت متزوجة واستمر في علاقته محتدمة العواطف معها في بارانكيا عندما كان مراهقاً في الخامسة عشرة من عمره؛ إلى أن وضعت هي حداً لتلك العلاقة. ويكثر غارسيا ماركيز من الإشارة إليها في الفصل الخاص ببوغوتا[30]. هل كانت حقاً موجودة؟ ربما لأنه يسمع في يوم من الأيام في أواخر العام 1954 "صوتها الأخاذ" عبر الهاتف ويقابلها في حانة فندق كونتيننتال للمرة الأولى منذ اثني عشر عاماً، وتظهر على محيّاها أمارات "التقدم في السن التي لا تستحقها"، وتسأله إن كان قد اشتاق إليها. "عندئذ فقط أخبرتها بالحقيقة وهي أنني لم أنسها قط لكن وداعها كان قاسياً جداً غيّر من وجودي". تصرفت تصرفاً عابثاً لكنه ابتسم، وامتعض منها. كانت قد أنجبت توأمين لكنها أكدت له أنهما ليسا من صلبه. وأخبرته أنها كانت تريد أن تطمئن على أحواله ولهذا سألها: "وكيف حالي؟". فضحكت وقالت: "هذا ما لن تعرفه أبداً". ثم ينهي الحديث بالإشارة - على نحو مستفز - إلى أنه كان يشتاق لرؤية مارتينا حالما اتصلت به، إلا أنه كان جزعاً أيضاً من احتمال أن يمضي بقية عمره معها، "وهو الجزع الرهيب نفسه الذي شعر به مرات عديدة بعد ذلك اليوم كلما رنّ جرس الهاتف".



هذا المقطع الاعترافي موارب. وما يثير الاهتمام التساؤل عن المدى الذي أراد غارسيا ماركيز كشفه والسبب وراء ذلك: أهو اعتراف شخصي عن نفسه وعن المرأة؟ أم هو مبرر لموقف غير معلن نحوهما؟ يبدو غريباً ظهور مارتيب مرة ثانية بلا مسوّغ، وذلك قبل أن يلزم غارسيا ماركيز نفسه أخيراً ميرثيديس. أترى ذلك مؤكداً على نحو غامض في ثقافة يستطيع فيها الرجال أن يبقوا بلا معاشرة جنسية مع النساء اللواتي عزموا على الزواج بهن في حين يعاشرون من حين إلى آخر بنات الهوى والخادمات أو حتى زوجات الآخرين، مما جعله يفصل مشاعره بين الدون جوان عبر الرسمي المعرض "لغرام مجنون" والزواج الرسمي الذي يحيا حياة زوجية مستقرة "منظمة" إلى حدٍّ ما - مع امرأة تظل طوال عمرها زوجة عذراء، ومخلصة يعتمد عليها وتكون هدف 'الحب الجميل'؟"[31]. لو كانت قصة مارتينا فونسيك حقيقية، أو مفبركة، وكان لامرأة أخرى هذا الأثر المطهِّر فيه في هذا الوقت أو غيره، فسيتوضّح السبب الذي يجعله دائماً منشغلاً في قصصه ومقالاته بفصل الحب عن الجنس ولسبب الذي جعله متشبثاً على مدى سنين طويلة بفكرة زواجه الذي رتّبه بنفسه بامرأة أصغر سناً منه بكثير، والسبب الذي يجعله لا يقيم وزناً للتعبير عن أي مشاعر إزاء ميرثيديس في مذكراته (يمكن، بل لا بد من أن يتم التسليم بوجود هذه المشاعر إلى الأبد)، وربما كذلك السبب الذي يجعل ميرثيديس تؤكد لي عندما سألتها عن تلك الفترة في حياتهما أمام صديقتها الطيبة مانسي بيثيس أن "غابو شخص غريب جداً، غريب جداً"[32]، وكان توكيدها ينطوي على مغزى مُروع وإن كان لا يشوبه أي أثر للمرارة، علماً أن غارسيا ماركيز سبق أن قال لي: "لا تقل لي إنها تحبني". كان واضحاً أنّ من الحكمة عدم المطالبة بأي تفسير.

هذه اللعبة مارسها شخصان قويان جداً، خصوصيان جداً ومغرمان بالمفارقة. بالرغم من وجود تفسيرات أخرى على مر السنين تكشف عن اتفاقات عقدت قبل رحيله[33]، إلا أن غارسيا ماركيز يؤكد لنا في مذكراته أنه لم *يشاهد* حبيبته قبل سفره إلى أوروبا، إلا إذا كان صحيحاً أنه شاهدها في الشارع من خلال نافذة سيارة أجرة ولم يتوقف عندها. وهكذا، ففي ظل عدم وجود لقاء مع ميرثيديس، لا بد - حتماً - من إقامة حفلة وداعية صاخبة في *الكهف* لتضاف إلى تلك الجرعة

الـــرائدة من الشراب لدي أتى به من بوغوتا. وفي اليوم التالي لدي تمكن فيه أفراد الجماعـــه من الهوص عن أسرتهم، ودّعوه في المطار. ولعل أثر إسرافه في الشراب الذي يستحقه كان أسوأ تمهيد لمرحلة التي استغرقت سناً وثلاثين ساعة فوق المحيط الأطلسي باتجاه العالم القديم ومع هذا، فقد كان مستعداً أكثر لتقبل التجربة. فهو في الثامنة والعشرين، وصحافي ناجح، وأديب محترم نشر روايته الأولى. لقد كانت لحظة مناسبة لمثل تلك الرحلة. لقد كانت أبهة الحضارة الأوروبية في انتظاره، لكن أولـــئك لدين عرفوه معرفه أوثق، يمكنهم أن يتأكدوا من أنه سيطر إلى تلك الأبهة من منظوره الذي اكتسبه عشقة ومن نافلة القول إنه لم يذكر شيئاً في مذكّراته عن يولسيس أو عن بيبلوســـي.

* * *



القسم الثاني

خارج الوطن:
أوروبا وأميركا اللاتينية
1955-1967





-9-

اكتشاف أوروبا: روما
1955

كانت الطائرة الكونوستية، وهي إحدى طائرات لوكهيد التي كانت من بنات أفكار المليونير غريب الأطوار هوارد هيوز، تقوم برحلة أسبوعية إلى أوروبا بعد أن تتوقف ببضع مرات في الكاريبي بما في ذلك بيرمودا والآزور قبل انطلاقها إلى لشبونة ومدريد فباريس. ويلاحظ غارسيا ماركيز في أول رسالة إليه من لندن لم القدم أن الدهشة ألمت به وهو يرى أن مثل تلك الآلة الطائرة المدهشة يمكن أن يكون قد صممها السيد هيوز "الذي يصمم أفلاماً فظيعة"[1]. لكنه بالرغم من الشعور الذي لازمه إثر الإسراف في الشراب كان على درجة صافية من الذهن سمحت له بكتابة رسالة قصيرة إلى ميرثيديس أرسلها عبر البريد من خليج مونتيغو. كانت محاولة يائسة لصياغة علاقتهما صياغة رسمية. يقول غارسيا ماركيز في مذكراته إن غايته من إرسالها هي الندم لأنه لم يخبرها بسفره، لكنه ربما كان يفتقر إلى الشجاعة، فلم يطلب منها أن تكتب إليه، الأمر الذي ينطوي على أشياء كثيرة.

عندما وصلت الطائرة إلى باريس أخيراً، هبطت مع تحذير من احتمال وجود مشكلات في عجلات الهبوط، وأن على المسافرين أن يستعدوا لما هو أسوأ. إلا أن الطائرة هبطت بسلام ووصل غارسيا ماركيز العالم القديم[2]. وكان وصوله إليها بعد مرور عشرة أعوام تماماً على انتهاء الحرب العالمية الثانية في أوروبا. لم يكن أمامه وقت لمشاهدة معالم المدينة، وفي صباح اليوم الباكر استقل القطار إلى جنيف فوصلها عصراً، وكان قد مضى يومان على رحيله عن بارانكيا. الشيء الوحيد الذي كان يزعجه أن يخبر الفاريث به بخصوص توقفه القصير في باريس، إذ إن الفرنسيين



كانوا يهتمون بالسياحة الفرنسية أكثر من اهتمامهم بما يجري في جنيف. وعندما وصل إلى مدينة جنيف في السابع عشر من تموز، اكتشف أن السويسريين مهمومون بالسياحة الفرنسية أكثر من اهتمامهم بما كان يحدث في جنيف. وأشار إلى أن الوحيدين الذين كانوا يهتمون بما يجري في جنيف هم الصحفيون الذين أرسلوا إليها لتغطية الحدث. ولمّح إلى أن الاستثناء من هذه القاعدة هو الصحافي الكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز[3].

دلف إلى أول فندق صادفه في طريقه وغيّر ثيابه، ثمّ انطلق لإرسال أول تقرير من خلال *أول أميركان كيبل*، وبعد ذلك اقتنع بإرسال تقاريره عبر البريد الجوي. كانت موجة حر شديدة تضرب في ذلك الصيف سويسرا الثلجية، وخاب ظنه لذلك ولسبب آخر، كما تذكر بعد مرور سنوات: "كان العشب الذي أشاهده من خلال نافذة القطار يشبه تماماً العشب الذي كنت أشاهده من خلال نافذة القطار في آراكاتاكا"[4]. لم يكن يتكلم بلغات أجنبية، وكان يفتقر إلى تجربة تحسس طريقه من حوله في البلدان الأجنبية. أسرع يفتش عن مبنى الأمم المتحدة بمساعدة وفّرها له راعي أبرشية ألماني يتكلم الإسبانية. ثم راوده إحساس عظيم بالارتياح عندما التقى أعضاء فيلق إعلام أميركا اللاتينية ومن بينهم الكاتشاكو المتشامخ جيرمان آرثيغاس ممثلاً عن صحيفة التيمبو. وكان هؤلاء قد حضروا جميعاً للكتابة عن المفاوضات بين ممثلي القوى العظمى الأربع وهم نيكولاي بولغانين ممثل الاتحاد السوفياتي، وأنطوني إيدن ممثل المملكة المتحدة، ودوايت دي. آيزنهاور ممثل الولايات المتحدة، وإدغار فوري ممثل فرنسا. وكان إجمالي عدد الصحافيين قد بلغ ألفي صحافي جاؤوا من مختلف أنحاء العالم.

كانت الدول الأربع الكبرى هي أكثر الدول المشتركة في الحرب الباردة. وكانت كل دولة تتفاوض حول السيطرة على جزء معين من مدينة برلين المهزومة. كما كانت هذه الدول تتمتع بحق النقض في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة وتملك أسلحة نووية أو توشك على امتلاكها. كان التفاهم بين هذه الدول أمراً بالغ الأهمية إذا ما أُريد للعالم أن ينجو من الخفية الرهيبة غير المألوفة وهو يحيا في ظل كارثة نووية عالمية بدأت بتدمير هيروشيما وناغازاكي في آب 1945. وهكذا بدأت

الــدول الأربع تلتقي بعض الوقت كلاً على حدة تحت غطاء منظمات مثل الأمم المتحدة وحلف الناتو أو حلف وارسو الذي سرعان ما سيظهر إلى الوجود. وفي وقت لاحق، وفي أعقاب أزمة السويس عام 1956، ستنحسر كل من فرنسا والمملكة المتحدة القدر الكبير من نفوذهما فتتركز اللعبة على العلاقة بين الولايات المتحدة الأميركية واتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية. لكن اللقاءات التي كانت تدور في تلك المرحلة بين ممثلي الدول الأربع الكبرى عُدَّت أول نقطة ضوء في حقبة ما بعد حرب العالمية الثانية مع توقعات مستمرة بإمكانية "ذوبان الجليد عن العلاقات بين الشرق والغرب" - وطبلت لها التقارير الصحافية والتلفازية الغربية وزمرت.

لا بد من أن أول تقرير أرسله غارسيا ماركيز قد أثار خيبة أمل رؤسائه الذين موّلوا رحلته إلى ما وراء المحيط الأطلسي وأربك قرّاء الصحيفة. فالتقرير الذي نشر بعنوان جنيف غير مبالية بالمؤتمر ليس هو بالتقرير الجذاب الذي يؤدي إلى بيع الصحيفة. وكانت التقارير الأخرى موازية للتقرير الأول في كونها تناقض التحضرات الحاسمة في المؤتمر بل تناقض أيضاً أعمال غارسيا ماركيز نفسه ومنها تقرير *ممثلو الدول الأربع الكبرى بالألوان الزاهية الخلابة*، وربوي *اللطيف آيزنهاور، والأصدقاء الأربعة السعيدون*، *وبرج بابل الحقيقي* غني عن القول إن مؤتمرات ممثلي الدول لأربع الكبرى - إذ كان المؤتمر السابق قد عقد في كانون الثاني الماضي في برلين شغل اهتمامات العالم لأن العالم كان حقاً في حالة من هلع الحقيقي بسبب الحرب النووية. إلا أن غارسيا ماركيز الذي فهم أكثر من معظم الناس حقيقة ما كان يحدث نظراً إلى ثقافته السياسية إبان الأشهر الثمانية عشر المنصرمة عندما كان صحافياً في بوغوتا، اختزل المؤتمر إلى حدث هوليوودي يكتب عنه كاتب عمود اجتماعي. بعد مضي سنوات طويلة مراد كثير السمر ينظر إلى الأحداث كمنظار سياسي - ربما كان آنذاك يطمح إلى ذلك الدور - إلا أنه لم ينخدع بالصحيح ولا بالأوهام الساذجة التي تكتنف الدور التضليلي الذي تؤديه الصحافة العالمية في تقاريرها عن القضايا السياسية. ومع هذا، فقد كانت تقاريره ممتعة عن آيزنهاور وبيدن وبوري بانك عن زوجاتهم - اللواتي كن يلمعن صورهن مثل نجمات

السيما بمساعدة الصحافة العالمية - لكن هذا النمط من الصحافة لم يكن هو المفضل عند غارسيا ماركيز.

ولما وعى غارسيا ماركيز صعوبات مهمته المادية والثقافية انطلق يبحث عن موقع قدمه الصحافي. وهكذا تظل معظم مقالاته سطحية وفكاهية بإرادته المحضة كأنه رفض أن يأخذها على محمل الجد ما دام لا يستطيع تغطية الأخبار تغطية حادة. وسرعان ما أدرك أنه لن يتمكن خلال إقامته في أوروبا من مواصلة البحث المباشر الذي جعله مشهوراً في كولومبيا، وإنه بالتالي لن يحقق أي سبق صحافي متميز. إلا أنه سيتعلم رويداً رويداً كيفية الاستفادة من ظروفه إلى أقصى حد، وكيف يجعل مادته تبدو أصيلة، وكيف يبحث عن "الجانب الآخر من الأخبار"[5]، وإلى حدٍّ ما كيف يصوغ موضوعاته ليثير بها إعجاب مواطني بلده. وسرعان ما أخذ يعي على نحو متزايد النهج الذي تُعد وتُلفق فيه الأخبار في الدول "المتقدمة". وهكذا لجأ إلى طبخه الصحافي: إذا كانت مقالات حقبة بوغوتا قد أظهرت قدرته على التخبر المستند إلى معلومات وإضافة لمس ما هو مفقود فيها من معلومات وحسب، بل اللمسة الأدبية أيضاً لإبراز نكهتها لتكون جزءاً من المشروع المهني قبل زمن طويل من ظهور *الصحافة الجديدة* في الستينيات من القرن العشرين، فإن هذه المعرفة المهنية التي يحتاج إليها الآن أكثر من أي وقت مضى ستتقده مراراً وتكراراً. وهذا هو السبب الذي كانت فيه نصوصه منذ البداية تدور حول شخصه، ضمناً وصراحة، مثلما كانت تدور حول أحداث يهدف إلى الكتابة عنها كما أفصح منذ البداية عن أن الخبر لا يصنعه الأغنياء والمشاهير بمفردهم، بل يصنعه صحافيون يلاحقونهم في كل مكان ويحولونهم إلى قصص[6].

كان غارسيا ماركيز في نهاية الأمر مرغماً أكثر مما كان يبوح به، كما أنه كان أكثر توتراً وأكثر رهبة. ربما كان من شأنه أن يغدو صحافياً في بوغوتا، إلاّ أن تلك الصورة كانت تخفي تحتها شخصية لا تزال تتسم بالخجل والوعي الذاتي. وبالرغم من تحمله المشاق كأي مواطن ساحلي، فإن تلك الأسابيع الخمسة التي أمضاها في أوروبا أثرت فيه تأثيراً عميقاً، كما تشير إلى ذلك إشاراته المتكررة إلى التجربة في مقالات كتبها بعد مرور ربع قرن في صحيفة الاسكنادور. ومن العجب



أن الشيء الوحيد الذي كان يفتقر إليه غارسيا ماركيز افتقاراً واضحاً لدى وصوله إلى أوروبا هو الوعي الأميركي اللاتيني. لقد كان راضياً أكثر مما ينبغي بثقافته الساحلية؛ أكثر من رضاه بثقافته الكولومبية. إلا أنه لم يحوّل بعد هذا الوعي الثقافي إلى شعور قومي لأميركا اللاتينية. إن أكثر شيء سيكتشفه في جنيف وروما وباريس ليس "أوروبا" بل "أميركا اللاتينية"[7]. إلا أن هذا الاكتشاف ظل في أعماقه اكتشافاً متردداً ووقتياً، وتعيَّن عليه الرجوع إلى أميركا اللاتينية نفسها ليتبين حقيقة ما توصل إليه في أوروبا.

ومن حسن حظه، وفرحته أيضاً، أنه تلقى رسالة جوابية من ميرثيديس قبيل مغادرته جنيف. مما لا ريب فيه أن تلك الرسالة عبّرت من محمل تفكيره. وإن كان هذا التعبير على قدر كبير من المفارقة والغصة والارتياح لأنها ربما جعلته يوطد العزم أكثر من ذي قبل على الاستفادة من تجربته الأوروبية ومن حريته المؤقتة الآن. لقد منحته هذه الرابطة الثقة للمضيّ إلى مكان أبعد ولزمن أطول.

بعد الفترة المثيرة التي أمضاها غارسيا ماركيز في جنيف، في أثناء وجود سيرك ممثلي الدول الأربع الكبرى، سافر إلى إيطاليا إذ كان مقرراً له أن يكتب التقرير عن المعرض السادس عشر للفن السينمائي في البندقية الذي اشتهر باسم مهرجان البندقية السينمائي، وذلك في مطلع شهر أيلول. ومما لا شك فيه أن فكرة الذهاب إلى المهرجان كانت من بنات أفكاره وليست من بنات أفكار رؤسائه في صحيفة الاسبكتادور. ويروي غارسيا ماركيز في ما بعد لأصدقائه أنه أسرع بالسفر إلى إيطاليا لأن صحيفته أبرقت إليه بتعليمات تطلب منه التوجه إلى روما لاحتمال وفاة البابا بالفُواق[8]. على كل حال، كانت إيطاليا تمثل له دائماً غايته الأولى، كما أن أصدقاءه في النادي السينمائي في بوغوتا أعطوه لائحة بعدد من الأهداف والغايات. لكنه كان مشوقاً للسفر إلى روما كي يزور بالدرجة الأولى المدينة السينمائية المشهورة حيث كتب فيها بطله الكبير وكاتب النصوص السينمائية سيزار زافاتيني معظم نصوصه. أما طموحه السري الثاني فكان يتمثل بالسفر إلى أوروبا الشرقية إذ كان يرغب في أن يكون قادراً على عقد المقارنة بين جانبي الستار الحديدي، الشرق والغرب، بين عالمين متواريين وراء ضجيج ممثلي الدول الأربع الكبرى. كان

يعرف ما كان يدور في خلده نظرياً عن الرأسمالية والاشتراكية، لكنه كان يريد الآن أن يشاهد ذلك بنفسه على أرض الواقع.

وصل العاصمة الإيطالية في الحادي والثلاثين من تموز وكان الطقس لاهباً مثله في جسمه. فقاده بوّاب من المحطة إلى فندق قريب يتذكره بعد سنوات بالقول: "كان مبنىً قديماً جداً أُعيد بناؤه بمواد بناء مختلفة وكان ثمة فندق مغاير في كل طابق. بنوافذه قريبة من آثار الكولوسيوم حتى بات في وسع المرء مشاهدة آلاف القطط وقد غالبها النعاس على الشرفات من شدة الحر. لكن يمكن أيضاً شم رائحة البول القوية والنتنة المنبعثة من هناك"[7]. أما في ما يخص *المدينة الأبدية* نفسها، فإن المراسل الكولومبي الخاص لم يرسل سوى تقريرين في ذلك الوقت، أحدهما عن إجازة البابا بيوس الثاني عشر في كاستلغاندولفو حيث حضر مقابلات رسمية. وكان التقريران مكتوبين بما يكفي من الاحترام لتطييب خاطر قرائه من الكاثوليك وبما يكفي من التلميح الساخر لبعث السرور في نفوس قراء الصحيفة الأقل التزاماً بالدين والذين يمثلون في نهاية المطاف يسار الوسط الليبرالي. وقد أشار غارسيا ماركيز إشارة شبه خفية إلى أن البابا لا ينبغي له أن يحاول الانضمام إلى عالم مشاهير هوليوود، وهو العالم الذي يتحدث إليه الآن السياسيون، بتزويده وكالات الأخبار بمعلومات عن طوله ومقاس حذائه: إن هذا الرجل الجليل - كما يراد للقراء أن ينظروا إليه - ليس سوى إنسان في نهاية الأمر!

أدرك غارسيا ماركيز وهو يخطط للسفر إلى مناطق في أوروبا الشرقية، حيث لا يمكن له أن يبعث منها بتقاريره، أن عليه أن يكتب شيئاً مهماً كي يحصل على *إجازته* مقدماً. فهو لم يكتب أي شيء عن الوضع السياسي في إيطاليا التي كانت تنتقل من مرحلة فاشية ما قبل الحرب إلى مرحلة الديمقراطية المسيحية في حقبة ما بعد الحرب، ومن مجتمع يغلب عليه الطابع البدوي إلى مجتمع يغلب عليه الطابع الحضري. غير أن موضوع غارسيا ماركيز الكبير الأول كان عبارة عن سلسلة مقالات عن *فضيحة ويلما مونتيسي* التي انهمك في الكتابة عنها طوال شهر آب وأسماها باسم رمزي هو *فضيحة القرن*. كانت مونتيسي ابنة نجار من مدينة روما في سن الحادية والعشرين وقد جرى التعتيم على اغتيالها قبل عامين لأسباب لا تزال

غير واضحة وقت الكتابة، لكن اتضح أنها ارتبطت بأخطاط الطبقة العليا وفساد جهاز الشرطة والاستغلال السياسي (يعتقد أن القصة ألهمت فدريكو فيلليني في فيلمه الأول لا دولتشي فيتا في العام 1959) زار غارسيا ماركيز الحي والمنزل الذي وجدت فيه جثتها، وحاول حيث يمكن لنزلاء الحي أن يمدوه ببعض المعلومات. أما البقية فقد لجأ فيها إلى مصادر أخرى بكفاءة عالية وبدأ بحثه حيثما كان ذلك ممكناً وكتب واحداً من أفضل تحقيقاته الصحافية[10]. وأوضحت صحيفة الاسبكتادور عن هذه السلسلة من المقالات مشيرة إلى "أن غارسيا ماركيز كشف بعد مرور شهر من زياراته المناطق التي حدثت فيها الجريمة أدق التفاصيل عن مقتل ويلما مونتيسي والمحاكمة التي أعقبتها"[11].

أدرك غارسيا ماركيز أن هناك شيئاً آخر غير قصبة التفاصيل وأسرار التحري ويتمثل بالزمان والمكان والقصة التي بشّرت بالمستقبل: وهو ما أطلق عليه أحد النقاد في ميدان الثقافة في ما بعد "نقطة التقاطع بين السينما وتصوير الصحافيين المتطفلين وصحف التابلويد الشعبية والأشرطة والسياسية"[12]. كان مسعاه يتمثل باكتشاف أي صلة ضرورية بين الأسلوب الواقعي الجديد في السينما وتقدم الجماليات الاشتراكية، وهو ما كان يعتقد به الأنصار الإيطاليون. لقد لمح غارسيا ماركيز قبل زمن طويل من ظهور التحليلات المؤثرة التي طرحها الناقد السينمائي أندريه بازان، إلى أن الأفلام الإيطالية في تلك الحقبة كانت ضرباً من "إعادة صناعة تحقيق" مع "تمسك طبيعي بالواقعة"، مما جعل السينما الوطنية الإيطالية نمطاً من نزعة إنسانية راديكالية"[13]. كما لمح في تقديره لسينمائية في بوعوتا إلى مثل هذا الأمر. ولعله فكّر أيضاً من خلال رفع الغشاوة التي فرضتها هوليوود في أن السينما والصحافة الإيطالية في حقبة ما بعد الحرب تطرحان مفترقاً جديداً يمتاز بفقد أكبر للمشاهير. ستوفر هذه المعلومة حماية لا تقدر بثمن لغارسيا ماركيز عندما تطبق شهرته الآفاق - لكن مما يدعو للشؤم هو أن أولئك الذين لم تصبهم الشهرة في النصف الثاني من القرن العشرين بدأوا يحيطون أنفسهم وكأنهم حاضرون دوماً أمام عدسات التصوير، ومعرضون باستمرار لخطر الفضيحة أو سوء التمثيل أو حتى الخيانة. ولم يصل إلا عدد قليل من الناس في تلك المرحلة من اللعبة الحاسمة إلى

الاستنتاج بعدم وجود واقعية جوهرية أو حقيقية لنقلها في المقام الأول. وهذا مما سيثير لمنظّري ما بعد الحداثة بالرغم من أن غارسيا ماركيز سيكون حاضراً لدى وصولهم.

ما إن أرسل غارسيا ماركيز تقاريره عن مونتيسي للنشر بين السابع عشر والثلاثين من أيلول حتى سافر إلى البندقية للاشتراك في مهرجان الأشرطة السينمائية السنوي السادس عشر هناك. لقد حلّ الشتاء مبكراً في البندقية وحلّ معه الأوروبيون الشرقيون للمرة الأولى منذ الحرب. أمضى غارسيا ماركيز بضعة أيام يتعرف إلى الأشرطة السينمائية ليلاً ونهاراً ويقوم بين حين وآخر بنزهات إلى ضواحي البندقية حيث شهد غرابة أطوار الإيطاليين والهوة الواسعة بين الأغنياء والفقراء؛ الفقراء الإيطاليين "الذين يعيشون دائماً ولكنهم يعيشون بأسلوب مرح مغاير"[14]. ذكّرته تلك الهوة بسكان أمريكا اللاتينية مما جعله يخصص شطراً أعظم من حياته لجعلهم في حال وعي أكبر وقناعة أشد بما هم عليه. بعد مرور سنوات يضيف قائلاً إن الإيطاليين "ليس لديهم هدف آخر سوى الحياة" لأنهم "اكتشفوا منذ عهد بعيد أن هناك حياة واحدة ليس إلا، وقد جعلهم ذلك اليقين أكثر تحمساً تجاه القسوة"[15].

وكما هو ديدنه في التقارير التي بعث بها من جنيف فقد استفاد استفادة قصوى من وضعه بإرسال مقالاته لا عن السينما وحدها وحسب، بل وعن قضايا تتميز بسطحية أكبر أيضاً مثل مقالة عن النجوم الذين حضروا والذين لم يحضروا، وعبّر عن خيبة أمله من أولئك الذين حضروا، وبخاصة هيدي لامار التي خبت جاذبيتها والتي أشعلت المشاعر ذات يوم في البندقية بعُريها في الشريط السينمائي النشوة، وعبر عن إدراكه للعمق الحسي لصوفيا لورين لظهورها كل يوم على شاطئ البحر بثياب سباحة مختلفة، كما أفصح عن تشككه بأنوك إيميه التي قلدت نفسها نجمة سينمائية لكنها لم تتصرف وفق هذه الصفة. بالرغم من أن شريط كارل تيودور دراير الكلمة استحق عن جدارة الجائزة الأولى، فإن المخرج الذي تحمس لغارسيا ماركيز الحماسة كلها كان إيطالياً شاباً أظهر في العام 1955 فرانسيسكو روزي، ذا شعر أشعث في التاسعة والعشرين، له وجه لاعب كرة قدم،



وقسف وقدّم الشكر، مثل لاعب كرة قدم أيضاً، لأعصم وفمه تمدير واحترام يعمه الجمهور في دار السينما. وكان أحد أشرطته السينمائية في العام 1955 بعنوان Amici per la Pelle[16]

استقل غارسيا ماركيز القطار في مدينة تريست ووصل فيينا في الحادي والعشرين من شهر أيلول عام 1955 وذلك بعد مرور شهرين على رحيل آخر جنود الاحتلال وقبل شهرين من إعادة افتتاح أوبرا فيينا. تظاهر بأن رحلته انتهت في فيينا وبقي فيها خلال شهر تشرين الأول ولم يكتب سوى ثلاث مقالات عن المدينة نشرت في الثالث عشر والعشرين والسابع والعشرين من شهر تشرين الثاني[17]. ومرت أربع سنوات أدرك بعدها أن عدم نشر أي تقارير عن بقية الرحلة كان أمراً حكيماً.

وكما هو شأن الناس في تلك الأيام، فقد وجد غارسيا ماركيز استحالة فصل فيينا عن شريط كارول ريد السينمائي الرجل الثالث الذي كتب نصه غراهام غرين. ودأب على زيارة مواقع تصوير الشريط الخرافية. وفي فيينا أيضاً زعم في ما بعد أنه التقى فراو روبيرتا التي سمت نفسها في ما بعد باسم فراو فريدا، وهي مواطنة كولومبية وعرّافة كسبت قوتها في العاصمة النمساوية من خلال "وهب نفسها لذوي الخيال"[18]. ولما أخبرته بعرافة في إحدى الأمسيات على نهر الدانوب وتحت ضوء القمر أنها حلمت به ويتعين عليه مغادرة فيينا على الفور، هرع الصبي المعتقد بالخرافات القادم من آراكاتاكا واستقل القطار وغادر المدينة[19]. ولم يذكر لقرائه أن القطار المقصود سافر به إلى ما وراء الستار الحديدي.

وهكذا واصل غارسيا ماركيز سفره من النمسا إلى تشيكوسلوفاكيا وبولندا. وكان قد تمكن من الحصول على دعوة لحضور مؤتمر السينما الدولي في وارسو خلال حضوره مهرجان البندقية السينمائي. لكن لم ينشر غارسيا ماركيز أي تقرير عن هذين البلدين على المدى السنوات الأربع التالية، هذا لا يمكننا التأكد من توقيت نشرها، وهو ما لا تذكره، ولا من انطباعاته الأولية، وهي التي كانت يومذاك انطباعات محدثة وممتزجة بمقالات عن عودته القصيرة لأكثر من مرة إلى ذينك البلدين في صيف العام 1957 عندما توجه إلى موسكو وهنغاريا التي نشر عنها تقريراً

عاشراً في تشرين الثاني عام 1957. لكن تقاريره عن رحلته الأولى في العام 1957 نشرت أخيراً في صحيفة كروموس في بوغوتا في شهر آب عام 1959 وكان آنذاك يعمل لمصلحة الثورة الكوبية ولم يهتم بإحصاء مكانه. لكنه لم يقر بالرحلة التي قام بها بمفرده في العام 1955. ولما نشر مقالاته أخيراً عن تشيكوسلوفاكيا وبولندا، فإنه كان قد أدرجها ضمن رحلته التالية إلى أوروبا الشرقية برفقة آخرين في العام 1957[20].

في ضوء طمس كلّ هذه الأشياء، وكل هذا التلاعب، يصعب وضع دليل واضح أو حتى التوقّع بشأن تطور وعي غارسيا ماركيز السياسي. إلا أن الشيء الذي نقدر حقاً على استنتاجه هو أنه منذ البداية شهد تناقضاً. لقد كانت براغ مدينة رائعة، على سجيتها، كل ما فيها يوحي بأنها تشبه أي عاصمة أوروبية غربية. بيد أن السكان كانوا يفتقدون على ما يبدو إلى الاهتمام بالسياسة. أما بولندا التي كانت لا تزال تعيش في حقبة ما قبل غومولكا، فقد كانت غير متطورة إلى حدٍّ بعيد، لا تزال ندوب الحرقة النارية ظاهرة في كل مكان، لكن البولنديين كانوا بالرغم من ذلك أكثر نشاطاً في السياسة وكانوا قراءً متحمسين للقراءة على نحو يدعو للعجب، كما أنهم تمكنوا من التوفيق بين الشيوعية والكاثوليكية بأسلوب تحاول أي دولة شيوعية أخرى أن تجرّبه. ويتذكر غارسيا ماركيز بعد أربعة أعوام أن البولنديين كانوا من أشد *الديمقراطيين* الاشتراكيين عداءً للروس. من جهة ثانية نراه يستعمل نعوتاً معينة مثل: "هستيريون"، و"معقدون"، و"صعاب المراس" ويذكر أيضاً أن البولنديين يتمتعون "بحساسية فائقة تشبه حساسية الإناث"، تعني "أنك لا تعرف ما يريدون"[21]. ولم تَرُقه كراكاو لما تصوره فيها من طبع محافظ موروث وكاثوليكية مكثفة. أما زيارته إلى أوشفيتز فيصفها وصفُ آسراً إذ يقول:

> **ثمة قاعة تحتوي على صناديق زجاجية كبيرة الحجم مكتظة بشعر البشر، وقاعة مملوءة بأحذية وملابس ومناديل طرّزت عليها يدوياً الأحرف الأولى من اسم صاحبها. ولا تزال حقائب السجناء الذين أدخلوا إلى ذلك الفندق الجنوني تحمل أسماء فنادق السياح ثمة حقيبة مملوءة بأحذية أطفال بكعوب معدنية بالية: أحذية ثقيلة بيضاء صغيرة الحجم تنتعل عند الذهاب إلى المدرسة، وآلات توسيع الأحذية التي كانت لأولئك الذين قُدر لهم أن ينجوا من الشلل الولادي قبيل وفاتهم في معسكر الاعتقال. ثمة حجرة فسيحة جداً**



> تحتوي على أدوات للجراحة الحرفية وآلاف النظارات، والأسنان الاصطناعية والعيون الزجاجية، والسيقان الخشبية، والقفازات المحشوة لأيادٍ مفقودة، وكل الأدوات الأخرى التي ابتكرها العقل البشري لتقويم الجسد البشري. ابتعدت عن الجماعة ومشيت صامتاً في القاعة. كنت أكظم غيظي لأنني أردت أن أبكي[22].

على العكس من هذا، يصف سرده عن لامعقولية البيروقراطية المستوعبة عند الفقاط الحلودية بالمرح والجدل.

في أواخر شهر تشرين الأول قفل راجعاً إلى روما وأرسل ثلاث مقالات عن فينيا، وأربع مقالات عن البابا، وثلاث مقالات أخرى عن التنافس بين صوفيا لورين وجينا لولو بريجيدا. ومما يثير الانتباه أنه أشار إلى أن لولو بريجيدا الأقل موهبة، كما هو واضح، من لورين، تملك صورة أكثر جاذبية بصرف النظر عن المعركة بين "الإحصائيات بالغة الأهمية" لكليهما. إلا أنه توقع أنها ستنتصر في نهاية الأمر عندما تدرك أن "صوفيا لورين فريدة لا تقلد بشيء"[23]. ثم انتقل إلى شقة في باريولي مع معلق كولومبي اسمه رافائيل ريبيرو سيلفا، وكان هذا يعيش في روما منذ ستة أعوام ويتحدر، شأنه شأن غارسيا ماركيز، من أسرة فقيرة وفي مثل سنّه أيضاً، وكان رجلاً شق طريقه وسط العزيمة والتضحيات حيث ظل يعيش ويمارس الغناء، على حدّ تعبير غارسيا ماركيز، في حين كان الآخرون يتسكعون في البلدة[24].

عمل ريبيرو سيلفا لبضعة أسابيع مترجماً ودليلاً بصفة غير رسمية، وفي الأصل كان الاثنان يستعيران دراجة نارية يطوفان بها في أرجاء المدينة. كانت متعتهم المفضلة مراقبة بنات الهوى في فيلا بورجيس وهن يزاولن حرفتهن عند هبوط الليل. يقول غارسيا ماركيز عن أجمل الذكريات التي منحه إياها ريبيرو سيلفا عن العاصمة الإيطالية بعد أن ألهمته تلك الرواية البريئة "بعد الغداء، وفي حين كانت روما تغط في نومها، كنا نستقل دراجة الفسبا لمشاهدة الغانيات الصغيرات وهن مرتديات ثياباً من الموسلين الأزرق الشفاف أو القص الوردي أو الكتان الأخضر. في بعض الأحيان كنا نلتقي بواحدة منهن فندعونا لتناول المثلجات. وفي يوم ما لم أذهب إذ علي أن أعلس بعد طعام الغداء، ولكنني استيقظت على صوت طرقات خفيفة على الباب. وعندما فتحت الباب وأنا نصف نائم، شاهدت في ظلمة الممر خيالاً من

صــــع الهديان، فتاة عارية، غاية في الجمال، استحمت وتعطرت قبل مجيئها وعطت جـــسدها كــــه بالـــسودرة. وقالــــت بصوت رقيق جداً: *مساء الخير، لقد أرسلني المعي*[25]

بدأ غارسيا ماركيز بعد وصوله مباشرة بأول اتصال له بمجمع التصوير الهائل سينيـــسيتا جنوب شرقي روما الذي كان يحق أكبر مصنع للأفلام في العالم أجمع. وكـــان غارســـيا ماركيـــز مهتماً بدراسة صناعة السينما هناك في مركز الأشرطة الـــسينمائية التجريبية. لم تكن هناك دورات تعليمية في ذلك الوقت لكنه تمكن من مقابلة الإيطاليين والأمريكيين اللاتينيين كالأرجنتيني فيرناندو بيري، وهو منفي هرب من نظام بيرون وبات صديقاً وشريكاً مهماً في المستقبل شأنه شأن غيره من صنّاع السينما الأمريكيين اللاتينيين الذين درسوا في روما إبان تلك الحقبة من أمثال توماس غوتييريث آليا وخوليو غارسيا اسبينوسا الكوبيين. رحب بيري بالشاب ذي القبعة الجديـــدة والمعطف كبير الحجم وصحبه عائداً إلى شقته في بيارا دي سـغنا ودعاه للشراب في مقهى دي سباغنا وبدأت بينهما صداقة طويلة ومثمرة.

الـــتحق غارســـيا ماركيـــز بدورة في الإخراج السينمائي في مركز الأشرطة الـــسينمائية التجريبية. ومما لا يدعو للعجب أن اهتمامه الأساسي كان ينصبّ على كتابة النص السينمائي، وهو السبب الذي جعل من سيزار زافاتيني، كاتب نصوص دي ســـيكا لـــسينمائية، واحداً من النماذج التي أعجب بها غارسيا ماركيز إذ هو الـــذي سيتحمس لسينما ذلك العصر ويضفي عليها مسحة غير مسبوقة من البعد الإنساني"[26]. ويبدي غارسيا ماركيز ملاحظة عن تلك الفترة وهو يتذكرها قائلاً: "لا يمكنك أن تتخيل اليوم ما الذي كان يعنيه لجيلنا ظهور الواقعية الجديدة في مطلع الخمـــسينيات مـــن القرن العشرين. لقد ابتكرت السينما من جديد. فقد شاهدنا أشـــرطة ســـينمائية مـــن زمن الحرب أو أشرطة حققها مارسيل كارنيه وغيره من المخـــرجين الفرنـــسيين، هدشت بذلك اتجاهاً فنياً. ثم هبطت الواقعية الجديدة من إيطاليا وكانت أشرطتها مصنوعة من خامات مرفوضة ومثّل فيها ممثلون قيل إنهم لم يشاهدوا آلة تصوير في حياتهم. كان كل شيء يبدو وكأنه صنع في الشارع. وكان يستحيل معرفة الأسلوب الذي دُمجت فيه المشاهد واللقطات، واحتفظ فيه بالإيقاع



والشهرة. أما بالنسبة إلينا نحن، فكان الأمر عملاً استثنائياً"[27]. لا بد من أن الواقعية الجديدة كانت تحظى بإعجاب في إيطاليا أقل من ذلك الإعجاب الذي حظيت به خارجها، ويرجع السبب إلى حدٍّ ما إلى أنها كانت تظهر أوجهاً من البلاد أرادت إيطاليا في حقبة ما بعد الحرب أن تنفضها عن كاهلها. ويقول إن الشريط السينمائي معجزة في ميلانو (1952) الذي شهده مرة أخرى برفقة فرناندو بيري في عام 1955 والذي صممه كل من دي سيكا وثافاتيني وبليبي، وهو الذي دفعه إلى الاعتقاد أن السينما يمكن أن تغير العالم لأنه شعر هو وبيري أن الواقع نفسه تغير عندما غادرا دار العرض السينمائي. لقد كان مجمع تصوير سينيسيتا الذي كان في أوجه يومذاك يوشك أن يوفر الستارة الخلفية لعلم فيلليني، وهو صانع الأشرطة السينمائية الذي شاء أن يبتعد عن جماليات الواقعية الجديدة التي كانت تهيمن آنذاك على المشهد ويتجه نحو ضرب من "الواقعية الأخاذة" لا تختلف عن الأسلوب الذي سيصطحب في ما بعد غارسيا ماركيز نفسه[28].

تبين أن كتابة النص السينمائي في مركز الأشرطة السينمائية التجريبية ليست سوى جزء ثانوي من منهاج أكبر في مادة الإخراج السينمائي. وبعله كان أمراً متوقعاً أن يشعر غارسيا ماركيز بالسأم منذ البداية تقريباً، باستثناء الأوقات التي كان يحضر فيها محاضرات دوتوريسا روسادو في مادة المونتاج التي أصرت على أنها تمثل "النحو السينمائي". الحق أن غارسيا ماركيز لم يكن مولعاً كثيراً بأي نوع من أنواع التعليم الرسمي، ولو لم يكن مُجبراً على الالتحاق بتلك الدورة لابتعد عنها. لكنه ابتعد عن سينيسيتا (بالرغم من قوله بعد ذلك بسنوات إنه أمضى بضعة بل تسعة أشهر فيها) لكن عندما جاء صديقه غيرمو أنغولو في وقت لاحق بحثاً عنه، تذكرت دوتوريسا روسادو أن غارسيا ماركيز كان واحداً من أفضل طلابها، على حين كان طالباً كسولاً على وجه العموم[29]. وبعد مرور سنوات تنوب الدهشة عدداً كبيراً من الناس وهم يكتشفون أن غارسيا ماركيز كان يفهم فهماً عميقاً الجوانب الفنية في صناعة الأشرطة السينمائية وهو ما تعلمه في سينيسيتا بالرغم من معارضته.

وكما نراه غالباً في المستقبل، فإنه ظل يهوى السينما، لكنه يتساءل إن كانت السينما تهواه، ولم يحب ظله ثافاتيني وكانت له وجهة نظر شخصية لهذا العبقري



تحديداً: "إني طفل من أطفال ثاتابي، إذ جعل الأحاسيس أكثر أهمية من المبادئ العملية"[30]. إن هذا المفهوم سيساعد غارسيا ماركيز على مقاومة الهجمات التي سيتعين عليه مواجهتها من "الواقعيين الاشتراكيين" في مجالي الأدب والسينما في السنوات التالية لا سيما في كوبا. وهذا ما جعل إقامته المصيرة في إيطاليا، وتمرّنه الوجيز إلى سيبيستيا جديرين بالاهتمام

عندما يشعر أحد أبناء أميركا اللاتينية بالسأم وهو في أوروبا ولا يدري ما عليه فعله، فإنه يستقل القطار إلى باريس. لم تكن هذه بغية غارسيا ماركيز، لكن هذا هو ما أقدم عليه فيما كانت الأيام الأخيرة من العام 1955 توشك على نهايتها. ومن المفارقة أنه عندما حاول الانتقال إلى ميدان آخر، وهو السينما، وجد نفسه وقد عاد مرة أخرى إلى الأدب؛ ناهيك عن هوسه الكاسح بكولومبيا. كان مشغول البال بكتابة رواية، رواية واقعية جديدة، مصدر الإلهام السينمائي فيها مدينة روما، لكن يشاء القدر أن يكتبها في أجواء باريس الأدبية. وصل القطار بعد منتصف ليلة ماطرة قبل وقت قصير من حلول فترة الميلاد واستقل سيارة أجرة وكانت أول صورة تلوح أمام عينيه هي صورة غانية تقف تحت مظلة برتقالية عند ناصية شارع بالقرب من المحطة[31].

كان يفترض بسيارة الأجرة أن تقله إلى فندق *إكسيلسيور* الذي اقترحه عليه الشاعر خورخه غايتان ديوران، لكن المطاف انتهى به إلى نُزل *التحالف الفرنسي* في شارع واسابيل ويشاء القدر أن يمكث في باريس زهاء لسنتين تقريباً.



-10-

جائع في باريس: *البوهيمية*

1957-1956

من يعرف الشيء الذي كان يبحث عنه غارسيا ماركيز وهو يشق طريقه صوب العاصمة الفرنسية في كانون الأول عام 1955؟ إن كل من يعرفه لا بد من أن يخمن أن إيطاليا بلد مناسب للفتى الساحلي القادم من كولومبيا - على المستويين الاجتماعي والثقافي - وأكثر من ذلك، فهي البلد الشمالي الأكثر برودة والأكثر اعتداداً والأكثر نزوعاً للاستعمار، والأكثر انتقاداً والأكثر التصاقاً بديكارت. لقد كان موقفه من أوروبا عموماً، ومنذ البداية، أنه ليس لديها ما تعلمه إياه أكثر مما تعلمه أصلاً من الكتب أو الرسائل الإخبارية. يبدو الأمر وكأنه أراد أن يأتي إلى هنا ليراها متعفنة، تفوح منها رائحة الكرنب المغلي، كما قد يقول قائل، بدلاً من أن تنبعث منها رائحة الفواكه المدارية الأثيرة على فؤاده وأحاسيسه. لكن ها هو الآن في باريس على كل حال[1].

انتقل من القطار إلى فندق رخيص كان يفضله المسافرون من أميركا اللاتينية وهو فندق الفلاندر الكائن في شارع كوجاس رقم 16 في الحي اللاتيني، وكان يديره المسيو ومدام لاكروا. وقبالة هذا الفندق كان يقع فندق آخر تبدو عليه مظاهر الثراء والترف وهو فندق سان ميشيل الكبير الذي كان يفضله أيضاً القادمون من أميركا اللاتينية[2]. وكان من بين الذين أقاموا فيه إقامة طويلة الشاعر الكوبي الكبير ذو الأصل الأفريقي وعضو الحزب الشيوعي نيكولاس غيّن، وهو واحد من عدد كبير من كتاب أميركا اللاتينية المنفيين إبان تلك الحقبة من حكم الدكتاتوريين أودريا في بيرو (1948-1956)، وسوموزا في نيكاراغوا (1936-



1956)، وكاستيلو أرامس في غواتيمالا (954 -1957)، وتروخيلو في جمهورية الدومنكان (1930 1961)، وباتستا في كوبا (1952-1958)، وبيرث خيمينيث في فنــــزويلا (1952-1958)، وحتى روخاس بينّا في كولومبيا (1953-1957). كانت المنطقة هيمن عليها تقاعياً السوربون بالرغم من أن سي الدنتيون القريب كان يشكل بصمته المبق لسرمدحي المعماري الأكثر مهابة

وعلــى الفور تقريباً اتصل غارسيا ماركيز ببلينيو أبوليو ميندوثا الذي سبق له أن عرفه لفترة قصيرة من الزمان في بوغوتا قبل انتفاضة شهر نيسان من العام 1948. كـــان ميندوثا أصغر سناً، شاباً جاداً وإن دعيًا، تعثرت أفكاره السياسية عن العالم وتحطمت إثر هزيمة والده السياسية ونفيه في الأشهر التي أعقبت اغتيال غايتان. كان يميل نحو الاشتراكية الراديكالية، وكان قد قطع شوطاً في الطريق كي يصبح رفيقاً جــوالاً في الحــركة الشيوعية العالمية. كما كان قد اطلع على نشر رواية **عاصفة الأوراق** لغارســيا ماركيز من خلال الصحافة البوغوتية. "افترض من صورته ومن العـــنوان أنه لا بد من أن يكون روائياً رديئاً"[3] وكان عشية الميلاد في العام 1955 في حانــة الكــأس الباريسية في الحي اللاتيني مع صديقين كولومبيين عندما دلف غارســيا ماركيز مرتدياً معطفه الصوفي الثقيل في عصر ذلك اليوم الشتائي. ودهش ميندوثا وصديقاه لرؤية القادم الجديد الذي بدا متشامخاً ومغروراً خلال أول حديث لهم عن الأدب والصحافة والحياة وكأن الأشهر الثمانية عشر التي أمضاها في بوغوتا حولته إلى كانتشاكو نموذجي، إذ رغم أنه لم تعجبه أوروبا تماماً، وبدا مهتماً بنفسه لا أكثــر لقــد نــشر رواية واحدة ولم تنبعث فيه الحيوية والنشاط إلا عندما بدأ بالحديث عن تطور الكتابة في روايته الثانية.

وكما حدث حقاً، فقد وجد غارسيا ماركيز في بلنيو ميندوثا أفضل صديق من أصدقاء المستقبل بالرغم من أنه لم يكن أكثرهم ثباتاً. وبما أن ميندوثا سيتعرف إلى غارســيا ماركيز على نحو أفضل من أي شخص آخر تقريباً، ومع أنه كان أقل تقــيداً من الآخرين باعتبارات التقدير والذوق التقليدية فإنه سيصبح، وبا للمفارقة، واحــداً مـــن أكثر الشهود ثقاة على حياة غارسيا ماركيز وتطوره. وبالرغم من انطباع ميندوثا الســـي الأول، فإنه دعا القادم الجديد إلى عشاء ليلة الميلاد بقمة

المعماري لكولومبـــي القادم من بلدة إنتوكيا هيرنان فيكو وزوجته الأميركية ذات العينين لرقاوين في شقتهما في شارع غينيغو على ضفاف نهر السين. وهناك تناول الكولومبيون المجتمعون، مهاجرون ومنفيون، اللحم المشوي وسلطة الهندباء وكميات كبيرة من الشراب، ثم أمسك غارسيا ماركيز بالقيثارة وغنى أغاني الفالسانو وكانت مـــن تألـــيف صـــديقه إيسكالونا. مما حسن من الانطباع الأول الذي تكوّن عند الكولومبيين، لكن المضيف ظل يشكو لبلينيو من أن القادم الجديد "رجل فظيع" لا يبدو عليه أنه معتدّ بنفسه وحسب، بل عمل أيضاً على إطفاء عقب سجائره بنعل حذائه[4].

وبعد ثلاثة أيام التقى الرجلان مرة أخرى وذلك بعد أن تـــساقط الثلج للمرة الأولى في ذلك الشتاء. ولما كان غارسيا ماركيز ابن المنطقة المدارية فقد رقص على امتداد شـــارع سان ميشيل ومنه إلى ساحة لوكسمبورغ. وسرعان ما ذاب نمط ميندوثا مثل دوبان ندف الثلج الرائقة على معطف غارسيا ماركيز الصوفي الثقيل.

أمضيا معظم كانون الثاني وشباط من العام 1956 معاً قبل أن يعود ميندوثا إلى كاراكـــاس حـــيث كان يقطن معظم أفراد أسرته آنذاك. كان الصديقان الجديدان يمضيان الوقت في تلك الأسابيع الأولى في الأماكن المفضلة التي كان يرتادها ميندوثا حول السوربون ومقهى كابولاد في شارع سوفلو أو الأكروبول، وهو مطعم يوناني مـــدهش وجـــباته زهيدة الثمن، يقع في نهاية شارع كلية الطب. وإذا كان بعض معـــارف غارسيا ماركيز قد وصفوه في تلك الفترة ربما وصفاً قاسياً فقالوا إنه غير جذاب، فإن بلينيو ميندوثا وُصف بذلك الوصف بالدرجة نفسها أو أكثر. زد على ذلك أن رد فعل بعض الكولومبيين كان يتسم باللامبالاة لدى سماعهم اسمه للوهلة الأولى؛ فقـــد كان معروفاً في جميع أرجاء كولومبيا بالاسم بلينيو، تماماً مثلما كان غارســـيا مـــاركيـــز معروفاً بالاسم غابيتو. وكان الكثيرون يعدونه مروعاً، ونتاجاً نموذجياً للأراضي المرتفعة في مسقط رأسه بوياكا. لكن ما من أحد ينكر أنه صحافي ومجادل ألمعي. كان شخصاً لا يمكن توقع دواخله، مشبوب العاطفة، ومرحاً أيضاً، يتمتع بالسخرية الذاتية (وهو أمر نادر)، كريماً ومتحمساً.

في أواخـــر الأســـبوع الأول من شهر كانون الثاني حبس الصديقان في أحد المقاهـــي في شـــارع المـــدارس (ديريكول) يقرآن في صحيفة اللوموند، وإذا بهما

بكتشفان أن روخاس بينّيا أغلق أخيراً صحيفة الاسبكتادور بسبب عاملين اثنين هما الرقابة والتهديد المباشر (وكانت صحيفة التمبو قد أغلقت قبلها ولمدة خمسة أشهر). يستذكر ميندوثا أن غارسيا ماركيز قلل من شأن الحدث: "ليس الأمر خطيراً، وهذا شبيه ما تفعله مصارعو الثيران بعد أن يجرحهم قرن الثور". لكن الأمر كان خطيراً بحسب ميندوثا[5]. فقد غُرّمت الصحيفة من قبل بمبلغ مقداره ستمئة ألف بيزوس وذلك في بداية الشهر. والآن أغلقت نهائياً. وهكذا توقف مجيء الشيكات إلى غارسيا ماركيز ولم يعد قادراً في بداية شباط على دفع أجرة غرفته في فندق الفلاندر. وسمحت له السيدة الطيبة مدام لاكروا أن يدفع الإيجار حين يتوافر معه. واستناداً إلى إحدى روايات غارسيا ماركيز فإن مدام لاكروا راحت تنقله أعلى فأعلى ورويداً رويداً في ذلك المبنى حتى انتهى به المطاف إلى غرفة بلا تدفئة في الطابق السابع وزعمت أنها نسيت أمره[6]. وقد وجده أصدقاؤه على تلك الحال يكتب وهو يضع قفازات في يديه ويعتمر قبعة صوفية.

كان غارسيا ماركيز قد بدأ يدبر معيشته بالرغم من قلة موارده حتى قبل أن يصله الخبر المرعب بإغلاق مكتب صحيفة الاسكتادور، وتملك ميندوثا الذهول بسبب قلة المال الذي أتى به معه من كولومبيا. وهنا عرّف ماركيز بنيكولاس غيّان وناشط شيوعي آخر وهو الروائي والصحافي الفنزويلي الثري ميغيل أوتيرو سيلفا الذي أسس مع أبيه صحيفة مهمة في كاراكاس هي الناسيونال سنة 1943. وكان الثلاثة قد التقوا في حانة في شارع كوجاس في الأيام التي سبقت مغادرة ميندوثا إلى فنزويلا ودعاهما أوتيرو لتناول الطعام في حانة ومطعم قدم الخنزير قرب سوق الخضار. وبعد مرور سنوات أصبحا فيها صديقين، لم يتذكر أوتيرو سيلفا الشاب الكولومبي الشاحب والنحيل والذي كان يصغي بكل اهتمام إلى تشخيص الشيوعي للأوضاع في فرنسا وأميركا اللاتينية وهو يلتهم طعامه المجاني الذي وفرته العناية الإلهية[7]. كان أوتيرو سيلفا وغيّان قد تناهت إلى مسامعهما حينذاك إدانة خروتشوف القوية لستالين في الخامس والعشرين من شهر شباط عندما أوشك المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي أن ينهي أعماله. وتولاهما القلق من سياسة التعايش التي أُعلنت مؤخراً لأنها سياسة انهزامية في رأيهما وفكّرا بقلق في مستقبل الحركة الشيوعية العالمية[8].



يبدو أن غيّان سيغدو بطلاً لإحدى حكايات غارسيا ماركيز المفضلة عن حقبة باريس: "الزمان هو الزمان الذي كان يحكم فيه بيرون في الأرجنتين، وأودريا في بيرو، وروخاس بينيّا في بلادي؛ إنه زمن سوموزا وباتيستا وتروخيلو وبيريث خيمينيث وستروسنر. كانت أميركا اللاتينية معدة بالدكتاتوريين. كان نيكولاس غيّان قد اعتاد على النهوض باكراً عند الخامسة صباحاً ليقرأ الصحف وهو يحتسي فنجان قهوته. ثم يفتح النافذة ويصرخ ليصل صوته إلى كلا الفندقين المكتظين بالأميركيين اللاتينيين وكأنه في ساحة دار في كاما غوي. وفي يوم ما فتح نافذته وقال: *لقد سقط الرجل!* وهنا خُيِّل لكل واحد - من أهالي الأرجنتين والباراغواي والدومينيكان وبيرو - أن رئيسهم هو الذي سقط. وقد سمعت صوته بدوري وقلت: *اللعنة! لقد ذهب روخاس بينيّا!* لكنه أخبرني لاحقاً أن بيرون هو الذي سقط"(9).

في الخامس عشر من شباط عام 1956 صدرت صحيفة أخرى بعنوان الأندبندنت لتحل محل الاسكادور التي أغلقت قبل ستة أسابيع. وتولى رئاسة التحرير الرئيس الليبرالي السابق ألبيرتو ييرس كامارغو الذي شغل سابقاً منصب سكرتير منظمة الدول الأميركية. وأخيراً، وبعد بضعة أسابيع شاقة وقلقة جداً، تنفس غارسيا ماركيز الصعداء. وعندما رحل بلينيو ميندوثا متوجهاً إلى كاراكاس في نهاية الشهر شعر بالارتياح لأن صديقه الجديد عاد ليقف على قدميه من جديد ويشعر بالأمان. بعد مرور ثلاثة أشهر تقريباً، ظهرت أول مقالة لغارسيا ماركيز في الصحيفة الجديدة وذلك في الثامن عشر من شهر آذار. وأرسل تقريراً من سبع عشرة حلقة - زهاء المئة صفحة عندما أعيد طبعه في كتاب - عن محاكمة أولئك المتهمين في فضيحة التجسس الأخيرة عندما نُقلت أسرار الحكومة الفرنسية إلى الشيوعيين إبان الأشهر الأخيرة من حكم فرنسا في فيتنام. وهكذا، وفي الثاني عشر من آذار سنة 1956، أعلنت الأندبندنت في صفحتها الأولى: "مبعوث الأندبندنت الخاص يباشر حضور أكثر المحاكمات إثارة في القرن"، (مما لا يدعو لكثير من الدهشة أن غارسيا ماركيز سيشتهر لاحقاً بملاحقته). لكن بالرغم من الجهد المبذول في هذه السلسلة من المقالات، فإن إغلاق صحيفة الأندبندنت في الخامس عشر من

يبدو سيعني أن غارسيا ماركيز لن يتمكن من سرد ذروة المحاكمة مما جعل القراء في حيرة من تقريره الذي رأوا أنه لا يمثل قمة جهوده في كتابة الحلقات ولا أفضلها من حيث السرد على كل حال. وبالرغم من أن غارسيا ماركيز لم يعرف حقيقة الأمر، فإنه وجد نفسه مرتبطاً، وإن من بعيد، بشخص سيكون ملازماً له إلى حدٍّ بعيد في فترة متقدمة من حياته. فقد كان نجم المرافعات القضائية وزير الداخلية السابق، ومن ثم وزير العدل لاحقاً فرانسوا ميتران الذي كان: "شاباً أشقر الشعر، يرتدي بذلة ذات لون أزرق فاتح، مع الخشية الإحساس بأنها دار عرض سينمائي"[10]. وكان ميتران نفسه موضع شكّ وارتياب في الجلسة بسبب رفضه المعروف للحرب الاستعمارية في فييتنام. ومع هذا، فإن ميتران وبقية الحاضرين في قاعة المحكمة كانوا في طريقهم إلى رواية غارسيا ماركيز الجديدة.

كان في وسع غارسيا ماركيز أن يسمع تكتكات ساعة السوربون من غرفته. وفي حين كان يجلس ويكتب، كانت ميرثيديس بارتشا، خطيبته التي لم يعرفها معرفة كاملة، ترنو إليه من خلال صورتها الموضوعة على منضدة إلى جانب السرير. تتذكر بلينيو ميندوثا أنه قال عندما صعد إلى غرفة صديقه: "تراجعت صوب الجدار لأنظر إلى صورة خطيبته المثبتة هناك، فتاة جميلة ذات شعر طويل مسترسل"[11]. بعد وصول غارسيا ماركيز إلى أوروبا بدأت ميرثيديس ترسل إليه رسائلها مرتين، أو ثلاث مرات أحياناً، في الأسبوع. وكان يجيب على رسائلها بدأب[12] وكانت رسائله تصلها عن طريق والديه. يتذكر أخوه جيمي، وكان في الخامسة عشرة من عمره آنذاك، أنه كان يأخذ الرسائل إلى ميرثيديس في بارانكيا بين وقت وآخر.

كان مصدر الإلهام في الرواية الجديدة هو تلك البلدة النهرية الصغيرة والنائية حيث شهدت أول لقاء له مع ميرثيديس بالرغم من أن الكتاب يخلو من أي مسحة رومانسية. ويختار للرواية العنوان **في ساعة نحس**، لكن هذه الرواية المشؤومة لا تصدر إلا في العام 1962. لم تكن رواية عن الزمان الذي عاشت فيه أسرة غارسيا ماركيز وأسرة بارتشا باردو وسط تلك المجموعة الصغيرة من الناس، بل كانت عوضاً عن ذلك تدور في سنوات لاحقة، في زمن يقترب من زمن تأليفها، وتركز فيه على العواقب الوخيمة التي حلت بالمنطقة بعد أحداث العنف المعروفة. وبسبب

ذلك يرجع إلى أن أحداث العنف كانت تهيمن على أفكار سكان كولومبيا جميعاً، في الداخل وفي الخارج، ويكون هو شخصياً ضحية غير مباشرة لها؛ وكانت كتاباته الصحفية التي سبقت رحيله عن بوغوتا قد زادت من حدة تركيز مواقفه المناهضة للحكومة.

تستمد البلدة في رواية غارسيا ماركيز صورتها السيمائية من بلدة سوكري، بل إن دقة التفاصيل الطوبوغرافية تمكن القارئ من رسم خارطة للمكان الذي يجري التركيز فيه على النهر وعلى المعبر الخشبي والميدان العام والبيوت المحيطة به. وتظهر سوكري مهاداً لعدد من الروايات القصيرة المرتبكة على مدى سنوات: في **ساعة نحس**، ليس للعقيد من يكاتبه، وقصة موت معلن، وكلها روايات تعبر تعبيراً مباشراً عن مصيرها العنيف.

وتمر سنوات طويلة قبل أن يبدأ أي أحد بالتركيز في هوية هذه البلدة النهرية الصغيرة، بل إن معظم القراء استمروا يحاولون عبثاً ربطها بأجواء وأوصاف ماكوندو – اراكاتاكا المختلفة عنها تماماً. كما أن غارسيا ماركيز لا يشير في مقابلات معه لاحقة إلى سوكري بالاسم، تماماً مثلما لا يذكر اسم والده. مما لا ريب فيه أن الحقيقتين لا تنفصلان إحداهما عن الأخرى. ويقول في إحدى المرات: "إنها قرية لا يوجد فيها أي سحر، ولهذا فإن كتابتي عنها هي ضرب من الصحافة الأدبية دائماً"[13]. بيد أن سوكري الحقيقية التي يوضّح من يعش فيها موقفه إزاء الواقعة النقدية، إن جاز التعبير – ضد والده وضد النزعة المحافظة في كولومبيا – والتي دفعته لابتكار شخصيات تعاني عداءاً أبدياً، تذكرنا بشخصيات **أمبرتو دي** أو **لصوص الدراجة الهوائية** لدى سيكا؛ إنما هي غير مختلفة كثيراً، اجتماعياً، عن آراكاتاكا. بل يشهد أخواته وأخواته على أن سوكري بلدة تتصف بروماسيه وطرافة أكثر بكثير. كما أن السحر يعتمد على عين الرائي دائماً، والفرق هو أن غابيتو لم يعش ذلك السحر في أثناء إقامته في سوكري في الفترة المحصورة بين طفولته وبلوغه سن العاشرة على النحو الذي عاشه في آراكاتاكا. كما أنه لم يكن يعيش برفقة جده العقيد، وفي كل الأحوال لم يُقم فيها إقامة مستمرة لأنه أُرسل إلى المدرسة بعيداً عنها؛ ولكن بالرغم من أن إرساله إلى المدرسة كان امتيازاً له، إلا أنه



عدّ ذلك، بلا أدنى ريب، عملية طرد أخرى له من الأسرة. أضف إلى ذلك أنه عاش في آراكاتاكا في أعقاب الطفرة الاقتصادية المدهشة في حين شهدت سوكري بداية أحداث العنف.

عندما نُشرت رواية **عاصفة الأوراق** قبل سفره من بوغوتا إلى أوروبا، أبدى أصدقاؤه الشيوعيون ملاحظة أن الرواية مفرطة في شاعريتها وخرافيتها مما لا يلائم ذوقهم بالرغم من أنها ممتازة على وجه التأكيد. ويعترف غارسيا ماركيز لماريو فارغاس يوسا وبلينيو مندوثا - الذي وافق الشيوعيين على رأيهم - بأن عقدة ذنب تولدت لديه لأن رواية **عاصفة الأوراق** لم توجه الإدانة إلى أي أحد ولم تكشف أي شيء"[14]، بمعنى أن الرواية لا تنسجم ومفاهيم الشيوعية عن الأدب الملتزم اجتماعياً الذي يشجب القمع الرأسمالي وينظر إلى مستقبل اشتراكي أفضل. الحق أن معظم الشيوعيين كانوا يرون الشكل الروائي وسيلة من وسائل البورجوازية، أما السينما، فهي الوسط الشعبي الحقيقي والوحيد في القرن العشرين.

إذا كانت رواية **في ساعة نحس** عملاً سياسياً هدفه سرد الوقائع، فقد أثبت غارسيا ماركيز أنه لا يزال قصاصاً ماهراً ولا يزال يلجأ إلى المواربة في النقد السياسي والإيديولوجي. فعلى سبيل المثال، نجده لا يحدد صراحة أن النظام الذي يمارس أعمال القمع التي يصفها هو نظام حكومة المحافظين؛ بالرغم من أن هذا واضح تمام الوضوح لكل قارئ كولومبي. وإذا كانت عشرات الآلاف من الناس يلقون مصرعهم كل عام على أيدي رجال الشرطة والجيش والميليشيات المسلحة إبان تلك الحقبة، وإن الكثيرين لقوا حتفهم بأبشع وأقسى صورة يمكن تخيلها. إلاّ أن الرواية لا تحتوي إلاّ على حادثتي موت اثنين وحسب: الأولى هي موت مدني بسبب جريمة غسل عار تكون مدير الحدث المركزي مؤخراً في رواية **في ساعة نحس**، والثانية جريمة سياسية تنفذها الحكومة بالرغم من أنها تبدو للوهلة الأولى نتيجة لانعدام الكفاءة وليست مؤامرة. والحقيقة أن الرواية تهدف إلى الإشارة، ضمناً، إلى أن هيكل السلطة الذي تصوره الرواية لا بد من أن تنجم عنه حتماً ودائماً أعمال قمعية، بمعنى أن العمدة لا بد له من أن يقتل معارضيه إذا ما شاء البقاء حياً.



إن مثل هذا الفهم الهادئ والمدهش لطبيعة السلطة ينقل الروائي بعيداً، إلى ما وراء الرغبة في التأويل الأخلاقي أو التورط في دعاية سطحية. من الطبيعي أنه يرثي للعقلية المحافظة، لكنه لا يحاول نيل استحسان القارئ بطرائق مفتعلة مبالغ فيها. يشير غارسيا ماركيز في مذكراته إلى أن شخصية العمدة تستند في أساسها إلى شخصية الشرطي روح حبيبة السوداء نيغروماننا. لكنه، بحسب رواية جيرالد مارتن، قدم تفسيراً آخر: "العمدة في رواية في ساعة نحس يستند إلى شخصية واقعية فهو من بلدة على مقربة من سوكري، وقال غارسيا ماركيز إنه من أقرباء زوجته ميرثيديس، ولهذا السبب، كان المسلسل لا يفارقه. وكان غارسيا ماركيز في بعض الأحيان يتأكدها فيذكرها أن هذا الرجل ينتمي إلى أسرتها"[15].

بالرغم من أفضل الجهود التي بذلها، فإن الرواية أبت أن تحقق بعداً مما جعله يرخي قبضته عليها. وغرق غارسيا ماركيز في خضم كولومبيا وهي في أشد حالات الكدر والغم، يضرب قدميه بلا هدف في ذلك العالم الخالي من السحر الذي ابتكره من جديد حتى لم يعد يرى من باريس إلا أقل القليل في وقت انقلب فيه الشتاء ربيعاً. لكنه كان يخرج إلى العالم بين حين وآخر. كانت فرنسا في حالة تثير الحرب والاكتئاب وهي تعيش فترة ركود في الجمهورية الرابعة. وأجبر بيير منديس فرانس على التخلي عن السلطة بعد أن كان رئيساً طوباوياً لمجلس الدولة اشتهر بمحاولته إرغام الفرنسيين على شرب الحليب بدلاً من الشراب المصنوع من العنب. وحل محله إدغار فوري ولكن لفترة قصيرة، إذ لحقت الهزيمة بفرنسا في فيتنام في وقت كانت تصارع فيه من أجل البقاء في الجزائر. غير أن باريس، وإن لم يكن هناك أحد يبقي فيها مالاً، بدت في واحدة من أكثر لحظاتها إثارة للذكريات والعواطف. وهي اللحظة الأخيرة التي سبقت تحويلها في ستينيات من القرن العشرين من مدينة زرقاء مفعمة بالدخان إلى قصة عصر الفضاء. وكان غارسيا ماركيز يتناول طعامه أساساً في مطاعم الطلبة زهيدة الثمن مثل مطعم كابولاد والأكروبول. وفي حين كان معظم الأمريكيين اللاتينيين يشعرون بالحاجة إلى ارتياد السوربون ومتحف اللوفر كي يحظوا بقدر من السمو الثقافي، وللنظر إلى الناس كما ينظرون إلى أنفسهم في تلك المرايا الباريسية الذهبية، فإن غارسيا ماركيز كان يمضي أيامه، كدأبه، في جامعة الشوارع.



وفجأة، حدث تحول مفاجئ في حياته. ففي مساء يوم من أيام شهر آذار عندما كان خارجاً مع صحافي برتغالي يغطي بدوره محاكمة التجسس الفرنسية لحساب إحدى الصحف البرازيلية، التقى مصادفة امرأة شابة. كانت المرأة من إسبانيا وفي سن السادسة والعشرين وتدعى تاتشيا، وكانت توشك أن تقدم قراءات شعرية. وبعد أربعين سنة تقريباً تتذكر غارسيا ماركيز عندما قال لها: قراءات شعرية! يا له من أمر يبعث على السأم. وتقول: "ظننت أنه يكره الشعر، فانتظر في مقهى مابيون الكائن في شارع سان جيرمان دي بري على مقربة من الكنيسة، ثم لحقنا به بعد الانتهاء من قراءة الشعر[16]. كان نحيفاً كالأصبع ويبدو كأنه جزائري، أشعث الشعر، وذا شارب، ولم أهوَ في حياتي قط رجلاً ذا شارب كما لم يرقي الرجال الذكور الذين يتصفون بالفجاجة، وكنت أنحاز دائماً إلى الثقافة والعنصر الإسبانيين اللذين كانا يبعث إحساس بالدونية وسط الرجال القادمين من أمريكا اللاتينية"[17].

كانت تاتشيا قد ولدت بالاسم ماريا كونسيبسيون كويانا في كانون الثاني عام 1929 في بلدة إيبار في غويثكوا من إقليم الباسك الإسباني. كانت واحدة من ثلاث أخوات ولدن لأسرة كاثوليكية مؤيدة لنظام فرانكو بعد الحرب الأهلية. وكان والدها عاشقاً للشعر، قرأ لها باستمرار وهي طفلة صغيرة لا تفقه شيئاً عن هذا العالم لدى سفرر مستقبلها. وفي العام 1952 التقت الشاعر الإسباني المشهور آنذاك بلاس دي أوتيرو في بيلباو، حيث كانت تعمل مربية أطفال، وهي فرصة من الفرص الضيقة أمام النساء للعمل مستقلات في إسبانيا تحت تحكم فرانكو. أطلق عليها أوتيرو الذي كان يصغرها بثلاثة عشر عاماً الاسم *تاتشيا*، وهو اسم اشتقه من كلمة كونشيتا، ثم أعواف. فما كان منها إلا أن أسرعت بالهرب إلى مدريد لتدريس المسرح كي تصبح ممثلة مع أنه كان ينبغي لها أن تأخذ الإذن من والديها لمغادرة المنزل ما دامت لم تبلغ الخامسة والعشرين بعد في تلك الأيام. وهناك بدأت علاقة متسوبة العاطفة، لكنها مشؤومة، مع هذا الرجل الذي كان شاعراً كبيراً لكنه غير مستقر ولا يطيق الابتعاد عن النساء. ويظهر الاسم تاتشيا في بعض من أشهر قصائده، وحوّل حياتها إلى جحيم بسلوكه المعتوه الذي يتعذر توقّعه. ولما أرادت

الابتعاد عنه هربت إلى إسبانيا وإن لم تتخلص منه نهائياً إلا بعد مرور سنوات طويلة. "لقد سافرت إلى باريس في أواخر عام 1952 لتبقى هناك ستة أشهر عملت فيها خادمة لقاء المأكل والمنام. لقد سحرتني المدينة. ولكني رجعت إلى المدينة مرة أخرى في الأول من آب عام 1953 لأستقر فيها. لم تكن لدي أي مهارة من المهارات الضرورية فالتحقت بدورات لدراسة المسرح لأجرب حظي وأجد طريقاً يحق لي سلوكه".

كانت ناتشيا امرأة مغامرة، جذابة، محبة للاستطلاع ومنفتحة لكل التجارب. كان ينظر إليها على أنها واحدة من أولئك النساء الجذابات في حقبة ما بعد الحرب التي اكتسحتها الوجودية - على حد حبها للمسرح - وفي حقبة أفلام الموجة الجديدة التي بدأ صنعها في باريس أواخر الخمسينيات من القرن العشرين. كانت رشيقة، تتشح بثياب سوداء عادة، قصّة شعرها على غرار قصّة شعر جين سيبرغ التي ستغدو مشهورة بعد حين، حيويتها لا تخبو، وإن كانت متقدة العاطفة في تلك الفترة التي لم يكن فيها ما يشغل بالها. غير أنها امرأة أجنبية، فرص النجاح في المسرح الفرنسي لا بد من أن تكون ضئيلة أمامها لا تتجاوز الصفر إلا قليلاً، بيد أنها كانت قد وطدت العزم على عدم الرجوع إلى إسبانيا. ولم تكن تنشد ارتباطاً عاطفياً طويل المدى. فقد عاشت قصة حب في بلادها. ومنذ ذلك اليوم لم يستحوذ أحد على عواطفها أو خيالها. وها هي الآن تروي قصة حياتها لهذا الكولومبي الذي يخلو من الجاذبية

"أود أن أقول إن غابرييل لم يعجبني منذ الوهلة الأولى: فقد كان يبدو استبدادياً، متعجرفاً، لكنه هيّاب أيضاً، كان خليطاً يفتقر إلى الجاذبية حقاً. لكني كنت أهوى من هو على غرار جيمس ماسون - كان بلاس يشبهه تماماً - أو على غرار نموذج السيد البريطاني وليس على غرار الصبي اللاتيني العاشق الجذاب الشبيه بتيرون باور. كما كنت أفضل دائماً الرجال الأكبر سناً، في حين كان غابرييل في مثل عمري إلى حدٍّ ما. وسرعان ما بدأ يتباهى بعمله، وبدا لي أنه ينظر إلى نفسه على أنه صحافي وليس أديباً. وعندما ترك الصديق الخانة عند العاشرة مساءً بقينا نتحدث، ثم رحنا نطوف في شوارع باريس سيراً على الأقدام. وقال

غابـريل أشياء قبيحة عن الفرنسيين بالرغم من أن الفرنسيين وقّوه ظهورهم في ما بعد لأنهم أثبتوا أنهم عقلانيون لا يطيقون واقعته السحرية".

اكتشفت تاتشيا أنها عندما تتحدث إلى هذا الكولومبـي المارق تجد دائماً أن هنـاك جانباً آخر فيه، شيئاً ما في صوته، في ابتسامته الغامضة، وفي الأسلوب الذي يـروي به حكاية ما. وبدأ غارسيا ماركيز والشابة الإسبانية الصريحة علاقة سرعان ما أصبحت حميمية، وربما أيضاً نموذجية. كانت أشهر رواية أميركية لاتينية في مطلع العقـد الروائي التالي هي رواية الحجلة للأرجنتيني جوليو كورتاثار التي نشرت عام 1963، وهـي حكايـة مغترب من أميركا اللاتينية يهيم في شوارع باريس في عقد الخمـسينيات من القرن العشرين، تحيط به مجموعة من الأصدقاء والعابرين والمثقفين البوهيميـين الـذين يتركزون في الحي اللاتيني. البطل اللامبالي أوليفيرا، لم يعد شاباً ولـيس لـه عمـل، ولا يهتم بالعثور على أي عمل. إنه يريد أن يكتشف نفسه ويكتـشف العالم، إلهامه ومصدر حزنه شابة حسناء، بوهيمية، أديبة طليعية تعرف باسم *الساحرة*. الحق أن كورتاثار لم يعش هذا الهوى، لكن غارسيا ماركيز عاشه. الحـدث والسير، أحدهما يقود إلى الآخر. "وشيئاً فشيئاً بدأ غابريل يرتخي بالرغم من تحفظاتي الأولية. ونمت العلاقة، وداوم أحدنا على مرافقة الآخر بعد مرور بضعة أسابيع في نيسان على ما أظن. في البدء كان لدى غابريل ما يكفي من المال لشراء مشروب أو كوب من الكاكاو لفتاة أو حتى يدفع ثمن تذكرة الدخول إلى السينما. ثم أغلقت صحيفته ولم يعد لديه ما يملكه".

نعـم. بعـد ثلاثـة أسابيع من لقاء غارسيا ماركيز بتاتشيا أغلقت صحيفة الأسبيكتادور في بوغوتا لمدة سنة تقريباً بالرغم من أنه لم يستطع معرفة سبب ذلك. كان سياق الأحداث مدمراً لمثل هذه العلاقة الجديدة. وبدلاً من أن تسدد الإدارة ما لـه عليـها من دين أرسلت إليه تذكرة العودة فقط إلى كولومبيا. وعندما وصلت التذكـرة، ابتلع غارسيا ماركيز ريقه وتنهد بعمق ثم قبض ثمنها! أكانت تلك رغبة منه لمعرفة أوروبا على نحو أفضل، أم هي رغبة لإكمال روايته الجديدة، أم لأنه متيم بالحب؟ لقد مضت ثلاثة أشهر وهو يشتغل في تأليف رواية **في ساعة نحس**، وكان مصمماً على المضي قُدماً فيها. لهذا، فإنه، لأسباب كثيرة، لم يكن مهيأ للرحيل عن



باريس. ففي بوغوتا لم يجد إلا قليلاً من الوقت لممارسة كتاباته، واليوم بات متمرداً لا يلوي على شيء مرة أخرى. القرار قراره، لكنه سيكون صعباً. ثم إن هناك تاتشيا أيضاً.

التقيت أنا شخصياً تاتشيا كوينتانا في باريس في شهر آذار عام 1993، وتجولنا في الشوارع نفسها التي سبق أن تجولت هي فيها مع غارسيا ماركيز في أواسط خمسينيات القرن العشرين. وبعد ستة أشهر، تشجعت وسألت غارسيا ماركيز وأنا في بيته في مدينة مكسيكو: "ماذا حدث لتاتشيا؟". كان اسمها في ذلك الوقت معروفاً لدى عدد قليل من الناس، وتفاصيل قصتهما معروفة لعدد أقل. أظنه كان يأمل أن أتغاضى عن ذكرها، ولكنه تنهد بعمق كمن يراقب تابوتاً يُفتح ببطء، وقال: "حدث ما حدث". فقلت: "حسناً. هل يمكننا التحدث في هذا الموضوع؟". فقال: "لا". في تلك المناسبة أخبرني للمرة الأولى بعد أن ارتسمت على وجهه ملامح دفّان يغلق غطاء تابوت بإصرار: "لكل أمرئ ثلاث حيوات: حياة عامة، وحياة خاصة، وحياة سرية". الحياة العامة على مرأى من الآخرين ليروها جميعاً، وكل ما علي هو أن أنجز العمل. ومن حين إلى آخر كنت أحظى بلمحات عن الحياة الخاصة، وكان من المتوقع أن أستنبط بنفسي البقية الباقية منها. أما بخصوص الحياة السرية، "لا، أبداً". وإذا كانت مثل هذه الحياة موجودة في أي مكان، فإنها موجودة في كتبه كما لمّح بنفسه إلى ذلك. يمكني أن أبدأ بالكتب. "لكن لا تقلق على كل حال. فكل ما تقوله عني هو أنا". أما بخصوص قصة تاتشيا كوينتانا فعلينا أن نتقصى بطون الكتب كما تصورها غارسيا ماركيز في العام 1956 وما بعده. أما تاتشيا، فكانت سعيدة إذ تروي دورها في الحكاية:

> **عندما التقيت غارسيا ماركيز كنت أوشك أن أنتقل إلى غرفة صغيرة في شارع أسّاس. لا أتذكر أين كنت قبلئذ، ولا يمكنك أن تتخيل عدد الفنادق والشقق التي سكنتها في باريس، حتى إنني شاركت فيوليتا بارًا غرفتها أيضاً. كان الموقع الجديد على مقربة من مونبارناس، بين الأنفاليد وسان جيرمان دي بري المجاورة لحانات ومطاعم لا كوبولي، ولا كلوزيري دي ليلاس، ولي دوم، ولي سيليكت، وعلى مسافة بضع ياردات من حدائق اللوكسمبورغ ومسارح ودور السينما وحانات الجاز في مونبارناس. ذهبنا إلى غرفته في**



فندق الفلاندر أحياناً. إلا أننا كنا ننام في شارع الأسّاس عموماً. وكان لي ما سمي فندقاً تم تحويره في ما بعد. كنت في المطبخ القديم، وكان صغيراً كأنه حجرة خادمة، بحديقة خارجية صغيرة. لم يكن هناك سوى سرير وصناديق برتقاليه. تخيل: اعتاد اثنا عشر شخصاً الجلوس على ذلك السرير. وكانت المالكة كاثوليكية متزمتة، إلا أنها كانت تغضّ البصر عما نرى وتتركنا نفعل ما نشاء. وكان أفضل شيء هو الحديقة الصغيرة في الهواء الطلق. كم انتظرني وهو جالس في ذلك المكان! رأسه بين يديه غائب. لقد دفعني للجنون لكنني كنت هيمة به.

حالما التقى الكولومبي لها وجد أن الرواية التي بدأ بكتابتها وقطع شوطاً مهماً، وإن كان مؤلماً منها، تنسل من بين أصابعه. بعد مرور سنوات طويلة يغدو واحداً من أهم أدباء العالم المعترفين المتمكنين من حرفتهم الفنية، رجلاً يعرف دائماً مـاذا يريد أن يكتب فيكتبه حتى ينجزه بثبات. لكن كل عمل في هذه المرحلة من حياته بدا وكأنه يشطر إلى عمل آخر. التأليف تجربة مؤلمة ولم يبدُ أن خياله سيقوده إلى مسيرة التطور المرجوة. وهكذا هي حاله الآن. وبدأت إحدى الشخصيات الثانوية بالسمو لتصبح شخصية مستقلة بذاتها فتطالبه بحيز أدبي منفصل. هذه الشخصية تمثل الآن بعقيد عجوز خجول ومتصلب في رأيه في آن واحد، لاجئ من ماكوندو ومن رائحة الموز الذي أصبح أكثر مما ينبغي. إنه رجل ينتظر مرتّبه التقاعدي الذي يستحقه بسبب اشتراكه في حرب الألف يوم بعد مرور خمسين عاماً على سبك الحرب. كانت النسخة الأولى من الرواية، المهملة الآن، رتيبة وقاسية تتطلب الجرأة والتجرد، غير أن مؤلفها وجد نفسه على نحو غير متوقع تماماً في لحظة من لحظات الوجد والحرمان معاً يعيش نمطه الخاص من الحياة البوهيمية.

ومثلما كانت مشاعر الحنين الجارف إلى الماضي التي ولّدتها رحلته مع أمه أداة تمخضت عنها روايته **عاصفة الأوراق** فإن مشاعر مماثلة تنطوي على شدة الحزن (والتوق إلى إمكانية الحياة في الزمن الراهن) كانت الوسيلة لفصل ما يسمى **ليس للعقيد من يكاتبه وفي ساعة نحس**، تلك الرواية التي تأخرت وتأجلت إلى ما لانهاية. وكان مصدر الإلهام في الرواية امرأة أيضاً. فالرواية التي تدور حول العقيد من شأنها أن تعكس الوضع الدرامي الذي يبدأ غارسيا ماركيز بمعايشته مع تاتشيا، إذ تورط



في علاقـــة مدهـــشة ومثيرة ومشوبة العاطفة وغير متوقعة تماماً، لكن سرعان ما ستتعقـــدها حكم الفقر علاقتهما منذ بدايتها، وها هي مهددة عما قريب بمأساة. وهكذا كانت الرواية الأولى التي لا تزال قيد الكتابة مربوطة، لا للمرة الأخيرة، بربطة عنق فكيه مخططة وحفظت في الجزء الخلفي من خزانة ملابس مُخلّعة في فندق الفلاندر، في حين استحوذت علـيه القصة العنيفة المأساوية التي تصور حياة عقيد يتصور جوعاً وزوجته سيئة الحظ والمتكلة والمعذبة من زمن طويل، في أيار ومطلع حزيران عام 1956.

ازدادت ديـون الفندق على غارسيا ماركيز زيادة تدعو للفزع، لكنه ظل في غرفته بالرغم من عدم تمكنه من دفع ثمن إقامته فيها، أو قوله بعدم تمكنه. وبعد مرور بـضعة أسابيع، وجد هو وتاتشيا صعوبة حتى في تدبير طعامهما. لقد مرَّ بمثل هذا الوضـع مـن قبل في بوغوتا وفي كارتاخينا وفي بارانكيا. وبدا وكأنه حُكم عليه بالتـصور جوعاً حتى يبرر تشبثه بمهنته. ولم تتذمر أسرته من عدم مواصلته دراسة الحقوق لأنه كان يعاني الحرمان والجوع. ولم يتعين على تاتشيا أن تشكو من أنه لا يتسعى كي يعيلها لأنه لم تكن هناك حدود للمعاناة، لم يكن هو أصلاً مهيئاً ليوعيها في وقت كان يؤلف فيه روايته. مسلّم نفسه إلى الأمر الواقع خاصة أن لغته الفرنسية لا تزال في مراحلها البدائية والوظائف يصعب الحصول عليها. غير أن حقيقة الأمر هي أنه لم يكلف نفسه عناء البحث. فبعد أن أنفق ثمن تذكرة العودة بالطائرة، بدأ يجمـــع القنـــاني الفارغة والصحف القديمة لقاء بضعة سنتيمات تمنحه إياها المخازن المحلية. ويقول إنه في بعض الأحيان استجدى عظماً من جزّار كي تتمكن تاتشيا من طبخ يخنة[18] وفي يوم ما اضطر إلى استجداء ثمن تذكرة في قطار الأنفاق بعد أن فقد آخر خمسة سانتيمات مرة أخرى – وشعر بالمذلة من رد فعل الرجل الفرنسي الـــذي أعطـــاه النقود أرسل الرسائل إلى أصدقائه في كولومبيا يستجدهم مساعدة ماليـــة، ثم وجد نفسه ينتظر والأمل يراوده بأخبار طيبة، أسبوعاً بعد أسبوع، مثلما انتظر جده مرتّبه التقاعدي طوال تلك السنين من قبله، وانتظر العقيد أيضاً في روايته الجديدة. لعل المفارقة هي التي أمدّته بالبقاء.

علاقته بتاتشيا لم توفّرها فرصة على نحو ما. فقد خسر وظيفته بعد ثلاثة أسابيع من لقائهما، وبعد مرور شهرين حدثت كارثة أخرى: "في مساء يوم ما علمت أنني

حاملٍ عندما كنا نمشي على امتداد شارع الشانزيليزيه. حاصرني شعور غريب وأدركت طبعته. وبعد أن أصبحت حاملاً، نقت أرعى الأطفال وأطف الأرصيات وأنقياً من ذلك العمل، وعندما أرجع أحد أنه لم يعمل شيئاً، فأبدأ بالطبخ. قال لي إنني سرّاعة إلى السيطرة وأطلق عليّ صفة *الجنرال*. في غضون ذلك كان هو يكتب مقالاته وكتابه **العقيد** الذي كان يدور عنّا فعلاً: عن وضعنا وعن علاقتنا. قرأت الرواية كما كتبها، فأحببتها، ولكننا كنا نتشاجر طوال الوقت على مدى تسعة أشهر. كانت الأمور صعبة، ومنهكة، أحدنا كان يدمر الآخر. أكنّا نتشاجر؟ لا، كنا نتصارع حقاً".

وتتذكر تاشيا. "لكنه كان أيضاً ودوداً ورؤوفاً. كان هو الرقة بعينها حيث كل شيء. الرجال أبرياء تماماً، فضّمته أشياء تخص النساء، ورودته عادة عبة رواياته. لديّ الانطباع أن غابرييل لم يكن له سوى نساء قليلات في حياته. بل إنه لم يعش مع أي واحدة في ذلك الوقت على وجه التأكيد. وعلى مشاجراتنا الكثيرة كنا سنستمتع بأوقاتنا، نتجاذب أطراف الحديث عن الحب وكيف سيكون، ونراجع الأسماء لنختار له اسماً نسميه به. وحكى لي غارسيا قصصاً لا عدّ لها ولا حصر، قصصاً عن طفولته وعن أسرته وعن بارانكيا وعن سسيدا وهلمّ جراً. كنت ذلك مدهشاً، وقد استهواني كما اعتاد غابرييل على الغناء كثيراً وبخاصة أغاني الفاليناتو لايسكالونا؛ مثل أغنية بيت في *السماء*. وحتى أغاني الكومبيا مثل أغنية فتاتي *الجميلة*. كان صوته جميلاً وعلى كثرة مشاجراتنا طوال النهار لم نكن لدينا أي مشكلة في فهم أحدنا الآخر ليلاً.

وتمضي قائلة:

"غالباً ما كان غابرييل يغني في حفلات لا تنتهي في بيت هيرنان فيكو في شارع عيبغو. كان فيكو مغوياً كبيراً، ذا عينين زرقاوين، طويل الحاجبين، جذاباً جداً. كان الوحيد الذي يملك منزلاً ومالاً وسيارة من نوع أم جي سبورت وكان يعشقها كثيراً. اعتاد غابرييل أن يغني ويعزف القيثارة هناك. كما كان رقصه جميلاً جداً. وكان لدينا أصدقاء فرنسيون يقطنون شارع شيرو بيي قرب النهر. وفي ذلك المكان عرفنا كل أغنيات براسانس. وكان غابرييل هو الذي صحبني إلى مهرجان

الإسبانية للحزب الشيوعي للمرة الأولى، مع لويس فيلا بوردا كما أظن. من تلك الناحية، كنت لا أزال امرأة تقليدية تماماً، إذ بقيت جالسة في مكاني لا أنبس بكلمة على حين استرسل الرجال في الحديث في السياسة. لم يكن لديّ أي فكرة أو أفكار سياسية في تلك الأيام بالرغم من أن مشاعري كانت تقدمية. وبدا لي غابرييل شخصاً منضبطاً ومركزاً يبعث على الإعجاب، من الناحية السياسية على الأقل. وتولّد لدي الانطباع بأنه رجل جادّ ونزيه وشريف وفق معيار الأخلاق السياسية. فكّرت في أنه لا يختلف اختلافاً كبيراً عن أي شيوعي. أتذكر أنني قلت له ذات مرة كأنني أعرف عمّا كنت أتكلم: *هناك شيوعيون أخيار وشيوعيون أشرار على ما أظن*. فما كان من غابرييل إلاّ أن رمقني وردّ بحدة: *لا يا سيدتي! هناك شيوعيون وغير شيوعيين*.

"لا بد لي من الإقرار أنه كان مصمماً جداً خلال مدة الحمل. وهناك شيء واحد يمكنني أن أقوله عنه. فقد كنا نتناقش نقاشاً مفتوحاً فسألني عمّا أريده. أظنه كان سيسعد بالحصول على الطفل. كان يتحمل كل ما أردته. أما أنا، فكنت لا أريد الطفل، وكان يعلم أنني جادة بشأن الأطفال، ولهذا أدرك أنني كنت أتوقع منه أن يتزوج بي. من هذه الناحية كان قوياً وضعيفاً أيضاً. فتركني أفعل ما أقرره بنفسي، لكني لا أعتقد أنه كان جريئاً مثلي. لعل الأمر لم يكن غريباً جداً أو محيّراً بالنسبة إليه وهو القادم من أميركا اللاتينية. وبالرغم من ذلك، ربما كان مخبوءاً".

وتمضي في روايتها:

كان القرار قراري لا قراره. كنت حاملاً في الشهر الرابع أو أكثر قليلاً. وكنت يائسة. كان وقتاً رهيباً، رهيباً. ثم حدث نزيف دموي، فأصيب بالهلع، وكاد أن يسقط مغشياً عليه؛ غابرييل. عندما يشاهد الدماء، حسناً. أمضيت ثمانية أيام في مستشفى الأمومة الملكية القريب جداً من محل سكناي. وكان غابرييل أول الآباء القادمين إلى المستشفى في أوقات الزيارة مساءً. وبعد الإجهاض، أدركنا أن كل شيء قد انتهى. هددت بالمغادرة، وأخيراً خرجت وذهبت أول الأمر إلى منزل فيكو لتمضية فترة نقاهة ثم رحلت إلى مدريد. كنت منهكة، منزعجة جداً. كنت دائماً أنا المسيطرة في علاقتنا، لكن الحمل فتّ في عضدي. غادرت



باريس من محطة أوسترليتز في كانون الأول عام 1956 بعد أن نظّم غابرييل مجموعة كبيرة من الأصدقاء لسفلوني إلى المحطة. كنت قد شفيت من العملية، لكنني كنت في أعماقي رقيقة سهلة الانكسار. وصلنا المحطة متأخرين وكان لا بد من رمي الأمتعة في القطار، واضطررت إلى أن أعدو حتى أستقل القطار من دون أن أتمكن من وداع الجميع. كانت معي ثماني حقائب، غير أن غابرييل كان دائماً يقول إنها ست عشرة حقيبة. تحرك القطار وأنا مرتبكة، أبكي بين يدي المستندتين إلى النافذة، ثم رنوت إلى غابــريل الذي بدأ يسير مع القطار وينظر إليّ نظرة تفيض بالعاطفة حتى غاب عن القطار. لقد خذلني حقاً في عام 1956، ولم يستطع التحمل. لم يكن في وسعي أن أتــزوجه، ولم أنــدم على ذلك، فقد كان رجلاً لا يُعتمد عليه أبداً، ولم يكن في مستطاعي أن أنجب الأطفال في هذا العالم مثل هذا الأب. هل لأنه لا يوجد ما هو أهم من ذلك؟ ومع هذا، فقد كنت مخطئة تماماً لأنه تبين أنه أب رائع".

كانت تاتشيا امرأة شجاعة، محظوظة، عاقدة العزم، مغامرة، حمقاء أو ذكية بما يكفــيها لأن تحيا حياة مستقلة تماماً قبل أن يصبح الاستقلال حقاً من حقوق المرأة بزمن طويل. بالرغم من أن قصتها هي قصة إخضاع حاجاتها لغارسيا ماركيز، إلا أنــه يصعب تخيّل أنّ ذلك الخيار ليس خيارها هي. كما يصعب التفكير في أن من شــأنها أن تــتحمل أي شيء لا تقبل به في نهاية المطاف وخاصة أنها تركت علاقة واحدة مهمة وراءها، وهي العلاقة التي وجدت نفسها فيها مُضحّية من أجل مهنة الأدب. لعل علاقتهما كانت ارتباطاً قوياً، ثم بدأ يتكدر وتصلب الشيء الكثير حالما أصبحت حاملاً، فهي إما أن تتزوج أو تنهي كل شيء. كما أن هذه العلاقة لم تكن أول علاقاتها الجادة، بالرغم من أنها كانت المرة الأولى التي يعيش فيها أي من الاثنين مع آخر.

ربما لم يكن غارسيا ماركيز فرحاً بمحاولات الإجهاض. فالأطفال لا يُعدُّون مشكلة في منطقة الساحل، كما أنه ينحدر من أسرة تنجب فيها النساء - مثل جدته ترانكيليا وأمه لويسا - عدداً كبيراً من الأطفال الذين يصلون بهم بصلة القرابة. لهذا لا بد من أن يكون قد اضطرب اضطراباً شديداً لموت الجنين. ربما يكون الأمر صعباً على مرثيديس إن كان له طفل من امرأة أخرى. لكن سكان أميركا اللاتينية



اعتادوا على مثل هذه الأوضاع ولا يعيرونها أهمية كبيرة بخلاف الأوروبيين. أما هو المتشدد للزوج ميرثيديس عما قريب، فربما فكّر. ثم ماذا؟ فهي لم تكن سوى طفلة عند سفره. ثم ما الذي يمكن أن يتوقعه أي شخص من رجل من أميركا اللاتينية في سن الخامسة والعشرين سوى إقامة علاقة في باريس؟ من شأن أصدقائه أن يخيب ظنهم بما هو أقل من ذلك. ولو أبقت تاتشيا على حياة الجنين لربما تخلى عنها أيضاً يبدو أن اختياره ميرثيديس كان متعمداً، فهي امرأة من بيئته، امرأة تفهم تماماً منشأه وتغفره.

رحلت تاتشيا. لكنه يملك روايته، ومن أحداثها هو ومن كتابتها، الأشهر الأخيرة من عام 1956 ومؤطرة بإطار أزمة قناة السويس التي ألقت بظلالها على أوروبا. كانت تفاصيل الحبكة مُعدة قبل رحيل تاتشيا إلى مدريد. الشهر هو تشرين الأول. العقيد لن يعرف له القارئ اسماً، يقطن في بلدة ماكوندو، في سن الخامسة والسبعين، يتآكل في بلدة نهرية صغيرة، خانقة، ضائعة في غابات كولومبيا. هذا العقيد ينتظر مرتبه التقاعدي على مدى ستة وخمسين عاماً لقاء اشتراكه في حرب الألف يوم ولا يملك غير ذلك لإعانته. لقد مر خمسة عشر عاماً منذ أن تلقى رسالة من دائرة التقاعد الحكومية، لكنه لا يزال يذهب إلى دائرة البريد كل يوم بأمل الحصول على معلومات. وهكذا يمضي حياته منتظراً الخبر الذي لا يأتي أبداً. ابنه ولزوجته ابن اسمه أوغسطين يعمل خياطاً اغتالته السلطات في مطلع العام لأنه كان ينشر دعاية سياسية سرية[19]. كان أوغسطين يرعى الزوجين العجوزين، ولما قُتل ترك وراءه ديكه البطل في مصارعة الديكة الذي يُقدر بمبلغ كبير من المال، لكن العقيد يتحمل الكثير من الذل والجوع كي لا يضطر إلى بيع الديك الذي أصبح يمثل له ولأصدقاء ابنه (ألفونسو وألفارو وجيرمان) رمز الكرامة والمقاومة ويذكرهم بأوغسطين نفسه. أما زوجة العقيد، ذات النزعة العملية والمريضة والتي تحتاج إلى علاج طبي، فتخالفه الرأي وتحضه مراراً وتكراراً على بيع الديك. في نهاية الرواية، لا يزال العقيد يرفض ولا يتزحزح عن موقفه.

قال غارسيا ماركيز إن الرواية تستند إلى أكثر من مصدر. أولاً، بما أنه كان يمتلك دوماً صورة بصرية كنقطة انطلاق لمؤلفاته، فقد كان يتذكر رجلاً سبق له أن



رآه في سـوق السمك في بارانكيا منذ سنين طويلة ينتظر قارباً "نفق صامتاً"[20].
ثانياً، وهذه قضية شخصية أكثر، هناك ذكرى جده الذي كان ينتظر مرتبه التقاعدي عن حرب الألف يوم بالرغم من أن التجسيد المادي لذلك الجد هو والد رافائيل إيسكالونا الذي كان عقيداً بدوره، لكنه أشد نحافة كي يلائم بطل غارسيا ماركيز المتخيل في الرواية والذي كان يعاني جوعاً شديداً[21]. ثالثاً، هناك على ما يبدو الوضع السياسي في كولومبيا إبان أحداث العنف. رابعاً، وفي ضوء الإلهام الفني، هناك شريط دي سيكا السينمائي *أمبرتو دي*، الذي كتب نصه ثاباتيني وتدور أحداثه حول رجل آخر يعيش مع مخلوق عزيز آخر (هو كلبه) في مدينة روما في حقبة ما بعد الحرب وسط لامبالاة عامة من معاصريه. لكن الشيء الذي لم يقرّبه غارسيا ماركيز فقط هو أن رواية **ليس للعقيد من يكاتبه** كانت تستند، خامساً وبصورة مباشرة أكثر، إلى الأحداث المؤثرة التي كان يعيشها هو وتاتشيا في أثناء تلك المرحلة في إطار أزمة قناة السويس السياسية[22].

في كلتا الحالتين عملت المرأة، على حدّ وصفها، أنانية وضعف رجل تعيش وإياه، رجل أقنع نفسه أن لديه مهمة تاريخية أهم منها. وكانت في كل حالة تعامله بعناية كأنه طفل صغير (الزوجان العجوزان فقدا ابنهما، وفي العالم الحقيقي تصاب تاتشيا بالملل من العناية بغابرييل عندما فقدت جنينها)، وتقوم بكل الأعباء المنزلية الضرورية، المادية فيها هي الصلة بالأمومة. كما تؤدي جميع الأعمال الحقيقية، في حين يجهد نفسه عبثاً في مشروع طوباوي لا أمل منه ولا يخرج إلى النور حيث الديك المصارع يمثل رمز شجاعته واستقلاله وانتصاره الأخير. كانت مقتنعة الاقتناع كله أن كل شيء مآله السوء، أما هو فكان متفائلاً لا سبيل إلى قهره. لقد مرت تسعة أشهر بين موت ابن العقيد وأحداث الرواية. وعندما تخاطب الزوجة العقيد قائلة: "نحن أيتام ابننا"، فقد تكون هذه العبارة مرثية للعلاقة بين غارسيا ماركيز وتاتشيا. إن الديك (الرواية، كرامة الروائي الشخصية) رمز لتماهي الفرد مع القيم الخاصة ولا يمكن للذنب والحزن - الإجهاض وموت الابن - أن تخف وطأتهما إلا بالاستمرار في وصفهما ذكرى. قد يكون شعار غارسيا ماركيز الدائم هو: "السبيل الوحيد للخروج هو المضي قدماً".



إن رواية **ليس للعقيد من يكاتبه** هي واحدة من ست الأعمال النثرية التي تؤدي وظيفة الشعر على واقعيتها التي يصعب إنكارها. ويستحيل أن نفصل موضوعاتها الأساسية، كالانتظار والأمل، وظاهرة الطقس، ووظائف الجسم (ليس أقلها عملية الإبراز، أو عدم الإبراز وهو ما ينطبق على حالة العقيد سيئ الحظ، السياسة والفقر، الحياة والموت، العزلة والتضامن، القدر والمصير بالرغم من أن غارسيا ماركيز صرّح دائماً أن الحوار ليس خير ما يجيده، فإن روح الدعابة المتهكمة التي تفصح عنها شخصياته والمسكوبة في قالب مغاير على نحو صنيل لتمييز كل واحدة عن الأخرى، إنما هي من الملامح الأساسية لأعماله الناضجة. إن تلك الدعابة التي لا يرقى إليها شك والمميزة كدعابات ثيربانتس، تصل تعبيرها النهائي في هذه الرواية القصيرة المدهشة تماماً مثلما يصبح العقيد نفسه واحداً من الشخصيات التي لا تُنسى في رواية القرن العشرين بصرف النظر عن تصويره باقتصاب. وتبدو الفقرة الأخيرة، وهي من أشد الفقرات كمالاً في الأدب برمته، وهي تركز أولاً ثم تحرر كل الموضوعات والصور التي حُشدت لتكون كُلّاً متكاملاً في الرواية. لقد أفلح الرجل العجوز المنهك في الاستسلام للنوم، غير أن زوجته البَرِمة التي لا تتمالك نفسها تهزه بعنف وتوقظه من نومه، لأنها تريد أن تعرف كيف سيعيشان الآن بعد أن قرر نهائياً ألاّ يبيع الديك بل يُعدُّه للعراك بدلاً من ذلك.

- ماذا سنأكل؟

> استغرق الأمر خمسة وسبعين عاماً من العقيد كي يصل إلى هذه اللحظة. خمسة وسبعين عاماً من حياته، دقيقة بدقيقة. وشعر بالصفاء والوضوح والقوة في اللحظة التي ردّ فيها قائلاً: تباً![23].

يخامر القارئ نفسه أيضاً الشعور بالارتياح، ويجد متعة جمالية غير قليله في الاختلاف الضمني بين النهاية المحبوكة حبكاً جيداً والإحساس بالحرية والارتياح: ارتقاء الضمير والمقاومة والتمرد. لقد استعيدت الكرامة، تلك الصفة المهمة جداً عند غارسيا ماركيز.

أصبحت رواية **ليس للعقيد من يكاتبه** واحدة من روائع الروايات القصيرة المعترف بها عالمياً على غرار رواية **الشيخ والبحر** لهمنغواي، فهي تقترب من



الكمال تماماً من حيث تكثيف الحدث والحبكة المرسومة بعناية وخاتمتها المعدة إعداداً ذكياً. يقول الكاتب نفسه إن رواية **ليس للعقيد من يكاتبه** تتصف بكونها "موجزة ومحكمة ومباشرة وهو ما تعلمته من الصحافة"[24].

غير أن نهاية الرواية ليست نهاية الحكاية. فهناك دائماً وسيلة أخرى لسرد الحكاية. فبعد عشرين عاماً سيكتب غارسيا ماركيز رواية قصيرة غريبة تثير الاضطراب بعنوان **أثر دمك على الثلج**، ربما يمكن أن يطلق عليها رواية **ليس للعقيد من يكاتبه: بعد التنقيح والتصحيح**. فإذا كانت الرواية الأولى تمثل رؤيته للقضية في ذلك الزمان، وهي قضية التحرير الذاتي الذي لا يرقى إليه شك، فإن الرواية الثانية تمثل بالوضوح نفسه نقداً ذاتياً وتبرئة متأخرة لساحة تاتشيا أتراه غير رأيه، أم أنه يحاول استرضاء عشيقته السابقة بعد كل تلك السنين؟ في الرواية الثانية يسافر زوجان كولومبيان شابان إلى مدريد لتمضية شهر العسل ثم يعرجان على باريس. وفيما هما يغادران العاصمة الإسبانية تتلقى المرأة الشابة نينا داكونتي باقة زهور حمراء وتوخز إصبعها الذي يظل ينزف على امتداد الطريق إلى باريس، وتشير في إحدى المرات قائلة: "تصور أثر دم على الثلج على امتداد الطريق من مدريد إلى باريس. ألا تشكل هذه أغنية حميمة؟". لا بد من أن مؤلف الرواية تذكر أن تاتشيا بعد أن فقدت كمية كبيرة من دمها سافرت في الاتجاه المعاكس من باريس إلى مدريد أواسط فصل الشتاء. أهذا تطهير؟ عندما يصل الزوجان الشابان، في الرواية، إلى مدينة باريس، تدخل نينا، التي تتكلم الفرنسية بطلاقة وهي حامل في شهرها الثاني، المستشفى - "المستشفى الفسيح والكئيب" في الشارع المتفرع من شارع دنفري، روشيرو - نفسه الذي عولجت فيه تاتشيا من النزيف الدموي عام 1956، حيث كان يمكن لها أن تموت، وحيث توفي جنينها الذي لم يكتمل بعد. أما زوج نينا غير المتعلم، بيلي سانشيث دي آبيلا الذي لم يفارق كولومبيا قبل هذه الرحلة إلى أوروبا والذي يرقص على الثلوج الباريسية مثلما رقص غارسيا ماركيز أول مرة عندما شاهدها، فإنه يثبت عجزه التام عن التعامل مع هذه الأزمة في مدينة باريس الباردة والمعادية. وهكذا تموت نينا في المستشفى من دون أن يراها مرة أخرى"[25].



ورحلت تاتشيا. وبحلول فترة الميلاد رجع غارسيا ماركيز إلى فندق الفلاندر ليقيم فيه إقامة دائمة وذلك في أواخر ما يسميه لاحقاً "ذلك الخريف المكفهر من عام 1956"[26] ولامه جميع أصدقائه بسبب مشكلات تاتشيا ورحيلها الدرامي. غير أن غارسيا ماركيز أشرف على المراحل الأخيرة من روايته وعثر على وسيلة يبرر بها ما حدث، لنفسه على الأقل (وعدَّ القصيدة أنها تمس شرفه، ولذلك لا ينبغي له أن يتحدث إلى الآخرين عن مشكلاته الشخصية) أن ما من شيء يقف في طريقه. وما بقاء الديك على قيد الحياة في نهاية الرواية إلاّ بقاء الرواية نفسها بالرغم من وجود امرأة متأكدة وتم يفرغ منها إلا بعد بضعة أسابيع على رحيل تاتشيا إلى مدريد، ويؤرخها بالتاريخ "كانون الثاني 1957". لم يولد طفل، لكن الرواية ولدت. وذكرت تاتشيا أنه محظوظ إذا ينهيها في ظل مثل تلك الظروف التي مرَّ بها خلال أشهر. لكن يصعب علينا أن نوافق على أن الحظ أدى دوراً مهماً.

لم تعد هناك الآن تاتشيا كي تشتري الطعام وتساوم على الأسعار وتطبخ وجبات رخيصة الثمن. كان غارسيا ماركيز يلجأ إلى الأشياء رخيصة الثمن لتأمين حاجاته شأنه شأن العقيد في الصفحة الأولى من الرواية. ويقول صديقه خوسيه فونت كاسترو إنه أمضى أسبوعاً في غرفته العليا المتجمدة متوارياً عن أنظار إدارة الفندق بلا طعام، وكان شرابه الوحيد هو الماء من صنبور المغسلة. ويتذكر أخوه غوستافو: "أتذكر أن غابيتو أسرَّ في أذني ونحن نتناول الشراب في بارانكيا قائلاً: الكل أصدقائي منذ رواية **مئة عام من العزلة**، لكن ما من أحد يدري كم كلفتني للوصول إلى هناك. لا أحد يدري أن الأمور وصلت بي حداً جعلني أتناول الطعام من القمامة في باريس. في يوم ما حضرت حفلة في بيت أحد الأصدقاء الذين ساعدوني قليلاً، وبعد انقضاء الحفلة طلبت مني سيّدة البيت أن أزيل القمامة وأن أضعها خارج البيت في الشارع. كنت أتضور من شدة الجوع، فأخذت ما تمكنت من أخذه من تلك القمامة وأكلته"[27].

من نواحٍ أخرى، كان غارسيا ماركيز متهتكاً أيضاً. وشعر بعض الأصدقاء بالاغتراب بسبب ما عدّوه إهماله لتاتشيا وعاملوه لذلك معاملة أقل كرماً وأقل إحساناً. حصل على مهنة معنٌ في *الأسكالي*، وهو ناد ليلي أمريكي لاتيني كان قد



أمضى فيه أمسياته مع بائتيا التي عثرت لها بدورها على عمل فيه قبل ذلك بمدة. لم يكن يغني أغاني الفالساتو من الأغاني المكسيكية التي يؤديها ثنائي غنائي وذلك برفقة الرسام والنحات الفنزويلي جيسوس رافائيل سوتو، وهو أحد رواد الفن الحركي. وكان يحصل على دولار عن كل ليلة (أي ما يعادل ثمانية دولارات تقريباً في سنة 2008) وكان يتسكع في أرجاء المنطقة. وحاول أن يستأنف الكتابة في رواية في ساعة نحس، لكنه اكتشف أنها لم تعد تستحوذ عليه بعد الأشهر التي أمضاها برفقة العقيد المحجور. وكان أصدقاء باراكيا في مطعم الكهف قد شكلوا ما أسموه الأصدقاء لمساعدة غابيتو، واشتروا ورقة من فئة المئة دولار والتقوا في مكتبة روسدون وفكّروا في أفضل طريقة يرسلون فيها النقود إلى صديقهم. وأشار عليهم جورجه روندون بالحجوء إلى تجربته في الحزب الشيوعي حيث تعلم إرسال رسائل سرية داخل البطاقات البريدية. فما كان من أصدقائه إلا أن فعلوا ما أشار إليه وأرسلوا رسالة أوضحوا فيها في الوقت نفسه الحيلة التي لجأوا إليها. ووصلت البطاقة البريدية قبل وصول الرسالة، فما كان من غارسيا ماركيز إلا أن يهتف "أنذال" لأنه كان يريد ما هو أكثر من التمنيات ورمي البطاقة في سلة القمامة. وبعد ظهر اليوم نفسه وصلت الرسالة التوضيحية وكان سعيد الحظ إذ تمكن من استعادة البطاقة البريدية بعد أن ظل يبحث عنها في نفايات الفندق[28]. لكن لم يجد طريقة يصرف بها النقود. ويستذكر المصور غييرمو أنغولو الذي كان موجوداً في روما يومئذ يبحث عن غارسيا ماركيز. "هناك شخص ما أخبره عن صديقة تدعى لا بوب وصلت تواً من روما بعد أن حصلت على مرتبها ولا بد من أنها تملك مبلغاً كبيراً من المال فذهب لزيارتها - وكان متدثراً بشكل جيد بعد أن حل فصل الشتاء - ففتحت له المرأة الباب، فاستقبله تيار من هواء دافئ ينبعث من غرفة دافئة. كانت المرأة عارية. لم تكن جميلة، لكنها كانت ذات قوام هائل، تتجرد من ثيابها دون أي سبب. ثم جلست - وعلى حدّ تعبير غابو، فإن أكثر ما أقلقه هو أنها ظلت على حالها كأنها مرتدية ثيابها كاملة - ووضعت ساقاً فوق ساق وبدأت تتحدث عن كولومبيا والكولومبيين الذين تعرفهم. بدأ غارسيا ماركيز يحكي لها عن مشكلته فأومأت إليه برأسها وسارت إلى الجهة الأخرى من الغرفة حيث توجد علبة نقود

صغيرة، وأدرك أنها كانت تريد معاشرته، لكنه كان يريد أن يأكل لهذا انصرف لتناول الطعام وأكل بشراهة حتى عانى من عسر الهضم أسبوعاً كاملاً[29].

مما لا ريب فيه أن هذه الحكاية القديمة اكتسبت الشيء الكثير من خلال سردها مراراً. فقد أحدثت هذه المرأة نصها في من بعد نسخة من روايته ليس لعقيد من يكاتبه إلى روما وسلمتها إلى أخوتو لتقرأها. وبالرغم من حصافة أخولو يكن يبدو أنها أقامت وغارسيا ماركيز علاقة غرامية قصيرة الأمد بعد رجوع ماتشيا إلى مدريد، شيء حسن للأنا المعطوبة بلا ريب.

بيد أن الحقيقة تظل قائمة وهي أن غارسيا ماركيز عاش في باريس ثمانية عشر شهراً على ثمن التذكرة الذي استعاده وعلى صدقات متقطعة من أصدقائه وبعض المدخرات الشحيحة التي كانت بحوزته. ولم تكن لديه أي وسيلة للرجوع إلى كولومبيا. ومع هذا فقد تعلم التكلم بالفرنسية، وعرف باريس معرفة حسنة وأصبح لديه مختلف الأصدقاء والمعارف بمن فيهم فرنسي أو فرنسيان، ومن بضعة أقطار في أمريكا اللاتينية وعدد من العرب. الحق غالباً ما كان يسود الاعتقاد أن غارسيا ماركيز عربي - فالحقبة لم تكن حقبة أزمة قناة السويس وحسب، بل كانت حقبة حرب الجزائر أيضاً، وفي أكثر من مناسبة اعتقلته الشرطة كجزء من حملاتها الأمنية الاعتيادية:

> **في ليلة ما، كنت أغادر دار العرض السينمائي، فأوقفتني دورية من رجال الشرطة في الشارع وبصق أفرادها في وجهي وأوسعوني ضرباً وهم يلقون بي في عربة مصفحة. كانت العربة مملوءة بجزائريين لاذوا بالصمت ألقي القبض عليهم وأوسعوا ضرباً وبُصق في وجوههم في المقاهي المحلية. وظن هؤلاء الجزائريون، مثلما ظن رجال الشرطة الذين قبضوا عليّ، أنني جزائري. وهكذا أمضينا الليلة معاً بعد أن حشرتنا الشرطة مثل سمك السردين في زنزانة في أقرب مركز للشرطة، في حين تجاذب رجال الشرطة الحديث عن أولادهم وأكلوا الخبز المغمس بالشراب الفرنسي وكي نغيظهم بقيت أنا والجزائريون يقظين طوال الليل نشدو بأغنيات براسانس ضد انتهاكات قوى الأمن والنظام وغبائها[30].**

وفي أثناء تلك الليلة اتخذ غارسيا ماركيز صديقاً جديداً له داخل السجن وهو أحمد طبال، وكان هذا طبعاً شرح لغارسيا ماركيز وجهة النظر الجزائرية عن

الصراع، وجعله أيضاً يشترك في بعض النشاطات العسكرية بالإنابة عن القضية الجزائرية[31]. لكن أمور غارسيا ماركيز الاقتصادية سارت من سيئ إلى أسوأ. وفي ليلة مكفهرة شاهد رجلاً يعبر جسر سان ميشيل

> لم أقدّر تقديراً كاملاً الوضع الذي كنت فيه إلى أن حلّت ليلة وجدت نفسي فيها قرب حدائق اللوكسمبورغ من دون أن أكون قد أكلت ولو حبة كستناء واحدة طوال النهار ولا وجدت مكاناً أهجع فيه. وفيما أنا أعبر جسر سان ميشيل شعرت أنني لست وحيداً وسط ذلك الضباب لأنني كنت أستطيع أن أسمع بوضوح صوت وقع قدمي شخص ما يقترب مني من الاتجاه المعاكس. ورأيت ملامحه في الضباب على الرصيف نفسه، ويسير بالسرعة نفسها التي كنت أسير بها. وشاهدت أيضاً سترته الكاروهات بمربعاتها السوداء والحمراء. وفي اللحظة التي مرّ بها أحدنا بالآخر في منتصف الجسر، شاهدت شعره الأشعث، وشاربه التركي، وتلك الملامح الدالة على جوع يومي وليالٍ مؤرقة، وشاهدت عينيه وهما تفيضان دمعاً، فتجمد الدم في عروقي لأنّ الرجل بدا مثلي تماماً[32].

يتحدث غارسيا ماركيز عن تلك الأيام بعد مرور سنوات فيقول "أعرف جيداً معنى انتظار الرسائل ومعنى الجوع ومعنى الاستجداء: هكذا أنجبت رواية ليس للعقيد من يكاتبه في باريس. إنه أنا إلى حدّ ما، نسبه بيتي"[33].

في تلك الأيام تقريباً، حلّ هيرنان فيكو معظم مشكلات غارسيا ماركيز المالية إذ كان وضعه المالي مختلفاً تماماً، وكان هو الذي آوى تاتشيا في بيته إثر إجهاضها. فأقرضه المئة والعشرين ألف فرانك التي كان يحتاج إليها ليدفع لمدام لاكروا أجرة منامه في فندق الفلاندر. وفي ليلة ما، وكان عائداً من حفلة ثملاً، وإن لم يكن عاجزاً تماماً، أخبره فيكو أنهما بحاجة إلى المصارحة، وسأله عمّا للفندق في ذمته من دين، غير أن غارسيا ماركيز رفض الخوض في هذا الموضوع. وكان أحد الأسباب التي دفعت الناس غالباً إلى مدّ يد العون له في أيام شبابه أنهم كانوا يرون أنه لا يرثي حاله، ولا يطلب مساعدة مهما كانت ظروفه سيئة. وفي نهاية الأمر، وبعد مشهد مسرحي، لوّح فيكو بقلم حبر وحرر شيكاً على سقف سيارة مركونة في موقف السيارات وحشره في جيب سترة صديقه. كان المبلغ يوازي ثلاثمئة دولار، وهو مبلغ كبير في تلك الأيام، فشعر غارسيا ماركيز بشعور العرفان له والدَّين بعمره[34].



ولما أحد لفورد إلى مدام لاكروا، تلعثمت واحمر وجهها حرجاً - هذه هي باريس بالرغم من كل شيء، مأوى البوهيمية والفنانين المكافحين من أجل العيش - "لا، لا يا مسيو. هذا المبلغ كبير جداً. لماذا لا تدفع لي قسماً الآن وتدفع القسم الآخر في وقت لاحق".

لقد تمكن من اجتياز فصل الشتاء. وهو ليس والد لأي طفل، ولم يقع في فخ سيرسه(*). كانت ميرثيديس لا تزال تنتظره في كولومبيا. وفي يوم مشرق في مطلع العام 1957 لمح معشوق أرنست همنغواي يسير برفقه زوجته ماري ويلش على امتداد شارع سان ميشيل باتجاه حدائق اللوكسمبورغ. كان يرتدي بنطالاً قديماً من الجينز وقميص قاطع أخشاب وقبعة بيسبول. كان غارسيا ماركيز هيّاباً لا يستطيع الاقتراب منه، منفعلاً لا يقوى على فعل أي شيء. ولكنه هتف من الجانب الآخر من الطريق: "أيها الأستاذ!". فما كان من الأديب العظيم، الذي ألهمت روايته عن الشيخ والبحر والسمكة الكبيرة إلى حدٍّ كبير رواية الشاب المكتملة حديثاً عن الرجل العجوز والتقاعد الحكومي والديك المصارع، إلاّ أن رفع يده وهتف مجيباً بصوت صبياني إلى حدٍّ ما: "وداعاً يا صديقي!"(35).





-11-

ما وراء الستار الحديدي:
أوروبا الشرقية إبّان الحرب الباردة
1957

عند بلينيو ميندوثا وأخته سوليداد إلى باريس في مطلع أيار عام 1957 يجد صديقه أشد هزالاً وأكثر نحولاً ورثاثة من ذي قبل. "كانت سترته الصوفية منقوبة عند المرفقين، الماء يتسرب من نعل حذائه إلى قدميه في أثناء سيره في الشوارع، عظام وجنتيه في وجهه العربي بارزة على أوضح ما يكون"(1). غير أن ميندوثا سُرّ سروراً كبيراً للتقدم الذي أحرزه صديقه في تعلم اللغة الفرنسية ولمعرفته الممتازة بأرجاء المدينة ومشكلاتها. وفي الحادي عشر من أيار، كانا قد جلسا لتناول الشراب في مقهى "لقردان" عندما سمعا خبر الإطاحة بروخاس بينيا وخروجه من البلاد للعيش في المنفى وذلك بعد عشرة أيام فقط من إدانة الكنيسة الكاثوليكية الكولومبية له، واستولت على مقاليد الحكم طغمة عسكرية مؤلفة من خمسة عسكريين. ولم يشعر أي من الصديقين بالتفاؤل حيال ما قد تؤول إليه الأمور مستقبلاً.

كان لغارسيا ماركيز وميندوثا انتماءات وأوهام يسارية، وكانا يتطلعان إلى زيارة أوروبا الشرقية وخاصة في ضوء التقارير المتضاربة إبان السنة الأخيرة التي بدأت بإدانة خروتشوف لستالين وانتهت بضجة بسبب الغزو السوفياتي هنغاريا. قرر الصديقان البدء بزيارة لايبزغ حيث كان لويس فيّار بوردا يعيش في المنفى منذ سنة بمنحة طلابية. وبما أن ميندوثا كان مشغولاً في تلك الفترة، فقد اشترى سيارة من طراز رينو 4 لتمضية فصل الصيف، وفي الثامن من شهر حزيران قاد السيارة



بعـد أن صـحب سوليداد المتدفقه حيوية ونشاطاً وغارسيا ماركير المكتب على امـتداد الطـرقات الألمانـية السريعة بسرعة خمسة وستين ميلاً في الساعة مبتدئاً هايدلـبرغ وفـرانكفورت[2] ومـن فرانكفورت انطلقوا صوب ألمانيا الشرقية وكانت مقالة غارسيا ماركير الأولى عن هذه البلاد والتي انتظر مدة طويلة قبل أن يراها منشورة تبين أن الستار الحديدي هو في حقيقة الأمر عوارض خشبية باللونين الأحمر والأبيض. وقد صُدم الأصدقاء الثلاثة بالأوضاع على الحدود وبالرثّات الرثة وبالجهـل المطبق الذي كان عليه حرس الحدود الذين وجدوا صعوبة في كتابة اسم مـسقط رأس غارسـيا ماركير ثم قادت سوليداد السيارة ليلاً باتجاه مدينة فايمر، توقفـوا بعـدها لتناول طعام الفطور في أحد المطاعم الحكومية وتولاهم الفزع مما رأوا. يتذكر ميندوثا أن غارسيا ماركير تثاءب وتمطى عند خروجه من السيارة وقال له:

– أصغ إليّ أيها الأستاذ علينا أن نكتشف كل شيء عنها.

– عن أي شيء؟

– عن الاشتراكية.

تذكـر غارسـيا ماركير أن المجازفة بدخول ذلك المطعم المفتقر إلى الجاذبية كانت أشبه "بالاصطدام رأساً على عقب بواقع لم أكن مستعداً له"[3]. فقد جلس في المطعم زهاء مئة ألماني يأكلون طعام الفطور المكون من شرائح اللحم والبيض التي تليق بالملـوك والملكـات، بالرغم من أنهم كانوا مهزومين وناقمين وبدوا كأنهم شـحاذون مهانون. ووصل الكولومبيون الثلاثة في وقت متأخر من تلك الليلة إلى مدينه فايمار ومنها توجهوا في صباح اليوم التالي لزيارة معسكر الاعتقال القريب في قرية بوكنفالت. ويلاحظ غارسيا ماركير بعد مرور سنوات أنه لم يستطع أن يوفق بـين حقيقة معسكرات الموت وشخصية الشعب الألماني الذي وجده شعباً حسن الوفادة كالإسبان وكريماً كالسوفيات"[4].

واصل الأصدقاء الثلاثة سفرهم إلى لايبزغ التي ذكّرت غارسـيا ماركير بأحياء بوغوتا الحزينة التي لم تكن بأفضل الأحياء. كل شيء في مدينة لايبزغ رث يقبض الصدور. وقال: "كنا نحن الثلاثة بناطيل الجينـز الزرقاء والقمصان ذات الأكمام القـصيرة ويعلـونا الغـبار العالـق مـن الطريق السريع، العلامة الوحيدة على



الديمقراطية"[5]. لم يكن في تلك المرحلة متأكداً أتراه يوجه اللوم إلى الاشتراكية نفسها أم إلى الاحتلال الروسي.

يوضح غارسيا ماركيز في المقالة التي كتبها عن المدينة أنه نسي هو وفرانكو (بلينيو ميندوثا) أن لايبزغ تضم في جنباتها الجامعة التي درس فيها ماركس ولينين حيث التقيا طلاب أميركا الجنوبية وناقشا معهم الوضع مناقشة واقعية[6]. وكان هذا هو السبب الذي دفع الثلاثة لزيارة المدينة. إنها مدينة بيار بوردا الذي أشار إليه غارسيا ماركيز حمية في مقالته على أنه شيوعي من تشيلي يدعى سرجيو، يبلغ الثانية والثلاثين من عمره، منفيّ من بلاده منذ سنتين ويدرس الاقتصاد السياسي. كان بيار بوردا يعيش في المنفى - بعيداً عن كولومبيا - لارتباطه الوثيق بالشبيبة الشيوعية في بوغوتا، وتمكن من الحصول على منحة للدراسة في المدينة الألمانية الشرقية[7]. وزار غارسيا ماركيز في حجرة تاتشيا في شارع أسّاس لدى عودته إلى باريس لتجديد تأشيرة جواز سفره، وكانت "الاشتراكية المطبقة عملياً" موضوع نقاشهما الرئيس. أخبرني بيار بورد عام 1998 قائلاً: "كنت أنا وغابو نحمل الأفكار نفسها عن النظام الشيوعي، وكنا نريد شيئاً واحداً تقريباً: اشتراكية إنسانية وديمقراطية". ويمضي غارسيا ماركيز شطراً كبيراً من حياته محاطاً برملاء سفر وبشيوعيين - وفي أغلب الأحيان - بشيوعيين سابقين. ومن بين هؤلاء الآخرين شيوعيون ندموا على شيوعيتهم ولكنهم ظلوا يساريين، وهناك شيوعيون سابقون ساخطون على الشيوعية ارتدُّوا على أعقابهم إلى اليمين. ويستنتج غارسيا ماركيز على مضض أن الاشتراكية الديمقراطية معضلة على الشيوعيين، عملياً على الأقل[8].

صحب بيّار بوردا الأصدقاء إلى ملهى حكومي تبدو عليه كل مظاهر الماخور، وفيه عدادات على أبواب المراحيض وربائن لعب الشراب برؤوسهم وذكور وإناث يتطارحون الغرام. وكتب غارسيا ماركيز: "لم يكن المكان ماخوراً، لأن البغاء محظور يُعاقب عليه عقاباً شديداً في الأقطار الاشتراكية. المكان هو منشأة حكومية. لكنه من وجهة النظر الاجتماعية بدا أسوأ من ماخور"[9]. قرر غارسيا ماركيز وميندوثا أن يطاردا النساء في الشوارع. وأصرّ طلاب أميركا اللاتينية ومعهم الشيوعيون الملتزمون أن النظام المفروض على ألمانيا الشرقية ليس اشتراكياً. لقد قضى

هتلر على كل الشيوعيين الحقيقيين، وكان القادة المحليون تابعين بيروقراطيين يفرضون ما يسمى بالثورة "المعلبة القادمة من الاتحاد السوفياتي" من دون استشارة الشعب. وعلّق غارسيا ماركيز بالقول: "إني أعتقد أن الحساسية الإنسانية مفقودة أساساً، وأن القلق بشأن الجماهير يخص الفرد لا مرئياً، وإن هذا الشيء الذي سطبق على الألمان يطبق أيضاً على الجنود الروس. لقد اعترض سكان فايمار على حراسة الجنود ببنادقهم الآلية محطة سكة الحديد، لكن ما من أحد يعير أهمية للتحدي البائس". وطلب غارسيا ماركيز وميندوزا من صديقهما بيّار بوردا إخراجهما من تعاستهما بإيجاد تفسير ديالكتيكي للوضع في ألمانيا الشرقية. ولما كان بيّار بورد اشتراكياً ملتزماً طوال حياته، فقد بدأ يتكلم ثم، توقف أخيراً وقفة قصيرة وقال: "إنها كومة براز"

كان رد فعل غارسيا ماركيز على ألمانيا الشرقية عموماً رداً سلبياً تماماً. كانت عواطفه متصدرية إبان الفترة التي أمضاها في برلين الغربية حيث كان الأميركيون يهدمون ويعيدون البناء بحماسة أكبر من المعتاد كي يجعلوا السوفيات يبدون في وضع سيئ:

> **تركني صليل الأولى بالعملية الرأسمالية العملاقة داخل نطاق المنظومة الاشتراكية في حالة خواء. فمن وراء تلك العملية الجراحية بدأ شيء ما بالظهور وكان يناقض ما هو موجود في أوروبا... مدينة متألقة ومعقمة تبدو جديدة أكثر مما ينبغي. . إن برلين الغربية وكالة دعاية رأسمالية هائلة[10]**

من المفارقة أن تلك الدعاية أثرت في غارسيا ماركيز تأثيراً شديداً مثلما أثرت في وصفه لبرلين الشرقية وهو الوصف الذي كان ينطوي على تحرر من الوهم: "في الليل، وفي حين كانت الإعلانات الضوئية تعمر برلين الغربية بالألوان، فإن النجم الأحمر وحده هو الذي كان يضيء فوق الحاسب الشرقي، مما يتلاءم مع الواقع الاقتصادي للبلاد. باستثناء شارع ستالين"[11] لقد شُقّ شارع ستالين وبذلت فيه جهود جبارة، لكنه كان مقرفاً. وتوقع غارسيا ماركيز أن تغدو برلين في غضون خمسين أو مئة عام - بعد أن يسود فيها أحد النظامين - مدينة واحدة مترامية الأطراف، ومعرضاً تجارياً مشوهاً يقام على العينات الحرة التي تقدمها النظامان[12].



وفي ضــوء التوتر السياسي والتنافس بين الشرق والغرب، استنتج بأن برلين فضاء إنساني مفرغ، يصعب سبر غوره، ويتعذر توقعه، لا شيء فيه يبدو على ما هو عليه، كل شيء معرض للاستغلال، وكل فرد مشارك في التضليل اليومي، وما من أحد يتحلى بضمير صافٍ.

بعد مرور بضعة أيام، غادر الأصدقاء برلين وعادوا إلى باريس بأسرع ما يستطيعون. ثم سافرت سوليداد مندوثا إلى إسبانيا وفكّر الرجلان في ما يفعلان بعد ذلك[13]. لعل انطباعاتهما كانت متسرعة أكثر مما ينبغي، لعل الأمور أفضل في أقطار أخرى. وبعد بضعة أسابيع اقترح أصدقاء يقيمون في لايبزيغ وبرلين ويخططون للسفر للمشاركة في مؤتمر الشبيبة العالمي السادس في موسكو أن يسافر غارسيا ماركيز وميندوثا معهم أيضاً. إلاّ أن غارسيا ماركيز كان قد حاول قبل ذلك الحصول على تأشيرة سفر من روما إلى موسكو لكن طلبه رفض أربع مرات لأنه لم تكن له كفالة رسمية. ولكنه وبضربة حظ أصبح الآن في باريس مرتبطاً مرة أخرى بطلبسمه مانويل ثاباتا أوليفيا. كان ثاباتا يرافق أخته ديليا الخبيرة في الفولكلور الشعبي الكولومبي والممارسة له، وكانت ترافق بدورها فرقة تتألف أساساً من الكولومبيين السود من بالينكي ومابالي إلى مهرجان موسكو[14]. كان غارسيا ماركيز مغنياً وعازف قيثارة وطبالاً لا يرقى إليه شك، فما كان منه ومن ميندوثا إلا أن سجلا اسميهما بالفرقة ثم سافرا إلى برلين بعد ذلك للانضمام إلى بقية أفراد الفرقة. وفي برلين يلتقي الاثنان بكولومبيين آخرين عازمين على السفر لحضور المهرجان، وكان من بينهم هيرنان فيكو ولويس بيّار بوردا.

ظل غارسيا ماركيز حتى اللحظة الأخيرة لا يدري إن كان يستطيع الذهاب. فأرسل رسالة مؤثرة إلى مدريد ليخبر تاتشيا، التي عاود الاتصال بها، أن سوليداد ميندوثا مسافر جواً بعد بضعة أيام وأنه سيسافر هو الآخر إما إلى موسكو "قبل حلول منتصف ليلة هذا اليوم" أو إلى لندن حيث سيكمل كتابة روايته في ساعة نحس قبل أن يقفل راجعاً إلى كولومبيا، وسيلتقي سوليداد في مقهى مابيون في وقت متأخر من ذلك اليوم (مما لا ريب فيه أن الإشارة إلى مابيون، حيث تحدثا للمرة الأولى، كانت تهدف إلى جرح مشاعر عشيقته السابقة، شأنها شأن معظم الرسالة



اللامباليه على ما يتضح). أما بخصوص كتابه ليس للعقيد من يكاتبه فأشار: "لقد تقـدت اهتمامـي به بعد أن أصبح البطل واقفاً على قدميه ويسير وحده، وأصبح بإمكانه التكلّم وأكل القادورات" كان في واقع الأمر قادراً على أن يفقد الاهتمام بالـرواية لأنها اكتملت. وقال إنه يُقابل شقيقة تاتشيا الصغرى بين حين إلى حين. مبدياً ما يوحي إلى وجود علاقة له مع الأخوات كوينتانا الثلاث أخيراً، وبعد أن قـال إنـه مغتبط لمغادرته "هذه المدينة الحزينة المستوحدة" أوصح بمرارة (أو تظاهـر): "إن كـل ما أتمناه هو أن تدركي أن الحياة شاقة وستكون شاقة دائماً، دائماً، دائماً. وربما تتوقفين يوماً ما عن اختراع نظريات الحب وتدركين أن عليك أن تغـوي الـرجل إذا مـا أغواك هو ليكون ذلك ردك على إغوائه بدلاً من أن تطلـبي منه كل يوم أن يحبك أكثر. للماركسية اسم يدل على هذا الشيء لكني لا أتذكره الآن"[15].

كانت الرحلة بالقطار من برلين إلى براغ كابوساً استغرق ثلاثين ساعة اضطر خلالهـا غارسـيا ماركيز ومندوثا وصديق مندوثا الكولومبـي بابلو سولانو إلى الـنوم وقـوفاً خارج مرحاض، واستند رأس كل واحد منهم إلى كتف الآخر. ثم أمـضوا أربعاً وعشرين ساعة في براغ ليعودوا إلى رشدهم، وتمكن غارسيا ماركيز مـن تحديث انطباعاته التي كانت قد تولدت لديه قبل سنتين. كانت الرحلة التالية أسـهل مـن سـابقتها وباتجاه براتيسلافا، ثم إلى تشوب الواقعة عند نقطة التقاء سـلوفاكيا وهـنغاريا وأوكـرانيا، ومنها إلى كييف وموسكو[16]. وذهل غارسيا ماركيـز من مساحة بلد تولستوي الشاسعة: في اليوم الثاني الذي أمضوه في الاتحاد الـسوفياتي لم يكونـوا قد دخلوا أوكرانيا بعد[17]. وعلى امتداد الطريق كله كان الأوكرانيون والروس الاعتياديون يرمون الزهور على القطار ويقدمون الهدايا حيثما توقـف، إذ نادراً ما شاهد هؤلاء الناس الأجانب على مدى نصف القرن الماضي. وتحـدث غارسـيا ماركيز إلى الإسبان، الذين أُجلوا أطفالاً إبان الحرب الأهلية، وحاولـوا العـودة إلى إسبانيا في ضوء الصعوبات الموجودة في اتحاد الجمهوريات الـسوفيانية الاشـتراكية، ولكنهم يعودون إلى موسكو الآن. فهذا واحد منهم "لم يفهـم كـيف يسمح أي شخص العيش في ظل نظام فرانكو، ولكنه يفهم من جهة



أخرى كيف يضيق الناس العيش في ظل نظام ستالين". ومع هذا، فقد شعر غارسيا ماركيز بخيبة أمل وهو يشير إلى أن إذاعة موسكو كانت المحطة الوحيدة المتوفرة في القطار. وبعد ثلاثة أيام تقريباً من السفر وصلوا موسكو صباح عمود العاشر من تموز بعد أسبوع واحد من سقوط مولوتوف إثر هزيمته أمام خروتشوف[18]. وكان انطباع غارسيا ماركيز الأول والأخير عن موسكو هو أنها "أكبر قرية في العالم". وقد وصلها الآن اثنان وتسعون ألف زائر وخمسون ألف أجنبي تقريباً لحضور المهرجان. وكان معظم القادمين من أميركا اللاتينية، بعضهم طبقت شهرتهم الآفاق مثل بابلو نيرودا، والبعض الآخر من الشبان الذين سيؤثرون تأثيراً كبيراً في بلادهم مثل كارلوس فونسيكا زعيم الساندينيستا النيكاراغويين أو حتى غابرييل غارسيا ماركيز نفسه. كانت الجهة المنظمة للمهرجان تعمل على مدار الساعة، وفكّر هو وآخرون غيره، قبله وبعده، في كيفية تمكّن النظام السوفياتي من تنظيم مثل هذا الحدث أو إطلاق سبوتنك بعد ثلاثة أشهر لتدور في مدار حول الأرض في الوقت الذي يفشل فيه فشلاً ذريعاً في منح أبناء شعبه مستوىً معقولاً من المعيشة أو ينتج ثياباً وبضائع استهلاكية أخرى جذابة إلى حدٍّ ما[19].

غير أن غارسيا ماركيز وميلونا ورفاقهما الجدد سرعان ما تركوا مهرجان الشبيبة وأمضوا أسبوعين في استكشاف موسكو وستالينغراد. ثمة صورة لمجموعة الأصدقاء في الساحة الحمراء يبدو فيها غارسيا ماركيز، كعهده غالباً، نحيلاً، جاثماً أمام الآخرين. بكل وضوح حتى في تلك الصورة غير الواضحة بالأسود والأبيض في خمسينات القرن العشرين، يفيض حيوية، لا رغبة لديه تقريباً في النهوض ومواصلة النشاط في اللحظة التي سمع فيها صوت آلة التصوير وهي تلتقط الصورة. واعترف في مقالته يومئذٍ أنه بعد مرور أسبوعين وبسبب عدم تمكنه من اللغة الروسية "لم يستطع التوصل إلى أي نتائج واضحة"[20]. كانت موسكو في أبهى حلة وأحسن سلوك، وقال غارسيا ماركيز معلقاً: "لم أرغب في مشاهدة الاتحاد السوفياتي وقد اكتسى حلة بهية من أجل استقبال زواره. لنقول مثل النساء، وعلى المرء أن يراهن عندما يستيقظن إذا ما أراد معرفتهن". وحاول استثارة مضيفيه ("هل كان ستالين مجرماً؟"). وعندما سأل إذا كانت موسكو تخلو من الكلاب لأن الناس التهموها

كلها، قيل له: "هذا افتراء الصحافة الرأسمالية"[21]. لعل أكثر الأحاديث المفعمة بالإشراقات هو ذلك الحديث الذي جرى بينه وبين امرأة عجوز كانت الوحيدة التي تجرأت على الحديث معه عن ستالين في موسكو بالرغم من أن ستالين دانه خروتشوف في شباط عام 1956. قالت له العجوز إنها ليست مناهضة للشيوعية مبدئياً، لكن نظام ستالين كان وحشياً وأن ستالين كان "الشخص الأكثر تعطشاً إلى الدماء وبشاعة وطموحاً على امتداد تاريخ روسيا". وأخبرت غارسيا ماركيز بأحداث عام 1957 التي استغرقت سنوات عدة لتظهر إلى الأضواء. فخلص ماركيز إلى القول: "ما من سبب يدفع للاعتقاد أن المرأة مجنونة سوى أنها بدت هكذا"[22]. بكلمات أدق، خامره شعور بأن ذلك صحيح لكنه لم يكن يملك دليلاً ولا رغبة في تصديقه.

بذل غارسيا ماركيز محاولات عدة لزيارة ضريحي ستالين ولينين. ووفق في الحصول على الإذن بالدخول في اليوم التاسع. وقال إن السوفيات منعوا كافكا لأنه "ميتافيزيقي خبيث"، وكان في وسعه أن يكون أفضل من يكتب سيرة ستالين. إن معظم الناس في اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية لم يقع نظرهم على زعيمهم قط. وقد ارتاب بعض الناس في حقيقة وجوده بالرغم من أن ما من ورقة على أي شجرة كانت تستطيع أن تتحرك إلا بإذنه. وهكذا، فإن مؤلفات كافكا وحدها هي التي أعدّت غارسيا ماركيز لبيروقراطية النظام السوفياتي التي لا تصدق، بما فيها الحصول على إذن لزيارة ضريح ستالين. عندما أفلح أخيراً في دخول مبنى الضريح تولاه العجب لعدم وجود أي رائحة، لكنه خاب ظنه بلينين الذي بدا "دمية من شمع"، واعترته الدهشة عندما وجد ستالين نفسه "غارقاً في نوم من دون إحساس بالذنب". لقد كان ستالين يشبه دعايته:

> له ملامح إنسان، ويبدو حياً، مبتسماً ابتسامة لا تبدو تقلّصاً في العضلات وحسب، بل انعكاساً لشعور ما. ثمة مسحة من ازدراء تلوح في تلك الملامح. وفي ما خلا لغده، فإن ذلك الازدراء لا يلائم الرجل. فهو لا يبدو بمظهر المغفل، بل هو رجل ذو ذكاء هادئ، صديق وفيّ، تشوبه مسحة من روح الدعابة... لم أتأثر بشيء قدر تأثري برقة يديه وأظافره الرقيقة الشفافة. إنهما يدا امرأة[23]



يقول مينير في وقت لاحق إنه يعتقد أن شرارة رواية **خريف البطريرك** قدحت في تلك اللحظة[24]. لقد كان هذا العرض الحاذق لجثة ستالين المحنطة نفسه، عفوياً، تفسيراً ضمنياً لقدرة ستالين على تضليل العالم في ما يخص أساليبه ودوافعه الحقيقية؛ من خلال صورة "العم جو"[25].

وخلافاً لمعظم الزوار الأجانب، شعر غارسيا ماركيز أن الأموال التي أهدرت على إنشاء قطارات الأنفاق في موسكو كان يمكن لها أن تصرف على وجه أفضل في تحسين ظروف معيشة الشعب. وخاب ظنه إذ رأى أن الحب المحرر لم يعد الآن سوى ذكرى تثير الارتياب في بلاد مفرطة في الاحتشام على نحو يثير العجب. وأشار مستهجناً إلى أن المخرج السينمائي الطليعي أيزنشتاين كان غير معروف تقريباً في بلده، لكنه استحسن المحاولة التي بذلها الفيلسوف المجري جورج لوكاش في تمحيص علم الجمال الماركسي وإعادة الاعتبار تدريجياً لدوستويفسكي والسماح بموسيقى الجاز (وليس موسيقى الروك آند رول)[26]. وتملكته الدهشة وهو يلاحظ عدم وجود أي علامة تشير إلى أي كراهية للولايات المتحدة – على العكس تماماً من أمريكا اللاتينية - واستوقفته على وجه الخصوص حقيقة مفادها أن اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية كان يواصل صناعة الأشياء المتوفرة أصلاً في الغرب. وحاول أن يفهم السبب في وصول الأمور إلى ما وصلت إليه، لكنه على ما يبدو تعاطف مع رد فعل الطالب الشاب الذي قال عندما وبّخه زائر شيوعي فرنسي: "ليست لديك سوى حياة واحدة". وفكّر في أن مدير المزارع المشاعة الذي زاره كان يشبه "سيداً إقطاعياً انقلب اشتراكياً"، وتخلف عن السفر بعد مغادرة الوفود الأخرى كي يحاول أن يفهم التعقيد الغريب في التجربة السوفياتية؛ "وهو تعقيد لا يمكن اختزاله إلى صيغ مبسطة من الدعاية الرأسمالية أو الشيوعية"[27]. وبسبب هذه الإقامة التي امتدت فترة أطول، فقد كان وحيداً عندما اجتاز الحدود وقال له مترجم سوفياتي بدا شبيهاً بالممثل تشارلز لوتن: "طالما أن كل الوفود قد سافرت. لكن إذا شئت، فسآتي بالأطفال لتحيتك بالزهور مرة أخرى"[28].

كان رأي غارسيا ماركيز بالاتحاد السوفياتي على وجه العموم متعاطفاً ومحابياً يذكرنا اليوم بعد مرور كل هذه السنين برأيه بكوبا والصعوبات التي مرت بها في



سبعينيات القرن العشرين. إلا أنه لم يبذل أي محاولة في إخفاء السلبيات التي استطاع أن يلاحظها. وفي طريق العودة، زار هو وبلينيو ميندوثا ومعهما بابو سولانو ستالينغراد (فولغاغراد الآن) وأبحروا على امتداد نهر الفولغا حتى وصلوا إلى مدخل قناة البحر العظيم فولغا - دون حيث ينتصب شامخاً تمثال هائل لستالين فوق واحدة من ايجارات البلاد العظيمة. ترك غارسيا ماركيز صديقه بلينيو ميندوثا في مدينة كييف وواصل سفره إلى هنغاريا. أما ميندوثا فقد قفل راجعاً عن طريق بولندا بعد أن تأخر أكثر من أسبوع في مدينة بريست ليتوفسك بسبب إصابة سولانو بمرض ذات الرئة. وكان قد خاب أمله في كل شيء شاهده حتى إنه قال بعد سنوات: "لقد فقدنا براءتنا". وشيئاً فشيئاً بدأ يدرك أن الأنظمة الشيوعية انصبّت عليها كلها لعنة القانون الوراثي القمعي نفسه (بالرغم من أنه حاول مرة أخرى أن يعتقد بكوبا في العام 1959). أما غارسيا ماركيز الذي لا يملك ماضياً برجوازياً يبكي عليه ولا اهتمامات بورجوازية يعديها، فقد ظل متشوقاً للاطلاع على تجارب أخرى. وهكذا تمكن من مرافقة مجموعة من ثمانية عشر أديباً ومراقباً أجنبياً، بينهم مراسلان صحفيان - هو شخصياً والكولومبي موريس مير - في زيارة إلى بودابست بعد تلقيهم دعوة لزيارتها.

حدث ذلك بعد مرور أقل من عام على غزو الاتحاد السوفياتي في تشرين الأول عام 1956. فقد حلّ يانوس كادار محل إيمري ناجي ليكون زعيم البلاد عندما قمعت القوات السوفياتية الانتفاضة الهنغارية في تشرين الثاني عام 1956. وفي هذا الوقت، أي صيف العام 1957، يكون قد مرّ على هنغاريا عشرة أعوام وهي معزولة، وبحسب غارسيا ماركيز، فإن الوفد الذي رافقه كان أول وفد من الأجانب يسمح له بدخول البلاد. كان أمد الزيارة أسبوعين، ورتبت السلطات برنامجاً لم تسمح لهم فيه بالتجوال في المدينة أو التحدث إلى المواطنين الهنغاريين: "لقد فعلوا كل ما في وسعهم من أجل الحيلولة دون أن نكوّن أي انطباع حقيقي عن الأوضاع"[29]. وفي اليوم الخامس هرب غارسيا ماركيز من مُرافقه بعد طعام الغداء وانطلق نحو المدينة بمفرده. لقد كان يرتاب في التقارير الغربية ذات الصلة بقمع انتفاضة عام 1956. لكن حالة المباني في المدينة والمعلومات التي قدمها إليه الهنغاريون

الذين التقاهم أقنعه أن عدد الضحايا من الهنغاريين - والذي قُدِّر بخمسة آلاف قتيل وعشرين ألف جريح - يمكن أن يكون أكثر مما قرأ عنه في الصحافة الغربية. وتحدث في الأمسيات التالية إلى مرطبين هنغاريين اعتياديين من ضمنهم بنات هوى وسيّدات بيوت وطلاب، فصدمه صدمة شديدة مدى اغترابهم وسخريتهم. ونجم عن سلوكه وسلوك صديقه ورفيقه موريس ماير أمر غير متوقّع: إذ قررت السلطات أن تحمل الأجانب على تحمل الحدّ بشكل أكبر، فأخذتهم إلى كادار نفسه الذي اصطحبهم في إحدى جولاته الخطابية إلى مدينة أوجست، على بعد ثمانين ميلاً من بودابست. وبحسب الخطة الاستراتيجية، فهي ليست المرة الأخيرة التي يخشى فيها غارسيا ماركيز بالوصول مباشرة إلى الزعيم. وقال إن كادار يبدو واحداً من العمال الاعتياديين حيث "يذهب إلى حديقة الحيوانات أيام الآحاد ليرمي الفول السوداني للقردة"، وإنه فرد متواضع وجد نفسه في السلطة. وليست له على ما يظهر أي شهوات بعيضة وإنّ عليه أن يختار بين مساندة أقصى اليمين الوطني أو يولي ظهره احتلال السوفيات للبلاد كي ينقذها من أجل الشيوعية التي يعتقد بها اعتقاداً عميقاً"[30].

اغتبط غارسيا ماركيز كما يتضح للمناقشات التي جعلته يشعر بشعور أفضل في ما يخص الصورة الكئيبة التي رآها في شوارع هنغاريا. وحلّل تناقضات النظام الشيوعي والأسلوب الذي حُرِم به العمال من ثمرات أعمالهم من أجل بناء الدولة الشيوعية، وعبّر تعبيراً قوياً بالقول إن أعمال السلب كان في الإمكان بحسها في العام الماضي: "إنها قضية شهوات مكبوتة، وكان في وسع حرب شيوعي متعافٍ أن يوجهها إلى وجهات أخرى"[31]. وخلص إلى القول بأن كادار يحتاج إلى من يساعده للخروج من المأزق الذي هو فيه، لكن الغرب لا يهتم إلا بجعل الأمور تزداد سوءاً. وكانت الأمور تزداد سوءاً حقاً، إذ اضطرت الحكومة إلى اعتماد نظام رقابي ذي آثار "بشعة"

> لا يعرف كادار ماذا يفعل. ومنذ اللحظة التي وجه فيها نداءه العاجل إلى الجنود السوفيات وألزم نفسه بهم على نحو يتعذر تغييره، اضطر إلى نبذ معتقداته كي يمضي قدماً إلى الأمام. غير أن الظروف كانت تدفع به إلى



> **الخلف، ووجد نفسه في خضم حملة مضادة لنجي الذي اتهمه بأنه باع نفسه للغرب كوسيلة وحيدة لتبرير انقلابه. طالما أنه لم يتمكن من رفع المرتبات ولا توفير سلع استهلاكية، والاقتصاد محطم، والمتعاونون معه بلا خبرة أو يفتقرون إلى الكفاءة، وطالما أن الشعب لن يغفر لهم دعوتهم الروس للتدخل، وطالما أنه لا يستطيع اجتراح المعجزات ولا يمكنه ترحيل الروس ولا التواري في مدخل جانبي، فإن عليه أن يزج بالناس في السجن ويحتفظ بالرغم من مبادئه بنظام إرهابي أسوأ من النظام السابق الذي حاربه بنفسه[32].**

بالرغم من الجهد الذي بذله غارسيا ماركيز في إيجاد الذرائع لكادار، إلا أنه كان في أعماقه مصدوماً ومحبطاً. وفي أوائل شهر أيلول وبعد عودته من بودابست إلى باريس اتصل هاتفياً بلينيو ميندوثا قبل رجوع الأخير إلى كاراكاس وعلى جهوده الكبيرة والمتواصلة بكتابة تقرير إيجابي عن أيامه في هنغاريا، فقد أوضح: "لا يمكن مقارنة أي مكان رأيناه حتى الآن بهنغاريا"[33]. ومع هذا نظل لرحلة لغزاً لبعض الوقت. وفي منتصف شهر كانون الأول أخبر أمه العائدة إلى كارتاخينا بأن "مجلة فنزويلية موّلت رحلة طويلة"، لكنه لم يفصح عن المكان الذي انتهت إليه الرحلة[34].

عاد غارسيا ماركيز إلى باريس بعد رحلته الطويلة بلا مال ولا مأوى يأوي إليه. "بعد إحدى وخمسين ساعة أمضيتها في القطار، لم يكن في جيبي سوى مسكوكة معدنية مخصصة لاستخدام الهاتف. ولما كنت غير راغب في فقدها، وكان الوقت مبكراً جداً، فقد انتظرت حلول الساعة التاسعة صباحاً لأتصل بأحد أصدقائي الذي قال لي: *ابق في مكانك* ثم جاء واصطحبني إلى غرفة صغيرة يؤجرها في بيته وأجّرني إياها. وهناك جلست مرة أخرى لأكتب في **ساعة نحس**[35].

بدايةً، وبالرغم من أن غارسيا ماركيز كان يقطن في غرفة صغيرة في باريس أواخر شهر أيلول وتشرين الأول من العام 1957، فإنه كتب انطباعاته عن الرحلة الأخيرة المتشابكة بتجاربه في بولندا وتشيكوسلوفاكيا في عام 1955. وكانت ثمرة ذلك مجموعة من المقالات تظهر لاحقاً على أنها **تسعون يوماً وراء الستار الحديدي** في عام 1959 بالرغم من أنه نشر ذكرياته عن اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية وهنغاريا على الفور في صحيفة موميتو (في كاراكاس) بوساطة بلينيو ميندوثا[36].

تشكل هذه المقالات شهادة مدهشة عن لحظة تاريخية معينة ونقداً حكيماً ذا بصيرة

لنقاط الضعف في النظام السوفياتي[37]. وأرسل المقالات إلى معلمه إدواردو ثالاميا بوردا (الملقب بيولسيس) للنشر في الأسبكتادور حيث كان يعمل مساعداً لرئيس التحرير فيها من يدري ما المشاعر التي انتابت رئيس التحرير اليساري القديم وهو يمسك بتلك المقالات ويضعها في درج مكتبه ويدخرها للمستقبل كي يكتشف أمرها غارسيا ماركيز بعد مرور سنتين ويتمكن من نشرها في المجلة الأسبوعية كروموس[38].

في غضون ذلك، كانت تاتشيا قد أمضت تسعة أشهر في إسبانيا: "بعد قصتي مع غابرييل أمضيت ثلاثة أعوام مشتتة تماماً: جريحة، ساخطة، كل علاقاتي انتهت نهاية مأساوية، وبلا رحمة". كانت قد سافرت مباشرة إلى مدريد في كانون الأول، قبيل حلول فترة الميلاد، وحصلت على وظيفة، إذ اشتغلت مع فرقة مسرحية تابعة لمارتيثا كاباييرو، من أثرياء هوروبلا، وأدت دوراً ويا للمصارفة، في مسرحية أنتيغونا. وهي المسرحية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً برواية غارسيا ماركيز الأولى **عاصفة الأوراق**: وكان دورها هو إيسمينا شقيقة أنتيغونا.

ثم عادت أدراجها إلى باريس: "اصطحبتني مديرتي مارتيثا كاباييرو بسيارتها من طراز ميرسيدس إلى هناك، وكانت تجربة رائعة، وفي يوم من الأيام شاهدته؛ فأسرع مما كنت أتوقع" وراء الواجهة الزجاجية لما يعرف اليوم باسم مقهى لوكسمبورغ في شارع سان ميشيل. فدخلت المقهى وتحدثنا وقررنا أن "بينهما ما بينهما غاية ملائمة". وذهبا إلى فندق رخيص على مقربة منهما وأمضيا الليلة معاً. "كانت الأمور صعبة، مؤلمة ولكنها أفضل. وكان ذلك اللقاء قبل مغادرته باريس بوقت غير طويل. وبعد ذلك الفراق عام 1957 م ألتق غارسيا ماركيز حتى عام 1968"[39].

شارف وقت وجود غارسيا ماركيز في باريس على الانتهاء تقريباً. وكان ديغول قد عاد إلى السلطة في حزيران لإنقاذ الجمهورية الرابعة من ضياع الجزائر. ولكنه بدلاً من ذلك أعلن عن بدء الجمهورية الخامسة وخلّص الفرنسيين من أنفسهم بالتخلي عن الجزائر.

في مطلع تشرين الثاني، وبعد مرور أسبوعين على إعلان فوز ألبير كامو بجائزة نوبل للأدب، انتقل غارسيا ماركيز إلى لندن[40]، حيث عزم على البقاء فيها أطول مدة ممكنة، كما بقي في باريس، معتمداً على المقالات التي كان يأمل



في نشرها في صحيفة الأمدسدت وفي المجلة الصربية موميتو التي بات الآن بليـــيو مبدوتْ رئيس تحريرها. غير أن مبدوتا لم ينشر سوى مقالتين اثنتين منه وهمـــا "زرت هنغاريا" و"كنت في روسيا" في أواخر شهر تشرين الثاني. لقد أراد غارسيا ماركيز دوماً دراسة اللغة الإنكليزية، وكانت رحلته إلى أوروبا الشرقية قد أكـــدت له بكل وضوح أهميتها المتزايدة لأنه ما من أحد هناك كان يتكلم اللغة الإسبـــانية. وكـــان قد أبدى اهتماماً بالشؤون البريطانية – بالملكية وبالسياسيين (إيدن وبيفن وماكميلان) منذ وصوله إلى أوروبا بالرغم من أن اهتمامه الفعلي لم يكـــن إلا بالانحطاط النموذجي لبريطانيا. وبالرغم من أن إسبانيا في ظل فرانكو كانـــت بعيدة عن الحدود الإيديولوجية (وربما خشي هو نفسه أيضاً من إمكانية القـــبض عليه هناك في ضوء العلاقات الوثيقة بين إسبانيا وكولومبيا واحتمال أن يكون على اللائحة السوداء لحكومة روخاس بينيا)، فقد أمضى أفضل أشهر السنة مـــع امرأة إسبانية، كما أن زيارة إلى دولة أوروبية استعمارية قديمة أخرى كانت جزءاً مقتضباً من خطته الكبرى. ومما يثير الدهشة هو النطاق الواسع الذي يتمكن مـــن مشاهدته في أوروبا الشرقية والغربية في ضوء الصعوبات التي اكتنفت ذلك الزمان وضيقه المادي. بيد أن محاولة السكن في لندن، بأقصى درجات التقشف من دون معـــرفة اللغة ومن دون صلات أمريكية لاتينية كالتي كانت متوفرة دائماً في باريس، تعد محاولة شجاعة.

مكث زهاء ستة أسابيع في غرفة فندق صغير في حي ساوث كينـــزينغتون، ولكنـــه لم يواصـــل كتابة روايته **في ساعة نحس**، بل واصل كتابة قصص أخرى متفـــرعة عن الرواية، فعشقها القراء عند ظهورها في مجموعة **جنازة الأم الكبيرة وقـــصص أخـــرى**. وكما هو شأن روايته القصيرة عن العقيد ومرتبه التقاعدي، وعلـــى العكس من روايته **في ساعة نحس**، فإن تلك القصص لم تكن تدور حول السلطات قاسية القلب التي تحكم البلدات الصغيرة التي تجري فيها الأحداث، بل حول فقراء يفعلون ما في وسعهم لمواجهة المصائب والويلات، مثلما كان يواجه هـــو نفسه سنته الكئيبة في باريس. إنها قصص ذات ملامح إنسانية وقيم إيجابية، علـــى غرار قصص ناباتيي. وبالرغم من أهدافه العظيمة، إلاّ أنه لم يمنح نفسه إلا

فرصة صغيرة لتعلم اللغة المحلية، وإن كان يذهب في أيام السبت والآحاد إلى حديقة هايد بارك يستمع إلى المتحدثين في ركن الخطباء. ويمكن أن تكون مقالته "يوم سبت في لندن" التي لخص فيها على نحو فولكلوري تجاربه في العاصمة البريطانية "أفضل مقالة صحافية كتبها في أوروبا"[41]. وقد كتبها وهو لا يزال في لندن ونشرتها صحيفة الناسيونال في كاراكاس وصحيفة مومينتو في كانون الثاني عام 1958. ويشير فيها:

> **عندما وصلت إلى مدينة لندن، ظننت أن الإنكليز يكلمون أنفسهم في الشوارع، لكنني عرفت في ما بعد أنهم يتفوهون بكلمة *آسف*. وفي أيام السبت، وفي حين يتوافد سكان المدينة كلهم إلى ساحة بيكاديلي، يصعب السير من دون أن يصطدم الواحد بالآخر ثم يتعالى صوت جوقة موحدة في الشارع وهي تقول: *آسف*. وبسبب الضباب، فإن الشيء الوحيد الذي عرفته عن الإنكليز هو نغمة أصواتهم. كنت أسمعهم يعتذرون في ظل منتصف النهار مسترشدين بآلاتهم مثل طائرات تسترشد الطريق وسط عتمة الضباب. أخيراً شاهدتهم في هذا السبت الأخير – وتحت نور الشمس - للمرة الأولى كانوا يأكلون الطعام وهم يسيرون**[42]

ولكن كانت لديه شكوى واحدة رئيسية، كما قال لاحقاً لماريو فارغاس يوسا الذي كان يعيش هو الآخر في لندن في تلك الآونة، ألا وهي غياب التبغ الأسود. فقد أنفق مالاً كثيراً لشراء سجائر الغلواز المستوردة. ثم يقول أيضاً إن لندن جذبته على نحو غريب: "أنت محظوظ إذا كنت في مدينة هي المفضلة لأسباب غامضة إن شئت الكتابة فيها، فضلاً عن أنها أفضل المدن في العالم كما أظن. لقد زرتها على أساس أنني سائح، لكن شيئاً ما اضطرني إلى أن أغلق باب الغرفة ورائي وأسبح في دخان التبغ. وفي غضون شهر واحد كتبت كل قصص جنازة الأم الكبيرة تقريباً. لقد هدرت الزيارة ولكنني ربحت كتاباً"[43].

في الثالث من كانون الأول أرسل غارسيا ماركيز رسالة إلى والدته في كارتاخينا عن طريق ميرثيديس في بارانكيا، ذكر فيها أنه كتب رسالة إلى العمة دليا في بوغوتا معزياً إياها بوفاة زوجها خوان دي ديوس شقيق أمه لويسا سانتياغا الوحيد. كانت خطط غارسيا ماركيز في تلك الآونة لا تزال مرنة بالرغم



من قوله إنه فكّر في العودة إلى البيت عما قريب: "مضى على وجودي في لندن أسبوعان وأنا أعد العدة للرجوع إلى كولومبيا. أعتقد أنني سأزور في الأسبوعين المقبلين باريس زيارة سريعة، ومنها إلى برشلونة ومدريد - ما دامت إسبانيا هي البلد الأوروبي الوحيد الذي لا أعرفه. وبعدها سأكون في كولومبيا بحلول فترة الميلاد أو رأس السنة على أكثر تقدير. لم أتعب بعد من التطواف حول العالم، لكن ميرثيديس ظلت تنتظر مدة زمن طويل بالرغم من أنها لا تزال تملك شيئاً من الصبر؛ إن لم أكن مخطئاً. لكن هذا ليس عدلاً، لأنني إن كنت تعلمت شيئاً واحداً في أوروبا، فهو أن النساء لسن كلهن بالثبات والرزانة اللذين تتصف بهما"[44]. وقال إنه لا يملك مالاً ولا عملاً بالرغم من أن صحيفة الاسبكتادور قطعت وعوداً. وطلب من والدته أن تهيّئ له نسختين من شهادة ميلاده قائلاً: "صدقي أو لا تصدقي: إنني لم أتزوج في أوروبا".

وبعد أقل من أسبوعين من ذلك، وفي السادس عشر من كانون الأول، تلقى برقية غير متوقعة من كاراكاس، عرض فيها رئيس بلينيو ميندوثا في الصحيفة أن يمنحه تذكرة سفر بالطائرة إلى العاصمة الفنزويلية للعمل معه في صحيفة موميتو ومع ميندوثا. كان العرض رائعاً لا يستطيع رفضه في ضوء افتقاره إلى الخيارات في لندن، تلك المدينة التي قال عنها لاحقاً: "يصعب على أي أجنبي أن يحيا فيها من دون أدنى مبلغ من المال"[45]. وبالرغم من ذلك، اتصل بميندوثا ليقول له إن صحفياً اتصل به من كاراكاس يشكو له سوء حظه، حظ المجنون، ويعرض عليه عملاً. فأكد له ميندوثا بأن كارلوس راميريث ماك غريغور كان حقاً مجنوناً لكن العمل حقيقي. فما كان من غارسيا ماركيز إلاّ أن سافر جواً من لندن قبيل الميلاد، إلى فنزويلا وليس إلى كولومبيا التي سبق له أن قطع وعداً بالسفر إليها.

قال لي غارسيا ماركيز بعد أربعين عاماً: "عندما فقدت العمل في أوروبا في مطلع عام 1956، تركت الأمور تسير على هداها كما في براغيا. لقد كان في وسعي أن أحصل على عمل ما بسهولة مع صحيفة أخرى، لكنني ظللت هائماً على وجهي على مدى عامين إلى أن توقفت وعدت إلى شؤوني. لكنني في معظم ذلك الوقت كنت أستجيب لعواطفي، ولعالمي الداخلي. كانت لديّ تجاربي،



وصنعت لي عاماً شخصياً بحصي. إن معظم مواطني أميركا اللاتينية يحصلون على الشفاعة عندما يكونون في أوروبا. أما أنا، فلم أحصل على أي شيء من ذلك القبيل»[(4)].



-12-

فنزويلا وكولومبيا:
ولادة الأم الكبيرة
1958-1959

سافر غارسيا ماركيز جواً إلى مطار مايكيتيا في فنزويلا في الثالث والعشرين من كانون الأول عام 1957 بعد أسبوع واحد من تسلمه البرقية من العاصمة كاراكاس. كان مفعماً بالحماسة والإلهام بعد سفره عن طريق لشبونة حيث كانت الثلوج تتساقط فيها، ثم حلّق بعيداً عن أوروبا وهبط في باراماريبو عاصمة سورينام حيث كان الجو خانقاً تفوح منه رائحة فاكهة الغوافة، ورائحة طفولته[1]. كان يرتدي بنطالاً من الجينز الأزرق وقميصاً من البوليستر التي ابتاعهما من متجر يبيع بالتنزيلات في شارع سان ميشيل، وكان يغسلهما كل ليلة. أما بقية حاجياته، فكان يضعها في حقيبة واحدة مموهة بمخطوطات رواية ليس للعقيد من يكاتبه والقصص القصيرة التي بدأ بكتابتها في لندن والرواية التي لا تزال بلا اسم وهي في ساعة نحس. يتذكر ميندوثا أنه أقلّ صديقه في حدود الساعة الخامسة عصراً وكانت أخته سوليداد برفقته، وطاف به في جولة قصيرة في مركز العاصمة كاراكاس ثم اصطحبه إلى ضاحية سان بيرناردينو الجميلة وأنزله في نُزل يملكه مهاجرون إيطاليون.

كانت زيارة غارسيا ماركيز إلى فنزويلا هي أول زيارة له إلى لبلد من بلدان أميركا اللاتينية عدا كولومبيا. كانت كاراكاس مجموعة من مدن صغيرة متقاربة، عدد سكانها زهاء المليون ونصف المليون نسمة. وفي أثناء قيادة ميندوثا سيارته البيضاء المكشوفة من الأعلى من طراز أم جي سبورت، سأله غارسيا ماركيز وسأل سوليداد أيضاً عن موقع المدينة. كانت كاراكاس في تلك الآونة شريطاً مدينياً



مترامي الأطراف، بغير انتظام، تحيط به المركبات، ويتألق باللون الأبيض على سفوح خضراء وقمة جبل أبيلا المنفسحة الزاهية. كانت أشبه بمدينة من مدن أميركا الشمالية في المنطقة المدارية. وكانت فنزويلا في قبضة دكتاتورية عسكرية لا ترحم ليست هي الأولى. الحق أن موطن بطل التحرير العظيم سيمون بوليفار كان يفتقر إلى موروث أو تجربة للديمقراطية البرلمانية. وكان الجنرال الدايل ماركوس بيريث خيمينيث الحاكم المطلق في البلاد على مدى ست سنوات طويلة، ولكنه أنتج ازدهاراً صناعياً استند إلى صناعة البترول التي أطلقت حملة واسعة من البناء وشق الطرقات لم تعهدها بعد أي دولة أخرى من دول أميركا اللاتينية[2].

كان مالك صحيفة مومينتو كارلوس راميريث ماك غريغور الذي يطلق عليه موظفوه صفة "المجنون" نحيلاً، أصلع الرأس، وعلى حدّ قوله، هو نفسه معرض لنوبات من الهستيريا. وكان يرتدي بذلات مدارية بيضاء اللون مجعدة، يمضي معظم حياته وعلى عينيه نظارة داكنة كانت شائعة يومئذٍ في عموم أميركا اللاتينية التي كانت تسيطر عليها دكتاتوريات عسكرية. وبلغ به انشغاله حدّاً أنه لم يردّ حتى على تحية غارسيا ماركيز لدى وصوله إلى العمل في يومه الأول. ربما لم يتمكن، شأنه شأن سلفه في صحيفة الاسكتادور غييرمو كانو، من التوفيق بين الهيكل العظمي الواقف أمامه مكسواً بملابس صارخة الألوان والصورة التي رسمها ميندوثا عن أديب وصحافي بارز عزّز من شهرته الواسعة أصلاً إبان سنتين ونصف السنة في أوروبا.

غير أن غارسيا ماركيز لم تثبط همته. وفي وقت لاحق سيصف لنا الوقت الذي أمضاه في كاراكاس بوصفه وقتاً شعر فيه بأنه "سعيد وغير مزود بوثائق" (وهو العنوان الذي سيختاره في ما بعد لمجموعة المقالات التي كتبها هناك) بالرغم من أنه لم يشعر بالارتياح على الفور. فبعد القيود الأوروبية الصبيانية، وجد الفنزويليين متغطرسين متكبرين إلى حدٍّ ما. ومع هذا، فقد ذكّره الجو العام في كاراكاس بأجواء البهجة والحبور والعفوية المدارية التي عاشها في بارانكيا مع فارق واحد لصالح هذه المدينة وهو أنها عاصمة هذا البلد الكاريبي العريب.

احتفل غارسيا ماركيز وميندوثا اللذان فرحا فرحاً شديداً لاجتماع شملهما مرة أخرى في الميلاد ورأس السنة في بيت ألميرا وهي شقيقة أخرى من شقيقات بليني.



وشعر غارسيا ماركيز الذي أمضى معظم أيام السنة الماضية وحيداً، وكانت إقامته القصيرة في لندن معزولة عن الآخرين أيضاً، بالغبطة والسرور عندما وجد أمامه جمهوراً مُصغياً، على مضض أحياناً، إلى أفكار لا تنتهي لقصصه وقد زادت زيادة ملحوظة منذ أن شاهد مجمع التصوير الهائل في روما والتقى كاتب النصوص السينمائية ثافاتيني. لم يكن ميندوثا قد عاش من قبل على مقربة من غارسيا ماركيز الذي أصبح له الآن مأوىً ووظيفة مستقرة وعما قريب ستتولاه الدهشة عندما يرى أن صديقاً عمل بمثل هذه القوة في مكتب الصحيفة، تمكن بالرغم من ذلك من أن يحيا حياة أخرى منفصلة تماماً: "لاحظت في كل مكان انهماكه السري في كتابة الرواية والطريقة التي كان يستغلها من أجل مواصلة تأليف كتبه. ووصل بي الأمر أنني شاركت في تلك الشيزوفرينيا التي استحكمت في روائيّ استطاع يوماً فيوماً أن يحيا في ظل شخصياته وكأنها مخلوقات تعيش حياتها الخاصة بها. وكان يسرد عليّ أحداث كل فصل قبل أن يبدأ بكتابته"[3].

حدث أهم لحظة لا تُنسى في مجمل إقامة غارسيا ماركيز في فنزويلا أواخر الأسبوع الأول تماماً. ففي الخامس عشر من كانون الأول، أي قبل أيام من سفره من لندن إلى كاراكاس، تمّت تبرئة خيمينيث في منصبه إثر استفتاء شعبيّ تم التلاعب به على نحو فضائحي. وفي عصر يوم الأول من كانون الثاني عام 1958، وبعد إعداد العدد الخاص بنهاية السنة والاشتراك في احتفالات رأس السنة المعربدة في الليلة السابقة، خطط غارسيا ماركيز وميندوثا وشقيقاته للسفر إلى الشاطئ. ولكن فيما كان كل واحد منهم يجمع المناشف وثياب السباحة، راود غارسيا ماركيز إحساس غامض بقرب حدوث مكروه، وهو أمر شائع بين أفراد أسرته وفي رواياته فصلاً عن حياته التي يتعذر توقعها دائماً. قال مخاطباً بلينيو: "تباً! لديّ شعور بأن شيئاً ما سيحدث". ثم أضاف على نحو حتمي بأن ينتبه كل واحد منهم إلى نفسه جيداً. وبعد بضع دقائق كانوا قرب النافذة يراقبون قاذفات قنابل تحلّق فوق مجموع مباني المدينة ويصغون إلى صوت البنادق الآلية وهي تطلق نيرانها. وفي تلك اللحظة جاءت سوليداد ميندوثا بعد تمكنها إلى المبنى وهتفت وهي لا تزال في الشارع: لقد حدث تمرد في قاعدة حربية في مدينة ماراكاي والقصف الجوي طال القصر الجمهوري في ميرافلوريس. فهرع الجميع إلى السطح لرؤية المشهد"[4].



فسمع التمرد، لكن كاراكاس غرقت في الفوضى وأعقب ذلك ثلاثة أسابيع مثيرة من القلق والتآمر والقمع. ومنذ العاشر من كانون الثاني، وبعد سنوات من الإرهاب والوعيد، بدأت حشود المتظاهرين تتحدى الشرطة في احتجاجات عمّت العاصمة. وفي عصر يوم ما كان الكولومبيان خارج المبنى عندما داهمت الشرطة السرية الوطنية مكتب صحيفة مومينتو واعتقلت جميع من فيه من الموظفين ونقلتهم إلى مقرها. كان مدير الصحيفة في نيويورك فيما كان غارسيا ماركيز وميندوثا يمضيان النهار كله وهما يطوفان في جميع أرجاء المدينة التي مزقتها الأزمة بسيارة أم حتى إلى وقت حلول حظر التجوال، وبهذا تفاديا الاعتقال وجمع مواد الصحيفة. في الثاني والعشرين من كانون الثاني، توقفت جميع الصحف الفنزويلية عن العمل تمهيداً لإضراب عام دعت إليه "مجموعة وطنية" من زعماء الحزب الديمقراطي من مدينة نيويورك. وصل التوتر في تلك الليلة ذروته، ومكث الصديقان في شقة ميندوثا مستمعان إلى الأخبار. وعند الساعة الثالثة صباحاً سمعا صوت محرك طائرة فوق أسطح المدينة وشاهدا أضواء طائرة بيريث خيمينيث وهي تقله بعيداً إلى منفاه في سانتو دومينغو. غصّت الشوارع بالناس وهم يحتفلون ابتهاجاً بالأخبار، وظلت السيارات تطلق أبواقها حتى الفجر"[5].

بعد رحيل بيريث خيمينيث بثلاثة أيام كان غارسيا ماركيز وميندوثا ينتظران في غرفة داخلية في قصر ميرافلوريس مع حشد من رجال الصحافة المتلهفين للإطلاع على ما قرره العسكر خلال الليل بشأن مكانة المجموعة الحاكمة التي أُعلن عنها أخيراً. وفجأة، فُتح الباب وتراجع أحد الجنود إلى الخلف، إذ اتضح أنه كان في الجانب الخاسر من القضية، وخرج من الغرفة وبندقيته الآلية على أهبة الاستعداد، تاركاً خلفه آثار خطوات طينية على الأرض ومضى إلى المنفى بعيداً عن القصر. يقول غارسيا ماركيز في وقت لاحق: "في تلك اللحظة، اللحظة التي خرج فيها الجندي من الغرفة التي كان النقاش فيها دائراً حول أسلوب تشكيل الحكومة الجديدة، خامرني أول شعور بالسلطة، ولغز السلطة"[6] وبعد بضعة أيام تحدث غارسيا ماركيز وميندوثا مطولاً مع كبير الخدم في القصر الجمهوري في ميرافلوريس، وكان رجلاً اشتغل لخمسين عاماً عند كل رؤساء فنزويلا منذ الأيام



الأولى لحكم الرجل القوي والبطريرك خوان بشتي غوميث الذي حكم البلاد منذ عام 1908 وحتى عام 1935، وكانت سمعته تقشعرّ لها الأبدان. وبالرغم من هذا، فقد تكلم كثير الخدم عنه بتقدير خاص وحنين لا يرقى إليه شك. كان غارسيا ماركيز حتى ذلك الوقت، يتخذ مواقف ديمقراطية إزاء الدكتاتوريين. لكن هذه المواجهة دفعته للتفكير: لماذا تنجذب قطاعات عريضة من السكان إلى هذه الشخصيات؟ وبعد أيام قال لميندوثا إنه بات منجذباً إلى فكرة تأليف رواية كبيرة عن دكتاتور، وهتف: "ألم تلاحظ عدم وجود دكتاتور بعد؟"(7). وفي نهاية الأمر يكون غوميث نموذجاً أساسياً، وربما النموذج الأساس لرواية **خريف البطريرك**.

بعد هذه المواجهات المحفزة للأفكار، يقرأ غارسيا ماركيز رواية **الخامس عشر من آذار** للروائي ثورنتون وايلدر، وهي استعادة لأيام يوليوس قيصر الأخيرة. ولما تذكّر رؤيته الخاصة لجثة ستالين المحنطة في موسكو، بدأ يجمع التفاصيل التي ستؤدي في نهاية المطاف إلى ظهور دكتاتوره الخاص إلى الحياة، كاشفاً عن الهوس بالسلطة والقوة، والعجز والعزلة، وهو الهوس الذي ظل يسكن خياله منذ طفولته. ويستذكر ميندوثا أن صديقه الذي لا يعرف الكلل أمضى شطراً كبيراً من الوقت في تلك الأيام يقرأ عن مجموعة الطغاة في أمريكا اللاتينية، فيستمتع بها خلال تناولهما طعام الغداء في مطعم محلي بتفاصيل ممتعة ورمزية عن حياتهم، فيطور صورة لأولاد بلا آباء، ورجال يعتمدون اعتماداً كبيراً على أمهاتهم، وشهوة لا تُشبع للاستحواذ على "ممتلكات الأرض"(8). (عُرف عن غوميث أنه كان يحكم فنزويلا كأنها زريبة حيوانات كبيرة) وبدأت معالم الرواية الجديدة تتضح إلا أنها استغرقت سنوات طويلة قبل أن يؤتي المشروع ثماره كاملة.

ومع هذا، فإن غارسيا ماركيز كان في المحيط الملائم له، على الأقل في الوقت الراهن. وكانت استجابته لحالة الحمة والنشاط وفرص البيئة الجديدة استجابة مواطن فنزويلي، فبدأ ينحو منحى خطاب بلاغي أكثر وضوحاً بشأن حقوق الإنسان والعدل والديمقراطية. وقد حكم عدد كبير من القراء على مقالاته لصحيفة موميتو على أنها من بين أفضل ما كتبه طوال حياته. وفي حين كانت وجهة نظر المتكلم أيام وجوده في أوروبا قد منحت المصداقية والعفوية لتقاريره، فإنه مضى قدماً الآن



نحو إحساس بتجرد شبه لاشخصي عزز من وضوح ما يطرحه وما ينطوي طرحه عليه من عاطفة[9].

بعد أسبوعين على سقوط بيريث خيمينيث، كتب غارسيا ماركيز مقالة تستند إلى بحث عميق بعنوان "مشاركة رجال الدين في الصراع"[10]، أوضح فيه دور الكنيسة الفنزويلية ككل وشجاعة بعض رجال الدين على وجه الخصوص، لا سيما رئيس الأساقفة في كاراكاس، في الإسهام في إسقاط الدكتاتور في وقت استسلم فيه عديد السياسيين الديمقراطيين. كان غارسيا ماركيز ينطلق من وعيه الشديد بتأثير الكنيسة المستمر في الحياة السياسية في أمريكا اللاتينية، وأشار كثيراً في مقالته إلى "عقيدتها الاجتماعية" لم يكن موقفه موقفاً ذرائعياً وحسب، بل كان أيضاً ذا بصيرة لأن يوحنا الثالث والعشرين سيصبح البابا الجديد في تشرين الأول من ذلك العام، في وقت بدت فيه تباشير الخير لما أصبح يعرف على الفور باللاهوت المتحرر في أمريكا اللاتينية. ويصبح صديقه منذ أيام الدراسة الجامعية في بوغوتا كاميلو توريس أشهر قسيس في جميع أرجاء قارة أمريكا اللاتينية لاشتراكه في حرب العصابات المستندة إلى أسس دينية جديدة.

وفي يوم من أيام شهر آذار كان غارسيا ماركيز جالساً يحتسي الشراب مع بلينيو ميندوثا وخوسيه فونت كاسترو وغيرهما من الأصدقاء في مقهى عربي في كاراكاس، نظر إلى ساعته وقال: "تباً! ستفوتني طائرتي". فسأله بلينيو عن وجهته فأجاب: "لأتزوج". ويتذكر فونت كاسترو ويقول: "لقد تملكتنا الدهشة كلنا لأننا لم نكن حتى نعلم أن لديه صديقة"[11]. كانت قد مضت اثنتا عشرة سنة تقريباً منذ أن طلب غارسيا ماركيز من مرثيديس أن تتزوجه وأكثر من ست عشرة سنة، كما يقول، منذ أن قرر أول مرة أن تكون هي زوجته. لقد بلغ الحادية والثلاثين، فيما بلغت هي الخامسة والعشرين، ولم يكن أحدهما يعرف الآخر إلا قليلاً، باستثناء معرفة بعضهما عن طريق الرسائل. من ناحية أخرى، كان بلينيو ميندوثا يعرف عن علاقة غارسيا ماركيز بتاتشيا كوينتانا – التي سألته في رسائلها إليه إن كان في وسعها أن تعثر على عمل في فنزويلا – كما أن شقيقته سوليداد التقت الممثلة الإسبانية وعقدت معها صداقة عميقة الأواصر. ووصل بها الأمر أنها سألت غارسيا

ماركيز بعد وصوله إلى كاراكاس بوقت قصير عن السبب الذي دفعه للتخلي عن مثل تلك المرأة. وتنتقل ميرثيديس في ما بعد إلى عالم زوجها الجديد الذي لا تعرف عنه شيئاً تقريباً، وأقل بكثير مما يعرفه معظم الناس الذين سيحيطون بها في ما بعد. وستمضي سنوات قبل أن تشعر بثقة تامة بموقعها كامرأة في حياة هذا الرجل الذي يبدو أنه شخص مبسط ولكنه كتوم وغامض إلى حدٍّ بعيد أيضاً.

لم تحظَ الأسرة في كولومبيا برؤية غابيتو منذ ثلاث سنوات تقريباً، وحتى قبل ذلك التاريخ لم يشاهدوه سوى مرة أو مرتين منذ أواخر العام 1951 عندما رجع إلى بارانكيا بعد أن نفي معهم لمدة قصيرة في كارتاخينا. لقد سارت أمور الأسرة نحو الأسوأ في كارتاخينا حتى وقت قريب، بل ظلت شاقة حتى في تلك الآونة. على كل حال، لقد بيع أخيراً منزل العقيد القديم في آراكاتاكا في الثاني من آب عام 1957[12]. وكان ثمن الإيجار قد انخفض انخفاضاً شديداً لأن البيت تداعى رويداً رويداً وقررت أسرة غارسيا ماركيز في نهاية المطاف أن تبيعه لقاء سبعة آلاف بيزوس لزوجين فلاحين فقيرين ربحا مؤخراً جائزة اليانصيب المحلي. وساعدت تلك النقود على إكمال البيت الجديد الذي كان يشيّده آنذاك غابرييل إليخيو في بيي دي لا بوبا في كارتاخينا.

كانت لويسا متحمسة بخصوص ضمان حصول غابيتو على أفضل تعليم ممكن - لعلها قطعت مثل هذا الوعد لوالدها قبيل وفاته - لكن رويداً رويداً أنهكتها الحياة، فهي أم لأحد عشر طفلاً، ويبدو أن انشغالها في بادئ الأمر بتعليم البنات الأكبر سناً حفزته رغبتها في إبقائهن بعيداً عن براثن "الفلاحين المحليين" في سوكري أكثر مما حفزته مساعدتهن لتحقيق مستقبل. ومن إحدى نتائج ذلك هو أن عايده، التي أتمت التعليم الابتدائي في مدرسة لراهبات السالسيانيات(*) في مدينة كارتاخينا بعد تخرجها في سانتا مارتا، قررت فجأة أن تتحول إلى راهبة ورحلت إلى مديين قبل عامين من عودة غابيتو عام 1958. وقد عارض كل من غابرييل إليخيو ولويسا سانتياغا قرار عايده آنذاك - تماماً مثلما استهجنا علاقتها برفائيل بيريث، ذلك الفتى الذي أراد أن يزوجها في سوكري - لكن بلا جدوى. على كل حال،

سرعان ما ستدفع الأسرة ثمناً فادحاً لقاء أسلوب غابرييل إليخيو المتساهل في التعليم إذ إن كوكي (ألفريدو) المراهق آنذاك، زاغ عن الطريق ووقع ضحية المخدرات التي كانت مشكلة عجلت في وفاته.

في غضون ذلك، كانت الابنة الصغرى ريتا قد تورطت في قصة حب كادت أن تصل إلى مستوى قصة حب روميو وجولييت. لم يكن إلا حبيباً واحداً وهو روجي ألفونسو توريس. لقد عدت إلى كارتاخينا قادمة من سينثي في تشرين الثاني عام 1953 والتقيته في كانون الأول في بيت أخته التي كانت جارتنا. وهناك بدأت المأساة لأن الجميع كانوا يكرهونه باستثناء غوستافو"[13]. كانت ريتا في الرابعة عشرة عندما التقت ألفونسو وعارضت الأسرة تلك العلاقة معارضة شديدة. ولم يشفع لألفونسو الوسيم جداً سحنته السوداء. وبالرغم من الصعاب الجمة ظل ألفونسو وريتا يلتقيان سراً على مدى أربعة أعوام. وفي يوم ما بلغ بها الانزعاج مبلغاً شديداً بسبب الحالة التي هما عليها مما دفعها لقصّ شعرها كله احتجاجاً على موقف والديها اللذين لم يكونا يسمحان للشاب حتى بدخول منزلهما. لم يكن الأبوان يريدان لأي من بناتهما الزواج (وكما هو شأن عايدة، فقد كان لمارغوت صديقها رافائيل في سوكري وهو رافائيل بيبو، وفي الأونة التي قررت فيها أن تتحدى أبويها، أصبحت فتاة أخرى حاملاً منه، فما كان من مارغوت إلا أن أدارت ظهرها للحب إلى الأبد). وهنا يأتي الأخ الأكبر غابيتو لإنقاذها بعد أن كانت قد قرأت بعض قصصه في المدرسة (وتتذكر منها على وجه الخصوص قصة **الناجي من الغرق**).

حصل غارسيا ماركيز على إجازة من المجلة أمدها أربعة أيام وسافر بالطائرة إلى بارانكيا حيث مكث في فندق الحمراء القديم في الشارع 72 ووصل خالي الوفاض لأن "الشاب غالية جداً في كاراكاس" على حدّ قوله[14]. تقول ميرثيديس بإصرار إنه "حضر فجأة" إلى بيتها، لكن يُعتقد أنه اتصل بها قبل مجيئه ولم يكن كلامه سوى جزء من ذلك الكلام الهازل المعتاد الذي دأبا عليه كلاهما إذا سألهما أحد ما عن توددهما وزواجهما. وقد أخبرني أنها تتذكر تماماً أنها كانت مستلقية على سريرها في بيتها الكائن فوق الصيدلية عندما هتفت بها إحدى أخواتها: "لقد وصل غابيتو"[15]. لكنها لا تزال ترفض القول إنها كانت متشوقة أو مندهشة لمجيئه.

في تلك الليلة وصل لويس إنريكي بالطائرة من ثناغا وذهب برفقة غابتو وفونيمايور وفارغاس إلى "الكهف" لتمضية ليلة ساهرة.

تزوج الاثنان عند الحادية عشرة من صباح اليوم الحادي والعشرين من شهر آذار عام 1958 في كنيسة بربيتو سوكورو الكائنة في شارع دي جوليو 20 بعد خطوبة دامت أقل من ثلاثة أعوام[16]. وقد حضر مراسم الزواج معظم رفاق "الكهف". ويتذكر ألفونسو فونيمايور غابيتو الذي بدا ذاهلاً من رزانة الموقف، وكان يبدو أكثر نحافة من أي وقت مضى ببذلته الرمادية داكنة اللون، وربطة عنقه المشدودة بعناية حول رقبته، وهو أمر نادر الحدوث. ووصلت العروس متأخرة جداً مرتدية ثوباً أزرق اللون طويلاً ومدهشاً وواضعة خماراً. وأقيمت حفلة الاستقبال في صيدلية والدها في نهاية الشارع[17].

سافر الزوجان إلى كارتاخينا بعد يومين من زواجهما لزيارة أقرباء مرثيديس الجدد. لا بد من أن لويسا تولتها الدهشة عندما شاهدت ابنها الأكبر وقد تزوج بعد أن أمضى وقتاً طويلاً بعيداً. وانتهز ألفونسو الفرصة لترتيب لقاء مع شقيق صديقته الأكبر في جو مثلجات ميرامار. وفي صباح اليوم التالي، وفيما كانت ريتا تغادر المدرسة، قالت لها لويسا: "لقد تكلم غابيتو مع ألفونسو يوم أمس وسيتكلم اليوم مع أبيك، وسيتقرر وضعك في هذا اليوم" وسمعت ريتا في ما بعد شقيقها وهو يقول لأبيه: "آن الأوان لك كي تبيع البضاعة". وأخيراً سُمح لألفونسو بدخول البيت. وقال في محاولة لإيضاح نيته الجادة إنه على استعداد للانتظار سنة أخرى إلى أن تكمل ريتا دراستها في المدرسة الثانوية. أما غابرييل إليخيو فقال في محاولة لإظهار عدم جديته إنه لا يحبذ فترة خطوبة طويلة وإن على الاثنين أن يتزوجا سريعاً. وتم كل شيء خلال ثلاثة أشهر. وبهذا لم تتخرج ريتا من مدرستها. وعوضاً عن ذلك أنجبت خمسة أطفال وعملت في وظيفة حكومية محلية لإعالة أسرتها على مدى سنوات زواجها الخمس والعشرين. أما ألفونسو توريس، فأصبح شيئاً فشيئاً رجل أسرة غارسيا ماركيز في كارتاخينا[18].

يتذكر ييو، وهو أصغر أولاد غارسيا ماركيز(*)، زيارة غابيتو الخاطفة بعد أربعين سنة: "لقد تزوج منذ وقت قصير وجاء إلى كارتاخينا برفقة مرثيدس



تمضيه شهر العسل أو ليودّعا، أو لكلا السببين. لا أدري. إلا أني أتذكرهما تماماً: كان يجلسان على الأريكة في ردهة ذلك البيت الكبير في بار لا بوبا حيث أمضيتُ سني مراهقتي، يتحدثان بلا انقطاع ويدخنان. كانا يدخنان بشراهة، في الردهة وفي المطبخ وإلى مائدة الطعام، وحتى في السرير حيث كان لكل واحد منهما منفضة وثلاث علب من السجائر. كان نحيفاً، وكانت هي الأخرى نحيفة. كان متوتراً ذا شارب رفيع كقلم الرصاص. أما هي فكانت تشبه صوفيا لورين شبهاً كبيراً"[19].

لم يطل بقاؤهما بين الأسرة والأصدقاء كثيراً إذ سرعان ما سافر الزوجان بالطائرة إلى كاراكاس عبر مدينة ماراكيبو. وكما أخبرتني إحدى صديقات طفولة مرثيديس، فإن الطفلة الصغيرة التي كانت تستند إلى أحد الجدران في فناء يغمره نور شمس ما بعد الظهيرة في بلدة سوكري وتقول: "آه! إني أريد أن أسافر حول العالم، وأن أحيا في مدن كبيرة، وأن أنتقل من فندق إلى آخر"، كانت في طريقها لتحقيق ذلك الحلم. لم يكن هناك أي سبب يدفع للاعتقاد أن مثل هذه الأحلام ستتحقق يوماً ما في حياة كتلك التي تحياها. وفيما هما جالسان يتحدثان في الطائرة، أخبر غابتو مرثيديس عن بعض أحلامه: إنه سينشر روايته بعنوان البيت، وإنه سيكتب رواية أخرى عن دكتاتور، وإنه ببلوغه سن الأربعين سيؤلف تحفته الأدبية. وتستذكر مرثيديس في ما بعد: "ولد غابو مفتوح العينين، يحصل دائماً على كل ما يريده. حتى زواجنا، فعندما كنت في سن الثالثة عشرة قال لوالده: إني أعرف من التي سأتزوجها. ولم تكن بيننا آنذاك سوى معرفة اعتيادية"[20]. والآن تزوجت بهذا الرجل الذي قلما عرفته.

إننا الآن أمام غارسيا ماركيز من طراز جديد، تغير بواقع الزواج والمسؤوليات الجديدة، وأخذ يخطط للمستقبل بوضوح. إن الزوج الجديد لم يحاول أن يثير إعجاب عروسه الجديدة وحسب – وهذا أمر طبيعي – بل أخذ يدشن مرحلة جديدة، مشروعاً جديداً. وسيكون حبيبه الأدب، الذي هو ملكه شخصياً، جزءاً من المعادلة الجديدة. وبدلاً من أن يحيا كيفما اتفق، أي يحيا حياة كفاف، لا بد له من أن يخطط لكل شيء، بما في ذلك الكتابة.

وفي كاراكاس، حضر إلى المطار أفراد أسرة ميندوثا جميعهم ومنهم رب الدفاع السابق دون بلينيو ميندوثا نيرا الكهل الذي بدأ يدرك رويداً رويداً أن



تطلعاته السياسية في كولومبيا تبخرت بمرور الزمن، فقد ربح المحافظون في كولومبيا المعركة التاريخية التي خسروها إلى الأبد في فنـــزويلا

عصمت بميرثيديس الأسرة الكبيرة، الجديدة، امنسطة وربما الواثقة من نفسها أكثـــر ممـــا ينبغـــي وبما لا شك فيه، أن الشقيقة الوسطى سوليداد كانت تقارن بساطتها، على نحو سببي ربما، بتاتشيا ذات المسحة الكوزموبوليتانية. بعد عقدين من الزمان، تكشف الشقيقة الصغيرة كونسيلو من دون قصد في مقالة لمجلة راقية من مجلات بوغوتا السبب الذي جعل ميرثيديس لا تشعر بالارتياح. وتتذكر كونسيلو بعد كل هذه السنين فتكتب: "إنها امرأة كلاسيكية الجمال من نساء الساحل: رشيقة لكنها خشنة العظام، سمراء البشرة، تميل قامتها إلى الطول أكثر مما تميل إلى القصر، ذات نظرة خاصة، يفتر ثغرها المكتنـــز عن ابتسامة حادة وساخرة في الوقت نفسه عـــندما ســـافرت ميرثـــيديس بارتشا إلى خارج البلاد للمرة الأولى ووصلت إلى كاراكـــاس، بدت آنذاك خجولة، اعتيادية، تنانيرها ضيقة. ولكنها أوسع مما كانت علـــيه الموضـــة، شـــعرها قصير، يتموج تموجاً دائمياً لكنه لم يكن يليق بها"[21].

باختـــصار، كانـــت ذات أصول أمريقية، غير عصرية وغير مميزة. ومما يبعث على الدهـــشة أن ميرثـــيديس أخبرتني لاحقاً أنها أمضت وقتاً أطول مما ينبغي مع أسرة ميـــندوثا في كاراكاس، وهو وقت "لا يلائم ذوقي، ولم أستمتع به صراحةً". لقد أرادت الابتعاد عن أسرة ميندوثا. لكنها اضطرت بدايةً إلى تناول الطعام معهم كل يـــوم تقـــريباً وكان غارسيا ماركيز قد هيَّأ شقة صغيرة في مبنى روراليما في سان بيرناردينو لا تحتوي على أثاث أو أي حاجات منـــزلية تقريباً[22]. وستكون القصة على مدى السنوات التالية هي قصة الزوجين اللذين تزوجا مؤخراً. وبحسب ماريو فارغـــس يوســـا الذي قهقه من الفكرة بعد أكثر من ثلاثين سنة وهو يسرد علي القـــصة، فـــإن بليبيو ميندوثا لم يغادر مـــنزل غارسيا - بارتشا حتى في أثناء شهر العسل[23]. ويؤكد ميندوثا هذا الأمر ضمناً في مذكراته الثلج واللهب. يمكن للمرء أن يتخيل أن ما يشير إليه ميندوثا يؤكد حصافته وفطنته، إلا أنه أخبر العالم كله عن أولى محاولات ميرثيديس الكارثية في طهو الطعام، وتعترف ميرثيديس نفسها أنها لا تـــستطيع إعداد بيضة وأن غابو اضطر إلى تعليمها كيف تعدها[24]. أما عن كون



ميرثيديس لم تنبس بكلمة بعد وصولها إلى كاراكاس، فإن ميندوثا يقول: "بعد ثلاثة أيام على لقائي بميرثيديس قلت لأخواتي: *لقد تزوج غابو بغلاً*"[25].

تقول ميرثيديس إنّ لا مشكلة لديها في التخاطب مع زوجها. وعندما سألته عام 1991 عن رأيها في السبب الذي حسم علاقتهما قالت: "إنها مسألة تأثير بشرة في بشرة. ألا تظن ذلك؟ ولولا ذلك لما حصل أي شيء"[26] لكن تلك كانت البداية لا أكثر، إذ سرعان ما ستصاحبه، لكن على نحو يختلف عن كل تلك السنوات المفعمة بالإحباط التي سبقت معرفته لها حقاً. فهي ستغدو امرأة لا يمكنه الاستغناء عنها وهو الذي رأى نفسه إنساناً يعتمد على نفسه اعتماداً كلياً، رجلاً لم يقدر أبداً على الاعتماد على أي شخص آخر منذ أن توفي جده عندما كان في سن العاشرة. فهي التي ستدخل الهدوء والمنهج إلى حياته. وفيما ازدادت ثقتها بنفسها - أو بالأحرى عندما وجدت أسلوباً تعبر فيه عن ثقتها الداخلية تعبيراً خارجياً - بدأت رويداً رويداً تعرض إحساسها الأسطوري بالنظام على فوضى غارسيا ماركيز التي شجع نفسه عليه كثيراً. فعمدت إلى ترتيب مقالاته ومقتطفات صحفه، ووثائقه ونصوصه، والنسخة المصدّقة على الآلة الكاتبة من روايتي البيت وليس للعقيد من يكاتبه.

لا بد من القول إن غارسيا ماركيز كان قبل زواجه منهمكاً الانهماك كله في نشاطاته الأدبية بالرغم من الفترة العصيبة التي كان يشهدها النشاط الأدبي والصحفي منذ وصوله إلى كاراكاس. وكتب قصته الرابعة عن ماكوندو قيلولة الثلاثاء بجلسة واحدة تقريباً بعد أن اقترح عليه ميندوثا المشاركة في مسابقة للقصة القصيرة تنظمها صحيفة الناسيونال ومولها ميغيل أوتيرو سيلفا. وبحسب بلينيو، فإن غارسيا ماركيز كتب قصته خلال أسبوع الفصح في العام 1958 (إن كان صديقه يخبره بالحقيقة، فقد تكون هناك نسخة أولية لم يشاهدها بلينيو)، وكانت مستوحاة من حادثة تذكرها من أيام طفولته عندما سمع صرخة "ها قد جاءت والدة ذلك اللص"، وشاهد امرأة فقيرة تمر أمام منزل العقيد في آراكاتاكا[27]. وتسرد القصة تجربة مثل هذه المرأة وابنتها حين وصلتا تواً إلى ماكوندو بعد رحلة بالقطار، واضطرتا إلى السير في الشوارع تحت أنظار أهل البلدة المعادية كي تزورا المقبرة

حيث دُفن فيها ابنها الذي لقي حتفه خلال محاولته السرقة. وبالرغم من أنها واحدة من القصص القليلة التي تدور أحداثها في آراكاتاكا – ماكوندو، فإن أسلوبها ينحو منحى جماليات الواقعية الجديدة التي ميّزت هذه الفترة من حياة غارسيا ماركيز. طالما أعلن غارسيا ماركيز أنه ينظر إلى هذه القصة على أنها أفضل قصصه "وأكثرها حميمية"؛ ربما لأن ذكرى طفولته امتزجت امتزاجاً سحرياً بذكرى رجوعه مع أمه حيث سارا تحت حرارة منتصف النهار في آراكاتاكا عام 1950[28]. لكن القصة لم تفز بالجائزة على جدارتها.

أما بخصوص الإلهام، فإن هذه القصة وغيرها من قصص ماكوندو – آراكاتاكا مستوحاة من ذكريات مؤلفها، وأكثرها ذكريات حنين جارف، من أيام طفولته "المذهلة"، على حين أن القصص التي تدور أحداثها في "البلدة" (وهي بلدة سوكري) تُظهر ذكريات مراهقته المعذبة. لكن إن كانت هذه القصص تدور وقائعها في ماكوندو أم في "البلدة"، فإنها لا تركز الاهتمام على السلطات قاسية القلب التي تحكم سكان المنطقتين – بالرغم من أن قساوسة ماكوندو ليسوا قساة القلوب كالقساوسة الذين نجدهم في "البلدة"، وينطبق الأمر عينه على السلطات الأخرى (حتى يبدو أن ماكوندو ليس فيها عمدة) – بل تركز على السكان الاعتياديين بمقطات مقربة وبألوان خلابة وهم يحاولون أن يعيشوا حياتهم بمشقة كبيرة بأكبر قدر من الشجاعة، والكرامة، والنزاهة، والشرف الذي تسمح به الظروف غير المواتية دائماً. وإن بدا هذا الكلام معرقاً في العاطفة ولا يمكن أن يكون "واقعياً"، حسناً، فإن عبقرية هذا الأديب هي التي تمكّنه من إقناع أكثر القراء تشككاً بوجهة نظره في الموضوع.

وكما هو مقدّر له، فإن غارسيا ماركيز تمكّن من تمضية نصف شهر أيار ومجمل شهر حزيران في كتابة قصصه. وكما جرى في عامي 1948 و1956، ستهب ريح غير مواتية حظاً سعيداً قدر ما يخص الأمر الأدب. فقد وصل إلى فنزويلا نائب رئيس الولايات المتحدة الجمهوري ريتشارد نيكسون في زيارة كارثية للمساعي الحميدة في الثالث عشر من أيار، أي بعد أقل من أربعة أشهر على سقوط بيريث خيمينيث الذي قلده زعيمه الرئيس آيزنهاور وساماً بوصفه صديق الولايات

المتحدة محصورت سيارة نيكسون على طريق المطار ورشقت بالحجارة وبُصق عليها وكان سهلاً جداً أن يفقد حياته فيها. وقد حظيت الحادثة بتغطية إخبارية على نطاق عالمي وُعدَّت علامة تاريخية على المستوى المتدني لدى وصلته العلاقات بين الولايات المتحدة وأميركا اللاتينية. إن مراجعة لضمير بخصوص هذه الإهانة ستكون ذات شأن كبير بتأسيس التحالف من أجل التقدم بعد ثلاث سنوات. وكما هو شأن مالكي بقية الصحف، فقد قرر رميريث ماك غريغور أن يكتب مقالة افتتاحية استثنائية يأسف فيها على استقبال نيكسون ويعتذر بالتالي عن الحادثة. ووجد ميندوثا نفسه في خضم جدل مرير بشأن الحادثة وصاح في وجه مالك الصحيفة: "كُل براراً!" واستقال على الفور وخرج من مبنى الصحيفة. وفي أثناء نزوله السلالم، التقى غارسيا ماركيز الذي وصل متأخراً إلى الصحيفة، وأوضح له ما حدث، فما كان من غارسيا ماركيز إلاّ أن استدار على عقبيه وهبط السلالم وإياه، وأصبح الاثنان بلا عمل"[29].

عاد الصحفيان العاطلان عن العمل إلى سان بيرناردينو وصطحبا ميرثيديس لتناول الطعام والشراب للاحتمال إلى حدٍّ ما بعد وقوع تلك الحادثة وذلك في مطعم باصنة بافاريا (إل ريكون دي بافييرا) القريب. ولما أخبراها عن سبب فصلهما فهقهت عالياً لتؤكد مزاحها اللاامبالي وروح دعابتها في آن واحد. وقد سمح الوقت الفائض لغارسيا ماركيز أن يمد شهر عسله وأن يراجع قصصه القصيرة. وبهذا، تمكن الزوجان من تمضية وقت أطول معاً"[30].

كانت ميرثيديس قد أحضرت معها إلى كاراكاس مجموعة الرسائل الكبيرة التي سبق أن أرسلها إليها غابو وكانت في سبعمئة وخمسين صفحة. وبعد بضعة أسابيع طلب منها أن تتلفها إذ "قد تقع في يد شخص ما" بحسب ما تتذكر. أما هو، فقد قال إنهما كلما اختلفا بشأن قضية ما تقول له: "لا يمكنك أن تقول هذا لأنك في رسائلك التي أرسلتها من باريس قلت إنك لن تفعل مثل هذا الشيء أبداً". وعندما بدا عليها التردد - لا بد من أن نقاشهما كان صعباً وحذراً في ضوء شخصيتيهما - عرض عليها أن يشتريها منها وتوصلا إلى مبلغ رمزي مقداره مئة بوليفار وبعدها أتلفتها جميعاً"[31]. هذه الحادثة مثيرة للاهتمام؛ إن كانت صحيحة

(وحتى لو لم تكن صحيحة، فهي مثيرة للاهتمام أيضاً). فأولاً وقبل كل شيء، توحي أنه كان يضمر خشيةً البقاء متزوجاً بها طوال حياتها هي. ولن تكون هناك حلقة "غابيتو" كي تتذكرها، لأنه لن تكون هناك مسافة بينهما يمكن أن تشكل لحظة حنين عند النظر إلى مراسلات قديمة. ثانياً، ربما كانت الرسائل تعني له، سراً، ذكرى عن زمان تركها فيه حقاً عند انشغاله بعلاقته تاتشيا والمغامرة العابرة مع "لا نوبا". مما لا ريب فيه أن ضميره تطلب منه أن يتلف الدليل (ربما لأنه لم يكن يستبعد إعادة الاتصال مرة أخرى بتاتشيا التي التقاها قبل عامين من زواجه مرثيديس). أخيراً، وبغض النظر عن عدم هذا الاحتمال لأول وهلة، إلا أنه قد يشير إلى أن الشاب الذي طالما تباهى في الطائرة بمشاريعه المستقبلية كان يتوقع أن يصبح مشهوراً، وكان لديه الحدس منذ البداية أن عليه أن يتلف كل الأدلة عن حياته، وأن يبدأ بتشكيل صورته الخاصة طلاب المستقبل ونقاده وكتاب سيرته لتكون جاهزة بين أيديهم. لكن مهما كانت الحقيقة، فإن الإشارة تتلاءم في كل الأحوال مع شعور غارسيا ماركيز الدفين بألاّ يتشبث بالماضي ولا يجمع التذكارات؛ حتى لو كانت تخص رواياته.

تمكن بليينو ميندوثا من العمل مرة أخرى في مجلة البلاد الإخبارية الأولى النخبة (إيليتي) وهي المجلة التي سيلتقي فيها غارسيا ماركيز بواحد من أهم الأشخاص الذين سيكونون مستقبلاً على صلة به وهو سيمون ألبيرتو كونسالبي الذي سيتبوأ في ما بعد منصب وزير خارجية الجمهورية. واستطاع ميندوثا أن يجد لغارسيا ماركيز وظيفة في المجلة نفسها من خلال معيل المجلة كابريلس وهو مالك المجموعة الصحفية التي تعد واحدة من أكثر المؤسسات الصحفية تأثيراً وقوة في أميركا اللاتينية. وهكذا، وفي السابع والعشرين من شهر حزيران، أصبح غارسيا ماركيز رئيس تحرير مجلات المجموعة وهي مجلة فنزويلا غرافيكا التي كانت تعرف في أوساط الناس باسم فنزويلا بورنوغرافيكا بسبب ما كانت تنشره من صور فتيات شبه عاريات[32]. وكان غارسيا ماركيز قد كتب مقالة مهمة عن إعدام رئيس جمهورية هنغاريا السابق ناجي ايمره في الثامن والعشرين من حزيران 1958، ولكنه لم يكتب إلا قليلاً لمجلته الجديدة.



وصلته أخبار طيبة من كولومبيا بخصوص نشر روايته **ليس للعقيد من يكاتبه** في بوغوتا في طبعة حزيران من مجلة ميتو الأدبية التي سبق لها أن نشرت قصة من قصص غارسيا ماركيز وهي مونولوج إيزابيل تراقب المطر في ماكوندو وذلك بعد أن غادر إلى أوروبا عام 1955. وكان قد أعطى خيرمان فارغاس نسخة من الرواية فأرسلها من دون علم غارسيا ماركيز إلى المجلة، على حدّ قوله لرئيس التحرير غايتان دوران[33]. لقد كان نشر رواية **ليس للعقيد من يكاتبه** في مجلة أدبية يعني أن رواية أخرى من رواياته تنشر سراً تقريباً وأن عدد الذين سيقرأونها لن يزيد عن المئة قارئ. لا بد من أن غارسيا ماركيز فكّر في أن نشرها على هذا النحو أفضل من عدم نشرها في تلك الأونة التي لم يكن في حسبانه أن تكون روايته واحدة من أكثر الكتب مبيعاً.

مرة أخرى يوشك حدث سياسي آخر أن يتدخل فيغير من وضع غارسيا ماركيز تغييراً جذرياً. فمنذ أن أخبره نيكولاس غيّان في باريس في مطلع عام 1956 أن المحامي الشاب كاسترو زعيم حركة السادس والعشرين من تموز هو أمل كوبا الوحيد، وهو يتابع مآثر الرحلة الطوبية بما فيها استعداداته في المكسيك، وبخاصة الرحلة البحرية الملحمية الكارثية إلى كوبا بالزورق البخاري "غراما" وحرب العصابات في جبال سييرا مايسترا الكوبية. وعلى الفور أضحى كاسترو موضع حدس آخر عند غارسيا ماركيز. فقد كانت فنزويلا تتحسس دربها بقلق نحو نظام ديمقراطي جديد من خلال عملية لن ينساها غارسيا ماركيز أبداً، لكن فنزويلا ليست بلاده، ولم يعد العمل يثير اهتمامه كثيراً مع مرور الوقت. على كل حال، وجد أن قدرته على المشاركة في الكتابة - كتابة التحقيقات والمقالات الافتتاحية - قد سُلبت منه مرة أخرى. لكن كوبا نفسها أصبحت هي بلد غارسيا ماركيز بعد أن اكتسب نضال كاسترو السياسي مضامين عالمية لا يرقى إليها الشك.

في كاراكاس، أجرى غارسيا ماركيز مقابلة مع إيما شقيقة كاسترو وظهرت المقابلة بعنوان "أخي فيدل" في مومينتو في الثامن عشر من نيسان عام 1958، وتابع الأحداث الجارية في كوبا بحماسة متزايدة طوال العام. وبالرغم من أن كاسترو لم

بكــــر قــد أعلن بعد عن أن حركته حركة اشتراكية، إلا أن غارسيا ماركيز وجد نفــسه للمــرة الأولى في مسيرته الصحافية الطويلة قادراً على الكشف عن حماسة منقطعة النظير لمثل هذا السياسي وتعاء تماؤلاً واضحاً بكفاحه الثوري. وذكر أن طعــام كاسترو المفضل الذي كان يطبخه طبخاً ممتاز بنفسه هو المعكرونة ثم قال: "لا يــزال فيدل يطبخ المعكرونة في جبال سييرا مايسترا". وتقول أخته: "إنه إنسان طــيب، إنــسان بــسيط، وهو يجيد الحديث، لكنه قبل كل شيء يجيد الإصغاء". وتضيف أن بإمكانه الاستماع إلى أي حديث على مدى ساعات بالاهتمام نفسه. ويبدو أن جوهر شخصيته يكمن في اهتمامه بمشكلات بني جلدته وفي إرادته الصلبة التي لا تلين"[34]. وبعد مرور خمسة وأربعين عاماً يردد غارسيا ماركيز الكلام نفسه تمامــاً باحثاً عن تناوله المعكرونة التي طبخها له كاسترو نفسه في مطبخ بيته. ومــا من شيء يثير العجب في هذا لأن كاسترو كان واحداً من الأمور القليلة جداً التي استطاع أن يثق بها غارسيا ماركيز. كما أن اكتشافه دور كسترو في أحداث العنف التي جرت في بوغوتا أضفى انعطافة أخرى في سيرة غارسيا ماركيز باهتمامه بمغامــرة الشاب الكوبــي المتحمية. وبعد المقابلة التي أجراها مع إيما كاسترو بدأ أعــضاء في حــركة السادس والعشرين من تموز في كاراكاس يزودونه بمعلومات فينشرها في المجلات التي يشتغل فيها.

في عشية رأس السنة الجديدة لعام 1958 كان غارسيا ماركيز وموثيديس في حفلة في نيويورك أقامتها أسرة كابريلس، وعندما رجعا إلى المبنى الذي كانا يقيمان فيه عند الثالثة بعد منتصف الليل وجدا المصعد لا يعمل. ولما كان الاثنان قد أسرفا في الــشراب، فقــد اضطرا إلى الجلوس كلما وصلا في أثناء صعودهما إلى فسحة الــسلام حــتى الطابــق السادس. ولما فتحا أخيراً باب شقتهما سمعا جلبة تكسر الصمــت في أرجاء المدينة، وهتافات الجماهير، وأبواق السيارات، وأجراس الكنيــسة وهي تقرع، وصفارات المصانع تنطلق. أثورة أخرى في فنــزويلا؟ لم يكن لديهما مــذياع في الــشقة، واضطرا إلى هبوط السلالم ليعرفا ما الذي حدث، فأخبرتهما الــبوّابة، وهي امرأة برتغالية، أن الثورة ليست في فنــزويلا وأن باتيستا أُطيح به في كوبا![35]. في وقت متأخر من ذلك اليوم، الأول من كانون الثاني 1959، قد فيدل

كاسترو جيشه ودخل هافانا ودشّن بذلك مرحلة جديدة في تاريخ أميركا اللاتينية. وللمرة الأولى منذ اكتشافها، يتأثر العالم كله بالأحداث السياسية في أميركا اللاتينية تأثراً مباشراً. وفكّر غارسيا ماركيز. ربما أشرف عصر العزلة والإخفاق في القارة على نهايته. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم احتفل هو وبلينيو ميندوثا بالخبر معاً بإحضار كمية كبيرة من الشراب إلى شرفة شقة أسرة ميندوثا في بيلو مونتي، فيما كانت المركبات تطوف شوارع كاراكاس مطلقة أبواقها والرايات الكوبية ترفرف خارج النوافذ. وأمضى الصديقان الأسبوعين التاليين وهما يتابعان آخر التفاصيل من خلال برقيات الصحافة في مكتبيهما الشخصيين.

في الثامن عشر من كانون الثاني عام 1959 كان غارسيا ماركيز يرتب مكتبه في مجلة فنزويلا غرافيكا قبل أن يغادر إلى منزله عندما دلف أحد الثوار الكوبيين وأخبره أن طائرة جاهزة في مطار مايكيتيا لتقل من يرغب من الصحفيين إلى جزيرة لمشاهدة المحاكمة العلنية التي ستجري لمجرمي الباتيستا والتي أطلق عليها "عملية الصدق". أتراه مهماً؟ لا بد من اتخاذ القرار على الفور لأن الطائرة ستقلع في وقت لاحق مساء ذلك اليوم ولا مجال حتى للذهاب إلى البيت. كانت مرثيديس قد رجعت إلى بارانكيا لتمضية إجازة قصيرة برفقة أسرتها. فما كان من غارسيا ماركيز إلاّ أن اتصل بلينيو ميندوثا وقال له: "ضع قميصين في حقيبة وأسرع إلى المطار: لقد دعانا فيدل للذهاب إلى كوبا!". وانطلق الاثنان في تلك الليلة، غارسيا ماركيز بثيابه التي كان يلبسها حينذاك وبلا جواز سفر بطائرة ذات محركين تم الاستيلاء عليها من جيش باتيستا "تفوح منها رائحة بول لا يطاق"[36]. وفيما هما يصعدان إلى الطائرة، والصحافة وآلات التصوير التلفازية تسجل الحدث كاملاً، فزع غارسيا ماركيز لما رأى أن الرجل الجالس أمام أجهزة السيطرة كان مذيعاً مشهوراً في محطة الإذاعة وهو كوبي يعيش في المنفى ولا أحد يعلم أنه طيار. ثم سمعه يتذمر لشركة الطيران بأن حمولة الطائرة أكبر من طاقتها حيث انتشر الركاب وتكومت الحقائب إلى علو كبير في ممر الطائرة. فسأل غارسيا ماركيز الطيار بصوت يرتعش إن كانوا سيصلون سالمين، فأجابه بأن يتوكل على الله. أقلعت الطائرة وسط عاصفة مدارية، وقد اضطرت إلى التوقف في مدينة كاماغوا الكوبية في منتصف الليل.



وصلوا هافانا في صباح اليوم التاسع عشر من كانون الثاني، أي بعد ثلاثة أيام على تبوّؤ فيدل كاسترو منصب رئيس الوزراء، وعلى الفور اندمج الصديقان في خضم الابتهاج بالثورة الجديدة وأحداثها الدرامية وفي كل مكان شاهدا الرايات الحمراء الخافقة، ورجال حرب العصابات الملتحين يحملون بنادقهم على أكتافهم ويختلطون بفلاحين حالمي النظرات يعتمرون قبعات من القش وفي همة ونشاط يعتنون بسيافهما. ومن أول الأشياء التي جذبت أنظار الصحفيين هو مرأى الطيارين التابعين للقوة الجوية لنظام باتيستا وقد تركوا لحاهم تنمو ليظهروا أنهم ثوريون. وبلمح البصر، وجد غارسيا ماركيز نفسه في القصر الوطني، وبحسب ما يتذكر، في خضم فوضى عارمة: ثوريون ومعدّون للتدريس وصحفيون أجانب وقد اختلطوا كلهم بعضاً ببعض. ويتذكر ميندوثا أنه في حين بدأوا يتوافدون على قاعة المركز الصحفي شاهد كاميلو ثيينفويغوس وتشي غيفارا يتحدثان وسمع ثيينفويغوس يقول بوضوح: "علينا أن نقضي على كل أولئك السفلة"[37]. وبعد دقائق معدودة، كان غارسيا ماركيز يجري لقاءً مع الجنرال الإسباني الأسطوري ألبرتو بايو، وعندما تناهى إلى سمعه صوت طائرة مروحية أقلّت كاسترو الذي جاء ليشرح "عملية الصدق" أمام حشد من مليون شخص تجمعوا على امتداد شارع اليعناب أمام المبنى[38]. قطع غارسيا ماركيز مقابلته عند دخول كاسترو القاعة الكبرى ولم يكن بينه وبين كاسترو سوى ثلاثة أفراد عندما شاهد الزعيم الجديد يتهيأ لإلقاء كلمته. وفيما بدأ كلمته شعر غارسيا ماركيز بمسدس في ظهره، إذ ظنه رجال الحرس الجمهوري متسللاً، لكنه لحسن الحظ تمكن من التعريف بنفسه.

ذهب الكولومبيان في اليوم التالي إلى المدينة الرياضية لمشاهدة محاكمة أنصار باتيستا المتهمين بجرائم حرب، وبقيا هناك طوال النهار والليل. كان هدف "عملية الصدق" يتمثل بالكشف أمام العالم عن أن الثورة تحاكم وتعدم مجرمي الحرب فقط وليس كل "أنصار باتيستا"، بخلاف ما كانت تزعمه بعض الأوساط الصحفية في الولايات المتحدة. حضر غارسيا ماركيز وميندوثا محاكمة العقيد خيسوس سوسا بلانكو، وهو أسوأ أفراد قوات باتيستا المسلحة سمعة وكان متهماً بقتل فلاحين عُزّل. كان الملعب يضم ما يشبه حلبة مصارعة مسلطة عليها الأضواء الساطعة



حيث وقف فيها المتهمون مقيَّدي الأيدي. ووجد الكولومبيّان نفسيهما وقفين في الصف الأمامي، فيما هدرت حشود الجماهير وهي تتناول وجبات طعام سريعة وتحتسي الشراب مطالبة بالدم على حين حاول سوسا بلانكو الدفاع عن نفسه بمزيج من الازدراء والسخرية والرعب. وعندما أدين سوسا أخيراً بالجرم، رأى ميندوثا نفسه وهو يقدم الميكروفون إلى الرجل المدان كي يتمكن من الرد على قرار الحكم، إلاّ أن سوسا رفض أن ينطق بأي شيء. ويقول غارسيا ماركيز في وقت لاحق إن هذا الحدث دفعه لتعميم فكرة رواية خريف البطريرك، التي تصورها حينذاك تدور حول محاكمة دكتاتور أطيح به مؤخراً، لتكون رواية تُسرد أحداثها من خلال مونولوجات ومن حول جثة. وامتنع غارسيا ماركيز وميندوثا عن مرافقة صحفيين آخرين للذهاب في ذلك المساء إلى زنزانة الرجل المحكوم ومساعدته. وفي صباح اليوم التالي، ذهبت زوجة سوسا بلانكو وابنتاه التوأمتان البالغتان اثني عشر عاماً إلى الفندق ليلتمس إلى الصحافيين الأجانب توقيع طلب الرأفة، فاستجابوا جميعاً. كانت الأم قد أعطت ابنتيها عقاقير كي تبقيا صاحيتين، "حتى تتذكرا هذه الليلة بقية حياتهما"[39]. ويبدو أن غارسيا ماركيز وقّع على الطلب إحساساً منه بالعطف على الأسرة ومعارضته طوال حياته حكم الإعدام أكثر من قلقه بشأن عدالة الإجراءات. كانت المحاكمة "سيركاً" حقيقياً، إذ احتج سوسا بلانكو. لكن ذهنه كان أن الحكم كان عادلاً بالرغم من مخالفته الأصول والقواعد[40].

عاد الصديقان جواً إلى كاراكاس بعد ثلاثة أيام، ولكن بلينيو ميندوثا قرر العودة إلى بوغوتا لأنه كان متذمراً مما وصفه حالة الرهاب من الأجانب المتزايدة في فنزويلا، وسافر في أواخر شهر شباط وبدأ العمل صحافياً حراً لمجلات مثل كروموس ولا كاليي، في أثناء انتظار الأخبار من كوبا. وأقنعت حالة النشاط الطوباوية ميندوثا الأكثر قدرة على التأثر والتهور من صديقه الأكبر سناً منه على أن يعمل لمصلحة الثورة الجديدة التي رآها كلا الرجلين على أنها ظاهرة ذات أبعاد واهية قاريَّة. وقد أوضح غارسيا ماركيز لمعارفه في كوبا أنه يمكن أن يكون مستعداً بدوره للعمل لمصلحة النظام الجديد إذا ما وجدوا له عملاً مناسباً.



تحدثت الصحافة في الولايات المتحدة برجوم عن "حمّام دم" في هافانا وإعدامات بالجملة لجميع أنصار باتيستا الذين يمكن اعتقالهم، في حين استمرت الحكومة الثورية الجديدة في إصرارها على أنها ببساطة تحاكم وتعدم مجرمي الحرب الذين ثبتت إدانتهم. كان غارسيا ماركيز وميندوثا مقتنعين بعدالة القضية الكوبية وعلم ردود فعل حكومة الولايات المتحدة وإعلامها. وأعلن الصحافي الأرجنتيني خورخه ريكاردو ماسيتي في مقابلة خلال الأحداث التي جرت في المدينة الرياضية أن تغطية الولايات المتحدة للأحداث في كوبا "توضح مرة أخرى ضرورة وجود وكالة صحافة أميركية لاتينية لتدافع عن مصالح الشعب الأميركي اللاتيني"[41]. كان هذا الاهتمام بتقديم الأخبار من وجهة نظر أميركية لاتينية قد بات هاجساً من هواجس غارسيا ماركيز. وفي آخر الأمر، دعت الحكومة الجديدة ماسيتي نفسه لإنشاء نموذج الوكالة الصحافية الذي أوصى به وذلك في العاصمة هافانا، وسيكون اسم الوكالة لاحقاً الصحافة اللاتينية (بريسنا لاتينا أو برنسلا اختصاراً). وحالما تمت الموافقة على إنشاء هذه الوسيلة الثورية الضرورية، بدأ ماسيتي يبحث عن مشاركين ومتطوعين في كل بلد من بلدان القارة، وفتح المكاتب في جميع عواصم أميركا اللاتينية الرئيسة.

* * *

في شهر نيسان، وبعد مرور مدة قصيرة على زيارة كاسترو إلى واشنطن ونيويورك التي استمرت أحد عشر يوماً وأهملت فيها حكومة الولايات المتحدة شأنه، وصل العاصمة بوغوتا مواطن مكسيكي يدعى أرماندو سواريث، وكان في حال سيئة نتيجة إسرافه في الشراب، حاملاً معه حقيبة مملوءة بأوراق نقدية وبعد أن تحدث إلى غييرمو أنغولو الذي رجع إلى بوغوتا الآن، اقترح أن يمنح بلينيو ميندوثا وغارسيا ماركيز المكتب الجديد لوكالة بريسنا لاتينا المزمع إقامته في المدينة. وعلى الفور وافق ميندوثا وقال إن صديقه غارسيا ماركيز الذي لا يزال موجوداً آنذاك في فنزويلا صحافي لامع ويؤيد الثورة تأييداً قوياً، وإنه في انتظار كلمة منه. فجاء الرد سريعاً: "أرسل في طلبه على الفور"[42]. كانت الثورة ماضية في طريقها وهي في طور التكوين. يقول غارسيا ماركيز بعد مرور سنوات: "جرى كل شيء

شـــعبياً، لا شبكات ولا إيصالات. هكذا كانت الثورة في تلك الأيام"[43] وبعد مـــرور بضعة أيام أبلغ مصرف كندا الملكي (رويال بانك أوف كندا) ميندوثا أن مبلغاً مقـــداره عـــشرة آلاف دولار قد وصل باسمه. فما كان منه إلا أن أسرع بالاتصال بغارسيا ماركيز وأخبره طالباً إليه اللحاق بالطائرة التالية.

تغلـــبت رغـــبة غارسيا ماركيز في العمل في كوبا على تردده في العودة إلى بوغوتا. فقد أعجبته فـــنزويلا أيما اعجاب في تقدمها السياسي على كثرة مشكلاتها وحيرتهـــا. غير أن كوبا تقدمت خطوة، بل عدة خطوات إلى الأمام. كان غارسيا ماركيز وميرثيديس قد وصلا إلى بوغوتا مطلع شهر أيار وهما لا يدريان ما يفعلانه، حسب قول ميندوثا، واحتفل غابو بالخبر في أثناء قيادة ميندوثا السيارة برفقتهما إلى المطار: "كوبا! عظيم!"[44]. فقد كانت تلك هي فرصته الأولى على مدى السنوات الاثـــنتي عشرة المنصرمة من عمله صحافياً ليؤدي تماماً العمل الذي يرغب فيه، بلا رقابـــة وبلا مساومات؛ أو هكذا خُيِّل له. كان مكتب برينسا لاتينا يقع في الدوار الـــسابع - سبتيما: لا بد من أن هذا وحده بدا أشبه بثورة!- بين الشارع السابع عشر والشارع الثامن عشر، قبالة مقهى تماما وعلى مقربة من النُزل الذي سكن فيه عـــند وصـــوله أول مـــرة إلى بوغـــوتا قبل خمس عشرة سنة وهو في طريقه إلى ثيباكيرا[45]. لم تعد بوغوتا حصن الكاتشاكو المنيع كما يرى غارسيا ماركيز فقد أصبحت الآن المدينة التي تعلم فيها فيدل كاسترو دروساً ثورية مهمة في نيسان عام 1948 والمكـــان الذي سيبدأ فيه غارسيا ماركيز وميندوثا بنشر الثورة. وبدأ العمل على الفور. هناك الشيء الكثير الذي ينبغي تعلمه وارتجاله. كان المكتب في الدوار الـــسابع قد تحوّل قبل وقت قصير إلى ملتقى اليسار الكولومبـــي. وكان موظفوه، ومـــن بينهم إدواردو شقيق ميرثيديس، في بداية أكثر المراحل المضطربة والعنيفة - وبالتالي المأساوية في تاريخ أميركا اللاتينية في القرن العشرين. في تلك الآونة كان التقدمـــيّون مـــن حول العالم يترقبون الأحداث في كوبا بأقصى درجات الاهتمام وأكثرها عمقاً. وبدأ الأميركيون اللاتينيون الشباب بتطبيق "الدروس الكوبية" على أقطارهم وتأسيس حركات تحرّر في جميع أرجاء القارة. أما ميندوثا وغارسيا ماركيز فقد بدأا بتنظيم مظاهرات التأييد لكوبا في الشوارع المحيطة بالمكتب.



بالرغم من هذا النشاط، وكما هو الأمر في أغلب الأحيان، كانت كولومبيا تبدو في نظر التقدميّين أقل مدعاة لتحير مما هي عليه في كوبا أو فنزويلا. وعندما بدأ روخاس بينّا يهار في آذار 1957 بعد أن دانت الكنيسة الكولومبية نظامه، كانت هناك حركة مدنية يقودها الزعيم الليبرالي ألبرتو يبرس كامارغو دعت إلى إضراب عام. فاستقال الدكتاتور في العشر من أيار لمصلحة مجموعة من خمسة أفراد بقيادة الجنرال غابرييل باريس غورديللو، وشعر هؤلاء بضغط شديد لقطع الوعود بالعودة إلى الديمقراطية. وفي العشرين من تموز، وفي منتجع سيتغيس على ساحل إسبانيا الشرقي المطل على البحر الأبيض المتوسط، وضع يبراس والزعيم المحافظ المنفي لوريانو غوميث ترتيبات أطلق عليها "الجبهة الوطنية" وتقضي بأن يتبادل الحزب المحافظ والحزب الديمقراطي الحكم بوصفهما كياناً حكومياً ذا رأسين على مدى المستقبل المنظور للحيلولة دون وقوع فوضى سياسية – وهي شفرة تشير إلى التحول إلى اليسار – وخطر العودة إلى الحكم العسكري. وأعلنت المجموعة الحاكمة عن إجراء استفتاء في شهر تشرين الأول ووافقت البلاد على الخطة في الأول من كانون الأول عام 1957. وبعد استفتاء بدائي وغريب تقرر بموجبه من هم أكثر المرشحين المحافظين والليبراليين شعبية، برز يبراس من دون معارض في انتخابات عام 1958 وبعد عودة غارسيا ماركيز ومرثيديس بارشا مباشرة إلى فنزويلا في أعقاب زواجهما في شهر آذار، أُعلن أن الزعيم الليبرالي هو رئيس فنزويلا "الديمقراطي" المقبل بدءاً من شهر آب 1958.

لقد لخص لنا غارسيا ماركيز تاريخ كولومبيا الحديث بكلمات لا لبس فيها في مقالة نُشرت في كاراكاس في اليوم الذي تزوج فيه:

> **بعد ثمانية أعوام وتسعة أشهر وأحد عشر يوماً مرت من دون انتخابات، عاد الشعب الكولومبي إلى صناديق الاقتراع ليعيد انتخاب برلمان سبق أن حُلّ في التاسع من تشرين الثاني عام 1949 بأمر من ماريانو أُسبينا بيريث رئيس الجمهورية المحافظ الذي كان مليونيراً حذراً وكتوماً واستهل بذلك وفي تمام الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والثلاثين من يوم السبت مرحلة من ثلاث دكتاتوريات متعاقبة كلفت البلاد مئتي ألف قتيل وأسوأ اضطراب اقتصادي واجتماعي في تاريخ البلاد. لقد شوّه هذا الاضطهاد المسلح الحقود الذي لا يعرف الصفح الذي شُنّ ضد الليبراليين واقعنا الانتخابي الوطني[46].**



ولكي يكمل غارسيا ماركيز نعيمه الذي حكم فيه بالإدانة على الانتخابات، سخر من أن يرى كامارغو الذي شعر أنه هو المسؤول أخيراً عن السماح للحزب الليبرالي بفقدان السلطة عام 1946 - برر بصفته مرشحاً لأنه كان محافظ أساساً جيد. كما كان متوقعاً، المرشحين الليبراليين من المجموعة نفسها من "الأوليغاركيين" الذين مثلوا الحزب قبل عشرين عاماً. وفي الثالث عشر من شباط عام 1959 أسس ألفونسو لوبيث ميتشيلسين حزباً جديداً هو الحركة الثورية الليبرالية التي تسببت في اضطرابات قليلة إبان ستينيات القرن العشرين، لكنها أثرت في ما بعد تأثيراً واضحاً في الصراع بين *الديناصورين* السياسيين.

وكما هو معتاد، وفضلاً عن الإحباطات التي اكتنفت السياسة الكولومبية على وجه العموم، فإن غارسيا ماركيز لم يخطط بأي حال من الأحوال لرجوعه إلى بوغوتا الموحشة. ولكن، ترافقه الآن زوجة تشاطره ردود فعله ومقاومته الساحلية للأساليب الغادرة التي دأب عليها أهالي بوغوتا. كانت مرثيديس حاملاً منذ بضعة أشهر، قصيرة الشعر وغالباً ما ترتدي البناطيل مما أثار حفيظة الجيران في بوغوتا لا سيما إن كانت المرأة حاملاً، تماماً مثلما أثارت حفيظتهم قمصان زوجها المبهرجة وتحوله بالنسبة إلى الكوبيين[47]. وكان بليبيو، الذي لا يزال أعزب، يتردد على الشقة في معظم الأيام ويصطحب مرثيديس إلى السينما عندما يكون غابو مشغولاً. وكان هو وصديقه قد اشتريا معطفين أزرقين داكني اللون متماثلين فيلوان، كما كان يشير الخبثاء من الأصدقاء. "أشبه بصبيين ألبستهما ثيابهما أم واحدة"[48].

شهد النصف الثاني من العام نشر المقالات التي كتبها غارسيا ماركيز عام 1957 حول زيارته دول الكتلة الشرقية. وظهرت تلك المقالات في صحيفة كروموس بعنوان عام موحد هو "تسعون يوماً وراء الستار الحديدي"، للفترة الممتدة من السابع والعشرين من تموز وحتى الثامن والعشرين من أيلول عام 1959. ومما له دلالة أنه لم يكرر المقالة الهنغارية لأن كادار أعدم ناجي بعد أن كتب غارسيا ماركيز عن كادار مقالات جيدة. وكتب مقالة مقتضبة في الموضوع؛ حتى وإن لم يذكر قراءه بمعرفته بكادار، ولوحظ أنه وجّه اللوم فيها إلى خروتشوف بدلاً من أن يوجهه إلى الهنغاري: "حتى عن الدين وثقة، انطلاقاً من المبدأ، بالدور الحاسم الذي

كـان يـؤديه خروتشوف في تاريخ الاشتراكية. لا بد لنا من أن ندرك أن رئيس الوزراء السوفياتي أصبح كأنه ستالين"[49] ومما يثير الانتباه أن الشيء الذي أكده غارسيا ماركيز أكثر من أي شيء آخر هو أن إعدام ناجي كان عملاً ينطوي على غباء سياسي، ولم تكن تلك بالمرة الأخيرة التي يتخذ فيها مثل هذا الموقف الذرائعي في وجـه السياسات التسلطية التي كان يتوقع منه أن يدينها من حيث المبدأ. ربما ينبغي ألا تتولانا الدهشة عندما نرى أن الرجل الذي كتبها والذي أصبح يثق في هذا الوقت ثقة واضحة بوجود أشخاص "محقين" وأشخاص "مخطئين" في مواقع معينة، والـذي يقدم مع سبق الإصرار السياسة على الإخلاص، من شأنه أن يساند حتماً زعـيماً يـتمتع باستبداد، مثل فيدل كاسترو، في السراء والضراء. ومن المفارقة أن المقـالات عن أوروبا الشرقية كانت مناسبة عام 1959 أكثر مما كانت عليه عندما كتبها في باريس قبيل رحيله إلى لندن بسنتين لأن أميركا اللاتينية كانت تتجه بقوة إلى اليـسار وكانت النقاشات حول الشيوعية والاشتراكية والرأسمالية والديمقراطية مستمرة إبان السنوات الخمس والعشرين التالية.

أنجـبت ميرثـيديس أول طفل لهما وهو رودريغو غارسيا ماركيز بارتشا في الرابع والعشرين من آب. لقد ولد الطفل سيئ الحظ مثل واحد أيٍّ من الكاتشاكو، لكـنه عُمِّـد تعميداً يليق بطفل مقدر له أن يقوم بمهامٍ عظيمة. ومما هو متوقع أن يكـون العرّاب بلينيو ميندوثا والعرابة سوزانا بناريس زوجة خرمان فارغاس الذي يقطـن حالياً في بوغوتا. لكن الذي عمَّده هو الأب كاميلو توريس ذلك القسيس المـضطرب الـذي سبق لغارسيا ماركيز أن عرفه زميلاً يدرس الحقوق في الجامعة الوطـنية عـام 1947. كان توريس قد ترك الجامعة أواخر العام 1947 والتحقت صديقته سيئة الحظ بدير الراهبات يُذكر أنه أصبح قسيساً في العام 1955 ثم درس علـم الاجتماع في جامعة لوفان الكاثوليكية وتزامنت دراسته في أوروبا مع وجود أصدقاء الجامعة القدامى الثلاثة غارسيا ماركيز وبلينيو ميندوثا ولويس بيلار بوردا. وعـند عـودته إلى كولومبيا امتهن تدريس علم الاجتماع في الجامعة الوطنية التي اجتمعوا فيها كلهم للمرة الأولى. وفي الوقت الذي التقوا فيه مرة أخرى عام 1959، كان الأب توريس نشيطاً وسط جماعات هامشية في بوغوتا ووجد نفسه وقد ازداد

اعتراباً عن هرم الكنيسة التقليدي[50]. ومما لا ريب فيه أن غارسيا ماركيز أراد من توريس أن يكون القسيس الرسمي عند التعمد لأسباب عاطفية، لكنه كان القسيس الوحيد الذي كان هو ومرثيديس يعرفانه. رفض توريس أول الأمر أن يكون نليبو ميندوثا عراباً، ولا يرجع سبب ذلك إلى أن ميندوثا لم يكن مؤمناً وحسب، بل كان يستخف بالمقدسات أيضاً[51].

كلما عاد الصديقان المحمومان من المكتب ودخلا البيت في وقت متأخر من الليل كعادتهما بعد ولادة رودريغو، فإنهما يحاولان إيقاظ الطفل ليلعب مع عرابه وعندما كانت مرثيديس تحتج، كدأبها دوماً، يقول لها غارسيا ماركيز: "لا بأس، لا بأس. لا تتأكدي على عرّابه"[52]. ظل كاميلو توريس يزور منزل غارسيا باربتشا من وقت إلى آخر. وبعد ستة أعوام، ينضم الأب توريس ببراءته الطيبة إلى أفراد جيش التحرير الوطني ويلقى مصرعه في أول معركة، ليكون أشهر قسيس ثوري في تاريخ أميركا اللاتينية في القرن العشرين.

اقترب العام 1959، عام الثورة الكوبية، من نهايته. لكن قبل نهاية العام بمدة طويلة كان غارسيا ماركيز قد فرغ من كتابة ما أصبح يعرف بلا أدنى ريب أهم قصة قصيرة يكتبها. إن قصة **جنازة الأم الكبيرة** ما كان ينبغي لها أن تُدرج ضمن المجموعة نفسها لأن القصص الأخرى بدأت في لندن واكتملت في فنزويلا، وهي استمرار لأعماله الواقعية الجديدة الموازية أسلوباً وإيديولوجية لرواية **ليس للعقيد من يكاتبه**. لكن فضلاً عن كون قصة **جنازة الأم الكبيرة** استمراراً لأسلوب أدبي ينتمي إلى تلك الحقبة الإيديولوجية، فإنها كانت جديدة بكل معنى الكلمة: إنها نص من النصوص الأساسية لمجمل مسيرة غارسيا ماركيز الأدبية والسياسية، وهي التي ستوحد أسلوبيه الأدبيين - "الواقعي" و"السحري" - للمرة الأولى على مدى نصف القرن التالي من الرماد، وبخاصة في رائعتيه **مئة عام من العزلة** و**خريف البطريرك**. لقد بلغ نطاق هذه القصة، لا سيما نهايتها، ودمجها لمختلف العناصر ضمن ميثولوجية غارسيا ماركيز وشعريته، حداً دفعه إلى أن يمضي سنوات في محاولة تفحص أهم خيوطها المتشابكة متمثلاً في خاطره نهايتي هاتين الروايتين العظيمتين اللتين كانتا تنتظرانه منذ سنوات.



سياسياً، كانت عودة غارسيا ماركيز إلى كولومبيا صدمة ثقافية عنيفة وإن كانت متوقعة. لقد كتب رواية ليس للعقيد من يكاتبه في أوروبا حيث كانت لا تزال لديه، بالرغم من كل شيء، بعض المشاعر الوجدانية تجاه البيت وتجاه بعض الناس هناك. وبدأت القصص الأخرى في المجموعة التالية في أوروبا أيضاً واكتملت في سنوات إقامته الأولى في فنزويلا، وكانت تفيض محبة تجاه الكولومبيين الاعتياديين تشبه محبته التي لا مجال للشك فيها تجاه العقيد الذي لا يحمل أي اسم. على كل حال، كانت قصته **جنازة الأم الكبيرة** ثمرة رجوعه إلى كولومبيا نفسها بعد أكثر من ثلاث سنوات أمضاها خارج البلاد وبعد أوروبا وبعد فنزويلا وبعد كوبا. إن قراءة القصة تجعل المرء للوهلة الأولى يشعر بثقل كل تلك التجارب المختلفة التي تحملها واحدة تلو الأخرى على تصوره للبلاد. إنها تجعل المرء يشعر بكل إحباطات مؤلفها المتراكمة وإدراكه وغضبه من بلد أبقى أولاده باستمرار وبدا كأنه لن يتغير أبداً.

إذاً، الشيء الأول الذي لا ينبغي قوله عن قصة **جنازة الأم الكبيرة** هو أنها تخلو من الحدث تقريباً، إنها أغنية رائعة ورقصة عظيمة عن لا شيء، أو عن لا شيء تقريباً. إنها تحكي قصة – تماماً مثلما يروي غارسيا ماركيز نفسه القصة – حياة وموت (بل تحكي عن الموت أكثر مما تحكي عن الحياة) أم كولومبية عجوز معروفة بالاسم *الأم الكبيرة* يحضر جنازتها كل سياسيي ووجهاء كولومبيا، بل يحضرها أيضاً زوار بارزون من خارج البلاد مثل البابا. القصة تظهر، تلميحاً لا قولاً، أن الأم الكبيرة أمضت حياتها كلها في وسط اللاإمكان، وأن ثروتها تقوم على علاقة مخجلة من الاستغلال البشع مع جماهير الفلاحين الكادحين، وأنها هي نفسها قبيحة ومبتذلة وسخيفة. غير أن ما من أحد في بلدها، الذي لا يُذكر له اسم ولكنه واضح من السياق، يبدو متنبهاً إلى هذه الحقائق الدامغة. بكلمات أخرى، إن غارسيا ماركيز ينتج رمزاً يبيّن المكانة الأخلاقية الحقيقية "للأوليغاركية" شبه الإقطاعية التي لا تزال قائمة والتي حددها أول مرة غايتان ونعتها الطبقة الحاكمة التي يهيمن عليها الكاشاكو والتي تدّعي أن عالم كولومبيا هو أفضل العوالم الممكنة، وأن الذين يسعون إلى الخذلان هم أولاد الحرام المساكين الذين يقمعهم أولئك الذين هم أعلى

شأناً مهماً. إن ما نجده بين أيدينا، بحسب غارسيا ماركيز، هو حطام حيازة الأراضي الاستعمارية الذي أشرف عليه النظام السياسي في القرن التاسع عشر. آه! متى يحل القرن العشرون على كولومبيا؟ وهكذا، تبدأ قصته بوصفها تجسيداً لعالم مقلوب ومن الداخل أيضاً:

> بالرغم من كل الذين لا يؤمنون في هذا العالم، هذه هي الحكاية الحقيقية للأم الكبيرة، الحاكم المطلق على مملكة ماكوندو، التي عاشت اثنين وتسعين عاماً وتوفيت محاطة بهالة من القداسة في يوم خميس من شهر أيلول الماضي، وحضر جنازتها البابا[53].

وبعد خمس عشرة صفحة تنتهي القصة على هذا النحو:

> يمكن لقداسة البابا أن يرتقي إلى السماء الآن جسداً وروحاً فقد أنجزت مهمته على الأرض ويمكن لرئيس الجمهورية أن يجلس ويحكم استناداً إلى بصيرته، ويمكن للملكات لأشياء جميعاً، ماضياً ومستقبلاً، أن يتزوجن ويسعدن ويحملن وينجبن العديد من الصبيان، ويمكن لعامة الناس أن ينصبوا خيامهم حيثما يشعرون بالسرور في أرض الأم الكبيرة التي لا يحدها حد، لأن الوحيد الذي يمكنه أن يعارضهم ويملك قوة كافية لمعارضتهم قد بدأ يتفسخ من تحت قاعدة مربعة من الرصاص. ولم يبق هناك شيء سوى أن يميل شخص ما كرسياً على الحائط ليروي هذه الحكاية وهذا الدرس وهذا المثال للأجيال القادمة كي لا يبقى واحد من غير المؤمنين في هذا العالم وهو لا يعرف قصة الأم الكبيرة، لأن عمال النفايات سيأتون يوم غد الأربعاء ويكنسون النفايات المتبقية عن جنازتها إلى الأبد، إلى الأبد[54].

يتذكر المرء هنا لهجة كارل ماركس نفسه وبلاغته[55] غير أن صوت الراوي ووجهة نظره يتجنبان السخرية المطلقة ويرتضيان تهكم سويفت أو فولتير الذي يبلغ درجة كبيرة من القوة حتى ليقدر على تبيان نقيض الحالة التي يعتقد بها، متأكداً من أن القارئ سيظل معه.

من الواضح أن قصة جنازة الأم الكبيرة تمثل رد فعل غارسيا ماركيز العنيف تجاه الوضع في البلاد وشعوره بالخذلان والخيبة عند رجوعه بعد أربع سنوات أمضاها بعيداً عن الوطن. الفارق الكبير الآن هو أن صوته صوت كاتب له سطوته، كاتب له ما له من الازدراء والاحتقار المرتكزين على خبرة في العالم الرحيب[56].

الراوي يقدم إليها كولومبيا عاجزة عن التعبير لكن من منظور (سوفياتي؟ سريالي؟ كوبي؟) يدرك أن التعبير ممكن، وهو أمر لم يكن قد عرفه بعد الراوي في رواية **عاصفة الأوراق**. إن مثل هذه القصة ما كان لها أن تُكتب إلا عام 1959 عندما مرَّ غارسيا ماركيز بما اصطلح عليه كارل ماركس بتجربة "ديالكتيكية" قوامها مقاربة بين الجبهة الوطنية بكولومبيا والثورة بكوبا؛ مما أضفى على واقعيته السحرية التي بدأت تسوح تباشيرها منذ الآن منحىً وحشيًا، هجائيًّا، كرنفاليًا وسياسياً. هذه القصة لحظة فريدة من لحظات التمظهر والتوازن. ومن الأشياء التي تفصح عنها هي: "لم يعد في ميسوري أن أكتب قصصاً كقصص هذه المجموعة. انتهت مرحلتي *الواقعية*. لكنه يوشك أن يصبح الآن ضحية معروفة تاريخية عصبي.

وكما تشاء الأقدار، وبالرغم من أنه بلغ نهاية مرحلته الواقعية أو الواقعية الجديدة، فقد أصبح واسطة اتصال مهمة بكوبا. لكن المفارقة هي أن النظام الكوبي الذي فتئ حيال العديد من أدباء أميركا اللاتينية ومثقفيها نراه عما قريب يتحدث عن نمط من أنماط الكتابة الواقعية الاشتراكية التي أصبح غارسيا ماركيز الآن عاجزاً عن تقديمها. إنه بحاجة إلى المشهد العام الذي يبعث على الاطمئنان من أدباء أميركا اللاتينية الآخرين الذين يؤلفون روايات تستند إلى الخرافة والسحر قبل أن يتمكن من تصور رواية من رواياته تعمل - بل ترفض ضمناً - مبادئ الواقعية الاشتراكية. كما أن هناك بعض العوامل ذات الصلة بالسيرة تحديداً تعمل عملها على مدى السنوات القليلة المقبلة. إضافة إلى ذلك، فإن تغيير المكان - وهو تغيير آخر - والحاجة إلى إعالة زوجة وأطفال من شأنهما أن يؤثرا تأثيراً بالغاً في المرحلة المقبلة: وسيتشتت ذهنه بعيداً عن مهنته على نحو لم يألفه من قبل لأنه لم يعد يملك تلك المرة المطبعة والمتشبثة بقدرته على التصور جوعاً في حين بسبب نداء الإلهام أينما وحيثما جاءه. وهنا ستبدو قصة **جنازة الأم الكبيرة** على مدى وقت طويل أنها ليست سوى نهاية مرحلة (بل نهاية حياته كأديب لبعض الوقت). ولن ننظر إليها إلا بعد مرور زمن طويل على أنها علامة تدريجية وضرورية وبداية لمرحلته الناضجة.

إذاً، في ضوء الأدب، يمكن القول إن غارسيا ماركيز كان يعيش في أواسط الستينيات على هواه، ووصل به التهكم حداً أنه أراد العودة إلى بارانكيا للعمل في



السينما مع ألفرو سيبيدا إذا ما أخفق عمله مع الثورة الكوبية[57]. وفي إحدى زياراته إلى بارانكيا جلس غارسيا ماركيز برفقة ألفونو أغوابيرا مندوباً عن سينما ميديلين في فندق ديل برادو في انتظار سيبيدا الذي كان يفترض به أن يصل حاملاً اقتراحاً بإنشاء هيأة سينمائية وطنية، لكنه لم يتمكن من الحضور. وفي أثناء طعام الغداء، أشار غارسيا ماركيز إشارة عابرة إلى أن ميرثيديس اتصلت هاتفياً من بوغوتا لتخبره بضرورة دفع مبلغ مقداره ستمئة بيزوس للحيلولة دون توقف الخدمات. كان أغوابيرا محامياً ورئيس تحرير سبق له أن عبَّر عن إعجابه برواية **ليس للعقيد من يكاتبه** عندما نشرتها دار نشر ميتو قبل سنتين. ولما شارفت وجبة الطعام على نهايتها، عرض على غارسيا ماركيز إعادة نشر الرواية، غير أن هذا ردَّ عليه قائلاً: "لا بد من أنك مجنون. أنت تعلم أن كتبي لا تحقق مبيعات في كولومبيا. تذكر ما حدث للطبعة الأولى من رواية **عاصفة الأوراق**". لكن أغوابيرا بدأ محاولة لإقناعه وعرض عليه مبلغ ثمانمئة بيزوس يدفع منها مقدماً مئتي بيزوس. وهنا فكّر غارسيا ماركيز في فاتورة الكهرباء، ووافق على الفور. وبعد مرور سنة كان قد كتب رسالة وهو تحت تأثير الشراب، ومستلقياً فوق كرسي هزّاز من الخيزران تحت شمس ما بعد الظهر المدارية[58]، أن ما قاله غارسيا ماركيز لأغوابيرا كان صحيحاً. فعندما صدر الكتاب عام 1961 بألفي نسخة، لم تبع منه سوى ثمانمئة نسخة. ولو أنه انتظر النجاح في كولومبيا لربما انتظر العمر كله.



-13-

الثورة الكوبية والولايات المتحدة الأميركية 1959-1961

في شهر أيلول من عام 1960 وصل الأرجنتيني جورجه ريكاردو ماسيتي، مؤسس وكالة الصحافة بريسنا لاتينا، إلى مدينة بوغوتا في طريقه إلى البرازيل. كانت لماسيتي ملامح نجوم السينما، وكان جسوراً، مقدماً يائس في ذلك مواطن بلده الأرجنتيني ارنستو تشي غيفارا، ويناصل نضالاً مريراً ضد ضيق فكر الحزب الشيوعي، وناقش هذا الموضوع مراراً في هافانا مع بلينيو ميندوثا. وذهب ماسيتي خلال زيارته القصيرة إلى بوغوتا التي استغرقت يومين، إلى غارسيا ماركيز في منزله وأخبره كما أخبر مندوثا أنه لم يعد يتمكن من الإنفاق على شخصين جديرين بالثقة في كولومبيا، وسألهما إن كانا على استعداد لتسلم وظيفة أخرى غير أن ميندوثا، الذي بالرغم من كونه غير متزوج وزار كوبا سبع مرات حتى الآن في ذلك العام وزار سان فرنسيسكو لحضور مؤتمر رابطة الصحافة في البلدان الأميركية، قال إنه يريد البقاء في كولومبيا، فوافق غارسيا ماركيز على الذهاب وكان قد انسجم منذ البداية مع ماسيتي[1]. كانت الفكرة تتلخص في أن يتردد على هافانا لبضعة أشهر ليطلع على أساليب العمل في بريسنا لاتينا ومدّ يد العون في تدريب صحافيين جدد، ومن بعدها يتم إرساله في مهمة أخرى. انطلق غارسيا ماركيز على الفور تقريباً بعد أن سافر إلى بارانكيا حيث كان قد ترك ميرثيديس ورودريغو ليمضيا عطلة أخرى برفقة أسرة زوجته.

سافر غارسيا ماركيز إلى هافانا أربع مرات في الأقل خلال الشهور الثلاثة التالية، وفي إحدى المرات أمضى شهراً بأكمله فيها. كانت هافانا مدينة محاصرة،



ناصر من أجل تصميمها الثوري في خصم مخاوف دائمية من حدوث ثورة مضادة، والاحتمال القائم يوماً بغزو الولايات المتحدة لها في نهاية الأمر.

وكان كاسترو قد أمم مشاريع عدّة في وقت مبكر من السنة، وفي شهر آب صادر أخيراً جميع ممتلكات الولايات المتحدة على الجزيرة انتقاماً من العدوان الاقتصادي الأميركي. وقبل ذلك بشهر واحد ساند خروتشوف مطالبة كوبا التاريخية بغوانتانامو بعد أن راحت العلاقات تتدهور. وفي الثالث من أيلول، طالب الزعيم السوفياتي بنقل الأمم المتحدة من نيويورك إلى بلد أكثر حيادية. وفي التاسع والعشرين ضرب بحذائه على المنصة في الأمم المتحدة نفسها وعانق فيدل كاسترو عناقاً حاراً أمام الملأ مما لا ريب فيه أن هذا كله معناه الحرب، أو في الأقل مقدمة للحرب.

كان مكتب بريسنا لاتينا يقع على بعد شارعين من شارع ماليكون الذي يلتف على امتداد ساحل هافانا على البحر الكاريبي. كانت الطرقات تنتشر فيها الحواجز وأكياس الرمل وجنود الثورة في كل الأوقات. وفي هافانا، شارك غارسيا ماركيز صحفياً برازيلياً يدعى أورلاندو وول في شقة صغيرة في الطابق العشرين من مبنى ريتيرو ميديكو. كانت الشقة تحتوي على غرفتي نوم وردهة وشرفة تطل على البحر. وكانا يتناولان وجبات الطعام في مطعم تيبييس الكائن تحت بنايته وفي مطاعم أخرى قريبة. كانت هذه الأماكن هي الوحيدة التي شاهدها غارسيا ماركيز في الأشهر الثلاثة من تردده على هافانا[2]. ووجد نفسه مرة أخرى في المراحل الأولى من مشروع يتطلب من الجميع، بمن فيهم هو نفسه، أن يبذلوا قصارى جهودهم فيه. لم يكن هناك جدول زمني محدد، إذ كان كل واحد يعمل كلما كان ذلك العمل ضرورياً، وكانت تظهر في كل يوم مشكلة جديدة. في بعض الأحيان كان يتسلل إلى السينما مساءً وعندما يرجع إلى المكتب في وقت متأخر من الليل يجد ماسيتي لا يزال هناك. فكان في أغلب الأحيان يعمل حتى الساعة الخامسة صباحاً ثم يتصل ماسيتي مرة أخرى به عند الساعة التاسعة.

لم يمرّ وقت طويل حتى احتشد المكتب بشيوعيين متشددين يتزعمهم أنيبال إيسكالانتي صاحب التجربة والتأثير القوي، وكان يبدو على هؤلاء أنهم يتآمرون



للاستيلاء على الثورة من الداخل. وفي يوم ما، صادفهم غارسيا ماركيز وماسيتي وهم يعقدون اجتماعاً سرياً في وقت متأخر من الليل[3]. وكان لهؤلاء المتشددين (المعروفين بالاسم ماميبور في كولومبيا)، "الدوغمائيين" و"الطائفيين" تاريخٌ حافل في كوبا في التواطؤ تواطؤاً انتهازياً في بعض الأحيان مع الحكومات والأحزاب الإصلاحية والبرجوازية، وكانوا يرتابون من أي فرد ليس عضواً في الحزب. كانوا يكتمون المعلومات في ما بينهم ويحاولون تطبيق سياسات الثورة الجديدة ضمن مفاهيم موسكو، مستخدمين خطاباً وأسلوباً الرنان، فحرّبوا المبادرات التي كان يبادر بها الآخرون حتى وإن كانت تلائم أهداف الحكومة الجديدة. تعلّم غارسيا ماركيز بمراقبته ما يجري أمامه عن كثب دروساً مريرة ستؤثر في عمق مواقفه ونشاطاته السياسية مستقبلاً. كان يطرح على نفسه السؤال نفسه الذي كان يطرحه كل فرد تقريباً على الجزيرة وسيظلون يطرحونه بعد أكثر من نصف قرن أيضاً: فيمَ يفكّر فيدل؟

كانت أكثر علاقات غارسيا ماركيز توطّداً مع ماسيتي ومع صحافي وكاتب أرجنتيني آخر يدعى رودولفو وولش الذي كان موجوداً برفقة زوجته بوبي بلانشارد، وكان مسؤولاً عما يسمى الخدمات الخاصة. كان وولش قد كتب عام 1957 واحداً من كلاسيكيات الكتب الوثائقية في أميركا اللاتينية بعنوان "عملية المذبحة" عن مؤامرة عسكرية في الأرجنتين وبأسلوب لا يختلف عن أسلوب غارسيا ماركيز في كتابه **قصة الناجي من الغرق**. وصل غارسيا ماركيز أوج فترانه في كوبا عندما فك وولش رموز رسائل مشفرة تابعة للسي آي إيه عن الاستعدادات عندما أصبح يعرف في ما بعد باسم غزو خليج الخنازير. وكان ماسيتي يتابع عمل كل وكالة صحفية وطنية يومياً، ولاحظ فقرات مشوهة ومحرّفة من وكالة ترويبكال كيبل للأنباء على جهاز البرقية الكاتبة. كانت وكالة ترويبكال كيبل وكالة غواتيمالية تابعة لوكالة أول أميركان كيبل، فداخل الشك ماسيتي. وتمكن وولش بمساعدة دليل حل الشيفرات من فك رموز الوثيقة بكاملها بعد أن واصل العمل فيها ليلاً ونهاراً لبضعة أيام من دون أن يغمض له جفن خلالها. كانت الوثيقة رسالة من غواتيمالا إلى واشنطن عن خطط لغزو كوبا في نيسان عام 1961. وبعد أن فُكَّ

الرمور دُعي غارسيا ماركير للمشاركه في الاحتفالات. أراد ماسيتي أن يزور وولش مواقـــع التدريب ضد الثورة في ريتالويلو في غواتيمالا متنكراً بصفة قس بروتستانتي يبـيع الأناجـيل، غـير أن السلطات الكوبية كانت لديها في ذهنها استراتيجيات استخبارية أقل رومانسية. فبقي وولش في هافانا[4].

كان غارسيا ماركيز يذهب إلى بوغوتا لزيارة أسرته عندما لا يكون في كوبا وكانت آخر زيارة له إلى الجزيرة في كانون الأول 1960، على متن طائرة من طائرات بـان أميركان من بارانكي عبر كاماغوا. وخلال انتظاره في كاماغوا الطائرة كي تقله إلى هافانا، ازداد الطقس سوءاً وأجِّل سفره. وفجأة، وفيما كان يقف منتظراً الأخبار، حـــدث هرج ومرج في ردهة المطار. لقد وصل فيدل كاسترو برفقة ثيليا سانتشيث. كـــان الـــزعيم جائعـــاً وطلب طبقاً من الدجاج في مطعم المطار، لكنهم أخبروه أن الدجاج غير متوفر، فظل كاسترو إنه أمضى ثلاثة أيام يزور حقول الدواجن وتساءل عـــن السـبب الـذي جعل الثورة تعجز عن إيصال الدجاج إلى المطار خاصة وأن الأميركان يقولون دائماً إن الكوبيين يتضورون جوعاً حتى الموت وها هو المطار يثبت صـــحة رأيهم. لم يتدخل أحد عندما اقترب غارسيا ماركير من ثيليا سانشيث وقدّم نفـــسه وشـــرح سبب وجوده في كوبا. وعندما رجع كاسترو حيّا غارسيا ماركيز واحـــتج معه على كون مشكلات كوبا ذات صلة بالدجاج والبيض. كان كاسترو وسانتـــشيث ينتظـــران طائرة من طراز دي سي ثري لنقلهما عائدين إلى هافانا. في غضون ذلك، تمّ إحضار الدجاج، فذهب كاسترو إلى المطعم مرة أخرى ليعود بعدها، ولكـــنه أُخبر أن مطار هافانا أُغلق بسبب استمرار حالة الطقس السيئ، فما كان من كاسترو إلا أن قال: "لا بد لي من أن أكون هناك عند الساعة الخامسة. لا بد من أن نـــذهب" كان غارسيا ماركير يتمنى لو تتأخر رحلته أيضاً وكان لا يدري إن كان الزعيم الكوبـــي مجنوناً أو متهوّراً. ولدى وصوله إلى هافانا بعد مرور ساعات بطائرة كوبية من طراز الفيكونت، ارتاح وهو يرى طائرة كاسترو جاثمة على المدرج. ومنذ ذلك الوقت بقي غارسيا ماركير قلقاً على سعادة الزعيم الكوبـــي.

حـــضر ماسيتي قبل الميلاد مباشرة وقال: "سنغادر إلى ليما، ثمة مشكلات في المكتب هناك". ثم توقفا ليوم واحد في مدينة مكسيكو، وهناك تولى غارسيا ماركير



الذهول وهو يشاهد للمرة الأولى عاصمة الأزتيك المدهشة، ولم يتخيل إلا قليلاً أنه سيمضي معظم أيام حياته مستقلاً فيها. كان ألفارو موتيس قد أُطلق سراحه من سجن ليكومبيري بعد أربعة عشر شهراً أمضاها فيه بسبب الاحتلاس في كولومبيا، حيث كان يغدق بكرمه على الأصدقاء من ميزانية خصصها رؤساؤه في إيسو لينفقها في مجال العلاقات العامة. فوجد غارسيا ماركيز حيث لقي كعهده الترحاب الحار من موتيس الذي أثبت نفسه حسن الوفادة كالأيام التي كان يدفع فيها ديونه عنه.

ثم سافر غارسيا ماركيز وماسيتي جواً إلى ليما عن طريق مدينة غواتيمالا بطائرة نفاثة من طراز 707، وكانت تلك أول رحلة لغارسيا ماركيز على هذه الطائرة الأسرع من الصوت. في ضوء اكتشاف وولش وماسيتي لتورط غواتيمالا في أعداد المنفيين الكوبيين، تحمس ماسيتي للتوقف، وإن قليلاً، في عاصمة بلاد المايا. وفي المطار تحدث ماسيتي بهذه المناسبة عن السفر إلى معسكر تدريب المتمردين الذي حدد مع وولش مكانه على أنه في ريتالوليو مما أدى إلى افتعال بعض المشاكسة. فعندما قال غارسيا ماركيز إن هذا العمل ينطوي على نزق، هزأ من ماتيس قائلاً: "أنت لست سوى ليبرالي صغير وجبان. ألست كذلك؟". وهكذا، وبدلاً من تلك المخاطرة، تمازحا وأطلقا النكات عن الدكتاتور المحلي ميغيل يديغوراس فوينتيس. لم تكن المعلومات قد نشرت عالمياً بعد بشأن معسكر تدريب المتمردين، لكن ماسيتي قرر بتصرف غير مسؤول أن يلقي الذعر في قلب الدكتاتور. وفي المطار كانت ثمة صورة كبيرة لحديقة غواتيمالية وطنية أمام ركاب. فالتقط الرجلان صورة لهما وهما أمام تلك الصورة، ووضعاها داخل مغلف مع رسالة فحواها: "لقد سافرنا في جميع أرجاء بلادكم واكتشفنا ما تقومون به لمساعدة في غزو كوبا". ودوّنا معلومات عن مواقع الجنود وأعدادهم. وبعد أن أرسلا الرسالة عبر البريد، أغلق المطار بسبب سوء الأحوال الجوية، وعندئذٍ قال غارسيا ماركيز مخاطباً ماسيتي: "أتدري أننا سنمضي ليلتنا في المطار وذلك الدكتاتور الأرعن سيتلقى رسالتنا وعندها لن يرحمنا؟"

لكن لحسن الحظ فُتح المطار مرة أخرى في الوقت المناسب وغادر المدينة[5].



لم يسافر غارسيا ماركيز إلى ليما في تلك الرحلة. وعندما نزلنا في باناما، سمع ماسيتي غارسيا ماركيز وهو يحاول الاتصال بميرثيديس فسأله عن مكانها، فقال: "في بارانكيا". فنصحه ماسيتي بأن يسافر إلى بلاده ويعود إلى زوجته وطفله لأن الميلاد قد اقترب. فما كان من غارسيا ماركيز إلاّ أن غيّر تذاكر سفره وذهب إلى بارانكيا، وإن كان قد أخّره رجال الشرطة مدة قصيرة في بنما

في الأشهر القليلة التي أمضاها غارسيا ماركيز في هافانا ازدادت العلاقات سوءاً في وكالة الصحافة بريسنا لاتينا بين موظفي ماسيتي والشيوعيين المتشددين في الحزب الذين كانوا يريدون للثورة أن تكون متماهية مع مفهوم الاتحاد السوفياتي أوروبي المنحى عن الثورة العالمية.

راقب هو وميندوثا بألم شديد الانتهازيين والبيروقراطيين ومرددي شعارات موسكو وقد راحوا يصبّون الحناق على الثوريين المخلصين من ذوي الشعر الطويل أمثال ماسيتي وغارسيا ماركيز ويطردوهم ويضطهدوهم. لقد رسخ هؤلاء الرجال والنساء والشعب الكوبي الذين كافحوا من أجله أسلوباً ابتكره كاسترو وتشي غيفارا كل شيء فيه مرتجل وعفوي وعصري لا تكلف فيه: من هنا، وبداية، كان يطلق على الزعيمين الكبيرين "فيدل" و"تشي" وهناك أيضاً "راؤول" و"كاميلو". لكن ماسيتي سبق أن أخبر غارسيا ماركيز وميندوثا أن جاسوساً تابعاً للحزب الشيوعي كان يراقب كل حركة من حركاتهم في كولومبيا في أعقاب زيارة قام بها عميل كوبي إلى مكتب بوغوتا. وجه ماسيتي اللوم إلى ميندوثا لأنه أرسل إليه رسائل شكوى يمكن أن يقرأها أعداؤه ويرسلوها إلى رؤسائه: ووصلت إحدى تلك الرسائل إلى تشي غيفارا نفسه[6].

في كل نسيج من أنسجة كوبا الجديدة وفي كل مكتب، وفي كل مصنع، كان الكفاح في طريقه إلى قلب الثورة وروحها. يعتقد بلينيو ميندوثا أن الشيوعيين من الطراز القديم ربحوا الجولة الأولى – من هنا منشأ صعوبات ماسيتي (وبالتالي صعوبات غيفارا)، لكن كاسترو سيربح الجولة التالية عندما ساق إسكالانتي إلى المحاكمة وبدأ يُذيق الشيوعيين طعم التجربة التي أذاقوها لغيرهم[7] واستمر الكفاح إلى ما لا نهاية منذ ذلك اليوم وهو كفاح معقد لا يستقيم أمام التفسير المبسط.



عاد ماسيتي مرة أخرى إلى هافانا مع حلول العام الجديد، وكان تحت ضغط شديد، فقرّر إرسال غارسيا ماركيز إلى مونتريال ليدشن المكتب الجديد فيها. لكن المشروع أُحبِط، ومع هذا، فهناك افتتاح مكتب آخر في نيويورك. وهو أفضل. سافر غارسيا ماركيز إلى بوغوتا ليرتب شؤونه في مكتب كولومبيا، ففسخ عقد إيجار شقته وترك أثاثها، بما فيها أثاث غرفة الطعام، في منزل مسدود، وبكتم على حططه وبقي سراً برفقة صديقه القديم من كارتاخينا فرانكو مونيرا الذي كان يسكن في بوغوتا يومئذ[8]. ثم سافر جواً إلى بارانكيا ليصطحب ميرثيديس ورودريغو اللذين كانا عند أسرتها هناك. كما ترك جميع كتبه لدى أخته ريتا في كارتاخينا داخل صندوق خشبي ضخم. وهناك يظل إليخيو المثقف دودة كتب الأسرة يفكّر في "صندوق غابيتو" على مدى سنوات[9].

سافرت الأسرة الشابة إلى مدينة نيويورك في مطلع شهر كانون الثاني عام 1961 وكانت الولايات المتحدة قد قطعت علاقاتها مع كوبا في الثالث من ذلك الشهر، وبهذا، فإن الوقت ليس مثالياً للقيام بمثل هذه المغامرة. لكنها تُظهر مرة أخرى قدرة غارسيا ماركيز الغريبة على الوصول إلى المكان المناسب في الوقت نفسه الذي يبدأ فيه كل شيء بالحدوث. ففي العشرين من كانون الثاني نُصِّب جون ف. كينيدي أصغر رئيس للولايات المتحدة، وبالرغم من أنه كان راضياً بسياسة الإدارة السابقة تجاه كوبا إلا أنه كان يؤيد غزو كوبا في أي حال من الأحوال. وفي نيويورك، كان مكتب برينسا لاتينا الكائن في إحدى ناطحات السحاب قرب مركز روكفلر يعاني نقصاً في العاملين، فكان مجيء غارسيا ماركيز مبعث سعادة الجميع فيه[10]. كانت لحظة من لحظات جنون العظمة في أقصى درجاتها مما لم يترك انطباعاً حسناً في أعماق القادم الجديد. "كان المكتب كريهاً، موحشاً في بناية قديمة قريبة من مركز روكفلر، وفيه غرفة مموءة بأجهزة المبرقات، وغرفة تحرير الأخبار بنافذة واحدة مطلة على طريق يؤدي إلى فناء، فبدا المكتب مكفهراً دائماً، تفوح منه رائحة سخام متسخ ويتناهى منه إلى الأسماع صوت جرذان وهي تفتش ليلاً ونهاراً عن فتات طعام في صندوق النفايات[11]". وبعد مرور سنوات، يقول غارسيا ماركيز للروائي الأميركي وليم كنيدي إن نيويورك كانت

في ذلك الوقت لا تشبه أي مكان آخر، بتة، ولكنها كانت في مرحلة ولادة ثانية، أشبه بغابة كما أنها سحرته[12].

لكن هناك مئة ألف لاجئ كوبي في ميامي وآلاف أخرى تصل كل يوم. وجاء العديد منهم إلى نيويورك، وكانت الولايات المتحدة تخطط لاستخدام الكثيرين منهم في غزوها، فكانت ترسلهم إلى معسكرات سرية في غواتيمالا للتدريب. وبالرغم من أن غزو كوبا كان سراً من أسرار الدولة، إلا أن جميع الناس في ميامي كانوا يعلمون به. وعلى حدّ قول غارسيا ماركيز في ما بعد: "لم تكن هناك حرب أخرى معلنة مثلها"[13]. وفي نيويورك، كان اللاتينيون الأميركيون المؤيدون للثورة والمناهضون لها يحرصون على ارتياد حانات ومطاعم ودور سينما متباينة، إذ كان التوغل في أرضٍ معادية خطراً، كما كانت المعارك تندلع غالباً في ما بينهم، وكانت الشرطة تحرص على عدم الوصول إلى مكان المعركة إلا بعد أن تكون قد وثقت أن كل شيء قد انتهى. وكان غارسيا ماركيز حريصاً أيضاً على تفادي المواجهات.

أمضت الأسرة خمسة أشهر فقط في مدينة نيويورك، غير أن غارسيا ماركيز يتذكرها على أنها مرحلة من أشدّ مراحل حياته إجهاداً وإرهاقاً. فقد أقاموا في فندق ويبستر على مقربة من الشارع الخامس في قلب حي مانهاتن، وكان العاملون في وكالة بريسنا لاتينا تحت ضغط متزايد دائماً من اللاجئين الكوبيين ومن الهستيريا المناهضة لكاسترو. وكانت الاتصالات الهاتفية البذيئة المناهضة للثورة التي يجريها الغستانو (وتعني "الدود" وهي الكلمة التي يصفهم بها الثوريون) من الأمور التي تحدث يومياً، فكان غارسيا ماركيز وزملاؤه يردون عليها قائلين: "قل هذا لأمك أيها السافل". وتأكدوا من أن معهم دائماً أسلحة مرتجلة الصنع. وفي يوم ما، تلقت ميرثيديس اتصالاً يهددها هي ورودريغو ودل لها المتحدث إنه يعرف مقر سكنهم والوقت الذي تأخذ فيه الطفل لتمشي وإياه في الحديقة المركزية القريبة عادة. كان لدى ميرثيديس صديقة في جامايكا، في الطرف الآخر من المدينة، ولم تخبر زوجها بشأن المكالمة الهاتفية لكنها ذهبت لتبقى مع صديقتها مدة وهي تقول إنها باتت تضجر لوجودها في الفندق طوال اليوم. ولعله كان مناسباً أيضاً أن راح غارسيا ماركيز يتفحّ أكثر كتبه المشؤومة في ساعة نحس في ذلك الوقت.



بعد أن غادرت ميرثيديس الفندق، أمضى غارسيا ماركيز معظم وقته في المكتب، ينام فيه ليلاً على أريكة في ظروف يزداد فيها التوتر. وفي الثالث عشر من آذار، حضر مؤتمراً صحافياً تاريخياً في واشنطن أعلن فيه جون أف كيندي أنه أنشأ تحالفاً من أجل التقدم[14]. فكان بذلك يدير حقبة قصيرة راحت فيها الولايات المتحدة تتحدث عن حقوق الإنسان والديمقراطية والتعاون بعد مرور عقود من الحرمان على دعمها دكتاتوريّ أميركا اللاتينية، وهي التي سرعان ما سترجع إليه الولايات المتحدة الأميركية - في البرازيل عام 1964 - ومعها سياسة الانتقام في ستينيات القرن العشرين. يُقر غارسيا ماركيز بأن خطاب كيندي كان جديراً بأحد رسل العهد القديم. إلا أنه وصف التحالف بأنه "رقعة مستعجلة لدرء رياح الثورة الكوبية الجديدة"[15].

مرة أخرى، كان معظم التوتر الداخلي في مكتب نيويورك، حسب ما شاهده غارسيا ماركيز، يتركز بين الشيوعيين الكوبيين المتشددين من الطراز القديم والجيل الجديد من يساريّي أميركا اللاتينية الذين جندهم ماسيتي. "كانوا ينظرون إليّ في مكتب نيويورك على أني رجل ماسيتي"[16]. وسرعان ما غدت الأمور لا تطاق مما دفع غارسيا ماركيز للتفكير في وضعه. وفي نهاية الأمر قرر الخروج. ففي إحدى الأمسيات التي كان فيها وحيداً في المكتب، تلقى تهديداً مباشراً بلهجة كاريبية حيث قيل له: "استعد أيها النذل فقد انتهى زمن المحدد لك، ونحن الآن في طريقنا إليك". فما كان من غارسيا ماركيز إلاّ أن ترك رسالة على المبرقة قال فيها: "إذا لم أوقف هذا الجهاز عن العمل قبل مغادرتي المبنى، فذلك معناه أني قُتلت". فجاءه الرد من هافانا: "حسناً أيها الرفيق. سنرسل الزهور". وعندما خرج من المبنى عند الساعة الواحدة نسي في غمرة هلعه أن يوقف الجهاز عن العمل[17]. وسلك نحو الفندق مذعوراً بعد أن مرّ أمام المبنى الرمادي الضخم لكاتدرائية سان باتريك وكانت الأمطار تنهمر غزيرة. كان يخشى حتى من وقع خطواته، ونام ليلته بثيابه التي كان يرتديها.

لم يمض وقت طويل حتى اضطر ماسيتي الطائش إلى الاستقالة تحت ضغط الشيوعيين المتزايد. وفي السابع من نيسان أرسل غارسيا ماركيز رسالة إلى بلينيو

ميندوثا يخبره فيها باستقالة ماسيتي، وأضاف أنه سيحذو حذوه. وأوضح في طلب استقالته أنه سيبقى حتى أواخر شهر نيسان، وأنبأ ميندوثا أنه يفكر في السفر إلى المكسيك. لكن بعد عملية غزو خليج الخنازير في السابع عشر من نيسان، أي بعد يوم واحد من إعلان كاسترو أن الثورة هي ثورة اشتراكية، وهو ما كان يتوقعه الكثيرون، طلب كاسترو شخصياً من ماسيتي أن يواصل العمل في موقعه وأن يشارك في المقابلات التلفازية التي تبث مباشرة مع الأسرى المناهضين للثورة، فوافق ماسيتي وقرر غارسيا ماركيز أيضاً أن يتريث إلى أن تنتهي أزمة الغزو[18]. ورغم منذ ذلك الوقت أن ما كان يريد أن يفعله في تلك الأيام هو العودة من نيويورك إلى كوبا.

في اليوم الذي أعقب الانتصار الكوبي العظيم في خليج الخنازير والذي قاد كاسترو بنفسه عمليات الدفاع عن الجزيرة والقبض على الغزاة، اكتشف بلينيو ميندوثا، بصورة غريبة، وللمرة الأولى، أن مكتب الاتصال في بوغوتا رفض إيصال الرسائل، فداخله الشك على الفور في أن الولايات المتحدة الأميركية ضغطت على السلطات الكولومبية فقطعت خدمات الاتصال مع كوبا. واتصل هاتفياً بغارسيا ماركيز في نيويورك الذي قال له: "تريّث. ثمة جهاز تلكس عام في الشارع الخامس على مقربة من المكتب تماماً". وهكذا تغلب الصديقان بكل فخر وكبرياء على قطعة الـسي آي إيه في اليوم الذي حدثت فيه الهزيمة الأسطورية لغزاة المعادين للثورة وأعلن فيه الكوبيون أنه أول نصر ضد الإمبريالية على أراضي أميركا اللاتينية. غير أن غارسيا ماركيز سرعان ما ذهب إلى فندقه وكتب رسالة بخط يده إلى ماسيتي وهو ما لم يفعله سابقاً قط (بل حتى إنه أرّخ الرسالة) – موضحاً قلقه ومعارضته عقيدة موسكو وخوفه على مستقبل الثورة إذا ما ساد الخط الشيوعي المتشدد. ثم ترك الرسالة في غرفة الفندق منتظراً اللحظة الأخيرة ليستقيل لكنه ظل حتى معركة خليج الخنازير، إذ نو رحل لكانوا وصموه بالجرذ الذي هرب من السفينة الغارقة[19]. ولم يعرف إلا الشيء القليل عن خروج ماسيتي من بريسا لاتينا نهائياً وعودته بعد ذلك إلى الأرجنتين لتوافيه المنية في حملة ثورية لا أمل فيها عام 1964

أوشكت مدة بقاء غارسيا ماركيز في نيويورك على نهايتها. فسافر بلينيو ميندوثا إلى هافانا جواً لمناقشة الوضع مع ماسيتي وتناول طعام الغداء معه ومع

زوجته كورشيتا دوموس عندما وردت الأنباء بأن المتشددين استولوا أخيراً على مكتب بريسا لاتينا وأصبح بإدارة المدير الجديد فيرناندو ريفولتاس الإسباني. وعندما وصل ميدوتا إلى نيويورك مرة أخرى على متن طائرة بان أميركان في أواخر شهر أيار وهو في طريقه إلى وطنه قادماً من هافانا، التقته ميرثيدس رودريغو بعد أن استجوبته السي آي إيه. ابتسمت ميرثيدس ابتسامتها التي تنم عن رباطة جأش وقالت: "إذاً، لقد استولى المتشددون على الوكالة أيها الرفيق؟". "نعم أيتها الرفيقة. لقد استولوا عليها". ولما أخبرها أنه سلم استقالته إلى رئيس بريسا لاتينا الجديد ومعها نسخة إلى الرئيس دورتيكوس أخبرته أن رسالة استقالة غابو مكتوبة وأنها تنتظر رجوعه[20].

لم يقل غارسيا ماركيز الشيء الكثير عن هذه المشكلات منذ ستينيات القرن العشرين بالرغم من أن أحداث عام 1961 ألقت بظلالها على أكثر من عشر سنوات طويلة من حياته، وحتى في أحاديثه اللاحقة مع أنطونيو نونيث خيمينيث لدى كان بدوره شيوعياً متزمتاً، لم يقل سوى إنه شعر بأن الشيوعيين المتشددين كانوا "مناهضين للثورة"[21].

لكنه لم يخض في أي تفاصيل أخرى. ويبدو السبب على ما يتضح متمثلاً بحقيقة أنه استمر في النظر إلى الثورة الكوبية على أنها كفاح لا نهاية له بين المتشددين الذين يمثلهم في تلك الأونة راؤول شقيق كاسترو، والرومانسيين الثوريين الراغبين إلى الحدس والفطرة الذي يمثلهم فيدل نفسه. يقول ميدوتا بعد خمسة وعشرين عاماً إن تجاربه في كوبا التي أعقبت رحلته إلى أوروبا الشرقية عام 1957 كانت حاسمة في إبعاده عن الاشتراكية وذلك بإقناعه أن كل الأنظمة الاشتراكية أصبحت في نهاية المطاف أنظمة بيروقراطية مستبدة، وأن هذه مسألة حتمية. ويؤكد أن غارسيا ماركيز كان في مطلع عقد الستينيات من القرن العشرين يشعر بالاغتراب إزاء كل ما حدث لأنه رأى، حاله حال ميدوتا نفسه في تلك الأيام، الأشياء بمنظار واحد[22].

مكث ميدوتا في نيويورك بضعة أيام منتظراً خبراً عن مرتب صديقه المتأخر وعن تذاكر سفره وكان يتنزه برفقة ميرثيديس في المتنزه المركزي نهاراً ومعهما



رودريغو، في حين كان غارسيا ماركيز ينجز عمله في المكتب. ثم تجول غارسيا ماركيز وميندوثا معاً في الشارع الخامس في ساحة التايمز وقرية غرينيتش يناقشان الأحداث التي جرت ومستقبل كوبا وخططهما غير الأكيدة. ويبدو أن زمناً صعب بوشك أن يبدأ لكليهما بعد أن كان الاثنان في خضم إيديولوجيتين مختلفتين وعالمين متباينين. في الثالث والعشرين من أيار، كتب غارسيا ماركيز رسالة إلى ألفارو سيبيدا:

> الآن، وبعد أزمة دموية فظيعة استمرت شهراً ولم يصل السيل الزبى إلاّ أخيراً في هذا الأسبوع، استقال شبّان بريسنا لاتينا الطيبون. وبالرغم من كل المصائب التي تمكنا من الشعور بها وهي قادمة، فإنني لم أفكّر ابتة في أن الأحداث يمكن أن تكون بهذا العنفوان وظننت أنه لا تزال أمامي بضعة أشهر أخرى أمضيها في نيويورك. على كل حال، إن أملي الأخير بالبقاء هنا تبخر هاتفياً في هذا المساء، وسأسافر براً إلى المكسيك في الأول من حزيران بهدف اجتياز أعماق الجنوب المضطرب. إني لا أعرف تماماً ماذا سأفعل، لكنني سأحاول جمع بعض الدولارات من كولومبيا وأتمنى أن تكفيني للعيش بعض الوقت في المكسيك في أثناء بحثي عن عمل. من يعلم ما الذي سيحدث لأنني من حيث الصحافة، قررت أن أكفّ عن الكفاح فيها. ربما لأنني مثقف[23].

ما إن رحل ميندوثا عن نيويورك حتى اتصل ماسيتي بغارسيا ماركيز وقال له إن الأوضاع آخذة بالتحسن مرة أخرى، وإنه قد تكلم مع الرئيس دورتيكوس الذي أخبره أنه لا يزال في حظوة فيدل كاسترو. وطلب من غارسيا ماركيز أن يؤجّل موعد سفره إلى المكسيك. لكن الكولومبي كان في ذلك الوقت قد وضع خططه ولم يعد أمامه أي شيء يفعله سوى انتظار أن يدفعوا له مرتبه الذي لم تكن سلطات وكالة بريسنا لاتينا متعجلة في دفعه. كان يحاول إقناعهم بمنحه تعويضاً عن نهاية الخدمة إضافةً إلى تذاكر السفر إلى المكسيك له ولأسرته. لهذا رفض على مضض مقترحات ماسيتي، وأوضح في رسالة إلى ميندوثا:

> إني أعرف ماسيتي. إن هذه المساعدة الشخصية التي يطلبها ستتحول بصرف النظر عن نفعله إلى التزام هائل ومعقد سأجد نفسي محشوراً فيه حتى يرى الرفاق ثمرة الفواكة ناضجة، وعندئذ، يقررون التهامها تماماً مثلما فعلوا ذلك مع بريسنا لاتينا. فضلاً عن ذلك، إذا كان ماسيتي لا يزال عالقاً في الفخ وفي



خطـر. وهـو مـا أخبرني به، فإنني سأفعل كل ما في وسعي وأعتبر خططي وأساعده. إلا أن لدي الانطباع أن الرئيس قد وجد طريقاً لتسيير الأمور على ما يرام معه. كما أنه لم يعد بحاجة ماسة إلى المساعدة"[24]

ثم يقول لاحقاً: "بتُّ غريباً في مكتب يفترض أن أديره حتى في أدق تفاصيله. لحسن الحظ، سينتهي هذا كله في غضون ثمان وأربعين ساعة"[25]. كان غارسيا ماركيز يخشى ألاّ تدفع بريسا لاتينا ثمن تذاكر عودة الأسرة وقال إنه لا يملك سوى مئتي دولار باسمه.

ونتيجة لذلك، لم يكن أمام أسرة غارسيا ماركيز أي سبيل للعودة جواً إلى كولومبيا، لهذا سافروا إلى المكسيك عن طريق البر. وفي المكسيك حاولوا تقديم طلب إعانة من أجل العودة إلى الوطن (بالرغم من أن ميندوثا نفسه يعتقد أن إقامة أطول في المكسيك كانت واحدة من طموحات غارسيا ماركيز الكبيرة؛ ربما كان سوء الفهم بشأن تحركاته ودوافعه على امتداد السنين نبع من حقيقة تتمثل بأنه كان دائماً متردداً في الاعتراف بأنه لم يرغب في الرجوع إلى كولومبيا وإلى الأسرة الكبيرة). ومما لا يثير العجب، أن إدارة مكتب نيويورك أعلنت أنه استقال ولم يُفصل من العمل - وهكذا، فهو يُعدُّ هارباً إن لم يكن "دودة" وأنهم غير مخولين بإعطائه تذكرة للسفر إلى المكسيك. ثم يقول الشيوعيون للأصدقاء الذين استفسروا عنه في هافانا: "لقد انضم غارسيا ماركيز إلى الثورة المضادة"[26] وفي أواسط شهر حزيران، وبعد أن استقال ولم يحصل على أي شيء من بريسا لاتينا ومن الثورة، استقلت أسرة غارسيا بارتشا حافلة غراي هاوند وسافرت إلى نيو أورليانز حيث أرسل ميندوثا إليهم مئة وخمسين دولاراً إضافية من بوغوتا.

كانت الرحلة التي استغرقت أربعة عشر يوماً برفقة طفل عمره ثمانية عشر شهراً شاقة ومجهدة، وهو أقل ما يمكن قوله عنها. فقد تصعب توقفاً مرات عدة، ومما أشار الزوجان إليه في ما بعد، فإنه اشتملت على تناولهما طعام الهامبورغر المعلب، و"السفافيس" وقناني مشروب الكوكا كولا البلاستيكية وفي نهاية المطاف راحا يأكلان حتى طعام رودريغو المخصص للأطفال لا سيما الفاكهة المطبوخة. وشاهدت الأسرة في رحلتها ولايات ميريلاند وفرجينيا وكارولاينا الشمالية

والجنوبية وجورجيا وألاباما والميسيسبي. وكانت هذه المشاهدات مفيدة لغارسيا ماركيز وهو يسافر في بلاد فوكنر التي كانت تمثل له حلماً راوده منذ زمن بعيد. وكما هو شأن كل الزوار الأجانب في تلك الأيام، فقد صُدم الزوجان الشابان لما شاهداه من أمثلة صارخة عن التمييز العنصري على امتداد الجنوب الأميركي لا سيما في ولايتي جورجيا وألاباما وذلك قبل أن تشملها الإصلاحات الخاصة بحقوق الإنسان التي جرت أواخر ذلك العقد من الزمان. وفي مونتغومري، لم يستطيعا النوم تلك الليلة لأن ما من أحد رضي أن يؤجر غرفة "لمكسيكيين حقيرين". وعندما وصلا إلى ولاية نيو أورليانز، كانا متشوّقين لتناول وجبة طعام مناسبة، ولجأا إلى استخدام بعض الدولارات من تلك المئة والخمسين دولاراً التي سبق أن أرسلها ميندوثا إلى القنصلية الكولومبية لشراء وجبة طعام جيدة ودسمة في مطعم "لي في كاري" الفاخر على الطراز الفرنسي. ولكن خاب ظنهما عندما شاهدا قطعة كبيرة من الخوخ فوق كل شريحة لحم مقلية جاء بها النادل ووضعها على منضدتهما[27].

وفي العام 1983 يتذكر غارسيا ماركيز مغامرتهما الكبيرة على هذا النحو:

> **في نهاية تلك الرحلة الطويلة واجهنا مرة أخرى العلاقة بين الحقيقة والخيال: هناك الهياكل النظيفة جداً وسط حقول القطن، والفلاحون يستمتعون بقيلولتهم تحت أفاريز حانات الشوارع الجانبية وأكواخ الأهالي السود الذين يعيشون عيشة بائسة، وورَثة العم غافن ستيفنز البيض وهم في طريقهم لأداء صلاة الأحد برفقة زوجاتهم الواهنات بثيابهن المصنوعة من قماش الموسلين؛ لقد مر من أمام أنظارنا عالم مقاطعة يوكناباتاوفا الرهيب عبر نافذة الحافلة. فكانت صورة حقيقية وحيّة كما قرأناها في روايات الأستاذ القديم[28].**

يقول غارسيا ماركيز في أول رسالة يبعثها إلى ميندوثا بعد هذه الرحلة: "وصلنا سالمين بعد رحلة مثيرة تماماً أثبتت من ناحية أن فوكنر الآخرين كانوا صادقين عندما حكوا لنا عن بيئتهم، ومن ناحية أخرى أن رودريغو فتى يمكن حمله تماماً ويستطيع أن يتكيف مع كل الطوارئ"[29].

أخيراً، وبعد أسبوعين طويلين بصحبة سياحتهما، وصلوا إلى الحدود في مدينة لاريدو(*)، فوجد الزوجان مدينة حدودية حافلة بالتناقضات، قذرة، كريهة وشعرا



لكن أول مطعم متواضع دلَفا إليه قدم
ا اكتشفت أن في إمكانها أن تعيش في
س بين أشياء كثيرة عرفوها. ثم استقل
حر شهر حزيران عام 1961، ليجدوها
طف على شوارعها صفوف الأزهار.
رقاء شفافة ورائعة، وكان لا يزال في



-14-

هروب إلى المكسيك

1964-1961

في يوم الاثنين السادس والعشرين من حزيران عام 1961، دخل القطار الذي ـس أسـرة غارسيا برتشا محطة بيونا فيستا في مدينة مكسيكو. يتذكر غارسيا ركيـز ذلـك اليوم بقوله: "وصلنا في مساء يوم أرجواني، ولم يكن قد بقي معنا ـوى عـشرين دولاراً، وما من مستقبل أمامنا"[1]. وقد استقبل أفراد الأسرة على صيف المحطة ألفارو موتيس مرحباً بهم في المكسيك بابتسامته العريضة المفترسة، تماماً مما كان قد رحّب بغابو عند وصوله إلى بوغوتا عام 1954. صحب موتيس الأسرة نهكة إلى فندق أبارتامينتوس بوناميك في شارع ميريدا الواقع على مقربة شديدة من ـنطقة الـوردية" العصرية الحديثة، وعلى بعد بضعة شوارع من قلب المدينة، وفي كـان الـذي يشطر إلى شطرين شرياناها الحيويان باسيو دي لا ريفورما وأفينيدا سورجنتيس تحت أنظار محارب الأزتيك كواوهتيموك. كانت ميرثيديس تعاني آلاماً المعـدة، وهـو ألم يواجه معظم الزوار الذين يأتون إلى العاصمة المكسيكية، سواء ـان ذلك سببه طهو الأرز أكثر أو أقل مما ينبغي، فتكون الأيام الأولى صعبة غالباً ـذا السبب ولأسباب أخرى عديدة. يتذكر غارسيا ماركيز أنه لم يكن لديه سوى ـعـة أصـدقاء في المديـنة آنذاك: موتيس ولحات الكولوجي رودريغو أرينس نكورث والأديب المكسيكي خوان غارسيا بونس، الذي التقاه في نيويورك، وصانع ـلام وبائع الكتب القطالوني لويس بيثينس الذي كان يحتفظ له برسائله[2].

في نظـام الحـزب الـواحد في المكسيك - الذي يحكمه الحزب ذو الاسم ـامض: الحزب الثوري المؤسساتي - كان خطاب الحكومة البلاغي أكثر راديكالية



من ممارساته السياسية. وقد ظهر الحزب إلى الوجود في السنوات التي أعقبت الثورة المكسيكية 1910-1917، وهي أول ثورة اجتماعية في العالم في القرن العشرين والنموذج المستمر للتقدميين في أميركا اللاتينية حتى دخول كاسترو المنتصر مدينة هافانا عام 1959. لكن أربعين عاماً من السلطة أدت إلى تباطؤ التقدم الثوري حتى كاد يتوقف تماماً. وتعيّن على غارسيا ماركيز أن يتعلم بسرعة أوضاع هذا البلد المعقد الجديد حيث لا تبدو الأشياء على حقيقتها أكثر من أي بلد آخر في أميركا اللاتينية.

وبعد أسبوع واحد - وبالرغم من أن غارسيا ماركيز قال دائماً بعد يوم واحد - إن غارسيا موتيس الذي سبق له أن زار ماراكيا زيارة صاخبة وتعلم كيف يتكلم كأنه أحد أبناء الساحل، أيقظه من نومه وصاح بأعلى صوته: "أصغ إليّ. لقد فجّر همنغواي رأسه بإطلاق النار"[3]. وهكذا، فإن أول شيء كتبه غارسيا ماركيز بعد وصوله إلى المكسيك بمدة قصيرة كان مقالة طويلة احتفاءً بالأديب الأميركي الراحل. وقد نشرت هذه المقالة بعنوان: "مات رجل ميتة طبيعية" في التاسع من تموز في الملحق الأدبي لصحيفة نوفيدادس، إحدى صحف المكسيك المهمة التي يرأس تحريرها المثقف البارز فيرناندو بينيتيث. تأثر غارسيا ماركيز تأثراً بالغاً لوفاة الإنسان الذي سبق له أن رآه في ذلك الشارع الباريسي قبل سنوات، وتوقع أن الزمان سيكشف عن أن همنغواي، بصفته أديباً ثانوياً، سيلتهم عدداً كبيراً من كبار الأدباء من خلال معرفته دوافع البشر وسر مهنته..."[4].

وأشار أيضاً إلى أنه بوفاته بدأ مرحلة جديدة[5]. ولم يعرف إلا قليلاً أن تلك المرحلة هي أفقر مراحله من حيث الإبداع الأدبي، حيث إن انتهاء نمط معين من الكتابة لم يقد بسرعة وعلى نحو لي إلى بداية نمط آخر. كيف يمكنه، أو يمكن لأي شخص آخر، أن يفكّر في أن تلك المقالة الأولى ستكون، مع استثناء واحد فقط، آخر كتابة من كتاباته الجدة والمهمة التي سيكتبها على مدى السنوات الثلاث عشرة التالية؟

وصل ألفارو موتيس إلى المكسيك في السنوات الأخيرة، إلى ما اصطلح عليه "بأكثر المناطق شفافية"، لكن سماءها الكريستالية غدت اليوم ملوثة بخيوط رمادية



من تنوء أواخر القرن العشرين الواقع أن المكسيك ليست البلد الذي يمكن فيه أبداً عن فدرته على شق طريقه بكل جاذبية وسحر وصولاً إلى الطبقة الراقية من المجتمع، أثبتت ضرورتها لإعادة تأهيله الغريب بعد إطلاق سراحه من سجن لكمبري، وبات لان لا تقدر بثمن في تسهيل دخول غارسيا ماركيز إلى مجتمع المتعلق فيه عبيد وصعب صعوبة التعمل في المصير أو التين الشوكي وتمكن الزوجان الشابان، وبمساعدة موتيس، من العثور على شقة في شارع رينان على مقربة من مركز المدينة، ولم تكن هي المرة الأولى التي ينامان فيها على فراش على الأرض وكان لديهما منضدة وكرسيان: فاستعملا المنضدة لتناول الطعام وللعمل. هكذا كانت الأوضاع أيضاً في كاراكاس في بادئ الأمر؛ وفي بوغوتا أيضاً. وفي نيويورك عاشت ميرثيديس في غرفة واحدة في فندق مع طفلها الصغير. أما الآن، فها هما بلا مال مرة أخرى وعادا ليعيشا على الكفاف. وكتب غارسيا ماركيز إلى بلنيو ميندوثا: "ها نحن في شقة خاوية للمرة الثالثة من حياتنا الزوجية التي عمرها ثلاث سنوات وحسب. وحسب تقاليدنا، فإن هناك الكثير من الأضواء والكثير من الزجاج والعديد من الخطط، لكن ليس لدينا مكان نجلس فيه"[6].

لم تسر الأمور على ما يرام إلا قليلاً في الشهرين الأولين. وبالرغم من جهود موتيس وبيثينس، لم يتمكن غارسيا ماركيز من العثور على عمل، وأمضى هو وميرثيديس ساعات لا تنتهي وهما يقفان أمام مبنى وزارة الداخلية في شارع بوكارلي لترتيب أوراق إقامتهما ولم يكن غارسيا ماركيز متأكداً من نوع العمل الذي يرغب فيه، فصناعة الأشرطة السينمائية تبدو ميدانه المفضل، ولهذا بدأ يتحول إلى إنسان قلق ومحبط. وبدت بريسا لاتينا مصممة على عدم إعطائه المبلغ الذي هي مدينة به له. فاستمر في الانتظار. وقد مزح غارسيا بلينيو ميندوثا في رسالة أرسلها إليه قائلاً إن الأمور إذا ما بقيت على هذه الحال، فإن الشيء المنطقي هو أن يكتب رواية ليس للعقيد من يكاتبه، لكن المشكلة هي أن الرواية كانت قد اكتملت كتابتها[7]. وتلقى ميندوثا نبأ من ميرثيديس التي توقع أن تنجب ألساندرا – أصرّ غارسيا ماركيز على أنها طفلة وقرر مسبقاً الاسم الذي اختاره لها – في شهر نيسان المقبل[8]. على كل حال، لم يكن المولود "تلك الابنة التي كان

تحلم بها طوال حياته ولم يحصل عليها"[9]، لأن المولود كان ذكراً وكان هو المولود الأخير.

رأى موتيس أن أعصاب صديقه بدأت تهتاج، فما كان منه إلا أن اصطحبه إلى البحر الكاريبي في أواخر شهر آب حيث ميناء فيراكروز على خليج المكسيك. لم يتمكن غارسيا ماركيز حتى تلك اللحظة من إدراك حقيقة أن المكسيك، وهي بلاد صحراوية ذات سهول مرتفعة، كانت أيضاً بلداً كاريبياً. وكان العذر في السفر إليها هو قيام جامعة فيراكروز بإعلان نطبع مجموعة جنازة الأم الكبيرة وقصص أخرى. وقد كان مبلغ لألف بيزوس الذي دُفع لغارسيا ماركيز مقدماً عن هذا الكتاب هو الذي سمح له بإيداع عربون شهر عن إيجار الشقة وشراء "ثالث براد في حياتنا الزوجية بالتقسيط"[10]. لم يكن لديه مال ولا وظيفة، ولكن كان عليه أن يعيل زوجة وطفلاً. أما من الناحية السياسية، كان قد فقد الاتصال بالتطورات الأولى الحادثة في سياسة أميركا اللاتينية التي أهمته في حين انضم مئات الآخرين إلى الجانب الثوري الذي يُنتظر دوره. أما من الناحية الأدبية، فقد ضلَّ طريقه. لقد كانت قصة جنازة الأم الكبيرة مكتوبة وفق مضمار ما بعد أحداث كوبا، لكنه الآن افترق عن مصدر إلهامها، أي كوبا، وإن كان على مضض، وها هو الآن يقيم علاقة جديدة مع عالم ثقافي جديد ومؤثر ومختلف تمام الاختلاف ومعقد تعقيداً بالغاً، ربما يتطلب استيعابه سنوات. في المكسيك لا بدّ من أن يتعلم المرء كيف يعيش فيها.

في يوم ما، ارتقى موتيس سبع مجموعات من السلالم وحمل كتابين إلى داخل الشقة من دون حتى أن يلقي بالتحية ورماهما بقوة فوق المصدة وقال بصوت هادر: "كفاك تذمراً واقرأ كي تتعلم كيف تكتب". إننا لن نعرف إن كان جميع أصدقاء غارسيا ماركيز يصبون اللعنات أم لا طوال الوقت في تلك السنين، لكنه في قصصه يؤكد أنهم يصبونها. كان الكتابان الصغيران هما: رواية بعنوان بيدرو بارامو كانت قد نُشرت عام 1955، والأخرى بعنوان السهل المحترق، وهي عبارة عن مجموعة قصص كانت قد نُشرت عام 1953. أما مؤلف الكتابين فهو خوان رولفو. قرأ غارسيا ماركيز رواية بيدرو بارامو في اليوم الأول، وقرأ السهل المحترق في اليوم

المتالي. ورغم أنه لم يسبق له أن تأثر بما قرأ تأثره بهاتين الروايتين منذ أن قرأ أعمال كافكا أول مرة، وأنه حفظ رواية بيدرو بارامو عن ظهر قلب، وأنه لم يقرأ غيرها طوال ذلك العام لأن كل كتاب آخر يبدو له أقل شأناً"[11].

مما يثير الاهتمام أن نلاحظ أن غارسيا ماركيز لم يكن يعرف شيئاً عن واحد من أعظم روائيي أميركا اللاتينية في ذلك القرن. العام هو عام 1961، وكان في سن الرابعة والثلاثين لا يعلم إلا القليل عن قارة أميركا اللاتينية أو أدبها. وفي هذه الأونة بدأت موجة جديدة في الرواية الأميركية اللاتينية التي باتت تعرف في ما بعد بحقبة "الانتعاش". لكنه حتى في هذه الفترة المتأخرة، لم يكن يعرف أياً من الأدباء الذين سيصبحون أنداداً له وزملاء وأصدقاء ومنافسين مثلما لم يعرف العديد من الأعمال الأدبية لأسلافهم من الأدباء المهمين مثل ماريو دي أندرادي البرازيلي، أو أليخو كاربنتيه الكوبي، أو ميغيل أنخل إستورياس الغواتيمالي، أو خوان رولفو المكسيكي، أو خوسيه ماريا آرغيداس البيروفي. كان يعرف بورخيس الأرجنتيني الذي يعد من أوجه عديدة، أقلهم التصاقاً بأميركا اللاتينية بالرغم من أنه كان واحداً من أكثرهم تأثيراً. بمعنى آخر، إن المدة الرسمية التي أمضاها في أوروبا لم تجعله أميركياً "لاتينياً" خلاف غيره من عديد الأدباء في عشرينيات القرن العشرين. والواقع، إن معظم أصدقائه في باريس كانوا كولومبيين، ويمكننا القول إنه رأى في غيره من الأميركيين اللاتينيين أقرباء بعيدين وليسوا أخواناً. (وهذه وجهة نظر كولومبية محضة، إن البلاد التي تمتلئ بالموهوبين لم تؤدّ قسطها الثقافي في القارة). وقد تركت للمكسيك عملية الأمركة اللاتينية كي تكملها. ولحسن حظه لم يكن هناك من هو أفضل من المكسيك كي يتعلم منها. ففي المكسيك بدأت معظم عمليات "البحث عن الذات" الأميركية اللاتينية في القرن العشرين منذ عشرينيات القرن وتلقت تشجيعاً استثنائياً من اللاجئين الإسبان المثقفين ثقافة رفيعة في أربعينيات القرن، وغدت الآن على عتبة حقبة تمدية كبرى.

جرّب غارسيا ماركيز زوايا أخرى. وفي زيارة مبكرة قام بها إلى ولاية ميتشواكان شاهد الهنود يصنعون أشكالاً من القش أسموها ملابسهم المحلية ثم ولّد عنده فكرة عن قصة بدأ بها مباشرة لكنه لم يكملها إلا عام 1969 وكانت بعنوان



رجل عجوز جداً بجناحين هائلين[12]. وقال يومئذ: "إنها جزء من مشروعي القسم لتأليف مجموعة قصص فانتزية". لكنه سرعان ما تخلى عنها وراح يكتب قصة أخرى بعنوان بحر الزمن الضائع في الأشهر الأول البائسة التي أمضاها في المكسيك. ولم يمس هو لك، لكن هذه القصص، وأخرى غيرها، تبدو وقد خرجت من رحم الحنين الجارف إلى الأيام الخوالي الجميلة التي تذكرها أو حتى تخيلها في بارانكيا وأطرافها، لأيام التي اشتاق إليها، والعالم الذي نقله شريط سيندا السينمائي الحالم الجرادة الزرقاء. إن قصة بحر الزمن الضائع تطورٌ مهمٌّ بالرغم من أنه كان تطوراً معزولاً بدئياً، وقد تسببت هذه القصة بحلوث فوضى وارتباك وسط نقاد الأدب لأنها كانت تبدو منطوية على رسائل كثيرة مختلفة في آنٍ واحد. كما أنها استمرار للنهج الذي بدأ بقصة جنازة الأم الكبيرة وإن كان على نحو أقلّ، وهي أيضاً تخلو من تدخلات الراوي الخطابية. وأصبحت من القصص التي باتت تعرف في أميركا اللاتينية وفي أماكن أخرى في نهاية الأمر بقصص الواقعية السحرية، وهو الأسلوب الذي صوره من قبل الروائي إستورياس وكاربنتيه وروبعو حيث تُروى القصة أو جزء منها من خلال وجهة نظر عالمية تقدمها الشخصيات نفسها من دون أي إشارة من المؤلف تبيّن هذه النظرة طريفة أو فولكلورية أو خرافية. فالعالم هو بحسب ما تراه الشخصيات، أو ما هو أشبه بذلك. لأن قصة بحر الزمن الضائع تحتوي على شخصية تعرف أكثر مما تعرف بقية الشخصيات. إن غارسيا ماركيز في حقبة ما بعد كوبا، وبعد أن قيد نفسه بقضايا وطنية في قصة جنازة الأم الكبيرة يطرح للمرة الأولى – الآن قضية الإمبريالية الاقتصادية من خلال شخصية السيد هيربرت، وهو "الأجنبي" الذي يأتي بصفته مبشراً علمانياً إلى البلدة الصغيرة شبه المهجورة. وفي الأيام التي تسبق وصوله يعرف القرويون أن هناك شيئاً سمياً جارياً بحراه لأن شذا الورود يعبق في كل مكان في الجو اللاذع الذي تملأه رائحة السمك عادةً. ثم يصل القادم الجديد ويعلن:

> إنني أغنى أغنياء العالم. ولديّ أموال طائلة ولم يعد
> لدي مكان أضعها فيه. لقد قررت أن أطوف
> في جميع أرجاء العالم كي أحل مشكلات البشر[13].



عي عن القول إن السيد هيربرت لا يحل أي مشكلة، بل يريد من فقر البلدة ويزيد من ثرائه ويمضي في سبيله. لكنه قبل رحيله يرسم صوراً جميلة في أذهان الأهالي - مثلما يرسمها صانع أشرطة سينمائية في هوليوود - ويتركهم في حالة يبرّم لم يشعروا بها من قبل، وحالة حنين قلما يستطيعون التعبير عنها. حسناً، سيأتي لاحقاً شخص يحمل الاسم نفسه - السيد هيربرت بكل مقاصده ومراميه - بشركة الموز إلى ماكوندو في رواية مئة عام من العزلة لإحداث الأثر نفسه. وفي حين سوّت قصة جنازة الأم الكبيرة حساب غارسيا ماركيز مع كولومبيا وعزت مشكلات البلاد إلى نظام سياسي مفلس وإلى طبقة حاكمة رجعية، وإلى كنيسة قروسطية وطنية، فإن قصة بحر الزمن الضائع تقدم أخيراً أميركا اللاتينية وهي مادة خام وتسلم الإمبريالية الأميركية، في حين بدأ كاسترو بمعالجة باتيستا والطغمة الحاكمة الكوبية لينتقل بعدها إلى مواجهة الإمبرياليين في الولايات المتحدة الذين كانوا يساندونهم ويمولونهم.

لعل ما يبعث على الدهشة أن شخصاً وثيق الصلة بالحزب الشيوعي منذ سنين كغارسيا ماركيز ينتظر مدة طويلة اليوم حتى ينطق هذا الشخص - الإمبريالية - عن مساوئ بلاده. ولا بد من أن نستنتج أن خيار غارسيا ماركيز لم يكن سهلاً بين الاشتراكية المطبقة فعلاً التي شهدها في أوروبا الشرقية بين عامي 1955-1957 والولايات المتحدة التي عدّت ثقافتها العديد من الأفكار التي نشرها في عموده المعروف *الزرافة*، والتي بذل أدباؤها الشيء الكثير لجعله يصل إلى ما وصل إليه، في حين لم يتورّع معظم أدباء أميركا اللاتينية من الجيل الذي يسبق جيله عن شن الهجمات على الأميركيين الكريهين. من ناحية أخرى، لم يفصل غارسيا ماركيز نفسه بعد فصلاً كلياً عن الأفكار الشيوعية المتشددة، ولهذا، لم ينظر إلى دولة اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية على أنها قوة إمبريالية سلاحها الرئيس التطبيق والتحريف الستاليني للإيديولوجية الماركسية. وعلى العكس من لتحريفات التي اتسم بها بعض من انتقص من سمعة الاشتراكية، فإن غارسيا ماركيز لم يكن بالرجل الذي يندفع لإصدار الأحكام أو لمشكلات معقدة يُراد تبسيطها (بالرغم من الانطباع الاستمراري الذي يحلو له أن يعطيه في الصحافة البورجوازية): لقد كان

يستغرق وقتاً طويلاً في التفكير في الأمور تفكيراً معقداً، ولم يتخذ السبيل البسيط للخروج برأي في القضايا التي تحتاج إلى تأمل عملي. إن القراءة الشاملة لأكثر مؤلفاته تميزاً، يصعب الوصول إليها دائماً.

إن هذه القصة القصيرة مظهراً آخر على المدى البعيد. فهي مؤشر إلى مستقبل بعيد عن ماكوندو - اراكاتاكا، وإيليبير - سوكري، بمعنى اخر، بعيد عن كولومبيا وباتجاه لا أميركا اللاتينية وحسب، بل الشمولية الأدبية أيضاً. لقد دمجت قصة **جنازة الأم الكبيرة** آخر الأمر البلدتين الصغيرتين، وبمعنى آخر، تمكنت عليهم استعداداً لتصفيتهما إذ سعى المؤلف لايجاد وسيلة للرسم على رقعة أكبر. إن رواية **مئة عام من العزلة** تدور أحداثها حقاً في ماكوندو، لكن الواضح أيضاً للقارئ الحصيف منذ الصفحة الأولى أن هذه البلدة ترمز إلى أميركا اللاتينية في مجملها. لقد تحولت ماكوندو بطفرة من رمز وطني إلى رمز قاري.

لكنه بالرغم من ذلك كله لم يدرك بوضوح أن طريق أي روائي لاتيني نحو العظمة في هذا الوقت يكمن مصادفةً أيضاً من خلال أميركا اللاتينية نفسها ومن خلال رؤية قارية. أما هو فلا يزل كولومبياً فالأدباء في أقطار أخرى ممن لديهم وعياً للمفارقة، وعي سياسي أقل تطوراً من وعيه، كانوا قد قفزوا قفزة لم يكن مستعداً بعد للقيام بها: فقد أصبح خوليو كورتاثار الأرجنتيني وماريو فارغاس يوسا البيروفي وقبلهما كارلوس فوينتس المكسيكي أدباء واعين بأنهم أميركيون لاتينيون وأنهم على حق في تأليف روايات على غرار رواية يوليسيس لجيمس جويس تدور عن التحول الذي طرأ على وعيهم وعودتهم إلى القارة شأنهم شأن جيمس جويس، ذلك الأديب الذي ظهر قبلهم في بلد خاضع للاستعمار وكتب عن تحوله إلى أوروبا قبل أربعين عاماً (تذكر طموح ستيفن ديدالس في "تشكيل.. الوعي غير المولود بعد العرقي"). على غارسيا ماركيز أن يعيد تحديد هواجسه - جده وأمه ووالده وكولومبيا - ووضعهم في سياق أميركي لاتيني. لقد أصبح أدباء آخرون من أميركا اللاتينية - مثل إستورياس وكارنتييه وآرتورو أوسلار بيتري - أميركيين لاتينيين وهم في أوائل العقد الثاني من أعمارهم، على حين تطلب ذلك من غرسيا ماركيز أن يصبح في سن الثامنة والثلاثين، وربما ما كان ذلك ليحدث قط لولا حقبة



الانتعاش، لا سيما مبدع تلك الحقبة الكبير الذي دعا إليها كارلوس فوينتس المكسيكي. لحسن حظ غارسيا ماركيز أنه سرعان ما سيلتقي بفوينتس لقاءً يعدو حاسماً في حياته.

لكن الشيء الذي يراه مرة أخرى هو الانضباط العجيب الذي لا يضاهيه انضباط لأديب عرف حتى قبل أن تصيبه الشهرة برمس طويل كيف ينتصر إلى أن يصبح الكتاب الذي يفكّر فيه ماساً حتى وهو يقاوم الضغوط والإغراءات الكبيرة. ومما يزيد من المحنة أن هذه القصة عيبها بحر الزمن الضائع، مروية من منظار معاد للإمبريالية منحته إياه كوبا وإن كان لا يملك اتصالاً بكوبا التي تبدو قد هزأت به وبوجوده في المكسيك - ولا يرى الأشياء كدأبه - فهو بلا روح سياسية كما قد يقول ماوتسي تونغ، بعد أن فقد كوبا، بدأ يتساءل، وإن ليس للمرة الأولى، عما إذا كان يتعيّن عليه أن يتخلى عن تأليف الأدب نهائياً وينتقل بأسرع ما يستطيع إلى كتابة النصوص السينمائية. الآن لديه أسرة، ولا يمكنه يقيناً أن يضحي بمرثيديس ورودريغو والجنين غير المولود بعد من أجل مهنة الأدب التي لم يحقق منها حتى الآن شيئاً كبيراً. وإذا كان قد أخفق في تحقيق إنجاز كبير عندما كان أعزب، فلماذا يتعيّن عليه أن يتعذب دائماً في حين يحاول مراراً وتكراراً أن ينجح؟ لا بد من أن العمل السينمائي الذي طالما رغب دائماً في الاشتغال به في كل الأحوال، قد بدا له أكثر فأكثر أنه التطلع المنطقي الأكبر بالنسبة إلى رجل في مثل موقعه، وأنه حوّل مساعيه إلى تلك الوجهة، على كل حال، إنه لا يزال ضرباً من ضروب الكتابة.

المكسيك دولة، وصناعة الأشرطة السينمائية فيها هي الأكبر في جميع أرجاء العالم المتحدث بالإسبانية[14]. لكن لم يظهر في البداية بأيٍّ من أشرطة السينما وفي مساء يوم ما، ولدى وصوله المنزل بعد بحث لا طائل منه عن عمل - ولم يكن غارسيا ماركيز يُحسن طلب شيء قط - أخبرته مرثيديس أنها لم تعد تملك المال لشراء الطعام، وأنها لم تتمكن من إعطاء رودريغو كميته المطلوبة من الحليب قبل اليوم، فأجلس غارسيا ماركيز ابنه وعمره سنتان على الأرض وشرح له حاله وأقسم إن هذا الشيء لن يحدث مرة ثانية. و"فهم" الطفل وآوى إلى فراشه من دون تذمر ولم يستيقظ في الليل. وفي صباح اليوم التالي اتصل غارسيا ماركيز وهو تواق إلى أن



يطلب معروفاً آخر من صديقه موتيس الذي يبدو أنه أدرك أن صديقه يمكن أن يصبح أخيراً متسوّلاً من دون خيار منه. وبدأ يجري اتصالات لتنظيم مقابلتين، أولاهما مع غوستافو ألاتريستا، وهو رجل أعمال أمضى السنوات الماضية يتنقل بأعجوبة من صناعة الأثاث إلى صناعات أخرى كالسينما والصحافة.

رتب ألاتريستا أموره كي يلتقي غارسيا ماركيز في حانة فندق الريس في السادس والعشرين من أيلول عام 1961، أي بعد مرور ثلاثة أشهر تماماً على وصوله إلى المكسيك. يتذكر غارسيا ماركيز أن نعل فردة حذائه كان متدلياً، ولهذا السبب ذهب مبكراً للمقابلة وانتظر ألاتريستا يرحل قبل أن يمضي هو في طريقه[15]. كان ألاتريستا قد أنتج عدداً من أروع أشرطة لويس بونويل السينمائية وكان متزوجاً آنذاك بسلفيا بينل أكثر ممثلات المكسيك فتنةً وجمالاً والممثلة الرئيسة في ثلاثة أشرطة سينمائية حققها بونويل[16]. من الواضح أن غارسيا ماركيز كان يأمل أنه سيتمكن على الفور من ولوج عالم السينما بمساعدة ألاتريستا، لكن هذا سبق له أن اشترى قبل مدة قصيرة عدد من المطبوعات الشعبية ومنها *الأسرة*، وهي مجلة ذات اهتمامات نسائية، و*قصص لكل فرد*، وهي مجلة مكسيكية تنشر أخبار الجرائم والفضائح. وقرر ألاتريستا أن يعهد بتحرير هذه المطبوعات إلى المتقدم المتردد في العمل بالرغم من شكوكه في الحصول على ذلك العمل. فقد ارتكب موتيس غلطة عندما أظهر له بعض كتابات غارسيا ماركيز الصحفية السابقة بوصفها تدعم موقفه، لكن ألاتريستا خامره الشك وقال بصوت هادر: هذا الرجل جيد أكثر مما ينبغي. لكن موتيس أكد له أن في وسع صديقه أن يكتب أي شيء. وبعد تردد قبل غارسيا ماركيز الوظيفة - الوظيفتين - ومضى إلى بيته وسأل رودريغو عن أكثر شيء يحبه في العالم. "كرة". فما كان من أبيه إلا أن خرج واشترى أكبر كرة استطاع أن يجدها.

وهكذا ودّع غارسيا ماركيز، ولو إلى حين، أحلامه بشأن السينما وقبل بالعمل في كلتا المجلتين شريطة ألاّ يظهر اسمه مع أسماء العاملين فيهما، وأنه غير مضطر إلى كتابة أي موضوع باسمه، وأصبح مسؤولاً عن مجلتي *الأسرة* و*قصص لكل فرد*: جبهة المنزل وجبهة الشارع حسب رأيه. ولم يكن هذا العمل الذي قبل به



تراجعاً مهيناً للصحافة وحسب، بل إلى أدنى مستوياتها الممكنة أيضاً. عمل في المكتب الكائن في شارع إسبرجنتيس سور بلا آلة كاتبة، وقام بإدارة شؤونه كأنه يصنع قمارات في يديه ويمسك بملاقط. كان كل شيء فوق طاقته. وكانت آخر مرة اضطر فيها إلى التضحية بمهنته على هذا النحو في أثناء الأزمة التي حدثت في أعقاب انتقال أبويه من سوكري إلى كارتاخينا عام 1951. لكنه حتى في ذلك الوقت كان يتمتع بالوقت للاستمرار في تأليف رواية **عاصفة الأوراق** في الفترات التي كانت تفصل بين التزاماته. أما الآن، فلديه زوجة وطفل وعليهما أن يأكلا الطعام حتى وإن كان قد اعتاد هو نفسه عن الاستغناء عن الطعام. صرَّ أسنانه وأعدَّ نفسه ليقول وداعاً لا للسينما وحسب، بل للأدب أيضاً.

ومن مجلات الناشر الأخرى مجلة *إس. نوب* التي ظلت وفيّة لمبادئها فلم تبع نسخة واحدة حتى ذلك الوقت، لكنها تمكنت من الصمود والعيش متطفلة على ظهري محرّرَي غارسيا ماركيز الشعبيتين. كانت المجلة يومئذ بإدارة كاتبين طليعيين هما سلفادور إليثوندو وخوان غارسيا بونس، وتذمر غارسيا ماركيز بمرارة من أنهما أرستقراطيان أدبيان يستغلان جهوده، من دون أن يعلم أن ابنه الذي لم يولد بعد سيتزوج يوماً ما بابنة إليثوندو التي لم تولد بعد أيضاً[17]. ومن حين إلى آخر، ولما زاد الطين بلة، أن ألاتريستا سيسمى رفع مرتب موظفه المعذب منذ زمن طويل. وفي إحدى المرات تخلّف عن الدفع مدة ثلاثة أشهر، ما اضطر غارسيا ماركيز إلى ملاحقته في كل حدب وصوب. وفي نهاية المطاف لحق به إلى داخل حمام تركي واضطر ألاتريستا وهو يتعرّق أن يعطيه شيكاً وسط البخار الذي شمل المكان برمته. ولما خرج غارسيا ماركيز بالشيك رأى أن الكتابة قد مُحيَت ما اضطره إلى أن يهرول عائداً إليه وملاحقته إلى غرفة تبديل الثياب[18]. وكان بذلك يشبه الممثل الهزلي المكسيكي كانتينفلاس.

وفي غضون أسابيع قليلة، وبالرغم من امتعاضه من العمل، تمكن من تطوير تصميم المجلتين وأسلوبهما. ومن ضمن وصفات الطبخ والتطريز في مجلة الأسرة التي كانت تحظى بجمهور واسع من القراء على امتداد القارة، والقصص التي تقشعر لها الأبدان والصور الغريبة من مجلة الحوادث، نشر روايات عظيمة بصورة مختصرة

وحلقات مسلسلة عن سيَر ذاتية وقصص السحري وتحقيقات منوعة مثيرة للاهتمام عن ثقافات أخرى، وكل ما استطاع أن يفكّر في نشره. وكان غارسيا ماركيز قد أدى مثل هذا العمل من قبل لمجلة كرونيكا في بارانكيا، ومجلة فنزويلا غرافيكا في كاراكاس. وكانت أكثر المواد المنشورة مما ينم السطو عليه من مجلات في دول أخرى باستخدام عميق لقص وللصق ويُضاف إليه مقدار ضئيل من اليأس، وجرعة كبيرة من السأم، وذرة من السخرية[19]. وخلال الأشهر الأولى من سنة 1962 زادت مبيعات مجلة الحوادث زهاء ألف نسخة لكل عدد ولا تزال المجلات تواصل صدورها. وفي شهر نيسان، تمكن غارسيا ماركيز بكل برود من أن يخبر بلينيو مندوثا أن لديه الآن "مكتب مفروشاً بالسجاد وسكرتيرتين، وما يشبه البيت بحديقة، ورئيساً إما أن يكون عبقرياً نادراً أو مجنوناً خرفاً، وهو ما لم أعرفه بعد. لم أبلغ الشهرة بحيث أصبحوا يشيرون إليّ بالبنان، لكنني أفكّر في شراء سيارة ميرسيدس بنز في تموز بالرغم من أنني انتقلت للسكن في بيت يبعد مسافة ثلاثة شوارع عن المكتب. ولن تتولاك الدهشة إذا ما انتقلت من هنا إلى ولاية ميامي لتنظيم الثورة المضادة... إننا نتوقع ولادة أليخاندرا بعد عشرة أيام، وتعيش مرثيديس الآن في هذه الفترة الطويلة التي يصعب فيها احتمال النساء لا بوصفهن زوجات وحسب، بل بوصفهن صورة. على كل حال، إنها تعد العدة لانتقامها: فهي ستبتاع عدداً كبيراً من الثياب والأحذية وغيرها من الحاجيات عندما تعود إلى حجمها الطبيعي"[20]

اقترح غيرمو أنخولو في أيلول سنة 1961 أن يدفع مخطوطة روايته غير المنشورة في ساعة نحس للمشاركة في الجائزة الأدبية الكولومبية لسنة 1961 التي ترعاها شركة إيسو، والتي تُمنح في العام التالي 1962[21]. وضغط عليه ألفارو موتيس أيضاً، وقيل إن الشركة تلقت 173 كتاباً ولا يبدو أن أياً منها كان مرضياً.

من هنا جاء الاقتراح بوجوب أن يرسل غارسيا ماركيز مخطوطته في اللحظة الأخيرة.

ويتذكر غارسيا ماركيز في وقت لاحق أنه نزع ربطة عنقه وربما إلى مخطوطته التي طالما سافرت وإياه كثيراً ونقّحها للمرة الأخيرة[22] إن رواية في ساعة



نحس التي لم يحبها كاتبها قط، لم تحظ بإعجاب النقاد أيضاً. فحبكتها يصعب الاقتناع بها والشخصيات تفتقر إلى النمو. لكنها بالرغم من ذلك، تمتلك خاصية سينمائية سلسة ونغمة هادئة لا تخفق في ترك الانطباع على القارئ حتى إن كان الموضوع الكئيب لا تخفف منه روح الدعابة ولا الصنعة المحكمة.

اتخذت الأكاديمية الكولومبية القرار بالإبانة عن شركة إيسو ومنحت الجائزة لمخطوطة غارسيا ماركيز. وكانت قد طلبت منه أن يغيّر العنوان، فتخلى عن العنوان الأساسي هذه المدينة البراز ووضع لها عنواناً آخر هو في ساعة نحس. وتبين أن رئيس الأكاديمية الكولومبية هو رجل الدين الأب فيليكس ريستريبو الذي اضطرب بسبب ما تحتويه من كلمات مثل "مانع الحمل" و"الاستمناء" بخاصة وأنه ينظر إلى نفسه بصفته وصياً على اللغة الإسبانية وأخلاق رعيته. ولهذا طلب من السفير الكولومبي في المكسيك كارلوس أرانغو بيريث أن يوصل رسالة إلى غارسيا ماركيز وأن يكلمه كلاماً حذراً رقيقاً وأن يطلب منه حذف الكلمتين البذيئتين. فما كان من غارسيا ماركيز إلا أن قرر، شأنه شأن سيمان، السماح للسفير بحذف كلمة واحدة فاختار كلمة "استمناء" بالرغم من أنه ضمن في جيبه مبلغ الجائزة ومقداره ثلاثة آلاف دولار.

وتشاء الأقدار أن تصدر هيأة المحلفين قرارها في اليوم الذي ولد فيه غونثالو، ثاني أطفال غارسيا بارتشا، في السادس عشر من نيسان عام 1962. يقول غارسيا ماركيز لاحقاً لبلينيو ميندوثا إن الطفل ولد في "ست دقائق"، "وقلقنا الوحيد تمثّل في احتمال أن يولد في السيارة وهي في طريقها إلى المستشفى". وبعد أن نال الجائزة بات ثرياً بسبب ومؤقتاً، واستخدم قسماً من النقود لدفع نفقات إقامة ميرثيديس في المستشفى[23]. لكن ما دام قد شعر بأن النقود كانت "مسروقة" - إذ صرّح لاحقاً ربما عاقاً، بن دخول الرواية المسابقة كان أسوأ قرار اتخذه في حياته - ثم قرر بدافع الاعتقاد بالخرافة عدم إنفاقه على مستلزمات البيت الاعتيادية وشراء سيارة عوضاً عن ذلك، فاشترى سيارة بيضاء من طراز أوبل 1962 مجلدة باللون الأحمر ليطوف بأسرته في أرجاء العاصمة مترامية الأطراف. وأخبر بلينيو ميندوثا قائلاً: "إنها أغرب لعبة اقتنيتها في حياتي كلها، وكنت أستيقظ في منتصف الليل لأتأكد من وجودها في مكانها"[24].



لكــن هذا لم يكن كافياً. فقد ربح جائزة أدبية، ولكنه لم يعد أديباً. واستمر يتذمــر ووجــد نفســه لا يــزال يحــنّ إلى العمل في السينما. وعلى كثرة آماله واستراتيجيه في إغواء ألاتريستا من خلال عمله الدؤوب، إلا أنه لم يحصل على شيء مقابــل ذلــك[25]. وكلما عمل على زيادة إيراد ألاتريستا بتطوير وتلفيق المحتين، قل احتمال سماح ألاتريستا له بالانتقال.

ولم يعد متأكداً من قدرته على الكتابة حتى في ظل ظروف مناسبة.

فمنــذ زواجــه لم يكتب إلا عدداً قليلاً من القصص القصيرة، كما أن في ساعة نحــس المحتقرة بدت له قصة طويلة. لقد كان ذهنه مليئاً بأشياء تافهة في العمل، وقضايا أســرية في البيت، وأحاديث عن السينما مع أصدقائه. ومما ينطوي على مفارقة التفكير، أنــه شرع، من دون اعتقاد، بتأليف كتاب آخر بعد رواية مئة عام من العزلة - وهو كــتاب إرينديرا وقصص أخرى - ولكنه لم يستطع تأليف الرواية التي كان يتوق إليها طــوال حــياته. فرجع إليها بعد بضعة أشهر، بمعنى أنه رجع إلى رواية البيت في وقت فــراغه. لكن رواية البيت لم تكن مسكونة إلا بالأشباح، وهذا وجد نفسه في ورطة. فعــاد بالــتفكير في فكرة أخرى جعلته يشعر أنها رواية سيكتب لها الفور، رواية عنوانها خريف البطريرك[26]. لم تكن رواية مئة عام من العزلة موجودة حتى بوصفها عنواناً لا أكثــر، على حين كانت هذه الرواية الأخرى التي أجهضت ذات يوم موجودة بعنوانها. وفي حــين نشرت مجموعة قصص جنازة الأم الكبيرة في نيسان عام 1962 وهو الشهر الذي ربح فيه الجائزة عن رواية في ساعة نحس، وبعد تنقيه النسخ الأولى من رواية ليس للعقيد من يكاتبه، جمع ثلاثمئة صفحة من رواية خريف البطريرك ولكنه ظل يشعر أنه لــيس على الطريق الصحيح. وأخيراً تخلى عنها مرة أخرى، ويقول في ما بعد إن أسماء الشخــصيات وحدها هي التي بقيت حيّة[27]. لعل تلك الرواية المكتوبة عن دكتاتور - وتــدور إلى حدّ ما عن نفسه في الوقت الراهن - لم يكن ممكناً كتابتها قط قبل معالجة مشكلة رواية البيت؛ عن أسرته في الوقت الماضي. شعر بالإحباط واليأس والتشوّش مرة أخرى، فرمى المخطوطة جانباً وبدأ يفكّر للمرة الأولى في مستقبل بلا أدب.

غير أن ذلك كان فوق طاقته، وازداد إحباطه أكثر فأكثر في عمله في المجلتين المتواضعتين وبدأ يتذمر لرفيقه بلينيو ميندوثا: "إنني ألجأ في الوقت الراهن إلى تعاطي



المشكلات التي أشرها على الحبر مثلما أشر الزبدة، لكني لا زلت غير قادر على النوم أكثر من أربع ساعات. أعتقد أن أملي الوحيد يكمن في إعادة تكويني من جديد .. يمكنك أن تتخيل أني لا أكتب أي شيء. لقد مضى شهران منذ أن استعملت الآلة الكاتبة، ولكنني لا أعرف من أين أبدأ، إني اضطرب لفكرة كوني في نهاية المطاف لن أكتب شيئاً ولن أصبح ثرياً أيضاً. ليس لدي ما أقوله أكثر من هذا. لقد قضي علي، أنا ضحية ظرف جيد"[28].

سياسياً، كانت علاقته بكوبا تثير أعصابه. وبقدر ما يتعلق الأمر به، كانت الأمور لا تزال معلقة. وبقدر ما يتعلق الأمر بكوبا، فإن الأمور وصلت إلى غاياتها. وبالرغم من المشكلات التي واجهها في نيويورك، فإنه لا يزال يشعر بأن صعوباته تكمن مع أصحاب الفكر المحدود وليس مع النظام الكوبي نفسه. لعله شعر في أعماقه أنه كان ينبغي له البقاء مدة أطول إذ إن إعجابه بكاسترو ظل ينمو وهو يرافق الزعيم الكوبي الشاب، وغيفارا الذي لا يلين، وهما يتحديان قوة الولايات المتحدة والجنود المصطفين كتفاً إلى كتف في دول أميركا اللاتينية لبورجوازية الشمالية. وفي شهر نيسان سنة 1962، وفيما كان كاسترو يواجه كلاً من العالم الرأسمالي برمته والمتشددين في الحزب الشيوعي الكوبي، كتب غارسيا ماركيز رسالة إلى بلينيو ميندوث متباهياً كعهده بأنه يملك معلومات سرية وقال فيها: "إني أعرف بحماس حكاية كاسترو بشأن طرد آنيبال إيسكالانتي، وإني متأكد من أن ماسيتي سيُرَدّ له الاعتبار بسرعة. لقد تفوه فيدل ببعض الكلمات القاسية أمام الرفاق – "لا تظن أنك انتصرت في هذه الثورة عن طريق اليانصيب" – حتى إنني خشيت في لحظة ما أن تكون الأزمة خطيرة. إنه لأمر لا يصدق أن تتجاوز كوبا المراحل التي تتطلب عشر سنوات أو عشرين سنة في دول أخرى. لدي الانطباع أن الرفاق طأطأوا رؤوسهم أمام فيدل، لكني لا أستبعد الاحتمال – وأنا أدرك ما أقوله تماماً – أنهم قد يقتلونه في أي يوم الآن. لكني في هذه اللحظة، أشعر بالغبطة لما سأقوله لنا كلنا ولبلدنا لحمل الصغير كوبا التي تثبت أنها درس مدهش للجميع"[29].

في هذه الرسالة إشراقات: ها هو غارسيا ماركيز بعد سنتين من انفصاله عن بريسا لاتينا وخيبة أمله مع محاولات المتشددين للسيطرة عليها، يواصل استثمار

اعـــتقاده السياسي، وأحلامه بمستقبل كوبا، وثقته بزعيمها الذي لا تحد إعجابه به أي حدود. إننا نشاهد أمامنا كيف يتزامن مقتربان اثنان متباينان إلى كوبا" الأول، أسلوب في الكلام يشي بأن غارسيا ماركيز، شأنه شأن عدد كبير من الاشتراكيين في ذلك الزمان، يشعر بأنه يعرف فيدل معرفة شخصية كأنه صديقه أو حتى أخوه الأكبر، مثلما نشعر بأننا نعرف شخصاً معرفة جيدة وإن كانت من الخارج. ثانياً، وهـــذا أمـــر غـــير مألوف كثيراً، إن شعور الروائي بأنه يملك رؤية داخلية لزعيم الكوبـــي، كأن كاسترو شخصية من شخصيات أحد مؤلفاته، يتصرف ويتكلم بهذا القدر أو ذاك لتحقيق رغبات غارسيا ماركيز. ومع هذا، فإن كوبا الآن مغلقة أبوابها في وجهه، وكذلك السينما. وبهذا يبدو أن الشيء الوحيد الذي يسيطر عليه هو أدبه. لكنه بدأ يفقد الأمل.

* * *

مرَّ لعام 1962 بطيئاً، حدثت فيه أزمة الصواريخ الكوبية وانتهت، واجتازها العالم كله بعد أن اهتز واهتاج. لكن لا وجود حتى الآن للضوء في نهاية نفق غارسيا ماركيز الذي لا نهاية له. ثم، الحمد لله، ففي نيسان عام 1963 تمكن أخيراً من الهرب من مجلتي *الأسرة* و*قصص لكل فرد* وأصبح "كاتباً محترفاً"[30]، كما قال بجبور ابلينيو ميندوثا. وكان يعني بذلك كاتب نصوص سينمائية، لكن هذا تفسير مُفخَّم. بعد مناقشة محتدة مع موتيديس استغل فرصة في مشروع خاص بكتابة نص يخص شريطاً سينمائياً بعنوان *راعي البقر*. وكان في ذهن غارسيا ماركيز ممثل مكسيكي قدير اسمه بيدرو آرميداريث ليؤدي دور البطولة. وعندما سمع ألاتريستا عن المشروع أراد أن يستحوذ عليه وأن يخرجه صانع الأفلام المكسيكي الكبير إميليو (إلهندي) فيرنانديث. ولـــا اكتشف أن غارسيا ماركيز وعد بإعطاء النص السينمائي إلى المخرج الشاب خوســـيه لويس غونثاليث دي ليون على أن تكون له السيطرة الكاملة على النص، ولـــا أصبح متحتماً أن غارسيا ماركيز لن يتخلى عن وعده مع المخرج الآخر، غيَّر مجأة من لهجته السابقة وأخبر غارسيا ماركيز أنه سيدفع له الأجر نفسه الذي سبق لـــه أن دفعـــه له لقاء تحريره المجلتين وأن يبقى في البيت لسنة أخرى ليكتب نصين سينمائيين آخرين بحسب اختياره[31]. وهنا اغتبط غارسيا ماركيز لنجاح رهانه.



لسوء الحظ بددت بعود ألاتريست خلال الصيف فطلب غارسيا ماركيز أن يحرره من اتفاقهما، ولكنه وعد أيضاً بالاستمرار في توفير غطاء التأشيرة له. وبعد أن نجح غارسيا ماركيز مرة أخرى في إثارة التنافس بين منتجي الأفلام اتصل بصديق آخر من أصدقاء ألفارو موتيس وهو المنتج مانويل بارباتشانو الذي كان سعيداً بأن يعمل وإياه ولكن على أساس مؤقت. كان بارباكانو مهووساً بالاشتغال على أعمال خوان رولفو، ورسم خططه لتنفيذ قصة الديك الذهبي على الشاشة. تدور هذه القصة حول رجل فقير ينقذ ديكاً من ديوك العراك كان يحتضر، فيكتشف أنه عثر على بطل، فيتطلع إلى ثروة هائلة وإلى حسناء المطقة وهي عشيقة رجل غني، وفي نهاية المطاف يخسر كل من له علاقة بالأمر كل شيء فاتوا من أجله. إن هذه القصة تصور عالم رواية ليس للعقيد من يكاتبه، وقد أوصى موتيس بصديقه المتحمس على أنه الرجل المناسب تماماً للوظيفة، ولم تكن هناك فرصة عمل أفضل تصادف غارسيا ماركيز في طريقه. لقد كان المخرج روبيرتو غافالدون واحداً من أفضل المخرجين، وكانت مكانته السياسية بين صناع الأشرطة السينمائية هي الأحسن؛ على حين كان مدير التصوير غابرييل فيغيروا أذكى مصور، ربما، في عموم أميركا اللاتينية. التقى غارسيا ماركيز أخيراً مؤلف القصص السكير المكتئب خوان رولفو في حفلة زفاف أواخر شهر تشرين الثاني عام 1963 - في اليوم الذي توفي فيه لي هارفي أوزوالد بعد مدة قصيرة على اتهامه باغتيال الرئيس جون أف. كنيدي - وأصبحا صديقين بقدر ما تسمح به حالة رولفو وقلق غارسيا ماركيز وقنوطه.

لم يكن بارباكانو يوفر لغارسيا ماركيز الأمان نفسه الذي كان يوفره له ألاتريستا، وكان عليه أن يسدد الفواتير المترتبة عليه. لهذا اتصل غارسيا ماركيز بوكالة وولتر طومسون للإعلان في شهر أيلول، وعلى الفور حظي بالوظيفة. لكن بالرغم من أن تلك الوظيفة لم تكن هي الوظيفة المثالية التي كان ينشدها، إلا أن الإعلان كان يناسب مزاجه أكثر ويمنحه حرية أكبر في العمل الشاق في إدارة المجلات. ففي هذا الموقع الجديد أصبح على الأقل في مكانة أفضل ليقوم بما كان يقوم به دائماً: متابعة عمله اليومي بكفاءة ومسؤولية مع الاحتفاظ بطاقته وإيجاد



الوقت للعمل في الأمور التي تثير اهتمامه حقاً"[32]. لقد قدّر له أن يمضي أواخر العام 1963 وعام 1964 وقسماً كبيراً من عام 1965 وهو يعمل في آن واحد في الأعمال السينمائية المؤقتة وفي وكالات الإعلان؛ وولتر طومسون أولاً، تليها شركة ستانتون، ثمّ بريتكارد آند وود، وهي التي كانت جزءاً من شركة ماك إريكسون. كانت شركتا وولتر طومسون وماك إريكسون من بين أفضل ثلاث شركات إعلانية في العالم، فوجد غارسيا ماركيز نفسه لبعض الوقت يعمل مع حاملي بيرق الرأسمالية الاحتكارية الأميركية، فرع شارع ماديسون، وهو الأمر الذي لم يكن يرغب في إلقاء الضوء عليه. وكان موتيس قد سبقه في هذا العمل، كما في أشياء أخرى، إذ عمل في شركة ستانتون في بداية إقامته في المكسيك ومنذ اللحظة التي تأسست فيها.

وبعد ذلك بزمن، أعدّت التجربة المكتسبة خلال تلك المدة الغريبة إلى حدّ ما غارسيا ماركيز للتفاوض بشأن شهرته المستقبلية؛ لفهم الشهرة ولتفكير في كيفية طرح نفسه والظهور بصورة شخصية جديدة وإدارتها. كان هذا التدريب المبكر في الإعلان والعلاقات العامة يبدو وهو يسمح له، ويا للمفارقة، بأن يعيش وسط تناقضاته السياسية أمام الملأ من دون أن يشير إليه بأصابع الاتهام المعلقون الأميركيون المعادون في العقود الرمادية التالية. كان يتمتع بمهارة مكتسبة. وكلما أوعز إليه شيء، نجد مديره السكير الإصلاحي يرفع قبضة يده اليمنى ويضرب الهواء كأنه مصارع فاز بجائزة. وحظي بمساعدة من البيت أيضاً: فهذه ميرثيديس تفاجئني دائماً بعبارات لا تنسى عن المتنوع فتقول: "لا يمكنك أن تحيا من دون محارم من نوع كلينكس" مثلاً، وحوّل بعض ملاحظاتها الفطنة إلى شعارات مرحة[33].

أصبح غارسيا ماركيز الآن في خضم الوسط الثقافي المكسيكي في واحدة من أكثر المحطات تأثيراً وإثارة. فقد كان رد المكسيك على شارع كارنابي وشارع كنج المتدبيين عام 1964 هو ثوناروسا. أما إيرا، دار النشر اليسارية الممولة حديثاً، فقد أصدرت حينها طبعة ثانية من رواية **ليس للعقيد من يكاتبه** في أيلول 1963 مما بعث السرور في نفس غارسيا ماركيز بالرغم من أن عدد المطبوع منها هو ألف نسخة فقط. وبدأ يحيا حياة اجتماعية صاخبة وسط السترات الجلدية السوداء



والسطارات الذاكنة التي كانت تميز أدباء المدينة المصريين ورساميه وممثليه السينمائيين ومغنيه وصحصصها. عاش الزوجان حياة مرفهة، وارتديا ثياباً أنيقة، والتحق رودريغو وغونثالو بمدارس إنكليزية خاصة، مثل روضة كوليغيو وليم ومدرسة الملكة إليزابيث في سان آنخل[34]. وامتلكت الأسرة سيارة وبدأت تبحث عن منزل أكثر رحابة.

بعد مرور أشهر على بدء غارسيا ماركيز عمله في الكتابة السينمائية، أنجز النص السينمائي لقصة رولفو **الديك الذهبي**[35]، وكان عملاً ممتازاً من وجهة نظر بارباكانو وإن كان لديه تحفظ واحد: قال إنه نص كولومبي أكثر مما هو مكسيكي. وفي هذه الآونة تحسن حظ غارسيا ماركيز أكثر، بل تحسن تحسناً ممتازاً، بعد عاد إلى المكسيك كارلوس فوينتس أديب البلاد الشاب البارز الذي يكبر غارسيا ماركيز بثمانية عشر شهراً في أواخر سنة 1963 بعد إقامة مطولة في أوروبا[36]. كان للاثنين عدد كبير من الأصدقاء. وبصرف النظر عن الشخص الذي عرّفهما إلى بعضهما بعضاً، فقد كان في تعارفهما فائدة عند لقائهما أول مرة لأن فوينتس كان يعرف من هو غارسيا ماركيز وكان معجباً بكتاباته. وكما يذكر الأديب المكسيكي: "سمعت أول مرة عن غابرييل من خلال ألفارو موتيس الذي أعطاني في أواخر عقد الخمسينيات نسخة من رواية **عاصفة الأوراق**، وقال لي إن هذا أفضل كتاب صدر حديثاً. لكنه لم يذكر زمان صدوره ولا مكانه"[37]. نتيجة لتلك التزكية، نشر فوينتس رواية **جنازة الأم الكبيرة** و**مونولوج إيزابيل وهي تراقب المطر في ماكوندو** في مجلة ريفيستا مكسيكانا دي ليترابيورا، وكتب مراجعة متحمسة لرواية **ليس للعقيد من يكاتبه** في مجلة لا كالتورا آن مكسيكو في كانون الثاني 1963.

وبالرغم من ذلك، فإن فوينتس كان كافياً لأن يزيد من الشعور بالنقص لدى أي شخص. فقد كانت تربيته ممتازة، وقد استفاد منها أقصى استفادة. وكان يتكلم الإنكليزية والفرنسية بطريقة مدهشة وبلكنة مكسيكية محولة كلاسيكية. وكان وسيماً، ومندفعاً، وحيوياً، وجذاباً في كل شيء. وفي عام 1957 كان قد تزوج بريتا مانيدو وهي ممثلة بارزة، ولكنه ربط في ما بعد بعلاقة درامية مع نجمة هوليوود سيئة الحظ جين سيبرغ عندما كانت تمثل الشريط السينمائي ماشو كالاباث

في دوارينغو. وفي عام 1958 نشر كتاب **حيث الهواء نقيّ** الذي يمكن عدُّه الكتاب الذي بشَّر بانتشار الرواية الأميركية اللاتينية. وكما هو شأن غارسيا ماركيز، فقد سافر فوينتس إلى كوبا في أعقاب الثورة مباشرة. إلا أنه كان مستقلاً سياسياً دائماً. وفي نهاية الأمر يتدبر أمره بعد أن مُنع من دخول كوبا الشيوعية وإسبانيا الفاشية والولايات المتحدة الليبرالية. وفي عام 1962 نشر مؤلفات مهمة جداً. فالرواية القوطية القصيرة أورا، ورواية **موت آرتيمو كروز** التي تعد واحدة من أعظم الروايات المكسيكية في القرن العشرين، وربما أعظم الروايات قاطبة، والتي تدور حول الثورة المكسيكية؛ وقد أكمل كتابتها في هافانا حيث شاهد مسار بلاده الثوري تتوارى أمام منظور الثورة الكوبية الجديدة. لقد كان كارلوس فوينتس وهو في سن الخامسة والثلاثين الأديب البارز الشاب بلا منازع في المكسيك، والنجم الصاعد على الساحة الأدبية العالمية.

ولما كان لكلا الرجلين اهتمامات مشتركة ومهنة واحدة، فقد تطورت بينهما على جناح السرعة علاقة وثيقة عادت على كليهما بالنفع. صحيح أن غارسيا ماركيز كان أمامه الشيء الكثير وغير المحدود كي يكسبه، لكن فوينتس كان يسبقه بسنوات في ضوء التجربة الأدبية إضافة إلى أنه مكسيكي يعيش في بلاده نفسها، وأنه صور على مدى عقد من الزمان شبكة مذهلة من العلاقات مع عدد كبير من المثقفين في العالم؛ العوالم التي كان غارسيا ماركيز يصبو إلى الانتقال إليها. وكان في وسع فوينتس أن يصطحبه إلى أماكن ليس في وسع أديب آخر من أدباء أميركا اللاتينية أن يصلها. وكان كرمه الأدبي لا يضارعه كرم. وفوق هذا كله، فإن وعي كارلوس فوينتس الأميركي اللاتيني كان أكثر تقدماً من وعي غارسيا ماركيز، وكان في مستطاعه أن يعلم الكولومبي غير الواثق من نفسه ثقة تامة، وأن يُعدّه لأداء دور في المشهد الدرامي الأدبي الواسع في أميركا اللاتينية الذي كان فوينتس يتوقعه له أكثر من أي شخص آخر على قيد الحياة، ويكون بالتالي، مسؤولاً عنه شخصياً أكثر من أي شخص آخر على قيد الحياة أيضاً.

بدأ غارسيا ماركيز وفوينتس يعملان معاً في النص السينمائي **الديك الذهبي** برفقة روبيرتو غاڤالدون. ويزعم غارسيا ماركيز في وقت لاحق أنه أمضى



هو وفويتس خمسة أشهر طويلة يتناقشان مع المخرج بشأن النص من دون التوصل إلى نتيجة. لكن تصوير الشريط السينمائي قد ابتدأ في الفترة الممتدة من السابع عشر مـــن حزيـــران وحـــتى الـــرابع والعـــشرين من تموز عام 1964 في أستوديوهات تـــشوروبوسكو الشهيرة، على حين صُورت المشاهد الخارجية في كويرنارو وأدى دور الـــبطولة فيه إغناثيو لوبيث تارسو ولونشا بيّا. وعندما عرض الشريط في نهاية المطاف في الثامن عشر من كانون الأول 1964 أخفق إخفاقاً تجارياً ونقدياً تماماً. لقد كان نص رولفو نصاً واقعياً، ميثولوجياً ضمناً، لكنه كان أيضاً نصاً موحياً ومقتصداً وليس صريحاً البتة، مما زاد من صعوبة اقتباسه للشاشة الكبيرة.

بالرغم من أن كلا الرجلين واصلا العمل في السينما، وبخاصة غارسيا ماركيز، الـــذي قـــال "إنه صمام أمان أُحرر فيه أشباحي"(38)، إلاّ أن أيّاً منهما لم يشعر بالارتـــياح الـــتام في هـــذا الاشتغال بالسينما. وليس صعباً أن نلاحظ السبب في مواصـــلتهما ذلك العمل: فالأدب لم يكن مهنة مربحة في تلك الأيام، أو هكذا بدا، علـــى حين كانت السينما أسلوباً يخاطب مباشرة وعي الجمهور الواسع في أميركا اللاتينية. زد على ذلك أن السينما في ستينيات القرن العشرين، وفي مجتمع مكبوت نسبياً كمجتمع المكسيك، فتحت الطريق من خلال مدخلها الجديد للجنس والعري ولجوئها إلى استخدام الممثلات الفاتنات والمخرجين الشباب الطليعيين غير المتحفظين للوصـــول إلى الفتنة والحداثة واستقلال الثقافي. لكن عقد الستينيات شجع أيضاً، لـــسوء الحـــظ، على حدوث ثورة كبيرة، ولكنها بلهاء وبلا معنى، ليس أقلها في المكسيك. وأصبح السلوك العصري وملاحقة المستحدثات من الأمور الضرورية في تلـــك الأيام، ووجد غارسيا وكارلوس فوينتس نفسيهما واقعين تحت إغراء السوق الثقافية وآلة علاقاته العامة.

وفي تمـــوز اعتـــرف غارسيا ماركيز لبلينيو ميندوثا أن إعجابه برواية أليخو كاربنتيه الأخيرة انفجار في كاتدرائية، جعله يبدأ بالتفكير - بعدي عن فوينتس بلا شك - في العلاقة بين الموضوعات والصياغة الأدبية الباروكية. وجذب اهتمام بلينيو إلى الـــنجاح الذي حققته في أوروبا في العام الماضي ترجمات انفجار في كاتدرائية ومـــوت آرتيمو كروز، وكذلك رواية الحجلة التي كتبها خوليو كورتاثار ورواية

عصر البطل لماريو فارغاس يوسا، وتلك لائحة تضم عناوين أول ثلاث روايات لم تكن قد نشرت بعد بازدهار الرواية في أميركا اللاتينية[39]. ولم يكن غارسيا ماركيز ليحلم في أن تكون الرواية الرابعة والأكثر شهرة منها جميعاً هي الرواية التي سيكتبها بنفسه.

منح غارسيا ماركيز ومرثيديس فرصة الانتقال إلى بيت جديد يناسب أهدافهما تماماً[40]. فقد أخبر بليينو بأن البيت "فسيح ذو حديقة، ومكتب، وغرفة للضيوف، وهاتف، وكل متطلبات الراحة للحياة البورجوازية. وفي بقعة هادئة جداً وتقليدية تحتشد بنحو لامعة" لكن هذا الكلام ينطوي على مبالغة: صحيح أن البيت قريب من مثل تلك البقعة، إلا أنه كان مفصولاً عنها بطريق رئيس. لكنه بالرغم من ذلك، كان بيتاً مقبولاً وهادئاً ومريحاً مما لا يبعث على الشك وأصبح لغارسيا ماركيز أخيراً مكتب خاص به، "كهف مملوء بالأوراق". ولم يكن البيت ليحتوي على قدر كبير من الأثاث، إلا أنه كان أوسع من كل البيوت التي سبق للأسرة أن سكنت فيها. وبالرغم من أنه كان حاوياً إلى حدٍّ كبير من الأثاث، إلا أنه يصدح دائماً بالموسيقى وبخاصة موسيقى باروك والبيتلز[41].

ولكن في خضم هذه الدوامة الاجتماعية، ومن وراء الوهمية الزائفة، وبالرغم من الأمن والاحترام اللذين اكتسبهما غارسيا ماركيز، إلاّ أن شعوره بالافتقار إلى السعادة كان متزايداً. فالصور التي التقطت له في تلك المرحلة تدعو للألم: فالتوتر والإجهاد باديان عليه. وقال البعض إنهم شاهدوه وهو على استعداد للشجار في الحفلات. ولم يكن يكتب ما يهتم به أبداً، باستثناء تأليفه روايته **خريف البطريرك** بين حين وآخر التي شعر أنها لا تُفضي به إلى أي شيء. لقد كان غارسيا ماركيز في تلك الآونة كاتب نصوص سينمائية، بورجوازياً صغيراً ورجل إعلانات، وكان الأدباء الناجحون من أمثال خوليو كورتاثار وماريو فارغاس يوسا اللذين لم تكن لهما صلات ثورية سابقة، موضع احتفاء من لدن الثورة الكوبية في حين أُهمل شأنه. وعندما زار ناقد الأدب البارز من أوروغواي أمير رودريغيث مونيغال المكسيك للتدريس، وهو الذي سيؤدي دوراً مؤثراً لا في الدعاية لمونيتس وغارسيا ماركيز وحسب، بل لكل الأدباء الآخرين في حقبة انتعاش أدب أميركا اللاتينية، وجد

غارسيا ماركيز في حالة عملية مضطربة: "روحاً معذبة، ساكناً من سكان الجحيم، جحيم العقم الأدبي. وكان الكلام وإياه عن كتاباته السابقة، والإطراء على روايته **ليس للعقيد من يكاتبه** على سبيل المثال، كان أشبه بمحاولة تعذيبه بآلة من أكثر آلات عهد التفتيش قسوة"[42].

غير أن غارسيا ماركيز استمر في تحمل المشاق. وفي أواخر عام 1964 أعاد كتابة النص السينمائي **راعي البقر** الذي كان مقرراً أن يصوره أول الأمر خوسيه لويس غونثاليث دي ليون ولكن حققه الآن المخرج أرتورو ريبشتاين البالغ من العمر اثنين وعشرين عاماً ووضع له عنواناً جديداً هو **عصر الموت**[43].

وكما هو شأن عديد الأعمال التي كتبها غارسيا ماركيز، فإن هذا العمل يكمن في صورة واحدة، ذكرى، حادثة من حوادث الماضي. فقد رجع يوماً ما إلى شقته في كولومبيا ليجد البواب، وهو قاتل مأجور سابقاً، منهمكاً في حياكة كنزة صوفية[44]. وفي النص السينمائي، يعود الرجل الذي أمضى ثمانية عشر عاماً في السجن بسبب جريمة قتل استُفِزَّ على ارتكابها، إلى قريته التي ولد فيها بالرغم من أن ابني الرجل المقتول أقسما على قتله. وتنهمك بدوره في الحياكة، وهنا يغير الابن الأصغر رأيه، لكن الابن الأكبر سناً يستفز الرجل دائماً – التاريخ يعيد نفسه – إلى أن يطلق البطل النار أخيراً على الابن الأكبر سناً فيطلق الابن الأصغر عندئذ النار على البطل ويرديه قتيلاً من دون أن يبدي أي مقاومة. من الواضح أن هذه القصة إعادة كتابة لقصة جده وما حدث معه في بارانكاس عندما استفزه شاب؛ بالرغم من أن نيكولاس ماركيز قتل غريمه وأمضى عاماً واحداً في السجن وليس ثمانية عشر عاماً.

أخيراً صُوِّر الشريط السينمائي في أستوديوهات تشوروبوسكو وفي باتشكوارو بين السابع من حزيران والعاشر من تموز عام 1965 بعد أسبوعين تماماً من إكمال غارسيا ماركيز كتابة النص السينمائي، ومثّل فيه خورخه مارتينيث دي هويوس ومارغا لوبيث وإنريكي روتشا. أما الحوار فهو من إعداد كارلوس فوينتس والتصوير للمصور القدير أليكس فيليبس، وعلى حين كانت "نترات" الشريط من إنتاج بيثينتي روخو صديق غارسيا ماركيز. وبلغت مدة عرض الشريط تسعين



دقيقة. وكان عرضه الأول في الحادي عشر من آب 1966 في دار سينما بريماديس في مدينة مكسيكو. لكن مرة أخرى، عُدَّ الشريط السينمائي الذي أسهم فيه غارسيا ماركيز فاشلاً على وجه العموم بالرغم من أن موهبة المخرج الشاب السينمائية كانت واضحة أمام الجميع. وألقى كل من غارسيا ماركيز وريشتاين باللائمة على الآخر. فقد كان إسهام غارسيا ماركيز نموذجاً لحماسه ومساوئه السينمائية: فالحبكة جديرة بأن تكون من صنع سوفوكليس نظراً إلى كمالها، أما الحوار فكان وعظياً مملاً لا يناسب الشريط السينمائي. لقد رأى غارسيا ماركيز بوضوح يبعث على خيبة أمل، أن كتابة النصوص السينمائية لم تكن في الأقل مرضية له على عكس كتابة القصص الأدبية، حتى إن لم يقرأها أحد: أولاً، كانت كتابة نصوص الأشرطة السينمائية مختلفة تمام الاختلاف عن الكتابة لجمهور القراء. ثانياً، إن كاتب نصوص الأشرطة السينمائية يفقد استقلاليته وبراهته السياسية والأخلاقية، بل هويته أيضاً، وأخيراً إن المستثمرين والمخرجين ينظرون إلى هذا الكاتب على أنه ليس إلا وسيلة لغاية، وسلعة من السلع(45).

وبالرغم من ذلك، فإن اللحظة التاريخية المهمة في السينما واتت غارسيا ماركيز في بدء هذه المرحلة من خيبة الأمل عندما بدأ العديد من المشاهير في المكسيك، وأكثرهم من أصدقائه، يشاركون في تصوير قصته **ليس ثمة لصوص في هذه البلدة** في أواخر شهر تشرين الأول عام 1964، وهي قصة تدور أحداثها حول صعلوك في بلدة صغيرة يقرر جمع المال ببيع كرات البليارد العاجية في قاعة السباحة المحلية، فيجلب الكارثة على نفسه وعلى زوجته التي تعاني مرضاً مزمناً وطفلهما المولود حديثاً(46).

جرى التصوير في مدينة مكسيكو وفي كواوتلا. وأدى غارسيا ماركيز بنفسه دور جامع التذاكر خارج مبنى سينما القرية وكان شديد الوعي بذاته في مثل هذه المواقف، لكن تمثيله كان قلقاً على وجه الخصوص. كما قام بنفسه بعملية التقطيع الصوري (المونتاج). وأدى لويس بونويل دور القسيس، على حين أدى كل من خوان رولفو وآبيل كيثادا وكارلوس مونسيفايس أدوار لاعبي الدومينو، وأدى لويس بينيس دور مالك قاعة السباحة، وحوسيه لويس كيباس وإميليو غارسيا



ريـيرا أدوار لاعـبي البليارد، وماريا لويسا ميندوثا دور مغنية الملهى، وليونورا كاريـغتون دور أحد رواد الكنيسة بثياب الحداد. أما الأدوار الرئيسة فكانت لكل مـن جوليان بستور ورونيو ساعاون وغرازييلاّ إيريكيث. لقد كان شريط ليس ثمة لصوص في هذه البلدة واحداً من أفضل الأشرطة السينمائية في تلك الحقبة، وتبلغ مدة عرضه سبعين دقيقة، وعرض أول مرة في التاسع من أيلول عام 1965.

وبالـرغم من هذه التطورات وأخرى غيرها، بدأت الأشرطة السينمائية تفقد بريقها في نفس غارسيا ماركيز في اللحظة التي وجد نفسه فيها وقد ثبّت قدميه في صـناعتها وربح بجـني مـنها أموالاً كثيرة. أكان ذلك هو الهدف؟ كان يمكنه أن يلاحظ أن في وسعه الاستمرار في العمل في السينما المكسيكية بنجاح معقول وعلى مـدى المستقبل الذي يريده. لكنه كان أيضاً يدرك أن موهبته الحقيقية لا تكمن في هـذا الميدان، وأن القدرات من كتابة النصوص السينمائية محدودة، كما أن كتابة هذه النصوص لم تكن مهيمنة تماماً على مصيره. ولهذا السبب، بدأ يشعر بأنه في فخ مـرة أخـرى، وبـأن عالم الأدب الأميركي اللاتيني يتغير تغيراً سريعاً ليغدو، ويا للمفارقة، أكثر جاذبية وفتنة من الأشرطة السينمائية. في تلك الآونة التي غدت فيها الأشرطة السينمائية مهنة، راح يدرك أن الأشرطة السينمائية نفسها جزء من المشكلة الـتي تـواجهه مع الأدب. ولم تكن مشكلته متمثلة بأنه كان يكتب نصوصاً أدبية لوسـط آخـر مختلف تماماً، بل كانت ممثلة بأن الأشرطة السينمائية حلت محل تـصوره عن الرواية منذ سنوات سابقة، وأنه بحاجة إلى العودة إلى جذوره الأدبية. يتذكـر غارسيا ماركيز بعد مضي سنوات وهو ينظر إلى الماضي فيقول: "فكّرت دائماً في أن السينما هي الوسط الأمثل للتعبير، وذلك بفضل قدرتها التصويرية الهائلة. وقد أربك هذا التفكير كل مؤلفاتي التي سبقت رواية مئة عام من العزلة. ثمة رغبة كـبيرة لتصوير الشخصية والمشهد، وتفصيل دقيق بالمليمتر لزمن الحوار والحدث، وهوس بوجهة النظر وبالإطار العام، وفي حين كنت أعمل في السينما، رحت أدرك الأشياء التي يمكن تنفيذها والتي لا يمكن تنفيذها. وعلمت أن في هيمنة الصورة على عناصر السرد فائدةً، وحدوداً أيضاً، وكان هذا الاكتشاف مبكراً لي لأنني لم أدرك إلا آنذاك حقيقة أن إمكانيات الرواية غير محدودة"[47].



عقدت في سنة 1965 ندوة كبرى للمثقفين في موقع آثار حضارة المايا في تشيتشين إيتْ. وكان من المشاركين في الندوة كارلوس فوينتس وخوسيه لويس سيبيس وولـيم ستيرون، وأصبحت الندوة حقاً مهرجاناً حافلاً وصاخباً. وإن كانت قد عطت على بعده الثقافي الكثير من حالات العبث والمزاح. ومن الطبيعي أن أحداً ما لم يفكّر في توجيه الدعوة إلى غارسيا ماركيز الذي كان لا يزال مغموراً على الساحة العالمية، كما أن غارسيا ماركيز نفسه لم يفكّر قط في الظهور في مثل هذه المناسبة. لكن عندما بدأ المشاركون رحلاتهم في جميع أرجاء البلاد منطلقين من العاصمة مكسيكو، رتب فوينتس حفلة كبرى وأسطورية في بيته حلّ فيها غارسيا ماركيز ضيفاً والتقى الروائي التشيلي خوسيه دونوسو الذي عبّر عن إعجابه برواية **ليس للعقيد من يكاتبه**. وتذكر غارسيا ماركيز "رجلاً حزيناً مكتئباً، معذباً بموانع كتابية أسطوري مثل الموانع التي وقفت أمام أرستو سانو وخوان رولفو ووليم ستيرون"[48].

وبعد الحفلة، جاءت زيارتان أثنتا في ما بعد أنهما كانتا حاسمتين في رجوع غارسيا ماركيز إلى ميدان الأدب وفي جعل حياته حياة ثورية. ففي حين كان ريشاردسون يصور شريط **عصر الموت** في باتشكورو في شهر حزيران، زار لويس هارس، وهو شاب أميركي من أصل تشيلي، غارسيا ماركيز وكان قد التقاه قبل ذلك لقاءً قصيراً في مبنى الأمم المتحدة في نيويورك عام 1961، وبدأ يعد حينها كتاباً يضم مجموعة من المقابلات النقدية مع كبار الروائيين في أميركا اللاتينية ممن ينتمون إلى الجيلين السابقين، استجابة للظاهرة الأدبية التي عرفت بـ"انتعاش الرواية في أميركا اللاتينية"[49]. كان لويس هارس قد خطط ليجعل كتابه يضم تسع مقابلات. وكان معظم الأدباء الآخرين معروفين تماماً بالرغم من الاختيار العشوائي: ميغيل أنخل أستورياس وخورخه لويس بورخيس وأليخو كاربنتييه وجواو غيمارايس روسا وخوان كارلوس أونيتي وخوان رولفو - وهم يمثلون الجيل السابق - وخوليو كورتاثار وماريو فارغاس يوسا وكارلوس فوينتس من أدباء حقبة الانتعاش. وكان غارسيا ماركيز الاستثناء الأبرز حيث أوصى به فوينتس نفسه[50].

لا بد من أن زيارة هارس لغارسيا ماركيز وإدراجه في لائحة أفضل عشرة أدباء كانت حقنة مثيرة في ذراع الأخير، إذ ستظل تلك المقابلة حتى يومنا هذا،



واحدة من أهم المقابلات التي استعرضت أعماق رجل لم يطور بعد في تلك المقابلة الرئيسة والجادة الأولى، شخصية الرجل المشهور التي اكتسبها في السنوات الأخيرة، بالـــرغم من أنه بدأ يوصف الأدب الكولومبـــي بكونه "أدباً عرضياً". كانت تلك هـــي المرة الأولى التي تعرض فيها غارسيا ماركيز لاستجواب عام، ولا بد من أن تـــأثيره في تحليله الذي وتمحيصه لنفسه كان مأثراً هائلاً. ويصفه هارس على هذا النحو:

> كـــان قصيراً قوياً، ممتلئ الجسم، خفيف الحركة في سيره، ذا شارب منتصب الـــشعر، وأنـــف يشبه القنّبيط، وحشوات كثيرة في أسنانه، يرتدي قميصاً رياضـــياً مفتوحاً، وبنطالاً من الجينـــز الأزرق الباهت، وسترة ضخمة يرميها فـــوق كتفيه. وقد زودت الحياة الشاقة، التي كان في إمكانها أن تحطم رجلاً آخـــر، غارســـيا ماركيـــز بذخيرة غنية من التجارب الشخصية التي تشكل العصب القوي في مؤلفاته. لقد عاش سنوات في المكسيك وقد يعود إلى وطنه لـــو تمكن من ذلك – ويؤكد أنه سيتخلى عن كل شيء إذا ما احتاجوا إليه هناك – لكنه لا يملك الآن، هو وكولومبيا ما يقدمه أحدهما إلى الآخر. أولاً: أفكاره السياسية لا تلقى الترحيب هناك، ومشاعره قوية تجاه هذا الأمر. وإذا كانت الحياة محنة في الخارج، فإن هناك ما يعوض عنها أيضاً. وفي هذه الأثناء تراه يشبه صانع مجوهرات يصقل مجوهراته. لقد بدأ يصنع شهرة ثابتة لنفسه، وخلّـــف وراءه كتباً بعدد أصابع يده، كل كتاب منها ولد بعد جهد عاشق كما تولد اللؤلؤة في محارة[51]

وفي نهايـــة المقابلـــة يحاول غارسيا ماركيز أن يقوّض وجهة نظر هارس عنه بوصفه عبداً ذا جلد: "لدي أفكار سياسية لا تتزحزح، لكن أفكاري الأدبية تتغير طبقاً لاستيعابـــي". ولاحظ هارس أنه بدأ بدوره يستحوذ على المشاعر:

> يخرج غابرييل وهو يحكم شد حزامه من وراء عطفة الدهليز المعتمة، والبريق يشع من عينيه. يدخل الغرفة بخفة، متوتراً إلى حدٍّ ما، متسائلاً عما سيحدث لـــه، لكـــنه في الوقت نفسه يحرك كلتا يديه على ما يبدو متوقعاً ما يجري .. ويتمـــتع بأســـلوب في إثـــارة نفسه بأفكاره الشخصية. الليل فوّاح، مفعم بالمفاجـــآت، وهـــا هو الآن يستلقي على فراش كأنه مريض نفساني، ويُطفئ أعقـــاب ســـجائره، يتكلم سريعاً، يلتقط الأفكار وهي تمر في خاطره، يلفها ويفكها كأنها قصاصات ورق، فيحدق بها من جانب ويتركها من جانب آخر



> ليفقدها قبل أن يتمكن من تثبيتها في مكانها. وتوحي نبرته العفوية ذات المدفقات العميقة أنه يبني استراتيجية بإهمال وهو يمتع بأسلوب خاصّ في استراق السمع إلى نفسه كأنه يسعى لسماع مقتطفات من حديث في غرفة مجاورة. المهم هو الكلام الذي لم يقله بعد[52].

أكان غارسيا ماركيز حقاً على هذه الصيغة، أم أنه أراد أن يكون هكذا وهو يتحدث، تحفزه في ذلك الدراما التي وجد نفسه يؤدي دوراً فيها. من يدري؟ ويضع هارس لمقابلته عنوان: *غابرييل غارسيا ماركيز أو الوتر المفقود*.

بعد أسابيع قليلة، وبعد هذه الومضة الأولى أمام الملأ، جاءت زيارة عمل حاسمة. فمنذ سنة 1962 كانت كارمن بالسيلس، الوكيلة الأدبية في مدينة برشلونة، تعمل بصفة افتراضية عموماً من أجل التفاوض بالإنابة عن غارسيا ماركيز لنشر ترجماته في الوقت الذي كان يجد فيه الظروف صعبة جداً أمامه لنشر رواياته بلغتها الأصلية. وصلت بالسيلس إلى المكسيك يوم الاثنين المصادف الخامس من تموز بعد زيارة قامت بها إلى نيويورك حيث تفاوضت وتوصلت إلى عقد مع روجر كلاين عن دار نشر هاربر آندرو لنشر أربعة كتب جاهزة لغارسيا ماركيز بترجمة إنكليزية لقاء ألف دولار[53]. كانت بالسيلس وكيلة أدبية عالمية واسعة الطموح، وكان هو أديباً شاباً واعداً يتوق إلى النجاح توقاً موجعاً. فقدمت نفسها إلى المؤلف الجديد وشرحت له العقد وانتظرت رد فعله الذي تلخص في عبارة. "العقد قطعة من براز".

كانت بالسيلس ممتلئة الجسم والوجه والمضطرمة حماساً، وزوجها لويس بالومارس قد ارتبكا حتماً بسبب المزيج الغريب والمثير في آن من اللامبالاة والغطرسة، وقلة الثقة التي قيل إن غارسيا ماركيز يتصف بها، ولا بد من أنهما ذهلا عندما شاهدا أمامهما كاتباً لم يسمع به أحد تقريباً ولكنه بهذه الدرجة الكبيرة من الغرور والاعتداد بالنفس. لم تكن هذه البداية موفّقة. "لقد وجدته نكداً، غير محبوب إلى درجة كبيرة. لكنه كان محقاً بشأن العقد"[54]. ولحسن الحظ استردّ غارسيا ماركيز ومرثيديس هدوءهما على الفور وأمضيا ثلاثة أيام من الحفلات والرحلات السياحية تُوِّجت في السابع من تموز عام 1965 بتوقيع عقد مفبق ثانٍ كما في حالة لعقيد في إحدى قصصه حوّل فيه غارسيا ماركيز بالسيلس وبحضور لويس بيثينس ممثله في جميع اللغات وعلى جميع جوانب الأطلسي على مدى مئة وخمسين عاماً. وهنا



كانت قصته القصيرة تصنع سحرها: لقد وجد غارسيا ماركيز الأم الكبيرة في الحياة الحقيقية وعلى المدى الطويل. وعلى الفور تفاوضت مع دار نشر إيرا لنشر طبعات جديدة من روايتي ليس للعقيد من يكاتبه وفي ساعة نحس، كما تفاوضت مع فيلتريتيلي لإصدار ترجمات إيطالية. ربما فكّرت أنه ينتمي به أن يكون شاكراً حظه. ولم تكن تعرف إلا القليل، كم ستكون هي نفسها محظوظة مستقبلاً.

بعد هذه الزيارات غير المتوقعة من مكان بعيد، وما أتت به من أخبار طيبة، قرر غارسيا ماركيز أن يذهب وأسرته في إجازة قصيرة لزيارة مدينة أكابولكو في عطلة نهاية الأسبوع التالي بعد أن كان قد أمضى وقتاً طويلاً وبعيداً في التصوير في باتتكوارو. كان الطريق الممتد إلى أكابولكو واحداً من أسوأ الطرقات في بلد مملوء بالمنعطفات والالتواءات الرهيبة. وكان غارسيا ماركيز الذي طالما كان شعوراً بقيادة السيارة متهجماً بقيادة سيارته البيضاء الصغيرة من طراز أوبل وسط البانوراما المتغيرة دائماً في الطريق المكسيكي. وغالباً ما كان يقول إن قيادة السيارة مهارة آلية من جهة وتتطلب قدراً كبيراً من التركيز من جهة أخرى، حتى إنها تسمح له بإزاحة قدر من التركيز والتفكير بدلاً من ذلك في رواياته[55]. لم يكن قد قاد سيارته طويلاً في ذلك اليوم عندما طافت في ذهنه "من اللامكان" أول جملة برواية جديدة. وكانت من تلك الجملة رواية كاملة غير مرئية لكنها واضحة، كأن هناك من يمليها عليه أو يُحمّلها شخص ما من فوقه. كانت قوية لا تقاوم كأنها سحر ساحر. وكانت الصعة السرية للجملة تكمن في وجهة النظر، والأهم من هذا، في النبرة: "بعد سنوات طويلة وفيما كان يواجه فصيل الإعدام. "، وهنا توقف غارسيا ماركيز كأن غيبوبة غشيته على حافة الطريق واستدار بسيارته وعاد باتجاه مدينة مكسيكو. ثم...

يبدو استدخل في القصة في هذه المرحلة منيراً للشفقة، لا أن كاتب السيرة يشعر بأنه مضطر إلى الإيضاح أن هناك تفسيرات متعددة لهذه القصة (كما في قصص أخرى)، وأن التفسير المذكور آنفاً لا يمكن أن يكون صحيحاً؛ أو في الأقل، لا يمكن أن يكون مدهشاً على النحو الذي اقترحه معظم رواته. إن التفسيرات تتباين بشأن السطر الأول الذي سمعه غارسيا ماركيز، وهل هو سطر أم هو صورة

الحـــد وقد صحب معه فتىً ليكتشف الشح (أو لنكتشف حقاً شيئاً آخر)[56]. لكن بغض النظر عن الحقيقة، حدث شيء ما حقاً، شيء غامض وليس سحرياً

إن التفـــسير الكلاسيكي الذي انقطع حوله فجأة يصور غارسيا ماركيز وقد استدار بالسيارة في اللحظة نفسها التي يسمح فيها ذلك السطر في ذهنه، وألغى على نحـــو بتّ إجازة الأسرة ليعود إلى مدينة مكسيكو ويبدأ كتابة الرواية حال وصوله إلى البـــيت. أما التفسيرات الأخرى، فتشير إلى أنه ردد تلك الجملة في ذهنه وتأمل مـــضامينها وهـــو يقود السيارة ثم يسجّل بعدها ملاحظات كثيرة لدى وصوله إلى أكابولكـــو، ويكـــتب الرواية بصورة صحيحة حال عودته إلى العاصمة[57]. هذا التفـــسير هـــو أكثر التفسيرات إقناعاً من غيره. لكن الإجازة، كما تبدو في جميع التفـــسيرات، انقطعت واضطر الصِّبْيانِ وميرثيديس التي طالت معاناتها، ولا تدري شـــيئاً عـــن مدى المعاناة التي ستتحملها بعد الآن، إلى ابتلاع خيبة أملهم وانتظار إجازة أخرى، وتلك مناسبة سيمر وقت طويل قبل أن يحين وقتها.



-15-

ميلكيادس الغجري:

مئة عام من العزلة

1965-1966

بعد مضيّ سنوات يقول غارسيا ماركيز إنه بعد أن عاد إلى البيت جلس إلى آلته الكاتبة في اليوم التالي، تماماً مثلما كان يجلس في كل يوم مضى، في ما خلا "أنني في هذه المرة لم أنهض لأمضي ثمانية عشر شهراً"[1]. ولم تستغرق الكتابة أكثر من سنة واحدة، من تموز 1965 ولغاية تموز أو آب 1966، مع بعض الفترات الزمنية المتقطّعة. لكنه يردد دائماً إن المدة ثمانية عشر شهراً. وربّ كان ذلك صحيحاً لأنه استغرق ثمانية عشر عاماً. وقد أخبر بلينيو ميندوثا أن مشكلته الكبرى تمثلت "بالبدء بالكتابة، فإنني أتذكر بوضوح تام اليوم الذي أكملت فيه الجملة الأولى بصعوبة بالغة وسألت نفسي وأنا في حالة من الهلع عن الجملة التالية. ولم أحسّ قط أن الكتاب سيصل إلى أي نهاية إلاّ عندما عُثر على سفينة في وسط الغابة، وعندئذ أضحت الأمور متقدمة وممتعة جداً"[2].

إن غارسيا ماركيز أدرك أن السحر لن ينتهي هذه المرة، وأن في وسعه أن يسترخي ويرتاح بعد أن كتب زهاء عشر صفحات، وخاصة الفقرات التي يعثر فيها مصادفة خوسيه أركاديو بوينديا على سفينة إسبانية جانحة عند الغابة المدارية. الواضح أن هذا جرى له في الأسبوع الأول وكان لا يزال يتمتع بإجازته بعيداً عن المكتب، وبدأت كل أعباء السنوات الخمس المنصرمة تتضاءل. وتوقع أن يصنّد ثمانمئة صفحة على الآلة الكاتبة، لكنه حذرها إلى أربعمئة صفحة في نهاية المطاف ولم يكن هذا أمراً سيئاً كما تبين في ما بعد. ففي هذه الصفحات الأربعمئة سيحكي لنا قصة أربعة



أجيال من أسرة بوينديا، التي يصل الجيل الأول منها إلى منطقة تعرف بالاسم ماكوندو إبان القرن التاسع عشر ليبدأ معايشة مئة عام من التاريخ الكولومبي بمزيج من الحيرة والإصرار والهوس والنكتة السوداء. وتنتقل الأسرة من حالة براءة الطفولة مروراً بكل مراحل الرجولة والأنوثة والانحطاط حتى تجرف ريح قوية في آخر صفحة من صفحات الكتاب آخر فرد من أفراد الأسرة. فكّر النقاد كثيراً في مضمون هذه النهاية منذ صدور الكتاب في المرة الأولى. إن الشخصيات المركزية الستّ التي تبدأ بها الرواية وتهيمن على نصفها الأول هي: خوسيه آركاديو بوينديا، وهو مؤسس قرية ماكوندو سريع الاهتياج، وزوجته أورسولا وهي العمود الفقري في مجمل الرواية وليس لأسرتها وحدها وحسب، وولداهما خوسيه آركاديو وأوريليانو الذي سيغدو في ما بعد العقيد أوريليانو بوينديا وهو الذي يعد، على وجه العموم، شخصية الرواية المركزية، وابنتهما أمارانتا التي تعذبت في طفولتها ودفنت المرارة لما أصبحت امرأة، وميلكيادس الغجري الذي يأتي بين حين وآخر بأخبار عن العالم الخارجي ويستقر أخيراً في ماكوندو. كما أن تاريخ كولومبيا يتجسد لنا من خلال حدثين رئيسين: حرب الألف يوم، ومذبحة عمال الموز في ثيناغا سنة 1928. ويشكل هذان الحدثان إشارة تاريخية رئيسية وهي الإطار العام لطفولة غارسيا ماركيز.

إن الكتاب الذي أراد غارسيا ماركيز أن يؤلفه هو قصة أسرة تعيش في بلدة آراكاتاكا، لكنه استعمل اسماً آخر لها هو ماكوندو. أما الكتاب الذي راح يؤلفه حينها، فهو حقاً قصة أسرة عاشت في بلدة آراكاتاكا ولكنه سمّاها ماكوندو. بيد أن الأسرة لم تعد أسرة العقيد نيكولاس ماركيز وحده التي يغمرها حنين جارف وتوق شديد لإثبات وجودها الملحمي كما حدث في رواية **عاصفة الأوراق**، بالرغم من اكتناف المعالجة الروائية مفارقات جيدة، فهي أيضاً أسرة غابرييل إليخيو غارسيا التي يعالجها المؤلف معالجة تهكمية ساخرة وهجائية مع بعض التلميحات الهزلية التي تتراوح بين العطف والقسوة. كما أن الكتاب لم يؤلفه شاب في العشرين من عمره بدأ حياته بتأليف كتاب **البيت**، بل، ويا للغرابة، صبي صغير السن يتذكر تجربة ذلك الشاب على نحو ينطوي على شوق كبير، حيث الصبي صغير السن يسير يداً بيد لا مع العقيد ماركيز، بل مع رجل الأسرة البالغ من العمر زهاء

الأربعين عاماً اليوم، وهو عمر غارسيا ماركيز الآن، مع الأديب الذي قرأ آداب العالم كلها وعاش في خضم أشد المراحل الحاسمة في عمر الإنسان.

ما الذي جرى لغابرييل غارسيا ماركيز؟ ما الذي جعله يتمكن بعد مضي وقت طويل من تأليف هذا الكتاب؟ لقد أدرك في ومضة من ومضات الإلهام الخاطف أن عليه أن يؤلف كتاباً حول ذكرياته عن طفولته وليس كتاباً عن طفولته. وبدلاً من أن يكتب كتاباً عن الواقع، عليه أن يكتب كتاباً عن تمظهر الواقع. وبدلاً من كتاب يدور حول آراكاتاكا وأهاليها، ينبغي للكتاب أن يكون قصة تُروى من وجهة نظر عامة لأولئك الأهالي. وبدلاً من أن يحاول مجدداً بعث آراكاتاكا من جديد، عليه أن يقول وداعاً لآراكاتاكا، لا من خلال سرد قصتها بلسان سكانها، بل من خلال تضمين الرواية كل ما حدث له، وكل ما عرفه عن العالم، وكل ما كان هو عليه وكل ما جسّده بوصفه أمريكياً لاتينياً في أواخر القرن العشرين: أي بدلاً من عزل البيت وآراكاتاكا عن العالم، يسعى له أن يأخذ العالم كله إلى آراكاتاكا. والأهم من هذا كله، ومن الناحية الوجدانية، عليه هو نفسه أن يصبح نيكولاس ماركيز بدلاً من أن يحاول إظهار شبح نيكولاس ماركيز.

لقد شعر غارسيا ماركيز بالارتياح يسري في داخله على مستويات مضاعفة ومن مئة تجاه مختلف. وتحررت بذلك كل الجهود والعذابات والإخفاقات والإحباطات التي مرَّ بها في حياته، وتجسّد التحرر وإدراك الذات وتوكيد الذات في هذا الإبداع الغريب الذي كان يعرف - نعم كان يعرف - أنه يمكن أن يكون عملاً فريداً وربما خالداً حتى عند لحظة بدء الكتابة، وعندما واصل الكتابة بحماسة متزايدة راح يتسول عظمة الخرافة شيء، وهو يمضي في تأليفه، أن الكتاب سحري ومدهش ومفعم بالحيوية والنشاط له أولاً، وللقراء ثانية. لقد كان تجربة في سحر الإبداع الأدبي ارتقى إلى أعلى مراتب القوة. يضاف إلى ذلك، كانت الكتابة نفسها علاجاً نفسياً جذرياً: فبدلاً من بذل محاولة مهووسة وعصابية ودؤوبة لإعادة سرد الأحداث التي مرَّ بها في حياته تماماً كما يذكرها، فإنه يعيد ترتيب كل ما سبق أن قيل له أو مرَّ هو به شخصياً على النحو الذي يريده، حتى اتخذ الكتاب شكل مؤلفه. وهكذا، فإن الكتاب سحري ومدهش ومفعم بالحيوية والنشاط: إنه يشفيه من أمراض كثيرة.



بعد أن كنا نرى رجلاً يكتب عادة فقرة واحدة في اليوم، رحنا نشاهده وهو يكتب عدة صفحات يومياً. والرجل الذي كان يقلب كتبه داخلاً مخرجاً رأساً على عقب يبحث أولاً عن النسق، ثم البنية؛ وإذا به الآن يكتب الفصول واحداً تلو الآخر. والرجل الذي عانى دائماً في كل المناسبات وكل قرار مهما كان صغيراً، فنياً أو نفسياً، في كل كتاب من كتبه، بات يتلاعب بحياته: فيدمج جده في أبيه وفي نفسه، ويدمج ترانكيلينا في لويسا سانتياغا وميرثيديس، ويشكل لويس إنريكي ومارغوت من بين عديد الشخصيات، محوّلاً جدته لأبيه إلى بيلار تيرنيرا، ويعطف تانشيا ليحولها إلى شخصية أمارانتا أورسولا، دامجاً تاريخ أسرته كلها في تاريخ أمريكا اللاتينية، موحداً مكوناته الأدبية الأمريكية اللاتينية؛ بورخس، وإستورياس، وكاربنتييه، ورولفو، بالإنجيل، ورابليه، ومدونات الفتوحات الإسبانية، ورواية الفروسية الأوروبية، ووولف وديفو، وفوكنر، وهمنغواي. لهذا، فمما يبعث على الدهشة شعوره بأنه أشبه بخيميائي، مازجاً نوسترا أداموس في بورخس – وبنفسه هو غارسيا ماركيز – لينتج شخصية ميلكيادس الكاتب؛ المبدع الكبير والعبقري الذي حبس نفسه في حجرة صغيرة ليصنع الكون برمته في ذلك الفضاء المسحور الذي يمتد في الوقت نفسه في التاريخ وفي اللازمان، ويعرف بالأدب. باختصار، إن ما يفعله الآن لا يتلخص في مزجه كل شيء وحسب، بل الأهم من هذا (وهذا هو سبب نجاحه، بحسب رأي الكثيرين، في كتابة شيء ما في أمريكا اللاتينية مكافئ لرواية دون كيخوته)، مواجهة وربط خاصيتين أساسيتين ومتناقضتين عن تلك القارة التي لا يعرف عنها إلا النزر اليسير، ولكنها بالرغم من ذلك، قارة غير مألوفة تنشط بالحياة: ففي خضمّ الرواية المظلمة عن الفتوحات والعنف، المأساة والإخفاق، يرسم غارسيا ماركيز جانباً آخر من القارة يتمثل بالروح الاحتفالية والموسيقى والفنون التي عُرِف بها شعب أمريكا اللاتينية، وتلك القدرة على تكريم الحياة حتى في أحلك رواياتها، وإيجاد المتعة في الأيام الاعتيادية، المتعة التي يراها العديد من أبناء أمريكا اللاتينية على أنها ليست عزاءً من القهر والفشل وحسب، بل بشيراً بذلك العالم الأفضل الذي يرونه معلقاً دائماً ويحتفلون به لا من خلال ثوراتهم وحسب، بل من خلال انتصاراتهم الاحتفالية في الحياة اليومية أيضاً. من الطبيعي أن

غارسيا ماركيز ينكر لاحقاً كل هذه المقاصد السامية، إذ نجده يقول لأليا بوبي توسكي في عام 1973: "لم أكن واعياً بأي أمر من هذه الأمور، وأنا لست سوى رجل يحكي القصص والحكايات"[3].

بانتهاء الأسبوع الأول من أيلول، كان غارسيا ماركيز قد قطع شوطاً بالغاً، وسرعان ما اكتشف أنه بحاجة إلى التزام تام وتعليق كل نشاطاته الأخرى تعليقاً تاماً. فقد كانت محاولته لتأليف الكتاب واستمراره في العمل في وكالة الإعلانات يصيبانه بصداع شديد مؤلم. لهذا قرر التخلي عن كلا الوظيفتين وما يترتب عنهما، وكذلك التخلي عن حياته الاجتماعية الاعتيادية. فكانت تلك مقامرة غريبة لسيّد أسرة يفضل الحياة العائلية عمّا سواها.

تدور أحداث الرواية في آراكاتاكا، في ماكوندو، غير أن ماكوندو استعارة تجسّد أميركا اللاتينية برمتها. لقد كان يعرف أميركا اللاتينية معرفة جيدة، لكنه زار أيضاً العالم القديم ولمس بنفسه الفارق بين ديمقراطيات العالم الرأسمالي الليبرالية القديمة، والأقطار الاشتراكية الجديدة بصميمها اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية. كما أنه عاش مدة من الزمان في الولايات المتحدة، البلد الرمز والخصم التاريخي لاتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية، البلد الذي كان ماضياً في تحديد مستقبل كوكب الأرض، وكان قد أحاط بقدر أميركا اللاتينية وسيطر عليها منذ ما يربو على نصف قرن من الزمان. لقد كان هذا الرجل يعرف الشيء الكثير عن العالم، كان يعرف هذا كله حتى قبل أن يبدأ بتذكر ما تعلمه عن الأدب

وهكذا، تغدو ماكوندو الصورة الحية لبلدة صغيرة في أي بقعة من بقاع كولومبيا أو أميركا اللاتينية (أو أي بقعة من بقاع العالم الثالث كما سيشهد بذلك القراء في أفريقيا وآسيا)، ورمزاً لأيّ جماعة صغيرة واقعة تحت رحمة قوى تاريخية لا خارج نطاق سيطرتها وحسب، بل خارج نطاق فهمها وإدراكها أيضاً.

إن القصة كما تبدو الآن هي قصة أسرة هاجرت من غواخيرا إلى منطقة تشبه تمام الشبه آراكاتاكا إبان القرن التاسع عشر. الأب الرمز خوسيه أركديو بوينديا، كان قد قتل أفضل أصدقائه دفاعاً عن الشرف والرجولة، واضطر إلى الرحيل لأن شبح صديقه كان يطارده. أسس خوسيه آركاديو قرية جديدة أسماها ماكوندو،

بين هو وزوجته أورسولا بيتاً وأصبحا زعيمين غير رسميين للجماعة الجديدة. كان لهما ثلاثة أطفال: آركاديو وأوريليانو وأمارانتا، وبمرور الأيام أصبح لديهم عدد آخر من الناس. وكانت لإحدى خادمات المنزل، واسمها بيلار تيرنيرا، علاقات مع عدد من ذكور الأسرة على امتداد السنين، فأسهمت بذلك في حالة الهم التي سادت الأسرة لاعتقادها أن علاقة سِفاح ستنشأ في نهاية الأمر، وسينجم عنها طفل بذنب خنزير، وبذلك ينتهي نسل الأسرة. كان الغجر يزورون المنطقة بين وقت وآخر ومن بينهم رجل موهوب، ثاقب الرأي يدعى ميلكيادس الذي مكث في ماكوندو وانتقل إلى منزل الأسرة. لكن ثمة وافد سببي أيضاً وهو الحكومة المركزية في بوغوتا (التي تظهر بلا اسم في الرواية) التي أرسلت ممثلين سياسيين وعسكريين للسيطرة على الجماعة الصغيرة البريئة، وقد أدت هذه الحصيلة الأولى إلى سلسلة من حروب أهلية شارك فيها أوريليانو لدى بلوغه سن الرشد مشاركة حماسية إلى جانب الحرب الليبرالي حتى أضحى في نهاية الأمر مشهوراً في طول البلاد وعرضها بوصفه الحارس الأسطوري العقيد أوريليانو بوينديا. وبعد مدة من الزمان، يظهر في الرواية غرباء أكثر مدعاة للشؤم. أميركيون شماليون يأتون برفقة شركة الفواكه بتحويل اقتصاد البلدة وثقافتها حتى يثور أهاليها ويعلنوا الإضراب، وهنا يحرّض الأميركيون الأجانب الحكومة المركزية على اتخاذ إجراء، فيلقى من جراء ذلك ثلاثة آلاف عامل من العمال المضربين وأفراد أسرهم مصرعهم في مذبحة على مقربة من محطة سكة الحديد في ماكوندو. وبعد هذه الحقبة المظلمة، تتدهور أوضاع ماكوندو تدهوراً يبدأ بموت أورسولا نفسها - وهي قلب الرواية وروحها - على حين يجد الجيل الأصغر سناً، والأقل نشاطاً، والذي يحيا بوصفه ضحية التاريخ أكثر مما هو مبدع أسطورة، نفسه عائداً إلى كل ما يشبه الظلمة والخطيئة البدائيتين. وفي النهاية، وكما هو متوقع، يُنجب آخر فرد من أفراد الأسرة طفلاً بذنب خنزير إثر علاقة سِفاح طائشة، فتقضي عليهما وعلى جميع سكان ماكوندو ريحٌ عاتية وهو ما توقعه أيضاً ميلكيادس.

وتعدو الرواية أيضاً رواية حداثوية من حيث إن غارسيا ماركيز أقدم على تأليف كتاب من شأنه أن يختزل كل الكتب، عالم كبير في عالم صغير: فهو يبدأ



وينتهـي بأسلوب إنجيلي ويضم بين دفتيه بعضاً من أساطير الإنثروبولوجيا الشامنة والخرافات المميزة للثقافة العربية، والاندفاع السلبي الغريب لتجربة أميركا اللاتينية في طموحاتها العظيمة وإخفاقها المهين، وصولاً إلى الطرفيات الفارية المتنوعة التي جاء بها أشهر ممكري القارة، لكن كل ما يتضمنه الكتاب تقريباً هو نتيجة للتجربة التي عاشها غارسيا ماركيز نفسه. وفي وسع كل من لديه دراية بالخطوط العامة لحياته أن يعثر على نصف دزينة أو أكثر من المواد في كل صفحة، تتلاءم مباشرة مع سيرة غارسيا ماركيز، وقد زعم الأديب نفسه أن كل الأحداث وكل التوضيحات تنسجم والتجربة التي عاشها. (" أنا لست سوى موثّق متواضع).

ربما يبعث على الدهشة أكثر من أي شيء آخر هو الشكل الذي تمكن من احتواء كل هذه العناصر المتنوعة، إذ ربط ربطاً مدهشاً الفن الرفيع بأساليب الاتصال الشفهية. لكن إذا كان صحيحاً أن الرواية استوعبت كميات كبيرة من تجربة كولومبيا الشعبية نفسها، فإنه ليس من السهل تماماً موافقة أولئك الذين يرون الكتاب على أنه مخزن ذخيرة حكمة البشر. إن ما حققه غارسيا ماركيز، وهو ليس بالأمر الأقل غرابة، يتمثل بالقدر القليل من الحكمة التي يمتلكونها حقاً والموارد الشحيحة التي زُودوا بها لمواجهة عالم شاء قدرهم وسوء حظهم أن يعيشوا فيه. إن عالمهم هو العالم الذي لم تعد حكمة البشر فيه صالحة أو نافعة. ولا يمكن للشكل أن يكون بعيداً عن شكل تلك الأعمال الحداثوية النموذجية التي تشكل، بالرغم من كل شيء، مرجعية هذه الرواية التي كتبت كأنها لتكون "تحفة كلاسيكية لا يحدها زمان، ولكنها تنطوي على معلومات قوامها كل اكتشاف توصلت إليه الرواية في السنوات الستين الأولى من القرن العشرين يبدو لنا وكأن جيمس جويس انطلق لكتابة رواية مستخدماً فيها نبرة الكلام وتقنيات السرد عند العمة فرانسيسكا، عمة غارسيا ماركيز[4].

إذاً، ها هي الرواية. رجل يكتب عن قرية وأمة وعالم مستخدماً مكتشفات الميثولوجيات الغربية الكبرى (الإغريقية والرومانية والإنجيلية فضلاً عن ليالي ألف ليلة وليلة العربية المستوردة) وروائع الأدب الكلاسيكي الغربي (رابليه وثيرباتس وجويس) والأسلاف العظماء الذين سبقوه في قارته (بورخس وإستورياس وكاربنتيه



ورولفو) لإتاحة عمل - مرآة - تتعرف فيه أخيراً قارته إلى نفسه، فيؤسس بذلك موروثاً. وإذا كان بورخس هو الذي صمم العدسة الحلمية في آلة التصوير (شأنه شأن الأخوين الراحلين لوميير)، فإن غارسيا ماركيز هو الذي يقدم أول صورة جماعية كبرى حقاً. وبهذا، فإن الأميركيين اللاتينيين لن يتعرفوا إلى أنفسهم وحسب، بل سيعرفهم العالم أجمع في كل مكان. هذا هو مغزى الكتاب الذي كان يؤلفه ابن لويسا سانتياغا ماركيز إغواران دي غارسيا في غرفته الصغيرة المليئة بالدخان على مكتبه الصغير وسط مدينة فوضوية، مترامية الأطراف، من مدن العالم الثالث. إن حماسته لها ما يبررها، وتكمن فوتها وعوائدها في صفحات الكتاب.

ولم ينته الحظ الذي رافق غارسيا ماركيز ردحاً من الزمن بأي حال من الأحوال، بل لن ينتهي أبداً. إذ سافر لويس هارس بعد مغادرته المكسيك في أواخر شهر حزيران إلى مختلف عواصم أميركا اللاتينية ووصل في نهاية المطاف إلى مدينة بوينس آيرس حيث تُحرِّر دار النشر المرموقة سوداميريكانا كتابه الذي يضم مجموعة المقابلات. كانت نقطة اتصاله بدار النشر متمثلة بفرانسيسكو (باكو) بوروا الذي سيعترف لاحقاً قائلاً: "إنني لم اسمع باسم غارسيا ماركيز من قبل حتى ذكره لي هارس. وها هو الآن مع بورخس ورولفو وغيرهم من الأدباء الكبار. ولهذا، فإن أول ما خطر على بالي: "من هو؟" وكتبت رسالة إلى غارسيا ماركيز يستفسر فيها عن كتبه. وبعد مرور أشهر، عقدت صفقة"[5].

في مطلع شهر أيلول، توقف غارسيا ماركيز عن الكتابة في عصر يوم ما كي يحضر محاضرة يلقيها كارلوس فوينتس عن روايته الجديدة **تغيير الجلد** في معهد الفنون الجميلة. وذكر فوينتس في نهاية المحاضرة عدداً من أصدقائه ومن بينهم الكولومبي "الذي ارتبط به بوساطة طقوس الأحد وبإعجابي بالحكمة القديمة التي يتمتع بها هذا الشاعر القادم من آراكاتاكا". لعل فوينتس أكد رمزياً في هذه المناسبة أن اكتساب الشهرة والثروة جزء مشروع من تطلعات الأديب: "إنني لا أظن أن مهمة الأديب تتمثل بزيادة صفوف المعوزين"[6]. ثم دعا بعد ذلك ألفارو موتيس وزوجته كارمن فوينتس، وريتا ماثيلدو، وخومي غارسيا آسكوت، وماريا لويسا إيليو، وفرناندو ديل باسو، وفرناندو بينيتث، وإليلنا غارو إضافة إلى جانب غارسيا

ماركيز وميرثيديس وآخرين غيرهم لتناول وجبة طعام البائيا(*) في شقتهما في شارع ربو آموي(7). كان غارسيا ماركيز قد بدأ يروي حكايات من روايته الجديدة وهو في طريق خروجه من المحاضرة، وفي الشارع، وفي السيارة، وواصل الكلام في شقة مونس. وكان الجميع قد سمعوا ما فيه الكفاية وأكثر، ولم يواصل أحد الإصغاء إليه سوى ماريا لويسا إيليو. وفي تلك الشقة الصغيرة المزدحمة جعلته ماريا لويسا يحكي لها القصص طوال المساء لا سيما قصة عن قسيس يتناول الشوكولاتة كي يسبح في الهواء. وفي ذلك الزمان والمكان، ونتيجة لإصغائها باهتمام وجذل، وعدها أن يهديها الرواية الجديدة. كانت لغارسيا ماركيز مهارات شهرزاد الجميلة.

كان النقاد والصحفيون الأميركيون اللاتينيون مهووسين في تلك الحقبة من الزمان منذ أن نشرت الرواية في سنة 1967. وخصص إليخيو غارسيا ماركيز كتاباً بأكمله عن كتابة الرواية وإبداعها بعد ثلاثين سنة على صدورها وكان لكل شاردة وواردة فيها شرح مستفيض يبيِّن معناها. غير أن الحجرة التي كتب فيها المؤلف روايته ما كان لها أن تكون أقل سحراً، بالرغم من أن عدداً كبيراً من الناس أرادوا أن يطلقوا عليها اسم *حجرة ميلكيادس*. كانت الحجرة التي سمّاها غارسيا ماركيز *كهف المافيا* تبلغ عشر أقدام طولاً وثماني أقدام عرضاً، وفيها حمام صغير ملحق بها، وباب ونافذة ومنضدة بدائية صغيرة جداً، وآلة كاتبة من طراز أوليفيتي قابعة فوقها. وبدأ غارسيا ماركيز يرتدي بدله العمل زرقاء اللون لممارسة الكتابة؛ وهو الذي سيغدو في ما بعد تقليداً (بل يضع ربطات عنق أيضاً). هذا وكان قد اتخذ قراراً ثورياً بالتحول من العمل ليلاً إلى العمل نهاراً وبدلاً من الكتابة في وكالة الإعلانات بعد عمل نهار كامل، أو في مكاتب أستوديوهات الأشرطة السينمائية، بدأ يكتب نهاراً حتى موعد عودة الصبيّين من المدرسة إلى البيت. وبدلاً من أن تُكبّل متطلبات الأسرة ملكاته الإبداعية وتُشوّه أسلوبه، فقد أدت إلى حدوث التغير الذي سيحول من مجمل طريقته في العمل والانضباط الذاتي. أما ميرثيديس التي كانت في ما مضى زوجة وأمّاً ومديرة المنزل، فقد أصبحت الآن موظفة استقبال وسكرتيرة ومديرة أعمال أيضاً(8). ولم تكن تدري أن هذا العمل سيستمر إلى ما لانهاية. وستستفيد الرواية الجديدة مباشرة وعلى نحو درامي من هذه المتغيرات.



كان غارسيا ماركيز يُقلّ ولديه في سيارته وينطلق بهما إلى المدرسة صباحاً، ثم يجلس إلى مكتبه من الساعة الثامنة والنصف وحتى الثانية والنصف من بعد الظهر، وهو موعد رجوع الولدين إلى البيت. ويتذكر الابنان والدهما وهو يمضي معظم وقته حابساً نفسه في غرفة صغيرة، وغارقاً وسط دخان السجائر، قلما تنبه إليهما، ولا يظهر للعيان إلا عند أوقات وجبات الطعام، مجيباً عن أسئلتهما بإجابات غامضة مشوشة. ولم يداخلهما الشك إلا قليلاً في أنه يكتب طوال هذا الوقت في روايته التي استغرقت منه كل هذا الوقت؛ كما لم يكتشف خوسيه آركاديو بوينديا أبيه إلاّ في وقت لاحق بعد هواجسه التي ألمت به في الفصل الأول.

يتذكر غارسيا ماركيز في ما بعد فيقول: "مارس الكتاب منذ اللحظة الأولى، وقبل نشره بزمن طويل، تأثير السحر على جميع الذين أصبحت لهم صلة بشكل أو بآخر، أصدقاء كانوا أم موظفين مساعدين. وحتى أفراداً، كالجزار أو صاحب البيت الذي سكنّا فيه، وغيرهم من الذين كانوا ينتظرونني كي أفرغ من كتابته كي أسدد لهم الديون"[9]. وتخبر ألبا بوبيا تونوسكي: "كنا مدينين لصاحب البيت بإيجار ثمانية أشهر. ولما قل الدين وأصبح لثلاثة أشهر، استدعت مرثيديس صاحب البيت وقالت لـــه: انظر! سندفع لك إيجار هذه الأشهر الثلاثة وليس إيجار الأشهر لستة التالية. وكانت قد قالت لي قبل ذلك متسائلة: متى تظن أنك ستفرغ من تأليف الكتاب؟ فأجبـــتها في غضون خمسة أشهر فما كان منها إلاّ أن أضافت شهراً آخر تحوطاً، وعـــندئذ قال لنا صاحب البيت: إذا كان هذا وعداً، فلا بأس، وسأنتظر حتى شهر أيلول. وفي أيلول ذهبنا إليه وسددنا له المبلغ..."[10].

من بين الأشخاص الذين كانوا ينتظرون غارسيا ماركيز أن ينتهي من تأليف الكتاب بيرا (إسبيرانثا) أرايثا المربصة، التي تشتغل على الآلة الكاتبة، وكانت تعمل عـــند باربا كاســو وبصمّت روايات فوينتس على الآلة الكاتبة أيضاً. وكان غارسيا ماركيـــز يأخذ إلى بيرا كل بضعة أيام جزءاً من الرواية سبق له أن نضّده على الآلة الكاتـــبة ثم صـــححه بيده لتقدم إليه بعد ذلك نسخة تخلو من الأخطاء. ولما كان إمـــلاؤه فظيعاً، فقد كان يعتمد على بيرا لتصحح له منجزه الأدبـــي. إلاّ أنه كاد يفقدها ويفقد معها مسهل روايته في اليوم الأول عندما كادت حافلة أن تدهسها

وتطايرت الأوراق في جميع أرجاء الشارع الملل في ذلك اليوم الخريفي في مدينة مكسيكو. وفي وقت لاحق اعترفت بأنها كانت تدعو صديقاتها إليها خلال عطلات نهاية الأسبوع لقراءة آخر ما يقدمه إليها غارسيا ماركيز من فصول.

إن كل ما نعرفه عن تلك الأونة يشير إلى أن غارسيا ماركيز كان مأثراً بالسحر. وقد بات أخيراً الساحر الذي طالما كان يتوق إليه دائماً. لقد ارتقى السلالم عالياً متعاطيه المخدر الأدبي. لقد أضحى أوريليانو بابيلونيا، وأضحى ميلكيادس. إن المجد ينتظره، والكتاب مشروع ميثولوجي ضخم تتخلله طقوس. وكان الأصدقاء يأتون إليه كل مساء بعد جلسة يمضيها برفقة ملاحظاته، وأكثرهم حضوراً دائماً كان ألفارو موتيس وزوجته كارمن، وخومي غارسيا أسكوت وماريا لويسا، وهم أصدقاء ساندوه وتحولوا على مدى عام بأكمله إلى شهود مميزين يراقبون بناء واحد من أعظم شوامخ الأدب العربي. وفيما كان العمل مستمراً في الرواية، مدركاً بنفسه مدى ضخامته، ازدادت ثقته بنفسه وأهميته الشخصية. كان خلال النهار يجلس في حجرته المفعم بالدخان وهو يواصل التأليف. وعند العصر يلجأ إلى المصادر والمراجع ليتأكد من صحة ما يكتبه. ولم يكن خومي وماريا لويسا يستطيعان الصبر لرؤية الفصول التالية. وكانت ماريا لويسا خاصة قد أدركت أنها شاهدة على أمر ما ذي أهمية فائقة، وأنها مؤتمنة على أسراره الشخصية الأكثر قرباً من عمرها. ويقول غارسيا ماركيز في وقت لاحق إنها بالرغم من اعترافها بتأثير الكتاب فيها، إلا أنه بدوره، كان دائم الذهول لما تملكه من بصيرة نافذة في عالمي السحر والحكمة اللذين يقتصر فهمهما على فئة معينة من الناس، وأشار إلى أن الكثير من تصوراتها وجد طريقه إلى الرواية. وكان يتصل بها في أي وقت نهاراً لقراءة آخر فصولها[1].

بعد بضعة أشهر يتلقى غارسيا ماركيز دعوة من القسم الثقافي في وزارة الخارجية المكسيكية لإلقاء محاضرة، وبالرغم من أن المتوقع منه هو أن يرفض الدعوة، إلاّ أنه قبلها موضحاً أنه يفضل أن يقدم قراءة أدبية وليس محاضرة. بعد ظهر غارسيا ماركيز يفقد نفسه بنفسه، وينشغل بنوعية عمله، وهذا أنتابه القلق إذ أمسى متعباً في عالم خاص به برفقة ألفارو وماريا لويسا، وأن حماستهما لأفكاره ربما رفعت من نفسه وقع التنويم المغناطيسي:



جلست لأقرأ فوق خشبة المسرح المضاءة. المقاعد الأمامية من الصالة وجمهوري في ظلمة حالكة. وبدأت أقرأ. لا أتذكر أي فصل، لكني واصلت القراءة، وفي لحظة ما، ساد صمت مطبق في الصالة، وكنت في حالة من التوتر الشديد حتى انتابني الهلع. توقفت عن القراءة وحاولت أن أحدق إلى الظلام. وبعد بضع ثوان تمكنت من ملاحظة وجوه أولئك الجالسين في الصف الأمامي وشاهدت عيونهم مفتوحة عن وسعها، فتمكنت من الاستمرار في القراءة بهدوء. كان الناس يتشبثون بكلماتي. لا تكاد تسمع طنين ذبابة واحدة. ولما فرغت ونزلت عن خشبة المسرح، كانت ميرثيديس هي أول شخص يعانقني وقد أفصحت تعابير وجهها عن شيء ما: أعتقد أنني أدركت للمرة الأولى منذ زواجنا أنها كانت تحبني لأنها نظرت إليّ بنظرة ملؤها ذلك التعبير!... لقد تمكنت من تدبير شؤون الأسرة على مدى سنة كاملة من دون اعتماد على أي شيء تقريباً كي أتمكن من الكتابة، وقد منحني ذلك التعبير، الذي ارتسم على وجهها يوم قراءتي الأدبية، اليقين بأن الكتاب يمضي قدماً في الاتجاه الصحيح[12].

واصلت ميرثيديس معركتها في توفير المال للأسرة، ففي مطلع سنة 1966 كانت النقود المدخرة من إيرادات سابقة قد نفدت، لكن بالرغم من أن عجز زوجها الأديب عن الكتابة قد بات الآن شيئاً من الماضي، فإن الكتب أخذ يكبر ويكبر وبدا أنه سيواصل الكبر على امتداد السنة. أخيراً قاد غارسيا ماركيز سيارته البيضاء من طراز أوبل إلى موقع رهن السيارات في ناوبايا ورجع بمبلغ كبير من المال[13]، ولهذا اضطر أصدقاء الأسرة إلى اصطحابه وزوجته معهم في الزيارات ووصل الأمر بغارسيا ماركيز إلى حدّ التفكير في الاستغناء عن الهاتف، لا من أجل توفير المال وحسب، بل لتفادي تشوش فكره عند تجاذب أطراف الحديث إلى ما لا نهاية مع الأصدقاء.

وعندما نفدت النقود التي حصل عليها من السيارة، بدأت ميرثيديس ترهن كل شيء: التلفاز والثلاجة والمذياع والمجوهرات. وكانت آخر ثلاثة مواقع عسكرية عندها هي مجفف الشعر، والمرمدة الكهربائية التي تعد بها وجبات طعام الولدين، ومدفأة غابو الكهربائية. وأقنعت لويس كودورير، وهو مالك البيت، أن ينتظر مدة أطول لتدفع به إيجار المنزل. وأحضر لهم الأصدقاء مختلف التجهيزات بصورة منتظمة لكنهم احتفظوا بآلة التسجيل. كما كانت ميرثيديس تشتري اللحوم من



الجر ر دون قبليـــي بالملفع الآجل الميسّر. غير أن غارسيا ماركيز لم يتمكن في هذه المـــرحلة من حياته من تأليف روايته على أنغام الموسيقى، لكنه من جهة أخرى لم يـــستطع العـــيش بلا موسيقى أيضاً، وكانت أنغام موسيقى بارتوك، واستهلالات دوبوسّي، وأغنية هارد دايز نايت للبيتلز تشكل الإطار الخلفي لمعظم ما كان يكتبه في تلك الأيام.

وكـــان أســـوأ يوم في كتابته كنها هو اليوم الذي مات فيه العقيد أوريليانو بويندِيا (الفصل الثالث عشر). وكما هو شأن غيره من الأدباء، فقد رأى في موت الـــبطل الرئيس خسارة شخصية، بل ترقى ربما إلى درجة قتل الغير. ويحتشد سرد قصة الموت بأشد ذكريات غارسيا ماركيز عفوياً عن أيام طفولته. وبالرغم من أن النقاد لم ينتبهوا إلى ذلك، فإن الروائي وضع من نفسه في هذه الشخصية التي تفتقر إلى التعاطف ما لم يضعه في أي شخصية أخرى في رواياته قبل هذا الوقت. وبالرغم من أن الطفل الذي هو أوريليانو، فإنه "أول مولود يولد في ماكوندو"، فقد ولد في شـــهر آذار مـــثل غارسيا ماركيز تماماً، ولد مفتوح العينين، يحملق حوله في أرجاء البـــيت منذ اللحظة التي خرج فيها من رحم أمه، تماماً مثلما قيل إن غابيتو الصغير فعـــل الـــشيء نفسه عند ولادته. كان منذ طفولته لميكرة عرافاً، وهو ما عُرف به غابيتو بين أفراد أسرته، وأُغرم بفتاة صغيرة (وتزوجها قبل بلوغها سن الرشد)، لكنه بعـــد موقها "يعجز عن الحب" وتشوب تصرفاته "كبرياء آثمة". وإذا كان أوريليانو قـــادراً علـــى التقمص الوجداني، والعطف بوصفه شاباً (بوصفه أيضاً ينظم قصائد الحـــب التي أثارت حرجه في ما بعد)، فإنه إنسان مستوحد، قاسٍ لا يعرف الرحمة، يركـــز اهتمامه على ذاته، ما من شيء يمكنه الوقوف في طريق طموحه الشخصي. إذاً، غارسيا ماركيز يوحد في شخصية أوريليانو بويندِيا ذكريات مستقاة عن العقيد ماركيـــز (الحـــرب والورشة والسمك الذهـــبي الصغير)، في لوحة ذاتية ترقى إلى مـــستوى الـــنقد الذاتي؛ النقد الذاتي الذي يرتقي بدوره إلى التصور أنه حقق الآن طمـــوح حـــياته، إلا أن السعي لتحقيق ذلك كان سعياً عسوباً، ومهلكاً. وبالتالي نرجسياً ومفرطاً في الغرور. إن النداء الباطني لامتهان الكتابة (النداء الذي يجعل من الفـــرد ســـاحراً مـــثل ميلكيادس) الذي سيؤكده لاحقاً وبقوة في مذكراته عشت

لأروي، يظهر فطرة أكثر بدائية وربما أقل استساغة، وهي إرادة الانتصار والرغبة في الشهرة والمجد والثراء (العقيد أوريليانو بوينديا). إن رواية خريف البطريرك تنقل إلينا هذا النقد الذاتي إلى أبعاد أكثر إثارة للدهشة.

وفي تمام الساعة الثامنة صباحاً، وبعد أن فرغ من عمله، صعد إلى غرفة النوم حيث ميرثيديس غارقة في النوم، واستلقى على الفراش وبكى لساعتين[14]. ولا يتطلب الأمر قدراً كبيراً من التأمل في السيرة للافتراض أن غارسيا ماركيز بعد أن أجهز على بطله الرئيس لم يبدأ بمواجهة قضية موته شخصياً ونهاية الرواية وحسب، بل قضية نهاية تجربة فريدة مفعمة بالحيوية والنشاط؛ بل هي نهاية مرحلة كاملة من حياته ونهاية شخصيته التي كان عليها طوال تلك المدة، ونهاية علاقة خاصة يتعذر التعبير عنها ربطته بأهم إنسان في حياته، وهو جده الذي فقده نهائياً. لأن الأدب عاجز عن بعثه من موته). لكن من أكبر المفارقات أن غارسيا ماركيز عاد في خضم انتصاراته إلى كونه ذلك الإنسان الذي صورته قصصه الأولى؛ الإنسان المحكوم بالموت مرات متعددة ومتتالية بعد أن ترك وراءه كل لحظة من لحظات حياته، وكل مدة، وكل شخص أحبه، باستثناء زوجته وولديه.

وبالرغم من أنه ولّد الانطباع دوماً بأنه مكث في غرفته المليئة بالدخان حتى اكتمل تأليف الرواية، إلاّ أن فرصة السفر إلى كولومبيا على نفقة شخص آخر واتته. بعد تفكير عميق وطويل، فقرر أن ينتهزها، إذ كان قد أقنع أرتورو ريبشتاين أن يشارك الشريط السينمائي عصر الموت في مهرجان كارثاخينا السينمائي وسافر بالباخرة من فيراكروز إلى كارثاخينا فوصلها في الأول من شهر آذار سنة 1966 (بعد أسبوعين من مقتل صديقه كاميلو توريس في معركة بعد أن التحق بحرب الثوار). وفاز الشريط السينمائي بالجائزة الأولى في المهرجان على كثرة شكوك غارسيا ماركيز بشأن العمل الذي حققه ريبشتاين. وكانت لديه أشياءُ كثيرة يحتفي بها في السادس من آذار: فوزُ شريطه السينمائي، ومستقبلُ روايته، وذكرى ميلاده التاسعة والثلاثون مع أفراد أسرته في كارثاخينا. وقام بزيارة قصيرة إلى بوغوتا، ثم سافر جواً إلى بارانكيا حيث كان يعيش فيها يومئذٍ بلينيو ميندوثا الذي تلقى مكالمة هاتفية خلال عمله:



- غابو! يسرني كثيراً أن أسمع صوتك. أين أنت؟

إنني جالس أحتسي الشراب في بيتك أيها الوغد[15].

ثم أخبر ميندوثا وألفارو موتيس بروايته: "إنها لا تشبه بقية الروايات أيها الرفيقان. ففي هذه المرة أبوح بأسراري لصديقي: فإما أن أحقق فوزاً كاسحاً أو أسقط على وجهي" وفي أثناء الزيارة، ذهب غارسيا ماركيز إلى أماكن تردده القديمة في بارانكيا برفقة ألفونسو فويينمايور وعاش الزمن القديم مرة أخرى متذكراً نفسه بالأماكن والوجوه. ولإكمال جولته القصيرة عاد إلى اراكاتاكا للمرة الأولى خلال عقد من الزمان[16]. ولم يسافر هذه المرة مع أمه بل مع ألفارو سيبدا بسيارة جيب يقودها سيبدا بنفسه، ورافقهما مرافقة مرحة في بحثهما عن الزمن الماضي مراسل صحيفة التيمبو في بارانكيا الذي كتب تحقيقاً مفصلاً: فجأة تحول غارسيا ماركيز إلى بطل شعبي بتأثير وسائل الإعلام، قبل أن يتحول إلى نجم ساطع[17].

كان غارسيا ماركيز ينوي البقاء بضعة أسابيع، إلا أنه توجه إلى المكسيك بعد بضعة أيام من وصولها في نهاية شهر آذار. واحتج ألفونسو فويينمايور على رحيله، لكن غارسيا ماركيز أوضح له أنه في الليلة التي سبقت سفره، رأى فجأة نهاية روايته بوضوح تام حتى كان في وسعه أن يمليها كلمة كلمة على الكاتب على الآلة الكاتبة. وحبس نفسه مرة أخرى في تلك الحجرة وبدأ يستوعب ما جرى له. لقد كانت الخاتمة التي حضرت بباله - والتي تدور إلى حدٍّ ما حول كثرة تنقلاته وقلة تنقلات أصدقائه الكولومبيين - واحدة من أعظم الخواتيم التي تنتهي بها رواية في الأدب كله.

لقد كان لرواية مئة عام من العزلة ناشر منذ لحظة البدء بها تقريباً. وكان لها جمهور يوشك من المتحمسين استطاع مؤلفها أن يعتمد عليهم. ونادراً ما احتاج كاتبها إلى تشجيع: فهو إنسان محسوس، محسوس بقوى الأدب الإبداعية التي تنص عليه، ومحسوس بمقدار محتواه أن نجاح الكتاب يكمن في النجوم، وأنه مقدرٌ سلفاً. وكانت رواية يوليسيس لجيمس جويس أقرب مثال على كتاب خيالي/أسطوري عرف الخبراء أنه آتٍ وعرفوا أن قدره أن يكون كتاباً عظيماً. لكن جيمس جويس كان يفتقر إلى الناشر، ولم يتوقع قط أن يكون مؤلماً من مؤلفي الكتب الأكثر

ميعاً. لكن غارسيا ماركيز شديد الحذر دائماً، كن واثقاً تمام الثقة، إذ بدلاً من أن يستسلم للخرافات التي كانت تعيده عادة، سلّم خلال زيارته إلى بوغوتا في شهر آذار زملاءه القدامى في صحيفة الاسبكتادور الفصل الأول، ونشروه له في الأول من أيار. وسلّم كارلوس فوينتس الذي عاد إلى باريس الفصول الثلاثة الأولى في حزيران 1966 فتولاه العجب[18]، وسلّمها بدوره إلى صديقه خوليو كورتاثار، فكان رد فعله مماثلاً لرد فعل فوينتس. ثم سلّم فوينتس الفصل الثاني إلى أمير رودريغيث مونيغال لنشره في النسخة الأولى من المجلة الأدبية الجديدة، *العالم جديد*، في باريس في شهر آب سنة 1966.

وأعلن فوينتس في مقابلة أجراها معه محرر المجلة أنه تسلم تواً الصفحات الخمس والسبعين الأولى من كتاب غارسيا ماركيز الذي لا يزال منهمكاً في تأليفه، ووصفه بأنه "كتاب قيد التأليف" (إشارة لا تخطئ إلى جويس) وأنه بلا أدنى شك كتاب رائع دفع بكل كلاسيكيات أميركا اللاتينية الإقليمية إلى الماضي العابر.

ثم أرسل فوينتس مقالة إلى صحيفة لا كالتيورا إن مكسيكو صرّح فيها لمواطنيه في التاسع والعشرين من أيار أيضاً أن رواية **مئة عام من العزلة** ستصدر قريباً وأنها رواية عظيمة (ربما لم يكن غارسيا ماركيز قد فرغ منها آنذاك): "لقد أكملت الآن قراءة ثمانين صفحة رائعة: الصفحات الثمانون الأولى من رواية **مئة عام من العزلة**، وهي الرواية التي يشتغل عليها غابرييل غارسيا ماركيز"[19]. قلما تمكن الناس من التعبير عن دهشتهم، إذ لا سابق لما كان يحدث.

وفي ضوء جو التوقعات، تمكن غارسيا ماركيز من إنهاء الرواية. وأخبر بلينيو ميندوثا "وصلت الرواية إلى نهايتها الطبيعية بسرعة، عند الحادية عشرة صباحاً. وكانت مرثيديس خارج البيت، ولم أتمكن من العثور على أي شخص لأخبره هاتفياً بالنبأ. أتذكر جيداً مدى ارتباكي كأنه حدث بالأمس: لم أعرف كيف أتصرف، وحاولت أن أشغل نفسي بشيء ما كي أبقى على قيد الحياة حتى الساعة الثالثة من بعد الظهر"[20]. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، دلفت قطة إلى المنزل وفكّر المؤلف: "آه، لعل هذا الكتاب يلقى رواجاً". وبعد بضع لحظات، دخل الصبّاغ بحملان العرش وتلطخت أيديهما وثيابهما بطلاء أزرق اللون.



كان أول عمل أقدم عليه غارسيا ماركيز هو إرسال نسخة من الرواية إلى جيرمان فارغاس في بوغوتا قبل إرسال المخطوطة إلى دار نشر سودأميريكانا، وسأله إن كان لديه مانع من ورود أي إشارات إليه وإلى أصدقائه في بارانكيا. فرد فارغاس أولاً، ومن بعده فوينمايور، بالقول إنهما يفتخران كونهما صديقين لآخر أبناء بوينديا. ثم هضم فارغاس الكتاب على طريقته البطيئة، وكتب مقالة بعنوان *كتاب سيحدث ضجة*، وكانت أول إشارة من كولومبيا عن مكانة الرواية المستقبلية[21].

وتلقى بلينيو منندوثا أيضاً نسخة في بارانكيا، فألغى عمله في ذلك اليوم وقرأها من البداية حتى النهاية، وأخبر زوجته الجديدة مارفيل مورينو ملكة الجمال سابقاً والروائية حاضراً: "لقد فعلها. لقد حقق غابو الضربة الكبرى التي كان يرغب فيها". ثم سحب سيجارته من بين شفتيه وهتف: "ليست براواً. لقد أنجز غابو رواية مدهشة"[22].

كان الأسلوب الذي حكى فيه غارسيا ماركيز حكاية عودته إلى العالم، أسلوباً درامياً مربكاً يشبه أسلوب ريب فان ويكل إلى حدٍ كبير[23]. فالسنة هي سنة لندن الراقصة، وأنديرا غاندي تحكم أكبر ديمقراطية على وجه الأرض، وفيدل كاسترو الذي سيلتقي هو وغارسيا ماركيز معاً الزعيمة الهندية بعد ذلك بسنوات كان منهمكاً في الإعداد لمؤتمر دول القارات الثلاث: آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية المزمع عقده في هافانا عام 1967. وكان ممثل من الجناح اليميني يدعى رونالد ريغان قد رشح نفسه للفوز بمنصب حاكم ولاية كاليفورنيا، أما الصين، فكانت في حالة من الغليان، إذ يعلن ماو الثورة الثقافية بعد مرور بضعة أيام على إرسال غارسيا ماركيز الدفعة الأولى من طرده الثمين إلى بوينس آيرس. الحق أن غارسيا ماركيز اضطر إلى الرحيل عن عالم ماكوندو السحري بعجالة ليبدأ بتوفير بعض المال. وشعر أنه لا يستطيع أن يتمتع حتى بإجازة أسبوع واحد للاحتفال، إذ كان يخشى أن يبقى لسنوات يسدد ديونه التي تراكمت عليه. ويذكر في وقت لاحق أنه كتب ألفاً وثلاثمئة صفحة أرسل منها أربعمئة وتسعين صفحة إلى بوروا، وأنه دخن ثلاثين ألف سيجارة، وأنه كان مديناً بمئة وعشرين ألف بيزوس. لكنه يظل يشعر بانعدام



الأمان، وهو أمر مفهوم. فبعد أن فرغ من كتابة الرواية حضر حفلة أقيمت في منزل صديقه الإنكليزي جيمس نابورث الذي استفسر عن الكتاب، فردّ غارسيا ماركيز قائلاً: "إما أنني كتبت رواية أو أن لدي كيلوغراماً من الورق، ولست متأكداً حتى الآن من ذلك"[24]. ثم قفل راجعاً ليتأمل كتابه النصوص البينية. وبعدها كتب تأملات يسترجع فيها ذاته بعنوان مصائب مؤلف كتاب نشرتها له صحيفة الاسكتادور، وكانت أول مقالة يكتبها منذ سنين ومؤرخة بتاريخ شهر تموز 1966، ولكنها ليست للاستهلاك المحلي في المكسيك:

> تأليف الكتب مهنة انتحارية، إذ ما من مهنة غيرها تتطلب قدراً كبيراً من الوقت، وقدراً كبيراً من العمل، وقدراً كبيراً من التفاني مقارنة بفوائدها الآنية. إنني لا أعتقد أن عدداً كبيراً من القراء يسألون أنفسهم بعد الانتهاء من قراءة كتاب، عن عدد الساعات المؤلمة، والبلايا المنزلية لي كلفت لمئتا صفحة المؤلف، أو ما هو المبلغ الذي حصل عليه لقاء عمله . وبعد هذا لتقويم الحزين للبلايا، يبدو أساسياً أن نسأل عن السبب الذي يدفعنا نحن لكتاب للكتابة والإجابة، في آخر الأمر، هي ميلودرامية قدر ما هي مخلصة. فالمرء بكل بساطة، يكون كاتباً مثلما يكون أسود ويكون أي شيء آخر. لنجاح يحفز المرء، والحظوة عند القراء مشجعة. لكن، ليست هذه الأمور سوى مكاسب إضافية، لأن الكاتب الجيد سيظل يكتب باستمرار على كل حال، حتى إذا كان حذاؤه يحتاج إلى تصليح، وحتى إذا كانت كتبه لا تلقى رواجاً[25].

لقد ولد غارسيا ماركيز الجديد، الذي يمكن ملاحظة أول ملامحه من المقابلات التي أجراها في كارتاخينا في شهر آذار الماضي. وقد بدأ ينمو بعكس ما بعنه تماماً. فهو يكتب عن بلاياه لأن بلاياه انتهت تقريباً. والإنسان الذي لم يتذمر ولم يهن في أكثر الظروف صعوبة التي مرّ بها، يريد أن يتذمر منذ الآن لكل سبب؛ ليس أقله جشع الناشرين وباعة الكتب وحبهم للمال، وهو الموضوع الذي سيعلو هوساً. ها هو غارسيا ماركيز الذي سيجتذب حبّ الجمهور إلى ما لانهاية، ويزعج النقاد باستمرار لا سيما أولئك الذين سيقتنعون بأنه لا يستحق النجاح الذي حققه، وأنه من الحريّ بهم أن يحصلوا هم على الجوائز البراقة وبحجة أنهم أكثر دراية وأقل مجاملة وأكثر أهمية من الناحية الأدبية. إن هذا الشخص الجديد – رجل الستينيات

حميمي على ما يبدو – استعراضي ومغرور ودوغمائي ومنافق وغير مهذب بملء إرادته، لكنه مع هذا تصعب معرفته معرفةً عميقة. لكن الناس سيحبونه لكل هذه السمات لأنه يبدو واحداً منهم، يُهوّل الأشياء ويتملص بفضل ذكائه الذي هو ذكاؤهم، وهو وجهة نظرهم بالعالم.

في الوقت نفسه تقريباً، وبعد أن فرغ غارسيا ماركيز من كتابة روايته، كتب رسالة طويلة إلى بلينيو ميندوثا، يستهلّها بالتعبير عن مشاعره آنذاك، ثم ينتقل إلى شرح لرائعته التي أكملها مؤخراً وما تعنيه له:

> بعد سنوات طويلة من العمل كالحيوان، أشعر أن الإرهاق أخذ مني كل مأخذ، من دون أمل، باستثناء الأمل الذي يؤرقني، ولكنه أمر لا يقيم أودي: الرواية. إن قراري الذي يشي بدافع قوي، هو أن أرتب الأشياء الترتيب الذي أضطر إليه كي أستمر في الكتابة. صدقني، لا أعرف ما الذي سيحدث.
>
> إن ما ذكرته لي عن الفصل الأول من رواية مئة عام من العزلة، جعلني سعيداً جداً. وهذا هو السبب الذي يدفعني إلى نشر الرواية. عندما رجعت من كولومبيا وقرأت ما كنت قد كتبته بنفسي داخلني فجأة شعور يهدّ المعنويات مفاده أني أقدمت على مغامرة قد تكون كارثية مثلما قد تكون ناجحة. ولهذا، وكي أعرف شعور الآخرين به، فإنني أرسل الفصل إلى غييرمو كانو. وهكذا، أكون قد جمعت معاً أكثر الناس صراحةً وخبرة ومتطلبات لأقرأ عليهم فصلاً آخر. وكانت النتيجة مذهلة، لأن الفصل الذي قرأته كان أكثر الفصول المطوية على مجازفة: صعود ريميديوس إلى السماء، جسداً وروحاً.
>
> إنني أحاول الإجابة، من دون تواضع، عن سؤالك بخصوص كيفية كتابتي عن الأشياء. الحق أن رواية مئة عام من العزلة كانت أول رواية حاولتُ أن أكتبها وأنا في سن السابعة عشرة بعنوان البيت، وتخليتُ عنها مدة من الزمان لأنها كانت شديدة الوطأة عليّ. ومنذ ذلك الوقت لم أتوقف عن التفكير فيها، محاولاً أن أتصورها في ذهني، وأن أجد أكثر الأساليب فعالية في سردها. وفي وسعي أن أخبرك أن الفقرة الأولى فيها لا تحتوي على أي فاصلة، وأنا كتبتها قبل عشرين سنة. إن ما استنتجته من هذا كله في ذهنك على مدى زمن طويل، وفي اليوم الذي ينفجر فيه عليك أن تجلس إلى الآلة الكاتبة أو تخاطر وتقتل زوجتك..."[26].



توضح هذه الرسالة بجلاء أن غارسيا ماركيز، عندما كتب روايته، إنما كان يعد نفسه للدفاع عن آرائه – وعن روايته – أمام الملأ، وأنه يتوقع مستقبلاً مرموقاً ومواريا في الصحافة. ويقول أيضاً إن لديه الآن ثلاثة مشاريع لروايات تحفزه.

في مطلع شهر آب، وبعد مضي أسبوعين على كتابة الرسالة السابق ذكرها، رافق غارسيا ماركيز مرثيديس إلى دائرة البريد لإرسال المخطوطة النهائية الكاملة إلى بوينس آيرس. كان الاثنان أشبه بناجيين من كارثة. كانت الرزمة تحتوي على أربعمئة وتسعين صفحة منضّدة على الآلة الكاتبة. وعندما قال لهما الموظف المسؤول: "اثنان وثمانون بيزوس"، نظر غارسيا ماركيز إلى ميرثيديس وهي تفتش في حافظة نقودها عن المبلغ. لم يكن لديهم سوى خمسين بيزوس، ولم يتمكنا بسبب ذلك إلا من إرسال نصف الرواية. وطلب غارسيا ماركيز من الموظف أن ينتزع من الرواية الصفحات كأنه يسل شرائح لحم رقيقة حتى بات المبلغ كافياً لدفع أجرة البريد.

ثم عادا إلى البيت، ورهنا المدفأة الكهربائية ومجفف الشعر والمكواة الكهربائية، وعادا إلى دائرة البريد وأرسلا الدفعة الثانية. وفيما هما يخرجان من مبنى دائرة البريد توقفت ميرثيديس والتفتت إلى زوجها لتقول: "والآن يا غابو، كل ما نحتاج إليه هو أن يفشل الكتاب"[27].



16

الشهرة أخيراً

1967-1966

كـــان انـــشغال بال غارسيا ماركيز بنجاح الكتاب في نهاية المطاف أقل من انشغال باله بوصوله على دفعتين إلى بوينس آيرس. كان ألفارو موتيس يعمل بصفة ممثل شركة فوكس للقرن العشرين في أميركا اللاتينية منذ عام، وكان يوشك أن يسافر إلى الأرجنتين، فطلب منه غارسيا ماركيز أن يأخذ معه نسخة أخرى من الكتـاب إلى باكو بوروا في مكتب سوداميريكانا في بوينس آيرس. ولدى وصول موتـيس اتصل هاتفياً بوروا وأخبره أن لديه نسخة من الرواية. فما كان من بوروا إلاّ أن قـال له: "نسِ أمرها. لقد فرغت من قراءتها تواً، وهي ممتازة جداً"[1]. إذا كان بوروا ظن أن الكتاب "ممتاز جداً"، فسيكون ذلك على الأرجح حدثاً مثيراً.

كانـت لـدى غارسيا ماركيز في مدينة مكسيكو كل الملاحظات اليومية، وشجرة عائلته مدونة في أربعين دفتر مدرسي. وقد زعم هو ومرثيديس أنهما مزّقاها وأحرقاها حال سماعهما بوصول المخطوطة سالمة إلى الأرجنتين. وقال موضحاً إنها ذات طبـيعة بيانـية وإجـرائية على وجه العموم. غير أن أصدقاءه الأكثر اهتماماً بالاعتـبارات الأكاديمـية والتاريخية أصيبوا بالذعر وقالوا إنه ما كان يتعيّن عليه أن يتلفها بل كان عليه أن يحتفظ بها للأجيال المقبلة (أو حتى يجني منها ربحاً جيداً كما تبين في ما بعد)[2]. غير أن غارسيا ماركيز ظل يدافع عن نفسه بالإشارة إلى شعوره بالحـرج، ممـا يعني أنه لم يكن يرغب بعد اليوم في أن يقلّب الناس أوراقه الأدبية القديمـة، كما يقلّب المرء نفايات البيت أو نتفاً من الأقاويل عن علاقات أسرته[3]. "الأمـر يشبه ضبط شخص في ملابسه الداخلية"[4]. ثمة شيء بخصوص الفنان أو



الساحر الذي يرغب في حماية أسرار المهنة. ولسوء حظ كتاب السِّير أنه يحمل الموقف نفسه بخصوص الكشف عن أدق التفاصيل البريئة عن حياته. فقد ظل الموهوب دائماً أن يحمي إلى الأبد مشاعر الفقدان والخداع والإهمال والنقص التي راودته منذ طفولته.

وكان الحديث يجري عنه بوصفه الفرد الرابع من تلك المجموعة الصغيرة من الأخوة الذين يقودون طليعة السرد الأمريكي اللاتيني كي يحظى باهتمام عالمي من خلال ما يسمى عصر الانتعاش الأدبي. إن هؤلاء الأدباء الأربعة - كورتاثر وفوينتس وفارغاس يوسا، ومن تلك اللحظة غارسيا ماركيز أيضاً - سيحظون بشهرة لا تصارعها أي شهرة في السنوات التالية، لكن في تلك اللحظة عينها، لم تكن الحركة قد تبلورت بعد تبلوراً تاماً، ولم يظهر أي منهم بصفة زعيم هذه المجموعة الغريبة من المنتجات الجديدة. لكن أنداده كانوا قد عرفوا ذلك تواً، بل إنهم أحنوا رؤوسهم، مجازاً إن جاز التعبير: فقد كان غارسيا ماركيز هو الأفضل، ولا يمكن لأي شيء أن يكون كالسابق في أمريكا اللاتينية بعد نشر رواية مئة عام من العزلة. وكان أول الذين أدركوا هذه الحقيقة هم الأرجنتينيّين.

كانت الأرجنتين في ضوء مطار الأدب الرفيع هي البلد الرائد في هذا المجال في أمريكا اللاتينية. وكانت بوينس ايرس عاصمتها الكوزموبوليتانية الأخاذة التي سرعان ما ستُنشر فيها رواية غارسيا ماركيز، وكأنها باريس ولندن وقد انصهرتا في بوتقة واحدة في ذلك العام الجديد. وكانت الثقافة الأدبية قوية فيها وأحياناً تنطوي على مباهاة، لكن نوعية النقاش كانت رفيعة المستوى دائماً، وتأثيره في عموم أمريكا اللاتينية لا ينكر، بخاصة بعد الحرب الأهلية الإسبانية عندما لم يعد للبلد الأم تأثير ثقافي أو أدبي مهم في القارة الكبيرة الممتدة جنوباً. عندما قرأ غارسيا ماركيز مؤلفات كافكا في برغوتا سنة 1947، وعدداً كبيراً من أعمال أدباء آخرين في ماراكيبا بين سنتي 1950 و1953، فإنه قرأها بطبعات أرجنتينية. لقد رفضت دار نشر لوسادا روايته الأولى قبل خمسة عشر عاماً، لكن حلمه بات الآن على قاب قوسين أو أدنى من التحقّق، وسيُصحح ذلك الخطأ الذي ارتكب مبكراً: فروايته ستنشر في بوينس آيرس.



وفي العاصمة الأرجنتينية، تحدث الناشرون في دار نشر سوداميريكانا عن أن لديهم الآن أعجوبة أميركية لاتينية؛ وربما حدثاً نقدياً مثيراً. وكما جرت الأمور، فقد حظي اسم غارسيا ماركيز بقدر مواضيع من الدعاية في بوينس آيرس في الأشهر القليلة الماضية، وبحلول أواسط سنة 1966 نشر خورخيه ألفاريز مجموعة قصصية قصيرة بعنوان الوصايا العشر، ومن ضمنها قصة ليس ثمة لصوص في هذه البلدة، وأضحى الكتاب واحداً من أكثر الكتب مبيعاً طوال النصف الثاني من سنة 1966 بعد أن كان محاولة مبكرة استفادت من فرصة الانتعاش المتنامي[5]. ودعا الناشرون كل أديب يقدم وصفاً ذاتياً أدبياً عن نفسه، فكان غارسيا ماركيز رمزاً لمدخله الجديد في الإعلان عن نفسه منذ اللحظة التي اقتنع فيها أنه سيحقق نجاحاً أدبياً:

> اسمي، أيها السادة، هو غابرييل غارسيا ماركيز. آسف، فأنا شخصياً لا يروقني هذا الاسم لأنه سلسلة من كلمات عادية لم أستطع قط أن أربطها بنفسي. ولدت في بلدة آراكاتاكا في كولومبيا قبل أربعين سنة، ولا أزال غير آسف على ذلك. برجي هو برج الحوت وزوجتي هي ميرثيديس. هذان هما أهم حدثين في حياتي لأنني بفضلهما تمكنت حتى الآن، على الأقل، من البقاء على قيد الحياة بالكتابة.
>
> إنني كاتب هيّاب. مهنتي الحقيقية هي مهنة ساحر، لكنني أرتبك ارتباكاً شديداً وأنا أحاول القيام ببعض الحيل التي اضطر إلى أن ألوذ بها من جراء عزلة الأدب. على كل حال، إن كلا النشاطين يقودان إلى الشيء الوحيد الذي أثار اهتمامي منذ أن كنت طفلاً: أن يحبني أصدقائي أكثر.
>
> وفي حالتي الشخصية، فإن كوني كاتباً من الكتاب، ليس سوى إنجاز استثنائي لأنّ كتابتي رديئة جداً، وعليّ أن أخضع نفسي لانضباط بشع كي أنهي كتابة صفحة واحدة بعد ثماني ساعات من العمل. إنني أناضل نضالاً جسدياً مع كل كلمة، لكن الكلمة هي التي تفوز على الأغلب دائماً، ولكنني عنيد جداً حتى إنني تمكنت من نشر أربعة كتب خلال عشرين سنة. أما الكتاب الخامس الذي أكتبه الآن، فكتابته أبطأ من كتابة بقية الكتب، لأنني لا أملك إلا النزر اليسير من الوقت بين كثرة الدائنين وحالات الصداع.
>
> إنني لا أتحدث عن الأدب لأنني لا أعرف ما هو الأدب، كما أنني، من جهة، مقتنع أن العالم لن يتأثر بغيابه، ومن جهة ثانية، مقتنع أن العالم سيكون مختلفاً لاحتلاف كله بغياب رجال الشرطة. لهذا فإنني أفكر في أن فائدتي للإنسانية ستكون أكبر بكثير لو كنتُ إرهابياً بدلاً من أن أكون كاتباً[6].



أمامنا على ما يبدو كاتب يصبو إلى الشهرة. مرة أخرى نراه يقول عكس الحقيقة، وعلى نحو محسوب كي يجعل من نفسه، لا تحت الأنظار أكثر مما مضى وحسب، بل محبوباً أكثر أيضاً. الصورة هي صورة رجل اعتيادي لديه - ضمناً وخجلاً - موهبة استثنائية. إن الفرق بين الخجل والانتقاص الظاهريين من جهة، والثقة والرغبة في جذب الأنظار المستترتين من جهة ثانية، واضح للعيان وسيؤرق خصوم المستقبل إلى أبعد الحدود. ويكتشف قراء الخطاب السابق ذكره حدسياً أن هذا الشخص الاعتيادي كان تقدمياً في أفكاره السياسية أيضاً، وإن كان يشوبه قدر كبير من روح النكتة عن الساسة وعن كل شيء، فهو رجل عصره، رجل اللحظة. ومن لا يفتش عن كتبه بعد أن يقرأ هذا الخطاب؟

كانت أكثر مجلات الأرجنتين تأثيراً في تلك الآونة هي مجلة بريميرا بلانا، وكان رئيس تحريرها توماس إلوي مارتينث، وهو صديق بوروا، وسيصبح لاحقاً صديق غارسيا ماركيز الودود. كانت مجلة بريميرا بلانا إحدى كبريات المجلات التي تصنع الرأي وتبيع ستين ألف نسخة أسبوعياً. وكان مالكوها يشدون دائماً الحدث الثقافي الكبير التالي، وفي كانون الأول 1966، وبإعداد من باكو بوروا نفسه، قرر مالكوها إرسال أرنستو شو، محرر المجلة البارز وعضو مجلس الإدارة، لإجراء مقابلة مع غارسيا ماركيز في المكسيك. وإذ ما أخذت في الاعتبار كلفة السفر جواً في تلك الأيام، فإن المقابلة كانت استثماراً أقدمت عليه المجلة، إلا أنه وثقت بوروا وأدركت الغاية من ذلك. مكث الصحفي الأرجنتيني برفقة أسرة غارسيا بارتشا في المكسيك على مدى أسبوع كامل. وعندما نشرت المجلة المقابلة بعد ستة أشهر، وضعت صورة غارسيا ماركيز على غلافها وهو في الأزقة الجميلة المرصوفة بالقرميد في سان آنخل القديمة، وليس في الشارع الذي يسكن فيه والذي يفتقر إلى الجاذبية والفتنة. وكان شو هو الذي التقط الصور بنفسه وأظهر فيها غارسيا ماركيز بمظهر المهرج في ستينيات القرن العشرين مرتدياً سترته ذات المربعات السوداء والحمراء المألوفة. ولم يكن ذلك هو اللباس الذي يرتديه أدباء الأرجنتين، إنه لباس جديد يحاكي كيرواك ثم تظهر صورة غارسيا ماركيز كما هو حالياً، ثم صورة لعابر السبيل. وعوضاً عن الأديب المكتئب الذي وصفه لويس هارس في كتابه المهم الذي نشره

قبل أسابيع قليلة من نشر المقابلة مع غارسيا ماركيز، أظهرت صور شو روائياً سعيداً مفعماً بالحيوية والنشاط منسجماً الانسجام كله مع محيطه[7].

في شهر نيسان امتطى ماريو فارغاس يوسا، الذي نشر مؤخراً روايته المتألقة الثانية **البيت الأخضر**، عصا خشبية برأس شبه برأس فرس بخوض معركة بإعلانه أن رواية غارسيا ماركيز المقبلة ليست *إنجيل* أميركا اللاتينية كما كان قد أكد كارلوس فوينتس، بل هي رواية أميركا اللاتينية الكبيرة عن *العروسية*. لا بد من أن فارغاس يوسا تولاه الذهول لظهور هذا العريم غير المتوقع من كولومبيا، لكنه آثر، شأنه شأن فوينتس، أن يدخل مسرح العروسية. وظهرت مقالته المهمة *أماديوس في أميركا* في عدد نيسان من مجلة بريميرا بلانا التي أعلن فيها أن رواية **مئة عام من العزلة** هي قصة أسرة، بل قصة من قصص المغامرات في الوقت نفسه، "أسلحته هي نثرها المركز تركيزاً حاداً، وسحرها التقني الناجح، وخيالها الشيطاني مما جعل هذا العمل السردي عملاً ناجحاً، وهذا هو سر هذا الكتاب الاستثنائي"[8].

قرر الأرجنتينيون معاملة غارسيا ماركيز معاملة تتمتع بكل الخصائص والاعتبارات، فدعوه لزيارة بوينس آيرس أواخر حزيران لترويج الرواية، لكن الرحلة تأجلت إلى شهر آب كي يشارك في هيأة تحكيم جائزة الرواية التي تمنحها مجلة بريميرا بلانا/سوداميريكانا. وضاعفت المجلة ودار النشر في أثناء ذلك جهودهما في الترويج للرواية. وأخيراً صدرت رواية **مئة عام من العزلة** في الثلاثين من أيار 1967 بثلاثمئة واثنتين وخمسين صفحة وبسعر متمتة وخمسين بيزوس للنسخة الواحدة، أي ما يعادل دولارين أميركيين. كانت الفكرة المبدئية تتمثل بإصدار طبعة بثلاثة آلاف نسخة، وهو رقم كبير في ضوء المعايير الأميركية اللاتينية، لكنه معتدل في الأرجنتين. غير أن حماسة فوينتس وفارغاس يوسا وكورتاثار، وحتى بورورا نفسه، جعلا الناشر يستغل الفرصة، وتقرر أن يطبع منه خمسة آلاف نسخة. لكن الطلب الذي انهال على الناشر من باعة الكتب جعله يرفع الرقم إلى ثمانية آلاف نسخة قبل أسبوعين من النشر. وتوقعوا أن تباع تلك النسخ في غضون ستة أشهر إذا ما سارت الأمور على ما يرام. وبعد أسبوع واحد، بيع ألف وثمانمئة نسخة من الكتاب وجاء ترتيبه الثالث بين لائحة أكثر الكتب مبيعاً، وهو إنجاز لم يسمع به أحد لرواية



أميركية لاتينية كتبها مؤلف مغمور تقريباً، وبحلول نهاية الأسبوع الثاني، تضاعف الرقم ثلاثة أضعاف في بوينس آيرس وحدها وصدرت في بادئ الأمر بثمانية آلاف نسخة، لكنها بدت لاحقاً غير كافية تماماً.

ومما ينطوي على المفارقة، أن مجلة بريميرا بلانا نفسها، وبعد كل الجهود التي بذلها العاملون فيها، كانت بطيئة في صدورها. وكان هدفها هو نشر المقابلة التي أجراها شو مع غارسيا ماركيز، وبات عمرها الآن ستة أشهر، وصورة غارسيا ماركيز نفسه على غلاف المجلة الأمامي في الطبعة الأسبوعية 13-19 من شهر حزيران، غير أن حرب الأيام الستة في الشرق الأوسط، اندلعت عند الساعة الثالثة والدقيقة العاشرة من فجر يوم الخامس من حزيران بالتوقيت المحلي لمدينة بوينس آيرس، فتأجلت لحظة غارسيا ماركيز حتى التاسع والعشرين من الشهر[4]. وكان بين صفحات مجلة ملاحظة افتتاحية عن العدد تشير إلى أن هذا الحدث ليس حدثاً استثنائياً وحسب، بل (إن الكتاب أيضاً وعدد المجلة ضمناً) هو الينبوع الذي ستنطلق منه الرواية الأمريكية اللاتينية الجديدة. وكان عنوان المقابلة *رحلات سندباد*، مقارناً كتاب غارسيا ماركيز منذ البداية بألف ليلة وليلة التي كتب على درجة بالغة من الأهمية في صياغة خياله. لقد انطلق السحر. وفي المدة بين نشر الرواية ولحظة بيعها، قُدّر لأغنية فريق البيتلز الغنائي *سارجنت بيبر* أن تتبوأ مكانة أسطورية وظهرت في محلات بيع الأسطوانات في جميع أرجاء العالم.

حاول غارسيا ماركيز أن يعرف مكان صديقه فيثينتي روخو الذي تألم لأن الكولومبي لم يبع الرواية لأصدقائه في دار نشر إيرا في المكسيك، ودعاه إلى تصميم الغلاف. عمل روخو بجد من أجل أن ينقل نكهة الرواية الفوضوية الشعبية المتصاعدة، فوضع حرف E من كلمة SOLEDAD في نهاية الاسم، مما أدى في الوقت المناسب إلى أكثر نظريات نقاد الأدب غرابة وغموضاً، وإلى رسالة أيضاً من أحد باعة الكتب في غواياكيل يحتج فيها على تسلمه نسخاً فيها خلل اضطر بنفسه إلى تصحيحها بيده كي لا يرجع رسالته. وفي نهاية الأمر، يظهر الغلاف الذي صممه روخو على أكثر من مليون نسخة من الرواية، فأصبح بذلك رمزاً ثقافياً من رموز أميركا اللاتينية، لكنه لم يظهر في الطبعة الأولى لعدم وصوله في الوقت المحدد.

وهكذا كان غلاف الطبعة الأولى من تصميم أيريس باغامو، وهي مهندسة ديكور، إذ رسمت سفينة ضخمة يميل لونها إلى الأزرق وهي تطفو في غابة يميل لونها إلى الأزرق أيضاً، على حين كان الإطار العام للصورة رمادي اللون، وفيه ثلاث وردات برتقالية اللون أزهرت تحت السفينة. هذا هو الغلاف الذي سيبحث عنه في ما بعد الهواة لعقد صفقاتهم، وإن يكن بأي حال الغلاف الأكثر دقة الذي صممه واحد من أكبر الفنانين في المكسيك[10]. أما الطبعات الثانية والثالثة والرابعة الصادرة في حزيران وأيلول وكانون الأول، فكانت كلها بغلاف من تصميم روخو، وبلغت أعداد نسخها عشرين ألف نسخة وهي ظاهرة غير مسبوقة في تاريخ النشر في أميركا اللاتينية.

في مطلع شهر حزيران أجرت مجلة ميجون، المرادفة الأميركية اللاتينية لمجلة تايم، مقابلة مع غارسيا ماركيز في المكسيك، وكانت هذه المجلة هي الوحيدة التي تباع في جميع أرجاء القارة (بالرغم من أنها كانت في واشنطن). وأخبر غارسيا ماركيز محدثيه أنه يخطط للسفر مع أسرته وتمضية سنتين في "مصيف ساحلي بالقرب من برشلونة"[11]. وبدأ يكرر القصة التي أصبحت مألوفة وهي أنه بدأ بكتابة روايته **مئة عام من العزلة** عندما كان في سن "السابعة عشرة"، لكن "حجمها" بدا له آنذاك أكبر مما يستطيع السيطرة عليه. لكنه قال أيضاً شيئاً آخر مثيراً للدهشة: "عندما أفرغ من تأليف كتاب، فإني أفقد اهتمامي به. وكما قال همنغواي: كل كتاب كامل يشبه أسداً ميتاً. المشكلة الآن هي كيف تصطاد فيلاً". غارسيا ماركيز تعب من رواية **مئة عام من العزلة**؛ أيمكنه أن يكون جاداً؟ ونشرت عبارته في صحف ومجلات أخرى في جميع أرجاء أميركا اللاتينية وكانت عبارة نموذجية لظاهرة صحافية جديدة: مزحة على طريقة غارسيا ماركيز[12]. كانت تناقضاً لفظياً مضاعفاً: فهو عن وعي لا يعبأ بنقاده ويزعجهم أيضاً لذلك السبب ولأسباب أخرى. فهو يعلم جيداً أنه يداهنهم مدهنة طرفة عين بنوع من الغطرسة التي يبرزها على أنها تواضع، وهذا كله مغلف بفطنة شعبية تسمح لمؤلفها بالهروب من الأعداء بمهارة تماثل مهارة تشارلي تشابلن وهو يدور على قدم واحدة؛ لكنه بالرغم من ذلك، ينطوي على قدر من الحقيقة التي لا سبيل إلى إنكارها.



نشرت الرواية في مدينة مكسيكو في الثاني من تموز بعد ست سنوات على وصول الأسرة إلى هذه البلاد[13]. وتتذكر ماريا لويسا إيليو التي أهداها غارسيا ماركيز الرواية قائلة: "أصبنا بالجنون. فقد اشترى لي نسخة ثم تنقل من مكتبة إلى أخرى يشتري نسخاً منها لأصدقائي ويكتب عليها الإهداءات. وقد أخبرني غابو قائلاً: *أنت في طريقك إلى الإفلاس التالي*. كنت أشتري كل النسخ التي أستطيع شراءها. وذهبنا إلى منزل غابو وشربنا الأنخاب مع ميرثيديس. وفي اليوم التالي، حسناً، لم نكن نملك مالاً كي نعود أدراجنا، وليس لدينا المال اليوم أيضاً. لكننا تمكنا من تدبير أمورنا... لعلك تتذكر أن هناك فقرة في رواية **مئة عام من العزلة** تمطر فيها السماء ورود الأقحوان الصفراء. وفي ذلك اليوم اشتريت سلة كبيرة، أكبر سلة استطعت أن أعثر عليها، وملأتها بالأقحوان الأصفر، ثم بحثت عن سمكة صغيرة ذهبية وزجاجة شراب. وضعت كل تلك الأشياء في السلة وذهبت إلى بيتهما"[14]. إن هذا الميل إلى تحويل العالم الواقعي إلى عالم **مئة عام من العزلة** السحري سيكبر ويزداد مثل كرة ثلج، وقبل أن يمضي وقت طويل، يجعل المؤلف منهكاً تماماً بالتأويلات التي راحت تنصب على روايته الاستثنائية. وفي آخر الأمر تراه يسعى للاستقلال من ستينيات القرن العشرين، لكنه يجد نفسه منجذباً إليها انجذاباً لا نجد له حد.

في الأول من آب سافر غارسيا ماركيز إلى كاراكاس لحضور المؤتمر العالمي الثالث عشر للأدب الأميركي - الإيبري الذي نظمته جامعة بيتسبرغ تزامناً مع منح ماريو فارغاس يوسا جائزة رومولو غاليغوس، التي أنشئت حديثاً، عن روايته **البيت الأخضر** الصادرة عام 1966 وحطت طائرتاهما القادمتان من لندن والمكسيك في مطار مايكيتا في الوقت نفسه والتقيا لقاءً رمزياً في المطار: وقدّر للرجلين أن يسافرا كثيراً. في السنوات التالية كانت هناك مراسلات بينهما، ثم أصبحا الآن نزيلا غرفة واحدة. كانت علاقتهما علاقة أدبية وطيدة لكنها مضطربة[15]. فقد شعر غارسيا ماركيز أن الأحداث تعصف به ولم يكتب نصاً واحداً لهذا الحدث. وكان قادماً متأخراً إلى مأدبة الانتعاش الروائي بالرغم من أن ماريو فارغاس يوسا الأصغر منه بتسع سنوات والذي عاش في أوروبا منذ سنة 1959 كان يعرف معظم الأدباء



الآخرين في باريس وفي برشلونة. وكان وسيماً، متأنقاً في مظهره، على دراية بالنقد (إذ كان يعد لأطروحة دكتوراه)، لكن بالرغم من ذلك، كان يعرف أيضاً كيف يجذب الجماهير الأدبية إليه. وفي مواجهة غارسيا ماركيز الذي بات نجماً بلا ريب، وفي مواجهة هذا الحدث المثير الجديد، شعر بوسا بالخوف والرهبة وأنه في وضع دفاعي. وفي إحدى الحفلات، جعل أصدقاءه الأوروبيين يرتعبون بوجه كئيب عندما: يمنع الحديث عن رواية **مئة عام من العزلة**. ومع هذا فقد سلك سلوكاً غريباً مع الصحافة وأخبر الصحفيين وجهاً لوجه أن مرثيديس هي التي تؤلف كتبه ثم تجعله يضع اسمه عليها لأنها كتب مكتوبة بطريقة سيئة جداً. وعندما سُئل عمّا إذا كانت البقرة المحلية، الرئيس السابق رومولو غاليغوس، روائياً عظيماً ردَّ قائلاً: "تحتوي روايته **كانايما** على وصف جميل لدجاجة". لقد بدأ غارسيا ماركيز يلتقي كل من هبَّ ودبَّ. فبعد أن أصبح هناك غارسيا ماركيز، فلا بد من أن يكون هناك انتعاش. ويمكن أن يحدث أي شيء الآن. كان هذا الرجل سحراً بعينه. كتابه ساحر واسمه ساحر، وكان الاسم غابو حلماً من أحلام حقبة الستينيات وارهول وليس حلماً يدوم خمس عشرة دقيقة وحسب.

أخبر أمير رودريغيث مونيغال غارسيا ماركيز أنه قبل سفره إلى كاراكاس بيومين أمضى وقته في الكوبول في باريس برفقة فوينتس وبابلو نيرودا وأفرط فوينتس في تقريظ **مئة عام من العزلة** أمام نيرودا وتوقع أن تكون الرواية مهمة في أميركا اللاتينية أهمية دون كيخوته لثيرفانتس في إسبانيا[16].

انتقل عرض غابو – ماريو إلى بوغوتا في الثاني عشر من آب، لكن رواية **مئة عام من العزلة** لم تكن قد وُزِّعت بعد فيها، كما أن الدعاية القادمة من بوينس آيرس كانت قليلة، ولم تنشر الاسكتادور أو التيمبو أي شيء عن الرواية في الأسابيع الأولى. وبدا الأمر كأن الكولومبيين تعمّدوا اللامبالاة، كأنهم كانوا ينتظرون إلى أن يأتي الوقت الذي يستحيل فيه تجاهل هذه الظاهرة المدهشة في أوساطهم غير أن الحقيقة هي أن غارسيا ماركيز لم يحظَ في بلاده بالتقدير الذي حظي به في مناطق أخرى من أميركا اللاتينية[17]. وكان بلينيو ميندوثا قد سافر مع سوبيدا إلى بوغوتا: "أتذكر أن غارسيا ماركيز وصل إلى بوغوتا برفقة ماريو فارغاس



بوينــا فــي نشر مئة عام من العزلة في كولومبيا. وكان ماريو قد فاز تواً بجائزة رومولو غاليغوس في كاراكاس عن روايته البيت الأخضر. وكما يحدث عادةً عند زيارة شخصيات معروفة إلى البلاد، فإن بوغوتا خرجت عن بكرة أبيها، احتفاءً به. وكانـــت حـــشود الـــناس تتحلق من حوله وتتدافع مراعية بذلك أصول مجاملات الحجاج، ولم تدرك بعد القصة التي صنعها غارسيا ماركيز ولا تزال تنظر إلى أديبها ابن البلد نظرة متواضعة، تاركة إياه في الظلال"[18].

انطلــق غارســـيا ماركيز ومِرثيديس إلى الأرجنتين في التاسع عشر من شهر حزيـــران للـــبدء بمـــواجهة قدرهما. لقد اعترف لبلينيو ميندوثا أنه "خائف خوف الـــصرصور"، وأنه يبحث عن سرير كبير يكفيه للاختباء تحته[19]. سافرا جواً إلى كولومـــبيا وتـــركا ولـــديهما مع جدتهما لأمهما في كولومبيا، ولما كان الولدان مكـــسيكيين فعـــلاً، فإنهما لم يعودوا إلى وطنهما الأصلي إلا بعد سنوات طويلة. وـــقش الأبـــوان وهمـــا على متن الطائرة التي نقلتهما إلى بوينس آيرس خياراتهم للمـــستقبل، ولا بـــد مـــن أن مِرثيديس فكّرت في الوعود التي أطلقها غابو عن أهدافهما المستقبلية عندما استقلا أول طائرة معاً قبل عشرة أعوام تقريباً. لقد كتب الآن حقاً رواية عمره وهو في سن الأربعين. وفي السادس عشر من حزيران، هبطا في مطـــار إيثيـــثا في بوينس ايرس عند الثالثة بعد منتصف الليل، بعد مرور عشرة أسابيع على نشر الرواية. وبالرغم من وصولهما سراً، يتذكر باكو بورروا، فإن المدينة كلـــها كانت تسودها حالة احتفالية بعد أن "استسلمت على الفور لسحر الرواية الـــذي لا يقاوم"[20]. وكان هو ومارتينيث في المطار للترحيب بالزوجين اللذين لم يداخلهما أي شك، واللذين تغيرت حياتهما تغيراً أكبر مما كانا يتوقعان. ويبدو أن الـــرحلة لم تنهك غارسيا ماركيز، إذ طلب رؤية السهول مترامية الأطراف، كما طلب وجبة طعام من شرائح اللحم الأرجنتيني المشوي"[21]. ولتلبية طلبه، رافقوه إلى مطعـــم في شـــارع مونتيفيلو. وفيما هما يحاولان تكييف نفسيهما مع هذا الرجل القـــادم من المنطقة المدارية مرتدياً معطفه الخاص بالحطابين وبنطاله الإيطالي الضيق وينتعل جزمته الكوبية، فيما بدت أسنانه المعتمة بالسود وهيئته الغريب من ملامح عدم الاكتراث والوعظ المملّ، حاولا إقناع نفسيهما بأن هذا هو المظهر الذي ينبغي



أن يظهر به مؤلف روايه مئة عام من العزلة. أما بخصوص زوجته، فكانت شخصاً مدهشاً يشبه نسخة أرجنتينية من الملكة نفرتيتي[22].

يقول غارسيا ماركيز إن الدهشة تولته لمرأى بوينس آيرس التي مثلت تجربته الأولى في مدينة كوزموبوليتانية من مدن أميركا اللاتينية لم يبدُ عليها أنها مدينة "غير مكتملة". وفي صباح أحد الأيام شاهد امرأة تحمل نسخة من الرواية في حقيبة التسوق بين حبات الطماطم والخس. وكان غارسيا ماركيز آنذاك يتناول طعام الفطور في مقهى عند ناصية أحد الشوارع. لقد استقبل كتابه الشعبي الآن بكل ما للكلمة من معنى لا بوصفه "رواية، بل بوصفه حياة"[23]. وفي الليلة نفسها ذهب برفقة مرثيديس لحضور مناسبة في مسرح إنستيتيوتو دي تيلا الذي كان محرك الحياة الثقافية في الأرجنتين في تلك الحقبة. وقد سجل توماس إلوي مارتينيث المناسبة منذ اللحظة التي أمسى فيها غارسيا ماركيز، وإلى الأبد، شخصية في قصة كتبها مسبقاً بنفسه، تماماً مثل شخصية ميلكيادس، من دون أن يدري ذلك: تقدّم غابو ومرثيديس باتجاه خشبة المسرح والارتباك بادٍ عليهما لمرأى هذا العدد الكبير من معاطف الفرو والريش المتألق. كانت قاعة المسرح معتمة، لكن لسبب ما، كانت بقعة ضوء تلاحقهما. كادا أن يجلسا عندما هتف شخص ما: "أحسنت!"، ثم علا التصفيق. وردّدت امرأة الصيحة وقالت: "من أجل روايتك!" ثم وقف جميع الحاضرين. وفي تلك اللحظة هبطت الشهرة على غارسيا، معلمة بصحائف براقة تشبه ريميديوس الجميلة، فتغمره موجة من الضياء تصمد أمام عاديات الدهر"[24].

يقول مارتينيث إن غراسيا ماركيز مارس سحره على جميع أرجاء بوينس آيرس، وكاد يوشك أن يغادر حفلة ما أقيمت في إحدى الأمسيات على ضفاف ريو دي لا بلاتا عندما لاحظ امرأة شابة تغمرها السعادة. وقال غارسيا ماركيز "كانت تلك المرأة حزينة حقاً لكنها لا تعرف كيف تدرك حزنها. انتظري لحظة. سأساعدها كي تبكي". ثم همس ببضع كلمات سرية في أذن المرأة الشابة وعلى الفور انهمر من عينيها فيض من الدموع لا سبيل إلى السيطرة عليه. فسألته في ما بعد: وكيف أمكنك أن تعرف أنها حزينة؟ وما الذي قلته لها فأبكيتها؟ فردّ: قلت لها أن تتوقف عن الإحساس بالوحدة. وهل كانت تشعر بالوحدة؟ طبعاً. هل صادفتك

في حياتك امرأة لا تشعر بالوحدة؟ يواصل خيمينيث كلامه: ثم التقيته مرة أخرى، صدفة، في البلدة التي سبقت سفره، وكانوا قد أخبروه أن الشبان والشابات يلجأون إلى مساء في غابة بايرمو ويتوارون عن الأنظار في كهوف مظلمة حيث يمكنهم تبادل القبلات بحرية. فما كان منه إلا أن هتف. إنها منطقة يسمونها إل تراديرو، ركن الحب. قلت له مترجماً: فيلا كاريو أو بيت الحب. فقال: كنا أنا وميرثيديس في لهفة. ففي كل مرة نحاول فيها تبادل القبلات، يظهر لنا أحدهم فيقاطعنا"[25].

استؤنف عرض غابو - ماريو في مدينة ليما بعد انقطاع دام أسبوعين عندما التحق غارسيا ماركيز وميرثيديس بصديقهما البيروفي الجديد لحضور أسبوع من الفعاليات الأدبية مع بداية شهر أيلول. وتوطّدت عرى الصداقة رمزياً عندما بات غارسيا ماركيز عراباً لابن ماريو وباتريشيا الثاني الذي أسمياه غونثالو غابرييل.

ربما لم يكن في مستطاع غارسيا ماركيز أن يعلم مقدار الشهرة التي ستصيبه، لكن لا بد من أنه أصبح يملك فكرة ما الآن. فبعد العودة إلى مدينة مكسيكو بدأ هو وميرثيديس برسم الخطط وبهيئة أعمالهما، إذ وطدا العزم على ممارسة حريتهما التي اكتشفاها مؤخراً. ولما وجد غارسيا ماركيز أنه أصبح في مواجهة هذا التطور الجديد والمفاجئ تماماً من الشهرة، وربما الأمن المالي، قرر مغادرة المكسيك والسفر إلى إسبانيا. وكان في عجلة.

عاد غارسيا ماركيز إلى كارتاخينا بحلول أواخر شهر أيلول وبدأ يتخذ الترتيبات النهائية لسفره. وكان أمراً حسناً زيارة الأسر الكولومبية قبل رحيله، لكن بالرغم من تدفق كل المياه من تحت الجسور، فإن علاقة غارسيا ماركيز بأبيه بدت غير قابلة للإصلاح. ويتذكر إليخيو فيقول: "في تشرين الأول سنة 1967 جاء غابيتو إلى كارتاخينا مع ميرثيديس وولديه. ولا أزال قادراً على الإحساس بمدى الحرج الذي انتابني عندما شاهدت غابيتو يجلس على السرير مذعوراً من والدي الذي كان مستمتياً على الأرجوحة الشبكية. وبدا الأمر كأن والدي كان يبث نوعاً من الهلع الذي يستعذر على الوصف، هلع يوازي إرهاباً، وهو انطباع غير صحيح (حرفة الأسرة!). وفي وقت لاحق، وبعد أن تحدثنا مع خيمي وغابيتو توصلنا إلى استنتاج مفاده أن غابيتو لم يعرف كيف يتصرف أمامه"[26]، ولم ينبس بكلمة حق، لكن

السبب لم يعد هو الخوف، وهذا أمر أكيد. كما يمكن للمرء أن يكون واثقاً من أن الأب لا يزال غير معترف بفضائل منجزات ولده، حتى وإن بدا الأمر أن غابيتو في وسعه الآن أن يأكل أوراق النقد بدلاً من أوراق الصحف. (وهو ما كان يردّده الأب). ويمكن للمرء أن يكون واثقاً أيضاً من أن الابن، ذلك الهيمن الذكري المتنقّل، ما كان ليرحب بذلك الاعتراف المتأخر بفضله. لقد ظل ينظر حتى الآن إلى أبيه على أنه زوج أمه.

مما لا ريب فيه أن السياسة ظلت من بين الصعوبات القائمة بينهما. ففي شهر أيلول حث حاكم ولاية كاليفورنيا رونالد ريغان على تصعيد الحرب الأميركية في فيتنام، فازدادت الانقسامات على امتداد العالم الغربي. ويحتمل أن غارسيا ماركيز ووالده ناقشا موت تشي غيفارا الذي التقاه غابيتو لماماً قصيراً في هافانا، والذي أعلنته القيادة البوليفية العليا للعالم أجمع في العاشر من تشرين الأول. وربما يضاعف ذلك النبأ الحزن بعد وقت قصير بالإعلان عن فوز رمز أدبي آخر طالما رفضه غارسيا ماركيز وهو ميغيل انخل إستورياس بجائزة نوبل للأدب ليكون أول روائي أميركي لاتيني يفوز بها (كان الشاعر التشيلي غابرييل ميسترال قد فاز بالجائزة عام 1945). وقد فسّر العالم كله هذا الفوز على أنه اعتراف رمزي بانطلاق الرواية الأميركية اللاتينية لتتواصل. وسرعان ما يبدأ إستورياس وغارسيا ماركيز، وهما الواقعيان السحريان الكبيران اللذان يبدوان وكأن هناك أشياء كثيرة مشتركة بينهما، باحتقار أحدهما الآخر. فقد كان إستورياس الذي نال الجائزة متأخرة عنه يخشى المدعيّ الشاب، في حين كان غارسيا ماركيز الذي اشتهر مؤخراً وقد وطد العزم على ارتكاب جريمة قتل الأب[27].

مما لا ريب فيه، أن هناك مغزى من هروبه إلى أوروبا كي يمنح نفسه الحرية من الضغوط اليومية، ولإفساح المجال أمامه للمناورة والحشد. فقد كان الصحفيون يسألونه عن رأيه بخصوص كل شيء موجود تحت الشمس، لكن الأهم من كل هذا، عن رأيه في السياسة. وسيكون خطأ الاعتقاد بأن هدفه كان الهروب من التزامه السياسي هروباً تاماً فقد كان سليم العقل بما فيه الكفاية كي يدرك أنه لا يمكنه أن يكون مؤثراً إلا إذا كتب روايات ناجحة. هذا، فإن أول شيء عليه أن

يجعله إما يتمثل بأن يضمن لنفسه الزمان والمكان لتأليف الرواية التالية؛ ليست التالية تماماً، لأنها ستتأخر عن الصدور شأنها شأن **رواية مئة عام من العزلة**. صحيح أن غارسيا ماركيز يمكنه الآن أن يتصرف تصرفاً أكثر علانية، وأن يتخذ مواقف رمزية من شأنها ألاّ تثير اهتمام أحد حتى وإن كانت سابقة ببضعة شهور. وفي شهر تشرين الثاني، وقبل رحيله مباشرة، وفي وجه الضغوط التي كان يمارسها لطلبة كي يعلن قدراً من الالتزام السياسي بالمتغيرات الاجتماعية والسياسية، أعلن غارسيا ماركيز لصحيفة الاسكتدور أن منتجي الثقافة *مضطهدون* في كولومبيا على أيدي طبقتها الرجعية الحاكمة. وفي مقابلة أخرى نشرت بعد سفره مع ألفونسو مونسالفي لصحيفة إيفوك ماسيونال قال فيها "إنّ مهمة الكاتب الثورية هي أن يكتب كتابة جيدة"[28]. وقد أعادت صحيفة التيمبو نشر المقابلة مرة أخرى في أواسط شهر كانون الثاني، وكان ذلك بعد كلمات فيدل كاسترو الأولى (والأخيرة) في هذا الموضوع، وهي كلمات مختلفة إلى حدٍّ ما. فقد أعلن كاسترو في كلمته المشهورة "كلمات إلى المثقفين" أن الشكل الأدبي يعني أن يكون حراً، غير أن المحتوى الأدبي لا بد من أن يكون أقل تحرراً: "في داخل الثورة كل شيء، وخارج الثورة لا شيء". كما أعلن كاسترو أيضاً أن أكثر الأدباء ثورية هو ذلك الذي يترك كتابته من أجل الثورة.

يجد غارسيا ماركيز الذي تؤرقه علاقاته بالصحافة (ومن خلالها بجمهور القراء الجديد) نفسه وهو يشتغل أكثر مما كان يتوقع في تلك السنوات المبكرة ليمنح نفسه ذلك المكان كي يناور سياسياً وجمالياً، وهو ما كان ينشده. فإذا ما أراد أن يجد نفسه في بعض الزوايا الأخلاقية والإيديولوجية الصعبة، فإن عليه أن يقرر أنها من صنع يديه، أو في الأقل، أنه سيجعلها وفق ما يريده. وأخبر مونسالفي أن الأدباء "المحترفين" الجادين يقدمون مهنهم على كل شيء وأن عليهم ألاّ يقبلوا أي نمط من أنماط "الدعم" أو "المنح". وقال إنه شعر بمسؤولية كبرى تجاه قرائه، وإن روايته **خريف البطريرك** أصبحت شبه جاهزة للطباعة عندما نشرت رواية **مئة عام من العزلة**. لكنه يشعر الآن أن لديه رغبة في إعادة كتابتها من جديد؛ لا حتى تكون مثل الرواية الأكثر مبيعاً، بل لتكون مختلفة عنها. وهنا يطرح فكرة مُحيِّرة وهي أن

نتاج رواية مئة عام من العزلة يرجع إلى حدٍّ ما إلى بعض "الاعتبارات الفنية" (يضعها في ما بعد بالخيل الفنية) التي يمكن له استخدامها لتكون علامات مسجلة، إلا أنه يفضل بدلاً من ذلك أن يمضي قدماً ويؤلف رواية مختلفة تماماً. "إنني لا أرغب في تقليد نفسي تقليداً مضحكاً" ويقدم موسيلفي مواطنه على أنه شخص يبدو لأول وهلة مكسيكياً أكثر مما هو كولومبي إلى أن يسترخي "ويعثر على خيط أفكاره"، ويضحي مرة أخرى ذلك المواطن الساحلي الكولومبي النموذجي، مهذاراً، صريحاً، ومباشراً في طرح أفكاره ويضع في كل عبارة من عباراته بديهية هي نتاج نوازع أسلافه المزدوج الأسود والإسباني تحت وهج شمس مدارية مذهلة. الواضح أن هذا الإنسان الذي يُقدِّم لنا بنية التعاطف معه على ما يظهر، لا يزال غريباً في نظر عاصمة بلاده، تماماً مثلما كان غريباً يوماً ما وسط أسرته.

وهكذا يظل دائماً. فغابرييل ماركيز قلما تمكّن من انتظار الرحيل.



القسم الثالث

رجل العالم:
الشهرة والسياسة
1967-2005



-17-

برشلونة والانتعاش في أميركا اللاتينية: بين الأدب والسياسة 1967-1970

وصلت أسرة غارسيا ماركيز بارنشا إلى إسبانيا في الرابع من تشرين الثاني سنة 1967[1]. وبعد أن أمضت الأسرة أسبوعاً تقريباً في مدريد، سافرت إلى برشلونة بهدف البقاء مدة قصيرة، إلا أنها مكثت ستة أعوام[2]، تماماً مثلما مكثت من قبل في المكسيك. مرة أخرى، يجد غارسيا ماركيز صعوبة في العمل في الصحافة، لأن الصحافة كانت خاضعة لرقابة صارمة وكان هو شخصية عالمية مشهورة. غير أن في ذلك نعمة كما يبدو: فالفصل بين الصحافة والسياسة في مدينة مكسيكو، تزامن مع كتاب ضخم هو **مئة عام من العزلة**، وسيتزامن في برشلونة مع كتاب كبير أيضاً تقريباً هو **خريف البطريرك**.

بدت الرحلة إلى برشلونة للكثيرين مغامرة غريبة يقوم بها مواطن أميركي لاتيني يساري الهوى. ولقد زعم غارسيا ماركيز دائماً أنه ظل يتجنب زيارة إسبانيا بسبب كراهيته دكتاتورية فرنكو[3] وكانت المكسيك أكثر البلدان الناطقة بالإسبانية عداءً للنظام الإسباني، وأنها لمفارقة أن يسافر غارسيا ماركيز من المكسيك ليعيش في بلد نُفي منه العديد من أصدقائه الكاتالونيين وأصبحوا يعيشون في المكسيك وكولومبيا. وبالرغم من أن مشهد الدكتاتور الإسباني العجوز وهو يقترب من نهاية حياته وسلطته، كان دافعاً لتأليف الكتاب، وهو ما ينكره عادةً، إلا أن الذي كان قد خطّطه منذ زمن بعيد، هو أن يكون الكتاب صورة لطاغية أميركي لاتيني أكبر سناً بكثير، طاغية أدبي تبدو سلطته لا نهاية لها على رعاياه البائسين الذين طال عذابهم.



غير أن هناك نقطة أخرى لا بد من الإشارة إليها بخصوص القرار فقد كانت وكيلته الأدبية كارمن بالسيلس في برشلونة، وكانت في طريقها إلى أن تصبح واحدة من أكبر الوكلاء تأثيراً لا في إسبانيا وحدها بل في أوروبا كلها فبوجود دار نشر سكس بارال وعدد كبير من دور النشر الأخرى الموجودة حالياً، أو التي في طريقها إلى الظهور، كانت برشلونة، رغماً عن فرانكو، في قلب حركة انتعاش نشر الرواية الأمريكية اللاتينية في ستينيات القرن العشرين. وكان من ورائها الروح القومية الكاتالونية المنبعثة من جديد، وإن كانت مكبوتة بالضرورة، علاوة على الازدهار الاقتصادي الذي بدأت تثمره سياسات دكتاتورية فرانكو بالرغم من كل شيء. وكانت المادة الخام التي تُغذّي انتعاش النشر انتعاشاً خلاقاً للرواية الأمريكية اللاتينية نفسها، والتي كان غارسيا ماركيز ألمع نجومها.

وصل غارسيا ماركيز إلى مدينة برشلونة في اللحظة نفسها التي أصبح فيها الانتعاش واضحاً. وكان انفتاح الآفاق الذي لا يضاهيه أي انفتاح آخر، وإن كان مؤقتاً، سمة من سمات عقد الستينيات مما أوجد لحظة جمالية تنم عن خصب استثنائي. إنّ هذا الانفتاح، هذا الخيار بين البدائل، واضح المعالم في مادة وبنية النصوص الأمريكية اللاتينية المعترف بها إبان تلك الحقبة. وكانت كلها تدور حول التكوين التاريخي لقارة أمريكا اللاتينية، وإسهام كل من التاريخ والخرافة في الهوية الأمريكية اللاتينية المعاصرة، ومستقبلها، وإن ضمناً، حسناً كان أم سيئاً.

عند تذكر تلك الحقبة، فإن اللحظة التاريخية القوية التي عرفت بالانتعاش، امتدت من سنة 1963 عندما نشرت رواية **الحجلة** لخوليو كورتاثار، وحتى سنة 1967 عندما نشرت رواية حقبة الانتعاش بلا منازع.

يتفق الجميع على أن رواية **الحجلة** كانت بمثابة رواية يوليسيس لأمريكية اللاتينية؛ وهذا كلام مناسب تماماً، لأن حقبة الانتعاش يُفهم منها أنها تمثل ذروة وبلورة حركة الحداثة في أمريكا اللاتينية في القرن العشرين.

إلا أن رواية **مئة عام من العزلة** غيرت تماماً من هذا الرأي إجمالاً وأوضحت بجلاء، وعلى الفور، أن حدثاً هائلاً قد وقع ويتطلب إطاراً رسمياً مختلفاً كل



الاحتلاف؛ لأن روايه مئة عام من العزلة، وهو ما يتفق عليه الجميع، كانت دون كيخوته أميركا اللاتينية.

أضحى غارسيا ماركيز مركز الاهتمام، بل رمز حركة أدبيه متنامية كأنه هو وحده الذي يحظى بنقطة إعلامية توازي النقطة الإعلامية التي يحظى بها بقية الكتاب مجتمعين. إن ما لم يقله أحد هذا العدد الكبير من الكلمات، هو أننا أمام ما يشبه الظاهرة الغريبة، ما يشبه الوحش اللين، ما يشبه كاليبان[*] الأديب وقد تحول بفعل السحر إلى صورة جديدة لأديب هذه المرحلة المتناقضة التي تجمع بين الثقافة الشعبية وثورة ما بعد حقبة الاستعمار. إن الصحافة الإسبانية المتخلفة سياسياً وثقافياً على مدى ثلاثين سنة من الفرانكوية، لم تكن مستعدة لما تنطوي عليه الموجة الأميركية اللاتينية الجديدة من حداثة وتعقيدات، وقد أجريت عشرات المقابلات التافهة والمحرجة مع غارسيا ماركيز، ولم يهتم إلا عدد قليل من الصحفيين لفكرة أن هذا الإنسان القادم من اللامكان والذي يبدو أنه قد ظهر، شأنه شأن كتابه، من أدراج الرياح، بفعل شكل من أشكال الاحتراق العفوي في العالم الثالث، إنما هو كاتب جاد إلى أبعد حدود الجد، دؤوب كادّ على نحوٍ يتعذر تصوره، ثابت العزيمة ثباتاً قوياً، اشتغل بلا توقف على مدى عقدين من الزمان للوصول إلى ما وصل إليه، وأنه على استعداد للعمل بإصرار ليبقى في مكانه؛ بصرف النظر عما يتفوه به من ملاحظات يصدقها أمام صحافيين يصدقون كل ما يُقال لهم. إننا أمام أديب يستخدم شهرته الأدبية ليصبح شخصية عامة، وكبيرة على نطاق لا يتصوره أيٌّ من أسلافه، ربما باستثناء هوغو أو ديكنز أو تولستوي أو همنغواي.

ومع هذا، فإنه لم يُقدَّر حق قدره باستمرار. فعلى مدى أربعة عقود من الزمان، يخفق نقاده في رؤية ما هو موجود أمام أعينهم: وهو أنه أذكى منهم، وأنه كان يستغفلهم بالمكر والدهاء كما يشاء، وأن الناس أحبوه أكثر مما أحبوا النقاد، وأنهم على استعداد ليغفروا له كل شيء، لا لأنهم أحبوا كتبه وحسب، بل لأنهم شعروا أنه واحد منهم. وبينما أحبوا فريق البيتلز الغنائي إلى حدٍّ ما لأنهم لم يكونوا من صنع وسائل الإعلام (التي صنعت ألفيس بريسلي أو مارلين مونرو)، فإنهم كانوا يعرفون كيف يعبثون مع الصحافيين لمتعتهم: بأنهم يحملونهم على محمل الجد التام بالتظاهر بخلاف ذلك. بيد أنه



كان إنساناً اعتيادياً، وليس دعيّاً أو متحذلقاً أو متغطرساً. إنه إنسان يشبه قراءه، ولكنه أيضاً إنسان جعل الأدب الحقيقي في متناول اليد وسهلاً.

بدأ بوصول غارسيا ماركيز إلى برشلونة تيار جديد. ولم يمضِ وقت طويل حتى وصل أيضاً خوسيه دونوسو وماريو فارغاس يوسا. وسرعان ما تعرف غارسيا ماركيز إلى كبار الأدباء والمثقفين الإسبان مثل الناقد خوسيه ماريا كاستييت وخوان ولويس غويتيسولو وخوان مارسيه[4] في تلك الآونة، كانت المعارضة السرية لدكتاتورية فرانكو آخذة بالاتساع في جميع أرجاء إسبانيا، وكان يقودها وينظمها بالدرجة الأساس الحزب الشيوعي من خلال شخصيات مثل سانتياغو كاريلو وخورخه سيمبراون وفرناندو كلاودين، لكن بموازاة الحزب الاشتراكي والناشطين سراً من الشبان أمثال فيليبي غونثاليث[5]. لم تكن كاتالونيا تاريخياً مهد رجال الأعمال البورجوازيين الذين كانوا معروفين بدعمهم العجلة التي تجر وراءها عربات إسبانيا التي لم تكن فارغة في القرن التاسع عشر وحسب، بل كانت أيضاً موطن الفوضويين والاشتراكيين، والرسامين والنحاتين، وخشبة مسرح غودي وألبيث وغرانادوس وبونويل ودالي وميرو، وبيكاسو، وبالتبني أيضاً. وكانت في المرتبة الثانية بعد باريس من حيث كونها مختبراً ثقافياً أو بيتاً أخضر للثقافة اللاتينية، بل كانت مدينة طليعية بين حقبة النهضة الكبرى في ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر وسقوط الجمهورية الإسبانية عام 1939. واليوم، وفي ستينيات القرن العشرين، وبعد أن حُظِرت لغتها رسمياً، بدأت أكثر مقاطعات إسبانيا إنتاجاً وعملاً توكيد نفسها مرة أخرى. ومع هذا، فإن السياسة اضطرت في ستينيات القرن العشرين إلى أن تتوارى خلف قناع، إذ اتخذت الثقافة والقومية الكاتالونية البورجوازية، المحرومتان من حق التعبير، منحىً يسارياً متطرفاً من خلال مجموعة متباينة من أفراد الطبقة المتوسطة عموماً، كالأدباء والنحاتين وصناع الأشرطة السينمائية وأساتذة الجامعات والرسميين ومشاهير الإعلاميين والفلاسفة وعارضات الأزياء والرسامين، وكانوا يُعرفون بمصطلح "اليسار الرائع".

ومن صلات غارسيا ماركيز المبكرة صلته بروسا ريغاس، وهي اليوم من أبرز أديبات إسبانيا وراعيات الثقافة فيها، ولكنها كانت يومئذ امرأة شابة حسناء، فارعة



الطــول، تــشبه هايـــا ريدعريف في الشريط السينمائي الانصهار الذي أخرجه أنطونيوني، وكانت واحدة من ملهمات ذلك المسار الرائع. وكان شقيقها أوريول المسار في العلاقات العامة (شأنه شأن العديد من الناس الذين عرفهم غارسيا ماركيز في الأعـوام التي أمضاها في المكسيك وإسبانيا)، يملك أيضاً حانة بوكاشيو الذائعة في شارع موتنير حيث يلتقي الطليعيون الشبان الوسيمون والحضرون.

كانـت روسـا ذات التنورة القصيرة امرأة متزوجة في أواسط العقد الثالث من عمـرها ولها أطفال. لكنها عاشت حياة متحررة في الستينيات أثارت حفيظة لأغلبية التقلـيدية، وكانت تحمل لواء كل موضة أدبية جديدة. وفي تلك الآونة، كانت تنظم العلاقـات العامة في مكتب كارلوس بارال، إلا أنها بحلول نهاية ذلك العقد من الزمان، بدأت تدير دار نشر لاعايا ثيثيا. وكانت قد قرأت رواية **مئة عام من العزلة** وطارت بعيداً: "لقـد أحببت الكتاب حباً جنونياً، بل لا أزال أسافر حتى اليوم من دون أن يفـارقني، حاله حال بروست، وفي كل مرة أجد شيئاً جديداً فيه. إنه أشبه برواية **دون كيخوته**. وأعتقد أنه سيبقى خالداً. لكنه يبدو في هذه الأيام وكأنه يكلمني مباشرة. إنه عالمي. لقد أحببته كثيراً. ذلك أشبه بهوس الأطفال، وكنا نتناقله في ما بيننا"[6].

وعلـى الفـور دعت روسا ريغاس غابو ومرثيديس إلى حفلة أقيمت على شرفهما في بيتها، حيث عرّفتهما إلى بعض أعضاء جمعية برشلونة الطليعية المؤثرين. وهنـاك التقيا بالزوجين لويس وليتشيا فيودتشي اللذين ستتوثق عرى الصداقة بهم على مدى السنوات الثلاثين التالية. وكان انجذابهما إليهما إلى حدٍّ ما كونهما ليسا من كاتالونيا. وكما هي الحال في المكسيك، فإن غارسيا ماركيز سرعان ما يتفاعلان مـع حـشد المهاجرين قبل أيّ شيء. كان لويس فيودتشي طبيباً نفسانياً ولد في مدريد، فيما انحدرت ليتشيا من مالاقة ودرست الأدب في جامعة برشلونة[7]. وقام الـزوجان بإيـصال آل غابو وهو الاسم الذي سيشتهران به إليهما، إلى بيتهما بعد انتهاء الحفلـة. وعـندما توقفت السيارة تحدثوا مطولاً واتفقوا على اللقاء ثانية. وكانت بنتاهما الثلاث، "الصغيرات"، على حدّ تعبير غارسيا ماركيز، حينذاك، في مثل سن رودريغو وغونثالو تقريباً، وهذا يصبح الأطفال الخمسة أصدقاء على مدى العمر، كأنهم أقرباء مقصلون[8].



ومن أوائل المعارف امرأة برازيلية شابة تدعى بياتريس دي مورا، التي كانت بدورها مبهمة أخرى من ملهمات اليسار وشخصية أخرى تدير، شأنها شأن روسا ريغاس، دار نشر خاصة بها هي توسكيتس (وهي كنية زوجها آنذاك) عام 1969 وهي في سن الثلاثين. وإذا كانت الدار منتدىً أدبياً، فإن المصممين كانا حديثي السن تماماً. كانت بياتريس قد حلّت في إسبانيا لأنها، وهي ابنة دبلوماسي، انفصلت عن أسرتها المحافظة بسبب السياسة، وشقت طريقها اعتماداً على موهبتها وعلى فتنتها الشابة بلا ريب. (وإذا كانت روسا تشبه فانيسا ريدغريف في الشريط السينمائي *الانفجار* للمخرج أنطونيوني، فإن بياتريس كانت تشبه جين مورو في الشريط السينمائي *جولي وجيم* للمخرج السينمائي تروفو).

على كل حال، تبيّن أن غارسيا ماركيز جاء إلى برشلونة من أجل العمل، لذا، سرعان ما بدأ هو ومرثيدس بالحدّ من نشاطاتهما الاجتماعية، وانتقلا من شقة إلى أخرى في عموم أرجاء منطقتي غراسيا وساريّا الجميلتين، بالرغم من افتقارهما إلى الطابع العصري، الواقعتين شمال الخط المطري قبل أن يستأجر أخيراً شقة صغيرة جداً في مبنى جديد في شارع كابوناتا الواقع في منطقة ساريّا أيضاً. وقد تولت الدهشة الضيوف عندما رأوا وقار أثاثها وديكورها - لا سيما الأسلوب المكسيكي الخاص بالجدران البيضاء والأثاث المختلف الألوان في كل حجرة - وهو ما سيميز كل أماكن إقامتهما من الآن فصاعداً. سيعيشان في هذا المكان، وفي هذه المنطقة الحميمة التي تذكرهما بمنطقة الضواحي الرزينة الحالية من المباهاة التي عاشا فيها في المكسيك، حتى نهاية إقامتهما في العاصمة الكاتالونية.

قرر الأبوان إرسال رودريغو وغونثالو إلى مدرسة بريطانية علية هي كوليجيو كينغزمنتون. كان مدير المدرسة السيد بول جايبر من أهالي مقاطعة يوركشاير، درس الحقوق في جامعة كيمبرج واشترك مع غارسيا بارتشا في بعض الأمور: فقبل افتتاح مدرسته في برشلونة كان يعيش في المكسيك. وكما هو شأن آباء تلاميذه المشهورين، فإن غارسيا ماركيز كان يميل إلى السخرية التي لم يكن جايبر يطيقها وهو الإنكليزي *القح* "إنني لم أعره كثيراً من الانتباه، فهو لم يكن معروفاً على نطاق واسع في تلك الأيام. وكان دمثاً بما فيه الكفاية، إلاّ أنه يميل إلى المداومة.

أعتقد أنه كان متحمّلاً على الإنكليز. لكن ما الذي يجعله غير راضٍ عن ثمامات الشعوب الأخرى، أعني، ما الذي يجعله يصب شراب الشعير في كأس الشراب الفرنسي الأحمر؟.. أنطه جيداً، كما يقولون؟ ماذا؟ جيداً مثل ثيرباتس؟ يا الله! من قال هذا؟ أعتقد أنه هو الذي قال ذلك"[9]

كانت صلته بأكبر محرِّرين في برشلونة هما كارمن بالسيس وكارلوس بارال أحد مؤسِّسي دار نشر سيكس بارال. كانت علاقة غارسيا ماركيز ببارال مقضياً عليها منذ البداية. فبالرغم من أن بارال بذل جهوداً أكبر من غيره في الترويج لانتعاش الرواية، فإنه هو أيضاً الرجل الذي، كما قيل، "فاتته"، في سنة 1966 أو "فقد" رواية **مئة عام من العزلة**. مما يشكل، إن كان صحيحاً، أكبر سوء تقدير في تاريخ النشر الإسباني. أما بالسيلس، فكانت على العكس، وبلا أدنى شك، كانت أهم صلة لغارسيا ماركيز في برشلونة وأهم امرأة في حياته بعد لويسا سانتياغا ومرثيديس. وقد بدأت التفاوض لتحرير العقود لبارال في مطلع عقد الستينيات من القرن العشرين، ثم استقلت بنفسها. "عندما انطلقت في عملي لم أكن أعرف شيئاً. فالتعالي منتشر في كل مكان، وكذلك الغيات الجميلات. شعرت أنني أشبه بامرأة ريفية عند اقترانه بهن. لكنني أصبحت في نهاية الأمر وكان أول زبائني هو ماريو فارغاس يوسا ولويس غويتيسولو، لكن غارسيا ماركيز هو الذي ساندني مساندة حقيقية"[10].

وهكذا، بات غارسيا ماركيز في موضع القادر على إدارة شؤون شهرته وتأليف كتابه التالي بعد أن تولت مرثيديس إدارة البيت (قال للصحفيين "كانت تمنحني مصروف الجيب لشراء الحلوى مثلما كانت تمنحه للولدين"[11]، وتولت كارمن إدارة أعماله وبقية شؤونه، وهو ما أقبلت عليه إقبالاً شديداً أول الأمر حتى تحوّل إلى تفانٍ في ما بعد. ولم يمضِ وقت طويل حتى أدرك غارسيا ماركيز أن العالم كله قد دان له الآن. وتنشأ عادته في الاتصال الهاتفي أن تصل مستويات يتعذر تصورها: فقد كان يتصل يومياً مع كل من يريد الاتصال به في أي منطقة استراتيجية - كولومبيا، المكسيك، كوبا، فنزويلا، إسبانيا وفرنسا - أو في أي مكان آخر في العالم في غضون لحظة واحدة. أما في ميدان العمل، فإنه لم يكن

مضطراً إلى متابعة الاحتمالات أو إطلاق المبادرات أو البحث عن المكاسب: فالعالم هو الذي سيأتي إليه من الآن فصاعداً من خلال كارمن. وإذا كان ذلك يحتاج إلى قدر من التكيف فإنه قادر على تحقيقه.

يكمن جزء من عملية التكيف في توضيح العلاقة - ليس في الأقل لنفسه بين ميثولوجية رواية **مئة عام من العزلة**، **والأسد الميت**، ومشروعه الراهن **خريف البطريرك** كان من شأنه أن يُخلّد اسمه بفضل رواية **مئة عام من العزلة** حتى لو لم يكتب أي رواية أخرى من بعدها، لكنه لم يرقه الحديث عنها: فقد أراد أن يركز على الرواية الجديدة. وهكذا بدأ يقول للصحافيين إنه بات ضجراً من رواية **مئة عام من العزلة** - قدر ما كان يضجر من أسئلتهم الغبية - ووصل به القول، ويا للهول الشنيع، إلى أن الرواية سطحية وأن نجاحها يرجع إلى حدٍّ كبير إلى سلسلة من حيل الكاتب[12]. باختصار، يبدو أنه كان يريد القول إنه ليس ساحر حقاً، إنما مشعوذ موهوب.

الواضح أن غارسيا ماركيز كان على حق من ناحية ما. فرواية **مئة عام من العزلة** تحتشد حقاً *بالحيل* - وهي لا تحتشد بأعمال الشعوذة والسحر كالتي أحبّها القراء حباً جماً في رواية ألف ليلة وليلة (التي آذنت بظهور ميلكيادس وموضوعاته واستراتيجياته ذات الصلة) وحسب، بل بتقنيات الحداثة أيضاً التي كتبت بمشقة، والتي سمحت للمؤلف بأن ينأى بنفسه عن الاستغراق في رواية **البيت**، فتنحل منه في الهواء الهواجس - الأدبية وتلك التي تتصل بالسيرة أيضاً التي استشعر بها طوال حياته[13]. لكن وراء هذا كله، يكمن بعدٌ آخر بلا ريب هو بُعد خيبة الأمل والاستياء أيضاً. إن رواية **مئة عام من العزلة** تبدو الآن وقد سرقت منه **البيت** كما سرقت الماضي أيضاً، ولم يعد في وسعه الرجوع إليهما الآن، بل لم يكن راغباً في معرفة ذلك[14].

وهناك سبب آخر دفع غارسيا ماركيز ليصدر رد فعله ضد رواية **مئة عام من العزلة** ألا وهو قضية الشهرة بكل ما تنطوي عليه من ضغوط ومسؤوليات وتوقعات[15]. لقد كان في هذا يجمع بين موقفين متضادين، بل كان منافقاً في بعض الأحيان، لكن ليس ثمة شك في أنه - بل جزء كبير منه - ندم منذ البداية وحزن



علـــى ذلك. وكما هي حال الكثيرين ممن سبقوه، فقد كان يصبو إلى المجد، إلا أنه كـــان متردداً في دفع الثمن. وهكذا حررته الرواية من الماضي المؤلم، لكنها حكمت عليه أن يحيا مستقبلاً معقداً. ولهذا، فإن قصة بقية حياته ستكون قصة إنسان استحق الشهرة التي ينعم بها الآن، وعليه بعد ذلك أن يتعلم كيف يتعايش معها، وأن يتحمل الـــتوقعات والمسؤوليات، وأن ينتصر مرة أخرى (على الشهرة والنجاح هذه المرة)، وأن يواصل انتصاره مع كل كتاب[16].

اســـتناداً إلى هذا الرأي، فإن رواية **مئة عام من العزلة** تمثل على ما يبدو محور حـــياة غارســـيا ماركيز: نهاية ماكوندو (عالمه السابق الذي لم يتمكن من استيعابه) وبداية ماكوندو (بعد أن تحقق الآن تفقدها الناجح وأصبح وراءه)، ونهاية ضآلة شأنه وعدم شهرته وبداية "سلطته" (كما سترسخها رواية **خريف البطريرك**)؛ ونهاية حقبة حداثته وبداية حقبة ما بعد حداثته. وإذا ما نظرنا بمنظار أوسع فإن رواية **مئة عام من العزلة** تمثل أيضاً محور أدب أمريكا اللاتينية في القرن العشرين، ورواية القارة الوحيدة التاريخـــية العالمـــية والمتفق عليها عالمياً بلا منازع. وبمنظار أكثر اتساعاً أيضاً، وهذا صـــحيح، فإن الرواية جزء من ظاهرة عالمية تؤشر إلى نهاية "الحداثة"، ووصول العالم الـــثالث في حقبة ما بعد الاستعمار وآدابه إلى المسرح العالمي (من هنا تأتي أهمية كوبا وكاسترو)، ونهاية حقبة بدأت برابليه (وتوديع العصور الوسطى هجاء نظرتها العالمية) وترســـخت بثيربانـــتس، ولكن أعلنت عن نهايتها رواية **يولسيس**، ويمكن القول إنها تأكدت برواية **مئة عام من العزلة**[17]. ما من أحد يجد سهولة في التكيف مع فكرة؛ بل احتمال تلك الدرجة من الأهمية التاريخية.

* * *

قامت الأسرة بأول زيارة لها خارج إسبانيا في شهري نيسان وأيار عام 1968 فـــتوجهت إلى باريس وإيطاليا حيث كان جيانجيا كومو فيلترينللي ينشر أول طبعة مـــن رواية **مئة عام من العزلة** بلغة أجنبية. وكان الإصدار حدثاً ومشهداً إعلامياً رفيعـــاً مـــن مكائنة الشخصيات الأدبية. لكن بالرغم من أن فيلترينللي قدّم غارسيا ماركيـــز علـــى أنه دون كيخوته الجديد، إلا أن هذا كان وهناً لكلمته ورفض أن تكـــون له أي صلة بإصدار الرواية أو بالدعاية لها. لقد راود غارسيا ماركيز شعور

فـــوي بأن الناشرين يستغلون الكتّاب، وأن على هؤلاء أن يعالجوا العمليات النهائية في الأقـــل من الإصدار: "إن المحررين لا يساعدونني على تأليف كتبـــي، إذاً، لماذا يتعين عليّ أن أساعدهم على بيعها؟"[18]

انـــتهت تلك الرحلة الأوروبية في الوقت نفسه الذي اندلعت فيه الأحداث الثورية في باريس في شهر أيار عام 1968، لكن نادراً ما أشار غارسيا ماركيز إلى هذه الظاهرة التاريخية المائلة، على حين أسرع كارلوس فوينتس وماريو فارغاس يوســا بالسفر إلى باريس والاشتراك فيها. كما أن فوينتس كتب تحقيقاً وتحليلاً مـــشهوراً عن التمرد الفاشل الذي شهده بأمّ عينيه بعنوان باريس: ثورة أيار[19]. لكن على خيبة أمل غارسيا ماركيز التي لا يرقى إليها شك لما آلت إليه الأحداث، فـــإن ثقـــته كانـــت ضعيفة بقدرة البرجوازية الفرنسية، وحتى بقدرة شبيبته الصلابية، على تغيير بلد وثقافة، هو شخص لديه تحفظات كبيرة بشأنهما، كما أن أنظاره كانت لا تزال معلقة على أمريكا اللاتينية. ومع هذا، فقد قرر العودة إلى باريس خلال الصيف، وفي النهاية، أفصح لمندوزا عن مشاعره:

> انخلعت باريس مني وأصبحت كأنها شظية الفرست في قدمي، وانقطعت آخر الخـــيوط التي تربطني بالفرنسيين. إن تلك الدقة وتلك القدرة المدهشة على المبـــالغة في توضيح الأمور الدقيقة شاخت الآن. لكن الفرنسيين لا يدركون ذلك. لقد وصلنا إلى هناك وكانت حجارة رصف الطريق لا تزال محطمة في أعقـــاب المعارك التي شهدها شهر أيار، وقد انطبعت تلك المعارك في أذهان الفرنـــسيين انطباعاً قوياً، وحلل سواق سيارات الأجرة والخباز والبقال تلك الأحداث تحليلاً مرهقاً وأغرقونا في حمى العقلانيات، وتركونا بانطباع مفاده أن ما حدث كان نتيجة تصادم الكلمات يا له من أمر يثير الحنق
>
> إن قـــدري هو أن أكون مصارع ثيران، ولكني لا أدري كيف أتعامل معه. وقـــد اضطررت إلى اللجوء إلى شقة تاتشيا لمراجعة ترجمة رواية مئة عام من العزلة لقد أصبحت الآن سيدة محترمة متزوجة بزوج رائع يتكلم سبع لغات بطلاقـــة لا تكشف عن أي نكتة. وفي أول لقاء لنا، عقدت صداقة قوية مع مرثيديس أساسها التآمر ضدي[20].

صـــحيح. فقـــد التقى غارسيا ماركيز تاتشيا ثانية، وكانت قد عاشت بضع سنوات برفقة تشارلز روسوف، المهندس الفرنسي المولود عام 1914 والذي هاجر



أبواه من روسيا بعد إخفاق انتفاضة 1905. وقد عاد أبوه إلى البلاد مرة أخرى عام 1917 للانضمام إلى صفوف الثورة، لكنه تركها مرة أخرى عام 1924 بعد أن خاب ظنه في أعقاب وفاة لينين. وكانت لتاتشيا علاقات عابرة قبل نهائية روسوف، ولكنها لم تعش أي قصة حب جديدة بالرغم من أن بلاس دي أوتيرو جرى وراءها في باريس وحاول إذكاء علاقتهما المضطرمة. ومن المفارقات أنها التقت الرجل الذي تزوجته من خلال بلاس وذلك عام 1960. لكن غارسيا ماركيز ظهر في حياتها من جديد الآن عام 1968. "التقينا في شقتي في باريس. كنت غائبة في التوتر، وتصرفنا تصرفاً سيئاً وتحدثنا حديثاً صافياً، لكن المناسبة كانت صعبة جداً، متوترة جداً. لكننا تمكنا من التصرف وكأن ما من شيء حدث بيننا، وواجهنا الأمر بخسارة".

كان غارسيا ماركيز لا يزال في باريس لدى غزو الجيش السوفياتي تشيكوسلوفاكيا في الحادي والعشرين من آب بهدف قمع حكومة الإصلاح الاشتراكية، أو "ربيع براغ" بقيادة ألكزاندر دوبتشيك، وهو الذي انتخب مؤخراً ليكون السكرتير الأول للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي. كانت تشيكوسلوفاكيا تمثل لغارسيا ماركيز قضية أشد خطورة من الأحداث التي جرت في باريس لأنها بدأت تكشف عن أن الشيوعية السوفياتية عاجزة عن التطور. وقال لبلينيو ميندوثا: "لقد انهار عالمي، لكنني أفكر الآن، في أنه ربما يكون أفضل على هذه الحال. إنه الكشف من دون تمحيص عن أننا نقف بين إمبرياليتين تتساويان في القسوة والجشع إنما هو، بمعنى من المعاني، تحرير لضمير الفرد... لقد أرسلت مجموعة من الأدباء رسالة إلى فيدل ونشرتها صحيفة لأوبزرفاتور يقولون فيها إن دعمه الغزو السوفياتي كان *أول غلطة بالغة الخطورة ترتكبها الثورة الكوبية*. وهم يريدوننا أن نوقع على الرسالة. لكن ردنا كان واضحاً تمام الوضوح: إنه غسيلنا القذر وسنهتم به داخل البيت. لكن الواقع هو أنني لا أظن أن عملية الغسيل ستكون سهلة".[21]

أثبت العام 1968 أنه أشد الأعوام التي علقت في الذاكرة اضطراباً. ففي شهر كانون الثاني استأنفت كولومبيا علاقاتها الدبلوماسية مع اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية للمرة الأولى منذ عشرين سنة. كما زار البابا بولس السادس

البلاد في شهر آب، وهي أول زيارة بابوية إلى أميركا اللاتينية (كان قد تمّ توقّع مثل هذه الزيارة في قصة جنازة الأم الكبيرة)، واغتيل مارتن لوثر كنغ في ممفيس في نيسان واغتيل بوبي كيندي في لوس أنجلوس في حزيران. وفي الشهر نفسه أُطلقت النار على أندي وارهول في مدينة نيويورك. وتظاهر رجال الشرطة في شيكاغو لدى اجتماع الحزب الديمقراطي في شهر آب، وانتخب ريتشارد نيكسون رئيساً في تشرين الثاني من دون مساندة عمالية. كما نفّذ اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية غزوه تشيكوسلوفاكيا بمساندة كوبا. وفي مطلع شهر تشرين الأول قتل الجيش المكسيكي مئات المتظاهرين العزل في تلاتيلولكو في مدينة مكسيكو، وذلك قبل أن تُعقد أول دورة للألعاب الأولمبية في العالم الثالث. كل هذه الأحداث تجري وغارسيا ماركيز يختبئ بنفسه بعيداً في برشلونة ومع *البطريرك الورقي* بالرغم من كونه يعيش في ظل دكتاتورية حقيقية[22].

أما بخصوص إسبانيا، فإن غارسيا ماركيز لم يهتم إلا اهتماماً قليلاً جداً بسياسة البلاد حتى ظن عدد كبير من الناس في برشلونة أنه "غير سياسي". وخلال وجوده في المدينة حدث اعتصامان كبيران نظّمها المعارضة ضد نظام فرانكو، وشارك فيهما عدد كبير من أصدقائه من ضمنهم ماريو فارغاس يوسا وكل عضو رئيس من أعضاء "اليسار الرائع"، لكنّ غارسيا ماركيز لم يشارك فيه. تقول بياتريس دي مورا بعد ثلاثين سنة: "كان غابو في تلك الأيام غير سياسي تماماً، وأنت لا تسمعه يتحدث في السياسة وكان يستحيل أن تعرف ما هي أفكاره. وبما كانت تقتضيه التقاليد أن يكون المرء ملتزماً سياسياً في تلك الآونة. غير أن غابو لم يكن ملتزماً"[23].

غير أن للروائي خوان مارسيه ذكريات مختلفة عن غارسيا ماركيز غير السياسي. ففي أواخر صيف عام 1968 كان مارسيه عضواً من أعضاء لجنة التحكيم الأجانب الذين وجهت إليهم الدعوة لمنح جوائز أدبية في المسابقة الرابعة للاتحاد الوطني للأدباء والفنانين في كوبا، ولما اتضح للسلطات أن جائزة الشعر ستمنح إلى الشاعر هيربرتو باديّا المتهم بمناهضته الثورة وأن جائزة المسرح ستمنح للكاتب المسرحي المثلي الجنس أنطون آروفات، تفجرت أزمة واحتجز أعضاء اللجنة في

كوبا لبضعة أسابيع. وكانت تلك الحادثة بداية الصراع بشأن حرية التعبير التي ستغير بعد ثلاثة أعوام من الثورة صورة كوبا أمام العالم تغييراً كمياً، وبخاصة في أوروبا والولايات المتحدة وتسبب بقطيعة يصعب إعادة وصلها بين العديد من الأدباء من جهة، وبين ما كان يعتقد حتى تلك الأيام أنها ثورة اشتراكية ليبرالية إلى حدّ معقول. وأصرّ أعضاء لجنة التحكيم على آرائهم واضطرت السلطات إلى إقناع نفسها بطبع "تحذير صحي" في الكتابين لدى نشرها. وبعد ستة أسابيع من البقاء في كوبا كان خلالها فيدل كاسترو ينتظر بلا طائل من أعضاء لجنة التحكيم أن يغيروا رأيهم، عاد مارسيه إلى برشلونة في أواخر شهر تشرين الأول وروى ما جرى لمجموعة من الأصدقاء في إحدى الحفلات، وكان من ضمن أولئك الأشخاص غارسيا ماركيز نفسه. أخبرني مارسيه قائلاً: "منحت اللجنة الجائزة لباديّا لأن كتابه كان أفضل الكتب جميعاً. أما اتحاد الأدباء في كوبا، فقال إن الكتاب ليس هو الأفضل، والمؤكد أن الاتحاد وصلته رسالة من الجهات العليا بذلك الشأن. حقاً لقد تبين أن باديّا كان رجلاً تحريضياً ومنحرفاً ومخبولاً. لكنني حتى لو علمت بذلك، لما غيّرت رأيي، لأن كتابه كان أفضل الكتب، وتلك نهاية الحكاية. على كل حال، رجعت إلى برشلونة فأقامت كارمن حفلة لي، وبذلك رويت قصتي. يمكنني أن أشاهد غابو الآن وقد لف عنقه بمنديل أحمر اللون وهو يخطو جيئة وذهاباً بينما أنا أشرح ما حدث. كان حانقاً عليّ، غاضباً حقاً. وقال إنني أبله، وإنني لا أفهم أي شيء عن الأدب، وإن فهمي السياسة أقل من فهمي الأدب. إن السياسة تأتي في المقدمة دائماً، ولا يهم إن شُنِقَ جميع الأدباء. كان باديّا ابن زنى اشتغل عميلاً للسي اي إيه، وما كان يتعين علينا أن نمنحه الجائزة قط. إنه لم يُسِئ إليّ، لكنه أوضح أننا نعيش في عالمين ثقافيين وأخلاقيين مختلفين كلّ الاختلاف. وبعد ذلك أصبحنا صديقين، لكن شعوراً يداخلني بأن الأمور لم تعد كما كانت من قبل، وبخاصة من ناحيته"[24].

إن الشيء الذي لم يعرفه مارسيه هو أن غارسيا ماركيز الذي كان يستشعر مطرّباً الخطورة التي ستكون عليها هذه المشكلة، أيّد التعامل تعاملاً مباشراً من وراء الكواليس مع كاسترو بخصوص مشكلة باديّا. وفي أواسط شهر أيلول زار زيارة



مطولة مدينة باريس لرؤية خوليو كورتاثار الذي كان يراسله، وإن لم يتمكن من لقائه. كان كورتاثار قد انفصل تواً عن زوجته الأولى أورورا بيرنارديث، وكتب رسالة تقبض الصدر إلى باكو بوروا في بوينس آيرس، وقال فيها إن نقطة الضوء الوحيدة الرائقة فيها كانت لقاءه بغارسيا ماركيز: "أريدك أن تعرف أنني التقيت بغابرييل ومكثت معي يومين آخرين. لقد وجدته هو ومرثيديس مدهشين. إن الصداقة تنطلق مثل نافورة ماء عندما تصلك الحياة بأمثالهما من البشر"[25]. وناقش الرجلان الوضع الكوبي مناقشة كافية لأنهما هما اللذان سيؤيدان الثورة بالتالي تأييداً تاماً في السراء والضراء، ويجد، يأبيان بنفسيهم عن معظم معاصريهما، وبالتالي عن أكثرهم شهرة مثل فارغاس يوسا ودونوسو وكابريرا إينفانتي وغويتيسولو وحتى فوينتس نفسه. ويزعم غارسيا ماركيز أنه هو الذي اقترح الاتصال سراً بفيدل وذلك بإرسال رسالة مشتركة إليه، وإن كان كورتاثار يؤكد أن تلك المبادرة مبادرته. كانت الفكرة في جوهرها تقتضي مناشدة فيدل سراً ألاّ يُعاقب باديّا لقاء سكوتهم. ولم يصل أي رد. لكن باديّا الذي كان قد أعفي من وظيفته في دار نشر كاسا دي لاس أميريكس أُعيد إلى العمل. وفي سنة 1971 تتفجر القضية كلها مجدداً، لكن الناس من أمثال فرغاس يوسا وخوان غويتيسولو وسيمبو ميدوثا كانوا قد نأوا بأنفسهم عن كوبا في سنة 1968 ولم تعد الأمور كما كانت عليه سابقاً أبداً.

سافر غارسيا ماركيز في الثامن من كانون الأول في مهمة استثنائية إلى براغ لمدّة أسبوع، وكان معه صديقه الجديد خوليو كورتاثار وصديقة كورتاثار الجديدة الأديبة والمترجمة الليتوانية أوغي كارفيليس التي كانت تعمل في دار نشر غاليمار الباريسية الكبرى، فضلاً عن كارلوس فوينتس. كانوا يصبون إلى اكتشاف ما يحدث حقاً في العاصمة التشيكية المحتلة حديثاً ويريدون التحدث إلى الروائي ميلان كونديرا بخصوص الأزمة[26]. وبحسب ما قاله كارلوس فوينتس، فإن "كونديرا طلب منا أن نلتقيه في حمام سونا على ضفة النهر ليخبرنا عما حدث في براغ. يبدو أن ذلك المكان كان واحداً من الأماكن القليلة التي ليس فيها للجدران آذان.

ثمة سحة كبيرة في الجليد حملتنا على التخفيف من مشاعرنا وإعادة تنشيط دورتنا. ودفعنا ميلان كونديرا برفق نحو ما لا يمكن إصلاحه. وبدون يشبه لون زهرة



الأوركيدا البمسحية، غمرنا أنفسنا، أما والقادم من باربكيًا والقادم من فيراكروز، في ذلك الماء الغريب جداً عن جوهرنا المداري"[27].

بالرغم من هذه المغامرات، فإن الصورة الطاغية التي ظهر بها غارسيا ماركيز في تلك الاونة، كانت صورة بطل مستوحد ارتبط بإحساسه الباطني ارتباط الكرة بسلسلة من حديد لكن بالرغم من ذلك، بدا محروماً من الإلهام، جوالاً في دهاليز بيته المغلقة وقاعاته الخاوية (إنه يسكن في شقة صخرية أشبه بالمواطن كين في إحدى الروايات الخيالية، أو أقرب إلى بابا همنغواي الذي لا يملك سوى رصاصات أدبية فارغة بدلاً من رصاصات حية). حقاً، كان بعيداً عن الالتزامات اليمينية في أثناء تأليفه رواية **خريف البطريرك** تماماً مثلما كان بعيداً عنها عند كتابته رواية **مئة عام من العزلة**. ومع هذا، فإن عذابه كان مضاعفاً بلا شك، بالرغم من المشهد المحترق غالباً لعذابه الداخلي الذي يتكرر عرضه على صفحات الصحف في جميع أرجاء أميركا اللاتينية.

بعد برهة من الزمان، راح غارسيا ماركيز يزور مكتب كارمن بالسيلس بين الساعة الخامسة والساعة السابعة من مساء بضعة أيام في الأسبوع، وذلك ليحفظ فيه آخر ما يكتبه من رواية **خريف البطريرك** وكان قسم المخطوطات في المكتب قد بدأ يتسلم أقساماً كبيرة من الرواية من الأول من نيسان عام 1969 وظل يتسلمها حتى شهر آب عام 1974 وعليها تعليمات صارمة مفادها: *ليست للقراءة* ولاستعمال هاتفها بلا حدود لصفقاته التجارية ومهماته المؤتمنة على أسرار. وقد أدى هذا إلى إبعاد العمل عن البيت، وربما أنقذ مرثيديس من معرفة أمور يمكن أن تزعجها، ليس أقلها الكميات الهائلة من ثروته الجديدة التي اختار أن يبددها طوال السنوات اللاحقة، وكذلك الأمور السياسية وغيرها التي أضحى بمرور الوقت منهمكاً فيها. كما قامت بالسيلس مقام الأخت التي في إمكانه أن يخبرها بكل شيء تقريباً، والتي راحت تحبه حباً شديداً يجعلها على استعداد للتضحية في سبيله. وقالت لي: "بعد أن بقي مدة من الزمن في برشلونة جاء إليّ في يوم من الأيام وقال: *استعدي، لدي عمل للسوبرمان* وكان يعنيني بكلامه، إذ هكذا كنت بالنسبة إليه حينها"[28]. (وبالرغم من ذلك، لم تكن ممانعة لسكنة في ما بعد. فبعد

مــــرور ســــنوات سألها عارسيا ماركيز في أثناء حديث هاتفي: أتحبني يا كارمن؟ فــردّت عليــه: لا يمكنني الإجابة عن هذا السؤال، فأنت تشكل 36. 2 بالمئة من إيراداتنا)

في غضون ذلك، كان الصبيّان يتقدّمان في السن. ويلاحظ عارسيا ماركيز في فترة لاحقة أن العلاقة بين الأبوين والولدين التي لا تتغير على مر القرون تغيرت تغيراً جــذرياً في ستينيات القرن العشرين: فهذان الأبوان المتمقان ظلا شابين إلى الأبد، الأبــوان اللــذان لم يكونا حتى أكبر سناً مما كان عليه الناس موسطو العمر. لقد أضحى رودريعو اليوم صانعَ أفلام ناجحاً في هوليوود، وأخبرني قائلاً: "إن أكثر ما أتذكره هو أننا بقينا بالرغم من حياتنا الحافلة بالنشاطات الاجتماعية أربعة أشخاص دائماً، أربعة أشخاص في العالم لا أكثر. كنا عجلة بأربعة قضبان لا خمسة. وهكذا، فعندما رُزق شقيقي بطفل قبل بضعة أعوام أصبت بالذهول، إذ لم أستطع أن أصدق أن هناك قضيباً خامساً الآن. وكان ذلك بعد مرور سنوات طويلة على سكني بعيداً عن البيت"[29].

ثم أضاف: "كنت أنا وشقيقي قد رضعنا من حليب أمنا، وفي ذلك عدد من الفوائد الجوهرية. ثمة أشياء يتعين عليك أن تعرفها، أحدها أهمية الصداقة. ثمة تركيد هائل على الإعجاب بالآخرين وبحياتهم. ذلكم هو دواء أبــي. لا بد من أن تعرف عــن حــياتهم وكل أعمالهم، وأن تشاركهم تجاربهم وأن يشاركوا في تجاربك. في الوقت نفسه نشأ نشأة بعيدة كلّ البعد عن الانحياز حلا حالتين مهمّتين. أولاهما، إن شعب أميركا اللاتينية هو أفضل شعوب العالم. هو ليس بالضرورة أذكى الشعوب، وربما لم يشيّد الشيء الكثير، ولكنه أفضل شعب في العالم، وأكثرهم إنسانية وكرماً. وثانيهما، إذا ما حدث أيّ خطأ، فاعلم أنه خطأ الحكومة، وهي التي ينصب عليها اللــوم دائمــاً، وإذا لم يكن السبب هو الحكومة، فاعلم أن السبب هو الولايات المتحدة. لقد اكتشفت منذ ذلك الوقت أن أبــي يحب الولايات المتحدة، ويكنّ الإعجاب لمنجزاتها، ويحمل مودة كبيرة لبعض الأميركيين، لكننا في نشأتنا، كانت الــولايات المــتحدة هي التي تتحمل اللائمة على كل ما هو سيّئ في العالم تقريباً. وعندما أتذكر ذلك أرى أن تربيتنا كانت تربية إنسانية جداً وصحيحة سياسياً، ومع

أنني عُمِّدت على يدي كاميلو موريس، فإننا لم نمتلك أي ثقافة دينية. كان السياسيون أشراراً، وأفراد الشرطة أشراراً، وعناصر الجيش أشراراً[30]. لكن هناك أموراً جوهرية أخرى. فإذا كنا لا نسمع إلاّ كلمة واحدة تتردد، فهي كلمة "الجد". فعلى سبيل المثال، كان والداي متزمتين جداً من حيث السلوك. إذ عليك أن تُبقي الأبواب مفتوحة كي تمر السيدات، ولا يمكنك الكلام والطعام يملأ فمك. كان الاعتقاد شديداً بالجد، وبالسلوك وبالدقة. وعليك أن تحصل على علاقات جيدة، ولا يمكن لك أن تحصل على سواها. لكن عليك أيضاً أن تضيع وقتك سدىً، وعليك أن تعرف كيف ومتى تضيعه سدىً. بدت إضاعة الوقت سدىً كأنها جزء من "الجد". وإذا وصلنا إلى القمة ولم نضيع الوقت سدىً أكثر مما ينبغي، يحل علينا العقاب. شيئان اثنان كانا يستحقان الاحترام حقاً: الخدمة؛ كأن تكون طبيباً أو معلماً أو ما شابه، والأهم من هذا إبداع الأعمال الفنية. لكن المحظور في أذهاننا دوماً هو أن الشهرة ليست مهمة إطلاقاً، وكان يقول إنها ليست شيئاً جاداً. إذ يمكن أن تطبق شهرتك الآفاق، ولكنك تظل بالرغم من ذلك كاتباً ليس عظيماً. حقاً إن الشهرة يمكن أن تكون موضع شك. فعلى سبيل المثال، قال لنا إن صديقه ألفارو موتيس وتيتو مونتيروسو كانا كاتبين عظيمين، لكن لم يسمع بهما أحد. من ناحية أخرى، رأينا، نحن الولدان، أن مشاهد والدنا وقد بات معروفاً بين الناس في الشارع"[31].

في تلك الآونة تقريباً تخلى غارسيا ماركيز عن التدخين بعد أن ظل مدمناً عليه منذ سن الثامنة عشرة. وفي الوقت الذي تخلّى فيه عن التدخين كان يدخن عالياً ثمانين سيجارة يومياً من التبغ الأسود. وكان قد صرّح قبل ذلك بعامين أنه يفضّل الموت على ترك التدخين[32]. وقد حدث ذلك التحول ذات مساء خلال تناول طعام العشاء مع صديقه الطبيب النفساني لويس فيودتشي الذي شرح له كيف أقلع هو شخصياً عن التدخين قبل شهر واحد، وسبب ذلك. بقي غارسيا ماركيز غير راغب في البوح عن التفاصيل الكاملة لذلك الحديث على مدى أكثر من ثلاثة عقود من الزمان لكنه أطفأ عقب سيجارته التي كان يدخنها في أثناء العشاء، ولم يدخن مرة أخرى بالرغم من أنه استشاط غضباً بعد مرور أسبوعين فقط عندما بدأ لويس فيودتشي يدخن غليونا[33].



في العـــام 1970 أعلن في فرنسا أن رواية **مئة عام من العزلة** هي أفضل رواية أجنبية لعام 1969، وحازت على جائزة استحدثت أول مرة في عام 1948. غير أن غارسيا ماركيز رفض رفضاً باتاً حضور المناسبة. وبعد مرور بضعة أشهر تحدث في مقابلة صحافية فقال إن "الرواية لا تناسب فرنسا"، وإنها لم تحقق مبيعات جيدة جداً بالرغم من المراجعات الجيدة التي كتبت عنها. ولعل السبب يكمن، لسوء الحظ، في أن "روح ديكارت هزمت روح رابليه" في فرنسا[34].

غير أن الوضع، ويا للمفارقة، كان مختلفاً اختلافاً شديداً في الولايات المتحدة، إذ لم يسبق أن حصلت أي رواية في التاريخ الحديث على تقريظ مفرط أكثر من التقـــريظ الـــذي بـــدأ يحصل عليه غارسيا ماركيز هناك. وكتب جون ليونارد في صحيفة ذا نيويورك تايمز بوك ريفيو:

> **إنك لتخرج من هذه الرواية المدهشة خروجك من حلم، متقد الذهن. رجل شاب أحمر البشرة قرب الموقد. نصف مؤرخ، نصف عرّاف، بصوت ملائكي تارة، ومهـــموس تارة أخرى، يهدهد أولاً قبضتك كي تغفو وهي ممسكة براقع لا ســـبيل إلى السيطرة عليه، ثم يسحبك داخل الخرافة والأسطورة. وبقفزة واحـــدة يقفـــز غابـــرييل غارســـيا ماركيز نحو المسرح برفقة غنتر غراس وفلاديميـــــا نابوكـــوف، شهيته هائلة بحجم خياله، قدريته أكبر من كليهما مذهل[35].**

ثم جـــاءت لـــندن بعد ذلك في السادس عشر من نيسان. وفي شهر حزيران خصصت صحيفة التايمز – وهي ركن المؤسسة، ومن بعض الأوجه، أشد الصحف المحافظة في العالم، ولم تسمح بنشر الصور إلاّ مؤخراً – صفحة كبيرة كاملة للفصل الأول من رواية **مئة عام من العزلة** أرفقته ببعض الصور التوضيحية "المخدرة" التي يمكـــن أن تكـــون قـــد سُرقت من شريط فريق البيتلز للرسوم المتحركة **الغواصة الصفراء**.

وفي شهر كانون الأول أعلنت صحيفة نيويورك تايمز رواية **مئة عام من العزلة** واحدة من بين أفضل كتب السنة الاثني عشر. وكانت هي الرواية الوحيدة من بين تلـــك الكتب، وعُدَّت النسخة الإنكليزية التي أنجز ترجمتها إلى الإنكليزية غريغوري راباسا أفضل ترجمة أجنبية للرواية في ذلك العام.



أما بخصوص الكتّاب الآخرين من كتّاب مرحلة الانتعاش، فقد انتقل ماريو فارغاس يوسا أخيراً إلى إسبانيا في ذلك الصيف وكان قد فرغ من تأليف روايته الهائلة حديث في الكاتدرائية قبل عام واحد، وترك مهنة التدريس في جامعة لندن منتقلاً إلى برشلونة. وأخذ أصدقاؤه يلقبونه بلقب *الطالب العسكري*، لا بسبب موضوع روايته **عصر البطل** التي تدور حول الأكاديمية العسكرية (1962) وحسب، بل لأن ماريو نفسه كان شديد التأنق، مهندماً، حسن التنظيم، يسعى لفعل الشيء الصحيح نظرياً على الأقل، لكن الجدل غالباً ما كان يثار من حوله، إذ كان هذا الشاب التقليدي على ما يبدو، متزوجاً من قريبته من الدرجة الأولى باتريشيا، تاركاً خلفه زواجه المخزي أيام مراهقته من عمته، الذي سيجعله في ما بعد موضوع روايته **العمة جوليا وكاتب النصوص**. وفي غضون ذلك، كان مشروعه الآخر، وهو دراسة في أدب *غارسيا ماركيز السردي تنحو منحى السيرة*، من أكثر الأعمال المدهشة وفاءً وكرماً في الأدب التي يخصصها أديب كبير لآخر. وعنوان هذا الكتاب هو **غارسيا ماركيز: قصة قاتل إله**، ويظل حتى اليوم، وبعد ثلاثين سنة على تأليفه، مرجعاً رئيساً، حتى وإن قال عديد انتقاد إنه حوّل الكولومبي إلى أديب له صفات ماريو وهواجسه.

ثمة روائي مقيم بدوره وهو روائي التشيلي خوسيه دونوسو المصاب برهاب المرض، وكان غارسيا ماركيز قد التقاه في منزل كارلوس فوينتس عام 1965. وكان دونوسو العضو الخامس في عصر انتعاش الرواية (المكافئ للعضو الخامس في فريق البيتلز العالمي) وهو روائي كتب رواية مدهشة بعنوان **طائر الليل الداعر** (1970). ثم كتب دونوسو بعد ذلك يوميات عن تلك المدة الزمنية في كتابين مهمين هما تاريخ شخصي عن فترة الانتعاش (1972) وروايته **الحديقة المجاورة** (1981)، ويلقي فيها نظرة ساحرة - وغيورة - على العلاقة بين كارمن بالسيلس (نوريا مونتكلوس) وكاتبها "المفضل" غارسيا ماركيز (مارسيلو تشيريبوغا)[36].

وقرر بلينيو ميندوثا وزوجته مارفيل موريno الانتقال إلى ما وراء المحيط الأطلسي حيث سافرا أوّلاً إلى باريس ومنها إلى ميورقة[37]. عاش عيشة متقشفة إلى أبعد الحدود وبدأ يزور برشلونة في أغلب الأحيان بفضل ثروة غارسيا ماركيز، إلا



أنه وجد الأمور الرحيبة والهادئة في شارع كابوبانا "تلك السيدة المشهورة المتشائعة ذات القلائد اللؤلؤية"[38].

في هذه الآونة التقى غارسيا ماركيز بابلو نيرودا وزوجته ماتيلدا. كان نيرودا شاعر أميركا اللاتينية الأعظم، شيوعياً على الصراط المستقيم ولكنه كان صاحب مزاج، محباً لملذات الحياة. ولا بد من أن ألفارو موتيس الشهير في إسرافه كان يحسده على تلك الحياة ويعجب به. كان نيرودا أديباً آخر من أدباء أميركا اللاتينية الذين يصابون بالذعر من السفر جواً. وكان يوماً ما في طريق عودته بحراً من رحلة قام بها إلى أوروبا لحضور الانتخابات التي ستجيء بالمرشح الاشتراكي سلفادور آليندي إلى الحكم. وكان أحد القرارات الناجحة الأولى التي اتخذها آليندي هو جعل نيرودا سفير تشيلي في باريس في عام 1971. ولما توقفت سفينة نيرودا في برشلونة في صيف العام 1970، كان أحد أهدافه الرئيسة لقاء غارسيا ماركيز[39]. وقد كتب غارسيا ماركيز بعدئذ رسالة إلى ميندوثا يقول فيها: "من المؤسف أنك لم تلتق نيرودا. لقد أحدث هذا الملعون ضجة كبرى خلال طعام الغداء مما دفع ماتيلدا لأن تبعث به إلى الجحيم. وقد دفعناه من خارج إحدى النوافذ وأتينا به إلى هنا ليستمتع بقيلولة. وقبل عودتهم إلى السفينة استمتعنا بوقتنا استمتاعاً مذهلاً"[40]. كانت تلك المناسبة هي التي قادت نيرودا الذي لم يكمل قيلولته المهمة جداً إلى أن يهدي كتاباً لمرثيديس. ويتذكر غارسيا ماركيز المناسبة فيقول: "قالت مرثيديس إنها ستطلب من بابلو توقيعه، لكنني قلت لها: لا تكوني مداهنة إلى هذا الحد. ثم ذهبت واختفيت في الحمام... فما كان منه إلا أن كتب: *إلى مرثيديس، وهي في فراشها*. ثم نظر إلى ما كتبه وقال: *هذا الكلام يثير الشكوك إلى حدٍّ ما*. ثم أضاف: *إلى مرثيديس وغابو، وهما في فراشهما*. ثم فكّر وقال: *هذه العبارة أسوأ من سابقتها*. فما كان منه إلا أن أضاف إليها عبارة: *أخوكما بابلو*. ثم انفجر ضاحكاً وقال: *لكن هذه العبارة باتت الآن أسوأ بكثير، لكن ليس ثمة ما يمكن فعله بشأنها*"[41].

شهدت الأشهر القليلة التالية ذروة مرحلة الانتعاش إذ بدأت مسرحية كارلوس فوينتس **الأعور ملكاً** وعُرضت أول مرة في مدينة أفينيون في شهر آب



ودعا فويتس جميع أصدقائه لمشاهدتها وتم تنظيم رحلة بالقطار من برشلونة إلى أفينيون وكان من ضمن المدعوين ماريو فارغاس يوسا وباتريشيا، وكانا قد انتقلا تواً للسكن في العاصمة الكاتالونية، وخوسيه دونوسو وبيلار، وغابو ومرسيدس مع ابنيهما. كما سافر الروائي الإسباني خوان غويتيسولو، وهو عضو الشرف في حلقة أدباء فترة الانتعاش إلى باريس. كانت أفينيون تبعد مسافة أربعين ميلاً فقط عن قرية سايغنون حاضرة إقليم خوليو كورتاثار في فاو كلوس. وأعدّ فويتس حافلة لنقل المجموعة وعدد آخر من المتسكعين لمشاهدة كورتاثر وأوغني كارفيليس في الخامس عشر من آب. ونظم كورتاثار من جهته وجبة غداء كبرى في أحد مطاعم المنطقة، وانتقل بعدها جميع أفراد المجموعة إلى بيته وأمضوا طوال فترة العصر والمساء هناك.

لأسباب عديدة، أهمها أن هذه هي المرة الأولى والوحيدة التي يجتمع فيها جميع أدباء مرحلة الانتعاش، وهي مناسبة اتخذت منذ ذلك الوقت طابعاً أسطورياً. لكن لسوء الحظ كانت هناك مشكلتان تكمنان وراء ذلك المرح، أولاهما كانت تكبر تدريجياً منذ قضية باديًا الأولى في كوبا في عام 1968، وتعمقت بمساندة كاسترو ودعمه الغزو السوفياتي تشيكوسلوفاكيا. وتوشك المشكلتان الآن أن تصلا إلى مرحلة الأزمة، كما أن الهوة المبهمة بين الأصدقاء الستة توشك أن تصبح هوة غير قابلة للردم؛ لكن ليس الآن. كانت المشكلة الأولى ممثلة بقمع كوبا الكتّاب والمثقفين. أما المشكلة الثانية المتصلة بها، فهي مشروع خوان غويتيسولو لإطلاق مجلة جديدة يكون مقرها باريس ويكون عنوانها (ليبر) *الحر*، وهو اسم فكّر العديد من أصدقائه المجتمعين معاً أنهم مقتنعون أن هافانا ستنظر إليه على أنه استفزار ودليل على أن مهندسي مرحلة الانتعاش كانوا عبارة عن مجموعة من الليبراليين "البورجوازيين الصغار".

يكتب كورتاثار بعد أسبوع واحد من الحفلة: "كانت الحفلة جميلة جداً وغريبة جداً، شيئاً خارج الزمان، لا تتكرر، وذات مغزى بعوتي"[42]. كانت اللحظة الأخيرة التي يمكن فيها للحنين الجارف الطوباوي المؤطر بإطار مرحلة الانتعاش أن يستدام استدامة جزئية بوصفه مشروعاً جماعياً. ومن المفارقة أن هذا

التجمع الحاشد الأول قد اتخذ شكل رحلة إلى المنزل المعزول الذي يقيم فيه كورتاثار الذي طالما تجنب الأماكن التي تعج بالناس وبالبوهيمية المريحة، ولكنه لم يصبح اليوم عضواً في مافيا تماسكت برباط ذكوري عالمياً وعلى نطاق واسع وحسب، بل تتجه نحو مشروعات جماعية من مشاريع الحلم الاشتراكي.

في الرابع من أيلول، انتخب سلفادور آليندي رئيساً لجمهورية تشيلي، وكان مقرراً أن ينصّب رئيساً في الثالث من تشرين الثاني واعداً الشعب التشيلي باشتراكية ضمن الليبرالية. لكن قبل تنصيبه رئيساً، أصيب قائد الجيش التشيلي رينيه شنايدر إصابة قاتلة إثر هجوم نظمه السي آي أيه في الثاني والعشرين من تشرين الأول. كان غارسيا ماركيز قد التقى مؤخراً الأديب التشيلي خورخه إدواردز، وهو الذي سيكتب لاحقاً سيرة نيرودا، وكان دوره في كوبا بوصفه سفيراً تشيلياً، يتصل بالنتيجة النهائية التي وصلت إليها قضية باديّا.

قبل حلول الميلاد بأسبوع واحد، قاد كورتاثار السيارة برفقة زوجته أورورا من باريس إلى لشبونة عبر سايغون. وبعد وصوله ذهب جميع الأدباء وزوجاتهم إلى مطعم المأكولات الكاتالونية لافونت دس أوسيت (حمّام الطير) الواقع في الجزء القديم من المدينة. ويتبع المطعم نظاماً في تقديم الطعام يتلخص بأن يكتب الزبائن طلباتهم من الطعام على قسيمة مطبوعة، لكن الجميع كانوا منشغلين تماماً في الحديث حتى مرّ وقت طويل ولا تزال فيه القسيمة خالية، فشكا النادل الأمر إلى صاحب المطعم. فما كان منه إلا أن خرج من المطبخ وهو يصيح بصوت كاتالوني أجش ملؤه السخرية بعبارة ظلت كلماتها خالدة: "ألا يعرف أحدٌ منكم كيف تكتب؟" وهنا لفّ الصمت المكان، صمت يكتنفه الحرج والاستياء والمتعة. وبعد لحظة تكلمت مرثيديس: "نعم، أنا أعرف كيف أكتب". ثم واصلت قراءة لائحة الطعام وتنظيم الطلبات. كان هدوؤها الذي يخفي تحته ثورة عنيفة أسطورياً. ففي يوم ما اتصلت بها بيلار قلقة لتخبرها أن دونوسو، المصاب برهاب المرض، مقتنع كلّ الاقتناع أنه مصاب بسرطان الدم، فما كان من مرثيديس إلا أن ردت عليها قائلة: لا تقلقي. لقد أصيب غابو بسرطان في رأسه ولكنه شفي منه الآن"[43].



أمضت المجموعة عشية الميلاد في شقة فارغاس يوسا الصغيرة كي يتمكن الأزواج من نقل الأطفال الصغار إلى الأسرّة بسهولة. أما كورتاثار الذي كان يرمي كرات الثلج على الجميع بلا استثناء، فقد شارك في منافسة ضد فارغاس يوسا تتألف من سباق سيارات كهربائية كان الأولاد قد تلقوها هدية الميلاد. وبعد الميلاد، نظم لويس غويتيسولو وزوجته ماريا أنطونيا حفلة دُعي إليها الإسبان والأميركيون اللاتينيون. يتذكر دونوسو عام 1971 وهو لا يزال محتفظاً بلباقته وحشمته: "أرى أن مرحلة الانتعاش انتهت بوصفها كياناً - هذا إن كانت كياناً في يوم من الأيام خارج نطاق خيال الفرد، وإن كانت حقاً قد انتهت في العام 1971، وفي منزل لويس غويتيسولو في برشلونة مع مجموعة تزعمتها ماريا أنطونيا التي كانت تثقلها الجوهرات الثمينة وترتدي التنانير متعددة الألوان والجزم السوداء وترقص فتعيد إلى الأذهان نموذج ليون باكست لشهرزاد أو بيتروشكا. كما رقص كورتاثار بلحيته الجديدة ذات اللون الأحمر المتدرج رقصاً حيوياً مع أوغي. كما رقص فارغاس يوسا أمام الصفوف الذين أحاطوه حلقة رقصة فالس من بيرو، ثم دخل الحلقة بعد ذلك غارسيا ماركيز، فحاز الاثنان على تصفيق منقطع النظير وطلب الضيوف منهما رقصة مدارية. في غضون ذلك، كانت وكيلتنا الأدبية كارمن بالسيلس تتكئ على وسائد منتفخة فوق أريكة وهي ترمق صحون اللحم وتحرك محتويات الصحن اللذيذة، وتطعم بمساعدة فيرناندو تولا وخورخه هيرالدي وسرجيو بيتول الأسماك العجيبة الجائعة التي زينت وهي داخل حوض الماء جدران الغرفة. بدا أن كارمن تمسك بكل الخيوط التي تدفع الجميع إلى الرقص كالدمى المتحركة، وكانت تتفحصنا: ربما بدهشة، وربما بجوع، وربما بمزيج من الاثنين، تماماً مثلما كانت تتفحص الأسماك وهي ترقص داخل أحواضها. ودار أكثر الحديث في تلك الأمسية عن تأسيس مجلة الحر"[44].

بعد أن رجع كورتاثار وأوغي إلى باريس في أثناء عواصف ثلجية في أواخر شهر كانون الأول، هدأت الاحتفالات رويداً رويداً. كان غارسيا ماركيز وميرثيديس يروقهما دائماً أن يتطلعا حفلات رأس السنة أكثر من الميلاد. وهذا، لقيت المجموعة الصغيرة المنتقية من ممثلي الانتعاش الترحيب في عام 1971. ولم يعرف

أحـــد مـــنهم إلا النـــــزر اليسير عن أن هذه هي المرة الأخيرة التي يعملون فيها أو يناقـــشون نقاشـــاً أخوياً معاً أي موضوع. فمرحلة الانتعاش توشك أن تنفجر من الداخل.



-18-

الأديب المستوحد يكتب ببطء:
خريف البطريرك والعالم الأرحب
1971-1975

بحلول العام 1971، وبعد أن أمضى غارسيا ماركيز أكثر من ثلاث سنوات في برشلونة من دون أن يفرغ من تأليف كتابه، قرر أخيراً أن يستمتع بإجازة بعيداً عن ضغوط الكتابة، ومضى إلى أميركا اللاتينية لتمضية تسعة أشهر فيها بعد أن شعر بالحاجة إلى أن يحس الاطلاع على عالمه من جديد. وآثر الذهاب إلى بارانكيا، لكنه كان قد أخبر ألفونسو فوينمايور في شهر آذار الماضي أنه ليس متأكداً إن كانت الأسرة ستدعه يرجع إلى تلك المدينة: "فالولدان يكنّان حساً جارفاً إلى المكسيك ولم أدرك إلا الآن أنهما عاشا هناك مدة طويلة تجعلها أشبه بماكوندو مما يدفعهما للتسكع في أطراف العالم بقية حياتهما. وكان المواطن العصي الوحيد في المنزل هو أنا، لكنني لا أعبأ كثيراً دائماً"[1]. لكنه أفلح، على كل حال، في إقناع أسرته المترددة بالبقاء بضعة أشهر في بارانكيا قبل زيارة المكسيك من جديد.

وصلت أسرة ماركيز بارانكيا كولومبيا في أواسط شهر كانون الثاني. وفيما كان غارسيا ماركيز يغادر الطائرة في بارانكيا، ارتسم ابتسامة صغيرة ورفع إبهام يده مرتين إلى الأعلى تجاه أولئك الذين جاؤوا للترحيب به. ويظهر في الصور وقد ارتدى الثياب الكاريبية - قميصاً مكسيكياً وانتعل حذاءً لا كعب له من الجلد وبلا جوربين - وبدا مثقلاً بالهموم والمتاعب، ممتلئ الجسم بفعل قلة النشاط والكربوهيدرات الزائدة في برشلونة، طويل الشعر، يشبه الأفارقة وهو ما كان يعبر



تلك المرحلة فصلاً عن أنه اردهى بشاربه الذي أطلقه على طريقة ثاباتا. أما ميرثيديس فكانت تتظاهر على ما يبدو من وراء نظارتها الداكنة بأنها في مكان آخر، غير أن الولدين اللذين نادراً ما عرفا البلاد، فقد كانت الحماسة والجرأة باديتين عليهما[2]. وخرجت الإذاعة والصحافة المحلية بناءً على تعليمات مماثلة، وهتف سائقو سيارات الأجرة عن بعد مسافة بأنهم سيقلون غابيتو إلى ماكوندو لقاء ثلاثين بيزوس لا غير إكراماً للعهود الماضية. وفكّر غارسيا ماركيز الذي أعلن قبيل مغادرته برشلونة من أول وهلة وعلى نحو فظ أنه ذاهب إلى وطنه، "لتخلص من السموم"[3] بأسلوب إيجابي أكثر يشرح فيه زيارته، وابتكر واحدة من عباراته المحددة عندما قال إنه اقتفى أثر أنفه إلى الكاريبي بعد أن شمّ "رائحة الغوافة"[4].

اتجهت الأسرة إلى منزل ألفارو وتيتا سيبيدا حيث كانا يقطنان يومذاك في منزل رائع أبيض اللون بين مركز المدينة ومنطقة برادو، بالرغم من أن سيبيدا نفسه كان في مدينة نيويورك لإجراء فحوصات طبية. وتقرر أن تظل أسرة غارسيا ماركيز في منزل تيتا إلى أن تعثر على بيت أو شقة مناسبة. وسُمح للصحفي خوان غوساين بالحضور في أثناء تناول أول دفعة من الشراب وأصغى إلى الحديث. أوضح غارسيا ماركيز، كأنه يأتمنهم على سر، السبب الذي دفعه لهذه العودة السخية، إذ كان طوال حياته يرغب في أن يصبح أديباً ذا شهرة عالمية، وأنه تحمل سنوات من البؤس في العمل صحافياً يكتب التحقيقات الصحافية كي يغدو أديباً. والآن، وبعد أن أمسى مؤلفاً يكرس وقته كله للتأليف، فإنه يتمنى أن يكون صحافياً مرة أخرى، باحثاً عن الأخبار. وهكذا، فإن حياته دارت دورتها الكاملة. "طالما أردت أن أصبح الشخص الذي لم أعده"[5].

بعد مرور بضعة أسابيع لحق صحافي مكسيكي يدعى غييرمو أوتشوا غارسيا ماركيز إلى الشاطئ في كارتاخينا حيث كان هو وميرثيديس والصبيان مسترخين تحت شجرة جوز هند في أثناء زيارته والديه. ركز الصحافي في مقالته الأولى على لويسا سانتياغا وساعد على تدشين أسطورتها. وكي تحتفي بعودة أكبر أبنائها، عمدت إلى تسمين ديك رومي بكل حب:



> قالت لنا: *لكني اكتشفت أنني لا أستطيع دبغه*. ثم أضافت بتلك الرقة الثابتة التي تميز أورسولا إغواران البطلة التي ألهمتها في رواية مئة عام من العزلة: *لقد أصبحت مغرمة به*. كان الديك الرومي لا يزال حياً وفي حالة جيدة، واضطر غابيتو لدى عودته، إلى الاكتفاء بحساء الحيوانات البحرية الذي يتناوله كل يوم منذ عودته إلى المدينة. هكذا هي لويسا ماركيز دي غارسيا. إنها امرأة لم تمشط شعرها ليلاً. *لو أنني مشطت شعري لتأخر البحارة*. وعندما سألناها عن أكثر شيء يمكن أن يرضيها في حياتها ردّت على الفور: *أن تكون لها ابنة تصبح راهبة*[6].

كان المنزل الذي استأجره غابيتو ومرثيديس يقع في ضواحي مدينة بارانكيا في ذلك الوقت. كانت المنطقة مثيرة جداً لغونثالو ويحتفظ بذكريات حلوة عن تلك التجربة. وبالرغم من أن والد الصبيين رتب الأمور من قبل لإلحاق ولديه بالمدرسة، فإن الولدين يتذكران بصورة رئيسة حادثة طريفة تتحدث بدخول أفاعٍ كبيرة إلى البيت، فما كان منهم إلاّ أن هشّوا جميعاً عن تلك الزواحف لإبعادها عن بيوتهم. ولكن، بالرغم من التحمس للعودة إلى المنطقة المدارية والعيش وسط أسرتين كبيرتين جداً في كارتاخينا وآرخونا وشبكة من أصدقاء جدد في بارانكيا، إلاّ أن الولدين كانا يدركان إدراكاً تاماً أنهما يتحدران من مدينة مكسيكو. "حقاً كنت أنا ورودريغو متحضرين، ولم تكن لدينا أي تجربة عن العالم الريفي، في حين أن والدينا كانا ريفيين وقبل ذلك يتحدران من منطقة مدارية. وقلّما أستطيع أن أتعرف إليهما عندما أشاهدهما في كارتاخينا أو في هافانا. ويبدوان متوترين نسبياً في أي مكان آخر"[7].

سافر غارسيا ماركيز ومرثيديس وحدهما إلى كاراكاس في الأسبوع الأول من شهر نيسان، إذ كان مهتماً بإعادة شحن بطارياته الكاريبية كي يولد كتابه الجديد حياً، لكنها كانت، من ناحية أخرى، رحلة رمزية بالمعنى الحقيقي، وعودة إلى المكان الذي عاشا فيه معاً أول مرة. ثم قاما بجولة حول الكاريبي. وكانت تلك الرحلة بداية عهد يترك فيه الأبوان ولديهما وراءهما ويسافران في أرجاء العالم استجابة لالتزامات شهرة غارسيا ماركيز المتزايدة وإغواءاتها.

وفي حين كان غارسيا ماركيز يبحر حول الكاريبي في شهر نيسان الثاني، فإنه كان منشغل البال بمشكلة حدثت تواً في أكبر جزر الكاريبي، وهي مشكلة

ستجعل من هذه الرحلة آخر لحظة غير معقدة نسبياً في حياته السياسية. ففي العشرين من شهر آذار، اعتقلت الحكومة الكوبية هيبيرتو باديًا[8] الشاعر الذي أحدثت قصائده عاصفة من الجدل في الجزيرة من حين إلى آخر في صيف العام 1968، وأدت إلى مواجهة غاضبة بين غارسيا ماركيز وخوان ماريسيه في برشلونة. فقد اتُّهِم الشاعر الكوبي الآن بنشاطات تخريبية مرتبطة بالسي آي أيه وفي الخامس من نيسان وقّع باديًا في أثناء وجوده وهو في السجن على بيان طويل - يفتقر إلى الأمانة كما يبدو - وجّه فيه نقداً ذاتياً إلى نفسه.

بالرغم من أن عدداً كبيراً من الأدباء عاشوا في برشلونة، إلا أن باريس كانت لا تزال - من أوجه متعددة - عاصمة أمريكا اللاتينية سياسياً. ففي التاسع من نيسان نظّمت مجموعة من الكتاب المقيمين في أوروبا رسالة احتجاج موجهة إلى فيدل كاسترو، نشرتها أول الأمر صحيفة اللوموند في باريس، قالوا فيها إنهم بالرغم من مساندتهم "مبادئ" الثورة، إلا أنهم لا يمكنهم القبول باضطهاد الأدباء والمثقفين على الطريقة "الستالينية". وتضمنت الرسالة لائحة بأسماء عدد كبير من الأدباء منهم جون بول سارتر، وسيمون دي بوفوار، وخوان غويتيسولو، وماريو فارغاس يوسا (المحرض الرئيس للاحتجاج) وخوليو كورتاثر، وبلينيو أبوليو ميندوثا (اللذان أصدرا لاحقاً مجلة الحر مع غويتيسولو) و. غابرييل غارسيا ماركيز[9]

الحق أن غارسيا ماركيز لم يوقّع على الرسالة، فقد افترض بلينيو ميندوثا أن غارسيا ماركيز سيؤيد الاحتجاج، فوقّع بالإنابة عنه، أما غارسيا ماركيز، فقد طالب بشطب اسمه من اللائحة، لكن سبق السيف العدل وتصورت علاقته بكوبا ضرراً بالغاً، وأعقبها صعوبات لا تنتهي مع جميع أصدقائه الذين التزموا بمواقفهم: وكانت تلك هي أسوأ النتائج، وأهم أزمة بلا أدنى ريب في السياسة الأدبية في أمريكا اللاتينية في القرن العشرين أدت إلى انقسام بين المثقفين الأمريكيين اللاتينيين والأوروبيين على مدى عقود تالية من الزمن. إن الأدباء والمثقفين لا خيار أمامهم سوى اتخاذ المواقف في هذا الصراع الثقافي الشبيه بالحرب الأهلية. ولم تعد الأمور كما كانت عليه في سابق عهدها، وليس أقلها العلاقة بين غارسيا ماركيز وفارغاس يوسا التي ستثبت الأيام اللاحقة أنها كانت أفدح الخسائر وأشدها ضجيجاً في هذه

الدراما السياسية. كما أنها الأكثر مفارقة لأن سيكس بارال كانت تستعد في تلك اللحظــة لطبع كتاب فارغاس يوسا بعنوان غارسيا ماركيز: **قصة قاتل إله**، الذي سيــصدر في كانون الأول سنة 1971 بعد أن بدأت علاقتهما المشهورة تهدأ رويداً رويــداً على وجه التأكيد. ولم يسمح فارغاس يوسا بإصدار طبعة ثانية من الكتاب على مدى السنوات الخمس والثلاثين التالية[10].

وفي حــين بدت ردود أفعال كاسترو عنيفة ومتحدية، فإن غارسيا ماركيز، الذي يذكره أصدقاؤه أنه في تلك الآونة كان مشوش الفكر، أفلح في إدارة رد فعل الجمهــور بأكــبر درجة من البرود والاختيار وذلك في "مقابلة" متقنة الإخراج مع الصحافي خوليو روكا المقيم في بارانكيا. واعترف أن النقد الذاتي الذي وجهه باديّ إلى نفــسه لا يبدو نقداً جديراً بالمصداقة، وكما اعترف بأن تلك الحادثة أدت إلى إلحــاق الضرر بصورة الثورة، لكنه من جهة أخرى أصرَّ على أنه لم يوقع الرسالة الأولى وزعــم أن نــص فيدل كاسترو لم يوزَّد على نحو صحيح وكامل عن سوء قــصد، وأعلن عن تأييده المتواصل للنظام الكوبــي، مؤكداً، وبحركة متميزة، أن فــيدل كاسترو نفسه سيكون أول من يعلن عن وجود عناصر ستالينية في كوبا إذا كان وجودها حقيقياً، وأنه سيبدأ باقتلاعها من جذورها تماماً مثلما اقتلعها قبل عقد من الزمان عام 1961[11].

بالرغم من فطنة رد فعل غارسيا ماركيز، فإن محاولته في أن يبدو حكيماً وأن يرضــي جميع الأطراف أخفقت في إرضاء أي فرد. وفي العاشر من حزيران طالبته الــصحافة الكولومبــية أن "تحدد موقفه علناً بخصوص القضية الكوبية". وفي اليوم التالي، وكان لا يزال يراوغ ويذبذب وإن أقلّ من السابق، أعلن: "إني شيوعي لم يجد بعد مكاناً يجلس فيه". كان معظم أصدقائه وزملائه يحدون المدخل التشيلي إلى الاشتراكية. أما غارسيا ماركيز فلم يجد ذلك منذ البداية. ويقول خوان غويتيسولو بعد ذلك موضحاً تصرفه بامتعاض واضح: "إن غابو الذي اشتهر بمهارته البارعة في الــتخلص بالحيلة والدهاء من الزوايا الصعبة، عرف كيف ينأى بنفسه عن موقف أصدقائه الحرج ويتفادى في الوقت نفسه المواجهة معهم. في هذا الوقت يوشك أن يولد غارسيا ماركيز الجديد، الاستراتيجي المتألق ذو الموهبة الهائلة، صحبة الشهرة،

المتفاني لكل ما هو طيب ورائع في هذا العالم، والداعي على مستوى الكوكب كله للقضايا الحقيقية أو التقدمية[12].

مرّ غارسيا بعذاب شديد جراء القلق والحيرة لأنه وافق قبل اندلاع أزمة بادي على دعوة من جامعة كولومبيا في نيويورك لمنحه شهادة دكتوراه فخرية في مطلع شهر حزيران. وكان توقيت الدعوة الأشد شؤماً، إذ كان يعرف أكثر مما ينبغي أن الشيوعي المشهور بابلو نيرودا وكارلوس فوينتس المؤيد لكوبا منذ البداية، عزلتهم الثورة في العام 1966 بسبب زيارتهما نيويورك. وها هو الآن، بعد أن نظر إليه الجميع كأنه جرذ ترك السفينة الغارقة على ما يبدو في وقت غزو خليج الخنازير عام 1961، يقبل تكريم جامعة نيويورك الأولى، وهو تكريم تنظر إليه العيون الكوبية على أنه محاولة من الجامعة "لرد عافيته" (بلغة تلك الحقبة) خدمة لمصالح الولايات المتحدة[13].

كان خطه الرسمي في آخر الأمر يتمثل بأنه يقبل التكريم "بالنيابة عن كولومبيا"، وأن كل فرد في أميركا اللاتينية يعرف أنه مناهض للنظام الحاكم في الولايات المتحدة الأميركية شأنها شأن جامعة كولومبيا نفسها، وأنه سمع مشورة سوّاق سيارات الأجرة في بارانكيا – الذين يمثلون على حدّ قوله، أبطال الفطرة السليمة – كي يتخذ قراره[14]. ومع هذا، فإذا كانت علاقته المستقبلية بالولايات المتحدة – التي ينتقدها بنفسه في حين يرحب الأميركيون به – قد أصبحت قائمة منذ الآن وأدت إلى إحساسه بالارتياح فإن عاد ليواجه مشكلته مع كوبا. فعلى مدى السنتين المقبلتين، وبالرغم من بيانه الذي أكد فيه للعالم أنه لم يوقع على الرسالة الأولى، لم تعد له أي صلة مهما كان نوعها بالجزيرة الثورية.

غير أن الحظ سيحالف غارسيا ماركيز مرة أخرى. فإذا كانت كوبا قد أغلقت أبوابها في وجهه في تلك الأونة، فإن قضية أخرى مثيرة للجدل توشك أن تنفجر، فتظهر من جديد. على المقياس السياسي، فإن غارسيا ماركيز لا يزال لديه جمهور واسع من القراء في كل مكان تقريباً باستثناء كوبا وكولومبيا. فبعد أسابيع قليلة، لا نعرف ما إذا كان الأمر محض صدفة أم لا، وضع صحافي إسباني يدعى رامون تشاو لاقطة صوت أمام ميغيل آنخل إسورياس الفائز بجائزة نوبل للأدب



لسنة 1967 وسأله عن رأيه في الاتهامات التي مفادها أن مؤلف رواية **مئة عام من العزلة** قد سرق رواية **البحث عن المطلق** لبلزاك، فما كان من إستورياس إلاّ أن يتوقف هنيهة ليقول إنه يعتقد أن هناك قدراً من الصحة في الاتهام. فما كان من تساو إلاّ أن نشر سبقه الصحافي في مجلة مدريد الأسبوعية تريبونو، وأعادت نشره اللوموند الباريسية في التاسع عشر من شهر حزيران[15].

في تشرين الأول عام 1967 أصبح إستورياس ثاني أميركي لاتيني وأول روائي في القارة يفوز بجائزة نوبل، لكن الانتقادات الحادة وجهت إليه في السنوات الأخيرة لقبوله منصب السفير في باريس وهو منصب سياسي مثير للجدل. كان يوشك أن يكتشف أن "غابرييل غارسيا ماركيز" وليس "ميغيل آنخل إستورياس" هو الآن عنوان الأدب الأميركي اللاتيني. حقاً إن غارسيا ماركيز كان يستمر منذ سنين إستورياس بالرغم من ملاحظات الأديب الأكبر سناً الكريهة على معجز المؤلف الأصغر سناً وأعماله. فقد أقسم غارسيا ماركيز في مطلع عام 1968 إنه بكتابه عن البطريرك السياسي الأميركي اللاتيني "سيبقن" مؤلف رواية **الرئيس**، وهي أهم مؤلفات إستورياس، "كيف يكتب رواية حقيقية عن دكتاتور"[16].

يبدو من الممكن أن موقف غارسيا ماركيز من إستورياس كانت تنظمه من جهة ما حقيقة أن إستورياس فاز بجائزة نوبل، وهو تكريم كان غارسيا ماركيز يريد أن يكون أول روائي أميركي لاتيني يفوز به، ومن جهة أخرى، هي أن إستورياس كان المبشر الأميركي اللاتيني الأول لا بالواقعية السحرية (التي غُدّت في ما بعد رواية **مئة عام من العزلة** ركنها الأساس) وحسب، بل أيضاً برواية **الدكتاتور**، من خلال روايته **الرئيس** (التي كان يراد من رواية **خريف البطريرك** أن تكون تفسيراً محدداً لهذا النمط الروائي). لقد جعل إستورياس من نفسه هدفاً كبيراً وسهلاً بسبب ضعف موقفه من تبوؤ مسؤولية السفير، ولأنه لم يكن قط أكثر المجادلين تمسكاً وسلامة من الناحية العملية، فضلاً عن أنه بات الآن، رجلاً مسناً ومريضاً. وكان قبول تحديه يشبه إطلاق النار على فيل من مسافة آمنة. لقد كان قرار إستورياس في أواخر الأربعينيات وفي الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين ليكون زميلاً أدبياً مسافراً إلى الشيوعية العالمية، داعماً بذلك حركة التاريخ على وجه العموم من



دون أن يقيد نفسه بتفاصيل، طموحاً لما كان يسعى غارسيا ماركيز تماماً لفعله. وعلى غرار علاقات إستورياس برئيس جمهورية غواتيمالا الماركسي، فإن غارسيا ماركيز سيصادق عمّا قريب فيدل كاسترو، أكثر الثوريين الشيوعيين حادية في عموم أميركا اللاتينية.

لم يعرف غارسيا ماركيز بعد أنه طرد مرة أخرى من الموطن الكوبي السياسي الأسطوري، محاول نيل استحسان الجمهور اليساري. فهو لم يتسبب مباشرة في صعوبات إستورياس، لكنه ساعد على التحريض عليها. فسقط إستورياس في الكمين؛ فخ قبل إن جاز التعبير. ثم نطرح السؤال عمّا إذا كان غارسيا ماركيز ينصب سلسلة من الفخاخ الانفسانية في طريق ماريو فارغاس يوسا الذي يشكل الغريم الخطير الوحيد من بين مجايليه، وهي الفخاخ التي ستتسبب بمواجهة أشد عنفاً على امتداد السنوات المقبلة. لكن النسخة الأخيرة من رواية **خريف البطريرك** لم تكن من بعض الأوجه تكفيراً عن هذه الآثام، وهي الرواية النقدية الذاتية التي تحكي قصة رجل لا يستطيع أن يتسامح مع تنافس أولئك القريبين منه.

غادرت أسرة غارسيا بارتشا مطار سوبيداد في بارانكيا في التاسع من تموز، وهي في طريقها إلى المكسيك بعد أن أمضت أقل من ستة أشهر في كولومبيا. وصل غارسيا ماركيز العاصمة المكسيكية في الحادي عشر من تموز متذمراً من أنه لم يشاهد أي فتيات حلال توقفه في فلوريدا لأن "السلطة التنفيذية" كانت ترافقه، وتلك مزحة جعلت ميرثيدس تدرك بمرور السنين أنها محقة. أمضى يومه الأول في المدينة يحيط به الصحافيون والمصورون المتدفقون من صحيفة إكسيلسيور، وأخبرهم أن هذه هي المدينة التي يعرفها أفضل من غيرها من مدن العالم، وهو يشعر بأنه لم يرحل عنها قط. راقبه الصحافيون وهو يأكل التاكو ويبدل العمة ويطلق النكات ("إنني إنسان جاد في أعماقي وليس في مظهري"). وقال رودريغو إنه يفضل أن يكون لاعب كرة بيسبول أو ميكانيكياً على أن يكون تلميذاً. فرد عليه والده المفرط في التسامح والتدليل: "في وسعك أن تكون ما تشاء". ثم زار برفقة الصحافيين كارلوس فوينتس وزوجته الممثلة ريتا ماثيدو – وكانت مرتدية بنطالاً



من الجلد الأسود – في بيتهما في سان آنجل. وما إن وصلت سيارة غارسيا ماركيز حتى هتف فوينتس: "أيها السارق! أيها السارق!"[17]. وفي تلك الأمسية، أقام فوينتس واحدة من حفلاته المشهورة وحضرها عدد من المثقفين والفنانين التقدميين المكسيكيين المعروفين.

أضحى غارسيا ماركيز إنساناً صعباً الآن في المكسيك ولسيظل هكذا طوال البقية الباقية من حياته: ابناً أجنبياً متبانياً ومكسيكياً مكرّماً. ولن ينسى المكسيكيون أبداً أن رواية مئة عام من العزلة كتبها غارسيا ماركيز في عاصمتهم وليس في باريس أو لندن. وكانت وسيلة من الوسائل لإبعاد الذكريات المؤلمة عن مذبحة تلاتيلولكو التي حدثت في العام 1968، وبتغطية إعلامية جيدة، حتى إن غارسيا ماركيز سخر من وجوده لذلك الهدف. وفي الحادي والعشرين من شهر آب، ذهب لزيارة رئيس الجمهورية لويس إينشيفيريا، الذي كان يتقلد منصب وزير الداخلية إبان المذبحة، وذلك في المقر الرئاسي في لوس بينوس حيث تجاذبا أطراف الحديث، كما يزعم غارسيا ماركيز، بخصوص "الكتابة والتحرير"[18]. ولم ينتقد غارسيا ماركيز علانية قط إينشيفيريا ولا رئيس الجمهورية السابق دياث أورداث بسبب أحداث عام 1968، مثلما لن ينتقد أبداً فيدل كاسترو بشأن أي قضية مثيرة للجدل في كوبا. لقد كانت كوبا والمكسيك في صراع دبلوماسي شائك ضد الولايات المتحدة، وضد إحداهما الأخرى بدرجة أقل. لقد اضطر المكسيكيون إلى التعاون مع جهود الولايات المتحدة المناهضة للشيوعية، إلا أنهم أصروا على الاحتفاظ بعلاقاتهم الدبلوماسية مع كوبا حتى أواخر القرن العشرين وقد وجّه كاسترو وغارسيا ماركيز الشكر إليهم لصمودهم.

في أواخر شهر أيلول، عادت الأسرة جواً إلى برشلونة بعد أن غادرت مدينة مكسيكو، وتوقفت في كل من نيويورك ولندن وباريس. عاد غارسيا ماركيز الآن إلى عمله، وكانت قد مضت أكثر من أربع سنوات على نشر أحدث كتبه، وكان تواقاً إلى التقليل من الضغط عليه. وفي المدة الممتدة من أواخر عام 1967، وبالرغم من كون رواية خريف البطريرك كانت مشروعه الرئيس بلا ريب، فقد انطلق لكتابة أول قصصه القصيرة منذ سنوات وأضاف إلى القصص الجديدة التي كانت



تشتمل على قصة رجل عجوز جداً بجناحين هائلين - قصة **بحر الزمان الميت**[*] التي ترجع إلى عام 1961[19]. ولقصة **أرينديرا البريئة** تاريخ طويل تعود بمعنى ما إلى عالم جدّيه الحرافي في صحارى غواخيرا، بيد أن المرجع المباشر لها مستمد من حكاية من الحياة الحقيقية أسهمت بالهام جزء مسقط من رواية **مئة عام من العزلة**، وهي عن بغيّ اضطرت إلى معاشرة مئات الرجال كل يوم.

واقتبست القصة بعد إكمال كتابتها لتكون نصاً سينمائياً قبل أن تتحول إلى قصة طويلة قصيرة ونُشر في شكلها الأخير في مجلة سييمبرا المكسيكية في تشرين الثاني سنة 1970[20]. ولما كانت بدايات القصص مكتوبة من قبل - بل منذ زمن بعيد في بعض الحالات - فقد تمكن غارسيا ماركيز من "إحماء ذراعه" استعداداً للعودة إلى روايته التي لم تكتمل.

بيست قصص مجموعة **أرينديرا البريئة** بالقصص التي يتوقعها المرء من كاتب عاد إلى الكاريبي ليجرب أن يشم ثانية "رائحة الجوافة". صحيح أنها تبدو من الوهلة الأولى بدائية وفطرية وسحرية (بحر وسماء وصحراء وحلود) أكثر من قصص مجموعة **جنازة الأم الكبيرة**، وإن على نحو تصويري و"أدبي" كأن لعصر الماستاري الذي استعملت فيه القصص المبكرة طُبّق على سيناريو جغرافي واضح المعالم: كان ماكوندو و"بيبو" حقيقيان، على حين أن غواخيرا (التي لم يسبق لغارسيا ماركيز أن شاهدها) هي مكونات لسحر والخرافة (ومن بوغوتا والأراضي المرتفعة المحيطة بها إلا مناطق سكنها الأشباح وتكتنفها الظلال والأخطار). إن تلك القصص التي ينقسم بشأنها النقاد ... تذكرنا، وربما للمفارقة، بالقصص المترعة جداً لسلف غارسيا ماركيز الواقعي السحري ميغيل آنخل إستورياس، ومنها على سبيل المثال قصة **مرآة ليدا سال**[21].

هنا بدأ الآن غارسيا ماركيز يكتب للمرة الأولى رواية **خريف البطريرك** موقناً اليقين كله أنه سيفرغ منها، إذ لم تعد هناك أي أعذار. فقد استمتع بالراحة، ولم يعد هناك أي منجاً يلجأ إليه حتى في ذهنه في غضون ذلك. صدر العدد الأول من مجلة الحر في باريس، بعد مرور سنة كاملة على الحملة التي أقامها كورتاثار جنوبي فرنسا حيث جرى التباحث بشأنها للمرة الأولى. وبعد مرور أقل من ستة أشهر على

قـصيه باديًا. مما لا شك فيه أن المجلة تعرضت إلى التمحيص تمحيصاً دقيقاً في كوبا بعد أن أجرى رئيس تحريرها بلينيو ميندوثا مقابلة مع غارسيا ماركيز في إسبانيا أيام حكم فرانكو كي تنشر في العدد الثالث منها.

في شهر تشرين الأول، تلقى اليسار التقليدي - ومعه حكومة الوحدة الشعبية بزعامة سلفادور آليندي في تشيلي - دعماً قوياً عندما أُعلن عن فوز سفير آليندي في باريس بابلو نيرودا بجائزة نوبل لسنة 1971. وقد مَثُل نيرودا الذي وصفه الصحافيون على أنه بدا مريضاً، معتل الصحة. إن كان في وسعه أن يرشح أي أديب أميركي لاتيني للجائزة، فقال إنه فكّر أول الأمر في غارسيا ماركيز "مؤلف واحدة من أعظم الروايات المكتوبة باللغة الإسبانية"[22]. وقبل الإعلان الرسمي عن الجائزة، فإن نيرودا اتصل بغارسيا ماركيز ودعاه ومرثيديس للسفر إلى باريس لتناول طعام العشاء في مساء اليوم التالي. غير أن غارسيا ماركيز قال على الفور إن من المستحيل الوصول إلى باريس ضمن هذا الوقت القصير في ضوء خوفه من السفر جواً. غير أن نيرودا لجأ إلى استخدام أساليبه المشهورة وبدا كأنه يوشك على البكاء. مما كان من الزوجين الكولومبيين إلاّ أن شعرا أنهما مضطران إلى السفر. وعند وصولهما إلى باريس، انتشر الخبر وتناولا طعام العشاء في منزل نيرودا مع رسام الجداريات المكسيكي ديفيد ألفارو سيكيروس (الذي حامت الشكوك حوله على أنه هو الذي اغتال تروتسكي، وإن كان قد قام بمحاولة واحدة من هذا القبيل في أقل تقدير) والرسام التشيلي روبيرتو ماتا، وخورخه إدواردز الذي طُرد مؤخراً من كوبا، والمثقف الفرنسي ريجيس دوبريه الذي عاد إلى باريس إثر إطلاق سراحه من السجن في بوليفيا وتمضية مدة لاحقة من الزمن اقترن اسمه فيها بنظام آليندي في تشيلي، والمصور الكبير هنري كارتييه - بريسون - وكانت حفلة عشاء تلفي بظلال التحدي السياسي، إن كان هناك أي تحدٍّ من هذا النوع.

صـدر عن دار نشر بارال في برشلونة في كانون الأول كتاب غارغاس يوسا الموسوم **غارسيا ماركيز: تاريخ قاتل إله** يشترك الكاتبان اللذان يصفهما أصدقاء تلك الحقبة بأنهما "أخوان تقريباً" بأشياء أكثر مما يوحي الانطباع بها. فقد مرّ الاثنان بنمط من أنماط الحياة الأسرية الرومانسية إبان طفولتهما. وكان بكليهما مشكلات

مع أبوين لم يعرفا عنهما شيئاً إلا بعد مدة متأخرة من الزمن (فقد ظن فارغاس يوسا أن والده متوفى إلى أن بلغ سن العاشرة)، ولكن هذان الأبوان يهاجمان سلوكيهما ويلقيان بظلال الشك على مهنة الأدب التي امتهنها كل واحد منهما. كان الولدان متسامحين، يقرآن الكتب، نشأ كل منهما في بيت جدَّيه لأمه في السنوات الأولى الحاسمة من حياتيهما. ويترك الاثنان المتعة والأمان في بيتيهما الأولين ليعيشا تحت نظام مدرسة داخلية يتصف بصرامة تبعث على الاغتراب، وعرفا منذ صغرهما الدعارة وغيرها من تجارب الحياة الوطئة. واشتغل الاثنان في الصحافة وهما في سن نضوج مبكر، وسافرا إلى باريس، ونزلا في آخر الأمر في الفندق نفسه، وإن في أوقات متباينة. كان الاثنان صديقين عظيمين لأصدقائهما، وعندما التقيا كانا من أكبر المؤيدين للثورة الكوبية، بالرغم من أن غارسيا ماركيز، وهو الأكبر سناً، عاش لحظات صعبة كثيرة مع العصبة الكوبية، على حين كانت أشد الصعوبات لا تزال تنتظر فارغاس يوسا في طريقه. وبالرغم من أنه لم يقرأ كتاب ماريو الذي كتبه عنه، لأن "الشخص الذي يظهر لي كل أسرار آليات عملي ومصادره والسبب الذي يدفعني للكتابة، سيصيبني بالشلل. ألا تفهم ذلك؟"[23].

التقى غارسيا ماركيز وفارغاس يوسا أول مرة في مناسبة منح جائزة رومولو غاليغوس عام 1967 للأديب القادم من بيرو. واليوم، يصبح غارسيا ماركيز في العام 1972 الفائز الثاني بالجائزة، وقد أكد رد فعله على الهوة الشاسعة بينهما في هذه الصداقة العجيبة: ففي حين رفض فارغاس يوسا التبرع بالجائزة للقضايا التي تدعمها الثورة الكوبية، فإن غارسيا ماركيز قرر أن يمنح قيمة الجائزة حزب فنزويلي منشق عن الحركة باتجاه الاشتراكية التي يقودها صديقه الشيوعي السابق تيودورو بيتكوف. وكان غارسيا ماركيز قد أقنع نفسه، شأنه شأن بيتكوف، أن الشيوعية السوفياتية لم تعد قوة ثورية حقيقية، ولم تعد مهتمة بمعالجة حاجات أميركا اللاتينية ومصالحها الحقيقية. وقد أخبرتني كرمن بالسيلس التي سافرت إلى كاراكاس برفقة غارسيا ماركيز قائلة: "كانت رحلة طويلة بالرغم من أننا كنا نسافر بالدرجة الأولى. نتناول الشراب طوال النهار، وأمضى غابو، الذي كان يعلم أنه سيتبرع بكل المال لحزب الحركة باتجاه الاشتراكية وبيتكوف، الوقت كله مشغل البال بأدق



التفاصيل عمّا سيقوله فارغاس يوسا. كان ذلك هو كل ما يستطيع التفكير فيه"[24].

صُدم الفنزويليون وهم يشاهدون رجلاً أطلق شعر رأسه على الطريقة الأفريقية، مرتدياً قميصاً مفتوح الياقة على طريقة أبناء هاواي، وسروالاً رمادياً، وينتعل حذاءً أبيض بلا جوربين، وهو يتقدم صوب المنصة في مسرح تياترو باريس في كاراكاس لتسلُّم الجائزة. وتساءل السكان في جميع أنحاء القارة عمّا سيفعله غارسيا ماركيز بقيمة الجائزة النقدية بعد أن تذكروا أن فارغاس يوسا رفض التبرع بالجائزة للكفاح المسلح في أميركا اللاتينية. وعندما سُئل غارسيا ماركيز عن ذلك بعد الحفلة مباشرة، أعلن أنه ضاق من كونه فقيراً وأنه سيشتري "يختاً آخر" من أحد معارفه في كاراكاس أو من كارلوس بارال في برشلونة. وقد أضحى ذلك الجواب واحداً من أشهر نكاته[25]. لم تكن ميرثيديس قد سافرت جواً معه - وستصل بعده مع آل فيودتشي - لكن الذين شهدوا العرض أيضاً ولده رودريغو البالغ من العمر اثني عشر عاماً، وشخصان آخران يحملان اسمه نفسه تقريباً وهما والده غابرييل إليخيو وأصغر أشقائه إليخيو غابرييل الذي تزوج مؤخراً بفتاة كولومبية من لباتوس تدعى ميريام غراتوف. وكان غابيتو قد دعا الزوجين إلى كاراكاس لتمضية شهر العسل الذي يترامن مع قبوله جائزة غاليغوس. أما والده غابرييل إليخيو، فقد دعا نفسه بنفسه وجاء مع الزوجين وزار معهما المناطق التي أمضى فيها غابيتو وميرثيديس شهر عسلهما قبل أربع عشرة سنة وأقاموا معاً في الفندق نفسه. وتتذكر ميريام: "أقام والد إليخيو في جناح منفصل من الفندق واحتج بشدة أمام الإدارة قائلاً: *كيف يمكنكم أن تتصرفوا هذا التصرف معي، إنه ولدي*. وعند السادسة من صباح اليوم التالي اتصل بنا وسأل: متى سننزل لتناول طعام الفطور؟"[26].

وعلى ما هو متوقع، فإن غابرييل إليخيو لم يعجبه تصرف ابنه وسلوكه على هذا المسرح الفسيح والمحترم، ولم يعرف إلا القليل عما سيحدث. وفي صباح اليوم التالي، تسلم غابو شيكاً بمبلغ اثنين وعشرين ألفاً وسبعمئة وخمسين دولاراً وأخذ ابنه رودريغو وشقيقه إليخيو الذي رتّب أموره كي يكتب لصحيفة التيمبو سلسلة من التحقيقات الصحافية عن منح أهم جائزة أدبية في أميركا اللاتينية لأخيه الأكبر،

وصحب معه صحافياً أو صحافيين متميزين ومصوراً فوتوغرافياً وحقيبة كبيرة إلى أحد مصارف كاراكاس حيث استبدل الشيك بالنقود. ثم أخذ الحقيبة والنقود ومرافقيه إلى مقر الحركة باتجاه الاشتراكية وسلم النقود إلى زعيم الحزب تيودورو بيتكوف الذي كان "صديقه منذ سنين"[27]. وأوضح أن الحركة جديدة وشابة ومن النوع الذي تحتاج إليه أمريكا اللاتينية ولا ترتبط بالحركة الشيوعية بأي رابط، وليس لها أي خطط أو مذهب.

هبت عاصفة من النقد من كل مكان، قريب وبعيد، من دون أن تستثني أسرة غارسيا ماركيز نفسه. فقد كانت الحركة باتجاه الاشتراكية تنظيماً صغيراً، لكن تأثيره كان كبيراً. وعدّه معظم اليساريين "تحريفياً"، ووسمه اليمين بسمة "التخريب". وحتى عندما تبين في نهاية المطاف أن المال كان مخصصاً لمجلة الحركة السياسية وليس لحرب العصابات، فقد وصمته موسكو في أواخر شهر آب بأنه "رجعي"، وأخبر أبوه الصحافة في كاراكاس أن ابنه الأكبر كان "مخادعاً جداً وأنه لم يتغير منذ كان طفلاً، ويعرف الحكايات دائماً"[28]. لا بد من أن غارسيا ماركيز اضطرب اضطراباً شديداً لدى عودته إلى أوروبا بسبب انتقاد بابلو نيرودا له والذي كانت أفكاره - بالرغم من عضويته التشيلية الطويلة في الحزب الشيوعي - تشبه إلى حدٍّ كبير أفكار غارسيا ماركيز نفسه. وعندما التقى الاثنان بعد ذلك أخبره نيرودا أنه يستطيع أن يفهم تصرفه، لكن أي فائدة لمصلحة الحركة باتجاه الاشتراكية تفوقها وزناً وأهمية الانقسامات التي تسببها مثل هذه المبادرة ضمن الحركة الاشتراكية العالمية[29]. ولعل غارسيا ماركيز بدأ بعد هذا سياسته - التي أخذ يطبقها على كوبا منذ فترة - بعدم توجيه النقد علناً ضد الجماعات الاشتراكية من دون أن يستثني الأحزاب الشيوعية التي تتبع خط موسكو، لأن مثل هذا الانتقاد سيربح أعداءه[30].

وبعد أن رتب أموره، سافر جواً إلى نيويورك في أواسط شهر آب لزيارة صديقه ألفارو سيبيدا الذي كان يخضع لعلاج بسبب إصابته بمرض السرطان في مستشفى ممووريال. كان غارسيا ماركيز يصاب عادة بالذعر من المستشفيات ومن الموت، وقد أكدت زيارته إحساسه بافتقار المدينة الكبرى إلى اللمسة الإنسانية. وعندما رجع إلى برشلونة بعد أسبوع، أرسل رسالة إلى زوجة سيبيدا:



تيتا،

لم أتمكــن من الاتصال هاتفياً بك. إضافة إلى ذلك، ليس لديّ ما أقوله: لقد كان الأستاذ حريصاً كلّ الحرص على أن يطمئنني، حتى إنه جعلني أعتقد أنه لـيس مريـضاً البتة وأنـه وهب حياته للعناية بـي. لقد وجدته شديد الشحوب، منهكاً تقريباً، لكنني سرعان ما أدركت أن سـبب ذلك يرجع إلى الإشـعاع، لأنه تماثل للشفاء كثيراً بعد أن استراح أسبوعاً، ولم نفعل خلاله شيئاً سوى الحديث وتناول الطعام. لقد ذعرت عندما وجدت أنه فقد صوته تماماً، لكنه أقنعني أن سبب ذلك هو الإشعاع أيضاً. واسترجع صوته حقاً بعد بضعة أيام إثر تناوله هلاماً يزيل الاحتقان، وهو ما قرأته في الوصفة الطبية. لم يكـن بإمكاني التحدث إلى الطبيب. لكنني كلّمت أطباء آخرين، أصدقائي، وكانوا متفقين على أن بعض أنواع الورم اللمفاوي أصبح الشفاء منها ممكناً منذ ست سنوات!...

عناق كبير من غابو

إلاّ أنه شعر بالإحباط مرة أخرى لتوقفه عن كتابة روايته **خريف البطريرك**، ولكـنـه شعر بالتردد أيضاً لعودته إليها. وعندما جاء إليه بلينيو ميندوثا في برشلونة، زاره ألـيخاندرو أبريغون ليخبره أن الآمال تبخرت كلها وأن سبيدا يحتضر وبعد يـوم عصيب، اشترى غارسيا ماركيز تذكرة طائرة. هنا يتذكر مندوثا: "لكنه لم يـسافر، إذ لم يستطع السفر. لقد خانته قواه، أو رفضت ركبته أن تأخذاه فقد شـعر غارسيا ماركيز وهو واقف أمام باب المنـزل حاملاً حقيبته، وسيارة لأجرة تـتقدم على امتداد الطريق، بما يشبه الدوار، وبدلاً من أن ينطلق إلى المطار، أغلق بـاب الغرفة علـى نفسه وأسدل الستائر واستلقى على السرير. أخبرتني بذلك مرثـيديس عـندما كانت في المطبخ على مقربة من الغسالة التي كانت تئن وتتأوه كأنها بشر. وقالت لي: *لقد أجهش غابيتو بالبكاء*. تولتني الدهشة: غابو يبكي؟ غابو رهن حرقته؟ إنني لم أشاهد من قبل دمعة واحدة على وجهه العربـي؛ وكما يقول أبناء بلدي، الله وحده يعلم ما مرّ به في تلك الآونة"[31].

في الثاني عشر من تشرين الأول عام 1972، وهو يوم كولومبوس، توفي ألفارو سـيبيدا في مدينـة نيويورك. كان سيبيدا متعباً صعب المراس في كل شيء تقريباً، وكان العضو الوحيد في جماعة بارانكيا الذي لم يغادر بارانكيا منذ زمن بعيد، على



شوقه الكبير لزيارة الولايات المتحدة الأمريكية. (كان ألفونسو وخيرمان وألفارو قد ظهروا جميعاً في رواية **ليس للعقيد من يكاتبه**، ثم ظهروا من جديد في رواية **مئة عام من العزلة** التي تُوقِّع فيها أن ألفارو سيكون أول الراحلين وسيلحق به خيرمان ثم ألفونسو).

أُعيد الجثمان بالطائرة إلى كولومبيا بعد مرور يومين، وسهر على التابوت كل من أريمون وخوليو ماريو سانتو دومينغو حتى صباح اليوم الخامس عشر عندما جاء حشد كبير من المعزين ورافقوا سيارة نقل الموتى إلى حديقة المثوى[32]. وبعد مرور بضعة أسابيع أرسل غارسيا ماركيز رسالة إلى ألفونسو فوينمايور يتأمل فيها في موت سيبيدا: "حسناً أيها الأستاذ. إنه لشيء مؤلم أن نضطر إلى التفوه به: لقد أصبحت كالبراز، في حالة بائسة من الذعر والعزيمة الواهنة، وللمرة الأولى في حياتي لا أستطيع أن أعثر على مخرج. إنني أقول لك هذا لأن قولي سيساعدك أنت أيضاً. غابيتو"[33].

وفي العام التالي، العام الذي توفي فيه نيرودا، يقول غارسيا ماركيز للصحافيين في بوغوتا: "لقد صدمني موت صديقي العظيم ألفارو سيبيدا في العام الماضي صدمة كبيرة أدركت معها أنني لا أستطيع تحمل اختفاء أصدقائي، وفكّرت: تبّاً! إذا لم أواجه هذه الحقيقة، فإنني أنا الذي سأموت في يوم ما عندما ألتقي بأ مثل هذا الموت"[34]. صحيح أن غارسيا ماركيز بذل جهداً هائلاً في ضوء شهرته المتزايدة وهو يرى صديقه الذي داهمه المرض، ولا بد من أن حزنه كان حقيقياً. لكن الصحيح أيضاً هو أنه كان يبتعد عن سيبيدا، وكل أعضاء جماعة بارانكيا، وقد أكدت زيارته المدينة في العام 1971 هذا الابتعاد. لقد تعلم غارسيا ماركيز، الذي كان يداخله الشعور بالحنين الجارف منذ بواكير حياته كيف يكافح هذا أكثر من معظم الناس. وبوفاة سيبيدا يرسم غارسيا ماركيز خطاً فاصلاً تحت تجربة بارانكيا.

كان الخريف الذي حل بعد وفاة صديقه مكفهراً. ففي السابع من شهر تشرين الثاني أُذيع خبر مشؤوم مفاده أن ريتشارد نيكسون أُعيد انتخابه مرة أخرى رئيساً للولايات المتحدة. في ذلك الشهر نفسه، عاد الرئيس السابق خوان بيرون، على نحو مفعم بالحيوية والنشاط في بادئ الأمر وعلى نحو كارثي آخر الأمر، إلى



بويس آيرس بعد سبعة عشر عاماً أمضاها خارج البلاد، واضطر سلفادور آليندي إلى تعديل حكومته، حكومة الوحدة الشعبية، ليضع حداً لموجة التظاهرات في تشيلي، على حين اضطر بابلو نيرودا إلى الاستقالة من منصب السفير في باريس بسبب إصابته بمرض السرطان. وكان غارسيا ماركيز حاضراً في باريس وهو يرى الشاعر الشيوعي القديم وهو يرحل عائداً إلى أمريكا الجنوبية. وكان ذلك آخر لقاء لهما.

* * *

استمر غارسيا ماركيز في تأليف روايته **خريف البطريرك** وهو في حالة قنوط، غير أن شعوراً غريباً بالنشاط قد عاوده. فقد جعله موت ألفارو سيبيدا يدرك أكثر من أي وقت مضى أن الحياة قصيرة، وجعله أدرك أنه لا يريد أن يكون في أوروبا على حين تمر الأحداث في أمريكا اللاتينية من أمامه. لقد كان كل شيء في إسبانيا في حالة من الشلل، على حين انتظرت البلاد أن يقضي الجنرال فرانكو نحبه. حقاً كان النظام على شفير الهاوية - فقد عين فرانكو في الثامن من حزيران الأدميرال لويس كاريرو بلانكو رئيساً بعد أن حكم وحده مدة أربعة وثلاثين سنة - إلاّ أن نهاية النظام كانت قد حانت منذ زمن بعيد، تماماً مثل موت *بطريرك* غارسيا ماركيز في الرواية التي اقترب من إكمالها. وفي شهر أيار عام 1973 بدأ غارسيا ماركيز يقول لرجال الصحافة إن رواية **خريف البطريرك** اكتملت، ومع هذا، فإنه سيتركها في مكانها سنة أو أكثر "كي أتأكد من أنها لا تزال تروقني"[35]. يبدو أن هذا الأديب لا يهتم حقاً سواء أنشرت كتبه أم لم تُنشر، ولم يستجب على وجه التأكيد لضغوط الناشرين أو القراء، إذ كان من وراء ذلك المظهر المستمر من المسرات الشعور القديم نفسه بالافتقار إلى الأمان من ناحية الرواية التي كان يشتغل عليها بقوة منذ عودته من بارانكيا والمكسيك في أواخر عام 1971.

مما يدل على بصيرة غارسيا ماركيز النافذة، أن كتابه الأول الذي يلي رواية **مئة عام من العزلة** هو رواية لم تواجه مزالق الشهرة والسلطة حتى قبل أن تتسمل عليه وحسب، بل توقعت أيضاً، بذلك المعنى، الكهولة والشيخوخة المكتوبتين حتى قبل بلوغه إياهما بزمن طويل. وبالرغم من ذلك، يستحيل الحديث عن رواية **خريف**

الطريـــرك بمصطلحات مبسطة، إذ ما من كتاب من كتب غارسيا ماركيز يبدأ بالاقتــراب مـــن صعوبته؛ ولعل أوضح دليل هو المفارقة بين الجمال الآسر لصور الكــتاب الشعرية وبشاعة موضوعه[36]. إن الروايات التي أنتجت الشعور بانتعاش أميركا اللاتينية في ستينيات القرن العشرين - مثل عصر البطل وموت أرتيمو كروز والحجلــة - كانــت بصورة عامة أنماطاً محدثة عن الروايات الأوروبية والأميركية الحداثوية العظمى في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين؛ كروايات **يوليسيس** أو **البحث عن الزمن المفقود** أو **ممر مانهاتن** أو **السيدة دالواي** أو **أبسالوم، أبسالوم!** لكن الرواية التي بلورت ورشّحت ذلك الانتعاش الأميركي اللاتيني وهي رواية **مئة عام من العزلة**، تبدو أقل تعقيداً وحداثة من بقية الروايات. ففي زمن لم يظهر فيه بعــد علــى السطح مصطلح *ما بعد الحداثة*، فإن نقاداً من أمثال أمير رودريغيث مونيغال، تحدثــوا عـــن المفارقة التاريخية الغريبة التي تنطوي عليها رواية غارسيا ماركيــز، لأنها كانت رواية شفافة على ما يبدو، سهلة القراءة ويمكن أن يفهمها حـــتى النـــاس الذين يملكون ثقافة أدبية متواضعة[37]. وليتابع غارسيا ماركيز تلك الرواية، فإنه شعر بتحدٍ لكتابة شيء ما على غرار رواية مرحلة الانتعاش النموذجية. وهــذا هو السبب الذي يجعل من سمات جويس ووولف واضحة في رواية **خريف البطريـــرك** وضوحاً تاماً للقراء من ذوي الخبرة الذين كُتبت الرواية لأجلهم. وقد حدث هذا كله في اللحظة نفسها التي ابتعد فيها معظم الكتاب الذي حفزهم نجاح غارســيا ماركيـــز عـــن أساليب مرحلة الانتعاش المتميزة ليكتبوا أعمالاً "ما بعد حداثــوية" أكثر شفافية بكثير من النمط الذي يفترض أن تمثله رواية **مئة عام من العزلة**.

لقد مرت الرواية الجديدة بمراحل عديدة، إنها قصة جندي أميركي لاتيني غير مـــتعلم يتحدر من بلد بلا اسم، متعدد الأطياف، يستولي على السلطة بالرغم من ضـــآلة تجربته السياسية، ويخطط للحكم حكماً دكتاتورياً في بلد مداري على مدى قــرنين مـــن الزمن. ومن بين الطغاة الذين يتهل منهم غارسيا ماركيز لرسم لوحته المـــرعبة كـــل من خوان فيثنتي غوميث (في السلطة من 1908 - 1935) وماركوس بيريث خيمينيث (1952-1958) في فـــنزويلا، وبورفيرو دياث (1884-1911) في

المكسيك، ومانويل إيسترادا كاباريرا (1898-1920) في غواتيمالا، وأسرة سوموز في نيكاراغوا (أناستاسيو ولويس وأناستاسيو الأصغر (1936 1979) ورافائيل تروجيو في جمهورية الدومينيكان (1930- 1961) أما إسبانيا وفرانكو، فإن غارسيا ماركيز يؤكد أنهما رفقا في طريقه. وهو لا يزال حتى يومنا هذا لا يعرف إلا النزر اليسير عن فرانكو، لأن مثل هذا الشخص الأوروبي البارد المتقشف لا يصيده ولا يثير اهتمامه إلاّ قليلاً.

إن البطل المسن في الرواية، الذي لا يعرفه القراء إلا على أنه *بطريرك* مستوحد وقوي وعاطفي مثلما هو وحشي أيضاً. بالرغم من أنه يبدو مفتقراً إلى الأحاسيس حدّ الغباء، إلاّ أن لديه دافعاً غريباً نحو السلطة وبصيرة فطريّة يهتدي بها إلى دوافع البشر الآخرين؛ وإن ظلت النساء بمن فيهن أمه الحبيبة، لغزاً له. يقول غارسيا ماركيز في مقابلات صحافية إنه أدرك أن العقيد أورليانو بوينديا كان من شأنه أن يتحول إلى مثل هذا الدكتاتور لو أنه ربح الحرب، بمعنى، لو أن تاريخ كولومبيا كان مختلفاً وانتصر الليبراليون بدلاً من المحافظين على امتداد القرن التاسع عشر[38]. وكي يحتفظ البطل بقوته الخرافية، فقد قرر غارسيا ماركيز أن يبقيه بلا اسم، ويشار إليه بلقب *البطريرك* وحسب (ويعرفه قادته على أنه الجنرال). ويوضح غارسيا ماركيز توضيحاً يثير الدهشة أنه رسم صورة متعاطفة نسبياً لأن "كل الدكتاتوريين بدءاً بكريون فصاعداً هم ضحايا". ويقصر قائلاً إن الحقيقة التي يُوسف لها، هي أن تاريخ أميركا اللاتينية لم يكن بالتاريخ الذي يتمناه الشعب: فمعظم الدكتاتوريين ينحدرون من طبقات شعبية ولم تُطح بهم الشعوب التي كانوا يضطهدونها. هذا لا يعني أن الخرافة انتصرت على التاريخ، بل إن التاريخ نفسه هو الذي يتحول إلى خرافة. ويصرح غارسيا ماركيز أن هدف الأدب الأساس يتمثل بالكشف عن هذا السر، لكنه غير مستعد للخوض في أي تفصيل أخرى. "إن مظهر الكتاب السياسي أكثر تعقيداً مما يبدو عليه، وأنا لست على استعداد لتوضيحه"[39].

لكن الأمر الذي لا يدع مجالاً للشك، هو أن هذه الرواية الجديدة عبّرت عن مدخل غارسيا ماركيز وعمقه في معالجته معضلتي السلطة والحب - وهما الموضوعان الرئيسان وما يكتنفهما من دوافع أخرى مثل الذاكرة والحنين والعزلة

والموت إن السلطة والحب، حب السلطة، وسلطة الحب، موضوعان أساسيان من موضوعات التجربة الإنسانية ويكتسبان دائماً قوياً على وجه الخصوص في تاريخ أميركا اللاتينية ومجتمعها وأدبها.

تدور أحداث الرواية في بلد كاريبي متخيل يبدو أن كولومبيا - أو بوغوتا على وجه الخصوص - جدرته. من هنا يمكننا أن نفكّر في أنه إما أن يكون فنزويلا أو الساحل الكولومبي نفسه. بهذا المعنى، فإن هذه الدولة التي لا تحمل اسماً تشابه البلدان المتخيلة التي ابتكرها جوزيف كونراد في روايته **نوسترومو** (1904) أو الروائي الإسباني رامون مريا دل باي - إنكلان في روايته **تيرانو بنديراس** (1926). وتركز رامون صورة الدكتاتور الأميركي اللاتيني العنيف والفج وخاصة على "خريفه"، أي السنوات الأخيرة من عمر نظامه.

يستهل الكتاب أحداثه في زمن تاريخي مستحيل يمتد على مدى مئتي سنة، ربما من أواخر القرن الثامن عشر وحتى ستينيات القرن العشرين[40]. ونسرد معظم أحداث الرواية عن طريق الذكريات وتتابع الحدود الفاصلة والعامة في تاريخ أميركا اللاتينية إلى أن يستولي الأجانب على البحر عند "فجر" **خريف البطريرك** ليعقب ذلك موته، وبالتالي نظامه (الشتاء والتحلل). يعيش البطل في عالم يناور فيه العسكر والكنيسة والأجانب باستمرار من أجل تبوُّؤ السلطة. أما "الشعب" فتراه سلبياً، والرواية ينعدم فيها التطور الديالكتيكي بسبب عدم وجود التاريخ، وعدم وجود أي مرور للوقت، ولا أي مشاركة أو تفاعل سياسي أو اجتماعي حقيقي. لكن، إن كانت العلاقة بين الدكتاتور والشعب هي محور الرواية. ويمكن للمرء أن يقول إن غارسيا ماركيز يلمح تلميحاً مقصوداً إلى أن الرواية يتعين انتقالها من البطريرك إلى الشعب بأسطرها النهائية التي تبدو ذروة نشاطها - والمتمثلة بوضوح بذكرى سقوط بيريث خيمينيث في فنزويلا سنة 1958 - مقصودة حرفياً لا على سبيل المفارقة.

بعبارات أكثر خصوصية، فإن أقرب علاقة للبطريرك على وجه الأرض هي تلك التي تربطه بأمه بينديثيون ألفارادو أما زوجته ليتثيا نازاريو فكانت راهبة سابقة، يختطفها وربما يقتلها، والحسناء التي يلاحقها ولا يظفر بها أبداً هي ملكة

الجمــال مانويلا سانتشيث، على حين أن علاقته الجنسيه الوحيدة الناجحه مكس، وبا لمهول، مع تلميذة مدرسة في سن الثانية عشرة بعد أن يكون قد خرف. أما من الجانب الذكوري، فلديه وجهان، أو وجه علي: باتريثيو آراغونيس، وصديق طيب هــو رودريغــو دي أغيلار، ومن بعد ذلك عبقري شرير هو وزير الأمن الجذاب خوســيه إغناثيو سايث دي لابارا الشبيه بمستشاري الطغمة العسكرية الحاكمة في تشيلي والأرجنتين في سبعينيات القرن العشرين، وهو العقد الذي اكتملت فيه كتابة الــرواية ويــنسجم هــيكل هذه العلاقات مع النموذج الكلاسيكي للأسطورة الغربية [41].

نكــس ســبق السيف العدل، لأن تجربة القارئ الشاملة تجربة يكتنفها الشك والاضطراب. ويعزز تتابع الرواة الذي يثير الارتباك مجمل وجهة نظر الرواية وسائقه وحتى تسلسل أحداثها، علماً أن هؤلاء الرواة غير متأكدين من أي شيء. في وسع المرء أن يقول إن المعضلة التي لا نهاية لها عما إذا كان الدكتاتور يسيطر أو لا يسيطر علــى جميع سلطاته، وربما كان ذلك أكثر المظاهر تكراراً وإرباكاً في الرواية؛ وهو مظهــر ازداد حجمه زيادة هائلة بفعل حقيقة مفادها أنه يمثل قبل كل شيء وجهة نظره (وهي وجهة نظر غبية وطائشة، منافقة وتخدم نفسها في الوقت نفسه)؛ ترى وعــي الإنــسان موضــوعاً عقلانياً موحداً؛ وتصور ماركسي عن هيمنة الطبقة والإمــبريالية (إذا مــا اجــتمع هذان التصوران فهما يمثلان وجهة نظر حداثوية)؛ ووجهة نظر تستند إلى فوكو مفادها أن السلطة، في كل مكان، معرفية، لا بد من مقاومتها دوماً، لكن يستحيل قهرها وهي خارج حدود قدرة أقوى موضوع على السيطرة (تمثل هذه بطبيعة الحال وجهة نظر حداثوية وهي مهيمنة في الرواية). إننا نجــد أنفــسنا مــضطرين في سرية هذا العمل القاسية والمصفقة من البشر والسلطة والنتــيجة إلى أن ننظر إلى السلطة بوصفها حاضرة كي تكون جاهزة للاستعمال، وإن "شخــصاً ما عليه أن يستعملها"، لأن وجهة نظر غارسيا ماركيز عن التاريخ تقتــرب اقتراباً شديداً من تلك الرواية الكالحة التي طرحها أولاً مكيافيلي وضرب عليها شكسبير الأمثلة باستمرار وبعد إكمال الرواية يتجه مباشرة سعياً وراء علاقة مع فيدل كاسترو المحرر الاشتراكي الذي يتبين في ما بعد أنه ذلك السياسي اللاتيني



الأمريكي اسدي لديه القدرة الهائلة ليصبح أكثر الشخصيات التسلطية المحبوبة والمحترمة في القارة.

جُمَلُ الرواية طويلة جداً فهناك تسع وعشرون جملة لا غير في الفصل الأول، ثلاث وعشرون منها في الفصل الثاني، وثمانٍ في الفصل الثالث، وست عشرة في الفصل الرابع، وثلاث عشرة في الفصل الخامس، وجملة واحدة فقط في الفصل السادس، فيكون المجموع، على ما يبدو، مئة جملة. وتبدأ الفصول الأولى بثلاث أو أربع فقرات في الصفحة الأولى، كأنها أوركسترا تضبط إيقاعها الموسيقي. ثم تمتد وتمتد. وثمة انتقالات مستمرة في السرد من ضمير المتكلم ("أنا"، "نحن") إلى ضمير المخاطب ("السيد الجنرال"، أيها الأم"...) إلى ضمير الغائب ("هو" و"هم")، بالرغم من أن الصفة الأخيرة تندرج دوماً في صوت آخر. إن غارسيا ماركيز بصفته راوياً بصيغة ضمير الغائب غائب دائماً تقريباً، لكن ما من روايه يهيمن عليه صوته الأدبي المتميز أكثر من هذه الرواية. ويبدأ كل فصل بهوسه المألوف وهو موضوع الدفن، وإن كان القارئ لا يمكنه أن يكون متأكداً مما إذا كانت الجثة التي عُثر عليها هي جثة الطاغية، أو إن كانت هي حقاً جثته، فهل هو ميت؟ وهكذا، فإن صيغة الضمير، "نحن" نحن الناس الذين عثرنا على الجثة نفتح عالماً عن طريق التذكر من خلال جمل قصيرة محدودة العدد على الصفحة الأولى في كل فصل مع تفاصيل متغيرة عن اكتشاف الجثة، وبعدها يغور السرد في متاهة، أو دوامة، من خلال استرجاع المواقف والأحداث في حياته "هو"، "الجنرال"، التي تتحوّل تدريجياً في ضمير المتكلم المفرد الذي يستخدم في كتابة السيرة الذاتية، "أنا"، رجل السلطة. المتاهة. شأنها شأن كل المؤلفات الحداثوية، موضوع (الحياة) وتقنية (أسلوب الدخول إليه).

إن رواية **خريف البطريرك** تبدو بكل جلاء رواية كتبها هوى كاتب مسحوح عن دكتاتور مهووس ومستوحد. لكن النقاد، برأي المؤلف، الذين يميل عدد كبير منهم إلى الشعور بالغضب لأنه قدّم صورة متعاطفة إلى حدٍّ ما مع هذه الشخصية المرعبة، كانوا بطيئين في فهم موضوع **الرواية**. ففي مدينة مكسيكو وفي شهر كانون الأول من عام 1975، أي بعد سنتين من الانتهاء من كتابة **الرواية** وبعد

مـــرور أشهر على صدورها، طرح غارسيا ماركيز الذي صرّح أن كل الذين كتبوا مراجعات عن الرواية بلا استثناء كانت قراءاتهم "سطحية" لها، وتفسيراً لمغزاها لم يكن متوقعاً أبداً فقد أكّد أنها ضرب من السيرة الذاتية: "إنها أشبه باعتراف شخصي، إنهـــا السيرة الذاتية، وكتاب مذكرات إلى حدٍّ كبير. لكن الذي حدث، هو أن هذه المذكـــرات مشفرة. وبدلاً من رؤية دكتاتور، فإنك ترى كاتباً مشهوراً جداً لا يشعر بالارتياح بـــسبب شهرته. حـــسناً، بهذا الدليل يمكن قراءة الكتاب قراءة مفهومة"[42].

هذا التوكيد مثير للدهشة للوهلة الأولى. فغارسيا ماركيز رجل يحاول أن يترك الانطـــباع لدى قرائه بمتابعة مأثرة كلاسيكية شعبية، رجل تحت ضغط، ويمكن أن يُـــتوقع منه أن يتزلف إلى الجمهور. أما رواية **خريف البطريرك**، فقد كانت لوحة قبـــيحة لشخـــصية قبيحة جداً. إن هذا الدكتاتور، وإن عومل إلى حدٍّ ما معاملة متـــسامحة، هو واحد من أكثر الشخصيات التي تبعث على النفور إطلاقاً. هل كان غارسيا ماركيز يحاول أن يصفع البورجوازية العالمية بتصريحات مثيرة للصحافة، ثم تـــراه حقاً قد كتب واحداً من أشد الكتب المرعبة نقداً للذات في الأدب العالمي، كـــتاباً قصـــصياً موازياً لاعترافات روسو على سبيل المثال؟ أيمكن مقارنة علاقات المؤلف بالرجال والنساء وبالعالم أجمع بعلاقات أولئك الذين ابتكرهم ابتكاراً شنيعاً وإن كـــان مثيراً للعواطف والمشاعر؟ وإذا كان غارسيا ماركيز يعتقد هذا الاعتقاد، أتـــراه يلجأ إلى استخدام نفسه ليكون مثالاً من عالم مليء بأجساد رضيعة جديرة بـــالازدراء وعلاقـــات خطـــرة أكثر مما حلمنا به، أم أن ما يطرحه هو تحليل ذاتي وشخصي تماماً، وبالتالي فهو تحليل مدمر على نحو فريد؟ وفي ضوء انعدام التشويق والمـــتعة القاسي للصورة الذاتية، لا يبدو من المستحيل أن الإقامة القصيرة في إسبانيا الفـــرانكوية المجدبة جدباً غريباً تحولت إلى تكفير مرضته الذات ينطوي على تحليل ذاتي للـــشخص الذي طالما كان هو عليه، وهو يرنو الآن إلى المستقبل. لعل تأليف روايـــة **خـــريف البطريرك** انطوى على محاولة أن يستحق شهرته استحقاقاً معنوياً فـــضلاً عن محاولة إظهار أنه يستحقها أدبياً (بالرغم من حقيقة أن عدداً كبيراً من القراء رأوا، ويا للمفارقة، النتيجة الطموح الواضحة برهاناً على عطرسة ورضىً ذاتي مبالغ فيهما).



يمكن أن يكون "موت" البصريك "الأول" استعارة لعام 1967، وهو عام رواية **مئة عام من العزلة** عندما اختفى غارسيا ماركيز "الحقيقي" اختفاءً نهائياً تحت وطأة الشهرة والميثولوجيا: لعله كان يصف وداعه التدريجي للخصوصية ولبقائه معموراً واعتيادياً، وتلك عملية تحولت فيها أزمة المثل في ستينات القرن العشرين، بمفارقة مضحكة، إلى أزمة شهرة ونجاح في سبعينيات القرن العشرين. ولعل هذا هو ما مثّل، في وعيه شخصياً، وداعاً للشباب (فقد بلغ الأربعين عند صدور رواية **مئة عام من العزلة**) يضاف إلى ذلك، طالما كان مهيأً للتأمل في الشيخوخة، تعين عليه أن يطرح أمامنا أزمته وهو في متوسط العمر ويبدأ "حريمه" قبل أي شخص آخر، وهذا، تمتزج أزمته في متوسط العمر في برشلونة مع أزمة الشهرة التي أحاطت به. لعله وضع شهرته وتأثيره بعد استيعابه كل هذه الدروس في كتابة هذه الرواية الكابوسية أدباً في خدمة القضايا النبيلة، وذلك بأن أصبح، شأنه شأن البطريرك في شبابه، "سيد سلطاته كلها"، واعياً لها وبعزيمة مطوعة على الخير العام.

ربما كانت نتيجة شهرته المفاجئة انفصاماً آخر في الشخصية حاول غارسيا ماركيز يائساً أن يوحده منذ كان مراهقاً، وكان ذلك صراعاً اتضحت آثاره الأولى في القصص المبكرة وأكملتها، كما هو متوقع، رواية **مئة عام من العزلة** بفوز كبير لكنه ربما لم يحلّ إلا مشكلة واحدة هي مشكلة الازدواجية، ليجد بعدها أن عليه أن يواجه مشكلة أخرى وهي الطلاق بين ما سيدعوه لاحقاً شخصيته السرية والخاصة من جهة، وشخصيته العامة من جهة أخرى. لعل هذا هو السبب الذي يجعل الرواية تطرح احتمال أن الجثة التي يعثر عليها الأهالي في مطلع كل فصل قد لا تكون جثة البطريرك. إن غارسيا ماركيز الذي أضحى واسع الشهرة الآن، واجه باستمرار، كما الطاغية، أمام وسائل الإعلام مشكلة مثله، بديله التام، ومهانة رؤية نفسه في مثل هذه الحالة من المساواة، لعنة الله عليها. إن هذا الرجل هو أنا، أنا بخصوص بديل الطاغية، البديل الرسمي أو الصورة العامة، باتريثيو أراغونيس، "فقد اتكأ ليحيا إلى الأبد حياة ليست حياته". حسناً، لقد شعر غارسيا ماركيز أنه يحتل كلا الرجلين: "الحقيقي" و"البديل". في البدء، وجد البطريرك صعوبة في التكيف مع الأسماء الجديدة التي اختار أن يسميها به الناس أو وسائل الإعلام أو الدعاية



الحكومية لاحقاً، (تماماً مثل أسماء غارسيا ماركيز العديدة: "غابو" و"سيد ماكوندو" و"ميلكياديس الغجري" وغيرها)، لكن بصرف النظر عن عدم اكتراثه بهذا البديل، أو وجوده المضاعف حقاً، فإنه لم يربك ارتباك أولئك الذين من حوله.

وهكـــذا استحوذت قصة السيرة الذاتية على غارسيا ماركيز (وبخاصة محنته بوصفه أديباً طبقت شهرته الآفاق) في أثناء تأليفه كتاباً بدا أنه عن إنسان يمثل قطبه المعـــاكس، وهكـــذا، أمسى البطريرك شبيهاً شبيهاً غارسيا ماركيز نفسه، تماماً مثلما أضـــحى أوريليانو بويندا غارسيا ماركيز في رواية **مئة عام من العزلة**، ليسبر الآن فقـــط أشـــدّ الأعمـــاق ظلمـــة في الوضع البشري، متأملاً تأملاً عميقاً في روحه الشخـــصي. إن البطريـــرك هـــو أنا. الشهرة والجاذبية والموت والسلطة من جهة، والعزلة والشهرة والطموح والقسوة من جهة أخرى. ومن نافلة القول الإشارة إلى أن المفارقـــة الكبرى التي تنطوي عليها السيرة الذاتية هي أن الأديب انطلق لتأليف كتابه عن السلطة والشهرة في أواخر خمسينيات القرن العشرين، قبل أن يعيش بنفسه هذه الظاهرة بسنوات بعيدة. وعلى كل حال، ففي الآونة التي شن فيها آخر هجوم لـــه على الموضوع، كان قد أضحى بدوره مشهوراً وذا سلطة، ومستوحداً، وتحول إلى "هو"، وإلى "الآخر"، وإلى الشيء المرغوب فيه. لقد كان المسخ الأدبـــي الذي ابتكـــره وإن عـــزم على هجائه وفضحه (ولكنه ربما حسده دوماً ورغب فيه عند الآخر) شخصية تلك الظاهرة التي تحول هو شخصياً إليها.

ربـــط غارســـيا ماركيز في مقابلة أجراها معه خوان غوسان في العام 1971 موضـــوعات الحـــب والسلطة، مصراً على أن شخصياته كلها مستمدة من السيرة الذاتية، ومعلناً: "أنت تدري يا صديقي القديم أن حب السلطة ينجم عن العجز عن الحب"[43]. يمكن لهذه الملاحظة أن تبدأ بمتابعة صلة خفية تربط كل روايات غارسيا ماركيز، وأن تمثل خيطاً يساعد القراء على الخروج من المتاهة الأخلاقية والنفسانية المتـــشابكة التي ابتكرها باستهلاله. لعله ابتدأ أولاً بدافع من نمو إحساسه المضطرب عـــن السلطة وأن يكون محبوباً بها. ثم حلّت أزمة شهرته في أواخر ستينيات القرن العشرين وبداية ســـبعينياته عندما وجد غارسيا ماركيز، الرجل الذي يتمتع بسيطرة ذاتيـــة هائلـــة، وطاقة لسانية عظيمة، وتغلغل نفساني ضخم (وقبل هذا كله، قدرة



منذهلة علـى الإقناع والمقدرة الكبيرة على المودة وعلى النشاط عبر العام)، وجد نفسه فجأة تحت رحمة أشخاص آخرين أقل موهبة في أغلب الأحيان - كالنقاد والصحافيين والوكلاء، والناشرين، والطفيليين - ضمن المجال العام. لقد أصبح هو نفسه تحت رحمة الصحفيين بعد أن استمتع بسلطة الصحافي. أضحى صورة وسمعة لا يمكنه السيطرة عليهما سيطرة تامة. لهذا السبب، فممّا لا يبعث على الدهشة أن تغدو كارمن باسيلس ذات أهمية فائقة بالنسبة إليه: لقد أمست "وكيلته" من نواحٍ شتى تفوق تنظيم عقوده مع الناشرين. مما لا ريب فيه أنها مكّنته من فهم احتمال أن يتحول إلى "سيد سلطاته كلها" شأنه في ذلك شأن أي إنسان يستطيع إلى ذلك سبيلاً.

إذاً، ربما قرر غارسيا ماركز، كما الدكتاتور، أن يضبط نفسه العامة، وأن يصبح ذاتاً أخرى (لا تكون ذاته إلا جزئياً، لكنه الآن عليه أن يختار صورته)؛ وبدلاً من أن يحتجّ على محنته، كما احتج في السنوات الثماني الماضية، نراه ينتحل ذاته المشهورة، ويستخدم شهرته، ويمر من أمام جمع غرمائه، ويغدو رجل السلطة صاحب النفوذ المستتر لا إلى النجاح العام الذي يحققه من خلال فعل الكتابة المستوحد وحسب، بل إلى تألقه الخاص وقدرته من وراء الكواليس على الغواية.

بصرف النظر عما قد يبدو عليه الدكتاتور من فجاجة في الصورة الحميمية التي يصوره بها غارسيا ماركيز، إلا أنه عبقري سياسي لسبب بسيط جداً: "كان يرى الآخرين كما هم على حين لم يستطع الآخرون قط إلقاء نظرة خاطفة على أفكاره الخفية"[44]. وبالرغم من انغلاقه على نفسه، فإن البطريرك كان دائماً واضحاً الوضوح كله في مقدراته على رؤية واقع الآخرين ومستقبلهم"[45]. كان عظيم الصبر، يربح في آخر المطاف دائماً، تماماً مثلما اكتشف أخيراً - في حالة مستشاره سايينث دي لا بارا المبهم والذي يتعذر الاستغناء عنه - السرّ الذي لا يمكن تصوره والذي كان يبحث عنه منذ سنين طويلة في ذلك الجدار الزجاجي البركاني الأسود المدهش"[46]. أهذه صورة غارسيا ماركيز نفسه، الذي يسدد الفوز دائماً؛ ضد كل الوافدين، الأصدقاء والأسرة، الزوجة والأحباب، وخصوم المهنة (إستورياس وفارغاس يوسا) والعالم؟ وهل تحول فيدل كاسترو إلى الرجل

الوحيد - إلى بطريركه وحده الرمز - الذي لا يستطيع ولا يتجرأ، بل لا يتمنى، أن يفوز عليه؟

الدرس الذي تعلمه قارئ هذه الرواية أخيراً - وهو درس يمكن أن يوصف بدرس ما بعد الحداثة - من خلال معايشته أو معايشتها الطريرك على مضض هو أن الحياة يستحيل فهمها من دون أدنى شك. لكن ثمة "حقائق" أخلاقية معينة، بالرغم من كل أوهامنا وكل نسبياتنا المعاصرة[47]، وهي ذات صلة، لا بالإحسان والعطف وحسب، بل بالسلطة والمسؤولية والتضامن والالتزام، وأخيراً الحب أيضاً. لعل العلاقة الداخلية المعقدة بين هذه القضايا البشرية هي الدرس الذي تعلمه غارسيا ماركيز بأن أصبح ذائع الصيت، وهو الدرس الذي ما كان ليتعلمه لو لم يكن قد بات مشهوراً - وهو الذي لا يمكن أن يتعلمه حقاً سوى المشاهير وأصحاب السلطة في كل الأحوال - حتى وإن ازداد خسّةً أقوى الأشخاص الذين يمرون بتجربة التعلم كالطريرك نفسه بزيادة سلطتهم ونفوذهم. وهذا هو ما يطرح احتمالاً جذرياً بعد أن غارسيا ماركيز الذي بدأ إعطاء مقابلات عن السياسة والأخلاق بين عامي 1972 و1975، على سبيل المثال، أضحى الآن غارسيا ماركيز جديداً عرف حقيقة غارسيا ماركيز قديماً الذي كان لا يزال ساذجاً و"بريئاً" بسبب، وقرر أن يكون أفضل وأن يتصرف تصرفاً أحسن بعد أن أماطت له الشهرة اللثام عن الحقيقة.

أما بخصوص الحب، فإن القراء عندما يفكّرون في هذه الأيام في غارسيا ماركيز وفي الحب، تراهم يميلون إلى الابتسام والتفكير في الرومانسي الساذج فلورنتينو أريثا في رواية **الحب في زمن الكوليرا** وفي وجه غارسيا ماركيز الذي يشي بالحصافة والمعرفة، والذي أعاد إنتاجه نفسه على أغلفة ملايين الروايات. ومع هذا، فإن معالجته موضوعي الجنس والحب، في رواية **خريف البطريرك** وغيرها، وبالمقارنة، معالجة قاسية تخلو من السحر أو الوهم. فموقف البطريرك تجاه النساء فيه غطرسة ويفتقر إلى الخيال إلى أقصى الحدود، لكن باستثناء اثنين: ملكة الجمال مانويلا سانتشيث، المرأة التي يتعذر الحصول عليها، والتي يعجب بها من بعيد لكنه لا يستطيع معرفتها أبداً، وفي الجهة المقابلة، تلميذة المدرسة في سن الثانية عشرة على

غــرار لوليتـا التي يغويها بعد أن بلغ مرحلة الخرف. وبالرغم من ذلك، فإن المرأة الوحـيدة التي أحبها حقاً تبدو أمه. فهل تمثل العلاقة بلويسا سانتياغا هي مفتاح هذه الرواية؟ وهل تمثل مانويلا سانتشيث بحثاً وهمياً عن جاذبية خارجية وحسب؟ وهل تمثل ليتشيا ناثاريو قدر كل الزوجات (وما ميرتيديس إلا اسم آخر من أسماء ليتـشيا)؟ وهل تمثل الرواية كلها إلى حدٍّ ما، الجانب الآخر المظلم لكبته والده مع الأخذ في الاعتبار أن هذه الرواية تخلو تماماً من أي أجداد؟ ولأن البطريرك يعتقد أنه وُلد من تلقاء نفسه؟

> . . كـان يرى أن ما من أحد هو ابن أحد، بل هو ابن أمه، هي وحدها. بدا ذلك اليقين صحيحاً حتى بخصوصه هو، إذ كان يعلم أنه رجل بلا أدب شأنه شأن الطغاة الأكثر شهرة في التاريخ، وأن القريب الوحيد الذي يعرفه، وربما القريب الوحيد الذي كان قريبه، هو أمه الحبيبة بنديثيون ألفارادو[48].

تـبدو الحقـيقة، التـافهة والعميقة معاً، أن الرجال يرغبون في زوجة لتكون عـشيقتهم على المدى البعيد، لكن عندما يحصلون عليها، يكتشفون أنهم يريدون أمّاً أيـضاً في الوقت عينه الذي يواصلون فيه الرغبة في الحصول على عشيقات أخريات، كاملات الصفات. في أوقات البطريرك المبكرة مع ليتشيا ناثاريو، كانت تُجلسه كل يـوم لتعلمه القراءة والكتابة، ثم يمضيان عصر كل يوم عاريين تحت ناموسية سريرها، وكانـت تحمّمه وتلبسه ثيابه مثل طفل. وهكذا، فإن النصف الأول من الرجل يستثار لقمـع النساء واغتصابهن وهو ينظر إليهن على أنهن أصغر سناً وأدنى شأناً منه، وأن ينتزعهن من غيره من الرجال. أما النصف الآخر، فيرغب في أن تعامله أولئك النساء أنفسهن على أنه طفل وهن ينظرن إليه على أنه أعلى شأناً منهن وأنه سابقٌ لهن؛ لأن المسـاواة والتـفاعل الديمقراطـي غير واقعيين وحتى غير مرغوب فيهما (لأنهما غير مـثيرين). في هــذا الكتاب، كما في غيره، نادراً ما يستخدم غارسيا ماركيز كلمة "جـنس" الـتي تـسبب غموضاً دائماً بشأن الحب والعلاقة بين الجنس والحب. من الواضـح أن الشيء الأكيد الوحيد الذي في وسع معظمنا أن يمكنه عن الحب هو أن أمنا تحبنا بصرف النظر عن أخطائنا أو جرائمنا. لكن هذا الشيء الأكيد، كما نعرف كلنا، لم يُمنح لغارسيا ماركيز نفسه في السنوات المبكرة من حياته



قلما يتذكر ابطريرك في نهاية حياته شيئاً على الإطلاق، إذ يتحدث إلى أطياف لا يستطيع أن يفهم أصواتها[49]، وفي خضم كل العلاقات التي تشير إلى تقدمه في العمر، لا يزال يرغب بلا طائل في الجنس بعد أن تنكر له الحب نهائياً، ولهذا يأتي له العاملون عنده بنساء من خارج البلاد، لكن بلا جدوى، لأنه لا يزال يهوى معاشرة نساء الطبقة العاملة مما يجعله دائماً يبدأ بالعناء مرة أخرى (قمر كانون الثاني المعتم)[50]. أخيراً، ومع اقتراب الرواية من نهايتها، يتذكر أن حياته كلها كانت موهوبة لنسيان "طفولة بعيدة تمثله للوهلة الأولى وهو يرتجف على الأراضي القاحلة الباردة، وصورة أمه بيندثيون ألفارادو التي سرقت أحشاء كبش من بين كومة النفايات لإعداد وجبة غداء"[51]. إن الطفولة، كما سيذكرنا بذلك كتاب غارسيا ماركيز **ذكريات غانياتي الحزينات**، لا تقدم الأعذار بالضرورة، لكنها قد توضح

* * *

حاول غارسيا ماركيز أن يشغل نفسه بالرواية في الربيع الأخير من عام 1973 وحتى عام 1974[52]. لكنها كانت قد اكتملت أساساً وبات قادراً على بدء التخطيط للمستقبل. لقد كان كاتباً مستوحداً، حبيس صراع مستوحد مع بطل مستوحد. لكنه بالرغم من ذلك، يواصل في الوقت نفسه حديثاً لا نهاية له مع العالم بشأن عزلته، وبشأن أكثر القضايا الحميمية ألا وهي السياسة. وأقل ما يمكن قوله، هو إن المشهد كان غريباً على قراء الصحف، لكن غارسيا ماركيز أفلح بشق النفس في مواصلة مسعاه من دون أن يجعل من نفسه موضع هزء، واستمر. وجعلته التجربة حيواناً أدبياً وسياسياً أشد غلظة حتى بات أقل حساسية في مواجهة أي تحدٍّ تقريباً من تلك التحديات التي ستجلبها له موهبته وشهرته.

في مطلع ربيع العام 1973، كان قد سافر برفقة ميرثيديس من برشلونة إلى باريس لحضور زفاف تاتشيا التي تزوجت في نهاية المطاف تشارلز في الحادي والثلاثين من آذار وكان ابنهما خوان قد بلغ الثامنة من عمره آنذاك – وأقاما قبالة المستشفى التي أجهضت فيها سنة 1956، لينتقلا بعدها إلى شارع رو دي باك. وتستذكر قائلة: "كان غابرييل إشبينا في زواجي وكانت أختي آيرين وصيفة

الشرف كما أن غابرييل هو غراب أبي حوان وكنت أود حضور بلاس أيضاً في حفل لرعف، لأن ذلك سيكون شيئاً رائعاً - لكنه لا يعتمد عليه ويصعب توقع تصرفاته"[53]. ليس ثمة سبب على الإطلاق يدفع للاعتقاد أن غارسيا ماركيز ندم على انفصاله عن تاتشيا باستثناء ندمه على الأسلوب الذي تم فيه الانفصال. لكنه تظل موضع إشارات كثيرة لرجل يكتب باستمرار عن الحب، ورمزاً إلى سبل غير مطروقة وعلاقات خارج الزواج، وبدائل عن الزواج مرة واحدة.

في وقت لاحق من ذلك العام، وفي الأيام التي كان فيها في المراحل النهائية من رواية **خريف البطريرك**، حظي غارسيا ماركيز بتكريم عالمي كبير آخر متمثل هذه المرة بجائزة نيوستادت التي منحت بالمشاركة مع مجلة بوكس إبرود الصادرة عن جامعة أوكلاهوما. كان القرار مدهشاً، وجديراً بالثناء والإطراء، كي تتخذه مؤسسة أميركية بعد مرور ستة أشهر وحسب على الفضيحة التي أحاطت بمنحه جائزة غاليغوس للحركة باتجاه الاشتراكية[54]. وبعد أن أدى غارسيا ماركيز واجبه أداءً تعوزه الحماسة في أوكلاهوما لقاء الاحتفالية والشيك، سافر جواً إلى لوس أنجلوس وسان فرانسيسكو لتمضية إجازة أسرية قصيرة، سافر بعدها إلى مدينة مكسيكو حيث أمضى أفراد الأسرة فصل الصيف هناك. كانت حماستهم شديدة إذ عادوا إلى المكسيك معاً ليكونوا بين أصدقائهم وفي مسقط رأس رودريغو وغونثالو الحقيقي، حتى إنهم اشتروا منزلاً ريفياً متداعياً في ضواحي كييرنافاكا، ذلك المنتجع الجميل الذي اشتهر في رواية **تحت البركان** لمالكولم باسم لوري[55]. كان شراؤه صفقة حقيقية، إذ كان يحتوي على حديقة مساحتها ألف ومئة متر مربع، وعلى مقربة من منزل صديقيهما القديمين بيثيي وألبيتا روخو، وباتجاه لاس كوينتاس حيث يمكن مشاهدة جبال سييرا. في هذه المرة مضى غارسيا ماركيز قدماً في الصفقة على العكس من محاولته التي كاد فيها أن يشتري منزلاً ريفياً خارج برشلونة. ولما سجل العقار في مكتب الكاتب العدل تدفق جميع الموظفين من المكاتب المجاورة للحصول على نسخهم من رواية **مئة عام من العزلة** موقعة بتوقيعه. وابتهج غارسيا ماركيز ابتهاجاً شديداً وقال: "إنني رأسمالي. إن لديّ ملكية!"، كان قد بلغ الثامنة والأربعين من عمره.



في التاسع من أيلول غادر المكسيك بعد إقامة لأكثر من شهرين، وسافرت ميرثيديس جواً إلى برشلونة حيث عاد الصَّبِيَّان إلى المدرسة على مضض. كان غارسيا ماركيز في طريقه إلى كولومبيا لإنجاز بعض الأعمال، لكنه أخبر الصحافة المكسيكية أنه ابتهج ابتهاجاً شديداً للاستقبال الذي حظي به في المكسيك، وأنه بصدد السفر إلى برشلونة لتوضيب حاجياته والعودة إلى المكسيك بأسرع ما يمكن[56]. وصرَّح أيضاً أن قارة أميركا اللاتينية تفتقر افتقاراً شديداً إلى القادة العظماء وأن القائدَين الحقيقيَّين الوحيدَين في القارة هما كاسترو وألييندي، أما البقية، فهم ليسوا سوى "رؤساء جمهوريات وحسب". لكن بعد مرور يومين اثنين، وفي أول حادي عشر من أيلول يحمل الهلاك، مات أحد هذين الزعيمين، ولم تعد أميركا اللاتينية مرة أخرى كما كانت أبداً



-19-

تشيلي وكوبا:

غارسيا ماركيز يختار الثورة

1979-1973

في الحادي عشر من أيلول عام 1973 كان غارسيا ماركيز يجلس أمام شاشة التلفاز في كولومبيا شأنه شأن ملايين التقدميين السياسيين في أرجاء العالم ويشاهد، وهو في حالة من الهلع، قاذفات القوة الجوية التشيلية تهاجم قصر الحكومة في سانتياغو. وبعد مرور ساعات قليلة تأكد نبأ وفاة الرئيس المنتخب انتخاباً ديمقراطياً سلفادور آليندي، ولم يعرف أحد إن كان قد قُتل أو انتحر. واستولت طغمة عسكرية على مقاليد الحكم، وبدأت تطارد ما عُرف بأكثر من ثلاثين ألف مواطن رُغم أنهم ناشطون من الجناح اليساري، وذلك في غضون الأسابيع القليلة التي أعقبت ذلك، ولم يخرج العديدون منهم أحياء من مراكز الاعتقال. كان بابلو نيرودا يحتضر بسبب إصابته بمرض السرطان في بيته في إيسلانيغرا على ساحل تشيلي المطل على المحيط الهادئ. وأمسى موت آليندي وتحطيم أحلامه السياسية، إذ سقطت تشيلي في أيدي نظام فاشي، المادة المكونة للأيام الأخيرة من حياة نيرودا على وجه الأرض قبل أن يستسلم للمرض الذي ألمّ به منذ سنوات[1].

كان المثقفون والناشطون السياسيون في جميع أنحاء العالم ينظرون إلى حكومة الوحدة الشعبية بزعامة آليندي على أنها تجربة سترين إن كان في الإمكان تحقيق مجتمع اشتراكي بوسائل ديمقراطية. كان آليندي قد عمد إلى تأميم النحاس والفولاذ والفحم ومعظم المصارف المحلية وغيرها من قطاعات الاقتصاد الحيوية، وتمكنت حكومته، بالرغم من الدعاية والتخريب المتواصلين اللذين كان يمدهما اليمين، من



زيادة حصتها في التصويت لتصل إلى نسبة 44 بالمئة في الانتخابات النصفية في آذار 1973، مما دفع اليمين إلى التعجيل بمضاعفة جهوده لتقويض النظام. وكانت السي آي أيه تعمل ضد آليندي حتى قبل انتخابه: فقد كانت الولايات المتحدة المطوقة في مستنقعها الفيتنامي وقد بدأ هاجس كوبا يسيطر عليها، متلهفة كي لا ترى أي نظام آخر معادياً للرأسمالية في نصف العالم الغربي. وقد كان تأثير تدمير التجربة التشيلية تدميراً وحشياً أمام أنظار العالم أجمع في اليسار مماثلاً للتأثير الذي أحدثته هزيمة الجمهوريين في الحرب الأهلية الإسبانية قبل أربعين سنة تقريباً.

عند الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم، كتب غارسيا ماركيز هذه البرقية إلى أعضاء الطغمة التشيلية الجديدة:

بوغوتا، 11 أيلول 1973

الجنرالات أوغستو بينوشيت وغوستافو ليه وسيزر ميندييث دانياو والأدميرال خوسيه توريبيو ميرينو، أعضاء المجلس العسكري

إنكم أنتم السبب الرئيس في موت الرئيس آليندي، ولن يسمح الشعب التشيلي لنفسه أن تحكمه عصابة من المجرمين المأجورين من إمبريالية أمريكا الشمالية.

غابرييل غارسيا ماركيز[2].

عندما كتب غارسيا ماركيز تلك الرسالة، لم يكن مصير آليندي قد عُرف بعد، لكنه قال في وقت لاحق إنه يعرف آليندي معرفة جيدة تكفي لأن يكون متأكداً من أنه لن يغادر القصر على قيد الحياة، ولا بد من أن الطغمة العسكرية كانت تعرف ذلك أيضاً. وإذا كان البعض قد قال إن إرسال هذه البرقية كان إشارة تناسب طالب جامعة أكثر مما تناسب أديباً كبيراً، إلا أنها أثبتت كونها أول عمل سياسي اتخذه غارسيا ماركيز الجديد، وهو الرجل الذي كان يبحث عن دور جديد، لكن أفكاره السياسية تعمّقت وتصلّبت على نحو جذري بسبب النهاية العنيفة لتجربة آليندي التاريخية. وصرّح غارسيا ماركيز في مقابلة لاحقة: "كان الانقلاب التشيلي كارثة بالنسبة إليّ".

وكما هو متوقع، اتضح أن قصة بادِيّا كانت الخط الفاصل في تاريخ الحرب الباردة في أمريكا اللاتينية، وليس للمثقفين والفنانين والأدباء وحسب. وظل غارسيا ماركيز بالرغم من النقد الذي وجهه إليه أصدقاؤه - والذي تراوح بين "الانتهازية"

و"الـــسذاجة" – أكثر كتّاب أميركا اللاتينية ثباتاً من الناحية السياسية. صحيح أن الاتحاد السوفياتي لم يمثل الاشتراكية التي كان غارسيا ماركيز يريدها، لكنه نظر إليه من وجهة النظر الأميركية اللاتينية على أنه ضروري جداً ليكون عقبة أمام إمبريالية الـــولايات المتحدة وهيمنتها. ففي رأيه، هذه ليست "رفقة طريق"، بل هي تقويم الواقع تقويماً عقلانياً. وإذا كانت كوبا، بالرغم من إشكالياتها، بلداً تقدمياً أكثر من اتحـــاد الجمهـــوريات السوفياتية الاشتراكية، فإنه لا بد من أن يدعمها الأميركيون اللاتينيون المناهضون للإمبريالية والذين يتعين عليهم أن يبذلوا ما في وسعهم لتعديل أي مظهـــر من مظاهر النظام القمعية أو غير الديمقراطية أو الدكتاتورية[3]، واختار غارســـيا ماركيـــز ما بدا له أنه طريق السلام والعدالة لشعوب العالم؛ وهو الطريق الذي عرف عموماً بطريق الاشتراكية العالمية[4].

ممـــا لا ريـــب فيه، أنه تمنى نجاح التجربة التشيلية، إلا أنه لم يعتقد أن ذلك سيكون مسموحاً به. وقد ردّ على سؤال وجّهه إليه صحافي من مدينة نيويورك في سنة 1971 إذ قال:

> طموحـــي أن تـــصبح أميركا اللاتينية كلها اشتراكية، لكن الشعوب في هذه الأيـــام تغـــويها فكرة الاشتراكية السلمية والدستورية. يبدو هذا كله حسناً للأهـــداف الانتخابـــية، لكنني أعتقد أن هذه الفكرة طوباوية تماماً. فتشيلي دولـــة تتجه نحو أحداث عنف درامية. وإذا ما مضت الجبهة الشعبية قدماً – بذكاء وبأساليب عظيمة ثابتة وسريعة إلى حدّ معقول – فستأتي اللحظة التي تواجه فيها جداراً من المعارضة الجادة.
>
> إن الـــولايات المـــتحدة لا تـــتدخل في الوقت الراهن، لكنها لن تقف دائماً وتتفرّج مكتوفة الأيدي، بل إنها لن تقبل أن تتحول تشيلي إلى بلد اشتراكي. إنهـــا لن تسمح بذلك، وأرجو ألاّ أكون تحت طائلة مثل هذه الأوهام في هذه المـــسألة. إنـــني لا أعني أني أرى العنف حلاً. بل أعتقد أن اللحظة ستحلّ عـــندما يصبح العنف وحده طريقاً لعبور جدار المعارضة. لسوء الحظ، أعتقد أن هذا أمر مُحتّم. كما أعتقد أن ما يحدث في تشيلي جيد جداً إذا ما نظرنا إليه على أنه إصلاح وليس على أنه ثورة[5].

قلـــة مـــن المراقبين نظروا إلى المستقبل بمثل هذا الوضوح. قد أدرك غارسيا ماركيـــز أنـــه يعيش الآن في مفترق طرقات حاسم في تاريخ العالم. ففي السنوات



القبيلة المقيتة، وبالرغم من تشاؤمه السياسي عميق الجذور، نراه يعلن بسلسلة من العبارات عن الالتزام السياسي، ولعل أفضل تلخيص لما هو ذلك الذي ورد في مقابلة صحافية تعود إلى العام 1973:

> إن الإحساس بالتضامن، وهو يشبه ما يسميه الكاثوليك عشاء القديسين، ينطوي على مغزى واضح تماماً بالنسبة إليَّ. إنه يعني أننا في كل فعل من أفعالنا، يكون كل واحد منا مسؤولاً عن عموم الإنسانية. وعندما يكتشف المرء هذا الشيء، فذلك سببه أن وعيه السياسي بلغ أعلى مستوياته. وإذا ما تركنا التواضع جانباً، فإن هذه هي قضيتي، إذ لا يوجد في حياتي أي فعل غير سياسي[6].

كان غارسيا ماركيز يبحث عن طريق القيام بعمل ما وأصبح مقتنعاً أكثر من أي وقت مضى أن الطريق الكوبي هو الطريق الوحيد الممكن المؤدي إلى استقلال أميركا اللاتينية سياسياً واقتصادياً، بمعنى المؤدي إلى كرامتها. إلاّ أنه أُبعد مرة أخرى عن كوبا. ونظراً إلى تلك الظروف، قرر أن طريق العودة يكون أولاً من خلال كولومبيا. فقد شارك في المناقشات لبعض الوقت مع المتحمس الكولومبيين الشباب، وبخاصة مع إنريكي سانتوس كالديرون من أسرة تحرير صحيفة التيمبو[7]، الذي تعرف إليه مؤخراً، ودانيال سامبر الذي عرفه منذ عقد من السنين، ثم أنطونيو كاباييرو، وهو ابن الروائي الليبرالي من الطبقة الوسطى إدواردو كاباييرو كالديرون، وكان الهدف تأسيس نمط جديد من الصحافة في كولومبيا؛ وخاصة تأسيس مجلة يسارية[8] وتوصل غارسيا ماركيز إلى نتيجة مفادها أن الطريق الوحيد لإصلاح بلده المحافظ، إنما يتم بوساطة ما أسماه مازحاً "إغواء" و"تخريب" الجيل الأصغر سناً من الأسر الحاكمة القديمة[9]. ومن المشاركين المهمين أيضاً أفضل موثق لحقبة أحداث العنف التي مرت بها البلاد، أورلاندو فالس بوردا عالم الاجتماع المشهور عالمياً، وكذلك رجل الأعمال اليساري خوسيه بيثينتي كاتاراين الذي سيغدو في ما بعد ناشر مؤلفات غارسيا ماركيز في كولومبيا. وسيكون اسم المجلة الجديدة ألتيرناتيبا (البديل)، وكانت نقطة انطلاقها متمثلة "بزيادة احتكار المعلومات التي يعانيها المجتمع الكولومبي على أيدي المصالح نفسها التي تسيطر على الاقتصاد الوطني والسياسة الوطنية". وكان هدفها يتمثل بإظهار "وجه كولومبيا الآخر الذي



لا يظهر على صفحات الصحف الكبرى، ولا على شاشات التلفزة التي تخضع خضوعاً كبيراً كل يوم للرقابة الرسمية"[10]. صدر العدد الأول في شباط سنة 1974، واستمرّ صدورها في السنوات الست المضطربة. لكن بالرغم من أن غارسيا ماركيز لم يُمضِ إلا مدة زمنية قصيرة نسبياً في كولومبيا - وإن كان ينوي ما هو أفضل من ذلك - فإنه بقي يشارك فيها مشاركة منتظمة، وكان حاضراً دوماً لتقديم المشورة والنصيحة. واستثمر هو وغيره من كبار المساهمين مبالغ كبيرة من مالهم الخاص في هـذا المشروع الذي ينطوي على مغامرة من أساسه. وصرّح غارسيا ماركيز في غضون ذلك أنه سينتقل إلى أميركا اللاتينية، وأنه، ويا للإثارة الكبرى، لن يكتب أي روايات بعد اليوم، فهو منذ الآن وإلى أن تسقط الطغمة العسكرية التي يتزعمها الجنرال بينوشيت في تشيلي في حالة "إضراب" بقدر ما يخص الأمر الأدب، وإنه سيهب نفسه كلها لخدمة العمل السياسي.

في شهر كانون الأول ولتوكيد قراراته الجديدة، قبل غارسيا ماركيز دعوة ليكون عضواً في محكمة رسل الثانية ذائعة الصيت التي تحقق وتحكم في جرائم الحرب الدولية. ومما له دلالة ذات مغزى أكبر مما تبدو عليه للوهلة الأولى، هو أن هذه الدعوة كانت أول علاقة واضحة على أنه سحظى بقبول عالمي في أماكن ومستويات لم يعرفها غيره من أدباء أميركا اللاتينية، وأنه بالرغم من التزامه المثير للجدل إزاء كوبا، ستكون له حرية نسبية في المشاركة في النشاط السياسي إينما وحيثما شاء.

بيع من العدد الأول من مجلة الترناتيفا الصادر في شباط 1974 عشرة آلاف نسخة في غضون الساعات الأربع والعشرين الأولى وصادر رجال الشرطة في بوغوتا بضع مئات من النسخ، غير أن هذه الحالة ستكون الحالة الوحيدة من حالات الرقابة المباشرة في تاريخ المجلة (بالرغم من أنها ستتعرض لاحقاً إلى "رقابة غير مباشرة" متمثلة بهجمات القنابل، وتدخلات المحاكم، وحصار اقتصادي، وتخريب عمليات التوزيع، وأسهمت كلها في وضع نهاية لها). ثم تصادف المجلة لاحقاً مشكلات مالية، غير أن الاستجابة لها في الأشهر الأولى كانت هائلة. وقبل أن يمضي وقت طويل، بدأت تبيع أربعين ألف نسخة، وهو رقم غير مسبوق لمطبوع

بساري في كولومبيا. كان العدد الأول يحمل شعاراً يحض ريادة الوعي - "الجرأة في التفكير بداية النضال" - وافتتاحية بعنوان: "رسالة إلى القارئ" أوضحت أن هدف المجلة الجديدة هو "النضال ضد تشويه الواقع في الصحافة البورجوازية" و"مواجهة التضليل الإعلامي"، (وهو موضوع مُثِّل أصدق تمثيل في أعقاب مذبحة الموز في رواية مئة عام من العزلة).

احتوت المجلة، التي كانت تصدر مرتين في الشهر، على أول مقالة من مقالتين كتبهما غارسيا ماركيز بعنوان *تشيلي والانقلاب والأجانب*[11]، وكانت أول مقالة سياسية صريحة يكتبها منذ أن ذاعت شهرته وورعت توزيعاً ناجحاً في جميع أنحاء العالم (إذ نشرت في الولايات المتحدة الأميركية وفي المملكة المتحدة في آن) وأصبحت ذات مكانة فريدة على الفور. وقد رثى غارسيا ماركيز ما عدّه نهاية سلفادور آليندي المضللة:

> كان مقدراً له أن يبلغ الرابعة والستين من عمره في شهر تموز المقبل. وستظل كبرى فضائله سارية، لكن القدر آثر أن يمنحه تلك العظمة التراجيدية النادرة بالموت وهو يدافع دفاعاً مسلحاً عن صحف الفنون البورجوازي المنطوي على مفارقة تاريخية، دفاعاً عن محكمة العدل العليا التي تنكرت له وأصفت الشرعية على قتلته، دفاعاً عن مجلس بائس أعلن أنه غير شرعي، ولكنه اضطر إلى الخضوع لمشيئة المغتصبين دفاعاً عن كل ممتلكات النظام الحقير التي أكلها العث. النظام الذي اقترح هو إلغاءه من دون إطلاق طلقة نار واحدة. وقعت المأساة في تشيلي أمام أسف التشيليين. لكنها ستدخل التاريخ بصفتها حدثاً أصيبا به جميعاً، أبناء هذا العصر. وستظل في حياتنا إلى الأبد[12].

إنها نبرة الاحتقار نفسها التي كان يتكلم بها غارسيا ماركيز عن النظام البرلماني الكولومبي منذ أواسط خمسينيات القرن العشرين والتي تمثلها أدق تمثيل قصة جنازة الأم الكبيرة. أما سلفادور آليندي نفسه، فقد كان شخصية من شخصيات غارسيا ماركيز، شهيداً آخر في مثوى أبطال أميركا اللاتينية الذين لم يكتب لهم النجاح، ولسيلحق به شهداء آخرون، وسيعلو العديد من السياسيين المتفائلين والمرعبين في آن أصدقاء غارسيا ماركيز في السنوات اللاحقة في مسعىً يائس أو خرافي ربما لتفادي مثل هذا المصير.



وكما هرب غارسيا ماركيز من المكسيك بعد صدور رواية مئة عام من العزلة وتمكنه من سداد ديونه، فقد أعدَّ العدَّة الآن لمغادرة برشلونة بعد فراغه من كتابة رواية خريف البطريرك وإعداده كتابه قصص مجموعة[13]. كان لديه دائماً شعور تعوزه الحماسة إزاء إسبانيا وإن كان مشوشاً إلى حدٍّ ما ومتعالياً في بعض الأحيان. كما أن فكره منشغل الآن بقضايا وأماكن أخرى. وستنطوي لستة المقبلة على تعديل تدريجي بكل من مقر إقامته وموضع اهتمامه، من أوروبا إلى أميركا اللاتينية، ومن الأدب إلى السياسة. في غضون ذلك، كان ماريو فارغاس يوسا الذي وصل إلى برشلونة قبله قد غادرها قبله أيضاً. وفي الثاني عشر من حزيران عام 1974 نظمت كارمن بالسيلس حفلة وداع لفارغاس يوسا الذي قرر العودة إلى بيرو[14]. وحضر الحفلة معظم أدباء أميركا اللاتينية المقيمين في أثناء تلك الحقبة، بمن فيهم خوسيه دونوسو وخورخه إدواردو إلى جانب الكاتالونيين خوسيه ماريا كاستيليه، وكارلوس بارال، وخوان ماريسيه، وخوان ولويس غويتيسولو، ومانويل باثكيث مونتالبان وغيرهم. من المؤكد أن هذه الحفلة كانت مناسبة أشّرت إلى نهاية مرحلة الانتعاش بكل ما فيها من ألق أوروبي بعد أن قرر فارغاس يوسا الرحيل وأعدَّ غارسيا ماركيز عدته للسفر أيضاً[15].

أبحر فارغاس يوسا إلى ليما برفقة زوجته وأسرته تاركاً خلفه عدداً كبيراً من الأصدقاء في برشلونة يأسفون لرحيله، بالرغم من أن كارمن بالسيلس ظلت تمثل نقطة اهتمام.

في أواخر فصل الصيف، اتخذ غارسيا ماركيز ومرسيدس قراراً غريباً، إذ تركا الولدين في برشلونة برعاية أصدقائهما من أسرة فيودنتشي وكارمن بالسيلس والمرأة التي كانت تطبخ وتنظف البيت، وسافرا، وربما للغرابة، إلى لندن. كان غارسيا ماركيز قد قرر أن الوقت قد حان أخيراً لأن يهتم بما كان يعده الإخفاق الكبير الوحيد في حياته، ألا وهو عجزه عن تعلم اللغة الإنكليزية. واقترح هو ومرسيدس على رودريغو وغونثالو أن يمضيا سنتين في لندن. لكن الصبيَّين رفضا رفضاً باتاً، ثم تولتهما الدهشة والامتعاض لإعلان أبويهما أنهما قررا أخيراً السفر وترك ولديهما المراهقين وراءهما[16]. مكث الزوجان مدة من الزمن في فندق كنسنغتون هيلتون،

وهو فندق يعرفانه معرفة جيدة، والتحقا بدورة مكثفة بمدرسة كالان لتعليم اللغة الإنكليزية في شارع أوكسفورد، وكانت المدرسة تضمن نتائج ممتازة في ربع المدة المعهودة بفضل طرائق تدريسها "التي لا تخطئ".

إن تعلم اللغة الإنكليزية – الذي لم يستمرّ على ما يرام – لم يكن شغل غارسيا ماركيز الوحيد. ففي لندن، ويا للغرابة، اتخذت الخطوات الأولى لإعادة تكامله في الثورة الكوبية. وكان منذ قضية بادياّ في العام 1970 قد نُبذ من بين ظهرانيهم أكثر من قبل، لكنه اتصل في لندن بأليساندرو أوتيرو وهو الأديب الذي أدت مواجهته مع هيربيرتو باديا بصورة غير مباشرة إلى المرحلة الأولى من القضية في العام 1968. كان أوتيرو يعرف ريجيس دوبريه ووافق دوبريه على أن يكون وسيطاً بين غارسيا ماركيز ووزير الخارجية الكوبي رافائيل رودريغيث. وأخبر رودريغيث أن الثورة ترتكب خطأ فادحاً بتركها شخصية مهمة مثل غارسيا ماركيز في "طي النسيان السياسي". فوافق رودريغيث ودعا سفير كوبا في لندن غارسيا ماركيز لتناول طعام الغداء وقال لي: "يريد كارلوس رافائيل مني أن أخبرك أن الوقت قد حان لعودتك إلى كوبا"[17].

في بداية إقامة غارسيا ماركيز في لندن، اكتشف وجوده في الفندق عدد من الصحفيين الأميركيين اللاتينيين العاملين في المجلة الأسبوعية فيجون الموالية للولايات المتحدة وتجاهل غارسيا ماركيز معظم أسئلتهم، ولكنه من ناحية أخرى طرح رأياً نافذ البصيرة مثيراً للاهتمام حول انطباعه عن لندن:

> لندن أكثر مدن العالم إثارة للاهتمام: إنها عاصمة مترامية الأطراف، حزينة. عاصمة آخر إمبراطورية استعمارية فقد التصفية قبل عشرين سنة. وفي أثناء زيارتي الأولى لها، كان لا يزال من الممكن أن نرى وسط الضباب أولئك الإنكليز بقبعاتهم (التيولر) المستديرة السوداء والبناطيل المخططة. وكانوا يشبهون في مظهرهم كثيراً أهالي بوغوتا في ذلك الوقت. أما اليوم، فقد لاذوا ببيوتهم في الضواحي، مستوحدين، في حدائقهم الحريبة، بكلابهم الأخيرة، بزهراتهم الذهبية الأخيرة. بعد أن قهرهم ضغط المد البشري الذي لا يقاوم القادم من الإمبراطورية المفقودة. يبدو شارع أوكسفورد كأي شارع في باناما أو كوراساو أو فيرا كروز. وقد جلس هندوس بوماس أمام أبواب متاجرهم المليئة بالحرير والعاج، ونساء سوداوات رائعات بثياب زاهية



> الألوان يبعن الأفوكادو، وسحرة يجعلون كرة تختفي من تحت كوب أمام أنظار الجمهور. وعوضاً عن الضباب تجد شمساً حارة تنبعث منها رائحة الفواكه والتمسيح الغالية وتدخل حانة لاحتساء شراب، كما في حانوت في لاغويرا. فتنفجر فتيلة من تحت مقعدك. وتسمع اللغات الإسبانية والبرتغالية واليابانية واليونانية من حولك. ومن بين كل الذين التقيهم في لندن، فإن الشخص الوحيد الذي كان يتكلم بلغة إنكليزية تخلو من العيوب والأخطاء وبلكنة أوكسفورد هو وزير المالية السويدي. إذاً، لا تتعجب إذا ما رأيتني هنا: في ساحة بيكاديلي أشعر وكأنني في مدخل متجر حلويات في كارتاخينا[15]

قلة من المراقبين توقعوا هوية لمدن المستقبلية بوصفها "مدينة عالمية" بمثل هذا الوقت المبكر وهذا الوضوح. وعندما سُئل غارسيا ماركيز إن كان أي نظام في أميركا اللاتينية يسمح لشرطته أن تكون بلا سلاح كالشرطة البريطانية، قال إن هناك حقاً بلداً واحداً وهو كوبا. وأضاف أن الخبر الكبير في أميركا اللاتينية هو ترسيخ دعائم الثورة الكوبية - وإن كان المراقبون المعادون في ذلك الوقت يعتقدون أن مثل هذا "الترسيخ" يعني السير على غرار "الستالينية" - والتي لولاها لما كان أي تطور من التطورات التقدمية الراهنة ممكناً في القارة بضمنها مرحلة الانتعاش أيضاً. ثم كرر أخيراً رأيه بأنه لن يكتب أي رواية بعد اليوم حتى تطيح المقاومة المتمثلة بالدكتاتورية التشيلية التي يتقفى أفرادها المال من البتاغون. ثمة إحساس واضح في هذه المقابلة أن غارسيا ماركيز كان يحرق السفن ويرفع علم التزامه الاشتراكي. لماذا؟ لأنه كان يعرف جيداً أنه سيعود إلى كوبا.

واصل غارسيا ماركيز محاولاته لكتابة النسخة الأخيرة من رواية **خريف البطريرك**، ومداعبة الأفكار الخاصة بالنصوص السينمائية الراديكالية وذلك في الأوقات التي لم يكن يحضر فيها دروس تعلّم اللغة الإنكليزية في لندن.

ثم جاء أصغر أشقائه إليخيو وزوجته ميريام لزيارته ولزيارة ميرثيديس، وكانا قد انتقلا إلى باريس في شهر أيلول. وأصبح إليخيو وأخوه المشهور غابيتو وثيقي الصلة بالرغم من فجوة السنوات العشرين التي تفصل بينهما. وكان من شأن إليخيو وميريام تمضية فترة الميلاد لعام 1974 في برشلونة مع غابيتو وميرثيديس وولديهما



وفي أيلول عام 1974 تفجّرت مشكلات سياسية داخل هيأة تحرير مجلة النارتيفا ما دفع بفريق أورلاندو فالس بوردا لترك العمل في المجلة. وأخبرني إنريكي سانتوس كالديرون في وقت تال: "كنا نطمح إلى التعددية، لكن الناس سرعان ما انقسموا إلى جماعات متباينة. وعانى غابو معاناة شديدة كل تلك المشكلات وهو يجد صعوبة شديدة في معالجة التوترات الداخلية بين أصدقائه. وسببت كل عودة سريعة له ألماً مُمضّاً، لكنهم حولوه إلى سياسي، ومكّنوه من التنبه إلى واقع الكفاح المسلح، وجعلوه محبوب اليسار"[19].

وفي شهر كانون الأول أجرى غارسيا لقاءً مع عميل السي آي أيه المنشق فيليب أغي الذي ستغدو كشوفاته اللاحقة عن نشاطات المنظمة في أمريكا اللاتينية مبعث دهشة للعالم أجمع[20]. في هذه الأونة، لم يكن هناك أحد يرفض لقاء غارسيا ماركيز. وفي انتخابات عام 1974 الكولومبية، وبعد انتهاء حلف الجبهة الوطنية رسمياً، تولى السلطة ألفونسو لوبيث ميتشيلسين الليبرالي بعد أن حاز على نسبة 8.63 بالمئة من الأصوات المقترعة بالرغم من أن 50 بالمئة من الناخبين اخفقوا في التصويت. وبالرغم من شكوك غارسيا ماركيز بشأن سياسة لوبيث ميتشيلسين، إلا أنه كان سعيداً لرؤيته وقد تبوأ الرئاسة، إذا ما أخذنا في الاعتبار رابطة النسب البعيدة من خلال علاقة أسرة كوتيس بباديّا، وعلاقته الأولى عندما درس الحقوق على يد لوبيث ميتشيلسين في جامعة بوغوتا ومسؤوليات الاشتغال مع رجل يميني رجعياً على وجه التوكيد[21].

أخيراً صدرت رواية **خريف البطريرك** في برشلونة في آذار سنة 1975. وراجت الشائعات في الصحافة الأمريكية اللاتينية ومفادها أن نشر الرواية موقع حتى عرض الكتاب في المكتبات، وكان بذلك أكثر الكتب التي طال انتظارها في تاريخ أمريكا اللاتينية. وقد أصدر الناشر الإسباني بلازا مي خانيس الكتاب بخمسمئة ألف نسخة بغلاف سميك. وفي حزيران سيصدر الناشر نفسه كتاب **قصص مجموعة** ويكون غارسيا ماركيز بذلك قد صفّى حسابه مع قراء أدبه في المرحلة الراهنة. وبالرغم من ذلك، أو ربما بسبب التوقعات الهائلة، كانت مراجعات الكتاب متباينة، بل إن عدداً كبيراً منها كان عدائياً[22]. ولقي الكتاب هوىً في نفوس بعض النقاد



لما فيه من شاعرية ممتازة وبلاغة منوها المفرقة، تتجاوران معاً وتحاكيان أشد فانتاريات أميركا اللاتينية سوداوية في الوقت نفسه. إلا أن آخرين لم يرقهم الكتاب لكثير من الأسباب تتراوح بين بذاءات منسوبة إلى ما فيها من مغالاة مستمرة، مروراً بالافتقار إلى علامات الوقف وانتهاء بموقفه السياسي الإشكالي على ما يبدو. لقد أثيرت هذه الاختلافات على وجه الخصوص في الوقت الذي نشرت فيه الرواية إلا أن الاختلاف الجذري استمر بمرور السنين.

ومع هذا، فإن رواية **خريف البطريرك** هي التي أكدت أخيراً مكانة غارسيا ماركيز بوصفه روائياً محترفاً، إذ أفصحت عن تمكنه من تأليف رواية ضخمة أخرى بعد رواية **مئة عام من العزلة**. كما أن الذين لم ترقهم الرواية، لم يحاولوا إنكار حقيقة أنها مكتوبة بقلم أديب عظيم. وإذا كانت رواية **مئة عام من العزلة** تدل على بعد قاري هائل لا يرقى إليه شك، فإنها لا تزال رواية كولومبية بكل معنى الكلمة. أما رواية **خريف البطريرك**، فهي بخلاف ذلك، رواية أميركية لاتينية كتبها المؤلف وفي ذهنه جمهرة القراء الرمزية، تكاد تخلو من أي بعد كولومبي ذي مغزى ليس أقلها أن كولومبيا لم تعرف قط ذلك الضرب من البطريرك الذي تصوره الرواية: فكولومبيا من الناحية الرسمية بلد "ديمقراطي" على امتداد معظم سني القرن العشرين.

بمعنى من المعاني، تمثل رواية **خريف البطريرك** وليست رواية **مئة عام من العزلة**، الكتاب الحاسم في حياة غارسيا ماركيز بوصفه أديباً لأنها تشتمل على كل مؤلفاته الأخرى خلافاً للانطباعات الأولية. وسواء عُدَّت "أفضل" رواياته أم لا، وهو ما أكده غارسيا ماركيز نفسه غالباً، فإنه ليس صعباً أن نفهم السبب الذي يجعله يعتقد أنها "أهم" رواياته، خاصة إذا ما أضفنا إلى تكوينها الإيجازي اعتبارين آخرين سبقت الإشارة إليهما وهما: توكيدها أن صورة البطريرك هي صورته هو نفسه، وحقيقة أنه كتب الرواية "ليثبت نفسه" مؤلفاً بعد النجاح المدوي الذي حققته رواية **مئة عام من العزلة**. إذاً، يمكن القول إنه إذا كانت رواية **مئة عام من العزلة** تمثل بلا أدنى شك محور حياته (وأهم كتاب قدر ما يتعلق الأمر بالعالم الأرحب وربما بالأجيال المقبلة)، فإن رواية **خريف البطريرك** تمثل محور أعماله: فبعد هذه الرواية تصل، وبالمفارقة، كل الطبيعة المستهلكة لهوسه الأدبي بالسلطة إلى

هابيـهما؛ في اللحظة نفسها التي تعدو فيها السلطة هي الموضوع الأساس في حياته. وهناك سببان اثنان وراء تصريحه بأنه لن يكتب رواية أخرى حتى يسقط بوشيت: أولاً وقبل كل شيء، كان قد عقد العزم على الاتصال بيطريرك أميركا اللاتينية الحسي فيدل كاسترو. لكن، ثانياً، لم يعد أمامه في الوقت الراهن ما هو مهم كي يؤلفه، لأنه أصبح من الممكن ملاحظة أن النصف الأول من حياته بصفته أديباً لم يسته بنشوة روايته مئة عام من العزلة بل بمحنه خريف البطريرك. وبقدر ما يخص الأمر الأدب، فإنه لم يكن متأكداً تماماً من الوجهة التي ستتجه إليها بعد ذلك. هذا السبب ركّز على كاسترو.

كان غارسيا ماركيز في لندن مرة أخرى في ذلك الربيع برفقة أليساندرو أوتيرو الذي يتذكر فيقول: "كنت أتناول طعام العشاء بصحبة غارسيا ماركيز وماتا في صالون السفير جراتري لإبراهيمي عندما دلف أحد الخدم وجاء برسالة عاجلة إلى غابو الذي توجه ناحيه الهاتف. كانت المتحدثة هي كارمن بالسيلس التي وصلت تواً من برشلونة وأحضرت معها النسخ الأولى من رواية خريف البطريرك. وما إن انتهينا من تناول الطعام حتى ذهبنا إلى الفندق الذي نقيم فيه، وهناك سلّمت غابو النسخ الخمس التي صدرت عن المطبعة عصر ذلك اليوم. وعلى جناح السرعة أمسك غارسيا ماركيز بقلمه وكتب إهداءً إلى فيدل وراؤول كاسترو وكارلوس رافائيل رودريغيث وراؤول روا وإلي. وأدركت من تلك الإشارة أنه يحاول أن يعلن عن التزامه على أوضح ما يكون بالثورة الكوبية"[23].

وإذا ما افترضنا أن مفاتحاته كاسترو كانت ناجحة، فإن استراتيجيته الجديدة ستتطلب منه تقديم نفسه على نحو ماهر ومعقد فهو يؤيد الاشتراكية والديمقراطية الليبرالية في وقت واحد من خلال "جبهة التعبئة" الشريفة. وفي مطلع شهر حزيران من العام 1975 سافر جواً إلى لشبونة بخصوص محكمة رسل، وقضية حقوق الإنسان والديمقراطية. لكن الثورة البرتغالية كانت قد اندلعت في نيسان 1974 – وثورة في بلد أوروبي، ربما كل شيء ممكن! وقد تفقدها أول الأمر الجمود. وسيكون تأثيرها في أفريقيا – وكوبا – بعيد المدى مثلما سيكون في غارسيا ماركيز نفسه. والتقى رئيس الوزراء فاسكو كونكالفيس والشاعر خوسيه غومست فيريرا مع

آخرين، وسرعان ما سينشر ثلاث مقالات مهمة في مجلة التريبانيا عن مجرى الأحداث في البرتغال بعد الثورة[24]. وقد أظهر دعمه للثورة البرتغالية وللثورة العسكرية في بيرو التي كانت في أوج مراحلها، وللنظام الكوبي الذي اصطبغ بصبغة عسكرية مكثفة احتجاجاً على السياسة العسكرية. فقد دلّ في لشبونة إلى انتزاع ملكية الصحف في بيرو لا يختلف عن انتزاع ملكية النفط، وتلك قضية كان يدعمها. فهو لم يعتقد شخصياً بالحرية البورجوازية للصحافة التي هي في نهاية الأمر حرية مخصصة للبورجوازيين وحسب"[25]. وهذا ما أثار اهتياج ماريو فارغاس يوسا الذي عاد إلى بيرو.

انطلق غارسيا ماركيز إلى الكاريبي عن طريق مدينة مكسيكو. ولدى وصوله إلى العاصمة المكسيكية تضرع إلى الله ألاّ ينال جائزة نوبل، لكن مجلة إكسيلسيور كانت مضيعة إليه وكان الحصول على هذا مستقبلاً قد زرع في أذهان الآلاف[26]. أما بخصوص الثروة، فقد أفادت المجلة في عددها الصادر بتاريخ السابع عشر من حزيران، أن رواية **مئة عام من العزلة** ورواية **خريف البطريرك** قد حوّلت غارسيا ماركيز إلى رجل ثري جداً[27]. والواضح أنه كان قادراً على تحمل مهنته الأدبية التي فرضها على نفسه، وأنه يستطيع أن يتحمل المخاطرة بشعبيته بحثاً عن مهنته الأدبية.

وفي الكاريبي، بدأ يبحث عن إجابات عن أسئلة باتت تؤرقه الآن. فالحكومة الكوبية تحكمها عصابات ثورية حولت نفسها وعموم الشعب الكوبي إلى جنود. لقد أطيح بالليندي على يد طغمة عسكرية يمينيّة. واليوم، أسقط الجيش في البرتغال أطول دكتاتورية عاشت في أوروبا. فهل الجنود الثوريون - الذين ظهر من بينهم سيمون بوليفار - هم الجواب عن مشكلات أميركا اللاتينية؟ وسافر إلى أميركا الوسطى بحثاً عن إجابة. وفيها لتقى شخصية عاصفة وطائشة هي الثانية بعد فيدل كاسترو التي أثارت إعجاب غارسيا ماركيز: الجنرال عمر توريخوس، دكتاتور باناما الشعبوي منذ عام 1968 وهو من الذين قالوا إن دكتاتورية الشعب للشعب، ولكن ليس بالشعب ضرورية أحياناً في ضوء الظرف الاستعماري الجديد الذي تعيش في ظله أميركا اللاتينية المعاصرة[28]. وسيصبح غارسيا ماركيز وعمر

توريخوس صفيين وحليفين بل أخوين بالدم تقريباً. (وكان توريخوس هو الذي نظر إلى غارسيا ماركيز بعد أن جلس وقرأ رواية **خريف البطريرك** وقال: "هكذا نحن. إننا نشبه ذلك". كان توريخوس شخصية مختلفة كلّ الاختلاف عن شخصية كاسترو (اسدي تصرفاته "الشعبية"، كما يقول البعض ساخراً، تصرفات رافضه تحديداً) وكان قد بدأ حملة تاريخية لاستعادة قناة بناما للبناميين وشرح لغارسيا ماركيز عن مفاوضاته مع الولايات المتحدة الأميركية للتوصل إلى معاهدة جديدة بشأن القناة والشروط التي سيوافق والتي لن يوافق عليها. وكما أوضح غارسيا ماركيز، فإنه مما لا يلائم الولايات المتحده الأميركية في الأقل، حدوث تمرد عسكري في بلد توجد فيه مدرسة الأمريكيين التي تديرها الولايات المتحدة، "والتي يتعلم فيها جنود القارة كيف يحاربون تمرد شعوبهم". وأخبر توريخوس صديقه الجديد أنه على استعداد لتحمل كل النتائج لاستعادة القناة وللقضاء على الاستعمار في بلاده

كان غارسيا ماركيز مهتماً ببناما اهتماماً خاصاً، فهي ليست جزءاً من كولومبيا وحسب، وذلك قبل تشجيع الإمبريالية الأميركية انفصالها عن كولومبيا، بل هي أيضاً البلد الذي سافر فيه جده نيكولاس ماركيز أيام شبابه واقتنى أثر واحدة من أهم قصص غرامه. كان ممكناً لرجل مثل توريخوس أن يولد في باراتكيا؛ حقاً، إنه يذكرنا من أوجه متعددة. بل يشبه من حيث المظهر والسلوك صديق غارسيا ماركيز الراحل ألفارو سيبيدا. وعلى جناح السرعة يعقد الرجلان صداقة تستند إلى جاذبية عاطفية عميقة تحولت بمرور الأيام إلى محبة ولم يكن غارسيا ماركيز وحيداً في هذا الشأن فقد طور الكاتب الإنكليزي البارد كالثلج غراهام غرين علاقة وثيقة مع الزعيم البنامي وكتب كتاباً مكشوفاً عن عملية "التعرف إلى الجنرال"

لكن توريخوس كان شخصية ثانوية مقارنة بفيدل كاسترو الذي أصبح آنذاك واحداً من أعظم الشخصيات السياسية في القرن العشرين. ويسهل تصور مدى جاذبية فكرة التعرف إلى كاسترو بالنسبة إلى إنسان مهووس منذ سن مبكرة بفكرة السلطة مثل غارسيا ماركيز. وفي رواية **خريف البطريرك** ثمة توازيات لا يرقى إليها

الشك. فالرواية التي صدرت قبل زيارة غارسيا ماركيز الأولى إلى كوبا منذ أربع عشرة سنة، تصف لنا دكتاتوراً مهووساً بمشروعات فلاحية لا سيما تربية الماشية، لكنه بالرغم من ذلك، يتمتع بيدين ناعمتين مثل أيدي الفتيات ومعه خاتم السلطة تشير هاتان اللقطتان إلى فيدل. قد تكون بعض الإشارات مصادفة محضة، لكن هناك إشارات غيرها تقبل الجدل. "شيّد أكبر ملعب للعب كرة البيسبول في الكاريبي، وخلع على فريقنا شعار النصر أو الموت".

كذلك يغير البطريرك تغييراً اعتباطياً التواريخ والأزمنة، بل حتى يُلغي أيام الآحاد تماماً مثلما سيلغي فيدل كاسترو نفسه في نهاية الأمر ذكرى الميلاد ليحييها بعد ذلك بسنوات. وكما هو شأن فيدل، فإن دكتاتور غارسيا ماركيز يطوف على نحو غير متوقع في السنوات الأولى من سلطته في جميع أرجاء البلاد ويفتش بنفسه الأشغال العامة، أو يعمل على تعطيلها مما يكسبه شعبية دائمة. ولهذا لا يوجه إليه الشعب اللوم على ما حلّ به من مصائب: "في كل مرة يسمعون فيها عن عمل جديد وحشي يتنهدون من أعماقهم: آه لو علم الجنرال!". وفي آخر الأمر، وبعد أن يستولي الأميركيون على البحر - وهو ما يمكن تفسيره على أنه "الحصار" المفروض منذ خمسين سنة تقريباً، والذي قاومه الشعب الكوبي مقاومة بطولية - يفكر البطريرك: "علي أن أتحمل وطأة هذا العقاب بمفردي. لا أحد يعرف أفضل. أن الأفضل أن نكون بلا بحر على أن نسمح بنزول جنود المارينز". المفارقة القاسية هي أن الصورة تنطبق انطباقاً متزايداً على كاسترو بعد مرور خمس وعشرين سنة على كتابة الرواية. فقد حُرم هو الآخر، بسبب الحصار، من "البحر"، كما أنه يرأس نظاماً أخذ يتآكل أمام أنظار العالم كله، على حين يظهر هو شخصاً هادئاً، رابط الجأش، وإن كان أشد أعدائه تطرفاً ينظرون إليه على أنه "مسخ".

في العام 1975 يبدأ كاسترو مرحلة من أكثر مراحله نجاحاً. فنظامه يمر باللحظة "الستالينية" التي اشتملت على قضية بادييّا، ويبدأ على الفور بإطلاق حملته العسكرية التاريخية والجريئة في أفريقيا. ففي سنة 1975 أعادت أربع عشرة دولة من دول أميركا اللاتينية علاقاتها الدبلوماسية مع النظام الحاكم في الجزيرة بما فيها كولومبيا التي كانت قد قطعتها إبان حكم رئيسها ألبيرتو ييراس في عام 1961.

وعـــادت عاســـأنفسها في السادس من آذار وهو يوم ذكرى ميلاد غارسيا ماركيز الثامـــنه والأربعـــون. لا بد من أن القرار الذي اتخذه لوبيث ميتشيلسين بدا مديراً استثنائياً آخـــر لغارسيا ماركيز الذي كان قد اتخذ قراره السري بإعادة تأسيس علاقات مع الثورة الكوبية ووصل إلى بوغوتا قبل أربعة أيام من ذلك.

وفي شـــهر تموز حانت اللحظة أخيراً وسافر إلى كوبا برفقة رودريغو. وأخيراً عـــاد، ووفـــرت لهمـــا السلطات كل التسهيلات الضرورية للسفر في طول البلاد وعرضـــها، يذهـــبان حيث يعجبهما الذهاب ويتحدثان إلى مَن يشاءان. ويلتقط رودريغـــو أكثـــر من ألفي صورة ويتذكر غارسيا ماركيز قائلاً: "كنت أفكّر في الكـــتابة عـــن كيفية تحطيم الكوبيين الحصار من داخل منازلهم. ذلك ليس عمل الحكـــومة أو الدولـــة، بل الشعب نفسه الذي حلّ مشكلة الطبخ والغسل وخياطة الثـــياب، باختـــصار، حل كل المشكلات اليومية"[29]. وفي شهر أيلول نشر ثلاثة موضـــوعات لا تُنسى تحت عنوان رئيس: "من أقصى كوبا إلى أقصاها" مزج فيها بين العرفان الكبير والنقد لقليل بأسلوب يوضح للسلطات أن هناك لاعباً ثورياً في دورٍ كبير، مأمون اليدين على نحو لم يسبق له مثيل[30].

لتأم شمل الأسرة كلها في أثناء فصل الصيف في المكسيك. فقد وجد غارسيا ماركيز ومرثيديس مـــنزلاً في كايي فيغو (شارع النار) الواقع في منطقة بيدريغال ديـــل آخل خلف الخامعة الوطنية جنوبـــي العاصمة ولا يزال هذا البيت المتواضع مقـــر إقامـــتهم الرئيس على مدى أكثر من ثلاثين سنة. وكان لا بد من بدء بعض جسور الأسرة، ولعل هذا هو السبب الذي حدا بغارسيا ماركيز إلى أن يصطحب رودريغـــو معـــه إلى كوبا في وقت ربما كان من شأنه أن يشكل عائقاً له ويخبرني رودريغو عن العودة إلى المكسيك فيقول: "حقاً، لقد أصبحت المكسيك البلد الذي بقيـــنا نرجع إليه دائماً وليس إلى كولومبيا، فإن والديَّ أصبحا مكسيكيين في تلك السنوات الممتدة من عام 1961 وحتى عام 1965"[31].

سمحـــت العـــودة إلى المكسيك للصبيين بتأكيد هويتهما على المدى البعيد وإعادة بنائهما. ولم يشعر أي واحد منهما أنه كولومبـــي أو إسباني، لكن علاقتهما بالمكســـيك انقطعت على نحو بات، إذ قرر رودريغو أن يستقل بنفسه ويشق طريق



حـــياته من دون الاعتماد على اسم غارسيا ماركيز، وسنراه في نهاية المطاف يرحل عن البلاد. أما غونثالو، وهو الابن الأصغر سناً، فمن يكون مفرطاً في حساسيته في هذا المجال، لكنه كان يفضّل أيضاً أن يشق طريقه بنفسه من دون اعتماد كبير على شـــهرة والده على صعوبة ذلك في المكسيك. مرة أخرى، التحق الصبيان بمدرسة إنكليزية لإكمال تعليمهما الثانوي.

في غـــضون ذلـــك، انفجرت قنبلة في بوغوتا، في مكاتب مجلة ألترناتيفا في تشرين الثاني سنة 1975. ونُسب الحادث إلى عضو في لجنة أمن أهلية، وكما أخبرني إنريكـــي ســـانتوس كالديرون، "في الوقت نفسه الذي كنا فيه نشجب مشكلات الفساد في قمة الجيش"[32]. وبالرغم من أن غارسيا ماركيز كان سالماً على نحو لا يمكن إنكاره في المكسيك، إلا أنه أصدر بياناً بكل شجاعة أعلن فيه أن الصلة تبدو من تدبير الجيش الكولومبـــي، ولا بد من أنها قد جاءت من المراجع العليا. وأضاف أنـــه من الواضح أن رفض لوبيث متشيلسين إغلاق المجلة دفع العسكر للإقدام على هـــذا العمـــل. لكـــن حماسته السابقة للجنود لم تمتد إلى النوع الكولومبـــي، بل حـــدّدت بالاســـم تحديداً استمرارياً وزير الدفاع الجنرال كاماتشاو ليفا على أنه المتـــورط شخـــصياً في هـــذه الســـياسات القمعية. ولهذا، لم يغفر له العسكريون الكولومـــبيون، كمـــا لم ينـــسوا شكوكهم في أن القائمين على مجلة ألترناتيفا قد تعاطفوا، وربما تواطأوا مع عصابات أم – 19 وهم مجموعة الثوار من الطبقة الوسطى والمجموعة التي سرقت رمزياً سيف سيمون بوليفار عام 1974.

ومـــع هذا، كان العالم يتغير تغيراً سريعاً، نحو الأفضل كما يبدو. فقد أصيب الجنرال فرانكو بنوبة قلبية حادّة في الحادي والعشرين من شهر تشرين الأول، وتبوأ الأمـــير خوان كارلوس مقاليد الحكم. ويذكر أن نظام فرانكو كان قد نفذ حكم الإعدام بخمسة متشددين من إقليم الباسك في السابع والعشرين من أيلول بالرغم من الاحتجاجات التي شملت العالم أجمع (ووصف السويدي أولوف بالمه أعضاء الحكومة الإسبانية بأنهم "قتلة دمويون"). وفي العشرين من تشرين الأول، توفي أخيراً فرانكو وعمت الفرحة أوساط اليسار في جميع أنحاء الكرة الأرضية. ونُصّب خوان كارلوس ملكاً على البلاد في الثاني والعشرين من الشهر نفسه، وبعد ثلاثة أيام أعلن عن عفو



عـــام، وهذا توشك إسبانيا أن تنتقل إلى مرحلة الديمقراطية مغيّرةً تغيّراً جذرياً. وفي العاشـــر من تشرين الثاني استقلت أنغولا عن البرتغال وسط صراع دموي: فالقوى الماركسية في الحزب الحاكم، وهو حزب الحركة الشعبية لتحرير أنغولا التي يدعمها الخبراء الـــروس، اصطفّت ضد حزب الاتحاد الوطني للاستقلال الكامل لأنغولا المدعـــوم من الولايات المتحدة والذي يترأسه يوناس سافيمبـــي. وفي الحادي عشر مـــن تشرين الثاني، أعلنت كوبا قرارها إرسال آلاف الجنود إلى أنغولا حيث ظلوا فيها ثلاث عشرة سنة. وكانت تلك فرصة غارسيا ماركيز ليظهر ما يمكن أن يفعله صحافي كبير من أجل الثورة.

* * *

غير أن سلوك غارسيا ماركيز الذي يتمثل بالاستحواذ على الاهتمام، ما كان ليعجب كل فرد. ففي الثاني عشر من شهر شباط سنة 1976، كان غارسيا ماركيز مقـــيماً في مدينة مكسيكو، فذهب لمشاهدة العرض الافتتاحي لشريط السينمائي المقتبـــس عن رواية **الناجون من الأنديز**. ولدى وصوله، كان ماريو فارغاس يوسا الـــذي جـــاء إلى المديـــنة لمشاهدة العرض - إذ كان هو كاتب النص - يقف في الردهة. ففتح غابو ذراعيه وهتف. "يا أخي!"، لكن ماريو، الملاكم الهاوي الممتاز، ســـدد إلـــيه لكمة عنيفة على وجهه فسقط على رأسه على الأرض. كان غارسيا ماركيز شبه واعٍ عندما صاح ماريو معتمداً على مصدر الخبر: "هذه بسبب ما فعله لباتريشيا"، أو "هذه بسبب ما فعلته لباتريشيا". وأصبحت تلك اللكمة هي الأشهر في تـــاريخ أميركـــا اللاتينية، ولا تزال موضع توقّعات كثيرة حتى يومنا هذا. هناك العديـــد من شهود العيان، كما أن هناك تفسيرات كثيرة أيضاً لا عمّا حدث فقطُ وحسب، بل عمّا لم يحدث أيضاً[33].

يقـــال إن زواج فارغـــاس يوسا مرّ بلحظة صعبة في أواسط سبعينيات القرن العشرين، فأخذ غارسيا ماركيز على عاتقه طمأنة زوجة ماريو التي كانت على ما يـــبدو مـــستاءة، ومشوشة الفكر. يقول البعض إن غارسيا ماركيز نصحها بالبدء بإجـــراءات الطـــلاق، على حين يقول آخرون إن الطمأنة التي قدمها إليها كانت مباشرة أكثر. فاستنتج ماريو أن غارسيا وباتريشيا يوسا هما وحدهما اللذان يعرفان

ما حدث أو ما لم يحدث[34]. كما أن باتريشيا يوسا وحدها تعرف ما قالت لزوجها عندما التأم شملهما من جديد، أي إنها هي وحدها التي تعرف القصة كاملة[35]. أما بخصوص ميرثيديس، فإنها لن تغفر ليوسا ما فعله، كما لن تنسى ما وصمته بالتصرف الجبان والمشين بصرف النظر عن سببه.

يشكل مزيج السياسة والحسد والخصومة الشخصية كوكتيلاً قوياً بصرف النظر عن الكميات الممزوجة منها. ربما كان وراء شعور ماريو يوسا الواضح بالخيانة قلق من أنه لم يعد باستطاعته تحمل الكولومبي الصغير المفتقر إلى الجاذبية. الحق أن نجاح ماريو الأدبي الاستثنائي الذي يستحقه بكل معنى الكلمة وطلعته البهية لم يكونا كافيين وحدهما. إذاً، ربما لم يبقَ لديه أي سلاح آخر يستعمله سوى لكمته القوية، ولعله لم ينجح فيها إلا بسبب عنصر المفاجأة الذي انطوت عليه: وبصرف النظر عن الأسلوب الجيد الذي يكتب به ماريو، وبصرف النظر عن الدعاية الكبرى التي كان يحظى بها، فإن أكثر ما كانت الصحف والجمهور يريدان سماعه هو عن غارسيا ماركيز نفسه. وبصرف النظر عن شعور ماريو بأن لديه ما يسوّغ له رفض كاسترو وكوبا، فإن غارسيا ماركيز ظهر سالماً، غير مصاب بأذىً غير الذي تطاير بعد قضية باديًا، وأضحى البطل الأدبي الذي لا يضاهيه أحد لليسار في أميركا اللاتينية. لا بد من أن هذا الواقع كان مثيراً للإحباط جداً[36]. ولن يلتقي الرجلان بعد ذلك مرة أخرى.

عاد غارسيا ماركيز إلى كوبا في شهري آذار ونيسان وكان قد حظي بإعجاب منقطع النظير في جميع أرجاء العالم بسبب مقالاته التي كتبها عن الانقلاب العسكري التشيلي، ولا بد من أن يكون قد شعر بأنه أديب موهوب وأنه لمن الحمق أن يتجاهله فيدل كاسترو. لهذا، قرر أن يقدم إلى الزعيم الكوبي عرضاً لا يستطيع رفضه. واقترح على كارلوس رافائيل رودريغث أن عليه أن يكتب القصة الملحمية للحملة الكوبية في أفريقيا، وهي المرة الأولى التي تقحم فيها دولة من دول العالم الثالث نفسها في صراع تورطت فيه دولتان عظيمتان من العالم الأول والعالم الثاني. وفي ضوء تاريخ كوبا الذي انطوى على العبودية والاستعمار، فقد كانت حركات التحرر الأفريقية في تلك الحقبة تمثل اهتماماً خاصاً لكوبا. كما أن بلسون

مانديلا بعينه هو الذي سيحكم بأن كوبا أسهمت إسهاماً مهماً، وربما حاسماً، في الإطاحة بنظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا.

نقل وزير خارجية كوبا فكرة غارسيا ماركيز إلى فيدل كاسترو وانتظر الكولومبي شهراً في فندق ناسيونال في هافانا اتصالاً من القائد[37]. وعند الساعة الثالثة من بعد ظهر أحد الأيام، حضر كاسترو بنفسه يقود سيارة من طراز جيب كي يجلس غارسيا ماركيز، الذي اصطحب ابنه غونثالو، إلى جانبه. انطلقوا صوب الريف، وتحدث فيدل ساعتين عن الغذاء. يتذكر غارسيا ماركيز قائلاً:

سألته: من أين لك كل هذه المعلومات عن الغذاء.

فردَّ: أيتها النبتة المكسيكية، عندما تكون مسؤولاً عن إطعام شعب بأكمله، إذاً، لا بد من أن تفتش عن الطعام

وكما هي حال العديد من الناس من قبله ومنذ ذلك الوقت، فإن غارسيا ماركيز تولاه الذهول مما رآه من حب كاسترو المدهش للحقائق وقدرته الهائلة على سرد التفاصيل. لعله كان يتوقع مثل هذا الكلام وهو يصغي إلى خطابات الزعيم العظيم غير المكتوبة التي تستغرق ثماني ساعات، لكنه لم يكن مُهيأً لحادية كاسترو الشخصية ومحاملة اللتين في وسعهما إضاءة حجرة تضم عشرين أو ثلاثين فرداً، وليس إصابة هذا الحديث الذي يجري على انفراد بين شخصين اثنين وحسب.

بعد انتهاء الرحلة قال فيدل: "ادعُ ميرثيديس أن تأتي ثم تحدّثْ إلى راؤول".

وفي اليوم التالي وصلت ميرثيديس، لكنهما انتظرا شهراً آخر بأكمله حتى تصل بهما راؤول. كان راؤول قائد القوات المسلحة، كما أنه هو الذي قدّم إيجازاً إلى غارسيا ماركيز قال عنه غارسيا نفسه: "في حجرة تحتشد بالخبراء والخرائط، بدأ يكشف عن الأسرار العسكرية وعن أسرار الدولة على نحو أثار دهشتي. وجاء الاختصاصيون حاملين برقيات مشفرة، وفكوا شفراتها وشرحوا كل شيء لي: الخرائط السرية والعمليات والتعليمات وكل شيء، دقيقة بدقيقة. بقينا على تلك الحال من الساعة العاشرة صباحاً حتى الساعة العاشرة ليلاً. ثم أعطوني لائحة تضم أسماء كبار الشخصيات وتعليمات لهم بالتحدث إليّ بكل حرية. جمعت المادة كلها وسافرت إلى المكسيك وكتبت وصفاً كاملاً لما اصطلح عليه تسمية "عملية كارلوتا"[38].



بعد أن فرغ غارسيا ماركيز من كتابة المقالة أرسلها إلى فيدل "ليكون بذلك أول من يقرأها". وبعد مرور ثلاثة أشهر، لم يحدث أي شيء، فعاد غارسيا ماركيز إلى كـــوبا للتبحث. وبعد التشاور مع كارلوس رافائيل رودريغيث، نقّح ما كان مكـــتوباً و"أوضح أسئلة مهمة، وأضاف تفاصيل كانت ناقصة". ثم نشر المقالة في وقت واحد في جميع أنحاء العالم، فاغتبط الأخوان كاسترو. وأحرز غارسيا ماركيز أول انتـــصاراته الـــثورية، أو "أضحى تابعاً لفيدل كاسترو" على حدّ وصف ماريو فارغاس يوسا.

لم يبعث غارسيا ماركيز السرور في نفس فيدل وحسب، بل تلقى أيضاً جائزة الـــصحافة الدولـــية مـــن منظمة الصحافة العالمية عن مقالاته التي كتبها عن كوبا وأنغـــولا. ويمكن الادعاء أن ما من أحد أدرك أن لغارسيا ماركيز ثلاثة مساعدين بـــارزين. كمـــا أن غارسيـــا ماركيز ظل برهة من الزمن، بعد أن اختشى بصداقته الشخصية مع أهم شخصية في تاريخ أميركا اللاتينية الحديث، يقول للصحافيين إنه لا يرغب في الحديث عن كاسترو لأنه يخشى أن يبدو متملقاً ذليلاً؛ لكنه سيهذر في كـــل موضـــوع بعد ذلك. وكانت عباراته قد أثارت المنفيين الكوبيين في ميامي وغيرها.

استمر غارسيا ماركيز في بحثه وتثقيفه الذاتي بوصفه مدافعاً مطلعاً عن الثورة الكوبية. لعله أنهى كتابه عن الحياة اليومية في ظل الحصار، وإن ظل يستخدمه غطاء بعـــض الوقت. لقد أدرك منذ البداية أن قضية حقوق الإنسان والسجناء السياسيين ســـتكون قـــضية حاسمة يقدمها بوجهه أعداؤه. لكن عندما بدأ الأميركيون في ظل إدارة نيكـــسون وكيسنجر الهجوم بلا هوادة في تعاملهم مع الحركات التقدمية في أميركـــا اللاتيـــنية، وانطلقوا في تدريب الأنظمة العسكرية على "وسائل أمنية" بما في ذلـــك الاغتيال والتعذيب والتضليل الإعلامي، وبعد أن تحالف غارسيا ماركيز مع كوبا بزعامة كاسترو، فقد احتاج إلى أن يوثق نفسه في قضايا تخص السجون؛ حتى إن كان مثل هذا التوثيق يعني بذل ما ينبغي له بذله لإقناع نفسه أن الوضع مقبول ولا بـــد من مساندته في كل الظروف (بدأ يتعلم الشيء الكثير عن أنظمة السجون من خلال عمله مع محكمة رسل). وفي الوقت نفسه، ويا للمفارقة، أصبح للولايات



المتحدة الأميركية رئيس جديد هو جيمي كارتر المروّج المبادي لحقوق الإنسان مبادئاً بدت صادقة. وهكذا، فقد علم بيكسون غارسيا ماركيز أن حكومة الولايات المتحدة لن تتغير، لكن كارتر علّمه أن العلاقات العامة والديبلوماسية والدعاية أصبحت اليوم جزءاً حيوياً في الصراع الإيديولوجي على المسرح العالمي. واقتنع غارسيا ماركيز أن المعارضة الخارجية كانت تريد من كوبا حقاً أن يكون لها سجناء سياسيون كي تواصل شن هجماتها عليها، وقد اعتقد، ولعله اعتقاد صادق، أن على البلاد أن تخفض أعداد مثل هؤلاء السجناء إلى حدّ يقترب من الصفر إن أمكن. وسيكون هذا جزءاً كبيراً من مسعاه في السنوات التالية. كما أنه سيحوّل بمرور الوقت اهتمامه بالتشدد في مجلة الترناتيفا وبالدفاع عن التدخل الكوبي في أفريقيا إلى الاهتمام بالدبلوماسية العملية، ومن ثم إلى الدفاع الوقائي عن سلامة السيادة الكوبية بعد أن ازدادت الأمور صعوبة.

في أواخر سنة 1976 استعد غارسيا ماركيز للحديث إلى السجناء المناهضين للثورة الذين يمضون مُدداً طويلة في سجن باتانابو. واختار اعتباطاً من بين القضايا الواردة في اللوائح قضية رينول غونثاليث وهو زعيم معارض عمل من خلال حركة النقابات العمالية المسيحية، وكان كاثوليكياً ملتزماً، وبالتالي ديمقراطياً مسيحياً"[39]. وكان قد اعتقل في العام 1961 بتهمة التآمر لاغتيال فيدل كاسترو باستخدام سلاح البازوكا قرب مطار رانشو بوييروس، وبإضرام النيران في مركز التسوق إل إيكانتو في هافانا، واغتيال موظف حكومي يدعى في دل فالي. ويعترف غونثاليث في ما بعد أن تلك الاتهامات صحيحة. وبعد أن تحدث غارسيا ماركيز إلى غونثاليث في باتانابو، اتصلت به نيريسيت ألفاريز زوجة غونثاليث في مدينة مكسيكو وطلبت منه المساعدة على تأمين إطلاق سراح زوجها. فتأثر غارسيا ماركيز بتوسلاتها ورأى أن ثمة إمكانية لمبادرة رابحة، وعقد العزم على أن يُكلم كاسترو، إلا أنه التقاه أربع أو خمس مرات من دون أن يتجرأ على طرح الموضوع.

أخيراً، اصطحبه كاسترو واصطحب معه أيضاً ميرثيديس في رحلة بسيارته الجيب. يتذكر غارسيا ماركيز قائلاً إنهم كانوا في طريق العودة "في عجالة إلى حدّ ما، وكنت قد دوّنت ملاحظات على بطاقة أردت أن أطرحها عليه. لكن



فيدل ضحكت بدقة في كل ملاحظة وقال *هذه، نعم، وتلك لا، وستفعل هذا، وستفعل ذاك*. وعندما أجاب عن الملاحظة السادسة كما داخل النفق المؤدي إلى هافانا، فسألني: *وما الملاحظة السابعة*؟ لكن لم تكن هناك ملاحظة سابعة على الطاولة، ولا أدري إن كان الشيطان قد وسوس في أذني، لكنني قلت في نفسي: *قد تكون هذه هي اللحظة المناسبة*. إن الملاحظة السابعة مدونة هنا، لكنها مشوشة. فقال: *لا بأس. أخبرني ما هي*. فقلت له كأنني أرمي نفسي عن ظهر طائرة بمظلة: أتدري؟ ستكون الأسرة مسرورة جداً لو تمكنت من اصطحاب رينول غونثاليث، بعد إطلاق سراحه، إلى المكسيك لتمضية الميلاد مع زوجته وأطفاله. لم أنظر إلى الخلف، لكن فيدل رمى ميرثيديس من دون أن يرنو إليّ وسأل: *لكن ما السبب الذي يجعل ميرثيديس تسر هكذا*؟ فما كان مني إلاّ أن أجيب عن سؤاله، من دون أن أدير بصري إلى الوراء، من دون أن أشاهد الملامح التي علت وجه ميرثيديس، وقلت: لأنها ربما تحتفي بي إذا ما اصطحبت رينول غونثاليث، ثم بدأ غارسيا حملاً قدرة ضد الثورة، فإنك ستظن أنني قد أفسدت كل شيء، غير أن فيدل أجاب موجهاً كلامه إلى ميرثيديس وليس إليّ: *انظري إليّ يا ميرثيديس، إنني وغابرييل سنفعل ما نعتقد أنه صواب، لكن إذا ما تبين أن هذا الرجل نذل وخسيس، فتلك مشكلة أخرى*. ولدى العودة إلى الفندق، وبخت ميرثيديس ثقة الرأي دوماً زوجها على سماجته، إلاّ أن غارسيا ماركيز كان جذلاً. ومع هذا، مرّ الشهور، وقال كاسترو إنه لم يتمكن من إقناع زملائه في مجلس الدولة، ثمة قضايا شائكة في القصة وما على غارسيا ماركيز وغونثاليث إلا التحلي بالصبر"[40].

في غضون ذلك، شهد شهر آب عام 1977 أول اتصال مهم بين غارسيا ماركيز وأحد الاشتراكيين الأوروبيين الذي سيثبت أنه مصدر حاسم وصديق على مدار السنوات التالية: فيليب غونثاليث زعيم الحزب الاشتراكي الإسباني الذي كان قد انتخب في الخامس عشر من حزيران نائباً عن مدريد في أول انتخابات إسبانية منذ إحدى وأربعين سنة، وهي الانتخابات التي أصبح فيها أدولفو سواريث رئيساً للوزراء لحزب يمين الوسط الحاكم، وكان الشيوعي الأسطوري المتشدد لا باسيوناريا قد عاد إلى إسبانيا للمرة الأولى منذ الحرب الأهلية بسبب هذه

الانسحابات. وفي أواخر شهر آب، كان غونثاليث المحامي في بوغوتا، وسمح بمقابلة صحافية لكل من أنطونيو كابايرو (رئيس التحرير)، وإنريكي سانتوس كالديرون (المدير)، وغارسيا ماركيز (مستشار التحرير) في مجلة ألترناتيفا. وكانت المقابلة بعنوان "فيليب غونثاليث: اشتراكي جاد"[41]. كانت سياسة الحزب الاشتراكي الإسباني في أميركا اللاتينية تتلخص في دعم كل الأنظمة الشعبية في دول ديمقراطية تقريباً، ودعم حركات التحرر في دول غير ديمقراطية: "إننا موحدون بهدف تصفية الأنظمة التي تعرقل الإيقاع الديمقراطي". ولم تتضمن المقالة أفكار غونثاليث عن كوبا، وهو موضوع كان من شأنه أن يتسبب في متاعب بينه وبين غارسيا ماركيز على مدى سنين[42].

ربما بدأت تلك المقالة تقرع العديد من الأجراس في رأس غارسيا ماركيز. ولم يمض وقت طويل حتى ينهمك مع عدد من أعضاء الاشتراكية الدولية المعتدلة والديمقراطية، على ارتيابه بمعتقداتهم ونشاطاتهم، بدءاً بصديقه الودود كارلوس أندرياس بيريث رئيس جمهورية فنزويلا الذي ينحدر والداه من أصول كولومبية، مروراً بفرانسوا ميتران رئيس جمهورية فرنسا، وفيليب غونثاليث نفسه. وكان ميتران وغونثاليث قد تابعا عن كثب فوز آليندي ومصرعه؛ - لكن أوروبا مختلفة على وجه التأكيد. وفي كانون الأول، جرى نقاش حاد في باريس بين غارسيا ماركيز وريجيس دوبريه ذلك الثوري الذي كان يفكّر في المسار الديمقراطي (الذي سيسلكه من خلال حكومة فرانسوا ميتران). كان دوبريه في تلك الآونة عضواً في الحزب الاشتراكي الفرنسي، وقد سأله غارسيا ماركيز إن كان لا يزال "اشتراكياً حقيقياً"، وما رأيه في تصور الثورة في أميركا اللاتينية[43]. يبدو مرجحاً أكثر أن غارسيا ماركيز كان منذ هذه اللحظة في طريقه للخروج من مجلة ألترناتيفا بحثاً عن دور آخر، وسيكون ذلك الدور مزدوجاً: الأول في أميركا اللاتينية، والثاني في أوروبا. مرة أخرى، كان غارسيا ماركيز يبحث عن فسحة للمناورة.

في مطلع شهر حزيران كان قد نشر مقالة أخرى عن صديقه عمر توريخوس، وكان قد أشار إليه في عنوان أحد أعماله "للجنرال توريخوس من يكاتبه"[44]، وهو من شأنه أن يطرح سؤالاً عن غارسيا ماركيز يومذاك ومستقبلاً هو: أتراه يكتب



عــن رجــال السلطة، إلى رجال السلطة، أم من أجلهم؟ وكما في كوبا، فقد بدأ يتطــرق إلى قضية حقوق الإنسان في باناما، مقدماً نفسه على أنه وسيط أمين بين الواقــع والقارئ (تماماً مثلما سيحاول التوسط بين كاسترو وتوريخوس من جهة، وغونثالــيث وبيتــران من جهة أخرى). وهكذا قدّم عرضاً في معرفة حالة السجناء الــسياسيين المزعومة في بانما – إذ وُجهت الاتهامات أكثر من مرة إلى توريخوس بضلوعه في أعمال تعذيب وعرض التوسط بين نظام توريخوس والبانامين المنفيين في المكسيك. وفي شهر آب نُشرت مقالة رئيسة أخرى لغارسيا ماركيز عن الزعيم البانامــي ومفاوضــاته مــع الولايات المتحدة الأمريكية والتهديدات التي تكتنف حياته[45]. وقد أشار غارسيا ماركيز إلى توريخوس على أنه عنيد وشجاع، وحصيف مــدهش ومفــاوض ذكــي، وإنســان ومحــبوب إلى أبعد الحدود وسط الناس الاعتياديين[46].

أخــيراً، وُقعت الاتفاقية الجديدة لقناة باناما في السابع من أيلول سنة 1977 في مدينــة بانامـا. وكان من بين أعضاء الوفد البانامي عضوان إضافيان هما غراهام غرين وغابرييل غارسيا ماركيز اللذان سافرا بجوازي سفر بانامِيَّين، واستمتعا كثيراً بالرحلة كأنهمــا تلميذان كبيران[47]. وأعجبا على وجه الخصوص لأن مظهرهما الذي شابه مظهــر بينوشــيت الوضيع. وفي شهر تشرين الأول صادق البانامیون على الاتفاقية الجديــدة باستفتاء عام، بالرغم من أن الولايات المتحدة ظلت تدخل تعديلات عليها، وأخيراً صدقت على النسخة المنقّحة في الثامن عشر من نيسان عام 1978.

في العــام 1977، بدأت أسرة غارسيا ماركيز أخيراً باعتاد التدبير إزاء حتميه الانفــصال بعد أن كبر الصبيّان وبدأ كل واحد منهما ينهج نهجه الخاص في الحياة. صــحيح أن غابــو ومیرثیدیس كانا قد تركا ولديهما عامي 1974 و1975 قبل أن يتمكن الولدان من تركهما، لكن في تلك الفترة كانت الأسرة لا تزال تملك بيتها، وإن كــان بيتاً مؤقتاً في برشلونة حيث كان في استطاعة كل واحد منهم أن يرجع إلــيه علــى نحــو طبيعي. أما الآن، فالولدان في طريقهما لمغادرة المنــزل، وكان رودريغو بخاصة في طريقه إلى مدرسة تعلم الطبخ في باريس، على حين كان غونثالو يفكّر في اللحاق به ولكن لدراسة الموسيقى.



كـان غارسـيا ماركيز ينتظر طوال هذا الوقت بتأنٍ عن مبادرته بشأن ريبول غوتنالـيث. وأخيراً، في كانون الأول 1977، بدأت الأمور تتطور[48]. ففي حفلة اسـتقبال في هافانا أقيمت على شرف رئيس وزراء جامايكا ميشيل مانلي، اقترب فـيدل كاسـترو من غارسيا ماركيز وقال له: "حسناً، في وسعك أن تصطحب ريـنول". وبعـد ثلاثة أيام وصل غارسيا ماركيز وريبول غوتناليث، الذي تولاه العجـب، إلى مدريد حيث التحقت به على الفور زوجته تيريسيتا. وفي مطلع شهر كانـون الـثاني عام 1978 التقى غارسيا ماركيز وميرثيديس ورودريغو بغوتنالث وأسـرته في برشلونة حيث استمعوا مفصلاً إلى تجاربه المرعبة في السجون الكوبية. وفي الخـامس عشر من كانون الثاني، سافرت أسرة غوتنالث جواً إلى ميامي. وفي وقـت لاحـق، يبرهن غوتناليث على صحة استراتيجية غارسيا ماركيز وموافقة كاسـترو عليها، وذلك عندما يؤدي دوراً رئيساً في المفاوضات عندما بدأت الثورة حـواراً مـع الجمعـة المنفية خارج البلاد بعد أن قرر كاسترو أن الأوان قد آن لتخفيف التوتر مع أسر ثلاثة آلاف سجين مناهضين للثورة.

غير أن غارسيا ماركيز يظل على مدى سنوات طويلة بعد ذلك يقلل من شأن دوره في المساعدة على إقناع القيادة الكوبية اتخاذ مثل هذا الإجراء الحاسم بإطلاق سـراح الغالبـية العظمى من أولئك السجناء. لقد أظهر غارسيا ماركيز للأخوين كاسـترو أنه ليس رجل المساعي الحميدة وحسب، إنما مؤيِّد مخلص للثورة أيضاً، ليـبرالية أقل واشتراكية أكثر مما قد يبدو عليه، وقبل هذا كله، وكما لمسوا، فإنه مأمـون الـيدين. ورويـداً رويداً انتقلت العلاقة مع كاسترو إلى ما وراء الطابع الـسياسي أو الفعال وتحولت إلى صداقة بتأثير الاهتمام الذي يبديه الآخر (ويؤكد غارسـيا ماركيـز للصحافة أنه وكاسترو كانا يتحدثان في الأدب عموماً). كان كاسـترو مدمـناً علـى العمـل، حياته سرية، مقيدة، وخصوصية تماماً، وحياته الاجتماعـية محدودة. وظل الاعتقاد سائداً على مدى سنين أن علاقته طويلة الأمد والوحيدة بامرأة، إنما كانت مع رفيقته الثورية سليا سانتشث التي وافتها المنية عام 1980، وأنـه بعـد وفاتها ارتبط بعلاقات عابثة وقتية مع نساء أخريات، وأن تلك العلاقات أثمرت أطفالاً غير شرعيين. ولم يتضح إلا مؤخراً أنه بدأ في أواخر ستينات



القرن العشرين علاقة طويلة الأمد، وهي علاقة زوجية، مع داليا سوتو ديل فالي التي أنجبت منه خمسة صبيان، ولا تزال العلاقة مستمرة حتى اليوم. إلا أن داليا لم تتمتع بأي دور رسمي. وما صورة العزلة الواضحة التي دأب عليها كاسترو باستمرار إلا الدليل على أنها لم تكن جزءاً من تلك الحياة الاجتماعية المحدودة.

ولم يعرف أيضاً عن كاسترو منذ وفاة تشي غيفارا أن لديه مجموعة كبيرة من الأصدقاء الذكور باستثناء أخيه الوفي دائماً راؤول وآخرين مثل أنطونيو نيونيث ومانويل بينيرو وأرماندو هارت. وهكذا، فإن صداقته مع غارسيا ماركيز كانت صداقة غير مألوفة تماماً وغير متوقعة أبداً. أما إن كانت تلك الصداقة مبعث دهشة، فهذه قضية أخرى عند تأملها. لقد كان غارسيا ماركيز أشهر أديب أنجبه العالم المتحدث بالإسبانية منذ ثيربانتس، وكان، بصورة استثنائية، اشتراكياً ومؤيداً لكوبا. وكان أيضاً في مثل سن فيدل تقريباً، وكان الاثنان من منطقة الكاريبي، كلاهما مناهضان للإمبريالية كرد فعل على احتكار الولايات المتحدة منتجي الموز عبر شركة الفواكه المتحدة. ومما يُحكى أيضاً أن كلا الرجلين كانا في بوغوتا في نيسان عام 1948 إبان أحداث العنف، ويعتقد بعض أنصار نظرية المؤامرة أنهما بدآ تخريب أميركا اللاتينية معاً منذ ذلك الوقت. لكن بالرغم من أن غارسيا ماركيز أديب عظيم، إلا أنه لم يكن بأي حال من الأحوال من محبي الحساب ولم يكن مثقفاً متعالياً، كما أن أسلوب حياته سمح له بأن يُبقي على صلات كاسترو مع العالم الأرحب بالرغم من عزلته الفعلية داخل حدود جزيرته الصغيرة تحت نور الشمس. وقد أخبرني كاسترو شخصياً أن إرثهما الكاريبي المشترك وشعورهما الوطني الأميركي اللاتيني المشترك كانا الأساسين الحاسمين اللذين تُشيَّد عليهما الصداقة. وأضاف: "كلانا من سكان الريف ومن الساحل أيضاً... إننا نعتقد نحن الاثنان بالعدالة الاجتماعية وبكرامة الإنسان، وأن سمة غابرييل البارزة هي حبه للآخرين وتضامنه وإياهم، وتلك سمة كل ثوري. إذ لا يمكنك أن تكون ثورياً من دون أن تكنّ الإعجاب للآخرين وتثق بهم"[49].

سارت الأمور سيراً حسناً بالنسبة إلى كوبا عموماً بعد أن تلقت الحماسة الثورية الجديدة فيها دفعة جديدة بمغامرتها في أفريقيا، لكن بدأ فجر مرحلة جديدة بالبروغ.



ففي السادس من آب توفي البابا بولس السادس، فعين يوحنا بولس الأول خلفاً له، لكنه توفي بعد شهر واحد، مما أدى إلى تعيين كارول فوتيلا الذي أصبح البابا يوحنا بولس الثاني وتحالف مع رونالد ريغان ومارغريت تاتشر اللذين انتخبا في غضون الأشهر الثمانية عشر من تعيينه وسكر لشروط التعامل السياسي مع كوبا الذي استمر على مدى السنوات الخمس والعشرين التالية (فضلاً عن التعجيل بموت الاتحاد السوفياتي). والأسوأ من هذا، من وجهة نظر كوبا، وبعد يومين من وفاة البابا بولس السادس في آب 1978، أعلن شاه إيران القانون العرفي في بلاده، وهو الإجراء الذي عجّل بالإطاحة به، وبالتالي بسقوط الرئيس جيمي كارتر وانتخاب رونالد ريغان اليميني.

كان أداء اليسار سيئاً كعادته في الانتخابات الكولومبية سنة 1978، وانتخب المرشح الليبرالي خوليو سيزر طربيه رئيساً للجمهورية في البلاد وبدأت ولايته في السابع من آب. واتخذت مجلة الترناتيفا مساراً معادياً لطربيه الليبرالي اليميني منذ البداية، وكانت المقالات والرسومات الكاريكاتورية تركز على مدى بدانته، وربطة عنقه فراشية الشكل التي باتت علامته الفارقة، ونظارته[50]. وحاولت المجلة باستمرار، وهي تأمل في تقويض ترشحه واستفزاز الليبراليين كي يجدوا منافساً أكثر اعتدالاً، أن تثير الشكوك حول دوافعه وانتخابه. وهاجم غارسيا ماركيز ومجلة الترناتيفا، معاً وعلى انفراد، رئاسته هجوماً عنيفاً لم يسبق له مثيل في السنوات الأربع التالية ليجد أن طربيه، أو في الأقل القوى التي كان يمثلها، يمكن أن ترد الصاع صاعين وبأساليب أشد عنفاً وغير متوقعة.

في غضون ذلك، استمرت أميركا الوسطى في مسارها الثوري المتشنج فيما كان جيمي كارتر عاجزاً على ما يبدو، شأنه شأن بيلاطس البنطي(*)، عن اتخاذ قرار بالبقاء محايداً أو الانضمام إلى أحد طرفي الصراع ففي نيكاراغوا شدّد الثوّار الساندينيّون من ضغطهم على دكتاتورية سوموزا طوال تلك السنة. وغالباً ما كان الثوّار الساندينيّون يجتمعون في منزل غارسيا ماركيز في مدينة مكسيكو، وشاهد في بعض الأحيان توماس بورغا المؤسس المشارك حركة الساندينيّين في كوبا. وساعد غارسيا ماركيز في مفاوضات للاتفاق على توحيد الفصائل الثلاث المتعارضة وتشكيل جبهة ساندينيستا، بل زعم في وقت لاحق أنه هو الذي أطلق على الثوريين

الشبان كلمة "الأطفال"[51]. وفي الثاني والعشرين من شهر آب عام 1978 ستولت مجموعة من الكوماندوز التابعين لحركة ساندنيستا بقيادة إدينا باستورا على القصر الوطني في ماناغوا وخطفت خمسة وعشرين نائباً وحجزتهم مدة يومين، ثم أرسلت أربعة منهم جواً إلى باناما مع ستين سجيناً سياسياً أطلق سراحهم لقاء الإفراج عن بقية الرهائن. كان باستورا قد فكّر في هذه الخطة منذ ثمانية أعوام[52]، وقد اتصل غارسيا ماركيز بتوريخوس على الفور وأخبره أنه يود الإعلان عن هذا النجاح الثوري الاستثنائي، فعرض توريخوس أن يبقي الثوار من غير اتصال بالآخرين حتى وصول غارسيا ماركيز. فما كان من غارسيا ماركيز إلاّ أن شدّ الرحال على الفور وأمضى ثلاثة أيام في ثكنة عسكرية يتحدث إلى زعماء الهجوم الصاعق المنهمكين وهم إدنا باستورا ودورا ماريا تيليث وهوغو توريس، لكتابة تحقيق نشره في مطلع أيلول[53]. وبحلول نهاية الشهر حثت الولايات المتحدة الأميركية سوموزا على الاستقالة، وقال غارسيا ماركيز في ما بعد إن ذلك التحقيق هو الذي كان يفكّر فيه عندما تخلى عن الأدب وبدأ الصحافة السياسية: "ستسلم أدينا باستورا وهوغو توريس للنوم من شدة الإعياء في حين انصرفت أنا إلى العمل برفقه دورا ماريا، وهي امرأة خارقة، حتى الساعة الثامنة صباحاً ثم توجهت إلى الفندق الذي كنت مقيماً فيه لكتابة التحقيق ولما استيقظا صححا ما فيه من معلومات وحددا على وجه الخصوص الأسماء الصحيحة للسلاح ولبنية المجموعة... وغير ذلك. ولم أتمكن من النوم في الليلة التالية، فقد كنت في حالة توتر شديدة تشبه الحالة التي مررت بها عندما عملت بادئ الأمر في التحقيقات الصحافية وأنا في سن العشرين"[54]. وفي وقت لاحق من تلك السنة، يُطلع غارسيا ماركيز مجلة ألتارناتيفا على مشاركته في العديد من المباحثات التي دارت على مستوىً عالٍ بشأن أزمة نيكاراغوا.

وفي شهر أيلول وفي خضم حمى النشاط السياسي الذي كان يعيشه غارسيا ماركيز، سافر ابنه رودريغو إلى هارفارد للتخصص في دراسة التاريخ بعد أن خاب ظنه بمدرسة الطبخ. تبدو تلك الوجهة غريبة لفرد من أفراد أسرة ثورية، ولعل هذا التناقض الواضح هو الذي دفع غارسيا ماركيز لطمأنة صحيفة التيمبو في شهر آب قائلاً: "إنّ أسرتي أكثر أهمية من مؤلفاتي".



ما إن وصل طريبه إلى المشهد في كولومبيا حتى بدأت الأمور تتغير نحو الأسوأ. فبعد مرور شهر واحد على تنصيبه رئيساً للبلاد في آب، أثارت أوراق اعتماده الرجعية بإحداث تشريع أمني انتقدته منظمة العفو الدولية. في تلك الشهور كان غارسيا ماركيز مشاركاً في تنظيم حركة حقوق الإنسان مع عدد من أصدقائه اليساريين وأطلق عليهم اسم هابس. وكانت سياسة جيمي كارتر الخاصة بحقوق الإنسان، وهي سياسة صادقة بلا ريب، ووسيلة ناجحة في إبعاد الأنظار عن العديد من المنظمات التي كانت تحتجّ على موجة الدكتاتوريات اليمينية في أميركا اللاتينية - في تشيلي والأرجنتين والأوروغواي والبرازيل وغواتيمالا ونيكاراغوا - وتعارضها. وحاجج كارتر في أن حكومتي كوبا وباناما دكتاتوريتان أيضاً وأن الساندينيستا ترغب في إقامة نظام يشبه هاتين الحكومتين. تبوّأ غارسيا ماركيز واجهة المنظمة الجديدة التي اتخذت مقرها العام في مدينة مكسيكو الآمنة نسبيّاً، وافتتحت في أحد فنادق العاصمة الكبيرة في العشرين من كانون الأول سنة 1978[55]. (غير أنه ليس واضحاً إن كانت الوعود قد أُطلقت للسلطات المكسيكية بأن المكسيك لن تخترق) وتمكن غارسيا ماركيز في ذلك الاجتماع من إعلان أن كوبا لم يعد فيها سجناء سياسيون، لكنه كان حريصاً ألاّ يدّعي لنفسه أي فضل في ذلك.

شكّلت هابس تكون منظمة لحقوق الإنسان في أميركا اللاتينية وخاصة للدفاع عن السجناء السياسيين، وهو السبب الذي جمع أول مرة إريكي سانتوس كالديرون وغارسيا ماركيز في خريف العام 1974[56]. وكان لغارسيا ماركيز دور حيوي في تأسيس المنظمة الجديدة وتعهد تمويلها بمبلغ مقداره مئة ألف دولار من عوائده على مدى السنتين التاليتين. أما صديقه دابلو بارتولين، الذي عمل طبيباً خاصاً لسلفادور آليندي وكان بصحبته في ساعاته الأخيرة في قصر مونيدا، فقد أصبح سكرتيراً تنفيذياً. ثم تقرر أن يُعيّن لها ممثلون في كل بلد من بلدان أميركا اللاتينية، بمن فيهم أرنستو كاردينال القس الثوري النيكاراغوي، وغيره من أصحاب المكانة المماثلة والاتجاهات التقدمية. وكان لمعظم هؤلاء الممثلين تاريخ في مناهضة الولاء لأميركا، ولم يكن مرجحاً أن يرغب أي واحد منهم في تحويل مشكلات قانونية بعض الأشخاص المعتقلين باتجاه كوبا؛ وخاصة في ضوء الفضائح التي كانت تُمارس

في تشيلي والأرجنتين والأوروغواي. وصرّح غارسيا ماركيز ساخراً إن محبة الناربانيف عارمة عسى "مد يد العون للرئيس جيمي كارتر لتنفيذ سياسته الخاصة بحقوق الإنسان". واقترح على الرئيس الأمريكي أن يقوم بزيارة بورتوريكو حيث أمضى وطنيون بورتوريكيون مثل لوليتا ليبرون خمسة وعشرين عاماً في السجن حتى تلك اللحظة لاتهامهم بجرائم أقل خطورة بكثير من تلك الجرائم التي تتسامح فيها الآن الحكومة الكوبية[57].

في كانون الثاني عام 1979، التقى غارسيا ماركيز البابا الجديد يوحنا بولس الثاني وطلب منه مساندة منظمة هابيس. وقد جرى اللقاء لمدة خمس عشرة دقيقة في مكتبة الفاتيكان[58]. ولم يعلن غارسيا ماركيز عن طلبه آنذاك، لكن من الواضح أن غارسيا ماركيز وجد لقاءه القصير بالبابا محبطاً: وأعلن في ما بعد أن البابا عاجز عن التفكير في بقية أنحاء العالم - حتى "المختفين" في أمريكا اللاتينية - من دون أن يعزو ذلك إلى هوسه بأوروبا الشرقية. وفي يوم الاثنين التاسع والعشرين من شباط، التقى ملك وملكة إسبانيا بمعية خيسوس أغويري دوق ألبا ومدير الموسيقى الوطني. والتقى الجميع في قصر ثارثويلا واستغرق حديثهما عن حقوق الإنسان في أمريكا اللاتينية أكثر من ساعة. لقد أضحى غارسيا ماركيز شخصية ترغب في لقائها، لا الشخصيات اليسارية المهمة مثل ريجيس دوبريه وفيليب آغي وحسب، بل شخصيات دولية أخرى أيضاً. وعندما سُئل غارسيا ماركيز عن مدى انسجامه مع الملك والملكة مقارنة بالسياسيين الذين اعتاد أن يلتقيهم ردّ بالقول: "حسناً، حقاً هما من الأناس الطبيعيين جداً، ويمكنك التحدث إليهما في كل شأن. أما في ما يخص البروتوكول، فقد سهّل الملك الأمور عليّ... فلديهما معلومات جيدة عن أمريكا اللاتينية، ولدينا ذكريات مشتركة عن شعوبها ومناظرها الطبيعية. وتحدثنا عن قدرتنا عودة حقيقية طوال اللقاء". وعدّت صحيفة إلبايس ذلك اللقاء علامة جد إيجابية بعد أن تحدث العاهلان لمثل هذه الشخصية العالمية المهمة، الشخصية التي وجهت في رواياتها الأخيرة نقداً إلى السلطة المطلقة[59].

في التاسع عشر من تموز عام 1979، استولى الساندينستيون على مقاليد الحكم في نيكاراغوا، وهو خبر طال انتظاره على مدى عام كامل، لا سيما بعد أن قطعت



الولايات المتحدة الأمريكية علاقتها بنظام سوموزا في الثامن من شباط. وكان سوموزا قد أعلن عن حالة حصار في السادس من حزيران ولكنه واجه الواقع في نهاية المطاف وهرب من البلاد في التاسع عشر من تموز. لقد كان هذا أول خبر سار لليسار في أمريكا اللاتينية منذ زمن طويل. وفي سنة بدت فيها الأمور تبشر بالخير؛ فقد أُقصيت حركة موريس بيشوب الجوهرة الجديدة الموالية لكوبا رئيس وزراء غرينادا في الثالث عشر من اذار، وفي السابع والعشرين من تشرين الأول ستقلت الجزيرة عن بريطانيا. وكان من المتوقع أن تصبح اتفاقية قناة باناما سارية المفعول في الأول من تشرين الأول. وتمضي أمريكا الوسطى في طريق الثورة حيث أطاح انقلاب عسكري بالرئيس السلفادوري كارلوس روميرو في الخامس عشر من تشرين الأول. وقبل أن يستولي الساندنستيون على مقاليد الحكم أجرى غارسيا ماركيز مقابلة عبر اتصال هاتفي من مدينة مكسيكو إلى كوستاريكا مع صديقه الأديب سيرجيو راميريث الذي أعلن قبل وقت قصير عن أنه واحد من خمسة زعماء في حكومة نيكاراغوا المؤقتة في المنفى[60]. وناقش الاثنان تشكيل الحكومة الجديدة وبرنامجها والوضع العسكري وسياسة كولومبيا القاضية بعدم قطع العلاقات مع سوموزا واحتمال الرد الأمريكي. وعندما سأل غارسيا ماركيز عمّا يفعله أديب منهمك في العمل السياسي أجاب راميريث: "في الحرب الوطنية، الحرب التحررية ضد قوة احتلال مثل قوة سوموزا، يتخلى الجميع عن أعمالهم، ومن ضمنهم الشاعر. ويحملون البنادق. إني أنظر إلى نفسي على أنني في ميدان المعركة"[61].

لقد اهتم غارسيا ماركيز اهتماماً كبيراً بالثورة النيكاراغوية وساندها مساندة فعالة، إلا أنه لم يُظهر تجاهها الحماسة التي أظهرها لكوبا أولاً. هو لا يعرف نيكاراغوا معرفته لكاسترو، ولم تربطه أي علاقة وثيقة بأي عضو من الأعضاء الساندين كتلك التي ربطته بفيدل. وهناك سبب آخر يتمثل بشكوك حتمية معينة كتلك التي أظهرها تجاه التجربة لتشيلية: ما لم تتخذ دولة ما الإجراءات العسكرية والسياسية المتشددة كتلك التي تبناها الكوبيون، فالفرصة ضئيلة في أن تسمح الولايات المتحدة الأمريكية بوجود أي نظام يساري الهوى. فضلاً عن ذلك، فقد تأكدت شكوكه برد فعل كوبا نفسها. فقد ساعد الكوبيون نيكاراغوا لكن ضمن

مطور قري يفيد باستمرارية الثورة، وعليهم الآن أن يكونوا حساسين أكثر تجاه الولايات المتحدة لأميركية التي اضطرت إلى قبول فيتو سوفياتي بشأن غزو كوبا نفسها، لكنها لن تقبل أبداً بكوبا ثانية

بعد موسم صيف أمضته الأسرة في السفر حول العالم، واشتمل على زيارة اليابان وفيتنام وهونغ كونغ والهند وموسكو، عاد رودريغو ثانية إلى هارفارد في حين انتقل غابو ومرثيديس وغونثالو إلى باريس التي سيبدأ فيها غونثالو دراسة الموسيقى، مركزاً على آلة الفلوت. أما والده، فسيمضي شهراً في مهمة مع منظمة اليونسكو التي دعته للعمل في مفوضية ماكبرايد التي تحقق في احتكار لعالم الأول المعلومات من خلال وكالات الأنباء العالمية. وأجرى صديقه رامون تشاو وإغناسيو راموني مقابلة لكتابة مقالة حفزها عمله مع المفوضية، وكانت بعنوان استمراري هو بدايات حرب المعلومات[62]. وقال الصحفيان إن غارسيا ماركيز موجود في باريس "على أساس خفي" وسري تقريباً. أوضح غارسيا ماركيز أن المفوضية أسسها مدير عام ليونسكو أحمد مختار أمبو في أعقاب مباحثات جرت في العام 1976، وانطوت منذ بدايتها على موافقات كبيرة، وبخاصة أن الروس طالبوا بصحافة حكومية تماماً، على حين طالب الأميركيون بصحافة حرة تماماً. وكانت اللغات الرسمية المستخدمة هي الإنكليزية والفرنسية والروسية، وتقرر إرسال التقرير إلى المؤتمر العام لليونسكو في بغداد أواخر شهر تشرين الأول سنة 1980[63]. ويوضح غارسيا ماركيز في ما بعد أنه لم يشعر بمثل ذلك الضجر الذي شعر به بوصفه "صيد كلمات مستوحداً"، كما لم يشعر من قبل أنه بمثل هذه اللاجدوى وأنه لم يتعلم أي شيء، والأهم، أن المعلومات تتدفق من الأقوياء إلى الضعفاء، وأنها وسيلة حاسمة في سيطرة الأغنياء على الفقراء[64]. وقد عارضت كل من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة عمل ماكبرايد وانتهى بهما الأمر إلى الانسحاب من اليونسكو في أواسط ثمانينيات القرن العشرين.

مما يبعث على الغرابة أن غارسيا ماركيز بدأ يعبر من تصريحاته العامة وشخصيته أمام الناس تزامناً مع غزو الاتحاد السوفياتي الكارثي لأفغانستان. ومن الأمثلة المبكرة ما قاله في اجتماع عقد في الخامس والعشرين من كانون الثاني عام

1980 في مدينـــة مكسيكو إن أميركا اللاتينية كانت ضحية لا حول لها ولا قوة، منهمـــرجة لا أكثـــر علـــى الصراع القائم بين الولايات المتحدة الأميركية واتحاد الجمهـــوريات السوفياتية الاشتراكية[65]. ولكن بالرغم من كلامه المبالغ فيه مع تشافز ورامونت، فإنه لم يكن واثقاً بشأن مستقبل الأرض عموماً ومستقبل أميركا اللاتينية خصوصاً وثوقه من الكلام الذي تفوّه به؛ وعلى وجه التأكيد وثوقه من أن مستقبل العالم سيكون اشتراكياً. وعندما يفكّر في انتخاب رونالد ريغان تراه يعلـــن أمـــام الملأ أن ريغان ما دام ليس قوياً كما كان يدّعي، فسيثبت سمعته المعـــروف بها كشقي مسلح في أميركا اللاتينية، "تلك الباحة الرحبة المنعزلة غير مهيّأة لأي شخص سوانا للتضحية بسعادته"[66]. وقد أثبتت هذه العبارة أنها توقّع صادق تماماً.

لكـــن غارســـيا ماركيـــز يتوق إلى العودة إلى الأدب. فقد ظهرت إشارات متواصلة من الصحافيين أن غارسيا ماركيز كان قد تعب من الوعد المتسرع الذي قطعه على نفسه بشأن بينوشيت قبل ست سنوات تقريباً. وذكرت مجلة إكسيلسيور في الـــثاني عـــشر مـــن تـــشرين الثاني أن غارسيا ماركيز بدأ يكتب سلـــسلة من الموضوعات عن الأميركيين اللاتينيين الموجودين في باريس، وأنه سينشرها بعد مرور أربـــع وعـــشرين ساعة على إسقاط بينوشيت. لكن هذا الكلام خيّب ظن أولئك الـــذين فـــسروا كلامه على أنه لن يتوقف عن النشر وحسب، بل عن كل نشاطه الأدبـــي إلى أن يموت دكتاتور تشيلي. يبدو هنا أنه يكتب أعمالاً ستقف في انتظار نـــشرها حالمـــا ينتهي "إضرابه الأدبـــي"، وكأنها طائرات عملاقة تحوم حول مدن العالم الكبرى منتظرة أن تهبط.

لكنـــه لا يـــزال حتى الآن لا يعترف بحقيقة كبرى: وهي أنه بدأ كتابة رواية جديـــدة. ففـــي وقت لاحق ومبكر من تلك السنة، استمر يصرح أنّ "موضوعاته نفدت"، وأنه "لا توجد لديه رواية أخرى، في أعماقه"[67]. إن روايته التالية، وهي رواية لا سياسية، ستُثير حتماً تحولاً مهمّاً. ولم يدرك غارسيا ماركيز ولا قراؤه أنه كـــان يبحث عن الحب. ففي العالم كله بدأت العودة إلى *الشخصي*، وما غارسيا ماركيز إلا جزء من هذه العملية وذلك بخلاف الانطباعات الأولى.



لقد كانت مجلة الترمانيفا محاولة مدهشة. لكنها واجهت صعوبات مالية متزايدة خاصة بعد أن بدأ الضغط الحكومي يحد المعلنين إثر تسمم طريقه السلطة. وبحلول العام 1979 كانت تلك المشكلات قد تفاقمت، وواصل المشرفون على مجلة دعمها من مواردهم الخاصة، لكن عندما أغلقت أخيراً في السابع والعشرين من آذار عام 1980، عاد سانتوس كالديرون وساميز إلى صحيفة التيمبو. أما الذين كانوا غير مرتبطين بمؤسسة بوغوتا، فقد بدأوا البحث عن وسائل أخرى للدعم، في حين كان غارسيا ماركيز حراً في إعادة النظر في خياراته السياسية والأدبية في تخطيط المرحلة المقبلة من حياته.



-20-

عودة إلى الأدب:
قصة موت معلن وجائزة نوبل
1980-1982

بعد أن استقر غارسيا ماركيز استقراراً يبعث على الارتياح في فندق سوفيتيل في باريس، قسَّم وقته بين كتابته الإبداعية صباحاً ومهمة مفوضية ماكبرايد المثيرة للجدل التابعة لليونسكو عصراً. كانت مهمة ماكبرايد المسجمة وإيديولوجيات العالم الثالث، في ذلك الزمان، تتمثل بالنظر في إمكانية قيام "نظام معلومات عالمي" جديد يخفف من قبضة الوكالات الغربية على محتوى الأخبار العالمية وتقديمها[1]. وكما استحسن غارسيا ماركيز هذا التعاون كثيراً، فإنه سيؤشر إلى نهاية مرحلة التشدد العام الذي اتصف به. فلن تكون بعد اليوم محكمة كمحكمة رسل، ولا مهمة كمهمة ماكبرايد، ولا ما يشبه مجلة الترناتيفا أو"الصحافة المتشددة" (وهي مجموعة مقالات سياسية نُشرت في بوغوتا في سبعينيات القرن العشرين). بل إن منظمة هابيس كانت محاولة ناشطة سرعان ما سيتخلى عنها. لقد اتخذ قراراً بالتوقف عن نشاطه السياسي عالي النغمة والتحول إلى الدبلوماسية والتوسط من وراء الكواليس. ولما كان من غير المرجح على ما يبدو الإطاحة بينوشيت قريباً، فقد قرر غارسيا ماركيز أن يرتد عن قسمه ويعود إلى القصة الإبداعية التي تشكل، في كل الأحوال، أفضل شكل من أشكال الملاقات العامة الذي في وسعه أن يحققه. وفي أيلول 1981، أعلن غارسيا ماركيز من دون ارتباك أنه "بصفته كاتباً، فهو أشد خطراً من كونه سياسياً"[2].

بالرغم من أن غارسيا ماركيز أضحى اليوم واحداً من أهم الأدباء في العالم، فإنه لم ينشر سوى روايتين اثنتين هما **مئة عام من العزلة** و**خريف البطريرك** على



مدى عشرين سنة منذ ظهور رواية في ساعة نحس واحتاج إلى روايات أخرى إذ ما أريد له أن يكون واحداً من أعظم كتّاب عصره. أما بخصوص السياسة، وبالرغم من أنه لن يتخلى عن أميركا اللاتينية أو عن قيمه السياسية الجوهرية، فقد قرر التركيز على كوبا قبل كل شيء بوصفها مركز اهتمامه الأساس وأمنية قلبه السياسية، وكذلك كولومبيا إلى الحدّ الذي يمكن فيه تخيل سالح إيجابية لذلك البعيد الذي لم يذق طعم السعادة. لقد مثلت كوبا لغارسيا ماركيز انتصاراً أخلاقياً في الأقل، بصرف النظر عن عيوبها السياسية والاقتصادية. وكان فيدل أميركياً لاتينياً، لم يعرف الإجحاف أو الهزيمة، وكان يجسد شعور قدرة كملة بالأمل، وقبل ذلك كله، بالكرامة. وقرر غارسيا ماركيز أن يتوقف عن ضرب رأسه بجدار تاريخ أميركا اللاتينية المبنية باللبن، ولكنه سيتمسك بما هو إيجابي.

وبما كان ينأى بنفسه على نحو غير مدرك بالحس أو بالعقل عن مواجهة مشكلات أميركا اللاتينية مواجهة مباشرة، ما عدا مشكلات كوبا وكولومبيا، بدأ يمضي وقته بين مكانين لم يروقا له من قبل وهما باريس وكارثاجينا. وفي غضون تلك الحقبة اشترى شقتين في كلتا المدينتين: في شارع ستانيسلاس في حي مونتبارناس، وفي بوكا غراندي في كارثاجينا تطل على شاطئ يؤمه السيّاح على البحر الكاريبي الذي كان يعشقه. وعندما أنهى إضرابه الأدبي في أيلول سنة 1980، بدأت قصة أثر دمك على الثلج تعكس تماماً هذه الحقيقة الوجودية الجديدة: فالقصة تبدأ في كارثاجينا وتنتهي في باريس (كما أنها تعيد تشفير ماضيه الباريسي برفقة تاتشيا[3]، وكانت مما يتطابق وحدسه تماماً وتوقيته أو حظه، أن يُنتخب اثنان من أصدقائه في تلك الحقبة في الحكومة الفرنسية وهما فرانسوا ميتران وجاك لانغ، الأول لرئاسة الجمهورية والثاني لوزارة الثقافة، فيما يصبح صديق ثالث له هو رجيس دوبريه مستشاراً حكومياً بارزاً، وإن مثيراً للجدل. أما كارثاجينا، مستعيداً بعض الخصائص الجوية المتصورة والتحول التدريجي في عملية الكاكاكو، مرتعاً لمضربي السلطة الأغنياء في بوغوتا.

وتبين أن تلك اللحظة كانت لحظة تجديد قوي ونشاط مثيرة لرجل بات اليوم في الخمسينيات من عمره وفي وسعه لادعاء أنه منح النشاط الثوري أفضل أنواع

الدعم. كان رودريغو قد بدأ الرحيل عن باريس والدراسة في هارفرد بعد تجربة قصيرة لتعلم الطبخ الفرنسي رفيع المستوى، على حين بدأ غارسيا ماركيز يبحث عن دروس في الموسيقى لابنه الأصغر غونثالو. وكان إليخيو يقيم في باريس أيضاً منذ بضعة أعوام ولكنه انتقل مؤخراً إلى لندن. في غضون ذلك، كان بعض الصحافيين الكولومبيين الشبان من العاملين سابقاً في مجلة الترنانيفا موجودين في باريس ولا سيما الرفيقين إنريكي سانتوس كالديرون وأنطونيو كاباييرو والصحفية عن صحيفة الاسبكتادور ماريا خيمينا دوثان. وكان بلينيو ميندوثا يشتغل في السفارة الكولومبية. وكانت صلات غارسيا ماركيز بالمراجع العليا مفيدة جداً لهم[8]. أما ميرثيديس، فقد أمضت من وقتها في باريس أقل مما أمضاه غابو، إذ كانت بمكانة الأم لكل الكولومبيين الشباب، وعملت على تسهيل زواجهم، وكفكفت دموعهم عندما كانت علاقاتهم العاطفية تبوء بالفشل. أما غارسيا ماركيز فقد أمضى ساعات الليل المتأخرة في مناقشات طويلة أظهرت لأصدقائه أن أساليبه ربما تغيرت، لكن معتقداته ظلت ثابتة[9]. غير أن غونثالو الذي كان لديه استوديو خاص للموسيقى، فإنه فقد اهتمامه بإنتاج الصوت مما أثار خيبة أمل أبيه. ثم بدأ بدرس الفنون الحرفية سنة 1981 وكان في سن التاسعة عشرة، والتقى زوجة المستقبل بيا أليثوندو وهي ابنة الأديب المكسيكي الطليعي سلفادور أليثوندو الذي كان يعمل رئيس تحرير سابقاً في مجلة أس. نوب. وأدت ناتشيا دور عمة غونثالو خلال غياب والديه عن المدينة. وكانت لا تزال تقطن في شارع بوليفارد دي لوبررفاتور قبالة المستشفى الكئيب الذي شهد ساعة نحسها. وعندما نشرت قصة أثر دمك على الثلج في صحيفة الاسبكتادور في السادس من أيلول سنة 1980، كانت صورة غلاف ماغازان دومينيكال تمثل زهرة تقطر دماً.

وبعد بضعة أسابيع من نشر هذه القصة المبهمة، نشرت كونسويلو ميندوثا دي ريانيو، وهي أخت بلينيو، مقالة عن ميرثيديس أشارت فيها صراحة إلى قصة غرام غابو الباريسية في خمسينيات القرن العشرين، وأوضحت "أنه ربما أحبها حباً جماً". وألمحت إلى أن ميرثيديس كانت ساذجة لا تعرف عن ذلك الغرام ولا عن أشياء كثيرة أخرى. وسواء أكانت ميرثيديس قد فهمت مغزى القصة القصيرة التي



نشرت مؤخراً، ثم لم تفهمه، فإن هذه المتابعة الصريحة والواضحة تماماً لا بد من أن تكون مفاجأة لها. ومع هذا، فقد انتهت هجوم مضاد من المتحدثة في المقابلة. وتسجل كونسويلو ميدونا: "إنها لم تكن تعبأ بالمعجبات بالأديب، وكانت تقول: أتدرين أن غابيتو معجب دائم بالنساء، وفي إمكانك ملاحظة ذلك من كتبه، ولديه صديقات في كل مكان يحببهن حباً جماً بالرغم من أنهن لسن كاتبات. على كل حال، الكاتبات في بعض الأحيان مزعجات. ألا تؤيدني هذا الرأي؟"[6].

في التاسع عشر من آذار سنة 1980، كان غارسيا ماركيز قد صرّح خلال زيارة لكوبا أنه أكمل في الأسبوع الماضي - تأليف رواية لا أحد يعرف تقريباً أنه كان منهمكاً في كتابتها، وهي بعنوان **قصة موت معلن**، وقال إن الرواية ضرب من ضروب الرواية المزيفة والتحقيق الصحفي الكاذب، ولكنه يزعم في ما بعد أنه "لا تختلف اختلافاً شديداً عن الصحافة الجديدة في الولايات المتحدة". وكرر صورة أثيرة لديه وهي أن كتابة القصص كانت تشبه عملية مزج الخرسانة، في حين أن كتابة الرواية تشبه رصف القرميد. ثم أضاف: "الرواية كالزواج: ففي وسع المرء إصلاحه يوماً فيوماً. أما القصة فهي أشبه بقصة حب: إذا لم تنجح فلا يمكن إصلاحها"[7].

ليس من إجماع على أن غارسيا ماركيز الجديد كان محبوباً بحسب الحصة المطلوبة. فعندما أراد أن يشرح مشكلة الكوبيين لطالبي اللجوء السياسي الذين توافدوا جماعات مؤخراً على السفارة البيروفية في هافانا، كتب الكاتب الكوبي المنشق رينالدو آريناس مقالة أراد أن يبين فيها أن غارسيا ماركيز لا يمكنه أن يضلله. وكانت المقالة بعنوان ينطوي على تورية تصعب ترجمتها، لكن في وسعنا أن نتذكر ما يواريها: *غابرييل غارسيا ماركيز: أهو حمار أم هو دبر حمار؟* مشيراً على وجه الخصوص إلى نقد غارسيا ماركيز المزعوم لركاب الزوارق الميساميين وطالبي اللجوء الكوبيين، مؤكداً:

> **إن كاتباً مثل السيد ماركيز الذي عاش وكتب في الغرب، والذي تترك مؤلفاته أبلغ الأثر ويحظى بكل التقدير مما ضمن له أسلوباً في الحياة، وتبوأ مكانة ثقافية مميزة، نقول إن كاتباً مثله يحظى بحماية الحرية والفرص التي منحه**



إياها العالم، فيلجأ إلى استخدامها للاعتذار عن الشيوعية الشمولية التي تحول المثقفين إلى رجال شرطة، ورجال الشرطة إلى مجرمين، إنما هو أمر يثير السخط الشديد... لقد حان الوقت كي يتخذ المثقفون في العالم الحر (فلا يوجد غيرهم على الأرض) موقفاً ضد هذا الضرب من مروجي الدعاية للشيوعية الذين يحتمون تحت ضمانات وتسهيلات توفرها لهم الحرية، فيعملون على تقويضها[8].

في مقابلة أجراها آلن رايدينغ ونشرتها صحيفة نيويورك تايمز في أيار، أوضح غارسيا ماركيز الذي زار هافانا هذا الشهر في خضم مشكلة لاجئي كوبا مع الولايات المتحدة، لرايدينغ أنه أسس منظمة هابيس "لتبني قضايا معينة تتطلب الاتصال مع كل من اليسار والحكومة، وتقديم المساعدة من حين إلى آخر لإطلاق سراح ضحايا عمليات خطف يقوم بها الثوار"[9]. يبدو هذا الكلام شبيهاً بكلام شخص يريد الجمع بين نقيضين، واحتمال الوقوع تحت غواية "الحكومة"، بصرف النظر عمن يكون أفرادها. أما بخصوص كتابه الذي طال انتظاره عن كوبا فيقول: "كانت الأبواب كلها مشرّعة أمامي، لكني أدرك الآن أن الكتاب ينطوي على نقد ربما يستخدم ضد كوبا. ولهذا فإني أرفض نشره بالرغم من أن الكوبيين يريدون مني أن أمضي قُدماً فيه". ويذكر رايدينغ "على كثرة تردده على هافانا، فإنه يقول إنه لم يستطع الاستقرار فيها: إنني لا أستطيع أن أحيا في كوبا لأنني أمر بتجربته، وستكون هناك صعوبة في الذهاب إليها الآن وتكييف نفسي مع ظروفها، إذ سأفتقد أشياء كثيرة، فأنا لا أستطيع العيش في ظل الافتقار إلى المعلومات، إنني قارئ نهم للصحف والمجلات العالمية". لكنه لا يستطيع العيش في كولومبيا أيضاً، إذ يقول: "ليست لدي حياة خاصة فيها، وإذا ما ضحك رئيس الجمهورية تعين عليَّ أن أدلي برأيي في ضحكته، وإذا لم يضحك، فينبغي لي أن أوضح السبب الذي أدى به إلى عدم الضحك"، ويمضي رايدينغ قائلاً: "لهذا السبب عاش غارسيا ماركيز في مدينة مكسيكو بصورة مستمرة تقريباً منذ سنة 1961"

وكما أصبح معروفاً، فإن الكتاب الجديد الذي جاء أخيراً بعنوان **قصة موت معلن** لم يكن سوى مشروع قديم حقاً: فهو رواية عن الاغتيال الفظيع الذي تعرض له صديقه الودود كايتانو جنتلي في بلدة سوكري قبل ثلاثين سنة. كما استمدت



الـــرواية أجواءها من أحداث العنف السياسي في مطلع خمسينيات القرن العشرين. وهي فكرة لم تكن غائبة عن رواية في ساعة نحس، لكن الكاتب الذي وهب سبع سنوات من حياته للسياسة، يعود بأحداث الرواية إلى سنوات الماضي، إلى حقبة من الـــتاريخ الكولومـــبي أقل تفجراً من الناحية السياسية، كما أنه لن يلقي باللائمة على النظام الرأسمالي بسبب ما حدث، ولا حتى على الحكومة المحافظة التي لا ترحم، كما هي الحال في رواية في ساعة نحس، بل على نظام اجتماعي يبدو أقدم وأعمق بكـــثير، متأثراً تأثراً بالغاً بالكنيسة الكاثوليكية. إلاّ أن هوسه بالفروق الإيديولوجية والسياسية أقل من هوسه بالفروق الأخلاقية والاجتماعية. لقد مثّلت الرواية الجديدة تحولاً هائلاً في نظرته الأدبية بالرغم من عدم ملاحظة قرائه ونقاده ذلك التحول إلا في ما ندر.

تلقـــى شـــاب يدعى ميغيل بالنثيا في يوم زفافه في كانون الثاني سنة 1951، رسالة في بلدته الصغيرة سوكري تفيد أن عروسه الجديدة مارغريتا تشيكا سالاس لم تكن عذراء، فأعادها إلى أسرتها مجللة بالعار. وفي الثاني والعشرين من الشهر نفسه قـــتل شـــقيقاها فكـــتور مانويل وخوسيه حواكين تشيكا سالاس صديقهما السابق كايتانو خنتيلي خيمنتو في الميدان العام في البلدة وأمام جميع سكانها بعد اتهامه بغواية مارغريتا وفض بكارتها وهجرها[10]. كان القتل مروّعاً، فقد قُطِّعت جثته إرباً إرباً إلى حـــدٍّ كبير[11]. وكانت والدة خنتيلي صديقة حميمة و(رفيقة) للويسا سانتياغا ماركيز، وكان كايتانو صديقاً حميماً لغابيتو ولأخيه لويس إنريكي ولأخته الكبرى مارغـــوت. كـــان لـــويس إنريكي قد أمضى النهار السابق مع كايتانو، وكانت مارغـــوت بمعيته قبل دقائق قليلة من قتله. وقد شاهده خايمي البالغ من العمر أحد عشر عاماً وهو يُقتل. ومنذ ذلك اليوم أراد غابيتو دوماً أن يكتب قصة هذا الموت الرهيب مـــن الداخل. لكن لما كان أولئك الضالعون في الحدث أناساً يعرفهم هو وأســـرته معرفة وثيقة، فقد طلبت منه أمه ألا يكتب أي شيء ما دام والدا الطرفين الرئيسيين في الحادث على قيد الحياة. (كان القتل سبباً دفع غارسيا ماركيز للهروب مـــن سوكري، في شباط سنة 1951). وبحلول العام 1980، عندما بدأ غابيتو يدون الـــرواية، كانـــت المنية قد وافت معظم أولئك المطلعين على الحادثة، وكان هو في

وضـــع يمكّنه من إعادة ترتيب حقائق القصة وشخصيات الناس الذين يعرفهم على النحو العميق الذي طبقه على نطاقه في **خريف البطريرك**[12].

كان غارسيا ماركيز قد امتلك تصوراً للشكل النهائي لكتابه الجديد وهو في طريقه إلى البيت عائداً من رحلة أسرية حول العالم سنة 1979 وفي مطار الجزائر، فتح مشهد أمير عربـــي يحمل صقراً عيني غارسيا ماركيز فجأة على أسلوب جديد لعرض الصراع بين أسرة كايتانو جنتلي والأخوين تشيكا. وهكذا يتحول جنتلي المهاجر المنحدر من أصل إيطالي إلى سانتياغو نصار العربـــي، وبهذا يكون أقرب إلى حـــدٍّ ما من تراث أسرة ميرثيديس بارتشا. أما مارغريتا تسكا صديقة ميرثيديس فتصبح أنخيلا فيكاريو، ويصبح ميغيل بالنثيا متمظهراً بشخصية بياردو سان رومان، بينما يتحول فكتور مانويل وخوسيه خواكين تشيكا سالاس في الرواية إلى الأخوين التوأمين بيدرو وبابلو فيكاريو. أما بقية تفاصيل الكتاب فهي لا تختلف عن تفاصيل الحـــياة الحقيقـــية أو هـــي مشابهة لها. وثمة تعديل على بعض العلاقات، لا سيما العلاقات ذات الصلة بالطبقة. وأخيراً، فإن غارسيا ماركيز يعيد كتابة تلك القضية الدرامية ببصيرة الروائي السحرية.

وفي حـــين تحذف رواية غارسيا ماركيز الحداثوية وأكثر رواياته اعتماداً على ســـيرته الذاتية **عاصفة الأوراق** كل المرجعيات والإشارات الذاتية، فإن **قصة موت معلـــن** التي تتصف بصفات رواية "ما بعد الحداثة" تجعل من بُعد السيرة الذاتية أشد وضوحاً: فالراوي هو غارسيا ماركيز الذي لا نجد لاسمه ذكراً، لكننا نعرف أنه هو، لأن زوجـــته تدعى ميرثيدس (ويبدو أنها تتوقع منا أن نعرف من هي) وأمّه تدعى لويـــسا سانتياغا، وأخويه هما لويس إنريكي وخايمي، وأخته هي مارغوت. وهناك أخـــت أخـــرى راهـــبة بلا اسم، بل، وللمرة الأولى، أبٌ بلا اسم أيضاً. يتلاعب غارسيا ماركيز هنا مع قرائه ومع الواقع ما دامت هذه التفاصيل ذات الصلة بأسرته وبحياته صحيحة إلى حدٍّ كبير، لكن ليست كلها: فعلى سبيل المثال، كانت لويسا سانتياغا ولويس إنريكي ومارغوت وخايمي في سوكري حقاً في اليوم الذي وقع فيه حـــدث الاغتيال. أما غابيتو وغابرييل إليخيو وعايدة وميرثيديس فلم يكونوا فيه. وإذا كانـــت العمة ويفريدا في مثواها تحت التراب منذ سنين طويلة سبقت حادث

الاعـــيال، وإنها تعود لتظهور حية في نهاية الرواية ويظهر أفراد الأسرة لا بأسمائهم وحسب، بل بتصرفاتهم وبطريقة كلامهم أيضاً.

ويذكر الراوي أنه اقترح على مرثيديس الزواج بها وهي طفلة صغيرة، وهو ما حـــدث حقـــاً في الواقع، لكنه يذكر أيضاً في الرواية عاهرة الحي ماريا اليخاندرينا ثيرفـــنس الـــتي يمنحها اسم مرأة كان يعرفها حقاً في بلدة سوكري، وعمر السطر الأعظم من الرواية وهو معها في الفراش.

أمـــا خصوص البلدة، التي لا تحمل اسماً أيضاً، ففيها نهر مثل نهر سوكري نفسها. كمـــا يقـــع بيت الأسرة على امتداد ضفة النهر بعيداً عن الميدان العام، وفي بكة مثمرة بـــثمار المانجا تماماً مثل بيت أسرة غارسيا ماركيز في سوكري. وإن كانت سوكري لا تشتمل على سفن تجارية كبيرة قط، بخلاف ما نقرأ عنها في الرواية، كما لا توجد فيها مركبات من أي نوع. كما لا يمكن مشاهدة كارتاخينا عن بعد مسافة، لكن البلدة من معظم النواحي الأخرى تقريباً تماثل البلدة الأصل تماثلاً تاماً إلى حدٍّ كبير.

عُدَّت الرواية عملاً أدبياً رائعاً، مؤلفه هو حقاً كما يبدو، رجل آخر، كاتب آخر، شخصيته مغايرة تماماً. هو لأن أشبه بمصارع ثيران عازم على قتل ثوره بصورة لا تُـــنسى، درامية وجمالية على حدٍّ سواء. والنتيجة هي أننا أمام رواية تستوي في شعبيتها وقوتها الأسرة التي لا تُقاوم مع مقطوعة بوليرو للموسيقار رافيل. كما نُعد موازية لها من حيث محاكاتها الذاتية التي تشجع بها. وبما أن الكاتب يعلن هارئاً ضمن مفهـــوم التشويق، عن موت بطله في السطر الأول من الفصل الأول ويعلنه مرات ومـــرات في الفـــصول التالية، وأخيراً، وعلى نحو فريد، ربما يجعل بطله يُعلن، وهو يُمسك بأحشائه كأنها باقة زهور في الصفحة الأخيرة من الرواية: "لقد قتلوني أيتها الآنـــسة ويمفريدا". ثم ينهار البائس المسكين وتنتهي الرواية. وهكذا، فعندما يشير غارسيا ماركيز في عنوانه إلى موت معلن، فإنه يشير إلى كل من طبيعة الرواية التي تحكـــي فـــصولها والأســـلوب الذي اختاره لحكايتها. إن هذه الرواية، بما فيها من مفارقات وتكافؤ الأضداد، تحتشد في كتاب مختصر تعقيداته الاستثنائية التي تتوارى بمهارة عن أعين القراء الذين يشق مؤلفهم الخبير طريقه أمامه برباطة جأش واعتداد بالنفس من دون أي مشقة على ما يبدو.



عندما يعيد بياردوسان رومان زوجته أنجيلا فيكاريو إلى أسرتها في ليلة الزفاف لدى اكتشافه أنها ليست عذراء، تخبره في آخر الأمر أن مغويها كان سانتياغو نصار. وبعد أن يمضي أخواها عمية قتل نصار انتقاماً لها، يلوذان بالكنيسة ويخبران الراهب: "لقد قتلناه ونحن بكامل وعينا ولكننا بريئان". واعتبر محامي التوأمين أن القتل كان دفاعاً مشروعاً عن الشرف. لكن بالرغم من أنهما لم يكونا نادمين، إلا أنهما بذلا كل ما في وسعهما لتحذير نصار أو أن يوقفهما الآخرون ويحولوا دون قتلهما إياه، وانتظراه في مكان حيث من غير المرجح أن يتمكنا من مشاهدته، ولكن حيث يمكن لكل شخص آخر أن يشاهدهما معه. يعلق الراوي: "ما من موت أعلن على هذا الشكل". فبقية سكان البلدة يرون أنه ليس هناك سوى ضحية واحدة حقيقية وهو العريس المخدوع بياردوسان رومان الذي يمضي لغزاً ومجهول أي شيء للراوي بعد ثلاثة وعشرين عاماً عندما يلتقيان ثانية. ومما يبعث على العجب أن أنجيلا تغرم به غراماً شديداً ويستحوذ على فكرها منذ اللحظة التي يرفضها فيها بعد أن كانت مترددة في الزواج به. أخيراً، يظهر للعيان بعد أن تقدما في السن ويحمل ألفي رسالة غير مفتوحة ويحييها تحية مقتضبة: "حسناً، ها أنا هنا".

الشرف والعار ومرض الإحساس المفرط بالرجولة تشكل كلها موضوع الرواية الاجتماعية المركزية، شأنها شأن عديد الأعمال الإسبانية منذ "العصر الذهبي" في القرن السابع عشر وحتى مسرحيات لوركا في القرن العشرين. (كما يمثل خينار هذا الموضوع انعطاف المؤلف الواضح المحافظ) ولعل الخلاصة المحتملة التي يطرحها غارسيا ماركيز هي: الرجال يستحقون العنف الذي يمارسه أحدهم ضد الآخر بسبب ما يفعلونه بالنساء.

لا بد من أن قصة المعقيد ماركيز وميداردو جالت في ذهن غارسيا ماركيز مرة أخرى طوال عملية كتابة هذه الرواية: إلى أي حد نكون مسؤولين عن أفعالنا، ونسيطر على مصيرنا؟ المفارقة تعمل عملها في كل المستويات: الحقيقة العبثية النهائية هي أن سانتياغو نصار قد لا يكون هو الذي ارتكب ذلك العمل الذي تسبب بقتله، وأن الأخوين لم يكونا راغبين حقاً في قتله. إنه مزيج من القدر وسقوط الإنسان، والأهم من هذا كله هو تشوش الانسان مما تتسبب بالموت.



لعل العنوان **قصة موت معلن** هو أكثر العناوين التي اختارها غارسيا ماركيز تأثيراً، إذ استخدم في آلاف العناوين الصحافية والإشارات في المجلات. ويرجع السبب كما يتضح إلى أنه ينطوي على أن كل ما يُعلن يمكن منعه، وأن القوة البشرية يمكن أن تقرر مسبقاً العالم (بالرغم من أن الرواية تبدو، ويا للمفارقة، أنها ترسل رسالة مغايرة). على كل حال، إن كتاب غارسيا ماركيز المبكر يميل إلى الإيحاء بأن هناك أشياء تخضع للقوة البشرية أكثر مما يعتقد الوعي الجماعي في أميركا اللاتينية. أما الكتاب الأخير، فيميل على وجه العموم إلى التشكيك على نحو أكبر في ما يخضع وما لا يخضع للقوة البشرية، ويميل إلى القول إن معظم الأشياء لا تخضع لها. ومما ينطوي على تناقض ظاهري هو أن العمل الأول يبدو أكثر تشاؤماً، لكنه مفعم حقاً بتفاؤل ضمني ذي منظور اشتراكي، ويهدف إلى تغيير العقول والقلوب؛ الكتاب الأخير أكثر رهواً، لكنه بوجهة نظر عامية لا تبتعد كثيراً عن اليأس.

* * *

في نهاية المرحلة الممتدة من نشاطه السياسي والدعائي من العام 1973 وحتى العام 1979، ولاتخاذ التدابير اللازمة لمستقبل الذي حدسه بفطرته، بدأ الآن يعتنق دوراً طالما رفضه، ألا وهو الشهرة. فعند إكمال روايته **قصة موت معلن** وتوقع رجوعه إلى كولومبيا، تحدث إلى أصدقائه العاملين في الصحافة كي يأخذ على عاتقه ضرباً آخر من الصحافة. فمقالاته الجديدة كانت عودة إلى ذلك النمط الكتابي الذي سبق له أن انهمك فيه في عقدي الأربعينيات والخمسينيات في كارتاخينا وبارانكيا، تميل إلى الأدب أكثر مما تميل إلى الصحافة[13].

وكانت فضلاً عن كونها مقالات وتعليقات سياسية وأدبية، أشبه ما تكون بمذكرات مسلسلة، ورسالة أسبوعية إلى أصدقائه، ونشرة إلى عشاقه، ومذكرات عامة متصلة[14]. لكن تلك المذكرات لم تكن مذكرات كاتب عمود احتاج إلى اسم مستعار كي يمنح نفسه هوية، بل كانت إلى حدٍّ بعيد مذكرات شخص ما.

أرسل غارسيا ماركيز مقالاته للنشر على وجه الخصوص في صحيفة الإسبكتادور في بوغوتا وصحيفة الباييس في إسبانيا وغيرهما من صحف أميركا اللاتينية وأوروبا. وكان الشيء المثير في هذه المقالات منذ البداية، هو التحول الكبير



الذي صرأ على موقفه. فالرغم من أن عدداً كبيراً من تلك المقالات يعالج موضوعات سياسية راهنة، إلا أن النبرة اليسارية كانت قد تلاشت فيها. كان الرجل الذي يكتب تلك المقالات رجلاً عظيماً كأنه روائي من القرن التاسع عشر حظي بالإعجاب والتكريم على نطاق عالمي. كان لا يزال ودوداً — حقاً إنه لأمر عظيم أن يكون هناك مثل هذا الرجل المهم بهذه الدرجة من الود (كلاهما في حالة ملائمة لجنس الكلام) — لكن لم تعد فيها تلك الروح الرفاقية الفريدة التي كان يكتب بها أعمدته *الزرافة* أو الروح الرفاقية التي عرف بها خلال كتاباته في مجلة التارياتيف. لقد كان هذا التحول في الموقف وفي نبرته واحداً من أكثر عوامل شهرته تأثيراً التي تنطوي على براعة مؤكدة. من الواضح أن هذا الصوت الهادئ رابط الجأش الذي كان يعرف كل شيء ولم يطالب بأي شيء، من شأنه أن يسبب المتاعب إذا ما عاد صاحبه إلى بوغوتا حيث تنشر مقالاته كل يوم أحد.

بدأت مقالات غارسيا ماركيز بالظهور منذ شهر أيلول سنة 1980، واستمرت من دون انقطاع حتى آذار سنة 1984، فوصل عددها إلى مئة وثلاث وسبعين مقالة أسبوعية خلال مرحلة من أكثر مراحل الكاتب نشاطاً على امتداد سني حياته[15]. ومما يثير الدهشة أن المقالات الأربع الأولى كانت عن جائزة نوبل[16]. وكشفت بين سطورها عن أن غارسيا ماركيز لم يقم ببحث شامل وحسب، بل كان يعرف الشيء الكثير عن ستوكهولم، كما أنه التقى عضو الأكاديمية البارز آرتور لاندكفست وزاره في منزله وبحث غارسيا ماركيز في تشكيل لجنة الجائزة، وطريقة اختيار المرشحين، وإجراءات طقوس منح الجائزة. وكتب في مقالته الأولى أن الأكاديمية السويدية تشبه الموت، إذ إن اختياراتها غير متوقعة دائماً، لكن هذا لا ينطبق على حالته!

قدم غارسيا ماركيز إلى قرائه منذ البداية الانطباع بأنه سمح لهم بدخول "حياة الأغنياء والمشاهير"، وما تنطوي عليه تلك الحياة من "شراب وأحلام وكافيار"[17]. ولم يعمد غارسيا ماركيز إلى سرد وقائع حياته الراهنة وأسلوبها والناس المهمين الذين يعرفهم وحسب، بل تذكر ماضيه أيضاً كأن ذلك الماضي يهم قراءه في جميع أنحاء العالم. يبدو وكأن خمسة وعشرين عاماً انصرمت بين آخر مقالة كتبها في مجلة

الباراتيما في سنة 1979 والمقالة الأولى التي نشرتها صحيفة الاسبكتادور في أيلول 1980، وهو أمر يشبه ما قد يحدث لإحدى شخصيات خورخه لويس بورخس؛ كما في المعجزة السرية. في الوقت نفسه، تمكن غارسيا ماركيز من شنّ حملة متواصلة ضد الحملة الإمبريالية التي تقوم بها حكومة ريغن في أميركا الوسطى والكاريبي من دون أن ينأى بنفسه بعيداً عن تحديات الرأي العام الليبرالي العالمي. فكان ذلك إنجازاً رائعاً يشتمل، من بين ما يشتمل، على استدلال التأكيد على الأصدقاء الثوريين وحركة ساندينو وزعيم الثوار الساحلي جايمي باتمان بإشارة إلى السياسيين الديمقراطيين المحترمين مثل غونثاليث وميتران وكارلوس أندرياس بيريث وألفونسو لوبيث ميتشيلسين.

واكتشف قراؤه أن هذا الرجل العظيم يخشى، شأنه شأن الكثيرين منهم، ركوب الطائرة، وتمكن من البوح بسر مفاده أن هناك رجالاً عظماء آخرين يعانون هذا الخوف مثل بونويل وبيكاسو وحتى كارلوس فوينتس الذي كان كثير السفر. لكنه ظل بالرغم من هلعه يواصل السفر، ووصف كل رحلة من رحلاته الجديدة لقرائه المعجبين "أين أذهب؟ ومع من؟ وكيف هم؟ وما هي تصرفاتهم الغريبة؟" (إذ من الواضح أن لكل واحد منا تصرفاته الغريبة الفعلية). وكان يعتقد بالخرافات أيضاً وبرغم أنها تستهويه كثيراً، بل كانت تداخله شكوك ويشعر بعدم الأمان أيضاً. ففي شهر كانون الأول سنة 1980 فكّر وهو في باريس في قضية اغتيال جون لينون والحزن الجارف الذي انتاب أجيالاً متعددة لموسيقى البيتلز وقال برثاء: "في عصر هذا اليوم، وبينما أنا أفكر في كل ذلك وأرنو من خلال نافذة كئيبة إلى الثلج المتساقط أنوء بأكثر من خمسين سنة على كاهلي ولا أزال لا أعرف حقاً من أنا إلى حدٍّ كبير، أو ماذا أفعل في هذا المكان، لدي انطباع أن العالم لا يختلف منذ اللحظة التي ولدت فيها إلى اللحظة التي بدأ فيها فريق البيتلز بالغناء"[18]. وأكد غارسيا ماركيز أن لينون ارتبط اسمه قبل كل شيء بالحب. وربما ارتبط اسمه - كما قد يظن القراء - بالنشوة والغربة وغياب الحب أكثر مما ارتبط بأي شيء آخر. لكن، ستغير هذا كله.

كانت مقالة غارسيا ماركيز عن جون لينون رسالة مشفّرة: لم تكن باريس أو أوروبا هي الجواب. كان بحاجة إلى الرجوع إلى كولومبيا حيث تدور أحداث



رؤيته الأخيرة مرة أخرى، وهو ما أعلنه مراراً في سلسلة من المقابلات في ذلك الوقت. كان يقطع الوعود بالرجوع منذ سنين طويلة، لكن البلاد سرعان ما بدأت تميل مرة أخرى إلى الفوضى مع إغلاق مجلة التارناتيما في بواكير العام 1980: موجة جديدة من العنف، موجة جديدة من تهريب المخدرات، ونمط جديد من جماعات مسلحة اقترنت بعمليات مذهلة.

إلى مثل هذا الجو عاد غارسيا ماركيز ومرسيديس إلى كولومبيا طلباً للرجعة والمصعية في شهر شباط سنة 1981. واتخذ غابيتو الترتيبات اللازمة لالتئام كبير لشمل الأسرة في كارتاخينا حيث تألقت لخالة ألفيرا كالنجمة، "الخالة ما" التي أدهشت ذاكرتها جميع الحاضرين[19]. وبدأ يعمل في الشقة التي اشتراها مؤخراً لأخته المفضلة مارغوت في بوكا غراندي. وزار الشاعر والناقد الكولومبي خوان غوستافو كوبو بوردا غارسيا ماركيز بعد وصول الأخير إلى كولومبيا بوقت قصير وسمح له أن يأخذ مخطوطة **قصة موت معلن** بعد أن قرأها على مدى ساعتين في الطابق التاسع عشر في أحد الفنادق القريبة[20]. وقال كوبو بوردا إن الكاتب كان يشتغل كل يوم في شقة مارغوت، ثم يهبط السلالم إلى الطابق الأرضي ويقود السيارة لزيارة أمه في مانغا، ويصغي إلى "نكات أبيه غير المفهومة".

في العشرين من آذار، حضر غارسيا ماركيز حفلة نظمتها السفارة الفرنسية في بوغوتا وهناك التقى مرة أخرى بكوبو بوردا، وهو اللقاء الذي اتفق الاثنان على وصفه بأنه "لقاء الكاتشاكو نخيل العود والساحلي لوعد" وقال كوبو بوردا إنه لم يشاهد من قبل غارسيا ماركيز بمثل تلك السعادة وهو في كولومبيا. لكن هذا الشعور بالرضا كان وقتياً فقد تكلم الاثنان في اليوم الذي تقرر فيه أن يعلن رئيس الجمهورية قطع العلاقات مع كوبا. ثم هناك ما هو أسوأ: فقد بدأ غارسيا ماركيز يتلقى معلومات تفيد أن الحكومة تحاول إيجاد علاقة بينه وبين حركة الثوار المعروفة بالاسم أم – 19 التي كانت مرتبطة بدورها بكوبا، بل وصلت الشائعات حدّ القول إنه ربما يتعرض إلى عملية اغتيال وفي وقت لاحق، أخبر غارسيا ماركيز الصحفيين المكسيكيين أنه سمع أربعة تفسيرات لقصة واحدة مفادها أن الطغمة العسكرية في كولومبيا تخطط لاغتياله[21]. وفي الحادي والعشرين من شهر آذار أحاط به

الأصدقاء الذين تجمهروا لحمايته وقدّم طلباً للجوء في السفارة المكسيكية وأمضى ليلته فيها[22]. وعند الساعة السابعة والدقيقة العاشرة من مساء اليوم التالي، سافر جواً تحت حماية سفيرة المكسيك في كولومبيا ماريا أنطونيا ساتشيث - غافيتو ولدى وصوله مطار مدينة مكسيكو، خرجت مجموعة أخرى من أصدقائه وعدد أكبر من الصحفيين لترحب به. وعلى الفور رتبت له حكومة المكسيك حراسة شخصية.

تحدث غارسيا ماركيز مطولاً إلى الصحافية الكولومبية مارغريتا فيدال في أثناء هروبه. وقد كتبت تلك الصحافية مقالة معمقة عن الأحداث المثيرة التي مرّ بها[23]. وفيما هما يحلقان فوق البحر الكاريبي، أكد لها غارسيا ماركيز أن كاسترو وتوريخوس لا يزوّدان الثوار الكولومبيين بالسلاح، فقد توصل كاسترو إلى اتفاق مع لوبيث ميتشيلسين ينص على عدم دعم كاسترو الثوار بالسلاح والتزم بذلك. ثم يعود غارسيا ماركيز إلى كولومبيا عندما أصبح لوبيث ميتشيلسين رئيساً للجمهورية مجدّداً كما كان يتوقع. وقال إنه يناهض الإرهاب، وأن الثورة هي الحل على المدى البعيد مهما كلف ذلك من تضحيات، لكنه لم يعرف كيفية تحقيق ذلك. إذ طالما كانت كولومبيا بلداً ضعيف الوعي، باضحة لما هو شعبوي ولكن ليس للثورة. ولم يعد الكولومبيون يثقون بأي شيء، فالسياسة لم توصلهم إلى أي مكان، وبات الرأي السائد اليوم هو أن لكل واحد طريقه مما شكل تهديداً كاملاً بالتفكك الاجتماعي. إن بلداً بلا يسار منظم، أو يسار عاجز عن إقناع أي فرد، يمضي حياته ممزقاً نفسه إلى أشلاء، لا يمكن أن يحقق شيئاً.

هذا هو السياق العام الذي ستنشر فيه رواية بعنوان **قصة موت معلن**. ويمكن للمرء أن يتخيل الضباط الكولومبيين جالسين في ثكناتهم العسكرية قبل بضعة أيام ويضحكون بملء قلوبهم على المفاجأة غير السارة والمفارقة التي يعدونها ليساري الساحلي المغرور. لكن في غضون ذلك كله، كان الصبر قد حقّق بعيداً، وجرى الاحتفال في بوغوتا برجوعه إلى الوطن من دونه.

اكتشف القراء أن رواية **قصة موت معلن** سرد أحداث قصة لا يمكن أن تكون مثيرة أكثر. لكنها بالرغم من ذلك، واحدة من تلك الروايات التي ستكون ضـ



قصة مثيرة بعد نشرها. بلغت مبيعاتها أرقاماً خيالية حال صدورها في وقت واحد في كل من إسبانيا (عن دار نشر بروغيرا) وكولومبيا (أوبيخا نيغرا) والأرجنتين (سوداميريكانا) والمكسيك (ديانا). وفي الثالث والعشرين من شهر كانون الثاني سنة 1981، أفادت صحيفة إكسيلسيور أن مليون نسخة طبعت من الرواية للعالم المتحدث بالإسبانية، بمعدل ربع مليون نسخة بغلاف ورقي في كل قطر من الأقطار الأربعة المذكورة سابقاً، وخمسين ألف نسخة بغلاف سميك في إسبانيا. وأشارت دار نشر أوبيخا نيغرا إلى أنها فرغت من طبع الكتاب في شهر نيسان وهي أطول مدة استغرقها طبع كتاب بمفرده في تاريخ أميركا اللاتينية. وفي السادس والعشرين من نيسان، أوضحت إكسيلسيور أن مئة وأربعين ألف دولار أنفقت على الإعلان عن الرواية في المكسيك وحدها، وأنها ترجمت إلى إحدى وثلاثين لغة، وباعها باعة الصحف وباعة العلكة في الشوارع في جميع أنحاء أميركا اللاتينية.

وأجريت مقابلة مع خوسيه فيثنتي كاتارايين مدير دار نشر أوبيخا نيغرا حال صدور الرواية[24]. واتضح في ما بعد أن مليوني نسخة من الرواية طبعت وليس مليون نسخة فقط: مليون نسخة في كولومبيا ومليون نسخة إضافية في كل من إسبانيا والأرجنتين: بالرغم من أن كاتارايين لا يعتمد عليه أبداً بخصوص الأرقام، وهو ما يلائم اسم دار نشره أوبيخا نيغرا ومعناه الخروف الأسود* وإذا كان أكبر رقم سابق بعدد نُسَخ أول طبعة كولومبية من أي كتاب يقدر بعشرة آلاف نسخة، فإن كتاب غارسيا ماركيز الجديد طبع منه أكثر مما طبع من أي طبعة أولى أخرى لأي كتاب أدبي نشر في العالم. إن طبع مليوني نسخة من الكتاب يعني شراء مئتي طن من الورق، وعشرة أطنان من الورق المقوّى، وألف وستمئة كيلوغرام من الحبر، وكانت هناك حاجة إلى خمس وأربعين طائرة من طراز بوينغ 727 لنقل نُسَخ الرواية خارج كولومبيا وحدها. وفي التاسع والعشرين من نيسان، صرّح غارسيا ماركيز، وكأنه يريد المساعدة في كل هذا الذي يجري من حوله، قائلاً إن "قصة موت معلن كانت "أفضل رواياتي". إلا أن بعض النقاد الكولومبيين زعموا في الثاني عشر من أيار أن الكتاب ليس سوى "نصب"، وأنه أطول بقليل من قصة طويلة قصيرة، وهو لم يضف شيئاً إلى منجزات الكاتب الأولى[25]. غير أن الرواية تبوّأت المكانة الأولى

بين مبيعات الكتب في إسبانيا حيث قُورنت بكتاب Fuenteovejuna (قرية في قرطبة) الذي ألّفه لوبي دي بيغا، وظلت تحتل ذلك الموقع حتى الرابع من تشرين الثاني. وكانت الرواية أكثر الكتب رواجاً في إسبانيا سنة 1981. لقد عاد غابو الروائي الكبير بنجاح مدوٍّ.

وفي السابع من أيار رفع محامٍ من بوغوتا يدعى إيريكي أنغريز دعوى قضائية ضد غارسيا ماركيز يطالبه فيها بتعويض مقداره نصف مليون دولار لافترائه على سمعة الأخوين اللذين تصورهما الرواية. وخاصة أن القضاء حكم "ببراءتهما" من الجريمة المنسوبة إليهما، على حين أظهرتهما الرواية على أنهما قاتلان. إن التفكير في كايتانو جنتيلي سيّئ الحظ، وربما البريء أيضاً، والذي قُتل حقاً - وإن لم يكن قتله ليستند إلى قانون - على أيدي الأخوين قبل ثلاثين سنة، من شأنه أن يزيد الضيق منه بالانتقام[26]. واجتمع في كولومبيا بعض من "شخصيات الرواية الأساسية" صُوّروا فيها، أو خُيّل لهم أنهم صُوّروا فيها، مع عدد من أفراد الأسرة الآخرين الذين جاء قسم منهم من مناطق نائية من العالم لمناقشة مظالمهم. لكنهم سيصابون جميعاً بخيبة أمل ولن يحصلوا على جزء صغير من أرباح غارسيا ماركيز الحالية لأن المحاكم في كولومبيا، البلد الذي يتمتع فيه معظم أفراد الطبقات الوظيفية بثقافة أدبية راسخة، كان في وسعها أن تحدد الفوارق الأدبية الدقيقة بين الحقيقة التاريخية والنص القصصي، وبهذا تعززت مكانة حرية المؤلف على نحو لا لبس فيه.

أضحت رواية **قصة موت معلن** من أنجح روايات غارسيا ماركيز، إن على صعيد القراء أو على صعيد النقاد؛ فما إن تُقرأ الرواية حتى تنطبع في الذاكرة. لكن لعلها من ناحية أخرى أشد مؤلفاته تشاؤماً. إن هذا التحوّل ذو صلة على ما يبدو بإحباطات نشاطه السياسي من عام 1974 وحتّى عام 1980 ولظروف كولومبيا في نهاية تلك المرحلة.

كان غارسيا ماركيز في باريس في الحادي والعشرين من أيار لحضور مراسم تنصيب فرانسوا ميتران، وكان معه كارلوس فوينتس وخوليو كورتاثار وهورتينسيا أرملة آليندي. وكانت أوّل حملة من حملات التنصيب الرئاسية التي يتعهدها أصدقاؤه الشخصيون على مدى السنوات المقبلة بالرغم من أن أيّاً من تلك الاحتفالات



لم تكن أكثر إدهاشاً واستعراضاً وشاعرية من ذلك المشهد الاستثنائي الذي صنعه ساموسه الأشد وعياً بالذات، والأشد وعياً بالتاريخ. كم تغير غارسيا ماركيز منذ الأيام التي لم يرق فيها إلى ما هو أكثر من مستوى الصعاليك الكاريبيين![27]، وفي الشهر التالي، نراه في هافانا حيث يمكث في جناح في فندق الريفييرا، وهو الجناح الذي أبقته السلطات محجوزاً له دائماً واستقرت علاقاته بفيدل على أسلوب معين. فقد أصبحا يتمتعان بالإقامة معاً في مقر إقامة كاسترو في كايو لارغو، وكانا يمضيان الوقت، وحدهما في بعض الأحيان، أو برفقة ضيوف آخرين في أحيان أخرى، بالإبحار بيخته السريع أو بزورقه أكواراماس. ولقد استمتعت ميرثيديس في تلك المناسبات على وجه الخصوص لأن فيدل أسلوباً خاصاً في معاملة الناس، إذ يصغي بانتباه وبأدب كأيام زمان، مما يبعث على السرور والإحساس بالمبالغة في التقدير.

أصبحى غابو وفيدل الآن في مزاج يشجع على الاسترخاء، مما دفع الكولومبي أن يؤدي دور الأخ الأصغر المتردد، غير الرياضي والعابس، والمتذمر دائماً من المتاعب والجوع وغير ذلك من ضرورات الحياة سيئة الحظ. إنه تمثيل صامت راق فيدل وأثار ضحكه، حقاً إن وهن الناس لم يكن يعجب القائد كثيراً، لكن في حالة غارسيا ماركيز، ثمة أسباب تدفع للاستثناء. فهو لم يتصرف تصرف الأخ الأصغر مغالياً على وجه العموم في التقدير والاحترام وحسب، بل كان يعرف أيضاً متى يُمازح، ومتى يسعى للصحبة، ولأي مدى يصل. إن فيدل لم يكن بالضرورة ممن يحترمون الكتّاب عموماً - ولا حتى حرياتهم - لكنه كان يقر دائماً عندما يكون أحدهم متفوقاً في عمله.

أما الشخص الآخر الذي احترم غارسيا ماركيز أكثر من احترام كاسترو له وعامله معاملة الأخ الأكبر سناً، والأكثر حكمة، فهو الجنرال توريخوس. لقد أخبرني فلبب غونثاليث في ما بعد أن من ذكرياته التي لا تنسى عن توريخوس وغارسيا ماركيز تلك التي كان الاثنان يحتسيان فيها الشراب في أحد بيوت توريخوس. وبعد الإفراط في الشرب والقصف، بدأت زخة مطر مدارية، فما كان من الاثنين إلا أن هرعا وهبطا من فوق الشرفة حيث كانا يحتسيان الشراب ويتدحرجا فوق العشب تحت المطر الغزير، يضربان الهواء بسيقانهم، ويقهقهان ضاحكين مثل صبيين صغيرين

أحبا أن يكونا معاً[28]. زار غارسيا ماركيز توريخوس أواخر شهر تموز مع الرئيس الفنزويلي كارلوس أندرياس بيريث وألفونسو لوبيث ميتشيلسين الذي كان غارسيا ماركيز يأمل في فوزه في انتخابات العام المقبل. وأمضى الجميع عطلة نهاية الأسبوع على جزيرة كونتادورا الجميلة. ومكث غارسيا ماركيز مع صديقه العسكري بضعة أيام أخرى ثم قفل راجعاً إلى المكسيك في لحظة كان العالم كله، ومعه أميركا اللاتينية، يشاهد على شاشات التلفزة شريطاً متلفزاً عن زواج الأمير تشارلز وليدي ديانا سبنسر في لندن. لكن أسوأ ضربة عاناها غارسيا ماركيز شخصياً، والأسوأ منذ مصرع سلفادور الليدي عام 1973، حصلت في الحادي والثلاثين من تموز عندما أفادت الأنباء بمقتل توريخوس في حادث تحطم طائرة على جبل بانام. وكان غارسيا ماركيز قد قرر في آخر لحظة ألا يرافقه في تلك الرحلة.

توقعت الصحافة كثيراً إن كان توريخوس قد اغتيل وإن كان غارسيا ماركيز سيحضر مراسم التشييع التي ستجري بعد أربعة أيام، وكانت مفاجأة كبرى وخيبة أمل عظيمة عندما لم يحضر. وعلى الفور، دخل بنفسيه سفر تبريرات غارسيا ماركيز الكلاسيكية إذ قال: "إني لا أدفن أصدقائي"[29]. كانت عبارة غريبة من مؤلف عاصفة الأوراق وليس للعقيد من يكاتبه اللتين تتضمنان عمليات دفن وتركزان على الافتراض المتمثل بأن التأكد من دفن الجثة دفناً يليق بكرامتها واجب أخلاقي أساساً. ولعله أقل متطلبات إنسانيتنا غير الأكيدة دائماً - كما هو الأمر في قصة أنتيغونا.

لم يدفن غارسيا ماركيز أصدقاءه، لكنه استمر في الثناء عليهم. فقد ظهرت مقالته التأبينية توريخوس في صحيفة الاسبكتادور في التاسع من آب خلال حضوره معرض غاليسيه في كوروبه[30]. رأى البعض في سلوكه هذا تهوراً يجمع بين موقفين متناقضين. لكن موت توريخوس كان قد أصابه في الصميم. فقد أكدت مرثيديس في وقت لاحق: "كان هو وتوريخوس صديقين عظيمين وقد أحبه حباً جماً، واضطرب اضطراباً شديداً لمصرعه حتى إن المرض داهمه لشدة تأثره. وافتقده كثيراً حتى إنه لم يذهب بعد ذلك إلى باناما"[31]. ثم يتذكر غارسيا ماركيز لاحقاً من



دون سبب: "كان يسافر مضطراً، فمنح المدر بذلك فرصاً كثيرة تماماً مثلما منح أصدقاءه. لكن ثمة شائعة على مستوى عالٍ تعتقد أن أحد معاونيه ترك جهاز الهاتف اللاسلكي المتنقل على منصة قبل وقت قصير من الرحلة الرسمية. ويقولون إن الجهاز تم استبداله بآخر يحتوي على متفجرات عندما ذهب معاونه لـيأخذه معه". ويضيف غارسيا ماركيز قائلاً: "إذا لم تكن القصة حقيقية، فإنها جذابة من الناحية الأدبية"[32].

السنة هي سنة الانتخابات في كولومبيا، وكان لوبيث ميتشيلسن المدعوم من غارسيا ماركيز هو المنافس الليبرالي للمرشح المحافظ بيساريو بيتانكور. وكان غارسيا ماركيز قد حذّر في الثاني عشر من آذار قائلاً إن لوبيث ميتشيلسن هو أفضل أمل للديمقراطية في البلاد[33]. وبعد يومين اثنين، كشف في عموده أنه هو نفسه على لائحة فرقة موت يمينية (غير الحزب السياسي الذي يتزعمه بينكوف في فنزويلا). وكان على لائحة الأسماء أيضاً ماريا خيمينا دوثان التي سبق ما أن سجنت لمقابلة رجال حركة أم – 19 قبل أسبوعين. اتهم غارسيا ماركيز الحكومة والجيش بالتواطؤ مع هذه الجماعة اليمينية، وقال إنه كان يأمل دوماً أن يلقى مصرعه "على يدي زوج غيور، وليس على يدي أكثر الحكومات خرقاً في تاريخ كولومبيا"[34].

بالرغم من دعم غارسيا ماركيز للوبيث ميتشيلسن، فإن أغلبية 55 بالمئة من المقترعين الذين أدلوا بأصواتهم لم يوافقوه، وفاز المرشح المحافظ بليساريو بيتانكور بنسبة 48 بالمئة. 8 بالمئة من الأصوات مقابل 41 بالمئة لصالح لوبيث، بعد أن أخذ الليبرالي المنشق لويس كارلوس غالان 10. 9 بالمئة من الأصوات. فصار بذلك مرشح المحافظين. ورفع الرئيس المنتهية ولايته طربيه حالة الحصار التي كانت مفروضة بين حين وآخر منذ أربعة وثلاثين عاماً في ماكوندو هذا وقد شن دييغو ابن بيتانكور حملة ضد والده بالإنابة عن حزب العمال الثوري الماوي. وأعلن بيتانكور حال تسلمه مقاليد السلطة عفواً عن حركات الثوار وبدأ أول مباحثات جدية في الأزمة الحديثة مع الثوار لإحلال السلام.

لم يمر أول تدخل لغارسيا ماركيز في السياسة الديمقراطية على ما يرام، ثم حلت الآن مصيبة أخرى في أميركا اللاتينية، خيبت ظنه. ففي مطلع ذلك الشهر



احتل الجيش الأرجنتيني جزر فوكلاند جنوبي المحيط الأطلسي، فأرسل البريطانيون قوة عسكرية لاستعادتها. لقد كانت ظاهرة طغمة عسكرية فاشية ولكنها تمثل، بالرغم من ذلك، نظاماً أميركياً لاتينياً يقف في مواجهة دولة أوروبية محل اختبار لبلاغة غارسيا ماركيز الديمقراطية الحديثة على مدى الاثني عشر شهراً المقبلة إذ وجد نفسه، مثله مثل فيدل كاسترو، يفضل الدكتاتوريين في أميركا اللاتينية على المستعمرين الأوروبيين. وجاء أول تعليق له في مقالة نشرت في الحادي عشر من نيسان بعنوان: *مع أهالي مالوين أو من دونهم*[35]. وفي الأسابيع القليلة التالية وبعد أن بات واضحاً أن القوات الأرجنتينية تمضي نحو الهزيمة، ازداد الشعور بالذعر في القارة.

في الواقع، إن كل الأخبار السياسية في قارة أميركا اللاتينية منذ انتصار الثوّار الساندينيّين عام 1979، بدت وهي تسير من سيّئ إلى أسوأ. ثم كانت هناك مشكلات النظام الشيوعي في بولندا حيث كانت حركة نقابات العمال التي تقودها "تضامن" تشكك في شرعية الحكومة. وبدا كل شيء وهو يسير في الاتجاه غير الصحيح برأي غارسيا ماركيز الذي كان آنذاك يسافر جواً عبر المحيط الأطلسي ويخبر قراءه عن تلك الرحلات، ومن ضمنها رحلة بطائرة الكونكورد وسط "رجال أعمال فاتري الشعور وعاهرات فاتنات من الطبقة العليا"[36]. كما أنه سافر إلى "بانكوك الرهيبة" بعد أن استأجر سيارة رولز رويس في هونغ كونغ (لا أحد من أصدقائي يملك مثلها)، مقنعاً نفسه مرةً أخرى، وهو في عاصمة العالم من حيث السياحة الحسية، أن الفنادق الأميركية هي أفضل الأماكن لممارسة الحب حيث الهواء النقي والملاءات النظيفة[37]. لكن يبدو أن موضوعاته الأدبية قد نضبت. فبعد أن أفلت شمس الاشتراكية، وبعد أن بدا أن العزلة والسلطة اللتين طالما كتب عنهما، قد قُدّر لهما الانتشار في جميع أنحاء الكرة الأرضية، شعر بالحاجة إلى العثور على موضوع آخر، موضوع يغذي به تفاؤله ويلهم لآخرين في الحذر حذوه. ما الذي يمكن أن يكون عليه هذا الموضوع؟ الحب بلا جدال! سيصبح غابو ساري شابلن عالم الأدب، وسيجعل العالم يبتسم ويحب.

كانت أول علامة على هذا التحرك تتمثل بمقالة بعنوان *استحيني قبلة يا بيبي* تستند أساساً إلى رسالة كتبت على جدار في الشارع الذي يقطن فيه غارسيا



ماركيز في مدينة مكسيكو[38]. ويقال إنه تأثر بهذه الدعوة السمحة في عالم تسوده أخبار مزعجة دائماً، وخاصة تلك الآتية من كولومبيا لكنه ارتاب في أن الحب يعود عودة جيدة. (وكان قبل أربعة أشهر لا أكثر قد أسرَّ لقرائه أنه لا يجرؤ أبداً على الكتابة ما لم تكن هناك وردة صفراء على مكتبه؛ وضعتها بلا شك زوجته الحية)[39]. القضية هي أنه ليس معادياً للجنس - فقد قال للعالم أجمع آنذاك، ومن ذلك المكان، تبدل وهو في سن الثالثة عشرة - لكن الجنس يكون أفضل مع البقية، إذ يكون حباً كاملاً. مرة أخرى ازدادت مبيعات الروايات، بحسب رأيه، كما أن أغاني البوليرو الأمريكية اللاتينية القديمة عادت للظهور مرة أخرى.

لعل هذا كله لم يكن محض مصادفة، إذ وافق بعد أكثر من رفض على إجراء مقابلة طال انتظارها معه في مجلة بلاي بوي في باريس عاصمة الحب. وكانت المجلة قد أرسلت كلوديا دريفوس، التي أصبحت في ما بعد واحدة من أنجح اللواتي يجرين مقابلات، كما أن المقابلة التي أجرتها مع غارسيا ماركيز كانت من أفضل المقابلات بحثاً وشمولاً في الحديث إلى المؤلف[40]. وأوضح غارسيا ماركيز آراءه السياسية لقراء المجلة الأمريكيين مؤكداً أن أكثر ما تجاذب فيه أطراف الحديث مع فيدل هو موضوع الأدب وليس السياسة، وأوضح أن علاقتهما علاقة صداقة! ثم انتقل إلى موضوعات الحب والجنس. وقال إنّ ما من أحد عرف الآخر معرفة كاملة، وإنه لا يستثني نفسه مع ميرثيديس في هذا الشأن. ولا يزال لا يعرف عمرها بالضبط، مشيراً إلى أن معظم علاقاته بنساء الهوى أيام شبابه كانت لتزجية الوقت، ورفقة الآخرين، والهروب من الوحدة:

> لدي ذكريات رائعة مع الغانيات، وإنني لأكتب عنهن لأسباب عاطفية... المواخير تكلف مالاً، كما أنها موئل الرجال الأكبر سناً. المبادرات الجنسية تبدأ عادةً في البيت مع الخادمات ومع القريبات، لكن الغانيات كن صديقاتي عندما كنت شاباً يافعاً وكانت لدي صداقات جيدة مع الغانيات دائماً، من صميمهن غانيات لم أعاشرهن كنت ألجأ إلى النوم معهن لأنني أجد النوم بمفردي أمراً فظيعاً، أو لأنني لم أستطع النوم كنت دائماً أردد، على سبيل المزاح، إنني تزوجت كي لا أضطر إلى تناول الغداء بمفردي. وطبيعي أن ميرثيديس تقول عني إنني ابن زنى.



وقال غارسيا ماركيز إنه يحسد ولديه اللذين يعيشان في عصر تسوده المساواة بين الرجل والمرأة: "لقد أظهر كتاب **قصة موت معلن** لأمور كما كانت عليه عندما كنت شاباً" ثم وصف نفسه أخيراً على أنه رجل كان بحاجة ماسة إلى حب: "إني أكثر رجال العلم خجلاً، وأنا أيضاً أكثرهم عطفاً ورحمة. وفي هذا المجال لا أدخل في جدال ولا في مناقشة.. أهي تلك نقطة ضعفي الكبرى؟ لا أدري. إنه قلبي، بالمعنى العاطفي الوجداني. لو كنت امرأة لقلت دوماً نعم، إني بحاجة إلى أن أكون محبوباً جداً. مشكلتي الكبرى هي أن أكون محبوباً أكثر، وهذا هو السبب الذي يدفعني للتأليف". بلاي بوي: "إنك تبدو وكأنك ذو علاقة بالشبق السوي؟" غارسيا ماركيز: "حسناً، نعم. لكن هذا الشبق يتصل بالقلب... فلو لم أصبح كاتباً، لرغبت في أن أكون عازف بيانو يعزف في إحدى الحانات، وأكون بذلك قد أسهمت في جعل العشاق يشعرون بحب أكبر تجاه أحبائهم. لو أمكنني أن أحقق هذا الشيء على نحو أكبر وأنا أكتب - أي أن أجعل الآخرين يحب أحدهم الآخر من خلال كتبي - فإني أعتقد أن هذا هو المعنى الذي أردته لحياتي" إنه يحاول الآن أن يحقق هذا الشيء للآخرين من خلال قصص الحب، ويحققه للأفطار من خلال تأملاته.

تبين هذه المقابلة، التي نُشرت بعد مرور عام تقريباً على إجرائها، صدر واحد من أفضل كتب غارسيا ماركيز حيث ظل يباع بأعداد كبيرة على مدى سنوات. إنه كتاب **رائحة الغوافة** المفصل لدى بلينيو ميندوثا الذي مرَّ مجدَّداً بأوقات عصيبة. يبدو الكتاب حواراً صريحاً وهادئاً يقدم مسحاً لمجمل حياة غارسيا ماركيز وأعماله، كما يعرض لأفكاره في مختلف الموضوعات، بدءاً بالسياسة وانتهاءً بالمرأة[41]. يصعب كثيراً ألاّ نتصور التلميحات المذهلة عن المغازلات الجنسية والعلاقات العاطفية خارج نطاق الزوجية وهي، بقدر ما، فاتحة لسوق جديدة لكاتب ارتبط أسلوبه الأدبي وتميزه عن اللاحب سابقاً بالعنف والمأساة.

بدءاً، أكدّ غارسيا ماركيز قراره بالعودة إلى الكتابة وعدم تخليه عنها مرة أخرى أبداً ما دام يستطيع ممارستها. لقد كانت الكتابة حتى وقت قصير شعوراً بطيئاً، ودافعاً لا يقاوم، وطموحاً، وفي بعض الأحيان عذاباً. لقد بدأ الآن يستمتع بها حقاً.



وكان قد ذكر في مقابلة صحافية منذ سنوات بعيدة، في أثناء مرحلة "إضرابه" الأدبي وعلى نحو تشوبه اللهفة والحرج إلى حدٍّ ما، أنه بدأ يدرك أن معادنة بالكتابة لا يوازيها أي سعادة أخرى[42]. وأخيراً راودته فكرة عن تأليف كتاب جديد: كتاب عن الحب والمصالحة. وبدأ بحلول الربيع في أوروبا تدوين ملاحظاته.

في صيف ذلك العام، سافر برفقة ميرثيديس إلى جميع أرجاء القارة القديمة ورافقهما في سفرهما صديقاهما الكولومبيان ألفارو كاستانو، الذي بات يملك أكبر محطة إذاعية في بوغوتا تذيع الموسيقى الكلاسيكية وهي محطة أچ جي كيه، وزوجته غلوريا بالنثيا" وهي أشهر مقدمة برامج تلفزيونية في كولومبيا، وسافروا إلى باريس وأمستردام واليونان وروما. ثم عاد غابو وميرثيديس إلى المكسيك، وكان في تلك المرحلة قد ثبت النقاط الأساسية في الرواية الجديدة، التي ستدور حول قصة حب بين أبويه، وهي القصة التي ظل يتذكرها منذ سنين.

في أواخر شهر آب، أمضى غارسيا ماركيز وميرثيديس إجازة أخرى مع فيدل كاسترو على السواحل الكوبية. كان رودريغو قد تخرج تواً من جامعة هارفرد، ورافقهما في تلك الزيارة، وهو يفكر في العمل في السينما. وأمضى أصدقاء الأسرة من آل فيودوشي وكارمن بالسيلس وقتاً معهم ومع القائد. وكرّمهم فيدل بجولة بحرية على ظهر يخته إكوارامار وأقام لهم مأدبة عشاء في شقته في الشارع الحادي عشر التي لم يتناول فيها الطعام إلا عدد قليل من الأحباب منذ وفاة سيليا سانتشيث. كان كاسترو طباخاً متحمساً للطبخ، وكان الطبخ واحداً من الموضوعات المفضلة التي يحبّ الحديث عنها، وبخاصة في الوقت الذي انهمك فيه في حملة لإنتاج جبن الكممبير الكوبي وجبن الروكفورت الكوبي حاد النكهة. وفي الليلة التالية تناول الجميع طعام العشاء في منزل أنطونيو نونييث خيمينيث وهناك تحول النقاش من موضوع الطبيخ إلى موضوع المال[43]. كان كاسترو يفكر في زيارة كولومبيا وقال إن على غابرييل، وهو الاسم الذي كان يصرّ على مخاطبته به، أن يرافقه في تلك الزيارة موضحاً "إلا إذا كنت تخشى أن يتهموك بأنك عميل كوبي".

فردّ غارسيا ماركيز:

– فات الأوان على مثل هذا الاتهام.



قالت موثيديس

- عندما أسمع الناس يقولون إن كاسترو يدفع المال لغارسيا ماركيز، فإنني أقول: حان الوقت كي يرى قدراً من ذلك المال.

فقال كاسترو:

- إنه لأمر سيّئ إذا ما أرسلت إليّ لائحة بمبلغ لأدفع. لكني لدي قول لا يعكس مناقشته: أيها السادة، إننا لا نستطيع أن ندفع المال لغارسيا ماركيز لأن ثمنه عال جداً. وقبل مدة ليست طويلة، ولكي لا نتفاخر بأننا شعب شراؤنا، قلت لبعض اليانكيين: القضية ليست هي أننا لن نبيع أنفسنا، ولكن الولايات المتحدة الأميركية لا تملك ما يكفي من المال لشرائنا. هذا تواضع. صحيح؟ الأمر نفسه ينطبق على غارسيا ماركيز، فنحن لا نستطيع أن نجعله عميلاً لنا. أتدرون السبب؟ لأننا لا نملك ما يكفي من المال لشرائه. إنه أغلى بكثير مما نستطيع دفعه.

في هذه اللحظة قال رودريغو، وكان صامتاً طوال هذه المدة:

- عندما وصلت إلى إحدى الجامعات في أميركا الشمالية سألوني كيف وفّق والدي بين أفكاره السياسية وماله وأسلوب حياته. فقلت وأنا لا أجد جواباً أفضل: *ليس ثمة جواب مرضٍ عن هذا السؤال.*

فقال كاسترو:

- انظر! كل ما عليك قوله هو: *المشكلة مشكلة والدي وليست مشكلة أبي*، إن أبي لا يمس فلساً واحداً. أما أمي فهي التي تتولى صرف النقود.

فقال غارسيا ماركيز من دون أن يبوح عليه ظل ابتسامة:

- وهي لا تنفق النقود إلا لشراء الغاروليين.

فردّ كاسترو:

- إنني أفكر الآن في سياسة تخص أسئلتهم عن حساباتك في المصرف. ينبغي لك أن تخبرهم أن الصيغة الاشتراكية هي من كلٍّ حسب قدرته لكلٍّ حسب حاجته، وبما أن غابرييل اشتراكي - ولم يصبح شيوعياً بعد - فإنه يدفع حسب قدرته ويتلقى حسب حاجته فضلاً عن ذلك، فإن الصيغة الشيوعية غير مطبقة في أي مكان.

تحمّس رودريغو للموضوع فقال:



- في يوم ما، جاءني فتىً فحيّاه وقال لي: *والدك شيوعي*. فسألته: ما معنى هذا؟ *هل معناه أن لديه هوية حزبية؟ هل يعني أنه يعيش في بلد شيوعي؟*

أجاب كاسترو:

- كان لا بد لك من أن تقول له: *إن أبي شيوعي فقط عندما يذهب إلى كوبا، ولكنهم لا يدفعون له أي شيء. وهو يعطي حسب قدرته. لقد صنعوا له مليون نسخة من كتبه وهو يتلقى حسب حاجته.*

قال غابو:

إنهم لا يدفعون لي أي شيء. إنهم لا يدفعون لي هنا سنتافو واحداً على شكل عوائد.

خلال الزيارة تحدث غارسيا ماركيز وكاسترو عن مضامين انتخاب بيتانكور في كولومبيا الذي يمثل من الوهلة الأولى انتكاسة كبرى لغارسيا ماركيز ولسورة لكوبة. لقد تبوّأ بيتانكور منصبه في السابع من آب. وبالرغم من أنه محافظ وأنه كان رئيس تحرير سابقاً لصحيفة إيلسيغلو الرجعية، فإن سمعته تشير دائماً إلى أنه سياسي "متحضر" لا يتصف بضيق الفكر، وأنه شاعر هاوٍ ذكر أسماء عدد كبير من الشعراء من بين أصدقائه الشخصيين. وكان غارسيا ماركيز قد بدأ يمتدح النظام الجديد في مقابلات صحافية بعد الانتخابات مباشرة، إضافة إلى تكراره القول عن "الحنين" الذي يشعر به.

وبالرغم من أن غارسيا ماركيز رفض حضور مراسم تنصيب بيتانكور، إلا أنه أثنى على الرئيس الجديد أمام كاسترو معلناً أنه "صديقي الفاضل". كان ابن سائق بغل، وكان أحدهما يعرف الآخر منذ عام 1942 عندما كان غابو يشتغل في صحيفة الاسبكتادور، وكان بليساريو في صحيفة الكولومبيانو، وكان على صلة به منذ ذلك الحين. وأوضح غارسيا ماركيز لكاسترو. "في كولومبيا إما أن تكون محافظاً أو ليبرالياً منذ الولادة، ولا يهم ما تفكّر فيه". وقال إن بيتانكور لم يكن محافظاً إيديولوجياً حقيقياً وإن حكومته تحتشد بالمستقلين. وهو خطيب بلاغي مصقع، ويدخل أعماق الناس. حقاً يدخل أعماقهم". ثم تأتي النقطة الحاسمة في الحديث فيقول: "كما يطلب مشورتي دائماً"[44].

* * *



اقترب موسم جائزة نوبل مرة أخرى، وكما حدث في السنوات السابقة، فقد ذُكر اسم غارسيا ماركيز من جديد، ولكن بإصرار هذه المرة. غير أن المفاجأة هي أنه اختار قبل منح الجائزة بشهر واحد شنّ حملة شعواء ضد مفاهيم بيغن، وهو هجوم ضمني على مؤسسة نوبل التي منحته جائزة نوبل للسلام لعام 1978. في مطلع شهر حزيران كان بيغن قد أصدر أمره بغزو الجارة لبنان، ولم يعمل قائده العسكري الجنرال شارون على حماية اللاجئين الفلسطينيين من الهجوم، فساعد بذلك على حدوث المجزرة في معسكري صبرا وشاتيلا في بيروت في الثامن عشر من أيلول. واقترح غارسيا ماركيز وقتئذ منح شارون وبيغن جائزة نوبل للموت[45].

لكن الدلائل كلها كانت تشير إلى أنه يسعى لترشيح نفسه. وعندما سأله صديقه ألفونسو فويمايور في وقت لاحق من ذلك العام إن كان قد سافر من قبل إلى ستوكهولم، ردَّ مكشراً: نعم، لقد جئت إلى هنا قبل ثلاث سنوات لأداري أموري مع جائزة نوبل[46].

لا بد من أن هذا الكلام لا يعدو أن يكون نكتة من نكاته. إذ إن الحقيقة هي أنه قام ببضع زيارات إلى ستوكهولم في سبعينات القرن العشرين، بل اتصل بآرتور لاندكفيست، الأكاديمي السويدي اليساري والمؤلف المرموق الذي كان له أثر كبير في منح الجائزة للأميركيين اللاتينيين ميغيل أنخل إستورياس وبابلو نيرودا. كما أن غارسيا ماركيز أمضى إجازة في كوبا برفقة السفير السويدي في صيف العام 1981.

إذا كان غارسيا ماركيز يبحث عن فأل حسن، فإن أفضل فأل تمثل بعودة الديمقراطيين الاجتماعيين بزعامة أولف بالمه إلى السلطة في الانتخابات السويدية في التاسع عشر من أيلول سنة 1982. كان بالمه صديق غارسيا ماركيز منذ سنوات، وكان يؤكد دوماً ذَينهُ الشخصي لأعمال لاندكفيست الأدبية التي فتحت عينيه على عالم أرحب. في غضون ذلك، كان شقيقه إليخيو، خبير الأسرة في مجال الأدب، موقناً اليقين كله أن غابرييل سيفوز بالجائزة عام 1982، وكان متأكداً أيضاً أن غابرييل نفسه كان متأكداً من ذلك. وكان ألفارو موتيس قد قال إن سلوك صديقه كان "مشكوكاً فيه" في ذلك الوقت. وفي يوم السبت المصادف السادس عشر من شهر تشرين الأول انفجر غابيتو ضاحكاً خلال حديثه الهاتفي مع أخيه إليخيو الذي

ذكر له موضوع الجائزة، وقال إنه واثق أنه إذا ما ربحها شخص ما، فإن السفير السويدي سيتحدث إلى ذلك الشخص قبل الإعلان عن الجائزة بشهر[47].

وفي يوم الأربعاء المصادف العشرين من شهر تشرين الأول، كانت الصحف المكسيكية تعلن أن رواية غارسيا ماركيز الجديدة ستكون عن الحب. وبينما كان غارسيا ماركيز ومرثيديس جالسين إلى مائدة الغداء من بعد الظهر اتصل بهما أحد الأصدقاء من ستوكهولم ليقول لهما إن كل الدلائل تشير إلى أن الجائزة في حكم المنتهية، ولكن عليه أن يحتفظ بهذا الخبر لنفسه إذ قد يغير الأكاديميون رأيهم. وبعد أن أنهى غابو المكالمة الهاتفية، تبادل ومرثيديس النظرات وهما في حالة ذهول غير قادرين على أن ينبسا بكلمة. وأخيراً قال: "يا الله! ما الذي سيحدث لنا الآن؟"، ثم نهضا مباشرة من وراء المائدة وهربا إلى بيت ألفارو موتيس طلباً للراحة، ولم يعودا إلى منزلهما إلا في ساعة مبكرة في انتظار توكيد الجائزة التي كان يرغب هو نفسه فيها على الأقل، ولكنها تعني حكماً مدى الحياة على كليهما.

لم يستطع أي منهما النوم. وعند الساعة الخامسة والدقيقة التاسعة والخمسين من صباح اليوم التالي بتوقيت مدينة مكسيكو، اتصل نائب وزير خارجية السويد بير شوري بمنزل غارسيا ماركيز في مدينة مكسيكو وأكد الخبر. وعندما وضع غارسيا ماركيز سماعة الهاتف في مكانها، التفت إلى مرثيديس وقال "أصحبت في ورطة"[48].

لم يضيعا الوقت في مناقشة الموضوع أو في إعداد نفسيهما للهجوم الحتمي، ولكن الهاتف بدأ يرن. كان أول المتحدثين هو رئيس الجمهورية بيتانكور من بوغوتا الذي اتصل بعد مرور دقيقتين على اتصال بير شوري فقط، وقال له إنه سمع تواً النبأ من فرانسوا ميتران الذي سمعه بدوره مباشرة عن أولف بالمه. غير أن التفسير الرسمي أفاد أن بيتانكور علم بالنبأ من صحفي يعمل في أر سي أن عند الساعة والنصف صباحاً بتوقيت بوغوتا[49]. ارتدى غارسيا ماركيز ومرثيديس ملابسهما حال الانتهاء من الرد على المكالمة الهاتفية الأولى وانتقيا طعام الإفطار الناشف الذي أتت به إليهما خادمتهما نانتي عندما سمعتهما تتحركان في الطابق العلوي.

باستثناء كتابة رواية **مئة عام من العزلة**، لم يُناقَش أي شيء آخر من ميثولوجيا غارسيا ماركيز الكبرى قدر ما نُوقش الإعلان عن جائزة نوبل وما يتبع



ذلك من صخب وجلبة ورحلة غارسيا ماركيز إلى ستوكهولم لتسلم الجائزة. لو أن أميركياً أو إنكليزياً، ذكراً كان أم أنثى، يفوز بالجائزة، فقلما يكون ذلك الحدث خبراً (ما أهمية الكتّاب، ومن يظن السويديون أنفسهم على كل حال...) لكن هذه الجائزة ليست مجرد تكريم الإنسان من كولومبيا، ذلك البلد الذي لم يألف مماً تلقي التهاني العالمية وحسب. بل تبين أنه تكريم لإنسان هو موضع إعجاب ومحبة على امتداد القارة واسعة الأرجاء والمنعزلة، إنسان نظر إليه الملايين من أبناء تلك القارة على أنه يمثلهم، بل يظهرهم حقاً. انهالت التهاني على المنزل في مدينة مكسيكو من جميع أنحاء العالم عبر الهاتف والبرقيات. فاتصل أولاً بيتانكور ثم ميتران مكوشانار وبورخس وغريغوري رابابا وخوان كارلوس أونيتي عضو مجلس الشيوخ الكولومبي. ولم يتمكن كاسترو من الاتصال هاتفياً في ذلك اليوم فأرسل برقية في اليوم التالي قال فيها: "أخيراً تحقق العدل، إن الاحتفالات ماضية من يوم أمس. يستحيل الاتصال هاتفياً. أهنئك أنت ومرثيديس من أعماق فؤادي". كما أرسل غراهام غرين بدوره برقية: "أحرّ التهاني، يؤسفني أننا لا نستطيع الاحتفال بها برفقة عمر". ونورمان ميلر أيضاً: "ما كان يمكن لها أن تعطى لمن هو أفضل". لكن الأهم من هذا كله هو أن تلك كانت فرصة لأميركا اللاتينية كي تقول أخيراً ما كانت تشعر به نحو غارسيا ماركيز. فقد ادّعت كولومبيا وكوبا والمكسيك أنه أديبها - ونشرت صحفها وصحف العالم أجمع عدداً هائلاً من مقالات المديح والثناء. بدا الأمر وكأن رواية مئة عام من العزلة صدرت الآن، وأن مليار إنسان قرأها في آن واحد بعد خمس ثوانٍ من صدورها في وقت غريب وساحر، وأرادوا الاحتفال معاً.

في غضون دقائق قليلة، بات المنزل في مدينة مكسيكو تحت حصار فرضته وسائل الإعلام، وأقامت الشرطة الحواجز في كلا نهايتي شارع فيغو. ودعا أول الصحافيين غارسيا ماركيز للخروج إلى الشارع وتناول كأس من الشراب - والتقاط الصور أيضاً - وحضر الجيران للتعبير عن ابتهاجهم. وعندما حضر أليخاندرو أبريغون في صباح ذلك اليوم ليبقى مع صديقه القديم وشاهد الفوضى قال في نفسه: "تبّاً! لقد مات غابو!" (كان أبريغون في المكسيك لاستعادة لوحة سبق له أن أعطاها لغارسيا ماركيز، تمثله وقد جحظت عيناه في نوبة سكر)[50].

وسواهد عشرات الصحافيين داخل منزل غارسيا ماركيز يصفون كل التفاصيل الخارجية والداخلية؛ وتنبهوا على وجه الخصوص إلى الورود الصفراء والعرافة فوق كل منصدة، وكان كل واحد منهم يريد مقابلة حصراً عليه مع رحل اللحظة

لم يكن غارسيا ماركيز قد تكلم إلى أمه منذ ثلاثة أسابيع بسبب عطل جهاز هاتفها، فما كان من أحد الصحافيين إلا اللجوء إلى أعاجيب التكنولوجيا كي يوصل الاثنين معاً ليتكلما أمام الملأ. وهكذا أخبرت لويسا سانتياغا كولومبيا أجمع أنها تعتقد أن أفضل ما في النبأ ربما سيكون "إصلاح جهاز هاتفها"، وهو ما تحقق على وجه السرعة. وقالت أيضاً إنها ظلت تتمنى ألاّ يحصل غابيتو على الجائزة أبداً لأنها متأكدة أنه سيقضي نحبه بعدها حالاً. أما ابنها الذي اعتاد على مثل هذا الكلام الغريب، فقال إنه سيأخذ الورود الصفراء معه إلى ستوكهولم لتحميه.

اتخذ غارسيا ماركيز في نهاية الأمر الترتيبات اللازمة لمؤتمر صحافي مرتجل حضره أكثر من مئة صحافي احتشدوا حول منزله. وقال إنه لن يرتدي ملابس سهرة في الاحتفال في ستوكهولم، بل سيرتدي قميصاً من الكتان الأبيض وبنطالاً كالذي يرتديه فلاحو أميركا اللاتينية في أشرطة هوليوود السينمائية اعتزازاً وتقديراً لجده. لقد أمسى هذا الموضوع هاجساً في كولومبيا التي يسكنها الكاتشاكو، حتى لحظة الاحتفال، ورمزاً خشية أن يتسبب غارسيا ماركيز بفضيحة دولية أو أن يتصرف تصرفاً مشيناً يصعب قبوله فيلحق الإهانة بالبلاد. كما أعلن أيضاً أنه سيستخدم قيمة الجائزة لتأسيس صحيفة يدعوها صحيفة إل أوترو (الآخر) في بوغوتا. وقال إنه يعتقد أن نصف الجائزة كان اعترافاً بعمله في الصحافة، وإنه سيبني بيت الأحلام في كارتاخينا.

عند الساعة الواحدة من بعد الظهر، ترك غارسيا ماركيز ومرثيديس الصحافيين عند ذلك الحدّ وهربا من شارع فيغو ونزلا في غرفة في فندق تشابولتيبك في ريسيدانته وبدآ الاتصال بأقرب أصدقائهما، وأمضيا فترة ما بعد الظهيرة في خلوة مع ثمانية أشخاص، في حين ظل بيتهما في حالة صخب. وتقرر أن يغدو ألفارو موتيس سائق أسرة غارسيا بارتشا طوال مدة النشاط الإعلامي.

في غضون ذلك، أكدت واشنطن في اليوم نفسه أنها لن تمنح غارسيا ماركيز بالرغم من مكانته الجديدة تأشيرة دخول لزيارة الولايات المتحدة التي منع من



دخولها منذ أن عمل لمصلحة كوبا عام 1961 (وفي السابع من تشرين الثاني كتب في عموده في صحيفة الاسبكتادور أنه يفضل أن يكون الباب موصداً على أن يكون موارباً - لكن هذا غير دقيق تماماً لأنه كان لا يزال منزعجاً بقرار الحظر - ولهذا هدد تهديداً متسرعاً مفسساً على أن يحظر طبع كتبه في الولايات المتحدة، إذ ما سبب السماح بدخول كتبه إليها في حين لا يزالون يرفضون منحه التأشيرة؟)[51].

صادف ذلك اليوم أيضاً يوم إطلاق سراح الشاعر المنشق أرماندو باياداريس من سجنه في كوبا بفضل وساطة غارسيا ماركيز بين كاسترو وميتران. كان الاعتقاد سائداً بين أنصار الشاعر على أنه مصاب بشلل، ورافقه ريجيس دوبريه مستشار ميتران، وهناك أدهش الجميع عندما نهض عن كرسيه المتحرك وبدأ يسير على قدميه لدى وصوله مطار باريس.

احتفل أصدقاء غارسيا ماركيز في جميع أنحاء العالم. وبكى بلينيو ميندوثا في باريس، لكنه لم يكن الوحيد في ذلك. أما الناشر خوسيه بيثنتي كاتاراين، الذي كان في طريقه إلى المكسيك، علم بالخبر لدى وصوله إلى المطار فأسرع يرقص. وعندما سألته الفتاة التي تبيع الصحف إن كان قد ربح جائزة اليانصيب قال إنه ربحها حقاً. وفي كارتاخينا قال غابرييل إيليخيو في غمرة احتفال الأسرة لكل من يريد أن يصغي إليه: "كنت أعرف ذلك دائماً". لكن ما من أحد ذكّره بأن غابيتو "سيأكل الورق". وقالت لويسا سانتياغا إن أباها العقيد لا بد من أنه يحتفل في مكان ما، إذ لطالما توقع حدوث أشياء عظيمة لغابيتو ووصفت معظم التقارير الصحافية الأسرة على أنها من أهالي ماكوندو الصغيرة غرباء الأطوار: فلويسا سانتياغا هي أورسولا، وغابرييل إيليخيو هو خوسيه آركاديو بالرغم من أنه تساءل كعهده إن لم يكن هو ميلكيادس نفسه. لكن غابرييل إيليخيو بدأ رويداً رويداً يسيء التصرف بالرغم من زهوه وحماسته اللذين لا يرقى إليهما شك: لقد حصل غابيتو على الجائزة من خلال تأثير ميتران، على حد قوله (هذه الأشياء أهميتها كما تعلمون). كان غابيتو مجرد كاتب من الكتاب الكثر في أسرته، ولكنه لم يستطع أن يفهم السبب الذي يجعل هذا الكاتب موضع هذا الاهتمام الشديد.



قرر حاكم مديرية مجدلينا أن يعلن اليوم الثاني والعشرين من تشرين الأول يوم عطلة في الإقليم، واقترح أن يتحول منزل العقيد ماركيز القديم في بلدة آراكاتاكا إلى نصب تذكاري وطني وفي بوغوتا نظم الحزب الشيوعي تظاهرات ساندت غارسيا ماركيز لعودة إلى البلاد ليكون ناطقاً باسم المقهورين ولنقد كولومبيا. وسأل صحافي عاهرة في الشارع إن كانت سمعت النبأ، فقالت إنها سمعته من أحد زبائنها في الفراش. لقد ساعد الاعتقاد أن هذا هو أفضل وفاء يمكن لغارسيا ماركيز أن يحظى به. وفي بارانكيا سمع سائقو سيارات الأجرة في شارع بوليفار بالنبأ عبر أجهزة المذياع، فما كان منهم إلاّ أن أطلقوا أبواق سياراتهم دفعة واحدة: على كل حال، كان غابيتو واحداً منهم.

بدأت الصحف تصف غارسيا ماركيز بأنه "ثيرباتس الجديد"، مرددة بذلك صدى فكرةٍ كان بابلو نيرودا هو من أوائل الذين اقترحوها عندما قرأ مئة عام من العزلة سنة 1967[52] وظلت هذه المقارنة تتكرر من تلك اللحظة وعلى مدى سنوات. ووصفته مجلة نيوزويك التي نشرت صورته على غلاف العدد بأنه "راوي القصة الساحر"[53]. لعل سلمان رشدي الذي يواصل الكتابة من لندن هو أفضل من لخّص الفكرة التي سادت يومئذ، وبعد ذلك نشر مقالة بعنوان "ماركيز الساحر" قال فيها: إنه واحد من أكثر خيارات حكّام نوبل شعبية على مدى سنين، واحد من السحرة الحقيقيين القلائل في الأدب المعاصر، وصاحب ذو خاصية نادرة في إنتاج عمل من الطراز الأول الذي يصل إلى أوسع الجماهير ويسحرها. أعتقد أن رائعة مئة عام من العزلة هي أحد أهم عملين أو ثلاثة أعمال روائية وأعظمها إطاراً نشرت منذ الحرب[54].

في غضون ذلك، وبعد أسبوع واحد من الإعلان عن الجائزة، انتخب واحد من أخص أصدقائه وهو فيليب غونثاليث زعيم الحزب الاشتراكي الإسباني رئيساً للوزراء في بلاده، فكان بذلك سبباً آخر للاحتفال والنشاط السياسي. في العام السابق انتخب ميتران والآن غونثالث. أكانت الجائزة ما ترى علامة على أن كل شيء بدأ يتغير؟ لقد قال غارسيا ماركيز لمجلة جينتِ الصادرة في بوينس آيرس: "يمكن أن أموت سعيداً لأنني أصبحت الآن خالداً". لعله كان يمزح.



في الأول من كانون الأول نُصب ميغيل دي لا مدريد رئيساً لجمهورية المكسيك لست سنوات. لم يكن الاثنان قريبين، لكن غارسيا ماركيز حضر مراسم التنصيب. وفي ذلك اليوم تقلد فيليب غونثاليث منصبه رئيساً للوزراء في الحكومة الإسبانية الجديدة في مدريد. وفي الأيام الأولى من شهر كانون الأول سافر غارسيا ماركيز جواً إلى مدريد، بعد زيارته لكوبا، للترحيب بغونثاليث؛ وليحيّيه غونثاليث بدوره. وأفصح عن أنه تباحث مع كاسترو على مدى إحدى عشرة ساعة في هافانا، وأن حكومة ريغان رفضت منحه تأشيرة دخول غير مشروطة للهبوط في نيويورك. في غضون ذلك، التقت ميرثيديس غونثالو في باريس ولكنها لم تلتق رودريغو. وكانت خيبة أمل غارسيا ماركيز هي أن ابنه الأكبر الذي كان منهمكاً في التصوير شمالي المكسيك انهماكاً كبيراً، لم يستطع السفر معه إلى ستوكهولم التي تمثل بلا شك مرحلة عالية من حياة والده المميزة. وكان الاثنان قد التقيا قبل شهر في كاراكاس، ولكن ما من أحد يعرف نتيجة ذلك اللقاء. ولم يبدُ على أيٍّ من الرجلين الاستعداد للحديث أكثر في ذلك الموضوع.

عند الساعة السابعة من مساء الاثنين السادس من كانون الأول أقلعت طائرة جامبو تابعة لخطوط أفيانكا مستأجرة من الحكومة من بوغوتا إلى ستوكهولم في رحلة مدتها اثنتان وعشرون ساعة. تحمل على متنها وفداً رسمياً برئاسة وزير التربية خايمي إرياس راميريث مع اثني عشر صديقاً من أصدقاء غارسيا ماركيز اختارهم غييرمو أنغولو - وكان غارسيا ماركيز قد توسل إلى صديقه القديم أنغولو إعفاءه من هذه المهمة المثيرة للضغائن والخصام - وزوجاتهم وعدد كبير من الناس دعتهم دار نشر أوبيخا نيغرا، وسبعين عازف موسيقي يمثلون مختلف الجماعات العرقية. اتخذ التدابير اللازمة بشأنهم وزير الثقافة بمساعدة ومشورة غلوريا تريانا المتخصصة في الأنثروبولوجيا.

عندما وصل أخيراً ضيوف غارسيا ماركيز إلى مدينة ستوكهولم، كانت الحرارة قد انخفضت منذ قليل إلى ما دون الصفر. وكان المئات من الكولومبيين وغيرهم من الأميركيين اللاتينيين المقيمين في أوروبا ينتظرون في المطار. ومرور الليل ازداد انخفاض درجة الحرارة إلى ما دون عشر درجات تحت الصفر، لكن السويديين

أخبروهم أنهم محظوظون لأن الجو لم يكن أكثر برودة مما كان عليه سابقاً، كما أن الثلوج لم تسقط بعد[55]. وكانت مجاميع من أصدقاء الأسرة من إسبانيا وباريس قد حضرت مبكرة منذ العصر: كرمن بالسيلس وبجدليا أوليفر من برشلونة، وأسرة ميودنتي والصحفي رامون تشاو، ميرثيديس وغونثالو، تاتشيا وتشارلز وبسنو ميدوثا من باريس مع رجيس دوبريه ودانييل زوجة ميتران، ولكن الصديق ووزير الثقافة جاك لانغ لم يحضر إذ اضطر إلى إلغاء سفره في آخر لحظة. وكان السفير الكولومبي حاضراً أيضاً فضلاً عن السفير الكوبي والقائم بالأعمال المكسيكي. كانوا كلهم ينتظرون تحت برد القطب الشمالي[56].

عينت تاتشيا نفسه المصور الرسمي لغارسيا ماركيز وتمكن هي وأصدقاؤها من أن يحصلوا لها على هوية صحافية. وحين كان محبوبها المتيم يتقدم من الطائرة باتجاه صالة الانتظار، اندفعت إلى الأمام والتقطت أول الصور للبطل الفاتح، ثم التقطت بعد ذلك صوراً للكولومبيين الذين اشتعلوا حماسةً وهم يريدون أن يلمسوا غارسيا ماركيز من خلال حواجز المطار الفولاذية وسط ظلمة الشمال.

اتجه غابو وميرثيديس إلى فندق غراند حيث كان في انتظارهما جناح مؤلف من ثلاث غرف ليمضيا فيه الليالي القليلة المقبلة[57]. استسلم غارسيا ماركيز للنوم مجهداً، واهناً من السفر بالطائرة الفائتة، منفعلاً انفعالاً شديداً ومرتبكاً. ثم "نهضت فجأة من النوم وتذكرت أنهم يعطون الفائز بجائزة نوبل الغرفة نفسها وفي الفندق نفسه. وفكّرت: لقد نام روديارد كيبلنغ على هذا الفراش، وتوماس مان ونيرودا وإستورياس وفوكنر". أرعبتني الفكرة، فخرجت أخيراً من الغرفة وواصلت نومي على الأريكة[58].

تناول غارسيا ماركيز طعام الإفطار في صباح اليوم التالي مع مجموعة كبيرة من الأصدقاء الذين يمثلون ماضيه كله من ضمنهم كارمن بالسيلس وكاتازاين. لم يسبق أن اجتمع من قبل مثل هذا الحشد من الناس، بل كان بعضهم لا يعرفون البعض الآخر، وربما لم يُرق بعضهم بعضاً. وقال بلينيو مندوثا إن غارسيا ماركيز تصرف في المطار وكأنه مصارع ثيران زائر يحيّي محبيه، وبه كان يرتدي ملابسه كل يوم في جناحه في الفندق. كأنه مصارع ثيران أيضاً، محاطاً بأصدقائه من كل



جانب. وفي إحدى المرات اصطحب ألفونسو فوينمايور من "جاح القلة السعيدة" إلى الحجرة المنفردة وناوله خطابه قائلاً: "ألق نظرة إلى هذا أيها الأستاذ، وقل لي ما رأيك". قرأ فوينمايور الخطاب بإعجاب وقال إنه فهم أخيراً موقف غارسيا ماركيز السياسي. فرد صديقه: "إن ما قرأته ليس سوى مئة عام من العزلة لا أكثر ولا أقل"[59].

يتذكر ميندوثا عند اقتراب الساعة قائلاً: "شاهدت غابو ومرثيديس هادئين مطمئنين، يتحدثان غير عابئين تماماً باحتفال التتويج الذي يقترب منهما، كأنهما لا يزالان في بلدة سوكري أو ماغانغي قبل ثلاثين سنة، وفي بيت العمة بيترا أو العمة خوانا في مساء يوم سبت ما"[60]. كان من المقرّر إلقاء كلمة جائزة نوبل للأدب عند الساعة الخامسة مساءً في مسرح الأكاديمية السويدية للأدب الكائن في سوق تبادل الأوراق المالية بحضور مئتي ضيف وُجّهت إليهم الدعوات خصيصاً لحضور المناسبة ليبلغ إجمالي الحضور أربعمئة شخص، تلي ذلك مأدبة طعام عند الساعة السادسة والنصف تكريماً لكل الفائزين بالجائزة في منزل سكرتير الأكاديمية.

عند الساعة الخامسة مساءً ظهر غارسيا ماركيز مرتدياً سترته، وبنطاله داكن اللون وقميصه الأبيض واضعاً ربطة عنق حمراء، وقدّمه سكرتير الأكاديمية الدائم لارس غيلينستين المفرط في الطول والنحافة، وهو أيضاً روائي مشهور كتب البيان الذي أعلن فيه عن منح الجائزة. ولم يكن صوت غيلينستين مسموعاً إلا نادراً وهو يتكلم بالسويدية لأن معلقي الإذاعة الكولومبية الحاضرين في الاحتفال بدوا وكأنهم ينقلون مباراة كرة قدم، واضطر غارسيا ماركيز إلى أن يشير بأصابعه إشارة إلى تخفيض الصوت، قبل أن يبدأ إلقاء كلمته بعنوان عزلة أميركا اللاتينية. وقد ألقى الكلمة المؤلف نفسه بأسلوبه العلواني المتحدي المتوهج بالتعاويذ، مازجاً بذلك واقعية سحرية مفككة بالسياسة، فبدأ الخطاب هجوماً واضحاً على عجز الأوروبيين أو عدم رغبتهم في فهم مشكلات أميركا اللاتينية التاريخية وترددهم في منح القدرة وقتاً للنضوج والتطور يماثل الوقت الذي احتاجت إليه أوروبا من قبل. كما أوضح في خطابه اعتراضه الدائم على الأوروبيين، (من ضمنهم الأميركيون في أميركا الشمالية)، رأسماليين كانوا أم شيوعيين، في فرض "خططهم" على حقائق الحياة في

أمريكـــا اللاتينية. وادّعى غارسيا ماركيز أن الجائزة منحت له جزئياً بسبب نشاطه الـــسياسي وليس لأدبه وحده، وفرغ من إلقاء كلمته عند الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والثلاثين، فوقف له الحاضرون عدة دقائق[61].

في مـــساء يـــوم الخميس المصادف التاسع من الشهر، ذهب غارسيا ماركيز ومرثيديس إلى مقر إقامة رئيس الوزراء في هاربسوند لتناول عشاء خاص مع أولف بالمـــه وأحـــد عشر ضيفاً آخرين من ضمنهم دانييل ميتران ورجيس دوبريه وبيير شوري وغنتر غراس والشاعر والسياسي اليركي بولند أحاقيد وآرتور لوندكفيست. وقالت وزارة الخارجية السويدية إن الدعوة كانت امتيازاً خاصاً لم توجه من قبل إلا في ما ندر. وكان غارسيا ماركيز قد تعرف إلى أولف بالمه عن طريق فرانسوا ميتران في منـــزله الكائن في شارع بيفر قبل سنوات. وبالرغم من الإجهاد التام إلاّ أنه وجـــد نفـــسه قادراً على المضي في الكلام لساعتين أخريين عن الوضع في أميركا الوسطى وذلك في حديث سيكون له أبلغ الأثر في الاقتراح بالتوصل إلى عقد اتفاق سلام بين الرؤساء الستة للبرازخ، وهو ما سيعرف في ما بعد بعملية كونتادورا[62].

لم يكن هذا كله سوى مقبلات للوجبة الرئيسة في العاشر من كانون الأول، وهو يوم "احتفال نوبل": عند الصباح، التمرينات في الكونسيرتوس، وعند العصر، الحـــدث الكـــبير المتمثل بتسليم ملك السويد جوائز نوبل عند الساعة الرابعة أمام جمهـــور يتألف من ألف وسبعمئة شخصية. في ذلك اليوم ظهرت صورة مرثيديس "زوجـــة نـــوبل" على غلاف مجلة كاروسن وهي منحنية على صحيفة التيمو. وكتبت قريبتها بياتريس لوبيث دي بارثينا مقالة على الصفحات الداخلية من المجلة بعنوان: "انتظرني غابيتو حتى أكبر"[63]. يمكن للمرء أن يتخيل أن القريبة قالت لها: حسناً، أتـــريدين محـــو تلـــك المقالة التي كتبها كوســـويلو ميدوثا في العام الماضي؟ لم لا تـــسمحين لي بإجـــراء مقابلـــة ممارة معك مرفقة بالصور؟ فقالت مرثيديس: "لا بأس... لكن هذه المقابلة لا أكثر".

وبعـــد طعـــام الغداء ارتدى رجل الساعة ملابسه، وكان تتحدث عن بدلة تقـــليدية خاصة بأهل فـــنزويلا منذ اليوم الذي سمع فيه النبأ. وقال أحياناً إنه يريد بـــذلك أن يكرم جده العقيد، وفي أحيان أخرى، بتواضع أقل يريد أن يكرم أشهر



الشخصيات التي ابتكرها وهي شخصية العقيد أوريليانو بويندبا. ونشرت صحيفة الاسبكتادور رسالة في اليوم الذي أعقب الاحتفال كتبها دون آريستيديس غوميث أبيليس من مدينة مونتيرا في كولومبيا، وكان يتذكر جيداً العقيد ماركيز، وقال إنه ما كان ليشاهد ميتاً وهو يلبس البدلة التقليدية: فهو أرفع من أن يرتدي ذلك، كما أنه ما كان ليُشاهد في الشارع بلا سترة، وبدرجة أقل في احتمال جائزة نوبل[64].

في خضم هذه المناقشات لم يأتِ أحد على ذكر الإنسان الذي لبس بدلة تقليدية في شبابه وهو غابرييل إيخيو غارسيا.

الجناح 208، فندق غراند في ستوكهولم، العاشر من كانون الأول سنة 1982، الساعة الثالثة عصراً. كانت تاتشيا قد اشترت قبل سفرها من باريس ثياباً داخلية لغارسيا ماركيز من النوع الذي يبعث الحرارة في الجسم. وقد ظهر بهذه الثياب في صورة مشهورة له محاطاً بأصدقائه من الذكور الذين ارتدوا ثياب سهرة لقاء استئجارها بمئتي كورونا لكل قطعة. ناولتهم ميرثيديس زهوراً صفراء، واحداً تلو الآخر، لطرد الحظ السيئ أو ما يعرف باسم "لا بافا" في منطقة الكاريبي التي تتكلم الإسبانية، وساعدتهم في تثبيتها في ثنية صدر ستراتهم: "والآن دعوني أنظر إليكم أيها الرفاق..."، ثم اتخذت التدابير اللازمة لالتقاط الصور[65]. وأخيراً ظهرت البدلة التقليدية، مما يعني، كما أشارت آنا ماريا كابو في صحيفة الاسبكتادور بعد ثلاثة أيام، إن غارسيا ماركيز وصل الاحتفال وقد بدا "متجعد مثل الأكورديون"[66].

حدث هذا في ما بعد. أما الآن، فقد أعدّ غارسيا ماركيز نفسه للحظة الحقيقة بعد أن لبس متحدياً البدلة التقليدية وهو الشيء الأقرب، بعد أن قبل كل شيء وقيل، لما يعرف بزي الطبقة الأميركية اللاتينية الدنيا، وانتعل حذاءً أسود طويل الساق، ويا للهول. إذا كانت البدلة التقليدية مجعدة، فمما لا شك فيه أن ما يرتديه أوغستو ساندينو في نيكاراغوا وخوسيه مارتي في كوبا وغيرهما من أبطال المقاومة الأميركية اللاتينية كان مجعداً أيضاً ناهيك عن ثوب أوريليانو بويندبا. ثم ارتدى معطفاً بقبة غائلة برد اسكندنافيا. ويتذكر بلينيو ميندوثا تلك اللحظة: "احتشدنا كلنا وهبطنا السلالم لمرافقة غابو نحو اللحظة الخالدة في حياته"[67]. ثم يتحول

ميلدوتا إلى لزمن الراهن: "الشوارع مكسوة بالثلج، لمصورون في كل مكان. أرى وأنا إلى جنب عاسو اشداد وجهه للحظة. أستطيع أن أشعر بالتوتر المفاجئ المصاحب لصديقي الصاعد من برج الحوت بوساطه جهاز الإرسال الموتي المثبت عنده. الزهور والبريق والشخصيات بثياب سوداء والبساط الأحمر. ربما يكلمه أسلافه في عواجيرا من الصحارى البعيدة التي دفنوا فيها، ربما يقولون له إن أبهة الاحتفال بالمجد تشبه أبهة الاحتفال بالموت. شيء ما من هذا القبيل مستمر في الحدوث لأنني أسمعه وهو يشق طريقه إلى الأمام وسط الألق الجذاب والشخصيات بثيابها الرسمية، وهو يتمتم بصوت خفيض تشوبه دهشة مفاجئة، مذعورة ومؤمنة: "تباً كأن الناس يحضرون جنازتي!"[68].

دلفوا إلى قاعة الرقص الكبرى للكونسيرتوس المصممة على نحو يوحي بمعبد من معابد الإغريق: ألف وسبعمئة شخص من ضمنهم ثلاثمئة كولومبي. وتناهت إلى الأسماع شهقة لمرأى غارسيا ماركيز مرتدياً ملابس بيضاء اللون: يبدو كأنه لا يزال بثيابه الداخلية التي تشيع الحرارة في جسمه! جلست الأسرة المالكة في الجهة اليمنى من خشبة المسرح التي تغطيها زهور صفراء فوق كراسٍ زرقاء وذهبية: الملك كارل غوستاف السادس عشر والملكة سلفيا الحسناء المنحدرة جزئياً من أصل برازيلي، والتي أمضت طفولتها في ساوباولو، والأميرة ليليان والأمير بيرتيل لذين وصلوا كلهم عند عزف السلام الوطني. وكان إلى جانبهم منصة يتحدث منها السكرتير الدائم غيليستين. أما الفائزون فكلهم جالسون إلى جهة اليسار على كراسٍ حمراء اللون: السويديان سوني بيرغستروم وبنغت صامويلسون والبريطاني جون فاين في الطب، والأميركي كينيث ويلسون في الفيزياء، والجنوب أفريقي آرون كلوغ في الكيمياء، والأميركي جورج ستيغلر في الاقتصاد. وإلى الوراء يمتد صفان من الكراسي جلس عليها أعضاء الأكاديمية ومجلس الوزراء السويدي وغيرهم من الشخصيات المهمة. أما غارسيا ماركيز فكان يحس وحده بالبدلة التقليدية محفوفاً به بدلات سوداء وكراسي وفرو وقلادات لؤلؤية. وبينه وبين الملك الحرف (ن) بخط كبير دلالة على الاسم "نوبل" وقد كتب بشكل دائري: بالطلاء أم بالطبشور؟ وهو في انتظاره.



لواضح أنه كان متوتراً عندما بدأ سكرتير الأكاديمية السويدية البروفسور غيليستين الكلام. وعندما وصل إلى لحظة غارسيا ماركيز، وهي اللحظة ما قبل الأخيرة، تكلم غيليستين باللغة السويدية ثم التفت إلى الساحلي الكولومبي الذي نهض واقفاً، ينظر بعينين متألقتين إلى العالم كله وكأنه ذلك الصبي الصغير المتأكد من مدرسة سان خوسيه دي بارانكيا، ثم تحول إلى اللغة الفرنسية ليوجز ما قاله، ثم دعا الكولومبي ليتقدم من الملك لتسلم الجائزة. ترك غارسيا ماركيز الذي اختار مقطوعة بارتوك الموسيقية أنترفيرو لمصاحبته، الوردة الصفراء على مقعده بعد أن تحرك ليتسلم الجائزة وانكشف لحظة لمصيبة يصعب تخيلها من دون تلك الزهرة الطوطمية وهو يمشي فوق خشبة المسرح الكبيرة شاداً قبضته وسط دوي الأبواق ثم توقف فوق الدائرة المطلية بدهان منتظراً الملك. وفيما كان يصافح العاهل مزيناً بالأوسمة، بدا وكأنه صعلوك تشابلن يتودد إلى نفسه بقدر من التأنق. وبعد أن تسلم الوسام ولفافة من الرّق انحنى انحناءه صارمة وجافة للملك، ومن بعد لضيوف الشرف ثم لجمهور الحاضرين، في الوقت الذي حظي فيه بأطول وقفة احترام في تاريخ هذه الاحتفالات المهيبة: عدة دقائق[69].

انتهى الاحتفال عند الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والأربعين عصراً، وفيما كان غارسيا ماركيز يغادر مع غيره من الفائزين رفع كلتا يديه فوق رأسه كأنه بطل مصارعة، وهي العلامة التي بدأ منذ ذلك الوقت فصاعداً يرسمها مرات ومرات في حياته مستقبلاً. وكان لدى أولئك المحظوظين ممن دُعوا لحضور الاحتفال خمساً وأربعين دقيقة للوصول إلى القاعة الزرقاء الكبرى للستادهوس (دار بلدية ستوكهولم) لحضور مأدبة الأكاديمية السويدية الكبرى. كانت لائحة المأكولات قد أعدها جوني جوهانسون، أبرز طاهي السويد، وكانت مؤلفة من طعام سويدي أساساً: شرائح لحم الرّنة والسلمون المرقط وفريدس وامور واللور، والشراب من مختلف الأنواع[70]. وأشعل غارسيا ماركيز سيجاراً كوبياً بتحدٍّ، وكان أبرز فقرات الاحتفال - وهو ما يتفق عليه الجميع - هو حضور سبعين عازفاً موسيقياً كولومبياً، وكان نيرو لوبيث وهو صديق غارسيا ماركيز يتابع مغامراتهم وحوادثهم السيئة في ستوكهولم مع آلة تصويره[71]. وقد رقصت غلوريا تريانا وهي ترافق بلهجة

كل النساء: "كلهن عذراوات وقد تعهدت لهن أمام أمهاتهن". ولدى وصول الجميع إلى دار البلدية التي كانت مكسوة بلوحات كبيرة ذات رسومات تطريزية منكبة، جثا واحد من المجموعة القادمة من ريو سوثيو وصلى معتقداً أنه في كنيسة. وساءل لوبيث عن شعور السويديين وهم يشاهدون "الجماعة غير المتجانسة القادمة من ماكوندو وهي تهبط السلالم خليطاً من هنود واسود والكاريبيين والإسبان هم قوم الهوية الكولومبية". وبحسب رأيه، فإن أفضل ما قُدّم حتى تلك اللحظة هي المثلجات المعروفة باسم نوبل فلامبي. بدأت الحياة تتدفق إلى الداخل الآن. وكان العرض الذي يقوده توتو لا مومبوسينا وليونور لا ينغرا غراندي دي كولومبيا غاية في الروعة وقد شجعهم التصفيق على الاستمرار في العرض لثلاثين دقيقة بدلاً من خمس عشرة دقيقة[72].

قرأ كل فائز بالجائزة كلمة لمدة ثلاث دقائق أعقبها شرب الأنخاب. وبدأ غارسيا ماركيز أولاً بكلمة بعنوان في الثناء على الشعر زعم فيها أن الشعر "كان أكبر الأدلة الدامغة على وجود الإنسان"[73]. غير أن ما لم يعرفه أحد في ذلك الوقت هو أنه تلقى ما هو أكثر من مساعدة قليلة من صديقه ألفارو موتيس، وهو ما يمكن أن يتوقعه كل من يقرأ الكلمة ومن ثم يفكّر فيها. وطلب اثنان من الفائزين بنوبل أن يوقع لهما على نسخ من رواية مئة عام من العزلة وبعد الأنخاب ارتقى الجميع السلالم إلى الطابق الأول حيث "القاعة الذهبية الكبرى" للرقص. وبدأوا أولاً برقصة الفالس، ثم رقصات متفرقة من شمالي أوروبا، فأغاني "بيسامي موتشو" و"بيرفيديا" وغيرها من أغاني البوليرو، وأخيراً رقصة الموكستروت والرومبا

في وقت متأخر من مساء ذلك اليوم، وبعد أن رجع الجميع إلى الفندق، اتصل رودريغو هاتفياً من صحراء المكسيك الشمالية، كان الفائز الجديد برفقة عشرين من أصدقائه، ولا يزال يعب من الشراب. سار كل شيء بهدوء، واتجه غارسيا ماركيز نحو الهاتف والبريق يشع من عينيه. ثم يخبر الصحافيين بعد ذلك متباهياً أن لولديه "نكهة الإحساس بالعمل التي يتصف بها أبوهما وأمهما"[74].

في ذلك الوقت، وعلى بعد آلاف الأميال، كان ثمة احتفال أشدّ صخباً وحماسةً قائماً على قدم وساق في بلدة آراكاتاكا الكاريبية الكولومبية الصغيرة،



وكان الوقت لا يزال ليلاً وأقيمت تسبيحة شكر إلى البيت الذي عُمِّد فيه غابيتو عند الساعة التاسعة صباحاً، أعقبتها زيارة إلى البيت الذي ولد فيه. واقترحت حملة تحويل بلدة آراكاتاكا إلى بلدة سياحية تاريخية على غرار بلدة بروست إيليه كومبره، ثم اجتمع مجلس الحكم في مديرية مجدليا في بيت الثقافة برئاسة الحاكمة المفعمة بالنشاط والحيوية سارا بالشيا عبد الله، وهي مواطنة من بلدة آراكاتاكا أيضاً[75].

تستذكر ريتا شقيقة غارسيا ماركيز قائلة: "في اليوم الذي مُنحت فيه الجائزة، جرى احتفال في بلدة آراكاتاكا نظمته حكومة مجدليا. واستأجرت الحاكمة قطاراً ينقل كل الضيوف وأفراد الأسرة على امتداد السكة: الأخوال والخالات والأعمام والعمات وأولادهم وبناتهم، فوصلنا جميعاً إلى آراكاتاكا حيث التقينا بمزيد من الأقارب وعدد آخر من الأعمام والعمات والأخوال والخالات والأسر. عدد كبير من الناس. كان يوماً مدهشاً، تخللته الألعاب النارية، وقداس، ولحم نصف بقرة طولي مشوي في الهواء الطلق، ومشروبات لجميع أبناء البلدة. وحضر فريسا وزير المعادن كارلوس مارتينيث سيمان. وفي ذلك اليوم، دشن مبنى الاتصالات الذي شيده شقيقنا خايمي. لكن أروع ما في الاحتفال تمثل باللحظة التي أُطلقت فيها فراشات صفراء"[76].

وفي ستوكهولم بدأ رجل الساعة بالاسترخاء. لقد شعر أنه مسؤول عن إعطاء العالم صورة إيجابية لأمريكا اللاتينية مدركاً أن هناك من ينتظر في كولومبيا، ولا سيما أعداؤه، على أحر من الجمر كي يقترف هفوة، لأن فكرتهم عن "الصورة الحسنة" للبلاد تختلف اختلافاً جذرياً عمّا كان يريد أن يفعله. يقول غارسيا ماركيز لاحقاً: "ما من أحد شك في أنني لم أكن سعيداً طوال تلك الأيام الثلاثة، مراعياً أدق التفاصيل كي يسير كل شيء على ما يرام. لم أكن أقوى على ارتكاب أي خطأ لأن أصغر خطأ، مهما كان تافهاً، سيكون كارثة في هذه الظروف"[77]. (عندما رجعنا بعد ذلك إلى مدينة مكسيكو، قال الفائز الجديد لألفارو موتيس: أخبرني عما حدث في ستوكهولم. إنني لا أتذكر أي شيء. كل ما هنالك هو أنني أشاهد وميض آلات التصوير وأرى نفسي متحملاً أسئلة الصحافيين وهي أسئلة متشابهة دوماً. قل لي ما تتذكره")[78].



لكن نجاح غارسيا ماركيز كان مذهلاً، حتى إن صحيفة التيمبو التي ظلت علاقته بها سهلة أثنت عليه ثناءً شديداً في إحدى مقالاتها الافتتاحية، إذ هنأته وأقرت أن حياته كانت شاقة وأنه كسب كل ذرة من مجده، وانتهت المقالة بما يلي: "بعد الصفعة التي صاحبت احتفال نوبل، لا بد للبلاد من أن تعود إلى الواقع وتواجه مشكلاتها وترجع إلى أمورها اليومية. لكن شيئاً واحداً لن يبقى كما كان: الاعتقاد بأن طاقاتنا لا تزال ثروة غير مكتشفة، وأننا بدأنا الآن إلى حدٍّ ما بالظهور على المسرح العالمي. وها هو غارسيا ماركيز يثبت ذلك، لهذا، فإننا لن ننسى هذا الدرس الثمين"[79].



-21-

نوبة الشهرة وعطر الغوافة:

الحب في زمن الكوليرا

1985-1982

في صباح اليوم التالي، الصباح الذي أعقب الاحتفال، سافر غابو وميرثيديس جواً إلى برشلونة ترافقهما كارمن بالسيلس. وذهبوا إلى فندق الأميرة صوفيا ليمضوا الوقت نائمين حتى السنة الجديدة. غير أن غارسيا ماركيز وميرثيديس قاما بزيارة أخرى لرئيس الوزراء الإسباني الجديد. وقد دوّن غارسيا ماركيز في عموده الأسبوعي أنه زار قصر مونكلوا مرتين في الأسبوعين الأخيرين لتجاذب أطراف الحديث مع فيليب الشاب، الذي بدا مظهره أشبه بطالب جامعي وليس رئيساً، ومع زوجته كارمن التي رافقتها مرثيديس وغونثالو[1]. بدا واضحاً أن الفائز الجديد بجائزة نوبل سيكون أقل تحفظاً وأكثر اعتداداً بنفسه من أي وقت مضى. وأشار في مقالته: "إنني أنظر إلى نفسي، بل أفتخر أيضاً، على أنني أشد الناس تحسساً إزاء الرسميات... ولا أزال لا أصدق فكرة أن يصبح أصدقائي رؤساء. ولم أتمكن حتى الآن من التغلب على إحساسي بالتأثر بقصور الحكومة". لقد كان مقتنعاً قائد العائلة العالمي أن فيليب الذي فهم أميركا اللاتينية "أفضل من أي شخص غير أميركي لاتيني"، سيكون له "تأثير بالغ في العلاقات الأميركية اللاتينية – الأوروبية". إننا لا نعلم إن كان فيليب نفسه ينظر إلى الأشياء بمثل هذه النظرة، لكن من الواضح أن غارسيا ماركيز كان يأمل في دفعه لتأييد استراتيجية طويلة الأمد تجاه كوبا والكاريبي وأميركا اللاتينية، وليس لديه اعتراض على السماح للعالم بمعرفة ذلك.



وبالـــرغم من ذلك، وفي أثناء الحديث غير الرسمي مع الصحافة، كان أول شيء يأتي غونثاليث على ذكره هو "مكانة كوبا في المنطقة والحاجة إلى اتفاق أمني يشارك فيه الجميع"، وليس هذا بالضرورة ما كان يفكّر فيه غارسيا ماركيز الذي صرّح أن الحب سيحل كـــل مشكلات العالم. وأضاف أنه يريد العودة إلى روايته الأخيرة لمعالجة هذا الموضوع، وأنه كان يفضل نيل الجائزة في العام التالي كي يتمكن من إنهاء الكتاب[7]

في التاســـع والعشرين من كانون الأول، سافر الفائز الجديد إلى هافانا بعد أن صرح أنه لا يزال يريد أن يؤسس جريدته الخاصة كي يستمتع "بهبة حمل الأخبار" الـــتي تشبه غريزة من يقوم بدور الوسيط الذي يطلق عليه بالإسبانية Correveidile أي "اركض وانظر وأخبره". إن محور مدريد - هافانا سيمثل شغل غارسيا ماركيز الـــشاغل على امتداد السنوات التالية بالرغم من أنه لن يتمكن من تسوية الخلافات بين كسترو وغونثاليث.

حقيقـــتان عامتان غالباً ما تترددان عن جائزة نوبل للأدب هما: إنها تمنح عادةً لأدبـــاء أكملـــوا دورهـــم الإبداعية ولم تعد لديهم في أعماقهم مؤلفات جديرة بالاهـــتمام، وإن الجائـــزة تمثل حتى في حالة الأدباء الشباب تشويشاً يسرق منهم الـــوقت والتركيز والطموح. الحقيقة الأولى لا تصح كما هو واضح على غارسيا ماركيـــز، فهو واحد من أصغر كل الذين فازوا بجائزة نوبل، وواحد من أشهرهم وأكثـــرهم شـــعبية. أما الحقيقة الثانية فتوقعها أولئك الذين استاؤوا من نجاحه، أو غاروا منه، غير أن الحقيقة هي أن غارسيا ماركيز ذاق طعم الشهرة قبل الآن وعلى مستوىً قلما يحظى به الفائزون بجائزة نوبل. فهو ليس بذلك الرجل الذي يكف عن السعي مكتفياً بما حقق من نجاح وحسب، بل مرَّ أيضاً بمثل هذه التجربة في السنين التي أعقبت نشر رواية **مئة عام من العزلة** كأنه حصل على جائزة نوبل الأولى. إذاً، يمكن للمرء أن يتوقع منه أن ينور من جديد: أن يكتب أكثر، وأن يسافر أكثر، وأن يجـــد أشـــياء جديدة ليعرفها، هكذا اتضحت الأمور. فقد كان أكثر من مستعد لمكانته الجديدة؛ ومع هذا...

ومـــع هـــذا... كان قد قرر في العام 1980 أن يشق طريقاً جديداً في الحياة بـــينسجم ومـــوقعه الجديد الذي يتمتع به ببساطة وباحترام. وكان صديق الرؤساء،



وأضاف إلى علاقته بكاسترو علاقة برئيس جمهورية المكسيك لوبيث بورتيلو، والرئيس الفنزويلي أندرياس بيريث، ورئيسي كولومبيا لوبيث ميتشيلسين وبيتانكور، والرئيس الفرنسي ميتران، وأخيراً رئيس وزراء إسبانيا غونثاليث. وزاد من شهرته باكتسابه ضرباً من مكانة الرؤساء (وكان فيدل كاسترو يقول: نعم، إن غارسيا ماركيز أشبه برئيس دولة. لكن السؤال هو: أي دولة) وأخبر الصحافيين أنه سيأخذ قسطاً من الراحة، إلا أنه كان يأمل في استخدام تأثيره الجديد للتباحث على نحو أكثر تأثيراً مع تحالفاته الرئاسية الجديدة. في وسع المرء أن يقول إن مرحلته السياسية العلنية استمرت من عام 1959 حتى عام 1979 وكانت في عنفوانها في الفترة الممتدة بين عامي 1971 و1979، لتعقبها مرحلة أكثر "دبلوماسية" والسؤال هو: هل يا ترى يحمي أفكاره السياسية الحقيقية في أثناء المرحلة الدبلوماسية ويظل في الوقت نفسه مساوراً كما حدث في المرحلة الممتدة بين عامي 1950 و1979؟ أم تراه سيكيف موقعه السياسي من وراء غطاء وساطته ومفاوضاته السرية ومشاريعه الأدبية؟

لا بد من أن غارسيا ماركيز نفسه شعر في أثناء عودته إلى ما وراء الأطلسي بكل مجده الذي خطط له تخطيطاً كبيراً في حياته عن وعي أو من دون وعي، بوطأة الشهرة والمسؤولية الملقاة على عاتقه. لقد حصل على بغيته، لكن، كما غنت مارلين مونرو أغنيتها الشهيرة، فإن المرء لا يريد الشيء بعد أن يحصل عليه. لقد مضت مدة من الزمن الآن وهو مضطر إلى التكيف مع مستويات الترف والمداهنة التي لا يمكن أن يتصورها أديب جاد إلا إذا كان قد شاهدها بعينه: لا شيء أقل من "نوبة الشهرة"[3] وعليه الآن أن يحول حياته كلها إلى مشهد منظم تنظيماً دقيقاً.

يقول الذين عرفوه طوال حياته تقريباً إنه بات أكثر احتراساً إثر فوزه بالجائزة، وشعر بعض أصدقائه بالامتعاض لأنه استمر في الاهتمام بهم في حين اشتاء الحرون لإهماله إياهم. وقال الكثيرون إن زهوه ازداد ازدياداً واضحاً، وأوضح غيرهم أن تمكنه من البقاء طبيعياً أمرٌ يدعو للدهشة وقال قريبه غوغ إنه كان دائماً أشبه "بفائز بجائزة نوبل ولد حديثاً"[4]. وقالت كارمن بالسيلس التي كان في وسعها أن تنظر إلى المشهور نظرة باردة أكثر من غيرها، إن مدى نجاحه وشهرته "لن

بكـــرر"[5] ("عندما يكون لديك شخص مثل غارسيا ماركيز، ففي مستطاعك أن تؤســـس حزباً سياسياً أو تحطم ثورة"). أما غارسيا ماركيز نفسه، فيقول في مرحلة لاحقة إنه حاول أن يبدل كل شيء ممكن كي "يبقى دون تغيير"، لكن لم يطرإليه أحـــد انطرح نفسها منذ أن سفر إلى ستوكهولم. ويقول إن الشهرة "تشبه إشعال الضوء دائماً" إن الناس يخبرونك بما يعتقدون أنك تريد سماعه الجائزة تتطلب هيبة وبن يكون في وسعك بعد الآن أن تقول لسلس"تباً"، والمطلوب منك أن تكون دائماً مـــسلياً وذكياً. وإذا ما بدأت الكلام في حفلة ما، حتى إن كان الكلام مع أصدقاء قدامى، فإن الآخرين يمسكون عن الكلام ويصغون إليك. ومن المفارقة أنك "عندما تكون محاطاً بعدد أكبر من الناس، فإنك تشعر بأنك أصغر وأصغر"[6]. ولن يمضي وقـــت طـــويل حـــتى بدأ لعب كرة المضرب لأنه بات من المستحيل تماماً ممارسة التمارين بالسير في الشوارع. وفي كل مطعم يهرع النادلون إلى أقرب مكتبة لشراء نـــسخ من كتبه كي يوقع عليها. أما المطارات، فهي أسوء الأماكن إطلاقاً لأنه لا يستطيع أن يجد فيها مخرجاً للهرب منه. وهو الأول الذي يوضع في الطائرة، إلا أن العـــاملين في الخدمة في الطائرة يريدون كتباً أو مجلات عن الطيران أو مناديل مائدة لـــيوقع عليها. لكن هذا الإنسان خجول، وحذر وقلق من أوجه متعددة[7]. "مهمتي الأساسية لآن أن أحافظ على حالتي، وهي أمر صعب، إذ لا يمكنك أن تتوقع وطأة ذلك العبء عليك. لكنني سعيت إلى ذلك"[8]. ثمة أكثر من سبب يدفع للاعتقاد أنه ســـيجد السنوات المقبلة أكثر صعوبة مما كان يتصور، لكنه بالرغم من ذلك لم يعد يشعر بالقدرة على الشكوى كالسابق عندما كان يكتب رواية خريف البطريرك.

ســـافر غارســـيا ماركيز ومرثيديس إلى هافانا حوالي عند الساعة الخامسة من صـــباح اليوم الثلاثين من كانون الأول سنة 1982 للقاء مدة أطول، وخصص لهما بيت البروتوكول في الرقم 6، وهو المـــنزل الذي سيصبح مـــنزلهما الكوبـــي بعد ســـنوات قليلة. وكان كاسترو قد حضر مراسم تشييع بريجينيف في موسكو حيث نـــاقش مع أنديرا غاندي توجيه الدعوة إلى غارسيا ماركيز لحضور مؤتمر دول عدم الانحـــياز الذي تقرر عقده في دلهي في آذار سنة 1983 (وذكرت غاندي أنها كانت تقـــرأ رواية مئة عام من العزلة عندما أعلنت جائزة نوبل) واشترى فيدل في أثناء

وجــوده في موســكو كمية كبيرة من الكافيار المفضل لديه لغارسيا ماركيز. أما غارسيا ماركيز، فكان من جهته يحمل رسائل من فيليب عونثاليث وأولف بالمه مع سمك القدّ من ال فيودنشي والشراب من كارمن بالسيلس. وفي ذلك الأسبوع مرّ غــراهام غــرين بهافانــا مع صديقه اليابانى تشوتشو مارتينيث الذي كان أقرب مساعدي توريخوس. وفي السادس عشر من كانون الثاني، كتب غارسيا ماركيز عن الكاتب الإنكليزي مقالة بعنوان *ساعات غراهام غرين العشرون في هافانا*، ولم يكن الاثنــان قــد التقــيا معاً منذ سنة 1977. وكشف غارسيا ماركيز عن أن غرين ومارتيــنيث وصلا في منتهى السرية وخصص لغرين منــزل يليق بكبار السياسيين لتمضية يومه وسيارة مرسيدس بنــز. وكان غرين وكاسترو قد ناقشا تجربة غرين الشهيرة مع الروليت الروسية وهو في سن التاسعة عشرة. وانتهت المقالة بعبارة: "عندما افترقنا اضطربت لأن اللقاء سيذكر عاجلاً أم آجلاً في مذكرات واحد منا أو كلــنا"[9]. لقــد أمــسى الكلام مع غارسيا ماركيز يشكل خطورة - إذ ستنشر الصحافة خبرَ مثلِ ذلك اللقاء في غضون ثمانٍ وأربعين ساعة - وتساءل البعض إن كــان يليق بمقام الفائزين بجائزة نوبل إجراء لقاءات مع غيرهم من المشاهير والقيام بأداء دور رجال الصحافة.

كانــت المقالة عن غراهام غرين مبالغاً فيها من وجهة نظر الكوبــي المنفي غييرمو كابريرا إنفانتي الذي ردَّ بمقالة بعنوان *مشاهير في هافانا*:

> **أعلــم أن هناك قراءً (وكتّاباً) أميركيين جنوبيين وإسبان يقرأون العمود الأسبوعي الذي يكتبه غارسيا ماركيز ليضحكوا بصوت عالٍ، ولينظروا إلى تــصريحاته بازدراء مترفع نحو الغرباء، أو ما يفعلونه عندما يلاحظون دردشــة أحد الأجلاف... أهذه هي قمة السخافة أم هي تقليد مبتذل؟ للقراء الذين لهم علم بالموضوع، فإن مقالة غارسيا ماركيز الأسبوعية في الــبايس تمثل الوعد الأكيد على الرعشة الجديدة لكن ليس لي أنا. إني أحيل الروائي على محمل الجد التام، وهذه الكتابة دليل على ذلك بالرغم من احتمال وجود البعض الذين يواجهون رأيي بتلفيق الأعذار الخاصة: يا رجل، الأمر لا يستحق كل هذا، لا تقلق، لن يهتم أحد. لكنني أهتم، وأعــتقد، أسوة بغولدوني، أن في الإمكــان ضرب السيد بمساعدة الخادم[10].**



بدء اليمين في أميركا اللاتينية والمنفيون الكوبيون على وجه الخصوص لذين نقموا بسبب منح الجائزة، يصابون بهلع بسبب غارسيا ماركيز. ربما اعتقدوا من قبل أنه لن يُمنح الجائزة، لأن لجنة نوبل تعلم أنه "أحمر" وأن قربه من الشيوعية لا يشكل فرقاً من وجهة نظرهم، أو ربما ليس هناك ما يخسرونه، بل هناك كسب كبير بالهجوم عليه علانية بعد أن وصل أميره إلى حده النهائي. أو ربما لم يستطيعوا تحمل نجاحه وانتهاجه الواضح وشهرته التي لا يرقى إليها شك. من المؤكد أن غارسيا ماركيز كان يعلن بنفسه عن علاقته الشخصية بفيدل منذ أكثر من عام بعد أن تخلى عن الصحافة المتشددة. والآن، إذا لم يكن واضحاً من قبل، فإن الواضح الآن هو أن فيدل احتاج إلى غارسيا ماركيز أكثر مما احتاج غارسيا ماركيز إليه على كل حال، وبالرغم من أن الجائزة منحت غارسيا ماركيز وسيلة للوصول إلى الطبقات العليا ذات النفوذ السياسي والدبلوماسي في أميركا اللاتينية، فإنها أطلقت في الوقت نفسه مستوىً غير مسبوق من العداء النمبي الذي لم يهدأ خلال العقدين الماضيين من الزمان (وإن لم تلحق به إلا ضرراً قليلاً، وهو أمر يثير العجب) في حين أن شهادة نوبل التقديرية حمت الكاتب الكولومبي في جميع أنحاء العالم، وحتى في العالم العربي الليبرالي الجديد، من كل شيء سوى أشد النقاد عنفاً وإصراراً.

وإذا كانت المكسيك قد شعرت أنها مهملة بسبب علاقته بكل من ميتاكور وميتران وغونثاليث وكاسترو، فقد كتب مقالة ودية عن أهمية المكسيك في حياته بعنوان عودة إلى المكسيك نشرت في الثالث والعشرين من كانون الثاني[11]. ولم تمنعه عواطفه من تسمية البلاد "بالمدينة الشيطانية" ولا يزيد عنها قبحاً سوى بانكوك. وأصبحت صنته اليوم بخمسة سياسيين من ذوي النفوذ القوي يتقلبون أهم البلاد في حياته باستثناء فنزويلا، وهي كولومبيا وكوبا وفرنسا وإسبانيا والمكسيك، وكانت هذه البلاد ذات حيوية بالغة بالنسبة إليه إذ ما أراد أن يستمر في الدور السياسي العالمي الذي كان يحلم به. ومن المدهش أن نلاحظ إلى أي وقت يمكنه الاحتفاظ بهذه الأوراق الخمس، وهل في وسعه أن يحس من وضع يديه أو يقدر على تبديل الأوراق بأوراق أخرى استعملها غيره بنجاح ثم رماها جانباً.



في الثلاثين من كانون الثاني نشر غارسيا ماركيز، وبيده كل تلك الأوراق الرئاسية، مقالة عن رونالد ريغان بعنوان نعم، *الذئب آت حقاً*[12]، يذكر فيه تجربته مع الإمبريالية الأمريكية منذ خليج الخنازير وكان العداء المستتر لأمريكا بشكل دائماً يوحد بقدر أو بآخر دوله لخمس في لحظة بدا فيها اضمحلال الاتحاد السوفياتي وعجزه المستمر حتمياً. لكن لسوء حظ غارسيا ماركيز أن الوضع الدولي لم يكن مؤاتياً "لاهتماماته" السياسية في ذلك الظرف المناسب له شخصياً. وبالرغم من أن وزراء الخارجية لما أصبح يعرف بدول الكونتادورا (كولومبيا والمكسيك وبانما وفنزويلا) قد اجتمعوا مؤخراً، إلا أنه كان مقتنعاً أن جهود الولايات المتحدة في زعزعة الاستقرار ستثمر في أثناء السنة. وكان محقاً في ذلك.

فقد أعلن بيساريو بيتانكور في مستهل عهده الرئاسي أن كولومبيا تسعى للانضمام إلى منظمة دول عدم الانحياز التي كان فيدل كاسترو يترأسها في ذلك الوقت[13]. وفي مطلع شهر آذار 1983 سافر الوفد الكوبي إلى الهند، وكان على متن الطائرة كاسترو وغارسيا ماركيز وبونيت وكارلوس رافائيل رودريغيث وجيسوس مونتاني وموريس بيشوب زعيم حركة الجوهرة الجديدة في غرينادا، الذي وافته المنية بعد ستة أشهر واحتلت الولايات المتحدة جزيرته، وديسيري ديلانو بوتيرسيه رئيس المجلس العسكري في سورينام. وبالرغم من أن كاسترو أبدى شجاعة ورباطة جأش، إلا أن رئاسته نفسها ذلك الرداد المتصاير الذي أحدثه الغزو السوفياتي لأفغانستان وشعر بالارتياح بتسليم الرئاسة إلى من هو أقل تماهياً مع اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية. وبعد المراسم الرسمية توجه الكوبيون إلى الملتقى الرسمي في فندق أشوكه، لكن غارسيا ماركيز كان قد حجز جناحاً خاصاً في فندق شيراتون كي يتمكن من الترحيب بأصدقائه القدامى الذين كان يتوقع أن يلتقي بهم. وفي صباح اليوم التالي وجده بونيت في حالة فوضى، ثيابه مبعثرة في جميع أرجاء الغرفة محاولاً أن يعثر على بدلة مناسبة تليق بحفلة الاستقبال. كانت ميرثيديس هي التي تتولى اتخاذ القرارات بهذا الشأن. وقال لبونيت "لو أن كل الرجال عرفوا فائدة الزوج لسمد ما لدينا من نساء، وعندئذ ستحل مصيبة"[14]. وكان احتفاله مع ميرثيديس بذكرى زواجهما الخامسة والعشرين في الحادي والعشرين من آذار.



جواً، في الحادي عشر من نيسان زار غارسيا ماركيز مجدداً كولومبيا التي لم تطأها قدماه قبل بأ فوزه بجائزة نوبل بستة أشهر تقريباً. وتوقعت الصحف كثيراً بخصوص الزيارة، إلا أنها لم تتحدث عن شيء واحد وهو قضية سلامة غارسيا ماركيز الشخصية، بكس بيتانكور أصرَّ على أن يكون لديه فريق من الحراسة الشخصية في كولومبيا بتنظيم وتمويل الحكومة. وبعد مرور بضعة أيام على وصوله نشر ممازة في عموده الأسبوعي بعنوان عودة إلى الغوافة"[15] ومن نافلة القول الإشارة إلى أن القراء في بوغوتا سيدركون جيداً أن "الغوافة" شفرة تدل على أنه لن يعود إلى 'كولومبيا' قبل ما سيعود إلى"ساحله" الحبيب. وبالرغم من صعوبة تحديد مكان إقامة غارسيا ماركيز من خلال قراءة مقالاته (إذ باتت تنحو منحى سرد متسلسل ومهلهل لخواطر وذكريات أكثر مما هي مذكرات) غير أن الحقيقة هي أنه سيمضي معظم هذه السنة في بوغوتا معتقداً بلا ريب أن جائزة عززت مكانته لأن عند الأقلية الحاكمة التي ستعجب به، أو في الأقل تحترمه. لكن الكثيرين ظلّ الشك يراودهم، بل إن قطاعات من الصحافة بدأت تهاجمه على الفور تقريباً[16].

سافر جواً إلى مدينة كارتاخينا القديمة، التي ترقى إلى حقبة الاستعمار، في نهاية شهر أيار. وسرعان ما ستصبح هذه المدينة هدفه الرئيس في كولومبيا وإطار معظم كتبه اللاحقة. ومنذ إنشاء قصر المؤتمرات بالقرب من أحياء سنة 1982، فقد بات أمراً ميسوراً أن تعقد الاجتماعات الدولية المهمة في هذه المدينة التاريخية. كانت المدينة تحتفل في تلك الأيام بذكرى تأسيسها الأربعمئة والخمسين. وكان مهرجان كارتاخينا السينمائي قائماً على قدم وساق أيضاً. ولم يكن الزائر الأجنبي الوحيد المدعو هذه الاحتفالات سوى الأندلسي فيليب غونثاليث الذي يشق طريقه مع غارسيا ماركيز وسط الحشود المحتفة، وكان غارسيا ماركيز يلبس البدلة التقليدية التي باتت الآن علامة مسجلة له، ويرقص بعض الأحيان مع إحدى المعجبات[17]. كما صحب وعريد في "سحر" و"فوضى" مسقط رأس أسرته. وكما هو شأن بيتانكور، فإن غونثاليث الذي كان في طريقه لإجراء محادثات في الولايات المتحدة، التزم التزاماً قوياً بتشجيع دول كونتادورا على إحلال السلام في أميركا الوسطى. وفي أثناء وجوده في كارتاخينا عقد مباحثات مع وزراء خارجية الدول الأربع الضامنة للمباحثات[18]



في أواخر شهر تموز، زار غارسيا ماركيز كاراكاس ضمن وفد كولومبي رسمي للاحتفال بمرور نصف قرن على ولادة بوليفار. لم يكن قد زار فنزويلا منذ خمسة أعوام. والتقى هو وميرثيديس هناك بالصحافي والكاتب الأرجنتيني المنفي توماس إيوي مارتينيث الذي كان يأمل أن يؤسس معه صحيفة إل أوترو. وناقشا المشروع في مقهى سواق الشاحنات على مقربة من أحد طرق كاراكاس حيث يمكن لوجهه الذي بات مشهوراً جداً الآن أن يمر من دون أن يلاحظه أحد. ويذكر مارتينيث:

"التقينا عند الساعة الثالثة صباحاً تقريباً. كانت ميرثيديس التي تناولت العشاء مساءً محاطة بارونيس الفنزويلي والملك خوان كارلوس ملك إسبانيا، وكانت ترتدي ثوباً طويلاً مدهشاً لم يلتفت إليه سواق الشاحنات. احضر لنا نادل أعرج بعض الشراب، وفجأة تحول الحديث إلى الماضي. لكن ميرثيديس عادت بنا ثانية إلى أرض الواقع وقالت: *هذا المكان فظيع. ألم تستطع العثور على مكان أفضل؟* فقلت: *اللوم يقع على شهرة زوجك لأننا إذا ما ذهبنا إلى أي حانة أخرى في كاراكاس، فسيقاطعنا الناس باستمرار.* فقال غارسيا ماركيز:
كان ينبغي لنا أن نذهب إلى ركن خشب كما فعلنا في بوينس آيرس أول مرة. فصححت قوله. *درب خشب. أعتقد أنه لم يعد له وجود اليوم.* فما كان من ميرثيديس إلا أن غمزت غمزة خفية: *هل كنت تتصور أن غابو سيغدو مشهوراً هكذا؟ نعم. لقد شاهدت اللحظة التي حلّت فيها الشهرة عليه من السماء. كنا في تلك الليلة في المسرح في بوينس آيرس. عندما تبدأ الشهرة على ذلك النحو فإنها لن تخبو.* قال غارسيا ماركيز: *أنت مخطئ. لقد بدأت الشهرة قبل ذلك بزمن طويل.* قمت ساخراً: *ماذا؟ في باريس عندما فرغت من تأليف رواية العقيد؟ هنا في كاراكاس عندما شاهدت طائرة بيريث خيمنيث البيضاء تغادر وطائرة بيرون السوداء تعود؟ أم حدث هذا قبل ذلك في روما عندما مرت صوفيا لورين بنا فابتسمت لك؟* قال موضحاً: *بل قبل ذلك بكثير* وكان جاداً في إيضاحه. وفي الخارج، كانت الجبال تشي بطلوع الفجر من ورائها. ومضى يقول: *كنت مشهوراً منذ أن تخرجت من المدرسة في ثيباكيرا، أو ربما قبل ذلك، عندما أخذني جدي من أراكاتاكا إلى بارانكيا. كنت دائماً مشهوراً منذ اللحظة التي ولدت فيها. المشكلة هي أنني الوحيد الذي أعرف ذلك*"[18]



في شهر تشرين الأول كان غارسيا ماركيز يسعى لتمضية مدة أطول في بوغوتا، وكان يحكّم في منح جائزة نوبل للأدب لكاتب الإنكليزي الممل وليم غولدنغ، وجائزة نوبل للسلام لزعيم حركة التضامن البولندي ليخ فاليسا عندما أتته أخبار مزعجة. فقد أطاح انقلاب بموريس بيشوب في غرينادا وأعدم في التاسع عشر من تشرين الأول[20]. وبعد خمسة أيام، غزت الولايات المتحدة الجزيرة مبرهنة بذلك على صحة مخاوف غارسيا ماركيز بشأن سياسة الولايات المتحدة في الكاريبي، ولم تُحدث إدانة الأمم المتحدة في الثامن والعشرين أي نتيجة مثلما لم يؤدِّ احتجاج مارغريت تاتشر إلى أي شيء بعد احتلال إحدى دول الكومنولث التابعة للتاج البريطاني. وفي الثالث والعشرين من تشرين الأول احتوى عمود غارسيا ماركيز الصحفي على تأبين للرئيس الذي اغتيل مع ذكريات عن مؤتمر دول عدم الانحياز في نيودلهي. وفي الأسابيع القليلة التالية يتوسط بيتانكور بين كوبا والولايات المتحدة بخصوص إعادة السجناء الكوبيين الذين أُسروا على أرض الجزيرة. وكان في حالة اتصال مستمر مع غارسيا ماركيز، وهو ما سيصرح به الأخير للأمة في مقابلة في مطلع شهر تشرين الثاني[21].

بالرغم من أن غارسيا ماركيز قد بذل قصارى جهده، إلا أنه لم يكن سعيداً في بوغوتا. وتساءلت الصحف كل أسبوع إن كان غارسيا ماركيز يجد صعوبة في التكيف في كولومبيا. لكن كولومبيا ليست هي المشكلة. فقد أخبرتني الروائية لورا ريستريبو عن حادثة وقعت في ذلك الصيف عندما تطوع غارسيا ماركيز لإعطاء دروس خصوصية للصحافيين في صحيفة سمانا التي كان يديرها لوبيث ابن ألفونسو لوبيث ميتشيلسين، وكان قبل ذلك ببضعة أشهر قد ساعد الصحافي فيليب لوبيث من بوغوتا للحصول على شرف إجراء لقاء مع فيدل كاسترو. وتحدث الاثنان حول موضوع العنوان الرئيسة وسأل غارسيا ماركيز ذات مرة، وهو متحمس جداً، عن العنوان الرئيس الذي سيختاره الصحافيون إذا ما خرج من مكاتب الصحيفة وأُطلق عليه الرصاص في الشارع. قال فيليب لوبيث بسرعة وقد لاحت عليه ابتسامة واهنة: "مقتل صاحلي"[22]. ففي بوغوتا لا توفر جائزة نوبل الحماية ضد قتل الآخرين من قبل الأقلية الحاكمة أو ممثليها.



بحلول نهاية العام، قرر غارسيا ماركيز أن يفي بوعده ويذهب إلى آراكاتاكا. لقد مرت ست عشرة سنة منذ زيارته الأخيرة لها وأنهت زيارته مرحلة استراحته. وبعد أسبوع واحد، كتب وصفاً غريباً عن ذلك النهار بعنوان *عودة إلى البذرة*، وهي إشارة لم يُطلق بها من قبل إلى قصة مشهورة لأليخو كاربنتييه[23]. واعترف أن الدهشة تولته عندما تلقى مثل هذا الترحيب الحار (دلالة على ذنب؟ إذ طالما وجه إليه النقد لعدم "إمداد" آراكاتاكا من التخلف). وقال إنه تذكر كل شيء تماماً، بعد أن أحاطت به الوجوه من الماضي، وجوه تشبه وجهه عندما كان يحل السبوك في البلدة. لكنه ذكر لاحقاً أنه لم يلجأ إلى إضفاء الميثولوجيا على آراكاتاكا ولم يشعر بحنين جارف إليها (كما كان يحب الآخرون؛ وهو ما كان يريد الإيحاء به)[24]. لقد قيل الشيء الكثير جداً عن الصلة بين آراكاتاكا وماكوندو، وبعد أن رجع إليها الآن، فإن المكانين يبدوان غير متشابهين أكثر من أي وقت مضى. "يصعب تصور أي مكان آخر منسيّ تماماً كهذا المكان وأكثر وحشة. كيف يمكن للإنسان ألاّ يشعر بأن روحه يمزقها شعور بالتمرد؟".

في نهاية هذا العام الممل الذي أمضاه غارسيا ماركيز في إجازة عن الكتابة، انسلّ إلى هافانا لاستقبال العام الجديد فيها. وفي هذه المرة دعا ريجيس دوبريه للحضور وتمضية الوقت في فندق الريفييرا معه ومع صديقهما القديم ماكس مارامبيو المسؤول السابق عن فريق حماية آليندي الشخصي، بات اليوم شخصية مهمة في المنظمات التجارية بكوبا. ووجد دوبريه أمامه غارسيا ماركيز القديم نفسه، "موزعاً كعهده بين مودته (لرفيقه اللاتيني القديم) وسخريته (بالفرنسي المفرط في فرنسيته، المتغطرس والمحترس) في الوقت الذي أغرقني فيه بأشرطة سينمائية مثل *أزمنة كلكو* وأغاني براسانس التي كان يحفظ كلماتها عن ظهر قلب"[25].

* * *

سيكون العام 1984 عاماً أفضل على غارسيا ماركيز، ولكنه عام سيئ جداً على كولومبيا. فما إن انتهت احتفالات السنة الجديدة حتى تخلى عن مطالب كوبا الدبلوماسية المستمرة وبدأ يهيئ سلسلة من التحولات: من "إجازته" السنوية إلى مهنته الحقيقية: تأليف الروايات، ومن عموده الأسبوعي إلى الرواية الكبرى التي كان

فـقـد بدأ ها في فصل الصيف الذي سبق إعلان جائزة نوبل، "الرواية التي تدور عن الحب"، ومن الإقامة في بوغوتا، التي كانت سيئة له دائماً، إلى كارتاخينا والساحل.

لقـد كانت العودة إلى اراكاتاكا تنطوي على تناقض كما كان متوقعاً فمن جهة أولى، كانت عودته إلى المكان الذي سبق له أن صوره في أفضل قصص الحب التي كتبها تحت اسم ماكوندو، ذلك المكان الذي أهم روايته الأولى عاصفة الأوراق ورواية مئة عام من العزلة. ومع هذا، فالعودة أكدت بساطة إنهاء تلك التجربة: فقد نفى فعلاً علاقته بأراكاتاكا تماماً مثلما نفى بأشكال عدة رواية مئة عام من العزلة نفسها.

لأنه سيتجه إلى إعادة الكتابة عن نفسه - يعيد كتابة ما أعاد كتابته - وملء الفجوات المفقودة. ومما لا ريب فيه أن يبدو فائزٌ بجائزة نوبل حتى الآن مسكونٌ بهواجس الطفولة لا سيما عقدة أوديب المريكة التي عاناها عندما أزيح عن أبيه فاحتضنه جده. لقد حذف حتى الآن بعض الحقائق النائية وأخفى المشكلة، في حين كان يجري تعديلات درامية من الناحية الأدبية، ومرضية من الناحية الجسدية. وسكت مرة أخرى عن أبيه غير الشرعي في القصة أما غابرييل إليخيو، فقد عاد إلى أراكاتاكا قبل سنة، في الوقت الذي جرت فيه احتفالات نوبل وجعل من نفسه، كما في أغلب الأحيان، نجم العرض. (إذا كان ابنه قد ورث شيئاً واحداً عن أبيه فهو حيويته). إلا أنه كان متنبئاً أيضاً لدى سماع خبر نجاح غابيتو ونعمَ علانية وللمرة الأولى بالمجد الذي انعكس عليه.

في اليوم الذي سمع فيه غارسيا ماركيز أنه فاز بجائزة نوبل صرّح لصحافة أنه يود أن يشيد بيت أحلامه في كارتاخينا. لكن هذا هو الأمر الذي لم يسر على ما يرام في كارتاخينا التقليدية حيث التأكيد فيها دائماً على حفظ البيوت الموجودة فيها أصلاً - وكان لدى العديد من الناس مشاعر مشابهة وليست سببية إزاء عودته[26]. لقد قرر بنفسه أن يتخلص من أحزان بوغوتا ويظهر بمظهر آخر. أو لعله أراد حقاً أن يشعر أنه في وضع أفضل بالعودة إلى الكاريبي. أو ربما كان ذلك بسبب تكريس نفسه للحب كل الوقت على كل حال، وجد الأصدقاء والصحافيون غارسيا ماركيز جديداً بمظهره الكاريبي الأبيض في كل شيء بعد أن

نقص وزنه مقدار خمس كيلوغرامات، وصفف شعره، وقلّم أظافره، وفاحت منه رائحة عطور ماحطة الشمس وهو يتسكع في شوارع كارتاخينا القديمة وشاطئ بوكا غراندي وشوارع مانغا؛ كان يفعل كل ذلك عندما لا يصحب في قيادته سيارته الحمراء الجديدة موستانغ[27].

ينهض غارسيا ماركيز عند الساعة السادسة صباحاً ويقرأ الصحف ويجلس ليهيّئ نفسه للكتابة من الساعة التاسعة وحتى الساعة الحادية عشرة، ثم ينهض بغطاء (كأنه المطاد الذي يريد أن يخترعه في كتابه وفي الشريط السينمائي رسائل من المتنزه). وقال إن الشيء العظيم هو أنه "استرجع كولومبيا". أما ميرثيديس فتذهب إلى الشاطئ عند منتصف النهار وتنتظر هناك بصحبة صديقتها حتى يأتي غارسيا ماركيز إليهما. ثم يتناولان طعام الغداء المكون من الروبيان أو جراد البحر ويروحان بعدها في قيلولة. وعند الأصيل يتجاذب أطراف الحديث مع أبويه، وفي كل مساء يسير في أنحاء المدينة أو يتحدث إلى أصدقائه "ليحشر ذلك كله في الرواية في اليوم التالي"[28].

وبالرغم من أنه يسكن في مبنى يوصف بأنه "الآلة الكاتبة" بسبب شكله، إلا أن غارسيا ماركيز بدأ تحولاً ثورياً آخر فنياً هذه المرة[29]. ربما لحسن الحظ أنه كتب قبل الآن الأقسام الأولى من روايته القادمة التي ستعرف بالعنوان **الحب في زمن الكوليرا** التي منحته ضرباً من جسر أدبي يعبر خلاله إلى ما وراء تجربة نوبل برمتها. لقد قرر الآن أن يعود إلى الكتابة باستعمال الحاسوب، وطلب من كاتبة على الآلة الكاتبة أن تنقل إلى الحاسوب المخطوطة الجاهزة، مما سهل على رجل مهووس يرمي كل صحيفة من الورق فيها خطأ مطبعي واحد والمضي قدماً على نحو أسرع. وربما ساعده ذلك على إجهاض ذلك النوع من الحاجز الذي يقف أمام الكاتب والذي ابتلي به العديد من الفائزين بجائزة نوبل على مر السنين. ويقول النقاد إن هناك تحولاً في الأسلوب ربما طرأ بسبب التكنولوجيا الحديثة وقد يكون ذلك مفيداً أو غير مفيد.

بيد أن التحول الأعظم الذي طرأ على حياة غارسيا ماركيز، حياته النفسية في الأقل، يتمثل بعلاقته بوالده. فعلى مدى السنوات السبع لم يكلما إلا نادراً. واليوم

تصالح الابن مع أبيه بما يكفي كي يقود سيارته ويعبر الجسر إلى مانغا في معظم أوقات العصر ويتكلم إليه وإلى لويسا سانتياغا - كلّ على انفراد تقريباً - بخصوص شبابهما وحبهما. وكان الدافع الأكبر من وراء ذلك كتاب جديد لا بد من تأليفه، لكن هناك أكثر من سبب للاعتقاد بأن غارسيا ماركيز بات مهيأ الآن لهذا التحول، وأن الكتاب سمح له بإخفاء وحماية كبريائه والتخفيف من حدة الذنب الذي يشعر بلا ريب أنه إزاء هذا الرجل، إزاء أبيه. فقبل ثلاثة أعوام كان يكتب عن امرأة في كتاب **قصة موت معلن** أدركت فجأة شيئاً ما عن أمها "شاهدتها أخيلا فيكاريو بتلك الابتسامة للمرة الأولى منذ ولادتها كما كانت على حقيقتها" امرأة مسكينة وهبت نفسها للإعجاب بعيوبها"[30]. مما لا شك فيه أن غارسيا ماركيز كان قادراً بعد أن أصبحت كل عذاباته خلفه على تقويم غابرييل إليخيو تقويماً نزيهاً وإن كان أقل قسوة.

لا يمكن أن يكون ذلك سهلاً. فغابرييل إليخيو هو الرجل الذي أخذ أمه بعيداً عنه ثم عاد بعد سنوات ليبعده عن جده المحبوب، العقيد رفيع الشأن كما كان يراه غابيتو. وبالرغم من أن غابرييل إليخيو لم يكن أباً فاسداً متعسفاً، فإنه كان يطلق التهديدات باللجوء إلى العنف دائماً ليحافظ على سلطته الاعتباطية المتقلبة غالباً. فقد حبس زوجته المعذبة منذ زمن بعيد داخل البيت على أساس أبوي صارم، لكنه كان يسافر متى يحلو له السفر، ويخونها في معاشراته - على نحو مفضوح - في كثير من المرات. وإذا ما نظرنا إليه نظرة عامة، فإنه بالرغم من قدرته على الاحتفاظ بأسرة كبيرة تأكل وتلبس وتتلقى في معظم الأحيان تعليماً جيداً، وكان ذلك كله إنجازاً غريباً، فإن وجهة نظر الابن الأكبر هي أن خاصية عدم إمكانية توقع ما سيفعله، ومخططاته الجنونية، وتغيير الخطط والنكات السادجة التي يتعب على الجميع الاحتفال بها، والطبع السياسي المحافظ العنيد، والهوة المؤلمة أحياناً بين منجزات الرجل الحقيقية وتفويعه لنفسه؛ كل هذه الأشياء، وفي مقدمتها الاستياء الأوديبي أساساً، مما يصعب تحمله تماماً.

في مثل هذه العلاقة يتآمر كل شيء كي تزداد الأشياء صعوبة وسوءاً. ولعل عبارة غارسيا ماركيز الأكثر انتشاراً وشعبية في أمريكا اللاتينية هي أنه لن ينسى



بغض النظر عن النجاح الذي حققه أنه ليس أكثر من طفل من الأطفال الستة عشر لعامـــل التلغراف في آراكاتاكا. وعندما سمع غابرييل إليخيو هذه العبارة أول مرة، انفجـــر في خطبة لاذعة غاضبة، بأنه لم يشتغل عامل تلغراف إلا مدة قصيرة، وأنه أصبح الآن صيدلياً محترفاً وشاعراً وروائياً أيضاً"[31]. وشعر بالإهانة لأن الجميع كانوا يعلمون مقدار تأثير العقيد المشهور في ولده وإلى أي حدّ ألهم شخصيات كتبه التي لا تـــحصى، على حين أنه، غابرييل إليخيو، لم يُذكر قط. وبدا مستبعداً عمداً. وإن ليس مُهاناً كما هي الحال الآن.

في أواخـــر شـــهر آب سنة 1984 كان غارسيا ماركيز قد أنجز تأليف ثلاثة فصول – أكثر من مئتي صفحة – من مجموع ستة فصول خطط لها، وبدت الرواية وقـــد أصبح لها شكلها العام. كان يتحدث إلى أبويه بهدف الحصول على فهم عام للحقيقة الزمنية التي عاشا فيها، ويناقش ترددهما وغرامهما في خضم تلك الأحاديث العاصـــفة إلى حدٍّ ما بوصفها دراسة حالة لا أكثر، على حدّ قوله. وأخبر صحيفة الـــتايمز أن الكتاب يمكن تلخيصه بجملة واحدة: "إنه قصة عن رجل وامرأة أُغرم أحـــدهما بالآخـــر غراماً جنونياً لكنهما لم يستطيعا الزواج في سن الشباب بعد أن شهدا تقلبات الدهر وصروفه لكبر سنهما". وقال غارسيا ماركيز إن الرواية تكتنفها معاصـــرة لأنهـــا تستخدم كل وسائل الثقافة الجماهيرية: كل ما تتمتع به الميلودراما والمسلسلات الاجتماعية وأغاني البوليرو من ابتذال وقلة تهذيب. وتبدأ الرواية المتأثرة أيـــضاً بموروث الرواية الفرنسية في القرن التاسع عشر بجنازة وتنتهي في قارب. أما نهايتها فسعيدة[32]. ربما كان هذا هو السبب الذي دفعه لأن يقرر أن تدور أحداث الـــرواية في الزمن الماضي. وربما شعر غارسيا ماركيز أيضاً أنه لا يمكنه الحديث عن قصة حب تنتهي نهاية سعيدة وتدور أحداثها أواخر القرن العشرين ويأخذها الناس على محمل الجد.

غـــادر غارســـيا ماركيز بعد أن فرغ من تأليف نصف الرواية إلى كارتاخينا أواخـــر فصل الصيف وترك نسخة من المخطوطة في حوزة مارغوت، وأخبرها أن تحتفظ بها إلى أن يصل سالماً إلى المكسيك ثم تتلفها. "وهكذا جلست وفي حضني علبة بسكويت فارغة بدأت أُمزقها ورقة فورقة ثم أحرقتها"[33]. وبعد أن قام بزيارة



عمل إلى أوروبا في خريف ذلك العام، حدثت صدمة كبرى. ففي الثالث عشر من كانون الأول سنة 1984، توفي غابرييل إليخيو غارسيا فجأة بعد ذكرى ميلاده الثالثة والثمانين بوقت قصير في مستشفى بوكاغرانديي في كارتاخينا، وكان المرض قد داهمه منذ عشرة أيام. يتذكر ييو (إليخيو غابرييل) الذي يُعدُّ عادة أشد أفراد الأسرة قلقاً. "عندما وافت المنية أبي، انقلب كل شيء رأساً على عقب. فقد وصلت إلى المنزل في يوم الوفاة لأجده في حالة فوضى، ولم يكن هناك من يقدر على اتخاذ قرار. حلّت الساعة الخامسة عصراً ولم يصل خايمي أو غابيتو بعد. فاضطررت إلى أن أتولى زمام أمور الأسرة وإخراجهم من المستنقع والمضي قدماً. وفي اليوم التالي اجتمعنا لنقرر كيفية ترتيب الأمور، فكانت الحال فوضى عارمة لأن ما من اثنين منا اتفقا على شيء واحد"[34].

هذه المرة فقط حضر غابيتو مراسم الدفن إذ تمكن من الوصول يوم التشييع، بعد رحلة استمرت عشر ساعات، من ضمنها تبديل الطائرة مرات عدّة، وكان التابوت يوشك أن يُنقل من صالون باروكيال دي مانغا بعد الجنازة. (ووصل غوستافو قادماً من فنزويلا متأخراً جداً عن موعد الجنازة) وكان برفقة غابيتو حاكم مديرية بوليفار آرتورو ماتسون فيغيروا وشارك الاثنان في حمل النعش. كان الحاكم يرتدي بدلة سوداء ويضع ربطة عنق. أما غابيتو فقد ارتدى سترة ذات مربعات صغيرة وقميصاً أسود مفتوح الياقة وبنطالاً أسود. يتذكر خايمي أن "الجنازة كانت كارثة، وتحولنا نحن الرجال إلى كتلة هلامية عديمة الشكل، وأضحينا مجموعة من الأطفال الباكين لا فائدة ترجى منا في تلك اللحظة الواقعية. ولحسن الحظ، كانت النساء حاضرات لتدبير كل شيء"[35]. (إن التحول إلى مادة هلامية عديمة الشكل لم يردع الرجال من زيارة صفقية إلى ماخور من أجل الزمان الماضي – للشرب فقط – والرابطة القديمة).

هكذا فجأة، فقد غارسيا ماركيز أباه إلى الأبد بعد أن أعاد تجديد علاقته به. حقاً كان قد أصبح قريباً جداً من جميع أفراد الأسرة مرة أخرى ولبعض الوقت، لكن وفاة غابرييل إليخيو ولّدت بصورة طبيعية وضعاً جديداً تماماً. ويتذكر ييو: "بعد وفاة أبي ببضعة أيام قالت أمي مخاطبة غابيتو مثل أي عواجيزية طيبة القلب:

لقد أصبحت الآن مسؤولاً عن الأسرة. فدار حول نفسه وقال: *وما الذي فعلته من أجلكم؟ وماذا تريدين أن تصبحي في هذا الموقف؟* المشكلة هي أن أخوتي وأخواتي لا يمكن السيطرة عليهم علاوة على أنهم كثيرو العدد"[36] أصبح الأديب المشهور على نطاق عالمي الآن مسؤولاً عن أسرة كبيرة ومتشعبة. لقد ساعد من قبل أخوته وأخواته بأساليب لا عدّ لها ولا حصر (وظائف، ثمن الدواء، أقساط المدرسة، القسط العقاري) - لكنه بات الآن مسؤولاً عن أمه من الناحية المالية أيضاً. وكان مناسباً جداً أن يحدث هذا كله في وقت أصبحت فيه "عودته" التدريجية إلى كولومبيا قائمة، وفي وقت كان يكتب فيه رواية تستند إلى حوادث أدت إلى ظهور أسرة غارسيا ماركيز الصغيرة.

اضطر غارسيا ماركيز بوفاة أبيه وترمل أمه الحزينة إلى التفكير لا في الحب والجنس وحسب، بل في الشيخوخة والموت أيضاً. وبالرغم من أنه ذكر دائماً أن تأليف رواية **الحب في زمن الكوليرا** عمل ممتع، إلا أن الأمور لم تكن بالسهولة التي ظنّها. فقد بدأ يجد صعوبة في التكيف مع مسؤولياته في أعقاب جائزة نوبل. وكانت تجربة وفاة أبيه غابرييل إليخيو ومشاهدة أمه تعذب عذاباً شديداً تحتّمتمكن الروائي من استيعابها بتدوينها في روايته لا سيما في الأقسام الأولى والأخيرة منها.

لقد حرمته عادته المتأصلة بإتلاف مخطوطاته وكل آثار تطورها من تحول حياته المدهش إلى فن بعد أن كان حصفه واقعية. إن الحاسوب لم يغير في كل الأحوال مجمل مسار التأليف الأدبي وحسب، بل زاد من صعوبة متابعة مراحل تطوره أيضاً.

لقد أراد غارسيا ماركيز دائماً أن تكون الرواية انعكاساً لا عن الحب وحده بل عن الشيخوخة أيضاً، بالرغم من أن الحب بات أولوية منذ منحه جائزة نوبل. في أواخر صيف العام 1982 كان قد نشر مقالة عن شيخوخة *لويس بونويل الشاب*، أظهر فيها أنه لا يتأمل في هذه القضايا تأملاً عميقاً وحسب - وهي قضايا تشتمل على السؤال إن كان حليفاً لكبار السن أن يحبوا ويمارسوا الحب - بل إنه كان يقرأ كتاب سيمون دي بوفوار الرائع **سن الرشد**[37] وفي شهر شباط سنة 1985، أخبر غارسيا ماركيز بعد عودته إلى مدينة مكسيكو كاريس سيمون أن فكرته الأولى عن الرواية تدور عن عجوزين يهربان في قارب، وكان ذلك بعد أن قرأ عن عجوزين

اعتالهما مراكبي[38] وقبل ذلك كان قد قيل إنه اعتاد أن يكتب عن كبار السن لأن حديثه أفضل شخصين بهمهما. أما الآن فنراه يتطلع شيخوخته. ثمة سطر في رواية بيت الجميلات النائمات لياسوناري كاواباتا استحوذ عليه استحواذاً تاماً: "لكبار السن الموت ولصغار السن الحب، والموت لا يأتي إلا مرة واحدة، لكن الحب يأتي مرات عديدة"[39].

عندما التقى غارسيا ماركيز الصحافية الكولومبية ماريا ألفيرا سامبر في مدينة مكسيكو لتحديث مقابلاته الصحافية في ربيع العام 1985 (زعمت صحيفة سيمانا أن عامين مرّا منذ أن تحدث لآخر مرة للصحافة حديثاً مطولاً) أخبرها أن القضية ليست شعوره بتقدم عمره، لكنه يلاحظ علامات الشيخوخة ويواجه الحقيقة. ووجد أن الإلهام يأتي غالباً عندما يكون المرء أكبر سناً إلا إذا أدرك المرء أن ذلك ليس إلهاماً. الإلهام يشبه الجلوس في بستان والمضي في الكتابة وكأنك في حالة "طفو على السطح". في هذه الأيام "أعرف ما الجملة الأخيرة في الكتاب حتى قبل أن أجلس لكتابته. عندما أجلس يكون الكتاب جاهزاً في ذهني، كأنني قرأته، لأنني كنت أفكّر فيه طوال سنين". شعر أنه "بلا جذور" لأنه يشعر بالمشاعر نفسها تماماً حيثما كان في أي مكان من العالم، وكان يشعر بأنه يمر بحالة "يُتم وعداوات" نتيجة لذلك. ثم يتفوه بعبارة مدهشة: "لقد دونت كل فانتازياتي، واحدة تلو الأخرى. أعني، أنني عرفت منذ سنين أن كل شيء سيحدث على النحو الذي حسبت فيه. لقد أديت ما عليّ ويبقى لي الآن أن أقسو على نفسي". وعدّ نفسه "غليظاً تماماً" بالرغم من أنه كان يعتقد، إسوة بتشي غيفارا، أن على المرء أن يحتفظ بجانبه "الرقيق". إن الرجال رقيقون لكن "قسوة" النساء تنقذهم وتحميهم. لا يزال يحب النساء، فهو يعيش في نفسه الإحساس "بالأمان" وبأنهن "يهتممن به". واليوم، كما يقول، يجد نفسه ضجراً بالكلام مع أي شخص تقريباً لا تربطه به صداقة، وقلما يستطيع أن يصغي إلى أحد. "إنني صاحب أسوأ مزاج، وإني أعنف رجل أعرفه. لهذا السبب، إنني الأكثر سيطرة على نفسي"[40].

تحدث أيضاً عن الحب والجنس بالرغم من أن كلمة الجنس، كما أوضح، لا ترد إلا نادراً في رواياته. ويلجأ إلى استعمال الكلمة نفسها، وهي الحب، في كلا



السياقي ثم ينتج جواً غير مميز على نحو يبعث على الغرابة لكنه لشيء الكثير عن نكهة وربما جاذبية كتاباته في هذا الموضوع.

عندما ظهرت الرواية الجديدة، الكلمة الأخيرة عن الحب، كان الإهداء موجهاً "إلى ميرثيديس، طبعاً"، لكن الإهداء في الترجمة الفرنسية كان موجّهاً إلى تاتشيا.

* * *

تدور أحداث رواية **الحب في زمن الكوليرا** في مدينة كاريبية يُفهم منها على الفور أنها مدينة كارتاخينا دي إندياس بين سبعينيات القرن التاسع عشر ومطلع ثلاثينيات القرن العشرين. إنها قصة عن الحب والجنس، الزواج والحرية، الشباب والشيخوخة، وتستند إلى مثلث الجنس: الطبيب الوقور خوفينال أوربينو المنتمي إلى الطبقة العليا، وموظف الشحن فلورنتينو أريثا المفتقر إلى الجاذبية على نحو مؤلم، وفيرمينا داثا الحسناء حديثة العهد بالنعمة والإثراء. ثمة عناصر من شخصية نيكولاس ماركيز في خوفينال بالرغم من أنه يستند قبل كل شيء إلى طبيب بارز في المنطقة يدعى هنريك دي لابيعا هو في حقيقته لأمر طبيب أسرة غارسيا ماركيز (حضر خلال وفاة غابرييل إليخيو ليموت بعده بأقل من خمسة أشهر). أما الشخصية الرئيسة فلورنتينو، ففيه عناصر من غابرييل إليخيو وغابيتو نفسه، وهذا فهو مزيج غريب ومدهش في الوقت نفسه. كما إن فيرمينا مزيج مدهش من ميرثيديس (قبل كل شيء) وشبح تاتشيا والتفاصيل الخارجية للويسا سانتياغا في شبابها وعزها. ينقسم الكتاب إلى ستة أقسام، القسمان الأول والأخير مكرسان للشيخوخة بوصفهما الإطار الزماني للرواية. والقسمان الثاني والثالث مخصصان لمرحلة الشباب، والرابع والخامس لخريف العمر. وتنقسم بنية الأقسام الستة إلى نصفين متساويين يتألف كل واحد منهما من ثلاثة فصول، مما يثير إشكالية في رواية تنقسم إلى نصفين وإلى ثلاثة أقسام، وإلى مثلث يهدد دائماً بالانهيار ليصبح زوجاً. على وجه العموم، تطرح الرواية ضمناً المصالحات الأربع الكبرى التي أجراها غارسيا ماركيز وهو يقترب من الشيخوخة: مع فرنسا، وفوق كل شيء مع باريس (حيث خوفينال وفيرميا يشعران بالسعادة على وجه الخصوص)؛ ومع تاتشيا التي أُغرم بها هناك في

خمسينيات القرن العشرين، ومع كارثاخينا تلك المدينة الرجعية التي ترجع إلى حقبة الاستعمار؛ وربما قبل هذا كله مع أبيه الذي كان قبره في كارثاخينا حسناً دائماً.

تبدأ أحداث الرواية في يوم أحد العنصرة في مطلع ثلاثينيات القرن العشرين بعد تسلم الحزب الليبرالي السلطة للمرة الأولى منذ نصف قرن تقريباً. يلقى خوفينال أوربينو مصرعه وهو في العقد الثامن من عمره عندما يسقط عن سلم ارتقاه في محاولة منه لإنقاذ ببغاء الأسرة، في اليوم نفسه الذي دفن فيه صديقاً فذاً واكتشف حقيقة مرعبة بشأنه. ففي جنازة أوربينو يحاول فلورنتينو أريثا، محبوب زوجته فيرمينا السابق، أن يذكي نار القصة التي حدثت بينهما عندما كانا مراهقين قبل ما يزيد على نصف قرن من الزمان. أما بقية الرواية فتشتمل على سلسلة من الاسترجاعات المدمجة بعناية، فتقص علينا أولاً قصة ذلك الحب الأول ثم تدخل خوفينال وزواج فيرمينا بخوفينال ورحلتها إلى باريس وإياه وصعود خوفينال سلم الشهرة بوصفه حجة كارثاخينا الرائد في موضوعات الصحة لا سيما وباء الكوليرا. وبموازاة هذا كله، نتابع مسار فلورنتينو غير الشرعي، المنحدر من أصول سوداء جزئياً والأقل مراعاة للأعراف والتقاليد: إذ يقرر بسرور أنه لا بد له من أن يضحي مواطناً محترماً فيرتقي رويداً رويداً سلم المناصب في شركة الشحن التابعة للعم. لكنه في الوقت نفسه، وبسبب القرار الذي اتخذه بانتظار فيرمينا أطول مدة تحتاج إليها ين حق وفاة زوجها إن اقتضى الأمر بدأ إقامة سلسلة من العلاقات مع مختلف النساء وأوهن العاهرات والأرامل فضلاً عن فتاة قريبة لها من العمر أربعة عشر عاماً وتدعى أمريكا فيكونيا تنتحر عندما يهجرها ويختار فيرمينا التي ترملت مؤخراً عندما تصل الرواية إلى نهايتها. وعلى النقيض من ذلك، ليست لخوفينال سوى علاقة واحدة عابرة مع مريضة سوداء من جامايكا، وكلفته تلك العلاقة زواجه تقريباً.

بنهاية الفصل الثالث، وهو منتصف الرواية، يتبين لنا أن فيرمينا دائا الكولومبية المنحدرة من أدنى الطبقة الوسطى قد رفضت الكولومبي الأصيل فلورنتينو أريثا وفضلت عليه خوفينال أوربينو "المتفرنس" المنتمي إلى الطبقة العليا إلى الحد الذي

تتعرف فيه. كما جوفينال، إلى أوروبا، على حين لم يغادر فلورنتينو أريثا كارتاخينا ولا يملك أي رغبة في الرحيل عنها. يمثل جوفينال أوربينو الطبقة العليا في كارتاخينا التي كان غارسيا ماركيز يكتب لها، نعم ما، في أثناء تأليفه كتابه. وهكذا، تُظهر لنا الرواية في منتصفها إلحاق أوروبا والحداثة الهزيمة بالعالم الكريولي أو الهجين المتخلف الذي تمثله الطبقة الدنيا غير الشرعية في كولومبيا. ثم يعبر النصف الثاني من الرواية كل هذه الاتجاهات عندما يطور فلورنتينو من موقعه ويحصل في نهاية المطاف على "الفتاة".

بالرغم من أن جوفينال أوربينو يمثل هنريك دي لابيرا والعقيد وغابرييل إليخيو - "الطبيب" - إلا أنه يمثل كل شيء عن الطبقات العليا التي يحسدها غارسيا ماركيز ويعجب بها ويسخر منها ويحتقرها في آن: النخب الحاكمة في بوغوتا وكارتاخينا، الممتزجة كثيراً في السنوات الخمس والعشرين الأخيرة، نخبة بوغوتا التي كان غارسيا ماركيز يعتقد أنها رفضته، ونخبة كارتاخينا التي رفضته هو ووالده. يلاحظ بالرغم من ذلك أن الرواية بأي معنىً من المعاني الأوربية لا تدور حول صراع أو تنافس بين الرجال، بل هي عن علاقات بين مختلف الرجال والنساء.

أما العنوان فعن أغنية يغنيها ليوناردو ديازا، وهو معنٌ ضرير من مغنّي أغاني التروبادور الغالياتو: "الكلمات التي سأعبر عنها: لها الآن سادتُها المتوجون" إن هذه الإشارة المركبة التي ستحصر إلى حدٍّ ما بلاد الإغريق القديمة والملكية، والإسبانية الإمبراطورية، وكولومبيا الطبقة الدنيا التي اشتهرت بمهرجانات الجمال، تنطوي على صراعات ثقافية متباينة في الرواية. لقد أصبح عنوان الرواية، الذي يبدو من الوهلة الأولى أقل عناوين غارسيا ماركيز فتنة وجاذبية، واحداً من أكثر العناوين المحبوبة والمثيرة للإعجاب: إنه عنوان يتحدث عن الحب وعن الزمان: حب بوصفه مرضاً أو علة لا تقاوم، كما هي الحال دائماً مع غارسيا ماركيز، وزمان بوصفه استمراراً وتاريخاً، وبوصفه أيضاً أسوأ الأمراض قاطبة، مرضاً يقصم كل شيء. ولكن الرواية بالرغم من ذلك ستتوقف في لحظة يكون الزمان فيها مغلوباً عليه بصرف النظر عن صفته الزائلة.



من بين المصالحات التي تحققت بتأثير هذا الأديب الذي يحرز نجاحاً باهراً الآن، والذي بدأ يقترب من أواخر خريف العمر، ثمة مصالحة، وإن بدت تهكمية ساخرة وتنتمي إلى ما بعد الحداثة، مع الرواية البورجوازية نفسها ومع الطبقة البورجوازية الكولومبية الحاكمة. وإن كانت مصالحة تنطوي على مفارقة ونقد، ليست هذه الرواية عملاً من أعمال ستندال أو فلوبير أو بلزاك (بل تميل إلى أن تكون عملاً من أعمال دوماس أو لاربود وإن انطوت على محاكاة ساخرة)[41]. لكن هذه الرواية "تعرف" كل شيء عن تلك الروايات، ولكنها تلعب لعبة مغايرة تماماً. إنها تداعب منذ السطر الأول ذلك العبق الذي ينقلنا إلى الماضي وتذكرنا "حتماً" بحب لا يعوض. كثير من العناصر هي عناصر القصص الرومانسية الرخيصة أو الاجتماعية التي تعالج المشكلات المنزلية أو الموسيقى الشعبية في أمريكا اللاتينية، وهو ما حاول المؤلف أن ينوّه به. لكن هذه العناصر تقابلها قواعد وأعراف حاضرة في الزواج البورجوازي والاحتفاظ بالمظاهر. لقد خاطر غارسيا ماركيز مخاطرة كبيرة هنا بسمعته الفنية، إذ تغدو الرواية، بمجملها، خليطاً عجيباً من السطحية والواقعية العميقة وتجرؤ على تقصي أكثر العبارات المألوفة ابتذالاً في رسائل ترسل إلى أعمدة المعذبين والحقائق البائسة التي تعطي إجابة عنها: إنك لا تعرف حقاً أي شخص. إنك لا تستطيع الحكم على الناس. في إمكان بعض الناس أن يغيروا من سلوكهم، وبالتالي شخصياتهم. وفي وسع آخرين أن يبقوا على حالهم من دون تغير إلى ما لا نهاية بالرغم من مرور الزمن. إنك لا تعرف أبداً ما الذي سيحدث في الحياة. إنك لا تفهم الحياة إلا عندما يكون الأوان قد فات؛ وحتى في تلك اللحظة، قد تغير من وجهة نظرك إذا ما عشت عمراً أطول. يصعب الوعظ بشأن الحب والجنس، ويصعب أكثر فصل الحب عن الجنس، ويصعب كثيراً فصل الحب عن العادة والامتنان والاهتمام الذاتي. يمكنك أن تحب أكثر من شخص واحد في الوقت نفسه. هناك ضروب من الحب، ويمكنك أن تحب الناس بطرائق مختلفة كثيرة. ولا يمكن معرفة ما هو الأفضل: حياة العزوبية أم الزواج أم الحياة البوهيمية أو التقليدية. كذلك، يصعب كثيراً أن تعرف إن كان الأمان أفضل من المغامرة أو بالعكس. لكن لكلٍ ثمنه الواجب دفعه. من جهة أخرى، لا توجد سوى حياة واحدة، ولا توجد

فرصـــة ثانية. أنت لم تبلغ من الكبر عتياً بعد. وبالرغم من هذا، وبالرغم من ذاك، وبالـــرغم مـــن ذلك، فإن الحياة الواحدة ليست بأفضل من الحياة الأخرى. هذه الموضوعات كلها تتراءى في القسم الأول ثم تمتزج ببقية الرواية.

لقـــد اكتشف القراء في رواية مئة عام من العزلة أن حجرة ميلكيادس تفيد بوصـــفها فضاءً أدبياً، وأن ميلكيادس كتب القصة التي نقرأها قبل زمانها بقرن من الزمان. وفي نهاية رواية الحب في زمن الكوليرا يكتب فلورنتينو أريثا رسالة طويلة إلى فيرمينا داثا، إنها ليست رسالة حب بل "تأمل شديد في حياة تستند إلى أفكاره، وإلى تجـــارب الرجال والنساء، والعلاقات التي تنشأ بينهم"، فتتلقاها بوصفها رسالة تأمل "في الحب والحياة والشيخوخة والموت". إن نطاق هذا الطموح المرتبط بسهولة الوصول إلى العمل المدهشة يعني من بعض الأوجه أن الرواية تتمة لرواية مئة عام من العزلة التي لم تستطع رواية خريف البطريرك أن تكملها.

فـــرغ غارســـيا ماركيز من روايته وأنهاها بعبارة "مدى الحياة"، وأرسلها إلى ألفونســـو فوينـــمايور في بارانكيا ليقرأها هو وخيرمان فارغاس. وتسمت كارمن بالـــميلس نســـخة أيضاً في لندن، وتردد أنها أمضت يومين تبكي فوق المخطوطة. واضـــطر غارسيا ماركيز إلى عقد اجتماع عمل معها، فقرر أن يبدأ أولاً بنيويورك وهو في طريقه إلى أوروبا. كان صديقه القديم غييرمو أنخولو آنذاك قنصلاً كولومبياً في التفاحة الكبيرة*، وكان المصور هيرنان ديات هناك أيضاً. لم يكن غارسيا ماركيز متحمـــساً جداً لانتهائه من كتابة الرواية وحسب. وهي الرواية التي أثارت تحولاً جديداً في مسيرته الروائية – بل لأنه كان يمر أيضاً بمرحلة الحماسة واللوعة اللتين يمر بهمـــا كل مستخدمي جهاز الحاسوب في الأيام الأولى: هل كان لديك بديل؟ هل الأقراص فارغة؟ أيمكنك حفظها في مكان آمن كي لا تتعرض إلى السرقة أو تصاب بـــضرر مادي؟ كان مدركاً كلّ الإدراك أنه واحدٌ من أوائل الأدباء المشهورين في العالم وربما أولهم، في إنهاء تأليف كتاب ضخم على جهاز الحاسوب. سافر جواً إلى نـــيويورك برفقة ميرثيديس وغونثالو وألكزاندرا بيرتشا بعد أن وضع الأقراص التي تحـــتوي علـــى الرواية معلقة في رقبته شأنه شأن ميلكيادس الذي عثر على حجر الفيلسوف، ولم يطق تحمل ضياعه[42].



اصطحب غارسيا ماركيز ابنه الأصغر إلى سكريبنرز، إحدى أشهر مكتبات مدينة نيويورك، وكان يمر من أمامها يومياً في سنة 1961 وهو في طريقه إلى مقر عمله. وصدم هيرنان دياث عندما اكتشف أن سكريبنرز لا تحتوي كما يبدو على مؤلفات صديقه دائم الصيت، لكن اتضح أنها في قسم "الكلاسيكيات". وتبع ذلك عناء وإطراءات عندما علم العاملون في المكتبة من يكون هذا الرجل الصغير الذي يرتدي سترة ذات مربعات صغيرة. كما اقترب منه المارة في الشارع وهو يستمتع بتناول النقانق النيويوركية الحارة فيما المصور يحدق إليه. ثم ذهب إلى محل متخصص ونسخ النسخ الست الأولى من الكتاب في غضون دقائق وهو مندهش كأنما اكتشف نجماً[43].

في خريف العام 1985 سافر غارسيا ماركيز جواً إلى برشلونة ولا تزال الأقراص الثلاثة متدلية من عنقه كي يسلمها شخصياً إلى كارمن بالسيلس. نزل في فندق الأميرة صوفيا، وفي ذلك الوقت اقتحم لصوص غرفته، وهذا ما كان يخشاه، وسرقت منه حاجيات لكنه أخبر الصحافة أنه لم يكن يتصور أن اللصوص كانوا يريدون الاستيلاء على مخطوطة روايته **الحب في زمن الكوليرا**.

كان غارسيا ماركيز خارج كولومبيا عندما حانت واحدة من المحطات السياسية الحاسمة في تاريخ البلاد في القرن العشرين. فقد كان التوتر آخذاً في الازدياد مع حركة أم – 19، وفي الثالث من تموز تخلت الحركة عن وقف إطلاق النار الذي كان قد أعلنه بيتانكور، فانزلقت البلد نحو الكارثة. (ارتاب عدد كبير من الثوار في أن بيتانكور كان يجذبهم إلى فخ تاريخي بدلاً من أن يسعى لعملية سلام دائم). وفي التاسع من آب، كان غارسيا ماركيز قد قال إن على وزير الدفاع ميغيل بيغا أوريبي أن يستقيل إثر الاتهامات وجهت إليه بممارسة التعذيب. وفي الثامن والعشرين من آب، اغتال رجال الشرطة إيفان مورينو أوسبينا زعيم حركة أم – 19 الجديد بعد موت حايمي باتمان صديق غارسيا ماركيز. وأخيراً، وفي السادس من تشرين الثاني استولى الثوار على قصر العدل، وهو مبنى المحكمة العليا في بوغوتا، فابتدأت بذلك سلسلة من الأحداث التي أثارت هلع المشاهدين في جميع أنحاء العالم عندما بدأ التلفاز يكشف عن عنف

الأحداث وظهر حالمي، شقيق رئيس الجمهورية السابق، على مسرح الأحداث مرة أخرى بعد أن كان قد اختطف مؤخراً. صرلت قوات الجيش الكولومبي بالدبابات والمدفعية وأنهت حصاراً استغرق سبعاً وعشرين ساعة فيما العالم يشاهد ما يجري في دهول. وقتل ما لا يقل عن مئة شخص من ضمنهم رئيس المحكمة العليا ألفونسو ريس إتشانديا. كما أصيب القاضي هومبيرتو مورينا في ساقه في أثناء محاولته الهروب حيث رمى الساق - الخشبة بعيداً وهرب من الفضاء المحترق. وقتل قادة الهجوم، لا سيما أندرياس ألماراليس. في المعركة من بين كثيرين غيره. وراجت شائعات قوية تفيد أن الجيش وليس بيتانكور، هو الذي يسيطر على زمام الأمور - ولا تزال القضية مثار جدل حتى اليوم - وقد أخبرني بيتانكور في وقت لاحق أنه قد جرى النصر إلى بقاء غارسيا ماركيز صامتاً على أنه "عمل من أعمال الصداقة"[44]. وبعد أسبوع واحد حدثت مصيبة أخرى هزّت كولومبيا، إذ انفجر بركان نيفادو دل رويث ودمر مدينة آرميرو وقتل ما لا يقل عن خمسة وعشرين ألف شخص.

كانت مأساة قصر العدل هي القشة الأخيرة عند غارسيا ماركيز. فقد اشترى شقة جديدة وأرسل جزءاً مهماً من الثياب والممتلكات إلى بوغوتا، إلاّ أنه لم ينتقل إليها. وفي اللحظة نفسها التي جرت فيها الحادثة، كان يفكّر في العودة جواً إلى بوغوتا لكنه ذهب إلى باريس عوضاً عن ذلك، حيث بدأ يفكّر في الأمور مرة أخرى، فألغى خططه بالعودة إلى كولومبيا وذهب إلى مدينة مكسيكو حيث كان الزلزال قد دمر المدينة مادياً لكنه أنعشها معنوياً في ذلك الوقت، كان غارسيا ماركيز يخطط لمشروعه الجديد رواية عن بوليفار - وكان قد التقى للمرة الأولى المؤرخ غوستافو فارغاس في أيلول سنة 1985.

في الخامس من كانون الأول، وبعد هذه السلسلة المتلاحقة من الكوارث التي حلّت بكولومبيا، صدرت روايه **الحب في زمن الكوليرا**، فأثارت دهشة القراء والنقاد في جميع أنحاء العالم لأنها قدمت إليهم غارسيا ماركيز من طراز جديد، قدمه كاتباً حوّل نفسه إلى حدٍّ ما، إلى ما يشبه روائياً من القرن التاسع عشر، ولكنه يكتب في الأزمنة الحديثة، ورجلاً لم يعد يكتب عن السلطة بل عن الحب وسلطة



الحب. وتغدو الرواية بين الناس الذين أحبوها هي الأكثر شعبية من أي رواية أخرى. كانت رواية **الحب في زمن الكوليرا** التي نشرت بعد عشرين سنة تقريباً على نشر رواية **مئة عام من العزلة** ثاني رواية تمنح انتقاد وعموم القراء متعة الكتابة عن العلاقات الإنسانية والعالم الخاص بوصفه واحداً من أبرز ما يشغل ذهنه، وأن يجعل من هذا الموضوع مركز نشاطه المتجدد في صناعة السينما[45] وربطت اسمه لا بالحب والعاطفة والابتسامات والزهور والموسيقى والغذاء والأصدقاء والأسرة ومن أشبه وحسب، بل بالحنين الخارف أيضاً والنظر إلى الوراء صوب الطرقات القديمة في الماضي، وإلى الدروب والأنهار التي كانت قائمة يوماً ما: عطر الغوافة وعبير الذاكرة. وستسمح به هذه الفصائل بأن يخطها في التيارات السوداء الموجودة دوماً في ذهنه تحت غطاء كتابته الآسرة.

حتى صحيفه التيمبو نزع عنها سلاحها. فقد توقعت الصحيفة في الأول من كانون الأول، قبل نشر الكتاب، أن الرواية "ستأتي بالحب إلى بلد مصاب بالكوليرا". ولم ينظر إلا عدد قليل جداً من النقاد نظرة سلبية إلى الرواية. غير أن الاستقبال الذي حظيت به كان نصراً، وكان أحد الردود المتميزة متمثلاً بإطراء استثنائي صادر عن واحد من أكبر الروائيين المتشككين قاطبة وهو توماس بينشون عند نشر الرواية بالإنكليزية. فقد قال بينشون إن غارسيا ماركيز جرأة مدهشة للكتابة عن الحب في هذه الأزمنة لكنه "أدى مهمته بنجاح":

> و – آه أيها الفتى – هل يكتب كتابة جيدة. إنه يكتب مسيطراً سيطرة متجردة، من وسط هدوء الجنوني. لا يوجد هناك ما قرأته كهذا الفصل الأخير المدهش، السيمفوني المطمئن إلى قوته وإيقاعه، فيتحرك مثل قلوب مسري أيضاً، مؤلفه، ألا وهو ملاحه، يملك تجربة عمر في قيادتنا في هذا النهر الذي نعرفه كلنا. والذي لولا إبحاره، لما كان هناك حب، والذي في حال السير عكس تياره، يكون الجهد المبذول من أجل الرجوع لا يستحق أبداً اسماً أقل شرفاً من اسم التذكر. في أفضل الأحوال، ينتج هذا في أعمال يمكنها أن تعيد أرواحنا المنهكة إلينا، والتي تنتمي إليها على وجه التأكيد رواية الحب في زمن الكوليرا، تلك الرواية الذكية التي تفطر القلب[46]

بعد خمس عشرة سنة قال غارسيا ماركيز لي:



لقد نظرت إلى رواية الحب في زمن الكوليرا مؤخراً فوليي الدهشة حقاً. إن قدراتي كلها موجودة فيها، ولا أدري كيف دبرت أمرها، وكيف كنتُ عن كل ذلك. شعرت حقاً بالزهو. على كل حال، لقد مررت... لقد مررت ببعض الأوقات السوداوية في حياتي"

- ماذا؟ قبل مئة عام من العزلة؟

- لا. في السنوات التي أعقبت جائزة نوبل. لقد فكّرت غالباً في أبي سلمون، ثمة شيء ما هناك، في المهاد، شيء ما أسود، شيء ما تحت سطح الأشياء [47]



-22-

خلافاً للتاريخ الرسمي:

بوليفار غارسيا ماركيز

(الجنرال في متاهته)

1989-1986

مثلما أثبت غارسيا ماركيز بنشر رواية **خريف البطريرك** في العام 1975 أن رواية **مئة عام من العزلة**، من غير رجم، وأن على عالم الأدب أن يتوقع منه أن يكون حاضراً لقطع المسافة الطويلة، فإنه أثبت الآن برواية **الحب في زمن الكوليرا** أنه ليس واحداً من أولئك الكتاب الذين تنتهي حياتهم بضغط تكريمهم بجائزة نوبل. وكان تحركه لتجديد موضوع الحب في كتابته، بموازاة تأكيد جديد على السلم والديمقراطية والتعايش في الساحة السياسية. فقد كان واضحاً أن حكومة ريغان لم تكن مستعدة للسماح بأي نصر يحققه أي نظام ثوري في أميركا الوسطى والكاريبي. كما أصبح الكوبيون الذين ألهموا معظم الحركات الثورية وشجعوها، أكثر حذراً من ذي قبل، لأن التزامهم الثقيل امتدّ إلى تحرير جنوب أفريقيا ولم يكونوا قادرين على التعرض لضغط أكبر من الولايات المتحدة في الكاريبي. إضافة إلى ذلك، لقد بدت التطورات في الاتحاد السوفياتي توضح أن الاعتماد على التزام اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية بالثورة العالمية على مدى أطول غير مأمون. وفي الوقت نفسه، كان ريغان قد واجه صعوبات في مواصلته الحرب ضد الثورة في نيكاراغوا، بل قد يثبت أنه خاسر إزاء مباحثات السلام. وفي أواسط العام 1986 اكتشفت محكمة العدل الدولية في لاهاي أن الإدارة الأميركية خرقت القانون



الدولي بتقديم دعمها إلى متمردي الكونترا في نيكاراغوا. وفي وقت لاحق من العام نفسه انتشرت فضيحة إيران – غيت في الولايات المتحدة نفسها، فاهتزت لها حكومة ريغان برمتها)

وحتى في كولومبيا، كانت ثمة عملية سلام منذ أن جاء بيتانكور إلى السلطة سنة 1982، بالرغم من أن معظم المراقبين حينها يئسوا من قدرته على متابعة العملية بنجاح، وكان غارسيا ماركيز نفسه يتحدث بتشاؤم متزايد عن الطريق الذي تسير فيه البلاد. في أواخر تموز 1986، حذّر من أن كولومبيا "على شفا محرقة"، وأن الأحداث الرهيبة التي جرت في قصر العدل في أواخر سنة 1985، كانت نتيجة حتمية للمريع الصار للثوار المدفعين وقوات الحكومة القمعية والتفصير لعام والعف[1]. ربما سيكون المراقبون الحياديون أكثر تأثراً لو أن هذا التصريح صدر قبل الأسبوع الأخير من ولاية بيتانكور، وخاصة أن منظمة العفو الدولية كانت تنتقد انتقاداً شديداً بيتانكور بصدد انتهاكات حقوق الإنسان التي ينفذها العسكر. نتيجة لذلك، كان التحذير موجهاً إلى حكومة بورخيليو باركو الليبرالية المقبلة، وليس إلى صديق غارسيا ماركيز المحافظ بيتانكور.

وهكذا، بدأ غارسيا ماركيز يتبنى خطاباً ديمقراطياً اجتماعياً مناهضاً للاستعمار كي يتلاءم مع رسالته عن السلام والحب، إلى الحدّ الذي لا بد من أن يكون فيه قد أثار حفيظة أصدقائه القدامى، وأدخل البهجة في قلوب أعدائه الذين لن يشعروا بالرضا إلى أن يُطاح به وبفيدل من فوق جواديهما. كما أن غارغاس يوسا وصفه مرة أخرى بأنه "تابع لفيدل كاسترو" وأنه "انتهازي سياسي"[2]. وكانت الصفة الأخيرة غريبة على رجل يسبب لنفسه مشقة سياسية كبرى بمساندته كوبا، بل وكان مستعداً أيضاً لأن يمنح أموالاً طائلة دعماً لالتزاماته السياسية، وهو ما أظهره إزاء مجلة التارنابيا في كولومبيا في سبعينيات القرن العشرين، وكما سيكشف مرة أخرى على نطاق أوسع بكثير في كوبا.

ففي كانون الثاني سنة 1983 كان غابو وفيدل قد بدآ خلال لقائهما الأول في أعقاب مغامرة غارسيا ماركيز مع جائزة نوبل، يحلمان بتأسيس مدرسة للسينما الأميركية اللاتينية يكون مقرها هافانا، بعد أن أدرك فيدل إدراكاً متزايداً – وربما

متأخراً أثر الثقافة الإيديولوجية، وهو الذي كان ملماً إلماماً واسعاً بالدعاية، وكان بلا ريب معجباً بمكانة غارسيا ماركيز وتأثيره على نطاق عالمي بعد منحه جائزة نوبل. وفيما كان يناقش موضوع السينما مع غارسيا ماركيز، بدأ يتساءل إن كان تأثير السينما أشد حتى من تأثير الكتاب، وتساءل أيضاً إن كانت السينما الأميركية اللاتينية مؤخراً، تستوي في تأثيرها والأحلام العظيمة التي شهدتها ستينيات وسبعينيات القرن العشرين التي كان انتصار الثورة قد ألهم جميع أرجاء القارة، ومن ضمنها كوبا نفسها. عندما جلس الاثنان معاً على شاطئ الكاريبي يتناقشان نقاشاً جاداً، كان لفيدل حتماً أسلوبه المولع بالقتال في تصور الموضوع "لا بد لنا من أن نطلق مدفع السينما... وبعد أن أمضيت عشرين سنة في الكفاح، أعتقد أن تلك الأشرطة السينمائية أشبه ما تكون بطارية مدفع تطلق النار داخلاً وخارجاً. كم هي ثرية السينما عندنا بهذا الأسلوب؟ طبيعي أن الكتب تؤثر في الناس تأثيراً كبيراً، لكن قراءة الكتاب تتطلب منك عشر ساعات، اثني عشرة ساعة، يومين. أما مشاهدة شريط سينمائي وثائقي، فلا تتطلب سوى خمس وأربعين دقيقة"[3]. وإذا كان كاسترو قد تأثر بالقوة غير المتوقعة لممثل من هوليوود في البيت الأبيض الأميركي، فذلك من باب الحدس والتخمين، لكنه بدأ هو وغارسيا ماركيز يتحدثان عن إمكانية تأسيس مؤسسة سينمائية أميركية لاتينية مركزها في هافانا، لتكون وسيلة لريادة الإنتاج القاري، وتصوير المستويات، وتعزيز الوحدة الأميركية اللاتينية، ونشر القيم الثورية أيضاً.

ما إن فرغ غارسيا ماركيز من تأليف رواية **الحب في زمن الكوليرا** حتى بدأ يعمل في مشروع جديد. في السنوات الممتدة بين 1974 و1979، كان قد ركز جهده في الصحافة السياسية. ولكن هاجس السينما عاد بحلول عام 1980 واستمر حتى تسعينيات القرن العشرين، وكانت المقالات التي كتبها بين عامي 1980 و1984 غالباً مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالسينما عموماً، وبمشاريعه المحددة خصوصاً. وكان أكثر مشاريعه السينمائية طموحاً تأسيس مؤسسة السينما الأميركية اللاتينية في هافانا، والمدرسة العالمية للسينما والتلفاز التي تقرر أن يكون مقرها في سان أنطونيو دي لوس بانيوس خارج المدينة[4]. وهنا يضع غارسيا ماركيز أمواله حيث يوجد فمه

السنوري، وكان شعاره عندما لا تكون السياسة ممكنة، تحوّل إلى الثقافة. وكان هدف مؤسسة السينما هو العمل على توحيد إنتاج الأشرطة السينمائية ودراستها في القارة، كما أن هدف المدرسة هو تدريس صناعة الشريط السينمائي نظرياً وعملياً، لا للشبان الأميركيين اللاتينيين وحسب، بل للطلاب من مختلف أنحاء العالم.

بحلول العام 1986، كانت الخطط المرسومة لكلتا المؤسستين الجديدتين قد قطعت شوطاً بعيداً، وكان غارسيا ماركيز على اتصال وثيق بصناع السينما الراديكاليين بخصوص التطورات المستقبلية. لكنه بدأ العام، لا بالعمل في شريط سينمائي، بل بكتاب عن صناعة الأشرطة السينمائية. وكان صديقه صانع الأشرطة السينمائية التشيلي الذي يعيش في المنفى ميغيل ليتين قد عاد سراً إلى تشيلي في أيار وحزيران 1985، وهرب من دون أن يلاحظه أحد مع مئة ألف قدم من شريط سينمائي عن بينوشيت[5]. ورأى غارسيا ماركيز في هذا فرصة للانتقام، بعد أن شعر بوضوح أنه كان قد هُزم رمزياً على يد بينوشيت عندما عاد إلى نشر الروايات قبل سقوط الدكتاتور، فالتقى ليتين في مدريد في مطلع سنة 1986 للتباحث في الخبرات المتاحة. وهناك، أجرى مقابلة استغرقت ثماني عشرة ساعة على مدى أسبوع، ثم عاد إلى المكسيك واختصر ستمئة صفحة من السرد إلى مئة وخمسين صفحة. وذكر: "فضلت أن أحمل قصة ليتين بضمير المفرد المتكلم للاحتفاظ بنبرتها الشخصية - والسرية في بعض الأحيان - من دون أي إضافات درامية أو ادعاءات تاريخية من جانبي. إن أسلوب النص الأخير هو أسلوبي ما دام صوت الكاتب غير قابل للتبادل... على كل حال، حاولت أن أبقي على المصطلحات التشيلية للنص الأصلي كما هي، احتراماً لأسلوب الراوي في التفكير الذي لا يتفق دائماً مع تفكيري". وصدر الكتاب **ميغيل ليتين سراً في تشيلي** عن دار نشر أويخا نيغرا في أيار 1986 بمئتين وخمسين ألف نسخة[6]. ولا بد من أن غارسيا ماركيز رضي كلّ الرضا في تشرين الثاني عندما أحرقت السلطات التشيلية خمسة عشر ألف نسخة من الكتاب في مرفأ بالفارايسو التشيلي. لو أن حكومة تشيلي التزمت الصمت، لكان ذلك رد فعل أشد تأثيراً، لأن ما من أحد عرف به بالرغم من أن الحكومة كانت في عامها الأخير.



بالـــرغم مـــن هذه السباحة القصيرة في ميدان الإثارة السياسية، فإن غارسيا ماركيز كان ملتزماً التزاماً شديداً برسالته الجديدة كمحقق للسلام، الذي اقتنع به كي يلقي كلمة في السادس من آب من ذلك الصيف في مدينة إكستابا في المكسيك خلال المؤتمر الثاني "لمجموعة الدول الست" التي تهدف سياسياً إلى الحيلولة دون حرب نووية. وحثت الدول الست (وهي الأرجنتين واليونان والهند والمكسيك والسويد وتنـــزانيا) على تعليق كل التجارب النووية في الذكرى الحادية والأربعين لتدمير هيروشيمـــا[7]. ابتدأ المؤتمر بكلمة لغارسيا ماركيز بعنوان *جائحة داموكليس*، وقد حـــذّر فـــيها من أن الأموال تُنفق على التسليح بالرغم من إمكانية حل مشكلات العـــالم، وأن "الصراصير وحدها التي ستبقى على قيد الحياة بعد المحرقة النووية"[8]. كانت كلمة عن مستقبل الأرض قد قُرنت بالترادف مع كلمته في احتفال نوبل عن قدر أميركا اللاتينية.

التـــحق رودريغو في ذلك الخريف بمعهد الفيلم الأميركي في لوس أنجلوس - وهـــي خطـــوة تناقض تماماً نشاطات أبيه في هافانا الثورية جاءت بعد أن كان غارسيا ماركيز يعد الترتيبات اللازمة لمؤسسة السينما الجديدة. ومن المقرر أن يبقى رودريغـــو هـــناك أربع سنوات، في حين كان غونثالو قد انتقل إلى المكسيك مع صـــديقته بـــيا أليوندو، وعمل في مشروع خاص به وهو تأسيس دار نشر رفيعة المستوى باسم الأكليبسا (بعنوان على حبل مشدود) مع دييغو غارسيا إيليو، وهو ابـــن حومي غارسيا إسكوت وماريا لويسا إليو[9] وكان من أول مشاريعهما نشر قصة **أثر دمك على الثلج** في شهر تشرين الأول بطبعة أنيقة جداً.

كـــان غارسيا ماركيز نفسه مهتماً بتشجيع أشرطة سينمائية جديدة مستمعة يحققها مخرجون أميركيون لاتينيون، لكن صناع الأشرطة السينمائية الآخرين كانوا مهـــتمين أكثر باقتباس رواياته للسينما. ففي سنة 1979، صنع المخرج المكسيكي خايمـــي هيرموســـيلو شـــريطاً سينمائياً بعنوان *عزيزتي ماريا* عن نص كتبه غارسيا ماركيـــز وفي مطلع ثمانينيات القرن العشرين، حقق المخرج البرازيلي روي غويرا الشريط السينمائي *أريديرا*، وهي قصة غير معدلة تقريباً مأخوذة عن رواية غارسيا ماركيز القصيرة، وتدور حول فتاة مراهقة من منطقة غواخيرا الكولومبية اضطرت

إلى التحوّل إلى عاهرة – توفر خدماتها لعشرات الرجال يومياً – كي تعوض لجدتها القسية عن حرق منزلها قضاءً وقدراً. في نهاية المطاف تقدّر أريندير قيمة حريتها حق قدرها، فتهجر يوليسيس الشاب الذي يحبها وتهرب منه بعد أن ساعدها على قتل جدتها والهروب من أسرها؛ بعد إعادة كتابة أسطورية مثيرة للاهتمام لقصص الحيات أوروبية الأسلوب عن سندريلا والساحرات والأمير الوسيم. وفي شهر تموز سنة 1984، كان أن أعلن عن إعادة خورخه علي ترياما صنع قصة **عصر الموت**، التي أنتجها بعد محاولة ريبشتاين الأولى بعشرين سنة، وستعرض على شاشة التلفاز الكولومبي في السابع من آب. في هذه المرة، صنع الشريط السينمائي في كولومبيا وليس في المكسيك، وبالألوان وليس بالأسود والأبيض. ومرة أخرى تثبت صحة قتل نيكولاس ماركيز لميداردو. وكما هي الحال من قبل، فإن دقة حبكة غارسيا ماركيز السوفوكليسية المحتفة، التي تواري دقة الساعة، مدهشة بالرغم من أن ميله إلى الحكم والأمثال اللاذعة بدلاً من الحوار الواقعي، كان تشويشاً سيئ الحظ. وفي كانون الأول سنة 1985، كانت صحيفة أكسيلسيور قد أعلنت عن بدء العمل بتصوير يوميات **قصة موت معلن**. وكان فرانسيسكو روزي في مومكس مع الن وأنطوني ديلون (لكن آلن سيترك العمل لاحقاً)[11]. ومن بين نجوم الشريط، كل من ايرين باباس وأورنيلا موتي وروبرت إيفريت. وعندما كتب ميشال براندو في اللوموند عن الشريط السينمائي في أيلول 1986، ركز على الجهود التي بذلت لأجل تصويره في البلدين الساحليين كارتاخينا ومومبوكس ليكون منسجمة مثل القصة نفسها[11].

في الرابع من كانون الأول سنة 1986، افتتحت المؤسسة خلال مهرجان هافانا السينمائي الثامن بكلمة من غارسيا ماركيز، رئيس المؤسسة، ومقابلة وزعت على نطاق واسع مع فيدل – الذي لم يعرف عنه أنه من رواد السينما الكبار – وبضع كلمات من غريغوري بيك الذي كان يزور المدينة آنذاك. قال غارسيا ماركيز في كلمته إنه كان في الفترة الممتدة بين 1952 و1955 موجوداً في سنترو سبيريمينتالي دي سينماتوغرافيا في روما بصحبة خوليو غارسيا ماركيز إسبينوسا، وفرناندو بيري، وتوماس غيتيريث. وكانت الواقعية الإيطالية الجديدة التي ألهمتهم



كلهم في تلك الأيام "أشبه بالسينما التي نريد أن نصنعها نحن، سينما بأقل الموارد، لكنها الأكثر إنسانية"[12]. ووصل أخلص التهاني من إنغمار بيرغمان، وفرانسيسكو روزي، وأغنيس فارد، وبيتر بروك، وأكيرا كيروساوا. وفي الخامس عشر من كانون الأول، افتتحت بدورها المدرسة الدولية للسينما والتلفزيون، وأصبح صديق غارسيا ماركيز القديم فيرناندو بيري مديرها الجديد. وبعد أسبوع واحد تقريباً، أفادت الأخبار أن المؤسسة بصدد إنتاج سبعة نصوص كتبها غارسيا ماركيز بنفسه، وهو رقم قياسي ربما لتحقيق نتائج سريعة على يدي شخص من داخل المؤسسة. وكان أقرب المساعدين إلى غارسيا ماركيز خلال السنوات القليلة التالية هو الكيميا بينا المخرج الكوبي لأشرطة المؤسسة، وأليسيو ألبرتو دييغو المعروف أمام الجميع بالكنية ليتشي، وهو ابن أليسيو دييغو أحد أعظم شعراء كوبا. ولم يعمل ليتشي مع الرئيس الجديد في التدريس في الندوات وحسب - أو ورش العمل كما يصرُّ غارسيا ماركيز دائماً على تسميتها - بل في إنتاج وتطوير مجمل النصوص السينمائية. أما غارسيا ماركيز، فقد رمى بكل ثقله في هذه المشاريع، وكانت طاقته وحماسته وصلابته مثار دهشة زملائه والعديد من الزوار الذي صاروا يأتون إلى هذين المعهدين الجديدين على مدى سنوات لاحقة.

في خضم هذه الاحتفالات، ورد نبأ صاعق من كولومبيا ليلقي سحابة على المشروع الجديد: فقد اغتيل مدير صحيفة الاسكتادور غييرمو كانو في السابع عشر من كانون الأول عند مغادرته مكتبه في بوغوتا، وكانت الحرب بين ملك تهريب المخدرات في ميديلين بابلو إيسكوبار ونظام العدل الكولومبي قد وصل مرحلة الذروة. كان إيسكوبار، سابع أغنى رجل على وجه الأرض، وكانت استراتيجيته المتمثلة بالرشوة أو بالرصاصة في محاولة إغراء أي شخص أو تصفيته إذا ما وقف في طريقه، قد أضافت صفة أخرى من الفساد والعجز إلى نظام كولومبيا العجوز الذي عرف عنه الاستغلال والعنف. لقد حبطت طموحاته السياسية. فيما ساندت صحيفة الاسكتادور التي عارضته بسالة طرد مهربي المخدرات لمشنه فيهم إلى الولايات المتحدة. لقد دافع كانو الآن عن شجاعته. وكان وزير العدل ورئيس المحكمة العليا وقائد الشرطة الوطنية قد اغتيلوا كلهم من قبل، لكن اغتيال مثل هذا الصحافي



المحترم. كان له تأثير مدمر في المعنويات القومية. لقد أخبرتني الصحافية ماري جيميا دونـــان الـــتي تعمل في صحيفة الاسكتادور قائلة: "شهدت غارسيا ماركيز مرة أخـــرى في كوبا في كانون الأول 1986، في الوقت نفسه تقريباً الذي افتتحت فيه مؤسسة السينما. وبعد مرور بضعة أيام، جاء يبحث عني، وأخيراً اتصل بـــي هاتفياً وقال *لقد اغتالوا غييرمو كانو، اغتالوه تواً، وهذا هو السبب الذي يجعلني لا أرغب في العـــودة إلى كولومبيا. إنهم يقتلون أصدقائي. لا أحد يعرف القاتل أو القتيل.* ثم تـــوجهت إلى منـــزله وأنا مرتبكة، فحياني غابو قائلاً إن غييرمو كانو هو الصديق الوحيد الذي دافع عنه حقاً. ثم وصل كاسترو وكنت أجهش بالبكاء، فأوضح غابو ما حدث، فتحدث فيدل مطولاً. وقال لي غابو مرة أخرى إنه لن يرجع، وإنه مفعم بالمرارة. فقلت له: *أنت تدري، لا بد لك من أن تتحدث بصوت عالٍ عما يحدث في كولومبيـــا.* لكنه لم يتحدث. فاستنتجت أنه متقلب المزاج منذ حادثة طرده عام 1981"[13]. ولم يصرح غارسيا ماركيز بأي تصريح علني عن حادثة الاغتيال، ولم يرسل أي رسالة إلى آنا ماريا باسكيتس، أرملة كانو.

علـــى قـــسوة الخبر القادم من كولومبيا، بدأ غارسيا ماركيز واجباته الجديدة في هافانـــا باستمتاع شديد. ومكث في كوبا عدة أشهر ينفذ أعمالاً عدّة في وقت واحد، فهـــو يقرر كل شيء ويشارك في كل شيء وكانت الأخبار تنشر بانتظام في الصحف في جمـــيع أرجاء أميركا اللاتينية وفي إسبانيا عن نشاطات غابرييل غارسيا ماركيز ذات الـــصلة بالسينما، واحتمال اقتباس كتبه لها[14]. يبدو أن الأمور هكذا. فالسينما ليست كالأدب، مبدعوه محكوم عليهم بالعزلة. السينما أنسٌ وصحبة وحيوية وشباب، السينما جـــنس ولهوّ ومرح، فأحب غارسيا ماركيز كل دقيقة منها. كان محاطاً بفتيان شابات حـــساوات، وشبان مفعمين بالحيوية والنشاط والطموح، وإن كانوا مغالين في التقدير والاحتـــرام والمجاملـــة. كان في بيئة تتفق وميوله واتجاهاته، وإن كان ثمن ذلك باهظاً. ويقـــول باستياء واضح إنه استمر في هذه الهواية المطلقة بالرغم من استهجان مرثيديس: "عندما كنا فقراء أنفقنا كل مالنا على السينما. الآن نحن نملك المال ولا أزال أنفقه على الـــسينما. كما أنني أمنحها الشيء الكثير من وقتي"[15]. يقول البعض إن غارسيا ماركيز تبرع للمدرسة بنصف مليون دولار من جيبه الخاص في ذلك العام إضافة إلى معظم وقته

المتميز. وبدأ الآن يطلب من الصحافيين الأوروبيين أو الأميركيين، عشرين ألف أو ثلاثين ألف دولار لقاء الجلسة الواحدة من المقابلة معه كي يوفر المال لمؤسسة السينما. ودفعت أعداد مدهشة من هؤلاء الصحافيين المال على مضض.

بدأ غارسيا ماركيز يتخصص في رواية القصة وكتابة النص السينمائي في المدرسة الجديدة، وأمام دورات منتظمة عن كيفية كتابة القصة، وعن تحويل القصة بعد ذلك إلى نص سينمائي. وكان من بين الزوار والمحاضرين في السنوات القليلة التالية، فرنسيس فورد كوبولا، وجيلو بونتيكورفو، وفيرناندو سولاناس، وروبرت ريدفورد[16]. كانت العلاقة بريدفورد بالغة الأهمية عند غارسيا ماركيز. إذ سيدفع دينه للأميركي الراديكالي الوسيم بالسفر بنفسه إلى أوتاوا لينظم دورة في مدرسة ريدفورد صن دانس للأشرطة السينمائية، وللمهرجان في آب سنة 1989[17]. ويوضح عموماً أن سياسته تتمثل ببيع مؤلفاته بثمن عالٍ للمنتجين خارج أميركا اللاتينية، وبثمن بخس أو مجاناً للمنتجين الأميركيين اللاتينيين. ثمة كتب، مثل رواية **مئة عام من العزلة**، لم يوافق قط على السماح بتحويلها إلى السينما، مما أدى إلى مواجهة بينه وبين أنطوني كوين قبل ذلك ببضع سنوات. (قيل إن أنطوني كوين عرض مليون دولار لشراء الحقوق، وقال كوين إن غارسيا ماركيز وافق على العرض لكنه تنكر للصفقة وهو ما ينكره الكولومبي دائماً)[18]. أما الروايات الأخرى، مثل **الحب في زمن الكوليرا** فقد ذكر أنه يفكر في بيعها، لكنه أكد في ذلك الوقت أنه لن يبيعها إلاّ لمخرج أميركي لاتيني. أخيراً، وفي العام 2007، قرر أن يسمح لصانع أفلام آخر من هوليوود، وهو الإنكليزي مايك نيوبل، أن يحقق الشريط السينمائي في كارتاخينا مع خافيير بارديم الذي سيؤدي الدور الرئيس فيه[19]. في ذلك الوقت، راجت أقاويل تفيد أن ميرثيديس نفد صبرها أخيراً بسبب أعمال الخير التي يقوم بها زوجها باستمرار، وأرادت أن تدّخر بعض الأموال لورثتهما. فالكتاب "كتابها" في كل الأحوال.

في ضوء التحول من السلطة إلى الحب في نشاط غارسيا ماركيز الأدبي، يصبح من المغري أن نرى الحب وقد تبوأ مكانة مهمة في مشاريعه السينمائية. أما حقيقة تفكير الكوبيين في هذا التطور، فهو ما لن نعرفه، لكن المؤسسة السينمائية



الجديدة سيعمرها نبأ أبحاث غارسيا ماركيز السينمائية، من خلال سلسلة من المخرجين المختلفين، في موضوع الحب في العلاقات الإنسانية. وكانت لواسطة الأساس في هذا كله، سلسلة من ستة أفلام خطط لها أن تكون مجموعة تدعى كلها بالاسم **قصص حب صعبة** وهو عنوان سبق أن استخدمه إيتالو كالفينو في مجموعة **قصص قصيرة مغمورة**. (عندما عرضت الأشرطة في جهاز الإذاعة العامة في الولايات المتحدة، أطلق عليها اسم **قصص حب خطرة**) وكانت كلها أشد سوداوية مما أرادت أن توحي به الدعاية عنها، كما تبحث كلها بشكل أو بآخر في العلاقة بين الحب والموت"[21].

بعد ستة أعوام، أي عام 1996، صنع غارسيا ماركيز شريطاً سينمائياً مستنداً إلى سوفوكليس بعنوان *أوديب عمدة* (خلافاً لأوديب ملكاً) مع مخرجه علي تريانا (وكان الشريط السينمائي لغارسيا ماركيز أيضاً مع طالبة سابقة في مدرسة هافانا للأشرطة السينمائية تدعى ستيلا مالاغون) ويدور موضوع الشريط حول عمدة بلدة صغيرة يواجه الفظائع والأهوال التي مرت على كولومبيا إبان القرن العشرين – مثل تهريب المخدرات، والميليشيات العسكرية، والثوار والجيش الوطني – كما يواجه أيضاً المأساة القديمة الخاصة بقتل أوديب أبيه ومعاشرة أمه التي تؤدي دورها الممثلة الإسبانية أنخيلا مولينا. وهاجم عدد كبير من النقاد الشريط هجوماً عنيفاً لا يرحم مع أن له فضائل وحسنات مهمة، ويمكن عدُّه على نحو أكثر إنصافاً وملاءمة على أنه إخفاق بطولي: فقد نقل الشريط تعقيدات المحنة الكولومبية وبعض أهوالها، وتمكن تريانا من الحيلولة دون تقويض الأفكار الخرافية للسرد السياسي. لقد أراد أن يصور شريط **ليس للعقيد من يكاتبه** أيضاً، وربما كان عمله سينتهي إلى نتيجة متقنة وفي هذه الحالة، أعطى غارسيا ماركيز ذلك المشروع، ويا للعجب، لأرتورو ريبشتاين الذي كانت علاقته به صعبة دوماً. (قيل إن ريبشتاين غضب لأن تريانا أعاد صنع الشريط عصر *الموت*)، وفي سنة 1999 ظهرت الرواية أخيراً على الشاشة العريضة: شريطاً لا بد من أن يُعدّ واحداً من أقل الأشرطة السينمائية إقناعاً لعمل من أعمال غارسيا ماركيز، بالرغم من شهرة ريبشتاين العالمية وتمثيل عدد من النجوم العالميين فيه مثل فيدريكو لوبي، وماريسا باريديس، وسلمى حايك[21].



أكـدت التجـربة المختلفة ما سبق أن قاله غارسيا ماركيز مراراً: إن علاقته بالسينما تشبه زواجاً غير سعيد. فهو والسينما لا يتفاهمان، لكن لا يمكن لأحدهما الاستغناء عن الآخر. ربما يمكن للمرء أن يقول بقسوة أكبر إن حبه غير مطلوب (إنه *مـرآة بوجه واحد* كما يُظهر عنوان أحد أشرطته التلفازية المكسيكية). لم يستطع العيش بلا سينما، لكن السينما في وسعها الاستمرار بسعادة من دونه. أما الحقيقة، فهي أنه غالباً ما وُجِّه إليه اللوم عن النسخ الأخيرة من أشرطته السينمائية، في حين أنـه ليس مسؤولاً في نهاية الأمر بصفته كاتب النص الأصلي عن المنتوج النهائي. كـتب مِـل غوسو في صحيفة نيويورك تايمز أن غارسيا ماركيز بحاجة إلى صانع أشرطة سينمائية في منـزلته، وأن ذلك قد يتطلب مخرجاً له عبقرية بونويل المتميزة ليـصفه[22]. (لعـل هذا يفسر السبب الذي جعل هيرموسيلو، الذي يعد نسخة مـصغرة عن بونويل، أكثر نجاحاً من معظم الآخرين) أخبرني رودريغو ابن غارسيا ماركيـز أن والده "لا فائدة" منه في موضوع الحوار، حتى في رواياته. غير أن بنية قـصة **عـصر الموت** تحفة لا يرقى إليها شك. كما أن إدراك الأشرطة، فضلاً عن الحـوار، أخاذ تماماً. إذاً، هو أمر يدعو للرثاء عدم خوض فيليبي التجربة. كما أن أكـيرا كيروسـاوا الـذي كان متحمساً في تلك المرحلة لاحتمال تصوير **خريف البطريرك** لم يتمكن أبداً من إطلاق المشروع.

وبالـرغم مـن كل من نجاحه ونشاطاته المثيرة في كوبا، فقد كانت سنوات صعبة تلك التي مرَّ بها غارسيا ماركيز. فقد اضطر إلى أن يفهم أنه رغم قيامه بأعمال كـثيرة، وأنه أطلق العنان لموهبته وطاقته في كل ميدان، فوجد نفسه موضع هجوم أعدائـه من اليمين، وتورط في مجادلات ومناقشات لم تكن تعجبه إلا قليلاً يومئذ، فـضلاً عن عدد من الفضائح أو ما يشبه الفضائح المرتبطة بنميمة خبيثة توجه ضد إنسان يقترب من الستين من عمره. وفي آذار 1988، احتفل بذكرى ميلاده الستين وذكرى زواجه الثلاثين غيرثيديس (في 21 نيسان) في مدينة مكسيكو وكيرناباكا. وحـضر الاحـتفال بليـساريو بيـتانكور وثلاثون صديقاً من جميع أنحاء العالم، وتـساءلت الصحف الكولومبية إن كانت ذكرى ميلاد غارسيا ماركيز الستين أو الحاديـة والـستين - حقاً هي الحادية والستون - وكانت عناوينها الرئيسة تنقل:

غارسيا ماركيز في الستين من عمره مرة أخرى ولم يتمكن من الاستمرار مع هذا العرض الساحر المفعم بالخديعة لمدة أطول، بالرغم من أن معظم لكتاب، ولحق بقال، من ضمنهم الكتاب الذين يعرّفون بالكتب على الأغلفة العاملون عند ناشري كتبه، يظلون يشيرون إلى سنة 1928 بوصفها سنة مولده حتى نشر كتاب **عشت لأروي** عام 2002، وبعضهم بعد ذلك التاريخ أيضاً.

في هذا الشهر أيضاً نشر صورة فيدل كاسترو التي أعيد طبعها مراراً، وهي صورة دقيقة، محددة الملامح لا تقبل التغيير – مرحة وودية - بعنوان *الانشغال بالكلمة* أكد فيها خصائص كاسترو اللفظية بدلاً من العسكرية. وأشار إلى "الانضباط الحديدي" لصديقه و"قوة إغرائه المطيعة"، وقال: "إن من الصعب تصور أي شخص أكثر منه إدماناً على عادة الحديث"، وإن كاسترو "يرتاح بالكلام" إذا ما شعر بالإنهاك من الكلام، وهو قارئ نهِمٌ أيضاً. وأماط اللثام عن أن "فيدل كان واحداً من الكوبيين القلائل الذين لا يغنون ولا يرقصون"، واعترف: "لا أعتقد أن أحداً في العالم يمكنه أن يكون خاسراً أسوأ". غير أن الزعيم الكوبي كان أيضاً "رجلاً متقشفاً في أساليبه، أوهامه لا ترتوي، ذا ثقافة رسمية عتيقة الطراز، كلماته حذره وتصرفاته دقيقة. . أعتقد أنه واحد من أعظم المثاليين في عصرنا، ولعل هذه هي حسنته الكبرى بالرغم من أنها أيضاً أكبر أخطاره". لكن عندما سأله غارسيا ماركيز ذات مرة عن أحب الأشياء إليه ردَّ الزعيم العظيم قائلاً: "أن أتسكع عند ناصية أحد الشوارع"[23].

الآن، حدثت انعطافة باتجاه المسرح. ففي كانون الثاني سنة 1988، أُعلن عن أن الممثلة الأرجنتينية غراثيلا دوخاو ستمثل في مسرحية مقتبسة عن عمل قصير كتبه غارسيا ماركيز بعنوان **هجاء الحب ضد رجل جالس**[24]. يقول غارسيا ماركيز إن المسرحية كلام مكرر يطوي على نكد، كلمة توحي أن من يناكد – وهو امرأة عادة – لا يحصل، بل ولا يتوقع رداً من الشخص المقابل. (كان غارسيا ماركيز في أثناء حياته الراشدة يقول دوماً إن لا فائدة من المجادلة مع النساء)، وقد سيطر هذا الهاجس، الموضوع، على غارسيا ماركيز لسنوات طويلة، وكان من أفكاره المبكرة لرواية **خريف البطريرك** هجاء مقذع ضد الدكتاتور تشنه إحدى النساء البارزات في حياته[25].



تأجل العرض الافتتاحي في مسرح ثيرباتس في بوينس آيرس من السابع عشر إلى العشرين من آب 1988. وفي نهاية الأمر بقي غارسيا ماركيز في هافانا إذ كان قلقاً جداً – قلق فتاه من الطبقة الراقية تُقدَّم إلى المجتمع أول مرة بحسب تعبيره – لا يطيق مواجهة تمثيل حي لأحد مؤلفاته، وأرسل مرثيديس وكارمن بالسيلس ومعها المصور ميغيل الذي كان في الرابعة والعشرين من عمره لمواجهة نقاد بوينس آيرس الذين يصعب إرضاء متطلباتهم، علاوة على كونهم الأشد هولاً في أمريكا اللاتينية. كان "العالم السياسي والثقافي" لبوينس آيرس كله حاضراً ومن ضمنهم عدد من وزراء الحكومة. وكان غياب الرئيس ألفونسين وكاتب المسرحية البارز ملحوظاً، مما يبعث على الأسى. إن العودة إلى مسرح عظيم في بوينس آيرس لم يكرر التجربة السابقة لعام 1967. ولم تحظَ المسرحية بما هو أكثر من تصفيق مؤدب ولم يقف أحد تقديراً لها. أما المراجعات التي كتبها نقاد الدراما في بوينس آيرس فكانت متباينة، لكن أغلبها كان سيئاً. وكان رد الفعل النموذجي قدماً من أوسالدو كيروغا من صحيفة لا ناسيون ثقيلة الوزن إذ قال: "يصعب التعرف إلى مؤلف رواية مئة عام من العزلة في هذا المونولوج الطويل الذي تلقيه امرأة سئمت من السعادة بلا حب... إنها تظهر جهله التام باللغة الدرامية ولا يمكن نكران حقيقة أن المسرحية ميلودراما سطحية ومكررة ومضجرة"[26].

تدور أحداث المسرحية، وهي مونولوج من فصل واحد، في مدينة بلا اسم، شأن رواية الحب في زمن الكوليرا، لكنها بلا شك كارثاخينا دي إندياس. أما الكلمات الأولى التي تنطق بها غراثييلا التي تغيرت تغيراً طفيفاً منذ أن استشهد بها أول مرة غارسيا ماركيز هي: "لا شيء يشبه الجحيم على الأرض كالزواج السعيد!". للروايات مفارقة سردية كامنة في بنيتها، أما المسرحية، فتعتمد على المفارقة المسرحية التي تحتاج إلى نوع مختلف من الحدس الإبداعي، نوع يبدو أنه لا يشعر به إلا قليلاً. بيد أن ما هو أسوأ من هذا، بل ما هو أسوأ حتى من الافتقار إلى الفعل الدرامي، هو أن عبء المسرحية الأشد ضرراً يبدو في العجز عن التحليل والتأمل الجادين. إن مسرحية هجاء الحب ضد رجل جالس تتعامل، كما هو شأن رواية الحب في زمن الكوليرا إلى حدٍّ ما، مع صراع مادي (كما تعاملت معه رواية

ليس للعقيد من يكاتبه قبل أكثر من ثلاثين سنة[27]، والواضح أن القصة المركزية وهي أن الزواج التقليدي لا ينجح مع معظم النساء مهمة، بالرغم من أن هذا المؤلف الذي له من العمر ستون عاماً قد يكون مؤلفاً حديثاً بما فيه الكفاية كي يبحث بحثاً راديكالياً ذا معنىً. ومما يدعو للأسى، أن مسرحية **هجاء الحب ضد رجل جالس** عمل أحادي البعد، وهي بخلاف رواية **الحب في زمن الكوليرا** لا تضيف إلا القليل أو حتى لا شيء إلى الأعمال العالمية العظيمة التي تجسّد الحب. لقد صرّح غارسيا ماركيز قبل مدة ليست ببعيدة، أنه لم يرغب قط في أن يكون مخرجاً سينمائياً "لأنني لا أريد أن أخسر"[28]. إن المسرح هو مشروع أشد خطورة. وإذ كان قد خسر في المرة الأولى، فإنه لن يحول الكرة مجدداً.

* * *

بعد النجاح المدوي الذي صاحب نشر رواية **الحب في زمن الكوليرا**، وبالرغم من الإحساس بالهشاشة المؤلم والقلق الذي ظل يظهر في حصص ديمومة غارسيا ماركيز الواضحة، فقد بدأ يتصرف كأنه لا توجد حدود لطاقاته أو لقدرته على العمل على مستوىً عالٍ فوق مجموعة كبيرة من النشاطات المتباينة. لكن ثمة علاقات لا تخطئ على الإنهاك. فهذه "قصة في تشيلي" تلوح عليها بوضوح أمارات العجالة، وكانت **هجاء الحب ضد رجل جالس** تجربة في ميدان عجز عن تتبع موضوعه. وربما كان اشتغاله على ستة نصوص سينمائية في آن واحد أكبر من طاقة أي رجل، علاوة على أنه بدأ منذ مدة كتابة الجديد **الرئيس** الذي يتمثل برواية عن شخصية سيمون بوليفار أعظم بطل في تاريخ أمريكا اللاتينية قاطبة وعلى مرّ العصور.

كان غارسيا ماركيز ملتزماً التزاماً شديداً بسياسة وإدارة المؤسسة السينمائية والمدرسة السينمائية الجديدتين، إلاّ أنه خصص وقتاً أقل بكثير في الأشهر الأخيرة للسياسة الدولية ولتأملاته ومكائده. فبالرغم من أن الأوضاع في أمريكا الوسطى كانت تبدو سوداوية، فإن كوبا مدت في أكثر لحظاتها المريحة والواثقة. لكن الأوضاع أحدثت تبدل فيها أيضاً. فغارسيا ماركيز يوشك أن يكتشف أن فترة إجازته القصيرة من السياسة والدبلوماسية ستنتهي عندما بدأت سحب سوداء

تتجمع فوق كل من كوبا وكولومبيا، وهي سحب لن تنقشع طوال البقية الباقية من القرن.

ففي تموز سنة 1987، كان غارسيا ماركيز ضيف شرف في مهرجان موسكو السينمائي. وفي الحادي عشر من الشهر نفسه، استقبله ميخائيل غورباتشوف في الكرملين، وحثّ غارسيا ماركيز الزعيم السوفياتي الإصلاحي الراديكالي على زيارة أميركا اللاتينية. في تلك المرحلة، كان غورباتشوف أكثر السياسيين الذين يدور عنهم الحديث على وجه الأرض. وقد أوضح بيان رسمي أنهما ناقشا "في إعادة الهيكلة القائمة على قدم وساق في اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية ومضامينها الدولية، ودور المثقفين، وإشاعة القيم الإنسانية في العالم اليوم"[29]. وقال غورباتشوف إن من يقرأ كتب غارسيا ماركيز لا يجد فيها خططاً، فهي مستوحاة من حب الإنسانية. وقال غارسيا ماركيز إن الغلاسنوست والبيريسترويكا كلمتان كبيرتان تنطويان على تحول تاريخي هائل. وقال إنه ربما هناك بعض الناس ممن يرتابون فيهما؛ مما لا شك فيه أنه كان يعني فيدل كاسترو. أتراه كان متشككاً بدوره؟ هناك تعليقات صدرت لاحقاً عنه تفيد أنه كان يشك في النتائج التي ستتمخض عنها تلك التحولات، وكشف في تلك التعليقات أنه أخبر غورباتشوف بقلقه، إذ قد يتمنى بعض السياسيين ريغان وتاتشر والبابا يوحنا بولس الثاني كما يبدو - أن يتهوروا حسن نيته، فتلوح المخاطر أمامه. وقال إنه لمن الواضح أن غورباتشوف كان مخلصاً، وقد صرّح له، أي لغارسيا ماركيز، أن اللقاء به كان أهم حدث في حياته مؤخراً[30]. للمرة الأولى، قد لا يكون مبالغاً في كلامه.

علول أواخر العام، اقترب من مركز السلطة في المكسيك، ذلك البلد الذي عاش فيه أكثر من عشرين سنة إجمالاً. ففي كانون الأول 1988، أصبح كارلوس ساليناس دي غورتاري رئيساً للجمهورية، فتحرك غارسيا ماركيز سريعاً لتأمين علاقته مع الزعيم الجديد. وعمل الاثنان معاً عن كثب في السياسة الدولية في السنوات التالية. ومن المكسيك سافر إلى كاراكاس لحضور احتفال تنصيب الرئيس الفنزويلي كارلوس أندرياس بيريث لولاية ثانية؛ وفاءً بوعد سبق أن قطعه على نفسه عندما فكّر هو وحده، غارسيا ماركيز، في أن الزعيم الشعبوي المتقلب قد يعود مرة أخرى إلى سدة الحكم.

كان غارسيا ماركيز يشتغل على رواية بوليفار منذ اللحظة التي فرغ فيه تقريباً من كتابة رواية **الحب في زمن الكوليرا**. وإذ كان قد استند في كل رواياته إلى فهمه لتاريخ أمريكا اللاتينية والعالم، وقرأ كثيراً عن الدكتاتوريين والدكتاتورية كي يكتب رواية **خريف البطريرك**، فإنه لم يضطر إلى التفكير فقط في وسائل البحث في التاريخ والكتابة عنه. والآن، وبما أن شخصيته المركزية تتمثل بشخص تاريخي، بل واحد من أشهرهم إطلاقاً، فقد شعر بأن كل حدث في روايته لا بد من أن يتحقق منه تاريخياً، كما أن كل فكرة من أفكار بوليفار وكل عبارة من عباراته، بل كل نقطة ضعف فيه يرد ذكرها في الكتاب، لا بد من بحثها بحثاً متأنياً في سياقها. وسيشتمل هذا كله، لا على قراءة غارسيا ماركيز عشرات الكتب عن بوليفار وعصره وآلاف الرسائل التي دونها وحسب، بل على استشارة مجموعة كبيرة من الثقات من ضمنهم عدد من كبار الخبراء في حياة المحرر العظيم وزمانه[31].

عندما ابتكر غارسيا ماركيز شخصية بطريركه في سبعينيات القرن العشرين، كان حراً في اختيار جانب من جوانب أي دكتاتور يروقه، وفي أي لحظة، كي يصوغ توليفة مبتكرة ذات معنى ضمن الإطار العام. أما مع بوليفار، وبالرغم من أن كل مؤرخ يكتشف أو يبتكر شخصية مغايرة، فإن المادة الجوهرية موجودة أصلاً ويمكن متابعتها، ويعلم بسرعة أن كل تأكيد تفسيري لا بد من أن يستند في حالة المؤرخ إلى أكثر من دليل، وفي معظم الحالات، إلى أدلة كثيرة، فتكون النتيجة هي أن ما يبدو في العمل المنتج النهائي، ليس سوى قطعة صغيرة من جبل جليدي هائل[32]. واضطر إلى حدٍّ ما، إلى غربلة كل ذلك الكم الهائل من المعلومات، لكن ينبغي له أيضاً أن يحتفظ بملكته الإبداعية كي ينهض بوليفار، نوعاً ما، منتشياً من هذا البحث، بدلاً من أن يبقى مدفوناً تحت جبل من الحقائق الجافة.

بالرغم من أن المحرر كتب، أو أملى عشرة آلاف رسالة، وكُتبت عنه أعداد لا تحصى من المذكرات من لدن معاونيه أو غيرهم ممن صادفهم في أثناء حياته، إلا أن هناك مراحل زمنية لم يعرف فيها إلا الشيء القليل عما كان يفعله. كما أن حياته الخاصة – لا سيما حياته العاطفية – ظلت مفتوحة نسبياً. إضافة إلى ذلك، فإن النسق الذي أثار اهتمام غارسيا ماركيز أكثر من أي نسق آخر – لأسباب شخصية

وأدبية معاً يتجسد في رحلة بوليفار الأخيرة عبر امتداد نهر مجدلينا، وهي الرحلة التي لم تأتِ على ذكرها لا الرسائل ولا المذكرات، تاركة الحرية للروائي كي يبتكر قصصه ضمن حدود الاحتمال التاريخي.

شاء غارسيا ماركيز أن يهدي الرواية لألفارو موتيس الذي أهداه فكرة تأليف الكتاب، بل إنه كتب مقطعاً قصيراً للطبعة الأولى بعنوان **الوجه الأخير** عندما كان سجيناً في المكسيك أواخر عقد الخمسينيات من القرن العشرين. وقد جعله غارسيا ماركيز يعترف بأنه لن ينهي المشروع، فتحمس له بنفسه. أما العنوان، **الجنرال في متاهته**، فقد تقرر منذ اللحظة التي بدأ فيها غارسيا ماركيز بحثه في موضوع الكتاب.

ولد سيمون بوليفار في كاراكاس في فنزويلا سنة 1783 لأسرة أرستقراطية من الكريول في زمن كانت فيه القارة برمتها، التي ندعوها اليوم بقارة أميركا اللاتينية، واقعة في قبضة إسبانيا والبرتغال، وظلت كذلك مدى ثلاثة قرون من الزمان تقريباً، على حين سيطرت كل من إنكلترا وفرنسا على عدد من الجزر في البحر الكاريبي. كان الرّق منتشراً في كل بلد من بلدان أميركا اللاتينية مثلما كان منتشراً في الولايات المتحدة الأميركية التي استقلت مؤخراً. وفي الوقت الذي توفي فيه بوليفار سنة 1830، كانت قارة أميركا اللاتينية قد أصبحت مستقلة كلها تقريباً عن أي قوىً أجنبية، وصدرت إدانة رسمية ضد الرّق، بل أُلغي في بعض الحالات. ويعود الفضل في هذا كله إلى بوليفار أكثر مما يعود إلى أي شخص آخر.

توفي والد بوليفار، وكان مالكاً من ملاّك الأراضي، عندما كان بوليفار يبلغ سنتين ونصف السنة من عمره. وتوفيت أمه ولم يكن قد بلغ التاسعة. ولما بلغ الثانية عشرة، ثار ضد خاله الذي أخذه عنده وانتقل إلى منزل معلمه سيمون رودريغيث. وبعد رحلة أمضاها في أوروبا، تزوج وله من العمر تسعة عشر عاماً بشابة توفيت بعد زواجها منه بأقل من ثمانية أشهر. في تلك اللحظة، يبدو أنه قرر أن قدره حكم عليه أن يعيش وحيداً في هذا العالم. (فلم يتزوج مرة أخرى بالرغم من أنه ارتبط بعلاقات مع عشرات النساء أشهرهن عشيقته الأكوادورية الشجاعة مانويلتا سايينث التي أصبحت اليوم أسطورة مهمة، وأنقذت حياته أكثر من مرة).

ولدى عودته إلى أوروبا، حضر مراسم تتويج نابليون في باريس في كانون الأول 1804، وكان معجباً بإنجازات نابليون بوصفه محرر أوروبا، لكنه أثار اشمئزازه بسبب قراره الذي اتخذه بجعل نفسه ملكاً. ولدى رجوعه إلى أميركا اللاتينية، بعد أن أقسم اليمين على التضحية بحياته في سبيل تحرير المستعمرات الخاضعة للسيطرة الإسبانية، بدأ حياته العسكرية التي تبوأ فيها مكانة لائقة على امتداد القارة وبويع محرراً. وسلّم بقية القدة، طوعاً أو كرهاً، واحداً تلو الآخر، فقاده بوليفار ومنهم كبار الجنرالات مثل سان مارتين، وسوكره، وسانتاندر، وأوردانيتا، وبايث.

عندما يتأمل المرء عدد المرات التي تقدم فيها بوليفار على امتداد القارة شمالاً وجنوباً، وفيما وراء جبال الإنديز وعلى امتداد الأنهار العظيمة في تلك التضاريس التي لا تزال وحشية، وبصرف النظر عن عدد المعارك التي ربحها أو خسرها، فإن الحقائق والأرقام في حملته التي دامت عشرين سنة كانت مذهلة. لكنه بالرغم من كل ذلك، لم يصب بأي جرح خطير في المعارك. وكان يبلغ من العمر تسعة وعشرين سنة عندما بدأت مهمته الأولى على امتداد نهر مجدلينا في كولومبيا. وما إن بلغ الثلاثين من عمره حتى بويع محرراً لفنزويلا. وفي الثمنة والثلاثين انتخب رئيساً لجمهورية كولومبيا التي كانت تضم آنذاك ما يعرف اليوم بفنزويلا والإكوادور. وفي هذه المرحلة كتب بعضاً من أهم الوثائق عن هوية أميركا اللاتينية وأشهرها وثيقة "رسالة جامايكا" في سنة 1851 أشار فيها إلى أن جميع أقاليم أميركا اللاتينية فيها من التشابه أكثر مما فيها من الاختلاف، وأنه لا بد من القبول بهوية القارة متعددة الأعراق والاعتراف بها.

لكن ما إن خسر الإسبان حتى بدأ الزعماء المحليون بتأكيد مصالحهم المناطقية والإقليمية، كما ابتدأ تقسيم الجمهوريات التي أصبحت محررة الآن. وظهرت الفوضى والدكتاتورية وخيبة الأمل مثل أشباح مأساوية في الأفق، وبدأ حلم بوليفار الكاسح بتوحيد أميركا اللاتينية يتلاشى، فأضحى مشاكساً وصوتاً للمثالية غير الواقعية. أما الآخرون الذين ما كان يمكن لهم أن يحققوا الإنجازات شبه المستحيلة التي حققها بوليفار، فقد أخذوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم أكثر واقعية منه في مرحلة ما بعد التحرير. وأول مثال على ذلك هو خصم بوليفار الرهيب فرانسيسكو



دي باولا سانتاندير الكولومبـــي الذي يمثل في نظر غارسيا ماركيز ركناً من أركان الكاتـــشاكو. وتبدأ الرواية في اللحظة التي يدرك فيها بوليفار أن لا مستقبل له في كولومـــبيا بالرغم من كل إنجازاته وامتيازاته المتواصلة، فيبدأ بالتراجع عن يوتوبيا، وهو تراجع عن رؤيته العصية وفي السادسة والأربعين من عمره، ينطلق الجنرال العظيم بعـــد أن داهمه المرض وأصيب بخيبة أمل، في رحلته إلى المنفى عن طريق نهر مجدلينا، بالـــرغم من أن غارسيا ماركيز يوحي أن بوليفار لم يتخلَّ قط عن الأمل، وأنه لا يزال عازماً على تنظيم حملة تحرير عسكرية أخرى إذ ما ثبتت إمكانية القيام بها.

تقع الرواية في ثمانية فصول، وتنقسم، مرة أخرى، إلى نصفين: النصف الأول، مـــن الفصل الأول إلى الفصل الرابع، يروي قصه الرحلة على امتداد النهر العظيم، الذي سبق لغارسيا ماركيز أن رحل على امتداده بعد ما يزيد على القرن من الزمان وهـــو في طريقه إلى المدرسة[33]. وتستغرق رحلة بوليفار الأخيرة من الثامن وحتى الـــثالث والعشرين من شهر أيار سنة 1830 أما النصف الثاني، من الفصل الخامس وحتى الفصل الثامن، فيروي قصة الأشهر الستة الأخيرة من حياة بوليفار، وذلك من الـــرابع والعشرين من أيار وحتى السابع عشر من كانون الأول سنة 1830، وهي الأشـــهر الـــسته التي أمضاها في منطقة الساحل البحريه التي ستشهد لاحقاً طفولة غارســـيا ماركيـــز وشوطاً كبيراً من شبابه. ثمة قصيدة من أحب لقصائد الإسبانية للشاعر خورخه ماريكي **أشعار عن موت أبـــي**، نُظمت أواخر القرون الوسطى، اشـــتهرت قبل كل شيء بـــسبب بيت شعري فيها ألا وهو: "حياتنا أنهار تصب في البحر الذي هو الموت"، وبيت شعري آخر يوضح أن الموت هو "الفخ" و"الكمين" الـــذي يـــسقط فيه نحن. أو كما يقول غارسيا ماركيز وهو يبهج نهج بوليفار هو "المتاهة" التي سقط فيها. وبالرغم من أن غارسيا ماركيز لا ينوه بماريكي، إلا أن رواياته لها منطق قصيدة ماريكي العظيمة تماماً.

يشير موضوع العنوان *الجنرال* إلى السلطة، لكن مفهوم "المتاهة" يبيّن لنا قبل أن تـــبدأ الرواية، أن أصحاب السلطة أنفسهم لا يمكنون أيضاً من السيطرة على القـــدر والمصير. من الطبيعيّ أن مثل هذا العجز قد ينطوي على تبرئة ذمه أصحاب السلطة، وحتى التعاطف معهم، وهو الشعور الذي يمكن أن يكون غارسيا ماركيز

فقد داخله وهو طفل صغير عندما كان العقيد نيكولاس ماركيز صاحب السلطة الوحيد - المؤثر والمحترم والحامي - الذي عرفه. هل يا ترى أن مؤلفاته كلها ليست سوى تأمل في استحالة التشبث بذلك الرجل المحبور، والعذاب، لأن "الأب" شخصٌ بلغ من الكبر عتياً، واهن، وإن أهم درس تعلمه وهو طفل صغير أن لأمر الوحيد لديك، جدك المحبوب، لا بد له من أن يموت "حالاً"؟ إن مثل هذا لدرس يعلمنا أن السلطة مرغوب فيها كلها وهي ضرورية، لكنها هشة، غير صادقة، زائلة ومخادعة. إن غارسيا ماركيز هو الوحيد تقريباً في الأدب العالمي المعاصر المهووس برجال السلطة، بل والمتعاطف وإياهم. وبالرغم من أنه كان دائماً اشتراكياً، فإن هذه الملاحظة الدائمة عن التماهي الأرستقراطي، بصرف النظر عن تعديلها بالمفارقة (أو حتى بالإدانة الأخلاقية)، قد تفسر السبب الذي جعل لكتبه سلطة يصعب سبر غورها كما يبدو: من نافلة القول إن المأساة تكون أعظم، وأشمل، وأعمق عندما يتعاظم الأبطال بالسلطة، وبالعزلة، وبتأثيرهم في حيوات ملايين الناس والتاريخ أيضاً.

في الوقت الذي كتب فيه غارسيا ماركيز الجنرال في متاهته، كان على معرفة وثيقة منذ زمن طويل بفيدل كاسترو، وهو مرشح بارز بلا ريب لأن يكون في الموقع الثاني بعد بوليفار في لائحة رجال أمريكا اللاتينية العظماء. فمن حيث طول عمر فيدل كاسترو السياسي - نصف قرن تقريباً في السلطة - نلاحظ أنه لمن الصعب تكرار تاريخه. كما أن غارسيا ماركيز أخبرني ذات مرة أن فيدل "ملك". أما غارسيا ماركيز نفسه، فهو على العكس من ذلك، إذ أكد مراراً أنه لا يملك الموهبة ولا الحس الباطني ولا الرغبة - بل والقدرة إلى حدٍّ أقل - في تحمل مثل هذه العزلة. وقد اعترف مراراً أن عزلة الأديب الجاد هائلة، لكن عزلة القائد السياسي العظيم، من طبقة مختلفة تماماً. ومع هذا، ففي هذه الرواية نجد أن شخصية بوليفار تستند، من حيث الحقائق بلا ريب، إلى شخصية المحرر، وما نقاط ضعفه ووهنه العديدة إلا مزيجاً من نقاط ضعف بوليفار وكاسترو وغارسيا ماركيز ووهنهم أيضاً.

الموضوع الرئيس، إذاً، هو السلطة ولبس الطغيان. بعبارة أخرى، يُنظر في بعض الأحيان إلى مؤلفات غارسيا ماركيز من وجهة نظر صاحب السلطة، وفي

أحيان أخرى من وجهة نظر الضعفاء الذين لا سلطة لهم، إلا أنها لا تهدف إلى إضرام نار الحقد ضد الطغاة أو "الطبقة الحاكمة"، على عكس مئات من روايات الاحتجاج المكتوبة ضمن التيار العام في السرد الأدبي في أمريكا اللاتينية. موضوعاته المستمرة، والمحبوكة دائماً، هي مفارقة التاريخ (لا سيما السلطة عندما تتحول إلى عجز، والحياة تتحول إلى موت) والقدر، والمصير، والمثل، والطموحات، والحنين الجارف إلى الماضي، والمطهر، والخط، والفرصة، والمصادفة، والتزامن، والأحلام، والشوق، والجد، والإرادة، ونحو مادة الشر. وغالباً ما تشير عناوين أعماله إلى السلطة (*العقيد، البطريرك، الجنرال، الأم الكبيرة*)، سلطة تواجه تحدياً عادةً (*ليس من يكاتب، عزلة، حريق، جنازة، متاهة، موت معلن، اختطاف*)، كما تشير إلى مختلف أشكال تمظهر الواقع المتصل بمختلف أساليب تصور الزمن وتنظيمه في تاريخ أو في سرد (*ليس من يكاتب، ومئة عام، وزمن، وقصة، وخبر، وذاكرة*) وستستمل أعماله في أغلب الأحيان على موضوع الانتظار الذي يمثل بطبيعة الحال الخاسر الآخر لسلطة، وتجربة العاجز. وعلى امتداد صفحات هذه الرواية، على سبيل المثال، نجد بوليفار يعبر عن رحيله، أولاً عن بوغوتا ثم عن كولومبيا. إلاّ أنه في الواقع يرحل عن السلطة، في حين يتظاهر أمام نفسه أنه لا يرحل عن أي شيء، أقله حياته. وإن لم يكن هناك من يؤخر ذلك الرحيل الحتمي. إذاً، الانتظار موضوع كبير، لكن التأخير (الذي يستطيع صاحب السلطة - مثل كاسترو - أن يفعله، ويحب أن يفعله) يشكل موضوعاً كبيراً هنا (إذ يؤخر بوليفار رحيله عن كولومبيا وعن السلطة وعن الجدد، ويؤخر قبوله بالواقع وبالموت...).

لا بـد من أن بعض محررات الكتاب تنهل من اشتغال غارسيا ماركيز على كلمته التي ألقاها في احتفال جائزة نوبل، حيث شعر، مثلما شعر آخرون غيره من قبل، أنه يسعى له أن يتكلم بصفته ممثلاً، لا عن بلد واحد، بل عن قارة بأكملها، فالكثير مما تفوه به في تلك المناسبة، هو كلام "بوليفاري"، كما أن العديد من الأفكار ظهرت مرة أخرى في الرواية. حقاً، لقد كانت كلمته في احتفال نوبل نوفر خلفية ضرورية لا يمكن الاستغناء عنها في قراءة الرواية وتفسيرها، وتلك مفارقة كبرى ما دام غارسيا ماركيز، وهو ما لاحظناه عنه، كان بطيئاً جداً في الوصول إلى



درجة الوعي "بأميركا اللاتينية". حتى في أثناء إقامته في أوروبا. لكنه بعد زيارته لمعقل الرأسمالية ومعقل الشيوعية بدأ يدرك، بالرغم من انجذابه إلى الاشتراكية نظرياً ومعنوياً، أن كلا النظامين ليسا إجابة لأميركا اللاتينية، لأنهما عملياً يعملان لمصلحة البلدين اللذين يدافعان عنهما. وعلى أميركا اللاتينية أن تهتم بنفسها، وأن عليها أن تتوحد. لدى بوليفار أفكار حادة في الرواية عن مختلف الجنسيات الأوروبية، مفضلاً البريطانيين في ضوء مساعدة بريطانيا حركات التحرر في أميركا الجنوبية في ذلك الزمان. أما الفرنسيون فيظهرون على نحو سيئ. وأما الولايات المتحدة، "فرهيبة، قادرة على كل شيء" بحسب بوليفار نفسه، وأن "حكايتها عن الحرية ستكون في نهاية المطاف وبالاً علينا جميعاً".

هذه هي الموضوعات الواردة في الكتاب والمشكلات الرئيسة التي يبني عليها. لكن بغض النظر عن مدى البحث الواسع الذي اشتمل عليه الكتاب، وبغض النظر عن التصميم الإيديولوجي والمعمار الأدبي اللذين يدعمانه، فإن الرواية كانت لتعاني فشلاً ذريعاً لو لم تبرز الشخصية المركزية فيها حية؛ وهذا ما حدث فعلاً. لقد تناول غارسيا ماركيز واحداً من أشهر الشخصيات الأميركية اللاتينية والمألوفة، وقدم تفسيره لها بجسارة تخص الأساس، وحس فطري يخص الأسباب. وبالرغم من أن هذا الكتاب ليس أعظم كتبه، إلا أنه يمكن أن يكون أعظم منجزاته، لأن قوة التحدي ماثلة أمامنا كي نراها. إن أي قارئ مطّلع على سيرة بوليفار، يرجّح أن يستنتج لدى الانتهاء من قراءة هذا الكتاب، أن ما كتبه غارسيا ماركيز عن هذا الرجل، وبأقل من ثلاثمئة صفحة، ويشتمل على مجمل الحياة ضمن الرحلة التي اكتملت في غضون الأشهر الستة الأخيرة منها، لن يكون في الإمكان من الآن فصاعداً فصله عن أي صورة لبوليفار تنقل إلى الأجيال اللاحقة.

إن بوليفار حي، بالرغم من إصابته بمرض مميت، منذ الصفحة الأولى حيث يستلقي عارياً – مطفواً في جرن الفول – في حمامه الصباحي. إن عريه يصدم العديد من القراء، مثلما سيصدمون عندما يرونه ينفيأ ويطلق الغازات ويعاشر النساء ويلعب أو يمشي خلال لعب الورق، أو يظهر جانباً شكساً، طفولياً في شخصيته، بعيداً بعض الشيء عن الرؤية التقديسية الشائعة جداً في الخطب والاحتفالات الأميركية

اللاتينية. ومع هذا، فالصورة هي أيضاً صورة إنسان منحول إلى آخر بسالة مؤثرة: من المؤكد أن بلاياه ورفضه وموته القادم نحوه هي التي جبلته على هذا النحو، لكنه لم يهزم أخيراً حتى في أشد الظروف سوداوية ويأساً. لقد أمسى بوليفار شخصية من شخصيات غارسيا ماركيز في الرواية، هذا لا يمكن إنكاره. لكن جزءاً من عظمة هذا الروائي، هو أن "الشخصية الأميركية اللاتينية" هي التي استحوذ عليها وأضفى عليها الديمومة قبل أن يلتفت إلى بوليفار بوقت طويل. وها هو المحرر العظيم أمامنا مكشوفاً، رمزاً لأعداد لا حصر لها من الأميركيين اللاتينيين المعذبين والمكافحين المستسلمين أحياناً في مملكة هذا العالم المنهك. وبالرغم من كل خيلاء غارسيا ماركيز، وغطرسته أحياناً، فقد كان رد فعله إزاء هذا التحدي الجمالي والتاريخي، ينم عن بسالة وطيب خاطر لم يستطع إلا عدد قليل جداً من الكتاب أن يبدي مثلهما، لا سيما أنه كان خاضعاً لضغوطات لا يتحملها إلا عدد قليل من الأدباء. ومن هنا مصدر التأثير الهائل الذي أحدثه الكتاب في معظم قرائه.

أُعلن عن الرواية قبل أسابيع من صدورها. وقد تباهى غارسيا ماركيز دائماً بأنه لا يحضر حفلات صدور كتبه، ويوحي عالماً أنه شخصياً يشعر بالضآلة إذا ما اضطر إلى التطواف والإعلان عن شيء، مثلما يعلن عن منتوج تجاري، هو بالنسبة إليه، بدافعه الحقيقي، إبداع جمالي لا يعبأ تماماً بأي قيمة صرف قد يمكنها في سوق الكتاب الرأسمالي. غير أن الحقيقة هي أن مئة عام من العزلة قد أعلن عنها قبل صدورها بوقت طويل. ومع كل كتاب تزداد الحقنة، لهذا السبب بدأ بعض الناس يصمونه بعد سنوات "بتسويق غارسيا".

في التاسع عشر من شباط، كان أول رد فعل إزاء الرواية التي قُرئت مصفّدة على الآلة الكاتبة، متمثلاً برسالة من الرئيس السابق لجمهورية كولومبيا ألفونسو لوبيث ميتشيلسن وليس من قارئ اعتيادي، وكان رده: "لقد التهمت كتابك الأخير". قد نشر في صحيفة التيمبو واستخدم ليكون إعلاناً عن الكتاب حتى قبل صدوره[34]. وصرّح لوبيث أن غارسيا ماركيز أظهر مواهب متعددة ومدهشة: فقد افترض فيه أنه واقعي سحري، لكنه كتب الآن عملاً طبيعياً لو قدّر لزولا أن يمتلك الموهبة، لكتبه بنفسه. لم يستطع لوبيث أن يرمي الكتاب جانباً، وقال إن قصة



بوليفار معروفة للجميع في أنحاء أميركا اللاتينية كافة، لكن القارئ يخدع بها على أنها قصة من قصص التحري. إن أطروحة غارسيا ماركيز الأصلية الجديدة، التي مفادها أن بوليفار كان لا يزال يأمل في العودة سياسياً حتى ولو على فراش الاحتضار، مدهشة جداً، لأن هذه القصة هي "قصتنا جميعاً عندما نفقد سلطتنا". وتبين في ما بعد أن الرئيس السابق بيتانكور قرأ الكتاب أيضاً (لكنه كان أقل إيغالاً في المدح، لأن التأويل "الليبرالي" لا يحظى عنده، وهو المحافظ، إلا بقبول أقل من قبول لوبيث)[35]، وسهر الرئيس الليبرالي الحالي بيرخيليو باركو طوال الليل كي ينتهي من قراءته[36]. وحتى فيدل كاسترو نفسه، المعجب الكبير بخوسيه مارتي الذي حرر كوبا، قد قرأ الرواية، وقيل إن هناك من سمعه يصرح بأن الكتاب منح بوليفار "صورة وثنية"[37]. لكن ما من أحد عرف مغزى تلك العبارة ولا إن كانت مدحاً أو قدحاً.

نشرت مراجعات كثيرة حول الكتاب في الصحف والمجلات في جميع أنحاء الدول التي تتكلم الإسبانية. فهذه الرواية ليست رواية جديدة من تأليف أعظم اسم أدبي يكتب بهذه اللغة وحسب، بل هي أيضاً صورة لأهم شخصية في مجمل تاريخ أميركا اللاتينية، شخصيته وصورته عزيزتان على قلوب الملايين، وليس على قلوب الأوصياء على الشعلة البوليفارية، سواء أكانوا مؤرخين جادين أم إيديولوجيين ديماغوجيين. وكانت معظم المراجعات إيجابية إلى أبعد الحدود، لكن الشيء الذي لم يألفه غارسيا ماركيز، وإن لم يستغربه، هو بعض المحاولات التي كانت مصممة على الهدم. فقد أشارت قلة لا بأس بها من النقاد إلى أن إحساس غارسيا ماركيز المبالغ فيه بمجده، وقف حجر عثرة في طريق تصويره لبوليفار؛ وهو عرض يتهم بأنه مفرط في مؤثراته اللسانية ذات الطابع المشهدي، شأنها شأن الألعاب النارية المضوية على قمة الحدث بدلاً من نص شخصية بوليفار المكثفة نقلاً مناسباً، علاوة على سلسلة من العبارات المتداولة باستمرار، والبنية العرضية التي كانت وظيفتها الحقيقية جذب الاهتمام إلى غارسيا ماركيز، فتصبح الرواية صرحاً فخماً للكاتب نفسه لا لبطلها[38].

وكما هو متوقع، ربما كان أشد ردود الأفعال سلبية، قد صدر عن صحيفة التيمبو، بعدو غارسيا ماركيز القديم، التي وجدت في الرواية عملاً مضاداً لكولومبيا، بحسب ما ورد في مقالة افتتاحية لها:



لكـن للكتاب خلفية سياسية، إذ لا يستطيع المؤلف أن يُخفي فلسفته على صـفحاتها المئتين والأربع وثمانين، وبخاصة في الميدان الإيديولوجي. فقد نفّس عـن مشاعر حقد غير مكبوتة ضد سانتاندير، وكشف عن وصدّ ودّيّ إزاء بوحـوتا وإنتاجها الكلاسيكي من الكاتشاكو، على حين يشير إلى خصائص الجنرال الشخصية، ويعزو إلى أصوله الكاريبية الجزء الأعظم من الدافع الذي نقلـه إلى المجد. إنه يؤكد بمهارة وحذق عاليين شخصية بوليفار الدكتاتورية، وجـدوره الخلاسية، ونـزعته الدنيوية ليتجح مقارنة بفيدل كاسترو لا يشعر لها العقل[39].

يظهـر هـذا الهجاء المثير للاضطراب، مدى الانـزعاج الذي سببه استيلاء غارسـيا ماركيز على بوليفار في أنظار الأوصياء على هدبة كولومبيا الوطنية. لقد ضـغط على كل زر، مما جعل كاتب الافتتاحية يفقد هدوء أعصابه ومما لا شك فيه، أن غارسيا ماركيز شعر برضا المحارب الذي أحرق عدوه في الهواء الطلق عندما ردَّ على الإهانة بمثلها:

سـبق أن قلـت إن التيمبو صحيفة فقدت عقلها. تحميها حصانة غير مألوفة تمامـا. فهـي تقـول ما يحلو لها ضد كل من يحلو لها، من دون أن تحسب النتائج، أو تفكّر في الضرر السياسي أو الاجتماعي أو الشخصي الذي يمكن أن تلحقـه. قلـيل جداً من الناس يملكون الجرأة على الرد عليها خوفاً من سـلطتها المطلقـة. نحـن بحاجـة إلى أن نكتشـف أنفسنا، ولا نريد أن يظل كولومبوس مكتشفنا.

وقـد ردت الصحيفة نفسها على هذه المقالة بمقالة بعنوان *ثورة غضب نوبل*، نُشرت في الخامس من نيسان، وأعلن فيها أن "غارسيا ماركيز لا يقبل إلا المديح"، ثم وُصف بأنه "بارون ماكوندو"[40].

مـن الواضح أن شيئاً ما كان يحدث لغارسيا ماركيز ولسمعته. فعلاقاته مع الكـبار ومـع الطيبين كانت تنمو باطراد – فالقادة السياسيون من أمثال كاسترو وسـاليناس وبيريـث اعتقدوا أنهم بحاجة إليه أكثر مما هو بحاجة إليهم – لكن بقية العـالم بـدأ يلاحظ، وبخاصة في بعض الأوساط، مشاركة أقل من ذي قبل. كما أضـحى غارسـيا ماركيز فجأة تحت ضغوط متزايدة؛ مما يتعلّق بعلاقته بكاسترو وكـوبا، وإشارات صحافية لا أساس لها من الصحة عن علاقات جنسية، وحريف

عمر سقيم، وخوف من أن تكون شعبيته في تضاؤل، فيتبع ذلك تضاؤل في نفوذه السياسي، وكان يميل إلى المبالغة في ردود أفعاله إزاء المجاملات أو النقد. لقد بدا للمرة الأولى وكأنه سيفقد لمسته قليلاً. وكانت الصحف الكولومبية تنشر، بل تشرت حقاً، أن تأثيره وشهرته صعدا إلى رأسه، وأنه يتصرف بأعلى دوافع الزهو والرجسية والحساسية المفرطة.

لكن الأمور كانت أشد تعقيداً من هذا كله. حقاً، كانت لعبة الحرب الباردة التي لعبها غارسيا ماركيز أفضل من أي شخص آخر قد انتهت تقريباً، وإن كان بعض المراقبين يتوقعون أن نهايتها ستحل بأسرع ما يمكن في تشرين الثاني 1989. لقد تغير المناخ تغيراً كبيراً، وكانت مناورات غارسيا ماركيز أقل وثوقاً وارتياحاً، وقد فطن إليها صحافيون استجابوا حتماً للجو المتغير، وإن لم يستطيعوا رؤية المستقبل في كرة بلورية بالوضوح الذي كان يراه فيه.

لقد كتب غارسيا ماركيز كتاباً هو أكثر الكتب المنشورة لتي دار الحديث عنها عن بوليفار أهم سياسي في تاريخ أميركا اللاتينية - وأصبح كما كان يتوقع حتماً في خضم سلسلة لا تنتهي من المجادلات السياسية في مختلف الأماكن وعلى مختلف المستويات. في غضون ذلك، كان صديقه السابق ماريو فارغاس يوسا مشغولاً انشغالاً سياسياً مباشراً أكثر مما مضى، بل رشح نفسه ليكون رئيساً لجمهورية البيرو بوصفه ليبرالياً جديداً. وكان هو وغارسيا ماركيز قد افترقا افتراقاً جذرياً بخصوص الشؤون البيروفية في أواخر عقد الستينيات من القرن العشرين عندما ساند، شأنه شأن معظم اليسار الأميركي اللاتيني، مساندة مشروطة النظام العسكري التقدمي للجنرال خوان بيلاسكو، على حين وقف فارغاس يوسا ضده. الحق أن كره العسكر كان سمة من سمات فارغاس يوسا في جميع الأوقات، على حين أن غارسيا ماركيز، الواقعي دائماً، وإن لم يكن شخصياً عبقاً، كان يعلم أن ما من دولة أو نظام يمكنه البقاء بلا جيش، ولهذا، كان يرى أنه لا بد من منح العسكر قدراً من الاحترام دائماً. وبحلول نهاية شهر دار، تمنى غارسيا ماركيز لصديقه السابق أطيب التمنيات وإن أبدى تحفظات: "محتم على كل شخص في أميركا اللاتينية لديه جمهور ما، أن ينتهي به الأمر إلى السياسة. لكن ما من أحد

مـــضى بعيداً في هذا الشوط قدر ماريو فارغاس يوسا. أتمنى ألاّ تكون الظروف قد جذبـــه، بل أن يكون واثقاً من أنه يستطيع حقاً أن يجد حلاً للوضع في البيرو. ولا يمكـــن للمرء حتى في خضم هذا العدد الكبير من الاختلافات الإيديولوجية إلا أن يـــتمنى، إذا مـــا انتخب، أن تسير الرئاسة على ما يرام معه لمصلحة البيرو"[41] ثم أضـــاف: "إذا كـــان المـــرء متهوراً عليه ألاّ يكون ساذجاً كي لا يستخفه أحد". وأخـــيراً، أصيب معظم المراقبين لأدبيين بخيبة أمل عندما خسر فارغاس يوسا أمام ألـــبيرتو فوجيموري، وهو شعوي مغمور تحول إلى واحد من أسوأ حكام أميركا اللاتـــية في نهاية القرن.

أكدت إسبانيا في شهر آذار ما كان يتوقعه غارسيا ماركيز غاضباً منذ أشهر عـــندما تبنت قوانين المجموعة الأوروبية التي تعني أن الأميركيين اللاتينيين سيحصلون مـــنذ الآن علـــى تأشيرات لدخول شبه الجزيرة بصورة روتينية. وفي نوبة غضب واستياء، تُذكّر بنوبة الغضب الفاشلة ضد بينوشيت صرّح قائلاً: "لن أعود إلى إســـبانيا أبداً"[42] عنى عن القول إنه سيضطر إلى تغيير موقفه، لكنه شعر بإهانة حقيقية. ونحو بـــالازدراء أن الإسبان لم تكن لديهم تأشيرات عندما وصلوا إلى أميركا اللاتينية سنة 1492. وأضـــاف أن فرانكو نفسه سمح للأميركيين اللاتينيين أن يصبحوا مواطنين إسبان. وأخبر الصحافة أنه قد حذر فيليب غونثاليث قائلاً إنه إذا ما انضمت إسبانيا إلى الاتحـــاد الأوروبـــي، "فـــستولي ظهرك لأميركا اللاتينية"، وها هم قد ولوا ظهـــورهم لهـــا[43]. حقـــاً، إن علاقة غارسيا ماركيز بغونثاليث كانت مضطربة باستمرار لسببين اثنين بالرغم من أنها كانت علاقة وثيقة: أولاً: لقد قطع غونثاليث شـــوطاً طويلاً من النشاط الهدام السري ضد نظام فرانكو، إلى العضوية في الجماعة الأوروبية وحلف الناتو أيضاً، وهكذا، لم تعد مصالح إسبانيا "مكملة" لمصالح أميركا اللاتينيـــة، كما كان الإسبان يزعمون، بل معادية لها: فقد أصبحت إسبانيا اليوم، للمـــرة الأولى في تاريخهـــا الحديث، جزءاً من "الغرب"، وهو ما سيعده غونثاليث بنفـــسه عما قريب، وذلك عندما أرسلت إسبانيا قواتها لخوض حرب الخليج ضدّ العـــراق سنة 1991. ثانياً: لم يكن هناك شيء يروق غونثاليث أن يفعله أكثر من الاســـتجابة لمطالب غارسيا ماركيز المستمرة منه في تسهيل عودة كوبا إلى حظيرة

المجتمع الدولي، لكن غوتاليث وجد ممارسات كاسترو الدكتاتوري غير مقبولة - بل غير ملائمة أيضاً - في العالم الذي يتحرك فيه الآن، وتزعزع باستمرار لما رآه من عناد كاسترو المتأصل وعجزه عن التكيف مع النهج الذي يسير عليه العالم. (غنيّ عن القول إن كاسترو كان يزداد اقتناعاً بأن غوتاليث قد خان الاشتراكية العالمية)

في غضون ذلك كانت كوبا تمر بأحداث مثيرة. ففي أواخر سنة 1988، أرسلت ما تسمى "لجنة المئة" رسالة إلى كاسترو تدين فيها سياسات بلاده في مجال حقوق الإنسان، وتطالب بإطلاق سراح جميع السجناء السياسيين: "في كانون الثاني 1989، يكون قد مرّ عليك وأنت في الحكم ثلاثون عاماً من دون أن تكون حتى الآن قد أجريت انتخابات يقرر فيها الشعب الكوبي إن كان يرغب في أن تستمرّ في الحكم بوصفك رئيساً للجمهورية، ورئيساً لمجلس الوزراء، ورئيساً لمجلس الدولة، والقائد العام للقوات المسلحة. وسيراً على نهج تشيلي حيث تمكن الشعب بعد خمسة عشر عاماً من الدكتاتورية أن يعبر عن رأيه بحرية في مستقبل البلاد السياسي، فإننا بهذه الرسالة، نطالب بإجراء استفتاء عام كي يتمكن الكوبيون عن طريق الاقتراع الحر والسري من التوكيد، بكلمة نعم أو لا، موافقتهم أو عدم موافقتهم على بقائك في السلطة"[44].

حدث هذا بعد مرور تسعة أشهر على نشر غارسيا ماركيز صورته القلمية عن فيدل كاسترو المتحدث المحبوب والصديق الطيب لأصدقائه. كانت الرسالة قد وقعها في باريس عدد كبير من المشاهير والمثقفين، بالرغم من أن مجموعة الأحرار (خوان غويتيسولو، وبلينيو ميندوثا، وماريو فارغاس يوسا) باتت مرة أخرى في مركز الحدث ومع الحلفاء الفرنسيين بصورة رئيسة. وكانت الدفعة الأولى كبيرة منذ قضية باديّا، علاوة على حافز آخر تمثل بأن الشيوعية كانت تترنح قبل سقوطها في أوروبا. ولم تكن الأسماء الأميركية مؤثرة على وجه الخصوص باستثناء سوزان سونتاغ، مثلما لم تكن الأسماء الأميركية اللاتينية مؤثرة بدورها (إذ خلت من كارلوس مونتيس وأوغستو روا باستوس، وغيرهما) لكن التحدي كان قويًا بالرغم من ذلك.



لقد كانت الرسالة أخطر هجوم لفظي على كاسترو وكوبا منذ سنة 1971، وكانت حقاً أشدها تأثيراً، لأنها لم تكن تستند إلى حادثة واحدة أو مشكلة منفردة، بل إلى النظام السياسي الكوبي برمته، ورقعها عدد كبير من المثقفين المؤثرين الذين مهما أطلق المرء العنان لخياله لا يمكن له أن يصفهم بأنهم من الجناح اليميني. لقد كان عداء ريغان وتاتشر الشديد للشيوعية، المدعوم من البابا، والمسرود بلا حدود من استسلام غورباتشوف الفعّال، قد بدأ يغير بسرعة المناخ الدولي، بل ويغير العالم في الوقت المناسب، وسيكون فيدل كاسترو واحداً من أكبر ضحاياه، وسيكون عام 1989 عام الرؤيا. ومما لا يصدق، أن غارسيا ماركيز كان وسط كل هذه السحب المتجمعة، يمضي معظم الوقت في هافانا يكتب رواية عن الأيام الأخيرة لبطل أمريكي لاتيني آخر - الوحيد الذي يمكن أن ينافس كاسترو ويعتقد بعض المؤرخين أنه تحول إلى دكتاتور في أواخر أيام حياته.

لا بد من أن الحوادث المخيبة للآمال في كوبا عززت رغبة غارسيا ماركيز في العودة إلى كولومبيا. وفي حين كان ماريو فارغاس يوسا قد بدأ حملته الدون كيخوتيه للرئاسة في البيرو، كانت الحكومة الكوبية تلقي القبض (في التاسع من حزيران) على الجنرال أورلاندو أوتشوا وتحاكمه وهو أعظم أبطالها العسكريين في حملة أفريقيا، تلك المغامرة التي سمحت تغطيتها لغارسيا ماركيز أن يقترب من فيدل وراؤول والثورة. وكان من بين الذين حوكموا أيضاً اثنان من أصدقاء غارسيا ماركيز، وهما العقيد طوني لا غوارديا، وهو جيمس بوند على الطريقة الكوبية وشقيقه التوأم باتريثيو. كان غارسيا ماركيز يومئذ في كوبا يدرس في مدرسة السينما. وقررت المحكمة أن المتهمين مذنبان بتهمة تهريب المخدرات، وبهذا فإنهما كانا يخونان الثورة الكوبية، وحكمت على أوتشوا وطوني لا غوارديا واثنين آخرين بالإعدام في الثالث عشر من تموز 1989، في حين حكمت على باتريثيو لا غوارديا بالسجن ثلاثين عاماً.

عند نهاية رواية الجنرال في متاهته، يهبط بوليفار إلى أدنى مستوى له ويبكي في نومه بعد أن تاه في المطر وسئم من الانتظار من دون أن يعرف السبب. وفي اليوم التالي، يتفادى أسوأ ذكرياته وهي إعدام الجنرال مانويل بيار في أنغوستورا قبل ثلاث

عشرة سنة كان الجنرال بيار جلاسبا من كوراساو، رفض باستمرار سلطة البيض من ضمنهم بوليفار نفسه بالإنابة عن السود والمولدين. فحكم عليه بالإعدام لعصيانه الأوامر وتجاهل نصيحة أقرب أصدقائه. وجاهد لكبح الدموع ولم يتمكن من رؤية الإعدام. يعلق الراوي: "كان ذلك أشد أنماط استخدام السلطة وحشية في حياته، لكنه جاء في أنسب وقت في حينه أيضاً، لأنه رسخ به سلطته ووحد القيادة، وفتح الطريق لأمجاده"[45]. على امتداد تلك السنوات الأخيرة، ظل بوليفار ينظر إلى خادمه خوسيه بالثيوس ويقول: "سأفعل ذلك مرة أخرى". وهو ما قيل إن العقيد ماركيز تفوه به بعد أن قتل ميداردو باتشيكو في بارانكاس). ليست ثمة ضرورة على أي حال من الأحوال، كي يضع هذا المثال عن عمل يتسم بوحشية تامة، وقد نفذ لأسباب تعود إلى الدولة في نهاية فصله ما قبل الأخير الذي يعدو، على نحو لا سبيل إلى تغييره، الدراما الأخيرة الكبرى، والفعل السردي الأخير في الرواية (وإن كان ذلك قبل نهاية حياة بوليفار بثلاث عشرة سنة فيظهر على نحو استرجاعي). إلاّ أن غارسيا ماركيز فعلها، إذ يرى مرة أخرى قدرته الاستثنائية على توقع أحداث كبرى وقد اقشعرّت لها الأبدان. لا بد من أن كاسترو قرأ هذا الفصل قبل أسابيع من اشتراكه في إصدار الحكم على مصير أرتشوا. هل تذكره وهو يتخذ قراره؟[46].

والآن، أعدم واحد من أقرب أصدقاء غارسيا ماركيز صديقاً آخر من أصدقائه المقربين. (أعلن كاسترو أن القرار ليس بيده). وقد تسبب الإعدام بألم ممضٍّ لغارسيا ماركيز، وحرج سياسي شديد، إذ ناشدته شخصياً أسرة طوني لا غوارديا أكثر من مرة. فوعد أن يتوسط لدى فيدل، وقد توسط، لكن من دون فائدة.

رحل غارسيا ماركيز عن كوبا قبيل تنفيذ الإعدام. وفي اليوم التالي، الذي نفذت فيه الإعدامات، كان غارسيا ماركيز مع صديقه ألفارو كاستانو في باريس حيث التقى هناك جيسي نورمان، ووزير الثقافة الفرنسي جاك لانغ الذي كان يعد الترتيبات النهائية لمناسبة مرور الذكرى المئوية الثانية على ثورة أخرى انتهت بأن أكلت أبناءها. وفي اليوم التالي، حضر غارسيا ماركيز مأدبة احتفالية للذكرى المئوية

الناسية لاقتحام سجن الباستيل، وكان يخشى أن يكون جلوسه بجانب مارغريت تاتشر ("عيا كاليغولا، شفا مارلين مونرو"، بحسب وصف مضيفهم فرانسوا ميتران)، لكنه كان محظوظاً إذ جلس بجانب بنازير بوتو رئيسة وزراء باكستان الجذابة، في حين ظهرت مارغريت تاتشر، وبحسب تعبير إحدى الصحف البريطانية، كأنها "شبح المأدبة"[47]، وكانت قد أعلنت "أن الثورة الفرنسية هي التي بشّرت بنعمة الشيوعية". وفي اليوم التالي، وصل غارسيا ماركيز إلى مدريد وقال إنه شاهد فيدل كاسترو "في الأسبوع الفائت"، وأضاف بوهن أنه أخبر فيدل أنه "لا يناهض عقوبة الموت وحسب، بل يناهض أيضاً الموت نفسه". وقال إن إعدام أربعة من جنود الثورة "عمل مؤلم جداً، وحدث آلمنا كلنا". وأضاف أن لديه "معلومات جيدة جداً"، أن الرجال الذين قضوا حوكموا محاكمة عسكرية، وأعدموا بتهمة الخيانة وليس بتهمة تهريب المخدرات، وأن "تهمة الخيانة عقوبتها الإعدام في جميع أنحاء العالم"[48].

كانت العودة إلى كولومبيا جزءاً من استراتيجية غارسيا ماركيز الجديدة الصموح – هل تراه آثر الانكفاء أم تراه، كما يقول الفرنسيون، يعود القهقرى ليقفز قفزته نحو الأمام؟- لكن كولومبيا كانت تدخل في هذا الوقت مرحلة كابوسية جديدة ربما لم يسبقها مثيل على مدى تاريخها الطويل. ففي الثامن عشر من آب سنة 1989 لقي لويس كارلوس غالان المرشح الليبرالي الرسمي الآن، وأعظم السياسيين الكولومبيين شخصية منذ غايتان، المصير نفسه الذي لقيه سلفه عندما اغتيل في تظاهرة سياسية حاشدة في ضواحي بوغوتا على أيدي مهاجمين يعملون لمصلحة بابلو إسكوبار. وكان رد فعل كولومبيا، التي اعتادت على مثل هذه الفظائع، الذهول واليأس الشامل[49]. مرة أخرى، لم يرسل غارسيا ماركيز أي رسالة إلى الأرملة غلوريا بانشون التي كانت أول صحافية تجري معه مقابلة صحافية لدى عودته إلى كولومبيا سنة 1966، لكنه صرّح في اليوم التالي أن البلاد "يجب أن تساند الرئيس باركو"، ثم ناشد علانية مهربي المخدرات" ألاّ يحولوا كولومبيا إلى بلد كريه لن يستطيع العيش فيه لا هم ولا أولادهم ولا أحفادهم"[50].



كـان هـذا العام عاماً استثنائياً على الصعيد السياسي، ومع هذا، فإن أكبر الأحـداث قاطـبة يوشك أن يقع، وهو سقوط جدار برلين في التاسع من تشرين الـثاني. وكما ألمحت مارغريت تاتشر، وكما توقع غارسيا ماركيز نفسه، تحتمل أن مـئتي سـنة مـن تـاريخ الغـرب قد آلت إلى نهايتها. والآن، لم تعد وفاة اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية والشيوعية نفسها بعيدة. وفي كانون الأول أسرّ غارسـيا ماركيز إلى العالم "أن فيدل يخشى أن يتأثر اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية بالرأسمالية، مما سيؤدي إلى إهمال شأن العالم الثالث"[51]. من المؤكّد أن غارسـيا ماركيز لم ينقل المحتوى الحقيقي لأحاديثه مع كاسترو. وأضاف أن اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية ضروري لتوازن الولايات المتحدة الأميركية، وأنه إذا مـا سحـب دعمه المالي عن كوبا، هذا هو الشبح الكبير الذي يواجه الثورة فسيكون ذلك "أشبه بحصار ثانٍ". وأقرّ غارسيا ماركيز أن كوبا بحاجة إلى تحولات عميقة، بعضها بدأت حتى قبل ظهور البيريسترويكا بزمن طويل. لكن أعداء كوبا يواصـلون معارضة دخولها مرة أخرى إلى عالمها الطبيعي وهو أميركا اللاتينية لأن الجماهير سترى في ذلك انتصاراً لفيدل كاسترو. لا بد من أن غارسيا ماركيز اعـتقد أنه من حسن الحظ إعادة انتخاب فيليب غونثاليث وحكومته في إسبانيا في التاسـع والعشرين من تشرين الأول، وهو خبر جيد صغير في خضم بانوراما مثيرة للجزع.

رأى غارسـيا ماركيز أن جزءاً بكامله من التفكير التقدمي والعمل السياسي في العـالم في طـريقه إلى التلاشـي. وستلي ذلك حقبة غير مسبوقة من التحول الاجتماعي. لكن في حين كانت لحظات التحول الكبرى في الماضي، بصرف النظر عن ارتباكها، ترافقها إيديولوجيات سياسية واجتماعية تفسرها، فإن كل شيء الآن أصـبح مدفوعاً بدافع التحول الاقتصادي نفسه وما يرافقه من إيديولوجية العولمة. وفي الـوقت نفـسه، يمكن أن يبدو معنى هذا كله وقد ابتلعه التقدم التكنولوجي والإحبـاطي. من هنا لا بد من عودة ضرورية جداً إلى أصول الدين النابع من القلق ومـن الخـوف، بل وحتى من اليأس. فكّر غارسيا ماركيز في هذا لكنه لم يصرح بشيء عنه. لكن مهما حدث في العالم المادي، فإن غارسيا ماركيز سينطلق بحثاً عن



طــريق ســديد كــي يظل متفائلاً. لأن ردّ فعله كان هكذا تجاه جميع المحطات السوداوية. واليوم، يرى أن هذا هو واجبه تجاه كوكب الأرض.



-23-

عودة إلى ماكوندو
خبر كارثة تاريخية
1990-1996

كان العام 1989 أسوأ الأعوام قاطبة في تاريخ كولومبيا الحديث. ففي شهر آذار أصيب أرنستو سامبر، رئيس الجمهورية مستقبلاً، بعدة إطلاقات نارية في محاولة لاغتياله في مطار إلدوردو ونجا بأعجوبة. وفي أيار حاولت ميليشات أن تفجر ميغيل ماثا ماركير، قائد الشرطة السرية دي آي أس، ونجا بدوره بأعجوبة. وفي آب اغتيل لويس كارلوس غالان من الحزب الليبرالي أمام الملأ. وفي أيلول لحق الدمار بمكاتب صحيفة الاسبكتادور إثر هجوم آخر، وتعرض فندق هيلتون في كرتاخينا لقذف بالقنابل. كما هدد مهربو المخدرات حياة سيزر غافيريا، بديل غالان وعضو الحزب التكنوقراطي، حالما أعلن عن ترشحه[1] وفي محاولة سابقة لاغتياله في تشرين الثاني، فجرت طائرة مدنية تعود إلى شركة الخطوط الجوية الوطنية أبيانكا بالقنابل مخلفة مئة وسبعة قتلى، لكن غافيريا لم يكن على متنها. وفي شهر كانون الأول، فجرت قنبلة أخرى كبيرة أمام مبنى الشرطة السرية في بوغوتا، فلقي عشرات المارة مصرعهم. وهناك حوادث أخرى كثيرة مماثلة. لكن هذه الحوادث كانت شيئاً جديداً تماماً. صحيح أن عدد الناس الذين يموتون اليوم لا يزيد عن عدد الذين لقوا مصرعهم في دورة أحداث العنف التي وقعت في خمسينيات القرن العشرين، لكن الغالبية العظمى من أولئك الذين قتلوا كانوا مجهولين في المناطق الريفية. حقاً، لقد كانت الشكوى التي قدمها الكثيرون في الماضي ضد النظام السياسي الكولومبي، هي أن كل فرد يمكن أن يلقى مصرعه باستثناء مرشحي



الحزبين التقليديين؛ إلا إذا كان أولئك المرشحون (كما هي الحال في قضيتي غايتان وغالان) يهربون قارب الترمية الذي يبحر فيه كل حزب بالتناوب باتجاه انتصارات مزيجة معدة سلفاً في مياه سياسية سلسة.

غير أن الاختلاف يكمن في واقع الأمر في المخدرات. فالأحزاب السياسية التقليدية لم تعد تسيطر سيطرة تامة على زمام الأمور، لأن جزءاً كبيراً من الموارد الوطنية لم يعد ممكنها لتوزعه بأي سبيل كان يحافظ على "استقرار" وضعها القائم. غير أن مصالح أخرى باتت اليوم في خطر. وبهذا، أضحت هناك أهداف جديدة. ففي الثالث من تشرين الثاني، أوردت صحيفة إكسيلسيور قول غارسيا ماركيز بأن ما يسمى "الحرب ضد المخدرات" (وهي العبارة المفضلة لدى الولايات المتحدة)، محكوم عليها بالإخفاق، استناداً إلى لتصور الراهن[2]. وبدأ يحث على ضرورة البدء من جديد بمباحثات تشترك فيها الحكومة والثوار ومهربو المخدرات، وإلاّ، فإن كولومبيا، بحسب تعبيره، سينتهي بها المطاف إلى أن تكون ضحية مخططات الولايات المتحدة الإمبريالية الموجهة إلى جميع أرجاء القارة، وذلك بشن معارك بالإنابة عن نفسها.

بعد ستة أسابيع لا غير، سيتمكن كل فرد من رؤية أن غارسيا ماركيز أظهر مرة أخرى أنه على دراية بصف الكرة الأميركي. وفي أواخر كانون الأول، واتت الولايات المتحدة الشجاعة إثر سقوط جدار برلين، إذ بدلاً من أن تراتاح لذلك، غزت برئاسة جورج دبليو بوش باناما، وقتلت مئات المدنيين الأبرياء، وخطفت رئيس الجمهورية الأميركي اللاتيني (صنيعهم أنطونيو نورييغا) للمرة الأولى في التاريخ. كان نورييغا دكتاتوراً على وجه التأكيد، وكان أيضاً رجل عصابات ومهرب مخدرات وابن عاهرة بكل معنى الكلمة (وكانت هذه كلها مبررات الغزو)، لكنه كان أيضاً رجلهم إلى ما قبل بضعة أشهر. وهكذا، رجعت الولايات المتحدة الأميركية إلى سياسة الغزو الخارجي في السنة نفسها التي اعترف فيها السوفيات أن غزوهم الكبير لأفغانستان كان خطأً. دان غارسيا ماركيز التدخل الباناني في صحيفة عراك الكوبية (الحادي والعشرون من كانون الأول) بالرغم من استيائه من نورييغا، لكن غرانما لم تكن مطبوعاً يحظى باهتمام سلطات الولايات المتحدة.



وكانت هناك العديد من الكتابات الجديدة على الجدران. كما كانت هناك أيضاً كتابات قديمة.

سارت الأمور في كولومبيا سنة 1990 مثلما سارت سنة 1989، ونشرت مجموعة من "الوجهاء" وكبار الشخصيات العامة، بدعم من رئيس الجمهورية باركو على ما يبدو، رسالة مفتوحة يقترحون فيها عقوبات "أقل قسوة" بحق مهربي المخدرات إذا ما أرادوا وضع حدّ لحملة العنف. عرضت عناصر بارون في كارتل ميديلين أن توقف حمّام الدم وتُسلّم منشآت تنقية الكوكايين مقابل ضمانات حكومية. لكن، لم يوافق جميع مهربي المخدرات على هذا العرض، فالمرشح الثاني لرئاسة الجمهورية مصرعه وهو برناردو خاراميو عن حرب يونيون باتريوتيكا (الاتحاد الوطني) وكان يعرف سابقاً باسم القوات المسلحة الثورية الكولومبية (أف آي أر سي) وذلك على أيدي كارتل ميديلين في أواخر شهر آذار. (كان تنظيم القوات المسلحة الثورية الكولومبية (أف آي أر سي) أقدم التنظيمات الثورية، مؤسسوه من يسار الحزب الليبرالي إبان المراحل الأخيرة من حقبة العنف، ثم أسسوه ليكون الجناح المسلح للحزب الشيوعي في ستينيات القرن العشرين. كما أنه يُعتبر المنظمة الثورية ذات الجذور العميقة جداً في أوساط الفلاحين في بلد شتهرت في مطلع القرن الحادي والعشرين بأنها ذات أكبر عدد من الفلاحين المشردين في العالم. وعندما حاول التنظيم أن يسلك الطريق الانتخابي في ثمانينيات القرن العشرين، خسر زهاء ألفين وخمسمئة مرشح وموظف اغتالتهم فرق الموت التابعة لميليشيات المرتبطة غالباً بقوات حكومية. ومما لا يبعث على الدهشة، أن التنظيم عاد إلى حرب العصابات على نطاق شامل).

واتهمت المعارضة وزير الداخلية كارلوس ليموس سيموندس بالتحريض على اغتيال خاراميو، فاستقال. وفي أواخر شهر نيسان، لقي ثالث مرشح لرئاسة الجمهورية مصرعه. وهو كارلوس بيزارو، الذي كان منتمياً إلى حركة أخرى من الحركات الثورية السابقة وهي أم - 19، وذلك خلال رحلة طيران داخلية، على يد مهاجم استأجرته فرق موت مدعومة من الشرطة أو الجيش؛ بحسب اتهام شقيق بيزارو. في غضون ذلك دفع مهرب المخدرات البارز بابلو إيسكوبار مبلغ أربعة

آلاف دولار عن كل شرطي يتم اغتياله، فتفجرت القنابل في طول البلاد وعرضها وقتلت مئات الناس. وعندما جرت الانتخابات الرئاسية، فاز سيزر غافيريا رئيس الأركان السابق في حكومة غالان بنسبة 4.37 بالمئة من الأصوات، ولم يكن قد دخل إلى صناديق الاقتراع سوى 45 بالمئة من الأربعة عشر مليون ناخب يحق لهم الانتخاب. وعندما عرض مهربو المخدرات تعليق حوادث العنف، رفضت الحكومة الجديدة العرض، إذ كان برنامج غافيريا يشتمل على الاستمرار في سياسة القمع ضد كارتلات المخدرات ومواصلة الإصلاح الدستوري.

في هذه اللحظة نفسها قرر غارسيا ماركيز أن يبذل مجهوداً آخر ليضع نفسه في كولومبيا. ولا بد من التساؤل إن كان قد فكّر في ذلك في مثل هذا الوقت الكئيب على المستوى الوطني لو لم تكن كوبا تمر بحرجة سياسياً. وعندما تمكن من الوقوف على قدميه مرة أخرى وبدأ يرسخ من استراتيجيته السياسية الجديدة، فإن هدفه لم يعد متمثلاً بتحسين الثورة الكوبية، بل المساعدة على إنقاذ فيدل؛ من نفسه إن كان ذلك ضرورياً[3]. وابتدأ غارسيا ماركيز يقرّ في مناسبات عدة - وإن كان يطرح ذلك على أنه حدس طبيعي - بأننا "في البدايات الأولى من مرحلة جديدة يصعب توقّعها"، ثم حدد على نحو ربما أقل إقناعاً، بأن هذه المرحلة الجديدة ستبدو "محكوماً عليها بتحرير تفكيرنا"[4] إلا أن الشيء الذي لم يعترف به هو أن هذا العهد الجديد جسّد هزيمة كل شيء كان يعتقد به دائماً. وقرر ألاّ يبوح بمكنون صدره، بل أن يستفيد من كل ما يحدث وأن يتصرف كأن كل ما يجري كان يتطلع إليه. فالرجعيون، وفي مقدمتهم حكومة الولايات المتحدة، هم الذين لم يفهموا جسامة ما كان يحدث في العالم وتصاعد الفرص التي تنتظر البشرية الآن. وقال إن ما يحدث يستدعي من الجميع إعادة النظر في معتقداتهم السياسية[5]. كانت تلك لحظة حاسمة في تفكيره

هل يمكن للأمور أن تتحسن حقاً؟ لا، فقد ساءت أكثر بسرعة. ففي أواخر شهر شباط، وبعد بضعة أسابيع على حادث باناما، خسرت حكومة الساندينستا في الانتخابات بعد أن كانت قد فازت بالسلطة وتمسكت بها وهي بين أسنان المعارضة الأميركية، إذ صوت ضدها شعب تعب من الحرب وبدا متشائماً بشأن

المستقبل في قارة لا يزال يهيمن عليها عملاق الشمال. أصيب غارسيا ماركيز بالذهول، لكنه أفصح في القول إن **الساندينستا** ستفوز في الانتخابات المقبلة[6]. ولم يكن فيدل كاسترو ليندهش مما جرى في نيكاراغوا، لكنه لا بد من أن يكون قد شعر بخيبة أمل مريرة وحتمي على مستقبل بلاده. والحقيقة هي أن أميركا اللاتينية باتت على وجه العموم أشد فقراً في أواخر ثمانينيات القرن العشرين مما كانت عليه في الستينيات، وكانت أغلب أقطارها غارقة في ديون ثقيلة. وكان يمكن مشاهدة الحيف الاقتصادي والظلم في كل مكان. لقد ساد الاعتقاد أن رواية **مئة عام من العزلة** شاهد على التأخر في تلك اللحظة نفسها التي كان يوشك فيها على الرحيل نهائياً بفضل ثورات عقد الستينيات. لكن ما حدث هو العكس، إذ بدت أميركا اللاتينية في أواخر عقد الثمانينيات وهي في طريقها عائدة إلى ماكوندو.

لاحق الصحافيون غارسيا ماركيز في كل مكان في كولومبيا، وهو أمر معتاد. كان قد بدأ الاشتغال على دراما تاريخية أخرى تدور حول العواطف الجسية، وبكون عنوانها **الحب وشياطين أخرى**، وأثار عودته بالإعلان عن أنه سيقتبس للتلفزيون الكولومبي قصة **ماريا** (1867) لخورخه إسحق، وهي أشهر قصة كولومبية وأكثرها شعبية قبل صدور **مئة عام من العزلة**. وكان من المقرّر أن تُعرض في شهر تشرين الأول. وقال إنها تمثل تحدياً كبيراً ومسؤولية عظيمة. لكنها هي القصة التي كان يتطلع إليها كثيراً، وكان يأمل أن يجعل سيّدات البيوت في أميركا اللاتينية تجهش بالبكاء لهذه النسخة التلفزيونية أكثر مما أجهشت بالبكاء جدات جداتهن ومن ضمنهن جدته هو، عندما كانت الرواية الأصلية في أحضانهن في سبعينيات القرن التاسع عشر. وصرّح: "إن الحب أهم موضوع في تاريخ البشرية" - إذ كانت قصة **ماريا** أشهر قصة حب في تاريخ أميركا اللاتينية. "يقول البعض إن أهم موضوع هو الموت، لكنني لا أظن ذلك، لأن كل شيء يقترن بالحب"[7]. ما كان من شأن غارسيا ماركيز أن يكون أشد إيجازاً في نقل تطوره في ضوء مركز الجذب الموضوعاتي.

وبالرغم من تصريحاته بأنه "رجع" - وهو ما نظر إليه الكولومبيون بارتياب بعد أن سمعوه من قبل يردد ذلك مرات عديدة - إلا أنه سافر برفقة ميرثيديس إلى

تشيلي والبرازيل قبل العودة مؤقتاً إلى المرفأ الأمين في المكسيك. كانت زيارة غارسيا ماركيز إلى تشيلي لحضور احتفال تنصيب باتريشيو إيلوين في الحادي عشر من آذار، وهو أول رئيس ديمقراطي في تشيلي منذ سنة 1973. وأخيراً، استطاع غارسيا ماركيز أن يشمت بالسعادة وهو يشاهد بينوشيت وقد خسر في الانتخابات مثلما خسرت الساندينيستا (وإن لم يخرج من الحياة السياسية التشيلية).

وقد سبق أن رأى غارسيا ماركيز بينوشيت في واشنطن سنة 1977 عند توقيع اتفاقية قناة بناما خلال إضراب غارسيا ماركيز الأدبي (الذي كان بسبب تسلّم بينوشيت السلطة). وها هما الآن معاً في احتفال لا بد من أن الجنرال التشيلي شعر معه أنه أقل الاثنين ارتياحاً. (لقد ذُكر في صحيفة الفايننشيال تايمز اللندنية على نحو مناسب تماماً، أن بينوشيت أضحى الآن *ضائعاً في متاهته*)[18]. أهم تجربة جديرة بالذكر مرّ بها غارسيا ماركيز، هي اشتراكه في إعادة فتح منزل بابلو نيرودا في إيسلا نيغرا الذي أغلقه الدكتاتور على مدى سبعة عشر عاماً. وكان برفقته خوسيه دونوسو، وخورخه إدواردز، والشاعر نيكانور بارا، وإنريكي كوريا، والسكرتير العام للحكومة الجديدة.

في شهر آب، تبوأ غافيريا السلطة في كولومبيا بعد أن كان قد انتخب في شهر أيار، وله من العمر ثلاثة وأربعون عاماً، وكانت مبادرته السياسية الأولى اقتراحاً بتشكيل مجلس تأسيسي وطني لإصلاح النظام الحكومي - كان الدستور الحالي يرجع إلى رئيس البلاد الساحلي الوحيد رافائيل نونيث عام 1886- وهو ما كان غارسيا ماركيز يريد لغافيريا أن يفعله بعد أن صرّح دائماً أن الدستور القديم ليس سوى دستور نظري. (في الرابع من أيلول، لقد تمّ التساؤل في صحيفة الباييس بلباقة إن كان غارسيا ماركيز من "أنصار غافيريا"[19]. فكان رده: ليس الآن، لكنه سيكون من أنصاره بعد حين). إنّ دستوراً جديداً من شأنه أن يعيد تعريف البلاد، وقد يؤدي إلى مستقبل مختلف تماماً. وعُرض اقتراح أن يكون غارسيا ماركيز مرشحاً للمجلس التأسيسي في السابع والعشرين من آب مهمته رسم الوثيقة الجديدة، مما جعل الصحافة تناقش مطولاً مشاركته المحتملة على مدى الأشهر القليلة المقبلة، وتستمتع كثيراً بالكشف عن تناقضات إنسان كان "صديق الدكتاتوريين"، وأنه لم يشارك في انتخابات طوال حياته.



بالرغم من بداية غافيريا الباعثة، إلا أن مهربي المخدرات لم يتركوه في شهر عسله، واستمرت السياسة كالمعتاد في الشهر الأول من تنصيبه. وفي الثلاثين من آب اختطف رجال العصابات العاملون لدى بابلو إسكوبار الصحافية ديانا طربيه ابنة الرئيس السابق خوليو سيزار طربيه، وخمسة صحفيين آخرين. وفي الحادي والثلاثين من آب، حاول رجال العصابات أيضاً اختطاف الصحافي في دار الإذاعة ياميد أمات. وستشمل هذه الحوادث وغيرها من القضايا المماثلة، الأساس لرواية غارسيا ماركيز الوثائقية **خبر اختطاف** التي صدرت بعد أربع سنوات. بالرغم من أن نموذج تلك الحوادث لم يكن واضحاً لديه في تلك اللحظة. وفي الثالث من أيلول، وجد العبارة الثانية من شعاره الجديد. كانت العبارة الأولى معروفة وهي: "الأزمة تتغير وعلينا أن نتكيف". أما العبارة الثانية فكانت جديدة: فيدل وحده هو الذي يمكنه أن يغير كوبا، لكن الولايات المتحدة تريد دائماً غولاً"[10] إنها عبارة ذكية حقاً، لكن المشكوك فيه هو أن يكون فيدل قد استشير في موضوع الحاجة إلى تغيير كوبا. من المؤكد أنه لم يكن يتفوه علانية بهذا الكلام، لكنه سرعان ما سيدرك أن تتم كوبا الاقتصادي من دون الاتحاد السوفياتي، والحصار الذي لا تزال الولايات المتحدة تفرضه عليها، وما يسمى "بالمرحلة الخاصة" من التقشف الذي ليس له نظير، كلها أمور لا بد من أن تعلن قريباً.

في العام 1991 طور غارسيا ماركيز عمليته الكولومبية وأكد عزمه طويل الأمد على أن يقسم حياته بين المكسيك وكولومبيا وذلك بأن عيّن مارغريت ماركيز، ابنة خاله الراحل خوان دي ديوس، سكرتيرة له في الشقة الفسيحة التي اشتراها هو ومرسيديس في بوغوتا كي يرجع إليها رجوعهما الأسطوري. لكن شهر زيارة غارسيا ماركيز الأخيرة كان شهراً عنيفاً أيضاً. فقد أحدث ماروخا موستويا، وهي جدة، من بين الرهائن الذين خطفهم إسكوبار، وقُتلت. حاول الجيش أن ينقذ ديانا طربيه في يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني، لكنها قُتلت في أثناء محاولتها الهروب من خاطفيها، مما حمل غارسيا ماركيز على الحديث علناً وهو المعروف بتردده في إطلاق التصريحات المؤيدة للحكومات الكولومبية. فقد قال في مقابلة إذاعية في السادس والعشرين من كانون الثاني إن

أولئك المعرضين للاعتقال والإبعاد إلى الولايات المتحدة لعرض محاكمتهم(*)، ينبغي لهم أن "يحترموا حياة الصحافيين"[11]. وفي السادس من آب، أطلق سراح الرهينة بياتريث بياميسار، لكن ماروخا باتشون، وباتشيمو سانتوس وهو عضو في أسرة صحيفة التيمبو (ونائب رئيس البلاد مستقبلاً) ظلا في الأسر. ولزيادة الطين بلة، فقد كانت هناك نشاطات مكثفة لرجال العصابات في أطراف بوغوتا نفسها. في غضون ذلك، أصدر رئيس الجمهورية غافيريا بياناً في الولايات المتحدة أعلن فيه أنه لا يزال يفضل، بعد أن أخذ كل شيء في الاعتبار، تسليم مهربي المخدرات إلى حكوماتهم، وهذا يعني أن مستويات العنف الراهنة ستتواصل بل ستتزايد أيضاً. بدت الأوضاع حرباً حتى الموت بين كارتلات المخدرات والمجتمع المدني.

عاد غارسيا ماركيز إلى المكسيك في شهر تموز في زيارة قصيرة ليلتفت إلى شؤونه والتزاماته فيها، لكن قبل سفره، كان رئيس الجمهورية غافيريا، الذي ربما أصغى إلى غارسيا ماركيز، قد فاوض بابلو إيسكوبار وتوصل معه إلى صفقة مثيرة لكنها تثير جدلاً عميقاً، سلّم بموجبها سيد المجرمين نفسه لقاء حكم مخفف وظروف سجن مريحة؛ ليس في الولايات المتحدة كما كان يخشى كل مهربي المخدرات، بل قرب مسقط رأسه في مدينة ميديلين. وصف غارسيا ماركيز الاتفاق الذي سيدينه اليمين الكولومبي والولايات المتحدة على أنه "انتصار الذكاء". وأوضح أن الولايات المتحدة الأميركية نفسها ذات تاريخ طويل في التفاوض مع العصابات عندما تكون هناك أسباب ظرفية للتفاوض[12]. إنه لمن الصعب تأبيد كل السبل والمناورات المؤلمة التي تضطر سياسة الحكومة إلى اتخاذها على مدى السنوات الثلاث المقبلة، لكن غارسيا ماركيز سيبذل قصارى جهده في المساعدة.

وسيكون غافيريا مديناً له. فعندما رجع غارسيا ماركيز إلى كولومبيا، كان لديه عمل ضروري يهتم به. وسيظهر لكل المتشككين – وهناك الكثيرون منهم – أنه ملتزم، لا بالعودة إلى البلاد على أساس المدى الطويل وحسب، بل المشاركة أيضاً في الحياة السياسية. وكان قد قرر أن يشتري بالمرابدة نشرة أخبار تلفزيونية مسائية بعنوان "كاب" (وهي كلمة عامية يلجأ سواق سيارات الأجرة إلى استعمالها دلالة على الاستعداد، أو في خدمتك، أو جاء دورك في الحديث). كانت الفكرة

لإنريكي سانتوس كالديرون. وكان من بين الصحافيين الآخرين المشاركين كل من ماريا ألفيرا سامبر وماريا إيزابيل رويد. أما خوليو أندريس كامانشو، صاحب مجلة كروموس، فكان حامل أسهم بالغ الأهمية شأنه شأن غارسيا ماركيز (بالرغم من أنه سيدعي لاحقاً أنه ليس سوى روح المشروع). ولم يكن هناك ما يبعث على الدهشة عندما منحت حكومة غافيريا "كاب" رخصة للبدء بالإذاعة في الأول من كانون الثاني سنة 1992.

في غضون ذلك، كان غارسيا ماركيز ومرثيديس يُظهران التزامهما بالعودة الكبرى بأكبر قدر ممكن. فبعد أن ابتاعا الشقة في بوغوتا اختارا موقعاً لبيت جديد في كارثاخينا في مواجهة البحر قرب أسوار المدينة القديمة وبجوار دير سانت كلارا المهجور الذي يعد واحداً من أجمل مباني المدينة التي ترقى إلى عهد الاستعمار. وتقرر أن يترأس المشروع المهندس المعماري الرائد في كولومبيا روخيليو سالمونا الذي سبق له أن كان مصدر عون لغارسيا ماركيز في باريس سنة 1957. لم تعد كوبا في مقدمة أولويات غارسيا ماركيز كما يبدو، أو في الأقل، قرر أن يجعلها تبدو وكأنها لم تعد في مقدمة أولوياته.

في آب سنة 1991، وكجزء من عمل غارسيا ماركيز المستمر في التكيف مع انتصار العالم الرأسمالي الليبرالي، دخل الولايات المتحدة بتأشيرة دخول اعتيادية للمرة الأولى منذ سنة 1961، إذ أدت القوانين الجديدة بشأن الشيوعية والهجرة إلى رفع اسمه في نهاية المطاف عن لائحة المنع. لقد ظل ينتظر ثلاثين سنة من أجل الحصول على تأشيرة اعتيادية، وها هو الآن يدخل البلاد لمفتتح مهرجان نيويورك السينمائي الذي يعقد من السادس عشر وحتى الثلاثين من شهر آب. لقد أزعج المنع غارسيا ماركيز أكثر مما كان على استعداد للاعتراف به. أولاً، وكما هي حال معظم الناس في منطقة الساحل، ليس أقلهم بقية أعضاء جماعة بارانكيا، لم يشعر قط بكراهية عميقة تجاه الولايات المتحدة الأميركية، ولا باحتقار متكبر لثقافتها، وهو الأمر الذي كان يشارك فيه العديد من الأوروبيين لا سيما الفرنسيين (ولم يكن فيدل كاسترو أيضاً، وبا للمفارقة، معادياً ضد الشعب الأميركي وثقافته، وما عشقه طوال حياته للعبة البيسبول إلا أحد الأمثلة على ذلك).



حقاً، إن اعتراضات غارسيا ماركيز على الولايات المتحدة الأميركية كانت في مجملها اعتراضات سياسية بطبيعتها. وتنبه بسرعة إلى أن قرّاءه من الأميركيين كانوا أكثر حماسة من قرائه الأوروبيين، وأقل انزعاجاً بكثير، ويا للعجب، من مواقفه خارج الحدود الأدبية. وكانت ترجمات كتبه إلى الإنكليزية تباع بشكل جيد دائماً وتحظى بإعجاب النقاد، وكان المترجمان الرئيسان لمؤلفاته، وهما غريغوري راباسا وإيديث غروسمان، أميركيين. وفي الأعوام الأخيرة كان متلهفاً لإقامة أي روابط يستطيع إقامتها مع صناع الأفلام الأميركيين التقدميين وبخاصة فرانسيس فورد كوبولا، وروبرت ريدفورد، ووودي آلن[13]. كما بدأ يستمتع بمدينة نيويورك كثيراً لأنه وهو يزورها بوصفه سائحاً بارزاً وليس تحت حصار دائم من الكوبيين المناهضين للثوار. لهذا، ارتاح ارتياحاً كبيراً عندما أصبحت حالته اعتيادية. وعندما كان في نيويورك، حدثت المحاولة الانقلابية ضد ميخائيل غورباتشوف في موسكو، مما أدى بعد ذلك إلى سقوط الزعيم السوفياتي في شهر كانون الأول، وبالتالي إلى تفكك اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية. شاهد غارسيا ماركيز الأحداث على شاشة التلفزيون في غرفته في الفندق في نيويورك، ولم يناقش هذه التطورات وتطورات أخرى سواها إلا مع بعبعه السابق، وزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق هنري كيسنجر؛ الذي لم تكن هناك شخصية مكروهة أكثر منه سوى شخصية بينوشيت[14]. وكانت كوبا على رأس جدول المناقشات.

في أواخر فصل الخريف، عاد غارسيا ماركيز إلى إسبانيا، المستعمر الأولي لقارة أميركا اللاتينية، بعد أن توصل إلى السلام بينه وبين الولايات المتحدة. وكان العام 1992 يقترب بسرعة كبيرة، واقتربت معه احتفالات الذكرى المئوية الخامسة لما يسمى "اكتشاف العالم الجديد". وثبطت عزيمة الإسبان الذين لم يدركوا دوماً كل الإدراك مدى اتساع نطاق وصايتهم التي سيشعر بها الأميركيون اللاتينيون خاصة عندما تراجعوا للإعلان عن أنهم لم يكونوا محتاجين إلى "اكتشاف"، فشكراً جزيلاً لكم – فقد اكتشفوا هم أو أمهاتهم وأسلافهم الهنود أنفسهم قبل قرون عديدة من الزمان — ولم يكن من الواضح لهم، بأيّ وسيلة من الوسائل، أن مجيء الإسبان إلى ما أسموه خطأً "جزر الهند"، سنة 1492، كان سبباً للاحتفال، فأعاد

الإسبان بعجالة ما أسموه تسمية الحدث القادم باسم الذكرى المئوية الخامسة "للقاء العالمين". كــان غارسيا ماركيز واحداً من أكبر المتشككين، إلا أنه لا بد من أن يكون قد ابتهج سراً بالمستقبل، فقد كان صديقه فرانسوا ميتران في السلطة في أثناء الاحـتفال بالذكـرى المئوية الثانية للثورة الفرنسية. واليوم صديقه الإسباني فيليب غونثالـيث في الـسلطة لتعميم الاحتفال بنصف الألفية على وصول أوروبا العالم الجديد.

وبمــا أن غارسيا ماركيز يتوافق دوماً مع التاريخ، فقد بدأ يشتغل في مشروع أدبــي ملائم لهذه المناسبة. فمنذ ستينيات القرن العشرين، وبمعنىً من المعاني، منذ أن عاش حقاً في أوروبا في أواسط خمسينيات القرن العشرين، كان يلهو بقصص تنقل تجـربة مغايرة للتجربة التي يحتفل بها الإنسان، وهي وصول الأميركيين اللاتينيين إلى أوروبا ومواجهة ما نظروا إليه على أنه ثقافة غريبة بالرغم من كل شيء. بمعنىً ما، هــذا هو ما كان يتحدث عنه مؤخراً بخصوص هجرة ذوي الأصول الإسبانية إلى الولايات المتحدة، وهو ضرب من ضروب الاستعمار العكسي الرمزي، ربما يذهب القــول بالبعض إلى عودة المضطهدين، ووضع الخطوط العريضة لعشرات الحكايات علــى امــتداد سنوات، وها هو الآن قد قرر اختيار أفضلها، تلك التي نجت، بعد غــربلته الأخيرة، لإنتاج مجموعة قصصية يمكن أن تصدر سنة 1992. وقد ظهرت بعــض تلك القصص بين عامي 1980 و1984 عندما قدّم قصصاً يمكن أن تشتمل علــيها هذه المجموعة القصصية الجديدة، تماماً مثلما كتب يوميات تتحول في نهاية الأمر إلى نصوص سينمائية لسلسلة قصص حب صعبة. لم تكن غارسيا ماركيز في عجالــة من النشر. لكن من جهة أخرى، لم تضع منه فرصة للنشر أيضاً، إذ ظلت العديــد مــن المشاريع متواصلة على مر العقود الزمنية، ولكنها وجدت نفسها في شــكل فــي – وفي شكل كتاب في نهاية المطاف وفي اللحظة المثالية في أغلب الأحــيان. وهكــذا أخَّر إكمال روايته الجديدة **الحب وشياطين أخرى**. كما أخّر نشرها والتفت إلى قصصه المسوحة من أوروبا

ســافر إلى برشلونة حيث أصبح يملك الآن شقة فخمة في شارع باسيو دي غراســيا، إحــدى أرقى المناطق في المدينة، وفي مبنىً أعاد تأهيله المعماري المشهور

ألفونس ميلا. ثم سافر بعد ذلك إلى مختلف أنحاء أوروبا، كأنه يريد بذلك أن يعلن حقــه في الأراضي التي كانت إمبريالية يوماً ما، والتي كانت بعض أجزائها تستميد المغامرين فيها. وزار سويسرا واسويد من بين دول أخرى. وكان السبب الأساس وراء هــذا كلــه، هــو أنه قرر أن يطلق على مجموعته القصصية الجديدة العنوان Cuentos Peregrinos. المعنى الأول لكلمة peregrinio لإسبانية هو الاسم pilgrim أي مهاجر، لكن هناك معنىً آخر يأتي صفة وهو "غريب" أو "مدهش" أو "دخيل". لهذا، فإن عنوان الترجمة الإنكليزية يكون Strange Pilgrims أي مهاجرون غرباء، لأن غارســيا ماركيز نفسه كان مهاجراً دخيلاً غريباً، لا يشعر بالانتماء السياسي لهذا العالم بقدر ما يشعر بالتصميم على أن يمضي قدماً ويفكّر تفكيراً إيجابياً، أو في الأقــل يتكلم. غير أن مشروع قصصه القصيرة اختزل الآن إلى خمس عشرة قصة، لكن زيارته إلى أوروبا، التي كان القصد منها أن تكون رحلة استجمام لآخر لحظة، ورحلة عاطفية أكثر مما هي تحديث معلوماته عنها، وضعته في موضع يدعو للهلع. فأوروبــا الــتي يتذكــرها هي ليست أوروبا الحاضرة اليوم، كما لم يعد أي من الأوروبــيين اليوم غارقاً في قراءة كتابه، فدوّن ملاحظات على عجل، ثم خصص الأشهر القليلة التالية لتنقيح الكتاب الجديد تنقيحاً شاملاً، وهو الذي كان قد وعد وكيله وناشره أن يكون جاهزاً للصدور، مع معرض أشبيلية في تموز المقبل

مما يبعث على الحزن أن كوبا بدأت سنة الذكرى المئوية الخامسة بإعدام آخر، وهو إعدام إدواردو دياث بيتانكورت المتمرد العاري. طالب غارسيا ماركيز بالرأفة علانية، وهو ما طالب به زعماء آخرون من ضمنهم زعماء دول يتعاطفون مع كوبا تعاطفــاً كبيراً، لكن بلا طائل[15]. فقد أوضحت السلطات الكوبية أن ردع الثورة المــضادة والإرهاب في ظل ظروف كوبا هو قضية حياة أو موت. واجتمع المثقف المكسيكي الكبير الشاعر أوكتافيو باث، واليميني الأمريكي اللاتيني في يوم مشهود في الهواء الطلق. فاضطرّ غارسيا ماركيز إلى أن يتدافع بالمناكب ليبرر علاقته بالزعيم الكوبــــي، بأن أوضح دوره في العفو عن السجناء وإطلاق سراحهم. ولم تضعف شــعبيته، وبخاصة في أوساط الجماهير الأميركية اللاتينية. وعندما ظهر للعيان لفترة قــصيرة في شــهر شباط في مؤتمر جامعة المكسيك الوطنية المستقلة على بعد بضعة

شوارع من منزله، وقف له جميع الحاضرين حال دخوله القاعة وصفقوا له تصفيقاً حاداً لمدة دقيقتين[16]. لم يكن غارسيا ماركيز من بين المشاركين في المؤتمر، لكن، هكذا كانت الأمور تجري معه حيثما تطأ قدماه. تاريخياً، لم تكن أمريكا اللاتينية قارة فائزين، لكن غارسيا ماركيز كان بطلاً عالمياً لا يقهر ولا يضاهيه أحد.

إلاّ أن البطل انكفأ فجأة أمام عدو غير متوقع. لقد كان يشعر بالتعب منذ بعض الوقت، بل وجد على حين غرة، مشقة في التنفس لدى رجوعه إلى هواء بوغوتا القليل، فقرر إجراء فحوصات طبية. وهنا وجد الأطباء ورماً على بعد سنتيمتر واحد من رئته اليسرى سببه على وجه التأكيد، التبغ الأسود الذي كان يستنشقه طوال تلك السنين أمام كل الآلات الكاتبة. اقترح عليه الأطباء إجراء عملية جراحية. وأخبر رجال الصحافة أن فيدل كاسترو وكارلوس ساليناس اتصلا به قبل إجراء العملية الجراحية متمنّيين له الصحة والعافية. وعرض عليه كاسترو طائرة خاصة نقله إلى كوبا مع طبيبه الخاص، وعبّر ساليناس عن أسفه لعدم رجوع غارسيا ماركيز إلى المكسيك لتلقي العلاج لكن غارسيا ماركيز وعده أن تكون المكسيك أول محطة يتوقف فيها بعد أن يتماثل للشفاء. كان في وسعه أن يختار بين الذهاب إلى كوبا أو المكسيك أو الولايات المتحدة، لكنه قرر أن تجرى له العملية الجراحية في كولومبيا. لم تكشف الفحوصات الطبيّة عن وجود أي انتشار ثانوي للمرض، وكُتب للعملية النجاح الباهر، إذ لم يشعر بصعوبات في عملية التنفس. وكانت إمكانيات النجاح ممتازة، وقيل إنه كان في أفضل حالاته المعنوية.

كان غارسيا ماركيز يهاب الموت طوال حياته، ولهذا، كان يخشى المرض أيضاً. ومنذ أن أصبح مشهوراً، بدأ يصغي بعناية إلى الأطباء، فيتبع نصائحهم كلها تقريباً بخصوص الحياة الصحية. والآن، وبعد كل هذه الاحتياطات، داهمه المرض، وليس هناك ما يدعو للهلع أكثر من سرطان الرئة. لكنه أثار دهشة نفسه ودهشة أولئك الذين عرفوه، فقبل التحدي القائم وأصرَّ على معرفة كل الحقائق عن المرض، والتقديرات عما قد يحدث، حتى تباهى أخيراً بالقول: "لقد تحكمت بنفسي"[17].

كان يفترض به أن يتمتع براحة تامة لمدة ستة أسابيع، لكن، أُعلن في العاشر من حزيران انه سيحضر معرض أشبلية في تموز، كما كان مقرراً، لا لتدشين الجناح



الكولومبي وحسب، بل لإطلاق كتابه الجديد أيضاً. أصبح من المعلوم الآن أن الكتاب يضم اثني عشرة قصة، وأنه جاهز.

استحوذ غارسيا ماركيز على كل شيء في معرض أشبيلية. فقد أصبح سيد جناح المعرض الكولومبي إثر وصوله إلى المدينة الأندلسية، بالرغم من أنه سبق له أن صرّح في مدريد بأنه لن يكون في أشبيلية "جناح ماكوندو"[18]. (كانت ماكوندو كلمة لم يستعملها منذ سنين، وأصبح ذكرها اليوم علامة على أحداث مقبلة). وكما حدث في مدريد، فقد أعلن غارسيا ماركيز في كل فرصة متاحة عن كتابه الجديد **مهاجرون غرباء** الذي طبعت منه خمسمئة ألف نسخة. وحيثما كان يذهب، تلاحقه الجماهير مطالبة بتوقيعه. وعندما كان السياسي الكولومبي والمرشح لمنصب رئاسة الجمهورية لاحقاً هوراثيو سيربا، ينتظر لدخول الجناح الكولومبي، سمع اثنين من الإسبان يتبادلان الحديث حول صورة لغارسيا ماركيز على يافطة تعلن عن الذكرى الخامسة والعشرين لصدور رواية **مئة عام من العزلة**.

من صاحب هذه الصورة؟

آه. إنه دكتاتور كولومبيا، وقد مضى على وجوده في السلطة خمسة وعشرون عاماً"[19].

الحق أن تلك هي المرة الأولى التي حضر فيها غارسيا ماركيز لإطلاق كتاب من كتبه. وعلى كل حال، كان العام هو 1992، وفي اليوم الوطني الكولومبي، وكان لا بد لرجال الشرطة من التدخل للسيطرة على الجماهير. وقام غارسيا ماركيز مقام رئيس الجمهورية لمدة يوم واحد، لأن بابلو إيسكوبار هرب من السجن فألغى غافيريا رحلة كانت مقررة إلى إسبانيا. وهكذا، وجد الفائز بجائزة نوبل نفسه وهو يفتتح معملاً كولومبياً للفن الزجاجية في مدريد.

إنّ مجموعة قصص **مهاجرون غرباء**، هي أول مجموعة من القصص التي كتبها غارسيا ماركيز تدور أحداثها خارج أميركا اللاتينية، وتنطوي جميعها على مسحة من السيرة الذاتية إلى حدٍّ ما. تقول المؤلف في مقدمته للمجموعة إن جميع القصص ما عدا اثنين منها (وهما قصة **أثر دمك على الثلج** وقصة **صيف الآنسة فوربس السعيد**) اكتملت كتابتها في نيسان 992، بالرغم من أنها بدأت كتبها بين 1976



وكانون الثاني 1982، بمعنى آخر. إنها بدأت خلال المرحلة الزمنية التي كان غارسيا ماركيز يشتغل في صحيفة الفارنانيغا وعزم على ألاّ ينشر أي مادة أدبية إلاّ بعد سقوط بينوشيت من سدة الحكم في تشيلي استعادياً. يبدو من قبيل الدهشة أن يكتب غارسيا ماركيز هذه الابتكارات السطحية المهلهلة، في وقت كان منهمكاً فيه كلّ الانهماك مع فيدل وراؤول كاسترو، ويكتب المقالات السياسية الحماسية الملتزمة ضد الولايات المتحدة والطبقة الحاكمة الكولومبية.

إنّ القصص غير مرتبة ترتيباً قابلاً للإدراك أو التمييز، سواء من حيث تسلسلها الزمني أو موضوعاتها. إنّ القصة الأولى: رحلة موفقة سيدي الرئيس، التي تروى بضمير الغائب، مفصلة لدى عدد كبير من القراء، وتدور أحداثها في جنيف في خمسينات القرن العشرين، وهي المدينة التي زارها غارسيا ماركيز أول مرة في العام 1955 بعد هبوطه في باريس مباشرة. بطل القصة، وهو رئيس جمهورية بورتو سانتو الكاريبية سابقاً، يعود من منفى من جزر المارتينيك لإجراء فحوصات طبية في سويسرا. إن هذه القصة، شأنها شأن القصة الأخرى ماريا دوس براثيريس، وشأن روايته الأخيرة ذاكرة غانياتي الحزينات، تحكي حكاية رجل يكتشف أن أفضل شيء هو نسيان الموت. إذاً، هي قصة ربما تلائم المؤلف في المراحل النهائية لإعداد المجموعة. فأمامنا أحد أبناء الطبقة الحاكمة، هو آسر، ولكنه كثير السخرية، يفوز على اثنين من البروليتاريين ميرر ما لجأ إليه من وسائل بالقول: "إنها أكاذيب فإذا كنت تخص رئيساً، فإن أسوأ المخازي يمكن أن تكون صحيحة وكاذبة في الوقت نفسه"

لقد قرر غارسيا ماركيز أن يمضي صيف الثوية الخامسة في أوروبا بعد إقامته الإلزامية في بوغوتا هجرة عربية. غزو معاكس. قال كل من التقاه إنه بدا مدهشاً. وصرّح: "لقد انتزع الأطباء الأشياء العليلة من داخلي وحسب"[20]. ثم قفل راجعاً إلى المكسيك. وفي السادس من تشرين الثاني بلغت ميرثيديس الستين من العمر، وأفادت تقارير أنها تلقت باقة ورد كبيرة من رئيس الجمهورية ساليناس لمناسبة ذكرى مولدها[21]. وكان لديه صف هائل من المعجبين وسط رجالات السلطة وأصحاب النفوذ، كثير منهم حسد غارسيا ماركيز على زوجة أظهرت – من دون مباهاة – مثل هذه السجايا المختلفة، كالرأي السديد، والدعم المتواصل. كانت

دبلوماسية بكل معنى الكلمة. ولم يكن هذا إلاّ بعد أن مثّل زوجها عمّا بموقفه في الحرب الحادي والعشرين، مردّاً بالقول إنه يعتقد أن على الساسة أن يأخذوا برنامج العالم لإنقاذ البشرية[22].

لمواصلة تعديلاته الدبلوماسية، اتخذ أول خطوة سياسية ضد ممثلي اليسار الكولومبي: رجال حرب العصابات في البلاد. فوقّع رسالة إلى صحيفة التيمبو في الثاني والعشرين من تشرين الثاني، تضم لائحة بأسماء عدد كبير من المثقفين الكولومبيين، من ضمنهم الرسام فيرناندو بوتيرو. كانت الرسالة أصلاً تدعم قرار غافيريا الأخير بشن حرب شاملة على رجال العصابات الذين لم يُظهروا أي اهتمام بمبادراته السلمية[23]. وكانت نتيجة ذلك بلا ريب، ترك رجال العصابات يشعرون بالعزلة، وبخاصة عن "مثقفي البرجوازية الصغيرة"، وجعلهم بالتالي يتبنون خطاً أكثر تشدداً سنستمر حتى يومنا هذا. كان القرار قراراً كبيراً بالنسبة إلى غارسيا ماركيز، إلا أنه بلا شك ينسجم وقرارات أخرى سبق له أن اتخذها نتيجة سقوط جدار برلين. لعل أكثر ما كان يأمل فيه، هو أن يحظى بوقت أكثر هدوءاً في أعقاب مرضه، ولم يكن يرغب في أن يُدفع دفعاً لتأييد من يتعذر تأييده، إذ لم يعد يملك التأثير الذي كان يملكه في اليسار الكولومبي حتى تلك اللحظة. كما أن اليسار الكولومبي نفسه لم يعد له ذلك التأثير الذي كان يملكه من قبل. أخيراً، راجت شائعات وانتشرت انتشاراً واسعاً تفيد أنه سيبتعد عما قريب عن كاسترو أيضاً، فبالرغم من كل شيء، كان فيدل مؤسس ورمز معظم حركات الثورة التي اكتسحت أميركا اللاتينية منذ بواكير عقد الستينات. لكن غارسيا ماركيز سخر من الشائعات، فهو لن يتخلى عن فيدل[24].

لقد فك ارتباطه عن رجال حرب العصابات في اللحظة نفسها التي كان يوشك فيها رئيس جديد على دخول البيت الأبيض في واشنطن. وقد أفادت تقارير أن بيل كلنتون، أول رئيس ديمقراطي منذ اثني عشر عاماً، كان "قارئاً متحمساً" لمؤلفات غارسيا ماركيز. وغدا بدت الأمور تبشر بالخير له أخيراً: كما تداولت التقارير كثيراً أن أسرة بوش لا تملك كتباً في منزلها وأنها تفضل مشاهدة التلفزيون عوضاً عنها.



مكتب غارسيا ماركيز في كارثاخينا. وفي الحادي عشر من كانون الثاني شوهد في صورة نشرتها صحيفة الاسكتادور في حلبة مصارعة الثيران يتحدث إلى أوغستو لوبيث بالنيا رئيس شركة خوليو ماريو سانتو دومينغو متعددة الجنسيات في بافاريا[25]. لم تُعلِّق الصحيفة بأي تعليق ولم توضح سبب اللقاء. لقد كان غارسيا ماركيز في ما مضى من الزمان يتأكد من أن مثل هذه اللقاءات إما أن تظل قيد الكتمان أمام العالم، أو يقدم تفسيرها من ضمنها اكتشاف أمرها مصادفة. لكن الأمر لم يعد هكذا بعد الآن، فقد أضحى بدوره في العالم البورجوازي وكان مُهيأً للالتزام باقتصاد السوق. كما أنه عارض، بوصفه اشتراكياً، أعمال الإحسان معارضة مبدئية (وإن كان كريماً بماله، في السر، مع أفراد يحتاجون إلى من يساعدهم من دون أن يجتذب الاهتمام إلى ذلك أبداً)، لكن في ظل غياب أي شكل من أشكال التدخل لقضايا يعتقد بها، فإنه تحول إلى ظاهرة بدأت تعود إلى العالم الغربي على نطاق لم يشهده أحد منذ آخر انتصار كبير حققته الرأسمالية الاحتكارية في زمن "العصر الذهبي" الأميركي أواخر القرن التاسع عشر: الصدقة العامة (إذ سيؤلف بيل كلنتون نفسه كتاباً عن "الهبة")[26] كان مضطراً إلى إدارة مؤسسة كوبية للسينما، وبدأ يفكر في مشروع آخر مماثل باهظ التكاليف: معهد للصحافة، فقد وضعت الحرب الاشتراكية المكشوفة، المسلحة والثقافية، أوزارها، والصراع الطبقي معلق أو معطل، كما أمسى واثقاً من أن حرب المراكز الثقافية والسياسية والتصرف تصرفاً تقدمياً قدر الإمكان بحسب الظروف - هي كل ما يمكن أن يتطلع إليه. وبهذا أضحى يشجع الأغنياء والمشاهير وأصحاب السلطة بدأب ومثابرة أكثر من ذي قبل.

وكجزء من إعادة تحديد الهوية الذاتية الدبلوماسية، سمح لاسمه بأن يرسل إلى منتدى الفكر التابع لليونسكو، أو منتدى "الحكماء" المؤلف من واحد وعشرين شخصاً، كما أسمته الصحافة الكولومبية، لمناقشة المشكلات المتزايدة ضمن ما يسمى "النظام العالمي الجديد"، في وقت كانت فيه اليونسكو تتعرض لنقد شديد من الولايات المتحدة الأميركية بدلاً من العمل الفعال. لقد كان الاعتقاد السائد أن الكلام خطر في بيوت السلطة في الغرب الليبرالي للمرة الأولى منذ عقود من الزمن،



معتمد مجيء تاتشر وريغان إلى السلطة. الكلام يسبب المتاعب ولا يمارك فيه إلاّ الـباريون، ثم مـا فائدة توقعات تافهة لا أساس لها، في حين لا يوجد شيء البتة مجمع كما صرّحت تاتشر نفسها. وكانت قد رشحت غارسيا ماركيز لهذا المنتدى غلوريا باتشون، أرملة لويس كارلوس غالان، التي كانت سفيرة كولومبيا لدى اليونسكو في باريس، كما رشحه أيضاً رئيسها غافيريا. وقبل غارسيا ماركيز إنه يفعل هذا لمصلحة بلده ولمصلحة العالم أجمع[27]. وكان من بين الأعضاء الآخرين فاتسلاف هافل وأمبيرتو إيكو وميشيل سيريس وإدوارد سعيد. وعقد الاجتماع الأول في باريس في السابع والعشرين من شهر كانون الثاني سنة 1993، فالتقى غارسيا ماركيز بأول مدير إسباني لليونسكو فيديريكو مايور الذي سرعان ما أصبح صديقاً وفياً. يبدو أن غارسيا ماركيز أراد أن يؤكد هيبته ومكانته المعززتين، وربما لإثارة إعجاب مواطنيه في بلده "أثينا أميركا الجنوبية". فتابع زيارة لباريس، مقر العقلية الأكاديمية، بنقد شديد اللهجة ضد الأكاديمية الملكية الإسبانية التي وضعت، حسب زعمه، "معجم مركز الأرض"[28]. مرة أخرى، لم يكن في الماضي سيتنازل ويشير إلى الأكاديميات، لكن تبين أن هذا لقد كان حركة أخرى بالغة الذكاء على المدى البعيد ستجعله مرة أخرى، على تماس وثيق مع الناس من الأكاديميين والمتخصصين في فقه اللغة والشعراء اليمينيين - الذين ما كان "ليهدر" وقته عليهم سابقاً أبداً. ولن يمضي وقت طويل حتى يبني علاقات مع جامعة غوادالاخارا في المكسيك حيث كان قد طور فيها علاقاته مع مديرها راوول بادييا لوبث، وأيد هو وكارلوس فوينتس منح كرسي الشرق في الجامعة لخوليو كورتاثار. كان غارسيا ماركيز وفوينتس قد بدآ منذ مدة الحديث عن أساليب للتقرب من رئيس الولايات المتحدة الجديد بيل كلنتون، الذي سادت التوقعات بأنه أكثر اعتدالاً - وأكثر ثقافة من أسلافه الديمقراطيين السابقين.

في شهر حزيران، تجاهل غارسيا ماركيز كل شكواه مما يشغله عن الكتابة وسافر إلى برشلونة للعمل للانتخابات مع فيليب غونثاليث، فأنتج شعوراً قوياً أمام أربعين ألفاً من مؤيدي الحزب الاشتراكي في واحدة من تظاهرات التأييد الأخيرة لغونثاليث في مونتخويك. ربما كان من الأفضل لو سافر إلى فنزويلا حيث كان

صديق آخر له، وهو كارلوس أندرياس بيريث، يواجه أزمة سياسية لن يشفى منها أبداً. ففي العشرين من أيار أعفي بيريث من منصبه رئيساً لجمهورية فنزويلا بعد اتهامه بسرقة سبعة عشر مليون دولار من أموال الدولة عند مجيئه للسلطة سنة 1989 فما كان من غارسيا ماركيز إلا أن أرسل رسالة تأييد مؤكداً شجاعة بيريث في مقاومة عدة محاولات انقلابية ضده - إحداها قادها جندي يدعى هوغو شافيز - وهو الآن يمضي محكومية في السجن، "وإحساسه الرائع بالصداقة" (ما شأن هذا بها كما تساءل العديد من القراء) بالرغم من عدم الثناء على إحساسه العميق بالنزاهة. ولسوء الحظ، ذهب غارسيا ماركيز في ما هو أبعد من هذا ووصلت به الجرأة إلى انتقاد مؤسسات البلاد وممثليها موحياً أن الاتهامات كانت سرقة مدبرة بالتواطؤ. ولم يتورع عن انتقاد الشعب الفنزويلي[29]، ولم يعد محبوباً كثيراً في فنزويلا مرة أخرى. لقد بدأت علاقاته الشخصية بأصحاب السلطة تكلفه غالياً.

التقى غارسيا ماركيز في تشرين الأول غلوريا باتشون شقيقة ماروخا وكانت يومئذ وزيرة التربية في كولومبيا، وزوجها ألبيرتو بياميثار. اقترح الزوجان عليه أن يؤلف كتاباً عن تجاربهما في 1990-1991 عندما تم اختطاف ماروخا. كان غارسيا ماركيز لا يزال منهمكاً في إعداد كتاب **الحب وشياطين أخرى** فطلب منهما مهلة سنة واحدة للتفكير فيه، لكنه عاد إليهما بعد بضعة أسابيع وأعلن موافقته وسط دهشتهما. كان له من العمر ستة وستون عاماً عندما قبل بمشروع آخر منهك يتطلب منه القدر الكبير من الجهد. سيكون عنوان الكتاب **خبر اختطاف**. وكما حدث، ففي حين وافق على المشروع، كان اثنان من المختصين الرئيسيين قد توفي، وهما الأب رافائيل غارسيا ماركيز هيريروس الذي كان قد أقنع إيسكوبار أن يسلم نفسه، إذ توفي في الرابع والعشرين من تشرين الثاني سنة 1992، كما أن إيسكوبار نفسه أطلقت عليه الشرطة الكولومبية النار وأردته قتيلاً في ميديلين في الثاني من كانون الأول سنة 1993 بعد مرور بضعة أسابيع على حديث غارسيا ماركيز الأول مع ضحيتيه السابقتين ماروخا وألبيرتو.

لكن قبل أن يتعقب رجال الشرطة إيسكوبار للمرة الأخيرة، جاءت حصيلة كل الجهود التي بذلها غارسيا ماركيز مع غاغيريا، إذ أعلنت كولومبيا أنها قررت



إعادة علاقاتها الدبلوماسية مع كوبا. كان غارسيا ماركيز في طريق عودته من بوليفيا إثر حضوره تنصيب رئيس جديد فيها عندما زار كارثاخينا "زيارة خاصة" - أخيراً شعر غارسيا ماركيز بالسرور وهو يحيّي أصدقاءه على تراب كولومبيا - والآن، وبعد مرور بضعة أسابيع، أُعيدت العلاقات كاملة. عاد فيدل وخورخ إيسكوبار: إنه شهر عظيم لكلٍّ من غافيريا وغارسيا ماركيز.

في أواخر العام، التأم شمل أسرة غارسيا ماركيز كلها في كارثاخينا للمرة الأولى منذ سنوات طويلة. والتقطت صورة تاريخية للويسا سانتياغا مع جميع أبنائها. ولم يتكرر مثل ذلك الاجتماع أبداً.

استمر غارسيا ماركيز منهمكاً في عمله، منهمكاً أكثر مما ينبغي على وجه التأكيد. وكما هو مألوف، فإن ما من أحد تقريباً كان يعلم أنه شرع تأليف كتاب جديد حتى قبل أن ينشر كتابه الأخير. لقد اضطر إلى أن يتكلم في الموضوع في ذلك الوقت. وفي شهر آذار سافر إلى إيتاغي بالقرب من ميدلين شمال غربي كولومبيا مع عدد من الصحافيين الأمريكيين من ضمنهم جيمس بروك مراسل صحيفة نيويورك تايمز. وكان الهدف من وراء الزيارة لقاء *الأخوة أوتشوا* أبرز مهربي المخدرات بعد إيسكوبار. يستذكر بروك الزيارة قائلاً:

> الرؤساء يأتون ويرحلون، لكن الكاتب الذي يُذكّر بالبوم والمعروف عالمياً بكنيته غابو يبقى. بعد مضي يوم واحد مع السيد غارسيا ماركيز، أصبح من الممكن رسم أبعاد شخصية هذا الإنسان بسرعة. ففي المطار في كارثاخينا، حيث يقيم، تعرف إليه المسافرون من نظارته ذات الإطار الأسود ورددوا كنيته باحترام ووقار. وفي السجن في إيتاغي، خارج مدينة ميدلين، خطا خطوات رشيقة سريعة ثلاثة مدانين بتهريب الكوكايين يُعرفون بالاسم *الأخوة أوتشوا* وهم يتنافسون على شرف تقديم وجبة طعام الغداء إليه. وفي ثكنة عسكرية في نيفا، تجاهل ملاحو طائرة مروحية بالزي الرسمي من شرطة كولومبيا لمكافحة المخدرات قائد الشرطة الوطنية وتدافعوا بالمناكب لالتقاط صور تذكارية مع الكاتب[30]

كانت تلك هي الرحلة الوحيدة التي قام بها غارسيا ماركيز خلال إعداد بحثه لكتاب خبر اختطاف. وأوضح بعد سنتين أنه أغفل من بروك وغيره من الصحافيين وتحدث إلى خورخه ولويس أوتشوا بنفسه، إذ لم يكن راغباً في أن "تخترق" مصادره ولا أن يعطي أوتشوا معلومات غير صحيحة عن اللقاء.



مفاجأة، وكما كان غارسيا ماركيز يتطلع إلى نشر كتاب **الحب وشياطين أخرى**، بدأت المكسيك، ملاذه وموطن استقراره، تنهار داخلياً، وبدأ صديقه العظيم كارلوس ساليناس يواجه مشاقّ أكبر من تلك التي عاناها مؤخراً سيّئ الطالع كارلوس أندرياس بيريث في فنزويلا. أولاً، بدأت حركة جديدة من سكان البلاد الأصليين في منطقة تشياباس، جنوبي المكسيك، وتدعى حركة ثاباتيستاس وسمّها زعيم رجال العصابات الغامض وقوي الشخصية المعروف بالاسم "القائد ماركوس"، بالاستحواذ على العناوين الرئيسة في العالم، وبدا ساليناس وقد بوغت بالأمر ساعتئة لم تحسب لها حساب ولم يعرف ماذا يفعل. لكن الأمر الأكثر إثارة حقاً من هذا كله، هو أن المرشح الرسمي للحزب الحاكم لخوض الانتخابات المقبلة لويس دونالدو كولوسيو، وهو صديق نبيل من أصدقاء غارسيا ماركيز، لقي مصرعه شمالي البلاد، وهو أول سياسي بهذا المستوى الرفيع يموت هذه الميتة منذ المرحلة الجمهورية التي سالت فيها الدماء في عشرينيات القرن العشرين. وراودت الشكوك عدداً كبيراً من المراقبين في أن ساليناس نفسه هو الذي خطط لعملية اغتيال خلفه مما وضع غارسيا ماركيز في موقف لا يختلف اختلافاً كثيراً عن ذلك الموقف الذي واجهه قبل أربع سنوات في هافانا عندما أُعدم صديقه طوني لا غوارديا على يد صديقه فيدل كاسترو. كانت علاقة غارسيا ماركيز قد أصبحت وثيقة جداً بكولوسيو، وكانت آماله كبيرة في أن المرشح غير المتزمت إلى حدٍّ ما يمكن أن يسير بالبلاد إلى وجهة تقدمية أكثر. وللمرة الأولى يخرق غارسيا ماركيز قانونه الشخصي – وقوانين المكسيك – بإصدار بيان عن الحدث داعياً إلى التهدئة في هذه البلاد التي أحبها[3]. كولومبيا وكوبا وفنزويلا، والآن المكسيك نفسها، كل قلاعه تتساقط: إنها عودة إلى ماكوندو بروح انتقامية.

وتساءل غارسيا ماركيز نفسه إن كان قد بدأ هو أيضاً يضعف ويتدهور.

أجرى مراسل صحيفة الواشنطن بوست ديفيد ستريتفيلد مقابلة مع غارسيا ماركيز في شهري آذار ونيسان، في وقت اتخذت فيه كل التدابير لإصدار كتاب **الحب وشياطين أخرى**. ولاحظ ستريتفيلد أن مؤلفات غارسيا ماركيز مهووسة بالموت هي ومؤلفها الذي شعر أنه إذا توقف عن التأليف فقد تواتيه المنية. "فقد بدأ



جسده يخونه بطرائق أخرى غير السرطان". ويقول: "إنه لأمر غريب أن يبدأ امرؤ بإدراك علامات التقدم في السن. فقد بدأت أول الأمر أنسى الأسماء وأرقام الهواتف ثم كل شيء، إذ لم أعد أستطيع تذكر كلمة واحدة أو وجهاً من الوجوه أو حتى لحناً"[32]. مما لا شك فيه أن هذه الحالة ساعدت على تفسير السبب الذي يجعل تأليف المذكرات تبدو مهمة عاجلة أكثر من ذي قبل.

في الثاني والعشرين من نيسان، وفي خضم فوضى سياسية كبرى، صدرت رواية **الحب وشياطين أخرى** وتزامن صدورها مع معرض بوغوتا للكتاب حيث ألقى صديقه القديم غونثالو مالاريينو كلمة ملتهبة أثنى فيها على رواية صديقه الجديدة، إذ قال فيها إن غارسيا ماركيز وصل ذروة طاقاته[33]. وكان إهداء الرواية موجهاً إلى كارمن بالسيلس "الغارقة في الدموع". مرة أخرى تدور الأحداث في كارتاخينا، حيث يُرسل إلى البلدة أواخر سنة 1949 صحفي شاب يعمل في صحيفة رئيس تحريرها، هو كليمنت مانويل ثابالا لتقصي موضوع ما. في البلدة دير قديم هو دير سانتا كلارا يُراد تحويله إلى فندق فخم، ففتحت بعض قبوره الموغلة في القدم بهدف نقل رفات أصحابها إلى مكان آخر. (هنا يتصالح غارسيا ماركيز مع ماضي كارتاخينا بذكر اسم ثابالا والاعتراف به. كما أنه يتخيل طريقه إلى حاضر كارتاخينا لأن بيته الجديد سيشيد قبالة الدير القديم) يبدو أن أحد القبور كان يحتوي على جمجمة وفيها خصلة من شعر أحمر ظلّت تنمو على مدى قرنين من الزمان تقريباً حتى تجاوز طولها الآن اثنين وعشرين متراً ويقرر الصحافي الشاب تقصي هذه الحالة، فكانت النتيجة هي هذه الرواية.

تصوّر الرواية كلباً مسعوراً في شهر كانون الأول أواخر الحقبة الاستعمارية يعضّ عدداً من الناس في السوق في بلدة كارتاخينا، بمن فيهم فتاة ذات شعر أحمر طويل تدعى سييرفا ماريا توشك أن تحتفل بذكرى ميلادها الثانية عشرة. بالرغم من أن والدها ماركيز كاسالديرو وهو أحد أثرى الأثرياء في البلدة، إلا أنه معتل الصحة، سمح لسييرفا ماريا التي لا تحبها أمها أن تنشأ في باحة العبيد. وبالرغم من أن مرض داء الكلب لا يظهر على الفتاة، إلا أن الكنيسة الكاثوليكية تعتقد أن الفتاة قد تملّكها الشيطان – وأنها تعتقد بمعتقدات أفريقية – فتحث آل ماركيز على طرد

الشيطان من جسمها، فتؤخذ إلى دير سانتا كلارا للإشراف عليها، فيأتي الأسقف بواحد من الخبراء الناشئين الذين يُنتظر لهم مستقبل باهر في قضايا تلبس الأرواح الشريرة وطردها من الجسد، ويدعى كايتانو ديلاورا قيل إنه لاهوتي وأمين مكتبة سيأخذ طريقه إلى الفاتيكان. ولن ترى الفتاة شوارع كارتاخينا مرة أخرى مدى الحياة.

راود ديلاورا الذي لا يملك أيّ تجربة لفهم النساء، حلمٌ عن الفتاة حتى قبل أن يلتقيها، إذ شاهدها في حجرة – هي الحجرة التي كان يسكن فيها عندما كان طالباً يدرس في سالامانكا – تنظر صوب أرض تغطيها الثلوج، تأكل عنباً من فوق حضنها من دون أن ينفد، وإذا ما نفد العنب فستموت. الفتاة التي يلتقيها في صباح اليوم التالي مقيدة اليدين والرجلين بسبب ثورات غضبها تشبه تماماً الفتاة التي رآها في الحلم. فكان أول رد فعل له أن أخبر رئيسة الدير أن المعاملة التي تعانيها ستحول كل شخص إلى شيطان. أما رد فعله الثاني فهو هوسه الشديد بالطفلة، فيبدأ بالتفتيش في الكتب الممنوعة في المكتبة التي لا يسمح لأحد سواه بالاطلاع عليها، فيجد فيها مدخلاً سرياً يؤدي إلى الدير، ويبدأ بزيارة سييرفا ماريا كل ليلة ويقرأ لها الشعر. أخيراً يعلن عن مشاعره الحقيقية ويطوقها بذراعيه ويستسلمان للنوم معاً من دون أن يكملا المعاشرة الجسدية. ولكن عملية طرد الأرواح الشريرة تبدأ في نيسان، بعد خمسة أشهر تقريباً من عضة الكلب المسعور، فيقص شعرها ويحرقه، ويؤدي الأسقف مراسم دينية أمام جميع السلطات والراهبات لكنه ينهار، وتتصرف سييرفا ماريا كأنها ممسوسة، وتنكشف أعمال ديلاورا السيئة وتدينه محكمة التفتيش بتهمة الهرطقة – وهو مهرطق حقاً، الحق أنه مدنس وسييرفا ماريا بريئة – وتحكم عليه بالخدمة سنوات عديدة في مستشفى الجذام. فتنتظره سييرفا ماريا من دون طائل، وبعد ثلاثة أيام ترفض تناول الطعام ولا تفهم سبب عدم رجوع ديلاورا، لكنها تحلم بلقائها في التاسع والعشرين من أيار بحقل تغطيه الثلوج لكنها تتناول العنب الآن حبتين كل مرة وهي مصابة بالحمى كي تصل إلى الحبة الأخيرة. وقبل إجراء عملية طرد الروح الشريرة للمرة السادسة تقضي نحبها، لكن رأسها الحليق ينمو فيه الشعر ثانية



هـذا الكتـاب علامة أخرى على انشغال غارسيا ماركيز ببلدة كارتاخينا. ويمكـن أن تُمـرَّر رواية **الحب في زمن الكوليرا** على أنها مواجهة ثانية مع أبيه ومع ماضـي كولومبيا علاوة على استكناه الفرق بين الزواج والمعاشرة الحسية، والأهم مـن هـذا كله، هو أنه كتب عن ضاحيته مانغا حيث عاش أبواه وحيث اشترى مؤخـراً شـقة لأمه. أما **قصة الحب وشياطين أخرى**، فتحكي عن المدينة القديمة المسورة حيث يُشيِّد لغارسيا ماركيز "قصر" جديد خلال تأليفه الكتاب. وهكذا، فإن الروايتين تقتربان إلى حدٍّ ما بعقاراته وبسلطته. في هذه المرة، يستعبد غارسيا ماركيز مجمل تاريخ كولومبيا منذ عهد الاستعمار. للكتاب سلطة سوداوية ثقيلة؛ ويشبه إلى حدٍّ ما بعض مؤلفات ألفارو موتيس مع بعض اللمسات الخفيفة. لقد كتب غارسيا ماركيـز رواية **الحب في زمن الكوليرا** قبل كوارث سنة 1989 التاريخية. أما **الحب وشياطين أخرى**، فهي بالرغم من إطارها الزمني الذي يعود إلى حقبة الاستعمار، إلا أن فكرتها تبلورت من العالم بعد سنة 1989، وهي أشد سوداوية. وبالرغم من كل تصريحاته المتفائلة بشأن المستقبل، إلاّ أنه في أعماقه كان يرى العالم يعود إلى الوراء للمرة الأولى منذ مئتي سنة إلى الوراء، من بعض الأوجه، إلى ما قبل الثورة الفرنسية وعصر التنوير؛ إلى الوراء قبل استقلال أمريكا اللاتينية عن إسبانيا (والآن انقلب كل شـيء، في الأقـل بـالمعنى الاقتصادي)؛ إلى الوراء بعيداً عن أحلام ثورة 1917 الاشـتراكية. إنه يكتب الآن في عالم لم يعد من الممكن فيه تخيل حدوث أي ثورة، فيبدُ المفهوم البوليفاري، ومفاده أن العمل السياسي في كولومبيا عبث لا طائل من ورائه، يستحوذ على كل تفكيره.

إن استخدام الأحلام في هذا الكتاب مدهش، إذ يعيد من عناصر تجربة غارسيا ماركيـز أيام مراهقته (ابتعاده عن البيت والذهاب إلى مدرسته في مناخات ثلجية، جـسمه، كتابه بلا غلاف، كوابيسه الفظيعة). نهاية الرواية، مثل نهاية دي بالما في شـريط هيتشكوك، تقشعر لها الأبدان، تذكّر القارئ بأن طاقات هذا الكتاب لا تـضاهيها أي طاقـات عندما يركز تركيزاً شديداً. الصفحات الأخيرة تمحا ألقاً استعادياً، لكن، لعل الإعصار الكبير في الرواية، وهو ما لاحظه القارئ في الصفحة الأخـيرة مـن روايـة **الجنـرال في متاهته**، تمثل تمنح الكاتب قرّاءه ما يتوقعون



حدوثه - الموضوعات نفسها وإن كانت مرتبة بنظام مختلف، البنية نفسها، والأسلوب نفسه، والتقنية السردية نفسها - من صميمها أكثر شيء يرعب فيه الحراك وتناقصاً. أن يصيبنا بالذهول الأسلوب الذي يمكن فيه للمؤلف أن يفاجئنا، ضمن ما هو مألوف، بما لا يمكننا أن نتوقعه أبداً. إنها أشبه برحلة فوق سكة حديد أدبية في مدينة الملاهي المرتفعة والمخصصة تكون أكبر حصّة للمعدة في نهاية المطاف.

حظي الكتاب بقبول حسن، لا سيما في الوسط الأكاديمي حيث سرور بالسرور لمرأى غارسيا ماركيز وهو يتبنى اهتمامات "ما بعد الحداثة" السائدة في الجامعة، لا سيما في موضوعات النسوية والجنس والإثنية والدين والهوية وتركة عصر التنوير. وصرّح جان فرانسوا فوجيل في صحيفة اللوموند أن غارسيا ماركيز ظل "واحداً من الروائيين القلائل الذين تمكنوا من استحضار الحب من دون مفارقة أو حرج"[34]. ووصفت اي. أس. بيات الرواية في مقالة نشرت في صحيفة نيويورك ريفيو أوف بوكس بأنها "تعليمية تقريباً، لكنها مؤثرة، وعمل بصري رائع"[35]. أما بيتر كيمب، فتحدث في صحيفة الصنداي تايمز اللندنية عن الأحداث المدهشة المروية بأسلوب هادئ: "إن رواية **الحب وشياطين أخرى** التي يشع فيها الحنين الخرف والهجاء في آن واحد، هي قصة خرافية راهبة وحكاية رمزية كئيبة، بل هي تجسيد مدهش آخر للسحر والتحرر من السحر الذي تثيره في غارسيا ماركيز بلاده كولومبيا"[36]. بالرغم من كل شيء، فإن "ماركيز"، وهو الاسم الذي يصر عليه معظم كتّاب المقالات الإنكليزية، قد مارس سحره مرة أخرى.

* * *

في الوقت الذي نشرت فيه رواية **الحب وشياطين أخرى** في كولومبيا، زار غارسيا ماركيز إسبانيا ليمارس عادته في أن يكون عند نشر أحد كتبه في مكان مغاير، وزار إشبيلية مرة أخرى لمناسبة مهرجان الربيع وحضر بعضاً من مصارعات الثيران التقليدية في وقت مبكر. التقته روسا مورا من صحيفة الباييس في بيساك، فأخبرها بأنه يشتغل على مذكراته، لا سيما قصة عودته إلى آراكاتاكا برفقة أمه: "أصف كل ما أنا عليه لأنه قد خرج من تلك الرحلة"[37]. لكن كتابة المذكرات توقفت مرة أخرى، وإن كان قد قرر في كل الأحوال أن يكون كتابه التالي ضرباً

من ضروب التحقيقات الصحافية. وقال إنه لم يفتقد الصحافة وحسب، بل إن اليونسكو تؤيد واحداً من أكثر المشاريع التي تاقت إليها نفسه وهو إنشاء مؤسسة صحافية تتحدى مدارس الاتصال الحديثة ما دامت هذه المدارس، حسب رأيه، "تريد أن تستغني عن الصحافة".

في السنوات الأخيرة، قُتل عدد من الصحافيين في كولومبيا أكبر ممن قُتلوا في أي منطقة من العالم. ولسوء الحظ، كانت هناك موضوعات أكثر إثارة ومأساوية في هذه البلاد من أي بلد آخر، إذ لم تكن نسبة الاغتيالات أعلى مما هي عليه في أي مكان آخر، وهو ما كان يتفاخر به ذلك الخليط الكولومبي المظلم، والقاتل من الإرهاب، وتهريب المخدرات، وحرب العصابات، ونشاط الميليشيات، علاوة على ردود أفعال الشرطة والجيش التي كانت أحياناً تتساوى في عنفها والعلل التي تريد اجتثاثها. وكان سيسَر غافيريا في نهاية سنوات حكمه الأربع المهووسة، وكافح كفاحاً بطولياً للحيلولة دون انزلاق البلاد إلى فوضى عارمة، لكن الحكومة التالية التي يحين موعد انتخابها في شهر أيار كانت أمامها تحديات كابوسية. وكان غارسيا ماركيز لا يزال يشتغل سراً على كتابه الجديد (الذي يشبه التحقيق الصحافي) الذي يستند إلى المرحلة الماضية. لكنه لم يكن مستعداً بعد للإعلان عنه بشكل تام، لأن التكتم على مصادره وحمايتهم في تلك المرحلة كانا أمرين حاسمين.

في شهر حزيران عاد إلى أميركا اللاتينية وحضر المؤتمر الإيبري - الأميركي الرابع لقادة أميركا اللاتينية وشبه جزيرة إيبريا الذي عقد في كارتاخينا. نظم الاجتماع ملك إسبانيا، وفيليب غونثاليث، وكارلوس ساليناس دي غورتاري، وفيدل كاسترو، فضلاً عن غافيريا نفسه، في مسقط رأس غارسيا ماركيز. وكان غارسيا ماركيز ينظر إلى هؤلاء جميعاً، من ضمنهم الملك، على أنهم "أصدقاء"، بالرغم من أن بعض الكولومبيين علقوا قائلين إن غارسيا ماركيز بدا عضواً من أعضاء الوفد الكوبي، وأنه عرض أن يكون حارساً شخصياً لفيدل كاسترو: "لقد حضرت إلى هناك لأن شائعات راحت تفيد أنهم سيغتالون فيدل كسترو. ولم يكن رجال الأمن الكوبيون ليسمحوا لفيدل بالاشتراك في العرض، لهذا اقترحت أن أرافقه في العربة التي تجرها الجياد. وقلت لهم إنني إذا رافقته هنا في كولومبيا، فإن ما



من أحد سيجرؤ على إطلاق النار عليه. ولهذا، كنا خمسة في العربة، انحشرنا فيها معاً وتمازحنا بشأن الموقف. وفي اللحظة التي قلت فيها لفيدل إنني واثق من عدم حدوث شيء، وإذا بالجواد يشب وينتصب على قائمتيه الخلفيتين"[38]. اقترح كارلوس ساليناس في هذا المؤتمر تأسيس "رابطة دول الكاريبي" لتضم كوبا أيضاً. وقال فيدل إنه طالما كانت كوبا مستبعدة عن أي شيء، "بإرادة أولئك الذين يديرون العالم"، فإنه يقدر هذه الدعوة كل التقدير[39]. كما شعر غارسيا ماركيز بالرضا والسرور لأنه تمكن من أن يظهر للزعيم الكوبي بعضاً من ثمار كل نشاطه الدبلوماسي المفعم بالحيوية.

عقدت الجولة الأخيرة من الانتخابات الكولومبية بعد أسبوعين، وكان المرشحان هما الليبرالي أرنستو سامبر والمحافظ أندريس باسترانا. ومما كشف عن كولومبيا أن باسترانا، عمدة بوغوتا سابقاً وابن رئيس جمهورية سابق، بات مبتأ في حكم المؤكد عندما اختطف على أيدي أحد كارتلات المخدرات سنة 1988، في حين نجا سامبر، الذي أنهى منذ وقت قصير مدة عمله سفيراً لكولومبيا في مدريد، بأعجوبة عندما أطلق عليه الرصاص في مطار إلدورادو في بوغوتا في العام التالي. يعني سامبر أن يكون حليفاً طبيعياً لغارسيا ماركيز، فهو على يسار الحزب الليبرالي وشقيق صديقه المقدم دانيال سامبر (الصحافي في صحيفتي التارياتيمو والتيمبو) وكان غارسيا ماركيز قد دعاه هو وهوراثيو سيربا لمقابلة فيدل كاسترو في كوبا في شهر آذار سنة 1987، لكن اللقاء لم يسر على ما يرام[40]. إذ إن سامبر الشعبوي كان معادياً للكاستروية أكثر من عداء أي محافظ، لكنه كان أنصف سياسياً وواقعياً مثلما تبين غارسيا ماركيز أنه سياسي واقعي أيضاً، وكان سامبر سياسياً فظاً، متشككاً ومتصلباً في رأيه، يحظى بشعبية واسعة جداً في الأقاليم بالرغم من انحداره من بوغوتا. أولوياته تختلف عن أولويات غارسيا ماركيز.

وفاز سامبر في الانتخابات، لكن باسترانا سرعان ما أعلن عن مخالفة في الانتخابات، إذ أعطته هيئة الجاسوسية الأميركية شريط تسجيل يحتوي على ما يوحي أن مدير حملة سامبر الانتخابية، تلقى تبرعات ضخمة من أحزاب مرتبطة ارتباطاً مباشراً بكارتلات تهريب المخدرات، مما أدى إلى حدوث أزمة سياسية

ودستورية لم يسبق لكولومبيا أن مرّت بمثلها. وظلت تتعقب مدة السنوات الأربع من رئاسة سامبر، بل لم يكن من المؤكد أنه سينجح في إكمال مدة رئاسته. وقد أنكر غارسيا ماركيز منذ البداية أنه صديق الرئيس الجديد في بداية حكمه، إلا أنه لم يؤيده تأييداً غير مشروط، كما أنه بدأ يقيم علاقات مع سياسيين أصغر سناً، مثل خوان مانويل سانتوس وهو "ابن بكر" آخر من أبناء أسرة اليمبو، وأصبح وزير التجارة الخارجية في أثناء رئاسة غافيريا، وعينته الحكومة المنتهية للترحيب بالضيوف البارزين لدى وصولهم المؤتمر الإيبيري الأميركي. وقد عدّ غارسيا ماركيز سانتوس رئيساً لكولومبيا في المستقبل وبدأ يرعاه ويشجعه. ويغدو سانتوس بعد ذلك واحداً من ألدّ أعداء سامبر من داخل حزبه.

صحب غارسيا ماركيز فريقاً صحافياً من مجلة باري ماتش لمشاهدة بيته الجديد المشيد في كارتاخينا وأخبرهم أنه "ظل ينتظر ثلاثين سنة ليبني البيت المثالي في المكان المثالي"[41]. أخيراً، تحقق حلمه الآن، لكن لسوء الحظ، خيّم ظل على حظوظه، إذ تحول دير سانتا كلارا، وهو النص السينمائي عن قصة حب وشياطين أخرى إلى فندق خمس نجوم سبق أن نوهت بشأنه الرواية عندما كتبت في العام 1993، وكانت جميع الغرف في الجانب الغربي من المبنى تطل مباشرة على منزل غارسيا ماركيز الجديد الذي كان لا يزال قيد الإنشاء، لا سيما الشرفة والمسبح.

في السابع من آب سنة 1994، وهو يوم تنصيب سامبر، أرسل غارسيا ماركيز وميرثيديس رسالة تهنئة إلى الرئيس الجديد عبّرا فيها عن أطيب أمانيهما له، ونشرت في الصحف، لكن لم تكن هناك صعوبة في معرفة أن هذه الرسالة لبست رسالة تحيات حارة، بل إنها توقعت ضمناً أوقاتاً عصيبة أمام الحكومة الجديدة. وكانت، كما كشفت عناوين الصحف، نوعاً من التحذير: "اهتمّ بأحاسيسك اهتماماً جيداً"[42].

مما لا شك فيه أن الأحداث كانت تنحو منحىً شكسبيرياً، فقد سارت الأمور على ما يرام مع غارسيا ماركيز مؤخراً، لكنها بدأت بداية سيئة جداً مع سامبر منذ اليوم الأول لتوليه السلطة، مما جعل غارسيا ماركيز عادةً يحقق في تحقيق غايته نتيجة المغالاة في الثقة بنفسه منذ بداية عهد سامبر. لكنه تمكن أخيراً في شهر أيلول، من

الوصول إلى مركز القوة على الأرض عندما وجه وليم ستروبان، صديق فوينتس، الدعوة إليه وإلى فوينتس للقاء بل وهيلاري كلنتون في منزل ستروبان في مارت فاينيارد. وكان مالكو صحيفتي الواشنطن بوست ونيويورك تايمز حاضرين أيضاً. كان غارسيا ماركيز يأمل في أن يتحدث عن كوبا؛ إذ كان قبل أسبوع واحد قد أقنع فيدل بالسماح للكاتب المنشق نوربيرتو فوينتس بمغادرة البلاد، لكن لسوء حظه، كانت العلاقات بين الولايات المتحدة وكوبا تمر في تلك الآونة بواحدة من أسوأ مراحلها، وقيل إن كلنتون رفض الخوض في الحديث في الشؤون الكوبية[43]. إلا أنهم تحدثوا عن الأزمة الكولومبية، ودافع غارسيا ماركيز إلى حدٍّ ما عن سامبر وحث كلنتون على عدم معاقبة كولومبيا بسبب أعمال سامبر. لكن الشيء الذي جعل الرئيس الأميركي والأدباء الثلاثة يتفقون عليه اتفاقاً ودياً هو حماستهم لأعمال وليم فوكنر. وتولت الدهشة فوينتس وغارسيا ماركيز عندما سمعا كلنتون وهو يتلو عن ظهر قلب مقاطع كاملة من رواية **الصخب والعنف**. أما بخصوص كوبا، فإن كلنتون وجد نفسه غير قادر على مقاومة ضغوط الكوبيين في ميامي ومجلس الشيوخ الجمهوري المعادي للشيوعية عداءً شديداً، وسيضطر إلى السماح بفرض عقوبات أشد ضد دولة الجزيرة. الدليل واه جداً على أن علاقات غارسيا ماركيز المستقبلية مع أقوى رجل على كوكب الأرض أدت إلى نتائج إيجابية سواء لكوبا أو لكولومبيا، وإن كان اللقاء شيئاً جيداً على وجه التأكيد في ضوء هيبته وجاذبيته.

أصبح سيزر غافيريا في الشهر التالي سكرتيراً عاماً لمنظمة الدول الأميركية. لكن غافيريا الليبرالي الجديد على يمين الوسط وجد، ويا للمفارقة، صعوبة في الاستمرار في ميله لتحرير علاقات نصف الكرة الأرضية في كوبا في وجه معارضة رئيس ديمقراطي في الولايات المتحدة الأميركية، لكنه واصل سعيه بالرغم من ذلك. إذاً، أصبحت لغارسيا ماركيز الآن علاقات مهمة مع الأمين العام لمنظمة الدول الأميركية والمدير العام لمنظمة اليونسكو ورؤساء كل من الولايات المتحدة والمكسيك وكوبا وفرنسا وإسبانيا. كولومبيا وحدها هي الغائبة. في غضون ذلك، وفي مناسبة تبوؤ غافيريا منصبه أميناً عاماً، قال كارلوس فوينتس الحاذق سياسياً إنه عنى بيل كلنتون أن "يتخلى عن فلوريدا ليربح العالم"، وإن على فيدل كاسترو أن

"يتخلى عن ماركس ليفقد الثورة"[44]. لكن ما من واحد من الرجلين كان على استعداد للاستماع إلى نصيحته.

في العشرين من أيلول توفي ألفونسو فوينمايور آخر عنصر أساسي في جماعة بارانكيا، بل قلبها النابض في مدينة بارانكيا (كان خيرمان فارغاس قد توفي سنة 1991 وأليخاندرو أبريغون في السنة التالية). وكان غارسيا ماركيز قد نأى بنفسه عن زميله ومعلمه القديم منذ أن داهمه المرض قائلاً: إنه "جبان" لا يطيق مواجهة صديقه في مثل هذه الأزمة[45]. لعل مرضه جعله يفكر في أنه بدأ يقترب بدوره من الموت. واشترك في السهر على الجثة رودريغو ابن فوينمايور وعضوا الجماعة كيكي سكوبل وخاوتشو حيبيتي مع زجاجة شراب اقتسمت بين الثلاثة، وهكذا أصبح ألفارو موتيس أبرز أصدقاء غارسيا ماركيز القدامى، وكان لا يزال قوياً.

وفي شهر شباط تزوج رودريغو ابن غارسيا ماركيز بأدريانا شيبارو في حفل هادئ في قاعة ريكورد في إيست لوس أنجلوس، ورزق الاثنان بإيزابيل، أول طفلة لهما، في الأول من كانون الثاني سنة 1996، وإيسس عام 1998. وكان غارسيا ماركيز قد أكد لمجلة باري ماتش في تموز المنصرم: "علاقاتي ممتازة مع ولديّ. إنهما الآن كما تمنيا أن يكونا وكما تمنيت أن أن يكونا"[46]. وبدأت حياة رودريغو في ميدان صناعة الأشرطة السينمائية تزدهر أكثر فأكثر في هوليوود.

في الخامس من آذار، أجرى غارسيا ماركيز أول مقابلة له مع جاك لانغ في كارثاخينا، واختار سيرخيو كابريرا مخرج الشريط السينمائي استراتيجية الحلزون، الذي حظي بإطراء منقطع النظير، ليكون مصوره. كان لانغ في الأيام الأخيرة من عمله وزيراً. أما فرانسوا ميتران، الذي أضحى معتل الصحة إلى درجة كبيرة، فقد عاش حتى أكمل دورتين رئاسيتين، أمدّ كل واحدة منهما سبعة أعوام، وتوفي في الثامن من كانون الثاني سنة 1996. ثم يخسر الحزب الاشتراكي الفرنسي في الانتخابات ولن ينتخب ثانية طوال البقية الباقية من حياة جاك لانغ السياسية، فبدأت علاقات غارسيا ماركيز تضعف بالسياسيين في فرنسا.

الآن دشن أخيراً مؤسسته الخاصة بالصحافة الإيبرية - الأمريكية الجديدة وبدأت تعقد "ورش عملها" المنتظمة في كل من بارانكيا وكارثاخينا، وإن كانت



كارتاخينا ستتفوق رويداً رويداً على برانكيا وتغدو مركز العمليات. أحبَّ غارسيا ماركيز كلمة "مؤسسة" مثلما أحب كلمة "ورشة"، لأنهما كانت تذكرانه بلا أدنى ريب بجده العقيد، ذلك الرجل الذي طالما زعم أنه "أسس" بلدة آراكاتاكا. وكانت هذه المؤسسة الجديدة هدية غارسيا ماركيز لمدينته الكولومبية التي تبنته، وأقوى رمز على التزامه المتجدد تجاه بلده ورفاهيته. (ومع هذا، فقد كان مدير المؤسسة الشاب خايمي آبلو من بلدة بارانكيا وليس كارتاخينا. والمؤكد أن الاختيار لم يكن اعتباطياً). وقد بدأت المؤسسة إقامة دورات قصيرة للصحافيين الشباب من جميع أرجاء أميركا اللاتينية، وكان حافزهم متمثلاً بغارسيا ماركيز وهو يقود عدداً مهماً منهم مع صحافيين مشهورين عالمياً، مثل الصحافي البولندي ريسزارد كابوتشينسكي والأميركي جون لي أندرسون اللذين اشتركا أيضاً في تدريس الطلبة.

في الوقت الذي نشرت فيه رواية **حب وشياطين أخرى**، كان غارسيا ماركيز قد فقد صبره تماماً مع الرئيس الكولومبي الجديد. وفي مقابلة مع الصحافية المكسيكية سوزانا كاتو في المكسيك، لم يُخفِ غارسيا ماركيز إحباطه من سامبر واحتقاره إياه. وعندما سألته: "ما الذي يظن الكولومبيون أنهم فاعلون كي لا يدخلوا القرن الحادي والعشرين في الحالة نفسها التي هم عليها اليوم؟"، ردَّ غارسيا ماركيز:

> **كيف تفترضين بإمكاننا أنه أن نفكر في القرن الحادي والعشرين في حين أننا لا نزال نحاول الوصول إلى القرن العشرين؟ فكري فقط في أنني أمضيت ثلاثة أعوام وأنا أحاول التأكد من عدم وجود أي معلومة غير صحيحة في كتاب عن بلد لم نعد نعرف فيه ما هو الصح وما هو الخطأ. ما المستقبل الذي يمكن أن تكون عليه الرواية إذا كان مرشح لرئاسة الجمهورية لا يعرف أن مستشاريه يتلقون ملايين الدولارات من الأموال القذرة لحملته؟ في حين لا يؤخذ منهموه على محمل الجد، لأنهم في خضم الحقائق الكثيرة التي ينطقون بها، يرون عدداً كبيراً من الأكاذيب أيضاً. وحيث الرئيس بدوره يُنصِّب من نفسه مُدَّعياً على مُدَّعيه محاججاً أنهم تلقوا فعلاً أموالاً قذرة، لكنهم لم ينفقوها في حملتهم لأنهم سرقوها... في بلد كهذا البلد، لعنة الله عليه، ليس أمامنا كروائيين أي خيار سوى البحث عن مهنة أخرى**[47]



إنه عودة إلى مناقشات قديمة لرجل محتج لأن كل ما يريده ليس إلا توثيق الحقائق الطبيعية لكل يوم، لكن أهوال كولومبيا خرجت عن نطاق مفاهيم التحقيق الصحافي الاعتيادية. ماكوندو لم تمت ذكراها

سارت الأمور من سيئ إلى أسوأ، وراود غارسيا ماركيز القلق لأن إدارة حرسه الخاص، الذين وفرتهم له الحكومات المتعاقبة منذ نظام بيتانكور، باتت الآن ضعيفة وغير منسقة. وكان الحرس معرّضين للتبديل في العالم حتى أضحى أكثر من ستين حارساً منهم يعرفون معرفة دقيقة أسلوب حياته وتفاصيلها الشخصية. هذه حالة بالغة الخطورة في كولومبيا عندما يجد المرء نفسه فيها، فيبدأ بالتساؤل عن مدى سلامته وأمنه في البلاد. استمر هو وسامبر في الحديث. وكان التوتر يزداد بينهما. وقيل إن غارسيا ماركيز بدأ يحتسي كميات أكبر من الشراب. إلى أن التقيا للمرة الأخيرة في الفصح سنة 1996 وذلك في شقة عمدة كارتاخينا السابق جورجه إريكي ريثو. وأخبر غارسيا ماركيز سامبر، الذي كان الكونغرس يوشك أن يحكم عليه، إن الإصلاحات الدستورية التي كان يفكّر فيها ربما يُعتقد أنها عربون يدفع مقدماً لأعضاء الكونغرس لتبرئته. فما كان من سامبر إلا أن ردّ بعد أن حفزه لذع الإهانة قائلاً: "لا بد من أن مؤيدي غافيريا هم الذين يحشون رأسك بهذه القصص". فقال غارسيا ماركيز: "أرجو أن تحترمني قليلاً. عندما أقدم إليك فكرة تتفق مع ما ترغب في سماعه، تخبرني بأنها من بنات أفكاري. أما عندما لا تتفق، فإنك تقول إن المعارضة تغسل دماغي. لماذا؟". هنا حاول سامبر أن يلطف الجو، لكن غارسيا ماركيز تمتم: "ليس لي ما أفعله هنا بعد الآن". ومنذ تلك اللحظة بدأ ينسحب من المشاركة الفعالة في قضايا الأمة ولم يلتقِ هو وسامبر مرة أخرى لسنوات طويلة"[48].

على كل حال، من يهاجم يمكن أن يتعرض للهجوم بدوره. فقد كتب مؤخراً الكونغرسي المنفي بوربيريو فوينتس، الذي كان صديق غارسيا ماركيز الوفي، والذي تمكن غارسيا ماركيز من إقناع السلطات بإطلاق سراحه من الجزيرة مؤخراً، أول مقالة عن مجموعة من المقالات كشف فيها أنه لم يشعر بأي مشاعر شكر وامتنان لغارسيا ماركيز، بل ندّد به تنديداً قوياً لدوره في المشروع الكوبي وقلل من مدى



تأثيره ومعجزاته[49] وعلى عادته. فقد امتنع غارسيا ماركيز عن الرد عليه، لكنه أقدم في شهر نيسان على عمل أثار دهشة كل الذين يعرفونه، وذلك عندما ألقى محاضرة في المدرسة الحربية العليا في بوغوتا. وفي خضم بعض النكات المربكة، أخبرهم على نحو ينذر بالشؤم أن "الرئيس سامبر يحمل مستقبل هذا البلد بيده". ومما قاله أيضاً، وإن لم يكن لينطوي على دبلوماسية كبيرة: "إننا سنكون في أمان أكبر لو حمل كل واحد منكم كتاباً في حقيبة ظهره"[50]. ثم أمضى الفصح برفقة كارلوس أندريس بيريث في كاراكاس. هل فكّر سامبر يا ترى، في أن غارسيا ماركيز انتقد الفنزويليين لمحاولتهم التخلص من رئيس جمهوريتهم مثلما يحاول الآن بعض الكولومبيين التخلص منه؟

في الثاني من شهر نيسان، وفي الآونة التي اشتدّت فيها الحماسة تجاه رواية الحب وشياطين أخرى التي تقرر أن تصدر في أثناء معرض بوغوتا للكتاب في شهر أيار، اختطفت مجموعة كانت مجهولة سابقاً مقرها في تشيلي، وتطلق على نفسها اسم حركة هيبة كولومبيا، شقيق الرئيس السابق غافيريا المعماري خوان كارلوس. ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي يُستهدف فيها أقرباء غافيريا. وأعلنت الحركة في بيان لها أن مشكلة كولومبيا ليست قانونية بل أخلاقية، وبالرغم من أن الحركة يمينية على ما يبدو، إلا أنها استشهدت بعبارة لغارسيا ماركيز مفادها أن كولومبيا في خضم كارثة أخلاقية، وطلبت منه أن يتبوأ السلطة بدلاً من سامبر لأن غارسيا ماركيز، كما أوضحت الحركة، واحد من القلائل في كولومبيا الذين "أيديهم نظيفة". كما طالبت الحركة أيضاً أن يستقيل سيسَّر غافيريا من منصبه أميناً عاماً لمنظمة الدول الأميركية ولما كان أمام غارسيا ماركيز شهر واحد على نشر كتابه الجديد عن مشكلات كولومبيا المعاصرة، ولما كان أحد موضوعات الكتاب الرئيسة هو الخط المتشدد الذي انتهجه غافيريا في مقاومة مناشدات أسر الضحايا المختطفين، ولما كان غافيريا نفسه واحداً من أبرز الذين يزودون غارسيا ماركيز بالمعلومات، فإن مفارقات الموقف عظيمة. وقال إنريكي سانتوس كالديرون في مقالة في صحيفة التيمبو "إن غارسيا ماركيز ذكر في مقابلة مع مجلة كامبيو 16 أنه يشعر بأنه يعيش وسط تحقيقه الصحفي. حقاً إن المرء ليرتعش عندما يرى اليوم الرئيس السابق غافيريا في الموقف نفسه الذي مرت به أسر الرهائن في تلك الأيام، أو يرى "قيصر

الاحـــتطاف" الراهب أليرتو بيامينار بفعل الشيء نفسه الذي فعله قبل خمسة أعوام عندما كان يحاول تحرير زوجته ماروخا باتشون"[51].

كان بيامينار وباتشون البطلين الرئيسين في كتاب غارسيا ماركيز الجديد **خبر اختطاف**. ولم يكن غارسيا ماركيز قد كتب كتاباً عن كولومبيا المعاصرة منذ زمن لــيس للعقيد من يكاتبه وفي ساعة نحس وجنازة الأم الكبيرة في خمسينيات القرن العشرين. وكانت أكثر رواياته التاريخية المنطوية على بعد سياسي كبير، وهي رواية **الجنــرال في متاهته**، قد جعلته مكروهاً تماماً وسط الطبقة الحاكمة الكولومبية في اللحظة نفسها التي كان يفكر فيها في الرجوع إلى كولومبيا على المدى الطويل. ولم يكن مرجحاً أبداً، وربما للمفارقة، أن يتزلف إلى مجتمع الطبقة العليا في كارتاخينا – لأن الساحلي من الطبقة العليا لن يحترم أبداً من ينحدر من الطبقة الدنيا – حتى وإن خصص ثلاثة كتب على التوالي "لمدينتهم المطولة"، وحتى إن كان يملك اليوم أكبر وأفخم وأعلى بيت في البلدة، وإن كان هذا سبباً جزئياً فعلاً.

لا. كانـــت بوغوتا هدفه في كولومبيا حتى وإن كان لا يشعر بالارتياح دائماً فـــيها. ففـــي تلك المدينة تكمن سلطة البلاد. إن كتابه الجديد مكتوب من بعض الأوجه عن الطبقة الحاكمة التي مركزها في بوغوتا؛ ويمكن أن يكون له أيضاً. ولم يجـــد مـــؤيدوه اليـــساريون لقدامى الكتاب ملائماً لذوقهم، بخلاف البورجوازية البوغوتـــية الـــتي وجدت رفض الكتاب أمراً مستحيلاً. منذ وفاة لويس كارلوس غالان، الذي لم يكن الأخير بل كان ذروة ورمز موجة الاغتيالات والاختطاف التي أثارت الرعب في البلاد، بدأ العديد من الكولومبيين بإقناع أنفسهم أخيراً أن بلدهم مـــيؤوس مـــنه فعـــلاً. فقد رفض غالان مراراً عروضاً قدمها إليه بابلو إيسكوبار بالانضمام إلى حملته وتمويلها. ولم يكن غارسيا ماركيز مقرباً من غالان، ولم يكن أيضاً معجباً بأولئك الذين يبدو، مثله، يشعرون أن لديهم رسالة روحية أو سماوية. (كاســـترو وحده هو الذي يحق له مثل ذلك الادعاء). وبدا سيزار غافيريا، الذي خلـــف غالان، بارداً أكثر مما ينبغي، جاداً أكثر مما ينبغي، ومستقيماً وواضحاً أكثر ممـــا ينبغي أيضاً لغارسيا ماركيز. لكن الرجلين احتاجا إلى صديق قوي سنة 1990. وكان لكل واحد منهما ما يمنحه للآخر، زد على ذلك أنهما لم يكونا من بوغوتا.



حقاً كان الكتاب الجديد إنجازاً مدهشاً، بل هو عمل رائع ومدهش لأي كاتب في أي وقت كان، من رجل بلغ التاسعة والستين من عمره حين الانتهاء من كتابته. لقد ظل النقاد يرددون القول إن مواهب غارسيا ماركيز تلائم الأحداث الدرامية المثيرة التي تدور في الزمان الماضي البعيد، وأنه - شأن معظم الروائيين - ربما لم يكن مُعداً للكتابة عن القضايا المعاصرة. فضلاً عن هذا، شعر معظم المراقبين أنه لمن المستحيل تقريباً على أي فرد أن يفهم الفوضى التي كانت تضرب أطنابها في كولومبيا في تلك السنين، وأن محاولة إنتاج حبكة متماسكة وبناء قصة عليها لعلها خارج قدرة الجميع. لكن عندما صدر الكتاب وافق الجميع، ومن ضمنهم أولئك الذين لم ترقهم اتجاهاته ووجهة نظره، على أن راوي القصة الكبير قد فعلها مرة أخرى وقدم قصة من الطبقة الأولى. حقاً، لقد قال كثيرون إنهم لم يتمكنوا من النوم إلا بعد أن فرغوا من قراءة الكتاب، واعترف بعضهم أنهم إذا لم يكملوا قراءة الرواية بجلسة واحدة، فإن الرهائن، وهم أبطاله الرئيسون، ربما لن يتمكنوا من الهروب من محنتهم. هكذا كانت قوة السرد. والسؤال الواضح المطروح هنا هو: هل ضحّى غارسيا ماركيز بالتعقيد من أجل الوضوح في تقديم أشعته السينية التي أخذها عن بلده؟

لقد انطلق المؤلف على وجه التأكيد للإحاطة بتعقيد كولومبيا المشابه لتعقيد المتاهة ضمن الأحداث المثيرة التي وقعت لتسع شخصيات رئيسة. الشخصية الأولى هي البطلة ماروخا باتشون الصحافية ومديرة مؤسسة فوئيز السينمائية وشقيقة غلوريا باتشون (أرملة غالان وسفيرة بلادها لدى اليونسكو مؤخراً)، والشخصية الثانية هو البطل ألبرتو بياميثار زوج ماروخا وشقيق الرهينة الثانية بياتريث بياميثار صديقة ماروخا وشقيقة زوجها. يبذل ألبرتو قصارى جهده لإطلاق سراح شقيقته وزوجته من هذه المحنة الكابوسية. أما فرانسيسكو سانتوس، (المعروف عموماً بالاسم باتشيتو) فهو ثالث الشخصيات الرئيسة، صحافي بارز يعمل في صحيفة التيمبو وابن مديرها هيرناندو سانتوس. (يحتل اليوم منصب نائب رئيس جمهورية كولومبيا). الشخصية الرابعة هي ديانا طربيه، صحافية تعمل في التمربون وابنة رئيس الجمهورية السابق خوليو سيسر طربيه حيث يلقى عليها القبض مع زملاء

آخرين لها يطلق سراحهم واحداً تلو الآخر، لكنها تلقى مصرعها على نحو مأساوي في أثناء محاولة فاشلة نفذها الجيش لإنقاذها. أما الشخصية الخامسة فهي مارينا مونتويا شقيقة عضو بارز في حكومة باركو. وهي أكبر الرهائن سناً، والأولى التي يتم اختطافها، والوحيدة التي يُجهز عليها مهربو المخدرات. أما الشخصية المركزية السادسة فهي "رئيس عاميريا"، لذي خليق به أن يكون هو بطل الرواية، وخاصةً في ضوء علاقته الوثيقة بغارسيا ماركيز، لكن مما يبعث على الدهشة أنه ليس بطلها. والشخصية السابعة هي بابلو إيسكوبار الذي نادراً ما يظهر في الرواية، لكنه الجاني فيها وروح الشر التي تقف وراء كل الأحداث، وهو رجل يبدو بلا شك أن لغارسيا ماركيز مشاعر متناقضة تجاهه من دون استبعاد مشاعر الإعجاب به. ويظهر في الرواية عدد لا يحصى من أفراد الأسر وخدمهم، وعدد آخر من مهربي المخدرات والتابعين لهم، وعدد كبير من وزراء الحكومة وغيرهم من موظفي الدولة (من ضمنهم قائد الشرطة السرية وأحد أقرباء المؤلف ميغيل ماثا ماركيز). ويجمعهم غارسيا ماركيز كلهم وينظمهم ويهندس بمهارة إعادة سرد الأحداث المرعبة.

يقول غارسيا ماركيز في مقدمة الكتاب إن هذه "المهمة الخريفية" كانت "الأكثر مشقة وحرباً في حياتي". لكن الذي يبعث على الدهشة هو أن الكتاب الذي لا ينتهي نهاية سعيدة لكولومبيا وللعديد من الأبطال (مارينا وديانا و لرهينة الخلاسي الذي لا اسم له ونُسي أمره بسرعة) ابتكرت له نهاية سعيدة، ويرجع السبب الرئيس في ذلك إلى التركيز على أبطال بعينهم ورغبة غارسيا ماركيز في أن يكون "حامل الخبر السار". يبدو كأن كتابه عن الصحافة السياسية الذي أنجزه إنجازاً باهراً قد اختطفه كتاب آخر فيه كل متطلبات وتصورات رواية تشويق هوليوودية ذات نهاية تماثل نهاية قصة من القصص الاجتماعية. إننا نقتنع بأن علينا أن نحرص الحرص كله ما إذا كانت ماروخا ستنجو بالرغم من مصرع سائقها في الصفحة الرابعة من الرواية – الذي أجهز عليه المؤلف سريرياً مثلما أُجهز لمقتلة على السائق الحقيقي والذي لم نعد نسمع له ذكراً بعد ذلك (وينطبق الشيء نفسه على سائق باشيتو سانتوس). لا يبدو مهماً من ناحية تأثير السرد عدد الناس الأقل شأناً الذين سيموتون ما دام نجوم باقين على قيد الحياة. حقّ بن موت البعض

ضمن أعراف الرواية البوليسية المثيرة، يشكل تضاداً مع بقاء الأصلح المرغوب أكثر وهـذا هـو من السرد القاسي الذي لا يرحم في هذا الكتاب، وهو بعيد جداً عن ثاباتيو، أو حتى فيلبي في شريطه لا دولتشي فيتا

يتمـثل المفهوم الأساس في الرواية بالانتقال بين الفصول ذات الأرقام الفردية التي تنصب على الرهائن وخاطفيهم والفصول ذات الأرقام الزوجية التي تخص أسر الـرهائن والحكـومة. إن الحـدث المثير في الرواية، أصلاً، هو أولاً محنة الرهائن وجهودهم في البقاء على قيد الحياة والحديث عن الحياة اليومية مع حراسهم، وثانياً، جهـود الأسـر من أجل التفاوض مع كل من الخاطفين والحكومة لإخلاء سبيل الـرهائن. لكـن علـى المستوى الأعمق يكمن الصراع الحقيقي بين "الإكستر ديتابيين" والحكومة، تكون فيه الرهائن والأسر بيادق ضعيفة لا حول لها ولا قوة، لكـن غارسيا ماركيز يحولها إلى قصة "ذات اهتمام إنساني" قدر المستطاع. ويركز قبل كل شيء على الشخصيات الأربع الرئيسة من مجموع الرهائن العشر. ماروخا وماريـا وديانـا وباتـشيتو. ولا ينجو من هؤلاء الرهائن الأربع سوى ماروخا وباتـشيتو، إذ يطلق سراحهما خلال ساعات قليلة في العشرين من أيار سنة 1991 وذلـك في الفـصل الحادي عشر. أما ماريا وديانا فتموتان خلال يومين (الثالث والعشرون والخامس والعشرون من كانون الثاني سنة 1991) في الفصل السادس بعد أن أمضتا عدة أشهر في الأسر.

إن نهايـة هذا الكتاب الفعلية الذي أريد له أن يكون قصة حب تشتمل على أزمة (عادة في كرب)، وصراعاً بطولياً (فارساً) وعودة سالمة إلى البيت، لتتحقق في ختام الفصل الحادي عشر بعودة ماروخا السارة إلى المبنى الذي تقع فيه شقتها حيث تستقبلها موجة فرح عارمة من أصدقائها وجيرانها، وأخيراً زوجها الذي يرحب بها ترحيباً حاراً جداً. الواضح أن غارسيا ماركيز رغب في أن يوضح أن النهاية السعيدة يمكن أن تتحقق حتى في كولومبيا؛ وربما لها أيضاً. وما استسلام إسكوبار وموته إلا ملاحظـة ختامـية لهذه القصة، شأنها شأن إعادة الخاطفين، ثم ماروخا، هي والذي تنتهـي به الحكاية والملاحظة الختامية التي تنطق بها ماروخا عندما تقول: "لقد كان هذا كله شيئاً يتعين تدوينه في كتاب" غير أن معالجة موت إسكوبار تنطوي على

مخادعة. ففي القصص الاجتماعية والبوليسية نادراً ما يكون موت الشرير خاتمة الكتاب، وبخاصة إذا كان الشرير من مستوى إيسكوبار. لكن المرء يشعر هنا أن موت إيسكوبار الذي عُولج معالجة غريبة، يُعطل الأعراف نفسها التي تبدو وقد صُممت كي تصل إلى الذروة.

وكما هو شأن معظم المؤلفات السابقة لغارسيا ماركيز، فإن كتاب **خبر اختطاف** ليس عن الصفات الدنيا من المجتمع (حتى في زمن بعيد كزمن تأليف رواية **في ساعة نحس**، فقد كان ظهور الفقراء المهجرين ظهوراً مفاجئاً في القرن صدمة)، غير أن الغياب له أهمية أكثر وضوحاً وحسماً هنا. إنه كتاب عن أناس ينتمون إلى الطبقة العليا، وبخاصة من ضمنهم عدد من البيسيين البارزين (والدا ديانا طربيه وباتشيتو سانتوس من الأشخاص الذين سبق لغارسيا ماركيز أن عارضهم وندد بهم). وقد شن كاتب العمود الصحافي روبيرتو بوسادا غارسيا بينا (دآرتاغنان) من صحيفة التيمبو هجوماً عنيفاً على غارسيا ماركيز، لاحتفائه ببورجوازية بوغوتا"[52].

ومما يُحيّر أن غارسيا ماركيز يستبعد الولايات المتحدة من الكتاب نهائياً. وإن منع مهربي المخدرات من طردهم إلى الولايات المتحدة الأميركية - "الأفضل لإيسكوبار قبر في كولومبيا وليس زنزانة في الولايات المتحدة" - هو الذي يقرر الصراع الذي يمثل القوة المحركة للأحداث المروية في الكتاب، والتي تتطلب مؤكداً نمطاً من أنماط النقد الساخط للإمبريالية. لكن في عمل ينقد حتى رجال حرب العصابات - وبالرغم من ارتباطاته بكوبا - "لكل الأعمال الإرهابية"[53]، فإن جانب الولايات المتحدة لا نجد له معالجة أبداً. وبهذا، فإن مجمل بنية الرواية السببية - التفسيرية مرتبكة وتفتقر إلى التركيز. والمؤكد أن هذا ليس بالكتاب الذي سيحرج مؤلفه عندما قدمه فور نشره إلى بيل كلنتون، وليس هناك ما يبعث على الدهشة أن كلنتون أثنى في نهاية المطاف على الجانب "الإنساني" فيه، فليس هناك من جانب آخر في القصة، وهذا مما يطرح أصعب الأسئلة قاطبة: هل كُتب هذا الكتاب من أجل بورجوازية بوغوتا وبيل كلنتون (نحن والولايات المتحدة) وليس "لنا" نحن "القراء"؟ أو، لنصغ السؤال في صياغة أخرى: هل كُتب الكتاب "لنا" نحن القراء،



تماماً مثلما تكتب لنا القصص الاجتماعية كي تجعلنا نرضى بواقعنا ولتجعلنا نعتقد أن الأثرياء والمشاهير هم "بشر"... "مثلنا" تماماً؟

لكن كما هي الحال دوماً، ثمة أكثر من أسلوب للنظر به إلى الأشياء. صحيح أن هذا الكتاب هو أول كتاب يكتبه غارسيا ماركيز مستلهماً فيه بوغوتا، ويبحث في قضايا كولومبيا المعاصرة منذ الوقت الذي قرر فيه أن "يغادر" كوبا بحدود العام 1990 (بالرغم من أنه لم يغادرها فعلاً) وقرر "العودة" إلى كولومبيا (بالرغم من أنه لم "يعد" إليها عودة كاملة). وهو أيضاً كتاب عن الاستيلاء على السلطة أكثر مما هو حرد لأي شيء آخر. إنه غني من المعاني عرض للبطولة والشهامة وإجابة مطلقة عن كل تساؤلات قادة الكولومبيين. هو لم يعش هنا؟ حسناً. لكن هل استطاع أي كولومبي معاصر آخر أن يجمع معاً كل تعقيدات تاريخ البلاد الحديث ويقدمها متماسكة ومفهومة كما فعل هو؟ أكان رجلاً فاشلاً من رجال البلاط يتودد إلى السلطة؟ حسناً. انظر إلى ما يمكن أن يفعله العلاقة المباشرة بالسلطة: أما "صحافي" في إمكانه الوصول، بفضل هيبته، إلى أي مستوى من مستويات "المعارف" و"المصادر"، ومن لا يستطيع الوصول إليها، لا يستطيع أبداً الحصول على "القصة الكاملة". هل أضحت كتاباته تافهة، وتكرر ذاتها، وتقتبس ذاتها، وتنغمس في ذاتها؟ حسناً. هذا ما كان في وسع هذا الرجل المسن الذي يقترب من السبعين - أن يفعله.

من شأن الافتتاحيات اللاذعة التي تنشرها صحيفة التيمبو، كتلك التي حيّت **الجنرال في متاهته**، أن تكون غير واردة أمام عمل لأديب استحوذ استحواذاً رمزياً على البلاد على نحو تام الجلاء. واليوم يجدر ذكرها بسبب غيابها. إن غارسيا ماركيز لم يظهر أي شيء، لكنه منذ زمن نشر رواية **الجنرال** انتظر سبع سنوات كي **ينتقم**، كي يصل إلى مقابلات "صينية" للصحافة للتعبير عن عدم إحساسه بالأمان إزاء الكتاب الجديد، بخلاف ما حدث عند نشر رواية **الحب وشياطين أخرى**. قال مصارع الثيران الراحل: إليك هذا: ربما يبدو مدهشاً أن كولومبيا أصبحت عائدة إلى غارسيا ماركيز وله من العمر تسعة وستون عاماً، وعلى نحو لم يحدث من قبل. لقد جعلت رواية **مئة عام من العزلة** أمريكا اللاتينية كلها تعود



إليه، بل العالم أيضاً، لكن ليس كولومبيا. المؤكد أن **مئة عام من العزلة** كانت "ماكوسو"، لكن الجميع كانوا يعرفون، في بوغوتا وغيرها من المدن الكبيرة في الداخل (مثل ميدلين وكالي)، أن ماكوندو هي الساحل، ولم يضعوا أنفسهم ضمن مرجعياتها. لكنهم اليوم نجدهم أقل ثقة ورضىً على حين استحوذ غارسيا ماركيز أخيراً على كولومبيا وليس الساحل وحده. لكن الطعن في الظهر سيستمر مدى الحياة - طبيعة الحياة السياسية والاجتماعية - لكن بثقة أقل بكثير. لقد بات فوق النقد الآن، وأضحى في وسعه أن يفعل كل ما يحلو له.

لكن السؤال يمكن أن يتكرر مرة أخرى: لقد كتب كتاب **خبر اختطاف** للكاستاكو من وجهة نظرهم إلى حدٍّ ما، فهل استسلم لهم بالتالي؟ هل قوّض في لحظة نصره (أو حتى بسبب صيغة ذلك النصر) مساعده الأخلاقي والسياسي كله؟ لعله أمسى محافظاً على النحو الموجع والكئيب الذي يساق إليه كبار السن فيتحوّلوا إلى محافظين. أو لعله أدرك في نهاية المطاف "الواقع السياسي"، لا سيما "الواقع السياسي بعد سقوط الجدار". أو لعل كل ما يريده الآن أساساً، هو أن يرى فيدل والثورة الكوبية يقاومان مقاومة رمزية المتاهة التاريخية إلى الحدّ الذي لا تترك لهما فيه المتاهة الأخيرة العظمى أي خيارات أخرى. أو لعله لا يزال يرفض كل تلك الوقائع المحيطة به، كل تلك الخيارات والتفسيرات. أو لعل غارسيا ماركيز يصوب حلمه بالطريقة الوحيدة التي يعرفها هو حتى نهاية المطاف. ربما. لكن هذا هو لسؤال على وجه التأكيد.

طبيعي أن الكتاب تبوأ المركز الأول في لائحة الكتب الأكثر رواجاً حال صدوره. وبالرغم من أن المقالات التي كُتبت عنه كانت إيجابية تماماً، إلا أن عدداً قليلاً منها كان غاية في العدوانية، وحتى هداماً وبذيئاً، وبخاصة من الولايات المتحدة، إذ اختلفت نبرتها عن نبرة حتى المقالات التي نشرت عن رواية **الجنرال في** صحيفة الـ... [54]. غير أن غارسيا ماركيز استعرض خياراته واختار ما يحلو له. وفي وسعنا أن نكون واثقين من أنه كان راضياً.



-24-

غارسيا ماركيز في منّ السبعين وما بعدها

منكرات وغانيات حزينات

2005-1996

والآن ماذا سيفعل؟ لا يزال الكاتب البالغ من العمر تسعة وستين عاماً مفعماً بالنشاط، لديه خطط كثيرة، ولا يزال مفتوناً بالسياسة ومصرّاً بأن "يكون مختلفاً"، على حدّ تعبير الأميركيين. لكن هل لا يزال كاتباً قصصياً؟ كانت رواية الجنرال في متاهته رواية تاريخية في إطار قصصي ذكي، لكنها تظل رواية تاريخية. كذلك، فإن **خبر اختطاف** رواية وثائقية، بل وثائقية أكثر من رواية. الواضح أن رواية **الجنرال** كانت عن "الماضي"، عن الأسلوب الذي نشأت به كولومبيا قبل مئتي سنة. **أما خبر اختطاف** فعن "الحاضر" عمّا آلت إليه كولومبيا. الروايتان مكتوبتان بحماسة لا يمكن نكرانها. لكن، هل لا يزال في أعماق غارسيا ماركيز عمل طموح آخر ذو خيال إبداعي، أم أن المعين التاريخي العالمي العظيم نضب في النهاية؟ مما لا شك فيه، أن العالم هو تجاربه، لكنه لم يعد ذلك العالم الذي صنعه. أين وسعه الاستجابة لهذا العالم الجديد، لهذا الكون في عصر ما بعد الشيوعية، وما بعد المثالية، وما بعد الحداثة الذي يمتد الآن أمام الكوكب المتعب على مشارف القرن الحادي والعشرين؟

الحق أن ما من أحد استجاب استجابة كاملة للحقبة الجديدة. إنه سؤال ثقيل يوجهه العالم إلى شخص كبير السن بالرغم من أن غارسيا ماركيز كان يطرح السؤال نفسه على نفسه. إن هذا العصر هو عصر الأدب الجيد، لكنه ليس عصر الأعمال العظيمة. فمنذ الحرب العالمية الثانية إلى اليوم لا يوجد سوى عدد قليل جداً من الكتّاب – بل وعدد قليل جداً من المدعين في كل جنس أدبي – اتفق بشأنهم



القــراء والنقاد على النحو الذي اتفقوا، ولا يزالون متفقين، فيه بخصوص الفنانين العظمـاء إبـان حقبـة الحداثة بين ثمانينيات القرن التاسع عشر وثلاثينيات القرن العشرين. وكان غارسيا ماركيز اسماً من الأسماء القليلة، وكانت رواية **مئة عام من العـزلة** من عناوين الروايات القليلة التي تبرز في لائحة كل فرد عن الأدباء العظماء والأعمال العظيمة في النصف الثاني من القرن العشرين، وقد أضاف رواية **الحب في زمن الكوليرا** التي ظهرت دائماً في اللوائح التي تحمل عناوين "أفضل خمسين رواية" أو "أفضـل مئة رواية" في القرن العشرين. أفي وسعه أن يضيف شيئاً آخر؟ بل هل يتعين عليه أن يحاول؟

مما لا ريب فيه أنه أراد الاستمرار. سبق أن قال إنه لم يعد في جعبته شيء بعد **روايـة مـئة عـام من العزلة والحب في زمن الكوليرا**[1]. لكنه وجد دائماً العزم والإصـرار، والإلهام بالتالي، للعثور على موضوعات جديدة وأشكال جديدة ليقدم مشروعاً جديداً، كتاباً أراد أولاً أن يكتبه، ثم احتاج إلى كتابته، ثم اضطر أخيراً إلى كتابته وليس الأمر مختلفاً الآن. فهو دائم البحث. وقد قال في مقابلات صحفية إنه كـان "يـريد العودة إلى الرواية". وكدأبه، كان لديه مشروع. كانت لديه ثلاث روايات قصيرة تصلح أن تكون كتاباً مثيراً للاهتمام بحسب رأيه إذا ما جمعت معاً، كـتاباً آخر عن الحب، الحب والنساء. وقال لصحيفة التايمس: "إنني محاط بالنساء، أصـدقائي مـن النساء عموماً، وكان على ميرثيديس أن تتعلم أن هذا هو أسلوب حـياتي، وأن علاقـاتي بهـن ليست سوى مغازلات لا تضر فالكل يعرفون الآن حقيقتي"[2].

ثم أضاف أنه بدأ يفقد ذاكرته التي اعتمدت عليها حياته وأعماله كلها (وهو ما حدث تماماً لبطل **خريف البطريرك** المستمدة شخصيته من السيرة الذاتية). لكن، وبـا لمفارقة، كانت آلة تقطيع الورق هي الآلة المستعملة أكثر من غيرها في بيته. لكن بالرغم من ذلك، استعاد في وقت متأخر مسوّدات قصة **الحب وشياطين أخرى** وأعطاهـا لميرثيديس لتكون هدية لها. بدا أنه غير مدرك أن المسوّدات فقدت قدراً كـبيراً من سحرها – من صميمها المالي – في عصر الحاسـوب، لأن الحاسوب يمحي معظـم الآثـار الورائية. حقاً كان التحول من الكتابة باليد إلى الكتابة على الآلة



الكاتبة ثم إلى الحاسوب جزءاً من تفسير اضمحلال هالة المؤلف في ذهن القراء، وربما فقدان الثقة بقول المؤلفين أنفسهم. ولقد قاوم غارسيا ماركيز هذه العملية مقاومة أقصر من عمره. واستحسن إتلافه معظم أعماله التمهيدية، أو غير الكاملة، مع اعتقاده الجازم أن مهمة الفنان هي إنتاج أعمال كاملة تماماً على وفق النموذج الكلاسيكي، وإن لم يكن يرغب في التعبير عن هذه المهمة على هذا النحو.

كان تقاعده عن العمل موضوعاً يخيم عليه، وكانت تلك سنة كلها. فهذا هو خريف كل البطاركة. فقد كان ساهر يرفض رفضاً باتاً وقاطعاً الاستقالة، بالرغم من أن ملايين الناس كانوا يطلبون منه أن يستقيل. واضطر كارلوس أندريس بيريث إلى الاستقالة بالقوة. وتمكن كارلوس ساليناس من إنهاء مدة ولايته، إلا أنه اضطر إلى مغادرة البلاد بعد أن هُدِّد بالسجن أو ما هو أسوأ من السجن. ولم يستطع أحد أن يرغم فيدل كاسترو على الاستقالة، لكنه سرعان ما سيبلغ السبعين، وقد شاخت الثورة. لكن من يا ترى يمكنه أن يحل محله؟ وبدلاً من أن يحضر غارسيا ماركيز حفل إصدار كتابه في بوغوتا، سافر لزيارة متقاعد آخر تقاعد على مضض، وهو فيليب غونثاليث، إذ أُقصي من منصبه إثر اتهامات وفضائح في إسبانيا بعد ثلاث عشرة سنة أمضاها في قصر مونكلوا الجمهوري في مدريد. وما إن وصل غارسيا ماركيز حتى أسرع إلى مونكلوا، لكن الرئيس لم يكن في البيت، بل كان وحده مع حرسه الشخصي في حديقة مونبرغوا الوطنية، كأنه شخصية أخرى من شخصيات غارسيا ماركيز حُرمت من السلطة والمجد[3]. وقال غونثاليث في آخر مرة التقيا فيها وهما يتعانقان: "يا الله! أظنك الرجل الوحيد في إسبانيا الذي يريد أن يعانق الرئيس". ثم أعلن أنه ارتاح لتركه منصبه وأنه في طريقه إلى التقاعد، وسيحل محله الزعيم اليميني خوسيه ماريا أثنار.

سافر غارسيا ماركيز بعد تمديد إقامته في إسبانيا إلى كوبا للاحتفال بذكرى ميلاد فيدل كاسترو السبعين معه، فكانت الزيارة حدثاً خريفياً آخر لا تختلف عن زيارته فيليب غونثاليث. لم يكن فيدل يفكّر في التقاعد، لكنه كان في حالة تأمُّل غير اعتيادية. لقد عاش طويلاً في المستقبل، وكي يصل إلى المستقبل، اضطر إلى التغلب على الحاضر دقيقة فدقيقة. أما الآن، فهو يفكّر في الماضي للمرة الأولى، في

ماضيه هو وكان قد صرّح بأنه لا يريد احتفالاً خاصاً، لكن غابو قال إنه سيسافر إلى كوبا برفقة ميرثيديس في كل الأحوال. لم يتمكن فيدل من الاحتفال بذكرى ميلاده رسمياً في اليوم المحدد - الثالث عشر من آب - بسبب ضغط العمل، لكنه توجه إلى بيت غارسيا ماركيز بعد إصرار الأخير في ذلك المساء ليجد هدية تقدّم، وهي نسخة من معجم جديد أصدره معهد كولومبيا اللسني إسيبيو كرويو كيرفو. وبعد أسبوعين، كشف فيدل عن مفاجأة من عنده: صحب غابو وميرثيديس، وعدداً قليلاً من المقربين، وصحافياً، ومصوراً إلى بلدة بيران الصغيرة حيث ولد فيها: "رحلة إلى ماضيه، ذكرياته، المكان الذي تعلم فيه النطق والرماية وتربية ديوك العراك والصيد والمصارعة، المكان الذي تعلم فيه وصار على ما هو عليه، المكان الذي لم يذهب إليه منذ سنة 1969، الذي تمكن فيه للمرة الأولى في حياته من أن يقف أمام قبري والديه ويقدم إليهما بعض الزهور، وإظهار التقدير اللائق بهما بعد وفاتهما، وهو تقدير لم يتمكن حتى تلك اللحظة من تقديمه إليهما". رافق فيدل ضيوفه في جولة في أنحاء البلدة، ثم ذهب إلى مبنى المدرسة القديم (وجلس على طاولته القديمة) وتذكر نشاطاته أيام صباه. ("كنت راعي بقر، أكثر من ريغان، لأن ريغان كان راعي بقر في السينما وحدها، أما أنا فكنت راعي بقر حقيقيًّا")، وتذكر شخصية أبيه وأمه وغرابة أطوارهما، وبعد أن شعر بالرضى قال: "إنني لم أخلط الأحلام بالواقع، وذكرياتي تخلو من الفانتازيا"[4]. لا بد من أن غارسيا ماركيز أصبح لديه غذاء فكري كثير، وخاصة أنه كان يكتب يومئذ مذكراته؛ لا سيما عودته مع والدته قبل أكثر من نصف قرن من الزمان إلى المكان الذي وُلد فيه.

أمضى غارسيا ماركيز بعض الوقت في بيته الجديد عند رجوعه إلى كارتاخينا في شهر أيلول، فإحساسه بأنه غريب عن المكان لم يعد سراً، ولم يكن السبب هو أن فندق ساناكلارا كان يطل عليه هو وميرثيديس: كل ما هنالك أنهما لم يشعرا بالراحة والاطمئنان، لأنه لم يرافقهما ثمة صحافي أرجنتيني يدعى رودولفو براثيلي سبق له أن أجرى مقابلة مع ماروخا باتشون عن تجاربها التي مرت بها بين عامي 1990 و1991 وعن ظهورها في كتاب **خبر اختطاف**، فاستغل معرفته بها ليجد طريقه صوب غارسيا ماركيز المرتعج، وإن كان لا يزال على استعداد لتقديم

المساعدة والمعلومات، والذي بدأ يظهر في المقابلات الصحافية في تلك الآونة متأملاً ومتفلسفاً على نحو متزايد، كأنه جندي عجوز أصبح وحيداً ولم يعد هناك من يمد له يد المساعدة، فانعقد لسانه ولم يُحِر جواباً. كان مثيراً للاهتمام، غزير المعلومات، حتى إنه كان يكثر من التحليلات، لكنه لم يعد يركز على الحملة الوحيدة التي تستبعد الحملات الأخرى - القادمة - ولم يعد متصلب الرأي كالأيام الماضية[5]. ونوّه مرة أخرى بأنه بدأ ينسى الأشياء، لا سيما أرقام الهواتف، بالرغم من أنه كان "أستاذاً في الذاكرة". وكانت أمه تقول له في بعض الأحيان: "ابنُ من أنت؟"، ثم تعود إليها ذاكرتها في أيام أخرى تقريباً. فيسألها عن ذكرياتها عن طفولته[6]، "فتأتي ذكريات كثيرة لأنها لا تعنيها الآن، إذ نسيت أهواءها واختياراتها".

أخبر رايلي أن لديه عدداً كبيراً من الأصدقاء وقد بلغوا السبعين فجأة، مما أثار دهشته، "فأنا لم أسألهم قط عن أعمارهم". وقال إن شعوره الشخصي تجاه الموت هو "الغضب". ولم يفكّر في موته تفكيراً جاداً إلا بعد أن بلغ الستين من عمره. "إني أتذكره تماماً. فقد كنت أقرأ في إحدى الليالي كتاباً، وفجأة فكّرت: *تبّاً، إني سأموت، الموت محتوم، لم يكن لدي وقت، لم يكن لدي وقت في السابق للتفكير فيه، لكن ها هو فجأة. تبّاً، لا سبيل إلى الخلاص منه*. وشعرت برجفة ما... ستون سنة من اللامسؤولية أشبه بضوء ينطفئ، أو أشبه بمخدر.

من الواضح أنه كان في حالة تأملية يسترجع فيها سيرته الذاتية، وإن كانت هذه النزعة واضحة، في الأقل في البداية، منذ نهاية مجلة ألترناتيفا وبداية عموده الأسبوعي في الاسبكتادور وإل البايس. وبالرغم من أنه أتلف معظم الآثار المكتوبة عن حياته الشخصية وحتى عن نشاطه الأدبي المهني، إلا أن تفكيره ازداد بخصوص مظهرين معينين من عمله: أولاً، كيف ومتى، التقنية والتوقيت. يتضح أنه حرفي أستاذ في حرفته، يعي وعياً متزايداً أن سرد الحكايات على طريقته أو على طريقة همنغواي ليس في ميسور الجميع. لهذا السبب وُلدت "ورشة" في كتابة النصوص السينمائية في هافانا ومدينة مكسيكو، والآن ورشه الصحافية في مدريد وكارتاخينا، وكانت هذه "الورش" تخص كتابة القصص: كيفية تفكيك الواقع إلى أقاصيص، وكيفية تفكيك الأقاصيص إلى العناصر المكوّنة لها، وكيفية سردها بحيث نقود كل

نقطة إلى أخرى على نحو طبيعي، وكيفية تأطيرها تأطيراً يجعل القارئ، أو المشاهد، يستمر بحيث لا يقوى على التوقف عن القراءة أو المشاهدة ثانياً، ماذا ولماذا؟ كان ينفر من الإفراط في إظهار العواطف والاستبطان بسبب شعوره "بالخزي والحرج" لكن مرت عليه حتى الآن مدة من الزمن أبدى فيها اهتمامه بتحديد لمادة الخام المعاشة لتجربته التي تصحب بأساليب متباينة، ولأغراض أدبية وعملية مختلفة في مؤلفاته على مر السنين. إنها وسيلة ما للسيطرة على قصته، للتأكد من أن أحداً ما لا يستطيع صياغتها من دون أن يقبل بمعظم تفسيره. لقد ظل يسيطر على صورته على مدى ثلاثين سنة، والآن يريد أن يسيطر على قصته

سافر غارسيا ماركيز إلى باسادينا في كاليفورنيا في شهر تشرين الأول لحضور الاجتماع الثاني والخمسين لرابطة الصحافة في البلدان الأميركية، حيث حضر أيضاً ستمائة صحيفة، إضافة إلى الأميركيين الفائزين بجائزة نوبل للسلام ريغوبيرتا مينتشو، وأوسكار آرياس، وهنري كيسنجر. وانتخب رئيس تحرير الإكسبريسو لويس غابرييل كانو رئيساً جديداً للمنظمة، وتمت الموافقة على عقد الاجتماع الثاني في مدينة غوادالاخارا. كان غارسيا ماركيز يحرص على أن يضع مؤسسته الصحافية الجديدة في المقدمة. لذا قال في كلمته "لقد أصبح الصحافيون ضائعين في متاهة التكنولوجيا. العمل الجماعي لا يحظى بتقدير حقيقي، والتنافس من أجل الحصول على كسب صحافي يدمر العمل المهني الجاد. ولا بد من الاهتمام بثلاثة مبادئ أساسية "لا بد من إعطاء الأولوية للموهبة والشعور الباطني. وينبغي النظر إلى التحقيقات الصحافية على أنها نشاط من نوع خاص لأن الصحافة كلها يجب أن تنطوي على تحقيق. كما لا ينبغي على الأخلاقيات أن تكون مسألة وقتية، بل لا بد من أن ترافق الصحافي دائماً مثلما يرافق الطنين الذبابة"[7]. (العبارة الأخيرة ستصبح شعار مؤسسته الصحافية. أما شعارها الرئيس فهو: "لا أن تكون الأفضل وحسب، بل أن تكون معروفاً بأنك الأفضل". وهو ما ينطبق تماماً على غ ج م). كانت كلمة غارسيا ماركيز تهتم، شأن مؤسسته الجديدة، بما ينبغي للصحافيين الأفراد أن يفعلوا للارتقاء بمستوياتهم المهنية والأخلاقية، في حين كان يهتم في سبعينيات القرن العشرين بملكية الصحافة. لكنه يتحرك الآن في عالم مختلف. لعله الوحيد الذي

حاول أن يحيا هذه الحياة المزدوجة التي ناقش فيها مشكلات الصحافة البورجوازية في دون ديمقراطية رسمياً، ولكنه أيد بإخلاص كوبا، الدولة الوحيدة في نصف الكرة الأرضية التي لا توجد فيها صحافة حرة، ولن توجد ما دام كاسترو في السلطة. وكانت مقالات غارسيا ماركيز التي تنشر في آن واحد في مختلف البلاد، تجد طريقها للنشر بانتظام في صحيفتي غرانما وخوفينتود ريبيلدي. وكان ذلك صعباً جداً عليه في عصر لم يعد يستطيع فيه استخدام مبرر الأهداف الاشتراكية وصورة بناء اقتصاد اشتراكي. لكن لو كان لا يزال يتكلم عن ذلك كله، حتى بالافتراض أنه شاء ذلك، لما تمكن من الاختلاط بالأقطاب الصناعيين - إذ كان أحد أكبر المالكين لوريشو تامبرانو ملك الإسمنت القادم من مونتيريي - ولما تمكن من إقناعهم بفتح أمواهم.

كان سامبر قد أعلن قبل ذكرى الميلاد أنه بصدد تشريع قانون جديد للتلفزيون يأخذ على عاتقه تأسيس مفوضية، تقرر إن كانت القنوات ملتزمة بحياديتها. وقد افترض الجميع أن الوقت لن يطول حتى تجده وقد ألغى رخصة قناة كاب التي كانت من أشد نقاد سامبر قسوة وعندئذ، تصحي غارسيا ماركيز تحت رحمة السلطة للمرة الأولى منذ سنة 1981 وهنا استشاط غضباً وأعلن أنه لن يحتفل بذكرى ميلاده السبعين في كولومبيا. وفي السادس من آذار، أمضى هو ومرسيديس ورودريغو وغونثالو ابنهما في مكان سرّي بعيد عن البلاد[8]. وقد نوّهت جميع الصحف الإسبانية بذكرى ميلاده السبعين، كما نوّهت أيضاً بذكرى ميلاد رواية **مئة عام من العزلة** الثلاثين. كانت الصحافة تبحث عن أي سبب لذكر اسم غارسيا ماركيز في الصحف، لأن سمه يزيد مبيعاتها مثلما يزيد من عدد الكتب المبيعة وتبين الآن، أنه بالرغم من إصراره بأنه لا يريد "تمديداً بعقب وفاته وهو لا يزال على قيد الحياة"، فقد كان عازماً على توكيد غيابه عن كولومبيا حتى بطريقة استعراضية أكبر عندما وافق على السفر إلى واشنطن - من دون كل الأماكن - لحضور احتفالات متعددة في شهر أيلول لمناسبة الذكرى الخمسين لأول قصة تنشر له. إن مثل هذه الاحتفالات في واشنطن تتطلب تعاون سفارة الشخص المحتفى وتصميمها وتأييدها. غير أن غارسيا ماركيز لم تكن لديه علاقة متطورة مع رجل



البيت الأبيض وحسب، بل كان أيضاً صديقاً حميماً للأمين العام لمنظمة الدول الأميركية، وهي المنظمة التي لم تكن الولايات المتحدة فيها إلا أولى بين متساوين. أما غافيريا، فقد أضحى الآن ممتعضاً مما عدّه حرج حكومة سامبر، وثارت ثائرته لما عدّه أيضاً تبديداً للإرث الذي تركه هو، غافيريا، له. هكذا، لجأ إلى صديقه لترتيب سلسلة من المناسبات تكريماً لغارسيا ماركيز تُوّجت باحتفال أقيم في مقر إقامته، ومأدبة عشاء في جامعة جورج تاون كان فيها غارسيا ماركيز وطوني موريسون، وهي روائية أخرى سبق أن فازت بجائزة نوبل، ضيفين من ضيوف مدير الجامعة الأب ليو دونوفان.

كان الميل إلى الذكرى السنوية يتطور على مدى السنين في الثقافة الغربية مع اقتراب الألفية الكبيرة. لقد أضحت التواريخ 1492، و776، و1789 في ظل ظروف ما بعد الحداثة معادلات رمزية لمستودعات قيمية. وكان غارسيا ماركيز في خضم هذه الأشياء كلها في طريقه أيضاً ليغدو مستودعاً قيمياً خاصاً به، نُصباً هائلاً لا يدانيه نصب آخر في عالم الأدب منذ ثيربانتس أو شكسبير أو تولستوي، وهو ما أدركه خلال نشر **مئة عام من العزلة**، تلك الرواية التي عبّرت العالم في عيون كل الذين قرأوها داخل أميركا اللاتينية، وعيون عدد كبير منهم خارجها. لقد أخذ غارسيا ماركيز يعي شيئاً فشيئاً أنه هو الأورّة الذهبية، وإن "نوبة الشهرة" التي أحاطت به كانت عمله، ومعدنه، حتى لم تعد مهماً ما يفعله بصرف النظر عن خططه واستراتيجياته ومناوراته: لقد دخل روح العصر، بل سما فوقها وتجاوزها نحو السرمدية. يمكن للتسويق أن يعمل عمله في الهوامش ليزداد أو لينقص، لكن سحره مستقل استقلالاً ذاتياً. وسيزداد الضغط عليه زيادة كبيرة كي يحول دون أن تتحول حياته إلى احتفاء مستمر بحياته، وإلى ذكرى سعيدة واحدة وطويلة. كيف يمكنه الهروب من هذه المتاهة؟ وهل يريد الهروب بعد اليوم؟

في الحادي عشر من أيلول، زار غارسيا ماركيز بيل كلنتون لتناول الغداء معه في البيت الأبيض. كان كلنتون قد قرأ من قبل رواية **خبر اختطاف** وهي مخطوطة، لكن غارسيا ماركيز أهداه الآن طبعة إنكليزية بغلاف من الجلد "كي لا تؤذي كثيراً". (سبق أن أرسل كلنتون رسالة إلى غارسيا ماركيز عندما أرسل إليه الناشر

نسخة المخطوطة من الكتاب، "قرأت ليلة أمس كتابك من البداية إلى النهاية" وأراد أحد ناشري غارسيا ماركيز استخدام هذا المديح المغالى فيه، والذي لا يقدر بثمن على غلاف الكتاب عندما نشر في نهاية المطاف، فردّ عليه غارسيا ماركيز قائلاً: "نعم، إنني متأكد أنه سيوافق، لكنه لن يكتب إليّ رسالة أخرى بعد اليوم"). وتحدث الرجلان في الوضع السياسي الكولومبي خاصة، وفي مشكلة إنتاج المخدرات في أمريكا اللاتينية، واستهلاكها في الولايات المتحدة عموماً[9].

لكن سامبر بقي لا يتزحزح عن موقفه. وكان غارسيا ماركيز قد التقى قبل الاحتفال في واشنطن السياسي الصاعد خوان مانويل، من أسرة سانتوس، لمناقشة الوضع الكولومبي الذي لا يزال يتدهور. وكان سانتوس قد صرّح أنه سيرشح نفسه عن الحزب الليبرالي لخوض الانتخابات الرئاسية المقبلة في سنة 1997. لا أحد يعرف إن كان ثنان يتآمران معاً أو منفصلين لإسقاط سامبر إلاّ هذان الاثنان اللذان طرحا بالرغم من ذلك "خطة السلام" - وقد قال سانتوس، وهو تحت ضغط عنيف، إن الفكرة هي فكرة غارسيا ماركيز نفسه "لا بد لنا من عمل شيء جري‏ء، لا بد من دفع الجميع للكلام كي نشارك في الهزيمة، لأننا كلنا نخسر هذه الحرب"، وهي خطة تنطوي على مفاوضات بين جميع قطاعات المجتمع الكولومبي باستثناء حكومة سامبر، إلا أن سانتوس أنكر أنه كان يسعى لإسقاط الحكومة بعد أن افتضح أمر الخطة في الأسبوع الثاني من تشرين الأول. وسافر هو وغارسيا ماركيز جواً إلى إسبانيا - سافر غارسيا ماركيز مباشرة من واشنطن إلى مدريد - للتباحث مع رئيس الوزراء السابق فيليب غونثاليث (وهذا تشامخ على رئيس الوزراء اليميني الجديد خوسيه ماريا آثنار). لكن فيليب غونثاليث أجهز على المبادرة بقوله إنه لن يدعمها إلا إذا وافق سامبر على المفاوضات وأيدتها الولايات المتحدة وغيرها من القوى.

في كانون الثاني سنة 1998، قام البابا يوحنا بولس الثاني، المريض والمحور، بزيارته التي طال الإعلان عنها إلى كوبا كاسترو، وكانت نتيجة مفاوضات شاقة ومجهدة. (سبق أن أكد لي غارسيا ماركيز في سنة 1997 أن البابا "رجل عظيم" ويتعين عليّ أن أكتب سيرته)، واتبع فيدل أسلوبه في إظهار كوبا على أنها قادرة



على المرونة، في الوقت نفسه الذي تحفظ فيه على مبادئها - الثورية - وسمح بإعادة الاحتفال بذكرى الميلاد، وأعرب عن استعداده للتفاوض مع القوة العظمى على الأرض ومن سيجلس إلى حوار كسترو في أثناء الاحتفالات التي تشتمل عليها الزيارة سوى غارسيا ماركيز؟ بالرغم من أن البابا معروف بتاريخه الطويل والناجح في النشاط ضد الشيوعية إلا أنه كان معروفاً أيضاً بمعاداته للرأسمالية من أوجه كثيرة، وأنه ضد مظاهر الانحلال في المجتمعات الاستهلاكية الجديدة التي جعلت زيارته تبدو مخاطرة يستحق أن يقوم بها. لسوء حظ كوبا وكاسترو أن الحدث الذي كان يمكنه أن يمنح كوبا قدراً كبيراً من الدعاية المؤيدة لها، ليس أقلها في الولايات المتحدة، أطاحت به عن شاشات التلفزيون العالمية قضية فضيحة بيل كلنتون مع مونيكا لوينسكي المتدربة في البيت الأبيض. وكانت الكارثة مزدوجة: كارثة زيارة البابا لم تؤثر تأثيراً قوياً في العالم كما كان يُراد لها، وكارثة أيضاً لأن كلنتون، وهو صديق غارسيا ماركيز، سيضعف كثيراً من الناحية السياسية على أثر الفضيحة والتحركات التي أعقبتها لاتهامه بالتقصير. واضطر إلى أن يبقى جالساً طوال ما تبقى من مدته الرئاسية لا حول له ولا قوة تماماً مثلما كان حال سامبر. المفارقات لا يرقى إليها شك.

قرر غارسيا ماركيز عدم الرجوع إلى كولومبيا في الجولة الأولى من الانتخابات في شهر أيار، لكنه أرسل رسالة متلفزة من بيته في مدينة مكسيكو موضحاً السبب الذي يدفعه لدعم المرشح للمرة الثانية أندريس باسترانا المحافظ ("الخوص مع أندرياس"). غارسيا ماركيز يدعم محافظاً؟ ما الذي في وسع العقيد ماركيز أن يقوله! ونظر أفراد أسرته الباقون على قيد الحياة إلى هذه الإشارة منه نظرة استهجان وذهول. لكن، لقد تردد أن باسترانا قريب من الكوبيين في ميامي، ولعل غارسيا ماركيز فكّر في أنه بهذه الوسيلة، وبوسائل أخرى، قد يساعد في موضوع الوضع الكوبي. ولقاء ذلك، كان يفترض بغارسيا ماركيز أن يمد يد العون في موضوع التربية، وهي الشغل الشاغل الرسمي عند باسترانا بعد موضوع اهتمامه الأول المتمثل بعملية السلام مع رجال حرب العصابات.

انتقدت الصحافة الليبرالية غارسيا ماركيز انتقاداً عنيفاً، وإن على مضض. فقد كتب دارتايان في صحيفة ليمبو مقالة الغرض منها أن تكون مرثية لغارسيا ماركيز



الذي تدخل في الشؤون السياسية الكولومبية حتى هذه اللحظة. لكنه يبدو الآن وقد مضى نحمه. أما مدى التأثير الذي قد يحدثه في إدارة باسترانا فهو أمر مشكوك فيه. ولم يُشاهد لا هو ولا أندرياس وهما "يجاهدان" سواء معاً أو كلاً على انفراد[10] حاول غارسيا ماركيز الواضح إعادة كوبا مرة أخرى إلى منظمة الدول الأميركية بعد غيابها عنها منذ أربعة وثلاثين عاماً. لكن القرار صوتت ضده الولايات المتحدة، وهو أمر متوقع تماماً، مما أحرج باسترانا مقدماً - بل ربما ارتاح كثير له - وكان معروفاً أن استراتيجية غارسيا ماركيز لبقاء أندرياس في الحكم، قد قضي عليها قبل حتى أن تبدأ، وهو يفسر بلا شك السبب الذي يجعله لا يظهر إلا اهتماماً قليلاً بالشؤون الكولومبية على مدى السنوات الأربع التالية بالرغم من وعوده بالالتزام. لم يكن كلنتون مهتماً بتطوير العلاقات مع كوبا بل "بعملية السلام" التي بادر بها باسترانا وما تنطوي عليه من وعد بوضع نهاية لتجارة المخدرات. وفي الخريف قدم رئيس صندوق التنمية للدول الأميركية، وهو من الزوار الذين يعدون عالماً على منزل غارسيا ماركيز في مدينة مكسيكو، قرضاً هائلاً إلى كولمبيا لإحلال "السلام من خلال التنمية"[11]. وفي السنوات الأربع التالية، وفي خضم كل الأحداث المثيرة محلياً وعالمياً، يُضحي باسترانا واحداً من أكثر الضيوف الذين يحظون بأكبر تقدير في واشنطن. ففي السابع والعشرين من تشرين الأول قام بأول زيارة رسمية يقوم بها رئيس جمهورية في كولومبيا منذ ثلاثة وعشرين عاماً إلى الولايات المتحدة مع غارسيا ماركيز، وكان محاطاً أيضاً بمجموعة منتقاة من "الإسبان" و"اللاتينيين" الأميركيين، ومعظمهم من الموسيقيين والممثلين[12]. لقد كان من شأن مثل هذا الاحتفال أن يكون مكافأة لباسترانا على موافقته الأولى على "خطة كولومبيا" التي أعلنها كلنتون والمتمثلة بسياسة مناهضة للهدم والتخريب تذكرنا باستراتيجيات الحرب الباردة، وهو الموضوع الذي لم ينوه عنه غارسيا ماركيز بأي تعليق واضح في هذا الوقت. وإن كان قد أربكه إرباكاً شديداً.

بعد أن حُرم غارسيا ماركيز من فترة عرضه التلفزيوني بحلول أواخر العام 1997[13]، اتخذ قراراً على الفور بشراء مجلة كامبيو المرخصة أصلاً لمجلة كامبيو 16 الإسبانية ذات التأثير واسع الانتشار إبان حقبة التحول الأساسي في ثمانينيات القرن



العشرين كانت مجلة كامبيو ("التغيير" التي تبين أن اسمها مأخوذ من شعار أندريس باسترانا الوحيد خلال حملته الانتخابية) في حالة منافسة مباشرة مع مجلة سيمانا وهي أكبر المجلات السياسية الأسبوعية تأثيراً في كولومبيا وكانت المنافسة بينهما تشبه المنافسة بين مجلتي تايم ونيوزويك. وتناهى إلى مسامع غارسيا ماركيز أن باتريثيا لارا، وهي صديقة وزميلة وفية لشقيقه إلخيو، كانت على استعداد لبيع المجلة، فقرر هو وماريا ألفيرا سامبير، المدير السابق لكاب، وموريثيو غارثيا، وهو ابن خيرمان فارغس (عضو سابق في حكومة غافيريا عرف عنه نقده لسامبير) وروبيرتو بومبو، وهو صحافي من مجلة سيمانا، وغيرهم أن يتقدموا بعرض شراء (وهو عرض اشتمل على ميرثيديس أيضاً). وبحلول ذكرى الميلاد، أبرمت الصفقة، وأصبح اسم الشركة الجديد هو أبريبوشيو أس. أي، على اسم الطبيب في رواية **الحب وشياطين أخرى**. وبنهاية كانون الثاني بدأ غارسيا ماركيز بتأليف مقالات ذات عناوين طويلة - أساساً عن شخصيات ذات أسماء كبيرة كاسمه (تشافيز وكلنتون وديسلي كلارك وخافيير سولانا) - كي يعزز المبيعات. وفي السنة التالية تحدث إليه لاري روهتر من صحيفة نيويورك تايمز، ودوّن في ملاحظاته أن "غارسيا ماركيز سهر في الليلة التي أقامت فيها مجلة كامبيو أواخر كانون الثاني 1999 احتفالاً بإعادة مولد مجلة، حتى منتصف الليل محيّياً ألفي ضيف مدعوّ. ثم عاد إلى مكتبه وظل يعمل طوال الليل في كتابة مقالة طويلة عن الرئيس الفنزويلي الجديد هوغو تشافيز أنهاها بطلوع الشمس قبل الموعد النهائي. وقال والفرحة تملأ صوته: "لقد أقدمت على مثل هذا العمل قبل أربعين سنة، وهو عمل مدهش"[14].

كان عدد المجلة الخاص بتشافيز مفاجأة. فالعقيد هوغو تشافيز هو الجندي الذي حاول الإطاحة بكارلوس أندريس بيريث صديق غارسيا ماركيز، لكنه كان أيضاً الرجل الذي جاء، بعد تسلمه السلطة في فنزويلا، لإنقاذ كوبا كاسترو في الألفية الجديدة، وأبعد كاسترو عن الغرق ببيع النفط رخيص الثمن. كما أنه كان "بوليفارياً" يطالب باستقلال أمريكا اللاتينية ووحدتها. وكان يعمل من وراء الكواليس لمساعدة كوبا وتوحيد أمريكا اللاتينية، فقد كان متوقعاً أن يحظى تشافيز بدعمه التام وإن كان خفياً. غير أن غارسيا ماركيز ظل بارد الهمة إزاء تشافيز لأنه

(أي غارسيا ماركيز) كان قد توصل إلى تسوية علاقاته مع باسترانا وكلينتون، على حين كان عداء تشافيز لأميركا دائماً وساوراً. كان غارسيا ماركيز قد التقى تشافيز في هافانا في كانون الثاني سنة 1999 وسافر جواً إلى فنزويلا معه وهو في طريق عودته إلى المكسيك. ثم كتب بعد ذلك مقالة طويلة نشرت في جميع أنحاء العالم – حصل من خلالها على أموال طائلة لمجلة كامبيو – وأصبح واسع التأثير. وانتهت المقالة:

> هبطت طائرتنا في كاراكاس عند الساعة الثالثة فجراً. نظرت من خلال النافذة صوب تلك المدينة التي يتعذّر نسيانها وهي في بحر من الأضواء. استأذن الرئيس بالانصراف بعد معانقة كاريبية. وفيما أنا أشاهده يبتعد محاطاً بحراسه الذين تعلو النياشين والأوسمة صدورهم راودني شعور غريب، وهو أنني سافرت وتحدثت إلى رجلين مختلفين تماماً. كان الأول رجلاً منحت حظوظه الطيبة العنيدة الفرصة لإنقاذ بلاده، وكان الثاني رجلاً مخادعاً يمكن أن يدخل التاريخ بوصفه مستبداً آخر[15].

كان غارسيا ماركيز في كوبا مع كاسترو وخوسيه ساراماغو الفائز بجائزة نوبل، الذي ظل شيوعياً وثورياً يجهر بثوريته، بالاحتفال بالذكرى الأربعين للثورة الكوبية. وقرأ فيدل وهو يضع نظارة على عينيه خطاباً قال فيه إن العالم في عصر الرأسمالية متعددة الجنسيات (أقطاب الصناعات والأعمال) والرأسمالية الاستهلاكية (مستهلكيهم) بات اليوم "كازينو عملاقاً"، وستكون السنوات الأربعون المقبلة حاسمة ويمكن أن تأخذ أحد هذين المسارين، وهذا يعتمد على إدراك الشعوب في أن الأمل الوحيد لكوكب الأرض في العيش إنما يتمثل بإنهاء النظام الرأسمالي"[16]. من يعلم ما الذي كان يدور في ذهن غارسيا ماركيز وهو يسمع هذا الكلام؟ لكن عينيه بدتا مثل عيني رجل مريض، مرتبكتين، بعيدتين، غير أنه بالرغم من هذا كله، بذل جهداً هائلاً في محاولة لزيادة مبيعات كامبيو المخيبة للآمال. وكتب مقالة انتشرت انتشاراً أوسع من تلك المقالة التي كتبها عن تشافيز بعنوان "لماذا اضطر صديقي بيل إلى الكذب" أثارت هلع الإناث في جميع أنحاء العالم، لأنها بدلاً من أن تركز على الجوانب المسيئة في مؤامرة الجمهوريين لاتهام كلينتون، عاممته على أنه ليس سوى رجل مثله مثل أي رجل يبحث عن مغامرات جنسية – وهو ما يبحث عنه كل الرجال – ويحاول أن يخفيها عن زوجته وعن أي شخص آخر.



أصغى غارسيا ماركيز إلى فيدل في هافانا وهو يدعو لوضع حد لرأسمالية التي كانت، بحسب تعبيره، تدخل المراحل الأخيرة من تدميرها لكوكب الأرض. لكنه عند رجوعه إلى أوروبا في السنة الأخيرة من القرن العشرين ليواجه التزامات أخرى، ومماطلة المشاهير لكتابة مقالاته لصحيفة كامبيو، أضحى منهمكاً في منظمة جديدة، هي خليط غريب من المثقفين والأقطاب، تدعى فورو إيبيرو أمريكا هدفها الظاهر التفكير في مشكلات تنمية العالم "خارج نطاق المحنة". ونظمت اليونسكو وإنتر أميركان ديفلوبمنت بانك والحكومة الإسبانية الجديدة في مدريد ما يشبه اللقاء التمهيدي، وكان اللقاء إلى حدٍّ ما استمراراً لعرض غارسيا ماركيز ساراماغو. وأعلن غارسيا ماركيز في كلمته القصيرة أن الأمريكيين اللاتينيين عاشوا مصيراً غير حظيٍ: "وانتهى الأمر بنا إلى مختبر أوهام فاشلة. فضيلتنا الوحيدة هي أننا مبدعون، لكن بالرغم من ذلك، لم نفعل ما هو أكثر من العيش وسط معتقدات حامية وحروب غريبة، نحن ورثة كريستوفر كولومبوس سيّئ الطالع الذي عثر علينا مصادفة في أثناء بحثه عن الهند الشرقية. ثم نوّه ببوليفار بوصفه رمز الإخفاق، وكرر ما سبق أن ذكره في خطاب نوبل: "لنسجم انسجاماً هادئاً مع عصورنا الوسطى". ثم قرأ إحدى قصصه الجديدة: "إلى اللقاء في آب"، وهي قصة عن الغناء لا تناسب مثل هذا منتدى[17]. واقترح ساراماغو وهو يؤدي الدور الذي يؤديه غارسيا ماركيز أن "يصبح كل فرد في العالم خلاسياً"، وعندئذٍ لا تكون ثمة ضرورة للحديث عن الثقافة.

بعد بضعة أسابيع يعود غارسيا ماركيز إلى بوغوتا لحضور اكتساب كارلوس فوينس وخيسوس دي بولانكو، مالك صحيفة الباييس، عضوية الشرف في معهد كارو كيرفو للفيلولوجيا في كولومبيا. وجلس على المنصة وبدا أكبر سناً من أي وقت مضى، لكنه لم ينبس بكلمة. وكما هي الحال في سنة 1992، فقد وجد أن ارتفاع بوغوتا عن مستوى سطح البحر سبب له مستوىً معيناً من الإرهاق لم يعهده من قبل في أوروبا. ثم تهاوى على الأرض، وتوارى عن الأنظار لبضعة أسابيع، على حين أنكرت ميرثيديس شائعات راجت عن إصابته بالسرطان، وطلبت من الصحافة أن "تتريث" برهة من الزمن. في البدء وردت أنباء عن أنه مصاب

بمرض نادر غريب يدعى "عارض الإرهاق العام"، ولكن الجميع خشوا مما هو أسوأ وفي النهاية أظهر التشخيص أنه مصاب بالورم اللمفاوي، أو سرطان جهاز المناعة.

ها هو يداهمه المرض مرة أخرى في بوغوتا، وها هي بوغوتا تشخّص مرة أخرى مرضه. ونظراً إلى خطورة التشخيص، فقد سافر هذه المرة إلى لوس أنجلوس، حيث يقطن ابنه، لاستشارة أطباء آخرين. إنه ورم لمفاوي. وقررت الأسرة أن يكون علاجه في مدينة لوس أنجلوس، فاستأجر غارسيا ماركيز شقة في بادئ الأمر، ثم منزلاً من طابق واحد في الأرض المحيطة بمبنى المستشفى. كانت أنواع جديدة من علاج مرض الورم اللمفاوي تظهر باستمرار، وكانت إمكانيات الشفاء تختلف اختلافاً جذرياً عما كانت عليه الحال عندما اضطر ألفارو سيبيدا إلى مواجهة تحدٍّ مماثل في نيويورك. واستدعى غارسيا ماركيز ومرثيديس ابنة سيبيدا باتريشيا، وهي مترجمة تجريبية وفورية سبق لها أن مدت لهما يد العون في زيارات سابقة إلى الولايات المتحدة، وأشهرها اللقاءات التي جرت مع بيل كلنتون. كانت باتريشيا متزوجة بجون أوليري، أحد مرافقي كلنتون ومحام زميل سبق له أن عمل سفيراً في تشيلي. وبعد العلاج والتحاليل التي أعقبته، كان غارسيا ماركيز، كما قال لي، يضطر "إلى الذهاب إلى الطبيب شهرياً كي أتأكد إن كنت سأعيش أو سأموت". لكن التقارير كانت جيدة في كل شهر، وبحلول فصل الخريف، عاد إلى مدينة مكسيكو وظل يسافر إلى لوس أنجلوس لإجراء فحوصات طبيّة شهرية.

في أواخر تشرين الثاني سنة 1999، سافرت جواً إلى مدينة مكسيكو لزيارة غارسيا ماركيز. كان نحيل العود على نحو لم أره فيه من قبل، قصير الشعر. لكنه كان مفعماً بالحيوية والنشاط. وفكّرت مرة أخرى في أنه ظل يردّد طوال حياته أنه يخشى الموت. لكنه بالرغم من ذلك، ظهر كأنه واحد من المناضلين الكبار عند تقلبات الدهر. وكان اللقاء بيننا مشحوناً عاطفياً لأنه كان على علم بأني أصبت قبل أربعة أعوام بمرض الورم اللمفاوي وبقيت على قيد الحياة[18]. وأخبرني أنه لم يفعل شيئاً طوال شهور، لكنه أخذ الآن يراجع ملاحظاته التي كتبها بشأن مذكراته، وقرأ عليّ قصة ولادته. أظهرت مرثيديس هدوءاً وإصراراً، لكني لاحظت أن الجهد الذي يبذله غارسيا ماركيز يستنزف قواها. ومع هذا، فقد واجهت الموقف

وكانت تحيط بروجها على نحو اعتيادي، بما في ذلك عدم الانزعاج البتة من زواره عوشالو وأطفاله، وتصرف الحد كما كان يتصرف دوماً.

كان غارسيا ماركيز قد أخبر جون لي أندرسون من مجلة ذا نيويوركر، أن "خطة كولومبيا" التي اتفق عليها كلنتون وباسترانا لا يمكن أن تنجح"، وأن الولايات المتحدة الأميركية بدت وهي تتراجع إلى "نموذج إمبريالي"[19]. وفي شهر أيلول، هدد برفع دعوى قضائية ضد وكالة أخبار إي أف إي ومقاضاتها بعشرة ملايين دولار لنشرها خبراً مفاده أنه "ساعد في مفاوضات مع الولايات المتحدة لتقديم الدعم العسكري لكولومبيا"[20]. يُحتمل أن هذا هو أسلوبه للإشارة إلى انفصاله عملياً عن باسترانا وكلنتون و"خطتهما" القاتلة[21]. وقال لي: "أما بخصوص كولومبيا، فأعتقد أني بدأت أعتاد عليها وأظن أن كل ما عليك فعله هو القبول بذلك. الأمور تسير نحو الأحسن في هذه اللحظة بالذات، وحتى الميليشيات أدركت أن الأوضاع لا يمكن أن تستمر. لكن البلد سيظل كما هو دائماً. فقد شهد على الدوام حروباً أهلية، ورجال حرب العصابات، وسيظل يشهدها أيضاً. إنه أسلوب حياة هناك. خذ سوكري على سبيل المثال. رجال العصابات يسكنون في منازل هناك، لكن الجميع يعرفون أنهم رجال حرب عصابات. الكولومبيون يأتون لزيارتي هنا أو في بوغوتا فيقولون لي: *نحن من منظمة القوات المسلحة الثورية الكولومبية*. ما رأيك بفنجان قهوة؟ شيء طبيعي". إنني أقول هذا لأعني أنه أخذ في نهاية المطاف يبتعد عن الجهود المبذولة لتحويل البلد الذي يتعذر إصلاحه بوساطة النشاط السياسي المباشر، مصراً على عدم التنويه بالإدراك الخفي بأن وضع شهرته في أيدي المحافظين السياسيين - في هذه الحالة باسترانا والجمهوريون والأميركيون الذين ساقوا كلنتون رهينة سياسية - يمثل خطوة بعيدة أكثر مما ينبغي، وهو ما قاله له معظم أفراد أسرته وعدد كبير من أصدقائه. لقد وفّر المرض، ويا للمفارقة، غطاءً لتراجع خفي عن هذه التحالفات غير السارة. ربما حان الوقت للعودة إلى مذكراته.

كتب مقالات متفرقة وظل على اتصال بصحيفة كامبيو وبالمؤسسة الصحافية بكارتاخينا، لكنه بقي في معظم الأحيان في مدينة مكسيكو، مبتعداً عن الأضواء، وركز على تماثله للشفاء، وعلى زياراته لمدينة لوس أنجلوس، حيث استطاع هو



وميرثيديس أن يمضيا معظم الوقت برفقة رودريغو وأسرته. وطوّر غابو وميرثيديس علاقة وثيقة بروبيرتو بومبو الصحافي والمستشار في مجلة كامبيو الذي انضم إلى أسرة جريدة التيمبو، وهو الآن أرسل للعمل في مدينة مكسيكو، وسيغدو كأنه الابن الثالث لغارسيا ماركيز وميرثيديس على مدى عقد من الزمن. ويكتب غارسيا ماركيز مقالات للمجلة تنحو منحى السيرة الذاتية باستمرار، إضافة إلى مقابلة مع شاكيرا، ويخصّص له ركن بعنوان "غابو يجيب"، يكتب فيه مقالة مستوحاة من أسئلة القراء. وتظل المجلة تعلن عن هذه المقالات كما توفر موقعاً ثابتاً لأولئك الذين يودون الاطلاع على النسخة الخاصة بالإنترنت.

لكن شاغله الرئيس سيبقى بطبيعة الحال مذكراته. وبقي يمزح عالياً بأن الأشخاص الذين يبدؤون بتأليف مذكراتهم، يكونون قد تقدموا في السن إلى الحدّ الذي لا يستطيعون فيه تذكر أي شيء. لكنه لم يذكر أن بعض الناس وافتهم المنية حتى قبل أن يبدأوا بكتابتها. لقد أصبح هدفه الأساس إكمال مذكراته التي تعرف اليوم بعنوان **عشتُ لأروي**. لعله تذكر عمله نوبيمار قرب نهاية كتابة **الجنرال في متاهته**: "لقد هزّه إيحاء غامر بأن السبق الطائش بين بلاياه وأحلامه، قد وصل في هذه اللحظة إلى خط النهاية، وما تبقى فهو ظلام. ثم تنهد وقال: "اللعنة! كيف سأخرج من هذه المتاهة؟".

حاول أن ينأى بنفسه عن السياسة، لكن مجلة كامبيو كانت تعيده إليها مرة أخرى. كانت المجلة تميل في غيابه إلى اليمين، لكنه كان هو نفسه يميل هذا الميل، كما قد يقول الصحافيون الشباب. كان تشافيز يزداد قوة على قوة، زعيماً شعبوياً للعالم الثالث، لكن غارسيا ماركيز أحجم قائلاً: "يستحيل أن تتحدث معه". الواضح أن كاسترو لم يوافق على هذا الرأي ما دام قد التقى تشافيز وتحدثا طويلاً. ولما واجهته بهذا الكلام قال: "إن كاسترو يحاول أن يكبح تطرفه". يقول تشافيز في أواخر سنة 2002 إن غارسيا ماركيز لم يتصل به منذ لقائهما في مطلع العام 1999، وإنه يأسف لهذا. لما كان تشافيز لا يختلف اختلافاً كبيراً عن عمر توريخوس رئيس جمهورية بانما – في ما عدا أن تشافيز كان أقوى منه بسبب ما يملكه من نفط، ولأنه انتخب انتخاباً ديمقراطياً – يبدو أن غارسيا ماركيز نظر إليه؛ على الأرجح

خارج نطاق القضايا الشخصية (بما فيها صداقته مع كارلوس أندرياس بيريث وتيودورو بيتكوف)، على أنه مدفع مطلق لا يباس إلى حدٍّ كبير لمرحلة الجديدة والدبلوماسية من وراء الكواليس التي عمل هو نفسه فيها طوال العقد الماضي من الزمن.

ومن أمثلة ذلك، خبر أذيع في تشرين الثاني سنة 2000 مفاده أن الصناعي المكسيكي لوريتو ثامبرانو - من مدينة مونتري - ومالك الإسمنت المكسيكي المعروف بالاسم سيميكس، قرر أن يتبرع بمبلغ قيمته مئة ألف دولار كجوائز تُمنح للفائزين في مسابقات تنظمها مؤسسة الصحافة الإيبرو - أميركية الجديدة في كارثاخينا[22] وبعد مرور أسابيع، أُعلن عن أن العملاق الإعلامي، مؤسسة تيليفيسا، ستشارك مع مجلة كامبيو لإصدار طبعة مكسيكية من المجلة، يتولى إدارتها روبيرتو بومبو. كان هذا هو عالم غارسيا ماركيز الراهن وتزامن تنصيب الرئيس المكسيكي اليميني الجديد بيثنتي فوكس مع اجتماع فورو إيبرو أميركا الذي لم يشتمل هذه المرة على غارسيا ماركيز وكارلوس فوينتس بوصفهما من المثقفين المقيمين وحسب، بل على فيليب غونثاليث رئيس إسبانيا السابق أيضاً، وكل من خيسوس دي بولانكو مالك مجلة البايس، والمصرفية العالمية آنا بوتين، وكارلوس سليم، وهو أغنى رجل في المكسيك قُدِّر له أن يصبح أغنى رجل في العالم لمدة من الزمن في أواسط العام 2007، وأن يرتبط بصداقة شخصية مع غارسيا ماركيز، وخوليو ماريو سانتو دومينغو أغنى رجل في كولومبيا ارتبط أيضاً بصداقة المانحين الأسخياء لمؤسسة كارثاخينا. لكن مما هو غير واضح أن يكون غارسيا ماركيز، بوصفه مدير مؤسسة الصحافة المستقلة، قد اضطر إلى منادمة رأسماليين احتكاريين يملكون صحفاً كبيرة ومحطات تلفزيونية من بين ما يملكون من أسهم أخرى كثيرة. كما أن هذا الموضوع، لم ينوه به أحد أمامه علناً ورفض غارسيا ماركيز أيضاً إبداء أي ملاحظة للصحف، لكنه ذكر أنه لا يملك أي فكرة عما يعمله هو أو أي شخص آخر في المنتدى إلى أن سمع كلمة كارلوس فوينتس الرائعة، التي أوضح فيها أهمية التفاعل بين عالم الأعمال وعالم الأفكار! أما بالنسبة إلى المكسيك، فلم تكن لديه أي فكرة عما يجري فيها. وأدخل سروراً أكبر في نفوس الصحافيين عندما قال

إنه ليس الآن سوى "روح ميرثيديس"، كما فسّره البعض على أنه إقرار منه باعتماده الجديد عليها وامتنانه لأسلوبها في النظر إليه طوال محاولته السابقة والمستمرة[23]. لقد استعاد معظم شعر رأسه وخمسة عشر كيلو غراماً من العشرين كيلو غراماً التي فقدها، بالرغم من أن المراقبين لماسوا فائتين إنه لم يستعد فطنته الحادة وقدراته السامة في التعبير. ربما ساعد العلاج الكيميائي على عملية فقدان الذاكرة، وهو ما كان يشكو منه منذ بضع سنوات.

لقد أحس غارسيا ماركيز ضيعاً بمغادرته كولومبيا. فقد خطفت عناصر من منظمة القوات المسلحة الثورية الكولومبية صديقه القديم غييرمو أنغولو عندما كان في طريقه إلى منزله الريفي خارج العاصمة بوغوتا. ولكن، قد أطلق سراحه بعد مرور بضعة أشهر وكان في العقد السابع من عمره. وأخبرني أنه واثق من أن غارسيا ماركيز كان له فضل في إخلاء سبيله الذي يعد حدثاً استثنائياً، إذ بقي معظم رهائن هذه المنظمة سنوات طويلة مثل المرشحة لرئاسة الجمهورية أنغريد بيتانكورت[24]. وبحلول أواخر سنة 2000، كان هناك إجماع كبير على أن أندريس باسترانا ربما كان أضعف رئيس جمهورية كولومبي في حقبة ما بعد سنة 1948. وعندما أرسلت بعض الشخصيات البارزة مثل إيريك هوبزباوم، وأرنستو ساباتو، وإنريكي سانتوس كالديرون رسالة إلى باسترانا وجورج دبليو. بوش مؤرخة بتاريخ شباط 2001 يطالبون بمشاركة الأمم المتحدة والمجموعة الأوروبية في أي نشاط كولومبي أميركي في كولومبيا. وكان اسم غارسيا ماركيز مرفقاً في الرسالة[25]. مرة أخرى، يؤشر غارسيا ماركيز معارضته "خطة كولومبيا" مما يعني حرق مراكبه، لا مع باسترانا وحسب، بل مع غافيريا الذي كان يدعمها.

في شهر آذار قاد الزعيم ماركوس رجاله غير المسلحين من حركة زاباتيستا ودخل مدينة مكسيكو كما وعد منذ زمن طويل. فتخلص غارسيا ماركيز من تقاعده برهة وجيزة بمساعدة روبيرتو بومبو وأجرى مقابلة لمجلة كامبيو. كان رجال هذه الحركة قد جذبوا إليهم تعاطف الجناح اليساري والدعم من جميع أنحاء العالم، بمن فيهم عدد كبير من المهاجرين السياسيين والمثقفين المشهورين والشخصيات الفنية. ولم تكن هذه المنظمة من المنظمات التي لدى غارسيا ماركيز من الوقت ما



يهـــدره عليها. بل بدا صمّه عن معاناة الجماهير، ليس أقلهم الفلاحين المهجرين في كولومبــيا الـــذين وجدوا أنفسهم في عالم كابوسي بين رجال حرب العصابات والميليشيات وملاك الأراضي والشرطة والجيش، يُحيِّر كل من يراقب نشاطاته على مـــدى الأعـــوام التي تلت سنة 1980. لكن هذا الرجل ليس هو من يصدر بيانات سياســية تُسرُّ من أجل إراحة ضميره، بل كان إنساناً واقعياً وملتزماً التزاماً سياسياً شـــديداً، يفعل ما يعتقد أنه ضروري ولا يعمل - ما يؤكده النقاد - ما يعتقد أنه سيزيد من شعبيته.

في حـــين كان غارسيا ماركيز يصارع السرطان، كان شقيقه الأصغر يخوض معاركه الخاصة به. فقد كان، شأن غابيتو، يكافح لإكمال كتابه في أعقاب مفاتيح ميلكيادس: قصة مئة عام من العزلة، على حين كان يعاني من ورم مزمن في دماغه، ولم يكـــن قـــادراً علـــى الانتهاء من تأليف الكتاب كما كان يريد، لكنه قرر هو وأسرته وأصدقاؤه وجوب صدور الكتاب قبل وفاته. وعندما نشر في شهر أيار كان إليخـــيو مقعداً في كرسي ذي عجلات، نادراً ما يستطيع الكلام. إنه آخر فرد من ســـلالة بويندايا، وستوافيه المنية بعد أن يمكث مغاليق وثيمة أسلاف أسرته، تماماً كما توقع على نحو غريب في رواية مئة عام من العزلة (كان كوكي هو أول من يقضي نحـــبه من بين إخوته وأخواته في تشرين الأول سنة 1998) وعندما شيعت جنازة إليخيو في أواخر حزيران، لم يجد غارسيا ماركيز لديه من القوة ما يمكنه من السفر لحضور الجنازة.

في الحادي عشر من أيلول انقضّت طائرتان مدنيتان يقودهما جهاديو القاعدة عـــلى مبنى مركز التجارة الدولي في نيويورك ودمرتهما، فتغيرت السياسة الدولية تغـــيراً مثيراً وعجلت من السير في طريق الحرب الذي كان جورج دبليو. بوش قد صمم على سلوكه، وإن لم يكن ما حدث هو السيناريو الذي كان يتصوره بوش. كـــان غارسيا ماركيز قد زار مؤخراً كوبا لرؤية كاسترو والذي راجت شائعات مفادها أن صحته تتدهور. بعد مرور أسبوعين على الأهوال في نيويورك، وبعد ثلاثة أسابيع على إطلاق سراح غييرمو أنغولو، في الرابع والعشرين من أيلول سنة 2001، اختطف رجال لقوات المسلحة الثورية الكولومبية كونسويلو أراوخو نوغيرا غيري،

وزيرة الثقافة الكولومبية السابقة وزوجة المدعي العام في الجمهورية، وذلك قرب مدينة بايدوبار، وبعد أسبوع واحد تقريباً عُثر على جثتها في الثلاثين من أيلول، ويبدو أنها قتلت بسبب نيران متقاطعة. كانت معروفة في جميع أنحاء البلاد بالاسم "لاكاتشا ("الرئيس")، ومن أكبر الدعاة إلى الرفع من شأن بايدوبار ومهرجان أغاني الفاليناتو فيها، وكانت صديقة غارسيا ماركيز وألفارو سيبيدا ورافائيل إيسكالونا (وهي التي كتبت سيرته) وداسال سامبر (حتى نشب الخلاف بينهما بسبب سيرة للعربية كتبها) وألفونسو لوبيث ميتشيلسين. وكان بيل كلنتون قد لتقاها وكتب عنها في مذكراته. كانت آخر امرأة يمكن أن يخيل لأي مرئ أنها ستلقي مصرعها على يد أولئك الذين يزعمون أنهم المدافعون عن الشعب الكولومبي وثقافته.

حلول شهر كانون الثاني سنة 2002، اتضح أن غارسيا ماركيز مُقدمٌ على عمل ما. كان قد بدأ يعود تدريجاً إلى الحياة العامة، ولاحظ الذين التقوه أنه بات أكثر تردداً، مرتبكاً في بعض الأحيان، مفتقراً إلى الذاكرة، إلاّ أنه يبدو بخير فهو يقترب من سن الخامسة والسبعين، لذا، فإنه في هذه السن وبالتزاماته المتواصلة إذ لا يزال يسهم في الكتابة لمجلة كامبيو والعمل في مؤسسته الصحفية يكون قد شفي شفاءً مذهلاً مما يشير مرة أخرى إلى حيويته الاستثنائية. بعد هذا الكلام، فإن التأخير في إصدار مذكراته يدل على أنه لم يعد يعمل بصورة فعالة كما في السابق. وحلول أواخر شهر تموز أرسل نسخة أولى من المخطوطة إلى مونيس، إلا أن شيئاً ما أخّر تقدمه مما جعله يستدعي ابنه غونثالو والكاتب الكولومبي ولـم أوسبينا لمراجعة الحقائق وملء الفجوات في ذاكرته الضعيفة. لقد كان يضع اللمسات الأخيرة على كتابه عندما توفيت أمه لويسا سانتياغا ماركيز إغواران في كارتاخينا ولها من العمر ستة وتسعون عاماً وكان زوجها واثنان من أولادها قد رافقتهم المنية قبلها. مرة أخرى، يخفق غابيتو في حضور الجنازة[26].

وفي السابع من آب، نُصّب ألفارو أوريبي، الليبرالي المرتد، رئيساً لجمهورية كولومبيا بلائحة انتخابية مناهضة لرجال العصابات. وفي يوم التنصيب، أطلق عليه رجال منظمة القوات المسلحة الثورية الكولومبية الصواريخ، وكانوا متهمين باغتيال أبيه من قبل. مرة أخرى خسر الانتخابات هوراثيو سيربا المرشح الليبرالي وخادم



أرستو سامبر المخلص وشعرت البلاد بالفرح وهي تشاهد باسترانا يرحل، لكنها بـــدت وهي تتحمل مخاطرة كبرى بوجود أوريبـــي. فهو أحد ملاّك الأراضي من بلـــدة أنتيوكيا، تربطه شائعات بقوات الميليشيات. لكنه بالرغم من هذا، سيحكم الـــبلاد بصـــورة استثنائية غريبة، بأسلوب شعوي تسلطي في الوقت نفسه، مما أبقى تقديـــره، وبا للغرابة، عالياً تقريباً لقد ترك اصحابه في كولومبيا، في حقبة تنافير، ولـــولا في الـــبرازيل، وموراليس في بوليفار، ولاغوس وباتشيليت في تشيلي، وآل كيرتـــشنر في الأرجـــنتين، البلاد تحت الحكومة اليمينية الوحيدة المهمة في أميرك الجنوبية؛ بالرغم من أن الكولومبيين اعتادوا أن يكونوا غير متحاسبين في حصواتهم. وقد أضحى أوريبـــي حليفاً وثيقاً جورج دبليو. بوش ومؤيداً له.

اقتـــرب الـــوقت أخـــيراً لنشر المذكرات التي تغطي المدة الزمنية من ولادة غارســـيا ماركـــز إلى ســـنة 1955. وفي اللحظة الأخيرة تغير عنوان الكتاب من Vivir Para Contra o إلى Vivir Para Contrala أي مـــن صيغة المذكر إلى صيغة المؤنث، أي من "Living to tell "it والمقصود العيش كي يروي فعل الحياة نفسه، إلى "Living to Tell "it أي الحـــياة. أما عنوان الترجمة الإنكليزية للكتاب فقد أضاف، كمـــا هو معهود، بعداً رومانسياً إذ كان Living to Tell the Tale بمعنى معايشة مغامـــرات كـــثيرة، ومـــن ثم سردها من دون التخطيط لذلك مقدماً، ولا لتكون المعايـــشة أســـلوباً في الحياة[27]. وللصيغة الإنكليزية أيضاً وجهة نظر أخرى فقد تأخرت هذه المذكرات بسبب قصة مثيرة، هي قصة غارسيا ماركيز المثيرة في صراعه ضد الموت، وضد السرطان وانتصاره الطولي. وقد أدرك الجميع هذا وأولهم قراؤه

لقـــد ظل غارسيا ماركيز يتحدث عن مذكراته منذ نشر روايته العظيمة عن ماكوندو، وينبغي لهذا أن يكون قد منح قراءه مفتاحاً لأعمق مغامراته بوصفه أديباً. فالعـــودة إلى الماضي هو كل ما أراده، الكتابة عن نفسه هو كل ما رغب فيه. لقد أراد نرسيـــسوس* العودة إلى وجهه الأصلي، لكن وجهه الصنع في الزمن، الضائع في كـــل الأزمنة، كان كثير التحولات ولم تظل على صورة واحدة، فحتى لو وجد ذلـــك الـــوجه الأصلي - الخالد، الموحي - لرآه مختلفاً في كل مرة يظهر له فيه. ولكن هذا هو ما أراده. ففي العام 1967، سمعه الناس يتكلم عن مذكرات، ولا بد



من أنهم ظنوا أن هذا الإنسان لم يعش طويلاً بعد. لكن نرسيسوس عاش دائماً عمراً طويلاً يكفي لأن يحمله يريد أن يرى إن كان وجهه لا يزال هو الوجه نفسه. لكن إن لم تخبره أمه قط إن وجهه كان وسيماً لقضي الكتاب ببحث لويسا سانتياغا عن ولدها المفقود في ماراكيا في سنة 1950، فيحيلنا إلى ذكريات مثيرة للحزن والألم عن رحلة أخرى كانت قد قامت بها قبل ذلك بست عشرة سنة.

طلبت مني أمي أن أذهب معها لبيع البيت. كانت قد وصلت في ذلك الصباح من بلدة بعيدة حيث تعيش الأسرة، ولم تكن تملك فكرة عن كيفية العثور عليّ... وصلت عند الساعة الثانية عشرة تماماً. حطت خطوات رشيقة لتجد طريقها وسط ماصد صفت عليها كتب معروضة، وتوقفت أمامي، تنظر في عيني بابتسامة ماكرة من ابتسامات أفضل أيامها. وقبل أن أتمكن من إبداء أي رد فعل قالت:

- أنا أمك.

هكذا يبدأ غارسيا ماركيز وهو في سن الخامسة والسبعين قصة حياته بمشهد تكون فيه أمه، مرة أخرى، خائفة من ألا يعرف من هي، فتضطر إلى أن تعرّفه إلى نفسها. يزعم غارسيا ماركيز أن ذلك اللقاء الجديد - وهو موضوع المذكرات الرئيس - حدث في "اليوم الذي ولدت فيه حقاً، اليوم الذي أصبحت فيه كاتباً"[28]. إنه اليوم الذي استرجع فيه أمه، وسافرا معاً عائدين إلى البيت للعودة إلى البداية.

كان غارسيا ماركيز قد بدأ يقول شيئاً مدهشاً عن مذكراته للصحفيين منذ سنة 1981: إن غارسيا ماركيز يتحدث عن مذكراته التي يأمل أن يكتبها قريباً، وستكون فعلاً "مذكرات كاذبة لأنها تتحدث عمّا كانت عليه حياته، لا كيف يمكن أن تكون، بل عما يعتقده هو نفسه كيف كانت"[29]. وبعد واحد وعشرين عاماً يقول الكلام نفسه. ماذا تعني؟ حسناً، لديه الآن عبارة في صدر الكتاب توضح المعنى: "الحياة ليست ما عاشه أحدنا، بل هي ما يتذكره وكيف يتذكره ليرويه".

تبين أن كتاب **عشت لأروي** هو أطول كتبه، وكما هي الحال مع بقية كتبه، نجده ينقسم - وإن ليس انقساماً تاماً - إلى نصفين، لكن الدليل الثنائي الذي خلق له مشكلات خطيرة يتمثل بأن كلا النصفين ينتهيان نهاية هي الأقل إثارة



للاهتمام - به، ولسوء الحظ له أيضاً - تخص بلاد الكاتشاكو أولاً، القسم الخاص بشباكيرا (1943-1946) وثانياً، بوغوتا وصحيفة الاسبكتادور (1954-1955).

بالرغم من أن الجزء الأكبر من الكتابة غير عادي، لكن لا بد من الاعتراف أنها كتابة تحقيق رغبة: فهي تخفي كل ما هو مؤذٍ (وهو أمر مدهش في ضوء الطريقة التي بدأ بها). ثمة ملاحظات قارصة أحياناً عن أبيه، لا لشيء إلا لشخصيته التي حُل عليها، وليس لأن غابيتو نفسه يشعر بأي عداء، أو أن لديه مشاعر أوديبية أو وجهة نظر شاملة لا يزال يصوغها جانب ماركيز إغواران من الأسرة. على العموم، الكتاب يواصل الإحساس بالمصالحة - وصنع السلام - الذي بدأ في رواية **الحب في زمن الكوليرا**. ويحرص المؤلف على أن يرسل - أحياناً فقرة واحدة، وأحياناً سطراً واحداً - عبارات تقدير إلى جميع أصدقائه وزوجاتهم أو أراملهم. ولا يحتوي الكتاب على صداقات حميمية أو اعترافات، بل يشتمل على حياته العامة وحياته "الكاذبة" المبتدعة، لكنه لا يحتوي على قدر كبير من حياته "الخاصة"، ويحتوي على قدر ضئيل جداً من حياته "السرية".

الموضوع الرئيس في الكتاب هو الراوي الذي يتحول إلى كاتب من خلال شعور باطني متنامٍ تتعذر مقاومته، وتجربة حياتية غير اعتيادية ومتميزة. (ولا يتحول، على سبيل المثال، الراوي إلى كاتب يطور في الوقت نفسه وعياً سياسياً جاداً ومعقداً يرود ما يكتبه بالمعلومات ويصوغها). المفارقة التي يبدو أنه لم يدركها (مع فراغه من تأليف الكتاب، يكون قد فقد شيئاً من وعيه الحاد الذي كان يملكه) هي أن الكتاب - وحياته - تشكله وتسيطر عليه الفترة الزمنية التي تسبق وعيه بمهنته، وعلى وجه التحديد، بالحقبة الزمنية التي سبقت تعلمه القراءة والكتابة، لعل غارسيا ماركيز غير مرتاح لجنس السيرة الذاتية نفسه. فهو منبسط بوصفه كاتباً، يكتب قصصاً تصريحية وغير حقيقية في الوقت نفسه. لكنه عندما يقص قصة حياته تكون حاجته النفسانية إلى الإخفاء أكثر من حاجته إلى الكشف. إضافة إلى ذلك، يمكن أن يكون الادّعاء في المذكرات بمعرفة ما ليس لك به علم وبالاً وهو الحرين الذي يستمد منه روح الفكاهة في **مئة عام من العزلة** على سبيل المثال - لتأكيد الحقائق التي هي أصلاً متناقضة. كما أن العلاقة المسجلة لأسلوب غارسيا ماركيز - العلو

والطباق والمختصر المفيد والإراحة – تثير إشكاليات أكبر في السيرة الذاتية. فعندما يكـــون كل شيء قد قيل ونُفذ، لا تبقى أمامنا سوى مفارقة غارسيا ماركيز نفسه الذي كشف عن نفسه تماماً في رواية **خريف البطريرك** التي يصعب ولوجها، وتراه الآن يخفيها كلياً في **عشت لأروي** الشفافة على ما يبدو!

من الواضح، في أقل الاعتبارات، أن غارسيا ماركيز أمسى مهووساً بمذكراته، لا بسبب زهوه الذي يُنسب إليه، بل بسبب أن المذكرات هي أفضل وسيلة لمحاربة شهرته وعدائه، وذلك بأن يحبك بنفسه قصته، ورواياته عن حياته وشخصيته. لكن بالـــرغم مـــن الـــوعد الـــذي تشي به الصفحات الأولى، إلا أن هذا ليس كتاب اعترافات.

في الـــثامن مـــن تشرين الأول سنة 2002، نشرت **عشت لأروي** في مدينة مكـــسيكو بتهليل عجيب ومبيعات مقلماً للكتاب. لقد عاد الساحر مرة أخرى. عاد، حقاً هذه المرة، من بين الأموات.

* * *

لقـــد نجـــا غارسيا ماركيز من الموت بأعجوبة كبيرة. فهو لم يتحمل علاج السرطان عقلياً وجسدياً وحسب، بل أكمل الجزء الأول من مذكراته. لقد عاش حقاً ليروي الحكاية – وترك عن نفسه صورة رضي هو شخصياً بها وعلم أيضاً أنها ستظل باقية. إن الطفل الصغير على غلاف الكتاب وهو يُمسك بقطعة بسكويت أصـــبحى اليوم رجلاً في الخامسة والسبعين. ويا لها من حياة تلك التي عاشها. لقد أخذته الحياة على مدى كل تلك الأعوام ليرحل وسط المتاهة التي لا بد لنا جميعاً من أن نسبر أغوارها، وهي متاهة من صنع العالم ومن صنع إدراكنا لها. لقد قرر غارسيا ماركيـــز وهو ينظر إلى الوراء أنه وُلد ليتذكر القصص، وعاش زمناً طويلاً جداً كي يحكي قصة وجود كما عاشه بنفسه. إن الطفل القلق الذي اختار غارسيا ماركيز أن يتركه على ذلك الغلاف باحثاً عن أمه، انتظر كل تلك السنين ليروي للعالم كيف وجدها حقاً مرة أخرى على أرض الواقع، واستعادها مدى الحياة، وكيف أنه ولد مرة أخرى كاتباً بعد ذلك، فانطلق على الدرب الذي سيجعله صاحب رؤية يفتن العـــالم. وفي اللحظـــة نفسها التي بدأ فيها الدفعة الأخيرة لإكمال كتابه، إنما هي

نفسها، ويا للمأساة، فقدت ذاكرتها، وإنها في اللحظة التي كان يضع اللمسات الأخيرة على كتاب هو كتابها بالدرجة الرئيسة مثلما هو كتابه، فارقت الحياة التي كان يلوها بنفسه

إن القسم الأول من المذكرات الذي تعترف فيه أمه عليه (وليس العكس)، وبحيرة من تكون، وبعيده معها إلى المنزل الذي ولد فيه. المنزل الذي تركته وهو ينمو فيه ويترعرع من طفل إلى صبي، تمثل مقتطفات أدبية مختارة، وعملاً رائعاً من أعمال السيرة الذاتية الإبداعية بكل المقاييس، وقصة يرويها كاتب كلاسيكي عظيم من كتاب الأدب الحديث. إنها قبل كل شيء القصة التي أراد أن يرويها، وحيا بريق كل القصص الأخرى عندما رفعها أمام الألوان الزاهية لتلك الرحلة، وأمام العواطف التي كانت سبباً في روايتها. أما بقية الكتاب، فقراءته تبعث على العطلة إذ يتحدث غارسيا ماركيز، أخيراً، مباشرة عن حياته وأوقاته المدهشة. لكن ما من شيء فيها يماثل ذلك الانتصار الباهر الذي تقدمه الصفحات الخمسون الأولى. ومن المؤكد أن هذا الكتاب سيخيّب، من دون الكتب الأخرى، توقعات قرائه. لكن ما إن يكيفوا أنفسهم مع حقيقة أن السير الذاتية - حتى وإن كانت سيرة دانية من سحرة الأدب - قلما تكون ساحرة سحر الروايات، فإن معظمهم سيجدون الكتاب مرضياً ومقبولاً، وأنهم راغبون في قراءته مرة أخرى، وإن كانت تجربة القراءة تشبه تجربة الاستحمام بحمام دافئ ومريح يزيل متاعب الحياة وآلامها في أثناء التقدم في السن بمثل هذه السرعة.

في غضون ثلاثة أسابيع بيعت مليون نسخة من الكتاب في أمريكا اللاتينية وحدها ولم يحدث من قبل أن بيع أي كتاب من كتبه بمثل هذه السرعة. وفي الرابع من تشرين الثاني أخذ غارسيا ماركيز نسخة من الكتاب إلى الرئيس فوكس في قصر لوس بينوس في مدينة مكسيكو واستطاع الرئيس الغروريي بشاهير أن يحصل على نسخة وأرسل تحاياه ولوح به أمام عدسات التصوير في أثناء كلمته الأسبوعية التلفزيونية حاثاً المسؤولين على قراءته. وفي الثامن عشر من الشهر نفسه، حط ملك وملكة إسبانيا في مدينة مكسيكو في زيارة رسمية. وكان أمراً طبيعياً أن يخصصوا وقتاً لرؤية غارسيا ماركيز ربما أهداهما نسخة



وفي شهر كانون الأول، سافر غارسيا ماركيز مرة أخرى إلى هافانا لحضور المهرجان السينمائي، والتقى هناك فيدل وبيري وأصدقاءه الآخرين. ولما قفل راجعاً من المهرجان في كانون الثاني، أعطى مقابلة هي الأخيرة، كما سيتبيّن لاحقاً، في بيته في مدينة مكسيكو، وفي الحديقة، وفي مكتبته بحضور المصور الأميركي كاليب باخ. وكانت سكرتيرته مونيكا ألونسو غاراي حاضرة، وقالت إن لرئيسها ذاكرة مدهشة، لكن لاحظ أنها كانت غالباً ما تتدخل بالإجابة عن الأسئلة بالإنابة عنه. تحدث غارسيا ماركيز إلى باخ عن صورته وهو طفل صغير، وهي الصورة التي اختارها غلافاً لكتابه عشت لأروي، وكان مسروراً من النتيجة. وقال إن لديه حفيداً له من العمر سبعة وعشرون سنة يدعى كارليتوس. وكشف عن سر - بعد أن نسي أنه سبق له أن أقسم على عدم البوح به - يخص ما قاله له صديقه الطبيب الإسباني (لويس فيودنتني) في برشلونة في سبعينيات القرن العشرين، فترك التدخين في اليوم نفسه: إنه يسبب ضعف الذاكرة عند الشيخوخة...[30].

في آذار سنة 2003 غزت الولايات المتحدة وبريطانيا عراق صدام حسين من دون موافقة الأمم المتحدة بذريعة أن العراق يملك أسلحة دمار شامل (وهو ما كان يملكه العراق حقاً، وتبين أن العراق لا يملك شيئاً منها) وأنه يؤيد متشددي القاعدة (وهذا غير صحيح، لكنه أصبح يأويهم بعد الغزو). يقول البعض إن الحادي عشر من أيلول هو الذي غيّر العالم إلى الأبد، لكن آخرين قالوا إن رد فعل الولايات المتحدة لحدث الحادي عشر من أيلول، والتي كان غزو العراق أبعدها مدىً وتأثيراً، غيّر العالم أكثر بكثير، ولكن ليس على النحو الذي كان يريده الغزاة، بل على النحو الذي كان يريده مدبرو حدث الحادي عشر من أيلول. إنه صدمة ورعب للعراقيين، ذهول وعدم تصديق بقية العالم ليس أقلهم غارسيا ماركيز. ونقل موقع بي بي سي الأميركي اللاتيني مقالة عن تحديات تغطية الحرب بعنوان عشت كي لا أروي، وفتحت الولايات المتحدة معسكر اعتقال جديداً في خليج غوانتانامو الكوبي، وهي المنطقة التي كانت قد احتلتها مثل احتلالها قناة باناما، منذ مطلع القرن العشرين. واعتقل ثلاثمئة متشدد يُنسبون إلى القاعدة في أفغانستان والباكستان ووضعوا في الحبس طوال سنين، وربما عُذّبوا من دون أي شكل من أشكال المحاكمة

في تلك الجزيرة التي تصر الولايات المتحدة على أن حكومة كاسترو سجوناً سُجن فيها معارضوه منذ سنوات، وربما عُذّبوا من دون أي شكل من أشكال المحاكمة. وقالت إن لا وجود لحقوق الإنسان في جزيرة كوبا. لغة مناقضة لأهداف دعائية. واتضح أن حكومة بوش لديها خطة رسمية لغزو كوبا تنفذها حال الانتهاء من كوريا الشمالية والعراق وإيران: "محور الشر".

في التاسع عشر من تموز نشرت صحيفة الباييس صورة رجل عجوز في مدينة مكسيكو، وقد كُتبت تحته عبارة "غارسيا ماركيز لا يسمح أن يراه أحد: لقد بات من النادر رؤية غارسيا ماركيز في أي مكان عام"[31]. وفي المناسبات التي كان يظهر فيها كان يرفض الحديث أياً كان للصحافة. الحق أن ما كانت الباييس تعنيه هو: هل ألمّ خطب بغارسيا ماركيز؟ لماذا يتوارى بعيداً؟ أهو مريض؟ ماذا يرفض الحديث؟ أتراه يفقد ذاكرته؟ هل انتهى؟

في غضون ذلك نشرت المذكرات بالإنكليزية وبالفرنسية، وبالغلاف نفسه. الصور العائلية نفسها في الشهرة المحيطة به. ولم تنل النجاح الذي نالته في العالم المتحدث بالإنكليزية، وإن أقل منه بكثير في فرنسا. وتزامناً مع صدورها، نظم نادي القلم في نيويورك احتفالاً خاصاً بغارسيا ماركيز في الخامس من تشرين الثاني سنة 2003، وفي ضوء تقاليد النادي المتمثلة بحماية حرية الكلام وحقوق الإنسان بالنسبة إلى المؤلفين، فإن القرار مدهش إذا ما أخذ في الاعتبار الهجوم الذي كان يشنه الأميركيون وغيرهم ضد غارسيا ماركيز بسبب ارتباطاته بكوبا في مطلع السنة. وكان من بين منظمي الاحتفال الرئيسيين روز ستايرون، التي لم تكن صديقة للرئيس السابق كلينتون الذي ظهر على شاشات التلفزيون - وحسب، بل كانت في حفلة عشاء خرافية بالكاميلوت التي أقامها ستايرن والمتقمين الرئيس كينيدي وجاكي في مطلع ستينيات القرن العشرين[32]. وحضر عدد كبير من أبرز الأدباء والمشاهير والشخصيات في نيويورك. ولكن لا بد من أن بعضهم قد خاب كثيراً عندما أخفق غارسيا ماركيز في المجيء حتى إلى هذا الاحتفال. لم يكن على ما يرام تماماً. هذا صحيح. لكنه كان خائب الأمل تماماً بالتطورات في مجتمع الولايات المتحدة وسياسة الولايات المتحدة في كل من كولوميا والشرق الأوسط إبان مدة

رئاسة جورج دبليو بوش. وأرسل رسالة إلى المختصين لم تكن مفتقرة إلى الدبلوماسية – وإلى العرفان – وحسب، بل كانت واحدة من أشد التصريحات التشاؤمية التي تصرح بها هذه الشخصية التي لا تلين، إذ قال إن الوقت ليس وقت احتفالات. لكن بالرغم من ذلك، فقد أضحت رواية مئة عام من العزلة في كانون الثاني سنة 2004 "كتاب أوبرا"، وقد أوصى به برنامج أوبرا التلفزيوني الذي يحظى بإقبال منقطع النظير في الولايات المتحدة. وقفز الكتاب من تسلسله بالرقم 3116 إلى الرقم 1 في لائحة المبيعات[33].

شعر غارسيا ماركيز أنه غير قادر على تجاهل التزاماته الكبيرة على المدى البعيد والتي كان قد قبل بها في المكسيك وقد التزم بمعظمها، لكنه لا يزال لا يعلن عن أي تصريحات للصحافة. فقد كان يحضر وحسب، كأنه ساحر عجوز أبيض الشعر، عطوف، ويجلس في المكان المخصص له على المنصة أو يسلم جائزة. وبقي يحضر اجتماعات مجلة كامبيو التي كانت تعقد في المكسيك، في حين كان روبيرتو بومبيو يتولى العناية به مثلما كانت كارمن بالسيلس تعتني به في إسبانيا وبياتريث سيبيدا في الولايات المتحدة.

كان يأمل أن يكون أكثر حيوية ومعاصرة. واستبدل هو ومرثيديس شقتهما الباريسية بشقة أخرى مؤخراً، كما تركا الشقة الصغيرة في شارع مونسلاس واشتريا شقة أكبر في شارع دوبك، وهو من أكثر الشوارع المرغوب فيها في باريس، ويقع تحت شقة تاتشيا مباشرة. وهكذا، أصبح يملك الآن شقة تمنحها على نحو غريب من الوفاء لحب سيّئ الطالع أضحى في ما بعد ضرباً من صداقة صعبة وغير مريحة. وكانت فرص زيارته الشقة الجديدة ضئيلة جداً، لكن ابنه غونثالو وأفراد عائلته انتقلوا إليها لبعض الوقت عندما رحلوا عن المكسيك إلى باريس سنة 2003 (إذ رغب غونثالو في دراسة الرسم مرة أخرى).

كان غارسيا ماركيز قد وضع للمذكرات جانباً، لكنه كان يخطط لرواية بعنوان **ذاكرة غانياتي الحزينات** (التي ظهرت بالإنكليزية بعنوان **ذكريات غانياتي الحزينات** (Memories of My Melancholy Whores)) منذ سنين طويلة، في الأقل منذ ربع قرن من الزمان. وعندما التقيته في هافانا سنة 1997، كان هو هذا الكتاب الذي



يفكّر فيه حالياً، ولما تحدثنا بعد مرور سنة تبين أنه قطع شوطاً في الكتاب. لكن من الأرجح كثيراً أنه أكمل نسخة أولى منه قبل نشر كتاب عشت لأروي بزمن طويل، وأنه أدخل تعديلات قليلة، لكن مهمة، بين خريفي 2002 و2004 وهو زمن صدوره أخيراً. لقد كانت فكرة الكتاب الأولى هي أن يكون قصة قصيرة طويلة، وهو ليس أكثر من رواية قصيرة، لكن أُعلن عنه كونه رواية، وبيع على هذا الأساس.

في شهر تشرين الأول، وفي حين كانت أميركا اللاتينية كلها تنتظر الكتاب، عاد غارسيا ماركيز إلى كولومبيا، وأظهرته الصور في الصحف وهو يسير في شوارع كارتاخينا وقد بدا عليه الشرود والارتباك برفقة ميرثيديس وشقيقه خايمي الذي يعمل حالياً في مؤسسة الصحافة، ومارغريتا زوجة خايمي، ومدير المؤسسة منذ زمن طويل خايمي ابيلو. وتوقع الكثيرون أن غارسيا ماركيز لن يرجع إلى كولومبيا مرة أخرى أبداً. كانوا مرتبكين. ومع هذا، فإن الساحر العجوز لم يظهر على ما يرام.

عندما ظهرت الرواية الجديدة أخيراً، اضطرب معظم قرائه تماماً. الرواية مروية بأسلوب بسيط، وهي تحكي عن رجل يوشك أن يحتفل بذكرى ميلاده التسعين، ويقرر أن يمضي ليلة ماجنة برفقة مراهقة عذراء، ويدفع المال لسيدة ماخور اعتاد أن يزوره كي ترتب ليلته. وبالرغم من أنه لم يمض بكارة الفتاة، إلا أنه أصبح مهووساً بها، ويغرم بها تدريجياً، ويقرر أن يترك لها كل ممتلكاته. ويقدم الرجل نفسه على أنه إنسان عادي، بائع صحف أعزب، لم يفعل ما يثير الاهتمام في حياته كلها إلى أن يجد الحب للمرة الأولى عندما يبلغ التسعين من عمره. مما بعث على الدهشة، أن هذه الرواية هي الرواية الوحيدة التي كتبها غارسيا ماركيز وتدور أحداثها في بارانكيا، وإن لم تكن البلدة تحمل أي اسم في الرواية.

يبدو مرجحاً أن هذه الرواية تبدأ بعنوانها المثير بدلاً من الصورة التي عادة ما تكون مصدر إلهام روايات غارسيا ماركيز. وقد التصق العنوان بوعي غارسيا ماركيز وانتظر على مدى سنين فرصة أن يتحول إلى رواية. لكن العنوان مشكلة بالرغم من ذلك، فهو من جهة يصدم (ويحتمل أنه أراد ذلك)، فكلمة Puta في



غانية، ذات لمسة أدبية أكثر من كلمة Prostituta أي زانية، كما أن كلمة زانية أقل حيادية وتوحي بازدراء أشد. وقد رفضت بعض محطات الإذاعة والتلفزيون في كولومبيا السماح لمذيعها بنطق كلمة غانية. ثانياً، ليس للعنوان أي صلة من أي نوع كان بمحتوى الكتاب: فالرواية نفسها تؤكد أن ما لسيبا هو "قصة حب" وأن "الغانية" الوحيدة التي يعاشرها الراوي لها من العمر أربعة عشر عاماً فيصبح مهووساً بها، ويبدو أنه لم تكن له سابقاً أي علاقة جنسية من أي نوع، مدفوعة الأجر أم غير مدفوعة. وبقدر ما يتعلق الأمر بالاستنتاج، فإنها ليست "حزينة" (كما أنها ليست يقظة، إن وصل الأمر إلى ذلك). إن العنوان يصبح مفهوماً أفضل بوصفه بيتاً مكتوباً يجسد خيالاً شعرياً متميزاً عرف بما وراء عصا شاعر العصر الذهبي الإسباني المدهش لويس دي غونغورا (1561-1627)، وهي التي تفصل أثر الكلمات التي تأتي معاً. ولو كان البيت من عنده لأمكن القارئ أن يفككه إلى "ذكرياتي الحزينة عن الغواني أو حزيناً أتذكر الغانيات". لكن هذا كله لا يحل المشكلة الخاصة بالجمع: فالعاهرتان الوحيدتان في جسد الرواية الأساس هما ديلغاديا، وهي الفتاة التي أتينا على ذكرها، وروسا كاباركس مديرة الماخور (إلا إذا كان العنوان - وهذا بالغ الأهمية كما سنرى - ينطوي على إشارة صغيرة في القصة إلى مومس سابقة تدعى كلوتيلدا آرمينتا، والأكثر تحديداً، إشارة في سطرين إلى مديرة ماخور أخرى تدعى كاستورينا في نهاية الكتاب). لو كان غارسيا ماركيز في أتم صحة وعافية لأمّن حيرة قرائه. فهو يُترك هنا (لعل القارئ المقصود هو المعني بالضمير من) وقد ساوره الانطباع بأنه مخدوع بعنوان يشير إلى كتاب من الأدب المكشوف، بالرغم من أن عدداً كبيراً من القراء قد يفكّرون في أن هذا الكتاب مكشوف إلى حدٍّ كافٍ.

لقد اعترف غارسيا ماركيز دوماً أنه استمد روح الكتاب من كتاب بيت الجميلات النائمات لياسوناري كاواباتا الذي يدور حول مؤسسة يقصدها كبار السن من الرجال، ليستلقوا بجانب مومسات أعطيت لهن مخدرات ولا يسمح لهؤلاء الرجال بلمسهن[34]. (وتصدير كتاب غارسيا ماركيز مأخوذ عن هذه الرواية). لكن يمكن أن يكون تأثير هذا الاعتراف لإخفاء حقيقة أن العلاقات الجنسية بين رجال ناضجين ومراهقات يفتقرن إلى التجربة هو الموضوع المتكرر في كتاب غارسيا ماركيز.



هناك ظاهرتان اجتماعيتان تلتقيان معاً ولكنهما تفترقان تحليلياً، الأولى هي الحادثية التي يشعر بها الرجال نحو المرأة بوصفها "فتاة"، وبوصفها المراهقة التي لم تبلغ من العمر حداً (كما هي الحال مع ريميديوس في **مئة عام من العزلة**، على سبيل المثال)، أو فضا بلمسته، كي تمارس الحب. (عموماً، إن شخصية الدون جوان المعروفة، تفضل إغواء لإناث الكبيرات في السن ليس أقلهن أولئك اللواتي يرجعن إلى رجال آخرين متزوجات أو مخطوبات). أما الظاهرة الثانية فهي الهوس بالعذرية، ففي **قصة موت معلن** نجد أن العذرية أو عارض الشرف والعار المرتبط بها يشكلان النقطة المركزية في الحدث الدرامي. لكن البطلة الأنثى آنخيلا فيكاريو ليست مراهقة. لكن في رواية **الحب في زمن الكوليرا** نلاحظ أن فلورنتينو أريثا، وهو في العقد السابع من عمره ويستطيع أن يحتفظ بعطف معظم القراء وميلهم إليه، يمارس الحب مع قريبته القاصر ذات الأربعة عشر عاماً أميركا فكونيا (التي تبتدئ اسمها وكنيتها بالحرفين نفسيهما اللذين يبتدئ بهما اسم أنخيلا فيكاريو) وإن كان - والحق يقال - أنه كانت له علاقة جنسية مع كل امرأة يمكن تخيلها.

إن أشهر قصة عن هذا الموضوع في الأدب كله هي قصة لوليتا لنابوكوف، ذلك الكتاب المثير للجدل. لكن ما سبب انتشار هذا الموضوع في أدب أميركا اللاتينية؟ (إذ ليس الهوس بتلميذات المدارس محصوراً برجال أميركا اللاتينية) إنه يستخدم غالباً في الرواية الأميركية اللاتينية بوصفه رمزاً لاكتشاف القارة وفتحها، بوصفه الاستيلاء على ممتلكات مجهولة غير معروفة، وبوصفه رغبة في التجدد، في كل شيء لم يُستغل ويُطور. لكن قد يفسر لنا هذا القوة الواضحة للحافز عند الرجال الأميركيين اللاتينيين أنفسهم خارج حدود أي خيال أدبي. هناك احتمال مفاده أن الفتيات الشابات يتعرضن للإغواء والاغتصاب أو البيع دائماً على أيدي رجال أكبر سناً وأكثر ثراءً وأشد قوة في جميع الثقافات، لكن المراهقين في أميركا اللاتينية يقيمون أولى علاقاتهم الجنسية مع نساء أكبر سناً منهم، خادمة أو مومس عادةً، ويظل العديد منهم يحنّون إلى أول تجربة مع مراهقة بريئة وغير متعلمة ولم يحصلوا عليها عندما كانوا هم أنفسهم مراهقين أبرياء غير متعلمين. إن موضوع روميو وجولييت ليس موضوعاً شائعاً في أدب أميركا اللاتينية أو حتى في مجتمع أميركا اللاتينية نفسه[35].



قرر غارسيا ماركيز أن يتزوج امرأته عندما كان في التاسعة من عمره (أو الحادية عشرة، أو الثالثة عشرة، فالسن متفاوتة). الواضح إنه يجد نوعاً من المتعة المفارقة أو المنحرفة عندما يؤكد أنها ليست إلا في التاسعة (وهو ما تحده موثيديس أيضاً). لكن ربما لم يكن الدافع الحقيقي مفارقة أو انحرافاً؛ ربما رغب في حجز نفسه مقدماً، أي الاحتفاظ بها، نقية، غير ملوثة، له وحده ودائماً. (كان دائماً سعيداً كي يترك بياتريس من دون أن يلوثها هو نفسه).

عندما ناقش غارسيا ماركيز هذه الرواية للمرة الأولى معي، كان قد بلغ السبعين. لكن ماريا خيميا دوتان - صديقة غارسيا ماركيز التي أصبحت صحافية وهي مراهقة - تتذكره وهو يخبرها عن هذا المشروع في باريس عندما كان في الخمسين[36]. وفي الوقت الذي نشر فيه الكتاب اقترب من الثمانين، وبطله في التسعين. ومما هو فريد في الأدب الحديث، أن هذا الروائي المدهش كان يكتب عن أناس كبار في السن مذ كان في ريعان الشباب. وكلما تقدم به العمر كتب أكثر عن جاذبية فتيات في ريعان الصبا. ربما ليس مما يبعث على الدهشة أن صبياً كان جدّاه على درجة بالغة من الأهمية عنده، يصبح مهووساً بتناقضات الشباب والشيخوخة (وتلك مادة قصص الحوريات). هناك فارق مدهش بين غلاف كتاب **عشت لأروي** الذي طُبعت عليه صورة غارسيا ماركيز البالغ من العمر سنة وحلة بالحبر البني الداكن المستعمل في كل الطبعات في جميع أنحاء العالم، والطبعة الإسبانية كتاب **ذاكرة غانياتي الحزينات** الذي تمثل صورة غلافه رجلاً عجوزاً يرتدي ثياباً بيضاء وهو يستعد، ربما ليخرج عن خشبة المسرح، ربما إلى المطمة الكامنة وراءها: كأنه يولي ظهره للحياة للمرة الأخيرة (بالرغم من أن الرواية نفسها تتحدى مثل هذا التفسير). يستحيل عدم التفكير في العدد الكبير من العقداء المتقاعدين الذين يظهرون على امتداد السنوات في رواية غارسيا ماركيز، لكن الصورة تبدو شبيهة بغارسيا ماركيز شبهاً غريباً: نحيل العود، حليق الشعر، واهن القوى، يتفحص تلك الرواية قبل تسليمها إلى المطبعة. أما إذا كان هناك أحد قد خطط هذا الفارق كله، فهو ما لا نعرفه.

بما أن الرواية مكتوبة بضمير المتكلم، فإنها تمتلك خاصية ستعلاقها، وهي خاصية غريبة عن معظم روايات غارسيا ماركيز، إذ ليس مفارقة - وهي المسافة



بين الراوي والشخصية – تدفعنا باتجاه نقد البطل أو تفسيره تفسيراً يمكن الاعتماد عليه. فعندما يكتب الراوي – ولنسمه بكنيته موستيو كولادو، لأننا لن نعرف اسمه الحقيقـــي – في الصفحة الأولى أنه قرر في ذكرى ميلاده التسعين أن يمنح نفسه ليلة حـــب مجنون مع عذراء مراهقة، يبدو وكأننا لا نعرف كيف يكون رد فعلنا لهذا. وعندما يتحدث عن أخلاقياته وبقاء مبادئه، فإننا لا ندري هل نحكم عليه من حيث موقفنا نحن اليوم، أم نبدأ بقبول كون مجتمعه (ماراتكيا في خمسينيات القرن العشرين) لا يوجد من التناقض ما يجعل مثله من الطبقة الوسطى يتكلم بهذه الطريقة.

لم يمارس كولادو الحب من دون أن يدفع الثمن، وهو لا يحب التعقيدات ولا الالتـــزامات. الفتاة التي اقتيدت به في سن الرابعة عشرة، أصغر منه بست وسبعين ســـنة، كانـــت من الطبقة العاملة، يتيمة الأب، مريضة الأم، ويبدو أنه ليس لديها إخوان أكبر منها، ذات بشرة داكنة، لكنتها لكنة الطبقة العاملة، أو تشتغل في معمل أقمـــشة. يتمنى كولادو أن يفكّر فيها على أنها حبيبة في الخيال، دمية حية، ولكن غائبـــة عـــن الوعي. يدعوها بالاسم ديلغاديا، وهو اسم غريب إلى حدّ ما، لأن قصيدة البالاد الإسبانية الشعبية التي تحمل هذا الاسم تحكي قصة ملك منحرف، لا يرحم، يتمنى لو ينتهك عرض ابنته نكدة الحظ. لكن كولادو لا يدرك المفارقة. وفي صباح أحد الأيام، تترك له الفتاة رسالة تثبتها على المرآة في غرفة تدفقهما: "إلى بابا القبيح"[37]. فلا يتمنى معرفة اسمها الحقيقي (بل ولا حتى حقيقة نفسها).

أخـــيراً، وبعد سلسلة من الأحداث الميلودرامية التي توجهها رغبات العجوز وفانتازياته، يقرر أنه يحب الفتاة حقاً ويوصي لها في وصيته بجميع ممتلكاته ولكنه لا توافـــيه المنية في ذكرى ميلاده الحادية والتسعين كما كان يخشى، بل نراه يخرج في صباح اليوم التالي إلى الشـــارع وهو يشعر بالبهجة والثقة بأنه سيعيش حتى يبلغ المئة عـــام. (لا بد من أن القارئ يفكّر في أن أفضل شيء للفتاة هو أن يقضي نحبه على الفور). "كانت حياة واقعية في نهاية المطاف، ظل فؤادي فيها آمناً ومحكوماً عليه أن يمـــوت بالحب السعيد (لا الحب المجنون) وهو يتعذب عذاباً فسحاً في أي يوم يعقب ذكرى ميلادي المئة". لكن الشاب هو الذي يموت من أجل الحب في كتب غارسيا ماركيز: الحب يُبقي كبار السن على قيد الحياة.



حقاً، ثمة قراءتان محكمتان أحريان لم يأت النقاد على ذكرهما. الأولى، هي أن الرجل العجوز الذي كان ذات يوم مبهماً، استعلائياً، عديم الرحمة والإنسانية، بات الآن سريع التأثر بسبب الحب"، فتأخذه مديرة الماخور سيئة السمعة كاباركاس في نزهة بعد أن حولت الفتاة الفقيرة ديلجادينا إلى عاهرة، وظلت تخادعه بين نهاية حدث الرواية (بمعرفة الفتاة على الأرجح) وكتابتها. إن الرواية لا تعالج حقيقة أن كل ما يعرفه البطل عن ديلغادينا فضلاً عما يحلم عن شطحاته الماجنة وخيالاته غير السوية) يتأتى عن تأملات مديرة الماخور التي يمكن أن تكون قد فبركت الفتاة وحسنها لزبونها مثل أي كاتب يكتب قصصاً رومانسية وردية، أو مثل أشرطة سينمائية هوليوودية لتمتع جمهورها - هو كولادو هنا - ما يرغب فيه تماماً. ويرفض كولادو التفاصيل الحقيقية عن الفتاة: إنه بساطة وبكل وضوح لا يريد أن يعرف. وإذا كان المراد من هذه الحبكة الثانوية أن تكون حبكة أولية - أو تصحيحية - فإن الرواية ستحتاج عندئذ إلى بعد النقد الذاتي المثير للاهتمام حقاً. إن أقسى ما يمكن قوله هو إنها تحول الأحمق العجوز الساذج إلى موضع احتقار (لا إلى موضع شفقة) من القارئ على وجه التأكيد، ومن القارئ والكاتب ربما.

أما القراءة الأخرى (وهي قراءة لا تستبعدها القراءة الأولى بالضرورة) فهي أن كولادو شخصية محطمة. ففي سن الحادية عشرة تعرّف على نحو لا يرتدي إلى الجنس عن طريق امرأة عجوز تمتهن البغاء أيضاً وفي المبنى نفسه - في الكتاب - الذي كان يشتغل فيه والد كولادو (وهو المبنى نفسه الذي نزل فيه غارسيا ماركيز وعاش مع بنات الهوى خلال عمله في صحيفة الهيرالدو: ناطحة السحاب). التجربة تصيب الصبي بصدمة نفسية في بادئ الأمر، وتحوله إلى مدمن على ممارسة الجنس. وما دام غابرييل إليخيو هو الذي رتب على ما يبدو مثل هذه التجربة المؤلمة نفسياً لغابيتو وهو في العمر نفسه، وما دام غارسيا ماركيز اختار أن يضع هذا الجزء التوضيحي، المثير لمساحته - في نهاية الكتاب، ربما أراد بذلك أن يقدم تفسيراً لعجز الرجل العجوز عن الحب أو عن تطوير علاقات وثيقة. وهوسه بالعاهرات، ولرغباته غير السوية في اشتهاء العذراء الشابة التي ربما كان يرونه أن يمارس وإياها أول تجربة حب إذا ما كانت هناك إمكانية لتجديد الرماد، فيعود إلى

مرحلة مراهقته. وإذا كانت هذه هي الحالة، فإنها ستدفع القارئ لأن يسأل نفسه إن كان هذا التحليل نفسه ينطبق استعادياً على امتيازات مماثلة في الروايات المبكرة لهذا الكاتب، وفي هذه الحالة، فإن هذه الرواية التي يرويها بطل بات الآن "متحرراً" آخر الأمر من العبودية التي أبقتني عبداً منذ كنت في الثالثة عشرة من عمري[38]. ستكون نقداً ذاتياً وتكشف عن دواخل النفس بلا رحمة تماماً، منها رواية **خريف البطريرك** التي كتبت قبلها بثلاثين سنة. كما أنها ستشير إلى أن غارسيا ماركيز الذي عمر لأبيه عن وعي بكتابته **عشت لأروي** استمر، من دون وعي (وربما عن وعي)، بتوجيه اللوم إليه للصدمات النفسية خلال طفولته، والتي استمرت آثارها معه حتى بلوغه سن الرشد. باختصار، وكما حدث في المذكرات التي كتبها غارسيا ماركيز وهو في سن الخامسة والسبعين، وعاد إلى فكرة أن لويسا سانتياغا، التي هجرته، خشيت من عدم معرفته إياها، فإنه في **ذاكرة غانياتي الحزينات** التي كتبها وله من العمر سبعة وسبعون عاماً، يعود إلى فكرة أن الأب الذي أخذ أمه بعيداً وهو لا يراه طفلاً صغيراً إنما أدى بذلك إلى عراقه وهو في بداية مراهقته.

لعل روايه **ذاكرة غانياتي الحزينات** هي أقل روايات غارسيا ماركيز إنجازاً. لكن كما هو شأن كل رواياته، فإننا نعثر على ومضات من الخيال، وأحياناً ملكة شعرية تنبثق كشعاع كأنها من وراء الشاشة المصبة بالرغم من السرد المباشر والعادي. وإذا ما قسنا هذا الكتاب بحسب مستويات الكاتب، فإنه كتاب ضعيف، وفي بعض الأحيان يثير الحرج. باختصار، إنه كتاب غير مكتمل. لكن بالرغم من ذلك، وفي ضوء عمق رؤيته الضمنية للعالم، وبسبب طاقته التي تسمح لكل قارئ وقارئة أن يكملا القصة على النحو الذي يرغبان فيه، فإن هذا الكتاب يتمتع بمستويات عديدة من الإبهام والجمع بين موقفين متناقضين والتعقيد شأنه شأن بقية أعماله - بل حتى أكثر من رواية **الحب وشياطين أخرى** على سبيل المثال، وأكثر من رواية **قصة موت معلن** - لأن هذا الكتاب يداعب مداعبة لا تعرف الخجل ولا الضعف الفانتازيا والبعد الأخلاقي التقليدي اللذين تفتقر إليهما معظم مؤلفاته افتقاراً متعمداً. إن الرواية هي إحدى قصص الحوريات بالرغم من أنها صارخة، ومتوهجة على نحو يثير الارتباك.



يمكن للمرء أن يقول إن نهاية الرواية تأخذ غارسيا ماركيز على نحو ما إلى نهاية رحلته الأدبية والملحمية في الحياة. فعندما أدرك وهو في العقد السادس من عمره أنه مقبل على الموت، قرر أن ينجز كل شيء، بسرعة "من دون أن يضيع تسديدة واحدة". وعندما أصيب بورم لمفاوي في العقد السابع من عمره أضحى الدافع أشد وأقوى، لكن كان عليه أن يضع أولويات: وهكذا، فقد تخلى عن كل نشاطاته لبرهة من الزمن وأكمل كتابه **عشت لأروي** لأنه يعلم أن كتابة مذكراته تمثل هدفه العاجل جداً. ثم بات واضحاً أن ذاكرته تتلاشى بسرعة مخيفة، فقرر أن يتناول الأشياء كيفما تأتي بعد أن تمكن من إكمال سيرته الذاتية. الراوي في **ذاكرة غانياتي الحزينات** غير متعجل في النهاية لأننا لا نتعجل إلا إلى الموت لكنه وطد العزم على أن يعيش أطول مدة ممكنة وأن يتقبل الأيام يوماً بيوم. وإن كان قد عاش هو أيضاً كي يروي حكايته. الجانب المثير للحزن، أو المأساوي، في هذا هو أن غارسيا ماركيز لم يصل إلى هذه الحكمة المنطوية على صبر - إن كانت حكمة حقاً - إلا عندما لم يعد الواقع المادي يمنحه أي خيار آخر.

عندما كتب جون أبدايك مقالة عن الكتاب في مجلة ذا نيويوركر في العام 2005، حاول أن يسترجع دوافعه الحتمية ببلاغته وبراعته المألوفتين:

> **إن فطرة المرء لتذكر قصص غرامه لا تقتصر على فاجرين في العقد العاشر من أعمارهم. فمثل هذه الذاكرة تعكس في أثناء الخطاط الحياة البطيء التبرر للحظة من الزمان، وتُسكت الصوت الذي يهمس في أذن راوينا: "مهما فعلت، فإنك في هذه السنة أو في المئة سنة المقبلة، ستوافيك المنية إلى الأبد". لقد كتب السبعيني غابرييل غارسيا ماركيز وهو لا يزال على قيد الحياة، رسالة حب إلى الضوء الخابي بجاذبيته الحسية ومزاجه المهيب[39].**

اتضح أن لغارسيا ماركيز سببين رئيسين للعودة إلى كارتاخينا في الوقت الذي صدرت فيه الرواية. فهناك اجتماع آخر لمؤتمر إيبيرو - أمريكا (وكانت إسهاماته في مؤتمر كارتاخينا والدخل السياحي سخية). وقبل هذا كله، كان من المتوقع أن يصل إلى المدينة ملك وملكة إسبانيا، وقد وصلوا إليها فعلاً في الثامن عشر من شهر تشرين الثاني، والتهمك الوغد العجوز في أثناء زيارتهما في مرح مع صاحبي الجلالة الإسبانيين، وربما أثار حفيظة الرئيس أوريبي. فإذا ما سُئل عن كتابه، فإنه



مما لا شك فيه سيوضح قائلاً إن قصته مستوحاة من قصة أميرة إسبانية اعتدى على شرفها والدها الملك. حقاً لم يكن يمثل سوى دور المهرج (فقد بدأت تظهر صوره في الصحف بانتظام وقد أخرج لسانه أمام عدسات التصوير).

لم تعد هناك كتب أخرى يكتبها، فحياته الجديدة - نهاية حياته، تقاعده - يمكن أن تبدأ في نيسان سنة 2005 وبعد كل المخاوف، وللمرة الأولى منذ أن داهمه المرض، عبر المحيط الأطلسي، ورجع إلى إسبانيا وفرنسا وزار شقته في أوروبا مرة أخرى. وكان سبب هذه الرحلة اجتماع فورو إيبرو - أميركا في برشلونة، وهو التزام سيدل الآن فوق التزام آخر. كانت الصحافة قد بدأت تحتفي مقدماً بعودة غارسيا ماركيز إلى إسبانيا - كان العام يصادف الذكرى المئوية الرابعة لنشر رواية دون كيخوته - وعلى وجه الخصوص إلى برشلونة حيث كانت السنة هي سنة الكتاب. لكن الصحافة أفادت بأنه لدى وصوله بدا متردداً، وأشارت ضمناً إلى أنه كان قد فقد هويته الذاتية.

لم أتصل به منذ ثلاث سنوات. فقد ترددت في الاتصال. لكنني سافرت جواً في نهاية مطاف إلى مدينة مكسيكو للحديث معه، وكان ذلك في شهر تشرين الأول. كانت ميرثيديس مصابة بالأنفلونزا، لذلك جاء هو لزيارتي في الفندق الذي كنت مقيماً فيه. بدا مختلفاً تمام الاختلاف. لم يعد يبدو عليه ما يشير إلى أنه نجا من مرض السرطان. كان نحيل العود إلى حدٍ مخيف، قصير الشعر عندما فرغ من تأليف عشت لأروي سنة 2002، أما الآن فهذا كما كان يبدو دائماً: إنه نسخة أكبر سناً من الرجل الذي عرفته بين 1990 و1999. لكنه كان كثير النسيان، وكان في وسعه، بعد تلقين مناسب، أن يتذكر معظم الأشياء من الماضي البعيد - ولكنه لم يتذكر دائماً عناوين رواياته - ويتبادل أطراف الحديث بصورة اعتيادية إلى حدٍ معقول وبمزاج رائق. لكن ذاكرته قصيرة الأمد كانت ضعيفة، وكان ينأم على من يتظاهر من هذا الضعف. ومن المرحلة التي تبين أنه مقبل عليها. وبعد أن تحدثنا عن عمله وعن خططه لبرهة وجيزة، أوضح أنه غير متأكد من أنه سيكتب أي شيء بعد الآن. ثم قال بعزم واكتئاب. "لقد كتبت ما يكفي أليس كذلك؟ لا يمكن للناس أن يخيب ظنهم، ولا يمكنهم أن ينتظروا مني أي شيء آخر. أليس كذلك؟



كنا جالسين على مقعدين زرقاوين كبيرين في ردهة فندق معزول عن الأنظار يطل على الطريق الدائري الجنوبي لمدينة مكسيكو. خارج الفندق، القرن الحادي والعشرون يحلق بعيداً. ثمانية ممرات من الطريق لا تتوقف عنها حركة المرور أبداً.

رمقني وقال:

– أتدري؟ في بعض الأحيان أصاب بالاكتئاب.

– ماذا؟ أنت يا غابو بعد كل ما حققته؟ لا بد من أنك تخطئ. لماذا؟

وهنا أشار بيده إلى العالم من وراء النافذة (حيث الطريق الرئيس الفسيح في المدينة، والصمت المطبق على كل أولئك الناس الاعتياديين الذين يمضون إلى أعمالهم في عالم لم يعد عالمه)، ثم رنا إليّ وتمتم:

– لأنني أدرك أن النهاية اقتربت(40).

* * *



خاتمة

الخلود: ثيربانتس الجديد
2006-2007

لكن حياة غارسيا ماركيز لم تنته بعد، وإن كان في وسع المرء أن يساوره مثل ذلك الاعتقاد بعد لقائنا ببضعة أسابيع في مدينة مكسيكو. ففي كانون الثاني سنة 2006 أجريت معه مقابلة مدهشة لصحيفة لافانغارديا الصادرة في برشلونة؛ مدهشة في الأقل لأولئك الذين اعتادوا يومئذٍ على أنه لم يعد يتحدث إلى الصحافة. لكن هذه القضية لم تكن وليدة لحظتها، إذ يبدو أن هناك اجتماعاً عُقد وتقرر فيه أن يُدلي غارسيا ماركيز بعده "بيان ختامي"، في ظل الظروف السائدة آنذاك، ثم يعقبه انسحاب من الأضواء، فصمت.

كانت ميرثيديس حاضرة خلال المقابلة في منزل الأسرة في مدينة مكسيكو - في المقابلة السابقة التي جرت قبل ثلاثة أعوام، كانت سكرتيرته مونيكا هي الحاضرة - وهي التي أنهت الحديث، وهو ما يوضح من خلال تقرير الصحافيين. لم يقل غارسيا ماركيز في المقابلة إلا الشيء القليل - وكان التقرير سرداً أكثر مما كان حواراً - وعندما سُئل عن حياته الماضية قال: "عليكم أن توجهوا السؤال إلى كاتب سيرتي الرسمي جيرالد مارتن عن مثل هذا الموضوع. أعتقد أنه ينتظر شيئاً ما يحدث لي قبل أن ينهي كتابة سيرتي"[1]. صحيح أنني استغرقت وقتاً طويلاً، لكن مثل هذا "الصبر الموهوم"، كما جاء في عنوان رواية أنطونيو سكارميتا عن ساعي بريد بابلو نيرودا، كوفئ الآن بمعرفة أنني كنت بعد خمسة عشر عاماً كاتب السيرة "الرسمي" لهذا الإنسان العظيم، وليس مجرد كاتب سيرة "مجاز" وهو ما كنت أتصوره. آه لو كنت أعرف ذلك من قبل!



بدت القضية وكأنها عملية حسابية لمعرفة إلى أي مدى سيتمكن من الظهور أمام الملأ وتحت أي ظروف. فهو لا يمكن الاعتماد عليه ليقدم إجابات واضحة أو دقيقة عن أسئلة مباشرة أو غير متوقعة. وكانت لديه القدرة على أن ينسى ما قاله قبل خمس دقائق. إنني لست خبيراً في الأشكال المختلفة التي يتمظهر بها فقدان الذاكرة ولا في تطورها، لكن انطباعي هو أن حالته كانت تسير بثبات. من الصعب جداً أن ترى إنساناً جعل من الذاكرة نقطة الارتكاز الرئيسة في مجمل وجوده الذي ابتلي بمثل هذا البلاء. لقد ظل غارسيا ماركيز يصف نفسه بأنه "متذكر محترف". ولكن عندما وافت المنية أمه، لم تكن تعي من هي ومن هم أولادها. كان أخوه غير الشقيق أبيلاردو قد عانى من مرض باركنسون لثلاثة عقود من الزمان. ويبدو أن أخاه الأصغر منه ننتشي أصيب بالمرض نفسه. أما إليخيو فقد توفي إثر إصابته بورم في الدماغ، وعاد غوستافو من فنزويلا وقد لاحت عليه ملامح فقدان الذاكرة. والآن، أمامنا حالة غابو. قال جايمي لي: يبدو أن الأسرة تعاني من مشكلات في الرأس"[2] بلغ غارسيا ماركيز التاسعة والسبعين من عمره (تخلى عن الادعاء بأنه ولد سنة 1928 منذ الاحتفالات الكبرى بذكرى ميلاده السبعين، ويمكن للمرء أن يقول إنه بدأ يتصرف تصرفاً ملائماً). وبالرغم من حالته الغامضة غير المحددة، التي لم يكن أي واحد من الحلقة المقربة إليه ميالاً إلى الكشف عنها، والتي التزمت الصحافة إزاءها صمتاً خفياً يثير الدهشة، فإنه لا بد من مواجهة ذكرى ميلاده الثمانين. كانت الأكاديمية الملكية الإسبانية قد بدأت بعد العام 1992 بتنظيم مؤتمرات تعقد مرة واحدة كل ثلاث سنوات للاحتفال باللغة الإسبانية وآدابها في العالم المتحدث بالإسبانية. وكانت هذه المؤتمرات تمثل جزءاً من برنامج إسباني طويل الأمد لنشر الثقافة. وفي المؤتمر الأول الذي تأخر كثيراً وعقد في ثاكاتيكاس في المكسيك في نيسان 1997، اقترح غارسيا ماركيز وجوب تقاعد النحو والنمط الإسباني التقليديين[3]. وبالرغم من أن هذا الاقتراح أثار جدلاً واسعاً، ومواجهة، فإن الأكاديمية التي كانت متسلطة جداً في الماضي، باتت الآن مؤسسة دبلوماسية واستراتيجية إلى الحدّ الذي سمحت به لأديب له مكانة غارسيا ماركيز أن يصبح مريداً، ودعته لزيارة الأكاديمية واللقاء بالمسؤولين فيها خلال زيارة إلى مدريد في

تشرين الثاني من ذلك العام. ومع هذا، فقد أعلن سنة 2001 أنه لن يحضر المؤتمر الثاني في ثاراكوثا (سرقسطة) في إسبانيا احتجاجاً ضد سياسة إسبانيا التي عاملت مواطني أمريكا اللاتينية بالحصول على تأشيرة دخول مسبقاً قبل الدخول إليها، وهو الإجراء الأول من نوعه في التاريخ. وقال إن إسبانيا تبدو وقد أعلنت نفسها دولة أوروبية أولاً، وإسبانية تنتمي إلى العالم الإسباني ثانياً. استمر الجدال قائماً سنة 2004 عندما لم توجه إليه الدعوة لحضور المؤتمر الثالث في روساريو في الأرجنتين (وهي الدولة التي ظل يتجنب زيارتها دائماً تجنب من يعتقد بالخرافات). ثم أعلن خوسيه ساراماغو البرتغالي الفائز بجائزة نوبل أنه لن يحضر المؤتمر إذ لم توجه الدعوة إلى غارسيا ماركيز، وعندئذ صرحت الأكاديمية أن هناك خطأ إدارياً، وبالتالي وجهت الدعوة إلى الكولومبي الفائز بجائزة نوبل. لكن غارسيا ماركيز لم يحضر. ثم تقرر أن يعقد المؤتمر التالي سنة 2007 في مدينة كارثاخينا دي انديا، وهي المدينة التي يملك فيها غارسيا ماركيز بيته الرئيس في كولومبيا والذي يتباهى به في روايتين خالدتين.

أصدرت الأكاديمية عام 2004 طبعة خاصة من رواية **دون كيخوته** لثيربانتس احتفاءً بالذكرى المئوية الرابعة لنشر أهم كتاب في تاريخ إسبانيا وآدابها المختلفة. الفكرة عظيمة لو أن الأكاديمية تمكنت مع حلول المؤتمر التالي في كارثاخينا سنة 2007 من إصدار طبعة مماثلة لرواية **مئة عام من العزلة** تزامناً مع الذكرى الأربعين لصدورها، والذكرى الثمانين لذكرى ميلاد غارسيا ماركيز. فهو أولاً عبقري إسباني وأمريكي لاتيني أيضاً. بل إن عدداً من النقاد قارنوا الرواية الكولومبية بدون **كيخوته** الرائعة التي سبقتها، وأكدوا أنها اكتسبت، وستظل، الأهمية على مدى المستقبل المنظور، أهمية للأمريكيين اللاتينيين توازي الأهمية التي اكتسبها كتاب ثيربانتس للإسبان أولاً، ثم للأمريكيين الإسبان ثانياً. مما لا ريب فيه أن هناك من سيعترض. لكن ناقداً واحداً ظل غير معجب بغارسيا ماركيز صرّح بعد مدة قصيرة، وهو يلجأ إلى استخدام القياس المنتمي إلى القرن العشرين، بقوله إن رواية **مئة عام من العزلة** جرت في "الحمض النووي" لثقافة أمريكا اللاتينية ولم تعد تنفصل عنها منذ صدورها أول مرة عام 1967"[4].



لقد استعور غارسيا ماركيز، شأنه شأن ثيربانتس، أحلام شخصياته وأوهامها، وهـي أحـلام إسبانيا وأوهامها في مرحلة تاريخية معينة إبان حقبتها الاستعمارية الكبرى لتصبح، بشكل مختلف، أحلام أميركا اللاتينية وأوهامها بعد الاستقلال كمـا أنـه ابتكر، أيضاً مثل ثيربانتس، حالة أو مزاجاً، بل شعوراً بالفكاهة يمكن التعرف إليه مباشرة، وهو في حال ظهوره يبدو وكأنه حاضر دائماً وأنه جزء لا يتجزأ من العالم الذي يعود إليه.

في نيسان 1948 كـان غارسـيا ماركيز قد هرب من بوغوتا وسافر إلى كارتاخيـا للمـرة الأولى في حياته. في تلك البلدة التي ترقى إلى حقبة الاستعمار الإسبانية، وإن كانت بائسة تعيش مرحلة انحطاطها، التقى رئيس التحرير كليمنت مانويل ثاسالا ودعـاه إلى أن يصبح صحافياً في صحيفة أُسِّست حديثاً بالاسم: الأونيفرسـال. الذي ربما كان اسماً مناسباً. وفي العشرين من أيار سنة 1948 حظي القادم الجديد بالترحاب على صفحات بيته الأدبـي الجديد. وفي الحادي والعشرين من أيار، أي بعد ثلاثمئة وثمانية وخمسين عاماً على قيام شخص يدعى ميغيل دي ثيربانـتس بكـتابة رسالة إلى ملك إسبانيا يطلب فيها وظيفة خارج البلاد "ربما في كارتاخينا". ظهرت المقالة الأولى للقادم الجديد إلى دنيا الصحافة[5]. إلا أن ثيربانتس لم يـسافر إلى كارتاخيـنا مثلما لم يسافر إلى أي بقعة من بقاع جزر الهند، بل لم يـشاهد العالم الجديد، وإن كان قد قرر أن يساعد في إنتاج عالم جديد أرحب - عالم الحداثة الغربية - في كتبه، وستسافر تلك الكتب إلى القارة الجديدة بالرغم من الحظـر الـذي فرضته إسبانيا ضد الإتجار بالروايات وكتابتها في المناطق المكتشفة حديـثاً. وفي نيسـان سـنة 2007، وترامناً مع مؤتمر الأكاديمية الملكية الثالث في كارتاخيـنا ووصـول ملك وملكة إسبانيا إليها، نُصب تمثال جديد لثيربانتس في واجهة المرفأ الاستعماري القديم.

لقد ظل ثيربانتس طوال حياته محبطاً، لا يجد من يقدّره حق قدره. أما غارسيا ماركـيز، ومع اقتراب ذكرى ميلاده الثمانين، فكان واحداً من أشهر الأدباء قاطبة على وجه الأرض، ونجماً مشهوراً قلما كان في وسعه أن يحقق شهرة وتقديراً أكبر في قارته لو أنه أصبح لاعب كرة قدم أو مغنياً. لقد كانت المؤسسة الإسبانية العالمة



تخطط لمنحه وهو على قيد الحياة. ذلك النمط من التقدير الذي لم يكتسبه سوى ثيربانتس، رويداً رويداً وعلى مدى قرون من الزمان، بعد وفاته. عندما فاز غارسيا ماركيز بجائزة نوبل سنة 1982 استمرت احتفالات التغطية الصحافية للحدث في أميركا اللاتينية سبعة أسابيع منذ اللحظة التي أذيع فيها نبأ فوزه في تشرين الأول، وحتى اللحظة التي سلّمه فيها ملك السويد الجائزة في شهر كانون الأول. وعندما بلغ سن السبعين سنة 1997، استمرت الاحتفالات أسبوعاً كاملاً في شهر آذار، رافقتها تقارير إخبارية متواصلة في الصحافة، ثم أسبوعاً آخر في شهر أيلول عندما جرى الاحتفال في واشنطن بالذكرى الخمسين لصدور أول قصة قصيرة له، ومنها احتفال أقامه الأمين العام لمنظمة الدول الأميركية وزيارة إلى البيت الأبيض لرؤية صديقه بيل كلنتون. اليوم يوشك أن يحتفل غارسيا ماركيز بذكرى ميلاده الثمانين، وبالذكرى الستين لظهوره علناً كاتباً، وبالذكرى الأربعين لنشر رواية **مئة عام من العزلة**، وبالذكرى الخامسة والعشرين لتسلمه جائزة نوبل. وقد بدأ أصدقاؤه والمعجبون به يخططون لاحتفالات تمتد ثمانية أسابيع في شهري آذار ونيسان 2007 لتضاهي تلك الأسابيع السبعة التي لا تُنسى من سنة 1982.

اتخذت خطوات عديدة لتحويل غارسيا ماركيز إلى نصب حي. فقد عمد الصحافي هيربيرتو فيوريلو من بلدة بارانكيا إلى تحويل مشرب ومطعم "الكهف" الذي كان مرتع جماعة بارانكيا القديم إلى متحف من جهة، وإلى مشرب ومطعم من جهة أخرى. وجاءت تحركات لإعادة تسمية بلدة اراكاتاكا إلى اراكاتاكا ماكوندو على غرار مسقط رأس بروست. لكن لسوء الحظ، لم يشارك عدد كبير من سكان البلدة في الاستفتاء على إعادة التسمية، وانهار المقترح بالرغم من أن معظم الأهالي بدوا موافقين عليه. واليوم، وافقت السلطات المحلية والقومية على تحويل مسكن غارسيا ماركيز القديم في اراكاتاكا الذي ولد فيه إلى منطقة سياحية كبرى؛ وإن كان قد أصبح قبل الآن متحفاً متداعياً لكنه مفعم بالذكريات، وتقرر هدم البيت القديم وإعادة بناء بيت آخر على أسس مدروسة بعناية.

وهكذا حلّ شهر آذار سنة 2007، وخصص مهرجان كارتاخينا السينمائي السنوي لغارسيا ماركيز. وكانت كوبا البلد الذي ركز عليه الأضواء على نحو



ملائم تماماً (وسيحل غارسيا ماركيز كاتباً رئيساً على معرض بوغوتا للكتاب في المحطة نفسها التي بدأت فيها كولومبيا تحمل لقب "العاصمة الدولية للكتاب" وعلى مدى عام كامل. دوائر متداخلة، كل شيء يتراص كما في حلم). عرضت معظم الأفلام المستوحاة من مؤلفات غارسيا ماركيز، وحضر عدد كبير من مخرجيها، من ضمنهم فيرناندو بيري، وميغيل ليتين، وخايمي هيرموسيلو، وخورخيه علي تريانا، واليساندرو دوكي. لكن غارسيا لم يحضر المهرجان بالرغم من أن ذكرى مولده صادفت خلال انعقاد المهرجان. ولما سُئل عن السبب ردّ قائلاً: "لم يوجّه إليّ أحد دعوة". ولم تكن هذه واحدة من أنجح نكاته. لكن كيف يمكن ألاّ يسامح على هذا؟ ففي السادس من آذار، أقيم احتفال بذكرى ميلاده رافقته أغاني الفاليناتو في أفخم فندق في كارثاخينا، وقد أُطلق على الفندق اسم مناسب تماماً هو *فندق الغرام*، من دون أن يحضر الضيف الرئيس الذي احتفل احتفالاً أكثر هدوءاً مع أسرته في مكان آخر. لكن التوتر بدأ يزداد بعد هذا كله. فقد حملت الملصقات الإعلانية احتفالية الأكاديمية الملكية المعروفة بالإسبانية بالاسم Congreso de la Tongue أي مؤتمر اللغة أو اللسان، صورة غارسيا ماركيز ضيف شرف المؤتمر، بحسب المصنفات، وقد أخرج لسانه في وجه المشاهد. مما لا ريب فيه أن هذا الإقرار بروح الدعابة التي اشتهر بها الأديب المعروف، كانت تهدف إلى الإشارة إلى أن الأكاديمية نفسها لديها روح الدعابة، لكن حتى لو كان ذلك صحيحاً، فإن المشكوك فيه أن تمتد تلك الروح إلى احتمال فشل الضيف الشهير في الحضور إلى الاحتفال الذي حرصوا على إعداده له حرصاً شديداً.

وفي أواسط الشهر، أقيمت فعالية أخرى في كارثاخينا، وهي الاجتماع السنوي لرابطة الصحافة للدول الأميركية. وكان هناك ضيفا شرف اثنان: بيل غيتس، قطب صناعة الحاسوب الذي كان أغنى أغنياء العالم (بالرغم من أن صديق غارسيا ماركيز الملياردير كارلوس سليم حلّ محله بعد بضعة أشهر) وغابرييل غارسيا ماركيز نفسه، الذي وعد بالحضور وإن لم يكن راغباً في إلقاء كلمة. وقد حضر في اليوم الأخير، لكن ظهوره كان، كعهده، حدثاً مثيراً دفع على الفور بكل المشاركين الآخرين إلى منطقة الظل. كانت لحظة عظيمة لخايمي أبيلو مدير مؤسسة



الصحافة التابعة لغارسيا ماركيز، والحاملي الآخر، شقيق غارسيا ماركيز الذي أضحى اليوم مساعد المدير. كما كانت لحظة تاريخية للأكاديمية الإسبانية التي تمكنت هي وكولومبيا برمتها من تنفس الصعداء سراً.

أفاد شهود عيان أن غابو بدا بصحة جيدة. وبالرغم من تردده وحيرته، إلا أنه كان رائق المزاج، وفي أحسن حال. وعلى عكس تقديراتي في السنة المنصرمة، بدا وقد تمكن من أن يجعل حالته مستقرة، وعزم على مواجهة المرض والجمهور - من دون مقابلات صحفية - بكل التفاؤل والبسالة اللذين كان يُشهد له بهما في أوقات أكثر مدعاة للراحة. كان الأصدقاء والمعجبون يتقاطرون من جميع أنحاء العالم إلى كارتاخينا، إضافة إلى مئات اللسانيين وغيرهم من الأكاديميين الذين كانوا يحضرون مؤتمر الأكاديمية الملكية. وأقيمت حفلات موسيقية كبرى حضرها نجوم الغناء العالمي، وشتملت أيضاً على عروض أقل شأناً لأغاني الفاليناتو، ووفرة من الفعاليات الأدبية، وعدد كبير من النشاطات الأخرى على هامش المؤتمر. كان الطقس رائعاً. وكما أقدمت الأكاديمية قبل ثلاثة أعوام على إنتاج طبعة فاخرة من رواية **دون كيخوته** لتوزعها خلال انعقاد المؤتمر السابق، فقد أصدرت طبعتها الفخمة الجديدة من رواية **مئة عام من العزلة**. ومما لا يبعث على الدهشة أن الطبعة احتوت، من بين ما احتوت عليه، على مقالتين كتبهما أفضل أديبين من أصدقائه وهما ألفارو موتيس وكارلوس فوينتس. ومما جعل الحاضرين يتجاذبون أطراف الحديث احتواء الكتاب على مقالة طويلة كتبها - من دون الناس جميعاً - ماريو فارغاس يوسا. هل حدثت مصالحة؟ هذا أكيد، لأن أي مقالة نشرت في هذا الكتاب كان لا بد من أخذ موافقة كلا الرجلين. بالرغم من عدم معرفة شعور ميرثيديس بشأن مثل هذه الموافقة.

أقام خوليو ماريو سانتو دومينغو، أغنى رجل أعمال وأكثرهم نفوذاً في كولومبيا، والمالك الحالي لصحيفة الاسبكتادور، احتفالاً خاصاً قبل موعد افتتاح المؤتمر ببضعة أيام - وهو أشبه باحتفال ذكرى ميلاد متأخر - كان ضيف الشرف فيه غابو وميرثيديس. وقد أقيم في الطابق العلوي من فندق آخر من فنادق كارتاخينا الراقية - وهو الفندق الذي سيحل فيه كل من ملك وملكة إسبانيا في

الأسبوع التالي - وكان من بين الضيوف كارلوس فوينتس، وتوماس إيلوي مارتينيث، ورئيس جمهورية كولومبيا السابق باسترانا، وجون لي أندرسون من مجلة ذا نيويوركر الذي جاء مباشرة من حرب العراق، ونائب رئيس جمهورية نيكاراغوا السابق والروائي سيرجيو راميريث، وعدد كبير من الشخصيات من بوغوتا وكارتاخينا وبارانكيا على وجه الخصوص. وتدفقت جميع المشروبات، فيما صدحت أغاني الفاليناتو في عمق الليل. وهمس رواد الاحتفال في الممرات والشرفات بالسؤال الكبير: هل يا ترى سيلقي غابو كلمة في الاحتفال لتكريمه في اليوم الأول من المؤتمر؟ وإذا لقي..

وحلَّ اليوم العظيم: السادس والعشرون من آذار سنة 2007. توافد بضعة آلاف من الناس إلى مركز المؤتمرات بكارتاخينا الذي شيد على موضع اعتاد غارسيا ماركيز أن يأكل ويشرب فيه في وقت متأخر من الليل بعد عمله في صحيفة الأونيفرسال في 1948 و1949.[6] وحضر عدد كبير من أصدقائه ومعظم أفراد أسرته. وإن لم يحضر أبناؤه، ورؤساء الجمهورية السابقون باسترانا وغافيريا ويا للدهشة سامبر، ورئيس الجمهورية السابق بيتانكور الذي سيأخذ محله على المنصة مع بقية المحتفين ومنهم رئيس الجمهورية الحالي ألفارو أوريبي. كان النهار حاراً خانقاً. ومع ذلك، فإن معظم الرجال كانوا يلبسون بذلات سوداء على طراز بوغوتا. وكان من المتوقع أن يلقي كارلوس فوينتس، الكريم أبداً، كلمة ثناء خاصة بحق صديقه. كما كان مقرراً أن يلقي توماس إيلوي مارتينيث كلمة بعد أن تماثل للشفاء من ورم دماغي، وكذلك مدير الأكاديمية الملكية فكتور غارسيا دي لا كونتشا، والمدير السابق لمعهد ثيربانتس في نيويورك أنطونيو مونيوث مولينا، ورئيس جمهورية كولومبيا، وملك إسبانيا، وكذلك غارسيا ماركيز.

عندما دلف غارسيا ماركيز ومرثيديس، نهض جميع الحضور ووقفوا على أقدامهم وصفقوا عدة دقائق. بدا متعباً ومطمئناً. وانتصبت على المقاعد التي رصت على المنصة مجموعتان: غارسيا ماركيز وبطانته (مرثيديس وكارلوس فوينتس ووزيرة الثقافة الكولومبي ألفيرا كيرو دي جاراميو)، وبطانة الأكاديمية على الجانب الآخر من خشبة المسرح. ولم يصدق جمهور الحاضرين أن الخلد أتى بهم إلى هنا.



ووضعت شاشة هائلة وراء الأبطال أظهرت وصول ملك وملكة إسبانيا دون خوان كارلــوس ودون صوفيا، وشوهدا وهما يرتقيان السلالم ويخطوان على امتداد ممرات مبنى المركز الضخم حتى أعلن عن دخولهما قاعة المبنى.

ثمّــة كلمات عديدة أُلقيت، ومنها كلمة الملك، معظمها أكثر إثارة مما تتطلبه مــثل هذه المناسبات. وكانت الكلمة الأبرز لغارسيا دي لا كونتشا الذي كانت مهمــته تقــديم النسخة الأولى من مئة عام من العزلة بطبعة الأكاديمية الملكية إلى غارسيا ماركيز[7]، وبعد أن استأذن الملك خوان كارلوس، كشف عن سر، وهو أن الأكاديمية فكّرت في بادئ الأمر في فكرة تكريم غارسيا ماركيز في هذا المؤتمر. لذا، فإن غارسيا دي لاكونتشا طلب من الأديب الإذن كي تقيم الأكاديمية هذه الفعالية. فما كان من غارسيا ماركيز إلاّ أن قال آنذاك إنه يوافق، لكن "الشخص الذي أريد أن ألتقيه هو الملك". وفي المرة الثانية التي شاهد فيها غارسيا ماركيز خوان كارلوس، أرســل الرسالة بنفسه: "أنت يا ملك، عليك الحضور إلى كارثاخينا". وهنا تسببت هــذه الحكايــة في ضحكة جماعية مدوية تتألف من عدة مكونات اعتماداً على تفسير كل شخص من جهة، وعلى هوية المستمع إن كان إسبانياً أو أمريكياً لاتينياً، ملكياً أو جمهورياً، اشتراكياً أو محافظاً - أعمقها وقوف الحاضرين وقفة مطولة. ألم يكن هذا الأميركي اللاتيني يعرف موقعه؟ الأسوأ، هل تراه لم يعرف كيف يخاطب ملكــاً؟ أو، وهذا هو الأسوأ، أتراه كان يشعر أنه أرفع شأناً من ملك إسبانيا وهو تكلــم معه من موقع أعلى؟ تنبه أولئك القريبون من المنصة إلى أن غارسيا ماركيز اقتــرب من الملك وصافحه وحياه تحية طالب أميركي لاتيني - بالتفاف إبهام رجل حــول إبهام الرجل الآخر - كأنه ندٌّ له. لقد خسر آل بوربون أميركا اللاتينية في مطلـــع القــرن التاسع عشر، والآن يبذل خوان كارلوس قصارى جهده كي يقدم ترضيةً أو تعويضاً دبلوماسيًّا واقتصادياً.

كانت أشد اللحظات إثارة للعارفين هي بداية غارسيا ماركيز خطابه. استهل كلمــته متلعثماً في بادئ الأمر، وارتبك في جمله الأولى، لكنه سرعان ما انطلق بعد ذلك في الحديث من دون تردد. كان خطابه أكثر من خطاب. إنه ذكريات عاطفية عــن الأيام التي أمضاها في المكسيك حيث عاش برفقة ميرثيديس في فقر مؤملاً أن



يحقق نجاحاً باهراً في يوم ما، وينشر الكتاب الذي سيصبح أكثر الكتب رواجاً. إنها قصة من قصص الحوريات الصادقة "لا أزال عاجزاً عن التغلب على دهشتي بأن كل هذا حدث لي" - وشعر الجمهور أيضاً أنها كانت رسالة شكر وعرفان للرفيقة التي رافقته خلال تلك الأزمنة الصعبة وغيرها من الأزمنة، في السراء والضراء، على مدى نصف قرن من الزمن المضي بدت ميرثيديس وجلة، مكتئبة. وتصرعت أن يختار الرجل هذا التحدي أيضاً بعد أن اجتاز تحديات كثيرة. واجتازه، وأنهى كلمته بقصته عندما ذهب إلى دائرة البريد لإرسال نصف المخطوطة من مدينة مكسيكو إلى بوينس آيرس عام 1966 لأنهما كانا أفقر من أن يتمكنا من إرسالها كاملة[8]. واستغرقت وقفة الحاضرين التي حينه إثر اختتام كلمته عدة دقائق

قبل ذلك بوقت قصير، وفي خضم الإجراءات السائدة، أصيب الحضرون في القاعة بالذهول عندما أعلن عن نبأ آخر: "سيداتي سادتي، وصل السيد وليم كلنتون رئيس الولايات المتحدة السابق إلى المدينة". فنهض الجمهور، فيما شق أشهر رجل على وجه الأرض طريقه نحو مقدمة القاعة. ملك إسبانيا وخمسة رؤساء جمهورية كولومبيا، والآن الرئيس السابق الأكثر شعبية لأقوى دولة في العالم؛ وفكّر بعض المراقبين أن النجمين الوحيدين الغائبين هما فيدل كاسترو، المريض في كوبا، والبابا في روما. اتضح مرة أخرى أن السلطة - إن كان غارسيا ماركيز مهووساً بها، أو مفتوناً - تنجذب إليه باستمرار وبعناد. لقد ظل الأدب والسياسة هما الطريقين الأكثر فعالية في تحقيق الخلود في العالم الزائل الذي أنتجته المدنية الغربية هذا الكوكب. إن قليلاً من الناس يعتقدون أن المجد السياسي أكثر ديمومة من المجد الذي يتحقق عن طريق تأليف كتب مشهورة

* * *

تمكنا من أن نحظى بأقصر حديث قبل مغادرتي كارثاخينا، وكان بمثابة أشياء كثيرة.

قلت:

- يا لها من مناسبة رائعة يا غابو.

قال:



- أليس كذلك؟

قلت:

- أتدري؟ عدد كبير من الناس كانوا يبكون من حولي.

قال:

- وأنا أيضاً بكيتُ. بكيت في أعماقي.

قلت:

- حسناً. أعرف أني لن أنسى هذه اللمسة.

قال:

- حسناً. شيء جميل أنك كنت حاضراً فيها كي تخبر الناس أننا لم نعرك القصة

* * *



أسرتا غارسيا ماركيز (غ م)
وبارتشا باردو (بي بي)

إليخيو غابرييل
غ م (يايو)
1947 سوكري
2001 6/2 بوغوتا

ألفريدو ريكاردو
غ م (كوكي)
1946/2/25 سوكري
1998/12/4 كارتاخينا

هيرناندو
غ م (نانشي)
1943/1/26
سوكري

خايمي
غ م
1940/5/22
سوكري

ريتا ميل
كارمن غ م
1939/7/10
بارانكيا

غوستافو
غ م
1935/9/27
آراكاتاكا

ليخيا
غ م *
1934/8/8
آراكاتاكا

راكيل باردو لوبيث
1903/5/31 أرخونا
1996/6/28 أرخونا

جيتريو بارتشا فيلبا
1912/4/2 ماغانغي
1962/9/23 بارانكيا

ميريام بي بي *
1949/...
ماغانغي

روسا ماريا بي بي
1941/10/25
سوكري

ألفونسو بي بي
1945/7/28
سوكري

أدولفو بي بي
194./11/6
ماغانغي

إدواردو بي بي *
1997/9/16
ماغانغي

بيا ألثيندو أليان
1963/11/25
مدينة مكسيكو

1987

غونثالو غارسيا بارتشا
1962/4/16
مدينة مكسيكو

خيرونيمو غارسيا ألثيندو
1988/9/..
مدينة مكسيكو

إميليو غارسيا ألثيندو
1989/12/5
مدينة مكسيكو

ماتيو غارسيا ألثيندو
1987/9/25
مدينة مكسيكو



غابرييل إليخيو
غارسيا ماركيز
1901-1985

1926

لويسا سانتياغا
ماركيز إغواران
1905-2002

أنطونيو
(توتو) غارسيا
بافارو

خيرمينا
(تشي)
غارسيا ميمونتا

كارمن روسا
غارسيا
مبيومبيلو

أبيلاردو
غارسيا
أوخيدا
25 / 2/1920

لويس أنريكي
غارسيا ماركيز
8/9/1928
آراكاتاكا

مارغريتا
ع م (مارغوت)
9/11/1929
باراكيا

عايدة روسا
ع م
…/12/1930
باراكيا

غابرييل خوسيه غارسيا
ماركيز غابيتو
6/3/1927
آراكاتاكا

1958

ميرثيديس راكيل
بارتشا باردو
6/…/1932
منغانغي

رودريغو غارسيا برتشا
24/8/1959
بوغوتا

1995

أدريانا شبباوم
17/6/1967
مدينة مكسيكو

إيسابيل غارسيا ماركيز شبنباوم
1/1/1996
لوس أنجلوس

جينس غرسيا شبنباوم
18/8/1999
لوس أنجلس

زواج
أطفال شرعيون
علاقة غير شرعية
أطفال غير شرعيين
مُحبر

أسـرة غارسـيا مارتينيث

سوتيرا مارتينيث
1840م

لياندرو وغاريدو بيماريس
1830م موبوكس

غابرييل مارتينيث (غاريدو)
1872م سينثي

روساميرا سيتشي
سينثي

1935م

غارسيو مارتينيث ميثا

هيرموخينيس سول مارتينيث ميثا

اريئلي مارتينيث ميثا

بلبيبو بابلو مارتينيث ميثا

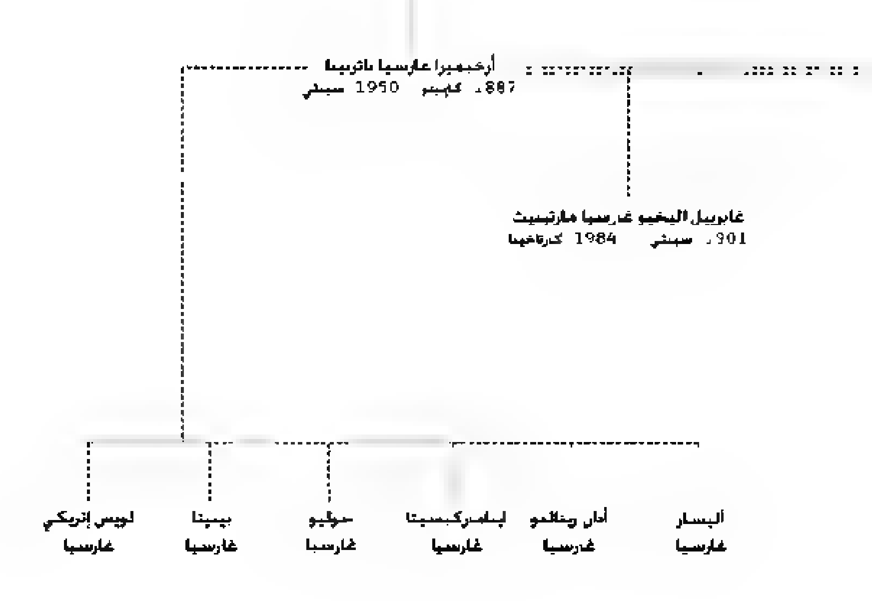
لينتشيا مارتينيث ميثا

رافائيل أوسوريو مارتينيث

كارلوس مارتينيث سيماهار



بدرو غارسيا ماركيز غوريون
أوائل النصف الأول من القرن التاسع عشر
جنوب إسبانيا



زواج

أطفال شرعيون

علاقة غير شرعية

أطفال غير شرعيين

مُخير ■



أطفال أوغسطين
كوتيس الآخرون
(ومنهم بيترا
كوتيس، ابنة ترانكيلينا
غير الشقيقة)
يحملون أسرة غاليغو
ماركيز بكونسيلو
رانخيو نفيورة
والفونسو لويث
ميسيفيديس
ويوسيه
فرانسيسكو
سوكراس
ميشيلو كوتيس
وبوك إيلك كوتيس

بلاس إغواران
ريوهاتشا 1805

روسا أنطونيا
إغواران هيرنانديث
ريوهاتشا 1827

أوغسطين كوتيس
(أم سلفستري)
هويسك 1825

نيكولاس ريكاردو
ماركيز ميخيا
ريوهاتشا 1864
سانتاماريا 1937

1885

ترانكيلينا
إغواران كوتيس
ريوهاتشا 1863
سوكري 1947

روسا أنطونيا
إغواران كوتيس

خوسيه أنطونيو
إغواران كوتيس

خوان دي ديوس
ماركيز إغواران
ريوهاتشا 1888 / 1957
بوغوتا (سيبا كيتيبير)

مارغريتا ميتيانا
ماركيز إغواران
ريوهاتشا 1889 1910

لويسا سانتياغا
ماركيز إغواران
بارانكاس 1905 -
كارتاخينا 2002

مارغريتا ماركيز كابيو *
سانتا مارتا 1936

ألفيرا كاريو
(الخالة با بواسطة
سارا مانويلا كاريو)

نيكولاس
غوميث
بواسطة
إيسبا غوميث

ميدوس تويث
(بواسطة
عيسوس مويث)

أوسكار الأركون *

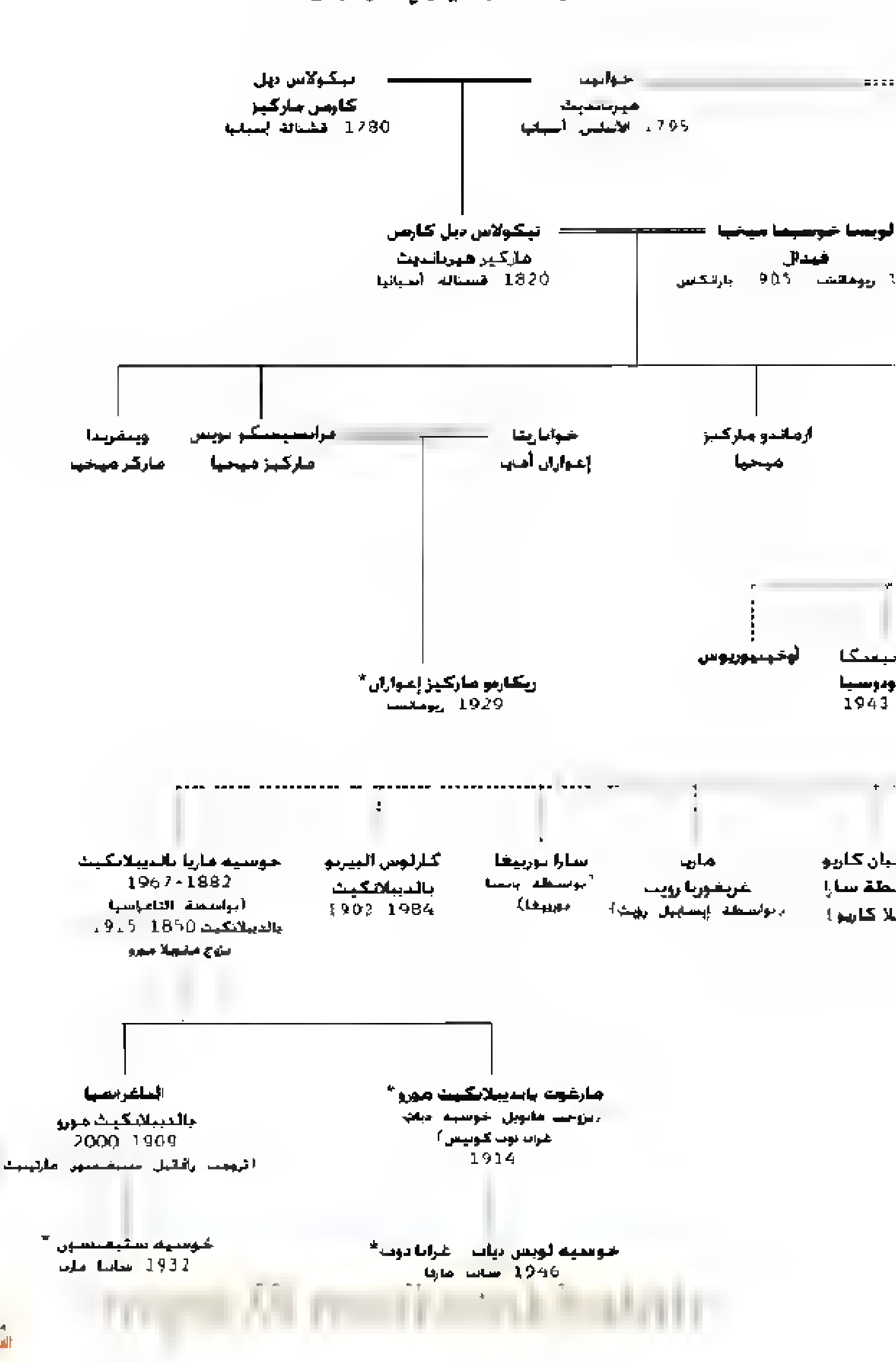
بترونيلا أرياس
ماركيز

آخرون
مجهولون

زواج
أطفال شرعيون
علاقة غير شرعية
أطفال غير شرعيين
مُخبر *



أسرة ماركيز إغواران





ملاحظات

مقدمة المترجم

1. كاتب أمريكي له روايات امتازت بالواقعية منها **لمن تقرع الأجراس**. حاز جائزة نوبل عام 1954
2. روائي أمريكي ولد في نيو ألباني عالج مشكلات الإنسان في جنوبي الولايات المتحدة. تميز أسلوبه بالرمزية والتحليل النفسي. من رواياته **الصخب والعنف**، **معبد**، **نور آب**. حاز جائزة نوبل عام 1949
3. أديب وناقد فرنسي استوحى أعماله النقدية من الدراسات العصرية للألسنية والتحليل النفسي وعلم الإنسان، من كتبه **درجة الصفر للكتابة** و**إمبراطورية العلامات** و**لذة النص**.
4. شاعر وروائي غواتيمالي عالج مشكلات بلاده الاجتماعية وأحيا تراثها التاريخي. له **أساطير غواتيمالا** و**السيد الرئيس** حاز جائزة نوبل سنة 1967.

مقدمة المؤلف

1. جويس جيمس روائي إيرلندي. يعتبر أحد أعظم الروائيين العالميين وأحد أبرز ممثلي الرواية النفسية أشهر آثاره **يوليسيز**
2. روائي فرنسي يعد أحد أبرز ممثلي الرواية النفسية. أشهر آثاره سباعية دعاها **بحثاً عن الزمن المفقود**.
3. روائي نمساوي تميزت آثاره بتصوير قلق الإنسان الحديث ومحاولته البحث عبثا عن طريق للخلاص.
4. روائية إنكليزية عرفت بنزوعها إلى الخروج على عمود التقليد في كتابة الرواية، أصيبت باضطراب عقلي فانتحرت.
5. روائي إنكليزي يعتبر بإجماع النقاد أعظم الروائيين الإنكليز بلا استثناء، تميز أسلوبه بالدعابة البارعة والسخرية اللاذعة. وقد صور في رواياته جانبا من حياة الفقراء والمعوزين
6. شاعر وروائي وكاتب مسرحي فرنسي. اعتقد بقدرة الإنسان على بلوغ الكمال. أشهر آثاره رواية **البؤساء**.



(*) تجاوز عدد صفحات السيرة الألفين، والهوامش الستة آلاف عندما أدركت في نهاية المطاف أنني ربما لن أفرغ من هذا المشروع. أما هذه السيرة التي أضعها في متناول القراء فهي نسخة منقحة عن سيرة أطول بكثير، فرغت من كتابتها تقريباً، وأريد نشرها بعد مرور بضع سنوات، إذا ما رأفت بنا الحياة. لكن يبدو من المعقول تأجيل تلك المهمة الضخمة والعمل على استخلاص كشوفاتي والمعلومات التي حصلت عليها في نمط سردي موجز ومحكم نسبياً، في حين أن موضوع هذا الكتاب، الذي يخص رجلاً تجاوز الثمانين من عمره اليوم، لا يزال حياً وفي موقع يمكنه من قراءته. (المؤلف)

تمهيد: من أصول مغمورة 1800–1899:

1. يستند هذا القسم من الكتاب، بالرغم من أسلوبه الأدبي، استناداً مباشراً إلى أحاديث مع لويسا سانتياغا ماركيز في كارتاخينا عام 1991 وفي بارانكيا عام 1993، وعلى ذكريات غابرييل غارسيا ماركيز وأخته مارغريتا التي سنشير إليها من الآن فصاعداً بالاسم مارغوت.

2. تستند هذه المقدمة والفصول الثلاثة القادمة على أحاديث مع جميع أفراد أسرة غارسيا ماركيز وعدد كبير من أفراد الأسرة الممتدة في سنوات 1991–2008، إضافة إلى العديد من الرحلات حول الساحل الكولومبي وذلك من بلدة سوكري إلى بلدة ريوهاتشا وما خلفها. وبعض هذه الأحاديث مع أخوة غابرييل غارسيا ماركيز وكان من أدق من زودني بالمعلومات ليجيو غارسيا ماركيز، من طائفة المرمون، الذي رأى أن واجبها يتمثل بالبحث في تاريخ أسرتها (وأنا مدين له بإعداد شجرة العائلة)؛ ومارغوت بالسيلانكيث دي دياث غرانادوس التي أمضت وقتاً طويلاً في منزل جده العقيد ماركيز في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين؛ وريكاردو ماركيز إغواران الذي زودني في عامي 1993 و2008 بمعلومات قيمة عن تفرع الأسرة في منطقة غواخيرا؛ ورافائيل أوسوريو مارتينث الذي زودني بفهم عميق عام 2007 عن جذور أسرة غابرييل إليخيو غارسيا في بلدة سينثي. أما غابرييل غارسيا ماركيز نفسه فلم يكن يملك سوى معلومات عامة إلى حد ما عن تفاصيل تاريخ هذه الأسرة، لكن فهمه للنكتة وفعالية غامضة الأنساب مدهش، وتشكل قصص أقرباء محددين، ملعونين كانوا أم مباركين، رتيبة حياتهم كانت أم مثيرة مفعمة بالأحداث، أساس هذا الاستهلال القصصي. على وجه العموم، إن كاتب سيرة غابرييل غارسيا ماركيز يعتمد أيضاً على نتف اعتباطية من المعلومات تظهر في الصحافة الكولومبية بين حين وآخر. إن كتب السيرة الوحيدة التي صدرت سابقاً هي كتاب: García Márquez: la soledad y la Gloria لمؤلفه أوسكار كولاثوس (برشلونة، بلازا خانيث 1983) وهو كتاب مفيد ولكنه مختصر. أما الكتاب الأهم عن حياة غابرييل غارسيا ماركيز حتى سنة 1967 فهو كتاب García Márquez: el viaje a la semilla. La biografía لمؤلفه داسو سالديبار؛ مدريد الفاغوارا، 1997)؛ وأهم ما في هذا الكتاب المعلومات التي يوفرها عن جذور أسرة غابرييل غارسيا ماركيز من جهة الأب والأم وعن طفولته وأيام دراسته في

المدرسة. لكن من الناحية التاريخية تعد الدراسة السيرة الأولى عن سنوته هي تلك التي كتبها ماريو فارغاس يوسا بعنوان García Marquez: historia de un decidio (برشلونة، بارال، 1971)، وهو كتاب في النقد الأدبي أيضاً. لكن بالرغم من أن الحقائق الواردة فيه لا يعتمد عليها، إلا أنه يحتوي على إشراقات لأن معظم معلومات فرغاس يوسا مصدرها المباشر هو غابرييل غارسيا ماركيز في ستينيات القرن العشرين. ومن الكتب ذات الأهمية الموازية لما أوردناه آنفاً، هو الكتاب الذي ألفه إليخيو غارسيا وهو شقيق غابرييل غارسيا ماركيز وكان بعنوان Tras las claves de Melquiades: Historia de "Cien anos de soledad" (بوغوتا، نورما، 2001). أما التأملات في سيرة غابرييل غارسيا ماركيز التي نشرت قبل مذكراته المحملة وإن كانت غير دقيقة في كتابه عشت لأروي (لندن جوناثان كيب، 1993) وصدّرها بعبارة "الحياة ليست هي ما عاشه المرء، بل هي ما يتذكره، وكيف يتذكره ليرويه من جديد، فهي تلك الواردة في كتاب The Fragrance of Guava لمؤلفه بلينيو أبوليو ميندوثا (لندن، فيرو، 1988). كما أن الأعمدة الأسبوعية التي كتبها غابرييل غارسيا ماركيز ونشرها في صحيفة الاسبكتادور (بوغوتا) وصحيفة الباييس (مدريد) بين 1980 و1984 فهي، بمجملها، غنية بالمعلومات والإضاءات. إن كتاب ميندوثا عطر الغوافة وكتاب غابرييل غارسيا ماركيز عشت لأروي هما الكتابان الأساسيان في سيرة غابرييل غارسيا ماركيز باللغة الإنكليزية، وهناك كتابان مهمان آخران هما Gabriel Garcia Marquez: Writer of Colombia لمؤلفه ستيفن مينتا (لندن، جوناثان كيب، 1987) وكتاب Garcia Marquez. The Man and His Work لمؤلفه جين بيل - فيلادا (تشابل هيل، مطبعة جامعة كارولاينا الشمالية، 1990). ويمكن الاطلاع على تحليلات في النقد الأدبي في القسم الخاص بمصادر الكتاب (لا سيما كتابي بيل ووود).

3. في موضوع "الأبناء الضبعيون"، انظر "Telepatia sin hilos" في صحيفة الاسبكتادور (بوغوتا) 23 تشرين الثاني 1980. انظر شجرة العائلة في الملحق الخاص بها من هذا الكتاب لتلاحظ الأسلوب الذي تشير به رواية مئة عام من العزلة إلى تزويج أسرة غارسيا ماركيز ماركيز وماركيز إغواران، من حيث العلاقات الشرعية وغير الشرعية.
4. الكريولي شخص أبيض متحدر من سلالة بعض الولايات المتحدة الأمريكية الفرنسيين أو الإسبان الأولين ولكنه لا يزال يحتفظ بلغته وثقافته الأصليتين.
5. انظر كتاب غيرمو هينريكيث توريس الموسوم:

El misterio de los Buendia: el verdadero trasfondo historico de Cien anos de soledad. (بوغوتا، بيما أميركا/2003، الطبعة الثانية المنقحة 2006)، إذ يعتقد هينريكيث، وهو مواطن من ثياغا، أن أسرة بوينديا الوارد ذكرها في رواية مئة عام من العزلة تستند إلى أسرته هو شخصياً، هينريكيث، المتحدرة أصلاً من جذور نصفها من اليهود المهاجرين من أمستردام إلى منطقة البحر الكاريبي. وبالرغم من أن عدداً قليلاً جداً من القراء سيصدق ما يقوله هينريكيث، إلا أن كتابه يوفر معلومات قيمة عن الإطار العام والأجواء التي تدور فيها أحداث مئة عام من العزلة



6. انظر كتاب عشب لأروي بعابريل غارسيا ماركيز (الطبعة الإنكليزية) ص 66 و67 حيث تجد تفسيراً مفصلاً عن هذه المرحلة. ولم يرث أي من "الأصال الصبيين" لنيكولاس ماركيز اسمه، بل كلهم يحملون شهرة أمهم.
7. مقابلة، باراكاس، 1993.
8. أوضح خوسيه لويس دياث - غراندوس صلته بعابريل غارسيا ماركيز عندما التقيه أول مرة في بوغوتا سنة 1991 حيث قال: "عندما كان العقيد ماركيز في الثامنة عشرة من عمره كان قد رزق بولد ذكر من التاغراسيا بالديبلانكيث واسمه خوسيه ماريا، وقد حمل لقب أسرة أمه بالديبلانكيث: وهو والد أمي. وفي وقت لاحق، تزوج العقيد ماركيز ترانكيلينا إغواران كوتيس وهي عمة أبي مانويل خوسيه دياث - غرانادوس كوتيس، وأنجبت له ثلاثة أطفال آخرين ومنهم لويسا سانتياغا ماركيز إغواران، وهي والدة غابرييل غارسيا ماركيز. بمعنى آخر، إنني أتصل بصلة قرابة مزدوجة مع غابرييل غارسيا ماركيز. إن هذه القصة مثال على التشابك الذي صادفته في عملي لا في غواخيرو "الطريفة" وحسب، بل في كل مكان سافرت إليه في كولومبيا في تسعينيات القرن العشرين. الحق أن خوسيه لويس دياث غارسيا تزوج قريبة له عام 1972.
9. نبات دائم الخضرة من الفصيلة الزنبقية، موطنه الأصقاع الجنوبية الدافئة من أميركا الشمالية يصل ارتفاعه أحياناً إلى تسعة أمتار، وهو ذو ورق حشن سيفي الشكل، وزهرات عمودية شمعية الملمس بيضاء أو ضاربة لونها إلى الحمرة.
10. ليجيا غارسيا ماركيز، مقابلة، 1991.
11. ثمة سبب يدعو للاعتقاد أن آرخيميرا كانت نموذجاً لبيلار تيرنيرا، الشخصية الرئيسة في رواية مئة عام من العزلة.
12. إنني مدين بمعلوماتي عن غابرييل مارتينيث غاريدو الذي يسمي أن يُدعى بالاسم غابرييل غاريدو مارتينيث إلى حفيده رافائيل أوسوريو مارتينيث. لقد جعلتني شهادته أدرك أن غابرييل ماركيز كان من السهل أن يُطلق عليه اسم غابرييل غاريدو ماركيز (أو، غابرييل غاريدو كوتيس)، وجعلتني أدرك أيضاً كم كان بعيد النظر قرار غابرييل غارسيا ماركيز بالتماهي مع جدّيه الليبراليين المنحدرين من غواخيرا بدلاً من أن يتماهى مع جدّيه مالكي الأرض المحافظين المنحدرين من سينثي (التي كانت تابعة لمديرية بوليفار آنذاك).
13. عندما تزوج غابرييل الأب سنة 1958 واحتاج إلى شهادة ميلاد، أثبتت الأسرة القسيس في آركاتاكا بتغيير اسمي جدّيه لأبيه ليظهرا غابرييل غارسيا وآرخيميرا مارتينيث.

1 - عقداء وقضايا خاسرة (1899-1927):

1. أرستو غونثاليث بيرميو، مقالة، كرايسس، (بوينس آيرس) 1972، (أعيد طبعها في كتاب من تحرير ألفونسو رينتيريا مانتيلا بعنوان GM habla de GM en 33 grandes repotages (بوغوتا، Renteria Editores 1997) ص 111-117، حيث يقول غابرييل غارسيا ماركيز إنه يريد أن تتوقف ثورات أميركا اللاتينية عن طابعها "الاستشهادي" وإنه يريد قارته وشعوبها أن تبدأ بالفوز. وما حياته إلا نصباً لهذا الطموح.



2. ديفيد بوشنيل: The Making of Modern Colombia. A Nation in Spite of itself (بيركلي ولوس أنجلوس، مطبعة جامعة كاليفورنيا 1993) إدواردو بوسادا - كاربو: The Colombia Carribbean: A Regional History، 1870-1950 (أوكسفورد، مطبعة كلاريندون 1996)، وفرانك سفورد وماركو بالثيوس: Colombia: Fragmented Land, Divided Society، (أوكسفورد، مطبعة أوكسفورد 2001).
3. "كانت خالتي مارغريت أكبر من أمي بست عشرة سنة، كما كان هناك عدد من الأطفال بين عمريهما، لكنهم ماتوا كلهم خلال الولادة: طفلة، طفلتان توأم، وغيرهن. كان الخال خوانيتو يكبر أمي بسبعة عشر عاماً وكانت تسميه "العراب" وليس أخي "أنظر ليجيا وهي تتحدث في كتاب سلفيا غاليس Los Garcia Marquez (بوغوتا، آرانغو، 1996)، ص 152.
4. كانت أوثق علاقة لأسرة ماركيز إغواران هي تلك التي تربطها بأخويو ريوس وهو ابن أخت نيكولاس وشريكه في التجارة. كانت ابنته آناريوس في الثانية من عمرها عندما كانت لويسا في ضيق، لكنها تتذكر كل ما كانت تقوله لها أمها أرسيبيا كاريو عن تلك الأيام التي أصبحت اليوم أسطورة. وعندما ولدت أختها فرانسيسكا لويسا ريوس كاريو في الخامس والعشرين من آب سنة 1925، "عمّدت" لويسا بعد أسبوعين من مولدها، وهكذا، أصبحت ابنة بالمعمودية
5. إنني مدين لغوستافو أدولفو راميرث عن نسخة من جريدة المديرية Gaceta Departmental الخاصة بمجدلينا لشهر تشرين الثاني 1908 التي تبين أن نيكولاس كان قد سُجن لارتكابه جريمة قتل في سيينا مارغ في السابع من تشرين الثاني سنة 1908 ولم يكن قد حُوكم بعد
6. سالديبار: GM; el viaje a la smilla، ص 44.
7. أنظر ماريو فارغاس يوسا وغابرييل غارسيا ماركيز: La novela America Latina: dialogo (ليما، ميلا باتريس 1968)، ص 14. في رواية **مئة عام من العزلة**، يؤدي خوسيه أركاديو بوينديا دور نيكولاس، وتصبح مرثيديس هي بروذينثيو أغويلار.
8. غابرييل غارسيا ماركيز، حديث في مدينة مكسيكو، 1999.
9. **غشت لأروي** (الطبعة الإنكليزية) ص 40 للاطّلاع على وجهة نظر غابرييل غارسيا ماركيز عن الموضوع
10. **عاصفة الأوراق**، ص 51 - 54. يقدم غابرييل غارسيا ماركيز وجهة نظر فوكنرية رومانسية عما يمكن أن نصطلح عليه بعبارة الأسطورة التي أسستها أسرة غارسيا ماركيز، التي تنفي باللائمة على "الحرب" لما ستنه من خروج (وهي أقل صراحة وتاريخية من التفسير الذي قدمه لاحقاً في **مئة عام من العزلة** ولا يزال رومانسيا).
11. هنريكيث، El Misterio، يناقض تفسير سالديبار للأحداث التي تقتفي خط أسرة غارسيا ماركيز



12. يرتفع آراكاتاكا أربعين متراً عن مستوى سطح البحر ويبعد ثمانية وثمانين كيلومتراً عن مدينة سانتا مارتا، ويتراوح معدل درجة الحرارة فيها ثماني وعشرين درجة (وهو السبب الذي يجعل غابرييل غارسيا ماركيز يفضل العمل في درجة حرارة عرقة).

13. لاثـارو دياغو حوليو: Aracataca.. una historia para contra (آراكاتاكا، 1989 غير منشور) وهو كتاب قيّم عن تاريخ المنطقة بالرغم من الميل إلى عدّ أعمال غابرييل غارسيا ماركيز الأدبية دليلاً على السيرة الذاتية.

14. هناك خلاف واسع بشأن هاتين الكلمتين في كولومبيا، وإذا ما تدخل أحد فهو غير المهور. هناك اتفاق عام على أن الساحليين يقصد بهم سكان الأراضي المدارية المنخفضة في الكاريبي أو الأطلسي شمالي البلاد. أما أصل سكان الكاتشاكو فهو سكان بوغوتا من أبناء الطبقة العليا، لكن عدداً كبيراً من الساحليين بدأوا ينظرون إلى جميع السكان الذين يقطنون المرتفعات الداخلية من البلاد (منطقة الإنديز عموماً) على أنهم من الكاتشاكو، وفي بعض الأحيان يشتمون على ما يعرف بسكان أنتيوكا (أنطاكيا). انظر مذكرات غابرييل غارسيا ماركيز: عشت لأروي (الطبعة الإنكليزية)، ص 41 42

15. جوديث وايت:

Editorial Persencia, Historia de una ignominia: la UFC en Colombia, Bogota 1979, p. 19-20. ومع هذا، فالعقيد بلا ريب واحد من كبار الليبراليين في المدينة (فقد كان في شبابه رئيس النادي الليبرالي في ريوهاتشا).

16. انظر سالديبار، المصدر السابق، ص 50، وكتاب:

White Historia; and Catherine C. Le Grand, *Frontier Expansion and Peasant Protest in Colombia*, 1850-1936 (Albuquerque, New Mexico, University Press 1986), p. 73

17. عشت لأروي، ص 15. يؤكد غابرييل غارسيا ماركيز – مغالطاً – أن جدّه لأبيه أصبح عمدة آراكاتاكا مرتين.

18. المصدر السابق، ص 42، حيث يروي غابرييل غارسيا ماركيز الحادث.

19. المصدر السابق، ص 44–60 بخصوص مغازلتهما مما يبعث على الدهشة أن هذا السرد المطول أورده غابرييل غارسيا ماركيز بطريقة أخرى في كتابه الحب في زمن الكوليرا، 1985.

20. ليجيا غارسيا ماركيز، في كتاب غاليفس، المصدر السابق، ص 151 52

21. لا يذكر غابرييل غارسيا ماركيز شهرة أبيه مباشرة في مذكراته، وهو أمر يستحق التنويه به هنا.

22. يلتقي غابرييل غارسيا ماركيز باريغا وهو طالب في بوغوتا، حيث كان باريغا أستاذاً في كلية الحقوق، ويمتلك مكتبة، وأدى دوراً بارزاً في أحداث العنف في بوغوتا سنة 1948

23. خوسيه فونت كاسترو، مقالة، الناسيونال (كاراكاس) تموز 1972، وكذلك خوسيه فونت كاسترو، مقالة، الباييس (مدريد) 19 كانون الثاني 1986.

24. هذا هو التفسير الذي يطرحه غابرييل غارسيا ماركيز في روايته الأولى عاصفة الأوراق



25. يمكن مشاهدة هذا كله، باستثناء البيت، الذي هُدم في مطلع سنة 2007 لإفساح الطريق أمام بيت آخر ومتحف.
26. بالإسبانية: "La nina bonita de Aracataca" وقد استخدم هذا التعبير كل من غارسيا بوسا وسالديبار
27. أخبرني الأهالي في آراكاتاكا أنهم لم يشاهدوا قط لويسا سانتياغا تخرج إلى الشارع في عشرينيات القرن الماضي
28. تستند رواية الحب في زمن الكوليرا إلى حدٍّ كبير وكما أشرنا آنفاً، إلى العلاقة العاطفية بين غابرييل إليخيو ولويسا سانتياغا. ويروي لي غارسيا ماركيز في عشت لأروي أن العمة فرانسيسكا كانت متواطئة مع الشابين. لكن غابرييل إليخيو كان يصر دائماً على أنه ألدّ أعدائه، وكان يطلق عليه عبارة "كلب الحراسة".
29. انظر:

Leonel Giraldo, *Siete Dias* en Aracataca, el Pueblo de "Gabo" GM, *Siete Dias* (Buenos Aires), 808, 8 14 December 1982

لن يتغير غابرييل إليخيو أبداً. فقد وُجه إليه وإلى زوجته بعد مرور سنوات طويلة، سؤال عن أجمل ذكرياتهما. تجيب لويسا: "عندما قدّم إليّ إليخيو الخاتم". أما غابرييل إليخيو فيقول: "أيام العزوبية التي استمتعت بها كثيراً".
30. انظر: ليجيا غارسيا ماركيز في كتاب غالفيس، مقابلة مع روث أريثا كويتس، بوغوتا 2007
31. مقابلة، خوسيه فونت كاسترو، مدريد 1997.
32. غارسيا بوسا، المصدر السابق
33. انظر عشت لأروي (الطبعة الإنكليزية)، ص 59-60. إن البيت الذي أمضيا فيه شهر العسل هو منزل أسرة ماركيز إغواران المجاور لمبنى الجمارك في ريوهاتشا. وحسب ريكاردو ماركيز إغواران، فهو المكان الذي صحبني إليه في حزيران 2008، حيث أدت "رماية غابرييل إليخيو البارعة" إلى الحمل بغابرييل غارسيا ماركيز في ليلة الثاني عشر - الثالث عشر من حزيران سنة 1926 وبعد مرور أسبوعين، انتقل الاثنان إلى بيت آخر أكثر توسعاً في الشارع المجاور.
34. الواضح أن ثمة غموضاً يخص الأسباب التي دفعت نيكولاس للموافقة على الزواج على مضض، والسبب الذي جعل من تاريخ مولد غارسيا ماركيز مشكلة دائماً. غير أن التفسير الأوضح، هنا كما في جميع أنحاء العالم، في كل زمان ومكان، هو أن لويسا سانتياغا حملت منه وهي لم تكن متزوجة شرعاً بعد (طالما أن تاريخ الزواج لا يبدو مشكوكاً فيه) وأن غابيتو ولد قبل السادس من آذار (أو في السادس من آذار بعد أن فات موعد ولادته) ولهذا السبب، فإنه لم يُعمّد ولم يُسجل إلا بعد أن بلغ ثلاث سنوات (علماً أن أسرته كانت على كل حال أسرة محترمة جداً من المواطنين، تطيع القانون وتخشى الله). تؤكد لويسا سانتياغا أنها تزوجت غابرييل إليخيو وهو ابن غير شرعي لا يحمل مؤهلاً بالرغم من معارضة أبويها، وهذه قصة مدهشة. وما دام ليس هناك أي شك في



حسبها لغابرييل إليخيو، فالمحتمل أن أسلوبها في ضمان مواقعة أبويها المترددين كان يتمثل بأن تحمل منه. لكن لا يوجد سوى دليل طرفي على هذا.

2 – بيت في آراكاتاكا (1927-1928):

1. مندوثا، عطر الجوافة، ص 17.
2. انظر
John Archer, "Revelling in the Fantastic", *Sunday Telgraph Magazine* (London), 8 February 1981
إن إحدى الوسائل التي جعلتني أبقى هادئاً خلال الليل هو توهم لي بني إذا ما تحركت، فإن الموتى سيخرجون من كل حجرة هنا، فعندما كان الليل يهبط، كنت أصاب بالهلع، انظر، خيرمان كاسترو كايسدو: "Gabo cuenta la novella de su vida", *El Espectador*, 23 March 1977
إني لا أخشى الظلام، بل أخشى البيوت الكبيرة، لأن الموتى لا يخرجون إلا من البيوت الكبيرة... ولا أبتاع إلا البيوت الصغيرة لأن الموتى لا يخرجون منها!
3. انظر: عايدة غارسيا ماركيز، في كتاب غالفيس، المصدر السابق، ص 99
"وثمة حفيد في منزل جدي". يقول الحفيد نفسه في مقابلة مع أحد الصحفيين: "لقد سمعني أبواي إلى جدي كأنني هدية، لإدخال السرور إلى نفسيهما". إن هذا التعبير يضع حداً للتناقضات في تفاسير أخرى كثيرة.
4. انظر لويس إنريكي، في غالفيس، المصدر السابق، ص 123.
5. انظر: **عشت لأروي** (الطبعة الإنكليزية)، ص 32-36 حيث يستذكر غارسيا ماركيز المنزل. إن وصفي يستند إلى مقارنة متأنية بين مذكرات غابرييل غارسيا ماركيز والتحليل المعماري الوارد ذكره في ساندليار، المصدر السابق، وما أكده المعماريون المسؤولون عن إعادة البناء عام 2008.
6. انظر: المصدر السابق، ص 34، حيث يقول غارسيا ماركيز إن الغرفة تحمل التاريخ 1925 محفوراً عليها، وهي سنة الإنشاء من سالها
7. انظر: مارغوت غارسيا ماركيز، غالفيس، المصدر السابق، ص 65.
8. انظر: **عاصفة الأوراق** و**عشت لأروي** (الطبعة الإنكليزية)، ص 35
9. "يتذكر" غابرييل غارسيا ماركيز في وقت لاحق زيارة أروبيبي أريبيي بالرغم من أن الجنرال لقي مصرعه قبل مولده بأربع عشرة سنة. انظر **عشت لأروي**، ص 37
10. كان العقيد، شأنه شأن الشخصية التي تستند إليه في رواية **عاصفة الأوراق** كثير التجوال حول منزله، يبحث عن أعمال صغيرة يمكن له أن ينجزها مثل تثبيت المسامير والطلاء. وفي السنوات اللاحقة يلجأ غابرييل غارسيا ماركيز نفسه إلى مثل هذه الأعمال لتخفف عنه عناء الكتابة من وقت إلى آخر، وكان يرتدي أسمال بدلة عمال وهو يكتب.
11. انظر: **عشت لأروي**، ص 33 و73 و74 يقول غابرييل غارسيا ماركيز إنها "شقيقة جدتي الأكبر منه سناً"



12. انظر: GGM, "Watching the Rain in Galicia", *The Best of Granta Travel* (London, Granta/Penguin, 1991), pp. 1-5. يصف غابرييل غارسيا ماركيز هنا طريقة إعداد ترانكيبا الخمر والمري وهو الطعام الذي لم يذقه مثله مرة أخرى حتى زيارة غاليثيا. بالرغم من أن تناوله طعاما مماثلاً في برشلونة في ستينيات القرن العشرين أعاد إليه الصرخات، بكل مثل كل شيء، القلق والمرح أيام طفولته.
13. انظر: ليجيا غارسيا ماركيز، في غالصي، ص 152. المصدر السابق.
14. انظر: غابرييل غارسيا ماركيز، صحيفة الاسبكتادور، 18 كانون الأول 1983.
15. انظر: "Growing up in Macondo. Gabrial Garcia Marquez", *Writers and Places transcript* (BBC2 Film, shown 12 February 1981, Producer John Archer)
16. حسب مناقشاتي مع مارغوت بالديبلانكيث التي تعتمد على ذكرياتها وعلى صور الأسرة. انظر أيضاً سالديبار، المصدر السابق، ص 96-97، الذي يستند إلى ذكريات سارا إميليا ماركيز.
17. بي بي سي، المصدر السابق.
18. مقالة الاسبكتادور، 31 تشرين الأول 1982.
19. قصة رواها غابرييل إليخيو لخوسيه فونت كاستيرو.
20. ميندوثا، عطر الجوافة، ص 18.
21. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، 16 أيار، 1982. وفيها يتذكر غابرييل غارسيا ماركيز احترام جده للمعاجم.
22. حسب مناقشتي مع مارغوت بالديبلانكيث التي تستند إلى ذكرياتها وإلى صور الأسرة. انظر أيضاً سالديبار، المصدر السابق، ص 103-104، المستند أيضاً إلى ذكريات سارا إميليا ماركيز.
23. وايت، المصدر السابق، ص 19-20
24. انظر:

Gabriel Fonnega, *Bananeras testimonio vivo de una epopeya* (Bogota, Tercer Mundo n.d.), pp. 27-8

25. المصدر السابق، ص 191.
26. المصدر السابق، ص 28.
27. انظر:

Catherine C. LeGrand, "Living in Macondo: Economy and Culture in a UFC Banana Enclave in Colombia", in Gilbert M. Joseph, Catherine C. LeGrand and Ricardo D. Salvatore, eds., *Close Encounters of Empire Writing the Cultural History of US-Latin American Relation* (Durham, N.C. Duke University Press, 1998), pp. 333-68 (p. 348)

28. عشت لأرويها، ص 18.
29. سالديبار، المصدر السابق، ص 54، 522



30. لا يوجد تاريخ واضح عن هذه الحادثة ولا إجماع عن عدد المدنيين الذين لقوا مصرعهم على يد الجيش، لكن معظم الكتب يشيرون إليها وفق إيديولوجيتهم.

31. انظر:

Carlos Arango, *Sobrevivientes de las bananeras* (Bogota ECOE, 2nd ed., 1985), p. 54

32. انظر:

Maria Tila Uribe, *Los anos escodidos suenos y rebeldias en la decada del veinte* (Bogota, CESTRA, 1994), p. 265

33. انظر:

Carlos Cortes Vargas, *Los Sucesos de La bananers*. ed. R. Herrera Soto (Bogota, Editorial Desarrollo, 2nd edition, 1979), p. 79.

34. انظر:

Roberto Herrara Soto and Rafael Romero Castaneda, *La zona bananera del Magdalena Historia y lexico* (Bogota Instituto Caro y Cuervo 1979), pp. 48, 65

35. انظر: وايت، المصدر السابق، ص 99.

36. انظر: Herrara and Castaneda. *la Zona bananera*, p. 52

37. انظر: آرانغو، المصدر السابق، ص 84-86.

38. انظر: قويمرو، المصدر السابق، ص 136-137

39. المصدر السابق، ص 138

40. المصدر السابق، ص 154.

41. انظر: Jose Maldonado, quoted in Arango, *sobrevivientes*, p. 94.

42. انظر: وايت، المصدر السابق، ص 151.

43. غابرييل غارسيا ماركيز، الاسكتادور، 18 كانون الأول 1983

هنا يعترف بأنه لم يكتشف إلا قبل بضعة أعوام أنه (أي غارسيا) قد اتخذ موقفاً محدداً ومتماسكاً جداً في أثناء إضراب عمال الموز ومقتلهم، ومن المدهش أن يكتشف أن غابرييل غارسيا ماركيز لم يعرف معظم الحقائق المرتبطة بالإضراب؛ بما في ذلك تصرفات جده ديورن، وأعمارنا والقريبين منه في وقت تأليف رواية مئة عام من العزلة

44. انظر:

Cortes Vagas, *Los sucesos de Las bananeras*, pp. 170-71, 174 182-3 201, 225

هل عرف غابرييل غارسيا ماركيز يا ترى شيئاً عن كتابة هذه الرسائل؟

45. نصوص الوثائق من ضمنها شهادة أعمرينا، يمكن العثور عليها في:

La Masacre en las bananeras (Bogota, Los Comuneros, n.d.)

3 – رفقة جده (1929-1937):

1. انظر عن ذكريات هذين الرياريين في عشت لأروي، ص 11-13، 122-125



2. المصدر السابق، ص 123، حيث يقول: "إنك لم تعد تذكرني بعد اليوم" لكن ربما يتعين النظر إلى هذه العبارة بوصفها مثالاً على المقولة: يجوز للشاعر ما لا يجوز لغيره.
3. كانت مارغوت طفلة مضطربة استمرت تأكل التراب حتى بلغت الثامنة أو التاسعة من عمرها. وهي التي أوحت بشخصيتي أمارنتا وريبيكا في مئة عام من العزلة.
4. انظر بي بي سي، المصدر السابق.
5. انظر:

"El microsomos de GM", *Excelsior* (Mexico city), 12 April, 1971

6. انظر: LeGrand, *Frontier Expansion*, p. 73
7. انظر: مارغوت غارسيا ماركيز، في غالفيس، المصدر السابق، ص 60- 6.

الواضح أن مارغوت وغابيتو كانا مدللين جداً، وهو ما يقرّ به في مقالة في صحيفة الاسبكتادور في 16 آيار 1981.

8. يسود الاعتقاد بوجه عام في مدينة آراكاتاكا أن نيكولاس اشترى مباني ثم أجّرها في المنطقة التي تعرف بالاسم كناكونيا ثم تحولت إلى إحدى "الأكاديميات" أو قاعات الرقص حيث كان الشراب والجنس متوفرين بحرية دمه. انظر:

Venancio Aramis Bermudez Gutierrez, "Aportes socioculturels de las migraciones en la Zone Bananera del, Magdalena" (Bogota, November 1995, Beca Colcutura 1994, I Semestre, unpublished ms.).

9. بي بي سي، المصدر السابق.
10. عشت لأروي، ص 82، بخصوص خوفه الدائم من الظلام.
11. انظر:

Carlota de Olier, "Habla la Madre de GM. "Quisiera Volar a verlo . pero le tengo terror al avion", *El Espectador*, 22 October 1982 يقول دوما لويسا:

"لو أن أبي على قيد الحياة لكان سعيداً. وقد فكّر دوماً في أن اموت سيمنعه من الاستمتاع بانتصارات غابيتو وفطن إلى أن غابيتو سيحقق في الوقت المناسب مكانة مرموقة، فيقول غالباً: إنه لأمر يدعو للأسى لأنني لن أكون حاضراً كي أرى إلى أي مدى سيأخذه ذكاؤه".

12. غابرييل غارسيا ماركيز، مقابلة الاسبكتادور، 2 آذار 1983 وفيها إشارة إلى أن معظم زوار المنزل كانوا مسيحيين.
13. انظر: Nicolas Suescum, "El Pertidigitador de Aracataca", *Cromos* (Bogota), 26 October 1982, pp 24-7. وفيها نبأ تصويرها لغابرييل غارسيا ماركيز الطفل الذي لا تطرف عيناه كما تطرف عدسة التصوير السينمائية، ولهذا يستوعب العالم ويطوره ثم يحوله إلى قصص.
14. مارغوت غارسيا ماركيز في غالفيس، المصدر السابق، ص 64-65
15. انظر:

"La Memoria de Gabriel", *La Nacion (Guadalajara)*, 1996, p 9

16. إليا بونيا بوميتكا، مقابلة، أيلول 1973، في بودو مكسيكو، 1990



17 مقالة في الاسبكتادور، 23 آذار 1977، حيث يخبر غابرييل غارسيا ماركيز خيرمان كاسترو كايسيدو أنه كان ينظر إلى انتظار وصول النقود إلى باريس على أنه طقس يشبه الملهاة

18 غالفيس، المصدر السابق، ص 64. كتب العقيد مراراً إلى ولده الأكبر خوسيه ماريا بالديبلاكيث.

19. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، 18 كانون الأول 1983، وفيها تحدث غابرييل غارسيا ماركيز على سجيته للمرة الأولى عن بيت الجيران خوسيه روساريو ديوران الذي لا بد من أنه مرّ به هو والعقيد أو زاره في مناسبات عدّة.

20. لمزيد من المعلومات عن الأب أنغاريتا راجع بي بي سي، المصدر السابق، وعشت لأروي، ص 84.

21. عن الفنزويليين في آراكاتاكا راجع: غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور 7 آذار 1982؛ عشت لأروي، ص 43.

22. عشت لأروي، ص 74-32.

23. سالدييار، المصدر السابق، ص 67، 71-72

24. مقابلة مع أنطونيو داكونتي (الحفيد)، آراكاتاكا، تشرين الثاني 2006.
راجع أيضاً، عشت لأروي، ص 18، 78-88.

25. عشت لأروي، ص 87-88، 9-92

26. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، مجلة كامبيو (بوغوتا)، 23 حزيران 2000. وعن دون إميليو راجع: مقالة مجلة كامبيو في 19-26 حزيران 2000

27. بي بي سي، المصدر السابق.

28. هربكيث، المصدر السابق، ص 283- 284.

29. مقابلة مع مارغوت بالديبلانكيث دي دياث غراندوس، بوغوتا، 1993.

30. عن وصول سبعة عشر من أولاد الزنى وعلى جباههم رسم رمز النصارى الذهبي بالرماد. انظر مئة عام من العزلة وعشت لأروي ص 6، 67.

31. بي بي سي، المصدر السابق.

32. عشت لأروي، ص 62-64.

33. غالفيس، المصدر سابق، ص 59.

34. أقل ما يقال عن هذه التجربة أنها تثير الاضطراب. فقد ظل غارسيا ماركيز يقول إنه لم "يلتقِ" أمه حتى بلغ سن الخامسة. من الواضح أنه لا بد له من أنه على هذا أنه "يتذكر"، لأنه لا بد من أنه قد رآها في الأقل في إحدى الزيارتين إلى بارانكيا. على كل حال، إن ذكرياته الأولى، وبصرف النظر عن مدى تكيفها بفعل الذاكرة والرغبة، كانت لحظة محددة من حياته وقد دونها في وقت لاحق في روايته عاصفة الأوراق ومذكراته عشت لأروي. وقد أضاف الآن إلى وعيه بجدته وعماته والخادمات وعياً ملموساً آخر بالشخصية الجديدة: أمه.

35 غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، كامبيو 16، كولومبيا، 11 كانون الأول 995



لمزيد من الاطّلاع على ذكريات غابرييل غارسيا ماركيز وموقفه من المدرسة انظر: **عشت لأروي**، ص 94-95.

36. بحسب بوسيرا في Bananeras، ص 96-97، فإن بيدرو فيرغسون كان عمدة آراكاتاكا سنة 1929.

37. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، 25 كانون الثاني 1981.

38. سالديبار، المصدر السابق، ص 120.

39. مقالة، الاسبكتادور، 31 تشرين الأول 1982.

40. مقابلة مع مارغوت بالديبلانكيث، بوغوتا، 1991.

41. سالديبار، المصدر السابق، ص 120.

42. سالديبار، مقالة في مجلة دياريو 16 (مدريد)، 1 نيسان 1989.

43. بخصوص العلاقة بين رسومه المبكرة للصور الهزلية ورغبته في التمثيل أمام الناس، انظر: ريتا غيبرت، سبعة أصوات (نيويورك، فينتج، 1973)، ص 317-320.

44. بي بي سي 2، المصدر السابق.

45. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، أيار 1982.

46. لويس إنريكي، في غالفيس، المصدر السابق، ص 123-124.

47. **تواريخ ميلاد أفراد الأسرة وأماكنها:**

1. غابيتو، آراكاتاكا، آذار 1927.
2. لويس إنريكي، آراكاتاكا، أيلول 1928.
3. مارغوت، بارانكيا، تشرين الثاني 1929.
4. عايدة روسا، باراكيا، كانون الأول 1930.
5. ليخيا، آراكاتاكا، آب 1934 (ذكريات عن المنزل في كتاب غالفيس، المصدر السابق، ص 152).
6. غوستافو، آراكاتاكا، أيلول 1936.
7. ريتا باراكيا، تموز 1939.
8. خايمي، سوكري، أيار 1940.
9. هيرناندو (نانشي) سوكري، آذار 1943.
10. ألفريدو (كوكي)، سوكري، شباط 1945.
11. إيليخيو غابرييل (ييو)، سوكري، تشرين الثاني 1947.

48. ميلوثا، عطر الغوافة، ص 21.

49. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، صحيفة التيمبو، كانون الأول 1992؛ الاسبكتادور، كانون الأول 1980، حيث يقول غابرييل غارسيا ماركيز إنه كان في سن الخامسة عندما حدث هذا كله. أما في كتاب **عشت لأروي**، ص 70، فيقول إنه كان في العاشرة، وليس في السابعة، كما تشير وقائع الأحداث.

50. في رواية **عاصفة الأوراق**، ص 50-54، يظهر مارتين، لشخصية مستوحاة إلى حدٍّ ما عن شخصية غابرييل إليخيو، شخصاً مرعباً. (إذ يمارس شعوذة غواخيرو، كما فيها غرر

الدبابيس في عيون الدمى). الواضح أنه لم يحب إيربيل (الشخصية المستوحاة جزئياً عن شخصية لويس)، لكنه لم يكن يريد سوى الاتصال بالعقيد طمعاً بنقوده وماله؛ ثم رحل قبل أن يتمكن ولده (الشخصية المستوحاة عن غابرييل غارسيا ماركيز جزئياً) من أن يكوّن له ذكريات عنه؛ وهذا صحيح عن تجربة غابرييل غارسيا ماركيز باستثناء أن غابرييل إليخيو أحب لويسا بعيداً أيضاً. أما في رواية عاصفة الأوراق، فإن غابرييل غارسيا ماركيز يُبقي الأم معه وتُبعد الأب إلى الأبد في محاولة لتحقيق الرغبة.

51. صحيفة الاسبكتادور، مقالة، 31 تشرين الأول 1982.
52. مارغوت غارسيا ماركيز في غالفيس، المصدر السابق، ص 61.
53. **عشت لأروي**، ص 85.
54. انظر

Leonel Giraldo, "*Siete Dias* en Aracataca, el Pueblo de "Gabo" GM", *Siete Dias* (Buenos Aires), 808, 8-14 December 1982

55. يعالج غابرييل غارسيا هذا الموضوع في **عشت لأروي**، ص 82–84
56. مارغوت غابرييل غارسيا ماركيز، في غالفيس، المصدر السابق، ص 62، وانظر أيضاً كتاب **عشت لأروي**، ص 84–85، وفيهما تأملات غابرييل غارسيا ماركيز عن عودة والديه. لاحظ على وجه الخصوص أنه بالرغم من رفضه توجيه النقد إلى أبيه علناً، إلا أنه بدأ تحدث عن ضرب، وهذا يربط أباه بالعنف (ويقول إن غابرييل إليخيو قد اعتذر في ما بعد عن ذلك)، مما لا ريب فيه أن معظم الآباء يعمدون إلى تطهير أولادهم جسدياً.
57. انظر ذكريات مارغوت في كتاب غالفيس، المصدر السابق، ص 68.
58. انظر:

GGM, *Los cuentos de mi abuelo el coronel*, ed. Juan Gustavo cobo Borda (Smurfit Carton de Colombia, 1988).

59. **عشت لأروي**، ص 95–96.
60. انظر:

Ramiro de la Esprella, "De "La casa" fue saliendo todo", *Imagen* (caracas), 1972

61. انظر ذكريات لويس إنريكي البهيجة عن الرحلة إلى سينثي في غالفيس، المصدر السابق، وفي **عشت لأروي**، ص 96–97.
62. مقابلة مع غابرييل غارسيا ماركيز في مدينة مكسيكو، 1999.
63. زرت سينثي مع ألفونسو توريس زوج أخت غارسيا ماركيز عام 1998 (وكان ألفونسو قد تزوج ريتا شقيقة غارسيا ماركيز ويقيم في سينثي).
64. مارغوت غارسيا ماركيز في غالفيس، المصدر السابق، ص 68.
65. انظر:

Saldivar, "GM: La novella que estoy escribiendo esta localizada en Cartagena de Indias, durante el siglo XVIII", *Diario 16*, 1 April 1989



هــذه العـبارات على درجة بالغة من الأهمية. فقصص غابرييل غارسيا ماركيز ورواياته مهووســـة بالجـــثث، لكن يبدو أن غابرييل غارسيا ماركيز نفسه لم يشاهد جثث الناس المهمـــين حـــتى عند وفاة أبيه عام 1984. وفي قصته الأولى **الاستسلام الثالث**، 1947، يمضي الراوي عمره لكن جسده لا يتفسّخ ولا يُدفن.

66. انظر: غييرمو أوتشوا، مقالة، صحيفة إكسيلسيور، 13 نيسان 1971. مما لا ريب فيه أنه لم يكن في الثامنة بل في العاشرة من عمره عندما توفي جده ويقول "إن الوفاة حدثت وأنا لم أتجــاوز الخامسة من عمري". انظر: مجلة كامبيو، ص 19، 26 حزيران 2000. لكنه كـــان حقاً في الثامنة عندما أصيب في ذلك الحادث المميت، وأن حياته وصلت إلى نهاية المطاف، إذ كانت تهددها عودة والديه ودريتهما.

67. مقابلة مع لويسا ماركيز، باراتكيا، 1993
68. مارغوت غارسيا ماركيز في غالفيس، المصدر السابق، ص 69
69. لويس إنريكي، في غالفيس، المصدر السابق، ص 130.
70. غابـــرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، 10 نيسان 1983. أما بخصوص علاقته باراكاتاكا، فانظر أيضاً: غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، 18 كانون الأول 1983

4 – أيام المدرسة: بارانكيا وسوكري وثيباكيرا (1938-1946):

1. غابرييل غارسيا ماركيز، **عشت لأروي**، ص 29-55.

(*) أعمدة دورية: طراز معماري إغريقي موغل في القدم اتسم ببساطته (المترجم)

2. المصدر السابق، ص 132
3. المصدر السابق، ص 142-143
4. مسلوثا، عطر الغوافة، ص 19
5. **عشت لأروي**، ص 173.
6. المصدر السابق، ص 163.

تعـــزو لويسا سانتياغا نجاته إلى أنها أعطته زيت كبد الحوت يومياً، انظر: غييرمو أوتشوا، مقالـــة، إكسيلسيور، 12 نيسان 1972. وكان أبوه يقول: تفوح رائحة السمك من هذا الطفل يومياً.

7. إن المقطع التالي عن بلدة سوكري يستند إلى مقابلات أجريتها مع السيدة لويسا ماركيز دي غارسيا في كرثاخينا وبارانكيا في 1991 و1993، وعلى حديث مع غابرييل غارسيا ماركيـــز نفـــسه في مديـــنة مكـــسيكو عام 1999، وعلى عدد كبير من المقابلات مع جمـــيع إخـــوانه وأخـــواته علـــى مدى السنين، وعلى مصادر منشورة مدونة في هذه الملاحظات
8. انظر: Gustavo GM, in Galvis, *Los* GM, p 185.
9. انظر: Living to Tell the Tale, p 155.
10. انظر: Vivir Para contrala, p 188



11. انظر: Juan Gossain, quoted by Heriberto Fiorillo, *La Cueva. Crónica del grupo de Barranquilla* (Bogota, Planeta, 2002), pp. 87-8.

12. يُعدّ كتاب سالديبار أفضل مصدر عن أيام غابرييل غارسيا ماركيز في مدرسة سان خوزيه. انظر أيضاً:

Jose A. Nunez Segura, "Gabriel Garcia Marquez (Gabo-Gabito)", *Revista Javeriana* (Bogota), 352, March 1969, pp. 31-6.

هنا يستعيد أحد المعلمين اليسوعيين في المدرسة بعضاً من كتابات غابرييل غارسيا ماركيز المبكرة.

13. غالفيس، المصدر السابق، ص 70.

14. يذكر غابرييل غارسيا ماركيز هذه الجريمة في كتابه **عشت لأروي**، ص 27.

15. لم يوافق الأخ الأصغر نيو موافقة كاملة: فقد أخبرني يوماً ما أن كل الأطفال الأصغر سناً، المولودين في سوكري، لا فائدة تُرجى منهم، بمن فيهم هو نفسه، ويرجع السبب إلى أنهم الوحيدون الذين ساعد أبوه على ولادتهم!

16. انظر:

Harley D. Oberhelman, "Gabriel Eligio Garcia habla de Gabito", in Peter G. Earle, ed. *Gabriel García Márquez* (Madrid, Taurus, 1981), pp. 281-3

وقد أجرى أوبرهيلمان لقاءً مع غابرييل إيليخيو للحديث عن تدربه الطبي وتجربته فيه.

17. غييرمو أوتشوا، إكسيلسيور، 12 نيسان 1971

18. **عشت لأروي**، ص 224.

19. حديث غابرييل غارسيا ماركيز، مدينة مكسيكو، 1999.

20. انظر:

Rosario Agudelo, "Conversaciones con García Márquez", *Pueblo*, suplemento, "Sabado Literario" (Madrid), 2 May 1981

في مواضع أخرى، يتخصص غارسيا ماركيز من هذه التجربة المؤذية بالضحك. أما في **عشت لأروي**، فنجد تفسيراً معتدلاً لها. أما في **ذاكرة غانياتي الحزينات**، فيقدم المؤلف شرحاً متخيلاً لها.

21. نوع من الموسيقى الكاريبية الشعبية يستمد أسلوبه من إيقاع الموسيقى الكولومبية القومية التقليدية الراقصة.

22. انظر:

Roberto Ruiz, "Eligio Garciz en Cartagena. El abuelbo de Macondo", *El Siglo*, 31 October 1969.

23. انظر:

Gossain in Fiorillo, *La Cueva*, p. 88. Gabriel Eligio later denied the intention to trepan.

24. انظر:

EGM, "El cunto del cuento. (Conclusion)", *El Espectador*, 2 September 1981.



يستعيد هنا أيام مراهقته في سوكري ويوضح أنها "أكثر السنوات تحرراً في حياتي". أما
خصوص موقفه من المؤسسة، فانظر: كلوديا دريفوري، مجلة بلاي بوي 30: 2 شباط
1983.

25. عشت لأروي، ص 166.

26. المصدر السابق، ص 168-171.

27. المصدر السابق، ص 174.

28. انظر:

غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، لاسبكتادور، 21 تشرين الأول 1981.

زار الروائي كريستوفر إيشروود كولومبيا في أربعينيات القرن العشرين. انظر ذكرياته عن تلك الزيارة في كتابه:

The Condor and the Cows (London, Methuen, 1949).

29. غارسيا ماركيز، خريف البطريرك، ص 160.

30. عشت لأروي، ص 179-180.

31. أفضل الذكريات عن هذه الرحلة والوصول إلى بوغوتا في مقالة خيرمان كاسترو كايسيدو، الاسبكتادور، 23 آذار 1977.

32. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة الاسبكتادور، 18 تشرين الأول 1981.

33. عشت لأروي، 179-180.

34. أفضل مصدر عن المدرسة في تيباكيرا هو كتاب سالديبر. أما القسم الأعظم من معلوماتي فيستند إلى مقابلة مع زميل غارسيا ماركيز في المدرسة خوسيه إسبيوسا، زغوتا، 1998.

35. انظر:

Rosario Agudelo, "Conversaciones con Garcia Marquez", *Pueblo*, suplemento, "Sabado Literario" (Madrid), 2 May 1981.

36. انظر

Aline Helg, *La educacion en Colombia 1918-1957 una historia social, economica y Politica* (Bogota, CEREC, 1987).

37. انظر:

CGM, ""Estoy comperometido hasta el tuetano con el Pero dismo Politico" *Alternativa* entervista a GGM", *Alternativa* (Bogota), 29 .31 March 13 April 1975, p. 3.

38. انظر:

Juna Gustavo Cobo Borda, 'Cuatro horas de Comadreo literario con CGM" (interview 23 March 1981), in his *Silva Arcinegas, Mutis y Garcia Marquez* (Bogota, Persidencia de La Republic, 1997), pp. 469-82 (p. 475).

39. عشت لأروي، ص 196.

40. انظر:



Quoted by Carlos Rincon, "GGM entra en los 65 anos. Tres o cuatro cosas que querria saber de el", *El Espectador*, 1 March 1992.

41. أخبرتني مارغوت غارسيا ماركيز في سنة 1993 بما يأتي: "عندما كانت أمي حاملاً بإليجيو، حدث ذلك مرة أخرى. في هذه المرة، أسرعت أمي نفسها. كانت طريقة العرش في المنزل المؤسس من طابقين في ميدان سوكري، ولم تستطع النهوض من مكانها. في تلك المرة صرخت في وجهه. كنت أمي يداهمها مرض عجيب دائماً، فتصاب بالغثيان وتتقيأ. وفي كلا الحملين نقص وزنها. إنه لأمر مدهش ولكنه حقيقي. وبعد أن أسرعت لحالها انزعاجاً حقيقياً، وأردت أن أمس شيئاً ما، لكنها لم تكن تسمح لي".

42. لويس إنريكي غارسيا ماركيز في كتاب غالميس، المصدر السابق، ص 146

43. **عشت لأروي**، ص 217-218.

44. انظر:

Saldivar, *GM: el viaje a la semilla*, p. 56

45. كان داريو سحلر بدوره من بلدة كاريبية صغيرة، ونشأ بعيداً عن حضن أمه، واستمع أيضاً إلى عقيد عجوز يروي قصصاً عن الحرب. وبعد مرور ثلاثين سنة، تصبح رواية غارسيا ماركيز **خريف البطريرك**، من بين أشياء أخرى، عملاً من أعمال الثناء والتقدير للغة داريو الشعرية.

46. **عشت لأروي**، ص 205.

47. انظر "La ex novia del Colombiano", *El Pais* (Madrid), 7 October 2002.

48. انظر *Vivir Para contrala*, p. 242.

49. غابرييل غارسيا ماركيز، **مئة عام من العزلة**، ص 29-30.

50. **عشت لأروي**، ص 204.

51. المصدر السابق، ص 193.

52. المصدر السابق، ص 193.

53. انظر:

Saldivar, *GM: el Viaje a la semilla*, p. 166, and GGM, *Living to Tell the Tale*, pp. 193-4

54. انظر:

German Santamaria, "Carlos Julio Calderon Hermida, el Profesor de GM", *Gaceta* (Bogota, Colcultura), 39, 1983. PP. 4-5

55. في المقابلات التي أجريت معه بعد أن أصبح مشهوراً، أنكر مراراً أنه نظم الشعر. انظر على سبيل المثال حديثه مع ماريا إيستر غيليو:

"Escribir bien es un deber revolucionario", *Triunfo* (Madrid), 1977, in Renteria, ed., *GM Habla de GM en 33 grandes repotajes*

56. انظر.

La Casa Grande (Mexico city/Bogota), 1: 3, February-April 1997, p. 45

وفيها نشرت قصيدة "بعض من دمي سالدييار في بوردا"



57. انظر: Living to Tell the Tale, pp 205-6.
58. مصدر: Ligia GM, in Galvis. Los GM, p. 165.
عندما أغرم غابيتو ميرثيديس كانت يافعة في الثامنة من عمرها تصنع مئزراً للأطفال من عبر كمبي وعليه رسوم بطات صغيرات.
59. انظر:
Beatriz Lopez de Barch, "Gabito espero a que yo crecira", Carrusel, Revista de El Tiempo (Bogota), 10 December 1982.
60. من منشورات هكتور عبد خوميث:
'GM Poeta", El Tiempo, Lecturas Dominicales, 12 December 1982. See also Donald McGrady, "Dos sonetos atribuidos a GGM" Hispanic Review, 51 (1983), pp. 429-34.
61. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسكتادور، 13 شباط 1983.
62. عشت لأروي، ص 200.
63. انظر:
Vivir Para Contrala, p. 281, GGM, "El cuento del cuento (conclusion)", El Espectador, 2 September 1981.
وفيها يتذكر كيف اكتشف أن ماخور ماريا اليخاندرينا ثيرفانتس تحول إلى مدرسة راهبات عندما عاد إليه بعد مرور خمسة عشر عاماً.
64. عشت لأروي، ص 236-239.
65. مئة عام من العزلة، ص 301.
66. مقابلة في كارتاخينا، 1991.
67. كانت لدى ميرثيديس في المدرسة في بلدة مومبوكس صديقة تدعى مرغريتا تشيك سالاس، وكانت تقطن في بلدة سوكري أيضاً: وسرعان ما ستجد نفسها متورطة في الأحداث المثيرة التي أحاطت بمقتل كاييتانو خنتيلي صديق غارسيا ماركيز وأسرته بوقي.
68. مقابلة مع خوثروديس براسك دي أمين، ماغانغي، 1991.
(*) هؤلاء الأولاد لا بد من أن يكونوا أولاد غبرييل إليخيو وأخوه غارسيا ماركيز الذي كان صغير السن بدوره آنذاك. (المترجم)
69. مصدر: GGM, Cronica de una muerte anunciada (Bogota, Oveja Negra, 1981), p. 40.
70. غابرييل غارسيا ماركيز، مقابلة، الاسكتادور، 22 آذار 1981. عشت لأروي، ص 239-243.
71. عشت لأروي، ص 243-244.
72. انظر:
Saldivar "GM. La novella que estoy escribiendo esta localizada en Cartagena de Indias, duranta el Siglo XVIII", Diario 16, 1 April 1989.
73. انظر: ييخيا غارسيا ماركيز، في غالفيس، المصدر السابق، ص 158.



74. انظر: غابرييل غارسيا ماركيز، مقابلة، الاسبكتادور، 16 تشرين الثاني 1980 وفيها يقول إن ترانكيليا قصت شعرها وقد بلغت مئة سنة تقريباً.
75. عايدة روسا في غالفيس، المصدر السابق، ص 99.

5 - الطالب الجامعي والعنف في بوغوتا (1947 1948):

1. يستمد هذا الفصل معلوماته من مختلف المصادر والأحاديث، لكن على الأخص من مقابلات مع غوستافو مالارينو (بوغوتا، 1991) ولويس بيّار بوردا (بوغوتا، 1998) ومارغريتا ماركيز كابايرو (بوغوتا، 1998) وخالد جيلارد (طولوز، 1999، 2004) وغوستافو أدولفو راميريث أريثا (بوغوتا، 2007).
2. يلاحظ غابرييل غارسيا ماركيز أن الأكاديمية الكولومبية تنظر إلى الأكاديمية الملكية الإسبانية على أنها "تقدمية"، ويتحدث عن "حماية" اللغة (حتى ضد إسبانيا). انظر:
M Fernandez-Bradso, *GGM: una conversacion infinita* (Madrid, Azur, 1969), p 102
3. كافكا، "رسالة إلى أبيه" (تشرين الثاني 1919). لم يقرأ والد كافكا هذه الرسالة البتة.
4. مقابلة، بوغوتا/1993. كان ألفونسو لوبيث ميشيلسين واحداً من الأقرباء الأبعدين إذ يتصل نسله بكويسيمس خلال جد الجد. وهو ما سيكتشف في ما بعد عندما يصبح الاثنان صديقين.
5. مقابلة مع لويس بيّار بوردا، 1998، لمزيد من المعلومات عن هذه المرحلة الزمنية انظر أيضاً: غابرييل غارسيا ماركيز، مقابلة، لاسبكتادور، 18 تشرين الأول 981
6. انظر: خوان فيرنانديث، مقالة، التيمبو، تشرين الأول 1982 كان أحد زملائه المهمين في تلك الآونة هو الطالب في كلية الطب الذي ينحدر من أصول أفريقية - كولومبية مانويل ثاباتا أوليفيا الذي سيتدخل في ما بعد في مصيره تدخلاً حاسماً في أكثر من مناسبة. ومن الأصدقاء الساحليين المهمين أيضاً خورخه ألفارو إسبوسا الذي عرّف غابرييل غارسيا ماركيز إلى رواية يوليسيس لجيمس جويس، ودومينيغو مانويل فيغا الذي أعاره قصة المسخ لكافكا.
7. انظر:
Alvaro Mutis, "Apuntes sobre un viaje que no era Para contar", in Aura Lucia Mera, ed., *Aracataca/Estocolmo* (Bogota, Instituto Colombiano de Cultura, 1983), pp. 19-20
وفيها يصف ألفارو موتيس مالارينو خلال الرحلة إلى جائزة نوبل سنة 1982 على أنه "عميدنا". وهو أقدم أصدقاء غابرييل غارسيا ماركيز المنحدرين من الكاتشاكو في حقبة بوغوتا.
8. من أجل تفاصيل مهمة عن كاميلو توريس وقراره بأن يصبح قسيساً ورحيله في أعقاب ذلك، انظر:
German Castro Caycedo, "Gabo" cuenta la novella de su Vida. 2", *El Espectador*, 23 March 877.



9. انظر:

Plinio Apuleyo Mendoza, *La llama y el hielo* (Bogota, Gamma, 3rd edition, 1989), PP 9-10

10. الترجمة الحرفية للعبارة هي "مص العرق" لأن الصورة هي صورة مالك لديك وهو يتعرض استفزازا ومفارقة، في حصته بشأن عرف الديك:

11. انظر: GGM, "Bogota, 1947", *El Espectador*, 18 October 1981; and "El frenesi del Viernes", *El Espectador*, 3 November 1983.

وفيها استذكار لأيام الآحاد الموحشة في بوغوتا.

12. مقابلة مع غونثالو مالاريبو في بوغوتا، 1991.

13. صبع الجزء الثاني من "جغرافية الأجرام السماوية" في الأول من تموز 1947.

14. انظر:

German Castro Caycedo, ""Gabo" cuenta la novella de su vida. 2", *El Espectador*, 23 March 1977.

وفيها وداع غابرييل غارسيا ماركيز لكاميو توريس.

15. انظر.

La Vida Universitaria, Tuesday Supplement of *La Razon*, Bogota, 22 Jane 1947 See *La Casa Grande* (Mexico City/Bogota), 1 3, February-April 1997, p 45.

وفيها نشرت هذه القصيدة مرة أخرى "بعض من داسو سالديبر ولويس بيّار بورد"

16. انظر: Juna Gustavo Cobo Borda, "Cuatro horas de comadreo literario con GGM", in his *Silva, Arciniegas, Mutis y GM* (Bogota, Presidencia de la Republica, 1997), PP. 469-82.

حيث تتوفر على تفسير آخر للرواية.

17. المؤكد أن هذا ليس أسلوب جده كافكا في الكلام، هذا هو الفرق تماماً!

18. انظر Jonn Updike, "Dying for Love a new novel by GM", in *The New York*, 7 November 2005.

يقول أبدايك في هذه المقالة:

إنه لمتعة رفيقة أن تقرأ هذه الرواية، وإن كان ثمة اختلاف في القصد منها فيها ولع في اشتهاء الموتى يذكرنا بالقصص القصيرة مكره الصوح المهووسة بموت الأحياء التي نشرها غارسيا ماركيز في مطلع عشرينيات القرن العشرين

19. انظر:

GGM, *Todos los cuentos* (1947 1972) (Barcelona, Plaza y Janes, 3rd edition, 1976), PP. 17-18

20. المصدر السابق، ص 14 15.

21. المصدر السابق، ص 17-18.

22. يروي غابرييل غارسيا ماركيز هذه القصة كاملة لخيرمان كاسترو كايسيدو انظر:

"Gabo" cuenta la novella de su vida. 3", *El Espectador*, 23 March 1977



23 انظر:
GGM, *Collected Stories* (New York Harper Perennial, 1991), p. 24.
24. انظر
'La Ciudad y el Mundo", *El espectador*, 28 October 1947
25. **عشت لأروي**، ص 271.
26 يُعِدُّ غوستافو أدولفو راميريث أريثا العدة لإصدار كتاب بالغ الأهمية عن علاقة غارسيا ماركيز بالحروب التي شهدها في بوغوتا.
27. انظر GGM, *Collected Stories*, p 190
28. لويس إنريكي غارسيا، المصدر السابق، ص 132-133.
29. الإضافة azo التي تأتي في آخر الكلمة الإسبانية تعطي فكرة ضربة قوية تُسدد من أحد ما أو ضد شيء ما.
30 انظر، Gonzalo Sanchez, "*La violencia* in Colombia: New Research, new question's, *Hispanic American Historical Review*, 65 4 (1985), PP. 789-807
31. يُوضِّح غابرييل غارسيا ماركيز خلال أن أوراقه فقدت في الحريق الذي دمَّر النزل الذي كان يقطن فيه (مع إشارة خاصة إلى El fauno en la tranvía). انظر،
Interview, Bogota, 1998. In "Bogota 1947", *El espectador*, 18 October 1981
غير أنه يروي القصة بشكل مغاير في مذكراته **عشت لأروي**، ص 288.
32 انظر، Herbert Braun, Matron a Gaitan: vida Public y violencia urbana en Colombia (Bogota. Norma, 1998), p 326
33. كان أول عمل ثوري يقوم به، وبالمفارقة، هو مساعدة أحد اللصوص في تحطيم آلة كاتبة. يؤكد غارسيا ماركيز لاحقا لكاسترو أن الآلة الكاتبة كانت ملكه.
34. انظر
Arturo Alape, *El Bogatazo: memorias del olvido* (Bogota, Universidad Central, 1983).
35 مقابلة مع مارغريتا ماركيز كابييرو، بوغوتا 1998
36 انظر Rita GM, in Galvis, *Los GM*, p 237.

6 – عودة إلى الساحل: صحافي متمرن في كارثاخينا (1948-1949):

1. انظر **عشت لأروي** (الطبعة الإنكليزية)، ص 304. يعتمد هذا الفصل على مقابلات أجريت مع أسرة غارسيا ماركيز، ومع راميرو دي لا إسبريًا (بوغوتا، 1991)، وكارلوس أليمان (بوغوتا، 1991)، وجاك جيلارد (تولوز، 1999 و2004)، وهكتور روخاس هيرائو (بارانكيا، 1998) وماريا ياثيس (كارتاخينا، 2007)، إضافة إلى آخرين غيرهم.
2. هناك كتابان ممتازان عن حياة غارسيا ماركيز في كارتاخينا وهما:
Gustavo Arango, Un ramo de nomeolvides: Garcia Marquez en "El Universal" (cartagena, El Universal, 1995) and Jorg Garcia Usta, Como aprendio a escribir Garcia Marquez (Medellin, Lealon, 1995).

وقد ظهر هذا الكتاب الأخير بطبعة منقحة وبعنوان مغاير أقل إثارة هو:
Garcia Marquez en Cartagena: sus inicios literarios (Bogota Planeta, 2007).
ويزعم الكتابان بتأثير المدينة القوي في تطوره الأدبـــي بما لا ينسجم مع البراهين، لكنهما مـــن ناحية أخرى مصححان رأي الأغلبية في أن المرحلة اللاحقة التي أمضاها في بارنكيا (1950–1953) هي المرحلة الحاسمة. لقد جاء هذان الكتابان رد فعل على كتاب وضعه البـــاحث الفرنـــسي جاك جيلارد الذي جمع في سبعينيات القرن العشرين خمس كتابات غارســـيا ماركيـــز الـــصحافية المنشورة في صحيفة لأونيفرسال (كارتاخينا) والهيرالدو (بارانكـــيا) والاسبكتادور (بوغوتا) وغيرها، وبصرف النظر عن الرأي في الجدل الدائر، فإن إسهام جيلارد في الدراسات الخاصة بغارسيا ماركيز لا تضاهيها أي دراسة. كما أن مقدماته التي كتبها للمجلدات غابرييل غارسيا ماركيز الصادرة بعنوان Obra Periodistica لا يمكن الاستغناء عنها. ولم تظهر باللغة الإنكليزية سوى مجموعة قليلة جداً لا تزيد عن عـــدد أصابع اليد الواحدة من مقالات غابرييل غارسيا ماركيز التي يزيد عددها عن ألف مقالة ودراسة ومحاضرة أدبية نشرت كلها بين 1948–2008، بخصوص هذه الحقبة الزمنية انظر:
Jacques Gilard, ed., *Gabriel Garcia Marquez, Obra Periodistica vol. 1 Textos costenos I* (Bogota: Oveja Negra, 1983).

3. يـــورد غارسيا ماركيز تفاصيل كثيرة عن تلك الأيام في مذكراته **عشت لأروي** (الطبعة الإنكليزية)، ص 306–316.
4. انظـــر صورة فلمية عن روخاس هيرازو مقدم غابرييل غارسيا ماركيز في صحيفة الهيرالدو (بارانكيا)، 14 آذار 1950.
5. **عشت لأروي**، ص 313–314 و320–321 وفيها يدعو غابرييل غارسيا ماركيز بالاسم خوسيه دولوريس.
6. انظر: Un domingo de delirio, *EL Especiador* 8 march 1981 وفيها يتحدث غابـــرييل غارســـيا ماركيز عن سحر كارتاخينا التي عاد إليها ويكشف عن أن منطقته المفضلة كانت رصيف مرفأ باهيا دي لاس أنيماس حيث كانت تقع السوق. انظر أيضاً:
Un payaso pintado detras de una Puerta, *El Espectador*, May 1982.
7. بالـــرغم من أن الاعتقاد الذي كان سائداً في كارتاخينا هو أن غارسيا ماركيز لم يعترف بفـــضل ثابـــالا عـــليه لأنـــه تعلم منه الشيء الكثير، إلا أن غارسيا ماركيز قال لأحد الـــصحافيين في سنة 1980، ويدعى دونالدو بوسا هيرازو، "إن ثابالا سيد نبيل وأنا مدين له بالشكر الكثير". انظر: Arango, *Un ramo de nomeolvides*, p. 136.
8. ظهـــرت المقالات بلا عنوان في صحيفة الأونيفرسال، لكن بسطر يشير إلى كتابتها في 21 و22 أيار 1948 بعد مرور ستة أسابيع على أحداث العنف في بوغوتا.
9. يمكـــن العـــثور عنـــي هذه المقالات وبقية المقالات الأخرى من تلك المرحلة في كتاب:
Gilard, ed., *Textos costenos I*.



10. انظر المصدر السابق، أعلاه، ص 94-95
11. انظر عشت لأروي (الطبعة الإنكليزية)، ص 324-325.
12. انظر ليحيا في غانميس، المصدر السابق، ص 169.
13. انظر: Arango, *Un ramo de nomeolvides*, p. 178
14. انظر: Garcia Usta, *como aprendio a escribir Garcia Marquez*, p. 49.
15. العبارة بالسفة الإسبانية Tan modosita (انظر آرانغو، المصدر السابق، ص 67).
16. المصدر السابق، ص 275.
17. يستشهد المصدر السابق (ص 178) بفرانكو مونيرا التفصيل مهمة. ففي كولومبيا العرقية بل في بوغوتا، في أربعينيات القرن العشرين كان الطبل علامة مشمرة عن الثقافة الساحلية عموما، وثقافة السود خصوصا. وما ارتباط غارسيا ماركيز الواضح بهذه الآلة الموسيقية إلا علامة على ارتباطه بثقافته الإقليمية وعلامة تميز لرأي الكاتشكو بالعام
18. انظر: صحيفة الأونيفرسال، 27 حزيران 1948.
19. انظر، مقالة غابرييل غارسيا ماركيز عن بو في صحيفة الأونيفرسال، 7 تشرين الأول 1949 وبخصوص علاقته بإسار ميرلانو انظر كوبو بوردا: "Cuatro haras de comadreo literario con GGM" المصدر نفسه.
20. انظر: *El Universal*, 4 July 1948; see Arango, *Un ramo de nomeolvides*, p. 149 وأعيد نشر المقالة في صحيفة الهيرالدو (بارانكيا)، 16 شباط 1950، بإضافة الاسم ألسابيتا
21. انظر صحيفة الأونيفرسال 10 تموز 1948. وأعيد نشر المقالة باختلاف ضعيف في صحيفة الهيرالدو، 1 شباط 1950.
22. انظر: Arango, *Un ramo de nemeolvides*, PP. 208, 222.
23. مقابلة مع لويس إنريكي غارسيا ماركيز، بارانكيا، 1998.
24. مقابلة مع لويس إنريكي غارسيا ماركيز، بارانكيا، 1993.
25. عشت لأروي (الطبعة الإنكليزية)، ص 333-339.
26. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة لأونيفرسال، 26 تموز 1949 وفيها إشارة إلى الكاتبين.
27. انظر أورلاندو لفرجينيا وولف (نيويورك، هيناج، 2000)، ص 167: لكن الحب حسب تعريف الروائيين الذكور - ثم من يتكلم بقوة أكبر منهم - لا علاقة له بالرقة و اللطف أو الكرم أو الشعور. الحب نسل من صدرية امرئ. ولكنا كنا نعرف ما الحب، هل فعل أورلاندو ذلك؟
28. العبارة هي: "Mucha vieja marcha".
انظر: Arango, *Un ramo de nomeolvides*, p. 220.
29. انظر: Rafael Betancourt Bustillo, *qnoted by Garcia Usta*, PP. 52-53
30. انظر: Arango, *Un ramo de nomeolvides*, p. 231.
31. لكن من شأن هذا كله أن ينطوي على ابتكار ما يسمى الواقعية السحرية، وكان هناك كتاب تزيد أعمارهم عن عمره بمقدار الضعف، مثل ميغيل إسوريباس (رجال الدرة

1949) وأليخو كاربنتييه (مملكة هذا العالم 1949) كتبرا بحوموف حرب هذه الفكره في حين كان غارسيا ماركيز يجاهد في كتابة رواية البيت في بلد الفن الزرقي فيه متخلف تخلفا يبعث على الألم حتى بمعايير أميركا اللاتينية السائدة يومئذ.

32. انظر: .Vivir Para contarla, p. 411

33. انظر مقالات غابرييل غارسيا ماركيز عن لاسيرييـي في:
Gilard, ed., *Gabriel Garcia Marquez, Obra periodistica Vol. II: Textos costenos 2* (Bogota, Oveja Negra, 1983).

34. انظر:
Eligio Garcia, *La Tercera muerte de Santiago Nasar* (Bogota, Oveja Negara, 1987).

35. انظر.
GGM, "La Candida Erendira Ysu abuela Irene Papas", *El Espectador*, 3 November 1982

36. انظر. .Fiorillo, La Cueva, p. 95

37. في عشت لأرري (الطبعة الإنكليزية)، ص 350 يقول إنه بدأها الان! وفي صفحة 363 يقول إنها ليست سوى محترمات لا أكثر!

38. انظر: رابعو، المصدر السابق، ص 266

39. المصدر السابق، ص 243:
يستذكر خايمي أنخولو بوسا أنه هو وغارسيا ماركيز كانا يصافحان بعضهما بعض باليد اليسرى في كارثاخيا في تلك الأيام (المصدر السابق، ص 302). وبالرغم من أن النقاد جادلوا باستمرار إن كانت قراءة غارسيا ماركيز الروايات الحداثوية قد بدأت في كارثخينا أم في بارانكيا، إلا أن أحداً منهم لم يبدُ أنه قد تنبه إلى أن ثقافته السياسية المنضبطة بدأت بلا ريب في كارثاخينا، ويرجع سبب ذلك أولاً إلى وجود ثابالا ثم إلى راميرو دي لا إسبرييه، ولم تكن السياسة هي الاهتمام الأول بين جماعة بارانكيا.

40. انظر:
Juan Gossain, "A Cayetano Lo Mato Todo El Pueblo", *El Espectador*, 13 May 1981.
وفيها يتحدث لويس إنريكي عن القصة المدهشة لماريا أليخاندرينا ثيربانتس كان ماخورها الدنس في سوكري أشبه بمكتب يلتقي فيه كبار حلال الإحارات... ولم تكن أمي لتتعلق بمن فات الوقت أو إن لم يرجع غابيتو إلى المنزل، لأنها كانت تعلم أنه في ماخور ماريا أليخاندرينا لا أدري إن كان الناس يفهمون المنحى الذي كانت تنحوه الأمور قبل ثلاثين سنة من دون إثارة فضيحة..

41. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الأونيفرسال، 24 حزيران 1949. إن أهمية الكتاب بالغة عنده، حتى إنه بالغ بلا ريب القول بأنه عزا فهمه كله إلى طبيعة الرمان في الحياة وفي القصص لقراءته السيدة دالاوي.

42. انظر: جيرالد، المصدر السابق، ص 7-10؛ وسالديبر، المصدر السابق، ص 556-557.



43. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، صحيفة الهيرالدو، 14 آذار 1950.
44. آرانغو، المصدر السابق، ص 237.
45. الترم كل من آرانغو وغارسيا أوسنا بهذا الخط.

7 - بارانكيا وبائع الكتب وجماعة بوهيمية (1950-1935):

1. آرانغو، المصدر السابق، ص 222.
2. المصدر السابق، ص 311. يعتمد هذا الفصل في معلوماته على مقابلات مع أخوة غارسيا ماركيز وأخواته وألفونسو فوينمايور (بارانكيا، 1991، 1993) وخيرمان فارغاس (بارانكيا، 1991)، وأليخاندرو أوبريغون (كارتاخينا، 1991)، وتيتا سيبيدا (بارانكيا، 1991)، وسوسي ليناريس دي فارغاس (بارانكيا، 1991)، وهيليودورو غارسيا (بارانكيا، 1991)، وغييرمو مارين (بارانكيا، 1991)، وكيكي سكوبل (بارانكيا، 991)، وكاتيا غونثاليث (بارانكيا، 1991)، وبانسو بوتيا (بارانكيا، 1991) وبي وولفورد (لندن، 1991)، ورمون إيلاف باكا (بارانكيا، 1991، 2007) وأنطونيو ماريا بيالوث ثيرونستس (اراكاتاكا، 1991) وأوتو غارثون باتينيو (بارانكيا، 1993) وخوان رود وماريا مورنا غيرا دي رودا (بوغوتا، 1993) وجاك جيلارد (طولوز، 1999، 2004) وغييرمو هينريكيث (بارانكيا، 2007) وغيرهم.
3. حديث مدينة مكسيكو، 1993
4. بخصوص جماعة بارانكيا انظر.

Alfonso Fuenmayor, *Cronicas sobre el grupo de Barranquilla* (Bogota, Instituto de Cultura, 1978) and Fiorillo, *La Cueva*.

وفيه رسومات توضيحية رائعة. كما أصدر فيوريلو عدداً آخر من الكتب المهمة في القضايا الثقافية المحيطة بالجماعة. أما بخصوص بينيس فانظر:

Jacques Gilard, *Entre los Andes y el Caribe. la obra americana de Ramon Vinyes* (Medellin, Universidad de Antioque, 1989) and Jordi Llado, *Ramon Vinyes Un home de lletres entre Catalunya i el Caribe* (Barcelona, Generalitat de Catalunya, 2006)

5. ماذا؟ أنت سويراتس؟ سويراتس مترجم جويس متوسط الكفاءة؟ انظر فوينمايور:

Cronicos sobre el grupo, p. 43

6. فيوريلو، المصدر السابق، ص 46، 98.
7. انظر:

Alvaro Mutis, "Apuntes sobre un viaje que no era para contra", in Mera ed., *Aracataca-Estocolmo*, PP. 19-20.

8. فيوريلو، المصدر السابق، ص 108.
9. انظر:

Daniel Samper, Prologue, *Antologia de Alvaro Cepeda Samudio* (Bogota, Biblioteca Colombiana de Cultura, 1977), also Plinio Mendoza, "Requiem", *La llama y el hielo*



10. غارسيا ماركيز، مقالة الاسكتادور، 20 تشرين الأول 1982

11. انظر:
"El grupo de Barranquilla", *Vanguardia Liberal*, Bucaramanga, 22 January 1956, quoted by Gilard in *GGM, Obra periodistica Vol. V. De Europa y America I* (Bogota, Oveja Negar, 1984), p. 15.

12. فيوريلو، المصدر السابق، ص 96.

13. المصدر السابق، ص 136 137

14. المصدر السابق، ص 58. قبل زمن قصير، كان والد المغنية شاكيرا محل لبيع المجوهرات هناك

15. رافق ألفونسو فوينمايور مؤلف الكتاب في جولة لا تنسى في هذه المنطقة سنة 1993 وذلك قبل وفاته بزمن قصير. وفي العام 2006، رودي خايمي أبيو مدير مؤسسة غابرييل غارسيا ماركيز للصحافة الجديدة الإيبيرو - الأميركية بمعلومات حديثة قيمة

16. لعل روبلدو هو الذي عرّف غابرييل غارسيا ماركيز إلى عالم الشيوعية. انظر:
"Estoy comprometido hasta el tuetano con el periodismo politico": *Alternative* entrevista a GGM, *Alternative* (Bogota) 29, 31 March 1975, p. 3

17. انظر الفقرة الأولى من **عشت لأروي**.

18. فيوريلو، المصدر السابق، ص 74. مدخل أوفيميا هو مكان آخر يغطي كمكانة حرفية، يشير إليه غارسيا ماركيز في قصة **ليلة الكروانات** ورواية **مئة عام من العزلة**. وقد خلد الكثير من أعمال الجماعة الطائشة في الأدب والأسطورة المحلية، مثال ذلك عندما أثار ألفونسو فوينمايور فزع ببغاء على شجرة، فسقط من موقعها ليقع في قدر تغلي دائما باليخنة في الحكايات التي تدور عن مواخير الساحلي في هذا الوقت. فما كان من غارسيا ماركيز إلا أن أسرع دون تفكير في التقاط غطاء قدر كبير جداً ليجد أن الببغاء واجه مصيره عوضاً عن الدجاج في تلك اليخنة المغلية. في ما يخص موضوع الدعارة والأدب في بارانكيا، انظر
Adlai Stevenson Samper *polvos en La Arenosa. Cultura y burdeles en Barranquilla* (Barranquilla La Iguana Ciega, 2005)

19. فيوريلو، المصدر السابق، ص 93.

20. أخبرني غابرييل غارسيا ماركيز بهذا الأمر في هافانا سنة 1997.

21. انظر: **عشت لأروي** (الطبعة الإنكليزية)، ص 363. وفي **ذاكرة غانياتي الحزينات** تظهر باسم كاستوريا

22. في **عشت لأروي** يظهر بالاسم لاسندس وسس دامسو.

23. قال فوكنر هذا في المقابلة المشهورة منشورة في مجلة باريس ريفيو وتأثر بها غابرييل غارسيا ماركيز تأثيراً كبيراً. لقد وصف مبكر كطبقة للسحاب وسكانها في
Plinio Mendoza, "Entrevista con Gabriel Garcia Marquez" *Libre* (Paris) 3 March-May 1972, PP. 7-8

24. انظر: "Una mujer importancia", *El Heraldo*, 11 January 1950.

25. انظر: "El barbero de la historia", *El Heraldo*, 25 May 1951



26. انظر: "Ilya en Londres", *El Heraldo*, 29 July 1950
27. انظر: "Memorias de un aprendiz de antropofago", *El Heraldo*, 9 February 1951
28. انظر: "La peregrinacion de la jirafa", *El Heraldo*, 30 May 1950
29. انظر: Saldivar, *GM el viaje a la semilla*.
هنا يعتمد سالديبار رواية غابرييل غارسيا ماركيز ويؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن زيارته برفقة أمه إلى آراكاتاكا كانت في العام 1952، وأن غابرييل غارسيا ماركيز قال إن الزيارة حدثت في العام 1950، ليجعل من باراكيا المكان الذي بدأ فيه أول مرة كتابة **عاصفة الأوراق**، وليجعل من زيارته مع أمه إلى المكان مصدر إلهام لها؛ على حين أن الحقيقة هي أن **عاصفة الأوراق** - حسب سالديبار - كتبت أول مرة في كارتاخينا عام 1948-1949! ولما كان سالديبار قد أكد هذا، فإن غابرييل غارسيا ماركيز كان يخطط لجعل رحلته مع أمه نقطة انطلاق لمجمل مذكراته والتأكيد لقطع على مهنته الأدبية، فإن فرضية سالديبار متهورة، بل لا أساس لها من الصحة في تقديري.
30. في وقت لاحق، سيلجأ إلى استخدام هذه الذاكرة لكتابة قصته **قيلولة الثلاثاء** التي تدور عن أم لص ميت وأخته اضطرتا إلى السير وسط شوارع ماكوندو المعادية لهما من أجل زيارة قبره. إن من قرأ رواية **بيدرو بارامو** لخوان رولفو (1955) التي أثرت تأثيراً بالغاً في غابرييل غارسيا ماركيز بدءاً من السطر الأول من روايته **مئة عام من العزلة**، لا بد من أنهم قد لاحظوا أن أسلوب ومحتوى هذا القسم، إضافة إلى مذكراته **عشت لأروي** كلّه تذكر بوصول خوان بريثيادو إلى كومالا في مستهل رواية خوان رولفو. بخصوص آراكاتاكا في تلك الفترة، راجع:
Lazaro Diago Julio, *Aracataca una historia para contra* (Aracataca, 1989, unpublished), PP 198-212.
31. الأمر الذي يبعث على المفارقة هو أن المؤرخ المحلي دياغو خوليو يقول إن سنة 1950 كانت أكثر سنوات آراكاتاكا ازدهاراً منذ عشرينيات القرن العشرين (المصدر السابق، ص 215).
32. **عشت لأروي**، ص 26.
33. مقابلة مع غابرييل غارسيا ماركيز أجراها بيتر ستون لمجلة باريس ريفيو في العام 1981، انظر:
Philip Gourevitch, ed., The "Paris Review" Interviews, Vol. II (London, Canongate, 2007), PP 185-6.
34. هذا ما قيل لي سنة 1999. انظر أيضاً: أنطوني داي ومارجوري ميلر، غابو يتكلم: غابرييل غارسيا ماركيز يتحدث عن بلايا أمريكا اللاتينية وصداقته مع فيدل كاسترو وغيره من الصحيفة البيضاء، مجلة لوس أنجلوس تايمز 2 أيلول 1990، ص 33.
35. في **عشت لأروي** يقول غابرييل غارسيا ماركيز إنه نادراً ما تكلم مع أمه في طريق العودة من الرحلة. لكن، بحسب خوان غوستافو كوبو بوردا، فإنه سرعان ما بدأ يسألها عن قصة الجد والأسرة والأصل الذي تحدرت منه



36. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الهيرالدو، 24 نيسان 1950.
37. فيوريلو، المصدر السابق، ص 20-21.
38. صحيفة الهيرالدو، 14 آذار 1950.
39. يعني إيسكالونا أشهر مؤلف لأغاني الفاليناتو كما يغني مؤسسه وطنيه، وطني، انظر:
Consuelo Araujonoguera, *Rafeal, Escalona el hombre y el mito* (Bogota, Planeta, 1988).
وهي سيرة كتبتها المرأة التي نظمت مهرجانات الفاليناتو التقليديه في فاييدوبار إلى أن لقيت مصرعها على ما يبدو خلال اشتباكات مسلحة اندمجت بين الجيش ورجال من تنظيم القوات المسلحة الثورية الكولومبية في أيلول 2001.
40. فيوريو، المصدر السابق، ص 365.
41. عشت لأروي في:
Living to tell the Tale, *Fuenmayor, Crónicas sobre el grupo*, and Gilard, ed., *textos costeños I*
42. فيوريو، المصدر السابق، ص 186-187.
43. خصوص غابرييل غارسيا ماركيز والصحفيين، انظر:
William Kennedy, "The Yellow Trolley Car, Bracelona An interview" (1972), in *Riding the Yellow Trolley Car* (New York, Viking, 1993), p. 261.
44. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الهيرالدو، 13 تشرين الثاني 1950.
45. انظر: Eligio Garcia, *Tras las claves de melquíades*, PP. 360-61.
(*) المقطع يفتقر إلى علامات التنقيط، وفي أماكن متعددة يربط ماركيز الكلمات بعضها ببعض فتبدو كلمة واحدة طويلة جداً مما يصعب رسمه في العربية. (المترجم)
46. أعطاني كارلوس أليمان نسخة من الرسالة خلال لقائنا في بوغوتا سنة 199. وقد نشرت النسخة لإصابة مرة أخرى في كتاب:
Arango, *Un Ramo de Nomeolvides*, PP. 3-271.
47. مما يبعث على الاستغراب أن غيتان كان دفن في باحة منزله في بوغوتا بسبب الخوف من أن يجذب ضريحه اهتماماً في غير محله لكل من معجبيه وأعدائه.
48. انظر: "Caricature de Kafka", *El Heraldo*, 23 August 1950.
49. كان مارتي شريراً ورقيقاً في آن واحد (وكان يلجأ إلى استخدام شعوذة غوافيرا وعرس لدبابيس في عيون الدمى).
50. انظر: "El Viaje a la semilla", *El Manifiesto* (Bogota, 1977) in Rentería, p. 161.
51. قال غابرييل غارسيا ماركيز لأليخاندرا توسكا (في مقابلة نشرت في أيلول 1973 في Mexico Todo ص 224) إنه لم يستطع قط استخدام ميرثيدس استخداماً أدبياً لأنه يعرفها معرفة وثيقة تجعله لا يملك أي فكرة عنها!
52. تكلمت مع ميرا ديلمار عن تلك الأيام في تشرين الثاني 2006.



53. انظـر: بيجـا غارسـيا ماركيز في غالفيس، المصدر السابق، ص 165-166 حدثتي ميرثيدس بالشيء نفسه في 1991.
54. انظر:
Antonio Andrade, 'Cuando Macondo era Una redaccion", *Excelsior* (Mexico city) 11 October 1970
55. مقابلة مع عايدة غارسيا ماركيز، بارانكيا، 1993.
56. انظـر: "El dia que Mompox se volvio Macondo", *El Tiem*, 11 December 2002
توفيـت مارغـريتا تـشيكا في سينثليجو في آيار 2003. للحصول على أفضل مصدر للمعلومات عن أسباب هذا الاغتيال وما أعقبه راجع:
Eligio Garcia, La Tercera Muerte de Santiago Nasar (Bogota, Oveja Negra, 1987).
57. عشت لأروي، ص 384-386.
58. ليجيا غارسيا ماركيز، المصدر السابق، ص 154.
59. انظر:
Angel Romero, "Cuando GM Dormia en El Universal", 8 march 1983
وهو المصدر الأساس في ما بعد لكتاب آرانغو.
60. جيرلد، المصدر السابق، ص 7
61. غوستافو غارسيا ماركيز في غالفيس، ص 211.
يذكر غابرييل غارسيا ماركيز هذا الحادث في صحيفة الاسبكتادور، 23 آب 1981
62. عشت لأروي، ص 39.
63. انظر: Garcia Usta, *Como Aprendio a escribir Garcia Marquez*, PP. 34-5.
64. آرانغو، المصدر السابق، ص 274.
65. المصدر السابق، ص 211.
66. غوستافو غارسيا ماركيز، في غالفيس، المصدر السابق، ص 194.
67. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، 18 آذار 1951.
68. وهي أيضا موكترية بكل وضوح.
69. يقـول سـانديار إن زيارته كانت عام 1949. ويبدو أن هذا قد استند إلى ذاكرة غير صحيحة لأن غابرييل غارسيا ماركيز سكن في كارثاخينا مرتين: في عامي 1948-1949 وفي عامي 1951-1952. وكان موتيس شديد الوضوح دائما بتأكيده أنه استخدم منصبه في شركة الخطوط الجوية لانسا ليسافر إلى كارثاخينا ليلتقي غابرييل غارسيا ماركيز ولم يطل في عمله في الشركة حتى سنة 1950.
70. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة الباييس (مدريد)، 30 تشرين الأول 1993.
إن حقيقة عدم لقائه موتيس حتى العام 1951 لا تمنع غابرييل غارسيا ماركيز من الإعلان أنـه اعتاد أن يخبر موتيس ومالاريو عن قصصه في بوغوتا في عامي 1947-1948. انظر بوغوتا 1947، الاسبكتادور، 18 تشرين الأول 1981



71. انظر:
Santiago Mutis, *Tras las rutas de Maqroll el Gaviero* (Cali, Proartes, 1988), p. 366.

72. انظر:
Fernando Quiroz, *El reino que estaba para mi: conversaciones con alvaro Mutis* (Bogota, Norma, 1993), PP. 68-70.

73. فاينا الكولومبية
يمكن تأليف أطروحة كاملة عن هذه الكلمة التي تشكل جزءاً لا يتجزأ من الشخصية الوطنية الكولومبية، فهي تستعمل بادئ ذي بدء، عندما يكون المتكلم عاجزاً عن التلفظ بكلمة دقيقة، أو حتى لا يزعج نفسه بالتلفظ بها. على كل حال، ففي بلد يكون فيه الكلام دقيقاً على نحو غير مألوف تجد أن استعمال كلمة Vaina مقصود تماماً ودائماً (في وقت تبدو فيه عفوية)، وعادة قومية أو حتى إدمان، وأسلوب في ترك الأشياء غير دقيقة، بل وسيلة لإظهار أن المرء يرغب في أن يكون حراً وليس رسمياً أو حتى مخالفاً في بلد حيث يتكلم أهله أفضل لغة إسبانية في العالم، والواضح أن كلمة Vaina، إذا أردنا أن نعني كل شيء كما هي الحال هنا، وليس كما هو معتاد، تعني شيئاً غير مهم لا يستحق اسماً يظهر الجانب ينطوي على مفارقة وليس جديراً بالاحترام. إن الكلمة يستعملها كثيراً المتكلمون الذكور، ربما لأن النساء يدركن أنها مأخوذة عن الكلمة اللاتينية Vagina، أي الرحم.

74. انظر: *Vivir Para Contarla*, p. 481.

75. في مقابلة ترجع إلى سنة 1968 قال غابرييل غارسيا ماركيز إن بيبس وأماه عن الرقص. انظر:
Leopoldo Anzacot, "Garcia Marquez habla de politica y literatura", *Indice* (Madrid), 237, November 1968.

لكن بيبس كان قد غدر في بيساه من ذلك العام.

76. لا تزال هناك لحظات أخرى مدهشة، ومنها لحظة خالدة هي شارب الكوكاكولا 24 أيار 1952، بخصوص تحيته لراموس بيبس في أعقاب موته في برشلونة في الخامس من أيار وذلك قبل بلوغه السبعين. إنها شهادة عن الكاتالوني المحور الحكيم، وأيضاً عن رؤية غابيتو وأصدقائه أيضاً، وهو آخر تلامذته الذي وجد طريقة كي يقول وداعاً وهي في الوقت نفسه رؤية لا تنطوي على احترام، تسخر من الذات، ومؤثرة وتنتهي بعبارة: اتصلوا بنا من برشلونة يوم السبت الماضي ليخبرونا بوفاته فجلست أتذكر كل هذه الأشياء، إذ قد تكون صحيحة.

77. أجريت لقاء مع بونشو كويتس في بايدوبار سنة 1993. للحديث عن علاقتهما انظر:
Rafael Escalona Martinez, "Estocolmo, Escalona y Gabo", in Mera, ed., *Aracataca-Estocolmo*, PP. 88-90.

78. مقابلة مع مانويل ثاباتا أولفيا، بوغوتا، 1991. انظر:
Zapata Olevella, "Enfoque antropologico: Nobel para la tradicion oral", *El Tiempo, Lecturas Dominicales*, December 1982.

79. انظر:

Ciro Quiroz Otero, *Vallenato, hombre y canto* (Bogata, Icrao, 1983).

80. صدرت هذه الأغنية بجائزة التأليف في مهرجان الفاليناتو سنة 1977. وكانت معرفة غارسيا ماركيز بهذا النمط من أغاني الفاليناتو المجهولة في أربعينات القرن العشرين قد ازدادت بفضل كيميتي غابرييل ثابالا وماويس بابات أوليفيا (وهما القادمان من جهة منطقة بوليفار الساحلية) حتى قبل أن يلتقي بيسكالونا، لكنه كان شغوفاً دوماً بموسيقى إقليمه الشعبية.

81. انظر:

GGM ."Cuando Escalona me daba de Comer", *Coralibe* (Bogota), April 1981.

82. انظر على سبيل المثال:

"La Cerania con el pueblo encumbro la novela de America Latina", *Excelsior* (Mexico city), 25 January 1988

83. انظر: *Viver Para Contarla*, p. 499.

84. انظر: Cobo Borda, *Silva, Arciniegas, Mutis y Garcia Marquez*, p. 479.

85. انظر:

Plinio Mendoza, "Entrveista con Gabriel Garcia Marquez", *Libre*, 3 March-May 1972. p. 9.

ومنه يقتبس غابرييل غارسيا ماركيز سطراً ويعترف أنه ربما كان مصدر إلهام رؤية **خريف البطريرك**.

86. في قصة **موت معلن**، تصبح شخصيته المستوحاة في الرواية بائع موسوعة في مرحلة قلقة كنت أحاول فيها أن أفهم شيئاً ما عن نفسي". (لندن، بيكادور، 1983) ص 89.

87. انظر خارطة جانب المحيط الأطلسي الذي تطل عليه كولومبيا/الساحل الكولومبي.

88. انظر:

Gilard, ed., Gabriel Garcia Marquez Obra Periodistica Vol. III: Entre Cachacos I, p. 66.

89. يذكر في رسالة بعث بها غابرييل غارسيا ماركيز في برشلونة إلى ألفارو سيبيدا ساموديو في بارانكيا، 26 آذار 1970. إنني مدين لتينا سيبيدا إذ أطلعتني على الرسالة.

90. انظر. *Vivir Para Contarla*, p. 504 بالرغم من أن جيلارد قيل له إن غابرييل غارسيا ماركيز هو الذي سافر أولاً (Textos cotenos I, p. 25)

91. فاز هذا العمل بجائزة القصة القصيرة القومية لعام 1954. انظر **عشت لأروي**، ص 454، لطبعة الإنكليزية، وبتصنع على عادة لا مبالاته بالمال وبالمجد

92. انظر: Cobo Borda, *Silva, Arciniegas, Mutis y Garcia Marquez*, p. 480

يقول غابرييل غارسيا ماركيز أيضاً إن الروائي الذي يستمتع بقراءة أعماله أكثر من غيره ويجعل ذهنه يحلق بعيداً هو كونراد. شكراً، مجدداً، لموتيس.

93. انظر: *Vivir Para contarla*, p. 506-7.



8 – عودة إلى بوغوتا: مراسل صحافي من الطراز الأول (1954-1955):

1. مقابلات مع ألفارو موتيس، مدينة مكسيكو، 1992 و1994. لأغراض هذا الفصل، تحدثت أيضاً إلى خوسيه سالغار (بوغوتا، 1991، كرتاخينا، 2007) وخيرمان آرثنيغاس (بوغوتا، 1991) وخوان غوستافو كوبو بوردا (بوغوتا، 1991) وآنا ماريا باسكيتس دي كانو (بوغوتا، 1991) وألفونسو وفرناندو كانو (بوغوتا، 1993) وألفارو كاستانو (بوغوتا، 1991، 1998، 2007) وناسي بيثيس (مدينة مكسيكو، 1994) وخوسيه فونت كاسترو (مدريد، 1997) وجاك جيلارد (طولوز 1999 و2004) وغيرهم. في 1993 رافقتني باتريثيا كاستانو في جولة في جميع الأماكن ذات الصلة بغابرييل غارسيا ماركيز في مركز العاصمة بوغوتا.
2. انظر:

Alfredo Barnechea and Jose Miguel Oviedo, "La historia como estetica" (interv ew, Mexico, 1974), reproduced in Alvaro Mutis, *Poesia y prosa* (Bogota, Instituto Colombiano of cultura, 1982), PP. 576-97.

3. عشت لأروي، ص 439
4. انظر: Oscar Alcaron, *El Espectador*, 24 October 1982. التقيت في 2007 أوسكار الاركون، أحد الأقرباء من سانتا مرتا عدمه غابرييل غارسيا ماركيز في صحيفة الاسبكتادور.
5. عن المقابلة التي أجريتها مع سالغار 1991.
6. انظر: "La reina sola", *El Espectador*, 18 February 1954
7. انظر: Gilard, ed., *Entre cachacos I*, PP 16-17. مرة أخرى أشير إلى أن كتب جيلارد عن هذه المرحلة لا يستغنى عنه
8. انظر: Sorela, *El otro Garcia Marquez*, p 88. لدى سوريلا، الصحافي الذي عمل فترة في صحيفة الباس الإسبانية، أفكار رائعة بخصوص صحافة غابرييل غارسيا ماركيز.
9. انظر: جيلارد، المصدر السابق. وفيه يقسو على نقد غابرييل غارسيا ماركيز السينمائي
10. الاستقامة والثقة وصحة الإسبانية هي التي تربطه ارتباطاً قوياً بسلمه ثيربانتس.
11. وهو ما كان يسعده أن يقوم به بصورة غير مباشرة، في مراحل متقدمة من حياته، من خلال "ورش" السينما والصحافة
12. انظر:

Living to tell the tale, p. 450. See also Jose Font Castro, "Gobo", 70 Anos. "No quiero homenajes postumos en vida", *El Tiempo*, 23 February 1997.

وفيها ذكريات عن تلك المرحلة.

13. مقابلة مع ناسي بيثيس في مدينة مكسيكو، 1994، 1997. بخصوص لويس بيثيس، انظر:

E. Garcia Riera, *El cine mejor que la vida* (Mexico, cal y Arena 1990), PP. 50-53.

14 فيوريلو، المصدر السابق، ص 262
15. انظر:
Diego Leon Giraldo, "La incredible y triste historia de GGM y la cinenatografia desalamda", *El Tiempo, Lecturas Dominicales*, 15 December 1982.
وذلك بخصوص كل من La Langosta Azul وبقده السينمائي في بارانكيا وبوغوتا وقد أوضح صديقي غوستافو أدولفو راميريث أن أصدقاء غابرييل غرسيا ماركيز الساحليين كانوا يترددون على بوغوتا.
16. عشت لأروي، ص 463.
17. جيلارد، المصدر السابق، ص 52 53.
18. مقابلة غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 2 آب 1954.
19. نشرت في الثاني والثالث والرابع من شهر آب سنة 1954 على التوالي.
20. يتذكر غابرييل غارسيا ماركيز هذه الرحلة إلى 'Uraba' في
"Seamos machos: hablemos del miedo al avion", *El espectador*, 26 October 1980; German Castro Caycedo, ""Gabo" cuenta la novela de sun vida 4", *El Espectador*, 23 March 1977; *Living to tell the tale*, PP. 440-50; Daniel Samper, "GGM se dedicara a la musica", 1968, in Renteria, PP. 7-21 "GGM: "Tego permanente germen de infelicidad: atender a la fama"", *Cromos*, 1 January .980.
وقد ذهب إلى ما هو أبعد من هذا بقوله (كنا نعدّل الحقيقة) مما أثار صدمة بعض الصحافيين في صحيفة الباييس
21. انظر مقالة: همنواي، جائزة نوبل، صحيفة الاسبكتادور، 29 تشرين الأول 1954. المقالة تخلو من اسم كاتبها لكن جيلارد محق تماماً في اعتقاده أن كاتبها هو غابرييل غارسيا ماركيز
22. عشت لأروي، ص 472 يشير الكاتب إلى أن ذلك كان في مكتب غابرييل غارسيا ماركيز في صحيفة لاسبكتدور.
23. غابرييل غارسيا ماركيز، محاضرة ألقيت على صحافيين من صحيفة الباييس في الجامعة المستقلة في مدريد، 28 نيسان 1994.
24. مقابلة مع خوسيه فونت كاسترو، مدريد 1997.
25. انظر:
"La desgracia de ser escritor Joven", *El Espectador*, 6 September 1981.
بعد صدورها أول مرة، وعندما كان غارسيا ماركيز قد عاد لتمضية مدة قصيرة في بوغوتا في أعقاب نشر روايته **مئة عام من العزلة**، وجد عشرات النسخ من هذه الطبعة معروضة للبيع في مكتبة لبيع الكتب القديمة بسعر بيزوس واحد لكل نسخة، فاشترى أكبر كمية يستطيع شراءها.
26. عشت لأروي، ص 482.



27 انظر:
Clande Couffon, "A Bogota chez Garcia Marquez", *L'Express* (Paris), 17-23 January 1977, PP. 70-78, especially p. 74

28. انظر: Dante, *Vita Nuova*, chapter 2.

29 كانت ميرثيديس طالبة ممتازة في المدرسة الثانوية، وفكّرت في دراسة علم الجرائيم في الجامعة، لكن يبدو أن اقتراب موعد زواجها المفترض بغابو، والذي كان يلوح في الأفق دائماً، هو الذي جعلها توجل خططها في الدراسة.

30. عشت لأروي، ص 467 468، 470

31. انظر:
Juan Rurz, Acripreste de Hita, *El Libro de buen amor* (Fourteenth century).
كان تأثيره بالغاً في الثقافة وفي علم النفس الإسبانيين. إن موضوع "الحب المجنون" يرد ذكره في الصفحة الأولى وضمناً بإشارة إلى نقيضه وهو "الحب الوفي" في الصفحة الأخيرة من **ذاكرة غانياتي الحزينات**، وهي الرواية الأخيرة التي نشرها غابرييل غارسيا ماركيز وله من العمر سبع وسبعون سنة.

32. مدينة مكسيكو، 1997.

33. انظر على سبيل المثال: كلوديا، دريفوس، مجلة بلاي بوي، المصدر السابق، وفيها يوضح أن ميرثيديس قالت إن الأفضل له أن يذهب وإلا سيلومها طوال حياتها، (ص 178)

9 – اكتشاف أوروبا: روما (1955):

انظر: ""Los 4 grandes" en Tecnicolor", *El Espectador*, 22 July 1955.

2 يستند هذا الفصل على مقابلات مع فيرناندو غوميث أغيديلو (أجرتها باتريثيا كاستانو، بوغوتا، 1991) وغييرمو أنغولو (بوغوتا، 1991، 2007) وفيرناندو بيري (كرتاخينا، 2007 ولندن، 2008)، وجاك جيلارد، (طولوز، 1999 و2004) وعلى أحاديث شتى مع عدد كبير من رواة الأخبار من ضمنهم جون كرافياوسكاس

3 انظر: ""Los 4 grandes" en Tecnicolor" راجع أيضاً ذكريات مغايرة عن هذه الرحلة في: "Regreso a la guayaba", *El Espectador*, 10 April 1983.
وفيها يوضح مرة أخرى أن هدفه كان هو العودة إلى كولومبيا بعد بضعة أسابيع.

4 انظر:
صحيفة الاسبكتادور، 23 آذار 1977.
يسرد كاسترو كايسيدو 4 و5 بأفصل التفاصيل عن تجارب غابرييل غارسيا ماركيز في جسمي.

5 مرة أخرى نشير إلى أن كتاب جيلارد على درجة بالغة من الأهمية. انظر:
Gabriel Garcia Marquez, *Obra Periodistica Vol. 1: De Europa y America I* (Bogota, Oveja Negra, 1988), p. 21

6 المصدر السابق.

7 سوريلا، المصدر السابق، ص 115



8 الحق أن أزمة البابا أصبحت شيئاً من الماضي بعد أن بلغت عندما كان غارسيا ماركيز لا يزال في بوغوتا. لكن غابرييل غارسيا ماركيز يصر على هذه الرواية ويمضي في التفاصيل. انظر: "Roma en verano", *El Espectador*, 6 June 1982.

9 المصدر السابق، لكن غابو يوضح أنه بقي في روما غاية أشهر أو سنة، راجع:
German Castro Caycedo, ""Gabo" cuenta la novela de su vida. 5", *El Espectador*, 23 March 1977.

10. أشارت صحيفة إكسيلسيور (مدينة مكسيكو)، 19 أيار 1988، أن صحيفة لا ستامب الصادرة في تورين أفادت أن مقالات غابرييل غارسيا ماركيز التي كتبها عن مونتسي لا تلقي ضوءاً جديداً على القضية. الأهم من هذا، وفي ضوء معوقات غارسيا ماركيز، هي إن كانت القضية قد لخصها تلخيصاً أفضل من أي صحافي آخر.

11 انظر: *El Espectador*, 16 Spetember 1955, p. 1.

12. Karen Pinkus, *The Montesi scandal: the Death of Wilma Montesi and the Birth of the Paparazzi in Fellini's Roma* (Chicago, Chicago University Press, 2003), p. 2.

13. المصدر السابق، ص 36 ص: ما السينما؟ بازان.

14. انظر:
GGM "Domingo en el Lido de Venecia Un Tremendo drama de ricos y pobres", *El Espectador*, 13 september 1955.

15. انظر: صحيفة الاسبكتادور، 6 حزيران 1982.

16. صحيفة الاسبكتادور، 8 أيلول 1955.

بعد مرور ربع قرن من الزمان، يسافر روري، الذي كان صديقاً وفياً، إلى كولومبيا ليحقق شريطاً سينمائياً عن رواية قصة موت معلن لغابرييل غارسيا ماركيز.

17. انظر: Cilard, ed., *De Europa y America I*, PP. 5-8.

18 انظر: غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 4 أيلول 1983

تتشابه قصة فريدا وقصة رافائيل ريبيرو سيلفا في روما (التي ورد ذكرها في هذا الفصل) إذ سافرت إلى أوروبا لتصبح مغنية كلاسيكية.

19 غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، 22 آب 1982 وفيها سرد لاعتقاد غابرييل غارسيا ماركيز الخرافي بشأن مغادرة كاديكيس وعدم الرجوع إليها خشية الموت.

20. انظر: مقالته في الاسبكتادور، 27 كانون الأول 1981.

وفيها يوضح علناً أن رحلته الأولى والوحيدة إلى بولندا استغرقت أسبوعين في خريف العام 1955

21. انظر مجلة كروموس 2، 203، 31 آب 1959

22. المصدر السابق.

23. انظر صحيفة الاسبكتادور، 28 كانون الأول 1955.

24. انظر مقالة غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 11 كانون الأول 1955.



25. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة الاسبكتادور، 6 حزيران 1982. يصف غابرييل غارسيا ماركيز الفتاة على أنها واحدة من الغانيات الحزينات في فيلا بورخس: خد وستظهر عبارة "الغانيات الحزينات" في عنوان آخر رواية من رواياته بعد أكثر من خمسين سنة.
26. انظر صحيفة الاسبكتادور، 14 تشرين الثاني 1982، وفيها يثمن ثميناً كبير دور كتّاب النص السينمائي، ومعظمهم مجهول باستثناء ثاباتيني.
27. انظر: Eligio Garcia, *Tras las Claves de melquiades*, PP 408-9.
28. المصدر السابق، ص 432.

يخبر غابرييل غارسيا ماركيز بعد مرور سنوات نقلاً عن ثاباتيني ولبس هيليي إلى أن "الفن في أميركا اللاتينية لا بد من أن يكون له رؤية" لأن واقعنا مهلوس (بكسر الواو) ومهلوس (بفتح الواو) في الوقت نفسه. ألم يداخل الشك أحد في أن أكثر مصادر "الواقعية السحرية" في أميركا اللاتينية وضوحاً هي رواية "أعجوبة في ميلانو"؟

29. إليخيو غارسيا، المصدر السابق، ص 408.
30. إليخيو غارسيا، المصدر السابق، ص 408
31. انظر:

Claude Couffon, "A Bogota chez Garcia Marquez", *L'Express*, 17-23 January 1977, p 57

يقول غابرييل غارسيا ماركيز لكوفون إنه توجه مباشرة إلى فندق الفلاندر في السنة الأولى.

10 – جائع في باريس: البوهيمية (1956-1957):

1. يعتمد هذا الفصل على مقابلات مع بلينيو أبيير ميندوثا (بوغوتا، 1991) وهيرنان فييكو (بوغوتا، 1991) وجيرمان فارغس (باركنيا، 1991) وغييرمو أنخولو (بوغوتا، 1991 و 2007) وتاتشيا كوينتانا روسوف (باريس 1993، 1996، 2004) ورامون تشاو (باريس، 1993) وكلود كوفون (باريس، 1993) ولويس بيّار بوردا (بوغوتا، 1998) وجاك جيلارد (طولوز 1999، 2004) وعدد آخر من رواة الأخبار
2. باريس هي باريس والفندقان قائمان حتى اليوم بالرغم من أن فندق الفلاندر تغير اسمه إلى فندق دي تروا كوليج. ثمة علامة تشير إلى أن غابرييل غارسيا ماركيز نزل فيه. وقد حضر ابنه غونثالو وتاتشيا كوينتانا مراسم إزاحة الستارة عن العلامة.
3. انظر:

Plinio Mendoza, "Ret rate de GM (Fragmento)", in Angel Rama *Novisimos narradores hispanoamericanos en 'Marcha' 1964-1980* (Mexico Marcha Editores, 1981), PP 39-128

4. المصدر السابق، ص 137. انظر أيضاً: صحيفة الاسبكتادور، 27 شباط 1974
5. انظر:

Plinio Mendoza, *La llama y el hielo*; Plinio Mendoza, "GM 18 anos atras", op. cit.

6. مما يدعو إلى الدهشة أن كاتباً أميركياً لاتينياً آخر وصديق غابرييل غارسيا ماركيز مستقبلاً، وهو ماريو فارغاس يوسا، انتهى به الأمر بعد أربع سنوات إلى غرفة علية استأجرها من السيدة لاكروا وللسبب نفسه.
7. في ما يخص أوتيرو سيلفا انظر صحيفة الاسبكتادور، 28 كانون الأول 1980.
8. بلينيو مندوثا، المصدر السابق، ص 49-51.
(من شأن La llama y el hielo أن تحدث شقاقاً بين غابرييل غارسيا ماركيز وميندوثا وعلى وجه الخصوص بين ميرثيديس ومندوثا، إذ وجدت في بعض كشوفه خيانة للثقة ولصداقتهما).
9. انظر:
Antonio Nunez Jimenez, "Garcia Marquez y le las Antillas (o Que conversan Gabo y Fidel)", (Havana, 1984, unpublished manuscript)
وقد اطلعني خيمينيث على المخطوطة لدى زيارتي هافانا في العام 1997 كما أن القصة وردت في مقالة غابرييل غارسيا ماركيز 'Desde Paris con amor' المنشورة في صحيفة الاسبكتادور في 26 كانون الأول 1982. لقد سقط بيرون - الذي لم يكن دكتاتوراً بأي حال من الأحوال - في أيلول 1955. هذا يدلو على الأرجح أن الصرخة كانت موجهة إلى أودريا الذي تخلى عن السلطة في البيرو على مضض في الثامن والعشرين من تموز، أو إلى سوموزا الرئيس النيكاراغوي الذي لقي مصرعه في الحادي والعشرين من أيلول.
10. انظر: غابرييل غارسيا ماركيز' صحيفة الاسبكتادور (بوغوتا)، 31 آذار 1956
يمكن العثور على هذه المقالات في كتاب جيلارد: De Europa y America 1
11. مندوثا، المصدر السابق، ص 19 20.
12. انظر:
Consuelo Mendoza de Riano, "La Gaba Revista Diners", (Bogota), no. 80, November 1980.
وفيها نقرأ عن غابرييل غارسيا ماركيز وقد كتب ثلاث مرات أسبوعياً إلى ميرثيديس، لكن قيل إنه كانت لديه صديقة إسبانية في باريس.
13. انظر: بيترسون "غارسيا ماركيز"، مجلة باريس ريفيو، 1981، ص 188
14. ميندوثا، عطر الجوافة، ص 56.
15. إليخيو غارسيا، المصدر السابق، ص 403.
16. بخصوص مقهى مابيون وغيرها من المقاهي وارتياداته انظر.
Juan Goytisolo, coto vedado (Barcelona, seix Barral, 1985), PP 12-209
17. يستند هذا المقطع إلى مقابلة طويلة في باريس في شهر آذار 993
18. لعل أبلغ شروح عن معاناة غابرييل غارسيا ماركيز في باريس هو ذلك الذي نجده في:
Jean Michel Fossey, "Entervista a Gabriel Garcia Marquez", *Imagen* (Caracas), 27 April 1969. see also German Castro Caycedo, ""Gaba" cuenta la novella de su vida. 5 , *El Espectador*, 23 March 1977

19. يدعى أصدقاء أوغسطس الثلاثة، وكلهم حيطون، بالأسماء ألفونسو وألفارو وجيرمان، وهي أسماء أفضل أصدقاء غابرييل غارسيا ماركيز من بارانكيا.
20. انظر بلينيو ميندوثا، عطر الجوافة، ص 26.
21. أمضى عمه خوسيه ماريا بالديبلانكيث عقوداً من الزمان في الحكومة في بوغوتا، وفي سنة 1993 التقيت على مائدة الشرب مع ريكاردو ماركيز إيواران، وهو أحد أقرباء غارسيا ماركيز، وكان يعمل منذ سنوات مع بالديبلانكيث في دائرة التقاعد في أواخر عقد الأربعينيات: "سنوات وسنوات ولم ندفع مرتباً تقاعدياً واحداً!"
22. تجري وقائع رواية **ليس للعقيد من يكاتبه** منذ أوائل تشرين الأول وحتى مطلع كانون الأول 1956؛ ونحن نعلم بهذا بسبب الإشارات إلى أزمة السويس. مما يعني أنها كتبت في الوقت نفسه الذي كانت فيه الأحداث تأخذ مجراها في كولومبيا والشرق الأوسط، فضلاً عن أن غابرييل غارسيا ماركيز وتاتشيا كوستامان كانا معاً خلال تلك المدة، 21 آذار وحتى أواسط كانون الأول.
23. بترجمتي.
24. سوريلا، المصدر السابق، ص 133.
25. الرواية مؤطرة بالإطار نفسه المستعمل في **قصة موت معلن** لاحقاً: فأمامنا راوٍ يشبه غابرييل غارسيا ماركيز تحدث إلى بيبي في كارثاخينا بعد مرور سنوات طويلة ثم يبدأ بمعاينة سجلات المستشفى في باريس ليتأكد من تاريخ دخول نينا، ويتحدث إلى أحد العاملين سبق لبيبي أن استشاره في السفارة الكولومبية.
26. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، 22 شباط 1984.
27. غوستافو غارسيا ماركيز في غالبيس، المصدر السابق، ص 206.
28. يناقش ميندوثا هذه المرحلة في: Cronicas sober el grapa de Barranquilla
لقد كانت رواية غابرييل غارسيا ماركيز الأولى **عاصفة الأوراق** مهداة إلى خيرمان فارغاس. أما الأصدقاء في رواية **ليس للعقيد من يكاتبه** فهم ألفونسو وألفارو وخيرمان: وسيظهر الرجال الثلاثة في رواية **مئة عام من العزلة** مع رامون بينيس (وموثبديس...). مما لا يدعو إلى العجب أن غابرييل غارسيا ماركيز يكرر أمام الصحفيين أنه كتب "كي يحبني أصدقائي أكثر"، ومن يتولاه العجب لرجل له تجربته في الحياة العائلية في الطفولة، فيتشبث بالأصدقاء الذين جعلوه أول مرة يشعر أنه إنسان مهم.
29. انظر:

Silvana Paternostro, "La Mirada de los otros Pagina 12", (Buenos Aires), 5 May 2004.

30. غابرييل غارسيا ماركيز، خورخي براسينس، مقالة، الاسبكتادور، 8 تشرين الثاني 1981.
31. غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 26 كانون الأول 1982 وفيها يتذكر كيف كان يعمل لجبهة التحرير الوطني الجزائرية. (وبعد خمس وعشرين سنة، وفي أثناء احتفالات الاستقلال يقول إن ذلك النضال هو النضال الوحيد الذي سجن بسببه).
32. انظر: غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 26 كانون الأول 1982.



33. انظر: كوفود، الإكسبريس، 17-23 كانون الثاني 1977، ص 76.
34. انظر: Plinio Mandoza in Mera, ed., *Aracataca-Estocolmo*, PP. 1-100.
(*) سيرسه: هي حسب الأساطير الإغريقية ساحرة عاشت في إحدى الجزر الإغريقية وعندما حطّ أوديسيوس رحاله فيها حوّلت سيرسه رجاله إلى خنازير فأصبحت بذلك رمز الغواية. (المترجم)
35. انظر: غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 26 تموز 1981.

11 – ما وراء الستار الحديدي: أوروبا الشرقية إبان الحرب الباردة (1957)

1. انظر: Mendoza, *La llama y el hielo*, p 21. يستند هذا الفصل إلى مقابلات مع سيبيرو ميندوثا (بوغوتا، 1991)، ولويس فيّار بوردا (بوغوتا، 1998)، وغييرمو أنغولو (بوغوتا، 1991)، وهيربرت هيكو (بوغوتا، 1991)، وتاتشيا كوينتانا (باريس 1993)، وماوريو ثاباتا أوليفيا (بوغوتا، 1991)، وجاك جيلارد (طولوز 1999، 2004) وغيرهم.
2. يظلل غارسيا ماركيز حتى في مقالاته المنشورة عن هذه الرحلة، والتي نقحها وعدلها في سنة 1959، يخفي شخصية سوليداد تحت اسم جاكلين، وهي فنانة فرنسية تصويرية تنحدر أصلاً من الهند الصينية، ويخفي شخصية بلينيو تحت اسم فرانكو وهو صحفي إيطالي متنقل. وفي خمسينيات القرن العشرين كان يستحيل على أي كولومبي السفر إلى ما وراء الستار الحديدي من دون المجازفة بعواقب سياسية وشخصية وخيمة، انظر كتاب:

Gilard, ed., *De Europa y America I*, p. 7.

3. انظر: غابرييل غارسيا ماركيز: 90 يوماً وراء الستار الحديدي، كروموس 2، 27 تموز 1959.

All these articles are collected in Gilard, ed., GGM, *Obra periodistica Vol. V* and *Vol. VI: De Euorpa y America 1 and 2.*

4. انظر: **تسعون يوماً وراء الستار الحديدي**، كروموس، الحلقة السادسة، 3 آب 1959.
5. انظر: **تسعون يوماً وراء الستار الحديدي**، الحلقة الثانية.
6. انظر: **تسعون يوماً وراء الستار الحديدي**، الحلقة الثالثة، 10 آب 1959.
7. بعد مرور سنوات طويلة يصبح فيّار بوردا آخر سفير كولومبي في برلين الشرقية.
8. في تموز 2004، أخبرني جاك جيلارد قائلاً "في يوم من الأيام، أخبرني غابرييل غارسيا ماركيز أنه ليس متأكداً إن كان شيوعياً، لكنه قال إنه يعتقد أنه شيوعي. من المؤكد أنه لدى وصوله إلى فيينا سنة 1955 ولقائه خورخه ثالامبا، الذي كان يحضر آنذاك مؤتمراً شيوعياً، كان ينظر إلى نفسه على أنه شيوعي". لكن هذا لا يعني بطبيعة الحال أنه كان عضواً في الحزب.
9. انظر: **تسعون يوماً وراء الستار الحديدي**، الحلقة الثالثة.
10. انظر: **تسعون يوماً وراء الستار الحديدي**، الحلقة السادسة، كروموس، 3 آب 1959.
11. المصدر السابق.



12. المصدر السابق.
13. أوضح غارسيا ماركيز في مقالاته أن جاكلين وحدها رجعت إلى باريس وأنه مكث هو وفرانكو في برلين وترك السيارة فيها، ووصل سفره بالقطار إلى مدينة براغ. ولم تكن تلك الزيارة لتسهيل زيارة ألمانيا في أيار 1957 وحسب، بل زيارة تشيكوسلوفاكيا وبولندا أيضاً خلال الزيارة المزمع القيام بها في تموز/آب 1957، إلى كل من اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية وهنغاريا. وهكذا انطوت ثلاث زيارات منفصلة على رحلة واحدة مفترضة **تسعون يوماً وراء الستار الحديدي**.
14. راجع، المصدر السابق، ص 88.
كانت الفرقة هي فرقة ديلي تاتانا الفلكلورية التي كتب عنها غارسيا ماركيز مقالة في بوغوتا (الاسبكتادور، 4 آب 1954) وكانت الفرقة ينقصها عازف الأكورديون وعازف الساكسفون.
15. غابرييل غارسيا ماركيز، باريس إلى باتشيا كوينتانا، مدريد، صيف 957.
16. يصف غابرييل غارسيا ماركيز هذه الرحلة في مقالته في الاسبكتادور، 11 تشرين الأول 1981.
17. انظر: **تسعون يوماً وراء الستار الحديدي**، الحلقة السابعة، كروموس، 7 أيلول 1959.
سينشر غابرييل غارسيا ماركيز المقالات الأربع الأولى عن اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية في كروموس في بوغوتا عام 1959 بشكل مقالتين اثنتين أول الأمر:
"Yo visite Rusia" 1 and 2 in *Momento*, caracas, 22 and 29 November 1957.
وقد نُشرت المقالات في كتاب جيلارد:
Gilard, ed., *Gabriel Garcia Marquez. Obra Periodistica Vol. VI De Europa y America 2* (Bogota, Oveja Negra, 1989).
لكني أستشهد هنا بمجموعة العام 1959 لأن المقالات أكثر اكتمالاً، ولأنها جزء لا يتجزأ من منظور شامل.
18. تم الإطلاق سبوتنيك في الأول من حزيران 1957.
19. انظر: **تسعون يوماً وراء الستار الحديدي**، الحلقة الثامنة، كروموس، 14 أيلول 1959.
20. المصدر السابق.
21. المصدر السابق.
22. انظر: **تسعون يوماً وراء الستار الحديدي**، الحلقة التاسعة، كروموس، 21 أيلول 1959.
23. المصدر السابق. قارن مقالة غابرييل غارسيا ماركيز في الاسبكتادور، 12 أيلول 1982، وفيها يناقش موضوع حنثي لينين وستالين ويذكر إيفيتا بيرون وسانتا آنا وأربعون، ويقارن بين أيدي ستالين وفيدل كاسترو وتشي غيفارا الرقيقة.
24. انظر: Mandoza, *La llama y el hielo*, p. 30.
25. يلتقي غابرييل غارسيا ماركيز لاحقاً بزعيم آخر معروف في العالم أجمع باسم (فيدل) ويتهم بأنه دكتاتور، وهو ذو يدين رقيقتين وهو يبتسم بالعم، لكنه صديق ورفيق الجميع. وفي ذلك الوقت كان غارسيا غارسيا ماركيز قد أمسى صديق الجميع أيضاً "غابو".

26. انظر: **تسعون يوماً وراء الستار الحديدي**، الحلقة التاسعة، كروموس، المصدر السابق.
27. المصدر السابق.
28. انظر: **تسعون يوماً وراء الستار الحديدي**، الحلقة العاشرة، كروموس، 28 أيلول 1959.
29. انظر: غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، مومينتو (كاراكاس)، 15 تشرين الثاني 1957.
30. المصدر السابق.
31. المصدر السابق.
32. المصدر السابق.
33. ميندوثا، المصدر السابق، ص 32.
غابرييل غارسيا ماركيز في لندن إلى لويسا سانتياغا ماركيز في كارتاخينا (بواسطة ميرثيديس في بارانكيا)، 3 كانون الأول 1957.
35. انظر: كلود كوفون، الإكسبريس، باريس، 17-23 كانون الثاني 1977، ص 76.
36. انظر Gilard, ed., *De Europa y America I*, PP. 8-33.
37. انظر أنطوني داي ومارجوري ميلر، غابو يتحدث. غابرييل غارسيا ماركيز يتكلم عن ملايا أميركا اللاتينية وصداقته بفيدل كاسترو وذعره في الصحيفة البيضاء، لوس أنجلوس تايمز، 2 أيلول 1990. "كنت إلى حدٍّ ما ضحية للدعاية في المرحلة التي كنت فيها طالباً في المدرسة الثانوية، وأول رحلة لي إلى الأقطار الاشتراكية. وما عدت من أوروبا الشرقية عام 1957 اتضح لي أن الاشتراكية، نظرياً، تمثل نظاماً أكثر عدالة من الرأسمالية. أما من حيث التطبيق، فهي ليست باشتراكية. في تلك اللحظة، اندلعت الثورة الكوبية". (ص 33-34).
38. في الخامس عشر من تشرين الثاني سنة 1957، نشر غابرييل غارسيا ماركيز مقالته "زرت هنغاريا" في مجلة "مومينتو" وفي الثاني والعشرين والتاسع والعشرين من تشرين الثاني نشر مقالته "كنت في روسيا" بقسمها الأول والثاني في مجلة "مومينتو" أيضاً. وبعد سنتين تقريباً، منذ نهاية تموز وحتى نهاية أيلول 1959 نُشرت له عشر مقالات أخرى بعنوان موحد هو **تسعون يوماً وراء الستار الحديدي** في مجلة كروموس الأسبوعية الصادرة في بوغوتا: ثلاث مقالات عن ألمانيا، وثلاث مقالات عن تشيكوسلوفاكيا، ومقالة عن بولندا، وأربع مقالات عن اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية، (مكرراً فعلاً المقالات التي سبق أن كتبها عام 1957). لكن مما يبعث على الاستغراب أنه لا يكرر مقالته عن هنغاريا. لمزيد من المعلومات عن إعادة بناء سنوات الكتابة والنشر على نحو مفصل راجع: Gilard, ed., *De Europa y America I*, PP. 8-33.
39. مقابلة مع تاتشيا كوينتانا، باريس، 1993.
40. غابرييل غارسيا ماركيز، لندن، إلى لويس سانتياغو ماركيز، كارتاخينا (بواسطة ميرثيديس، بارانكيا)، 3 كانون الأول 1957.
41. جيلارد، المصدر السابق، ص 44.
42. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الناسيونال (كاراكاس)، 6 كانون الثاني 1958.
43. غابرييل غارسيا ماركيز، مدينة مكسيكو إلى ماريو فارغاس يوسا، لندن، 1 تشرين الأول 1966.



44 غابـريل غارسـيا ماركيـر من لندن إلى لويسا سانتياغا ماركيز، كارثاخينا (بواسطة ميرثـيديس، بارانكيا)، 3 كانون الأول 1957. مصدر كلوديا دريفوس، "غابرييل غارسيا ماركيـر"، مجلـة بلاي بوي، 20: 30، شباط 1983، ص 65، 77، 172–178؛ بلاي بوي: "كيف كان رد فعل ميرثيديس إزاء سفره إلى أوروبا؟"، غارسيا ماركيز: "هذا سر من أسرار شخصيتها ولن يكشف لي أبداً حتى اليوم. كانت متأكدة تماماً أنني سأرجع، وكـان الجميـع بـيهمونها بالجنـون، وأنني سآخذ مدة أخرى في أوروبا. وفي فرنسا عـشت حـياة متحررة كل التحرر، ولكنني كنت أعرف أنني سأعود إليها عندما ينتهي ذلك كله. القصية ليست قصية شرف بل هي قصية مصير حقيقي، كأن شيئاً قد حدث من قبل.

45. حديث، مدينة مكسيكو، 1993.

46. حديث مدينة مكسيكو، 1999.

12 – فنزويلا وكولومبيا: ولادة الأم الكبيرة (1958-1959):

1. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، 18 كانون ثاني 1981

تعـتمد مـادة هذا الفصل والفصل الذي يليه على أحاديث مع بلينيو ميندوثا (بوغوتا، 1991)، وكونسويلو وألفيرا ميندوثا (بوغوتا، 2007)، وخوسيه فونت كاسترو (مدريد، 997)، ودومينـيـغو ميلياني (بيتربرغ، 1998)، وألخاندرو برونو ل (بيتربرغ، 2005)، وخـوان أنطونـيـو هيرنانديز (بيتربرغ، 2004 و2005)، وقرأ هذا الفصل قبل طباعته، لـويس هـارس (بيتربرغ، 1993)، وخوسيه لويس دياث غراناردوس (بوغوتا، 1991 وبعدها)، وخوسيه (بيـبي) ستيفنسون (بوغوتا، 1991، وكارثاخيـنا، 2007)، ومالكولم ديـيـس (أوكـسفورد وبوغوتا، 1991)، وإدوارد وبوسادا كاربو (أكسفورد، 1991) وإدوارد بارتشا باردو (آرخونا، 2008)، وألفونسو لوبيث ميتشيلسين (بوغوتا، 1993)، وخيرمـان أرثينيغاس (بوغوتا، 1991)، وراميرو دي لا إسبرِيّا (بوغوتا، 1991)، وجاك جـيلارد (طولـوز، 1991 و2004)، ورافائيل غيبرت (برشلونة، 1992)، وخيـسوس مـارتن بـاربيرو (بيتربرغ، 2000)، ولويس بيّار بوردا (بوغوتا، 1998)، وريتا غارسيا ماركيز وعدد كبير آخر من رواة الأخبار.

2 انظر:

Mendoza, *La llama y el hielo*, PP. 35-6. See also GGM, "Memoria Feliz de Caracas", *El Espectador*, 7 March 1982.

3. ميندوثا، المصدر السابق، ص 89.

4 انظر:

GGM, "No se me ocurre ningun titulo", *Case de las Americas* (Havana), 100 January – February 1997, PP. 85-9.

5 ربـمـا خاتمـة روايـة خـريف البطريرك التي تستمد وقائعها بلا أدنى ريب من هذه الاحتفالات في كاراكاس.

6 ميندوثا، المصدر السابق، ص 40–41



يعود غابرييل غارسيا ماركيز إلى هذا الحدث في مقالته في «إسبكتادور»، 1 تشرين الثاني 1981، ثم يرويها في روايته **خريف البطريرك**، و**قصة موت معلن**.

7. ثم يتجاهل آنذاك ولاحقاً، رواية **الرئيس** لميغيل أنخل أستورياس وهي روايته المستوحاة من طاغية غواتيمالا مانويل إيسترادا كابريرا، وأحدثت ضجة لدى صدورها في بوينس آيرس سنة 1948 عن دار نشر لوسادا، وهي الدار نفسها التي رفضت نشر رواية غابرييل غارسيا ماركيز **عاصفة الأوراق** - وحازت الجائزة الدولية للكتاب لدى صدورها باللغة الفرنسية سنة 1952، وهي الجائزة التي سنالها رواية **مئة عام من العزلة** بعد ثمانية عشر عاماً.

8. انظر:

Mendoza, *The Fragrance of the Guva*, PP. 80-90, Ernesto Gonzalez Bermejo, "Garcia Marquez. ahora doscientos anos de soledad", *Triunfo* (Madrid), 44, 41 November 1970, (See Renteria, PP 49-64).

9. انظر Gilard, ed , *De Europa y America I*, PP 50-51.

10. انظر: غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، مجلة مومنتو، 7 شباط 958 .

11. مقابلة مع خوسيه فونت كاسترو، مدريد 1997.

12. إليخيو غارسيا، المصدر السابق، ص 232.

(*) السالیسیانات: نسبة إلى سان فرانسيس دي سايلس الذي أسست على اسمه في مدينة سورين الإيطالية جمعية كاثوليكية تتبع كنيسة روما في العام 1845 وكانت تهدف أساساً إلى التبشير. (المترجم)

13. ريتا غارسيا ماركيز، المصدر السابق، ص 243

14. فوريلو، المصدر السابق، ص 266

15. مقابلة مع ميرثيديس بارتشا، كارثاخينا، 1991. قارن بياتريث لوبيث دي بربتشا:

"gabito espero a qua yo creciera", *Carrusel, Revista de El Tiempo* (Bogota). 10 December 1982.

في سنة 982، جاء غابيتو إلى كاراكاس قادماً من باريس "وفي يوم ما دخل المنزل"، وبعد يومين تزوجا.

16. انظر: Castro Caycedo. "Gabo la novella de su vida". وفيها محاورة قصيرة مع ميرثيديس.

17. انظر:

Alfonso Funemayor, "El dia en que se caso Gabito', *Fin de Semana del Caribe*, n.d. (See Fiorillo, la Cueva, PP 7-265).

18. انظر: Lita GM, in Galvis, *Los GM*, PP. 46-47.

(*) خطأ يبو، كنية إليخيو غابرييل المولود في سوكري في 11/14 1947 والمتوفى في بوغوتا في 2001.6/29، هو شقيق غابرييل غارسيا ماركيز الأصغر، أي إنه أصغر أولاد غابرييل إليخيو غارسيا مارتينيث (1901 1985). انظر مخطط شجرة العائلة في نهاية الكتاب. (المترجم)



19. انظر:
Eligio Garcia, "Gabriel Jose visto por Eligio, el benjamin" *Cromos* (Bogota), 26 October 1982. PP. 20-21.

20. انظر: خورخي كسترو كايسيدو، مقالة، الاسبكتادور، 23 آذار 1977.

21. انظر:
Consuelo Mendoza de Riano, "La Gaba", *Revista Diners* (Bogota), November 1980.

22. انظر: دوميغو ميليان، مقالة، الناسيونال، كاراكاس، 31 تشرين الأول 1965.

23. حديث مع ماريو فارغاس يوسا، ستراتفورد، إنكلترا 1990.

24. حديث مع ميرثيديس بارتشا، مدينة مكسيكو، تشرين الأول 1993.

25. انظر: Mendoza, *La llama y el hielo*, p. 46.

26. حديث مع ميرثيديس بارتشا، كارتاخينا، 1991.

27. انظر:
Maria Esther Gilio, "Escribir bien es un deber revolucionario", *Triunfo* (Madrid), 1977. (See Renteria, PP. 5-14.)

28. إليخيو غارسيا، المصدر السابق، ص 424.

29. انظر: Mendoza, *La llama y el hielo*, p. 44.

30. انظر: دوميغو ميليان، الناسيونال، 31 تشرين الأول 1956.

31. انظر:
Cosuelo Mendoza, "La Gaba", *Revista Diners* (Bogota), November 1980; Beatriz Lopez de Barcha, "Gabito espero a que yo crecira", *Carrusel. Revista de El Tiempo* (Bogota), 10 December 1982, and Clandia Dreifus, "Gabriel García Marquez", Plyboy 30: 2, February 1983, p. 178.

32. انظر: Sorela, *El otro GM*, p. 185.

33. انظر: Eligio Garcia, *Tras las Claves de Melquiades*, p. 366.

34. انظر: GGM, "Mi hermano Fidel", *Momento* (Caracas), 18 April 1958.

35. انظر: Nunez Jimenez, "GM y la perla de las Antillas".

36. انظر:
GGM, "No se me ocurre ningun titulo", *Casa de las Americas* (Havana), 100, January-February 1977.

37. انظر: Mendoza, *La llama y el hielo*, p. 60.

38. انظر:
Antonio Nunez Jimenez, *En marcha con Fidel* (Havana, Letras Cubanas, 1982).

39. انظر: ميندوثا، المصدر السابق، ص 67.

40. انظر: جيلارد، المصدر السابق، وميندوثا، المصدر السابق، أيضاً ص 67-68.

41. ميندوثا، المصدر السابق.



42. تختلف رواية ميندوثا عن رواية غابرييل غارسيا ماركيز. ففي الرواية الأولى يقف ميندوثا من وراء العمل كله في بوغوتا وليس في كاراكاس، ولا وجود لغارسيا ماركيز في الصورة، وقد وافق ميندوثا بشرط أن التمويل صحيح وأن يستأجروا صديقاً من أصدقائه في كاراكاس وبالمرتب نفسه. أما غابرييل غارسيا ماركيز فيطرح رأياً مغايراً. راجع: Nunez, "GM y la perla de las Antillas".
43. انظر: بويث، المصدر السابق.
44. انظر ميندوثا، المصدر السابق، ص 71.
45. مقابلة مع خوسيه ستيفنسون، كارتاخينا، آذار 2007
وتحدثت أيضاً إلى إدوارد ماركيز ماردو، شقيق ميرثيديس في آرخونا، سنة 2008. وكان يرمند طالباً في بوغوتا ثم التحق بوكالة بريسا لاتينا للصحافة. وفي مع أخته وزوجها في شقتها في بوغوتا.
46. انظر غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، مجلة مومينتو (كاراكاس)، 21 آذار 1958.
47. انظر خوسيه لويس دياث غرنادوس، مقابلة في بوغوتا، 1991. وانظر أيضاً: كونسويلو ميندوثا "لا عدد" ريفيستا دايرز، تشرين الثاني 1980.
48. ميندوثا، المصدر السابق، ص 72
49. انظر غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، إيليت (كاراكاس)، 28 حزيران 1958.
50. انظر:
Mendoza, "Entrevista con Gabriel Garcia Marquez", *Libre* 3 March-May 1972, PP 13 14
51. انظر Mendoza, *La llama y el hielo*, p. 74.
52. المصدر السابق، ص 71.
53. غابرييل غارسيا ماركيز، **قصص مجموعة**، ص 184
54. المصدر السابق، ص 200
55. انظر الصورة القسمية التي يقدمها هرنان دياث عن غابرييل غارسيا ماركيز في الآونة التي كان يشتغل فيها في وكالة بريسا لاتينا للصحافة، ويظهر التمير في السلوك واضحاً ومذهلاً.
56. انظر جيلارد، المصدر السابق، ص 60-63.
57. المصدر السابق، ص 53-54. انظر أيضاً:
Gilard. "Garcia Marquez. un Projet d'ecole de cinema (1960)"; *Cinemas d'Amerique Latina* (Toulouse), 3, 1995, PP. 24 38, and ""Un carnival Para toda la vida", de cepeda samudio, on quand Garcia Marquez faisait du montage", *cinemas d'Amerique latine* (Toulose), no 3, 1995, PP 39-44.
58. انظر.
Daniel Samper, "GGM se dedicara a la musica", *El Tiempo*, December 1968, in Renteria, p. 24; and Saldivar, *GM el Viaje a al semilla*, PP 389-90.



13 – الثورة الكوبية والولايات المتحدة الأميركية (1959-1961):

1. انظر ميندوثا، المصدر السابق، ص 87-88.
2. انظر:

E. Gonzalez Bermejo, "Ahora doscientos anos de soledad ..", *Triunfo*, November .971 (in Renteria, ed , Garcia Marquez habla de Garcia Marquez en 33 grandes re portajes, p. 50); also Angel Augier, "GM en la Habana", *Mensajes* (UNEAC Havana), I: 17, 10 September 1970

هـــذا وسيغدو آرولدو وولش في وقت لاحق حلقة وصل مهمة بين خوليو كورتاثار والثورة الكوبية.

3. ميندوثا، المصدر السابق، ص 88.
4. بعد مرور ستة عشر عاماً سيغدو وولش ويلقى مصرعه في بوينس آيرس على أيدي الجيش الأرجنتيني لمعارضته لناسلة في أثناء ما سمي بالحرب القذرة. انظر: رودولفو وولش بقلم غابرييل غارسيا ماركيز، مجلة ألتارناتيفا ص 124 في 25 تموز – آب 1977. وانظر أيضاً مقالة غابرييل غارسيا ماركيز في صحيفة الاسكتادور في 14 كانون الأول 1981.
5. انظر بوليت حيميث، المصدر السابق، انظر أيضاً مقالة غابرييل غارسيا ماركيز في صحيفة الاسبكتادور 14 كانون الأول 1981 ملاحظة الغارق في التفاصيل
6. انظر ميندوثا، المصدر السابق، ص 84-86.
7. المصدر السابق، ص 81.
8. انظر: آرانغو، المصدر السابق، ص 179.
9. انظر: إليخيو غارسيا، المصدر السابق، ص 474-479.
10. مقابلة مع غارسيا ماركيز أجراها أورلاندو كستيلانوس، إذاعة هافانا، وأعيد نشرها في Prisma del meridiano، هافانا، 80، 1-5 تشرين الأول 1976.
11. انظر مقالة غابرييل غارسيا ماركيز، الاسكتادور، 23، كانون الثاني 1983.
12. انظر كينيدي في المصدر السابق، ص 258.
13. انظر مقالة غابرييل غارسيا ماركيز في آريتو، 21 حزيران 1979، ص 31-33
14. انظر غابرييل غارسيا ماركيز، بقلم ميغيل فرنانديث، برسو (مدريد، 1969)، ص 31.
15. انظر مقالة غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 28 شباط 1982.
16. بوليت حيميث، المصدر السابق.
17. مقالة غابرييل غارسيا ماركيز نيويورك 1961، آريتو، 21، حزيران 1979، ص 33.
18. غابرييل غارسيا ماركيز في نيويورك إلى الفارو مسيدا في بارانكيا، 26 نيسان 1961، وفيها يأتي على ذكر "الغزوات" في نهاية الرسالة
19. مما لا ريب فيه أن المناهضين للثورة سيتهمونه في كل الأحوال. انظر: غييرمو كابريرا أنفانتي في صحيفة التيمبو، 6 آذار 1983، وفيها يدّعي أنه واحد من أولئك الذين يعرفون سيرته الحقيقية، ثم يكشف عن غير قصد خطأ هذا الكلام (أو لعله يسعى لتصليه

مستعملاً) وذلك عندما يزعم أن غابرييل غارسيا ماركيز هرب من نيويورك حين سماعه خبر غزو خليج الخنازير، إذ خشي أن يجتاح الغزو. وقد ردد هذه القصة عدد آخر من الكتاب المناهضين للثورة مثل كارلوس فرنكوي وكارلوس ألبيرتو مونتانير، ولكنها قصة لا أساس لها من الصحة

20. ميندوثا، المصدر السابق، ص 75-106.

21. يوريت خيميث، المصدر السابق.

22. ميندوثا، المصدر السابق، ص 75-106

23. رسالة غابرييل غارسيا ماركيز من نيويورك إلى ألفارو سيبيدا، بارانكيا، 23 أيار 1961.

24. رسالة غابرييل غارسيا ماركيز من نيويورك إلى بلينيو ميندوثا، 29، أيار 1961

25. المصدر السابق.

26. ميندوثا، المصدر السابق، ص 106.

27. أرنستو شوي، بريميرا بلانا (بوينس ايرس)، 234، 20-26 حزيران 1967.

28. غابرييل غارسيا ماركيز، الاسكتادور، 23 كانون الثاني 1983.

29. رسالة غابرييل غارسيا ماركيز من مدينة مكسيكو إلى بلينيو ميندوثا، بوغوتا، 30 حزيران 1961.

(*) لاريدو: مدينة في جنوب ولاية تكساس.

14 هروب إلى المكسيك (1961-1964):

1. انظر مقالة غابرييل غارسيا ماركيز، الاسكتادور، 23 كانون الثاني 1983، وفيها يعلن أنه لن ينسى تاريخ وصوله (2 تموز 1961) لأن صديقاً اتصل به في اليوم التالي ليخبره عن موت همنغواي. لكن رسالة غابرييل غارسيا ماركيز إلى بلينيو ميندوثا، في بوغوتا مؤرخة بتاريخ الثلاثين من حزيران 1961، تبرهن على خطأ أحب الأساطير بشأن غابرييل غارسيا ماركيز، وهي وصوله إلى مدينة مكسيكو في اليوم الذي انتحر فيه همنغواي، وهو تاريخ غير صحيح. انظر أيضاً إلى المقالة المنشورة في صحيفة الاسبكتادور في 7 كانون الأول 1980، وفيها أخطاء كثيرة عن تواريخ وحسابات أيامه التي أمضاها في المكسيك، وهكذا قد تخطئ أفضل الذكريات.

2. يعتمد هذا الفصل والفصلان التاليان على مقابلات مع بلينيو ميندوثا (بوغوتا، 1991) وألفارو موتيس (مدينة مكسيكو، 1992 و1994)، وماريا لويس إليو (مدينة مكسيكو، 1992)، وكارلوس مونسيفايس (مدينة مكسيكو، 1992)، وفرانسيسكو (باكو) بوردا (برشلونة، 1992)، وكارمن بالسيلس (برشلونة، 1991، 1992 و2000)، وبيرنا ناغارو (مدينة مكسيكو، 1992)، وماريا لويسا (الصينية) ميندوثا (مدينة مكسيكو 1994)، وكارلوس فوينتس (مدينة مكسيكو، 1992)، وجيمس بيورث (مدينة مكسيكو، 1992)، وغوستافو غارسيا بارشا (مدينة مكسيكو، 1992، 1994 وباريس 2004)، وبيرا هيرنانديز (مدينة مكسيكو 1993)، وآلان ماكيساك مالدونادو (مدينة مكسيكو 1993)، ونوليوا غوتيرا غاراموبو (بيبربيغ، 1993)، ومانويل بارباكانو (مدينة مكسيكو، 1994)،

ومارغو علاتتر (مدينة مكسيكو، 994.)، وأوغستو (بتو) مونتيروسو وباربارة جاكوبس (مدينة مكسيكو، 1994)، ريليب نرياتو مسكا (مدينة مكسيكو، 1994)، وخورخه سانتشيث (مدينة مكسيكو 1994)، وخوان وفرجيبيا ريبوسو (مدينة مكسيكو، 1994)، ولويس كودورير (مدينة مكسيكو، 1994) ويثنق وأليبا روحو (مدينة مكسيكو، 1994)، وماسي بيتس (مدينة مكسيكو، 1994)، وأعاثير (باتشو) ديوران (مدينة مكسيكو 1994 ولندن 2005) وغيرمو شيريدان (غوادالاخرا ومدينة مكسيكو 1997) وغيرهم.

3. انظر مقالة غابرييل غارسيا ماركيز "عودة إلى المكسيك" في صحيفة الاسبكتادور، 23 كانون الثاني 1983

4 انظر:

GGM, "Un homber ha muerto de muerte natural", *Mexico en la cultra, Novedades* (Mexico c ty), 9 July 1961

يقول غابرييل غارسيا ماركيز في حديثه مع بوسث خمسس إن أهالي بريلادس هم الذين أخبروه أن همنغواي مات، وهو ما قاله لبلينيو ميندوثا في رسالته المؤرخة بتاريخ 10 تموز 1961.

5 بخصوص مشاعره إزاء همنغواي، انظر تعليقات غابرييل غارسيا ماركيز في مقابلة اليخاندرو كيمي راميريث بعنوان:

"Garcia Marquez: "El gallo noes mas que un gallo"", *Pluma 52* (Colombia), March-April 1985.

انظر أيضاً مقالة عن همنغواي في الاسبكتادور، 26 تموز 1981.

6 غابرييل غارسيا ماركيز من مدينة مكسيكو إلى بلينيو ميندوثا، بوغوتا، 9 آب 1961.
انظر أيضاً مقالة الاسبكتادور في 7 كانون الأول 1980 التي ترسم صورة مشابهة عن المبنى الذي لا يتوفر فيه مصعد، وعن الشقة.

7 غابرييل غارسيا ماركيز من مدينة مكسيكو إلى بلينيو ميندوثا، بوغوتا، 13 آب 1961.

8 غابرييل غارسيا ماركيز من مدينة مكسيكو إلى بلينيو ميندوثا، بوغوتا 26 أيلول 1961.
غابرييل غارسيا ماركيز من مدينة مكسيكو إلى ألفارو سيبيدا في برانكيا، 4 كانون الأول 1961 وفيها يكتب: "عليك أن تحضر في شهر أيار لتعمد أليخاندرا التي ستولد في أواخر شهر نيسان. لا تفوّت الفرصة، لأن هذه هي آخر حصة بالمعمودية يمكننا أن نقدمها إليك، وبعدها سنغلق المحل".

9 غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة في الاسبكتادور، 14 شباط 982 .

10 غابرييل غارسيا ماركيز، من مدينة مكسيكو إلى بلينيو ميندوثا، بوغوتا، 13 آب 1961.

11 انظر:

GGM, "Breves nostalgias sobre Juan Rulfo", on Rulfo; also Eligio Garcia, *Tras las Claves de Melquiades*, PP. 9-592

12 غابرييل غارسيا ماركيز من مدينة مكسيكو إلى بلينيو ميندوثا، بوغوتا، 13 آب 1961.

13 انظر: **بحر الزمن الضائع**، في **قصص مجموعة**، غابرييل غارسيا ماركيز



14. كان غابرييل غارسيا ماركيز يشتغل مؤخراً في نيويورك، حتى وقت متأخر من الليل في معظم الأحيان، في شريط ألفارو سيبيدا عن مهرجان بارانكيا السنوي، بتمويل من شركة سانتو دومينغو اغويلا لشراب الشعير.
15. انظر:

Dario Arizmendi Posada, "El mundo de Gabo 4: Cuando Gabo era pobre", *El Mundo* (Medellin), 29 October 1982.

16. انظر صوريلو، المصدر السابق، ص 109.
17. في مرحلة لاحقة يقص حوار غارسيا بوس مع زوجة أليوندو السامة وأم الابنة التي سيتزوجها يوماً ما ابن غارسيا ماركيز.
18. انظر إدوارد غارسيا أغويلار

"Entrevista a Emilio Garcia Riera", *Gaceta* (Bogota, Colcultura), no 39, 1983.

19. غابرييل غارسيا ماركيز، مدينة مكسيكو، إلى بلينيو ميندوثا، بوغوتا، مطلع كانون الأول 1961.
20. غابرييل غارسيا ماركيز، مدينة مكسيكو، إلى بيبيو ميندوثا، بارانكيا، نيسان 1962
21. انظر خاصة مقالة الاسكتادور في 6 أيلول 1981 التي يقول فيها إن قوله هذه الجائزة والجائزة التي سبقتها عن "يوم واحد بعد يوم السبت" في 1954 هو الشيء الوحيد الذي ندم عليه في حياته الأدبية.
22. غابرييل غارسيا ماركيز، عشت لأروي (الطبعة الإنكليزية)، ص 231
23. انظر:

Bernardo Marquez, "Reportaje desde cuba (1). Gabriel Marquez: pasado y presente de una obra", *Alternativa* (Bogota), 93, 9-16 August 1976

24. رسالة غابرييل غارسيا ماركيز من مدينة مكسيكو، إلى بيبيو ميندوثا، بارانكيا، 16 حزيران 1962. في رسالة من غابرييل غارسيا ماركيز، من مدينة مكسيكو، إلى ألفارو سيبيدا، بارانكيا، ربيع العام 1963، نجده يعترف بأنه صدم السيارة وهو في حالة سكر شديد
25. رسالة غابرييل غارسيا ماركيز، مدينة مكسيكو، إلى ألفارو سيبيدا، بارانكيا، 20 آذار 1962.
26. انظر سالديبار، المصدر السابق، ص 429. ينقل عن موتيس أنه قال إن غابرييل غارسيا ماركيز لم يكتب رواية خريف البطريرك في المكسيك، لكن رسالة من غابرييل غارسيا ماركيز، مدينة مكسيكو، إلى بيبيو ميندوثا، بارانكيا، في الأول من تموز 1964، تشير إلى الموضوع على نحو لا يقبل الجدل.
27. خوسيه فونت كاسترو، مقالة مجلة مومنتو (كاراكاس)، 771، نيسان 1971، ص 34-37 وفيها يشير إلى أن غابرييل غارسيا ماركيز قرأ عليه القسم الأول من رواية خريف البطريرك سنة 1963 (ص 37).
28. رسالة غابرييل غارسيا ماركيز، مدينة مكسيكو، إلى بلينيو ميندوثا، بارانكيا، أواخر أيلول 1962



29. رسالة غابرييل غارسيا ماركيز، مدينة مكسيكو، إلى بلينيو ميندوثا، بوغوتا، 4 نيسان 1962.
30. ليس في أيلول 1963 كما يشير الجميع من ضمنهم سالديبر. انظر رسالة غابرييل غارسيا ماركيز، مدينة مكسيكو، إلى بلينيو ميندوثا، باركيا 17 نيسان 1963
31. انظر مقالة أنطونيو أندرادي، صحيفة إكسيلسيور (مدينة مكسيكو) 11 تشرين الأول 1970، وفيها رأي معايير مفاده أن أمريكا طردت غابرييل غارسيا ماركيز، وسيجة لمطالب متكررة دفعت به بعض المال لقاء نصّ راعي البقر.
32. انظر:

Raul Renan, "Renan 21", in Jose Francisco Conde Ortega et al., eds., *Gabriel Garcia Marquez celebracion 25° anniversario de "Cien anos de soledad"* (Mexico, Universidad Autonoma Metropolitana, 1992), p 96

33. المصدر السابق، ص 95.
34. أخبرني رودريغو غارسيا بارتشا قائلاً: "كنا دائماً نذهب إلى مدارس تدرس باللغة الإنكليزية. وكان هذا واحداً من هواجس أبي، إذ كانت لديه عقدة كبيرة لأنه لا يستطيع الكلام بالإنكليزية، وكان قد وطد العزم على أن نتمكن منها".
35. رسالة غابرييل غارسيا ماركيز، مدينة مكسيكو، إلى بلينيو ميندوثا، بارانكيا، 8 كانون الأول 1963. يقول غابرييل غارسيا ماركيز إنه أنهى كتابة النص السينمائي "في هذا الصباح".
36. يقول غابرييل غارسيا ماركيز إنه التقى فوينتس سنة 1961. ويقول إيليخيو غارسيا في سنة 1962، في حين يقول فوينتس نفسه إن اللقاء كان في سنة 1963، ويقول جولو أوربيه إن اللقاء جرى في سنة 1964.
37. كارلوس فوينتس، صحيفة الناسيونال، مدينة مكسيكو، 26 آذار 1992. في مدينة مكسيكو، كما في أي مكان آخر، تكون أوثق صلات غابرييل غارسيا ماركيز بأهم الأدباء (باستثناء أوكتافيو باث، الذي كان معادياً له عموماً). وكانت أوثق علاقاته هي تلك التي جمعته بفوينتس وكارلوس مونسيفايس.
38. انظر:

Miguel Torres, "El novelista que quiso hacer cine", *Revista de cine Cubano* (Havana), 1969

39. رسالة غابرييل غارسيا ماركيز، مدينة باناما، إلى بلينيو ميندوثا، بارانكيا، أواخر تشرين الثاني 1964.
40. رسالة غابرييل غارسيا ماركيز، مدينة مكسيكو، إلى بلينيو ميندوثا، بارانكيا، أواخر تشرين الثاني 1994
41. مقالة غابرييل غارسيا ماركيز، الإسكتادور، 16 كانون الأول 1980.
42. انظر:

Emir Rodriguez Monegal, "Novedad y anacronismo de cien anos de soledad", *Revista Nacional de cultura* (Caracas), 185, July-September 1968

43 رسالة غابرييل غارسيا ماركيز، مدينة مكسيكو، إلى بيبيو ميدوثا، بارانكيا، 22 أيار 1965، يقول فيها إنه فرغ من كتابة نص "قبل أسبوع" وأصبح له الآن عنوان ثابت هو: Tiempo de morir.

44 ميغيل توريس، المصدر السابق. انظر أيضاً إميليو غارسيا ريرا، "تاريخ السينما المكسيكية الوثائقي" (مدينة مكسيكو، جامعة غوادالاخارا، 1994) 12 (1964-1965)، ص 229-233.

45 يقول بيبيو ميدوثا إنه كتب في مدينة مكسيكو نصوصاً سينمائية (سيئة جداً في رأي الخبراء) وتصمم كل ما يمكن به أن يتعلمه عن هذه الصناعة وحدودها (ص 13). وأوضح أن من أكثر المخرجين الذين كان معجباً بهم هما ويلز وكيروساوا، لكن من أكثر الأفلام التي كان معجباً بها هو جولي وجيم.

46. إميليو غارسيا ريرا، المصدر السابق، ص 160-165.

47. ميغيل توريس، المصدر السابق.

48 خوسيه دونوسو، ازدهار الأدب الأميركي اللاتيني: تاريخ شخصي. (نيويورك، مطبعة جامعة كولومبيا 1977)، ص 95-97.

49 سيكون عنوان كتابه هو (شعنا) بالإسبانية، أما بالإنكليزية، فإن العنوان له دلالة تاريخية أكبر: في التيار العام.

50 إليخيو غارسيا، المصدر السابق، ص 55-56، 469

51. لويس هارس وبربارة دوهمان، في التيار العام: حوارات مع أدباء من أميركا اللاتينية. نيويورك، هاربر اند راو 1967، ص 310

52. المصدر السابق، ص 317.

53 إليخيو غارسيا، المصدر السابق، ص 68، 69.

54. كارمن ريرا، كويكيرا، 27 كانون الثاني 1983، ص 25.

55 إليخيو غارسيا، المصدر السابق، ص 608.

56. يقول ميدوثا إن أول جملة كتبها كان في سن السابعة عشرة!

57. مثلاً في كتاب **عصر الغوافة** يؤكد غابرييل غارسيا ماركيز بأكثر ثباتاً وقاطعاً لبلينيو ميدوثا إنه استدار بالسيارة إلى الخلف ("صحيح بني لم أصل إلى أكابولكو"، ص 74)، لكنه نشر في مقالة في مجلة كامبيو (بوغوتا)، 20 نيسان 2002، أنه قاد السيارة إلى أكابولكو لمصية عطلة نهاية الأسبوع ("لم يهدأ بي دل لحظة واحدة على الشاطئ") وعدنا إلى مدينة مكسيكو "في يوم الثلاثاء".

15 – ميلكيادس الغجري: منة علم من العزلة (1965-1966):

1 غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، لاسكتادور، 17 تشرين الثاني 1982

2. ميدوثا، عصر الغوافة، ص 80.

3. مقابلة مع بوينا بونيسكا، أيلول 1973، Todo Mexico، ص 218-219

4 انظر ليسترنيد، "بعض البارابيلك" في كتاب



where abouts Notes on being a foreigner.

سـان فرانسيـسكو، نورث بوينت بريس، 1987، ص 94-118. يختار ريد بابراعة في معالجة موضوعي الدقة والاحتمال عند ماركيز.

5. انظر إيليخيو غارسيا، المصدر السابق، ص 59. أخبرني باكو بورو، في رسالة بعث بها إلي يقول فيها: مما لا ريب فيه أن تجربة غابو في بوينس آيرس كانت تجربة استثنائية ومدهشة وهو يحيا حياة ملؤها بهجة الحماسة والصداقة الحميمة. فالكتب في الشارع، والمسرح في الشارع، وكان غابو شخصية محبوبة في الشوارع وفي الحفلات التي كانت تقام ليلة إثر ليلة ثمة مشاهد تقترب من الهستيريا مما يبعث على الدهشة هذا العدد الكبير من السيدات من بوينس آيرس اللواتي قلن إن لديهن عم أو جد يشبه أوريليانو بوينديا (برشلونة، 6 أيار 1993).

6. كارلوس مونسيس، مقالة، سيمبري، مدينة مكسيكو، 29 أيلول 1965.

(*) وجبة طعام الپائيا هي طبق مُعد بالزعفران ويصنع من خليط من الأرز والخضار واللحوم والدجاج والطعام البحري. (المترجم)

7. سالديبار، المصدر السابق، ص 433.

8. خوسيه مورت كاسترو، مقالة، مجلة مومينتو (كاراكاس)، 771، نيسان 1971، ص 34-37.

9. إيليخيو غارسيا، المصدر السابق، ص 617.

10. مقابلة مع بوينا توماسكا، أيلول 1973، تودو مكسيكو، ص 195.

11. تحدثت إلى ماريا لويسا إيليو عن هذا الموضوع سنة 1992، وإلى غابرييل غارسيا ماركيز سنة 1993.

12. مقابلة مع بويا توماسكا، المصدر السابق، ص 197.

13. كلودي كوفون، مقالة، صحيفة الأكسيلسيور، 17-23 كانون الثاني 1977، ص 77.

14. خوسيه مورت كاسترو، المصدر السابق، 771، نيسان 1971، ص 36.

15. انظر: Mendoza, *La llama y el hielo*, PP. 110-111.

16. إيليخيو غارسيا، المصدر السابق، ص 88-91. انظر أيضاً مقالة غابرييل غارسيا ماركيز في الاسكتادور، 19 حزيران 1983.

17. إيليخيو غارسيا، المصدر السابق، ص 505.

18. المصدر السابق، 570-571.

19. كارلوس مونسيس، سيمبري، (مدينة مكسيكو)، 679، 29 حزيران 1966.

20. بلينيو ميندوثا، **عطر الغوافة**، ص 77.

21. فوربلو، المصدر السابق، ص 105-106.

22. المصدر السابق، ص 268-269.

23. كما أشار خورخيه روفينيلي، فإن الطريقة الوحيدة لرواية تأليف هذا الكتاب ونشره واستقباله، هي أن تكون على طريقة قصص الخيال (ثالابا، فيراكروث) 1979.

24. مقابلة مع جيمس پاپورث، مدينة مكسيكو، 1994.



25. غابرييل غرسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، 7 آب 1966.
26. رسالة غابرييل غارسيا ماركيز من مدينة مكسيكو إلى بيينيو ميندوثا في بارانكيا، 22 تموز 1966.
27. كلـودي كوفون، المصدر السابق، ص 77. لكن غابرييل غارسيا ماركيز يعول في عطر الغوافة لمبدوثا إن ميرثيديس وحدها هي التي أحدث الكتاب إلى دائرة البريد (ص 75). (ربما كانت هذه هي الرزمة الثانية).

16 الشهرة أخيراً (1966-1967):

1. ألفارو موتيس، انظر كتاب سالديبار غارسيا ماركيز، ص 498.
2. إليخيو غرسيا، المصدر السابق، ص 618-619
3. كلودي دريفوس، المصدر السابق، ص 174.
4. إليخيو غرسيا، المصدر السابق، ص 32-33.
5. كما ظهرت في كتاب إي. داميكو وأس. فانيو الموسوم Retratos y autorretratos، بوينس آيرس، 1973 وفيه صور التقطت لغابرييل غارسيا ماركيز في بوينس آيرس سنة 1967.
6. أرنستو شو، مجلة بريميرا بلانا (بوينس آيرس)، 234، 20-26 حزيران 1967.
7. ماريو فارغاس يوسا، مئة عام من العزلة، مجلة أمارو، ليما، 3، تموز أيلول 1967، ص 71-74.
8. انظر غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، صحيفة الاسبكتادور، 25 كانون الثاني 1981، وفيها يخالف سلفادور الأدب وينوب رد روخيا نفسه لا يعرف السبب الذي جعله يضع الحرف بالمقلوب على الغلاف.
9. مقالة بعنوان: Cien anos de un Pueblo، مجلة فيجون، 21 تموز 1967، ص 27-29.
10. انظر على سبيل المثال مقالة De Como Garcia Marquez في صحيفة إيكريلا (تشيلي) 68، 20 أيلول 1967، ص 29
11. غابرييل غارسيا ماركيز، مدينة مكسيكو، إلى بلينيو ميندوثا، بارانكيا، 30 أيار 1967.
12. سالديبار، المصدر السابق، ص 500.
13. تـوماس ألوي مارتينيث، مقالة في كتاب: خوان غوستافو كوبو بوردا، بوغوتا، سيغلو دي هومبرا 1992)، ص 24.
14. المصدر السابق.
15. سالديبار، المصدر السابق، ص 501.
16. المصدر السابق، ص 25.
17. المصدر السابق.
18. خوسيه إميليو باتشيكو، كاسا دي لاس أمريكاس (هافانا)، 165، تموز - كانون الأول 1987.
19. بابيرو ستروب، باريس ريفيو، 141.



20. انظر فارغاس يوسا، تاريخ قاتل، ص 80
21. المصدر السابق.
22. أمير رودريغيث مونيغال في مجلة موندو نيبو (باريس) 17 تشرين الثاني 1967، ص 4 24 (ص 11).
23. سيمانا (بوغوتا)، 19 آيار 1987. لاحظ أن رواية مئة عام من العزلة نادراً ما أشارت إليها الصحافة الكولومبية في ذلك الوقت.
24. مندوثا. المصدر السابق ص 111.
25. إليخيو غارسيا ماركيز في كتاب غاليس، المصدر السابق، 257
26. انظر على سبيل المثال: فيليكس غراندي Con Garcia Marquez en un miercoles des cen iza، (مدريد)، حزيران 1968، ص 632-641.
27. لادر جيرالدو، مقالة في صحيفة لاسبكتادور، 2 تشرين الثاني 1967.
28. ألفونسو مونتسيف، مقالة في صحيفة أعوك أنترناسيونال (بوغوتا)، 8 كانون الأول 1967، ص 39-41. أعيد طبعها في صحيفة اليمبو، 14 كانون الثاني 1968، ص 4.

17 - برشلونة والانتعاش في أميركا اللاتينية: بين الأدب والسياسة (1967-1970):

1. رسالة غابرييل غارسيا ماركيز من بوغوتا إلى أمير رودريغيث مونيغال، باريس، 30 تشرين الأول 1967.
2. رسالة غابرييل غارسيا ماركيز من برشلونة إلى بينيو ميندوثا في بوانكيا، 21 تشرين الثاني 1967.
3. يعتمد هذا الفصل والفصلان التاليان على مقابلات مع خوان غويتيسولو (لندن 990)، ولويس وليتيشيا فيدرتشي (برشلونة 1991، 2000)، وبول جايلز (برشلونة 992)، وجومان ارثيمالس (بوغوتا، 1991)، وخوسيه فارغاس (بارانكيا، 1991)، ومرغوت غارسيا ماركيز (1993)، وإليخيو غارسيا ماركيز (1991 و1998)، وجايمي غارسيا ماركيز (سانتا مارتا، 1993)، وماريو فارغاس يوسا (واشنطن، 1994)، وخورخه إدواردز (برشلونة، 1992)، وبينيو ميندوثا (بوغوتا، 1991)، وبيبس آرانولا دي ميبوث سواي (برشلونة 1992 و2000)، وكارمن بالسيلس (برشلونة، 1992 و2000)، وروس ريغلس (هافانا، 1995)، وبياتريث دي مورا (برشلونة، 2000)، وخوان مارسي (برشلونة، 2000)، وخوسيه ماريا كاستيت (برشلونة، 2000)، وتاتشيا كويسانا (باريس، 1993)، وجاك جيلارد (طولوز، 1999 و2004)، وروبيرتو فرناندث ريتامار (هافانا، 1995)، ورامون تشاو (باريس، 1993)، وكلودي كوفون (باريس، 1993)، وفيكتور فوريس أوليا (بروفيدنس أر. آي، 994)، ورافائيل غيتيريث وآلي موريان (باريس 1993)، وباكو بورو (برشلونة، 1992 ورسالة)، وخوان رودا وماريا لويزا بيغيرا دي رودا (بوغوتا، 993)، وألفونسو لوبيث ميشيلسين (بوغوتا، 1993)، وعدد كبير من الأحاديث مع آخرين.



(*) كاليبان، شخصية عبد الشهير في مسرحية العاصفة لشكسبير (المترجم)

4. عن هذا الموضوع وعن إسبانيا عموماً، راجع غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة في صحيفة الإسكنادور، 13 كانون الثاني 1982.
5. لاحظ أن غابرييل غارسيا ماركيز صرح عام 1978 لآخل هارغيدي من صحيفة الباييس أنه لو كان إسبانيًا لانتمى إلى الحزب الشيوعي الإسباني. ولا بد من التأكيد على أنه كان يكثر من التأكيد على أن مثل هذه القرارات يعتمد على ظروف خاصة بالقضية.
6. روس ريغاس، مقابلة، هافانا، كانون الثاني 1999.
7. لويس وليتشي فيردتشي، مقابلة، برشلونة 1992 و2000.
8. أخبرني بهذا الأمر كل من رودريغو وغونزالو غارسيا برتشا.
9. بول جايلز، مقابلة، برشلونة 1992.
10. كارمن بالسيلس، مقابلة، برشلونة 1991.
11. فرنسيسكو أورويستدو، مقالة، كواديرنوس هيسبانو أميركانوس (مدريد)، 232، نيسان 1969، ص 163-168 (ص 163).
12. يصبح كره هذا الرجل للنقاد هوساً بعد أن مورس هو نفسه النقد مدة من الزمن في الصحافة من عام 1947 فصاعداً، بل النقد القاسي أيضاً. وما النقد الذي كتبه عن كتاب بيسويل كورتيس في أواخر 1949 إلا نموذجاً مثالياً. انظر: جيلارد، المصدر السابق.
13. في العام 1973 وافق المخرج السينمائي بيير باولو بازوليني مع غابرييل غارسيا ماركيز بشأن رواية مئة عام من العزلة وفكرتها. لكنه شن بعد ذلك أعنف هجوم يوجه ضد المؤلف وروايته. انظر مقالته عن غابرييل غارسيا ماركيز في صحيفة التيمبو، 22 تموز 1973، وهي مقالة نموذجية عن تطرف بازوليني ومبالغته.
14. في مقدمة كتاب مهاجرون غرباء (1992) يكتب غابرييل غارسيا ماركيز أنه حلم بعد بضع سنوات على وجوده في برشلونة حلماً غيّر مجرى حياته، وهو أنه كان حاضراً عملية دفنه شخصيًّا وأنه استمتع بالحديث إلى أصدقائه القدامى حتى حانت اللحظة التي أدرك فيها أنهم سيغادرون المكان بعد انتهاء مراسم الدفن، وأنه لن يتمكن من الذهاب معهم.
15. تحدث غابرييل غارسيا ماركيز عن هذا الأمر مراراً بعد العام 1967 حتى أسرع عدد كبير من النقاد (بكل تعبير الإسرة أن أياً من هؤلاء النقاد لم يكن بشهرته). غارت بوب ديلان: يوميات، الجزء الأول (نيويورك، سايمون آند شوستر، 2004): "بعد برهة من الزمن تعرف أن الخصوصية أمر يمكن بيعه، لكنك لا تستطيع شراءه مرة أخرى بعد ذلك... الصحافة؟ أظنك كذلك عليها". (ص 117-118)
16. ربما امتد مقت غابرييل غارسيا ماركيز لرواية مئة عام من العزلة إلى مدينة بوينس آيرس التي حاصرته فيها الشهرة في بداية الأمر. وقد أخبرني باكو بورو في رسالة بعث بها إلي وقال فيها: "عندما التقيت غابو مرة أخرى في برشلونة لاحظت بعض التغيرات. فعلى كل شيء تولد لدي الانطباع بأن غابو لم يعد يتكلم بالتلقائية التي كان معروفاً بها، وأنه كان يبني شخصيته الجديدة. وبعد سنوات، وفي 1977 تحديداً، التقيته في برشلونة

وتكلمت معه ومع ميرثيديس عن تلك الأيام في بوينس آيرس. حسناً، فقد استرسلت في مونولوج عن روعة تلك الأيام، لكن غابو وميرثيديس أصغيا إليّ على مضض، ولاحت عليهما امارات لاستهجان مما أقول. ثم أدركت لاحقاً أن الحلم المشهور الذي رواه في برشلونة عن حضوره مراسم تشييعه شخصيًا، إنما كان مؤشراً على حالات موت أخرى". (برشلونة، 6 أيار 1993).

17. انظر، فرانكو موريتي، الملحمة الحديثة: النظام العالمي من غوته وحتى غارسيا ماركيز (لندن، فيرسو، 996) قارن مع رد فعل بروليو المشار إليه آنفا، خاصة أن موريتي يؤكد أهمية الرواية السامية.
18. فيرنديث، براسو، غابرييل غارسيا ماركيز، ص 27.
19. بارنيس: ثورة أيار (المكسيك، إيرا، 1968)
20. رسالة غابرييل غارسيا ماركيز، من برشلونة، إلى بلينيو ميندوثا، بارنكي، 28 تشرين الأول 1976.
21. المصدر السابق.
22. يبدو أن غابرييل غارسيا ماركيز لم يصدر عنه أي تعليق عن أحداث تلاتيلولكو حتى في مراسلاته الخاصة، ويبدو هذا الأمر غريباً أول الأمر في ضوء حقيقة السنوات الست التي عاشها في المكسيك (وإن كان من الممكن تفسير ذلك على أنه كان مصمماً على العودة إليها)، ليس فقط تشابهها مع مذبحة ثباغا عام 1928، وهو الحدث الأشهر والأكثر إثارة للجدل بلا ريب الذي أشار إليه في أعماله الكاملة.
23. ساريث دي مور، مقابلة، برشلونة، 2000.
24. خوان مارسيه، مقابلة، برشلونة، 2000
25. رسالة خوليو كورتاثار إلى باكو بوروا، 23 أيلول 1968. انظر أيضاً: خوليو كورتاثار، cartas، أورورا بيرنارديث، 3 مجلدات (بوينس آيرس، ألفاغورا، 2000)
26. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، صحيفة الاسبكتادور، 22 شباط 1984
27. كارلوس فوينتس، جغرافية لرواية (المكسيك، موندو دي كلتورا إيكونوميكا، 1993)، ص 99. عندما كانا في براغ، تسلم الأديب الياباني ياسوناري كاواباتا جائزة نوبل في ستوكهولم، وبات غارسيا ماركيز من قراء مؤلفاته المتحمسين.
28. كارمن بالسيلس، مقابلة، برشلونة، 1991
29. ولد ماثيو، وهو أول طفل لمونتالو، عام 1987.
30. انظر: رجيس دوبريه، الأقنعة (باريس، جاليمار، 1987) للحصول على نظرة ثاقبة في أذهان اليساريين في ستينيات القرن العشرين.
31. رودريغو غارسيا بارتشا، مقابلة، نيويورك، 1996.
32. انظر مقالة غابرييل غارسيا ماركيز في صحيفة الاسبكتادور، 13 شباط 1983، وفيها يتذكر كيف تخلى عن التدخين "قبل أربعة عشر عاماً"
33. : انظر يوميات إليخيو غارسيا ماركيز في "آراكاتاكا ستوكهولم (ص 22 24)، وفيها يقول: "إن ميودتشي هو محل الألف نعمة، الذي ساعد غابرييل غارسيا ماركيز بالدوافع

الكامنة من وراء القتلة في قصة موت معلن وساعدته على ترك التدخين بالرغم من أنه لم يفكر، وربما للمفارقة، من تركه شخصيًا".

34. انظر: غونثاليث بوخيو، مقالة، ترايفو، تشرين الثاني 1971، في ريسترا، ص 50.
35. جون ليونارد، نيويورك تايمز بوك ريفيو، 3 آذار 970 . وقد نشرت صحيفة نيويورك تايمز مقالة نقدية إيجابية في 8 آذار، ثم عادت فأدرجتها في سنة 1996 بوصفها واحدة من المقالات المهمة للاحتفال بمرور مئة سنة على صدور الصحيفة.
36. انظر: خوسيه دونوسو "تاريخ مرحلة الانتعاش" (برشلونة: سيكس بارال، 1983، طبعة ثانية منقحة مع ملاحق من أعداد ماريا بيلار سيرانو (الطبعة الإسبانية) أما الطبعة الإنكليزية فصدرت بعنوان "مرحلة الازدهار في الأدب الأميركي الإسباني" تاريخ شخصي (نيويورك، مطبعة جامعة كولومبيا؛ مركز الدراسات الأميركية، 977).
37. كانت هذه العلاقة حدثًا مثيرًا منذ البداية وحتى النهاية. انظر: جاك جيلارد وفابيو رودريغيث أمايا.

La obra de Marvel Moreno (Viareggio-Lucce, Maure Baroni, 1977).

انظر أيضًا رواية بليينو ميندوثا الموسومة *Anos de fuga* 1985 و *La llama y el hielo*.

38. ميندوثا، المصدر السابق، ص 120، وعن برشلونة وعلاقات غابرييل غارسيا ماركيز في المدينة انظر خصوصًا ص 120-125.
39. انظر: آدم فينشتاين، بابلو نيرودا: حب الحياة (لندن، بلومزبري، 2004)، ص 315
40. غابرييل غارسيا ماركيز، من برشلونة إلى بليينو ميندوثا صيف (آب) 1970.
41. غابرييل غارسيا ماركيز يستذكر بابلو نيرودا مجلة كروموس (في ريسترا، ص 95).
42. خوليو كورتاثار، رسالة على إدوارد جونكييرس، 15 آب 1970، كراكاس، ص 1419.
43. ماريا بيلار سيرانو دي دونوسو، المصدر السابق، ص 134؛
44. دونوسو، المصدر السابق، 105-106

18 – الأديب المستوحد يكتب ببطء: خريف البطريرك والعالم الأرحب (1971-1975):

1. فيوريلو، المصدر السابق، ص 14-27.
2. خوان غوسايين، مقالة، صحيفة لاسيكتادور، 15 كانون الثاني 1971.
3. يبدو أنه كان يشير خاصة إلى محاكمة أعضاء حركة باسك الانفصالية (إيتا) في بورغوس، حيث حكم على ثلاثة أشخاص اتهموا بالإرهاب بالموت.
4. هذه العبارة تترجم إلى الإنكليزية ترجمة دقيقة فتصبح عطر الغوافة، وسيظهر لاحقًا كتاب يضم مقابلات بهذا العنوان.
5. خوان غوسايين، مقالة، صحيفة لاسيكتادور، 17 كانون الثاني 1971
6. غييرمو أوتشوا، مقالة، صحيفة إكسيلسيور، 13 نيسان 1971.
7. غونثالو غارسيا بارتشا، مقابلة، باريس، 2004



8. لـوبدري كاسال، قصية بادبا (ميامي، يوبيفرسال وبيويورك، بيفال ألالتيقا، 1972)، ص 9، وجورجه إدواردز: شحص غير مرغوب فيه (بيويورك، باراغون هاوس، 1993)، ص 220.
9. نشر الاجتماع في الصحف في جميع أنحاء العالم العربـي، ومنها صحيفه بيويورك ريفيو أوف بوكس، على سبيل المثال في 6 أيار 1971.
10. سمـح في العام 2007 للأكاديمية الإسبانية بأن تدرج مقطعاً من الكتاب في الطبعة الخاصة لرواية **مئة عام من العزلة** الصادرة في تلك السنة.
11. نشرت المقابلة في صحيفة التيمبو في التاسع والعشرين من أيار 1971 وتكمن أهميتها في أنها سرعان ما أعيد نشرها مرة أخرى في بريسا لاتينا، حيث صدرت عنها ردود أفعال مختلفة، ثم نشرت في العدد الأول من مجلة ليبر
12. عوالم الصراع: 1957–1982 (لندن، كوارتيت بوكس، 1990)، ص 153.
13. غيرب، سبعة أصوات، ص 330 332.
14. مقابلة مع خوليو روكا، دياريو ديل كاريبـي، 29 أيار 1971.
15. **مئة عام من العزلة** وباء، إستوريباس، لا ريبابليكا، 20 حزيران، 197.
16. فيلـيكس غراند، مقالة، عواديرنوس هيسبانو أميركانوس (مدريد) 222، حزيران 1968، ص 632 641.
17. انظر مقالة عن غابو في صحيفة إكسيلسيور (مدينة مكسيكو) 12 تموز 1971.
18. وثيقة في أرشيف كاسا دي لا أميركاس، هافانا.
(*) ثمـة خطـأ مـن المؤلـف هنا، فالعنوان هو خريف البطريرك... وليس غير الزمان فليت (المترجم)
19. انظر قراءة ماريو فارغاس يوسا لهذه القصة في **تاريخ قاتل**، ص 457–477.
20. في حزيران 1973 تنشر قصة إيرينديرا البريئة في مجلة إسكواير.
21. خايمي ميخيا دوكي، مقالة، صحيفة التيمبو، 4 آذار 1973.
22. قارن خوان بوش، المرشح الدائم لمنصب الرئاسة في جمهورية الدومينيكان الذي أطاح به الأميركيون عام 1965، بين غابرييل غارسيا ماركيز وثربانتس في حزيران 1971.
23. بوبيا توسكا، مقابلة، أيلول 1973، تودو مكسيكو، 202 203.
24. كارمن بالسيلس، مقابلة، برشلونة 2000.
25. إليخيو غارسيا، التيمبو، 15 آب 1972.
26. حديث مع ميريام غارثون، 1993.
27. انظر صحيفة إكسيلسيور، 5 آب 1972
28. مقابلة في صحيفة إكسيلسيور، 17 آب 1972.
29. مقابلة نشرت في مجلة كروموس إثر وفاة نيرودا، 1973. المصدر السابق.
30. سـبق لبرمـيـني ماركيز أن أعلن في مقالته لمجلة ليبر، 3، (آذار – أيار 1972) ص 29-34، أن السياسة المتبعة هي عدم اتخاذ مواقف مناوئة للسوفيات.
31. ميلوتا، المصدر السابق، ص 196–197.



32 فيوريو، المصدر السابق، ص 162-163
33. غابـريل غارسيا ماركيز، برشلونة إلى فويماليور، باراكيا، مطلع تشرين الثاني 1972. انظر فيوريلو، المصدر السابق، ص 162-163
34. غابريل غارسيا ماركيز يستذكر بابلو نيرودا، مجلة كرومرس، 1973، ص 96.
35. صـحيفة إكسيلسيور، 13 أيار 1973. انظر أيضاً مقالة غابريل غارسيا ماركيز عن الكتاب، كتابته وأهدافه وإغاراته على مدى أكثر من ربع قرن من الزمان في مجلة كامبيو، 2001
36. يمكن من هذا الجانب مقارنة الكتاب برواية الرئيس لإستورياس (1946).
37. أمير رودريغيث مونيغال في:
Narradores de esta America, Tomo II, (Alfadil, Caracas, 1992).
38. غييرمو شيريدان وأرماندو بونيرا" غارسيا ماركيز في المكسيك"، 6: 30، شباط 1976
39. المصدر السابق.
40. يوضح غابريل غارسيا ماركيز مقياسه للزمن في:
Odete Lara, "GM", *El Escarabago de Oro* (Buenos Aires), 47, Dec 73-Feb, 74, PP 18-21
41. انظر مفهوم نورثرب فراي عن الشخصيات المعنية في كتابه تشريح النقد (1957).
42. شيريدان وبنيرا، المصدر السابق.
43. خوان غوسايتي، مقالة، صحيفة الاسبكتادور، كانون الثاني 1971. قارن بكتاب كونراد الموسوم نوسترومو الذي يموت فيه البطل "بسبب العزلة".
44. غابريل غارسيا ماركيز **خريف البطريرك** (بنلك، بيكادور، 1978)، ص 45
45. المصدر السابق، ص 74.
46. المصدر السابق، ص 180.
47. المصدر السابق، ص 205.
48. المصدر السابق، ص 39.
49 المصدر السابق، ص 199.
50 المصدر السابق، ص 200 202
51. المـصدر الـسابق، ص 203. سـبق أن أظهر إستورياس في روايته الرئيس أن شخصية دكتاتوره (إيسترادا كابريرا) كانت نتاج حرمان من الطفولة لم يخفف من غلوائها سوى جهود متواصلة بذلتها أمه المتفانية المنحدرة من الطبقة الدنيا.
52. كارمن بالسيلس، مقابلة، برشلونة 2000.
53. تاتشيا كوينتانا (روسوف)، مقابلة، باريس 1973.
54. كـان الإعـلان عـن المـرور قد أعلن في تشرين الثاني في السنة السابقة. انظر صحيفة إكسيلسيور، 19 تشرين الثاني 1972.
55 بونيا بوفيسك، مقابلة، أيلول 1973، نودو مكسيكو، ص 194
56. صـحيفة إكسيلسيور، 10 أيلول 1973، في حدود هذه المرحلة الزمنية يبدو أن غابريل غارسـيا ماركيز توصل إلى تفاهم مع صحافيي إكسيلسيور ويظهر أن هؤلاء الصحافيين

تنفــوا معلومات سرية عن تحركاته منذ هذا الوقت وحظي بتعطية منهم تفوق تغطية أي كاتـــب مكسيكي آخر، بل إيجابية أكثر من أي كاتب مكسيكي آخر أيضاً على مدى السنوات الخمس عشرة القادمة.

19 – تشيلي وكوبا: غارسيا ماركيز يختار الثورة (1973-1979):

1. انظـر بلينيو ميندوثا: "Fine", in *Gentes, lugares* (بوغوتا، بلانيت، 1986) وفيها يروي قصة غريبة عن رحلته إلى تشيلي مع فيها توريس الذي كان يعمل مصوراً يومئذ، وذلك عقــب الانقــلاب. وكان ميندوثا هو الصحافي الأجنبــي الوحيد الذي دخل منــزل نيرودا وشاهد جثته بعد أربع ساعات من وفاته. وقد أعيد نشر الصور التي التقطها فيه توريس في جميع أنحاء أمريكا اللاتينية.
2. أعيد نشرها في صحيفة إكسيلسيور، 8 تشرين الأول 1973.
3. أرنــستو غونثاليث بيرميخو، مقالة في كرايسز (بوينس آيرس، 1975) وأعيد نشرها في رينــتيريا، المصدر السابق. وفي هذه المقابلة التي جرت في سنة 1970 قال غابرييل غارسيا ماركيــز: "إنــني أريد أن تصبح كوبا اشتراكية تأخذ في الاعتبار ظروفها، اشتراكية تشبه كوبا نفسها: إنسانية، متخيلة، مبهجة، من دون انحرافات بيروقراطية".
4. عنوان غوسيان، مقالة، صحيفة الإسكتادور، 17 كانون الثاني 1971.
5. غيرث، المصدر السابق، ص 333 غير أن غابرييل غارسيا ماركيز يقول في ص 329 إن أملــه فقـــد حـــاب في اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية الذي يسوده نظام "غير اشتراكي".
6. لويس سواريث، مقالة، لا كاييه (مدريد)، 1978 (في رينتيريا ص 195–200).
7. يوضـــح غارسيا غارسيا ماركيز في رسالة إلى بلينيو ميندوثا، بسنة 1962 نظرية مفادها أن قراء صحيفة التيمبو هم مفتاح الانتخابات الكولومبية.
8. يــستند هــذا الفــصل جزئياً إلى مقابلات مع كل من الصحافيين الثلاثة وهم: أنطونيو كابـــاييرو (مدريـــد، 1991، بوغوتا، 1993)، دانيال سامبر (مدريد 1991)، وإنريكي سانتوس كالديرون (بوغوتا، 1991، و2007)، وكذلك إلى مقابلات أجريت مع خوسيه بينـــيي كاتـــرابي (بوغـــوتا، 1993)، وألفونسو لوبيث ميتشيلسين (بوغوتا، 1991)، وبيليـــساريو بيـــتانكور (بوغوتا، 1991)، وهيرناندو كورال (بوغوتا، 1998)، رخوليو أنـــدرياس كاماتشو (كارتاخينا، 1991)، وخوسيه سالغار (بوغوتا، 1991)، وخوسيه ستيفـــسون (بوغوتا، 1991، كرتاخينا، 2007)، وفرناندو غوميث أغويليرو (بوغوتا، 1993)، وفيليـــب لوبيث كاباييرو (بوغوتا، 1993)، ولورا ريستريبو (بوغوتا، 1991)، وخابيــي أوســوريو (بوغوتا، 1993)، ولويس بيّار بوردا (بوغوتا، 1998)، وخيسوس مارتن باربيرو (بيتربرغ، 2000)، وماريا لويسا ميندوثا (مدينة مكسيكو، 1994)، وإيليا بوب بوفسكا (مدينة مكسيكو، 1994)، وغيرهم.
9. مارغـــريتا فيدال، "غابرييل غارسيا ماركيز"، 1981، كوسموس، مقابلة، أعيد نشرها في Viaje a al Memoria (بوغوتا، بيساما كالـــي، 1997) ص 128-139.



10. إريكي سانتوس كالديرون، مقالة، مجلة التارنيتيفا، 257، 27 آذار 1980 (العدد الأخير).
11. العدد (1)، 15-28 شباط 1974 العدد (2)، 1-15 آذار 1974 ويشتمل على مقال لغابرييل غارسيا ماركيز
12. عن النسخة الإنكليزية، "لماذا يتعين على آليندي أن يموت"، مجلة نيو ستيتسمان لندن، 15 آذار 1974، ص 358.
13. ستنشران في 1975
14. انظر رافائيل هاميرتو موريسو ديوران Como el halcon peregrino (بوغوتا، سانتيلانا، 1995)، ص 117 يقول موريسو إن غابرييل غارسيا ماركيز تأخر عن الحفلة لأنه كان قد ذهب لحضور حفلة ميغيل أنخل أستورياس في مدريد ولما سألت غابرييل غارسيا ماركيز عن الأمر في سنة 2002، أنكر الواقعة. حقاً كان التوقيت صائباً لكي لم أستطع أن أسأل موريسو ديوران عن سبب قوله مثل هذا الكلام قبل أن توافيه المنية في العام 2005. انظر أيضاً خوليا أوركيدي Lo que Varguitas no dijo (لاباز، خاناكروث، 1983).
15. انظر: دونوسو، المصدر السابق، 148-149.
16. "يبدو هذا غريباً جداً، إذ لطالما سافرنا معاً دائماً إلى كل مكان". (رودريغو غارسيا بارتشا، مقابلة، نيويورك، 1996).
17. بوبيث خيمينيث، المصدر السابق.
18. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، صحوة، 30 كانون الثاني 1975.
19. إريكي سانتوس كالديرون، مقابلة، بوغوتا، 1991
20. أعيد نشر المقابلة في مجلة نيويورك ريفيو أوف بوكس في السابع من آب 1975.
21. غير أن سوريك يتخذ موقفاً نقدياً من علاقة غابرييل غارسيا ماركيز بلوبيث ميتشيلسن على امتداد السنين.
22. كان أعنف رد فعل من الناقد اليساري الكولومبي خايمي ميخيا دوكي حيث نشر في ميديلين في تموز 1975 عن دار أوبخا نيغرا وهي دار النشر التي ستتولى مستقبلاً إصدار مؤلفات غارسيا ماركيز.
23. أليساندرو أوتيرو:

Llover sober mojado. una reflexion sober la historia

(هافانا، ليتراس، كوبانا، 1997)، ص 208
24. مجلة التارنيتيفا، 40، 30 حزيران - 7 تموز، غابرييل غارسيا ماركيز: البرتغال، الأرض الحرة في أوروبا، القسم الثاني، 42، 14-21 تموز، "البرتغال" الأرض الحرة في أوروبا، القسم الثالث.
25. صحيفة إكسيلسيور، 5 حزيران 1975.
26. صحيفة إكسيلسيور، 10 حزيران 1975.
27. صحيفة إكسيلسيور، 17 حزيران 1975.



28. انظر مجلة الترنايما، 38، 16 - 23 حزيران 1975.
29. نوسنت خيمبيت، المصدر السابق. انظر أيضاً، غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، صحيفة الاسبكتادور، 11 تشرين الأول 1981 وهي أيضاً قصة حصار ذات صلة بمحاولات تسي غيفارا لإيجاد بديل عن الكوكا في الأيام الأولى من الثورة.
30. انظر مجلة الترنايما، 51، 15 - 22 أيلول 1975، 52، 22 - 29 أيلول 1975، 53، 29 أيلول - 6 تشرين الأول 1997.
31. رودريغو غارسيا بارتشا، مقابلة، نيويورك، 1997.
32. إريكي سانتوس كالديرون، مقابلة، بوغوتا، 1991.
33. انظر على سبيل المثال مقالة ماريا لويسا مندوث، كمبيو، 8 تموز 1981.
34. هذا هو السؤال الذي قيمته 64 ألف دولار الذي يرغب معظم الصحفيين وعدد كبير من القراء في مناقشته مع كاتب سيرة غارسيا ماركيز عن المخطوط حال لقائهم به.
35. لم يرغب أي من الرجلين في مناقشة القضية، لكني ناقشت هذه الحادثة مع عدد من شهود العيان ومنهم مرثيدس بارتشا ومع زملاء مقربين لكلا الرجلين. وفي سنة 2008 نشر ماريو فارغاس يوسا مسرحية بعنوان Al Pie del tam ses تفكّر فيه البطل في تسديد لكمة إلى أعز أصدقائه من خمسة وثلاثين عاماً، ولم يره منذ ذلك الوقت.
36. بيري أندرسون، مقالة دسينت، 26 كانون الثاني 2004، وهي مقارنة معممة بين الرجلين تستند إلى قراءة مذكراتهما. مرة أخرى، يحرق فيها غابرييل غارسيا ماركيز.
37. نوبيت خيمبيت، المصدر السابق.
38. المصدر السابق.
39. انظر إلى شهادته الشخصية (ميامي، سايبيل، 1987).
40. نوبيت خيمبيت، المصدر السابق.
41. فيليب غوشالث، مقالة، مجلة الترنايما، 29، 29 آب - 5 أيلول 1977.
42. فيليب، صحيفة الاسبكتادور، 2 كانون الثاني 1983، وفيها يتذكر غابرييل غارسيا ماركيز هذا اللقاء الأول في بوغوتا.
43. غابرييل غارسيا ماركيز وريجيس دوبريه، مقالة، مجلة الترناتيفا 146 - 147، 26 كانون الأول؛ 20 كانون الثاني 1977 - 1987
44. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، مجلة الترناتيفا، 117 - 5 - 12 حزيران 1977.
45. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، مجلة الترناتيفا 126، 8 - 15 آب 1977.
46. غراهام غرين، التعرف إلى الجنرال (لندن، بودلي هيد، 1984). وهو كتاب يتصدره إهداء إلى أصدقاء صديقي عمر توريخوس في نيكاراغوا والسلفادور وبناما.
47. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، 27 كانون الثاني 1982 ومقالة أخرى في الاسبكتادور أيضاً 16 كانون الثاني 1983.
48. رامون تشاو، مقالة، ترايمو (مدريد) 29 نيسان 1978، ص 54-56.
49. فيدل كاسترو، مقابلة، هافانا، كانون الثاني 1997.
50. الترنيفا، 94، ص 23-30 آب 1978



(*) بيلاطس النبطي: الحاكم الروماني لبلاد "اليهودية" أيام السيد المسيح. حاكم المسيح وأمر بقتله بضغط من اليهود. (المترجم)

51. سوريلا، المصدر السابق، ص 229، وتتحدث عن علاقة غابريل غارسيا ماركيز بقيادة ساندينستا.

52. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، 19 تموز 1981.

53. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، إكسيلسيور، 1 أيلول 1978 وكانت المقالة الرئيسة على الصفحة الأولى من صحيفة ذلك النهار.

54. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، 19 تموز 1981.

55. صحيفة إكسيلسيور، 21 كانون الأول 1978.

56. مجلة التاريانيما، 194، 25 كانون الأول 1978 - 22 كانون الثاني 1979.

57. مقابلة في باريس مع رامون تشو وإغناثيو راموينت في تشرين الأول 1979، مجلة التاريانيما 237، 1-8 تشرين الثاني 1979. يوضح غابريل غارسيا ماركيز أن تولت ليبرون ورفاقها من بورتوريكو أطلق سراحهم كارتر، وذلك لاعتبارات انتخابية لا أكثر.

58. مجلة التاريانيما، 201، 26 شباط 1979. وفيها نعلم أن غابريل غارسيا ماركيز التقى البابا يوحنا بولس الثاني في 19 كانون الثاني وملك وملكة إسبانيا في 3 شباط.

59. صحيفة التيمبو، 8 شباط 1979.

60. مجلة التاريانيما، 218، 21-28 حزيران 1979.

61. حدث هذا في الوقت الذي نُشر فيه نص سينمائي كتبه غابرييل غارسيا ماركيز بعنوان Viva sandino.

62. تشاو وراموينت، مجلة التاريانيما، 201، 26 شباط 1979.

63. عن تقرير ماكبرايد انظر مقالة غابرييل غارسيا ماركيز "مهمة بابل" صحيفة الاسبكتادور، 2 تشرين الثاني 1980. انظر أيضاً سوريلا "غارسيا ماركيز الآخر" ص 250، وفيها تأكيد على حدوث ثمانية اجتماعات في 1980-1981: أربعة في باريس واجتماع واحد في كل من ستوكهولم ودوبروفنيك ودلهي وأكابولكو.

64. في نهاية المطاف، استاء غابرييل غارسيا ماركيز ورفيقه التشيلي خوان سوموفيا، الذي أصبح في ما بعد الأمين العام لمنظمة العمل الدولية، من التسوية التي توصلت إليها اللجنة، فأرسلا تعقيبا على ذلك.

65. أثيرت هذه الملاحظات خلال طعام غداء في مدينة مكسيكو أقامه الاتحاد الأمركي اللاتيني للرئيس المكسيكي خوسيه لوبيث بورتيلو.

66. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، 9 تشرين الثاني 1980.

67. انظر مقالة نشرت في بوهيميا (هافانا)، 1979، في ريسيو، ص 201-209: "لم تعد لدي أفكار أخرى لتأليف الكتب. إلى أن يكون اليوم الذي أستعيد فيه الأفكار عظيماً"

20 - عودة إلى الأدب: قصة موت معلن وجائزة نوبل (1980-1982):

1. انظر غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة الاسبكتادور، مهمة بابل، 2 تشرين الثاني 1980.



2 كـــارمن غالديو وكارلوس فايلا، ثاني المقالتين المنشورة في أيل ديا (مدينة مكسيكو) 7 أيلول 1981.
3. غابـــريل غارســـيا ماركيـــز، مقالة الاسبكتادور، 26 كانون الأول 1982. للعديد من مقالات تلك الحقبة موضوعات باريسية
4. ماريا خيمينا دوثان، مقابلة، بوغوتا، 1991.
5. إنريكي سانتوس كالديرون، مقابلة، بوغوتا، 1991.
6. كونسويلو مندوثا دي ريانو، مقالة، ريفيستا دايرو (بوغوتا) تشرين الثاني 1980.
7. إكسيلسيور، 20 آذار 1980
8. صحيفة الأونيفرسال، 17 أيار 1980.
9. آلن رايدينغ، الثورة موضوع رئيس عند غارسيا ماركيز، نيويورك تايمز، 22 أيار 1980
10. خـــوان غوساين، مقالة، الاسبكتادور، 13 أيار 1981، ص 7أ، مقابلة مع لويس إنريكي غارسيا ماركيز.
11. إليخيو غارسيا: Corinca de la cronica وفيها مقارنة للأحداث مع الرواية، والأحداث الرئيسة بالشريط السينمائي والأحداث التي رافقت إنتاجه.
12. غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 23 آب 1981، 30 آب 1980.
13. سوريلا، المصدر السابق، ص 255، خصوص مقالات 1980–1984.
14. كـــتب غابرييل غارسيا ماركيز رسالة إلى بلينيو ميندوثا، 22 تموز 1966 يقول فيها عام 1966، بعـــد إكمال كتابة مئة عام من العزلة ولكن قبيل نشرها مباشرة، إنه يروقه أن يمارس هذا النمط من الصحافة.
15. جون سبرت: Notas sobre Notas de prensa 1980-1984، 18 (1988) ص 27–37.
16. نـــشرت المقالات الأربع في صحيفة الاسبكتادور بين أواسط أيلول ومطلع تشرين الأول 1980.
17. عنوان مسلسل تلفزيوني أميركي في فترة زمنية لاحقة.
18. الاسبكتادور، 16 كانون الأول 1980.
19. غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 8 آذار 1981.
20. كوبير بوردا: سيلفا وارثيغيس وموتيس وغارسيا ماركيز. ص 419–427.
21. ســـوريلا، المصدر السابق، ص 259–262. يقول بخصوص هذه الحادثة إنه يعرف تمام المعرفة أن غابرييل غارسيا ماركيز كان على صواب بشأن التهديد.
22. إكسيلسيور، 12 أيار 1981.
23. فيدل، المصدر السابق، ص 128- 139.
24. الاسبكتادور، 3 أيار 1981.
(*) هذا هو المعنى الحرفي، ولكن المقصود به مجازاً الشخص التافه المنحدر من أسرة محترمة أو الذي يشين سمعة أسرته. (المترجم)
25. إكسيلسيور، 12 أيار 1981.
26 إكسيلسيور، 7 أيار 1981.



27 غابرييل غارسيا ماركيز، "ميزان الآخر، الرئيس"، الاسكتادور، 24 أيار 1981
28. فيليب عوثاليث، مقابلة، مدريد، 1997.
29. إكسيلسيور، 4 آب 1981.
30 "نورخوس"، الاسبكتادور، 9 آب 1981
31. بياتريث لوبيث دي بارتشا، الجيسو، 10 كانون الأول 1982.
32. نقلاً عن خوسيه سلدو، Muro de confesiones (كاراكس، الأكاديمية الوطنية لتاريخ 1985)، ص 9- 18.
33. انظر صحيفة التيمبو، 23 أيار 1982.
34. غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 14 آذار 1982.
35. صحيفة الاسبكتادور، 11 نيسان 1982.
36. صحيفة الاسبكتادور، 31 كانون الثاني 1982.
37. صحيفة الاسبكتادور، 28 آذار 1982.
38. صحيفة الاسبكتادور، 4 نيسان 1982.
39. صحيفة الاسبكتادور، 6 كانون الأول 1981.
40. كلوديا دريفوس، بلاي بوي، 2 30 شباط 1983، ص 65-77، 172-178.
41 بلينيو أبوليو ميندوثا، تحرير، El olor de la guayaba (برشلونة، بروغيرا، نيسان 982).
42. ماريا إيستر غيليو، مقالة، ترايمبو، (مدريد)، 1977، في رينتيريا، ص 141 146.
43. يستند هذا القسم إلى نوييث خيمينيث، المصدر السابق، ص 69 103 المصدر السابق.
44. المصدر السابق.
45. صحيفة الاسكتادور، 29 أيلول 1982.
46. ألفونسو فوينمايور، آراكاتاكا ستوكهولم، ص 30-33.
47. انظر مقالة مجلة كروموس، 26 تشرين الأول 1982، ص 20 21.
48. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة وليم غولدينغ، صحيفة الاسبكتادور، 9 تشرين الأول 1983، وفيه يتذكر غابرييل غارسيا ماركيز اللحظات التي سمع فيها بفوز غولدينغ بجائزة نوبل.
49. إليخيو غارسيا، ريفيستا دايرو، بوغوتا، تشرين الثاني 1982.
50. غابرييل غارسيا ماركيز، صحيفة الاسكتادور، 20 تشرين الأول 1982.
51. غابرييل غارسيا ماركيز، صحيفة الاسكتادور، 7 تشرين الثاني 1982.
52. انظر على سبيل المثال صحيفة لاتين أميركان تايمز لشهر كانون الأول 1982.
53. جوزيف هارمس، مجلة نيوزويك، 1 تشرين الثاني 1982.
54. سلمان رشدي، ماركيز الساحر، صحيفة صنداي تايمز، (لندن)
55. انظر ميرا، آراكاتاكا – ستوكهولم، وفيها دراسة معمقة عن تجربة جائزة نوبل، ومعناها بالنسبة إلى كولومبيا.
56. بلينيو ميندوثا، المصدر السابق، ص 96-103.
57. غييرمو كانو، صحيفة الاسكتادور، 5 كانون الأول 1982.



58. أنطوني دي وماجوري ميير، غابو يتحدث: غابرييل غارسيا ماركيز يتكلم عن مصائب أمريكا اللاتينية وصداقته مع فيدل كاسترو وأهوال الصفحة البيضاء، مجلة نيو أجموس تايمز، 2 أيلول 1990.
59. ميرا، المصدر السابق، ص 30
60. ميندوثا، المصدر السابق، 96
61. إليخيو غارسيا، مجلة كروموس، 14 كانون الأول 1982.
62. غابرييل غارسيا ماركيز، الاسكتادور، 19 كانون الأول 1982.
63. آنا ماريا كانو، صحيفة الاسكتادور، 13 كانون الأول 1982.
64. نسيو ميندوثا، صحيفة التيمبو، 12 كانون الأول 1982
65. ميندوثا، في ميرا، أراكاتاكا – ستوكهولم، ص 103
66. آنا ماريا كانو، صحيفة الاسبكتادور، 13 كانون الأول 1982.
67. نسيو ميندوثا، صحيفة التيمبو، 12 كانون الأول 1982
68. ميندوثا، في ميرا، أراكاتاكا – ستوكهولم، ص 103
69. مقالة في مجلة جنت (بوينس آيرس) كانون الأول 1982.
70. توم ماشر الناشر، (المدن، سكادور)، 2005، ص 128 – 129
71. بيرو بوبيث، في ميرا، أراكاتاكا – ستوكهولم، ص 91 – 95
72. غلوريا تريانا، صحيفة الاسكتادور، 6 تشرين الأول 2002
73. غابرييل غارسيا ماركيز، صحيفة الاسكتادور، 12 كانون الأول 1982.
74. ألكساندرا بيبيد، صحيفة الاسبكتادور، 12 كانون الأول 1982
75. صحيفة الاسبكتادور، 10 كانون الأول 1982.
76. ريتا غارسيا ماركيز في غالفيس، المصدر السابق، ص 249.
77. إليخيو غارسيا، El Mundo al Vuelo، 64، شباط – آذار 1983.
78. ألفارو موتيس، أراكاتاكا – ستوكهولم، ص 19 – 20.
79. صحيفة التيمبو، 12 كانون الأول 1982.

21 – نوبة الشهرة وعطر الغوافة: الحب في زمن الكوليرا (1982 – 1985):

1. غابرييل غارسيا ماركيز، صحيفة الاسكتادور، 2 كانون الثاني 1983.
2. خوان غابو وفيليب غوسالبث، صحيفة التيمبو، 27 كانون الأول 1982.
3. ليو براودي، نوبة الشهرة: الشهرة وتاريخها (نيويورك، فينتج، 1986، 1997)
4. سوريلا، المصدر السابق، ص 259.
5. روبيرتو بومبو، سيمانا، (بوغوتا)، كانون الثاني 1997.
6. ديفيد ستريتفيلد، مقالة، الواشنطن بوست، 10 نيسان 1994.
7. خوان كروث، مقالة، ابايس (مدريد)، 11 كانون الثاني 1993.
8. رودولفو برسيني، مقالة، جنت (بوينس آيرس)، 15 كانون الثاني 1997.
9. غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 16 كانون الثاني 1983.



10. غييرمو كابريرا إيمانفي، Mea cuba (لندن، فير آند فيبر، 1994)، ص 210
11. غابرييل غرسيا ماركيز، الاسكنادور، 23 كانون الثاني 1983.
12. غابرييل غرسيا ماركيز، الاسكنادور، 10 كانون الثاني 1983.
13. ألفونسو بوبيرو مورينا، Colombia no alienada (بوغوتا، تيرثر موندو 1995.
14. بريت غيبيبث، المصدر السابق.
15. غابرييل غرسيا ماركيز، الاسكنادور، 10 نيسان 1983.
16. رد غابرييل غارسيا ماركيز على غير عدته في الاسكنادور 24 نيسان 983
17. غابرييل غرسيا ماركيز، الاسكنادور، 5 حزيران 1983.
18. غابرييل غرسيا ماركيز، الاسكنادور، 10 تموز 1983.
19. توماس إيلوي مارتينيث، باغينا (بوينس آيرس)، 21 آب 1988.
20. غابرييل غرسيا ماركيز "أسقف"، الاسكنادور، 23 تشرين الأول 1983.
21. ماريا تريسا هيران، الاسكنادور، 5 تشرين الثاني 1983.
22. لويز ريستريبو، مقالة، بوغوتا، 1991.
23. غابرييل غرسيا ماركيز، الاسكنادور، 18 كانون الأول 1983.
24. كلودين دريغوس، المصدر السابق، ص 172.
25. ريجيس دوبريه، المصدر السابق، ص 26-28.
26. آرنغو، المصدر السابق، ص 247
27. المصدر السابق، ص 120
28. ماريسيس سايكوسر، أفضل سنوات عمره، مقابلة مع غابرييل غارسيا ماركيز، نيويورك تايمز بوك ريفيو، 10 نيسان 1988.
29. إكسيلسيور، 16 تشرين الأول 1984.
30. **قصة موت معلن** (الطبعة الإنكليزية)، ص 136.
31. آرنغو، المصدر السابق، ص 136.
32. إريك نيبو جوثيو، الباييس، 28 آب 1984.
33. مارغوت غارسيا ماركيز، في غالفيس، المصدر السابق، ص 67.
34. إليجيو غارسيا ماركيز، المصدر السابق، ص 285-286 مما يثير الدهشة أن تيا يا كانت حاضرة في ذلك الوقت تم وافتها المنية بعد عام من ذلك
35. جيمي غارسيا ماركيز، المصدر السابق، ص 55.
36. إليجيو غارسيا ماركيز، المصدر السابق، ص 286
37. غابرييل غرسيا ماركيز، الاسكنادور، آب 1982. في هذه المقالة تكمن جذور **الحب في زمن الكوليرا** (1985) و**ذكرة غانياتي الحزينات** (2004).
38. ماريسيس سايكوسر، التيمز 14 نيسان 1985، وفي عام 1988 يشتبه سايكوسر مرة أخرى، المصدر السابق.
39. ياسوناري كاواباتا.
40. ماريا ألفيرا سامبر، سيمانا، 13 أيار 1985



41 أوضح إشارة هي كتاب هيرميا ماركيز لفابري لاربود (باريس، 1911) عن فتاة كولومبية حسناء تعيش في فرنسا وقصص الحب التي كانت تلهم بها الآخرين. وقد جذب العنوان اهتمام غابرييل غارسيا ماركيز، مثلما استحوذت الحبكة بعد ذلك على خياله.

(*) التفاحة الكبيرة The Big Apple: هي نيويورك، ويقال إن هذه التسمية تعود إلى عصر الجاز في ثلاثينيات القرن العشرين عندما كانت كلمة تفاحة تعني الارتباط. وكان الارتباط الذي يسعى إليه كل الموسيقيين هو الارتباط بنيويورك. فأصبحت المدينة تفاحة كبيرة بمعنى مركز النشاط الثقافي العالمي. (المترجم)

42. سيمانا، 9 كانون الأول 1985.

43 هيرنان ديات، ريفيستا دايرز (بوغوتا)، أيلول 1985

44. بيسب ريو بيتانكور، مقابلة، بوغوتا، 1991 نلاحظ أن كتاب غابرييل غارسيا ماركيز خبر اختطاف (1996) يستعيد هذه الظروف كي يضع السياق السياسي للأحداث (1990-1993) التي يرويها بنفسه.

45. "لقد تطلب مني الأمر نصف قرن من الرماد كي أكتب عن الحب". إكسيلسيور، 17 كانون الثاني 1986.

46. توماس بيشون "عهد الحب الأبدي". نيويورك تايمز بوك ريفيو، 10 نيسان 1988.

47. غابرييل غارسيا ماركيز، حديث، مدينة مكسيكو، 1999.

22 - خلافاً للتاريخ الرسمي: بوليفار غارسيا ماركيز (الجنرال في متاهته) (1986-1989):

1 كولومبيا على حافة محرقة، غارسيا ماركيز، إكسيلسيور، 28 تموز 1986.

2 انظر الطبعة البرازيلية من مجلة بلاي بوي، وفي مناظرة مع غنتر غراس في نهاية المؤتمر الخامس والأربعين لنادي القلم الذي عقد في مدينة نيويورك في كانون الثاني 1986.

3. نويث خيمينيث، المصدر السابق

4. مقابلات مع فيدل كاسترو وتوماس غوتيرث آليا، وفيرناندو بيري، وألكيميا بينا، وكانتشو بالرو، وماريا لويسا بيمبرغ، وأليسيو ألميرتو. وخورخه علي تريانا، وأليساندرو دوكي، وخايمي همبرتو هيرموسيلو، وخورخه سانتشيث، وأغاثيو ديوارن، وماريو غارسيا، وبيرتا نافارو، وأحاديث مع خوليو غارسيا إسبينوسا، ودولوريس كالفينو، وستيلا مالاغون، ومارتا بوسيو، وميغيل ليتين.

5 اشتهر ليتين بقصة The Jackel of Nahueltoro، 1971. لكنه صور أيضاً قصة غارسيا ماركيز أرمنة مونتيل في المكسيك سنة 1978 مع جيرالدين تشابلن التي مثلت الدور الرئيس.

6 غابرييل غارسيا ماركيز، سري في تشيلي (كيمبرج، غرانتا، 1989)

7. أبعد هذا العدد غابرييل غارسيا ماركيز عن ميتران. كانت فرنسا لا تزال تجري التجارب جنوبي المحيط الهادئ. وفي تموز 1985، أغرق عملاء فرنسا، وهذا ما نعرفه الآن،

بأوامر من ميتران نفسه سفينة ريمبو وارير التابعة لجماعة السلام الأخضر في مرفأ أوكلاند.

(*) رجل من حاشية ديونيسيوس حاكم سيراكوزا في القرن الرابع ق. م. دعاه الحاكم إلى وليمة، وعلق فوق رأسه سيفاً مربوطاً بشعرة حصان ليبين له أن سعادة الظالم معرضة أبداً للأخطار، وكلمة غارسيا ماركيز في المؤتمر أعلاه واضحة الدلالة في هذا الشأن. (المترجم)

8. التيمبو، 7 آب 1986، انظر خطاب غابرييل غارسيا ماركيز بعنوان "جائحة دوموقليس"، مؤتمر إكستابا، 1986، (بوغوتا، أوبيخا نيغرا، 1986).
9. تزوج غونثالو وبيا في 1987. أما ابنهما ماتيو، وهو أول حفيد لغارسيا ماركيز، فقد ولد في أواخر أيلول.
10. أندرو باكسمان، مقابلة، مجلة فارايتي 25-31 آذار 1996.
11. مايكل براندو، صحيفة الوموند، تموز 1986.
12. لاراثون، بوينس آيرس، 7 كانون الأول 1986 وفيها نصّ خطاب غابرييل غارسيا ماركيز.
13. ماريا خيمينا دوثان، مقابلة، بوغوتا، 1991.
14. مارليس سايمونز "غارسيا ماركيز عن الحب والأوبئة والسياسة"، نيويورك تايمز، 21 شباط 1988.
15. هوغو كوينياريس، صحيفة الناسيونال، 22 شباط 1989، في كاراكاس
16. روبرت ريفورد معجب بغارسيا ماركيز، إكسيلسيور، 15 تشرين الأول 1988.
17. إليس ميلر ميوث، "في مناقة الكاتب: أيام رواية القصص مع غابو"، ميشيغان كوارترلي ريفيو، 2: 34، 1995، ص 173-193، بخصوص عمل غابرييل غارسيا ماركيز في صاندانس، آب 1989.
18. غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 21 نيسان 1982.
19. من أفلام نيويل السابقة "أربع حفلات زفاف وجنازة"، دوني براسكو وهاري بوتر وكأس النار.
20. انظر على سبيل المثال لاري روهتر، "غارسيا ماركيز: كلمات في شريط سينمائي"، نيويورك تايمز 13 آب 1989.
21. ليس للعقيد من يكاتبه (المكسيك، جامعة فير كروث)، 1999.
22. إكسيلسيور، 7 آب 1990. مقالة في نيويورك تايمز عن اقتباس سالفادور ماورا لقصة موت معلن في المهرجان اللاتيني.
23. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة عن فيدل كاسترو، الباييس، 6 آذار 1988. انظر "العمل بالكلمة"، مجلة باكلا، 2 آب 1990
24. غابرييل غارسيا ماركيز، Diatriba de amor contra un hombre sentado (بوغوتا، ارانغو، 1994).
25. أوسفالدو سوريانو، مقابلة، باخينا 12، (بوينس آيرس) 21 آب 1988



26. أوسبالدو كيروغا، مقالة، لا ناسيون (بوينس آيرس) 21 آب 1988.
27. تردد في تلك الآونة أن مويك ميتي مكّرت في عرض مسرحية في روما خلال ذلك العام وفي وقت لاحق، قدمت المسرحية في بوغوتا ومثت فيها لورا غارسيا دور غرانتيلا. وفي 2005، أدت الدور نفسه الممثلة والمغنية آنا بيلين في إسبانيا، وفي كانون الثاني 2006 قدمت غرانتيلا دوفار المسرحية في بوينس آيرس بالرغم من كل معمالمه. ويبدو أن الممثلات استمتعن بتمثيل الدور بالرغم من تحفظات النقد.
28. صحيفة أوكسيدنت، 3 كانون الأول 1989
29. صحيفة الاسكتادور، 11 تموز 1987.
30. إكسيلسيور، 2 تموز 1987.
31. انظر إلى شكره أو امتنانه الهائل في الطبعات المنشورة
32. سوزان كانو، بروثيو (مدينة مكسيكو) 3 نيسان 1989.
33. غابرييل غارسيا ماركيز، صحيفة الاسكتادور، 25 آذار 1981.
34. صحيفة التيمبو، 19 شباط 1989، في التاسع والعشرين من تموز 1975، التقى رئيس جمهورية كولومبيا لوبيث ميتشيلسين في الذكرى الأربعمئة والخمسين لمناسبة تأسيس مدينة سانتا مارتا مع رئيس جمهورية فنزويلا كارلوس أندريس بيريث، ورئيس جمهورية بانامـا عمر توريخوس في مدينة سان بيدرو أليخاندرينو. وأحيوا ذكرى وفاة بوليفار الذي قضى هناك عام 1930. ثمة لوحة تحتفي بالذكرى ويصبح هؤلاء الرجال الثلاثة من أقرب أصدقاء غابرييل غارسيا ماركيز في العقد التالي من الزمان.
35. بليساريو بيتانكور، باجينا 12، (بوينس آيرس) 2 نيسان 1989
36. إكسلسيور، 21 آذار 1989.
37. ماريا ألفيرا سامبير، إكسيلسيور، 5 نيسان 1989.
38. انظر على سبيل المثال أوسكار بيدر هيتا عوتاشيث لا ريبابليكا (كولومبيا)، 14 أيار 1989 وديغو ميلير، كلارين (بوينس آيرس)، 22 حزيران 1989.
39. صحيفة التيمبو، 19 آذار 1989.
40. صحيفة التيمبو، المقالة الافتتاحية، 5 نيسان 1989.
41. صحيفة إكسيلسيور، 28 آذار 1989، انظر أيضاً عدد الصحيفة الصادر في 28 حزيران 1989
42. صحيفة الاسبكتادور، 28 آذار 1989.
44. بيويورث تايمز، 27 كانون الأول 1988.
45. **الجنرال في متاهته** (الطبعة الإنكليزية) لندن، جوناثان كيب 1991، ص 230.
46. كان القرار قد اتخذ بالإجماع بالرغم من زعم أعداء كاسترو أنه أدى الدور الرئيس. وزعموا أيضاً أنه كان لا بد من قتل أوتشوا لإخفاء اتهام فيدل كاسترو وراؤول كاسترو بتجارة المخدرات في الكاريبي.
47. 16 تموز، العنوان الرئيس لصحيفة صندي ميرور. "شبح رثّ النياب في وليمة"، مقارنة غاري أنطوانيت.



48. صحيفة الاسبكتادور، 15 تموز 1989.
49. جيومري ماتسور، "وباء العنف بسبب أرض الجمال السحري"، صحيفة الغارديان (لندن)، 3 أيلول 1989.
50. صحيفة التيمبو، 20 آب 1989
51. صحيفة إكسيلسيور، 22 كانون الأول 1989

23 – عودة إلى ماكوندو، خبر كارثة تاريخية (1990-1996):

1. معظم هذه الحوادث مذكورة، بالاختصار أو بالتفصيل، في كتاب غابرييل غارسيا ماركيز خبر اختطاف (لندن، جوناثان كيب، 1997).
2. إكسيلسيور، 3 تشرين الثاني 1989.
3. أنطوني دي وميرجوري ميلر: "عابر يتحدث" مجلة لوس أنجلوس الأميركية 2 أيلول 1990، ص 10، 35. وفيها يوضح أن الولايات المتحدة "مصابة بهوس متهتك تقريباً بكاسترو" (ص 34) ويؤكد أنه لولا وجود كاسترو لاجتاحت الولايات المتحدة أميركا اللاتينية حتى باتاغونيا
4. إكسيلسيور، 9 شباط 1989.
5. داي وميلر، عابر يتحدث، ص 33
6. إكسيلسيور، 10 آذار 1990
7. صحيفة التيمبو، 10 آذار 1990.
8. يموجين مارك، "تسوشيب صالح في متاهته"، الفاينانشال تايمز، 25 تشرين الثاني 1990
9. ورد الخبر في وكالة بريتسا الصحفية، 5 أيلول 1990.
10. صحيفة إكسيلسيور، 3 أيلول 1990.

(*) المقصود هم لاكسترا ديتابيس Extranditables وهم مجاميع من المجرمين وتجار المخدرات في كولومبيا تطالب بمحاكمة حكومة الولايات المتحدة من دون أن تملك كولومبيا قدرة على تسليمها إياهم (المترجم)

11. صحيفة إكسيلسيور، 27 كانون الثاني 1991، صحيفة التيمبو، 27 كانون الثاني 1991.
12. صحيفة التيمبو، 20 حزيران 1991.
13. الاسبكتادور، 3 آذار 1991.
14. ريناتو رافيلو، لا جورنادا، 25 تشرين الأول 1998.
15. لا جورنادا، 18 كانون الثاني 1992
16. إكسيلسيور، 15 شباط 1992.
17. باري ماتش، 14 تموز 1994.
18. إكسيلسيور، 31 تموز 1992.
19. سيمانا، 14 تموز 1992.
20. الناسيونال، 0 آب 1992.
21. سيمانا، 17 تشرين الثاني 1992



22. سيمانا، 29 أيلول 1992
23. التيمبو، 23 تشرين الثاني 1992.
24. الباييس، 14 كانون الأول 1992.
25. الاسبكتادور، 11 كانون الثاني 1993.
26. بيل كيتون، العطاء: كيف يمكن لكل واحد منا أن يغير العالم (لندن، هاتشينسون، 2007)
27. الاسبكتادور، 28 كانون الثاني 1993.
28. إكسيلسيور، 29 كانون الثاني 1993.
29. إكسيلسيور، 18 حزيران 1993
30. جيمس بروك، "واقع الكوكايين يعلم غارسيا ماركيز"، نيويورك تايمز، 11 آذار 1994.
31. 24 آذار 994 صدر البيان بصفة نشرة صحيفة.
32. ديفيد سريتفلد، "عزلة غابرييل غارسيا ماركيز المعقدة" صحيفة الواشنطن بوست، 10 نيسان 1994.
33. كلمة غونثالو مالاريو في معرض بوغوتا للكتاب في الثناء على كتاب غابرييل غارسيا ماركيز الجديد (22 نيسان 1994)، نشرت في صحيفة الاسبكتادور، 25 نيسان 1994.
34. جان فرنسوا فوجيل "ثورة القلب"، صحيفة اللوموند، 27 كانون الثاني 1995.
35. إي. أس. بيات، "مأخوذ بالحب"، نيويورك ريفيو أوف بوكس، 28 أيار 1995.
36. بيتر كيمب، "الشعرة والكلب"، صحيفة الصانداي تايمز (لندن)، 2 تموز 1995.
37. روسامورا، الاسبكتادور، 7 نيسان 1994.
38. سيلفانا باتر نوسترو، مقالة، بيترا أنتوناسيوناك (مدريد)، أيار/حزيران 1997، ص 13. يستذكر كاسترو بنفسه هذا الحدث في صحيفة غرما في تموز 2008.
39. أونوما سونو (مدينة مكسيكو)، 25 تموز 994
40. أرنستو سامبر، سيمانا، 3 آذار 1987. أجريت مقابلة مع سامبر في بوغوتا في نيسان 2007.
41. غابرييل غارسيا ماركيز، مجلة باري ماتش، 14 تموز 1994.
42. صحيفة التيمبو، 8 آب 1994.
43. سيمانا، 6 أيلول 1994.
44. لا حورنادا (مدينة مكسيكو)، 14 أيلول 1994.
45. فيوريلو، المصدر السابق، ص 85.
46. غابرييل غارسيا ماركيز، باري ماتش، 14 تموز 1994.
47. سوران كانو، مجلة كامبيو، 16، 6-13 أيار 1996
48. كامبيو 16، 24 شباط 1997.
49. روبيرتو فوينتس، De la Habana traigo un Mensaje، 13 آذار 1996. ويظهر شريط فوينتس Dulces Guerrilleros cubanos في 1999 ويؤدي غابرييل غارسيا ماركيز دوراً كبيراً فيه



50. بيلار لوثانو، صحيفة الباييس 16 نيسان 1996
51. إريكسي سنوس كالديرون، التيمبو 5 أيار 1996 يبين سنتوس كالديرون أن مجلة بيور ويسك قد اوردت مؤخراً أن غابرييل غارسيا ماركيز مهووس بابلو إسكوبار لأنه يمثل السلطة، وهي هاجس غابرييل غارسيا ماركيز الحقيقي، وليس السياسة. انظر فرجينيا باليخو:
Amando a Pablo، diando a Escobar (مدينة مكسيكو، راندوم هاوس موندادوري، 2007). وهو تفاصيل دقيقة عن السياسة والمجتمع في كولومبيا خلال حقبة إسكوبار.
52. روبيرتو بوسادا غارسيا بينا، التيمبو، 22 أيار 1998
53. غابرييل غارسيا ماركيز، خبر اختطاف، ص 129 130. سيؤيد تنظيم القوات المسلحة الثورية الكولومبية هذا البيان بممارسة الخطف من أجل فدية على مدى السنوات القادمة. في العام 2008، يلقى التنظيم سلسلة من الضربات المدمرة، بما فيها موت زعيمه مانويل مارولاندا، في أثناء قصف الشخص الثاني في القيادة رازول ريس، وتحرير القوات المسلحة الكولومبية إنغريد بيتانكور.
54. انظر على سبيل المثال، جوزيف آي. بيج، "واقعية لا سحرية"، كومو نويل، 16، 26 أيلول 1997، وتشارلز لين، الكاتب في متاهته، نيوريبابليكا، العدد 217، 25 آب 1997. راجع أيضاً مالكوم ديس "أمه كل السر"، لندن ريفيو أوف بوكس 30 تشرين الأول 1997.

24 – غارسيا ماركيز في السبعين وما بعدها: مذكرات وغانيات حزينات (1996-2005):

1. داريو أريثميندي، مجلة كروموس، 13 حزيران 1994
2. صحيفة الباييس، 15 أيار 1996.
3. روسموري، الباييس، 20 أيار 1996.
4. ريكاردو سانت ماريا، سيمانا، 27 آب 1996.
5. رودولفو براتيي، جنت (بوينس آيرس) 15 كانون الثاني 1997
6. جان فرانسوا فوجل، صحيفة اللوموند، 27 كانون الثاني 1995.
7. الباييس، 7 حزيران 1998.
8. بيلار لوثانو، الباييس، 3 آذار 1997.
9. الاسبكتادور، 12 أيلول 1997
10. التيمبو، 7 حزيران 1998.
11. الاسبكتادور، 23 تشرين الأول 1998.
12. الواشنطن بوست، 29 تشرين الأول 1998.
13. سحب غابرييل غارسيا ماركيز وزملاؤه عرضهم وهم مقتنعون أن سامبر سيرفضه. لكن سامبر أنكر في مقابلة أجريتها معه في نيسان 2007 أن هناك قراراً بمثل ذلك العدد، لكنه أوضح جلاء أن "ما من حكومة في أي بقعة من بقاع العالم الديمقراطي مضطرة إلى محاباة خصومها".



14. لاري روهتر، "غابرييل غارسيا ماركيز يختص حباً قديماً (هذا عمر ه)"، نيويورك تايمز، 3 آذار 1999.
15. مجلة كامبيو، شباط 1999.
16. الديس، 3 كانون الثاني 1999.
17. روسامورا، الباييس، 19 آذار 1999.
18. كتب في إنكلترا عندما اتصل بي غارسيا ماركيز من بوغوتا في الثامن والعشرين من حزيران بعد التشخيص. كان يعلم أني كنت قد أصبت بورم ليمفاوي في سنة 1995 وقال: "لم أشعر يوماً بأني في حياتي بإعياء كالإعياء الذي لازمني منذ بداية هذا المرض ولم تعد لدي ذرة واحدة من الطاقة". ثم تحدثنا عن المرض وكيفية مقاومة المرء له بأكثر قدر ممكن، وكيف يأكل وكيف يفكر وكيف يعيش. فقال لي: "حسناً لقد أصبحنا أنا وأنت زميلين". أحسست أنه أصيب بصدمة، لكنه عقد العزم على القتال. لكنني كنت أيضاً أدرك أنه في الثانية والسبعين من عمره.
19. جون لي أندرسون، "سلطة غارسيا ماركيز"، مجلة ذا نيويوركر، 27 أيلول 1999
20. التيمبو، 23 أيلول 1999.
21. راجع هذا الجزء من قراءة الطالع في رواية خريف البطريرك (1975)، ص 181 (الطبعة الإنكليزية).
22. سيمانا، 14 تشرين الثاني 2000
23. خوان كروث، الباييس، 2 كانون الأول 2000
24. غييرمو أنغولو، مقابلة، بوغوتا، نيسان 2007.
25. 27 شباط 2001، نشرت الرسالة في جميع أنحاء العالم
26. تأخر فريد عن دفن أبيه، فراوده حلم بشعره بالذنب من جراء ذلك. ثم أخفق في حضور تشييع جنازة أمه بذريعة سوء حالته الصحية
27. ريتشارد إيلمان عن جويس: "إن حياة الفنان، خاصة مثل حياة جويس، تختلف عن حياة غيره من الأشخاص من حيث إن أحداثها تصبح مصادر فنية حتى إن كانت تستحوذ على اهتمامه الراهن". (جيمس جويس، طبعة جديدة ومنقحة، نيويورك، مطبعة جامعة أكسفورد، 1983)، ص 3.

(*) نرسيسوس Narcissus في الميثولوجيا الإغريقية هو ابن سيفيسوس، شاب بهي الطلعة رأى انعكاس وجهه في ينبوع ماء فعشقه حورية المكان. حاول عبثاً الإمساك بوجهه حتى ذاب أسىً وحسرة. وعندما جاءت الحوريات لنقل جثته ودفنه، لم يجدن سوى زهرة أطلقن عليها اسمه وهي زهرة النرجس. نقل لنا هذه القصة أوفيد وغيره. أما بلوتارك، فيقول إن الاسم مشتق من كلمة narke الإغريقية وتعني خدر، وهو ما يناسب كلمة narcosis أي النبات الذي يسبب الخدر. (المترجم)

28. ماليندا سانتشيث، كلارين، (بوينس آيرس)، 24 آذار 1998
29. إكسيلسيور، 12 تشرين الثاني 1981: "انتهى انعطاف غارسيا ماركيز وهو يتحدث عن مذكراته التي كان يأمل في كتابتها في القريب العاجل، وهي المذكرات التي ستكون فعلاً

(مذكرات كاذبة) لأنه لا يروي قصة حياته كما حدثت، ولا كيف يمكن أن تكون، بل كما كان يظنها

30. كاليب باخ، لقطات قريبة من غابرييل غارسيا ماركيز، أميركاس، أيار/حزيران 2003.
31. الديس، 19 تموز 2003.
32. سيمانا، تشرين الثاني 2003.
33. في وقت لاحق، بثت برنامج أوبرا ويفري رواية **الحب في زمن الكوليرا**.
34. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة في لاسبكتادور، 19 آب 1982 وقد اقتبسه لاحقاً لتكون قصة من قصص **مهاجرون غرباء**.
35. ماريا للمؤلف إسحق. تعد استثناء جزئياً.
36. ماريا خيمينيث دونان، مقابلة، بوغوتا، 1991
37. غابرييل غارسيا ماركيز، **ذاكرة غانياتي الحزينات** (نيويورك، ألفريد أي نوف، 2005)، ص 74
38. المصدر السابق، ص 45
39. جون أبدايك، "الموت من أجل الحب: رواية جديدة لغارسيا ماركيز" ذا نيويوركر، 7 تشرين الثاني 2005
40. لدى وصولي لبيت، كنت أفكر في هذا الحديث، ففتحت كتاب **الجنرال في متاهته**، إن كانت أسطره الأخيرة، حسبما تذكر، نشيداً آخر من أناشيد ألق الوجود. كان بوليفار مذهولاً وهو يحتضر بسبب ألق حياته الأخير الذي لن يتكرر ثانية أبداً. قارن هذا بالمقالة الموردة في صحيفة الاسبكتادور، 1 أيار 1982 والتي يستذكر فيها غابرييل غارسيا ماركيز عواطفه المتأججة أيام شبابه المتألق مع اقتراب الفجر في كل يوم في كارتاخينا

خاتمة: الخلود – ثيربانتس الجديد (2006-2007):

1. إل ابال، لافانغارديا (برشلونة)، 29 كانون الثاني 2006.
2. خايمي غارسيا ماركيز، حديث، كارتاخينا، آذار 2007.
3. لا جورنادا، 8 نيسان 1997.
4. آلان ستيفانس، "غارسيا ماركيز وروايته الشهيرة" كرونيكل أوف هاير إيديوكيشن، 15 حزيران 2007. قبل عامين من ظهور نص ستيفانس، كرر كريستوفر دومينغيث في ليتراس ليبر المكسيكية (كانون الأول 2004) عبارة سابقة مفادها أن غابرييل غارسيا ماركيز هو هومبروس أميركا اللاتينية وعلى نحو مشابه، أشار روبيرتو غونثاليث إتشيبارايا في مقالة متميزة في بريميرا ريفيستا (نيويورك) كانون الأول 2007 – كانون الثاني 2008، أن روايته **مئة عام من العزلة** غدت على الفور مأثرة كلاسيكية كاملة وكتاباً بات علاقة مميزة في حياته وأدبه ويعد هؤلاء النقاد الثلاثة من أشد الميالين إلى نزعة التشكك والصرامة، ولا يكتبون حسب المرح لكتابة شيكات نقدية بيضاء، ولا يكون المديح المقيت الذي ينطوي على رياء لأدباء يقفون إلى يسار الوسط.
5. أرنغو، المصدر السابق، ص 91



6 انظر مقالة غابرييل غارسيا ماركيز، الإسبكتادور، 10 آذار 1981، وفيها يسخر من فكرة إقامة مركز مؤتمرات في كارتاخينا لتدفقات كثيرة.

7 غابرييل غارسيا ماركيز، **مئة عام من العزلة**، طبعة تذكارية، (مدريد)، الأكاديمية الملكية الإسبانية، 2007.

8 أوضح في هذا النص أنه أرسل هو ومرسيديس عبر البريد النصف الثاني من المخطوطة عن حظ أول الأمر، وأن الناشر باكو بوروا نديي كان تواق إلى قراءة النصف الأول، أرسل إليهما النقود التي كان يحتاجه إليها ومن خلال تكريم الأكاديمية له، فقد ربطته ربط محكماً بالرواية التي بذل قصارى جهده كي يهرب منها، ولم تكن كلمته كلمة شكر لزوجته وحسب، بل كانت أيضاً ضرباً من المصالحة مع الكتاب الذي غيّر من حياتهما قبل أربعين سنة.





حقوق الصور ونصوصها

Colonel Nicolás R. Márquez (*Family Archive–Margarita Márquez Caballero*)
Tranquilina Iguarán Cotes de Márquez. (*Family Archive–Margarita Márquez Caballero*)
Colonel Nicolás R. Márquez on a tropical day out in the 1920s (*Family Archive–Margarita Márquez Caballero*)
Luisa Santiaga Márquez Iguarán. (*Family Archive–Margarita Márquez Caballero*)
Gabriel Eligio García and Luisa Santiaga, on their wedding day, 11 June 1926. (*Gustavo Adolfo Ramírez Ariza (GARA–Archive)*)

GGM on his first birthday (*Family Archive–Margarita Márquez Caballero*)
The Colonel's old house in Aracataca. (*GARA–Archive*)
Elvira Carrillo, 'Aunt Pa' (*GARA–Archive*)
Aida GM, Luis Enrique GM, Gabito, cousin Eduardo Márquez Caballero, Margot GM and baby Ligia GM, 1936. (*Photo by Gabriel Eligio García, courtesy of Family Archive–Margarita Márquez Caballero*)

Gabito at the Colegio San José, Barranquilla, 1941 (*GARA–Archive*)
The Liceo Nacional in Zipaquirá where GGM studied between 1943 and 1946 (*GARA–Archive*)
The GM brothers, Luis Enrique and Gabito, with cousins and friends, Magangué, 1945. (*Family Archive–Ligia García Márquez*)
Argemira García and her daughter Ena, early 1940s. (*Family Archive–Ligia García Márquez*)
GGM, mid-1940s. (*GARA–Archive*)
Berenice Martínez, mid-1940s. (*GARA–Archive*)

Mercedes Barcha at school in Medellín, late 1940s. (*GM Family Archive*)
Steamship *David Arango* (*Photo by William Caskey*)
Fidel Castro and other student leaders during the *Bogotazo*, April 1948. (*http://www.latinamericanstudies.org*)
Barranquilla, April 1950 farewell for Ramon Vinyes. (*GARA–Archive*)
Barranquilla, in the *El Heraldo* office, 1950. (*Photo by Quique Scopell, courtesy of El Heraldo*)
GGM, Bogotá, 1954 (*El Espectador*)



GGM, Paris, 1957. (*Photo by Guillermo Angulo, courtesy of GARA–Archive*)
Tachia Quintana in Paris. (*Photo by Yossi Bal, courtesy of Taehia Rosoff*)
GGM and friends, Red Square, Moscow, summer 1957. (*GARA–Archive*)
The Soviet invasion of Hungary, Budapest, 1956. (*Hulton-Deutsch Collection/CORBIS*)
Caracas, 13 May 1958. (*Bettmann/CORBIS*)

GGM working for Prensa Latina, Bogotá, 1959. (*Photo by Hernán Díaz*)
Mercedes Barcha in Barranquilla. (*GARA–Archive*)
Cuba, December 1958. Che Guevara and comrades relax. (*Popperfoto/Getty Images*)
GGM and Plinio Mendoza working for Prensa Latina, Bogotá, 1959. (*El Tiempo*)
GGM and Mercedes, on Séptima in Bogotá, 1960s. (*GARA–Archive*)

Havana, January 1961. (*Getty Images*)
Havana, 21 April 1961. (*Bettmann/CORBIS*)
Mexico, 1964. GGM in glasses. (*GARA–Archive*)
GGM in Aracataca, 1966. (*GARA–Archive*)
Valledupar, Colombia, 1967. (*Photo by Gustavo Vásquez, courtesy María Elena Castro de Quintero*)
Camilo Torres. (*GARA–Archive*)

Wizard or dunce? GGM in Barcelona, crowned by the famous cabbalistic cover of *OHYS*, 1969. (*Colita/CORBIS*)
Mercedes, Gabo, Gonzalo and Rodrigo, Barcelona, late 1960s. (*GM Family Archive*)

Soviet invasion of Czechoslovakia, August 1968. (*epa/CORBIS*)
GGM, Barcelona, late 1960s. (*GARA–Archive*)
GGM and Pablo Neruda, 1972. (*GARA–Archive*)
Boom couples, Barcelona, 1974. (*Photo by Colita*)

GGM, Barcelona, 1970s. (*Photo by Rodrigo García*)
GGM and Carlos Fuentes, Mexico City, 1971. (*Excelsior*)
GGM and Mercedes, 1970s. (*Excelsior*)
Cartagena, 1971: GGM visits his parents. (*Excelsior*)

Writers of the Boom. (*Photo by Silvia Lemus*)
Julio Cortázar, Miguel Angel Asturias and GGM, West Germany, 1970. (*GARA–Archive*)
Paris, 1973. Wedding of Charles Rosoff and Tachia Quintana. (*Tachia Rosoff, Personal Archive*)
Santiago de Chile, 11 September 1973. President Salvador Allende. (*Dmitri Baltermants/The Dmitri Baltermants Collection/CORBIS*)
Santiago de Chile, 11 September 1973. General Pinochet and his henchmen. (*Ullsteinbild – dpa*)

Cuban troops in Angola, February 1976. (*AFP/Getty Images*)
Castro, President of Cuba, 1980s. (*Excelsior*)
General Omar Torrijos, 1970s. (*AFP/Getty*)
GGM interviews Felipe González in Bogotá, 1977. (*Alternativa*)
Bogotá, 1977: GGM, Consuelo Araujonoguera ('la Cacica') and Guillermo Cano, editor of *El Espectador*. (*El Espectador*)
GGM, Carmen Balcells and Manuel Zapata Olivella, 1977. (*GARA–Archive*)



Mexico City, 1981. GGM buried by press attention following his self-exile from Colombia. (*Bettmann/CORBIS*)
Alvaro Mutis chauffeurs GGM. (*GARA Archive*)
Stockholm, December 1982. Jaime Castro, German Vargas, GGM, Charles Rosoff, Alfonso Fuenmayor, Plinio Mendoza, Eligio García and Hernán Vieco. (*GM Family Archive*)
Stockholm, December 1982. GGM in *costeño 'sombrero vueltiao'*. (*Photo by Nereo López, courtesy of the Biblioteca Nacional de Colombia*)
Stockholm, December 1982. GGM in the chalk circle. (*GARA Archive*)

Cartagena, 1993. Luisa Santiaga and her children. (*Family Archive–Ligia García Márquez*)
GGM and Fidel Castro, by the Caribbean, 1983. (*Photo by Rodrigo Castaño*)
Havana, 1988. GGM and Robert Redford. (*Excelsior*)
Bogotá, mid-1980s. GGM and Mercedes with President Betancur and his wife. (*GARA Archive*)
Berlin, November 1989. (*Regis Bossu/Sygma/Corbis*)
Bogotá's Palacio de Justicia in flames, 6 November 1985. (*http://alvaroduque.wordpress.com*)

Bogotá, 1992: GGM salutes his admirers in the Jorge Eliécer Gaitán Theatre. (*GARA–Archive*)
GGM, 1999. (*GARA–Archive*)
GGM and Mercedes, October 1993. (*GARA–Archive*)
Barcelona, *c.* 2005. Carmen Balcells in her office. (*© Carlos González Armesto*)

Havana, 2007. GGM and Fidel Castro. (*Diario El Tiempo/epa/Corbis*)
Cartagena, March 2007: GGM and Bill Clinton. (*Cesar Carrion/epa/Corbis*)
Cartagena, March 2007. GGM and King Juan Carlos I of Spain. (*AFP/ Getty Images*)
Cartagena, March 2007. GGM waves to admirers during his eightieth birthday celebrations. (*STR/AFP/Getty Images*)

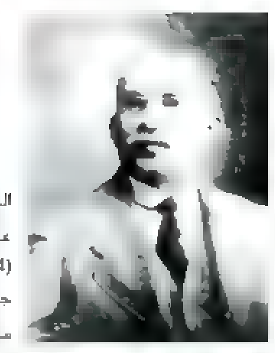
The author and publishers gratefully acknowledge Gabriel García Márquez and the Agencia Literaria Carmen Balcells, S.A., for permission to quote extracts from copyright material by Gabriel García Márquez throughout this book, and also for the English translations of the original Spanish-language editions of various of his works, as follows: *One Hundred Years of Solitude* (1970); *No One Writes to the Colonel* (1971); *The Autumn of the Patriarch* (1977); *Leafstorm* (1979); *In Evil Hour* (1980); *The Story of a Shipwrecked Sailor* (1986); *Love in the Time of Cholera* (1988); *Clandestine in Chile* (1989); *The General in His Labyrinth* (1991); *Collected Stories* (1991); *Strange Pilgrims* (1993); *Of Love and Other Demons* (1995); *News of a Kidnapping* (1997); *Living to Tell the Tale* (2003) and *Memories of My Melancholy Whores* (2005).

In addition, the author and publishers gratefully acknowledge the copyright holders of the following texts: Plinio Apuleyo Mendoza (ed.), *The Fragrance of Guava: Conversations with Gabriel García Márquez* (London, Faber & Faber, 1998); Plinio Apuleyo Mendoza, *La llama y el hielo* (Bogotá, Gamma, 1989). By permission of the author; Gustavo Arango, *Un ramo de nomeolvides* (Cartagena, El Universal, 1996). By permission



of the author; Guillermo Cabrera Infante, *Mea Cuba* (London, Faber & Faber, 1994); José Donoso, *The Boom in Spanish American Literature: A Personal History* (© Columbia University Press, 1977); Claudia Dreifus, 'Gabriel García Márquez', *Playboy*, February 1983 (© *Playboy* 1982). Reprinted by permission; Heriberto Fiorillo, *La Cueva: crónica del grupo de Barranquilla* (Bogotá, Planeta, 2002). By permission of the author; Silvia Galvis, *Los García Márquez* (Bogotá, Arango Editores, 1996). By permission of the author; Eligio García, *Tras las claves de Melquíades* (Bogotá, Norma, 2001). By permission of the Agencia Literaria Carmen Balcells, S.A.; Rita Guibert, *Seven Voices* (New York, Vintage, 1973). Reprinted by permission; Luis Harss and Barbara Dohmann, *Into the Mainstream: Conversations with Latin-American Writers* (New York, Harper and Row, 1967); Antonio Núñez Jiménez, 'García Márquez y la perla de las Antillas (o "Qué conversan Gabo y Fidel")' (unpublished manuscript, Havana, 1984). By permission of the author; Gabriel García Márquez, *Paris Review* Writers at Work interview by Peter H. Stone, Issue 82, winter 1981 and 'Solitude and Company: An Oral Biography of Gabriel García Márquez' by Silvana Paternostro, *Paris Review*, no. 166, summer 2003. Reprinted by permission of the Wylie Agency; Elena Poniatowska, 'Los *Cien años de soledad* se iniciaron con sólo 20 dólares' (interview, September 1973), in *Todo México*, I (Mexico City, Diana, 1990).





الكولونيل نيكولاس
غابرييل ماركيز
(1864 - 1937)
جد غابرييل غارسيا
ماركيز (عام 1914)



ترانكيلينا إغواران
كوتيس دي ماركيز
(1863 - 1947)،
جدّة غابرييل غارسيا
ماركيز



الكولونيل نيكولاس ماركيز بكامل أناقته عام 1920



لويسا سانتياغا ماركيز إغواران
(1905 - 2002) والدة غابرييل
غارسيا ماركيز قبل الزواج



غابرييل إليخيو غارسيا
(1905 - 1984) والد
ووالدة غابرييل غارسيا
ماركيز يوم زفافهما -
سانتا مارتا
11 حزيران 1926





قسم من المنزل القديم للكولونيل في
اركاتاكا قبل اي ترميم اضيف عليه

غابرييل غارسيا ماركيز
في ذكرى ميلاده الاولى



(من اليسار الى اليمين) عايدة لويس غابيتو ابن العم ادواردو مارغوت - والطفلة ليغيا في اراكاتاكا 1936



بيرنيس مارتينيث صديقة غابرييل غارسيا ماركيز منتصف 1940



غابرييل غارسيا ماركيز في منتصف 1940



بيتو في مدرسة سان خوسيه أنكي 1941



اخوة غابرييل ماركيز لويس إنريكي وغابيتو (يمين) مع اولاد العم واصدقاء في ماغانغو عام 1945



أرخيمير غارسيا (1887 - 1950) جدة غابرييل غارسيا ماركيز (يمين) في سينسي مع ابنتها بيا التي توفيت عام 1944 وهي في الرابعة والعشرين





من اليسار) غابرييل – ألفارو سيبيدا – ألفريدو ديلغادو – رفائيل إسكالونا والفونسو فوينمايور في مكتب الهيرالدو في بارانكيا



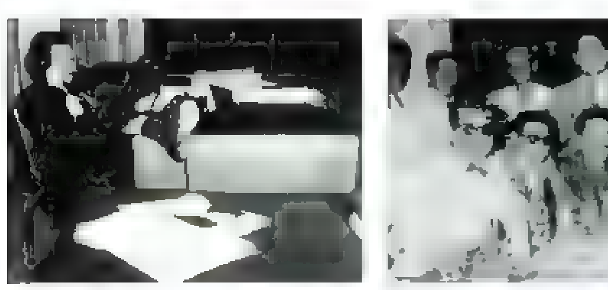
لسفينة البخارية «دافيد أرانغو» التي استقلها غابرييل غارسيا ماركيز من كوست إلى بوغوتا عام 1940



ميرثيديس بارشا في لباس المدرسة في ميديلين عام 1940



فيدل كاسترو (يسار) مع طلاب قياديين في أثناء «بوغوتاسو» نيسان 1948



حفلة وداعية إلى رامون فينيير ويبدو غابرييل غارسيا ماركيز في الوسط في (بارانكيا)



الصحفي غابرييل غارسيا ماركيز في «الاسبكتادور» بوغوتا 1954







غابرييل غارسيا ماركيز في فندق فلاندر في باريس عام 1957

تاتشا كوينتانا في باريس



غابرييل مع أصدقاء (لويس فيلار بوردا – إلى اليسار) الساحة الحمراء - موسكو - صيف عام 1957



كراكاس، 13 أيار عام 1958 المتظاهرون يهاجمون سيارة نائب الرئيس ريتشارد نيكسون. صرخة في وجه سياسة أميركا تجاه أميركا اللاتينية





ميرثيديس بارشا في بارانكيا قبل زواجها من
غابرييل غارسيا ماركيز



غابرييل غارسيا ماركيز يحمل لبرينزا لاتينا
بوغوتا عام 1959



ماركيز مع ميرثيديس في بوغوتا عام
1960



غابرييل غارسيا ماركيز وبلينيو ميندوثا في برينسا لاتينا،
بوغوتا 1959





فاليدوبار، كولومبيا 1967 غابرييل غارسيا ماركيز مع أصدقائه

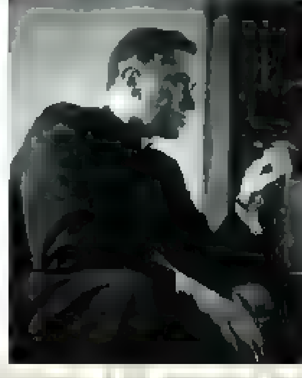
هافانا، 21 نيسان 1961 الكوبيون المدعومون من أميركا يؤخذون إلى السجن بعد خسارتهم في معركة خليج الخنازير في هذا الوقت يخطط غابرييل غارسيا ماركيز لترك برانزا لاتينا للسفر إلى مكسيكو



مكسيكو 1964 غابرييل غارسيا ماركيز (يضع نظارة) مع أصدقائه



غابرييل غارسيا ماركيز في أراكاتاكا عام 1966 هذه المناسبة كانت البدء لاحتفالات «فاليناتو» في فاليدوبار



كاميلو توريس، صديق غابرييل في الجامعة والذي عمّد ابنه رودريغو، أصبح الثائر الكنسي الأول في أميركا اللاتينية وقتل عام 1966





غابرييل غارسيا ماركيز في برشلونة يتوج نفسه بغلاف كتاب «مئة عام من العزلة» 1969

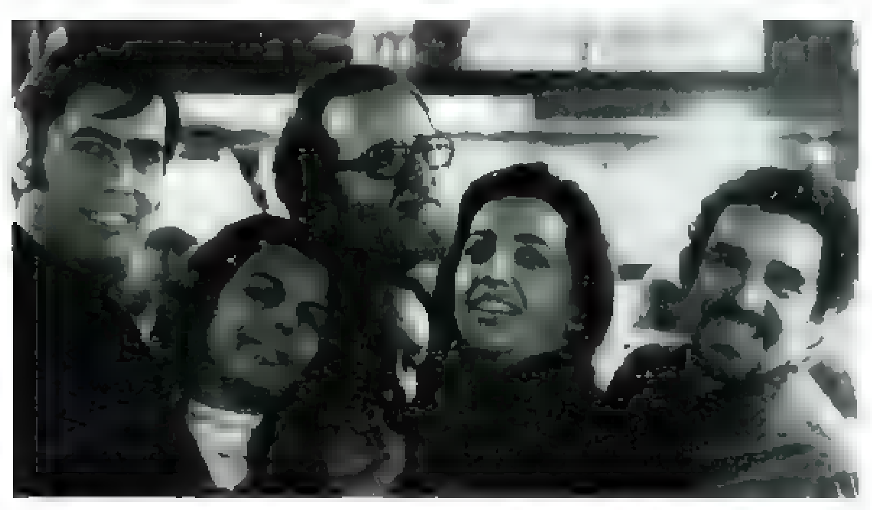


مرثيديس، غابو، غونثالو ورودريغو في برشلونة أواخر عام 1960





غابرييل غارسيا ماركيز في
برشلونة أواخر عام 1960



المنابيون (من اليسار الى اليمين) ماريو يوسا مع زوجته باتريشيا، ميرسيدس، خوسيه دونوسو مع زوجته ماريا
وغابرييل غارسيا ماركيز اوائل عام 1970



غابرييل غارسيا
ماركيز مع بابلو
نيرودا في حديقة منزل
نيرودا في النورمندي
عام 1972





غابرييل غارسيا
ماركيز يكتب
رواية «خريف
البطريرك»
برشلونة 1970



غابرييل غارسيا ماركيز مع ميرثيديس عام
1970



غابرييل غارسيا ماركيز مع كارلوس فوينتس مدينة
مكسيكو 1971



كارتخينا عام 1971 غابرييل غارسيا
ماركيز يزور أبويه غابرييل إليخيو ولويسا
سانتياغا مع ابنه غونثالو والصحفي
المكسيكي غييرمو أوتشوا





الروائيون الكبار (من اليسار إلى اليمين): ماريو فارغس كارلوس فوينتس غابرييل ماركيز وخوسيه دونوسو العضو الوحيد خوليو كورتاثار

خوليو كورتاثار ميغيل انخل وغابرييل ماركيز لدى العربية 1970



باريس 1973 روج بشارلز روسوف وناتشيا كويندا مع غابرييل ماركيز

سانتياغو تشيلي أيلول 1973 الجنرال بينوشيه مع أتباعه



سانتياغو، تشيلي 11 أيلول 1973 الرئيس سلفادور الليندي يدافع عن قصر مونيدا ضد قوات المتمردين وخلفه دانيلو بارتولين الذي نجا من الموت «بعكس الليندي» وأصبح صديقا حميما لغابرييل ماركيز في ماناغوا





القوات الكوبية في أنغولا شباط 1976

فيدل هو ملك كاسترو رئيس كوب 1980



غابرييل ماركيز يحاور فيليب غونثاليث في بوغوتا 1977



الجنرال عمر توريخوس رئيس

باناما عام 1970



غابرييل ماركيز مع كارمن باسيلس ومانويل ثاباتا

أوليفيرا سطح إلدورادو، بوغوتا 1977



بوغوتا 1977 غابرييل ماركيز مع القسيس أمرابيرا

وغييرمو كانو عروة الاسبكتادور الأول قتل عام

1960 والثانية أعدمت عام 2001





مدينة مكسيكو 1981 غابرييل ماركيز محاط بالصحافة بعد منفاه الاختياري إلى كولومبيا



مدينة مكسيكو تشرين الأول 1982 ألفارو موتيس يقتاد غابرييل ماركيز وميرثيديس لإبعادهما عن انتباه الإعلام



ستوكهولم كانون الأول 1982 (من اليسار إلى اليمين) جيم لاسترو خيرمان فارغاس غابرييل ماركيز تشارلز روسوف (خلف)، ألفونسو فوينمايور، بلينيو مندوثا، إليخيو غارسيا (خلف) وميرثيديس ميكو



ستوكهولم، كانون الأول 1982
غابرييل ماركيز يحتفل بجائزته



ستوكهولم

كانون الأول 1982 غابرييل غارسيا ماركيز في الدائرة والملك غوستاف السادس عشر يصفق





كارتخينا 1993 لويسا سانتياغا وأولادها. الصف الخلفي من اليسار إلى اليمين: جيم، ألفريدو، ليخيا، غابرييل ماركيز، غوستافو، هيرناندو، إليخيو، لويس إنريكي (الصف الأمامي من اليسار إلى اليمين) خيرمان، مارغوت، لويسا سانتياغا، ريتا، عايدة



بوغوتا منتصف عام 1980 غابرييل ماركيز ومرسيدس مع الرئيس بيتانكور وزوجته روزا



هافانا عام 1988 غابرييل ماركيز مع روبرت ردفورد



قصر العدل في بوغوتا تلتهمه النيران في 6 تشرين الثاني 1985 (خلال رئاسة بيتانكور) بعد أن أخلى الجيش المتمردين

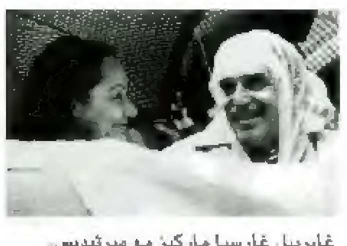


غابرييل ماركيز مع فيدل كاسترو في الكاريبي عام 1983

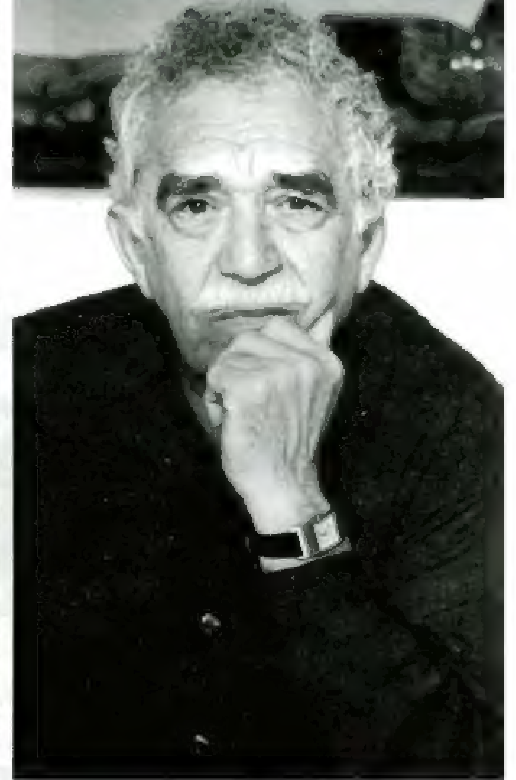


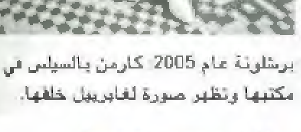


بوغوتا عام 1992:
غابرييل غارسيا ماركيز
يلوّح إلى مريديه في
مسرح جورجي جيتان.



غابرييل غارسيا ماركيز مع ميرثيديس.
بوغوتا عام 1993.





برشلونة عام 2005: كارمن بالسيلس في
مكتبها وتظهر صورة لغابرييل خلفها.



غابرييل غارسيا ماركيز، 1999.





هافانا عام 2007 غابرييل يزور صديقه المريض فيدل قبل سفره إلى كارتاجينا لمناسبة ذكرى مولده الثمانين.



كارتاجينا، آذار 2007: غابرييل ماركيز مع الملك الإسباني خوان كارلوس.



كارتاجينا، آذار 2007: غابرييل ماركيز مع بيل كلينتون



كارتاجينا، 26 آذار 2007: غابرييل ماركيز يلوّح إلى محبيه بمناسبة بلوغه الثمانين من عمره





رسالة مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عزيزي القارئ:

في عصر يتسم بالمعرفة والمعلوماتية والانفتاح على الآخر، تنظر مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم إلى الترجمة على أنها الوسيلة المثلى لاستيعاب المعارف العالمية، فهي من أهم أدوات النهضة المنشودة، وتؤمن المؤسسة بأن إحياء حركة الترجمة، وجعلها محركاً فاعلاً من محركات التنمية واقتصاد المعرفة في الوطن العربي، مشروع بالغ الأهمية ولا ينبغي الإمعان في تأخيره.

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية مجتمعة، في العام الواحد، لا يتعدى كتاباً واحداً لكل مليون شخص، بينما تترجم دول منفردة في العالم أضعاف ما تترجمه الدول العربية جميعها.

أطلقت المؤسسة برنامج «ترجم» بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدّمه الفكر العالمي من معارف وعلوم، عبر نقلها إلى العربية، والعمل على إظهار الوجه الحضاري للأمة عن طريق ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم.

ومن التباشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من اللغات العالمية إلى اللغة العربية خلال ثلاث سنوات، أي بمعدل كتاب في اليوم الواحد.

وتأمل مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم في أن يكون هذا البرنامج الاستراتيجي تجسيداً عملياً لرسالة المؤسسة المتمثلة في تمكين الأجيال القادمة من ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات، عن طريق نشر المعرفة، ورعاية الأفكار الخلاقة التي تقود إلى إبداعات حقيقية، إضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات.

للمزيد من المعلومات عن برنامج «ترجم»، والبرامج الأخرى المنضوية تحت قطاع إنتاج المعرفة، يمكن زيارة موقع المؤسسة www.mbrfoundation.ae

عن المؤسسة

انطلقت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بمبادرة كريمة من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، وقد أعلن صاحب السمو عن تأسيسها، لأول مرة، في كلمته أمام المنتدى الاقتصادي العالمي في البحر الميت - الأردن في أيار/ مايو 2007. وتحظى هذه المؤسسة باهتمام ودعم كبيرين من سموه، وقد قام بتخصيص وقف لها قدره 37 مليار درهم (10 مليارات دولار).

وتسعى مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، كما أراد لها مؤسسها، إلى تمكين الأجيال الشابة في الوطن العربي من امتلاك المعرفة وتوظيفها بأفضل وجه ممكن لمواجهة تحديات التنمية، وابتكار حلول مستدامة مستمدة من الواقع، للتعامل مع التحديات التي تواجه مجتمعاتهم.



GABRIEL GARCÍA MÁRQUEZ

A Life

GERALD MARTIN

في مطلع شهر آب / أغسطس 1966، ذهب غارسيا ماركيز بصحبة زوجته ميرثيديس إلى مكتب البريد ليرسل إلى العاصمة بوينس آيرس مخطوطة كتابه الجديد «مائة عام من العزلة». كانا في حالة يرثى لها وأشبه بناجيين من كارثة. ضمّت الرزمة 490 صفحة منضّدة. «اثنان وثمانون بيزوساً»، طلب موظف البريد. راقبَ غارسيا ماركيز ميرثيديس وهي تبحث في حقيبة يدها عن المال. لم يكن لديهما سوى خمسون بيزوساً، لذلك لم يكن باستطاعتهما إرسال سوى نصف الكتاب: فجعل غارسيا ماركيز موظف البريد يقتطع الصفحات من المخطوطة كما تُقتطع شرائح اللحم المقدّد حتى بقي ما يمكن إرساله بخمسين بيزوساً. وعندما عادا إلى المنزل، رهنا جهاز التدفئة، ومجفّف الشعر والعصّارة، ثم عادا إلى مكتب البريد لإرسال ما تبقّى. عند خروجهما من مكتب البريد، توقفت ميرثيديس والتفتت إلى زوجها قائلة: «غابو، لا ينقصنا الآن سوى أن يكون الكتاب سيئاً».

ISBN 978-9953-87-892-8

9 789953 878928





